

تاريخ
الأدب
العربي

٥

دكتور شوقي ضيف

عصر

الدول والإمارات

الجزيرة العربية - العراق - إيران



دار المعارف

تاريخ
الأدب العربي
٥

عصر
الدول والإمارات
الجزيرة العربية - العراق - إيران

تأليف
الدكتور شوقي ضيف

الطبعة الثانية



دارالمعارف

عصر
الدول والإمارات

الجزيرة العربية - العراق - إيران

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

هذا هو الجزء الخامس من تاريخ الأدب العربي ، وهو خاص بالجزيرة العربية والعراق وإيران في عصر الدول والإمارات الممتد من سنة ٣٣٤ للهجرة إلى العصر الحديث . وكان المؤرخون للأدب العربي يدخلون منه نحو ثلاثة قرون في العصر العباسي الثاني منتهين به حتى سنة ٦٥٦ حين أغار قُطعان التتار على بغداد وقوّضوا ما كان فيها من مدينة وحضارة . وكان هؤلاء المؤرخون يسمون الحقب التالية حتى الغزو العثماني لمصر والشام والعراق باسم العصر المغولي ، وسموا فترة حكم العثمانيين لتلك البلدان باسم العصر العثماني . وكل ذلك تصور مخطئ ، لأن سلطان الخلافة العباسية تنقلص ظلالة منذ سنة ٣٣٤ بحيث لا يكاد يبقى للخلفاء العباسيين منه في كثير من الأمر سوى بغداد ، فقد كانت إيران بيد بنى بويه ونفس العراق أظله سلطانهم ، وكانت البحرين واليمامة بيد القرامطة ، وكانت الموصل وحلب بيد الحمدانيين ، ومصر والشام بيد الإخشيد ، والمغرب وإفريقيا بيد الفاطميين ، والأندلس بيد عبد الرحمن الناصر . وتعاقبت دول كثيرة في اليمن وفي أنحاء الجزيرة العربية ، وبالمثل في كل البلدان والأقاليم المذكورة ، بحيث يصبح من الخطأ أن تنسب القرون : الرابع والخامس والسادس حتى منتصف السابع إلى الخلافة العباسية ، وحتى ما بقي لها من اعتراف بالولاء في بعض الدول والإمارات إنما كان اعترافاً اسمياً ، لا يدل على أى سلطان وراءه . ومن الخطأ الإبقاء على تسمية القرون الثلاثة التالية لغزو التتار بغداد باسم العصر المغولي ، بينما كان سلطان المغول فيها لا يتجاوز إيران والعراق دون بقية العالم العربي ، وتلك البقية هي الشطر الأكبر منه : الجزيرة العربية والشام ومصر والمغرب والأندلس ، لذلك رأينا أن ندمج العصر المغولي في عصر الدول والإمارات ، لأن هذه التسمية هي الألفق بالعصر ، وهي أكثر دقة ومطابقة للواقع . وبالمثل أدجننا فيه ما سُمي بالعصر العثماني ، لأنه لم يكن عصرًا بالمعنى الحقيقي ، وإنما كان حقبة مظلمة ، تنتم لعصر الدول والإمارات ، وثمرة مرة لما أصاب العرب فيه من انقسام وتفكك .

وحقاً يكون عصر الدول والإمارات في تاريخ الأدب العربي بذلك عصراً طويلاً ، غير أن طوله لا يعني أى تفاصيل روحى أو فكرى بين دوله وإماراته ، فقد كان هناك دائماً شعور عام في كل مكان بأن هذه الإمارات والدول جميعاً إنما هى وطن عربى واحد ، وطن لا تُحدث فيه الانقسامات أى تقاطع علمى أو أى تنابد أدبى ، وطن تتواصل أجزاؤه ووحداته تواصل الأفراد في أسرة واحدة . ولذلك مظاهر شتى ، فقد كان العلماء حين يؤلفون كتاب تراجم عاماً يجمعون فيه كل من عاشوا من النابهين في هذا الوطن الكبير ، وكانوا إذا ألفوا كتاباً في تراجم علم كالقراءات أو التفسير أو النحو أو حتى في فرع كفقهِ الشافعية أو المالكية أو الأحناف أو الحنابلة جمعوا فيه علماء في جميع البلدان العربية ، وبالمثل حين يؤلفون أحياناً في تراجم الشعراء يجمعون في مؤلفاتهم كل الشعراء في جميع الأقاليم العربية ، متناسين ، بل مهملين ، الفواصل السياسية والجغرافية بين الأقاليم والبلدان ، وكأنها في رأيهم أقواس وهمية في المخططات السياسية والجغرافية ، لا تدل أى دلالة على فوارق علمية أو أدبية . ومظهر ثان ، هو أن الكتاب حين كان يؤلف يصبح ملكاً لعلماء العالم العربى جميعهم ، فهم يشرحونه أو يشرحون شرحه أو يكتبون تقارير عليه ، يشترك في ذلك قاصيهم ودانيهم ومن في أقصى المشرق ومن في أقصى المغرب ، ونضرب لذلك مثلاً كتاب أو متن التلخيص في علوم البلاغة للقرظوبى الدمشقى المتوفى في القرن الثامن الهجرى ، فقد شرحه علماء من مصر ومن المغرب ومن أقصى المشرق ، فهو ليس كتاب دمشق وحدها بل هو كتاب البلدان العربية جميعها . ونضرب مثلاً ثانياً ديوان المتنبي فإنه لم يكذب بقى بلد عربى إلا وتجرد له عالم من علمائه يشرحه ويعرض شرحه على الطلاب ، ومن أهم شروحه شرح ابن جنى والعكبرى في العراق وشرح ابن المستوفى في إربل وشرح أبى العلاء المعرى في الشام وشرح الواحدى في إيران وشرح الإفلىلى وابن سيدة في الأندلس ، غير شروح أخرى ، وغير دراسات نقدية لا تكاد تُخصى ، وكأن ديوانه ليس ديوان بلد بعينه ، وإنما هو ديوان الأمة العربية جميعها . وليس ذلك فحسب ، فإن ابن هانئ الأندلسى توفى بعده بنحو ثمانية أعوام ، وقد درس شعره وتمثل منهجه تمثلاً تاماً ، بحيث كان ينظم أشعاره على غرارهِ ، وبحيث سماه النقاد متنبى الأندلس . وكل ذلك يصور بقوة وحدة الشعور والفكر في هذا العصر المتطاوّل عصر الدول والإمارات ، وهى وحدة ظل الشعر كما ظل النثر ، وظل الأدب كما ظل العلم ، مرآتها الصافية .

وإذا كنا قد أفردنا للجزيرة العربية والعراق وإيران جزءاً في هذا العصر ، فسنفرد لمصر

والشام جزءاً ثانياً وللأندلس والمغرب جزءاً ثالثاً ، وقد بدأنا حديثنا عن الجزيرة العربية بعرض الحياة السياسية لأقاليمها الأساسية في هذا العصر ، وهي الحجاز ونَجْد واليمن وحَضْرَمَوْت وظَفَّار وعُمان والبحرين ، وعرضنا مجتمعها البدوي والحضري وما كان فيها من نحل شيعة وخارجية وما شاع في نجد من الدعوة الوهابية ، وما حَفَّ بذلك من زهد ونسك . وصوّرنا جداول الثقافة التي كانت تجري في كل مكان ومارافقها من نشاط العلوم اللغوية والإسلامية . كما صورنا نشاط الشعر في الأقاليم المختلفة للجزيرة وطوائفه المتقابلة من شعراء مديح ورتاء وفخر وهجاء وأهم شعراء الدعوات المختلفة من إسماعيليين وزيديين وخوارج ووهابيين ، وبالمثل شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية . وأوضحنا ما كان من نشاط للكتابة في نجد وغيرها من أقاليم الجزيرة وما كان من نمو كتابة الرسائل الديوانية والشخصية ، ونمو الوعظ والمحاورات والرسائل الأدبية .

وبالمثل تحدثنا عن العراق وحياتها السياسية وما تعاقب عليها من دول وكيف أن مجتمعها كان يتألف من ثلاث طبقات : عليا مرفهة ، ووسطى على شيء من اليسار ، ودنيا بائسة ، وشيوع المذهب الإمامي الاثني عشرى بها وشيوع الزهد والتصوف وطرقه ، وما كان من نشاط الحركة العلمية بها وتأسيس جامعي النظامية والمستنصرية ببغداد ، وكثرة المدارس هناك مع ما كان في المساجد من نشاط علمي واسع ، بحيث أصبحت الثقافة - حتى الثقافة الفلسفية - غذاء شعبياً عاماً . وتكاثر ببغداد الندوات الفكرية ، وتكاثر الكتابات الفلسفية والطبية والعلمية ، كما تكاثر البحوث اللغوية والنحوية والنقدية ، وتنشط الدراسات الإسلامية والتاريخية . ويكثر الشعراء في العراق كثرة مفرطة وينظمون في الرباعيات والموشحات . وتتقابل طوائفهم من شعراء مديح على رأسهم المتنبي إلى شعراء رثاء وهجاء وشكوى ، وشعراء غزل وقد نفذوا إلى ضرب جديد من الشعر الوجداني . ويجانبهم شعراء هو ومجون ، وشعراء زهد وتصوف ومدائح نبوية ، وشعراء فلسفة وشعر تعليمي ، وشعراء شعبيون . ويتنوع النثر تنوعاً واسعاً ، فمن نثر فلسفي إلى نثر علمي ومناظرات ووعظ وقصص ورسائل شخصية وديوانية ، وتتألق أسماء طائفة من الكتاب النابهين .

وتحدثنا عن إيران وأحوالها السياسية والدول المتقابلة بها والمتعاقبة ، وعن مجتمعها والطبقات التي كانت تكوّنه : العليا والوسطى والدنيا ، وعن نشاط الشيعة بها : الزيدية والإمامية والإسماعيلية وما كان يَسْرِي فيها من زهد وتصوف . وعرضنا الحركة العلمية بها والعناية بالمدارس والمكتبات وما حدث هناك من نشاط في دراسة الفلسفة وعلوم الأوائل ، وفي وضع المعاجم والبحوث اللغوية والنحوية والبلاغية والنقدية ، وفي الدراسات

الإسلامية والكتابة التاريخية . ويزدهر الشعر بإيران في القرنين الرابع والخامس للهجرة ، ويظل حياً نامياً حتى القرن التاسع ، ويتكاثر شعراء المديح والرثاء والفخر والمهجاء والشكوى والغزل واللهو والمجون والزهد والتصوف والفلسفة والحكمة والأمثال وأصحاب الشعر الشعبي . ويتنوع النثر ويظهر فيه قصص صوفى كثير وقصص فلسفى بديع ويتكاثر كُتّاب الرسائل الديوانية والشخصية ، ويلمع فى كل دولة وإمارة غير كاتب بارع . وهذه الدراسة المتشعبة لتاريخ الأدب العربى فى الجزيرة العربية والعراق وإيران طوال حقبة ممتدة من العصر العباسى الثانى إلى العصر الحديث جعلتنى أرجع إلى كل ما استطعت من كتب التاريخ والجغرافية والثقافة والأدب شعرا ونثرا لأجمع منها المادة العلمية التى تتطلبها الدراسة . ورجعت إلى طائفة من كتب المحدثين من العرب والمستشرقين . وأعترف بأن عقبات كثيرة صادفتنى وخاصة فى المصادر والحصول عليها ، وقتلتها أحيانا فى بعض الجوانب . وقد حاولت جهدى أن أرسم المعالم الأساسية لتاريخ الأدب فى تلك الأقاليم أثناء هذه الحقبة المتطاولة ، ولا أزعم أننى استطعت أن أوفى هذا الرسم حقه كاملا من الدقة والاستقصاء . واللهُ وليُّ الهدى والتوفيق .

شوقى ضيف

القاهرة فى أول يونية سنة ١٩٨٠ م .

القسم الأول

الجزيرة العربية

الفصل الأول

السياسة والمجتمع

١

أقاليم ودول وإمارات

تتعدد الأقاليم في الجزيرة العربية لاتساع رقعتها ، ففي الغرب إقليم الحجاز بمدنه وسلسلة جباله المسماة بالسَّراة الممتدة من الشمال إلى الجنوب ، مشرفة غرباً على منطقة ساحلية رملية ضيقة ، هي تهامة التي تفصل بينها وبين بحر القُلْزَم (البحر الأحمر) ومشرفة شرقاً على هضبة نجد الفسيحة التي تظل تنحدر نحو الشرق ، حتى تصاقب أرض العَروض : اليمامة والبَحْرين ، وتظل تنبطح شمالاً في إقليم القصيم حتى جبال أجا وسلمى ، وتلتقي بصحراء النفود الممتدة من تيماء إلى الشرق ، حتى إذا قربت من العراق بسطت ذراعاً لها نحو الجنوب تسمى الدهناء أو رملة عالج ، وتستدير حول اليمامة منبطقة في الربع الخالي ، وهو صحراء مجدبة تفصل بين اليمامة ونجد من جهة وبين حَضْرَمَوْت وظَفَّار وعُمان من جهة ثانية ، وما تلبث أن تتصل بصحراء الأحقاف التي تفصل بين اليمن وبين نجد والحجاز . وتستقل اليمن بالزاوية الجنوبية الغربية من الجزيرة ، وتتوسط حَضْرَمَوْت ومعها ظفار بينها وبين عُمان التي تشرف على المحيط الهندي من جهة وعلى الخليج العربي من جهة ثانية ، وكانت تشمل قديماً طائفة من الإمارات القائمة الآن على الخليج ، وهي رأس الخيمة والشارقة ودُبَيّ وأبو ظبَيّ . وشمالاً هذه الإمارات البحرين ، وكانت تشمل إمارة قَطَر الحالية وإمارة الكُوَيْت الحديثة ، وكذلك الأحساء . والأقاليم الأساسية في الجزيرة العربية لهذا العصر الممتد من سنة ٣٣٤ للهجرة إلى العصر الحديث هي الحجاز ونجد واليمن وحَضْرَمَوْت وعُمان والبَحْرين ، وسنخصص كل إقليم بطرف من الحديث عن دوله وإماراته .

الحجاز^(١) وإماراته

كانت في الحجاز لهذا العصر إمارتان : إمارة مكة وكانت تتبعها قرى الطائف وجدة وبطن نخل وعُسفان ومُرَّ الظَّهران . وإمارة المدينة وكانت تتبعها قرى خيبر وفَدَك ويَنبُع والقرع ووادي القرى ومدّين . وكانت إمارة مكة للحسينيين من أحفاد الحسن بن علي بن أبي طالب في حين كانت إمارة المدينة للحسينيين من أحفاد الحسين بن علي بن أبي طالب . وكان الأولون يعتقدون المذهب الزيدي الشيعي ، بينما كان الثانون يعتقدون المذهب الإسماعيلي على الأقل في عصر الدولة الفاطمية . وكان لإمارة مكة المكانة الأولى ، إذ كان المسلمون - ولا يزالون - يؤمنونها سنوياً من بقاع الأرض قاصيها ودانيها لأداء فريضة الحج ، وكان مَنْ يُدعى له من الخلفاء على منابرهما سواء الخلفاء العباسيون أو الفاطميون يعد نفسه خليفة المسلمين قاطبة .

وأول أسرة حسنية حكمت مكة لهذا العصر هي أسرة بني سليمان أو بني موسى ، وكان أول من حكمها منهم جعفر بن محمد بن الحسين لسنة ٣٥٦ فقد غلب عليها عقب وفاة كافور الإخشيدي ، وراسله الخليفة المعز الفاطمي كي يقيم باسمه الخطبة في موسم الحج ، فأبى ، مما جعله يجهّز له عسكرياً لحربه سنة ٣٦٠ وساعد العسكر بنو الحسين أمراء المدينة ، واستولوا على مكة فترة قليلة عادت بعدها إلى جعفر . وتولى بعده ابنه عيسى سنة ٣٧٠ فأذعن للعزیز الفاطمي ، وأقام الخطبة باسمه ، وظلت تقام باسم الفاطميين مدة متطاولة ، وكانوا يرسلون لمكة وأميرها بالميرة ، ومضت تدين لهم بالولاء بعد وفاة عيسى وولاية أخيه أبي الفتوح الحسن بن جعفر سنة ٣٨٤ وهو أهم أمراء الأسرة ، وقد حاول أتباع الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي أن يحملوه على أن يقرأ سجلاً في المسجد الحرام بالبراءة من أبي بكر وعمر وسبب بعض الصحابة وبعض أزواج الرسول ﷺ ، فرفض ذلك وقطع

الوفا بأخبار دار المصطفى للسهمودي (طبع مطبعة المؤيد)
وخلاصة الكلام في أمراء البيت الحرام لابن زبني دحلان
وماضي الحجاز وحاضره للشيخ حسين محمد نصيف وقلب
جزيرة العرب لفؤاد حمزة ومقدمة تاريخ العرب
الحديث - الجزء الأول - للدكتور عبد الكريم غرابية
ومعجم الأنساب والأسرات الحاكمة لزامباور (الترجمة
العربية - طبع القاهرة) .

(١) انظر في أمراء مكة والمدينة تاريخ ابن الأثير وتاريخ
ابن خلدون (طبعة بولاق) الجزء الرابع والقاسي في
كتابه : شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام (طبع دار إحياء
الكتب العربية بالقاهرة) والعقد اللين في تاريخ البلد
الأمين (طبع القاهرة) وصبح الأعشى للقلقشندي في
مواضع متفرقة والدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن
حجر والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي (طبع دار الكتب
المصرية) ومعجم البلدان لياقوت في مكة والمدينة ووفاء

صلته بمصر. ودفعه - فيما بعد - أبو القاسم المغربي حين فر من مصر على أن يطلب الخلافة لنفسه ، فخطب باسمه ، وتلقب بالراشد بالله ، وسار إلى مدينة الرملة بفلسطين ، وعاهده أميرها وأمير طيئ حسان بن مفرج على نصرته . وعلم بذلك الحاكم فأرسل إلى ابن مفرج بالأموال ، ففرض يده من أبي الفتوح وأسلمه إلى المصريين ، وفر أبو القاسم المغربي إلى العراق . واضطر أبو الفتوح أن يعلن طاعته للحاكم ، فعفا عنه وعاد إلى إمارته . وحدث بعد عودته في سنة ٤١٣ أن ضرب رجل من شيعة الفاطميين في أثناء الحج الحجر الأسود بدبوس ، فصدعه وهو يقول : إلى متى تُعبَدُ ؟ إلى كم تقبل ؟ وبادر الناس إليه فقتلوه هو ونفراً من أصحابه . وما زال أبو الفتوح يلي مكة حتى سنة ٤٣٠ وخلفه ابنه شكر على إمارته ، وأضاف إليها المدينة لمدة ثلاث وعشرين سنة كان يجمع فيها بين الحرمين إلى أن توفي سنة ٤٥٣ وكان فارساً وأديباً شاعراً ، وله قصة ترويحاً كتب التاريخ عن زواجه من جارية هلالية تسمى الجازية ، وهي نواة قصص أبي زيد الهلالي . وبشكر انقضت سلالته وحُكْمُها في مكة إذ لم يعقب ولداً ، وصار أمرها بعده إلى عبد له ، غير أن فرعاً من الأسرة الحسينية من بني هاشم أو الهواشم تغلب على هذا العبد واضطر بني سليمان إلى الهجرة من مكة إلى شمالي اليمن ، فأسسوا لهم إمارة هناك في الخلاف السلیماني المنسوب إليهم . وكان أحد الهاشميين ، وهو محمد بن جعفر قد تولى أمر مكة بمساعدة الصليحي أمير اليمن سنة ٤٥٤ ويقول المؤرخون إنه كان تارة يجعل الخطبة في الموسم باسم الخلفاء الفاطميين وتارة باسم الخلفاء العباسيين ، تبعاً لما كان يُغدق عليه من أموال وفيرة من بغداد أو القاهرة ، إذ كان كل من الجانبين يكثر من إرسال الميرة والأموال إليه . واستطاع أن يجمع في ظل حكمه الحرمين وأن تكون له الإمارة على مكة والمدينة وقرأهما ، وبذلك اجتمع له الحجاز . وولى بعده ابنه القاسم سنة ٤٨٧ حتى سنة ٥١٨ وكانت الخطبة في عهده تارة تكون باسم الفاطميين ، وتارة باسم العباسيين . وخلفه ابنه أبو فليته ، فيجعل الخطبة باسم العباسيين حتى وفاته سنة ٥٢٧ . واتصلت الخطبة باسم بني العباس في عهد ابنه القاسم حتى قُتل سنة ٥٥٦ . وخلفه ابنه عيسى ، وفي عهده انتهت دولة الفاطميين وحكم مصر صلاح الدين واستولى على الحجاز ومدينتيه : مكة والمدينة ، ثم استولى على اليمن . وبظل أبناء عيسى يلون مكة ، فيخلفه ابنه داود سنة ٥٧٠ وفي عهده يبطل صلاح الدين المكوس التي كانت تؤخذ من الحجاج بجدة ، ويعوّض عنها في كل سنة ثمانية آلاف أردب قمحاً ، ويرسل صلاح الدين مثل ذلك إلى أهل الحرمين . ويدخل سيف الدين طغتكين الأيوبي مكة سنة ٥٨٢ ويبطل فيها الأذان بحى على خير العمل ، عملاً بأذان أهل السنة أو الجماعة .

ويخلف داود أخوه مكث سنة ٥٨٤ ثم ابن أخيه المنصور بن داود . ومنه انتزع مكة قتادة الحسنى سنة ٥٩٧ وظلت إمارتها في أبنائه إلى العصر الحديث .

وقد استطاع قتادة أن يضم تحت جناح إمارته المدينة والحجاز جميعه ، وكان يخطب للسلطان العادل بن أيوب بعد الخليفة الناصر ، وللكامل بن العادل سلطان مصر بعد أبيه ، وكان يؤذن في الحرم بحجى على خير العمل على قاعدة الإسماعيلية كما يقول صاحب النجوم الزاهرة ، وأيضاً على قاعدة الزيدية من آبائه . وخلفه ابنه الحسن سنة ٦١٧ ونشبت الحرب بينه وبين مسعود الأيوبي أمير اليمن سنة ٦٢٠ واستولى منه مسعود على مكة والحجاز ، وولّى عليهما على بن رسول ثم طغتكين التركي . وعادت مكة إلى بني قتادة ، ووليها راجح ابن قتادة سنة ٦٢٦ وظلت تنتقل بينه وبين أخيه على وجاز ابن أخيه الحسن ثم ابنه راجح حتى سنة ٦٥٢ . وفي كل هذه الفترة كان أمراء مكة يولّون من قبل العباسيين حتى انقراض دولتهم سنة ٦٥٦ . وكانت مصر بعد ذلك في عهد السلاطين المماليك هي التي توليهم ، وكانوا يعيّنون بحكاماً لحماية الحجاج وتنفيذ الأوامر السلطانية . ومن أهم أمراء الأسرة أبو نعيم الأول الذى ولى مكة سنة ٦٥٢ وثبته عليها السلطان بيبرس ، وظل يلى شؤونها خمسين عاماً ، ويقول صاحب النجوم الزاهرة : كان يقال لولا أنه زيدى النحلة لصلح للخلافة لحسن صفاته . وروى له الفاسى بترجمته في كتابه العقد الثمين ميمناً أقسمه للسلطان قلاوون صاحب مصر أشبه بعهد موثق : أن يحمى الحجاج ويؤمنهم ، وأن يظل على طاعته وطاعة ابنه الصالح . وكان شاعراً جواداً ، ومدحه شعراء كثيرون في مقدمتهم الحنيدى . ويخلفه في سنة ٧٠١ ولداه : رُمَيْثَة وعُطَيْفَة ، ويرسل السلطان الناصر بن قلاوون إلى مكة في سنة ٧٠٢ عشرة آلاف أردب قمحاً تفرّق في أهلها . ويستقل رميثة بمكة سنة ٧١٥ ويُقبض عليه في سنة ٧١٨ ويرسل إلى مصر ، ويتولّاها أخوه حُمَيْصَة . وتردّ مكة إلى رميثة . ويبلغ الناصر في سنة ٧٣١ أنه يجهر بمذهب الزيدية ، فينكر ذلك عليه ، ويرسل إليه عسكرياً . ويحج السلطان سنة ٧٣٢ ويأمر بأن يشترك معه أخوه عطيفة في الإمارة ، حتى إذا كانت سنة ٧٣٨ انفرد بها ثانية رميثة حتى سنة ٧٤٤ إذ ترك الإمارة لولديه : ثَقَبَة وعجلان . ويتوفى سنة ٧٤٦ ويتأمر الأخوان على مكة ، ويجعلها المصريون لعجلان إذ كان ثقبه يعلن نصرته لمذهب الزيدية وأقام له خطيباً زيدياً يخطب الناس أيام الحج ، وقبض عليه المصريون ولكنه فر من سجنهم ، وعاد إلى شغبه مع أخيه عجلان حتى توفى سنة ٧٦٢ فخلص الأمر لعجلان . وكان بخلاف آبائه يحب أهل السنة ، وينصرهم على الشيعة الزيدية وغيرهم ، وكانت مصر ترسل إليه بالميرة وبالمحمل على العادة . وكان

مَدْحًا ، مدحه النُّشُو شاعر مكة وغيره ، وأشرك معه ابنه أحمد في الحكم ، وما زال يلى
الإمارة حتى توفي سنة ٧٧٧ وخلفه ابنه أحمد حتى توفي سنة ٧٨٨ . ووليها بعده أخوه على
وشركه في الإمرة أخوه مغامس لمدة سنتين ، وما زال عليها حتى توفي سنة ٧٩٧ فخلفه
أخوه الحسن حتى وفاته سنة ٨٢٩ . ويتولاها بعده ابنه بركات حتى سنة ٨٥٩ ويخلفه ابنه
محمد حتى سنة ٩٠٣ فتصير لابنه بركات ، وأهم منه ابنه أَبُو نُمَيّْ الثاني الذي سافر إلى
مصر عقب استيلاء السلطان العثماني سليم الأول عليها سنة ٩٢٢ ليعلن تسليم الحرمين إليه .
وكانت إمارة مكة في العهد العثماني تتبع ولاية مصر والخلافة العثمانية ، ووليها ثلاث
أسر من أبناء نُمَيّْ : أسرة بركات ، ثم أسرة زيد ، ثم أسرة عون . وظلت الولاية في
الأسرة الأولى أكثر من مائة عام ، ثم نافستها أسرة زيد في القرن الحادي عشر وظلت
الإمارة تنتقل من بركاتي إلى زيدى حتى استقل بها بنو زيد ، وظلوا يلونها إلى زمن فتح
محمد على للحجاز في عام ١٢٢٧ هـ / ١٨١٢ م ويعين إبراهيم باشا قائد الجيش المصري
الشريف محمد بن عون عليه . وبذلك تنتقل الإمارة والحكم فيه إلى الأسرة الثالثة من أبناء
أبي نُمَيّْ ، ونقصد أسرة عون . وحين انسحب جيش محمد علي من الحجاز سنة ١٨٤٠
عينت الدولة العثمانية عليه والياً لها ، واستبقت الشريف محمد بن عون ، فكانت السلطة
ثنائية بينه وبين والي العثماني ، حتى وفاته سنة ١٢٧٤ هـ / ١٨٥٧ م . وما زالت الإمارة
في أبنائه حتى استخلصها سعود الثاني من حسين بن علي آخرهم لافي هذا العصر ، وإنما
في العصر الحديث ✕

وكانت إمارة المدينة أقل شأنًا من إمارة مكة ، وكانت الرياسة فيها لبني المهنا أحفاد
الحسين ، ويروى أن أحدهم وهو الحسن بن طاهر رحل إلى الإخشيد بمصر ، فأكرمه
وأقطعه ما يُغَلّ كل سنة مائة ألف دينار ، وتوفي سنة ٣٢٩ وانعدت مودة وثيقة بين ابنه
مسلم وكافور ، ويقال إن مسلماً كان يدعو للمعز صاحب إفريقية وفي هذا ما يشير إلى أن
هذه الأسرة كانت إسماعيلية الهوى ، ويقال أيضاً إنه دخل مصر فطلب منه كافور ابنته
لأحد أبنائه ، فردّه ، فحنق عليه ونكبه ، وهرب ابنه طاهر إلى المدينة ، فأمره الحسينيون
هناك عليهم ، واستقل بها حتى سنة ٣٨١ وخلفه عليها ابنه الحسن ، واختلف المؤرخون هل
الأمراء بعده من سلالة ابن عمه داود بن القاسم الذي يقال إنه وليها
بعده . ويذكر بعض المؤرخين أن الحاكم بأمر الله الفاطمي أمر الحسن بن جعفر السليمانى
أمير مكة بالإغارة على المدينة سنة ٣٩٠ فأغار عليها وأزال عنها إمارة بني المهنا ، غير أنها لم
تلبث أن عادت إليهم ، وظلت في أيديهم إلا فترات قليلة كانت تتبع فيها إمارة مكة .

وكانت الأسرة كما أسلفنا إسماعيلية ، وكان الفاطميون يولون أبناءها على المدينة ، الواحد تلو الآخر ، إذ كانوا من شيعتهم . ومن أهمهم منظور بن عمارة المتوفى سنة ٤٩٥ . وتنتهى الدولة الفاطمية على يد صلاح الدين وتدخل الحجاز فى طاعته ، ويُنْبَق على بنى مهنا أمراء للمدينة وكانوا يتولون إمارتها فى العهد الأيوبي من قبل الخلفاء العباسيين ، ومن أشهرهم حينئذ أبو فليته الذى حضر مع صلاح الدين فتح أنطاكية سنة ٥٨٤ وولى بعده ابنه سالم ، وكان شاعراً ، وكانت بينه وبين قتادة شريف مكة موقعة بذي الحليفة بالقرب من المدينة سنة ٦٠١ هزم فيها قتادة ، وفى ذلك يقول ملتاعاً :

مصارعُ آل المصطفى عُدُنَ مثلاً بَدَأَنَ ولكنَّ صِرْنَ بين الأقارب

ويقال إن سالماً حضر إلى مصر فى سنة ٦١٠ للشكوى من قتادة ، ومات فى طريق عودته قبل وصوله إلى المدينة ، وولى بعده ابنه شيحة وظل على المدينة حتى قتل سنة ٦٤٧ وخلفه ابنه عيسى ، وقبض عليه أخوه جَمَاز سنة ٦٤٩ وملك مكانه ، وهو الذى ظلت الإمرة بعده فى بيته ، وطال عمره حتى سنة ٧٠٤ وعُمى فى آخر أيامه ، وقدم مصر سنة ٦٩٢ فأكرمه سلطانها خليل وعظمه ، وقبل شفاعته فى أمير ينبع وفى أبى نُمى أمير مكة وكان قد غاب عن لقاء الركب المصرى . وخلفه ابنه منصور ، ووفد أخوه مقبل على الظاهر بيبرس (هكذا فى ابن خلدون وصبح الأعشى وهو المظفر بيبرس الجاشنكير) فأشرك بينهما فى الإمرة وفيما عَيَّنَه من إقطاع لأمير المدينة ، وغاب منصور عن المدينة لأمير واستخلف ابنه كبيشة ، فلحقها مقبل من يده ، ولحق كبيشة بأحياء العرب ، فنصروه على عمه وسقط قتيلاً سنة ٧٠٩ ورجع منصور إلى إمارته ، وظل بها حتى توفى سنة ٧٢٥ . ويكثر الخلاف بين أفراد هذه الأسرة وما يكاد يتولاها شخص منهم حتى ينقض عليه آخر . ويكنى أن نذكر من تولوا إمارتها حتى نهاية القرن الثامن على الترتيب كبيشة بن منصور ، وودى بن ججاز وطفيل بن منصور وسيف وفضل ومانع من عقب ججاز ، ثم ججاز بن منصور وهبة ابنه ، وهبة آخر من عقب ودى وعُطِيفَة بن منصور بن ججاز وهبة بن ججاز وججاز بن هبة بن ججاز ونُعَيْر بن منصور وثابت بن نعيم . وكثيراً ما كان يشب على الإمارة أحد هؤلاء الأربعة عشر والياً حتى سنة ٧٩٩ . ووراء هؤلاء أسماء أمراء للمدينة آخرين مثل محمد بن عطيفة المتوفى سنة ٧٨٨ وهباز بن هبة الله المتوفى بالسجن فى الإسكندرية سنة ٧٨٩ . وحقاً كانت تتبع الممالك وكانوا هم الذين يولون عليها الأمراء ، ولكن الأمر أفلت من أيديهم إزاء هذا الصراع الحاد ، فما يكادون يولون شخصاً حتى تقيم الأسرة شخصاً آخر وتطلب توليته ، ويفزع إلى القاهرة كى تلحق عليه وتنصبه أميراً . على كل حال

ساء الحكم في هذه الإمارة منذ القرن الثامن الهجري ، وكلما قطعنا شوطاً في الزمن اشتد سوءه ، حتى لنرى أحد أمراءها من أحفاد نُعَيْر المسمى الحسن بن الزبير يعتدى في يوم الثلاثاء السادس من ربيع الأول سنة ٩٠١ على حراس الحرم النبوي وينهب ما في الحجرة النبوية الطاهرة من تحف ونفائس . وتدهور الإمارة منذ هذا التاريخ وتدخل مع الحجاز في حكم الدولة العثمانية ، وتظل لهذا البيت الحسيني عليها إمارة اسمية . ويؤكد ابن خلدون والقلقشندي أنهم كانوا على مذهب الإمامية الرافضة ، بينما كان أمراء مكة زيدية ، ومربنا أن أمراء المدينة كانوا إسماعيلية ، ويبدو أنهم اعتنقوا المذهب الإسماعيلي في العهد الفاطمي حتى إذا انقضت الدولة الفاطمية تحولوا فيما بعد لإمامية اثني عشرية .

نجد وقبائلها وشيوخها ^(١) وإماراتها .

ظلت نجد تعيش حياتها الرعوية وتنتشر فيها قبائلها الباقية بعد من هاجر منهم في عصر الفتوح ، ولا نكاد نعرف شيئاً واضحاً عن هذه القبائل منذ أوائل هذا العصر الممتد من سنة ٣٣٤ للهجرة إلى العصر الحديث إلا ما يتصل برحلات هذه القبائل إلى الشرق وما كوّنته هناك من إمارات ، وكذلك ما يتصل برحلاتها إلى الغرب وقد مضت تغلغل فيه متجاوزة مصر إلى بلاد المغرب ، وأيضاً ما يتصل بقبيلة طيئ التي كانت تحتل منطقة جبلي أجا وسلمى وتنتشر في بوادي الشام والعراق ، وقد جعلتها مواطنها في هذه الأنحاء تتصل بدول العراق ومصر والشام .

ولعل أول ما نقرؤه من أخبار عن تحركات القبائل النجدية في هذا العصر يتصل ببني هلال بن عامر وأبناء عمومتهم عقيل وربيعة ، وكذلك ببني سليم . وكان العامريون ينزلون في جبل غزوان ، بينما كان بنو سليم ينزلون شرقي المدينة ، وكانوا جميعاً يطوفون بأطراف الجزيرة في العراق والشام ويغيرون على القرى هناك ، وكان بنو سليم يغيرون أحياناً على الحجاج في مواسم الحج . وكانت البعوث تجهّز لهم من بغداد للإيقاع بهم . ولما ظهر القرامطة بالبحرين تحيّر كثيرون من العامريين وبني سليم إليهم ، وصاروا جنداً لهم في البحرين وعُمان ، وحين أغار الأعصم القرمطي سنة ٣٦٠ على الشام ، وهزمته جيوش

لحسين بن غنام وعنوان المجد في تاريخ نجد لابن بشر وقلب جزيرة العرب لفؤاد حمزة ومقدمة تاريخ العرب الحديث - الجزء الأول (١٥٠٠ - ١٩١٨ م) للدكتور عبد الكريم غرايبة .

(١) انظر ابن خلدون وتاريخ ابن الأثير والمختصر في أخبار البشر لأبي الفدا والجزء الرابع من صبح الأعشى وذيبل تاريخ دمشق لابن القلانسي والنجوم الزاهرة لابن تغري بردى في مواضع متفرقة والخريدة للعماد الأصبهاني وابن خلكان في أمراء بني عقيل وبني أسد وروضة الأفكار

الفاطمين نقل الخليفة الفاطمي العزيز جنده من بني هلال وبني سليم إلى صعيد مصر ، وبعث بهم المستنصر بعده إلى المغرب ، فخربوا مدن تونس وملكت سلم شرق البلاد وبنيو هلال غريبها . وكان قد انضم إلى الأعصم في حربه للفاطمين شيخ طيبي : حسان بن الجراح ، حتى إذا انهزم الأعصم دنا من العزيز وأكرمه ، وتظل لبني الجراح رياستهم لطبيي وعرب بادية الشام طوال العهد الفاطمي ، ويتوفى حسان سنة ٣٦٧ ويخلفه أخوه دغفل المفرج ويستولى على الرملة بفلسطين ، ويتولى زعامة طيي بعده ابنه حسان سنة ٤٠٤ وكان يعين الفاطمين في حروبهم واستولى على عسقلان سنة ٤١٤ وعلى أفامية سنة ٤٢٢ ولا نجد له ذكراً بعد سنة ٤٣٣ ومن أهم شيوخ بيته بعده فضل بن ربيعة حليف قرواش صاحب الموصل .

❖ وإذا اتجهنا إلى الشرق وجدنا بني خفاجة من عقيل بن عامر وقد توغلوا نحو البصرة ، وزحزحتهم فتنة القرامطة صوب حدود العراق ، فلكوا ضواحيه ، وأصبحوا سادة الكوفة في ظل أميرهم عليان بن ثمال الخفاجي الذي أسس هناك إمارة بني ثمال سنة ٣٧٤ للهجرة وخلفه فيها أبنائه ، ونظل نسمع عن غاراتهم مع أبناء عمومتهم بني المتفق بن عامر بن عقيل طوال القرن الخامس الهجري وحتى منتصف القرن السادس إذ كانوا يغيرون على الأنبار والعراق إغارات متصلة ، وكانوا لا يزالون يتزلون في هذه الأنحاء في بطائح البصرة وواسط حتى عصر ابن خلدون متقلبين بنحياهم من مكان إلى مكان .

ونزحت قبائل وعشائر كثيرة لبني عقيل بن عامر إلى الموصل في الشمال الشرقي من الجزيرة واستطاعوا أن يقيموا لأنفسهم فيها إمارة كان أول أمرائها ومؤسسها أبا الزهّار محمد ابن المسيب العقيلي الذي تغلب على الموصل سنة ٣٨٠ وخلفه أخوه المقلد العقيلي الذي اتسعت مملكته ، وقد حارب بني خفاجة واضطروهم إلى الدخول في طاعته ، وكان شاعراً ومحباً لأهل الأدب وقتله أحد مماليكه الأتراك غيلة سنة ٣٩١ ورثاه الشريف الرضي بقصيدتين وجماعة من الشعراء . وخلفه ابنه قرواش ، وكان يمد سلطانه على الموصل جميعه والكوفة والمدائن وسيفي الفرات ، وأدب بني خفاجة مراراً ، وكان كريماً وهاباً نبأً ، كما كان شاعراً مجيداً . ودامت إمارته نحو خمسين سنة حتى قبض عليه أخوه بركة وحبسه في إحدى قلاع الموصل سنة ٤٤١ وتولى مكانه . وتوفى بعد سنتين ، فخلفه ابن أخ له يسمى قريش بن بدران ، وكان أول ما فعله قتل عمه قرواش وتوفى سنة ٤٥٣ فخلفه ابنه مسلم إلى أن قتل سنة ٤٧٨ وكان حسن السيرة عادلاً ، كما كان ممدحاً ، مدحه ابن حيّوس شاعر

الشام وغيره ، ولا نكاد نصل إلى نهاية القرن الخامس الهجرى حتى ينحسر ملك بنى عقيل ابن عامر عن الموصل ويعودوا إلى البادية أو البوادي ، ويقول ابن خلدون إنهم كانوا لعصره في الأجرام بين البصرة والكوفة المعروفة باسم البطائح .

❖ وإمارة ثالثة للبدو على حدود العراق أقاموها في أوائل القرن الخامس أقامها بنو أسد في أنحاء الحلة ، وكان أول من تصدى منهم لذلك على بن مزيد المتوفى سنة ٤٠٨ وخلفه ابنه نور الدولة دُبَيْس ، ويحالف بنى خفاجة على حرب قرواش العقيلي ويحرقان الأنبار انتقاماً منه . وينعقد صلح بين قرواش ودبيس ويهزمان جموعاً للغز ويمدح ابن الشبل البغدادى قرواشاً بهذا النصر المبين . وكان دبيس وأهل بيته وسائر أعماله شيعة ، مثله في ذلك مثل قرواش . ويمتد حكمه إلى سنة ٤٧٤ وكان يكتب بين يديه على بن أفلح الكاتب المشهور ، ويخلفه ابنه منصور بهاء الدولة ، ويفتك أسرى بنى عُقَيْل حين استولى العسكر السلطانى على حلّهم ويجهزهم ويردهم إلى ديارهم ، وقد تغنى الشعراء بهذه المأثرة طويلاً وما يلبث أن يتوفى سنة ٤٧٩ م خلفاً ذكرى طيبة ، غير شعر جيد كان ينظمه . وخلفه ابنه سيف الدولة صدقة ، وكان ذا بأس وسطوة ، وكان يقال له ملك العرب . وكان يسكن هو وآبأؤه قبله في البيوت العربية (الخيام) فبنى الحلة سنة ٤٩٥ وسكنها ، وله قدّم ابن الهبارية كتاب الصادح والباغم ، وتوفى سنة ٥٠١ وخلفه ابنه دُبَيْس وكان أديباً وجواداً كريماً ، وهو الذى عناه الحريرى بقوله في إحدى مقاماته - وهى المقامة العُمانية - والناس يحيطون بأبى زيد يشنون عليه ويقبلون يديه حتى : « خيل إلى أنه القرنى أُويس (واعظ أموى) أو الأسدى دُبَيْس » وقد اشترك فى مؤامرات كثيرة ضد السلاجقة والخليفة المسترشد ، مما دفع السلطان مسعوداً السلجوقى إلى العمل على اغتياله سنة ٥٢٩ . وولى بعده ابنه صدقة ، وسرعان ما ضعفت الأسرة ، وزايلت الحلة ، وعادت مع قومها إلى الحياة البدوية . ولا نعود نسمع بعد ذلك بإمارات عربية على الحدود العراقية الغربية .

❖ ونولّى وجوهنا فى العصرين الأيوبي والملوكى نحو بوادى الشام ومنازل طيىء فى جبل شمر أو جبلى أجاً وسلّمى ، ويذكر المؤرخون فخذين كبيرين من آل ربيعة الطائيين كانا يقومان على أحياء العرب فى بوادى الشام والعراق ، وهما آل فضل وآل مرأ ، وكانت منازل الأخيرين بوادى حوران ، وكانوا يسقطون منها جنوباً فى الصحراء ويوغلون حتى تصبح مكة المعظمة وراء ظهورهم ، وأهم شعبيهم آل أحمد بن حجى المتوفى سنة ٦٨٢ وكان صاحب المدينة الحسينى يؤدى له الحفر وكذلك أطراف الحجاز ، وكانت له منزلة عالية عند الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون . ويقول صاحب صبح الأعشى : آل مرأ أبطال

مناجيد ، ورجال صناديد ، وكثيراً ما يتحاربون مع أبناء عمهم فضل . ويريى القلقشندى عن الشهاب محمود الحلبي أنه حين غزا التتار الشام فى أيامه وكان بمحص أقبل من أهل مِرَازْهَاء أربعة آلاف فارس شاكين السلاح على الخيل المسومة والجياد المطهمة مقلدين بالسيف وفى أيديهم الرماح ومعهم الطعائن والحمول ومعهم مغنية تعرف بالخرمية طائفة السمعة سافرة فى الهودج تغنى أبياتاً حماسية .

وكانت ديار آل فضل الفخذ الكبير الثانى من طيئ تمتد من حمص إلى أطراف العراق وتهبط يساراً إلى البصرة وتستدير نحو منازل بنى تميم واليمامة ، وتشمل منازل غطفان مما إلى وادى القرى ، كما تشمل منازل بنى أسد ، وكان ينضم إليهم لقيف من قبائل العرب : من مذحج وعامر وزيد وغيرهم . وكان شيوخ هذا الفخذ يولون على إمرة العرب بتقليد من السلطان ، وأول من استن ذلك السلطان العادل بن أيوب ، إذ أقام على العرب أميراً منهم هو حديثه بن عقبه بن فضل ، وخلفه عيسى بن محمد ثم مانع بن حديثه المتوفى سنة ٦٣٠ وخلفه مهنا الذى حضر مع المظفر قطز قتال التتار فى عين جالوت . وولّى بعده الظاهر بيبرس ابنه عيسى . وكانت العادة السلطانية أن يكتب لمن يولّى تقليد شريف بذلك ، ويلبس تشريفاً أطلس أسوةً بالنواب إن كان حاضراً ويجهز إليه إن كان غائباً ، وتصدر إليه المكاتبات من الأبواب الشريفة ، وبالمثل كانوا يولون الأمراء على آل مِرَا . وكانوا يوفرون لهم الإقطاعات لحفظ السابلة وقوافل الحجاج وظل عيسى أميراً على العرب وآل فضل حتى سنة ٦٨٤ وخلفه لعهد المنصور قلاوون ابنه المهنا ، وفى الجزء الثانى عشر من صبح الأعشى مرسوم شريف بإمرته . ويخلفه فى سنة ٧١٢ فضل أخوه ، ويقال إن ابنه حجّ فى اثنى عشر ألف راحلة ، وظلت الإمارة فى طيئ طويلا .

ونسمع فى داخل نجد عن إمارات كثيرة بأنحاءها وقراها المختلفة فى اليمامة والعارض والوشم والقصيم يتنافس فيها الإخوة وأبناء العم ، ومن أهم تلك الإمارات إمارة الدُرعية التى تأسست فى منتصف القرن التاسع الهجرى ولا تمضى طويلا فى القرن الثانى عشر حتى نرى أميرها سعوداً يضم الواحات الصغيرة المجاورة لها تحت لوائه ، وتوفى سنة ١١٣٧ هـ / ١٧٢٥ م . وخلفه ابنه محمد ، وهو الذى تآزر مع محمد بن عبد الوهاب فى سنة ١١٥٨ هـ / ١٧٤٥ م على نشر العقيدة السلفية وقمع البدع ، وأخذاً يتعاونان فى ذلك حتى دان له أكثر نجد . وتوفى سنة ١١٧٩ هـ / ١٧٦٥ م ، وخلفه ابنه عبد العزيز ومضى فى نشر الدعوة بإقليم القصيم ووادى السرحان ، وفتح بلدة الرياض . ولم يلبث أن قُتل بيد شيعى سنة ١٢١٨ هـ / ١٨٠٣ م وولى بعده ابنه سعود ، وقد استطاع أن يمد لواء

سلطانته من أطراف عُمان ونجران واليمن إلى بادية الشام في أقصى الشمال من الجزيرة ، ومن الخليج العربي ونهر الفُرات إلى بحر القلزم (البحر الأحمر) واستولى على الطائف ومكة ، مما جعل الدولة العثمانية تستعين بمحمد علي واليها في مصر ، كي يستخلص الحجاز منه ، فأرسل إليه جيشاً بقيادة ابنه إبراهيم واستطاع الجيش الاستيلاء على المدينة ومكة سنة ١٢٢٧ هـ / ١٨١٢ م وسرعان ما توفي سعود في الدرعية سنة ١٢٢٩ هـ / ١٨١٤ م وتولى بعده ابنه عبد الله ، وفي عهده أخذت البلاد تسقط واحدة تلو الأخرى في يد إبراهيم باشا ، واستسلم عبد الله بن سعود ، وأرسل إلى القسطنطينية حيث قضى نحبه سنة ١٢٣٤ هـ / ١٨١٨ م . ويتولى حكم الدرعية تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود . وبذلك ينتقل الحكم في آل سعود من بيت عبد العزيز بن محمد إلى بيت أخيه عبد الله بن محمد ، ويبقى فيه إلى اليوم . وينشط تركي ، ويفتح الحسا والقُطيف ، ويعقد صلحا مع صالح بن علي أمير حائل وزعيم منطقة شمر أو جبل أجأو سلمى ويغتنال سنة ١٢٤٩ هـ / ١٨٣٣ م ويخلفه ابنه فيصل وكان ضعيفا ، فيأسره المصريون ثم يعيدونه إلى إمارته ويظل بها حتى عام ١٢٨٢ هـ / ١٨٦٥ م وهو عام وفاته . وتعبه فترة من الاضطرابات والفتن بين أبنائه استطاع في خلالها محمد بن رشيد صاحب حائل أن يبسط سلطانه على أكثر البلاد الخاضعة للسعوديين ، لولا أن هبَّ لا في هذا العصر بل في العصر الحديث التالى عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل فاسترد الرياض وكل ما فقد من إمارة آباءه .

اليمن ودولها^(١)

توزعت اليمن في هذا العصر دول كثيرة ، لعل أقدمها دولة بني زياد في زبيد (٢٠٣-٤١٢ هـ) وخلفهم عليها دولة آل نجاح (٤١٢-٥٥٤ هـ) ثم دولة بني مهدي

لبا محرمه (طبع ليدن) والمقتطف من تاريخ اليمن للجغرافى (طبع القاهرة) والمخلاف السلناني للعقبلى (طبع الرياض) وطرفة الأصحاب فى معرفة الأنساب لابن رسول (طبع دمشق) والصليحيون والحركة الفاطمية فى اليمن (طبع القاهرة) ومقدمة تاريخ العرب الحديث ، الجزء الأول للدكتور عبد الكرم غرايبة ومعجم البلدان ومعجم الأنساب والأسرات الحاكمة لزامباور .

(١) راجع فى اليمن ودولها تاريخ ابن الأثير وابن خلدون وصبح الأعشى فى جزءيه الرابع والخامس وابن خلكان فى التراجم المشهورة وتاريخ المستنصر لابن الجاور وتاريخ اليمن لعامة (نشرة كائى) وبلوغ المرام فى شرح مسك الحتام فيمن تولى ملك اليمن من ملك وإمام للقاضى العرشى والعقود اللؤلؤية للخزرجى (طبع القاهرة) وكتاب تاريخ اليمن لعبد الواسع البناي (طبع القاهرة) وأنباء الزمن فى أخبار اليمن ليحيى بن الحسين وتاريخ نقر عدن

الخوارج (٥٥٤-٥٦٩ هـ) ومنهم أخذها الأيوبيون وخلفهم عليها وعلى اليمن دولة آل رسول . ولصنعاء دولها هي الأخرى وأولها بنو يعفر (٢٥٢-٣٩٣ هـ) وتلتها دولة الصليحيين الإسماعيليين (٤٣٩-٥٣٢ هـ) . ثم دولة الهمدانيين (٤٩٢-٥٦٩ هـ) . وفي صعدة مستقر الزيدية دولة الرسيين منذ سنة ٢٨٨ ونازعهم عليها أبناء عمومتهم بنو سليمان منذ طردهم الهواشم بمكة ونزلوا الخلاف السلياني سنة ٤٥٠ وقد أزال على بن مهدي دولتهم منه . ثم عادوا إليه ، وقد ظل أئمة الرسيين يتوالون واحدا بعد الآخر حتى العصر الحديث . وفي عدن دولة بني زريع الإسماعيلية (٤٦٧-٥٦٩ هـ) . ومنهم أخذها الأيوبيون كما أخذوا صنعاء وصعدة عاصمة الرسيين . ونحن نسوق الحديث عن هذه الدول ، ثم تنتقل منها إلى الحديث عن الأيوبيين والرسوليين وبني طاهر والعصر العثماني ومقاومة الرسيين في صعدة للعثمانيين ، حتى استخلصوا منهم البلاد .

وينبدأ بدول زيد قبل الفتح الأيوبي ، وأولها دولة بني زياد ، ومؤسسها محمد بن زياد من نسل عبيد الله بن زياد حاكم العراق بعد وفاة أبيه زياد ، ولاه المأمون على اليمن سنة ٢٠٣ للهجرة فاستولى على تهامة وحضرموت ، ومن أهم أمراء هذه الدولة أبو الجيش إسحق بن إبراهيم (٢٩١-٣١٧ هـ) . وفي عهده استولى القرامطة على زيد سنة ٣٠٣ ثم تركوها . ودانت له اليمن : عدن وصنعاء وحكامها بنو يعفر وصعدة وحكامها الرسيون واتسعت جبايته حتى بلغت مليونين وثلثمائة وستة وستين ألفا من الدنانير ، سوى ما كان يحجيه من مراكب السند ومن العنبر المجلوب إلى عدن وباب المندب ومن الغوص على اللؤلؤ ومن جزيرة دهلك . وما زال الحكم في أسرته حتى تشاجر حجبته على الحكم ، وتغلب عليهم نجاح الحبشي سنة ٤١٢ وأسس دولة بني نجاح ، وما زال يحكمها حتى دس له بعض أنصار على بن الصليحي صاحب صنعاء السم ففتك به سنة ٤٥٢ واستولى الصليحي على زيد ، غير أن أبناء نجاح فروا إلى دهلك ، وأخذوا يحاولون استردادها واستطاعوا أن يغتالوا الصليحي في طريقه إلى الحج سنة ٤٥٩ واستطاع جيش بن نجاح أن يستعيد زيد من الصليحيين نهائيا سنة ٤٧٩ وكان شاعرا وكاتباً بليغا ، وصنف المفيد في أخبار زيد ، وبعث هو وأسرته ووزرائهم نهضة في زيد أدبية وعلمية ، ومن وزرائهم من الله الفاتكي وسرور وكانا مدحيين عاليي الهمة . وتوارث أبناء جيش الحكم حتى سنة ٥٥٤ إذ ملكها بنو مهدي وزال ملك بني نجاح . وقد نشأ مؤسس دولة بني مهدي - وهو على بن مهدي الحميري - في سواحل زيد على النسك والدين ، ولما شب أخذ في الوعظ فأجبه الناس والتفوا حوله ، وفكر في إقامة دولة لنفسه فاستولى على زيد وتسمى الإمام المهدي أمير

المؤمنين وقامع الكفرة والملحددين . وكان يؤمن بعقيدة الخوارج ويتبرأ من عثمان وعلى ، وكان يكفر بالمعاصي ، ويقتل من يقترب كبيرة ، وكذلك من خالف اعتقاده من أهل السنة ، وكان يستبيح نساءهم ويسترق أبناءهم وذرائعهم ، وكان أنصاره يعتقدون فيه العصمة ، ولم يلبث أن توفي بعد استيلائه على زييد بنحو ثلاثة أشهر ، وحين استولى عليها قتل قاضيها محمد بن أبي عقامة وابنه وكانا فاضلين . وخلفه ابنه مهدي ثم أخوه عبد النبي . وقد أغار في سنة ٥٦١ على الخلاف السلياني وقتل في الغارة أميره وهاس ابن غانم ، وأنشد في ذلك قصيدة رواها صاحب كتاب الخلاف السلياني ، ومازال على زييد حتى تسلمها منه توران شاه الأيوبي سنة ٥٦٩ للهجرة .

الدولة
اليعفرية

وأول دول صنعاء دولة بني يعفر التي أنشأها يعفر بن عبد الرحمن سنة ٢٥٢ وخلفه عليها أبنائه ، وحدث في سنة ٢٩٣ لعهد أسعد بن يعفر أن استولى القرامطة بإمرة على ابن الفضل على صنعاء . ولم يلبث أن ادعى النبوة ، وأباح لأصحابه شرب الخمر وزواج البنات ، وحط عن الناس - بزعمه - أركان الإسلام الأساسية : الصلاة والصيام والحج . وفي سنة ٣٠٣ هلك على يد حسني حجّام ، جعل له السم في الموضع . وعلم بذلك أسعد بن يعفر فاستنفر قبائل اليمن واسترد صنعاء وظل يحكمها حتى وفاته سنة ٣٣١ وخلفه عليها ابن أخيه عبد الله بن قحطان حتى قضى نحبه سنة ٣٨٧ وولى بعده ابنه أسعد ، وبوفاته سنة ٣٩٣ تنتهى دولة آل يعفر .

وتخلف دولة اليعفرين بصنعاء دولة الصليحيين ، أسسها على بن محمد الصليحي ، وقد نشأ فقها صالحاً بين قومه الهمدانيين وظل أمره ينمو في مفره بجبله منذ سنة ٤٣٩ وربما قبل ذلك بسنوات غير قليلة . وكتب إلى الخليفة المستنصر الفاطمي يستأذنه في الدعوة للمذهب الإسماعيلي ، فأذن له واتسع نفوذه واستولى على زييد ، كما أسلفنا ، من يد آل نجاح سنة ٤٥٢ كما استولى على صنعاء سنة ٤٥٤ واختط بها القصور واتخذها حاضرتة ، وعظم ملكه . واستولى على مكة سنة ٤٥٥ ليزيل منها الإمارة الحسنية الزيدية ثم تركها . وكانت زوجه أسماء من فضليات النساء ، وكانت ممدحة كريمة ، مدحها كثير من الشعراء . وخلفه ابنه المكرم سنة ٤٥٩ واتخذ جبله عاصمته ، وأصيب بمرض الفالج ، فقوض شئون دولته إلى زوجته الملكة الحرة أروى بنت أحمد الصليحي إلى أن توفي سنة ٤٨٤ فتولت بنفسها زمام الأمور ، وتزوجت سبأ بن أحمد الصليحي بأمر المستنصر الفاطمي ، وتوفي سنة ٤٩١ وأخذت تخرج عليها بعض القبائل وبعض البلدان ، واستولى بنو حاتم الهمدانيون على صنعاء سنة ٤٩٢ وظل يحكمها منهم حاتم بن غشيم الهمداني حتى سنة ٥٠٢ وخلفه أبنائه

عليها حتى تسلمها منهم توران شاه الأيوبي . وظل نجم الملكة الحرة يزداد أفولاً والدولة الصليحية تنفك أوصالها ، حتى لم يبق لها إلا بعض حصون قليلة ، وقد خرجت أكثر الحصون في الجنوب إلى بني زُرَّيع أصحاب عدن . وتوفيت الملكة الحرة سنة ٥٣٢ وبوفاتها انتهت الدولة الصليحية الإسماعيلية .

وحرى بنا أن نسوق الحديث إلى دولة الرُّسَّيين الزيدية بصَّعدة في اليمن ، ومؤسسها هناك الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم المولود بجبل الرُّسّ بالقرب من المدينة المنورة سنة ٢٤٥ في زمن جده القاسم الإمام الزيدى المعروف بمؤلفاته في المذهب الزيدى وفى الفقه . وقد خرج من موطنه إلى اليمن في سنة ٢٨٤ واستولى على صَّعدة وأسس بها إمامة الزيدية باليمن ، وتوفى سنة ٢٩٨ فخلفه ابنه محمد ثم أخوه أحمد ، فالإمام الهادي إلى الحق وهو المؤسس الحقيقي للدولة . وما تزال تلك الأسرة تتوارث الإمامة حتى يفد عليها أبو الفتح الديلمى سنة ٤٣٧ فيستخلص الإمارة لنفسه حتى وفاته ، ويخلفه عليها بنو سليمان أصحاب الخلاف السليمانى الزيديون وينسحب الرسيون إلى جبل قطابة ، وتتوالى أئمتهم هناك . وتتطور الظروف ويعود الرسيون إلى صعدة ، وتدخل صنعاء في حوزتهم مرارا . ومن أشهر أئمتهم المتوكل على الله (٥٣٢-٥٦٦ هـ) . وكان شاعرا محسنا ، وله مكاتبات شعرية مع نشوان بن سعيد الحميرى . ومن أئمتهم فى العهد الأيوبي الإمام المنصور بالله المتوفى سنة ٦١٤ . ومن مشهورهم فى عهد الدولة الرسولية الحسن ابن وهَّاس ، والموطئ الرسى الذى بويع بالإمامة سنة ٦٤٥ وكان قواما صواما عالما فقيها ، وظل الحكم بعده فى أبنائه وتتوالى أئمتهم فى عهد الدولتين : الرسولية والظاهرية ، وسعود إليهم بعد استيلاء العثمانيين على اليمن عقب فتحهم لمصر .

أما عدن فكانت قديما داراً لبني معن بن زائدة منذ ولايته عليها فى عهد المأمون ، وقد امتنعوا على بنى زياد أصحاب زَيد ، ولما استولى عليها الصُّلَّحى داعية الفاطميين قنع منهم بإتاوة يؤدونها ، ثم عزلهم عنها ابنه المكرم ، وجعلها للهمدانيين ، ولم يلبث فرع منهم هو فرع بنى زُرَّيع أن استخلصها لنفسه ، وكانوا إسماعيلية ، ومن أهم أمراءهم محمد بن سبأ (٥٣٣-٥٥٠ هـ) . وكان يتلقب بالداعى المعظم المتوج سيف أمير المؤمنين ، وقد اشترى حصن جبلة من الصليحيين ، وخلفه ابنه عمران ممدوح أبى بكر العيذى (٥٥٠-٥٦٥ هـ) . وكان يدبر دولته ودولة ابنه ياسر بن بلال ممدوح ابن قلاقس الشاعر المصرى وغيره من الشعراء . وحين قدم توران شاه إلى اليمن قبض عليه وانقطعت دولة بنى زريع . ويقال إن إيرادات عدن كانت مائة ألف دينار وارتفعت فى عهد الأيوبيين إلى

سُمِّتْهُ أَلْف . وحين فتح اليمن توران شاه الأيوبي سنة ٥٦٩ أقام لنفسه فيها نواباً في مدنها وحصونها ، وعادت إلى أحسن أحوالها من الخصب والعمارة والأمن ، غير أن الحكم فيها لم ينتظم تماماً لصلاحيات الدين إلا بعد أن أرسل إليها أخاه سيف الإسلام طغتكين ، فأقام بها منذ سنة ٥٧٨ ودخل كما مر بنا سنة ٥٨٢ مكة ومنع من الأذان فيها بحجاً على خير العمل » وهو أذان الزيدية والإسماعيلية وغيرهما من الشيعة ، وتوفي سنة ٥٩٣ وخلفه على اليمن ابنه إسماعيل وأساء السيرة فقتل سنة ٥٩٨ ووليها بعده ابن عمه سليمان ، وظلم الناس ، فولى السلطان الكامل صاحب مصر عليها ابنه الملك المسعود سنة ٦١٢ وأتاب عنه في بعض رحلاته إلى مصر نور الدين عمر بن علي بن رسول أحد قواده ، فمكَّن لنفسه فيها ، ولم يلبث أن استقل بها سنة ٦٢٦ للهجرة .

وتظل اليمن في قبضة الدولة الرسولية حتى سنة ٨٥٨ وقد اتخذ نور الدين تعزَّ بالقرب من إقليم عدن عاصمة له وتلقب بالملك المنصور واعترف به الخليفة العباسي سنة ٦٣٢ للهجرة وامتدت مملكته من مكة إلى حضرموت . وكانت الحرب كثيراً ما تنشب بين الرسولين وبين الأئمة في صعدة . وقتله مملكته سنة ٦٤٧ وخلفه ابنه الملك المظفر يوسف وهو صاحب جامع المظفرية بتعزَّ ، وبنى جوامع ومدارس كثيرة في مدن اليمن ، وفتح ظفار في أقصى بلاد حضرموت ونسبت بينه وبين أئمة اليمن حروب كثيرة ، وتوفي سنة ٦٩٤ فخلفه الملك الأشرف لمدة عامين فالملك المؤيد حتى سنة ٧٢١ وكانت له مشاركة حسنة في العلوم والفنون ، فالملك المجاهد حتى سنة ٧٦٤ فالملك الأفضل ابنه حتى سنة ٧٧٨ فالملك الأشرف حتى سنة ٨٠٣ وله ألف الخزرجي كتابه العقود اللؤلؤية ، ويصف حفل ختان أبنائه وصفاً رائعاً . وتضعف الدولة بعده وتأخذ في التدهور ، وينتهز بنو طاهر ولايتهم وأمنائهم في عدن وغيرها الفرصة ، ويؤسسون دولتهم .

وقد اتخذ بنو طاهر « زبيد » حاضرة لهم ، وأول أمراءهم عامر بن طاهر الذي استولى على عدن سنة ٨٥٨ وتلقب بالملك الظافر وتوفي سنة ٨٧٠ فخلفه أخوه الملك المجاهد إلى وفاته سنة ٨٨٣ وولى بعده الملك المنصور حتى سنة ٨٩٤ وخلفه الملك الظافر عامر بن عبد الوهاب وقد استولى على صنعاء سنة ٩١٠ ولا نصل إلى سنة ٩٢١ حتى يستولى البرتغاليون على جزيرة كمران في البحر الأحمر ، وحينئذ يرسل قانصوه الغوري صاحب مصر حملة لمطاردة البرتغاليين ويطردهون من الجزيرة وتزل الحملة اليمن وتستولى على زبيد وتعز وتقضي على دولة بني طاهر

وتدخل اليمن في حوزة الدولة العثمانية ، وتنشب مناوشات كثيرة بين الأمراء أو الأئمة

الزيديين وبين العثمانيين ، وترك الدولة العثمانية اليمن لأهلها سنة ١٠٤٥ فتكثر فيها الفتن والانقسامات حتى في أسرة الأئمة الرسيين ويستتب الحكم للإمام المتوكل على الله إسماعيل ابن القاسم (١٠٥٤ - ١٠٨٧ هـ) وقد ظلت الإمامة في عقبه إلى أن تخلصت منهم اليمن في ثورتها الأخيرة ، وكان المتوكل مظفراً استولى على عدن وحضرموت وظفار وجمع بلاد اليمن وتوالى الأئمة من بعده . وحدث في عهد الإمام المنصور بالله على بن المهدي أن زاره القبطان الإنجليزي ولسن عند نزول نابليون بونابرت مصر ، ونزل له طائعا عن جزيرة ميون المسماة ببريم في مضيق باب المندب بالبحر الأحمر ! وهي تقسم البحر عندها قسمين . وما نصل إلى عهد الإمام الناصر لدين الله حتى يحتل الإنجليزي سنة ١٢٥٥ هـ / ١٨٣٩ م ميناء عدن بالقوة بعد مناوشات قليلة مع جنود سلطان لحج ، وأصبحت مستعمرة إنجليزية . ورأى الأتراك طمع الدول الأوروبية في اليمن ، وأحس أئمتها بحاجتهم إليهم ، فعادوا إلى احتلال اليمن سنة ١٢٦٥ هـ / ١٨٤٩ م بينما مضى الإنجليزي يضمون إلى مستعمرة عدن تسع محميات أهمها لحج وحضرموت . وأخذت المناوشات تعود ثانية بين الأئمة الزيديين وبين الأتراك العثمانيين إلى أن تولى مناهضتهم لا في هذا العصر ولا في أواخره بل في العصر الحديث الإمام الزيدى يحيى بن محمد حميد الدين

حَضْرَمَوْتُ^(١) وظفار وتاريخها

تقع حضرموت في جنوبى الجزيرة على بحر العرب ، وهى إقليم جبلى يتوسطه واد يمتد من الشرق إلى الغرب وتتفرع منه أودية كثيرة وكانت تشتهر قديما باسم أرض اللبان ، وأهم مدنها فى الداخل شبوة وشبام وتريم وسيون وعلى الساحل الشحر والمُكَلَّا ، وكانت تسكنها قديما قبيلة كِنْدَة ، ومازال الولاة يتابعون عليها من قبل الخلفاء فى صدر الإسلام وزمن الدولتين الأموية والعباسية . ولما تولى محمد بن زياد اليمن أضيفت إليه ، وظل لبنيه نفوذ فيها ، حتى ولى بنويعفر صنعاء وأقاموا دولتهم بها ، فإنهم مدوا أيديهم إليها وظلت تتبعهم ، وحاول الحصارمة الثورة عليهم ، ولكن ثورتهم أخفقت ، وقدمها فى أثناء حكمهم لها سنة ٣١٧ للهجرة الشيخ أحمد بن عيسى جد آل باعلوى ، منتسبا نسباً شريفاً إلى الحسين بن على ، ونزل بتريم وأصبح له فيها زعامة روحية هو وأسرته إلى اليوم ، وهى زعامة أتاحت للشيعا

(١) انظر فى حضرموت وظفار وتاريخها ابن الأثير وابن الكثيرية لمحمد بن هاشم وصفحات من التاريخ الحضرمى لعيد عوض باوزير ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من حضرموت السياسى لصالح البكرى وتاريخ الدولة مراجع .

أن يتنسوا هناك وكانت النحلة الغالبة في حضرموت نخلة الخوارج. ولذلك كان أهلها دائماً يثورون ثورات متعاقبة . ونزلها القرامطة في أوائل القرن الرابع الهجري مدة ثم تركوها ، ويلمع بها في القرن الخامس أبو إسحق الحضرمي الخارجي ، وقد ساعده الخليل بن شاذان إمام الخوارج في عمان علي أن يستقل بها بعد حروب دامية ، واستطاع أن يرُد الصليحي عن حضرموت وهو يعد أول زعيم منها ولي شئونها واستقل بها . والشخصية الثانية بعده شخصية عبد الله بن راشد بن أبي قحطان الكندي المولود بتريم سنة ٥٥٣ . وقد حكمها وسنه دون الثلاثين ، واهتم بالعلم والعلماء . ولما فتح صلاح الدين اليمن وولى على عدن عثمان الزنجيلي فتح حضرموت وأخذ معه عبد الله ، غير أن العام لم يدر حتى عاد إلى دياره ، وتمر سنوات ويعود ثانية إلى تريم ويستولى من آل النعمان على شبام ، وتمضى البلاد في أمن حتى يغزوها عمر بن مهدي اليمنى يجيش أبوي سنة ٦١٤ ويتمكن من الاستيلاء عليها جميعا : على الشَّحْر وشبام وتريم ، ويقتل سنة ٦٢٢ وينتهى بذلك عهد الأيوبيين في حضرموت ، وتحلفهم دولة الرسولين ، فيعملون على أن تظل حضرموت تابعة لهم ، وكان يليها بعض أبنائها نوابا عنهم . وحين دانت ظفار شرق حضرموت لسالم بن إدريس الحبوظي استولى بجموعه على حضرموت سنة ٦٧٣ غير أن الرسولين قضوا عليه . ولا يزال شيوخ القبائل في البلاد وفي مقدمتهم بنوراشد وبنو نهد يتناحرون على حكم المدن ، ويشتهر آل باكثير باستيلائهم على الشَّحْر سنة ٧٨٦ وتكون الغلبة لهم في كثير من البلاد . وكان ينافسهم آل بادجانة وآل باوزير والكنديين ولكن آل باكثير ظفروا بهم وبغيرهم من العشائر أو قل ظهروا عليهم . وخلف الرسولين بنو طاهر على اليمن ، وكانت حضرموت تستشعر الولاء لهم ، وقد ردوا عن الشحر محمد بن سعيد بن فارس المهدي سنة ٨٦٧ وعهدوا بها إلى آل باكثير ، واشتهر من بينهم بوطويرق المولود سنة ٩٠٢ وقد استولى على شبام سنة ٩٢٦ واحتل تريم سنة ٩٢٧ واتخذها مركزا لدولته وكان يجزل العطايا للعلماء والشعراء . واستولى العثمانيون على اليمن سنة ٩٤٥ ويعترف لهم بوطويرق بالطاعة سنة ٩٧٠ غير أن ابنه عبد الله رفض حكم الترك واستقل ببلادهم ، وخلفه أخوه عمر وكان نصيره ومعاونه وكتابه الشاعر الكبير عبد الصمد بن عبد الله باكثير . ويتولى ابنه عبد الله شئون حضرموت حتى سنة ١٠٢٤ ويخلفه أخوه بدر ويظهر ولاءه للزيدية وأتمهم بصنعاء وينشب خلاف بينه وبين ابن أخيه بدر بن عبد الله بسبب ذلك ، ويقبض عليه ويعتقل ، فيغضب الإمام الزيدي المتوكل على الله إسماعيل ، ويرسل في سنة ١٠٦٩ جيشاً إلى حضرموت يستولى عليها ، ويسلمها إلى بدر بن عمر ويظل يليها حتى وفاته سنة ١٠٧٣ ويتولاها ابنه محمد .

ويضعف شأن آل باكثير ، ويصبح ليافع وعشائرها الكلمة العليا في البلاد ، ويتحول الحكم والسلطان إليها حتى سنة ١٢٦٣ إذ يعيد غالب بن محسن الكثيرى دولة آلّه ويستولى على تريم ، غير أن الشحر وأكثر البلاد تظل في قبضة اليافيين ، ويشتهر من بينهم عمر بن عوض القعيطى اليافي ثم ابنه عوض الذى أخطأ خطأ فاحشاً في حق بلده وأمنته بتوقيع معاهدة مع الإنجليز سنة ١٣٠٥ هـ / ١٨٨٨ م أصبحت بها حضر موت إحدى حامياتهم على بحر العرب ، وصمة في جبينه ما بعدها وصمة .

وظفار هضبة يبلغ ارتفاعها ثلاثة آلاف قدم ، وفوق جبالها تنمو أشجار الكُنْدُر (اللُّبَّان) الذى يستعمله الهنود في معابدهم ، وتاريخها غامض ومن أمرائها محمد بن أحمد المنجوى ، وخلفه سالم بن إدريس الحبوظى الذى مر بنا غزوه لحضرموت وقضاء الرسولين عليه ، وكانوا يولون عليها نائباً لهم . وفي القرن السادس عشر الميلادى حكم البلاد سيف الإسلام الغسانى وهو من صنعاء ، وكانت قلعة بَلَد مقر حكمه ، وفي القرن السابع عشر الميلادى استولى عليها بنوكثير الحضرميون ، ولا يعرف عنها شىء في القرن الثامن عشر ، وحكمها علوى في القرن التاسع عشر ، وقتله بنوقرا ، وحاول العثمانيون حين عادوا إلى اليمن في هذا القرن فرض سيادتهم عليها . وفزعوا إلى سعيد بن تركى بن سعيد جد أمراء عمان ، وظلت منذ هذا التاريخ تابعة لهم .

عُمان وأمراؤها^(١)

تمتد عُمان على الشاطئ الجنوبي الشرقى لجزيرة العرب مشرفة على المحيط الهندى وبحر العرب من جهة وعلى الخليج العربى من جهة ثانية ، وقد ثار بها الخوارج منذ زمن الحجاج في عصر بنى أمية ، وكانوا يتخذون مدينة نزوى في الداخل جنوبى الجبل الأخضر مركزاً لهم ، وكانوا يستولون عليها في أكثر سنوات القرن الثالث الهجرى ، وتغلّب على عمان أبوطاهر القرمطى عند اقتلعه الحجر الأسود من الكعبة سنة ٣١٧ وخطب بها لعبيد الله المهدي ، وترددت عليها ولادة القرامطة والروافض إلى أن استعادها منهم الخوارج سنة ٣٦٢ وظلوا مسيطرين عليها حقبة من الزمن . يدل على ذلك أننا نجد نفراً من أعيانها هم

ابن عبد الله السالى وعمان قديماً وحديثاً لمحمد على الزرقا والإمارات السبع لأحمد البورينى ومقدمة تاريخ العرب الحديث للدكتور عبد الكريم غرابية .

(١) انظر في عمان وتاريخها وأمرائها ودولها تاريخ ابن الأثير وتاريخ ابن خلدون وصبح الأعشى ومعجم البلدان لياقوت في مواضع متفرقة ونخفة الأعيان بسيرة أهل عمان لنور الدين السالى وعمان تاريخ يتكلم لمحمد

بنو مكرم وكانوا شيعة إمامية يسرون إلى بغداد ويتفقون مع البويهيين على أن يغزوها معهم بالسفن من الخليج العربي. ويملكونها فعلا في عصر بهاء الدولة سنة ٣٩٠ وقد اختار منهم أبا محمد بن مكرم، واستطاع أن يطرد الخوارج إلى جبالهم في نزوى وحولها، ويخطب لبنى العباس. وظل الخوارج في عهد بني مكرم يولون عليهم أئمة منهم، ومن أهمهم الخليل ابن شاذان ومر ذكره في حضرموت وأنه أعان أبا إسحق الحضرمي على غزوها والاستيلاء عليها. وتوارث بنو مكرم ملك عمان، ومن أهم أمرائهم ناصر الدولة على بن الحسين بن مكرم، وكان جوادا ممدحا، ومدحه مهيار الديلمي وغيره وتوفي سنة ٤٢٨ بعد استنثاره بالإمارة مدة طويلة.

وفي سنة ٤٤٢ ضعف ملك بني مكرم وتغلب عليهم النساء والعبيد، فزحف إليها الخوارج من نزوى وملكوها بقيادة إمامهم راشد بن سعيد، وله حروب مع قبيلتي نهد وعُقيل سحقها فيها، وامتدحه بذلك أبو إسحق الحضرمي منوها ببسالته وبطولة جنوده. ومن أهم هؤلاء الأئمة من الخوارج الذين حكموا عمان حفص بن راشد الذي تملكها بعد أبيه وتظل في أيدي خلفائه.

وفي القرن السادس الهجري تملك عمان من أيدي الخوارج بنو نهبان سنة ٥٧٩هـ/ ١١٨٣م وهم عشيرة من العتيك من الأزد استولوا عليها بعد شيوع الفوضى فيها، وكانوا سنين، وظل حكمهم فيها طويلا حتى نهاية القرن التاسع، وقد غزا الفرس عمان في عهد أميرهم كهلان سنة ٦٥٠ وعادوا إلى غزوها في عهد عمر بن نهبان سنة ٦٧٤ ولكنهم عادوا في الغزوتين مدحورين، كما يصور ذلك شاعر النبهانيين أحمد بن سعيد الستالي الخروصي، ويشن المؤرخ نور الدين السالمي حملة على هذه الدولة النبهانية قائلا كانت دولة بني نهبان مبنية على الاستبداد بالأمر وقهر الناس ولم نجد لدولتهم تاريخا ولا لملوكهم ذكرا اللهم إلا ما ذكره شاعرهم أبو بكر أحمد بن سعيد الستالي. وقد زار ابن بطوطة عمان في عهدهم سنة ٧٢٥ وقال عنها إنها خصبة، وأشاد بأمرها النبهاني وحسن ضيافته ثم ذكر نزوى عاصمة الخوارج، وقال إنهم أهل نجدة وشجاعة. ومن أئمة الخوارج المهمين في القرن التاسع عمر بن الخطاب بن شاذان الذي بويع له بالإمامة سنة ٨٨٥ وقد نازل سليمان بن سليمان النبهاني أمير عمان، وهزمه واضطره أن يفر إلى هرمز وتوفي عمر، فعاد سليمان ونازل الإمام التالي للخوارج أبا الحسن بن عبد السلام، وباء بهزيمة منكرة، فرحل ثانية إلى هرمز، وتوفي أبو الحسن فاسترد سلطانه، ونازل خليفته الإمام الخارجي محمد بن

إسماعيل الخروصي سنة ٩٠٦ وهُزم هزيمة لم تقم له بعدها قائمة . وانسحب النبهانيون إلى الجبل الأخضر .

وتصبح عمان تابعة للخوارج ، ويستردها سلطان بن محسن النبهاني سنة ٩٦٤ ويتوالى عليها حكام نبهانيون ، حتى يستولى عليها منهم الإمام الخارجي ناصر بن مرشد اليعربي (١٠٢٤ - ١٠٥٠ هـ) وكان البرتغاليون قد غزوا عمان سنة ٩١٣ واستولوا على بعض شواطئها ، فأخذ يناوشهم ، وظلت مدينتا صحار ومسقط في أيديهم وقيل بل سقطت في يده صحار ، وخلفه سلطان بن سيف اليعربي (١٠٥٠ - ١٠٩١ هـ) وهو أهم اليعربين وأبعدهم شهرة إذ استطاع أن يطرد البرتغاليين من مسقط وصحار وبذلك طهر البلاد منهم . وبني لعمان أسطولا ضخما حطم به أسطول البرتغال وسيطر على شواطئ إفريقيا والهند ، وكانت تتبعه ممباسة في كينيا على ساحل إفريقيا الشرق وجزيرة زنجبار^(١) وجزيرة سقطرة في بحر العرب ، غير أن أسرته ضعفت بعده .

وتخلف أسره اليعربيين في حكم عمان أسرة البوسعيديين على يد مؤسس دولتهم أحمد بوسعيد الذي جمع زمام الحكم في عمان جميعها بيده سنة ١١٥٤ هـ / ١٧٤١ م ورد الفرس على أعقابهم سنة ١١٦٣ هـ / ١٧٤٩ م حين حاولوا غزو بلاده . ومن حكام هذه الأسرة البوسعيدية سعيد بن سلطان الذي ولي عمان سنة ١٢٢١ هـ / ١٨٠٦ م وظل في الحكم خمسين عاما . وقبل عهده استقلت عن عمان رأس الخيمة في مدخل الخليج العربي بزعامة القواسم ، وكانت إمارتهم تمتد من مسقط إلى قطر فتشمل الشارقة وكانت عاصمتهم . وأخذ الأسطول الإنجليزي يظهر في هذه الأنحاء ، فكان القواسم يقاومونه مقاومة عنيفة . وسرعان ما تزعم «دبي» آل بوفلاس سنة ١٢٤٩ هـ / ١٨٣٣ م كما تزعم «أبوظبي» آل فلاح وظلت أسرة البوسعيديين تحكم عمان إلى اليوم وتخلت منذ قيامها عن لقب الإمامة واكتفت بالسلطة الزمنية واستطاع الإنجليز منذ سنة ١٢٢٤ هـ / ١٨٠٩ م أن يقيموا لهم حاميات على شواطئ عمان ، وظلوا بها إلى أن أرغموا على الخروج منها نهائيا .

البحرين ودوها^(١)

يقول ياقوت : « البحرين » اسم جامع لبلاد واسعة على ساحل البحر الواقع بين جزيرة

(١) زنجبار : جزيرة صغيرة بالقرب من ساحل تنزانيا
(٢) انظر في البحرين ودوها تاريخ ابن الأثير والجزء الرابع من تاريخ ابن خلدون ومعجم البلدان لياقوت في مواضع متفرقة وصيغ الأعشى والضوء اللامع في تتبع عمان غير أنها كانت تتمتع باستقلال ذاتي .

العرب وبلاد فارس تمتد من البصرة شمالا إلى عمان جنوبا ومن صحراء الدَّهْناء غربا إلى البحر (خليج العرب) شرقا . وهى بذلك كانت تشمل إقليم قَطْر والإقليم الشرقى للمملكة العربية السعودية الآن المشتمل على الأحساء والقُطيف وهجر ، ومجموعة من الجزر (البحرين الحالية) أكبرها جزيرة أوال ومساحتها نحو خمسة وثلاثين ميلا طولاً ونحو عشرة أميال عرضاً .

وقد سيطر القرامطة على هذا الإقليم مدة متطاولة من الزمن ، إذ غلب عليها بنو الجُتَّانِي بقيادة أبي سعيد سنة ٢٨٦ للهجرة وقد بدأ بالاستيلاء على القُطيف . وفى سنة ٢٨٧ غلب على هجر ، وسرعان ما تم له الاستيلاء على الإقليم جميعه ونشر فيه عقيدته القرمطية. وقد تحدثنا فى العصر العباسى الثانى عن هذه العقيدة وعن أبى سعيد وابنه أبى طاهر وإغارته على مكة واستباحته دماء الحجاج ، واقتلاعه الحجر الأسود ونقله إلى بلاده ، ونهبه ما كان بالكعبة من تحف . ولما رجع إلى البحرين رماه الله فى جسده ، حتى طال عذابه وتقطعت أوصاله وأطرافه وهو ينظر إليها ، ولعذاب الآخرة أشد وأنكى . وفى سنة ٣٣٩ رُدَّ الحجر الكريم إلى موضعه . وفى عقيدتهم - كما صورناها فى كتاب العصر العباسى الثانى - ضلال كثير . ويبدو أن علاقتهم بالفاطميين - وكانوا لا يزالون فى المهديّة بجوار تونس - أخذت فى الفتور . حتى إذا كانت سنة ٣٥٨ قطعوا علاقتهم بهم وأعلنوا خضوعهم للدولة العباسية . ومن أهم أمرائهم الحسين بن أحمد الملقب بالأعصم حفيد أبى طاهر ، وكان فارسا وشاعرا مجيدا تولى بعد أبيه سنة ٣٥٩ واتفق فى السنة التالية مع الخليفة العباسى المطيع لله على محاربة الفاطميين ، فأمدّه بالمال والسلاح ، وزحف على الشام تحت الرايات السود شعار الدولة العباسية ، وبذلك تنكر نهائيا للمذهب الإسماعيلى الفاطمى أساس عقيدته القرمطية ، وقد استطاع الاستيلاء على دمشق والرملة ، واتجه بجيشه نحو مصر ، والتقى بالفاطميين وعساكرهم المغاربة فى عين شمس ، وكاد يتصر عليهم لولا خروج بعض قواده عليه وانضمامهم إلى الفاطميين ، فعاد إلى الشام ومنها إلى البحرين . ومر بنا فى حديثنا عن نجد نقل العزيز الفاطمى لجنده من بنى سليم وبنى هلال بن عامر إلى الصعيد وانتقالهم منها فيما بعد إلى المغرب . وفى سنة ٣٦٥ عاد الأعصم إلى الشام لمساعدة أفتكين الرومى مولى البويهيين ضد جوهر الصقلى القائد الفاطمى ، ولكن الموت عاجله بالرملة سنة ٣٦٦ .

= أعيان القرن التاسع للسخاوى وديوان ابن مقرب
 العيون وتحفة المستفيد بتاريخ الأحساء فى القديم والجديد
 للشيوخ محمد بن عبد الله آل عبد القادر (طبع الرياض)
 وساحل الذهب الأسود لـ محمد سعيد المسلم (نشر دار مكتبة
 الحياة ببيروت) ومقدمة تاريخ العرب الحديث ١/ ٢٤٩ وما بعدها .

وتولى أمر القرامطة بعده ستة نفر ، وأخذت دولتهم في الاضمحلال . ولا نصل إلى سنة ٣٧٨ حتى يجمع شخص يسمى الأحيفر من بنى المتفق بن عامر بن عُقيل جمعا كبيرا ، وينازل به القرامطة ، ويستولى منهم على القطيف ، ولا تقوم لهم بعد ذلك قائمة . وعمت الفوضى في البحرين إلى أن غلب عليها نهائيا الأصفر بن أبي الحسن الثعلبي سنة ٣٩٨ وكان يخطب للطائع العباسي ، واستقرت الدولة له . واختلفت في أيامه قبيلة بنو ثعلب مع بنى عُقيل ، فأخرجوهم من ديارهم إلى العراق ، وطالت أيام الأصفر ، واتسع به طموحه ، فحاول التغلب على الجزيرة والموصل ، ونازله بنو عقيل هناك سنة ٤٣٨ وعاد إلى البحرين ووافاه أجله . وبقي الملك في البحرين بعده متوارثا في بنيه إلى أن ضعفوا وتلاشوا .

وتخلفهم دولة بنى العيوني بزعامه مؤسسها عبد الله بن علي . إذ استطاع الاستيلاء على البحرين بمساعدة ملكشاه السلجوقي سنة ٤٦٦ وقد جعل همه القضاء على البقية الباقية من دعوة القرامطة ، وكان لا يزال لها في البحرين أتباع كثيرون . وتوفي سنة ٥٠٠ للهجرة ، فخلفه ابنه الفضل إلى سنة ٥٠٧ ووليا بعده ابنه محمد المكنى بأبي سنان حتى قتلته سنة ٥٢٥ وكان ذلك فاتحة عهد سيئ من المنازعات بين أبناء الأسرة . ووليا بعده ابنه أبو فراس غرير ، وولى الأحساء في أيامه عمه عبد الله بن علي وولى ابنه أبو الحسن القطيف . والمصدر الوحيد لتاريخ هذه الأسرة ديوان ابن المقرب الذي يقدم لنا تفاصيل كثيرة عن ولاية البحرين العامين من العيونيين وولاية مدنها المختلفين . ويختلط بعضهم ببعض في الديوان ، ومن أهمهم محمد بن أبي الحسين الذي تولى زمام الأمور في البحرين سنة ٥٨٤ وقد استطاع أن يفرض نفوذه على قبائل نجد مما جعل الخليفة الناصر (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ) يعهد إليه بخفارة الحاج من بغداد إلى مكة ذهابا وإيابا وفرض له نظير ذلك ألفا وخمسمائة حمل حنطة وشعير وأرز وتمر وألفا ومائتي ثوب أكثرها من الإبريسم . وسمع في سنة ٥٩٨ بأن بعض عشائر من طيئ تتجمع في طريق مكة لقطع الطريق على الحجاج ، فنكل بهم تنكيلا شديدا . وجمعوا له جموعا كثيرة ولكنه أنزل بهم هزيمة ساحقة ، مما جعل جميع قبائل نجد تدين له بالولاء كما جعل الأمن يعم الجزيرة . ويغتال سنة ٦٠٣ ويخلفه غرير بن الحسن بن شكر ، ويسلبه الإمارة الفضل بن محمد بن أبي الحسين ويفتك به ثاراً لأبيه . وتكثر الخلافات والحروب بين أبناء الأسرة ، وتأخذ في الضعف تدريجا ، ويستولى أبو بكر بن سعيد أحد ملوك فارس على جزيرة أوال (البحرين الحالية) سنة ٦٣٣ ويكون ذلك إيذانا بانتهاء دولة العيونيين .

ويغلب على البحرين بعد هذه الدولة دولة بني عصفور من بني عامر بن عوف العقيلين ، وتتوطد العلاقة بينهم وبين سلاطين مصر المالك بعد هزيمتهم للتتار ، ويقدم منهم وفد على السلطان بيبرس فيكرم وفادته ، ويظلون يقدون على المالك . وعلى رأس سنة سبعمائة للهجرة ينتقل ملك البحرين إلى سعيد بن مغاس من بني جبر ، ويتزعمها منه بنو جروان من بني عامر بن عوف العقيلين ويظلون يحكمونها حتى سنة ٨٢١ وفي عهدهم استولى المغول على جزيرة أوال وظلت في أيديهم مدة .

ويعود بنو جبر إلى الاستيلاء على البحرين ، إذ خلصها من بني جروان سيف بن زامل ، واتسع نفوذه في نجد ، وخلفه أخوه زامل ثم ابنه أجود . ودب الشقاق بين أبناء الأسرة ، فأخذها منهم راشد بن مغاس . وفي هذه الأثناء وفي غفلة من حكام البحرين استولى البرتغاليون في سنة ٩٢٢ على جزيرة أوال (البحرين الحالية) والقطيف وقطر، وظلوا بتلك الديار حتى طردتهم منها الدولة العثمانية وسرعان ما استولت على الأحساء سنة ٩٦٣ . وقد انفصلت قطر عن البحرين قبيل نهاية القرن العاشر الهجري بزعماء آل ثاني ، وكانوا من يبرين ، فزاحموا قبيلة عبد القيس وتغلبوا عليها . أما بقية البحرين الشاملة حسب اصطلاح هذا العصر للأحساء والقطيف أو بعبارة أخرى للإقليم الشرقي من المملكة العربية السعودية ، والشاملة أيضا لجزيرة أوال فقد قام عليها بنو خالد منذ سنة ١٠٨١ واستولى عباس الصفوى على أوال سنة ١٠٩٢ وظلت تابعة للدولة الصفوية حتى سنة ١١٢٣ واستولى عليها بعد ذلك نادر شاه ملك فارس سنة ١١٥٠ واستخلصها سنة ١١٩٧ هـ / ١٧٨٢ م أحمد بن محمد بن خليفة من أهل الزبارة ولا تزال أسرته تحكمها إلى اليوم ، ووقع أحدها وهو الشيخ محمد بن خليفة مع الإنجليز سنة ١٢٨٤ هـ / ١٨٦٧ م دخلت أوال (البحرين الحالية) بمقتضاها في حمايتهم إلى أن استقلت أخيرا .

وظل يلى الأحساء والقطيف بنو خالد منذ سنة ١٠٨١ كما أسلفنا ، وكان أول من وليها منهم براك بن غرير حتى وفاته سنة ١٠٩٣ ، وخلفه ابنه أو أخوه محمد على اختلاف في الروايات ، فسعدون بن محمد ، فسلطان أخوه المتوفى سنة ١١٦٦ ووليها بعده عرعر ، فابنه بطين ، فأخوه دجين ، فأخوهما سعدون ، فأخوهم دويحس وقد اشتبك مع سعود ابن عبد العزيز سنة ١٢٠٤ هـ / ١٧٨٩ م في حروب رجحت فيها كفة سعود . وتتطور الظروف وتنشب الحرب بين محمد على والسعوديين . ويعود بنو خالد إلى حكم الأحساء والقطيف ، غير أن الحاكم السعودي تركى بن عبد الله يضطرهم إلى تسليمها سنة

١٢٤٥ هـ / ١٨٢٩ م وتعودان إلى الدولة العثمانية سنة ١٢٨٨ حتى يستخلصهما منها في العصر الحديث الملك عبد العزيز آل سعود .

وكانت قطر قد دخلت مع الأحساء والقطيف في حوزة العثمانيين سنة ١٢٨٨ هـ / ١٨٧١ م وظل آل ثاني رؤساءها إلى أن نفّض طاعة العثمانيين منهم الشيخ قاسم في العصر الحديث ، واستقل ببلاده سنة ١٣١٠ هـ / ١٨٩٢ م وتظل أسرته متولية أمرها ومدارة شئونها إلى اليوم .

٢

المجتمع^(١)

يتقابل في الجزيرة أهل بواد وأهل حواضر ، والأولون عرب خُلّص ، وقد دخل على الثانيين أخلاط من أجناس مختلفة إفريقية وآسيوية ، والغلبة للعنصر العربي فهو قوام الحواضر . وربما كانت مكة بالذات من الحواضر التي كثر إليها نزوح الأجانب ، إذ توطنها كثيرون من المسلمين الوافدين عليها للحج ابتغاء رضوان الله ، وهم عناصر شتى من كل أنحاء العالم الإسلامي ، ومثلها المدينة وإن لم تبلغ درجتها من هذا التوطن . والعلاقة بين اليمن والحبشة قديمة مما جعل كثيرين من الأحباش والإفريقيين يتزلون بها ، ومرت بنا دولة آل نجاح في زبيد ، وهم أحباش أو من أصل حبشي . ومن قديم كان الفرس يتزلون في عمان ومدن الخليج ، وكان كثير منهم يستوطنها ، ولا يزال هذا شأنهم إلى اليوم . وبالمثل كان يتزل في مدن الخليج وعمان إفريقيون كثيرون ، وثورة الزنج بالبصرة في القرن الثالث الهجري مشهورة ، ونسمع عنهم بعد ذلك كثيرا في البحرين ، وكانوا كثيرين في عُمان منذ أخذت تستولى في القرن الثالث على سُقُطرة وبعض الجزر ، ونراها بعد ذلك تستولى على زنجبار وبعض شواطئ إفريقية الشرقية .

وكان عرب نجد يعيشون معيشة بدوية تعتمد على رعي الإبل والأغنام ، وبحفها غير

عبد غانم (نشر وطبع دار الكاتب العربي ببيروت) ورحلة ابن بطوطة وديوان ابن مقرب العيوني وتحفة المستفيد بتاريخ الأحساء في القديم والجديد وتحفة الأعيان بسيرة أهل عمان للسالي وقلب جزيرة العرب لغواد حمزة .

(١) انظر في مجتمع الجزيرة صبح الأعشى والنجوم الزاهرة في مواضع متفرقة وتاريخ اليمن لعارة ومروج الذهب للمسعودي : الفصل الخاص بالغناء والموسيقى في الجزء الرابع والعقود اللؤلؤية للخزرجي وعنوان المجد في تاريخ نجد لابن بشر وشعر الغناء الصنعاني للدكتور محمد

قليل من شطف العيش ، مما جعلهم أو بعبارة أدق جعل منهم عشائر تتعرض أحيانا للحجاج وتنههم ، وكانت بغداد ثم القاهرة تقاومانهم بصور كثيرة ، منها إرسال الحجاج في قوافل مع حاميات ، ومنها أن يعهد البغداديون لعرب البحرين أو لبني عُقَيْل أو لبني أسد أن يحموا الحجاج ، وكانت القاهرة بدورها تعهد لآل الجراح في العهد الفاطمي وآل فضل في العهدين الأيوبي والمملوكي بأن يؤمنوا السبل للحجاج المصريين والإفريقيين .

وكان وراء مكة والمدينة في الحجاز مدن وقرى كثيرة على شىء من التحضر ، نجد ذلك في الطائف وفي جدة وفي بَنِع وفي خيبر وفي وادى القرى ، حيث يقيم الناس في دور شيدوها ويستقرون بها . وهذا الاستقرار أساس التحضر وال عمران إذ يتجه الناس إلى عمل يُقيمون به أود حياتهم ، وكان الزراعة ، إذ نجدها في كل هذه المدن . وطبيعى أن ينشأ في المدن بجانب الزراع صناع ينهضون بالحرف المختلفة من عمارة ونجارة وحياكة ، وكذلك تجار يصدرون بعض ما يفيض عن حاجة مدنها كالتمر مثلاً ، ويستوردون بعض ما يحتاجه سكانها من توابل وغير توابل . وتشتهر المدينة بكثرة زروعها ، وكانت مصر منذ العصر الفاطمي ترسل إليها وإلى مكة بكميات كبيرة من القمح سنويا واستمر ذلك في زمن صلاح الدين والأيوبيين ثم في زمن المماليك . وكان ينزل المدينتين المقدستين كثير من الحجاج والزوار سنويا ، فيشيعون فيها الرخاء ، وأهل ذلك لقيام إمارة كبيرة للحسينيين في مكة وإمارة أخرى للحسينيين في المدينة .

وقد وصف القرآن الكريم اليمن بأنها (جَنَّاتٌ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ) . ومعروف أنه تهبّ عليها الرياح الموسمية صيفا ، فتَهطل بها أمطار غزيرة تغذى المروج والزروع والأشجار المتكاثفة ، ويزرع أهلها في الأودية والسهول الحنطة والشعير والذرة والأرز والسمن ، ومن فواكهها العنب والرمان والتفاح والخوخ والموز والليمون والبطيخ والسفرجل ، ومن حيوانها الخيل العربية والبغال والإبل والبقر والغنم والغزلان والقردة . ومن أهم مصادر ثروتها التجارة وما يحمل إليها من إندونيسيا والهند وإفريقية الشرقية والحبشة والصين . وعدن ميناءها ، ويقول القدماء إنه «لم يكن يخلو أسبوع من عدة سفن وتجار وارين عليها وبضائع شتى ومتاجر متنوعة ، والمقيم بها في مكاسب وافرة وتجارة مربحة» . ومر بنا في حديثنا عن دول اليمن ذكر أربع مدن ، هي زبيد وصنعاء وصعدة وتَعَزّ ، وزبيد بتهامة اليمن في سهل من الأرض وبها نخيل كثير ، وكانت مسورة وبها قلعة ، وصنعاء في منطقة الجبال بوسط اليمن ، وهي كثيرة الزروع والفواكه ، وصعدة في منطقة جبلية وعرة شمالا ، أما تعزّ فحضن في الجبال جنوبي اليمن مظل على تهامة وأراضي زبيد . وكان الرسوليون يقيمون بها

صيفاً وبزيد شتاء . واليمن بها قدمنا بلاد ذات ثراء عظيم ، وقد قامت بها قديماً دول وحضارة باذخة ، فلا غرابة أن كان أهلها في هذا العصر يتمتعون بغير قليل من نعيم الدنيا وخاصة الحكام والوزراء والقادة وكبار التجار ، وينقل صبح الأعشى عن بعض الأقدمين قوله : « لأكابر اليمن حظ من رفاهية العيش والتنعم والتفنن في المأكل : يُطَبَّخ في بيت الرجل منهم عدة ألوان .. وتطيب أوانيها بالعطر والبخور ، ويكون لأحدهم الحاشية والغاشية ، وفي بيته العدد الصالح من الإماء ، وعلى بابيه جملة من الخدم والعبيد والخصيان من الهند والحبوش ، ولهم الدور الجليلة والمباني الأنيقة ، إلا الرُخام ودهان الذهب واللازورد فإنه من خواص السلطان لا يشاركه فيه غيره من الرعايا » . ويدل من بعض الوجوه على ما كان في اليمن من ثراء ما يذكر عن بعض وزراء بني نجاح في زبيد من أنه كان جواداً وأن نفقة مطبخه في شهر رمضان كانت تبلغ كل يوم ألف دينار . ويبدو أن مجتمع اليمن كان يكتظ بكثير من الجوارى والإماء ، ويذكر عمارة اليمنى أنه كان لآل نجاح أكثر من ألف أمة ، وقد أشاع الإماء والجوارى في قصور آل نجاح وغيرهم الغناء والطرب . والغناء قديم في اليمن ، وأشار المسعودي إلى أنه كان باليمن لعصره صنفان من الغناء حميرى وحننى ، ولعله يريد صنفاً قديماً يرجع إلى عهد الدولة الحميرية قبل الإسلام وصنفاً إسلامياً حنفياً أو حنيفياً . ولا نسمع بعد زمن المسعودي المتطابق مع أول هذا العصر عن مغنين أو مغنيات إلا ما ذكره عمارة في زمن آل نجاح كما أسلفنا . ويبدو أن الأئمة الزيديين في صَعْدَة لم يفسحوا للغناء بل حاربوه طوال عصورهم ، أما الدول الأخرى فلهلها فسحت له ، يدل على ذلك ما يذكر من غناء ورقص في بعض الاحتفالات ، ومن أهمها احتفال السلطان الرسولى الأشرف لسنة ٧٩٤ بختان أبنائه وهو احتفال له دلالات كثيرة ، ولا بأس من أن نوجزه نقلاً عن الخزرجى في كتابه العقود اللؤلؤية إذ يذكر أن الإعداد لهذا الاحتفال بدأ في شهر شوال عقب عيد الفطر وأنهم أخذوا يحضرون الطير وأنواع الحيوان والأطعمة والبقول والتوابل والفواكه وأنواع الطيب والرياحين مما لا حصر له وألوان الحلوى . ويُعَدُّ الخزرجى أسماء الآنية وأنواعها الكثيرة ويذكر أن الأمراء وكبار رجال الدولة قدم كل منهم هدية ، وكان كل من يقدم هدية يجعل معها المغانى والرياحين والبواقين يزفونها إلى باب الدار . وأقيمت للناس أربعة سباطات : سباط الطعام وسباط الحلوى وسباط المكسرات من اللوز والجوز والفسق والبندق وسباط رابع خاص بالعمود والمباخر ، ويشمل المسك والصندل والعود والبنفسج والعنبر والغالية وماء الورد . ويذكر الخزرجى أنه كان هناك من المغانى والراقصات ما أدهش الحاضرين ، وفي ذلك ما قد يدل

على أن الرسولين لم يحاربوا الغناء في دولتهم ، بل لعلهم شجعوا عليه . ويذهب الدكتور محمد عبده غانم إلى أن الغناء الصنعاني العربي التي اشتهرت به صنعاء واليمن ربما بدأ في أواسط العصر الرسولي أو في أواخره . وفي رأئي أنه على الرغم من محاربة الأئمة الزيدية له كانت هناك نهضة غنائية في صنعاء وغيرها من مدن اليمن ، على الأقل منذ العهد الرسولي ، كما تدل على ذلك المغاني والراقصات في الاحتفال السابق ، بل لعلها تتقدم هذا العهد متصلة بزمان النجاشيين في القرن السادس ، إذ نجد لابن سناء الملك المصري المتوفى سنة ٦٠٨ وابن النبيه المصري المتوفى سنة ٦١٩ وابن الفارض المتوفى سنة ٦٣٢ أشعارا يلحنها اليمنيون بألحان غنائهم الصنعاني ، على نحو ما عرض ذلك الدكتور غانم في كتابه ، وأيضا فإننا نجد للشاعر اليمني ابن هُتَيْمَل شاعر القرن السابع الهجري أشعارا ملحنة بهذا الغناء ، وكذلك للبرعي الشاعر اليمني الصوفي المشهور في القرن الثامن ، وتتوالى بعد ذلك الأغاني في شعر القاضي موسى بن يحيى بهران والأمير الزيدى محمد بن إسحق . وتكثر الأغاني الشعبية الصنعانية ، وكل ذلك دليل على نهضة غنائية باليمن .

وأشار الخزرجي في الاحتفال السابق إلى أنه حضره كثيرات من النساء الْمُحْصَنَات (العفيفات) وكثيرات من نساء الأمراء المُقَدَّمِينَ . ولعل في ذلك ما يدل من بعض الوجوه على أن المرأة كانت تحظى في اليمن بغير قليل من الحرية . ومَرَّبْنَا أن أسماء زوجة على ابن محمد الصُّلَيْحِي كانت من فضليات النساء ، وكان الناس من شعراء وغير شعراء يقصدونها فتيبرهم ، وكان ابنها المَكْرَمُ يَحْلُها إجلالا عظيما ، وكانت لا تستر وجهها من الحاضرين ، وكان زوجها يكل إليها تدبير بعض شئون الدولة .

وحين مرض ابنها المَكْرَمُ بالفالج فَوَّضَ شئون الدولة إلى زوجته الملكة الحرة أَرْوَى بنت أحمد الصليحي سنة ٤٦٧ فأحسنَت القيام عليها وتديرها إلى أن توفى سنة ٤٨٤ وتولَّت بعده شئون الحكم ، كما مر بنا ، إلى أن توفيت سنة ٥٣٢ وهى التى أمرت ببناء جامع جبلة والجناح الشرقى في جامع صنعاء .

وكانت حَضْرَ مَوْتٍ من قديم متصلة باليمن ، بل كانت أحيانا تعد جزءاً منها ، وكان واليها في القديم هو نفس والى اليمن . وقد يعيَّن عليها نائبا له ، وحدث ذلك كثيرا على نحو ما مرَّبْنَا في تاريخها السياسى . ومما لا شك فيه أن اليمن تسبقها وتتفوق عليها أشواطاً في الحصب وكثرة الزروع . وهى بلاد جبلية يشقها واد عظيم تتفرع منه أودية مختلفة ، كما مر بنا . وأهم حاصلاتها اللُّبَان (الكُنْدَر) والحنطة والذرة والتمر ، وأهلها يهبطون في التحضر

درجات كثيرة عن أهل اليمن ، لشطف العيش بديارهم ، وهم ملاحون ممتازون وجعلت الملاحه شطراً كبيراً منهم تجاراً ، وإليهم يرجع الفضل الأكبر في نشر الإسلام بشرق إفريقيا وبالملايو وإندونيسيا والهند . وهم بحق أبناء المحيط الهندي ، جابوه شرقاً وغرباً ، ونزلوا في أقاليمه ، وعاشوا سكانها ، ولهم في كل إقليم نزلوه منزلة رفيعة وأموال وتجارات واسعة . وبجانب حَضْرَ مَوْت ظَفَار ، وطبيعتها واحدة ، فهي الأخرى جبلية ، وأهلها يزرعون الموز والخنطة والذرة معتمدين في ذلك على مياه الأمطار ، وهم يرعون الأنعام والأغنام ، ويشتهرون بترية نوع من الخيل الأصيلة وطبيعي أن يعنوا بصيد السمك لطول شواطئهم على المحيط الهندي أو بحر العرب . وسقطت إليهم بعض مظاهر الحضارة ، التي رأيناها في اليمن ، ويقول ابن بطوطة إنه شاهد الطبول والأبواق تضرب على أبواب أمرائهم بعد صلاة العصر من كل يوم .

وعُمان إقليم كبير في الجنوب الشرق من الجزيرة ، وهي تطل على بحر العرب من جهة وعلى الخليج العربي من جهة ثانية ، وترسو بها السفن من الزنج والهند وإندونيسيا ، ويتزها إيرانيون كثيرون من قديم ، وجعل ذلك أهلها يتألفون من عناصر كثيرة : عربية وإفريقية وإيرانية وهندية ، والغلبة للعنصر العربي . وبدخلها جبل عظيم الارتفاع تشعب منه تسعة أودية جميعها لبني رثام وبجنوبه مدينة نَزْوَى عاصمة الخوارج . ومن أهم موانئ عُمان صُحَار وكانت عاصمتها قديماً ، ومَسْقَط وهي عاصمتها الآن . وتكثر على سواحلها مغاصات اللؤلؤ ، وهي كثيرة التمور والفواكه والزروع من الخنطة والذرة والشعير . وقال ابن بطوطة عنها حين نزل بها سنة ٧٢٥ : إنها خصبة وبها أنهار وأشجار وبساتين وحدائق نخل وفاكهة كثيرة متنوعة ، ويصف نَزْوَى عاصمة الخوارج بأنها مدينة بنيت في سفح جبل ، تحفّ بها البساتين والأنهار ، ولها أسواق حسنة ومساجد معظمة ويذكر أن من عادات أهلها الأكل في صحون المساجد ، يأتي كل إنسان بما لديه من الأكل ، ويأكل معهم الوارد والصادر ، ويثنى على أهلها قائلاً : « لهم نجدة وشجاعة » . ثم يتحدث عن مدينة عمان وسلطانها أبي محمد بن نيهان ، ويقول إنه يجلس خارج باب داره في مجلس هنالك ولا حاجب عليه ولا وزير بين يديه ، ولا يمنع أحداً من الدخول عليه سواء أكان مواطناً أم غريباً ، ويكرم الضيف على عادة العرب ، ويعيّن له مدة الضيافة ويعطيه حسب قدره . ويلاحظ ابن بطوطة ملاحظة عامة ، هي نقص الغيرة هناك على النساء وأكبر الظن أنه بالغ في تصويره وملاحظته . وكل شيء يؤكد أن هذا الإقليم كان على شيء غير قليل من الثراء ، وهو ثراء مكّن سلطان بن سيف اليعنبي في القرن الحادي

عشر من بناء أسطول ضخم سحق به أسطول البرتغاليين واستولى على بعض شواطئ أفريقيا وجزر المحيط الهندي وبعض شواطئ الهند.

والبحرين شديدة الخصب ، وهي كثيرة العيون والفواكه والنخيل وبها من التور أنواع لا تُحصى ومن زروعها الحنطة والأرز ، وكان يرد إلى موانئها وجزرها كثير من المراكب من الهند محملة بالعروض التجارية . وأخبار كثيرة تصور ما كان فيها من رواج وانتعاش اقتصادي ، من ذلك ما يروى من أن تجاراً غرقت سفينتهم بين جزيرة أوال (البحرين الحالية) والقُطيف ، وسقط في الخليج كل ما كان معهم ، وعلم بذلك أمير البحرين العيوني الفضل بن عبد الله (٥٠٠ - ٥٠٧ هـ) فتقدم إليهم أن يكتب كل تاجر ما كان يحمله وقيمته نقداً ، وأعطى كلا منهم ما فقدته كاملاً ، وكان بينهم جوهري ، قال إنه كان يحمل عقوداً من اللؤلؤ قيمتها مائة ألف ، فأعطاهها له . وهي مأثرة جليلة وتدل على حال الإمارة حينئذ ، وأنها كانت في يسر . ولم يكن مثل هذه المأثرة خاصاً بأمير البحرين وحده ، بل كانت تشمل حكام مدنها ، ويروى أنه في عهد أميرها غرير الذي تولى إمارتها سنة ٥٢٥ أصابت أهل الأحساء سنة مجدبة ، فأمر حاكمها علي بن عبد الله العيوني بفتح خزائن الغلال والتمر وأن يأخذ منها الناس كل حسب حاجته ، وأمر بحط الزكاة والضرائب عنهم ، وما زال يوالى فتح خزائنه لهم حتى دارت السنة وأخصبت ديارهم . وكان يحكم القُطيف في نفس الفترة أبو الحسن بن عبد الله بن علي ، فلجأ إليه سبعون فارساً من قبيلة عبد القيس ، فأكرمهم ، وأمر لكل منهم بدار وما يلزمها من أمتعة وخدم ، سوى إقطاعات مختلفة .

وفي كل البلدان السالفة كانوا يفتنون في المطاعم ويكثرون فيها من التوابل وامتازت جميعاً بكثرة الأسماك ، ويكثر السردين في حضرموت ، ووراء في شواطئ الشحر واليمن وعمان والبحرين أنواع سمك لا تكاد تحصى ، ويكثر في الخليج الآمور (الوقار) والرُبيان (الجنيري) . وكانت المرأة تتفنن في زينتها وثيابها وفيما تتخذ من حلى . وكانوا يحتفلون احتفالات كبيرة بعيدى الفطر والأضحى . وكان الغناء منتشرًا وخاصة في اليمن كما أسلفنا ، وكانوا يخرجون للصيد والطرْد في الصحراء من حوهم فرادى وجماعات .

التشيع^(١)

عرفت الجزيرة العربية كل نخل التشيع الأساسية ، وهى الزيدية والإسماعيلية والإمامية والكيسانية ، وأطولها عمراً وأكثرها بقاءً وأوسعها انتشاراً نخلة الزيدية أتباع زيد بن علي زين العابدين بن الحسين الذى ثار بالكوفة على هشام بن عبد الملك سنة ١٢٢ و قتل وصلب ، وكان يرى أن الإمامة مقصورة على أبناء السيدة فاطمة ، ولا مانع من أن يكونوا من أبناء الحسن أو الحسين ، وكان يجوز إمامة المفضل مع وجود الأفضل ، وبذلك جَوَزَ إمامة أبي بكر وعمر مع وجود علي بن أبي طالب لمصلحة رآها الصحابة وقاعدة دينية اتبعوها . وخالف بذلك جميع مذاهب الشيعة ونخلهم ، فكانت نخلة معتدلة ، لا تؤمن بفكرة النص على الإمام ، ولا بأن وحياً نزل يعين الأئمة . وكان يشترط فى الإمام أربعة شروط : العلم والزهد والشجاعة والسخاء ، وهو لا يكون إماماً إلا إذا ثار على الخليفة فى عصره وطالب بالخلافة ، والإمامة بذلك عند الزيدية لا تعرف فكرة الإمام المستور مثل الإسماعيلية ولا فكرة الإمام المختفى مثل الاثنى عشرية والكيسانية .

وكل من ثار على العباسيين من العلويين وحمل السيف ضدهم فى القرنين الثانى والثالث للهجرة كان من هذه الفرقة ، وفى مقدمتهم محمد بن عبد الله « النفس الزكية » الذى أعلن ثورته فى المدينة على المنصور العباسى سنة ١٤٥ وكان قد أرسل أخاه إبراهيم إلى البصرة ، فاستثار أهلها ، وهبوا معه ثائرين ، وقضى المنصور على هذه الثورة . وظلت ثورات الزيديين بعد ذلك لا تهدأ إذ يخرج الحسين بن علي الحسنى فى مكة والحجاز ، ويُهَزَم هو ومن معه لعصر الهادى سنة ١٦٩ فى مكان يقال له «فَخَّ» ويفرّ خاله إدريس بن عبد الله إلى فاس ويؤسس بها دولة الأدارسة . ويفرّ أخوه يحيى إلى خراسان ويُقبض عليه ، ويلقى به فى غياهب السجون حتى موته . ويثور محمد بن إبراهيم الحسنى المعروف بابن طباطبا فى الكوفة لعهد المأمون ، ويُقبَض على ثورته . وينشط الزيديون فى طبرستان

(١) انظر فى التشيع ونخله مقالات الإسلاميين للأشعرى والفرق بين الفرق للبيهقي والملل والنحل للشهرستاني وعقائد الشيعة الإمامية لابن بابويه القمي و فرق الشيعة للنوحي والتبصير فى الدين للإسفرائينى وفصائح الباطنية للغزالي ورسالة افتتاح الدعوة للقاضى النعمان بن محمد تحقيق د. وداد القاضى (طبع بيروت) ومقدمة ابن خلدون وفجر الإسلام والجزء الثالث من ضحى الإسلام لأحمد أمين والعقيدة والشرعية فى الإسلام لجولد تسيهر .

بالنصف الثاني من القرن الثالث ، وقد صورنا نشاطهم هناك في الجزء الرابع من هذه السلسلة الخاص بالعصر العباسي الثاني .

وأكبر نشاط للزيدية إنما كان في اليمن والحجاز ، أما اليمن فقد أسس فيها إمامة الزيدية الإمام يحيى بن الحسين بن القاسم الملقب بالهادي إلى الحق ، واتخذ مقرا له - كما مرّ بنا - « صَعْدَةَ » في الجبال الشمالية باليمن سنة ٢٨٤ وتوالى بعده في صعدة الأئمة من أبنائه ، حتى سنة ٤٣٧ إذ تولى الإمارة أبو الفتح الديلمي الحسني كما مرّ بنا ، ووليها بعده أصحاب الخلفاء السليمانى ، وتعود إلى الأسرة الرّسّية : أسرة الإمام الهادي إلى الحق وتظل في أبناء المتوكل على الله الرّسى ، كما أسلفنا . وتمر أوقات رخاء على هذه الإمارة الزيدية ، فتتسع رقعتها وتستولى على صنعاء أحيانا ، ولا يزال أئمتها صامدين طوال أزمنة الأيوبيين والرسوليين والطاهريين ، ثم يصبحون وحدهم وجها لوجه أمام العثمانيين ، ويستخلصون منهم اليمن على نحو ما مرّ بنا . أما الحجاز فكان مركز الزيديين فيه مكة ، وظلت إمارتهم قائمة فيها منذ أواسط القرن الرابع الهجرى حتى العصر الحديث ، وإن أخذت تلك الإمارة في التضعف والضعف منذ استيلاء العثمانيين على الحجاز ومدينتيه في القرن العاشر الهجرى .

ومرّ بنا في الجزء الخاص بالعصر العباسي الثاني حديث مفصل عن نخلة الإسماعيلية وأن أصحاب هذه النخلة ينسبون إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ، وكانت قد أدركته المنية في حياة أبيه ، فقالوا إن الإمامة انتقلت منه إلى ابنه ، لأنها - في رأيهم - توارث في الابن الأكبر حتى لو توفى قبل أبيه كما حدث لإسماعيل . ويخلفه - في عقيدتهم - ابنه محمد ، ويخلف محمدًا ثلاثة أئمة مستورون جاء في إثرهم عبيد الله المهدي أول الخلفاء الفاطميين ومؤسس خلافتهم ، وتلقيبه بالمهدي يشير إلى عقيدتهم في المهدي المنتظر . وعرضنا في العصر العباسي الثاني تفصيلا لتلك النخلة وأهم مبادئها وأن الذي نظمها وكون حولها جمعية سرية عبد الله بن ميمون القداح ، وكان يتزل في سَكْمِيَّة بقرب اللاذقية ، واتخذ له دعاة من أهمهم شخص يسمى حمدانا ويلقب بقرمط ، وقد أرسل به إلى الكوفة وسوادها ، وإليه ينسب القرامطة ، وكان يدعو في جماعته إلى الأخذ بنظام الألفة ، وهي الشركة في الأموال . وزعم ، وزعم معه القرامطة ، كما يقول البغدادي « أن الأنبياء كانوا أصحاب نواميس ومخاريق أحبوا الزعامة على العامة ، فخدعهم بِنَيْرِنَجَات (ضروب من السحر) واستعبدهم بشرائعهم » وقالوا : « هل الجنة إلا هذه الدنيا ونعيمها ، وهل النار وعذابها إلا ما فيه أصحاب الشرائع من التعب والنصب في الصلاة والصيام والحج

والجهاد». ومن هنا كانوا يحلُّون أنفسهم من الفرائض ، واتخذوا بيت المقدس قبلتهم . والقرامطة - بهذا التصوير للبغدادى - كانوا فرقة مارقة من فرق الشيعة الإسماعيلية ، وكان من بين دعاة قرمط أبو سعيد الجنابي أرسل به إلى منطقة البحرين ، فاستجابت له هناك قبيلة عبد القيس ، مما أتاح له أن يؤسس هناك دولة القرامطة التى ظلت نحو تسعين عاما . وخلفه ابنه أبو طاهر وكان شريراً كبيراً ، وكثيراً ما قطع الطريق على الحجاج ونهبهم ، وكثيراً ما أغار على البصرة والكوفة وأحرق مساجدهما وأعمل فيها السلب والنهب . وفى سنة ٣١٧ حدثت الكارثة الكبرى بهجومه الوحشى على الحجاج فى موسم الحج يوم التروية وسفكه لدماء الآلاف منهم ورمى كثير من جثثهم فى بئر زمزم واقتلعه الحجر الأسود ونقله إلى البحرين على نحو ما مرَّ بنا ، وهو فى أثناء ذلك ينشد أشعارا كافرة مارقة . ونرى القرامطة فى سنة ٣٥٨ ينفضون أيديهم من الدعوة الفاطمية الإسماعيلية ، ومر بنا كيف أن الأعصم (٣٥٩ - ٣٦٦ هـ) حارب الفاطميين تحت ألوية الدولة العباسية سنة ٣٦٠ وظلت دولة القرامطة قائمة بعده - كما مرَّ بنا - حتى سنة ٣٧٨ . وعلى الرغم من انتهاء دولتهم ظلت عقيدتهم منبثة فى البحرين إلى أن قامت الدولة العيونىة سنة ٤٦٦ وقد عني مؤسسها عبد الله بن على بالقضاء على تلك العقيدة وكان مما قضى عليه عادة سيئة لهم هى عادة الماشوش ، إذ كان يجتمع رجالهم ونساؤهم فى الليلة العاشرة من شهر المحرم ، ويشعلون الشموع والمصابيح ويغنون ويرقصون ، ثم يطفئون الشموع ويختلطون . ويبدو أن عبد الله العيونى لم يستطع استئصال العقيدة القرمطية من نفوس أهل البحرين نهائيا ، فقد ظلت منها بقايا بعده ، بل يقول فؤاد حمزة فى كتابه «قلب جزيرة العرب» ! إنها لا تعدم فى الأحساء - إن صح ما يقول - من يعتنقونها إلى اليوم . وعُرفت الدعوة القرمطية فى اليمن ، فقد أرسل إليها حمدان قرمط داعيتين من دعائه ، هما المنصور بن حوشب وعلى ابن الفضل وكان على من أهل اليمن بينما كان المنصور من أهل الكوفة ، ونزلا على حافة اليمن النجدية ، غير أن دعوتهما اختلفت ، فكان المنصور يدعو للفاطميين قبل تحولهم من إفريقيا إلى مصر منذ العقد الثامن من القرن الثالث الهجرى ، وكأنما نفص يده من القرامطة ، وانتشرت دعوته فى بعض الجبال وبعض القبائل ، ويسميه الفاطميون منصور اليمن ، وقد ظل أربعين عاما يدعو لهم ، إذ توفى سنة ٣٣١ وخلفه ابنه فى الدعوة وشركه فيها بعض اليمنيين إلى أن تزعمها الصليحي ، كما سترى عما قليل . ونَفَضَ على بن الفضل يده ولسانه من الدعوة الفاطمية ، فلم يدعُ للفاطميين ، بل أخذ يدعو لنفسه ، واستطاع الاستيلاء على صنعاء سنة ٢٩٣ وادَّعى أنه من بنى يعرب أو قحطان ، كما مرَّ بنا ،

واستحلَّ المحارم ، ودعا الناس إلى ارتكاب المآثم وانتهت دعوته بموته سنة ٣٠٣ كما قدمنا . وظل دعاة الفاطميين الإسماعيليين نشطين باليمن إلى أن استألوا على بن محمد الصليحي للدعوة الإسماعيلية ، واستطاع - كما رأينا في غير هذا الموضع - أن يؤسس الدولة الصُّلَيْحِيَّة ، وأن يستولى على زَبِيد وصنعاء وعدن ، واتخذ صنعاء عاصمة له . وحرى بنا أن نتوقف قليلاً للحديث عن المذهب الفاطمي الإسماعيلي الذي كان يدين به هو وكثيرون من أهل إمارته . وقد ذكرنا آنفاً أن القرامطة كانوا فرعاً من المذهب الإسماعيلي ضلَّ هداه . وقد اتخذ هذا المذهب في أول أمره شكل جمعية سرية كَوَّن مبادئها عبد الله بن ميمون القدَّاح ، وهي مبادئ غُمست غمساً في نظرية الفيض الأفلاطونية التي سكبوها في نظرية الأدوار عندهم ، إذ يذهبون إلى أن الأئمة يتوالون في أدوار ، وكل دور يتألف من سبعة من هؤلاء الأئمة يتعاقبون والسابع هو العقل الكلي الناطق عن القوى الحارقة ، والأئمة الستة السابقون له نفوس كلية تمهد له وتدعم عمل الناطق قبل ظهوره . والإمام له نسبتان : نسبة إلى عالم القدس ، ونسبة إلى عالم الطبيعة . وفي مبادئهم أن قدرة الله تنتقل إلى العقل الكلي أو بعبارة أخرى إلى الإمام السابع في كل دور ، ولذلك يوصف - عندهم - بما توصف به الذات العلية من أسماء وصفات ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . وفي عقيدتهم أن آيات القرآن الكريم ينبغي أن تفهم فهماً باطنياً مجازياً ، ولا تفهم فهماً ظاهراً أو ظاهرياً ، حتى يؤوَّلوا كما يشاءون . والمتنظم في سلك الدعوة - عندهم - يتدرَّج في سبع مراتب وبلغت تسعاً . وظلت الدولة الصليحية قائمة - كما أسلفنا - حتى سنة ٥٣٢ ولم تنته الدعوة الإسماعيلية بانتهائها فقد كان بنو زُرَّيْع حكام عدن إسماعيليين فاطميين ، وظلوا على عدن حتى تسلمها منهم توران شاه سنة ٥٦٩ . وتلاشت بذلك الدعوة نهائياً بقضاء الأيوبيين عليها في اليمن ومصر ، وبقيت فترة حية في المدينة بالحجاز لما ذكرناه من أن الأسرة الحسينية الحاكمة هناك كانت إسماعيلية ، ونظن ظناً أن هذه الأسرة لم تمض بعد القضاء على الدولة الفاطمية الإسماعيلية بمصر في اعتناق هذه العقيدة طويلاً وأنها اعتنقت نخلة الشيعة الإمامية الاثني عشرية .

ومعروف أن النحلة الإمامية تسربت إلى شرقي الجزيرة ، وعند أصحاب هذه النحلة أن الإمامية تتوالى في اثني عشر إماماً . ولذلك يسمى أصحابها باسم الاثني عشرية ، وآخرهم المهدي المنتظر المتوفى سنة ٢٦٠ وقد ذهبوا إلى أنه لم يمت وإنما غاب وسيعود ليملأ الأرض عدلاً . ولم تقم للإمامية دولة في الجزيرة العربية ، غير أنها تسربت إلى بعض البيئات وبعض الأسر في الخليج العربي ، وقد مر بنا أنه غلب على البحرين بعد القرامطة ولما كانوا يدينون

بالولاء للخليفة العباسي وبالتالي للبويعيين ، ومعروف أنهم كانوا إمامية اثني عشرية ، وفي نفس التاريخ يحدثنا المؤرخون أنه كان في عُمان بيت إمامي اثنا عشرى هو بيت بنى المكرم ، وأنهم ، كما مر بنا ، دفعوا البويعيين إلى غزو عمان واستخلاصها من أيدي خوارج نَزَوَى ، وظلت هذه الأسرة الإمامية تحكم عمان حتى منتصف القرن الخامس الهجري ، ولم يكن الإمامية غلاة متطرفين في التشيع مثل الإسماعيلية وهم يؤمنون برجعة الإمام الثاني عشر المحتفى كما أسلفنا . ولا يزال يوجد إماميون في الخليج العربي وإماراته إلى اليوم .

والكيسانية أتباع محمد بن الحنفية ، وهو أخ ربيب للحسن والحسين ، وقد تبعته منذ حياته فرقة كانت تؤمن بالتناسخ وبالرجعة وكان ابن الحنفية يتبرأ منها أشد التبرؤ ، ويتوفى ، فيقول أتباعه إنه لم يمت ، بل غاب في جبل رَضَوَى ، ويقول فؤاد حمزة في كتابه « قلب جزيرة العرب » يوجد في الوقت الحاضر أتباع لمحمد بن الحنفية يقيمون في جبل رَضَوَى بالقرب من يَنْبَع وهم على شيء عظيم من البداوة والتوحش والبعد عن مخالطة أهل المدن .

٤

الخوارج : الإباضية^(١)

الإباضية نسبة إلى عبد الله بن إِباض التيمي أحد أربعة كانوا رءوس الخوارج في منتصف القرن الأول الهجري وحوهم تكونت فرقهم الأساسية : الأزارقة والنجدات والصفرية والإباضية ، والأزارقة أتباع نافع بن الأزرق وكان مسرح نشاطهم بلاد فارس وكرمان ، والنجدات أتباع نجدة بن عامر الحنفي وكان مسرح نشاطهم اليمامة والبحرين ، والصفرية أتباع زياد بن الأصفر وكان مسرح نشاطهم الموصل وبلاد الجزيرة . وكان مسرح نشاط الإباضية عمان وحضر موت واليمن ، وقد انتهت الفرق الثلاث الأولى أو كادت بانتهاء العصر الأموي ، أما فرقة الإباضية فظلت حية لا في بيئتها الأصلية عمان وحضر موت فحسب ، بل أيضا في بلاد المغرب ، فقد ذهب هناك دعاة مبكرون في

(١) انظر في الإباضية الكتب المذكورة في تاريخ عمان وأمراتها والملل والنحل للشهرستاني ومقالات الإسلاميين للأشعري والفرق بين الفرق للبغدادى وفجر الإسلام لشيخ الإسلام لأحمد أمين وحاضر العالم الإسلامى لشكيب أرسلان ومختصر تاريخ الإباضية لأبى ربيع سليمان البارونى (طبع المطبعة السلفية بالقاهرة) .

العصر الأموي أو بعبارة أدق في أواخره ، وما زالت الدعوة تنمو في المغرب ، حتى استطاع الدعاة أن يكونوا دولة للإباضية في تيهرت . ولا يزال الإباضية بالمغرب إلى اليوم وخاصة في جنوبي الجزائر وليبيا .

أما في عُمان وحَضْرَمَوْت فقد اتخذ الإباضية نَزْوَى جنوبي الجبل الأخضر في داخل إقليم عمان مركزاً وحاضرة لهم وتوالى أئمتهم فيها منذ أول العصر العباسي ، وكثيراً ما كانت تخرج عمان والسواحل من أيديهم إلى أيدي العباسيين . وقد تغلب القرامطة على عمان سنة ٣١٧ كما مر بنا وظلوا بها حتى سنة ٣٦٢ ويعود إليها الإباضية غير أن بني مكرم الإماميين يستخلصونها منهم سنة ٣٩٠ ويضعف بنو مكرم فيعود إليها الإباضية من نَزْوَى قبيل منتصف القرن الخامس . وتخرج من أيديهم في القرن السادس ويملكها بنو نهان ، وتعود إلى الإباضية فترة في أول القرن العاشر الهجري ، ثم تعود إليهم نهائياً ويتولاها أئمة الإباضية البعاربة منذ سنة ١٠٢٤ . وتختلفهم أسرة إباضية أخرى هي أسرة البوسعيديين منذ سنة ١١٥٤ هـ / ١٧٤١ م وتظل عليها إلى اليوم ، وترك السلطة الدينية لأئمة نَزْوَى وتكتفي بالسلطة الزمنية . ومن قديم كان يغلب على ظفار وحضرموت مذهب الإباضية ، ومرَّ بنا أنه نزلها سنة ٣١٧ الشيخ أحمد بن عيسى جد آل باعلوى وقد نشر فيها مذهب الشافعي ودعوة علوية تحولت إلى دعوة سنية كانت تحدث تعادلاً مع دعوة الخوارج ، ولأسرته نشاط علمي وأدبي كبير في حضرموت ، ومرَّ بنا أن أبا إسحق الخارجي الحضرمي استقل بها في القرن الخامس ، وكان خارجياً يدين بالولاء لإباضية نَزْوَى وإمامهم الخليل ابن شاذان ، وكثيراً ما كانت تخضع حضرموت وظفار للإباضية في نَزْوَى أو فيها وفي عُمان . وقد نشر العثمانيون المذهب الإباضي في زنجبار والبلاد التي كانت تتبعهم في شرق إفريقيا مثل دار السلام ، ومعروف أنه أخذ يستقل بزنجبار فرع من أسرة البوسعيديين حكام عمان منذ الربع الأخير من القرن الثالث عشر الهجري .

ومذهب الإباضية أكثر مذاهب الخوارج قرباً إلى أهل السنة ، وهم يذهبون إلى أن دار مخالفتهم من المسلمين دار توحيد ويسمون الموحد العاصي كافراً ، ولا يقصدون بذلك أنه مشرك بالله ، بل يقصدون بكفره أنه كافر بالنعمة ، والكفر بذلك عندهم نوعان : كفر نعمة وكفر شرك بالله . وأحلوا التزوج من مخالفتهم المسلمين وأن يتوارث الإباضي معهم . ولم يستحلوا من أموال المسلمين إلا غنائم الحرب ، وحرَّموا قتل المسلمين غيلةً وكذلك سبهم سراً . وقالوا إنه لا يجوز قتلهم إلا بعد دعوتهم إلى مذهبهم الإباضي وإقامة الحجة عليهم وإعلان الحرب . وأجازوا شهادة مخالفتهم على أوليائهم وأتباعهم ، وقالوا في مرتكبي

الكبائر إنهم موحدون لا يؤمنون ، وهم كفار نعمة لا كفار ملة . وعندهم أن الإيمان لا يكنى فيه القول ولا الاعتقاد والتصديق ، بل لا بد من العمل وأداء فروض الدين . ويتفقون مع المعتزلة في نفي رؤية الله تعالى بالأبصار يوم القيامة ويتزهون الذات العلية عن الشبه بال مخلوقات ، ويقولون إن القرآن مخلوق حادث ، وإذا صح ما يقوله الشهرستاني كانوا يتفقون مع الأشعرية في رأيهم أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى إحداثاً وإبداعاً ومكتسبة للعبد حقيقة لا مجازاً . ولا يتسمى إمامهم باسم أمير المؤمنين ، ولا يسمون أنفسهم مهاجرين .

وهذا الاعتدال في مذهب الإباضية يجعلنا ننفي عنهم نفيًا باتأدولة بني مهدي الخارجية التي استولت على زبيد باليمن سنة ٥٥٤ للهجرة كما مر بنا ، فقد تسمى مؤسسها بأمر المؤمنين كما تسمى بالمهدي ، وكأنه جمع بين فكرتي الشيعة الإسماعيلية والخوارج الغالين معا مثل الأزارقة من جهة والقرامطة من جهة ثانية ، إذ كان - كما أسلفنا - يكفر بالمعاصي ويقتل من اقترف كبيرة وبالمثل كل من خالف عقيدته من المسلمين واستباح نساءهم وسمى دارهم دار حرب . وهو في ذلك كله غال غلوا شديدا حتى ليتقدم الأزارقة خطوة في الغلو ، ثم هو يدعى العصمة ويدعيها له أتباعه وهو في ذلك غال غلو الشيعة الإسماعيلية ، بل إنه ليعد نفسه المهدي المنتظر ، ولم يلبث توران شاه - كما مر بنا - أن قضى على من خلفه ودولتهم الخارجية الشيعية .

٥

الدعوة الوهابية السلفية^(١)

دعوة للرجوع إلى طريق السلف ونبد البدع التي شابت العقيدة الإسلامية ونبد تقديس الأولياء الصالحين والتوسل بهم إلى قضاء الحاجات ، كالبركة في الزروع أو في الأغنام والأنعام أو في براء المرضى وشفائهم ، وابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨ للهجرة هو أكبر من حمل على البدع وما يتصل بها من تقديس بعض الأشجار

(١) انظر كتاب الإيمان لابن تيمية (طبع دمشق) وقاعدة جلييلة في التوسل والوسيلة ومجموعة الرسائل الكبرى (طبع القاهرة) وكتاب التوحيد وكشف الشبهات في التوحيد لمحمد بن عبد الوهاب طبع القاهرة ولمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب للربكي وعنوان المجد في تاريخ نجد لعثمان بن بشر وروضة الأفكار لحسين بن غنام وزعماء الإصلاح لأحمد أمين والعقيدة والشرعية في الإسلام لجولد تسيبر

والأحجار ، وكان حنبلياً يؤمن بعقيدة الحنابلة السلفية ، وقد مضى يحمل حملات شعواء على الصوفية وعقيدتهم ، وأنكر زيارة قبور الأولياء والتوسل بهم . وكان الغزالي قد وصل بين التصوف والشريعة محاولاً تحليله من نظريات الحلول وما يتصل بها وجعله تصوفاً سنياً ، وقد شنَّ ابن تيمية على التصوف بعض الحملات العنيفة ، وناهض المذهب الأشعري وكل ما شاب العبادات والعقود والمعاملات مما رآه بدعاً جديدة .

وعلى هدى من هذه الدعوة التي وهب ابن تيمية نفسه ومؤلفاته لها انبرى محمد ابن عبد الوهاب المولود سنة ١١١٥ هـ / ١٧٠٣ م بالعُيَنة في إقليم سدير بأواسط نجد يدعو دعوة حارة إلى مبادئه ، وكان أبوه قاضياً للعيينة وعليه تلقى دروسه الأولى وكذلك على علمائها ثم على علماء المدينة فعلماء البصرة ، وأعجب بكتابات ابن تيمية فأكتب على قراءته ، وعاد إلى موطنه ، يدعو إلى مذهبه الحنبلي وإلى كل ما دعا إليه من عبادة الله دون استعانة بولي أو شفيع وببذ كل البدع المستحدثة بعد عصر الإسلام الأول وكل تقديس للأولياء وزيارة لقبورهم بقصد التيمن أو البركة أو طلب بعض الأغراض الدنيوية ، والرجوع إلى السنة والعمل على إحيائها ، واتباع السلف في ذلك كله ، ولذلك يسمى الوهابيون أنفسهم سلفية . وكتب لهذه الدعوة أن تعم وتتشر حين وضع محمد بن سعود أمير الدرعية (١١٣٧ - ١١٧٩ هـ) . يده في يد محمد بن عبد الوهاب سنة ١١٥٨ هـ / ١٧٤٤ م وعاهده على أن ينشر دعوته السلفية وأن يقيم الحدود الشرعية ، وأن تصبح الدعوة عقيدة الدولة السعودية ، بحيث ينبذ النجديون البدع والخرافات ويتمسكون بأهداب الدين وأصوله من القرآن والحديث .

وأخذ محمد بن سعود وخلفاؤه يعملون على نشر الدعوة ، وأداهم ذلك إلى حروب طاحنة في الجزيرة انتهت بقيام المملكة العربية السعودية التي تظلُّ نجد والأحساء والحجاز اليوم . وفي الوقت نفسه أخذ محمد بن عبد الوهاب المتوفى سنة ١٢٠٦ هـ / ١٧٩٢ م في الدرعية يث تعاليمه وينشرها في أتباعه بمحاضراته ومصنفاته الكثيرة ، وفي مقدمتها كتاب التوحيد ومجموعة التوحيد إلى غير ذلك من كتب تنادى بعبادة الله وحده وأن زيارة قبور الأولياء لقضاء الحاجات ضرب من الشرك . وبالع اتباعه في هذا المبدأ فنبذوا الاحتفال بالموالد وهدموا القباب المقامة على قبور بعض الصحابة والصالحين ، وتشددوا في قمع كل عادة مستحدثة وعدوها بدعة حتى التذكير قبل الأذان وحتى استعمال المسابح وكذلك لبس الحرير والتختم بالذهب . والدعوة الوهابية إنما كانت تريد أن يعود الإسلام إلى صورته الأولى ، كما كان في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولذلك دعت إلى نبذ كل

ما اتخذ صفة شرعية على مر الزمن من عادات وسنن لم تعرف في العهد الإسلامي الأول ، ونادت بأنه يجب إزالته ، حتى لو كانت بعض المذاهب السنية الأخرى أباحت ، بل حتى لو جحدته . وكان اعتناق الحكومة السعودية لهذه الدعوة اعتناقاً في الوقت نفسه للمذهب الحنبلي ، وتوثقت مع الزمن العلاقة بين أسرة السعوديين وأسرة محمد ابن عبد الوهاب عن طريق المصاهرة ، وظلت للأسرة السعودية السلطة الزمنية ، بينما ظلت لأسرة ابن عبد الوهاب السلطة الروحية ، فلأولين الحكم والسياسة وللثانين الإفتاء والتعليم والقضاء .

٦

الزهد والتصوف^(١) :

لم تكن نجد تعرف شيئاً عن الترف والنعيم ، إذ كانت حياتها تقوم على غير قليل من الشظف ، فطبيعي أن لا يتعلق الناس بمتاع الحياة الدنيا ، وحقا كانت بعض القبائل النجدية تقطع الطرق على الحجاج في بعض السنوات طلباً لما في أيديهم من مال ومتاع ، ولكن كان وراءهم أقوام لا يفكرون في متاع الحياة العاجل انتظاراً لما عند الله من الثواب الآجل . ومعروف أن الوهابيين منعوا التلصص وقطع الطرق على الحجاج ، كما منعوا التصوف والانتساب إلى الطرق الصوفية .

وكانت المدينتان المقدستان في الحجاز ، ولا تزالان ، موثلاً للنسك والعباد ، ومن قديم كان يجاور فيها وخاصة في مكة كبار الزهاد والمتصوفة ، فيقيمون فيها بضع سنوات ، وقد ينفقون فيها العمر كله . ومعروف أن الحج ركن من أركان الإسلام وأن فؤاد كل مسلم يهوى إلى مكة لأداء فريضة الحج فكان طبيعياً أن لا يوجد زاهد ولا متصوف مشهور في العالم الإسلامي دون أن يفد على مكة ، وقد يقرن حجه بالزيارة النبوية . ونذكر من كبار المتصوفة الذين ألما بمكة وجاوروا فيها الحلّاج المقتول سنة ٣٠٩ للهجرة ، جاور فيها سنة كاملة . ومرّ بنا في العصر العباسي الثاني ترجمة له وعرض لشعره الصوفي وبيان لتصوفه وأنه كان تصوفاً فلسفياً ، إذ جرت على لسانه كلمات الاتحاد

(١) انظر العقد الثمين في مواضع متفرقة وكتاب طبقات فقهاء اليمن للجعدى (طبع القاهرة) والعقود اللؤلؤية ، وتاريخ الشعراء الحضرميين لعبد الله السقاف وسلافة العصر لابن معصوم وشعراء هجر لعبد الفتاح الحلو (نشر مكتبة دار العروبة) .

والحلول . ومن جاور في مكة بعده القشيري المتصوف السني المتوفى سنة ٤٦٥ وقد سمع بها الحديث ، وهو الذي رأب الصدع المتفاقم بين الفقهاء والمتصوفة ، فنحى عن التصوف أفكار الحلول والاتحاد والفناء ، وجعل من أول واجبات المتصوف أداء الفروض الدينية ، وجاور بمكة بعده شهاب الدين السُّهروردي شيخ الصوفية ببغداد المتوفى سنة ٦٣٢ وبها لقي ابن الفارض المتصوف المصرى المشهور الذى كان يجاور هناك ، وطالت مدة مجاورته إلى خمسة عشر عاما طويلا ، وهو يطوف المشاعر مبتهلا إلى الله متغنيا بالحب الصوفى الإلهى ناظما أشعاره الرائعة . وإنشاد البوصيرى لميمته أمام قبر الرسول ﷺ ذائع مشهور . ومن متفلسفة المتصوفة الذين جاوروا بمكة ابن عربى المتوفى سنة ٦٣٨ وفيها نظم ديوانه الصوفى « ترجمان الأشواق » سنة ٥٩٨ ووضع عليه بمكة أيضا سنة ٦١٠ شرحه المسمى : « الذخائر والأعلاق من شرح ترجمان الأشواق » وجاور بها أيضا من متفلسفة المتصوفة ابن سبعين الأندلسى المتوفى بها سنة ٦٦٩ بعد أن أقام بها سنين كثيرة . ومن ذكرناه من هؤلاء المتصوفة المجاورين بمكة إنما هم قليل من كثير ، وأكثر منهم من جاوروا بمكة من الزهاد والعباد وهم لا يحصون كثرة . وكان يتعبد الله معهم أهل المدينتين ومن كان بهما من النساك وإنهم ليفوتون الحضر والاستقصاء ، ولنأخذ مثلا كتاب العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين « مكة » فإن من يتصفح تراجمه فى مجلداته الثانية لا يزال يتنقل فيها من زاهد إلى زاهد ومن عابد إلى عابد .

وإذا ولينا وجوهنا نحو اليمن وجدنا كتاب طبقات فقهاء اليمن لعمر الجعدى لا يزال يتحدث عن زهد كثير من هؤلاء الفقهاء وإعراضهم عن متاع الدنيا الفانى ، وحقاً أكثرهم من فقهاء زبيد الشافعية ، ولكن الزهد كان يحسب فى كل البيئات وفى كل المدن . وكان كثير من أئمة الزيدية فى صَعْدَة على جانب كبير من الورع والتقوى وكان لذلك أثره فى إمارتهم ، فأكبَّ فيها كثيرون على النسك والعبادة ، وبالمثل كان الرسوليون أو كانت كثرة حكاهم . ولم تكتفِ اليمن بالزهد ، فقد عرفت التصوف السنى وطرقه من شاذلية وجيلانية ورفاعية ، واشتهر عندهم صوفى كبير يسمى أحمد بن علوان المتوفى سنة ٦٦٥ للهجرة وله أتباع كثيرون أو بعبارة أدق دراويش يسمونهم فى اليمن المجاذيب ، وهم يطوفون فى البلدان اليمنية مرددين أغاني وأناشيد فى مديح قطيهم الربانى ، ويبدو أنه كان من كبار أتباع الطريقة الرفاعية العراقية التى شاعت منذ أواسط القرن السادس ، يدل على ذلك ما يُرى عند أتباعه إلى اليوم من احتمال الآلام الجسدية ، مصورين بذلك مقدرتهم الحارقة . ومرَّبنا فى حديثنا عن المجتمع اليمنى والغناء فيه أنهم كانوا يتغنون هناك بمقطوعة

لابن الفارض ، ولعل في ذلك ما يدل على صلة التصوف اليمنى بالتصوف السني المصري عند ابن الفارض وأمثاله ، ولا يبعد أن تكون أشعار البوصيري في مدائح الرسول ﷺ وصلتهم ، وتغنوا بها إذ لا نصل إلى نهاية القرن الثامن الهجري حتى يلقانا عندهم شاعر صوفي سني هو عبد الرحيم البرعي المتوفى سنة ٨٠٣ للهجرة ، وأشعاره موزعة بين التصوف أو الحب الإلهي والمدائح النبوية . وعلى غرار محمد بن إبراهيم الوزير ، وله ديوان شعر كله ابتهالات وزهد وتصوف . ومن صوفية اليمن وزهادهم وراء من سميناهم عبد الله بن أسعد اليافعي صاحب كتاب مرآة الجنان المتوفى سنة ٧٦٨ وكان كثير العبادة والورع وجاور بمكة وقد تجرد للعبادة والنسك عشر سنوات يتردد فيها بين الحرمين ، وزار مصر ، وكان ابنه عبد الرحمن زاهداً صوفياً على شاكلته وصحب الصالحين ببلاذ كثيرة . وما زالت موجتا الزهد والتصوف تنتشران في اليمن ، وإن كان يلاحظ أن موجة التصوف خفت في عهد الإمامة الزيدية حين أصبح لها زعامة اليمن في مواجهة العثمانيين ، ولم يكن العثمانيون يعارضون الطرق الصوفية ولا كانوا يتعرضون لأهلها ، بينما كان كثيرون من أئمة الزيديين وأتباعهم يحاربون حلقات الذكر المنتشرة في البلاد ، حتى نهاية هذا العصر .

وعلى نحو ما كان الزهد والتصوف منتشرين في اليمن كانا أيضاً منتشرين في حضرموت حتى لنجد عبد الله السقاف في كتابه عن شعرائها يقول في مقدمته : إنك ترى في شعرهم جميعاً طلاء صوفياً . وفي الكتاب شعر زاهد كثير وكذلك شعر صوفي كثير في محبة الله ومحبة رسوله ومدحه . ويكثر عند السقاف وصف الشاعر بلقب الصوفي الزاهد التقى الورع . ومن الشعراء الصوفية الذين ترجم لهم أبو بكر العيدروس المتوفى سنة ٩١٤ وعمر باخمرة المتوفى سنة ٩٥٢ وكان كلما سار حفاً به مريدون يذكرون الله وقد يتغنون ويرقصون ، وكان له مجلس ذكر وسماع وغناء . ومن ترجم لهم أيضاً السقاف عبد الله الحداد العلوي المتوفى سنة ١١٣٢ وعبد الرحمن بن مصطفى العيدروس المتوفى سنة ١١٩٢ ويفيض كتاب السقاف بسبيل من شعر الزهد والتصوف .

ولم تكن عُمان وإقليمها يوماً بيئة تصوف لغلبة الخوارج الإباضية عليها ، وهم بدون ريب أصحاب زهد وتقشف ، وقد وصف أبو حمزة الخارجي شباهم قديماً بأنهم « غضيضة عن الشر أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أرجلهم ، أنضاء عبادة وأطلاح (أنضاء) سهر » وطبيعي أن يتغنى شعراؤهم بالزهد والنسك والعبادة والتقشف ورفض عرض الحياة الزائلة ابتغاء ما عند الله من الثواب الآجل . ونجد عند شعراء بني نهان لمعة من الزهد والمديح النبوي .

وكانت البحرين بعيدة عن الزهد والتصوف في عصر القرامطة ، وفي ديوان ابن مقرب العيوني بعض أشعار قليلة زاهدة ، وهي تشيع في كتابي سلافة العصر لابن معصوم ونفحة الرياحانة للمحبي ، وتشيع معها أو تكثر ابتهالات ومناجيات للذات العلية وبعض غزليات فيها روح الغزل الصوفي وما يشيع فيه من وجد . وتلقانا في كتاب شعراء هجر من القرن الثاني عشر إلى القرن الرابع عشر مواعظ وبعض أشعار زاهدة .

المطالعة الأخيرة

١- الحيا ، رر رر رر ، سدة السبع

٢- نحب واما رر رر

٣- السبع و رر رر

٤- هورقة رر رر

٥- حياه ، ٦- البحر رر رر

المطالعة الأخيرة في الجزيرة

المطالعة الأخيرة في الجزيرة العرب

١- السبع ،

٢- الحياه رر رر

٣- السبع رر رر

٤- رر رر رر

الفصل الثاني

الثقافة

١

الحركة العلمية^(١)

منذ ظهور الإسلام وإرسال الرسول ﷺ معلمين إلى القبائل والقرى في الجزيرة العربية يعلمون الناس شئون دينهم الحنيف اختطت الحركة العلمية لنفسها جداول ظلت تتدفق في كل ركن من أركان الجزيرة ، وظلت تمدها جداول من البصرة والكوفة وبغداد ودمشق والفسطاط والقاهرة وكل مدن العالم الإسلامي . ومعروف أنه من أهم ما يميز الحركة العلمية العربية في جميع ديار العرب وأقاليمهم أنها عامة ، وليست خاصة بإقليم معين ، إذ كان كل ما يظهر بإقليم من مصنفات علمية سرعان ما يفد على الأقاليم الأخرى ، وسرعان ما تتعده وتضيف إليه إضافات كثيرة .

ومعنى ذلك أننا إذا تحدثنا عن الحركة العلمية في الجزيرة العربية لهذا العصر لم يكن مؤدى ذلك أنه كان لها حركة علمية مستقلة ، فقد كانت حركتها العلمية فرعاً من فروع الشجرة الكبرى ، شجرة الحركة العلمية العربية العامة ، إذ نلتقي في كل مكان بأسماء الكتب العلمية المهمة المعروفة لنا في بغداد وغير بغداد ، وكأنه كان هناك نهر كبير للثقافة العربية كانت جداوله ونهراؤه تجري في كل مكان وفي كل دار من أقصى الشرق في خراسان إلى أقصى الغرب في الأندلس .

وتتغلغل جداول هذه الثقافة حتى في نجد : البيئة التي يُظن أنها كانت بعيدة عن الحركة

الحضريين للسقاف وصفحات من التاريخ الحضري لسعيد عوض باوزير وتحفة الأعيان لور الدين السالمى وعان تاريخ يتكلم لمحمد السالمى وعساف وشعراء هجر من القرن الثاني عشر إلى القرن الرابع عشر لعبد الفتاح الحلو وساحل الذهب الأسود لمحمد سعيد المسلم .

(١) انظر في الحركة العلمية ترجمة ابن دريد والسيرافي في ابن خلكان والعقد الثمين وتاريخ عمارة البني والعقود اللؤلؤية وسلافة العصر لابن معصوم ونشر العرف لزبارة والبدر الطالع للشوكاني والنور السافر للعيدروس وتاريخ مكة لأحمد السباعي (مطابع دار قرينش بمكة) وثرعدين لباعزمة والمقتطف من تاريخ اليمن للجغرافي وتاريخ الشعراء

العلمية لما يحيط بها من أسوار الصحراء ، فقد كانت قراها لا تخلو من بعض المعلمين والوعاظ ، وكانت تُتلى فيها كتب الشريعة وأيضاً كتب العربية بأخرة . وكانت القبيلة النجدية بمجرد أن تتحول قليلاً أو كثيراً من البداوة إلى التحضر تنهض فيها حركة علمية نشطة ، على نحو ما حدث في بني مزَيد وقبيلتهم بني أسد حين أسسوا مدينة الحِجْلَة بالقرب من الكوفة واستقروا فيها بعض الاستقرار ، وأيضاً على نحو ما حدث في بني عُقَيْل حين اتخذوا لهم إمارة في الموصل ، فإن القبيلتين جميعاً قادتا حركة علمية في ديارهما ، وقد عادت جميعاً إلى نجد وحياة البداوة مع القرن السادس الهجري . ومن المؤكد أن قرى نجد مثل اليمامة (الرياض فيما بعد) وبريدة وحائل والعيينة والدَّرْعِيَّة لم تخلُ في أى عصر من شيوخ يختلف الشباب والشيوخ إليهم لتلقى كتب الفقه والتفسير والحديث النبوى . ومنذ ظهور محمد ابن عبد الوهاب استحالت نجد إلى دار كبيرة للدعوة الوهابية ولمدارسة كتب محمد بن عبد الوهاب نفسه وكتب إماميه : أحمد بن حنبل وابن تيمية .

وإذا تركنا نجداً إلى المدينتين المقدستين في الحجاز : مكة والمدينة وجدنا الحرمين المكي والمدني يتحولان في عصر مبكر إلى جامعتين كبيرتين ، بحيث يصبحان من أهم المراكز العلمية في البلاد العربية ، لسبب مهم سبق أن عرضنا له في غير هذا الموضع ، وهو أن كثرة كبيرة من العلماء النابهن بالأقطار العربية في كل عصر كانوا ينزلون مكة ويقيمون فيها سنوات طوالاً ، وقد يمضون فيها بقية حياتهم ، وبالمثل كانوا ينزلون المدينة ، غير من كان فيها وفي مكة من علماء الشريعة والعربية . وتفيض كتب التراجم بأسماء هؤلاء العلماء ، ويكفي أن تصفح مثلاً كتاب العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين : مكة لترى مبلغ من كان فيها من العلماء من كل صنف ، وكان لكل عالم حلقة ، فلمقرئ القرآن الكريم حلقة وكذلك للمفسر والمحدث والفقيه وعالم الكلام وعالم العربية وعالم المنطق وعالم الرياضيات وعالم التصوف . وتتعدد الحلقات بتعدد الشيوخ حتى لتعد بالعشرات . وأنشئت بجانب هاتين الجامعتين مدارس ، فقد بنى بمكة السلطان نور الدين رأس الدولة الرسولية مدرسة ، رتب لها مدرسين وإماماً ومؤذناً وطلاباً يتعلمون ، ووقف عليها أوقافاً دائرة . وتعاقب بعده بناء المدارس في مكة والمدينة ، بينها بعض السلاطين الرسولين وبعض الأفراد وبعض سلاطين مصر على نحو ما هو معروف عن مدرسة السلطان قايتباى التي بناها بجوار الحرم المكي ورصد لها أوقافاً كثيرة . وعُنى العثمانيون بعد استيلائهم على الحرمين ببناء المدارس ، من ذلك بناؤهم أربع مدارس بمكة سنة ٩٧٢ لتدريس مذاهب الفقه ، وتكاثر المدارس في المدينتين المقدستين وتكاثر الكتابات وخاصة منذ القرن الثالث عشر الهجري .

ونشطت الحركة العلمية في اليمن من قديم ، بسبب توزيعها بين إمارات كانت تتنافس فيما بينها علميا وأديبا مما جعل كلا منها تحاول جذب العلماء إلى دائرتها ومحيطها ، وكان كثير من الأمراء أنفسهم علماء ، فالأمير علي بن محمد الصليحي مؤسس الدولة الصليحية الإسماعيلية كان عالما ، ويقول عنه عمارة : « كان عالما وفقها مستبصرا في علم التأويل وخطيبا بليغا » وكانت زوجة ابنه الأمير المكرم المسماة الملكة الحرة أروى بنت أحمد الصليحية تتعمق علوم الدعوة الفاطمية ، ووقفت أوقافا كثيرة لتدريس صحيح البخاري مع أنها كانت إسماعيلية العقيدة . وكان جياش من آل نجاح أمراء زبيد مؤرخا وصنف « المفيد في أخبار زبيد » واختصره عمارة اليمنى ونشر مختصره ، ومن وزراء هذه الدولة سرور الفاتكي ، وكان يشجع العلماء وفرض لهم رواتب . ويقول عمارة اليمنى إنه رأى جريدة هذه الرواتب التي كانت تُدفع إلى الفقهاء والقضاة وعلماء الحديث والنحو واللغة ، فوجدها اثني عشر ألف دينار في كل سنة . وبالمثل عُرف بنو زريع أمراء عدن بإكرام العلماء والشعراء وإسباغ العطايا والجوائز عليهم . وحين تسلم الرسوليون زمام الأمور أخذوا ينهضون بالحركة العلمية نهضة واسعة يتقدمهم في ذلك مؤسس دولتهم نور الدين إذ بنى في تعز عاصمته الصيفية مدرستين وفي عدن مدرسة وفي زبيد عاصمته الشتوية ثلاث مدارس : مدرسة للشافعية ومدرسة للحنفية ومدرسة للحديث النبوي ، ورتب في كل مدرسة مدرسا ومعيدا وطلابا وإماما ومقرئا ومؤذنا ، ورصد لكل مدرسة أوقافا تقوم بكفائها وتسد حاجتها . وخلفه ابنه السلطان المظفر وهو صاحب جامع المظفرية في تعز وجوامع أخرى في أنحاء إمارته وبنى مدرسة بتعز ، وأخرى بظفار وكانت تتبعه . وابنتي أحد رجاله المسمى بدارا المظفري بزيد مدرسة للشافعية ومدرسة للقراء بالقراءات السبع ومدرسة للحديث النبوي ووقف عليها جميعا أوقافا وفيرة . وخلفه ابنه السلطان الأشرف ، وكان عالما في فنون مختلفة وله عدة مصنفات ، منها كتاب بطرفة الأصحاب في معرفة الأنساب وكتاب تحفة الآداب في التاريخ والأنساب وكتاب جواهر التيجان ، وتعمق في علوم الأوائل ، وله كتاب في الأسطrolاب وكتاب الجامع في الطب ، وولى بعده أخوه المؤيد ، وكان عالما أديبا ، ويقال إنه كان يحفظ مقدمة طاهر بن بشاذ النحوي المصري وكتاب الجمل في النحو للزجاجي وكفاية المتحفظ في اللغة ، ودرس كتاب التنبيه في الفقه الشافعي لأبي إسحق الشيرازي وسمع الحديث النبوي من حفاظه الأعلام وأجازه منهم أبو العباس أحمد بن محمد الطبري شيخ السنة بالحرم المكي وأذن له في رواية البخاري والترمذي عنه وناوله صحيح مسلم ، وجمع من الكتب ما لا يكاد يُحصى ، واختصر كتاب الجمهرة في البيزرة وألف في الطب كتاب

العمدة . وأشهر بعده حفيده السلطان الأشرف إسماعيل بتشجيعه الحركة العلمية ، وحين علم في سنة ٧٨٨ بتأليف القاضي جمال الدين محمد بن عبد الله الريمى كتابه « التفقيه في شرح التنبيه » في أربعة وعشرين جزءاً أمر بحمل هذا الكتاب على رءوس الفقهاء من بيت المصنف إلى مجلسه ، مزفوقاً بالطبلخانة ، وحين وصل الكتاب ومصنفه منحة مكافأة لجهده العلمى : ثمانية وأربعين ألف درهم تعظيماً للعلم والعلماء ، ورَفْعاً لدرجة الشيخ . ويقول الخزرجى إنه طرّز كتبه التاريخية باسمه وإنه ألفها بناء على إشارته ، ويذكر عنه أنه رتب في سنة ٧٩١ بجامع الملاح ستة مدرسين ومقرئاً للقراءات السبع ومحدثاً ومدرّسين : شافعيّاً وحنفيّاً ومدرسين : في النحو والفرائض ، ورتب فيه إماماً ومؤذنين وقيمين وخطيباً ومعلماً وأبتاماً يحفظون القرآن وشيخاً صوفيّاً . وكان الخزرجى نفسه أحد المرتبين لإقراء القرآن . وأمر السلطان الأشرف بعد المساجد والمدارس في سنة ٧٩٥ بزييد فكانت مائتين وبضعاً وثلاثين . ومعروف أن المساجد في العالم الإسلامى كانت مدارس تُعقد فيها دائماً حلقات للطلاب والعلماء . ولعل في هذا ما يدل على مدى النهضة العلمية باليمن في عهد الرسولين ، وبلغ من عنايتهم بذلك أن أشترك معهم نساؤهم في بناء المدارس والجمامع والمساجد . وقصد اليمن حينئذ كثير من العلماء ، ومن أهمهم الفيروزابادى صاحب كتاب القاموس المحيط ، ألفه في زَيد ، ونوّه في مقدمته بالسلطان الأشرف ، وقد أنزله منزلة رفيعة ، ويقال إنه لما أَلَف كتابه الإسعاد بالإصعاد إلى درجة الاجتهاد سنة ٨٠٠ للهجرة أمر السلطان الأشرف أن يُحمّل الكتاب إلى بابه مزفوقاً بالطبول في موكب كبير حضره سائر الفقهاء والقضاة والطلبة ، وأمر للفيروزابادى ثواب ثلاثة آلاف دينار ، إذ كان الكتاب في ثلاثة أجزاء ، فجعل لكل جزء ألفاً . ومن مآثر هذا السلطان بناء مدرسة كبيرة في تعزّ . وفي الحق أن دولة الرسولين عملت بكل ما استطاعت على إحداث نهضة علمية خصبة في اليمن ، ويقال إن بين سلاطينها من بلغت مكتبته مائتي ألف مجلد ، وكانوا يمنحون مكافآت كبيرة لمن يهديهم كتباً نفيسة أو نادرة . وأهتم بنوطاها الذين خلفوهم بهذه النهضة ولكن لم يبلغوا مبلغهم في العناية ببناء المدارس وبالعلم والعلماء .

ومنذ اتخذ الرّسّيون صَعْدَة مركزاً لدعوتهم في أواخر القرن الثالث الهجرى ، وهم يبعثون فيها حركة علمية كانوا هم قادتها ، فكثيرون منهم ألفوا في الفقه الزيدى وفي علم الكلام وفي غير ذلك من مواد الثقافة العربية يتقدمهم الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم مؤسس الدعوة الزيدية في اليمن . ولالإمام المهدي المتوفى سنة ٤٠٣ مؤلفات مختلفة وكذلك لأبى الفتح الديلمى المتوفى سنة ٤٤٤ ولالإمام المنصور بالله المتوفى

سنة ٥٩٨ وللإمام المهدي أحمد بن الحسين المتوفى سنة ٦٥٦ وللإمام المنصور بالله الحسن بن بدر الدين المتوفى سنة ٦٧٠. وعلى هذا النحو شارك كثير من أئمة الزيدية باليمن في النهضة العلمية. ويشتهر الإمام شرف الدين يحيى المتوفى سنة ٩٦٥ بإنشائه المساجد المعروفة بالمدارس في صنعاء وذمار وكوكبان. ومُرَبَّنَا أن الإمارة الزيدية اتسعت في العصر العثماني وشملت صنعاء وغيرها من المدن، وقد بثوا فيها بقوة الدعوة الزيدية وكتبهم وكتب أنصارهم من الفقهاء والعلماء الزيديين.

ويلقانا في حَضْرَمَوْت كثير من العلماء النابيين، وهم منبشون في كتب التراجم، ولهم دلائلهم على ما كان وراءهم من حركة علمية، وفي كتاب طبقات فقهاء اليمن وكذلك في كتاب العقد الثمين فقهاء ومحدثون وقراء حضرميون كثيرون استوطنوا اليمن أو جاوروا في مكة. وفي كتاب تاريخ الشعراء الحضرميين وكتاب صفحات من التاريخ الحضرمي ما يصور من بعض الوجوه النشاط العلمي وازدهاره بحضرموت ومدنها: تريم وغير تريم. وكانت عُمان من قديم مركزاً لحركة علمية نشطة، يدل على ذلك من بعض الوجوه أن ابن دُرَيْد أكبر علماء اللغة في عصره أزدى عُمانى وقد أمضى بعمان فترة طويلة من حياته كان لها أكبر الأثر في تكوينه اللغوي، ومن آثارها في معجمه «الجمهرة» أنه يحمل كثيراً من لغة الأزد العُمانيين وخصائص لهجتهم، ومعروف أنه توفي قبيل هذا العصر مباشرة ببغداد سنة ٣٢٤. وشهرة عُمان العلمية في القرن الرابع الهجري هي التي جعلت أبا سعيد السيرافي، كما قال الرواة، يخرج من بلدته سيراف في طلب العلم إلى عُمان، ويتفقه بها ويتعلم العربية، ثم يدخل بغداد بعد ذلك، ويروى أنه تتلمذ لابن دُرَيْد. وقد عُني حكام عُمان من بني مكرم وخلفائهم من بني نهبان بالحركة العلمية والأدبية بديارهم، فكثُر في عُمان الأدباء والعلماء والشعراء. وكان للخوارج في عاصمتهم نَزْوَى ثم في عُمان حين استولوا عليها نهائياً في العصور المتأخرة نشاطهم الخاص في مذهبهم الإباضي والتأليف فيه مع العناية بالعربية.

ومنطقة البحرين هي منطقة قبائل عبد القيس وتميم قديماً، وكانت تقام بها أسواق للأدب مثل سوق هجر وسوق دارين، وأنجبت عبد القيس في الجاهلية والعصر الإسلامي غير شاعر وخطيب، وأشاد بخطبائها الجاحظ في كتابه البيان والتبيين ونوه بهم طويلاً. ونشعرحين استولى القرامطة على البحرين بنحمود الحركة العلمية فيها، غير أنها أخذت تنتعش سريعاً في زمن العيونيين وبني عصفور وبني جبر، فكان يقوم على الدراسات العلمية الدينية ودراسات العربية علماء وقفوا أنفسهم على تلقين الشريعة والعلوم اللغوية للناشئة وتفقيه

الناس بأمور دينهم ووعظهم . وتظل هذه الحركة العلمية نشطة حتى العصور الأخيرة ، على نحو ما يصور ذلك مثلاً كتاب سلافة العصر لابن معصوم ، وقد ترجم كتاب أنوار البدرين لطائفة منهم في القرن الحادى عشر والثانى عشر مثل الشيخ سلمان آل عبد الجبار وله رسائل متنوعة فى المنطق وعلم الكلام . ومن يطلع على كتاب شعراء هجر من القرن الثانى عشر إلى القرن الرابع عشر يرى نشاطاً علمياً وأديباً واسعاً فى أواخر هذا العصر كان يعم البحرين ، بمعناها العام : فى الأحساء وقطر والقُطيف وجزيرة أوال (البحرين الحالية) .

٢

علوم الأوائل^(١)

من مفاخر جزيرة العرب وحَضْرَمَوْت خاصة أنها قدّمت إلى الفكر العربى فى نهاية العصر العباسى الأول ومفتتح العصر العباسى الثانى أول فيلسوف بالمعنى الدقيق للكلمة فيلسوف ، وهو يعقوب بن إسحق الكندى الذى تمثّل علوم الأوائل والفلسفة اليونانية تمثلاً رائعاً ، فإذا هو لا يفقه ذلك كله فقهاً حسناً ، بل يشارك فيه ويضيف إليه إضافات باهرة ، سواء فى العلوم الطبيعية أو الرياضية أو فى المنطق والسياسة والأخلاق والطب . وقد أحصى ابن النديم فى الفهرست له نحو مائتين وأربعين كتاباً ، وكثير منها ترجم إلى اللاتينية ، ويقول الألدومبيلي إن كتابه فى الهندسة أثرٌ أثراً بعيداً فى روجر بيكون . والكندى ثمرة الحركة العلمية فى البصرة التى نشأ بها وفى بغداد التى عاش فيها ، وطبيعى أن تكون بغداد مركز الحركة العلمية ، غير أن مراكز أخرى أخذت تتكون فى هذا العصر بإيران وبمصر والشام ، ولم تتحول الجزيرة ولا إقليم من أقاليمها إلى مركز ينافس هذه المراكز ، وربما كانت اليمن الثرية بمواردها أكثر أقاليم الجزيرة استعداداً للمشاركة فى علوم الأوائل أو على الأقل فى تعلّمها تعلماً حسناً . ونحن لا نصل إلى نهاية العصر العباسى الثانى حتى نجد أبا محمد الحسن الهمدانى المتوفى سنة ٣٣٤ يتعمق علوم الأوائل ، ويتقنها فهماً وتحليلاً ، بل لقد ألف فيها مصنفاً جيدة ، ومن أهمها كتابه « سرائر الحكمة » وفيه

المعارف - المقدمة) وترجمة ابن سينا فى ابن أبى أصيبعة
وترجمة زيد بن عطية فى إنباه الرواة وكتاب العقود
الؤلؤية للخزرجى وتاريخ الشعراء الحضرميين وسلافة
العصر لابن معصوم .

(١) انظر العلم عند العرب لألدومبيلي وترجمة الهمدانى
فى مختصر الزوزنى لكتاب أخبار العلماء بأخبار الحكماء
للقفطى (طبعة ليبزح) ص ١٦٣ ودويوان السلطان
الخطاب تحقيق إسماعيل قربان حسين (طبع دار

عرض علم هيئة الأفلاك ومقادير حركات الكواكب ، ويُن علم أحكام النجوم واستوفى ضروبه ، وكذلك كتابه « القوى » فى الطب ، وكتابه « الإكليل » الذى ألفه فى ملوك حمير وأنسابها وهو فى عشرة أجزاء كبار ، وفيه مما يتصل بعلوم الأوائل « جُمْل من القرائن » فى النجوم وأوقاتها - كما يقول القفطى - ونُبذ من علم الطبيعة وأصول أحكام النجوم وآراء الأوائل فى قدم العالم وحدوثه واختلافهم فى أدواره . ثم يقول القفطى : وله زيجه المعروف ، وعليه اعتماد أهل اليمن .

ونظن ظنا أن الدعوة الإسماعيلية فى عصر الدولة الصليحية (٤٣٩ - ٥٣٢ هـ) هيات من بعض الوجوه للعناية بالفلسفة وعلوم الأوائل ، إذ كانت تتركز على المزج بين العقيدة الفاطمية ونظرية الفيض الأفلاطونية ، وكانت تتخذ من رسائل إخوان الصفا دعاية لها ، وهى من بعض الوجوه عرض للفلسفة اليونانية وخاصة لنظرية الفيض وما يتصل بها فى الأفلاطونية الحديثة وأيضاً عرض لعلوم الأوائل . ونجد أحد دعاة الفاطميين فى اليمن المسمى الداعى الذؤيب . وكذلك السلطان الخطاب يؤلف كل منها رسالة فى النفس ، ومعروف أنها من المباحث الفلسفية ، ويحلل ناشر ديوان السلطان الخطاب مؤلفاته الفاطمية ، وهى تصطبغ بصبغة فلسفية واضحة كالبحث فى الطبائع الأربع والنفس الناطقة والكثائف واللطائف والمعقولات والمحسوسات .

وفى ترجمة ابن سينا ذكر شخص همدانى يشدو بالفلسفة وعلوم الأوائل ، وقد وجه رسالة إلى علماء بغداد يسألهم فيها الإنصاف بينه وبين ابن سينا ولم تقع على اسم هذا الهمدانى . وفى الجزء الثانى من كتاب إنباه الرواة ترجمة لزيد بن عطية الصّعدى اللغوى ، وفيها أنه « كان لغويا شاعرا منجما حاسبا هندسيا ، يسلم إليه المنجمون فى ديار صنعاء وصعدة النجوم والحساب ، وله تصانيف فى ذلك ، منها زيجان : كبير وصغير ، ومنها « أحكام نجومية » و « فصول » .

ويبدو أن الدولة الرسولية بعثت فى اليمن اهتماما بالفلسفة وعلوم الأوائل وخاصة فى عهد سلطانها المظفر (٦٤٧ - ٦٩٤ هـ) . وولديه السلطانين الأشرف والمؤيد ، ولكل منهما فى الطب كتاب وكان الأشرف أكثر براعة فى الطب ، يدل على ذلك كتاب أرسله أبوه المظفر إلى الظاهر بيبرس سلطان مصر يطلب منه طبيباً قائلاً : « ولا يظن المقام العالى أننا نريد الطب لأنفسنا فإننا نعرف من الطب ما لا يعرفه غيرنا ، وقد اشتغلنا به من أيام الشبيبة ، وولدنا عمر - يقصد السلطان الأشرف - من العلماء بالطب ، وله كتاب جامع فيه ليس لأحد مثله » . ومراً بنا أن للسلطان المؤيد فيه كتاباً سماه « العمدة » . ويذكر

صاحب سلافة العصر ممن نزلوا اليمن في القرن الحادى عشر طيبيا شيرازيا ، اسمه الحكيم أبو الحسين ويذكر له طائفة من أشعاره .

ويلقانا دائماً اهتمام واضح بالطب والرياضيات والهندسة والهيئة والنجوم ، ونقرأ عن ذلك أخباراً متناثرة هنا وهناك ، من ذلك ما نقرؤه في تاريخ الشعراء الحضرميين من أن الشيخ محمد بن عمر المتوفى سنة ٩٣٠ صنف أرجوزتين : إحداهما في الطب والثانية في علم الحساب وأن الشيخ عبد الله بن عمر باحزمة المتوفى سنة ٩٧٢ صنف رسالة في علم الجبر والمقابلة . ونستطيع أن نعمم هذه التزعة في عمان والبحرين وفي مكة والمدينة . ومما يدل على رغبة المثقفين في الجزيرة العربية على الاطلاع على علوم الأوائل أننا نجد في كتاب لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب أنه حين نزل البصرة عني بالعلوم الرياضية وقرأ كتب أقليدس في الهندسة وكتاب المجسطى في الهيئة ، كما قرأ الحكمة الإشرافية . ونؤمن بأن المنطق ظل يدرس في كل أنحاء الجزيرة ، لاقتناع العلماء في كل مكان بضرورة درسه .

ونترك الرياضيات والهندسة والطب والفلك والفلسفة إلى علم الجغرافية ، ومن أهم المصنفات الجغرافية كتاب صفة جزيرة العرب للحسن بن أحمد الهمداني المتوفى مع أول هذا العصر ، كما مر بنا آنفاً ، ولأبى على الهجرى كتاب النوادر والتعليقات وهو زائراً ماكن الجزيرة ، وأهم من عناية أهل الجزيرة بالأماكن عنايتهم بالرحلات البحرية ، ومعروف أن الأمم القديمة في أفريقيا وآسيا وأوروبا اخترقت البحار والمحيطات من حولها ، وبنت سفناً حملت فيها تجارتها وبعض جيوشها للغزو ، حتى إذا أنشأ العرب دولتهم أخذوا يقتحمون البحر المتوسط وبحر القلزم أو البحر الأحمر ، كما اقتحموا المحيط الهندي إلى شواطئ إفريقيا الشرقية غرباً وإلى الهند شرقاً . وكان اقتحامهم له في أواخر القرن الأول الهجرى سبباً في أن تتغلغل تجارتهم إلى جزر الهند الشرقية وإندونيسيا ، بل لقد اقتحموا المحيط الهادى ونزلوا على شواطئ الصين ، واشتهر أحد تجارهم المسمى سليمان بكتابة رحلة له قام بها في سنة ٢١٧ للهجرة من البصرة ميمًا ديار الصين ، وقد تحدث فيها عما ركبته وخاضه من بحار بادئاً بالخليج العربى . وتوالى رحالة بعد سليمان يصفون رحلاتهم البحرية .

علم الملاحة البحرية^(١)

كان ربانة السفن في البحار المتصلة بالبلاد العربية يعنون بكتابة دفاتر تضم جداول

(١) انظر في هذا العلم وفي ابن ماجد وسليمان المهرى الأنجلو) بالقاهرة . وراجع قران في مادتي شهاب الدين أحمد بن ماجد والمهرى في دائرة المعارف الإسلامية وكتاب ثلاثة أزهار في معرفة البحار لأحمد بن ماجد =

(١) انظر في هذا العلم وفي ابن ماجد وسليمان المهرى كتاب العرب والملاحة في المحيط الهندي لجورج فقلو حوراني ترجمة الدكتور السيد يعقوب بكر (نشر مكتبة

فلكية ومعلومات عن خطوط العرض والرياح والشواطئ والشعاب والجزر في المحيط الهندي وما يتصل به من المحيط الهادى ، مما كان سبباً مباشراً في نشوء علم الملاحة عند العرب وازدهاره على مر السنين . وكان يشترك في هذه الملاحة سكان الخليج العربى وجنوب الجزيرة العربية ، ونهض بها منهم ربانة كثيرون .

وأشهر ربانة الجزيرة العربية شهاب الدين أحمد بن ماجد المولود في عُمان حوالى سنة ٨٣٠ للهجرة ، وقد نشر له المستشرق جبريل قران في باريس سنة ١٩٢١ - ١٩٢٣ مجموعة كبيرة من أعماله الثرية والشعرية أنشأها في نحو ثلاثين عاماً بين سنتى ٨٦٥ و ٨٩٥ ولفقران تحليل طريف لتلك الأعمال نشره في دائرة المعارف الإسلامية تحت اسم شهاب الدين . ونشر المستشرق الروسى تيودور شوموفسكى في موسكو سنة ١٩٥٧ ثلاث أراجيز لأحمد بن ماجد مع دراسة وتعليقات ، وعنى الدكتور محمد منير مرسى بـهذه الأراجيز الثلاث ونشرها في القاهرة بعنوان : « ثلاث أزهار في معرفة البحار » ونقل معها تعليقات تيودور شوموفسكى ، وردَّ الاقتباسات المترجمة عن المصادر العربية إلى أصولها المطبوعة والمخطوطة ، وشرح طائفة من المصطلحات البحرية عند ابن ماجد وبذل في ذلك كله جهداً محموداً .

والأعمال التى نشرها قران لابن ماجد إنما نشرها عن مخطوطة في باريس يبلغ عدد أوراقها ١٨١ ورقة ، وبها أراجيز وقصائد تبلغ نحو العشرين ، تتناول أصول علم البحار والفلك والملاحة في المحيط الهندي والبحر الأحمر وخليج عدن وخليج العرب كما تتناول النجوم والبروج والشعاب . وجميعها أشعار تعليمية تصور علم الملاحة البحرية عند العرب . ويجانب هذه الأشعار في المخطوطة الباريسية كتاب ابن ماجد النفيس : « الفوائد في أصول علم البحر والقواعد » ألفه سنة ٨٩٥ للهجرة ، وهو في اثني عشر فصلاً ، ويتحدث ابن ماجد في الصفحات الأولى منه عن الأصول الأسطورية للملاحة والإبرة والبوصلة والإسطرلاب . ويعرض للكتابات في الملاحة قبله ويشيد بثلاثة من الربانة ، هم سهل بن أبان ومحمد بن شاذان وليث بن كهلان ، معتمداً في ذلك على دفتر كتبه حفيد لسهل بن أبان تاريخه سنة ٥٨٠ . وأغلب الظن أنه يقصد السنة الهجرية ، وليس

= تحقيق تيودور شوموفسكى ترجمة وتعليق الدكتور محمد منير مرسى والملاحة وعلوم البحار عند العرب للدكتور أنور عبد العليم (نشر المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب بالكويت) وانظر العلم عند العرب لألدومبيلي ص ٥٣٢ وما بعدها ومقالاً للأستاذ حسن الصيرفى في مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة العدد الرابع والعشرين بعنوان « علماء البحار العرب واصطلاحاتهم البحرية » .

بصحيح ما ذهب إليه بعض الباحثين من أن هذا التاريخ تعيين للمدة الزمنية بين ابن ماجد وبين كاتب النسخة وأنه كتبها - كما يظن - سنة ٣١٥ للهجرة وكان هؤلاء الربابنة الثلاثة - في رأيه - كانوا يعيشون في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري ، وهو ما نستبعده ونظن أنهم عاشوا في النصف الأول من القرن السادس . ويذكر ابن ماجد أن الدفتر كان يحمل معلومات الربابنة الثلاثة ويقول إنهم لم يكونوا ملاحين بالمعنى الدقيق لكلمة ملاحين وأن معارفهم البحرية لم تتجاوز الخليج العربي ، ويذكر طائفة من الملاحين الذين كانوا يعاصرونهم وغيرهم ممن سبقوهم . ويؤكد أن كتابه ليس كتاباً نظرياً كالكتب السابقة له ، فهو كتاب أعلم الناس بالبحر ، ويقول إنه علم توارثه عن أبيه وجده ، فقد كانا ربّانين كبيرين ، ويذكر أنه كان لأبيه أرجوزة بحرية في ألف بيت تُعَدُّ دليلاً ومرشداً هادياً للملاحة في البحر الأحمر . ومع أنه قلل من أهمية ما كتبه حفيد سهل بن أبان عن جده وصاحبيه من معارف في الملاحة يسميهم اللبوث ، ويسمى نفسه رابع اللبوث أو رابع الثلاثة . ويذكر في الكتاب منازل القمر الثمانية والعشرين والنجوم التي تطابق تقاسيم البوصلة الاثني والثلاثين والطرق البحرية في المحيط الهندي وخطوط العرض الخاصة بعدد من الموانئ في المحيطين : الهندي والهادي والعلامات الدالة على مشارف السواحل الغربية للهند وجزائر المحيط الهندي والخليج العربي والرياح الموسمية المواتية للرحلات والبحر الأحمر ومراسيه وشطآنه وشعابه المرجانية ورياحه وأغواره . ويقول قرآن إن وصفه لكل ذلك لا يفوقه بل لا يدانيه أى وصف لكاتب آخر في الإرشادات والبيانات البحرية الهادية للسفن الشراعية . وهذا كله كان يصحب ببعض الخرائط . فكل ربان لابد أن تكون معه خريطة وبوصلة وإسطرلابات وحبال لقياس عمق المياه (واسمها عند ابن ماجد بُلد) ومزاوِل لمعرفة ارتفاع الشمس والنجم القطبي .

ومن سوء طالع هذا العالم العربي الفذ في علم الملاحة البحرية وهو على وشك أن يختم حياته وقد بلغ سبعين عاماً ونيفاً أن تعرّف عليه في « مالندى » بشرقي إفريقيا فأسكودى جاما البرتغالى ، وكان قد يئس من الوصول إلى الهند عن طريق البحر ، إذ كان يحفل هو وربابنته البرتغاليون الطريق البحرى إليها ، وكانت سفنهم كلما خرجت في المحيط الهندي واتجهت نحو الهند تحطمت ولم ينج منها أحد . ونعجب أن نرى ابن ماجد يتحول له مرشداً يهديه الطريق في سنة ٩٠٦ للهجرة إلى كلكتا في الهند . وبذلك يكون - لغفلته - أداة للاستعمار البغيض : البرتغالى أولاً ، ثم الإنجليزى والفرنسى والهولندى ، من شاطئ إفريقيا الشرق إلى جزر الهند الشرقية وبحر الصين . وسرعان ما شعر بسوء فعله ، وصوّر ذلك مراراً

في ألم ومراة عن قاسكودى جاما وأصحابه البرتغاليين في الأرجوزة الأولى من « ثلاث أزهار في معرفة البحار » :

وجا لكاليكوت خذ ذى الفائدة لعام تسعماية وست زائده
وسار فيها مبعض الإسلام والناس في خوف وفي اهتمام
واشترؤا البيوت ثم سكنوا وصاحبوا وللسوامر ركنوا

وهو يريد بالسوامر البرتغاليين نسبة إلى السامرى الذى صنع العجل وعبد بنو إسرائيل يريد أنهم كفار ، ومع ذلك صاحبهم حكام ثغر كاليكوت في الهند . وكأنما عرف قصر نظره وشناعة عمله بعد فوات الأوان . ومع أنه أكثر من الأراجيز والقصائد مما يدل على أن نبع الشاعرية عنده كان فياضاً يختل الوزن عنده أحياناً .

وخلف ابن ماجد ربان من سدنة البحر وملاحيه هو سليمان بن أحمد المهرى من مهرة في الشحر بين حضرموت وعمان ، عاش في النصف الأول من القرن العاشر الهجرى ، وله في الملاحة كتب لا تقل أهمية عن كتب ابن ماجد ، بل لعلها أوفى وأشمل في بيانها لأحوال الملاحة في المحيطين الهندى والهادى حتى بحر الصين ، ومن كتبه « تحفة الفحول » و « العمدة المهرية في ضبط العلوم البحرية » و « المنهج الفاخر في علم البحر الزاخر » وتاريخها جميعاً يرجع إلى النصف الأول من القرن العاشر ، وقد درس قران أعمال سليمان المهرى البحرية دراسة وافية .

٣

علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد

لا نبالغ إذا قلنا إن كل البلاد العربية كانت مشتركة في التراث اللغوى والنحوى والبلاغى والنقدى ، بحيث لم يكن يظهر كتاب مهم في بيئة من البيئات العربية إلا ونجده قد نُقل إلى البيئات الأخرى ، ونعجب أننا اليوم مع سرعة المواصلات ونقل الكتب عن طريق البواخر والسيارات ، بل عن طريق الطيارات ، لا نبغ مبلغ أسلافنا في سرعة التواصل بينهم في الكتب ، لا في مجالات الفقه والحديث وما إليهما من الدراسات الدينية فحسب بل أيضاً في جميع المجالات لغوية وغير لغوية . وساعدت على ذلك الرحلات السنوية للحج والزيارة والتقاء العلماء ، وكان بعض العلماء إذا افتقد كتاباً ، ولم يستطع

الحصول عليه رغم تطوافه في البلدان لجأ إلى النداء عليه في الحج ، ليخبره عنه بعض من رآه في مكتبة من المكتبات المتناثرة بين الأندلس وأواسط آسيا حتى الهند . وكان العالم في أي علم أوفن يرى أن علمه فيه لا يكتمل إلا إذا رحل شرقا وغربا وأبعد في رحلته ليلقي العلماء ويقراً كتب التراث الخاصة بالعلم أو الفن الذي يريد التعمق فيه . ونقلوا في أثناء ذلك إلى بلدانهم ما كتبه الأسلاف ومعاصروهم ، وفتحت المكتبات في كل بلد صدرها لتستقبل الكتب وتجزى حَمَلَتها خير الجزاء .

ومعنى ذلك أننا إذا تحدثنا عن النشاط في علم بأى بلد من البلدان العربية وسمينا فيه بعض علماء إنما نتخذهم رموزا للحركة العلمية الكبيرة ، وهي أكبر جدا من أسمائهم ، لأنها تعنى النشاط العلمى في العالم العربى جميعه ، إذ كانت كتبه ومصنفاته تُصَبُّ في كل البلدان العربية ، وقام عليها علماء ومدرسون مختلفون يقدمونها للطلاب . وقد يضيفون إليها في كل علم مصنفات جديدة وكان يكون عيداً لطلاب العلم وأساتذته أن يفد عليهم عالم من البلاد العربية ، إذ كانت معرفتهم بكتبه ومصنفاته تسبقه ، فكان بمجرد نزوله في بلد يتحول في التَّوَّ محاضرا ويتحلق حوله الطلاب فيفدون من علمه .

كانت هناك إذن بين البلاد العربية دورة علمية ، أشبه ما تكون بالدورة الدموية ، تدور فيها الكتب والمؤلفات من بلد إلى آخر ، ويدور العلماء أنفسهم . وكانت الجزيرة العربية تدخل في هذه الدورة ، تدخل فيها نجد بقراها التي أخذت تعنى بتعلم العربية منذ أن هَجَرَتْ أوكادت الإعراب في القرن السابع الهجرى وما بعده . أما الحجاز ومكة فكانا يعنيان باللغة من قديم ، كما كانا يعنيان بالنحو ، وكان يوجد لهما دائما مدرسون ينهضون بهما سوى من كان ينزل مكة والمدينة من كبار علماء العربية ، ويكفى أن نذكر من بينهم عبد الله ابن طلحة ^(١) الأندلسى المتوفى بمكة سنة ٥٢٣ وقد اشتهر بإحسانه لتدريس كتاب سيبويه على الطلاب في الحرم المكى ، مما جعل الزمخشري ^(٢) يرحل في شببته إلى مكة من موطنه خوارزم ليأخذ عنه ، وقد جاور بمكة - بدوره - مدة طويلة ألف فيها كثيرا من كتبه ، وكان لا يبارى في اللغة والنحو وألف فيها مؤلفات دَوَّتْ شهرتها في العالم العربى ، منها معجمه المشهور أساس البلاغة الذى رتب موادّه بحسب الحروف الأول ، وأدخل فيها كثيرا

(١) انظره في التكملة لابن الأبار ٨١٥/٢ والعقد القين

١٨٢/٥ وبغية الوعاة والبحر المحيط لأبى حيان ٣٧٢/٤ ،

بيروت) ١٦٨/٥ وانظر بقية مصادر ترجمته في الفصل

الثانى من القسم الخاص بإيران .

(٢) راجع في الزمخشري ابن خلكان (طبعة دار صادر

من الشواهد والأساليب الأدبية ، ويغلب أن يقول في ختام المادة : « ومن المجاز » فيقرن الأساليب المجازية إلى الأساليب الحقيقية . وألف في غرب الحديث النبوي كتابه « الفائق » وهو معجم طريف للأحاديث المحتوية على بعض الألفاظ الغربية ، وصنف في تفسير القرآن الكريم وألفاظه « الكشف » وشهرته تملأ الخافقين . ومن بحوثه اللغوية شرح لأبيات سيبويه والمستقصى في أمثال العرب والقسطاس في العروض . ومن بحوثه النحوية كتابه المفصل ، جعله في أقسام أربعة : قسم للأسماء وقسم للأفعال وقسم للحروف وقسم للمشارك وأراد به الإيمالة والوقف والإبدال والإعلال ، ولابن يعيش شرح مطول على هذا الكتاب مشهور . وللمخشري بجانبه في النحو كتاب سماه النموذج . ولا ريب في أن هذا العالم النحوي اللغوي العظيم بعث في مكة حركة علمية مباركة في فنون اللغة والنحو والتفسير ولا بد أن كثيرين شدوا الرحال إليه في مكة ليتلقوا عنه مصنفاته ، ولتحملوا عنه الإجازات بروايتها سباعاً وإلقاء . ومن نزل بمكة وجاور بها سنين من كبار اللغويين الصغاني الحسن^(١) بن محمد المتوفى سنة ٦٥٠ وحياته تقص ما قلناه من وحدة الثقافة في العالمين العربي والإسلامي ، فقد ولد سنة ٥٧٧ في لاهور عاصمة إقليم بنجاب في الهند ، ونشأ في إقليم صغان كورة من بلاد السغد ، ويذكر مترجموه شيخين له في الهند ، فالشيخ ومعلمو العربية والشرعية منبثون في أنحاء العالم الإسلامي ، حتى في أبعد دياره . ورحل في طلب العلم إلى بغداد ودخل مكة وجاور بها سنتين ، ودخل اليمن ، واستطاع بمن لقيه من الشيخ في موطنه وغير موطنه ، مما جعله وأهم من ذلك بما قرأ من كتب التراث ، أن يصبح إماماً من أئمة اللغة العربية ، مما جعله مؤثلاً للطلاب في كل مكان نزل به وخاصة في مكة . وعنى بوضع المعاجم والكتب في اللغة ، ومن أهمها : مجمع البحرين في اثني عشر مجلداً ويقول في مقدمته إنه جمع فيه بين معجم الصحاح للجوهري ومعجم له سماه « التكملة والذيل والصلة » . وعادة يفصل في مجمع البحرين بين ما ينقله من الصحاح وما ينقله من معجمه بوضع حرف ص لما ينقله من الصحاح وحرف التاء لما ينقله من التكملة وحرف الحاء لما ينقله من الذيل والصلة . ونشر مجمع اللغة العربية معجم « التكملة والذيل والصلة » المذكور في ستة مجلدات ، وقد ضمنه ما فات الجوهري في صحاحه من بعض مواد اللغة وما وقع فيه من أغلاط وأوهام . وله كتاب في الأضداد ، وكتاب سماه النوادر في اللغة روى فيه غرائب اللغة التي نص عليها علماء اللغة الأقدمون ، وفي دار الكتب المصرية منه مخطوطة . وحاول بأخرة من عمره أن

(١) انظره في العقد الثمين ١٧٦/٤ والجواهر المضية لابن تغري بردى ٢٦/٧ .

٢٠١/١ وشذرات الذهب ٢٥٠/٥ والنجوم الزاهرة

يؤلف في اللغة معجماً كبيراً سماه العباب الزاخر ، غير أن المنية عاجلته قبل إتمامه . ولا شك في أن هذا الإنتاج الغزير يصور عالماً لغوياً كبيراً ، وهو لم ينشأ في الجزيرة ولا في بلد عربي ، وإنما نشأ في الهند ، ومع ذلك استطاع أن يصبح من الأفذاذ في العربية على مر العصور ، وهو شاهد على ما نقوله من أن العلم العربي كان ملقى بكل مكان في العالم العربي والعالم الإسلامي الكبير . ومن نزل بمكة من كبار شيوخ العربية ابن عبد^(١) المعطى أحمد بن محمد الملقب بنحويّ الحجاز المتوفى بها سنة ٧٨٨ وهو مغربي مصري تتلمذ في العربية على أبي حيان الغرناطي عالمها المشهور ، قرأ عليه كتاب التسهيل لابن مالك النحوي المعروف ، ثم جاوز بمكة إلى أن توفي بها وانتصب فيها للتدريس والاشتغال بالعربية والعروض . ومن النحاة بعده محمد^(٢) بن أبي بكر المرجاني المكي المتوفى سنة ٨٢٧ . ومن يرجع إلى كتاب سلافة العصر يجد ابن معصوم يلقب غير شاعر بأنه من أئمة العربية . ولا ريب في أن دراستها ظلت نشطة في العصر العثماني وحتى نهايته ، فكان هناك معلمون مختلفون للعربية في مكة والمدينة وقرى الحجاز المختلفة .

وتنشط اليمن طوال هذا العصر في الدراسات اللغوية والنحوية ، وهو يفتتح في سنة ٣٣٤ للهجرة بوفاة عالم لغوي يعني مهم ، هو الهمداني^(٣) المذكور فيما مرّ ، وفيه يقول القفطي في إنباه الرواة « هو أحد عيون العلماء باللغة العربية وأشعار العرب وأيامها » . وسبق أن نوهنا بكتابه الإكليل وهو في سير الملوك الحميريين وأخبار اليمنيين الأولين ، طبع منه الأجزاء : الأول والثاني والثامن ، وكذلك الجزء العاشر وهو في أنساب همدان قبيلته وأخبارها وبه أشعار كثيرة . وله كتاب يسمى « البعسب في فقه الصيد وحلاله وحرامه وكيفيته وما جاء فيه من أشعار » يقول القفطي عنه : إنه جيد جداً ومفيد للمتأدبين ، ومرّبنا ذكر كتابه صفة جزيرة العرب ، وهو يحمل مقداراً كبيراً من اللغة والشعر . وله القصيدة الدامعة افتخرفها باليمن على مضر ، طبعت مشروحة بالقاهرة . وكان يكاثر ابن الأنباري وغيره من لغويي بغداد ويعترفون بفضلهم ، ومن أجله رحل العالم النحوي المعروف ابن خالويه إلى اليمن وعنى بجمع ديوانه وتخريج ، إذ كان شاعراً مجيداً . وتمضي اليمن في نشاطها اللغوي والنحوي طوال أزمنة الدول التي مرت بنا في زبد وصنعاء وعدن وصعدة إذ كان أمراؤها يتنافسون في جمع العلماء بإماراتهم ومن حولهم : علماء العربية وغيرهم ، ويلقانا

(١) انظره في العقد الثمين ١٤٩/٣ والدرر الكامنة (٣) إنباه الرواة ١/٢٧٩ وأخبار الحكماء ص ١٦٣

لابن حجر ١/٢٧٧ . ومعجم الأدباء ٧/٢٣٠ وروضات الجنات ٢٣٨ .

(٢) العقد الثمين ١/٤٢٩ .

منهم في زيبديلاط جياش بن نجاح زيد بن عطية الذي سبق أن تحدثنا عن حذقه لعلوم الأوائل ، وكان يعاصره في بلاط الصليحيين إسماعيل^(١) بن إبراهيم الربيعي النحوي اللغوي الشاعر ، من أهل صنعاء ، وكان مؤدباً لأولاد الأمراء الصليحيين ، وله قصيدة في غريب اللغة جعل ترتيبها على ترتيب معجم العين المنسوب إلى الخليل بن أحمد وسماها « قَيْدُ الأوابد » وجعل لها شرحاً ضمنه نوادر وطرائف من الأخبار والأشعار . ومن نخاة اليمن القاضي أبو بكر اليافعي المتوفى سنة ٥٥٢ وله في النحو مختصر سماه المفتاح ، وسرعان ما تنجب اليمن نشوان^(٢) بن سعيد المتوفى سنة ٥٨٠ وله في اللغة كتب مختلفة ، أهمها « شمس^(٣) العلوم وشفاء كلام العرب من الكلوم » في ثمانية مجلدات ، رتبها على حروف المعجم بحسب أوائل الكلمات لا أواخرها متابعا في ذلك الزمخشري في معجمه أساس البلاغة ، وحرص فيه على دقة الضبط بالنقط والحركات ، وقسم كل باب فيه أو حرف قسمين : قسما للأسماء وقسما للأفعال ، وعنى بأن يذكر فيه كثيرا من الكلمات اليمنية التي لم تسجلها المعاجم قبله ، وأكثر فيه من شواهد القرآن الكريم والحديث النبوي والشعر والأمثال . وكان يعاصره الحسن^(٤) بن أبي عباد المتوفى سنة ٥٩٠ ويقول القفطي إن له مختصراً في النحو مشهوراً في اليمن يقرؤه المبتدئون ، ويقول السيوطي في البغية عنه : « إمام النحاة في قطر اليمن كانت الرحلة في علم النحو إليه وإلى ابن أخيه إبراهيم » . وكان يعاصرها على^(٥) بن سليمان اليمني النحوي المتوفى سنة ٥٩٩ وله مصنف في النحو سماه كشف المشكل في مجلدين ، وروى له ياقوت أبياتاً يحصر فيها جموع التفسير .

وتهض الدولة الرسولية بعلوم العربية نهضة واسعة ، وكانوا يجزلون العطاء للعلماء فقصدوهم من كل فج ومربنا أن الفيروز ابادي^(٦) مجد الدين محمد بن يعقوب المتوفى سنة ٨١٧ بزييد وفد على السلطان الأشرف ، فأكرمه إكراماً عظيماً ، وكان قبل أن يفد عليه جاور بمكة من سنة ٧٧٠ إلى سنة ٧٧٥ وكان له فيها دار كثيراً ما عاد إليها ، وجعلها في سنة ٨٠٢ مدرسة باسم الملك الأشرف وقرر بها طلبة وثلاثة مدرسين : في الحديث وفقه مالك وفقه الشافعي ، وزار المدينة المنورة وقرر بها ما قرر بمكة ، وكان الأشرف قد ولاه وظيفة قاضي

مصنفات .

(١) إنباه الرواة ١/١٩١ .

(٥) راجعه في معجم الأدباء ١٣/٢٤٣ .

(٢) انظر مصادره في ترجمته بالفصل الثالث .

(٦) راجعه في الضوء اللامع للسخاوي ١٠/٧٩ وفي

(٣) طبع الجزء الأول منه في بريل ثم طبع بالقاهرة .

العقد الثمين ٢/٣٩٢ وبغية الرواة والروض العاطر للنعاني

(٤) انظره في معجم الأدباء ٨/٥٣ وإنباه الرواة

٢/٢٤٩ والبدور الطالع للشوكاني ٢/٢٨٠ والشقائق

١/٢٩٠ وبغية الوعاة وروضات الجنات ٢٢٢ وانظر في

التعانية على هامش ابن خلكان ١/٣٢ .

ابن أخيه الآتي ذكره معجم الأدباء ١/١٦٤ وله في النحو

القضاة باليمن ، وظل يلبيها أكثر من عشرين سنة في عهده وعهد ابنه السلطان الناصر إلى أن أدركته الوفاة . وكانت أكثر إقامته بزييد ، وأقام مدة بتعزّ ، لما كان قوّض إليه من التدريس بمدارس البلديتين . وله مصنفات كثيرة في الحديث وفي الفقه ، وممرت بنا المنحة التي أهداها إليه السلطان الأشرف حين ألف في الفقه كتابه الإسعاد ، وله في النحو كتاب سماه « مقصود ذوى الألباب في علم الإعراب » . أما اللغة فكان فيها بحر لا يسبر غوره ، ومن مصنفاته فيها مصنف في الترادف سماه : « الروض المسلوف فيما له اسمان إلى ألوف » . وله كتاب في غريب الذكر الحكيم سماه « بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز » وقد طبعه المجلس الأعلى للشئون الإسلامية في عدة مجلدات . ومن أروع أعماله معجمه النفيس « القاموس المحيط » الذى ألفه في زييد ، ولا تغلو إذا قلنا إنه أروع المعاجم القديمة لجمعه بين الدقة والاختصار إذ هو في أربعة مجلدات فقط ، ولكن كلما قرأت مادة منه خيل إليك أنه حولها إلى ما يشبه بحثاً قصيراً ، وقد اتبع في ترتيب مواد . طريقة الصحاح للجوهري فرتب المواد حسب الحرف الأخير لا حسب الحرف الأول كما صنع الزمخشري في أساس البلاغة ، لأن الحرف الأخير في المادة لا يتغير بخلاف الحرف الأول إذ تدخله زيادات مختلفة . وحاول بعض القدماء نقده ببيان ما فاتته من بعض المواد أو ما سبق خطأ إلى وهمه ، وكان آخر من نهض بذلك أحمد فارس الشدياق في كتابه الجاسوس على القاموس ، ومع ذلك فالمعجم بحق مفخرة للفيروزابادى ، وقد ضمنه أسماء كثير من المواضع وأعلام الأشخاص وكثير من الكلمات الأعجمية المعربة ، وهى جديرة بأن تجمع ونخرج فيها كتاب مستقل ، ولنفاسة المعجم تعهده يبنى بصنع شرح مطول له هو السيد مرتضى^(١) الزبيدى المتوفى سنة ١٢٠٥ هـ / ١٧٩٠ م وقد اتخذ القاهرة مهاجراً له وموطناً منذ سنة ١١٦٧ هـ / ١٧٥٣ م وفيها ألف هذا الشرح الذى سماه « تاج العروس في شرح جواهر القاموس » وهو مطبوع في عشرة مجلدات ، ويتلافى نواقص القاموس في المادة اللغوية مستعيناً بلسان العرب لابن منظور وغيره من المعاجم المطولة ، ويتوسع في الحديث عن المواضع والأعلام بحيث يصبح دائرة معارف جغرافية تاريخية ، مع ما يعرضه من بعض الأحكام الشرعية والفوائد العلمية .

وهذه النهضة بعلوم العربية في اليمن كانت تتسع لتشمل إمامة الزبيدين في صَعْدَة وفيما يتبعهم أحياناً من البلدان مثل صنعاء وزييد حتى إذا دانت لهم اليمن بعد عهد الطاهريين

(١) انظره في فهرس الكتانى ١٩٨/١ والجربى ١٩٦/٢ المكتبة السلفية ٢١/٢ .

والخطوط التوفيقية ٩٤/٣ ونشر العرف لزبارة (طبع

نشروا هذه النهضة في كل مكان . وكان العثمانيون في أثناء احتلالهم لليمن يعنون بالمدارس وبتعليم العربية ، وكان الزيدون ينافسونهم في هذا المضمار والزيدى نفسه من ثمرات هذا العصر المتأخر في اليمن وهو رمز قوى لما كانت تحظى به العربية حينئذ من نشاط خصب . ولم يكن هذا النشاط قاصراً على اليمن والحجاز بل كان عاماً في حضرموت وعُمان والبحرين وكانت العناية تبدأ أولاً بتحفيظ القرآن الكريم وبعض الأشعار ، ثم يأخذ المتعلمون قسطاً من العلوم اللغوية ليستعينوا به على ما يريدون أن يتعلموه من الدراسات الدينية ، وهل من شك في أن كل ما نقرأ من شعر وأدب في هذه البيئات المختلفة إنما هو ثمرة العناية بالعربية وعلومها اللغوية ، ونتخذ لهذه العناية مثلاً هو الشيخ عبد الله البيتوشى^(١) ، وأصله شهرزورى تتقف ببغداد واستوطن الأحساء حتى توفى سنة ١٢١١هـ/ ١٧٩٦م وله حاشية على شرح الفاكهى لقطر الندى تأليف ابن هشام ، وصرف العناية بكشف الكفاية وهو مطبوع بالقاهرة ، وله مؤلفات ومنظومات شعرية مختلفة في اللغة والنحو والدين . وكان في كل بلدة وقرية معلمون رصدوا أنفسهم لتعليم العربية حتى نجد وقراها المتوغلة في الصحراء لم تكن تخلو من هؤلاء المعلمين . ويدل على ذلك ما نجد في كتاب « لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب » من أنه تعلم العربية على شيخ لزم دروسه يسمى عبد الرحمن بن أحمد من أهل بُرَيْدَة إحدى القرى المتعمقة في بوادى نجد . وإنه ليكفى من نشاط الجزيرة العربية في هذا العصر فيما يخص الدراسات اللغوية أنها أهدت إلى العربية معجم الجهرة لابن دريد ، ثم أهدت مجموعة المعاجم التى خلفها الصغاني والقاموس المحيط للفيروزابادى وتاج العروس للزيدى فنشاطها اللغوى كان نشاطاً جماً مشمراً*

وإذا انتقلنا إلى مباحث البلاغة كان ينبغي أن لا يبرح أذهاننا أن كل ما كانت تنتجه بيئة عربية في علم من العلوم يصبح حقاً مشاعاً لكل البيئات الأخرى ، ولذلك كنا نفاجاً من حين إلى حين بكتاب في بيئة يتصل مباشرة بمباحث البيئات المختلفة ، ومما يصور ذلك من بعض الوجوه مقدمة في شرح نهج البلاغة لعلى بن أبى طالب ، تلك التى قدم بها كمال الدين ميثم^(٢) بن على بن ميثم البحرانى المتوفى سنة ٦٧٩ هـ / ١٢٨٠م شرحه الأكبر المطبوع على الحجر بتريز إذ له وراءه شرحان ، وفيه تحدث عن البيان في النهج ووزع

(١) انظر فيه كتاب البيتوشى لمحمد الخال قاضى السلطانية (٢) راجع في ميثم كتاب سليمان البحرانى عنه باسم (طبع بغداد) وكتاب شعراء هجر لعبد الفتاح الحلوى السلافة البهية في الترجمة الميثمية . ص ١٧ وما بعدها .

حديثه على ثلاث قواعد ، جعل الأولى لدراسة الألفاظ والثانية لدراسة المعاني ، والثالثة لدراسة الخطابة ، والصلة بين مباحثه ومباحث السابقين له واضحة .

ولعل خير كتاب يصور النشاط البلاغي في الجزيرة العربية لهذه العصور كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز للإمام الزيدى اليمنى يحيى ^(١) بن حمزة العلوى ، المتوفى سنة ٧٠٥ وهو يقول في مقدمته إنه لم يطلع من كتب البلاغة إلا على أربعة كتب هي ، المثل السائر لابن الأثير والبيان في علم البيان لابن الزمكافى ونهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للفخر الرازى والمصباح في البيان والبدیع لبدر الدين بن مالك ، ويشيد بعبد القاهر وكتابه : دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة وفيه يقول : « أول من أسس في هذا العلم قواعده وأوضح براهينه وأظهر فوائده ورتب أفانيه الشيخ العالم النحرير ، علم المحققين عبد القاهر الجرجاني » غير أنه يصرح بأنه لم يطلع على كتابيه المذكورين آنفاً ، إنما اطلع على شذرات منهما في كتابات البلاغيين . وقد ذكر السكاكى مراراً ، مما يدل على أنه اطلع على كتابه « المفتاح » ويقول إن الحافظ الذى دفعه إلى تأليف كتابه أنه حين حاول أن يقرأ مع طلابه تفسير الزمخشري المسمى بالكشاف وفيه مسائل بلاغية كثيرة طلبوا منه أن يؤلف لهم في البلاغة كتاباً ، فاستجاب لهم ، وأثر ابن الأثير والفخر الرازى والسكاكى بين في الكتاب ، وقد وزعه على مقدمات ومقاصد وتكملات ، وسمى كل فرع من هذه الفروع فناً ، وفن المقدمات عنده يتناول علم البيان والبلاغة والفصاحة والحقيقة والمجاز ، وسلك في الفصاحة والبلاغة علمى المعانى والبيان . ويتأثر بابن الأثير فيما كتبه عن معرفة الآلات الضرورية لإتقان البيان كاللغة والنحو والتصريف وحفظ القرآن . ونصوص الشعر والنثر ، ويستوحى الفخر الرازى فيما كتبه عن أنواع الدلالات الوضعية والالتزامية ، ويتحدث عن الحقيقة والمجاز ويذكر للحقيقة تعريفات مختلفة وينسب أحدها إلى ابن الأثير . ويطيل في الحديث عن الحقيقة العرفية والشرعية ، ويتضح هنا تأثره بعلم أصول الفقه . ويعرض المجاز وماهيته ويتحدث عن المجاز اللغوى أو المرسل وعلاقاته ويسمى المجاز العقلى باسم المجاز المركب وينقل عن الرازى بعض أحكام المجاز . وينتقل إلى الفصاحة ويقول إنها خلوص اللفظ من التعقيد ويطيل مستضيئاً بابن الأثير في بيان وجوه الحسن في أفراد الحروف والكلمات . ويتحدث عن البلاغة مهتدياً بابن الأثير مع الانتفاع بما ذكره الرازى من جمال الرصف لحروف منقوطة أو بعضها منقوطة وبعضها غير منقوطة ويذكر آراءه في معنى

(١) انظره في البدر الطالع للشوكافى ٣٣١/٢ وكتابه ١٩١٤ وراجع كتابنا : البلاغة : تطور وتاريخ (طبع «الطراز» نشرته دار الكتب المصرية في ثلاثة مجلدات سنة ٣٢٠ . دار المعارف) ص ٣٢٠ .

الفصاحة والبلاغة وأن الطرف الأعلى للأخيرة هو الإعجاز . ونخرج إلى بيان مواقع الغلط في اللفظ المفرد والمركب سواء من التصريف وفساده أو من النحو والغلط فيه . ويترك الفن الأول وهو المقدمات إلى الفن الثاني في الكتاب ، وهو المقاصد ، ويعود إلى الحديث عن الدلالات الوضعية والعقلية أو الالتزامية ، ويعرض أبواب البيان مبتدئاً بالجاز وأنواعه من الاستعارة والكتابة والتمثيل ، ويفصل القول في الاستعارة وتعريفاتها عند الرمانى والفخر الرازى وابن الأثير ، ويدخل فيها التشبيه البليغ ويمثل لها بشواهد كثيرة من القرآن الكريم والحديث ونصوص النثر والشعر ، ويتحدث عن أقسامها على هدى الرازى وبدر الدين بن مالك ، ويجعلها عدة أقسام باعتبارات مختلفة ، أما باعتبار ذاتها فتقسم إلى حقيقة وخيالية ، وباعتبار لازمتها تنقسم إلى مجردة ومرشحة ، وباعتبار حكمها تنقسم إلى حسنة وقبيحة ، وباعتبار استخدامها تنقسم إلى استعارة محسوس لمحسوس أو معقول لمعقول . ونخرج إلى التشبيه ، ويذكر أن ابن الأثير أدخله في الجاز ، ويفصل القول فيه ، متأثراً بالرازى وابن الأثير وبدر الدين بن مالك ، ويجعله أقساماً : قسماً يشترك فيه المشبه والمشبّه به في الأوصاف المحسوسة ، وقسماً يشترك فيه المشبه والمشبّه به في الأوصاف التابعة للمحسوسات كالشكل والاستدارة والقوام والليونة والصلابة ، وقسماً يشترك فيه المشبه والمشبّه به في الأوصاف العقلية . ويؤكد أن مدار الجلال في التشبيه والاستعارة على الإتيان بالخيال الغريب غير المألوف . ويعود إلى تقسيمات أخرى في التشبيه باعتبارات مختلفة ، إذ ينقسم باعتبار ذاته إلى أربعة أقسام : مفرد بمركب ومركب بمفرد ومفرد بمفرد ومركب بمركب ، وينقسم باعتبار حكمه إلى قبيح وحسن وباعتبار صورته إلى ما يسميه طرداً وعكساً وباعتبار أدواته إلى مظهر ومضمر . ويعرض الكناية وتعريفات عبد القاهر وابن الأثير وبدر الدين بن مالك وبعض الأصوليين لها ، ويقف مع ابن الأثير في عدّها ضرباً من الجاز قائلاً إنها « اللفظ الدال على معنيين مختلفين : حقيقة ومجاز من غير واسطة لا على جهة التصريح » ويتحدث عن أقسامها وعن التعريض والتمثيل . ويتنقل إلى الكلام عن علم المعاني ، مازجاً فيه بين مباحث الرازى وابن الأثير وبدر الدين بن مالك وابن الزمكاني ، وقد ذكر فيه - على هدى الأخير - المعرفة والنكرة والأحرف الجارة وبعض صيغ الأفعال والأسماء والنفي ، وأيضاً ذكر على هداه وهدى ابن الأثير صور الالتفات . وتحدث عن الفصل والوصل والحذف والإيجاز وعنده أن الإيجاز قسمان : قسم بالقصر وقسم بالتقرير يريد به المساواة .

وعرض المبادئ والافتتاحات والتخلص وصوراً من المبالغة ، وهو في كل ذلك يستلهم

ابن الأثير. وفصل القول في علم البديع * على هدى بدر الدين بن مالك ، وجعله نوعين : نوعاً يتعلق بالفصاحة اللفظية ، ويتنظم عشرين محسناً بلاغياً من مثل الجناس والترصيع والألغاز ، وعدّ من هذا النوع الطباق ومردّه إلى المعنى ، ونوعاً ثانياً يتعلق بالفصاحة المعنوية ويتنظم خمسة وثلاثين محسناً بلاغياً . ويتنقل إلى التكميلات الملحقة بالكتاب ، وهى الفن الثالث من فنونه ، وهو فن خاص ببيان البلاغة في القرآن الكريم وآياته ، وهو يوضح روعة فصاحته في حروفه ومفرداته وتراكيبه ويطبّق على تعبيراته ومواطن الجمال فيها علوم المعاني والبيان البديع ، ويتحدث في إفاضة عن إعجازه البلاغى وجمال بيانه ونظمه وفصاحته ودقة معانيه الجمالية الإضافية .

وكانت قد نشطت منذ عصر يحيى بن حمزة العلوى البديعيات وهى قصائد في مديح الرسول ﷺ تتضمن أبياتها كل ألوان البديع ومحسناته ، ومن أجل ذلك توضع لها الشروح ، وتوزع على المحسنات البديعية في أبواب متلاحقة ، وأول من صنع ذلك على بن عثمان الإربلى المتوفى سنة ٦٧٠ وتبعه صنى الدين الحلّى المتوفى سنة ٧٥٠ وتلاحقت بعده سيول من هذه البديعيات في جميع الأقطار العربية . ومن شارك في هذا الاتجاه من الجزيرة العربية ابن معصوم ^(١) الحسنى من أهل المدينة المتوفى سنة ١١١٧ وهو صاحب كتاب السلافة ومطلع بديعيته :

حُسْنُ ابتدائي بذكري جيرة الحرم له براعة شوق تستهلّ دمي
وَألف عليها شرحاً سماه « أنوار الربيع في أنواع البديع » وتتضمن ألفاظ الأبيات أسماء المحسنات البديعية ، وذكر في مقدمة شرحه أسماء من سبقوه إلى نظم البديعيات والتأليف محاكياً بذلك أصحاب البديعيات وشروحها قبله .

وعلى نحو ما كانت البحوث البلاغية والبديعية نشطة في الجزيرة العربية كذلك كانت البحوث النقدية ومن خير ما يصور ذلك كتاب تنبيه الأديب على ما في شعر أبي الطيب من الحسن والمعيب لعبد ^(٢) الرحمن بن عبد الله باكثر الحضرمي المكي قاضي جدة المتوفى حوالى سنة ٩٧٥ للهجرة وقد بدأ مؤلفه بالحديث عن الفصاحة ثم فتح باباً لعرض وجوه من النقد لنحو خمسين قصيدة للمتنبي مرتبة على الحروف الهجائية وعادة يذكر مطلع القصيدة ثم يعرض الأبيات المستهجنة فيها والمستحسنة ، ويعقد باباً ثانياً يتحدث فيه عن السرقات الشعرية وسرقات المتنبي من الشعراء وسرقات الشعراء منه . ثم يسوق خاتمة في

(١) انظره في البدر الطالع ٤٢٨/١ وأمل (٢) راجع مقدمة محقق الكتاب : الدكتور رشيد الأمل ص ٥٢ .
عبد الرحمن صالح ، وما بها من مصادر عن المؤلف .

بيان وجوه من محاسن المتنبي في إرسال الأمثال والحكم وبنه بالثناء عليه وعلى شعره .
والكتاب يدل على بصر جيد بمعرفة الشعر ونقده وفيه ما يصور ثقافة هذا الناقد الحضرمي
المكي وأنه اطلع على كثير مما كتب عن المتنبي قبله وقد حاول أن يضيف إضافات جيدة في
بيان محاسن شعره ومعابه ، وهو يشيد به في فواتح كتابه إشادة بالغة وكذلك في تضاعيفه
وفي خاتمته ونهايته . ومن أطرف صحفه الصحف التي تحدث فيها عن السرقات إذ عرض
فيها أسماء شعراء متأخرين نابهين كثيرين مما يدل على ثقافته الواسعة بالشعر والشعراء حتى
زمنه .

٤

علوم الفقه والحديث والتفسير والقراءات والكلام .

ما قلناه عن التراث اللغوي والنحوي والبلاغي وأنه كان مشتركا بين البلدان العربية على
اختلاف أقطارها ينطبق أشد الانطباق على تراث الفقه والحديث والتفسير والقراءات وعلم
الكلام ، فهو تراث مشترك يدرس في كل أنحاء الجزيرة العربية كما يدرس في كل أنحاء العالم
العربي ، لا فرق بين بلد وبلد ولا بين زمن وزمن . ولم يكن طلاب العلم حينئذ يكتفون
بأخذهم عن علماء بلدهم ، بل كانوا يرحلون إلى لقاء العلماء النلهين في كل بلد وخاصة في
العراق والشام ومصر ، ليتلقوا العلم عنهم شفاها . ولا يكتفي الطالب بالرحلة مثلا إلى بغداد
ولقاء علمائها ، بل يرحل إلى بلاد أخرى طامعا في أن يجمع لنفسه كل ما يستطيع من مواد
المعرفة في علم بعينه أو في مجموعة من العلوم .

وجعل الحج والزيارة النبوية مكة والمدينة قبلتين للطلاب والعلماء جميعا ، على نحو
ما مررنا في علوم العربية فكان يفد عليهما أنه العلماء في العالم الإسلامي ، وكثيرا ما يتزلون
بهما سنة أو سنوات ، وطلاب البلدين ينهلون من ينابيع علومهم الغزيرة . ونضرب مثلا في
الفقه بالجويني^(١) عبد الملك بن عبد الله النيسابوري شيخ الإسلام العلامة الأصولي الفقيه
المتكلم المتوفى سنة ٤٧٨ هـ وقد جاور بمكة أربع سنوات قضى منها شطرا في المدينة ولذلك
سمى إمام الحرمين ، وكان يدرس هناك ويفتي ويجهتد في نشر العلم بفقه الشافعي ، وكان
علمه بهذا الفقه قد أحدث دويا هائلا لاسمه في موطنه وحين نزل بغداد ولقي علماءها
وناظره ، ويقولون عنه : وقف علماء المشرق والمغرب معترفين بالعجز بين يديه ، ويقول

(١) انظر مصادر ترجمته في الفصل الثاني من القسم

الخاص بآيران .

السبكي : « لا يشك ذو خبرة أنه كان أعلم أهل الأرض بالفقه والأصول والكلام وأكثرهم تحقيقاً . . وأن الوجود ما أخرج بعده له نظيراً ، مما جعل اسمه يطير في الأفطار وذكره يلاً الديار » . ومن تصانيفه في الفقه الشافعي النهاية في الفقه ويقول السبكي : « لم يصنف في مذهب الشافعي مثلاً فيما أجزم به » ويذكر له في أصول الدين أو علم الكلام كتاب الشامل وكتاب الإرشاد كما يذكر له في أصول الفقه كتاب البرهان غير كتب أخرى . ولم يكن يحضر مجلسه طلاب الفقه والأصول والكلام في مكة والمدينة فحسب ، بل كان يحضره أيضاً الوافدون على البلدين من أقطار العالم الإسلامي ، مما جعل اسمه يسير ويشتهر وتضرب به الأمثال . وعاد إلى نيسابور ، فبني له نظام الملك وزير آل أرسلان السلجوقي مدرسة ليلقى بها محاضراته من مدارسه المعروفة باسم المدارس النظامية وكانت حلقتها تضم نحواً من أربعائة طالب ، وحين توفي طافوا ببلده ينوحون عليه وكسروا الخابر والأقلام حزناً وجزعاً . والفقهاء بمكة والمدينة كانوا كثيرين ، وكان لكل مذهب من المذاهب الأربعة المشهورة : مذهب أبي حنيفة ومذهب مالك ومذهب الشافعي ومذهب أحمد بن حنبل فقيه يمثله ، يسمى مثلاً إمام الحنابلة أو إمام المالكية بالحرم ويضم منهم كتاب العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين للنفاس طائفة كبيرة . وكذلك غيره من كتب ^(١) التراجم ومن أهم فقهاء مكة المتأخرين ابن حجر الهيتمي المتوفى سنة ٩٧٣ وله شرح كبير على المنهاج للنووي ومصنفات كثيرة .

ونلتقي في مكة بمحدث من كبار المحدثين في العالم الإسلامي هو محب ^(٢) الدين الطبري المكي المتوفى سنة ٦٩٤ شيخ الحرم وحافظ الحجاز وعالمه المولود بمكة سنة ٦١٥ فهو من علماء مكة . وهي مسقط رأسه وموطنه ، نشأ بها ، وفيها طلب العلم وسمع الحديث على أستاذه أبي الحسن علي بن المقيّر ، ومما قرأه عليه سنن أبي داود عن أبي الفضل بن سهل الإسفراييني وعن الخطيب البغدادي وسنن النسائي أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي عن البرزدي عن عبد الرحمن بن محمد الدوني . وكانوا يدققون فيمن يذكرونهم من الحفاظ فلا بد أن يكونوا حملوا كتب الحديث عن شيوخ ناهيين على نحو ما حمل ابن المقيّر سنن أبي داود

(١) راجع مثلاً في إمام للحنفية بالمسجد الحرام المنهل

الصافي ٤٠٤/١ هو شيخ الإسلام شهاب الدين أحمد بن علي بن يوسف ، وفي إمام للمالكية العقد الثمين ٣٢٤/٤ هو خليل بن عبد الرحمن القسطلاني المكي ، وفي إمام للشافعية العقد الثمين ٢٨٠/١ وهو الرضي الطبري المكي ، وفي إمام للحنابلة العقد الثمين ١١٩/٧ وهو ابن

الطباخ الحنبلي .

(٢) انظره في طبقات الشافعية للسبكي ١٨/٨ والمنهل

الصافي ٣٢٠/١ وتذكرة الحفاظ ١٤٧٤/٤ وشذرات

الذهب ٤٢٦/٥ ومروءة الجنان ٢٢٤/٤ والنجوم الزاهرة

٧٤/٨ .

عن علمين من أعلام الحديث هما الإسفراييني والبغدادى ، فلا يذكرون فقط أخذ كتاب الحديث عن محدث كبير بل يحاولون أن يذكروا عن أخذ لصحة السند والثقة بالرواية ، وينصون كما رأينا الآن على قراءة التلميذ على شيخه للكتاب كلمة كلمة ، وقد يقولون سمعه من شيخه ، وكانوا عادة يسمعون الكتاب وفي أيديهم نسخ للمراجعة والمعارضة . وقد يجمعون الحسينين من السماع على الشيخ للكتاب وقراءته أمامه مرة واحدة ، فيقولون : سماعاً وقراءة .

وقرأ محب الدين الطبري صحيح البخاري على عبد الرحمن بن حرمي سبط السلفي الحافظ المشهور ، وقرأه أيضاً على عمين لأبيه وأخ له . وقرأ جامع الترمذي على يعقوب بن أبي بكر الطبري وصحيح مسلم وصحيح ابن حبان على شرف الدين بن أبي الفضل المرسى ، وقرأ الأربعين للحافظ الثقي على أبي الحسن بن الجُمَيْزِي وكذلك قرأ عليه الأربعين للسلفي ، وقرأ الأربعين البلدانية على شعيب الزعفراني ، وقرأ بعض الجمع بين الصحيحين للحميدي عن ابن البطي ، وقرأ على ابن العديم وريحان السكيني وشيخ الحرم نجم الدين التبريزي جزء الأنصاري . وكان يعنى بالفقه ، وقرأ كتاب التنبيه المشهور في الفقه الشافعي والذي ألفه أبو إسحق الشيرازي على ابن سكيته وتفقه عليه . وسمع بعض كتاب الغريب لأبي عبيدة عن شهدة ، وهي إحدى المحدثات الكبيرات . وكأنما تعب من يعدون كتب الحديث والفقه والغريب التي أخذها عن العلماء ، فيعقبون على ما سبق بقولهم : وأخذ العلم عن جماعة كثيرين من شيوخ مكة والقادمين إليها . والحرم المكي بذلك كان أشبه بجامعة كبيرة لعلوم الشريعة والعربية . ونقف قليلاً عند المشايخ والأعيان الذين تتلمذوا له فمنهم القاضي جمال الدين الطبري قاضي مكة قرأ عليه في سنة ٦٤٩ بالروضة بالمسجد النبوي . وهذا يعنى أنه كان يدرس في المدينة أحياناً .

ومن تلاميذه المحدث عبيد الله بن عبد العزيز المهدي والقطب القسطلاني المصري ثم المكي ونجم الدين بن عبد الحميد والحافظ الزاهد علاء الدين العطار وقاضي المدينة المنورة شمس الدين بن مسلم والحافظ الدمياطي المصري المشهور وعلم الدين البرزالي الدمشقي المصري وقاضي مكة نجم الدين الطبري وقطب الدين الحلبي وأبو حيان الغرناطي وخلق كثير ، كما يقول مترجموه ، آخرهم وفاة عثمان بن الصفي الطبري ، وآخر أصحابه بالإجازة الشهاب الحنفي . وأساتذته وتلاميذه هم أعلام الحديث في عصره بالحجاز وبغداد وإيران ودمشق والقاهرة ، غير من انتفع به في الفقه الشافعي ، واستدعاه المظفر السلطان الرسول مراراً ، وسمع عليه بعض مروياته وتأليفه ولا بد أنه كان يلقي في أثناء ذلك محاضراته على الطلاب بزييد . ونقف مرة أخرى عند مؤلفاته الكثيرة ، منها في الحديث كتاب الأحكام

الكبرى جمع فيه صحاح الأحاديث وحسانها ، وهو في خمسة أجزاء ، وكتاب الأحكام الوسطى مجلد كبير ، وكتاب الأحكام الصغرى يتضمن ألف حديث وخمسة عشر ، وكتاب المحرر للملك المظفر جمع فيه أحكام الصحيحين ، واختصره في كتاب سماه العمدة ، وكتاب الرياض النضرة في فضائل العشرة المبشرين بجنة الرضوان مجلدان وهو مطبوع ، وكتاب ذخائر العقبى في مناقب ذوى القربى ، وكتاب السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين ، وتقرب المرام في غريب القاسم بن سلام ، وكتاب القرى من ساكن أم القرى جرد فيه أحاديث المناسك من الكتب الستة وغيرها ، وغاية بغية الناسك من أحكام المناسك ، وصفة حجة النبي ﷺ على اختلاف طرقها وجميع ألفاظها ، غير كتب أخرى .

ومن مصنفاته الفقهية شرحه على كتاب التنبيه لأبى إسحق الشيرازى في عشرة أجزاء ونكت كبرى عليه في أربعة أجزاء وكتاب المسلك النبيه في تلخيص التنبيه ، وكتاب مختصر المذهب ، مجلدان . ومما يتصل بالقرآن الكريم : القبس الأسنى في كشف الغريب والمعنى ، والكافى في غريب القرآن ، وكتاب التحفة المدنية ، وكتاب مرسوم المصحف العثمانى المدنى . وله مختصر كتاب عوارف المعارف للسهروردى . ومحب الدين الطبرى ، بهذا كله رمز كبير لتلك الحركة العلمية التى كانت منبثة فى الحجاز والتى كان شررها يتطاير إلى جميع البيئات فى الجزيرة العربية . ومن الطريف أن المرأة كانت تشارك فيها ، وخاصة فى رواية الحديث ، فكانت تأخذه عن شيوخه ويأخذه عنها الشيوخ ، ومن يرجع إلى الجزء الثامن من كتاب العقد الثمين سرى عشرات من النساء المحدثات من مكة أو النازلات بها يروى جلة العلماء عنهن الحديث النبوى .

وطبعى أن تنشط دراسة التفسير فى مكة مع دراسة الحديث ، وقد رأينا محب الدين الطبرى بجانب عمله فى الحديث يخدم التفسير خدمات كبيرة ، ويقال إنه كان قد نشط لكتابة تفسير جامع غير أنه توفى قبل إتمامه . وقد صُنِّفَ بمكة تفسير من أعظم التفاسير ، صنفه الزمخشرى فى أثناء مجاورته بها وهو « الكشاف » ومع أنه ضمنه آراء الاعتزالية أقبل عليه علماء السنة وغيرهم لروعته ، ويلقبه الفاسى المالكى بأنه « الإمام الكبير فى التفسير . . كان إمام عصره غير مدافع » ويقول ابن خلكان عن الكشاف وتفسيره للقرآن العزيز بأنه لم يؤلف قبله مثله . وكان يمليه فى مكة على الطلاب ، ومن رواه عنه قاضيا أبو المعالى يحيى ابن عبد الرحمن الشيبانى ، أخذه عنه بالحرم المكي الشريف ، وظل العلماء بعد الزمخشرى يعنون بالكشاف فى التفسير ، كما يعنون برواية كتب الزمخشرى المشهورة وإلقائها على

الطلاب والطالبات بالحرم المكي ، ويقال إن أم المؤيد زينب بنت عبد الرحمن الشعريّة خاتمة الرواة عن الزمخشري وإن لها منه إجازة تفردت بها عنه ، ويقول القاسي في العقد الثمين من طريقها وقع لنا حديثه .

ومنذ انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى وقراء الذكر الحكيم يعلمون تلاوته وقراءته في الحرمين المكي والمدني ، ويختار ابن مجاهد في القرن الرابع قراءة ابن كثير التي كان يقرأ بها أهل مكة وقراءة نافع التي كان يقرأ بها أهل المدينة بين القراءات السبع المشهورة لعصره ، وظلت قراءة كل منهما تتداول في بلدته وينقلها جيل من القراء إلى جيل ، وتلقانا في كتاب طبقات القراء لابن الجزري أسماء طائفة منهم مثل أبي يحيى المكي المتوفى سنة ٣٤٤ وأبي عبد الله البلخي المولود بمكة المتوفى سنة ٣٧٢ ويكتظ كتاب العقد الثمين بتراجم كثير من القراء في مكة والمدينة . وكانتا دارين للقراءات وعلوم الشريعة ، أما علم الكلام فلم يكن له بهما كبير شأن .

وإذا ما تحولنا إلى اليمن وجدنا للفقهاء فيها نشاطاً من قديم منذ معمر بن راشد المتوفى سنة ١٥٣ وإليه ارتحل سفيان الثوري وابن عُيَيْنَةَ ، وخلفه تلميذه عبد الرزاق بن همام المتوفى سنة ٢١٠ وعنه روى الحديث أحمد بن حنبل وغيره ، وخلفه أبو قرّة موسى بن طارق . وكان الغالب في اليمن حتى القرن الثالث مذهب أبي حنيفة ومالك ، ثم أخذ العلماء يعنون بمذهب الشافعي ، وفي مقدمتهم موسى بن عمران المعافري وآل زرقان إذ كان منهم عدة فقهاء عنوا بفقهاء الشافعي . ويقول الجعدي في كتابه « طبقات فقهاء اليمن » : وخلف هذا الجيل إمام أئمة الشافعية في صنعاء وعدن والقاسم بن محمد القرشي المتوفى سنة ٤٣٧ وهو الذي نشر مذهب الشافعي في خلافا الجند وفي صنعاء وعدن وزيد ، وكان قد جمع مع الفقه والحديث وأصول الفقه علم القراءات . وكان يعاصره الصعبي أحمد بن عبد الله وقد شرح مختصر المزني المصري صاحب الشافعي - كما يقول الجعدي - في أربع سنوات مقابلاً للكعبة الشريفة . ويخلف القاسم بن محمد مجموعة كبيرة من التلاميذ ينهضون بتعليم فقه الشافعي وبيان مذهبه . ولما ألف أبو إسحاق الشيرازي كتابيه : المذهب والتنبيه في الفقه الشافعي ، وأخذهما عنه حسين بن علي الطبري وأبو نصر البندنجي وسكنا مكة حمل الفقهاء اليمنيون وغيرهم عنها الكتابين ، كما حملوهما عن تلميذه محمد بن عبدويه الذي سكن عدن مدة ثم انتقل منها إلى زيد ، وكان ينفق على طلبة العلم ويكرمهم كما يقول الجعدي . وينشط الفقه الشافعي أو المذهب الشافعي في الفقه بتأمة وزيد نشاطاً واسعاً ،

ويكثر فقهاؤه ، ومن أهمهم يحيى^(١) بن أبي الخير شيخ الشافعيين باليمن المتوفى سنة ٥٥٨ وقد تفقه على جماعة ، منهم خاله أبو الفتوح بن عثمان العمراني وزيد بن عبد الله اليفاعي ، وقد قرأ كتاب التنبيه للشيرازي على موسى بن علي الصعبي ، وحفظ كتاب الشيرازي : «المهذب» على عبد الله بن أحمد الهمداني ، وكذلك كتابه «اللمع» وأخذ عن زيد ابن الحسن الفايشي تعليق الشيخ الشيرازي في أصول الفقة مع ملخصه ، وحضر دروس فقهاء كثيرين ، وقرأ على القاضي مسلم بن أبي بكر الصعبي كتاب الحروف السبعة في علم الكلام والتوحيد وأصول الدين لمؤلفة الحسين بن جعفر المراغي ، وسمع على الشيخ سالم ابن عبد الله كتاب الجامع للسنن للترمذي ، ومما قرأه ونصَّ عليه الجعدي شروح المزني والمجموع للمحاملي والشامل لابن الصباغ والفروع لسليم وشروح المولدات لأبي الطيب والعدة للقاضي حسين بن علي الطبري تلميذ الشيرازي كما أسلفنا والإبانة وشرح التلخيص لأبي علي السنجي وكتاب البصرة لأبي الفتوح على مذهب السلف الصالح .

وكان الفقهاء في اليمن منقسمين بين أشعرية وأهل سنة ينصرون مذهب الحنابلة مع أنهم شافعية ، وكان يحيى بن أبي الخير يختار مذهب أهل السنة وينظر الفقهاء في مذهب الأشعرى المتكلم . وكان يذكر لطلابه خلاف الإمامين مالك وأبي حنيفة ، وله مصنفات مختلفة ، من أهمها في الفقه الشافعي كتابه الزوائد ألفه في أربع سنوات وكتابته البيان ألفه في ست ، وكتابته استخراج المسائل المشككة في المذهب .

ومن الطريف أن الجعدي في كتابه طبقات فقهاء اليمن يوالى ذكر أسماء جماعات من الفقهاء الشافعية نبغوا في بيت بعينه ، من ذلك أسرة بني أبي عقامة ، ويقول عنهم الجعدي : «وفضائل بني أبي عقامة مشهورة ، وهم الذين نصر الله بهم مذهب الإمام الشافعي في تهامة» ومن أهمهم أبو الفتوح^(٢) عبد الله بن محمد بن علي بن أبي عقامة المتوفى سنة ٥٥٠ تفقه على جده علي وعلى أبي الغنائم الفارقي ، وله مصنفات جيدة منها كتاب الخنثائي وفيه نفائس حسنة ، قال النووي : لم يسبق إلى تصنيف مثله . وعقد العماد الأصبهاني لهذه الأسرة فصلاً في الخريدة ، ويقول الجعدي في كتابه السلوك عن أحدهم ، وهو القاضي أبو محمد الحسن بن أبي عقامة : «له كتاب نوادر مذهب أبي حنيفة التي يستشعنها أصحاب الشافعية» وقد صار هذا الكتاب في اليمن قليل الوجود ، لأن الحنفية

(١) طبقات فقهاء اليمن للجعدي (طبع القاهرة) (٢) انظره في طبقات فقهاء اليمن ص ٢٤٠ والسبكي

ص ١٧٤ وطبقات الشافعية للسبكي (الطبعة الثانية) ١٣٠/٧ وتهذيب الأسماء واللغات ٢/٢٦٢ وقسم الشام

٣٣٦/٧ وشذرات الذهب ١٨٥/٤ . من كتاب الخريدة للعماد الأصبهاني ٣/٢٤٦ .

اجتهدت بتحصيله وإذها به ^(١) .

وكان للحنفية نشاطهم ومن أشهر علمائهم في القرن الخامس في اليمن القاضي محمد بن أبي عوف، ويعقد لهم الجعدى فصلاً قصيراً في كتابه يذكر أسماء طائفة منهم ، ويقف عند القاضي المذكور ، ويقول إنه صنف كتاباً بعنوان « القاضي » وهو مشهور في اليمن والعراق عند الحنفية . واشتهر منهم في القرن السابع أبو بكر بن عيسى المعروف بابن حنكاش ^(٢) المتوفى سنة ٦٦٤ وإليه انتهت رئاسة الحنفية في اليمن ، ويقال : لو لم يوجد لمات مذهب أبي حنيفة هناك ، إذ حمل السلطان نور الدين الرسولى على بناء مدرسة للحنفية بزييد وكان قد بنى بها مدرسة للشافعية .

وكان يقابل فقه الشافعية في تهامة وزيد فقه الزيدية في صعدة من قديم ، وكان الأئمة الرسيون كلما غلبوا على بلد في اليمن حاولوا أن يشيعوا فيه مذهبهم ، حتى إذا تمت لهم الغلبة في العصر العثماني أشاعوا مذهب الزيدية ، غير أن مركز الشافعية في زيد وتهامة ظل ثابتاً إلى اليوم . ومعروف أن الفقه الزيدى نشأ مبكراً . فإن زيد بن علي زين العابدين بن الحسين المقتول سنة ١٢٢ بالكوفة هو الذى أرسى قواعده في كتاب فقهى له اشتهر باسم المجموع الفقهى ^(٣) ، وهو أساس الفتوى والأحكام القضائية عند الزيدية ، وقد طُبع في القاهرة سنة ١٣٤٠ وطبع قبل ذلك مع شرح له باسم الروض النصير للحسين الخيمى في أربعة أجزاء سنة ١٣٣٧ وطبع أيضاً بشرح شرف الدين السباعى ، والشرحان مطبوعان في القاهرة . وعُي أئمة الزيدية في اليمن - منذ تأسيس الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين دعوتهم - بهذا الكتاب فهو عمدتهم في الفقه والتأليف فيه ، ولإمام الهادى كتاب يسمى كتاب جامع ^(٤) الأحكام في الحلال والحرام . ويتكاثر تأليف أئمة الزيدية لكتب الفقه في اليمن ، ونذكر من كتبهم أطرافاً ، فمن ذلك المنصور بالله عبد الله بن حمزة ، له فتاوى كثيرة مجموعة . ومن ذلك الإمام محمد بن المطهر المتوفى سنة ٧٢٨ له المنهاج الجلى شرح مجموع الإمام زيد بن علي . ومن ذلك الإمام المؤيد بالله يحيى بن حمزة صاحب الطراز الذى تحدثنا عنه في النشاط البلاغى له كتاب الانتصار الجامع لمذاهب علماء الأمصار في ثمانية عشر جزءاً . ومن ذلك الإمام المهدي أحمد بن يحيى المتوفى سنة ٨٤٠ له البحر الزخار الجامع لمذاهب علماء الأمصار طُبع مع تخريج أحاديثه في خمسة أجزاء ، وله أيضاً كتاب

(١) كتاب (السلوك - النكت) للجندي ص ٦٣٢ . العربية) ٣/ ٣٢٣ .

(٢) المقود اللؤلؤة للخزرجى ١/ ١٥٥ . (٤) بروكلمان ٣/ ٣٢٨ .

(٣) انظر تاريخ الأدب العربى لبروكلمان (الطبعة

الأزهار في فقه الأئمة الأخيار وصنع عليه شرحاً سماه « الغيث المدرار » . وهناك كثيرون من علماء الزيدية ، من الأمراء وغيرهم ، تعمقوا في الفقه الزيدي وألفوا فيه وحوله كتباً ومصنفات مختلفة ، ومن طريف ما يذكر في هذا الصدد أن أحد أمراء الزيدية في القرن التاسع صنف رسالة استبعد فيها إمكان الاجتهاد حينئذ ، فرد عليه محمد بن إبراهيم الوزير بكتابه « العواصم والقواصم » في أربعة مجلدات ، واختصره في كتابه « الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم » وهو مطبوع .

ويجانب هذا النشاط الفقهي في اليمن كان هناك نشاط واسع في علم الحديث ، وهو يبدأ في الحديث كما بدأ في الفقه بمعمر بن راشد فله الجامع المشهور في السنن ، ونمضي بعده في كتاب طبقات فقهاء اليمن فنجد لمحمد بن عبد الأعلى الصنعاني كتاب المتقى في السنن ، وقلما يذكر فقيه إلا ويذكر معه أنه حُمل عنه الحديث ، وكثيراً ما يقول الجعدي عن هذا أو ذاك إنه سمع صحيح البخاري ، أو سمع موطأ مالك أو جامع السنن للترمذي أو صحيح مسلم أو سنن أبي داود أو سنن النسائي . ومن حين لآخر نجد الجعدي ينعت الفقيه الذي يترجم له بأنه الحافظ المحدث ، أو يقول سيف السنة . وبنفس النشاط في هذه الرواية للحديث كانت بيئة الزيديين تنشط في روايته ولالإمام المنصور بالله المتوفى سنة ٦٧٠ كتاب في الحديث يسمى الشفاء ، ولالإمام القاسم المتوفى سنة ١٠٢٩ في الحديث كتاب الاعتصام .

وعُنيت اليمن بالتفسير والقراءات كما عُنيت بالحديث والفقه ، وكان فيها من المفسرين قديماً طاووس بن كيسان تلميذ ابن عباس . وهو باب هذه الحركة ، ومضى اليمنيون بعده يعنون بكتب التفسير ، حتى إذا ظهر تفسير الطبري أقبلوا على تداوله ، ولهم بحوث كثيرة تتصل بناسخ القرآن ومنسوخه وبشرح غريبه . ومر بنا نشاط الفيروزابادي لعهد الرسوليين في هذا الاتجاه . ونجد الزيديين يعنون بالتفسير وكل ما يتصل به ، وقد ذكر بروكلمان لإمامهم زيد مخطوطات مختلفة منها تفسير غريب القرآن المجيد ، ومدخل إلى القرآن وتفسير لمواضع منه ، وذكر للإمام الهادي مؤسس العقيدة في اليمن تفسيراً لبعض سور الذكر الحكيم . ولأبي الفتح الديلمي المتوفى سنة ٤٤٠ تفسير للقرآن المجيد ، ولالإمام المهدي محمد بن المطهر المتوفى سنة ٧٢٨ كتاب عقود العقيان في الناسخ والمنسوخ من القرآن . ولعل أروع تفسير صنفته اليمن في عصورها جميعاً على الإطلاق تفسير محمد^(١)

الثالث عشر» وقال إنه أستاذة .

(١) انظر في كتابه البدر الطالع ٢/٢١٤ وترجم له ابن

زبارة في كتابه (نيل الوطر من تراجم اليمن في القرن

ابن علي الشوكاني المتوفى سنة ١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤م سماه «فتح القدير الجامع بين الرواية والدراية في التفسير» وكان قد بدأ حياته زديا ونزع إلى الدعوة الوهابية ، وهو يعد إماما مجتهدا ، وله عشرات المصنفات في الفقه والأصول وعلم الكلام واللغة .

واهتمت اليمن من قديم بالقراءات ، ويشتهر من قرائها الأولين أبو قرة موسى بن طارق الذي حمل عن نافع أحد القراء السبعة قراءته التي كان يقرأ بها أهل المدينة ، وأذاعها في اليمن ، ومن أعلام القراء هناك زيد^(١) بن الحسن الفايشي المتوفى سنة ٤٥٨هـ وكان عالما بعلوم كثيرة ، منها التفسير ، ومنها القراءات أخذها عن أبي معشر الطبري بمكة ، وكان شيخ الشافعية والفقهاء باليمن ، وعليه تفقه يحيى بن أبي الخير الماز ذكره . ومن أعلام القراء أيضا ممن ترجم لهم الجزري في طبقاته ابن شداد البرعي علي بن أبي بكر الزبيدي شيخ القراء ببلاد اليمن ، وكانت إقامته بزيد أقرأ بها زمنا وأسمع الحديث ، توفي سنة ٧٧٠هـ وخلفه أحمد بن محمد الأشعري العبدلي شيخ زيد في القراءات ، ويقول ابن الجزري : لما دخلت اليمن لازمني كثيرا وسمع مني نصف كتاب النشر وكتبا أخرى ، ويقول إنه أعطاه إجازة بالقراءات العشر^(٢) . ومعروف نشاط ابن الجزري في القراءات ، ولا شك أن اليمن أفادت منه كثيرا . وهذا النشاط في القراءات كان يمتد ليشمل البيئة الزيدية وجميع البلدان اليمنية .

وعنيت اليمن في هذا العصر بالمباحث الكلامية ، وظلت عنايتها بها متصلة ، وقد توزع فقهاءها من غير الزيديين مترعان : مترع أشعري ومترع أهل السنة ، وكانت الكثرة تنزع المترع السني ، ونجد ذلك واضحا في تأليف الكتب التي تعنى بنقض آراء المعتزلة ، مثل «كتاب الحروف السبعة في الرد على المعتزلة وغيرهم من أهل الضلال والبدعة» للمراغي^(٣) ومثل كتاب يحيى بن أبي الخير الذي تحدثنا عنه آنفا بين الفقهاء ، وقد جعل عنوانه : «الانتصار في الرد على المعتزلة القدريّة الأشرار» وفي مقدمته أنه ألفه للرد على شمس الدين جعفر بن أحمد بن عبد السلام ، أحد علماء الزيدية ، وكان قد ألف كتابا انتصر فيه لرأى المعتزلة بأن الناس يخلقون أفعالهم ، وأيضا لرأيهم بأن القرآن مخلوق وغير ذلك من آرائهم . وحاول يحيى بن أبي الخير تفنيد آرائه الاعتزالية ، إذ رد عليه برسالة ذكر فيها الأخبار المروية عن الرسول ﷺ في التحذير من القدريّة . ولم يكده يقرأ رسالته شمس

(١) راجع ترجمته في طبقات فقهاء اليمن ص ١٥٥ ١٥٣/١ .

والسبكي ٨٥/٧ . (٣) طبقات فقهاء اليمن ص ٨٣ .

(٢) غاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري

الدين حتى نقضها بكتاب سماه « الدامغ للباطل من مذهب الحنابل » فأثار حفيظة يحيى ابن أبي الخير ، ورد عليه بهذا الكتاب ردا عنيفا ، وأضاف إلى المعتزلة في الكتاب الأشعرية وأجحف بهم ، مما جعل الشريف العثماني الأشعري يناظره ويجادله في مذهب الحنابلة أهل السنة^(١) .

ومعروف أن زيد بن علي زين العابدين صاحب مذهب الزيدية ومؤسسه تتلمذ لواصل ابن عطاء رأس المعتزلة ولذلك كان الزيدية جميعا يتنظمون في المعتزلة ، مما جعل الاعتزال يستقر في مباحثهم ، كما جعلهم يكثر من هذه المباحث ، ومن يرجع إلى الجزء الثالث من تاريخ الأدب العربي لبروكلمان سيجد للقاسم بن إبراهيم الرسي جد الإمام الهادي مؤسس مذهب الزيدية في اليمن كتاب أصول العدل والتوحيد ونفي الجبر والتشبيه ، وكتاب الأصول الخمسة وقد كتب فيها القاضي عبد الجبار أكبر معترلي في نهاية القرن الرابع الهجري شرحا مطولا ، وللإمام الهادي كتاب المسترشد في التوحيد ، وللإمام المهدي المتوفى سنة ٤٠٣ كتاب الأدلة على الله ومختصر في التوحيد . وتتوالى كتب كلامية كثيرة في بيئة الزيدية ، من ذلك شرح القلائد في علم الكلام للإمام المهدي أحمد بن يحيى المتوفى سنة ٨٤٠ وكتاب الأساس في علم الكلام للإمام القاسم المنصور بالله المتوفى سنة ١٠٢٩ . ولم تؤلف هذه البيئة في الاعتزال وحده ، بل ألفت أيضا كتباً في رجاله ، وكتاب ابن المرتضى في المعتزلة مشهور .

ولم تكن حَضْرَمَوْت بعيدة عن كل هذه الحركة الثقافية في اليمن والحجاز ، فقد كان طلاب العلم فيها والعلماء يقدون بصورة منتظمة على اليمن ومكة والمدينة لحمل العلم وتلقيه ، ويلقانا منهم كثيرون في كتب التراجم ، وعادوا أو عادت كثرتهم إلى موطنهم في تريم وشيبار وغيرهما من بلدان حضرموت وسرعان ما أخذت في تلقيه للشباب . وبذلك كان هناك تواصل منظم بين حضرموت والعلماء اليمنيين والمكيين ، بل منهم من كان يرحل في طلب العلم إلى بغداد وغير بغداد ، ويعود محملاً بالكتب وبالإجازات العلمية التي تتيح له روايتها ونشرها . ويقول الرواة إن مجلس الفقيه زيد بن عبد الله اليفاعي اليمنى المتوفى سنة ٥١٤ كان يغص بالفقهاء من حضرموت^(٢) ، ويذكر الجعدي من تلاميذ الفقيه يحيى بن أبي الخير الذي مر بنا في الحديث عن فقهاء اليمن محمد^(٣) بن عبد الله الحضرمي من تريم حاضرة حَضْرَمَوْت وأيضاً محمد بن مفلح الحضرمي وهو الذي طلب إليه تأليف كتابه

(٣) نفس المصدر ص ٢٠٣ .

(١) طبقات فقهاء اليمن ص ١٧٩ - ١٨٠ .

(٢) طبقات فقهاء اليمن ص ١٥٢ .

« استخراج المسائل المشككة في المذهب » لأبي إسحق الشيرازي وأجابه إلى طلبه^(١) .

ويذكر الجعدي من فقهاء حضرموت أبا زَنْبَج وأبا جحوش وأبا كدر قاضي تريم وقد جمع بين الفقه والقراءات السبع^(٢) ، وفي كتاب الجعدي فقيهان من شُبهة بحضرموت هما عيسى بن مفلح وأحمد بن سليمان . ويقول المؤرخون إنه قُتل كثير من فقهاء حضرموت وقُرأها في الحملة التي وجهها نائب توران شاه من عدن إلى حضرموت . ويشيد السبكي بقطب^(٣) الدين الحضرمي شارح المذهب المتوفى سنة ٦٧٦ ويقول « تفقه به خلائق » وله مصنفات كثيرة . وفي ذلك ما يدل على نشاط الفقهاء والقراء هناك . وكانوا يعنون إلى جانب ذلك بالحديث والتفسير . ويحدثنا السقاف في كتابة تاريخ الشعراء الحضرميين عن فقهاء كثيرين ترجم لهم ، نذكر منهم ابن عقبة المتوفى في عدن سنة ٦٩٥ وعلى بن أبي بكر السقاف المتوفى سنة ٨٩٥ وعبد الله بن عمر باخرمة المتوفى سنة ٩٧٢ وعلى بن عبد الرحيم باكثر المتوفى سنة ١١٤٥ وعبد الله بن حسين بن طاهر المتوفى سنة ١٢٧٢ . ومن ذكرهم السقاف من المحدثين عمر بن عبد الرحمن المتوفى بتعز في سنة ٨٨٩ وقد رحل إلى اليمن ومكة وكان يقرأ للناس الصحيحين ، ومثله حسين بن عبد الله العيدروس المتوفى سنة ٩١٧ . وكثيرا ما ينعت السقاف أشخاصا بأنهم محدثون . ومن نعتهم بأنهم مفسرون ومحدثون عبد الرحمن ابن علي السقاف المتوفى سنة ٩٢٣ . ومن مقرئها العظام محمد ابن إبراهيم بن أبي مشيرح الحضرمي المجاور بمكة مقرئ الحرمين صاحب كتاب المفيد في القراءات الثمان ، وقد أشاد به وبكتابه ابن الجزري ، وقال إنه توفي في سنة ٥٦٠ وإنه قرأ بكتابه المذكور على الشيوخ المصريين^(٤) . ومن ذكرهم السقاف من المقرئين محمد بن عمر بن مبارك المتوفى سنة ٩٢٢ وقال : له مختصر نهاية الناشر في القراءات وشرح الجزرية . ويذكر له مصنفات في علم التوحيد ، الكلام المقرئ محمد بن عمر بن مبارك يهتم بعلم الكلام وينهج منهج أهل السنة .

وهذه الصورة من النشاط العلمي لحضرموت هي صورة ظفار وعُمان والبحرين ، ونجد لظفار فقيها ينسب إلى مينائها مرباط هو مفتيها محمد بن علي القلعي ، ويقول الجعدي : له مصنفات حسنة ، منها قواعد المذهب وغيره^(٥) . ولا ريب في أن النشاط العلمي في دراسة

(١) طبقات فقهاء اليمن ص ١٧٩ .

(٥) انظر طبقات القراء لابن الجزري ٤٦/٢ وكتابه :

(٢) نفس المصدر ص ٢٢٠ .

« النشر في القراءات العشر ٩٣/١ .

(٣) طبقات فقهاء اليمن للجعدي ص ٢٠٢ .

(٦) الجعدي ص ٢٢٠ .

(٤) طبقات الشافعية للسبكي ١٣٠/٨ .

الفقه والحديث والتفسير والقراءات ظل محتدماً في عُمان لزمن بنى مكرم وبنى نيهان ، أما في نزوى عاصمة الخوارج وحين أصبح لهم حكم عمان في العصور المتأخرة فكانوا يعنون بالحديث وقراءات القرآن وتفسيره ، وقد عنوا طويلاً بمسند الربيع بن حبيب بن عمر الأزدي الإباضي المتوفى سنة ١٧٠ وهو أقدم كتب المساند المعروفة في الحديث النبوى ، وانصبت عنايتهم الفقهية والكلامية على التأليف في عقيدتهم الإباضية . وفرقتهم ، كما قدمنا ، أكثر فرق الخوارج اعتدالا ، وأقربها إلى الجماعة ، ونصب إمام المسلمين عندهم واجب ، وتجب طاعته ما اتخذ الحق والعدل شعاره ، فإن جار ولم يتب وجبت الثورة عليه ، ومر بنا حديث عن عقيدتهم في الفصل الماضى .

وكانت البحرين مثل عُمان نشطة في دراسة علوم الدين الحنيف ، وكانت تدخل في دائرة بغداد ومدن العراق مثل البصرة والكوفة ، فكان طلابها وعلمائها لا يزالون ذاهبين آيين من العراق وإليه . وكان كثير من علماء العراق يرحل إلى البحرين ، ويتخذها مقاما له وموطنا ، وظلت هذه الصلة العلمية مستمرة حتى نهاية هذا العصر . وكانت علوم الشريعة مطروحة في كل مسجد ، وظلت حلقاتها قائمة ، واشتهر كثير من الأسر بتوارثها للعلوم الشرعية واللغوية مثل آل عبد الجبار وآل عمران وآل عبد القادر وآل مبارك ، وبرز من بينهم الشيخ سلمان آل عبد الجبار بأخرة من العصر وله مصنفات مختلفة في المباحث الكلامية وشروح على تهذيب المنطق للتفتازانى وكتاب إيساغوجي^(١) وشاع هناك مذهب مالك قبل دخول المذهب الحنبلى مع الوهابيين ، وكانوا يعنون دائما برواية كتب الحديث وخاصة الصحاح الستة . ومنذ دخلت الأحساء في المملكة السعودية سنة ١٣٣١ عمّت فيها كتب محمد بن عبد الوهاب وأهل السلف ، غير أن هذا لا يدخل في عصرنا إنما يدخل في العصر الحديث .

ولم تكن نجد طوال هذا العصر غائبة عن الحركة العلمية العامة في البلاد العربية ، فقد كانت كتب الفقه والتفسير تدرس في قرى نجد ، وظل ذلك إلى الأزمنة المتأخرة ، إذ نجد من ترجموا للشيخ محمد بن عبد الوهاب يذكرون أنه لزم الشيخ عبد الرحمن بن أحمد في قرينته تريم ست عشرة سنة ، وأنه قرأ عليه فيها صحيح البخارى ومسلم ومسند ابن حنبل وأنه تركه إلى الشيخ حسان التيمى في قرى القصيم حيث تلمذ عليه في علم الفقه والتفسير سبع سنوات . ورحل بعد ذلك إلى المدينة وأخذ عن علمائها ، ثم رحل إلى العراق

(١) ساحل الذهب الأسود لمحمد سعيد المسلم ص

وتلمذ على بعض شيوخ البصرة وعاد إلى موطنه وتعاقد مع الأمير محمد بن سعود ، كما مر في الفصل الماضي ، على نشر عقيدته . وهي ليست عقيدة جديدة بل هي عقيدة أهل السنة من السلف وإمامهم ابن حنبل وأشهر من ساروا على دربه ابن تيمية . وكان ابن عبد الوهاب ينشر دعوته في محاضراته ومؤلفاته ، ومراً بنا كتاب التوحيد ، ومجموعة التوحيد ومنها رسالة كشف الشبهات ومختصر زاد المعاد لابن قيم الجوزية تلميذ ابن تيمية وكتاب الكبائر ومعرفة العبد ربه ودينه ونبيه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وكتاب المسائل وكتاب الثلاثة الأصول في معرفة الله ودين الإسلام والرسول إلى غير ذلك من مصنفات بث فيها دعوته الوهابية . وتوالت بعده فيها مصنفات كثيرة منها : جواب أهل السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والزيديّة لعبد الله ابنه ، ولسليمان بن عبد الله تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد . واتسع التأليف في الدعوة مبكراً وراء نجد ، إذ نجد محمد بن علي الشوكاني اليمنى يؤلف فيها كتابه نيل الأوطار من أسرار منتقى الأخبار .

٥

التاريخ

نشطت كتابة التاريخ في الجزيرة العربية كما نشطت في كل بلد عربي ، ونبدأ بالحديث عن هذا النشاط في الحجاز ، ومن أهم ما يلقانا عن مكة كتاب الأزرقي « أخبار مكة » وهو كتاب مبكر . وأهم المصنفات التي تلقانا عنها في هذا العصر مصنفات الفاسي^(١) أبي الطيب محمد بن أحمد الحسنى المولود بمكة سنة ٧٧٥ وفيها نشأ وتكوّن علمياً حتى أصبح من علماء الأفاذ ، وسرعان ما تحول مدرساً يقيّد الطلاب من علمه . وتقلد منصب شيخ الحرم المكي إلى أن توفي سنة ٨٣٢ وعنى بتاريخ مكة ، فصنف فيها كتابه « شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام » في مجلدين ، وهو مطبوع ، وأهم منه كتابه « العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين » الذي نرجع إليه ، وهو في ثمان مجلدات ، افتتحها بالحديث عن مكة تاريخياً وجغرافياً ثم أجمل السيرة النبوية ، وأتبعها بالتراجم حتى عصره مبتدئاً بالمحمدين ، ولم يترك حاكماً ولا عالماً ولا مؤذنّاً ولا مجاوراً بمكة ولا شاعراً إلا أسهب في الترجمة له ،

(١) انظره في الضوء اللامع ١٨/٧ والشذرات
١٩٩/٧ ومقدمة كتابه « العقد الثمين » وقد ترجم لنفسه
في انظر ٣٣١/١

وهو بذلك تاريخ كامل لمكة : سياسى وثقافى وأدبى وحضارى . وللديار ^(١) بكرى المكى المتوفى سنة ٩٩٠ سيرة نبوية بعنوان «الخميس فى أحوال أنفس نفيس» فى مجلدين كبيرين ، طبعت مراراً ، وفيها تفصيل طويل عن تاريخ الكعبة . وكان يعاصره قطب الدين ^(٢) النهروالى المكى ، وكان مفتياً ومدرساً ، إلى أن توفى سنة ٩٩٠ وله «الإعلام بأعلام بلد الله الحرام» تحدث فيه عن تاريخ مكة وحكامها إلى زمنه فى عهد العثمانيين ، طبع مراراً . ولمكة مؤرخ عام هو عبد الحى ^(٣) بن العماد الحنبلى المتوفى بمكة سنة ١٠٨٩ وله «شذرات الذهب فى أخبار من ذهب» وهو كتاب تراجم مرتب على السنوات حتى سنة ألف للهجرة . ومن مؤرخى مكة المتأخرين أحمد زبى دحلان المتوفى سنة ١٣٠٤ هـ / ١٨٨٦ م وله : «خلاصة الكلام فى أمراء البلد الحرام» .

وللمدينة بدورها مؤرخوها وفى مقدمتهم محمد بن الحسين بن زباله الذى ألف كتاباً فى تاريخ المدينة سنة ١٩٩ للهجرة ومن مؤرخى العصر الذى نحن بصددده ، بل قل من أشهرهم نور الدين السهمودى ^(٤) المصرى المجاور بالمدينة حتى وفاته سنة ٩١١ وهو صاحب كتاب وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ، والكتاب دائرة معارف كبيرة فى جغرافية المدينة وتاريخها وأخبارها طُبع بمصر فى مجلدين وطبع مختصر له باسم « خلاصة الوفا » . ومن مؤرخى المدينة ابن خضر المدنى المتوفى فى أوائل القرن الثانى عشر ، وله مخطوطة فى طبقات الحنفية بدار الكتب المصرية . وجاء بعده جعفر البرزنجى ^(٥) المتوفى سنة ١١٧٩ وله قصة المولد النبوى ، طبعت بمصر مراراً منفردة ومع شرح لحفيده جعفر بن إسماعيل .

وتكتظ اليمن بالمؤرخين ومصنفاتهم التاريخية ومن أقدمهم على بن محمد بن عبيد الله العلوى الذى صنف كتاباً فى سيرة الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين مؤسس المذهب الزيدى باليمن عقب مبايعته بالإمامة سنة ٢٨٣ وصنف بعده بقرن الحسن بن أحمد بن يعقوب كتاباً فى أخبار المنصور بالله القاسم الرسى المتوفى سنة ٣٩٣ للهجرة . وتنشط الكتابة التاريخية باليمن ، ويلقنا من مؤرخيها جياش بن نجاح أمير زبيد المتوفى سنة ٤٩٨ وله كتاب «المفيد فى أخبار زبيد» فقد ولم يصل إلينا ، غير أن عمارة اليمنى المتوفى سنة ٥٦٩ اختصره فى

- (١) راجعه فى الشذرات ٤١٩/٨ ودائرة المعارف عشر للمحى ٣٤٠/٢ .
 الإسلامية .
 (٢) انظره فى الشذرات ٤٢٠/٨ والنور السافر ص ٥٠/٨ والبدر الطالع ٤٧٠/١ .
 (٣) راجعه فى سلك الدرر ٩/٢ والجبرتي ٣٦٣/١ .
 (٤) انظره فى الشذرات ٤٢٠/٨ والنور السافر ص ٥٠/٨ والبدر الطالع ٤٧٠/١ .
 (٥) راجعه فى سلك الدرر ٩/٢ والجبرتي ٣٦٣/١ .
 (٦) راجعه فى خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى

كتاب سماه « مختصر المفيد في أخبار زبيد » وقد طبع في القاهرة . ويشتهر عمارة ^(١) بكتاب له في تاريخ اليمن نشره كاي ثم نشر في القاهرة ، وهو يؤرخ فيه لليمن وأحداثها حتى عصره ، وله كتاب سماه « النكت العصرية في أخبار الوزراء 'عصرية' » تحدث فيه عن الوزراء في آخر العهد بالفاطميين ، وهم طلائع بن رزيك يشاور والكامل ابنه ، وطُبع هذا الكتاب بشالون في آخر القرن الماضي وطبع معه ديوانه . ومربنا ذكر طبقات فقهاء اليمن مراراً ، وهو لعمر ^(٢) بن علي بن سمرة الجعدي المتوفى لآخر القرن السادس الهجري . وللقاضي حميد ^(٣) بن أحمد المحلى المتوفى سنة ٦٥٢ مصنفان تاريخيان هما « الحداثق الوردية في سير الأئمة الزيدية » و « محاسن الأزهار في فضائل العترة الأخيار » ومن مؤرخي اليمن الجندى ^(٤) بهاء الدين محمد بن يوسف المتوفى سنة ٧٣٢ وله « السلوك في طبقات العلماء والملوك » ويتضح من عنوانه أنه يؤرخ فيه لحكام اليمن وعلمائها من كل صنف ، ومربنا ذكر السلطان الأشرف الرسولى وكتبه ، وللسلطان الأفضل عباس ^(٥) الرسولى المتوفى سنة ٧٧٨ كتاب « العطايا السنية والمواهب الهنية في المناقب اليمنية » . ومن مؤرخي اليمن اليافعي عبد الله بن أسعد بن عفيف نزيل مكة المجاور بها حتى وفاته سنة ٧٦٨ وله كتاب مرآة الجنان في التراجم العامة وهو مطبوع . ويلقانا مؤرخ كبير هو أبو الحسن الخزرجي ^(٦) المتوفى سنة ٨١٢ وكتابه العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية كتاب نفيس وهو يؤرخ لتلك الدولة حتى وفاة السلطان الأشرف إسماعيل سنة ٨٠٣ وكان من كبار الفقهاء والقراء والمحدثين في عصره وقد رتب كتابه ترتيباً زمنياً محكماً ، وترجم للسلطين الرسولين ترجات دقيقة . وهو لا يعرض في الكتاب التاريخ السياسى فحسب بل يعرض أيضاً التاريخ الثقافى والحضارى عرضاً مفصلاً ، وهو مطبوع في مجلدين كبيرين . وجاء بعده مؤرخ مهم هو ابن الديبع ^(٧) أبو عبد الله عبد الرحمن الزبيدى ، وكان محدثاً كبيراً درس الحديث في الجامع الأعظم بزبيد وتوفى سنة ٩٤٤ وله مصنفات تاريخية متعددة ، منها قررة العيون بأخبار اليمن الميمون

-
- (١) انظره في ابن خلكان ٣/ ٤٣١ والخريدة قسم الشام ١٠١/٣ وستاق مصادر ترجمته بين الشعراء . ٨٨ .
 (٢) انظره في التعريف به وكتابه مقدمة المحقق له : ٩٧/٧ .
 (٣) تاريخ اليمن للجرافي ص ١٢١ .
 (٤) انظره في إعلان التويخ للسحاوى ص ١٢٤ ويعتمد عليه الخزرجي في كتابه العقود اللؤلؤية .
 (٥) راجعه في العقود اللؤلؤية للخزرجي وفي الشذرات ٢٥٧/٦ وفي هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن ص ٢١٠/٥ والشذرات ٩٧/٧ .
 (٦) انظره في ابن الديبع ترجمته لنفسه في آخر كتابه بغية المستفيد والنور السافر ص ٢١٢ والشذرات ٢٥٥/٨ والبدر الطالع ٣٣٦/١ والكواكب السائرة ١٥٨/٢ .
 (٧) راجعه في العقود اللؤلؤية للخزرجي وفي الشذرات

حتى سنة ٩٢٣ وقد اعتمد على الخزرجي في دولة الرسوليين ، ثم أضاف إليه دولة بني طاهر التي خلقتهم وبعد أول من عُني بالتاريخ لها . ومن كتبه التاريخية بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد وهو يعرض تاريخها مفصلاً حتى المائة التاسعة للهجرة . ومن الكتب الجيدة التي ألّفت في القرن العاشر تاريخ ثغر عدن لبنا مخزّمة (طبع ليدن) . وتلقانا بعده كتب كثيرة في أئمة اليمن وفي الحكام العثمانيين ، من ذلك ما كتبه الجرّموزي المتوفى سنة ١٠٧٧ عن تاريخ الإمام المؤيد بالله بن القاسم ، وقد سماه « الجوهرة المضية في تاريخ الخلافة المؤيدية » وكتب عن تاريخ المنصور بالله القاسم بن محمد المتوفى سنة ١٠٢٩ كتاباً سماه « النبذ المشيرة إلى جمل من عيون السيرة » . وصنّف يحيى بن الحسين بن المؤيد بالله اليمني في أواخر القرن الحادى عشر تاريخاً لليمن حتى سنة ١٠٤٥ باسم أنباء الزمن في أخبار اليمن . وليوسف بن يحيى الصنعاني المتوفى حوالى سنة ١١٢٠ كتاب مشهور لم يطبع هو كتاب « نسمة السحرفيمن تشيع وشعر » ويتضمن عشرات التراجم لشعراء شيعيين من حين ظهور الشيعة إلى عصره . ولمحمد بن على الشوكاني العالم النابه كتاب في التراجم لمن بعد القرن السابع حتى عصره في القرن الثالث عشر سماه « البدر الطالع » وهو أحد المراجع التي يتكرر ذكرها في هذا الجزء . وهناك كتب أخرى كثيرة نفيسة مثل منتخبات في أخبار اليمن للهمداني ، ومثل النور السافر في تراجم القرن العاشر لعبد القادر العيدروس المتوفى سنة ١٠٣٨ وذيل عليه جبال الدين الشلى الحضرمى بكتاب سماه « السناء الباهر بتكميل النور السافر » .

ولنجد كتب تاريخية مختلفة في الحقب المتأخرة منها « روضة الأفكار والأفهام لمرئاد خال الإمام وتعداد غزوات ذوى الإسلام » لحسين بن غنام الأحسائي المتوفى سنة ١٢٢٥ هـ / ١٨١٠ م وفيه يوضح تاريخ نجد ودعوة محمد بن عبد الوهاب ورسائله وآراءه والقتال في سبيل الدعوة ، وهو يكثر من السجع في كتابه . ويليه في الأهمية كتاب عنوان المجد في تاريخ نجد لعثمان بن بشر المتوفى سنة ١٢٩٠ هـ / ١٨٧٣ م وهو تاريخ على السنوات يبتدئ بسنة ١١٥٨ هـ / ١٧٤٤ م وينتهى بسنة ١٢٦٨ هـ / ١٨٥١ م أى من حين نزول محمد بن عبد الوهاب في « الدرعية » ووضع الأمير محمد بن سعود يده في يده لنصرته حتى وفاة فيصل بن تركى . وضمن الكتاب أحداثاً سابقة للدعوة منذ تأسيس السعوديين لإمارتهم في الدرعية بمنتصف القرن التاسع للهجرة ، وأسلوب الكتاب مرسل خال من السجع . ويلى الكتابين السالفين في الأهمية كتاب « عقد الدرر فيا وقع في نجد من الحوادث في آخر القرن الثالث عشر وأول الرابع عشر » لإبراهيم بن صالح بن عيسى وهو يبتدئ من حين انتهى ابن بشر سنة ١٢٦٨ ويستمر حتى سنة ١٣٤٠ هـ / ١٩٢١ موزعاً حديثه التاريخي على السنوات .

الفصل الثالث

نشاط الشعر والشعراء

١

الشعر على كل لسان

ظل الشعر حياً يجرى على الألسنة في الجزيرة العربية طوال هذا العصر ، ومعروف أنه منها نبع قديماً وأن ينابيعه كانت تمتد في شمال الجزيرة وشرقها وغربها ، أو قل في الجزيرة جميعها ، باستثناء اليمن في العصر الجاهلي أو بعبارة أدق باستثناء أعماقها ، إذ كانت اليمن الشمالية قد أخذت في التعرب واستخدام الفصحى ، ولم تبق إلا أنحاء قليلة تتكلم الحميرية ، بينما كانت العربية تنتشر في اليمن بإزاء الحجاز وفي نجران وفي حضرموت وبين أزد عمان . وتم تعرب اليمن سريعاً بعد الإسلام أو قل تم تعرب ما كان قد بقي منها يتحدث الحميرية .

ونحن لا نصل إلى هذا العصر الذي نؤرخ له والذي يتدئ بسنة ٣٣٤ للهجرة حتى نشعر بنشاط واضح للشعر والشعراء في كل أنحاء الجزيرة ، وكانت الحجاز - وخاصة مكة - داراً كبيرة للشعر والشعراء ، وتزخر كتب التراجم بأشعارهم لا أشعار من هاجروا إليها وأمضوا فيها بقية حياتهم أو من ظلوا بها أعواماً طويلة فحسب فإن ذلك أكثر من أن يحصى أو يستقصى ، بل أيضاً أشعار الشعراء من أهلها الذين ولدوا بها وأنفقوا حياتهم فيها . وكانوا يستمعون إلى من يفد عليها من الشعراء ويقم فيها بين ظهرانيهم ، فكان ذلك غذاء سائغاً لشاعرياتهم . وكانوا يقرءون دواوين الشعراء المشهورين ، وكثير منهم كانت لديه ملكة شعرية خفية . ولا بد أن نلاحظ أن لغة شعرهم الفصحى لم تكن هي نفس لغتهم اليومية ، فمن قديم لم يأخذ علماء اللغة في القرنين الثاني والثالث للهجرة اللغة والشعر عن المدينة ومكة لتزول كثير من الموالى بهما ومعيشتهم فيها ، وقد ذكرنا في كتاب العصر الإسلامي أن عدد القتلى من الموالى في موقعة الحرة بالمدينة لعهد يزيد بن معاوية كان خمسة آلاف بينما كان عددهم من العرب ثلاثة آلاف مما يؤكد أن أكثر سكان المدينة حينئذ كانوا

من الأعاجم . ولابد أن الأعاجم بمكة كانوا أكثر من سكانها الأصليين في هذا التاريخ وهو منتصف القرن الأول للهجرة أو قل بعده بنحو ثلاثة عشر عاماً ، فما لنا في هذا العصر؟ إن المعقول الذي يتفق مع حقائق الأشياء أن تكون نسبة الأعاجم إلى العرب في المدينتين المقدستين زادت زيادة كبيرة ، وهي زيادة أعدت في هذا العصر لشيوخ لغة عامية متداولة على ألسنة العامة ، لغة تكثر فيها الألفاظ الأعجمية الدخيلة ، ويكثر فيها التحريف في مقاطع الكلمات ونبراتنا . وعلى الرغم من ظهور هذه اللغة العامية كانت لا تزال الفصحى حية بفضل القرآن الكريم وحفظه واستظهاره ، وكان هناك أساتذة كثيرون للعربية يعلمونها الناس ، وكان الحرماني جامعتين كبيرتين تدرس فيهما جميع مواد الثقافتين الإسلامية والعربية ، وكان وراءهما مدارس وكتاتيب ، وكل ذلك عمل على أن تظل العربية مزدهرة ، ويظل كثيرون ينظمون الشعر العربي الفصيح .

ولم تكن العناصر الأجنبية في اليمن كثيرة . ومع ذلك كان ينزلها الأحباش والإفريقيون بكثرة ، ومربنا أن الأحباش كونوا لأنفسهم في حقبة إمارة في زيد ، وكان ينزل في عدن قليلون من الهنود الذين كانوا يتجرون مع اليمنيين ، ويبدو أن العناصر الإفريقية - وهي الكثيرة - كانت تتعرب سريعاً . وليس معنى ذلك أنه لم تتكون في اليمن على مر الزمن لغة عامية ، ولكن معناه أن هذه اللغة هناك تأخرت بالقياس إلى مكة والمدينة ، حتى القرن السادس الهجري على الأقل في بعض أنحاءها ، فعامة اليمن المتوفى سنة ٥٦٩ للهجرة يحكى في كتاب المفيد في أخبار زيد أنه حين دخل من تهامة اليمن إلى مدينة زيد في سنة ٥٣٠ ليطلب الفقه وهو دون العشرين من عمره تعجب الفقهاء في جميع المدارس التي ألم بها في تلك البلدة من أنه لا يلحن في شيء من الكلام ، ومن قوله : « وجبلا عكاد فوق (قرية) الزرائب (موطنه) أهلها باقون على اللغة العربية من الجاهلية إلى اليوم ولم تتغير لغتهم . . ولما زارني والدي وسبعة من إخواني في زيد تحدثوا مع الفقهاء فلا والله ما لحن واحد منهم لحنة واحدة أثبتوها عليه » (١) . ويتضح من كلام عمارة أن المدن اليمنية مثل زيد كان أهلها يلحنون في لغتهم اليومية منذ القرن السادس الهجري ، أما تهامة والبوادي وأهل الجبال فكانوا لا يزالون ينطقون بالفصحى نطقاً سليماً . ويبدو أن أنحاء كثيرة من اليمن ظلت إلى عصور متأخرة تلفظ العربية لفظاً صحيحاً ، بل يقال إنه لا يزال إلى اليوم من يتحدثون بها في بعض تلك الأنحاء حديثاً غير ملحون ، إذ يقول صاحب الخلاف السلياني إن الفصحى لا تزال صحيحة لم تتغير في هذا الخلاف الذي يطلق عليه الآن اسم عسير ، وقد ضُم إلى

المملكة العربية السعودية بأخرة ، ويصور ذلك تصويراً مسهباً فؤاد حمزة إذ يقول :
 * « أفصح اللهجات (في الجزيرة) وأقربها إلى الفصحى فيما نعتقد اللهجات الواقعة ما بين
 جنوبي الحجاز وشمالى اليمن (عسير) وكثيراً ما سمعنا أهل هذه البلاد يلفظون الكلمات من
 خارجها الصحيحة ويتكلمون بما هو أقرب إلى الفصحى من سواه . وبعض البدو من أهل
 هذه المنطقة يخرجون جملاً يظن منها الإنسان أنهم تمرنوا في المدارس على إخراجها على
 ذلك النحو بينما أن الحقيقة هي بخلاف ذلك ، لأنهم يتكلمون بالسليقة وعلى البديهة ،
 فيجئهم كلامهم فصيحاً معرباً لا غبار عليه . ويستعملون ألفاظاً نظنها في الأقطار العربية
 المتمدنة مهملة متروكة ، ولكنهم هم يستعملونها على البديهة » (١) .

وليس معنى ذلك أن اليمن لم تعرف لنفسها لغة عامية كما عرفت الأقاليم العربية
 الأخرى ، بل معناه أنها لم تسارع إلى إحداث هذه اللغة ، ولكنها على كل حال أخذت في
 إحداثها بالمدن منذ القرن السادس الهجرى ، كما يدل كلام عمارة السابق فقد عجب فقهاء
 زبيد من أنه يوجد في بعض أنحاء اليمن قوم يتكلمون الفصحى ولا يخطئهم السداد فيها ، مما
 يدل بوضوح على أن اللحن كان قد فشا على ألسنة أهل المدن ، وأخذت تتكوّن بسرعة
 هناك لغة يمنية عامية . وكان ثراء اليمن عاملاً مهماً في أن يعنى حكامها بالعربية وبالعلوم
 الإسلامية ومربّنا كيف أن دولة الرسوليين نهضت نهضة عظيمة بالثقافة والعلوم في اليمن ،
 وقد أنشأت عشرات المساجد والمدارس وخاصة في زبيد وتعزّ وصنعاء وعدن ، وكل ذلك
 عمل على أن تظل العربية مزدهرة في اليمن وأن تظل الأشعار تجرى على الألسنة . غير أنه
 يلاحظ أنه أخذت تُنظّم هناك ، كما كان الشأن في البلاد العربية الأخرى أشعار عامية .
 ولا نعرف متى ظهرت بواكير هذه الأشعار بالضبط ، وإذا احتكنا إلى تاريخ أول أغنية
 عامية سجلها الدكتور محمد عبده غانم في كتابه النفيس : « شعر الغناء الصنعاني » وجدنا
 هذا التاريخ يرجع إلى القرن الثامن الهجرى ، وهى للشاعر شهاب الدين أبى
 محمد أحمد بن فليته ، وقد اشتهر زمن السلطان الرسولى المجاهد على الذى حكم من سنة
 ٧٢١ حتى سنة ٧٦٤ ويسهب الدكتور غانم في بيان خصائص هذه الأغاني اليمنية العامية
 من زمن ابن فليته إلى نهاية الربع الأول من القرن الرابع عشر الهجرى . ويقول إنها جميعاً
 من الشعر الحمينى وهو اسم خاص بالشعر العامى اليمنى الذى لا يلتزم قواعد الفصحى
 النحوية والاشتقاقية ، كما لا يلتزم عروضها . وتكثر فيه المسطّطات والموشحات ، وتبدو
 المحاكاة واضحة بينه وبين الموشحات والأزجال الأندلسية . ويوضح الدكتور غانم

توضيحاً مفصلاً كيف أن هذا الشعر الحميني أو العامي اليمني يرتفع في لهجته عن اللغة اليمنية العامة ويهبط في الوقت نفسه درجات عن اللغة الفصحى . وهو بذلك يُعدّ فرعاً كبيراً من شجرة الشعر النبطي الذي أخذ يشيع في الجزيرة العربية منذ القرن الثامن الهجري ، بل لعله أخذ يشيع قبل ذلك بقرن أو يزيد . وهو شعر يلقانا في كل أنحاء الجزيرة لهذا العصر ، نلقاه في الحجاز وحضرموت وفي عمان والبحرين ونجده جنوباً وشمالاً . وجميعه شعر يعلو درجات فوق العامة لكل تلك الأقاليم ويهبط درجات عن الفصحى ، شعر بلغة بين العامة والفصحى ، ويسمونه باسم الشعر النبطي ، وهو كله غير معرب ، وكأنه يحلّ في الجزيرة محل الشعر الجاهلي فيها قديماً ، فقد كان شعر جميع القبائل تُشارك فيه ، وكانت لها لهجاتها المحلية الخاصة ، وكان الموقف في هذا الشعر يتعكس مع ما كان في الجاهلية ، فالجاهليون كانوا يحافظون على النظم بالفصحى والحن عروضها وأنغامه ولم يكونوا ينفكّون عنها أبداً ، مع أنها ليست لغتهم اليومية تماماً . وشعراء الجزيرة مع هذا الشعر النبطي يريدون أن يقتربوا من لغتهم اليومية ، فيترك نفر منهم النظم بالفصحى ويتخذ هذه اللغة دنواً من قبيلته ولغتها العامة ، ومع ذلك يظلون يرفدون بالعناصر البيانية والبديعية للشعر الفصيح ، وكأنما في دخائلهم إحساس أن الشعر ينبغي أن يظل مرتفعاً قليلاً أو كثيراً عن اللغة العامة اليومية ، وهو ما جعلهم ينفذون إلى لغتهم النبطية المستحدثة . ومهما يكن فإن هذا الشعر العامي أو قل الحميني اليمني لم تَعْلُ كَفْتُهُ يوماً على الشعر الفصيح الذي ظل صاحب الصولجان وظل له ازدهاره في اليمن إلى اليوم . وما يصدق على اليمن يصدق على حضرموت ، فقد كان فيها شعراء ينظمون الشعر الحميني العامي ، ولكن ظلت للشعر الفصيح السيطرة حتى على من ينظمون الشعر الحميني وتمثّل لذلك بأبي بكر العيدروس الحضرمي المتوفى سنة ٩١٤ فإن له شعراً وأغاني حُمينية عامة ولكن شعره الفصيح هو الذي ذاع وشاع أو قل هو الذي غلب عليه ، كما يصور ذلك ديوانه : «حجة السالك وحجة الناسك» . على أن شعره الحميني يقترب من الفصحى اقتراباً شديداً .

وكانت تنزل عُمان عناصر أجنبية إفريقية وهندية وإيرانية ، وبما هيأ للأخيرة النزول كثيراً أن حاكم هرمز الإيرانية أو قل حكامها كانوا يغيرون من حين إلى حين على عمان ، وكانت أحياناً تتبعهم ، فكثر نزول الإيرانيين بها ، وكثرت لذلك الكلمات الإيرانية الدخيلة في لغة العمانيين اليومية ، وطبيعي أن يتبع ذلك تغيرات في الألفاظ العربية ذاتها في بعض مقاطعها وبعض ضغوطها ونبراتها ، لذلك كان ابن بطوطة محقّقاً حين زار عمان ولاحظ على أهلها أن «كلامهم ليس بالفصيح مع أنهم عرب ، وكل كلمة يتكلمون بها يصلونها بلا فيقولون مثلاً لا تأكل ،

لا تمش ، لا تفعل كذا». فكلامهم دخلته رطانة الإيرانيين ودخلته ألفاظهم ، أما لا التي ذكر ابن بطوطة أنهم يصلون الأفعال بها دائماً حين يطلبون من شخص شيئاً فأكبر الظن أنها لام الأمر حُرِّفَتْ ومُدَّت قليلاً أولعها لام التوكيد . وينبغي أن لا نظن من ذلك أن العمانيين كانوا قد هجروا الفصحى في عهد ابن بطوطة ، فهو إنما يتحدث عن لهجتهم ولغتهم اليومية ، أما بعد ذلك فكانوا يهتمون بالفصحى اهتمام الأقاليم العربية بها جميعاً ، يتخذونها لغة للعلم وللشعر ، وكثيراً ما نقرأ في ترجمة من اشتهروا بالشعر هناك أنهم تلقوا العربية والعلوم الشرعية عن أربابها في عُمان ، وقل ذلك نفسه في نَزْوَى وفي صُحَار وغيرهما من المدن .

وهذا نفسه نلاحظه على البحرين فواجهتها لإيران جعلت عناصر إيرانية كثيرة تنزلها ، وكان لذلك بعض التأثير في اللغة العامية التي نشأت هناك ، وإن كان لا يصل إلى تأثير الإيرانية في عامية عمان لأن الإيرانيين كثيراً ما نزلوا هناك وحكموها . وقد ظل البحرانيون يعكفون على العلوم الإسلامية وعلوم العربية وظلوا يروون الشعر وينهلون من موارده مما أعد لظهور شعراء مختلفين على مر الزمن طوال هذا العصر ، وكأن سيل الشعر كان لا يمكن رده ولا صده في أى إقليم عربى ، فهو دليماً زاد للعرب وعدة وعناد .

ومعرفتنا بالحركة الشعرية في نجد قليلة ، ومع ذلك نستطيع أن نتعرف على أطراف منها من خلال من كانوا يرحلون عنها إلى الأفطار المجاورة ، إذ لم تكن وسائل حفظ الشعر عندهم مهياة ، ونقصد وسائله الأولى من الأقلام والخبر والورق . وهؤلاء المهاجرون يدُلُّوننا على ما كان من نشاط شعري وراءهم ، وقد نشط الشعر في عهد بنى مزيد الأسديين الذين شادوا الجَلَّة على حدود العراق وكذلك في عهد بنى عُقَيْل العامريين حين هاجروا إلى الموصل على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع . ونفاجأ بنشاط واسع للشعر في نجد مع دعوة محمد بن عبد الوهاب منذ أواسط القرن الثاني عشر الهجرى .

٢

كثرة الشعراء

بعثت دول الجزيرة العربية التي تحدثنا عنها في أقاليمها المختلفة نشاطاً واسعاً في الشعر ، فقد كان الحكام دائماً يعنون بأن تحفَّ بهم جمهرة من الشعراء ، وخاصة في اليمن التي قامت فيها دويلات صغيرة تنافست في جذب الشعراء ونثر الأموال والعطايا عليهم . غير أن أخبار هؤلاء الشعراء في القرن الرابع الهجرى قليلة ، وكان المظنون أن يترجم الثعالبي في اليتيمة وتتمتها لطائفة

منهم ، غير أنه لم يُعَنَّ بهم ، وإن كان قد ذكر أبا الحسن التهامي ، وسنترجم له في غير هذا الموضع ، وجاء عنده ذكر شعراء قليلين مغمورين خرجوا من الجزيرة إلى العراق أو إلى إيران مثل ابن أبي مرة المكي وينشد له قوله في أبي الفتوح أمير مكة الآتي ذكره^(١):

يَاسِيدًا فَدَيْتُهُ بِرُوحِي خَوَّلَكَ اللَّهُ أَبَا الْفَتْوحِ

مُلْكَ سَلِيمَانَ وَعُمَرَ نُوْحَ

وإذا كان الثعالبي قصّر في الترجمة لشعراء الجزيرة العربية لعصره فإن أبا الحسن الباخري المتوفى سنة ٤٦٧ للهجرة عُني بهم في فاتحة كتابه «دُمِيَّة الْقَصْرِ وَعُصْرَةُ أَهْلِ الْعَصْرِ» إذ ترجم لطائفة كبيرة منهم ، مقدما لهم بقوله :

«إن أحسن أبيات الأشعار ما طلعت من أبيات الأشعار^(٢) ، ورعت مع الطّباء الشّيح ، وتزوّدت مع الضّباب^(٣) الريح ، مستغنية بحسنها عن التصنع والتّعمل ، حلوة إذا ذاقها الناظر بحسن التّأمل . . . وقد وقع لي من أشعار هذه الطبقة ما هو أعذب من الماء الرّلال ، وأرقّ من الشّمول صُفِّقت بالشّمال» .

وأول ما يلاحظ على مجموعة الباخري من الشعراء أنهم من مدن وقبائل شتى في الجزيرة العربية ، فمنهم المكي والمدني والطائفي الثقفي واليمني ، ومنهم العامري والأسدي والبكري والطائي والغساني والرّبعي والشيباني والهمداني . وهم بذلك يمثلون الجزيرة في جميع أنحاءها غرباً وشرقاً ووسطاً وشمالاً وجنوباً* وفي ذلك ما يؤكد أن الفصحى كانت لا تزال مسيطرة على الجزيرة حتى منتصف القرن الخامس الهجري ، ولا تزال حية ناضرة على ألسنة العرب في نجد والحجاز واليمن ، كما توضح ذلك تراجم الباخري وما ساقه لأصحابها من أشعار ، وهو لم يدخل الجزيرة إذ لم يمد رحلاته إلى ما وراء البصرة وبغداد ، ومنهم من لقيه في هاتين المدينتين أو في مدينة الرّى حاضرة السلاجقة ووزيرهم العظيم نظام الملك الذي وفد عليه الشعراء من أنحاء الجزيرة العربية ليقدموا له مدائحهم . وجمهورهم لم يلقيهم الباخري ، وقد روى أخبارهم وأشعارهم عن بعض الأدباء المكيين والمدنيين الذين ذكروهم له أو عن بعض الأدباء الإيرانيين وخاصة أبا عامر الفضل بن إسماعيل التميمي الجرجاني ، وهو تارة ينقل عنه مشافهة وتارة ثانية ينقل عن كتاب له يسمى «قلائد الشرف» . وأول من ترجم له أبو الفتوح^(٤) الحسن بن جعفر الحسني أمير مكة المتوفى سنة

(١) تمة البيتة للثعالبي ٨٣/١ .

(٢) أبيات الأشعار هنا يقصد بها الباخري الخيام العقد .

(٣) انظره في العقد الثمين ٦٩/٤ .

(٤) المتخذة من أوبار الإبل رمزاً للبادية .

٤٣٠ للهجرة ، وقد أنشد له قوله :

وَصَلَّتْنِي الْهَمُومُ وَصَلَ هَوَاكِ وَجَفَانِي الرَّقَادُ مِثْلَ جَفَاكِ
وَحَكِي لِي الرَّسُولُ أَنْكَ غَضَبِي يَا كَفَى اللَّهُ شَرَّ مَا هُوَ حَاكِ

والبيتان طريفان فكرة وصورة ، وقد نسبها العماد في الخريدة لابن أبي الفتوح شكر^(١)

الذي خلفه على إمارة مكة إلى أن توفي سنة ٤٥٣ وهو الذي حاك بعض بني هلال قصة له بين أقاصيصهم الهلالية إذ زعموا ، كما مرّ بنا ، أنه تزوج الجازية بنت الحسن بن سرحان الهلالي ، ثم حدثت بينه وبين عشيرتها مغاضبة ، فاحتالوا عليه بحجة أنهم يريدونها لزيارة أبويها ، وذهب معهم إلى نجوعهم في نجد ، فذكروا له أنهم سيخرجون إلى الصيد وهي معهم ، ومضوا في رحلتهم الكبرى إلى إفريقيا ، على نحو ما هو معروف عن رحلة بني هلال المشهورة ، وظل لها بين جوانحه حب دفين ، وظلت تكلف به إلى أن ماتت وهي هائمة بحبه عاشقة . ويبدو أن بني هلال نسجوا هذه القصة بعد رحلتهم من الجزيرة ، إذ يجري فيها خلل الإعراب كما يجري في بقية أقاصيص الهلالية ، وإنما نزع هذا الزعم ، لما رواه الباخري من أشعار النجديين في هذا التاريخ ، وهي تدل على أن الخلل الإعرابي لم يكن قد فشا على ألسنتهم حتى أواسط القرن الخامس الهجري ، وفي تقديرنا أن ذلك إنما حدث في القرون التالية مباشرة . ومن طريف ما ينسب إلى الأمير شكر قوله^(٢) :

قَوْضُ خِيَامِكَ عَنْ أَرْضٍ تُضَامُ بِهَا وَجَانِبُ الدَّلِّ إِنْ الدَّلَّ يُجْتَنَّبُ
وَارْحَلْ إِذَا كَانَ فِي الْأَوْطَانِ مَنَقَصَةً فَاَلْمَنْدَلُ الرَّطْبُ فِي أَوْطَانِهِ حَطْبُ

والبيتان يصوران إباء العربي وشعوره بالكرامة ورفضه للضمم معها احتمال في هذا الرفض من العناء الشاق . وترجم الباخري لشاعر يسمى المجاشعي ويلقبه بشاعر الحرمين ، ويسوق له مدحة في نظام الملك ، ويتلوه بأبي الحسن العبشمي المكي ثم بأبي الفضل جعفر بن الحسين الشيباني ، ويسوق له أبياتاً سمعها منه في مديح بعض الوزراء ، كما يسوق له أبياتاً في النسيب ، وترجم لعم له يسمى جعفر بن يحيى الحكّاك وشعره متوسط . وترجم الباخري بجانب هؤلاء الشعراء المكيين لشاعرين من المدينة : خزرجي وأوسى ، ثم لشاعر من الطائف يسمى سليمان بن خضر ، وينشد له غزلاً رقيقاً . ويضم إلى هؤلاء الشعراء الحجازيين شاعراً يمينياً يسلكه فيهم هو علي بن محمد الصُّلَيْحِي مؤسس الدولة الصليحية الإسماعيلية باليمن ، وكان فارساً ، وله أشعار جيدة في تصوير فروسيته وفتكه بأعدائه في القتال من مثل قوله^(٣) .

(١) الخريدة (قسم شعراء الشام) نشر المجمع العلمي (٢) العقد الثمين ١٦/٥ . والمندل : عود الطيب .

العربي بدمشق ١٩/٣ وانظر العقد الثمين ١٥/٥ (٣) الخريدة (قسم شعراء الشام) ٢٢٥/٣ .

زَوَّجْتُ بَيْضَ الْهَنْدِ سُمْرَ رِمَاحِهِمْ فَرَّوْهُمْ عَوَضَ النَّثَارِ نِثَارُ
وَكَذَا الْعَلَا لَا يُسْتَبَاحُ زَوَاجُهَا إِلَّا بِحَيْثُ تَطْلُقُ الْأَعَارُ
والنثار ما ينثر على العروسين في الزفاف من الدراهم والدنانير والورود ، وهو يتصور معاركه
مع أعدائه أفرحاً ، نثارها رعوس خصومه التي تطيح بها سيوفه وسيوف جنوده ، ويقول إن هذا
دائماً مهر العلا وصدأها .

ويترك الباخري شعراء غربي الجزيرة إلى شرقها مصعداً إلى أقصى الشمال حيث إمارة
بني عُقَيْلِ العامريين الذين أسسوها في الموصل وبوادي نجد العراقية في القرن الرابع الهجري ،
ويترجم الباخري لأمر منهم هو قُرَواش بن المقلد الذي ولي الإمارة سنة ٣٩١ وظل أميراً نحو
خمسین عاماً إلى أن غلبه على إمارته أخوه بركة وسجنه وتوفي في سجنه ، كما مرَّ بنا ، سنة
٤٤٤ ويقول المؤرخون : « كان كريماً وهاباً نهياً » وكان يحسن صوغ الشعر وحوكه ، من
مثل قوله الذي أنشده الباخري :

لِي أَشْقُرُ سَمَحُ الْعِانِ مِغَاوُرُ يُعْطِيكَ مَا يُرْضِيكَ مِنْ مِجْهُودِهِ
وَمَهْنَدُ عَضْبُ إِذَا جَرَّدَتْهُ خَلَّتْ الْبُرُوقُ تَمُوجُ فِي تَجْرِيدِهِ
وَمُتَقَفٌ لَدُنُ السَّنَانِ كَأَنَّمَا أُمُّ الْمَنَايَا رُكِبَتْ فِي عَوْدِهِ
وَبِذَا حَوَيْتُ الْمَالَ إِلَّا أَنِّي سَلَّطْتُ جُودَ بَدْيٍ عَلَى تَبْدِيدِهِ

وهو يفتخر بأن ماله ليس ميراثاً عن آبائه ، وإنما هو ما أنعم به عليه فرسه الذي لا يُشَقُّ
غبارُه في الغارات ، وسيفه القاطع المسلول دائماً للترال ورمحه الذي يفتك بالرجال ، وتلك
أدوات جلبه للمال وسرعان ما تبدده يده في الناس . ويترجم الباخري لابن عم له يسمى
أَبَا جَوْثَةَ ، ثم يهبط من الموصل وبواديها إلى بوادي الحِجْلَةِ بالقرب من الكوفة حيث إمارة بني مَزِيدِ
الأسديين التي أسستها قبيلتهم بنو أسد في أواخر القرن الرابع الهجري ، ويترجم لدَيْسِ بْنِ
عَلِي بْنِ مَزِيدِ الذي ولي إمارتها سنة ٤٠٨ حتى وفاته سنة ٤٧٧ وله حروب كثيرة مع بني
خفاجة ، واستنجد به قرواش ضد الغُزَّحِينَ أغاروا على بلاده ، فَنَجَدَهُ . وينشد له الباخري
بيتين يدلان على شاعرية متوسطة بل على شاعرية ضعيفة

ويأخذ الباخري بعد ذلك في الترجمة لطائفة من شعراء نجد ، يتدثّرهم بمحمد بن الجراح
من قبيلة بكر ، وما أنشده له في كرم الضيافة الذي يشتهر به العرب من قديم قوله :
لَا يَرْفَعُ الضَّيْفُ عَيْنًا فِي مَنَازِلِنَا إِلَّا إِلَى ضَاحِكٍ مِنَّا وَمُبْتَسِمٍ
ويطيل الباخري في الوقوف عند شاعر طائي ، هو أبو كامل تميم بن المفرج ، وفيه يقول :
« كامل » وبالكمال قد كُنِّي ، وإذا وُصِفَ تَمَامُ الْفَضْلِ فَتَمِيمٌ غُنِّي ، وَنَاهِيكَ بِذَاكَ الْأَلْمَى .

ويذكر الباخري أنه مدح الوزراء في إيران ونال جوائزهم ، وأنه أبعد في الرحلة حتى غزنة . ولم
 ببعض مدائح وخمرياتة ، وينشد له أشعاراً في الغزل تذوب رقة ، من مثل قوله :
 ودّعينا - إن كنت أزمعت - جاره قبل أن يمنع الفراق الزيارة
 زودى وامقاً أجداً ارتحالاً ما قضى في مقامه أوطاراً
 لم يزل يحذر التفرق حتى حققوا يوم رامتين حذاره
 كان يكفيه - والمحب قنوع - وقفة أو تحية أو إشارة
 كاعب في الحجال يمنعها الزو ر حياء يصونها وعرارة
 ذات تُعر كأنه حين يبدو عقد دُر أو أقحوان قراره

والأبيات تسيل عذوبة ورشاقة ، والألفاظ فيها ملتحة أوثق التحام ، وكلما قرأنا بيتاً فيها ،
 بل شطراً ، أحسنا بحال اتساقه ، وأنه يتصل بسابقه اتصال ذوى الرحم والقرابة ، وما أجمل
 قوله : « والمحب قنوع » فأى شيء يقنعه : وقفة أو تحية أو إشارة من بعيد . وقد عبّر عن حجابها
 وأنها لا تستطيع أن تراه تعبيراً ظريفاً ، إذ ذكر أنها في الحجال والأستار داخل بيتها ، ولا يصونها
 الحجاب وحده ، بل يصونها أيضاً حياؤها وخجلها . والمعاني رقيقة رقة بالغة ، والصور جميلة
 وطبيعية ، ولا تكلف ، ولا تصنع ، بل شاعر وامق يعبر عن حبه وهيامه تعبيراً حافلاً بالوجد
 والصبابة دون أى أثر للنخب الحسى المادى وأذرانه ، بل هو حب عذرى طاهر يخلو من كل إهم
 ووزر ، سوى اللوعة . ويترجم الباخري لشاعر من غسان ولشاعر ثان بدوى ، ثم لشاعر ثالث
 همدانى يسمى المنيع ، وينشد له قطعة غزلية في ابنة عم له تسمى ذؤابة شغفت قلبه حبا ،
 وفيها يقول :

كأن ذؤابة في القرّ تمشي ريب مَهّا ترتدى بالظلال

وهى صورة بديعة ، إذ يصور صاحبه وثوبها المصفاه بمهاة في يوم قيط شديد الحرارة ،
 وقد أوت إلى ظلال شجرة وسط الصحراء تتخذ منها غلالة تقيها حمارة القيط . ويمضى
 الباخري ، فيترجم لشاعر من ربيعة ثم لشاعر عامري يسمى قيساً ، وكأنما يعيد لنا ذكرى قيس
 مجنون ليلي ، وهو يكثر من الحديث عن ديار صاحبه ومعاهدا من مثل قوله :

قفا صاحبي قليلاً علياً ولا تُعجلاني يا صاحبي
 وعوجاً على طلل دائر لرياً وأين من العين رياً
 معاهد لم يُبق صرف الزما ن منها ومنى إلا شويلاً

« وشويلاً » تصغير شيء بمعنى بقية قليلة ، بالضبط كما نستعملها في عاميتنا المصرية ، وكأن لها
 أصلاً صحيحاً في العربية ، والأبيات تفيض بالوجد والحنين . ويترجم الباخري لشاعر شيباني

من مدّاح نظام الملك الوزير السلجوقي ولشاعر من بني عجل من شيبان من مدّاحه أيضاً ،
ويبدأ مدحته فيه بوصف الخمر . ويتبعها الباخري بثلاثة من الشعراء النجديين ، ويقف
وقفة طويلة عند شاعر من اليمامة يسمى على بن الأزهر ، ويقول : «مما سحر لبّي من لبّ
كلامه قوله :

ديارهم بالرقمتين سقيت سحاباً من الوسمي ثم وليت^(١)
وما لك في ربي السحاب حاجة فقد طالما من مقلتي رويت
وكم قد سبّني فيك من ذات برقع بأحسن عين للمهاة وليت^(٢)
أيا بأبي الفوران طنبت فيها وأرض من الفورين كنت وطيت^(٣)
وماء حلّتيه وإن كان آجناً وروض رعت العشب فيه رعت

والصورة في البيت الثاني بدیعة ، إذ ذكر ، بعد أن دعا للديار بالسّقى ، أنها ليست في حاجة
إلى رى السحاب فقد طالما رويت من مقلتيه ، وقد سبته صاحبتة بعينها وصفحة جيدها .
ويذكر في البيت الرابع الفورين ، وهما موضعان باليمامة كثيراً ما التقيا فيهما ، ويهتف مفديا
الأرض التي وطنها قدماها وكل ما مرت به أو زلت عنده من مياه ورياض . وفي البيت الخامس
يشبع الكسرة في كلمة «حلّتيه» فتمتدأء التأنيث على نحو ما تمتد في عاميتنا المصرية . والكلمات
محبوكة ، وكل بيت يستدعى ما يليه في سلاسة وعدوبة ، ويستطيب الماء الذي حلت به وإن
كان آجناً متغيراً ، كما يستطيب الروض والعشب مع الدعاء لها ، ويقول الباخري :
«ما أحسن ما جمع بين قوله : «رعت العشب» على الإخبار و«رعت» على الدعاء» .
ويستعجل الشاعر الركب معه في السير ، وينشأ بينه وبين صاحبتة حوار طريف على هذا
النظم :

فقلت لهم سيروا ولا تتروّحوا فليس لنا وادي الغضا بميت
فقلت : ولم أمسيت تطوى بلادنا فقلتُ أمرتيني غداة نهيت
وقد كنت لا ترّضين منهم بما أرى من الضيم لي فالיום كيف رَضيت
وأقسمت أن لا تقبل قول كاشح كذوب فكم أقسمت ثم نسيت
والحوار مع صاحبتة طبعي ، ولكل بيت رفته وعدوبته ودقته ، فلم يعد الغضا مبيتاً صالحاً
لها ، وقد أمرته بالمسير غداة نهته ، ولم تكن ترضى له بالضيم والهوان فرضيت ، وكم أقسمت
له وعاهدته أن لا تقبل فيه قول كاشح كاذب ، ولم يقل لها - كما لاحظ الباخري - نقضت

(٢) الليت : صفحة الغنق .

(١) الرقة : جانب الوادي والروضة . الوسمي : أول

(٣) طنبت : أفت . وطيت : سرت فيها .

مطر الربيع .

العهد وحشت في يمينك ، بل قال لها متلطفاً « نسيت » القسم والعهد بل الأقسام والعهود . وهو لطف ورقة حسّ ما بعدها رقة ، و يترجم الباخري بعده لشاعر بدوى نجدى يسمى على بن حسان ، وينشد له قوله :

سَقِيًّا لَأَيَّامِ التَّصَابِي مع كُلِّ خَرَعَةٍ كَعَابٍ (١)
إِذْ نَحْنُ نَرْتَعُ فِي الْهَوَى وَنَجْرُ أَرْدِيَةَ الشَّبَابِ
وَالدَّهْرُ عَنَا غَافِلٌ كَالسَّيْفِ يَوْمُنُ فِي الْقِرَابِ

والأبيات سلسلة سائغة ، والصور والأخيلة فيها طريفة ، وخاصة الصورة الأخيرة التى صور فيها الدهر وكأنه سيف احتواه غمده ، فلم يعد يخفيهم ولا يرههم ، فالسيف في غمده ، والدهر بهوموه يغشاه حجاب من الغفلة إلى حين . وينشد له الباخري من قصيدة قافية :

وَحَقٌّ لِي وَجَدِي عَلَى شَادِنٍ أَدَقَّ جِسْمِي مِنْهُ خَصْرٌ دَقِيقٌ
وَشَاهِدٌ يَشْهَدُ فِي خَلْدِهِ أَنْ لَيْسَ فِي الْحَسَنِ هَذَا رَفِيقٌ
فَكَلِمًا عَزَبْنِي هَجْرُهُ صَحَتْ مِنَ الْوَجْدِ الْحَرِيقُ الْحَرِيقُ

فخصر الشادن الدقيق أنحل جسمه ، وكأنما أعداه نخولاً وضئى ، وما أجمل البيت الثانى الذى جعل فيه من الخد شاهدا يشهد بحسنه وجماله بل بتفوقه على كل حسن وجمال . والحب يكوى قواده ويلدعه ، وكأنه جمرات نار يصلى بها قلبه بل يحترق ، وهو ينادى ، الحريق الحريق . و يترجم الباخري بعده لشاعر أسدى من شعراء المديح ولغنية بدوية تسمى أم كلثوم . وإنما أطلنا عرض شعراء البدو فى الدُّمِيَّة لأنها تكاد تكون المصدر الوحيد لشعراء نجد عامة فى الحقب الأولى من هذا العصر ، فلولاها ما اتضح لنا شعر البدو فى القرنين الرابع والخامس الهجريين ولا أن البوادرى كانت لا تزال تكتظ بالشعر والشعراء . ومن الغريب أن العباد الأصهبانى وزير صلاح الدين الأيوبي وشاعره الذى عُنى مثل الباخري بالترجمة لشعر العالم العربى جميعه لم يعن بشعراء نجد ولا أفرد لهم صحفاً فى خريدته إلا ما ذكره عن شعراء عَقِيل أصحاب إمارة الموصل وبواديه ، أودعهم فى قسم الشام والجزيرة ، وكذلك ما ذكره من شعراء بنى مزيد الأسديين أصحاب الحِلَّة وبواديها أودعهم قسم العراق ، وبالمثل أودع شعراء الحجاز واليمن فى القسم الخاص بالشام ، أو قل ألحقهم به ، ولم يعن أى عناية بشعراء عُمان والبحرين . وكتابه يُعَدُّ المصدر العام الثانى بعد الدمية لشعراء الجزيرة العربية فى القرنين الخامس والسادس الهجريين . وقد صنفه فى مطالع العقد الثامن من القرن السادس ، وهو يصرِّح بذلك مراراً فى تضاعيفه .

ولم يذكر العباد لبني عُقَيْل أصحاب الموصل وبوادي الجزيرة سوى مسلم^(١) بن قريش ابن أخي قُرَواش الذي مر ذكره ، وهو أعظم أمراء هذه الأسرة سلطاناً ، إذ كان يستولى على ديار ربيعة ومضر في نجد . وملك حلب من بني مرداس ، وبذلك قضى على إمارتهم فيها نهائياً ، وأخذ الإتاوة من الروم . وكانت سيرته منذ ولى سنة ٤٥٣ من أحسن السير وأعدلها ، وعمّ الأمن دياره ، وكان يصرف الجزية في جميع بلاده إلى الطالبين من أبناء علي بن أبي طالب . وكان هو وأهله شيعة إسماعيلية على مذهب الفاطميين ، ومما يدل على ذلك أن قُرَواشاً عمه خطب في بلاده للحاكم صاحب مصر ، كما يقول المؤرخون ، ثم رجع عن ذلك خوفاً من حُكَّام بغداد السلاجقة . وعُني هو وأفراد أسرته بنثر الأموال على الشعراء فأتوهم من بغداد وغير بغداد . وكان مسلم يجزل العطايا للشعراء ، وحين قصده ابن حيّوس شاعر الشام وأنشده مدائح فيه بالغ في إكرامه . ويقول العباد الأصهباني إنه أقطعه الموصل ، غير أن ابن حيّوس لم يلبث أن توفي ، وخلف أكثر من عشرة آلاف دينار ، فحُمِّل ذلك إلى خزانة مسلم فردّه ، وقال : لا يتحدّث الناس عني أننى أعطيت شاعراً مالاً ، ثم شرهت فيه وأخذته ، ويروى أنه لما ملك حلب هجاه بعض شعرائها ، فسأل عنه ، فقيل له : إنه من أهل قرية المعرة رعيّتك ، فقال : أوصوا به الوالي ليحسن إليه ، وحذّروه أن يجنى عليه ، فهذا لا يعرفنا ، ولو لم تكن له شكاية من والينا ما قال هذا القول^(٢) . وفي ذلك ما يدل على حصافته وبعد نظره وحسن سياسته وكان شاعراً يحسن صوغ الشعر ورصفه ، وله مكاتبات شعرية مع منصور بن دُبَيْس المزيدي أمير بَوَادِي الحِجَّة وأنشد له العباد إحدى هذه المكاتبات ، كما أنشد له شعراً شيعياً ، أو بعبارة أدق ثلاثة أبيات شيعية ، ويروى له^(٣) :

وما كنتُ مِجْزَاعَ الْفَوَادِ وَإِنَّمَا فَوَادِي عَلَى يَبْنِ الْحَبِيبِ جَزُوعُ
وَكَا نَتِ سُلَيْمَى لِلْمَحِينِ رَوْضَةٌ وَوَصَلُ سُلَيْمَى رَوْضَةٌ وَرَبِيعُ

والصورة في البيت الثاني بديعة وتدلّ على شاعرية جيدة . وكان طموحاً كريم النفس يطلب العلا مهما يكن مطلبها باهظاً ، وله في ذلك مهوّاً من أهل عصره ومصرغاً :
وَإِنِّي لِأَحْقَرِ هَذَا الزَّمَانِ وَلَا سَيِّمًا أَهْلَ هَذَا الزَّمَنِ
يَرِيدُونَ تَيْلَ الْعَلَا بِالْمُنَى وَتَيْلُ الْعَلَا بِرَغِيبِ الثَّمَنِ
وكانت وقفة العباد عند بني مَزِيد الأسديين أكثر طولاً ، وأول من ترجم له منهم بهاء الدولة

(١) انظر في ترجمة مسلم الخريدة (قسم الشام) (٢) الخريدة قسم الشام ١٢٨/٢ .

٢٥٥/٢ وابن خلكان ٢٦٧/٥ والنجوم الزاهرة (٣) انظر في هذين البيتين وما بعدهما هامش الخريدة في

ترجمة مسلم نقلا عن الوافي للصفدي .

منصور^(١) بن دُبَيْس الذى خلف أباه على رئاسة القبيلة سنة ٤٧٤ وكان إسماعيلياً رافضياً مثل آبائه ، وله - كما ذكرنا آنفاً - مكاتبات شعرية مع مسلم بن قريش صاحب الموصل وبواديه ، وظل على رئاسة قبيلته الأسدية حتى توفى سنة ٤٧٩ وبعث هو وأبوه دبيس نشاطاً أدبياً فى بيئتهما ، فقصدهما الشعراء بالمديح . وكان منصور يجيد الشعر وله فى رثاء صاحب له يُكنى أبا مالك :

فإن كان أودى خدُننا وندمنا أبو مالك فالثائبُ تنوبُ
وكلُّ ابنِ أنثى لا محالة ميتٌ وفى كلِّ حىٍّ للمنون نصيبُ
ولو ردَّ حُزنٌ أوبكاءُ لهالكٍ بكيناه ما هبتُ صَباً وجُوبُ

وله فخر جيد . وخلفه ابنه سيف الدولة صدقة^(٢) ، وهو الذى بنى مدينة الحِجْلَة لقبيلته ، كى تنتقل من حياة البداوة إلى حياة الحضارة ، وفيه يقول العباد : « كان جليل القدر ، جميل الذكر . له دار الضيافة التى يتفق عليها الأموال الألوْف . المعروف بإسداء المعروف ، وإغاثة الملهوف » وقد قصده الشعراء من كل فج ، وله قدم ابن الهبَّارية - كما مرَّ بنا - كتابه الصادح والباغم الذى نظمته فى عشر سنوات على غرار كليله ودمنة . ونازل محمد بن ملكشاه السلجوق سنة ٥٠١ وقُتل فى المعركة ، ولما سمع نظام الملك وزير السلجوقيين فى الرِّى خبر موته قال : مات أجلُّ صاحب عمامة . وكان فارساً شجاعاً عادلاً فى رعيته ، كما كان محسناً للأدب حافظاً أشعار الجاهليين والإسلاميين والعباسيين . ويقول العباد : كان يقبل على الشعراء ، ويمدهم بحسن الإيصاء وجزيل العطاء » وكان يرتب لهم سنوياً مكافآت ، كل حسب طبقتة . واستطاع ابنه دُبَيْس^(٣) أبو الأغر سيف الدولة أن يلم شتات إمارته ، غير أنه خرج على المسترشد مراراً وتفرَّق عنه جنده تكراراً إلى أن قتله السلطان المسعودى السلجوقى صبراً سنة ٥٢٩ وهو الذى يشير إليه الحريرى - كما مرَّ بنا - فى مقامته « العُمانية » واصفاً كيف أقبل الناس يشنون على أبى زيد ، حين سمعوا فصاحته ، يقول : « حتى كأنه الأسدى دُبَيْس » فى إقبال الناس وتزاحمهم على رؤيته لشجاعته ، وكان شاعراً ، وأنشد له العباد محاورات شعرية مع أخيه بدران وكان ينشد :

حُبُّ علىِّ بنِ أبى طالبٍ للناس مقياسٌ ومِقيارُ
يُخرِجُ ما فى أصلهم مثلاً تُخرجُ غِشَّ الذهبِ النارُ

(١) ترجمته فى الخريدة (قسم العراق) ١٥٧/١/٤ ١٩٦/٥ .

وابن خلكان ٤٩١/٢ والنجوم الزاهرة ١٢٢/٥ . (٣) راجعه فى الخريدة ١٧٠/١/٤ والمتنظم ٥٢/١٠

(٢) انظر فى صدقة بن منصور الخريدة (قسم العراق) وابن خلكان ١٦٣/١/٤ والنجوم الزاهرة ٢٦٣/٢ ٢٥٦/٥ .

وابن خلكان ٤٩٠/٢ والنجوم الزاهرة

ولم يستقم لآل مزيد بعد دُبَيْس سلطان ، وأبدلت العزة بالدلة ، كما يقول العماد . ويترجم لأخيه بدران (١) ، ويقول إنه تغرب عن الحلة ، وقصد الشام ثم توجه إلى مصر وبها توفي سنة ٥٣٠ وروى له العماد أشعاراً يحنُّ فيها إلى الحلة باكياً مجد آبائه ، وأخرى غزلية ، أو شيعية ، أويذيب فيها بعض أمانيه الضائعة من مثل قوله :

لا والذي قصد الحجيح على بزلٍ وما يقطعن من جدٍ (٢)
لا كنت بالراضى بمنقصة يوماً وإلا لست من أسدٍ
لأقلقن العيس داميةً ال أخفاف من بلدٍ إلى بلدٍ (٣)

ولم يستطع أن يبعث الإبل ولا غير الإبل لرد إمارة آبائه . ولا يلقانا بعده شاعر لبني مزيد في الحلة ، وأغلب الظن أن قبيلة بني أسد عادت أوعاد معظمها إلى البوادي ، وكأنما كان ذلك كله دوراً نهضت به وانتهى بانتهاء بني مزيد وانتقاض سلطانهم .

ويترجم العماد لشعراء الحجاز وتهامة ويريد بها مكة ، إذ يطلق عليها اسم تهامة أحياناً ، وأول من يترجم لهم شكر بن أبي الفتوح ، وقد مرت بنا ترجمته عند الباخري . وتلاه بترجمة لجعفر (٤) بن محمد بن إسماعيل الحسني ، وقال إنه كان عارفاً بالنحو واللغة ، شاعراً يمدح الأكابر طلباً لرفدهم وعطائهم ، وقال نقلاً عن السمعاني إنه كانت في رأسه دعاوى عريضة خارجة عن الحد ، لا يرى أحداً في علم اللغة فوقه . رحل من الحجاز إلى العراق ، ثم دخل خراسان وأقام بها ، ثم عاد إلى بغداد وألمَّ بواسط والبصرة في سنة نيف وثلاثين وخمسمائة على عزم المسير إلى بلاد فارس ، وأنشد له العماد قطعتين : حائية ولامية ، ومن قوله في أولاهما :

أما لظلام ليلى من صباح أما للنجم فيه من براح
كان الأفق سدّ فليس يرّجى له نهجٌ إلى كل النواحي
كان الصبح منفى طريدٌ كان الليل بات صريع راح

ويتلوه العماد بأبي عبد الله (٥) محمد بن إبراهيم الأسدي الحجازي ، ويقول إن مولده بمكة ومنشأه بالحجاز ، وإنه لقي أبا الحسن التهامي شاعر مكة المشهور في صباه ، ويبدو أنه عمّر طويلاً ، إذ يقال إنه ولد سنة ٤٠١ وتوفي سنة ٥٠٠ وقد رحل إلى العراق واتصلت رحلاته إلى غزته ، وينسب له البيتان المشهوران :

(١) الخريدة ١٧٧/١/٤ وابن خلكان ٢/٢٦٤ . والعقد الثمين ٣/٤٢٨ وإنباه الرواة للقفطي ١/٢٦٦ .

(٢) البزل : جمع بازل وهو البعير القوى المتين ، (٥) انظره في الخريدة (قسم الشام) ٣/٢٣ والوافي بالوفيات للصفدي ١/٣٥٦ والعقد الثمين ٣/٣٩٨ .

(٣) العيس : الإبل . والمتظم لابن الجوزي ٩/١٥٣ .

(٤) انظر ترجمته في الخريدة (قسم الشام) ٣/٢٠ .

ثَقَلْتُ : ثَقَلْتُ إِذْ أَتَيْتُ مَرَارًا قَالَ : ثَقَلْتُ كَاهِلِي بِالْأَيَادِي
ثَقَلْتُ : طَوَّلْتُ قَالَ : لَا بِلَ تَطَوَّلُ سَتَ ، وَأَبْرَمْتُ قَالَ : حَبَلَ الْوُدَادِ

وتتداول البيتين كتب البلاغة ، إذ يصوران لوناً من ألوان البديع وهو القول بالموجب ٥ -
وهو توجيه الكلام في الحوار وجهة طريفة ، تنفي ظاهره المراد . ويترجم العمد عقبه لشاعر
يسمى أبابكر^(١) محمد بن عتيق السوارقي الذي توفي بطوس سنة ٥٣٨ وأنشد له العمد
أشعاراً منها قوله :

أَيَا سَاكِنِي نَجِدْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ وَإِنْ كُنْتُ لَا أَرْجُو إِيَابَا إِلَيْكُمْ
وَإِنْ كَانَ جِسْمِي فِي خُرَاسَانَ ثَاوِيًا فَقُلِّي بِنَجْدٍ لَا يَزَالُ لَدَيْكُمْ

ويترجم العمد بعده لشاعر من خُدَّامِ سُدَّةِ المصطفى ﷺ يسمى كافوراً النبوي ، ويقول إنه
رحل أيضاً عن المدينة ، وأوغل في رحلته حتى بُخارى ، وينشد له العمد بعض شعره ، ثم
يترجم لشريف سليمان هو علي^(٢) بن عيسى كان أبوه عيسى أميراً على الخلاف السليمانى
وقتل أخوه أبو غانم يحيى ، ففرَّ ابنه على إلى مكة ، وظل فيها إلى وفاته سنة ٥٥٦ يقول
العمد : « وله تصانيف مفيدة وقرَّحته في النظم والنثر مجيدة » ويقول القفطى : « لما نزل
الزحمرى مكة وجد بها الشريف على بن عيسى بن حمزة الحسنى فعرف قدره ، ورفع أمره
وتلمذ عليه ، ونشطه لتصنيف ما صَنَّفَ » وقد أُلِّفَ له تفسيره الكشاف المشهور ، وفيه
يقول على مادحاً ومنوهاً :

جَمِيعُ قُرَى الدُّنْيَا سِوَى الْقَرْيَةِ الَّتِي تَبَوَّأَهَا دَارًا فِدَاءً زَمَخْشَرًا
وَأَحْرَ بَأَنْ تُزْهَى زَمَخْشَرٌ بِأَمْرِي إِذَا عُدَّ فِي أَسَدِ الشَّرَى زَمَخُ الشَّرَا^(٣)

وينشد له العمد طائفة من أشعاره تدل على شاعرية خصبة وأنه كان يملك زمام اللغة
ويعرف أساليبها السوية المونقة ، وله أبيات فخر كثيرة تصور عزة نفسه وإبائه الضمير
ومروءته ، ومن قوله في رثاء بعض آبائه :

غَاصَ النَّبِيرُ الْعَذْبُ يَا وَارِدًا وَحَالَ عَنْ عَهْدِكَ ذَاكَ الرُّلَالُ
وَيُتْرَجَمُ الْعَمْدُ عَقِبَهُ لَابِنِ عَمٍّ لَهُ يَسْمَى دَهْمَشُ^(٤) بِنَ وَهَّاسٍ ، يَظْهَرُ أَنَّهُ فَارَقَ الْخِلَافَ
السَّليمانى مثله وأقام بمكة ، فترجم له العمد بين أبنائها ، ويقول إنه وفد على صلاح الدين في

(١) الخريدة (قسم الشام) ٢٦/٣ .

(٢) راجع ترجمته في الخريدة (قسم الشام) ٣٢/٣ .

والعقد الثمين ٢١٧/٦ . ومادة زمخشري في معجم البلدان .

العين ٣٦١/٤ .

(٣) الشرى : مأسدة . زمخ : ترفع عليها وتكبر .

(٤) راجعه في الخريدة (قسم الشام) ٣٥/٣ والعقد

ذى الحجة سنة إحدى وسبعين ، وهو على باب حلب ، ثم يتلوه بابين الریحاني (١) على
بن الحسن المكي الذي وفد على صلاح الدين في سنة سبعين ، ويذكر له قطعة في مدح أمير
المدينة قاسم الحسيني ، وفيه يقول :

سما بكرا من ذؤابة هاشم غطاريف صيد ماجدين جحاجح
وبلقانا بعد ذلك في مكة القائد سالم بن أبي سليمان ، وهو مغربي الأصل ، وينشد له العباد
قصيدة في المديح لعيسى بن فليته أمير مكة ، تزخر بالعقيدة الزيدية ، وسنعرض لها في موضع
آخر ، حين نتحدث في الفصل التالي عن شعر العقيدة الزيدية . ويتنقل العباد من شعراء الحجاز إلى
شعراء اليمن ، وترجم لأكثر من أربعين شاعراً منهم ، وهم يصورون ما بُثَّتْ دويلات اليمن من
نهضة شعرية في بلدانها ، وكان كثير من أمراء هذه الدويلات شاعراً ، وترجم العباد لأربعة
منهم ، هم علي بن محمد الصليحي مؤسس الدولة الصليحية ، وجياش أمير آل نجاح حكام
زبيد وحاتم بن أحمد الحمداني أمير صنعاء والمهدي بن علي بن مهدي أمير زبيد الذي قضى
على دولة آل نجاح . ومربنا حديث عن الصليحي عند الباخريزي ، وكان جياش شاعراً
مجيداً ، ويروى أن ابن القم شاعر اليمن في عصره أرسل إليه عاتباً (٢) .

يأبها الملك الذي خرت له غلبُ الملوك نواكس الأذقان
أترى الذي وسع الخلائق كلها يابن النصير يضيق عن إنسان

فأجابه جياش :

لا ، والذي أرسي الجبال قواعداً ذي القوة الباقي ، وكلُّ فان
ما إن يضيق برحبتنا لك منزلٌ ولو أنه في باطن الأجفان
ويشيد الشعراء طويلاً بما كان يصلهم من عطايا الأمراء وأضرابهم من مثل أمراء بني
زُريع والأمراء الزيديين وأئمتهم . ومن ترجم له العباد من شعراء الصليحيين ابن القم وعماره
اليمني وسنخص كلا منهما بكلمة في حديثنا عن شعراء الإسماعيلية . وبالمثل ترجم لشاعر
إسماعيلي ثالث من شعراء الصليحيين هو عمرو بن يحيى الهيشمي شاعر الداعي علي بن محمد
الصليحي . ومعروف أن آل زُريع حكام عدن خلفوا الصليحيين حين انتهت دولتهم بموت
الملكة الحرة أروى سنة ٥٣٢ هـ وصارت إليهم حصونهم ومعاقلمهم وأموالهم ، كما صاروا هم
القائمين على الدعوة الفاطمية الإسماعيلية ، وترجم العباد لشاعرهم أبي بكر العيذي وسنخصه
بكلمة بين شعراء المديح . وشعراء زبيد ودولة آل نجاح كثيرون ، وعلى رأسهم جياش كما

(١) انظره في الخريدة (قسم الشام) ٣٢/٣ والعقد (٢) الخريدة (قسم الشام) ٣/٢٢٤ .

أسلفنا ، وله فضل تخليد أسمائهم في كتابه « المفيد في أخبار زبيد » والكتاب مفقود ، غير أن عمارة اليمنى كتب له مختصراً كما مرّ بنا وهو الذى رجع إليه العماد في الترجمة لجمهور شعراء اليمن ، وأول شاعر بارع يلقانا منهم زَكَرِيَّ (١) بن شكيل وله مدائح بديعة في جيش ، ويستهل إحداها بوصف طريف للخمر والمرأة الفاتنة ، وفيه يقول :

اسْقِنِي الرَّاحَ إِنَّمَا تَجْلِبُ الرُّوحَ حَ وَرِيحَانَهَا إِلَى الْأَرْوَاحِ
بَزَلُوهَا فَاْمَتَدَّ مِنْهَا لَجْوُ اللَّهِ يَلْ نُورٌ أَغْنَى عَنِ الْمَصْبَاحِ (٢)
مَا يُزِيلُ الِهْمُومَ مِثْلُ اصْطِبَاحِ فِي صَبَاحٍ لَدَى وَجْهِهِ صَبَاحِ
إِذْ تَرَى الدَّيْكَ كَالْبَعِيرِ ، وَكَالْأَرْ ضِ السَّمَوَاتِ ، أَوْ فَإِنَّكَ صَاحِ
وَارَعَ عَيْنَيْكَ فِي عَيُونِ مِنَ الزَّهْرِ بِرِ جَلَاهَا نُورٌ كَنُورِ الْأَقَاحِ
شَفَتَاهَا نُفْلَى وَمَاءُ ثَنَابَا هَا عُقَارَى وَخَدُّهَا تُفَاحَى (٣)
هَذِهِ الْجَنَّةُ الَّتِي وَعَدَ اللَّهُ وَمَا عَنْ نَعِيمِهَا مِنْ بَرَاكِ

والآبيات تسيل عذوبة ورشاقة وخفة وتكاد تطير عن الأفواه طيراناً ، والألفاظ تتداخل فيما بينها تداخل أفراد الأسرة المتشابهين في الرحم ، وما أجمل الجناس بين الاصطباح والصباح بفتح الصاد والصباح بكسرهما أى الوجوه المشرقة المضيئة . وصور خدر الخمر في البيت الرابع تصويراً جيداً ، وأحكم مراعاة النظر في البيتين الخامس والسادس ، إذ قرن العيون والثغر إلى الزهر ونور الأقاحى ، كما قرن الشفاه والرضاب والخدود إلى النُّقْل من الفسق وغيره والخمر والتفاح ، وسمى ذلك كله الجنة ، مبعداً في الخيال . وعلقنا بعده من شعراء آل نجاح القاضي العثماني (٤) ، وله في الصليحي حين فتك به سعيد بن نجاح هجاء مرير ، وساق له العماد خمريتين ، يتاجن فيها ، أما الأولى فيقول إنه شرب حتى حسب المهر أربنا ، وأما الثانية فيستوفي فيها ما سبقه إليه أبونواس من فكرة العفو الإلهي عن الكبائر كما كان يزعم ذلك المرجئة ، يقول متاجناً :

قَمِ فَاسْقِنِي بِالْكَأْسِ مِنْ تِلْكَ الَّتِي أَهْلُ الثُّهَى فِي وَصْفِهَا قَدْ حَارَوْا
وَأَشْرَبْ وَلَا يَلْحَقُكَ خَوْفُ عَقُوبَةٍ فِيهَا فَرَبٌ حِسَابُهَا غَفَّارٌ

ويترجم العماد لإسماعيل بن البوقا وزير جيش ، وأهم من ترجمته ترجماته لبنى أبى عقامة قضاة زبيد في عهد آل نجاح ، وفي مقدمتهم القاضي أبو عبد الله محمد بن أبى عقامة

المشبهات .

(١) الخريدة (قسم الشام) ٢١٨/٣ .

(٢) انظر الخريدة (قسم الشام) ٢٣١/٣ ولعله

(٢) يزل الدن : ثقبه .

(٣) العقار : الخمر . النقل : ما يرافق الشراب من

الشريف العثماني المذكور في طبقات فقهاء اليمن ص ١٧٧

الحفائلى (١) الذى قتله على بن مهدي حين دانت له زبيد سنة ٥٥٤ وينشد له العباد أشعاراً رائعة ، منها قوله فى مديح قوم راحلين :

للمجدِ عنكم رواياتٌ وأخبارٌ وللُعلا نَحُوكُم حَاجٌ وَأَوطارٌ
تشتاقكم . كلُّ أَرْضٍ تَزلونَ بها كأنكم لبقاع الأرض أَمطارٌ
فحيث كنتم فَتَغَرَّ الرُّوضُ مِبتَسِّمٌ وأين سِرْجُكم فَدَمَعُ المَزنِ مِذرارٌ
لله قومٌ إذا حَلُّوا بِمَنزِلَةٍ حلَّ النَّدى ويسير الجود إن ساروا
لا يَعْجَبُ النَّاسُ منكم فى مَسِيرِكمُ كذلك الفلكُ العُلوى دَوَّارٌ
والبدْرُ مَد صَبِغٌ لا يَرْضَى بِمَنزِلَةٍ فيها يَحِيْمُ فَهُوَ الدَّهْرُ سَيَّارٌ

وهو مديح رائع ، فالمجد لا يزال يروى أخبارهم ، ولا يزال للعلا منهم أمانى موصولة ، وكل أرض تشتاقهم وتتلهم عليهم ، كأنهم غيث جَدَّ بها المُمحل ، وكل مكان ينزلون يصبح روضاً مشرقاً ، وكلما ساروا عن مكان بكاهم الناس بدمع هتون ، بكوا شئالهم وكرمهم الذى يتبعهم أينما حلوا وساروا . وتصويره فى البيتين الأخيرين لهم فى رحيلهم بالفلك الدوار والبدر السيار تصوير دقيق يارع . ومن شعره فى الحداثة قوله يصف روضة :

وروضةٍ مارأى الرءاون مُشَبَّهًا كأنما سُرِقَتْ سِرًّا من الزَمَنِ
عَيمٌ وظِلٌّ وروضٌ مَوْتٌ وهَوًى يجرى من الروح مَجْرَى الروح فى البدَنِ
عَنَّتْ بها الطَّيْرُ أَلحاناً وساعدها رَقَصُ الغصون على إيقاعها الحَسَنِ
لقد سكرتُ وما الصهباءُ دائِرَةٌ فيها ولا نغمات العود فى أذنى

وتصوير فنتته بالروضة تصوير جيد ، فقد تصور كأنها سرقت من الزمن سرا دون أن يدري لما يرى فيها من اجتماع جال الطبيعة وجمال صاحبته التى تأسر لبه ، ويتخيل الروض كله من حوله يتغنى ويرقص ، تتغنى فيه الطير وترقص الأغصان على ألحانها متعانقة مرة ومنفرجة مرة ، وهو مسلوب الحس فنته وجمالاً ، حتى لكأنما هو فى مشهد غناء ورقص حقيقى . وكل شىء من حوله يأخذ بعقله . ويترجم العباد لابن مكرمان ، وهو شاعر زيدى ، سنعرض له فى حديثنا عن الدعوة الزيدية وشعرائها ، كما يترجم لشاعر خارجى من شعراء على بن مهدي هو ابن الهيثمى ، وسنلم به فى حديثنا عن شعراء الخوارج ، ويترجم أيضاً لشوان بن سعيد وشعره يكتظ بفخر عفيف بأصوله اليمينية ، وستحدث عنه بين شعراء الفخر والهجاء . ووراء من سميناهم من شعراء اليمن فى الخريدة كثيرون لم نعرض لهم ، لأن شعرهم متوسط

(١) راجع فى ترجمة محمد بن أبى عقامة الخريدة والنجوم الزاهرة ٣٣٠/٥ .

(قسم الشام) ٢٤٠/٣ . وطبقات فقهاء اليمن ص ٢٤٠

أودون المتوسط . ولعل القارئ لاحظ أننا اكتفينا بالخريدة عن عرض المختصر في أخبار زبيد لعمارة اليمنى الذى أشرنا إليه آنفاً ، لأن الخريدة تستغرقه .

ونترك العماد ومصدره العام أو خريدته عن اليمن والحجاز وشعرائها حتى منتصف القرن السادس الهجرى ، وبعد ذلك فالحجاز أهم مصدر له من منتصف هذا القرن حتى الربع الأول من القرن الثامن الهجرى كتاب العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين للفاسى وبه شعراء ممن جاؤوا بمكة كثيرون ، وبه مكِّيون ، ولدوا فى مكة ونشئوا بها واستيقظت مواهبهم الشعرية فيها ، وأكثر أشعارهم مدائح زيدية فى حكام مكة وأمراءها الزيديين . وتكثر المدائح النبوية فى هذا الكتاب سواء لشعراء مكة أو لمن نزلوها وأنفقوا بقية حياتهم فيها أو فى المدينة ، ولهم غزل رقيق نحس فيه نفحات الوجد الصوفى . وبلى هذا المصدر فى الأهمية من الترجمة لشعراء الحجاز كتاب سلافة العصر لابن معصوم ، وقد ترجم فى مكة لأكثر من ثلاثين شاعراً من شعراء القرنين العاشر والحادى عشر الهجريين ، وأكثر أشعارهم مدائح لأمرء مكة ، وكثير منها معارضة لقصائد الشعراء السالفين النابيين ويلاحظ ذلك ابن معصوم فى غير موضع من كتابه ، كما يلاحظ كثرة تصنعهم لألوان البديع وللتعبير عن التواريخ . وتكثر فى أشعارهم المدائح النبوية (والمناجيات) الإلهية . ومثلهم شعراء المدينة الذين ترجم لهم ابن معصوم ، وهم أربعة عشر شاعراً وتجد عندهم الألوان الشعرية المتأخرة مثل الدوييت . ويلقانا بعض شعراء الحجاز فى كتاب ريحانة الألبا للخفاجى المتوفى سنة ١٠٦٩ وبه قسم عن مكة والمدينة ، وألف ذيلاً له المحبى سماء نفحة الريحانة ، وبه قسم عن نبغاء الحجاز وألف المحبى أيضاً كتاب خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر وبه تراجم لبعض شعراء مكة والمدينة ومثله كتاب سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر للمرادى وكتاب تاريخ الجبرقى ، ففيهما بعض تراجم لمكيين ومدنيين .

وإذا تركنا الحجاز إلى اليمن بعد من ترجم لهم العماد فى خريدته وجدنا توران شاه الأيوبى يفتتحها سنة ٥٦٩ ويزيل منها الدويلات التى تحدثنا عنها آنفاً ، ويتحول شعراء اليمن إلى مديحه وفى مقدمتهم أبوبكر العيذى شاعر دولة الزُرَّيعيين . ويتولاها بعده أمراء من أسرته ، لعل أهمهم الأمير المسعود بن الملك الكامل صاحب مصر ، وقد دخلها سنة ٦١٢ وكان يصحبه بعض الشعراء والأدباء وفى مقدمتهم أبو الغنائم الشيزرى ، ولخزائنه وباسمه ألف فى اليمن كتابه «جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام» وقد قسمه إلى أكثر من عشرة كتب ، وختم كل كتاب ببعض أشعاره فى مديح المسعود . وكان قد حج الأمير المسعود فى سنة ٦٢٥ وأتاب عنه عمر بن على بن رسول ، وتوفى بمكة ، فانتهاز الفرصة عمر واستقل باليمن وأسس فيها دولة بنى رسول التى ظل

لواؤها مرفوعاً على اليمن من سنة ٦٢٦ إلى سنة ٨٥٨ وقد أرخ على بن الحسن الخزرجي تاريخاً بديعاً لهذه الدولة من منشئها إلى سنة ٨٠٣ وهي السنة التي توفي فيها السلطان الأشرف ، وتاريخه في مجلدين ، وهو كما قلنا في غير هذا الموضع تاريخ حضاري وسياسي وأدبي ، إذ عني بوصف احتفالات الرسولين وأحداثهم ووقائعهم الحربية وما نُظم فيها من أشعار ، ويذكر مع كل سلطان شعراءه وتهنئتهم له بالجلوس على أريكة الحكم وبالأعياد الإسلامية وبانتصاراته على أعدائه ، فعمر بن علي بن رسول الذي تلقب بالملك المنصور معه شاعره محمد بن حمير الذي لم يكن يترك مناسبة إلا ويقدم له فيها مدائح ، ومع ابنه المظفر شعراؤه : ابن حمير وابن هُتَيْمَل وأضرابهما ، وبالمثل من خلفهما من السلاطين . ويلقانا بعد الخزرجي وكتابه العقود اللؤلؤة في تاريخ الدولة الرسولية ابن الدَّبِيع وكتابه قرة العيون ، وفيه حديث مفصل عن دولة آل طاهر وشعرائهم ، وقد ظلت من سنة ٨٥٨ إلى سنة ٩٢٢ وكان زوالها على يد الجراكسة جنود قانصوه الغوري ، على نحو ما مرّ بنا في الفصل الأول ، فقد نازلوا آخر سلاطينها عامراً وقتلوه وقتلوا أخاه ، وفي رثائهما يقول عبد الرحمن الدَّبِيع :

أَخْلَى ضَاع الدِّينُ مِنْ بَعْدِ عَامِرٍ وَبَعْدَ أَخِيهِ أَعْدِلِ النَّاسِ بِالنَّاسِ
وَيَنْتَهِزُ الْعُمَانِيُّونَ سَنَةَ ٩٤٥ وَيَظْلُونَ بِهَا نَحْوَ قَرْنٍ . وَتَتَحَوَّلُ الْيَمَنُ إِلَى الرَّسَّيْنِ أَصْحَابُ
صَعْدَةَ ، وَيَنْتَهِزُ الْعُمَانِيُّونَ ثَانِيَةَ سَنَةِ ١٢٦٥ هـ / ١٨٤٩ م وَيَظْلُونَ بِهَا حَتَّى سَنَةِ ١٣٣٦ هـ /
١٩١٧ م . وَكُلُّ الْمَصَادِرِ الْعَامَةِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا لِلشُّعْرَاءِ فِي الْحِجَازِ تَفْرَدُ فَصُولاً طَوِيلَةً لِلشُّعْرَاءِ
الْيَمَنِيِّينَ ، وَمَرَّرْنَا ذَكَرَ كِتَابِ « نَسْمَةِ السَّحْرِ فِيمَنْ تَشِيعُ وَشُعْرُ » وَهُوَ كِتَابُ نَفِيسٍ غَيْرِ أَنَّهُ لَمْ
يَطْبَع . وَمِنَ الْكُتُبِ الَّتِي تَحْمِلُ مَعْلُومَاتٍ قِيَمَةَ عَنِ الشُّعْرِ وَالشُّعْرَاءِ فِي الْيَمَنِ كِتَابُ سَلَاةِ
العَصْرِ لَابْنِ مَعْصُومٍ وَكِتَابُ نَفْحَةِ الرِّيحَانَةِ لِلْمَحْيِيِّ وَكِتَابُ الْبَدْرِ الطَّالِعِ لِلشُّوْكَانِيِّ وَكِتَابُ
نَشْرِ الْعَرَفِ لِنَبَلَاءِ الْيَمَنِ بَعْدَ الْأَلْفِ حَتَّى سَنَةِ ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٥ م لَابْنِ زِبَارَةَ الصَّنَعَانِيِّ
وَكِتَابُ الْخِلَافِ السَّلْمَانِيِّ لِمُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ الْعَقِيلِيِّ ، وَشُعْرُ الْغَنَاءِ الصَّنَعَانِيِّ لِمُحَمَّدِ عَبْدِ غَانِمٍ ،
غَيْرَ الدَّوَاوِينِ الْمَطْبُوعَةِ مِثْلَ دِيْوَانِ ابْنِ هُتَيْمَلٍ وَدِيْوَانِ الْبَرَعِيِّ وَدِيْوَانِ مَدَائِحِ إلهِيَةِ لِمُحَمَّدِ بْنِ
إِبْرَاهِيمَ الْوَزِيرِ وَدِيْوَانِ الْأَمِيرِ الصَّنَعَانِيِّ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ .

وَلِحَضْرَمُوتِ شَاطِئِ شَعْرَى غَزِيرٍ . وَقَدْ اسْتَطَاعَ السَّيِّدُ عَبْدُ اللَّهِ السَّقَافُ أَنْ يُؤَلِّفَ
كِتَاباً مِنْ ثَلَاثَةِ أَجْزَاءٍ فِي تَارِيخِ الشُّعْرَاءِ الْحَضْرَمِيِّينَ ، وَهُوَ يَشْتَمِلُ مِنْ شُعْرَاءِ هَذَا الْعَصْرِ
الَّذِي تُؤَرِّخُ لَهُ عَلَى نَحْوِ مِائَةِ وَعَشْرِينَ شَاعِراً ، وَيَقُولُ فِي مُقَدِّمَتِهِ : « لَا أَكْتُمُ أَنَّ شُعْرَاءَ
حَضْرَمُوتٍ لَيْسُوا فِي رَتْبَةِ الْجَيِّدِينَ مِنَ الشُّعْرَاءِ وَلَا الْمَفْلُقِينَ . . وَلَمَّا كَانَتْ حَضْرَمُوتُ تَسُودُهَا
الرُّوحُ الصُّوفِيَّةُ وَالتَّرَعَّةُ الْفَقْهِيَّةُ فَإِنَّكَ تَرَى عَلَى شَعْرِهِمْ طَلَاءَ صُوفِيَا وَمَسْحَةَ فَقْهِيَّةٍ ، وَمَعَ هَذَا

الطلاء وتلك المسحة فإنهم لا يخرجون عن كونهم شعراء ، وإن لم يكونوا من المجيدين غالباً .
ولعل السيد السقاف بالغ في حكمه حين جعله عاماً ، ومما لا ريب فيه أن بين من ترجم
لهم شعراء نابهين يمكن أن يُعدّوا في رتبة المجيدين ، مثل أبي بكر العيدروس وعبد
الرحمن بن مصطفى العيدروس المتصوفين ، ومثل عبد الصمد بن عبد الله باكثير وهو يعد من
الشعراء الممتازين في الجزيرة العربية لهذا العصر بعامه وستترجم له بين شعراء المديح . ولم يترجم
السيد عبد الله السقاف لأحد من شعراء المذهب الإباضي الخارجي في حضرموت ، ومن
أهمهم أبو إسحق الهمداني وستترجم له في الحديث عن شعراء الإباضية .

ولم يكن للشعر في عمان هذا النشاط جميعه الذي رأيناه في حضرموت ، ولكن لا ريب في
أن الشعراء كانوا كثيرين في هذا الإقليم كثرتهم في الأقاليم الأخرى ، ومن يلقانا منهم في
النصف الأول من القرن الخامس الهجري أبو علي أبزون المجوسي الملقب بالكافي العماني ، وقد
ترجم له الباخريزي في دمية القصر (١) ، وأنشد طائفة جيدة من شعره ، ويذكر من ترجمته
عن الفارسية قوله :

وصَحْرَاءُ رَدَّتْهَا الطُّبَاءُ حَفَائِرًا بِأُظْلَافِهَا أَحْبَبَ بِهَا مِنْ حَفَائِرِ
فَهَبْتُ رِيَّاحُ لِلصَّبَا فَلَأَنهَا بِمَسْكِ فَعَادَتْ نُزْهَةً لِلنَّوَاطِرِ

وقد عني نور الدين السالمي في كتابه تحفة الأعيان سيرة أهل عُمان بعرض نماذج من أشعارهم
على مر الحقب ، وخاصة الحقب الأخيرة من هذا العصر . وكان للخوارج في نزوى شعراؤهم
وأيضاً للدول السنية حين كانت قائمة في عُمان ومسقط شعراؤهم ، فقد شجع بنو مكرم
وبنو نبهان الذين خلفوهم الشعراء ، واشتهر للأخيرين شاعر عني بمدحهم هو أحمد بن
سعيد الخروصي الستالي وستترجم له بين شعراء المديح واشتهر من الأسرة نفسها بأخرة من
زمنها شاعر هو سليمان النبهاني ، وستترجم له بين شعراء الفخر ، ومن شعراء الخوارج
الحبسي شاعر الأمير سيف بن سلطان الإباضي (١١٠٤ - ١١٢٣) ومن الشعراء بين الأئمة
الإباضية المتأخرين بلعرب بن سلطان الذي خلف الإمام السابق ، ومن شعره (٢) :

ولما بلوتُ الناسَ لم أرَ صاحباً أخاً ثقةً في النَّائِبَاتِ الْعِظَائِمِ
وتحولت مقاليد الحكم إلى أسرة البوسعيديين إذ خلصوها من أيدي اليعاربة سنة ١١٥٤ هـ
وظلوا في دست الحكم إلى اليوم ، ومن أهم أئمتهم سعيد بن سلطان ، وكان شاعراً مجيداً ، وله
يتغزل (٣) :

إطفيش الجزائر ٩٣/٢ .

(١) دمية القصر ٩٨/١ .

(٢) تحفة الأعيان (طبع مطبعة الشباب) بعناية إبراهيم (٣) التحفة ١٦٦/٢ .

يا من هواه أعزّه وأذلّني كيف السبيلُ إلى وصالك دُلّني
وتركتني حيرانَ صَبًا هائمًا أرعى النجوم وأنت في نومٍ هني
عاهدتني أن لا تميلَ عن الهوى وحلفت لي يا غصنُ أن لا تنثني
جاذ الزمانُ وأنت ما واصلتني يا باخلاً بالوصل أنت قتلتني
واصلتني حتى ملكت حُشاشتي ورجعت من بعد الوصال هجرتني
لما ملكت قيادَ سرّي بالهوى وعلمت أني عاشق لك خُشيتي

والآيات جيدة والألفاظ فيها تتعاقب في خفة والمقابلات بارعة ، والصور دقيقة ، وقد أكمل صورة الغصنِ بآثاره كناية عن جفاء صاحبه وإقبالها على غيره . وهو يأسى لنفسه أنها هجرتة بعد وصالها وبعد أن ملكت عليه شغاف قلبه ، وإنه ليتعثر في شباك حبّها ، بينما انصرفت عنه إلى غير مآب ، وعلى هذا النحو كان الشعر ناشطاً في عهد البوسعيديين وبلغنا من شعرائهم بأخرة من العصر أبو الصوفي سعيد بن مسلم .

وكانت البحرين تكتظ بالشعر والشراء طوال حقب هذا العصر ، ومن أوائل من تلقاهم بها الحسين بن أحمد الملقب بالأعصم الذي ولي أمر القرامطة سنة ٣٥٩ ومربنا حديث عنه وكيف أنه حارب الفاطميين تحت ألوية الخلافة العباسية ، وكان شاعراً مجيداً ، ومن شعره قوله :

إني امرؤ ليس من شأنى ولا أدبى طَبْلُ يَرِنْ ولا نائى ولا عودُ
ولا اعتكافٌ على خَمَرٍ ومَحْمَرٍ وذات دَلٌّ لها بالدَلِّ تأويدُ (١)
وتوفى بالرملة في فلسطين سنة ٣٦٦ وكان يتخذ أبا نصر (٢) بن أبي الفتح كشاجم كاتباً يمين يديه ، وكان شاعراً حسناً ، وأنشد له الثعالبي في اليتيمة طائفة من أشعاره في الأطعمة وألوانها المختلفة لعصره ، ومن قوله في وصف كتاب :

وصاحب مؤنيس إذا حَضَرَ جالسى بالملوك والكُبرا
جسمٌ مَوَاتٌ تحيا النفوسُ به يجِلُّ معنى وإن دنا خطراً
أظَلَّ منه في مجلسٍ حَقْلٍ بالناس طراً ولا أرى بشراً
وسرعان ما انتهى عصر القرامطة وخلقهم بنو الأصفر ، ولا يظنون طويلاً ، ويعقبهم بنو العيوني منذ سنة ٤٦٦ ويعملون على النهوض بالبحرين علمياً وأديباً ، وتكون ثمرة ذلك ظهور شاعر نابه من الأسرة هو على بن مقرب العيوني ، وسترجم له يمين شعراء المديح . ويخلف

(١) تأويد : انعطاف . وانظر في الأعصم وشعره ابن (٢) انظر ترجمته في اليتيمة ٢٨٥/١ .

الأثير (تحقيق إحسان عباس) ٦١٤/٨ وما بعدها .

العيونين - كما مرّ بنا - بنو عصفور وبنو جبر العقيليون ، وتظل النهضة الشعرية مستمرة ويستولى البرتغاليون بأخرة على البلاد في سنة ٩٢٧ ويخرجهم منها العثمانيون في سنة ٩٤٣ ويلقانا للبحرين غير شاعر في كتب التراجم الأدبية التي ذكرناها في حديثنا عن شعراء الحجاز ، وخاصة في «سلافة العصر» و«نفحة الرحانة» . ويسترجع بنو خالد البحرين من العثمانيين سنة ١٠٨١ ويظنون يحكمون الأحساء حتى يستولى عليها السعوديون في أوائل القرن الرابع عشر الهجري ، ومن الكتب التي تصور نشاط الشعر بعد خروج العثمانيين من البحرين كتاب شعراء هجر من القرن الثاني عشر إلى القرن الرابع عشر لعبد الفتاح الحلو ، وقد أنشد شعراً كثيراً من منظومات لهم نحوية وفقهية . ومن الشعراء في أواخر العصر على نقي الأحسائي وهو شيعي إمامي وله ديوان مطبوع ومؤلفات مختلفة في العقيدة الإمامية .

٣

شعراء المديح

يكثر شعراء المديح كثرة مفرطة في جميع أقاليم الجزيرة ، وقد عرض الباخريزي في دمية القصر طائفة من مدائح شعراء نجد في الوزير نظام الملك السلجوقي ، وكثرتهم إنما رحلوا إلى العراق وإيران طلباً للنوال ، وخاصة من هذا الوزير الذي غمر الشعراء بجوائزه وعطاياه ، وللهذّاب بن دَهْمَم الشيباني من قصيدة في مديحه (١) :

ما خلق الله تعالى وجلّ مثلَ وزيرِ الوزراء الأجلّ
أروغ كالنّصل ولكنّه أمضى من النّصل إذا ما يُسلّ

وقد بعث بنو عقيل في الموصل وبواديها حركة أدبية ظلت مزدهرة طوال حكمهم ، مما جعل شعراء إقليمهم يديحون القصائد في مديحهم ، وقصدهم الشعراء من العراق والشام ، وفي مقدمتهم أبو علي بن الشبل البغدادي مَادِح قُرَواش والمُشِيد بنصره على الغز بمثل قوله (٢) :

تَرَهْتَ أَرْضَكَ عَنْ قُبُورِ جُسُومِهِمْ فَعَدْتَ قُبُورَهُمْ بَطُونُ الْأَنْسَرِ

ومن شعراء قُرَواش الطاهر (٣) الجزري . وكان مسلم بن قريش - ابن أخيه - ينثر الأموال نثراً على الشعراء فجاءوه من كل فجّ وفي مقدمتهم ابن حيوس شاعر الشام ، وبلغ من إعجابه بمدائحهم فيه أن أقطعه - فيما قيل - الموصل على نحو ما مرّ بنا في غير هذا الموضع ، وله يقول من قصيدة طويلة (٤) :

(٣) انظره في دمية القصر ١/١٢٦ .

(١) دمية القصر ١/٦٠ .

(٢) ابن خلكان ٥/٢٦٣ - ٢٦٤ .

(٤) خريدة القصر للهاد (قسم الشام) ٢/٢٥٧ .

ولقد جمعت فضائلاً ما استجمعت يَفْنَى الزمانُ وذكرها لم يَهْرَمَ
 كراماً يُسَبِّحُ حَمِيَّ الغِنَى ومآثراً وَضُحاً تُبَيِّحُ بلاغةً للمُفْحَمِ
 ولم يكن بنو مزيد الأسديون في الحلة وبواديها أقل اهتماماً بالأدب والأدباء من بني عُقَيْل في
 الموصل وبواديه ، وكانوا قريين من بغداد ، فكثرت إلمام الشعراء بديارهم لأخذ جوائزهم ، غير
 من كانوا يَتَشَتُّون بينهم وفي مقدمتهم علي^(١) بن أفلح العبسي الشاعر ، ويقال إنه
 كتب بين يدي دُبَيْس بن مَزِيد في شببته . وكان ابنه منصور ممدحاً ، ومن ممدّاحه
 البندنجي^(٢) الشاعر البغدادي ، ومحمد^(٣) بن خليفة أبو عبد الله السنّسي ، وكان
 ابنه سيف الدولة صدقة مفرغاً للشعراء ، وكان السنّسي شاعره الأثير وله فيه مدائح مختلفة ،
 ومن ممدّاحه أيضاً المطاميري^(٤) وأبو طاهر^(٥) البغدادي وابن أبي الجبر^(٦) . ومن زار الحلة عاصمة
 الزيديين ومدح أمراءها الأبيوردي الشاعر الإيراني المشهور . ويغمر نجداء وراء دولتي الزيديين
 والعقيليين الظل ، فلا نكاد نتبين شيئاً من أخبار شعرائها ، حتى تلقانا دعوة محمد بن
 عبد الوهاب وأصدائها في الشعر والشعراء .

ومن يرجع إلى كتاب العقد الثمين يجد مدائح كثيرة طوال هذا العصر موجهة إلى أمراء مكة
 والمدينة وبالمثل تلقاه هذه المدائح في سلافة العصر لابن معصوم و«نفحة الرحانة» وفي
 كتب التراجم المتأخرة ، وكانت الإمارة في مكة زيدية شيعية وفي المدينة إسماعيلية على
 الأقل في الحقب الأولى وسنفرّد لشعراء هاتين النحلتين في الجزيرة دراسة خاصة في الفصل
 التالي :

أما اليمن فقد نشط فيها الشعر طوال هذا العصر ، وكان لتنافس الإمارات والدويلات
 الكثيرة في أوائله أثر بعيد في ذلك ، فإن كل إمارة عملت على أن تجمع حولها الشعراء ليكونوا
 دعاة لها ، وفي سبيل هذه الغاية كانت تجزل لهم في العطاء ، وتلقانا فيه إمارة الزيديين في
 صعدة ، وستحدث عن شعرائها في الفصل التالي . وبالمثل إمارة الصليحيين الإسماعيلية
 كان لها شعراء كثيرون سنعرض لهم في الفصل التالي أيضاً . وقل ذلك نفسه في إمارة بني
 مهدي الخوارج فستحدث عنهم مع الإباضية وشعرائهم . وربما كانت أهم إمارة عُنيّت
 بالشعر في القرن الخامس إمارة آل نجاح في زبيد ، وكان جياش (٤٨٢ - ٤٩٨ هـ) أهم
 أمراء هذه الدولة وأكثرهم عناية بالشعراء حتى لقد صنف فيهم كتابه «المفيد» الذي مرّ بنا

(٤) الخزينة ، القسم العراقي ١٩٥/٢ .

(١) انظره في الخزينة القسم العراقي ٥٢/٢ .

(٥) نفس المصدر ص ٢٢٠ .

(٢) الخزينة ، الجزء الرابع ، المجلد الأول ص ١٣٣ .

(٦) نفس المصدر ٥٢٥/٢/٤ .

(٣) نفس المصدر ص ٢٠٩ .

ذكره ، ويذكر عمارة في المختصر الذي صنعه لهذا الكتاب أنه كان لجياش ديوان ضخمة
وعدة مجلدات تجمع نثراً ونظماً ، ومن أهم شعرائه زكري بن شكيل المارّ ذكره ، وفيه
يقول من مدحة طويلة^(١) :

المُشْتَرَى حُلَّ النَّاءِ بِمَا حَوَتْ كَفَّاهُ وَالْحَامِي لَهَا أَنْ تُشْتَرَى
وَالْمَوْقِدُ النَّارِينَ : نَاراً لِلْوَغَى لَا تَنْطَفِئُ أَبَداً وَنَاراً لِلْقِرَاءِ

وكان بنوزرّيع في عدن مورداً عذبا للشعراء ، وكانوا إسماعيلية ، وكان كل من تولى منهم يسمى
نفسه الداعي أى للمذهب الفاطمي ، ولذلك ستؤخر شعراءهم إلى حديثنا عن شعراء
المذهب الإسماعيلي في اليمن . وقد تحول كثير من شعراء اليمن إلى مديح الأيوبيين منذ استولى
توران شاه الأيوبي سنة ٥٦٩ على اليمن إلى أن تخلوا عنها وملكها قائدهم نور الدين عمر بن
علي بن رسول وأسس فيها الدولة الرسولية ، ومن طريف ما تقرأ لهؤلاء الشعراء قصيدة لأبي
بكر العيذي يمدح بها توران شاه حين فتح اليمن وفيها يقول^(٢) .

أَعْسَاكَرَ سَيَّرَتْهَا وَجُنُوداً أَمْ أَنْجَمًا أَطْلَعَتْهُمْ سَعُوداً
أَمْ تِلْكَ مَاضِيَةُ الْعَزَائِمِ أَزْهَفَتْ بِالرَّأْيِ مِنْكَ وَجُرُودَتْ تَجْرِيداً
أَمْ تِلْكَ أَقْدَارُ الْإِلَهِ وَنَصْرُهُ رَفَعَتْ عَلَيْكَ لَوَاءَهَا الْمَعْقُوداً

ومن أهم الحكام الأيوبيين هناك الملك المسعود ، وهو آخر من حكمها منهم ، وكان يصحبه
أمين الدولة أبو الغنائم الشيرزي وصنف له كتابه « جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام » كما مرّ ،
وهو منتخبات شعرية ونثرية ، وكان شاعراً . ويؤسس نور الدين عمر بن علي بن رسول منذ سنة
٦٢٦ دولة أسرته الرسولية ، ويبعث هو وأسرته في اليمن نهضة شعرية ، بجانب ما بعثوا من
النهضة العلمية على نحو ما مرّ بنا في غير هذا الموضع . ويكثر مادحوه من الشعراء في الأعياد وفي
المناسبات المختلفة حين ينتصر في بعض المعارك ، وحين يفضى إلى بعض مجالس أنسه وشرابه ،
ولأبي الغنائم الشيرزي فيه مديح^(٣) يدل على أنه عاش إلى ما بعد سنة ٦٢٣ وكان شاعره الأثير
عنده محمد^(٤) بن حمير ، وكان لا يترك مناسبة دون أن ينشد فيها بين يديه بعض مدائحه من
مثل قوله^(٥) :

قَدْ قِيلَ جَاوَزَ - لَتَغْنَى - الْبَحْرُ أَوْ مَلَكَا أَنْتَ الْمَلِكُ وَأَنْتَ الْبَحْرُ يَا عَمْرُ
مَا حَازَ مَا حَزْتَ لَا عَرَبٌ وَلَا عَجَمٌ مَا شَادَ مَا شِدْتَ لَا جِنٌّ وَلَا بَشَرٌ

(٤) الخزرجي ١١٠/١ وفي مواضع متفرقة .

(٥) الخزرجي ٨٧/١ .

(١) الخريدة قسم الشام ٢١٩/٣ .

(٢) تاريخ نغر عدن لابن عجم ٣٧/٢ .

(٣) العقود اللؤلؤية ٣٦/١ .

إذا الجدودُ بهم أبنائهم شرفوا أوفاخروا فبك الأجداد تفتخر
عزوا بعزك أولاهم وآخروهم كما بأحمد عزت كلها مضر
ويقول الخزرجي : كان ابن حمير أوجد شعراء عصره وقد توفي سنة ٦٥١ وبذلك لحق
عصر المظفر الرسولي (٦٤٧-٦٩٤ هـ). وشاعره غير مدافع القاسم بن هتيمل ، وسنخسه
بكلمة ، وتكثر تهنئات الشعراء له منذ استيلائه على صولجان الحكم بعد أبيه ، وكان كلما أهلك
عليه عيد أو انتصر في موقعة حربية أكثروا من مديحه وتهنئاته ، ومن المحقق أن كثيرين منهم
كانوا يرددون معاني الشعراء العباسيين النابيين من أمثال أبي تمام والبحتري والمتنبي ، ومن
الطريف في هذا الصدد أن أحد شعراء المظفر البارزين - وهوا بن دُعاس - كان معاصروه من
أهل زيد يرمونه بسرقة الشعر ، ويقولون - متندرين عليه - إذا حوسب الشعراء يوم القيامة يؤتى
بابن دعاس للحساب ، فيعترف بسرقاته من سابقه ، ويقول هذا البيت لفلان وهذا الصدر
لفلان وهذا العجز لفلان ، وبذلك يخرج بريئاً . ويذكر له الخزرجي مدحة في المظفر يصفها
بأنها باهرة ، ومع ذلك يلاحظ هو نفسه أنه افتتحها بقوله :

ليس في قدرة ولا إمكان نيل ما نلت يا مليك الزمان
ويقول إنه لابن الحجاج البغدادي (١) ، ويعرض الخزرجي في أثناء حديثه عن السلطان المؤيد
(٦٩٦-٧٢١ هـ) أسماء جماعة من شعرائه ومدائحهم فيه ، وفي مقدمتهم العنسي والعفيف
عبد الله بن جعفر من مثل قول الأخير (٢) :

ساد الملوك فلا تكون مثاله أبد الزمان ولا يكون مثاله
وحوى الخلافة لم تكن إلا له طول الزمان ولم يكن إلا ها
ومن الرسوليين الممدحين الأشرف إسماعيل (٧٧٨-٨٠٣ هـ) . ومن مدائحه الخزرجي
صاحب العقود اللؤلؤية ، وله فيه مدحتان أولاهما في بيان (٣) ازدهار الدراسات الدينية التي
أقامها السلطان الأشرف في الجامع المبارك الأشرفي ، وقد مضى الخزرجي يسمى
القائمين على هذه الدراسات وغيرها من القراء والمحدثين والفقهاء والنحاة وأصحاب الحساب
والجبر ، والثانية (٤) في وصف الاحتفال بنحان أبناء الأشرف وتهنئته والإشادة بملكه وفتوحاته
وأبجاده . ونمضي إلى عصريني طاهر غير أنهم لا يُعنون بالشعر والشعراء على نحو ما كان يعني
الرسوليون ، وبانتهاء دولتهم ، يُظللُ اليمن حكم الزيديين أصحاب صعدة ، وسنخصصهم بحديث
مستقل .

(٣) الخزرجي ٢/٢٠٢ .

(٤) الخزرجي ٢/٢٣٦ .

(١) الخزرجي ١/٢٨٣ .

(٢) الخزرجي ١/٣٣٤ .

وتكثر في حضرموت مدائح العلماء والصوفية وهذا طبعى لأن كثرة الشعراء من الزهاد والفقهاء ، ويمتلئ كتاب تاريخ الشعراء الحضرميين بهذه المدائح كقول أحمد السقاف العلوى في شيخه محمد بن عبد الرحمن الأسقع (١) :

فقيه شريف حاز فضلاً ورفعةً له نسبة تَعْلُو على كل نسبة

وأكبر الشعراء المدّاحين في حضرموت عبد الصمد بن عبد الله باكثر، وسنخصه بكلمة . ويكثر شعراء المديح أيضاً في عمان ودائماً يتجه الشعراء بأشعارهم إلى مديح الأمراء النبهانيين ، وسنقف قليلاً عند شاعرهم السّالى . وبالمثل كان الشعراء في البحرين لا يزالون يمدحون أمراءها من العيونيين وغيرهم وفي مقدمتهم شاعر البحرين غير مدافع على بن مقرب العيوى :

وواضح مما سبق أننا سنقف قليلاً عند أربعة من شعراء المديح في اليمن وحضرموت وعمان والبحرين يصورون لنا ازدهار هذا الفن في بلدانهم في حقب مختلفة ، وهم القاسم بن هُتَيْمَل اليمنى وأحمد بن سعيد الخروصى السّالى العُمانى وعلى بن مقرب العيوى البَحْرانى وعبد الصمد بن عبد الله باكثر الحضرمى .

القاسم بن هُتَيْمَل (٢)

هو القاسم بن على بن هُتَيْمَل أكبر شعراء اليمن في القرن السابع الهجرى ، وهو من نَجْران بوادى ضِمْد فى الخلاف السليمانى وهى غير نجران المشهورة وبها نشأ . وقد تيقظت موهبته الشعرية مبكرة ، وله ديوان شعر كبير يدل على أنه وجّه شعره منذ شبابه إلى مديح أمراء الخلاف السليمانى وكانوا يتبعون الدولة الرّسُولية ، كما وجهه إلى الرسولين وأمرائهم وولاتهم وإلى الأمراء الزيديين فى جهة صَنْعَاء وصَعْدَة . ولا تُعرَف سنة ميلاده ، والمظنون أنه ولد فى العقد الثانى أو أوائل العقد الثالث من القرن السابع ، وإن كان هناك من يظن أنه ولد فى أوائل هذا القرن ، غير أننا لا نجد له شعراً فى السلطان عمر بن على بن رسول نور الدين المتوفى سنة ٦٤٧ بينا يُعد بحق شاعر ابنه السلطان المظفر (٦٤٧ - ٦٩٤ هـ) وحفيده السلطان الأشرف (٦٩٤ - ٦٩٦ هـ) . ويبدو أنه توفى لزمّنه إذ لا نجد له مديحاً فى أخيه المؤيد (٦٩٦ - ٧٢١ هـ) الذى استولى على صولجان الحكم بعده . وكان يتخذ شعره

(١) تاريخ الشعراء الحضرميين ١/ ٤٤ .

للخزرجى فى مواضع متفرقة (راجع الفهرس) والديوان

(٢) راجع فى ترجمة ابن هُتَيْمَل مقدمة تحقيق ديوانه

مطبوع بدار الكتاب العربى بالقاهرة سنة ١٩٦١ .

محمد بن أحمد عيسى العقيل ، وانظر العقود اللؤلؤية

متجراً ، فهو يمدح به المظفر وأسرته وعماله ، كما يمدح أمراء المخلاف السليمانى وأعيانه ، والأئمة الزيديين وفي مقدمتهم الإمام أحمد بن الحسين ، وأمراء ظفار ، وأمراء قبائل حلى بن يعقوب ، ويروى أنه قال فى أميرهم أحمد بن على الحرامى الكنانى من مدحة طويلة :

إن الملوك بنو يعقوبَ قاطبةً قطعاً وكلُّ ملوكٍ بعدهم سَوْقُ
والسوق جمع سوقة وهى الرعية وبلغت المدحة سَمَعَ المظفر الرسولى ، فاستشاط غضباً حين سمع
هذا البيت وطلب ابن هتيمل ليطير به طيرة بطيئاً سقوطها حتى إذا مثل بين يديه وأنشده
البيت حَقِيقاً ، تَخَلَّصَ تَخْلَصاً لطيفاً ، قائلاً : أطال الله عمر السلطان ! إنما قلت :
« وكل ملوك غيرهم سبق » فاستحسن تخلصه ^(١) ، وله فيه كثير من المدايح البديعة من
مثل قوله

أغرَّ رسولى يزُرُّ قيصه على القمر التَّمَّ الخِصَمَّ العَصْفَرِ
أعمَّ سماحاً من سماحة حاتم وأعظم بأساً من بسالة عتتر
وقوله ^(٢) :

هذى كهذى رسول الله متبع ما سار آل رسول الله فى السير
وعزمة كلُّ حدٍّ من صرامتها أمضى من الموت أو أمضى من القدر
لو أن هيئته أو بعض هيئته تلقى على الفلك الدوار لم يدُر

ونسجته اللفظى متين قوى ، وكلماته تروق السمع بجرسها وبحسن انتقائها ، إذ كان
يعرف كيف يصطفى لفظه وكيف يلائم بين كلماته ملاءمات تلذ الأذن حين تصيخ إليها وتلذ
اللسان حين ينطق بها وهو بحق صائغ ماهر . وممدوحه الثانى بعد المظفر فى ديوانه الإمام
الزيدى أحمد بن الحسين ، وفيه يقول فى إحدى مدائحه ^(٣)

حفظ الله أحماً حيثما كا نَ وجادته ديمةٌ مِدرارُ
الشريف الشريف والجوهر الجوهر والخالص الثَّصارِ الثَّصارُ
سيدُّ أمه البتولُ وجداً هُ المثنى وأحمد المختارُ

والبتول : السيدة فاطمة الزهراء ، والمثنى : الحسن بن الحسن بن على جد الممدوح
وأحمد المختار الرسول ﷺ ، وواضح ما فى لفظ ابن هتيمل من سهولة وعذوبة ، وهو
عادة يقدم لمدائحه بغزليات تسيل رقة وخفة ، كقوله فى مقدمة هذه القصيدة :

(٣) الديوان ص ١٥٥ وشعر الغناء الصنعانى للدكتور

محمد عبده غانم ص ١٧٩ .

(١) انظر فى هذا الخبر مقدمة الديوان .

(٢) الخزرجى ١/ ١٥٩ .

يَاقُضِيًّا مِنْ فِضَّةٍ يَقُطِفُ النَّرَّ جِسٌّ مِنْ وَجْتِيَّةٍ وَالْجُلُنَّارُ
 قَرٌّ طَوْقُهُ الْهَلَالُ وَمِنْ شَمْسٍ الدِّيَاجِي فِي سَاعِدِيهِ سَوَارُ
 عَجَبًا مِنْكَ تَحْتَ بُرْقَعِكَ النَّارُ وَفِيهِ الْجَنَّاتُ وَالْأَزْهَارُ
 وَاللَّيَالِي الطَّوَالُ تَنْحُتُ مِنْ جَسَدٍ حَيٍّ مَا أَبْقَتِ اللَّيَالِي الْقَصَارُ
 وَبَيْنَ مَا يَتَضَمَّنُ هَذَا الْغَزَلَ مِنْ رَوْعَةِ التَّصَاوِيرِ ، فَالْقَدْرُ الشَّيْقُ لَصَاحِبَتِهِ قُضِبَ
 أَوْ غَصَنٌ مِنْ فِضَّةٍ يَقُطِفُ مِنْهُ النَّرْجِسُ وَالْجُلُنَّارُ إِشَارَةً إِلَى جِبَالٍ عَيْنِيهَا وَخُدُودُهَا ، وَقِلَادَةُ الْفِضَّةِ
 تَطُوقُ جِيدَهَا ، بَيْنَمَا نُورُ الشَّمْسِ يَلْتَفُّ حَوْلَ سَاعِدِيهَا سَوَارًا ، وَيَعْجَبُ أَنْ تَتَوَهَّجَ النَّارُ نَارَ
 وَجْتِيَّتِهَا تَحْتَ بُرْقَعِهَا بَيْنَمَا يَجَانِبُهَا الْجَنَّاتُ مِنَ النَّرْجِسِ وَالْجُلُنَّارُ وَالْأَزْهَارُ . وَتَطُولُ بِهِ اللَّيَالِي سَهْرًا
 وَسَهَادًا ، حَتَّى لُتْضِيهِ ، بَلْ حَتَّى كَأَنَّمَا تَنْحُتُ جِسْمَهُ ، مَخْلَقَةً لَهُ الْأَلْمُ وَالشَّحُوبُ . وَدَائِمًا يَلْقَانَا
 هَذَا الْغَزَلَ وَالنَّسِيبَ الرَّائِعَ فِي مَقْدَمَاتِهِ لِمَدَائِحِهِ عَلَى شَاكِلَةِ قَوْلِهِ فِي اسْتِهْلَالِ مَدْحَةٍ ثَانِيَةِ
 لِأَحْمَدَ بْنِ الْحُسَيْنِ :

إِذَا جِئْتَ الْغَضَا - وَلَكَ السَّلَامَةُ فَصَارِحُ بِالتَّحِيَّةِ رِيْمَ رَامَةً (١)
 وَقُلْ لِلْوَالِيَّةِ هَلْ لِرُوحِي وَمَا أَتْلَفْتُ مِنْ جَسَدِي غَرَامَهُ
 حَلَلْتُ تِهَامَةً وَحَلَلْتُ نَجْدًا فَأَيْنَ وَأَيْنَ نَجْدُ مِنْ تِهَامَةٍ
 وَسَارَتْ الْقَصِيدَةُ مَسِيرَةَ أُخْتِهَا السَّابِقَةِ وَعَارَضَهَا كَثِيرٌ مِنَ الشُّعْرَاءِ ، وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّهُ كَانَ
 يَغْنَى بِهَا كَمَا كَانَ يَغْنَى بِأَخْتِهَا الرَّائِيَةِ السَّالِفَةِ . وَمِنْ طَرِيفِ نَسِيهِ :

أَرَاكَ تَرُوحُ مَا وَدَّعْتَ نَجْدًا وَلَا أَحْدَثْتَ بِالْعَلَمَيْنِ عَهْدًا
 وَلَا صَافَحْتَ أَهْلَ الرَّمْلِ كَفًّا فَكَفًّا فِيهِ أَوْ خَدًّا فَخَدًّا
 ضَلَالًا مَا أَتَيْتَ مِنَ التَّجَافِي أَلَا بُعْدًا لِمَا أَضْمَرْتَ بُعْدًا
 وَكَيْفَ سَلَوْتَ عَنْ أَرْضٍ بِأَرْضٍ يَفُوحُ تُرَابُهَا مِسْكًَا وَنَدًّا (٢)
 وَالْأَبْيَاتُ تَسِيلُ رِقَّةً وَعَذُوبَةً ، وَيُرْوَى أَنَّ بَعْضَ الْوُجْهَاءِ فِي الْيَمَنِ جَاءَهُ طَلَبٌ عَاجِلٌ مِنْ
 أَحَدِ الْأَمْرَاءِ بِأَنْ يَفِدَ عَلَيْهِ لِأَمْرٍ مَعَهُمْ ، وَكَانَتْ زَوْجَتُهُ اتَّخَذَتْ زَيْنَتَهَا لَهُ أَوْشِيًّا مِنْ زَيْنَتِهَا ، فَلَمَّا
 رَأَتْهُ يَهْمُ بِالْخُرُوجِ تَعَرَّضَتْ لَهُ مَنَشْدَةً قَوْلُ ابْنِ هَتِيمَلٍ .

أَرَاكَ تَرُوحُ مَا وَدَّعْتَ نَجْدًا وَلَا جَدَّدْتَ بِالْعَلَمَيْنِ عَهْدًا
 فَابْتَسَمَ الزَّوْجُ وَأَجَّلَ زِيَارَةَ الْأَمِيرِ (٣) . وَفِي هَذَا الْخَيْرِ مَا يَشِيرُ بِوَضُوحٍ إِلَى أَنَّ أَهْلَ الْيَمَنِ
 رِجَالًا وَنِسَاءً كَانُوا يَتَدَاوَلُونَ شُعْرَابِنَ هَتِيمَلٍ فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ مَمَاتِهِ . وَكَانَ الْمَغْنُونُ يَتَغَنَّى فِي بَعْضِ

(١) الغضا : من شجر نجد وبواديها . الريم : الظباء . (٢) الند : عود يتطبخ به ، طيب الرائحة .

وزامة : موضع بنجد . (٣) مقدمة الديوان ص ٨ .

أشعاره بل قد يغنون له بعض مدائحه بما يتقدمها من غزل ونسيب وما تذيع من ثناء ومديح .
وله مراثٍ لزوجته وبعض أهله تفيض بالأسى واللوعة الممضة كقوله في أخ وأخت له ماتا في
أسبوع واحد :

مضتْ ما ابْيَضَّتْ الضَّفِيرَاتُ منها ومات وما بدا شَعْرُ العِدَارِ
فأيُّهَا على الخَلُواتِ أبكى أبدرُ التَّمِّ أم شمسُ النهارِ

وفي الحق أن ابن هتيمل كان شاعراً مجيداً سواء في مراثيه أو في غزله ونسيبه أو في مدائحه ،
وهو في المدائح يسجل أحداث عصره وما كان فيه من وقائع حربية ، وخاصة حروب السلطان
المظفر ، مما جعل الخزرجي ينشد كثيراً من أشعاره في العقود اللؤلؤية .

أحمد بن سعيد الخزرجي الستالي^(١)

عُثماني من وادي خروص ، ومن قرية منه تسمى ستال ، وفيها ولد سنة ٥٨٤ وبها نشأ وتلقن
الشعر واللغة والنحو والبلاغة وفي هذا دليل واضح على ما نقول من أن الثقافة العربية كانت
منتشرة في كل ركن من أركان الجزيرة ، بل في كل قرية ، ومثلها الثقافة الإسلامية ، فقد كان
الناشئة يبدءون بحفظ القرآن ، ويقعدون في حلقات بعض الشيوخ لسماع العظات وشيء من
التفسير للذكر الحكيم وبعض الأحاديث النبوية . ولما شب الستالي عن الطوق غادر قريته إلى
عُمان ، وأخذ فيها ينهل من موارد العلم والعلماء في عصره . وحين أنس من نفسه تديب المدائح
قصد بها حكام عمان السنين من بني نهران ، وسجل شعره كثيراً من أحداث زمنه ، وخاصة
ما كان بين بني نهران وبين الفرس من حروب ، فقد كانوا يكثرون من الإغارة على ديارهم ،
غير أنهم كانوا يعودون دائماً مدحورين على نحو ما يصور ذلك الستالي في مديحه للأمير النبهاني
كهلان سنة ٦٥٠ وكذلك في مديحه للأمير النبهاني عُمر بن نهران بن عمر بن محمد بن عمر بن
نبهان سنة ٦٧٤ وهو وأبوه نبهان وعمه أبو القاسم على وكذلك عمه محمد تتردد أسماءهم في
مدائحه ومراثيه في الديوان ، من ذلك قوله في أبي القاسم على مادحاً ومهنئاً بالعيد :

أبا القاسم الميمون أوتيت في الدُّنَى من الفضل ما لم يُوتَ عَجْمٌ ولا عَرَبٌ^(٢)
لك الشِّيمُ الغراء والهمم العلا وأنت السَّنَانُ الصَّدْقُ والمَرْهَفُ العَضْبُ^(٣)
أبا القاسم اسلِّمْ وَابْقَ للمجد وادعاً وحلَّ بشانيك المخافة والرُّعْبُ

(٢) الدُّنَى : جمع دنيا .

(١) انظره في تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان لنور الدين

(٣) المرهف : السيف . العضب : القاطع .

السالي ٣٠٣/١ وراجع مقدمة ديوانه .

وعَيْدٌ سعيداً في علاءٍ ورفعةٍ وطول يدٍ مالاحتِ السَّبعة الشُّهُبُ^(١)
 وواضح أن صوت الشاعر يحمل غير قليل من الجزالة والرصانة ، وفيه استواء وتناسق
 وما يدل على أن الشاعر كان يُحْكَمُ كلمه ويصوغها صياغة جيدة دون أى نبؤ والتواء ، وله
 يمدح نهبان بن عمر من قصيدة طويلة :

أنهبانُ إنك من عصبيةٍ نأها إلى المجد قَحْطَانُهَا
 همُ العين في يَعْربٍ كُلُّهَا وأنت من العينِ إنسانُهَا
 إذا طُلِيتْ مَكْرَمَاتُ العِلا بدا في جَبِينِكَ عُنْوَانُهَا
 فعشتَ وبلُغتَ من سَيِّدٍ مُنَاكَ وَسْرَكَ لُقْيَانُهَا
 ولازال يغدوك في نعمةٍ شبابُ الحياة ورِيعَانُهَا

والأبيات تصافح الآذان في خفة ، وهى تموج بالحركة ، وكأنما أعدّها لكي تغنى وتملأ
 الخلق مجلاوة رناتها ، وانظر إلى تكملة البيت الرابع : « وسرك لقيانها » فإنك تحس القدرة
 على تكملة البيت بقافية تروعك ، إذ لم تكن تتوقعها ، وكنت تحار كيف يأتي بها .
 ويبدو أنه كان يكثر من الرحلات إلى العراق ، ففي أشعاره ذكر لبعض بلدانها مثل
 تكريت وهيت والجزيرة ، وكان يمد رحلاته إلى جزيرة زنجبار شرق تنزانيا ، ونراه يمدح
 سُبْحَتَ وغيره من أعيانها ، وفيه يقول :

إذا أنت أبصرتَ في الدَّسْتِ سَبْحَ ست كالشمس أنكرتَ خلقَ العبادِ
 سما بمعالٍ وفضلٍ كمالٍ وحُسنٍ فعالٍ وصَفْوٍ اعتقادِ
 جرىءُ القتالِ غداةَ التَّزالِ ببيض النَّصالِ وسُمُرِ الصَّعادِ^(٢)

ويكثر من تقديمه لمداخحه بالنسيب ، وهو - كغيره من شعراء الجزيرة العربية يكثر من
 التغزل بالأعرايات ووصف جمالهن وسحرهن وكيف يشغفن القلوب ، وخاصة حين
 يرحلن ، فتتبعهن الأفئدة ، من مثل قوله :

لمن الظعائنُ ظَلَعُ الأَحْدَاجِ وقفتُ لشانٍ وانشئتُ لمعاجِ^(٣)
 رفخوا هوداجَ كالسَّفينِ وكَلَّةٌ محفوفةٌ بالوشى والديباجِ^(٤)
 فيهن كلُّ معيدةٍ علَّقَ الهوى بجالها ودلالها الخلاجِ^(٥)

وهو يبدئ ويعيد في وصف هذا الترحال الذى يقف أسباب المودة والحب ، والذى

(١) السبعة الشهب : الكواكب السبعة السيارة .

(٤) الكلة : ستارة الهودج .

(٢) الصعاد : جمع صعدة وهى القناة .

(٥) علق : جمع علقة وهى التعلق . الخلاج :

(٣) الأحداج : الهودج . معاج : انعطاف .

الخلاب .

يملاً قلوبَ العشاق في البوادي فتنة وإغراء وصباية ، ويذيتها أسي وحسرة ، فذكر العهود والأطلال والربوع وأكناف الحمى ، وقد غابت الأبقار وأظلمت الدنيا ، وعم المحبين

اليأس وتعمقهم الحزن . وقد يجعل الستلى المقدمة لقاء بهيجاً على شاكلة قوله :

قَصْرُنَ الحُطَا وَهَزَزْنَ العُصُونَا وَرَقْرَقْنَ تَحْتَ الثَّقَابِ العُيُونَا
وَوَشَّيْنَ بِالتَّبَرِّ بَيْضَ التَّرَاقِي وَغَشَّيْنَ سَوْدَ الفُرُوعِ المَتُونَا
وَأَقْبَلْنَ يَحْطِرْنَ مَشَى الهَوَيْنِي وَيُبْدِينَ مِنْ كُلِّ حَسَنِ فَنُونَا
فَلَمَّا عَرَضْنَ لَنَا سَافِرَاتٍ أَعَدْنَ الهَوَى وَبَعَثْنَ الشُّجُونَا

والأبيات تصور فرحة الستلى باللقاء وبرؤية صاحبته تسير وسط صواحبيها ، وقد تفرقت عيونهن بالدموع ولكن دموع الابتهاج وإنهن ليبدین زينتهن ، ويخطرن دلالاتاً ، ويسفرن عن وجوههن ، فتتلاً الدنيا بجلهن من حول الستلى ، ويعود الحب كما كان فتنة لا يستطيع إفلتاً منه ولا خلاصاً . وللستلى حمريات ، يجمع فيها بين وصف الرياض والغزل ونعت الخمر والغناء من مثل قوله :

هَاتِ اسْقِي الرَّاحَ فِي رَاوِقِهَا عَلَلَا وَعَاطِنِي فِي الحَدِيثِ اللُّهُوَ والغَزَلَا
أَمَا تَرَى نَفْحَاتِ الصَّيْفِ قَدْ نَشَرَتْ مِنْ النَّبَاتِ عَلَى وَجْهِ الثَّرَى حُلَلَا
وَالرُّوْضُ يَخْتَالُ فِي زَهْرِ البَهَاءِ وَقَدْ غَدَا الثَّرَى بِفَنُونِ الوَشَى مُشْتَمَلَا
وَشَادِنٍ يَتَهَادَى فِي الصَّبَا غِيداً مَيْسَ القَضِيبِ تَشَّى ثُمَّتْ اعْتَدَلَا (١)
يَسْعَى عَلَيْنَا بَنُورٌ فِي زَجَاجَتِهِ لَوْلَا حَدُوثُ مَزَاجِ المَاءِ لَاشْتَعَلَا
وَقِينَةٌ أَنْطَقَتْ صَوْتَ الكِرَانِ وَقَدْ غَتَّتْ بِسَيْطَا عَلَى الأَوْتَارِ أَوْرَمَلَا (٢)
وَالشَّرْبُ قَدْ مَزَجُوا صَفْوَاً خَلَاتِقَهُمْ كَمَا مَزَجَتْ بِمَاءِ المُرْنَةِ العَسَلَا

ونحس بروح أبي نواس تطل علينا من خلال هذه الحمرية التي تصور مجلس أنس في بستان وساقية تشي جالاً ، تسعى على الشرب بدن الخمر أو دنائها ، وقينة تشد أوتار العود وتغني عليه ألواناً من الغناء ، وكأننا في مجلس من مجالس أبي نواس التي كانت تزخر باللهو والقصف . وهذا الجانب في ديوان الشاعر يلتقي بجانب آخر من الدعوة إلى الزهد ورفض متاع الحياة ، ويتضح ذلك في مراثيه إذ يتحدث فيها عن الحياة والموت وأن الدنيا ومتاعها إلى فناء ، وله ميمية كلها ثناء على الله وآلائه ، وقد ختمها بدعوة حارة إلى الانصراف عن الدنيا ومتاعها الزائل .

والصنع . والبسيط والرمل من أوزان الشعر .

(١) غيدا : لبنا وتثنيا . ميس : تمايل .

(٢) الكران : من أدوات الطرب ويسمى به العود

وتكثر في أشعاره الحكم وربما كان يأتسى فيها وفي غزله بالأعرايات البدويات بالمتنبى .
وربما كان يأتسى به أيضاً في شكواه الكثيرة من الدهر وما يصبُّ عليه وعلى الناس من
فواجع وكوارث . وفي ديوانه بعض مخمسات طريفة ، وله لامية كلامية كثير يلتزم في نهايتها
أوقافيتها اللام قبل التاء ، ولكن من الحق أنه لم يكن متصنعاً في أشعاره ولا متكلفاً ،
وكان ما وُهبه من ملكة شعرية أصيلة حال بينه وبين التكلف والتصنع ودفعه دفعاً إلى أن
تكون أشعاره سلسلة سائغة .

٤ علي بن المقرب العيوني^(١)

شاعر من أسرة العيويين حكام الأحساء والبحرين من سنة ٤٦٦ إلى سنة ٦٣٣ وقد
ولد سنة ٥٧٢ وعاش نحو ستين عاماً إذ توفي سنة ٦٣١ وديوانه يصور ثقافة لغوية وأدبية
وإسلامية ، وهو يمتلئ بإشارات تاريخية ، إذ كثيراً ما يذكر تاريخ العرب القديم وأيامهم
وملوكتهم وملوك الفرس الأولين . ومما يدل على ثقافته الأدبية واتساعها كثرة معارضاته
لقصائد المتنبي والشريف الرضى ومهيار ، مما يؤكد أنه أكبَّ على دواوين الشعراء النابهين
وخاصة هؤلاء الثلاثة يتزود منها ويتخلق فيها . ويبدو أن الشعر جرى على لسانه في باكورة
حياته ، وسرعان ما قدمه إلى أمير أسرته محمد بن أبي الحسين (٥٨٤ - ٦٠٣) وهو أهم
أمرء الأسرة العيونية جميعاً ، وقد شمل سلطانه البحرين بمدنها مثل القطيف والأحساء
وجزرها مثل أوال التي يطلق عليها الآن اسم البحرين . ودانت له قبائل نجد الشرقية ،
ولعل ذلك ما جعل الخليفة الناصر لدين الله (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ) يعهد إليه بخفارة الحجاج
من العراق إلى مكة ذهاباً وإياباً مع رسم سنِّي فرضه له . وفيه يقول علي بن المقرب :
رِمَاحُ الأعادى عن حِجَاك قِصَارُ وفي حَدِّهَا عِما تروم عِثَارُ
وكلُّ امرئٍ لَيْسَتْ له مِنْكَ ذِمَّةٌ يُضَامُ على رَغْمٍ له وَيُضَارُ
فَعِشْ في عَظِيمِ الْمَلِكِ مَالِاحِ كَوَكْبُ وَأَظْلَمَ لَيْلٌ أو أَضَاءَ نَهَارُ
ويحدث أن تفكر طيبي في قطع الطريق على الحجاج سنة ٥٩٨ فينكل بها تنكيلاً
شديداً ، ويشيد ابن المقرب ببسالته في الحرب وانتصاره . وتضع بعض قبائل الشام يدها
في يد طيبي وتحاول الإغارة على الحجاج ، فيمزقهم محمد بن أبي الحسين شرمزق . ويعم
الأمن ربوع البحرين ونجد الشرقية جميعاً ، غير أن يداً آتمة تمتد إلى هذا الأمير الشجاع ،

(١) انظر ترجمته في ساحل الذهب الأسود ص ٢٣٢ والقاهرة . وراجع مقالنا عنه في مجلة مجمع اللغة العربية
بالقاهرة ، الجزء الثامن والثلاثين .
ومقدمات طبقات ديوانه وقد طبع في الهند ودمشق

فتغثاله ، ويبكيه شاعره ويندبه ندباً حاراً بمثل قوله :

لَيْلِكَ الْعُلَا والمجد والبأسُ والتَّدى لقد صَلَّ وادبها وَجَفَّتْ مسابله (١)
وتَنَدَّبُه البِيض الصَّوَارِمُ والقَنَا لما أَنهَلَتْها كَفُّهُ وَأَنَاْمِلُهُ
لقد مُنِيَتْ مِنْهُ الْأَعَادَى بِثَائِرٍ هُمَامٍ أَبَى أَنْ يَحْمِلَ الضَّيْمَ كَاهِلُهُ
وطبيعي أن لا تفتح أبواب قاتليه الذين خلفوه في دست الحكم لابن المقرب ، بل لقد
زَجُّوا به في السجن وصادروا أمواله ، وَرُدَّتْ إليه حريته وخرج من السجن فرحل إلى
العراق ، ونزل البصرة ومدح حاكمها باتكين بن عبد الله الرومي في سنة ٦٠٥ ودخل
بغداد ومدح الخليفة الناصر ، وتعرَّف على بعض علمائها وأدبائها . ورأى العودة إلى موطنه
وأن يحمل معه طائفة من أعمدة الحديد للتجار فيها . وألَمَّ بواسط في طريقه فطالبه ابن
الديثي ضامن المكوس بضريبة كبيرة بلغت نصف ثمن بضاعته ، فصبَّ عليه جام هجائه
بمثل قوله :

يَا بِن الدَّيْثِيُّ اللعين لقد رمتَ المحال فغُصَّتَ في بَحْرِ
خُنْتُ الخليفةَ في رعيته وعَصَيْتَهُ في السَّرِّ والجَهْرِ
ومر بالبصرة فطالبه ضامن المكس بها ببعض الضرائب ، أو بالضريبة المقررة ،
فاستجار منه بممدوحه باتكين أمير البصرة ، وينشده مدحة طويلة يقول فيها :
يَا شَمْسَ دِينِ اللَّهِ كَمْ لَكَ مِنْ يَدٍ يُثْنِي بِهَا بِادٍ وَيَشْهَدُ حَاضِرُ
ادْفَعْ بِجَاهِكَ أَوْ بِمَالِكَ مُنْعَمًا عَنِّي فَمَالِكَ لِلْعُقَاةِ ذَخَائِرُ
ويعود إلى موطنه ويقدم مدائح إلى أمير الأحساء محمد بن علي بن عبد الله الذي ردَّ
إليه حريته ، ويأمل أن يرد عليه أمواله ويساتينه ، ولكنه لا يرد عليه شيئاً . ويحدث أن
ينهب الفضل بن الأمير محمد بن أبي الحسين بأخذ الثأر لأبيه من قتلته ، ويصبح الحاكم
العام للبحرين ، ويقدم إليه علي بن المقرب مدائح كثيرة ، ولا يحظى منه بشيء أو بما كان
يأمله . وسرعان ما يثور عليه ابن أخيه علي بن ماجد ، وتثور معه البحرين لتوقيعه معاهدة
بينه وبين أمير جزيرة كيش تنازل له فيها عن بعض جزر البحرين ، مع تقديم خمسائة
دينار له سنوياً ، ويفرح الشاعر بهذه الثورة ويدبج في علي بن ماجد مدائح كثيرة من مثل
قوله :

أُضْحَتْ بِكَ الْأَحْسَاءُ سَاكِنَةً وَقَدْ رَجَفَتْ بَيْنَ فِيهَا وَكَادَتْ تُقَلِّبُ
وَمَلَأَتْهَا عَدْلًا وَكَانَتْ عُمَمَتْ جَوْرًا تَغُورُ بِهِ الدِّيَارُ وَتَخْرَبُ

ويثور مقدم بن غريب العيوني ، ويستخلص حكم البحرين لنفسه بمساعدة بعض عشائر عبد القيس النجدية . ويثس ابن المقرب لما صارت إليه أداة الحكم ، فأبناء الأسرة يتحاربون ، والحكم يفسد ويضعف . ويولّى وجهه نحو العراق ويمتدح باتكين والى البصرة والخليفة ببغداد في سنتي ٦١٣ و ٦١٤ . ويعود إلى موطنه ، وقد أصبح زمام الحكم بيد محمد بن مسعود ، ويمتدحه ويمتدح أخاه الفضل على بن مسعود الذي تحولت إليه مقاليد الأمور بعده ، بمثل قوله :

رَفَعْتَ عِمَادَ الْمَجْدِ مِنْ بَعْدِ مَا وَهَى وَرَثَ وَأَضْحَى رُكْنَهُ وَهُوَ مَائِلُ
وَقَتَ بِأَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ فَاسْتَوَتْ لَدَيْكَ ذَوُو الْأَجْبَالِ : طَىَّ وَوَائِلُ

ويترك البحرين إلى العراق في سنة ٦١٧ ويمتدح باتكين في طريقه إلى بغداد ويمتدح الخليفة الناصر ، ويوغل في رحلته إلى الشمال حتى الموصل وديار بكر ويمتدح بدر الدين لؤلؤا مدير الحكم فيها لسلطانها القاهر بن نور الدين أرسلان شاه ، وفيه يقول :

أَرْسَى قَوَاعِدَ مَلِكٍ لَوْ يَدْبِرُهُ كَسْرَى وَإِسْكَندَرُ أَعْيَتْهَا الْحَيْلُ

ويعد رحلاته إلى الملك الأشرف موسى بن العادل الأيوبي صاحب حرّان وديار الجزيرة ، ويشيد ببلائه مع أخيه سلطان مصر الكامل في قتال الصليبيين بدمياط وسحقهم سحقاً ذريعاً حين أغاروا عليها في السنوات ٦١٥ - ٦١٨ وفيه يقول من مدحة طويلة :

سَلِ الْكُفْرُ مِنْ أَوْهَى بَدْمِيَاطَ كَفْرُهُ وَقَصَّرَ أَعْلَى فَرْعِهِ وَهُوَ بَاسِقُ
وَقَدْ جَاءَتِ الْإِفْرَنْجُ مِنْ كُلِّ وَجْهَةٍ كَأَنَّ تَدَاعِيَهَا السُّيُوفُ الدَّوَاقِقُ
فَوَلَّوْا فَمَكْبُوبٌ عَلَى أَمِّ رَأْسِهِ لَدُنْ ذَاكَ لَمْ يَنْفُقْ وَآخِرُ نَافِقٍ (١)

ويعود ابن المقرب إلى موطنه ، فيجد أداة الحكم قد أصابها فساد لا صلاح لها بعده ، إذ وضع أمير البحرين الفضل البلاد تحت تصرف البدو من بني عُقَيْل ، فأفسدوا زروعها وثمارها ، حتى أصبح البستان الذي تبلغ قيمته مائتي دينار يباع بدينار واحد أو يثوب أوبشاة ، ويأسى لذلك في شعره أسى عميقاً . وشعر ابن المقرب يعدُّ بحق سجلاً تاريخياً لأسرته وحكمها البحرين ، فكل من عاصرهم صوّر حكمهم وأحوال البلاد في أيامهم ، وله قصيدة ميمية سجل فيها تاريخ أسرته منذ مؤسسها الأول حتى زمنه ، مفخرة مباهياً ، وفيها يفخر بأن جده عبد الله بن علي قضى على القرامطة وما أذاعوا في البلاد من عقيدتهم الفاسدة ، يقول :

سَلَّ الْقَرَامِطَ مِنْ شَطْطَى جَمَاجِمِهِمْ فَلَقَّا وَغَادَرَهُمْ بَعْدَ الْعُلَا خَدَمَا (٢)

(٢) شطى : حطم .

(١) ينفق : يهلك .

ويسترسل مبيناً أنهم كانوا أبطلوا الصيام والصلاة وهدموا المساجد ، فظهر البلاد منهم ، ويمضى فى القصيدة مسجلاً مآثر أبنائه وأحفاده لمدة قرن من الزمان . والديوان يمتلىء بفخر عنيف . وإذا كانت مدائح ابن المقرب سجلت تاريخ أمراء أسرته وأعمالهم ومآثرهم فإنها سجلت أيضاً جوانب من أعمال الخليفة الناصر ، وكذلك واليه باتكين حاكم البصرة فقد ضمن مدائحه له أعماله بمثل قوله :

بنى بالبصرة الفيحاء سوراً يُضاهى السدَّ سبْكَاً وانعقادا
وزينها بأسواقٍ أرانا بها كلَّ البلاد لها سوادا^(١)
وكم من مشهدٍ ورباطٍ زُهِدٍ ومدرسةٍ بنى وهُدًى أفادا

ويردد فى مدائحه بجانب ذلك أنه بنى المدارس وأقام فيها علماء الفقه والحديث والتفسير وألحق بها المكتبات النفيسة ، ومدائح ابن المقرب بذلك تعد وثائق ذات أهمية بعيدة فى تاريخ عصره ، ولا نبعد إذا قلنا إنها هى الوثائق الوحيدة فى تاريخ الدولة العيونىة ، لأن تاريخ حكامها لم يعن به المؤرخون .

عبد الصمد بن عبد الله باكثر^(٢)

الشعراء الثلاثة السابقون من شعراء القرن السابع الهجرى ، أما عبد الصمد بن عبد الله باكثر فمن شعراء القرن الحادى عشر وهو حضرمى ، ولد فى تَريس سنة ٩٥٥ للهجرة وتوفى بحَضْرَمَوْت فى سنة ١٠٢٥ . تلقن علومه وحفظ القرآن الكريم فى مسقط رأسه ، واختلف إلى العلماء فى المدن الحضرمية . وحين سال الشعر على لسانه اتجه به أولاً اتجاهاً صوفياً على عادة أهل إقليمه ، وأخذ يستغله فى مديح بعض الحكام والأعيان ، حتى إذا تحول صولجان الحكم فى حضرموت إلى عمر بن بدر أبى طويرق المتوفى سنة ١٠٢١ للهجرة أصبح شاعره المفضل ، وليس ذلك فقط ؛ بل أصبح أيضاً منشئ الرسائل فى عهده ، وكذلك فى عهد ابنه عبد الله (١٠٢١ - ١٠٢٤) . حتى إذا تنازل عن الحكم لأخيه بدر طلب الشاعر إعفاءه من العمل بديوان الرسائل ، ولم يكد يدور العام حتى لبي نداء ربه . وجمهور مدائحه فى عمر بن بدر من مثل قوله :

الطالع ص ١٢١ وسلافة العصر ص ٤٦١ وتاريخ

حضرموت السياسى ١/ ١٣٣ ، ٢/ ١٧١ وتاريخ الشعراء الحضرميين ١/ ١٩٠ وله ديوان كبير لما يطبع .

(١) السواد : الريف بزروعة وقراه .

(٢) انظر فى ترجمة عبد الصمد خلاصة الأثر للمحبي

٢/ ٤١٨ وكتابه نفحة الرحمة ٣/ ٥٤٦ وملحق البدر

عُمَرُ الَّذِي أَحْيَا الْمَكَارِمَ وَابْتَنَى لِلْمَجْدِ بَيْتاً دُونَهُ الْجُوزَاءُ
فِيهِ الزَّمَانُ تَفَاخَرَتْ أَيَّامُهُ وَتَعَطَّرَتْ بِوُجُودِهِ الْأَحْيَاءُ
مَلِكٌ تَفَجَّرَ مِنْ مَنَابِعِ مَجْدِهِ كَرَمٌ وَحِلْمٌ وَاسِعٌ وَوَفَاءُ
وَكَانَ لَا يَزَالُ يَرُوحُ وَيَغْدُو عَلَيْهِ بِمَدَائِحِهِ وَخَاصَةً فِي أَعْيَادِهِ وَفِي الْأَحْتِفَالِ بِانْتِصَارَاتِهِ ،
مُردداً دائماً الثناء على خصاله وشجاعته وكرمه ، ومن مدحة له فيه :

إِذَا نَابَنِي خَطْبُ الزَّمَانِ فَإِنِّي إِلَى عُمَرِ الْخَيْرَاتِ بِي يَنْتَهِي السَّيْرُ
مَوَاهِبُهُ مَوْصُولَةٌ بِمَوَاهِبِ إِذَا ضَنْتِ الْأَنْوَاءُ وَاحْتَبَسَ الْقَطَرُ (١)
لَهُ فِي النَّدَا أَيْدٍ تَسُحُّ بَنَانُهَا لُجَيْنًا وَإِبْرِيزًا وَنَائِلُهُ عَمَرُ (٢)

ومن مدحه الرصين في عمر بن بدر تهنته له بانتصاره على بعض أعدائه من رجال القبائل الثائرين عليه وعلى حكمه ، وفيها يقول مهنتاً :

نَصْرٌ عَزِيزٌ مِنَ الرَّحْمَنِ قَارَنَهُ فَتَحٌ وَطَالَعُهُ بِالسَّعْدِ يَبْتَدِرُ
مَنْ كَانَ مَعْتَصِماً بِاللَّهِ كَانَ لَهُ عَوْنًا وَسَارَ بِمَا يَخْتَارُهُ الْقَدَرُ
لَمَّا تَلَّابَتِ الْأَعْدَاءُ وَاعْتَصَمُوا بِحَبْلِ غَدْرِهِمْ بَاءُوا بِمَا غَدَرُوا
فَأَمَكَّنَ اللَّهُ مِنْهُمْ فَانْتَشَوْا هَرَبًا كَمَثَلِ مَا نَفَرْتُ مِنْ قَسَوِرِ حُمُرٍ (٣)

وَكَانَ يَخْلُصُ لِلسُّلْطَانِ عُمَرُ بْنُ بَدْرِ إِخْلَاصاً مُصْنِياً ، وَلِذَلِكَ أَكْثَرَ مِنْ مَدِيحِهِ ، حَتَّى
إِذَا تَوَفَّى أَحْسَنَ بَحْزَنٍ بَالِغٍ وَلَوْعَةٍ مُمَضَّةٍ ، مِمَّا جَعَلَهُ يَرِثُهُ مَرَاثِي حَارَةٍ يَبْكِي فِيهَا خِصَالَهُ
الْكَرِيمَةَ وَمَا فَقَدَتْهُ رَعِيَّتُهُ فِيهِ وَمُحِبُّوهُ مِنْ جُودٍ وَعَوْنٍ وَعَفْوٍ عِنْدَ الْمَقْدَرَةِ مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِ :
هَوَى مِنْ سَمَاءِ الْمَجْدِ كَوَكْبِهَا الْقُطْبُ فَأَظْلَمَ فِي أَقْطَارِنَا الشَّرْقُ وَالْغَرْبُ
تَضَعَّضَ طَوْدُ الْمَجْدِ وَانْهَدَّ رُكْنُهُ فَيَا لَكَ رُكْنًا قَدْ تَضَمَّنَهُ التُّرْبُ
تَوَى عُمَرُ الْخَيْرَاتِ أَكْرَمُ مِنْ سَعْيِ إِلَى سَاحِهِ تَطَوَّى سَبَاسِيهَا التُّجْبُ (٤)
لَقَدْ كَانَ لِلْعَافِينَ ظِلًّا وَمُلْجَأً وَلِلْجَاهِلِ الْإِغْصَاءُ وَالصَّفْحُ وَالْعَتَبُ (٥)

وله مراثية ثانية فيه تكتظ بزفراته ولوعاته . وله غزل رقيق يزخر بمشاعر فياضة ، تدل على أنه كان يجد أحياناً وجداً شديداً ، حتى ليقع في شباك بعض النساء ،

(١) الأنواء : الأمطار .

(٢) تسح : تهطل . اللجين : الفضة ويريد الدراهم .

الإبريز : الذهب ، ويريد الدنانير . والنائل : العطاء .

عمر : كثير .

(٣) قسور : أسد . الحمر : حمر الوحش .

(٤) ساح : جمع ساحة . السبابس : المقاور .

التجب : الإبل الكريمة .

(٥) العافون : طلاب المعروف .

ويطول تعثره فيها ، وقد انقطعت به الحِيل في الخلاص فيفزع إلى دموعه ، على شاكلة قوله :

يا ظَبْيَ وادى الأَجْرَعِ رِفْقاً بصبٍّ مولعٍ
يبكى أَسَىً وَصَبَابَةً بِكَأَبَةٍ وتوجُّعٍ
ودموعه فوق المحَا جِر كالغيوث الهُمَّعِ (١)
ويقول من وجدٍ ومن كمدٍ بقلبٍ موجعٍ
حيّاً المربعَ والرُّبَا غيثٌ كفائض أدمعي
يَهْمِي على تلك الدُّبَا رِ بوابِلٍ لا يُقْلِعِ

فهو يبكي بدموع غزار لا تزال تنهم كأنها أمطار ، ولا يزال يلتاع لوعات شديدة ، كلها أوجاع وأوصاب وآلام . ويكثر غزله الرقيق من مثل قوله :

ولى من العُربِ ظَبْيٌ مارأى بَصْرِي شَبَّها له فى الورى بَدَوًا ولا حَصْرًا
الوردُ فى خَدِّه المحمَّرُ من خَجَلِي يدعو إلى حُسْنِه الفتانِ مَنْ نظراً
كم ليلة زارنى فيها على وَجَلِي مستعجلاً خائفاً مستوفراً حَلِيراً (٢)

وتصويره لخوف المحبوبة فى البيت الأخير من أن يراها أحد معه رائع ، فهى عجلة حذرة لا تكاد تطمئن ، واختار بدقة شاعريته كلمة « مستوفراً » ليصور فيها هذه الحركة النفسية ، فكأنها دائماً مستوفزة تهباً لفراقه وتتأهب لوداعه . وله بعض خمريات طريفة يجمع فيها بين الروض والخمر والغناء والصَّحْب ، مصوراً بذلك بعض مجالس أنسه كقوله :

تلاعبت مَرَحاً فى روضها القُضْبُ كشاربي خندريس هزهم طَرَبُ (٣)
قُم يا نديمي فقد نادى الهَزَارُ إلى صَهْبًا مُشْعَشَعَةً تُجَلِّى بها الكُربُ (٤)
يديرها رَشاً كالشمس طَلَعَتْهُ وكفه بِدَمِ الصَّهْبَاءِ مُخْتَضِبُ
فى روضةٍ أخذتْ بالزُّهر زُخْرَفَهَا وَأَزَيْتُ وَتَجَلَّتْ كُلُّهَا عَجَبُ

ولم يكن اللهو غالباً على حياته ، فثل هذه الخمرية وميضٌ كان يلمع حيناً فى سماءها وسرعان ما يجبو ، وقد أمضى شطراً كبيراً من حياته بائساً يشكو الفاقة قبل اتصاله بعمر بن بدر أميره ، ولذلك نجد عنده قطعاً يشكو فيها من حظه العاثر ، نذكر منها قوله :

(٤) الهزار : طائر صغير الحجم حسن الصوت .

الصهباء : الخمر . المشعشة : المزوجة بالماء .

(١) الهمع : الهاطلة السائلة .

(٢) مستوفراً : متحفزاً للقيام .

(٣) القضب : الأغصان . الخندريس : الخمر .

أَرَانِي إِذَا مَا اللَّيْلُ جَاشَتْ كَتَابُهُ أَيْتُ وَقَلْبِي حَائِرُ الْفِكْرِ ذَاهِبُهُ
تَبَيْتُ أَفَاعِي الْهَمِّ فِي غَيْهَبِ الدُّجَى تُسَاوِرُ قَلْبِي بِالْعَنَا وَتَوَائِبُهُ (١)
وَمَالِي فِيمَا قَدْ دَهَانِي حِيلُهُ أَدَارِي بِهَا دَهْرِي إِذَا أَزُورُ جَانِبَهُ (٢)
فِيَارِبُ يَا ذَا الْمَنِّ وَالْفَضْلِ وَالْعَطَا أُغْنِي فُوجُ الْهَمِّ فَاضَتْ غَوَارِبُهُ (٣)

وتصوير عبد الصمد الهم بأفاع لا تزال توائبه طوال الليل تصوير طريف ، وشعره فيه سهولة وعدوبة ويمنح كثيراً إلى استخدام ألفاظ اللغة اليومية ، ولعل ذلك ما جعله ينظم بعامية موطنه بعض أشعاره ، وكان يستخدم الموشحات أحياناً فيجيد فيها لسلاسة ألفاظه وكلماته .

٤

شعراء المراثي

بجانب مجرى المديح الذي كان يتدفق بالشعر من قديم كان يتدفق مجرى الرثاء ، فلم يمت حاكم ولا قائد ولا وال ولا قاض في أقاليم الجزيرة العربية إلا رثاه الشعراء وأبنوه تأبيناً يفيض بالأسى والحزن ، وكثر في هذا العصر تأبين الشيوخ والفقهاء والمعلمين ، يؤنبهم تلاميذهم وزملائهم ويكون فيهم خصالهم وخسارة العلم والعلماء فيهم ، من ذلك تأبين شهاب الدين محمود بن مسكن القرشي الفهري لشيخه نجم الدين الطبري قاضي مكة ، وفيه يقول (٤) :

مَا لِلْجَفُونَ بِهَا التَّسْهِيدُ قَدْ نَزَلَا وَمَا لَطِيبَ الْكَرَى عَنْ مُقَلَّتِي رَحَلَا
مَا بَالُ قَلْبِي بَتَذْكَارِ الْهَمُومِ لَهُ شُغْلٌ وَدَمْعِي إِنْ كَفَفْتُهُ هَمَلَا
نَجْمُ أَضَاءِ عَلَيْنَا صُبْحُ طَرَّتِهِ حَتَّى إِذَا مَا انْجَلَتْ أَيَامُهُ أَفَلَا
مَفْتَحُ كَثَرِ عُلُومِ الدِّينِ كَمْ فُتِحَتْ بِهِ بَصَائِرُ قَوْمٍ لِلْوَرَى ذُلَلَا

ووراء مراثي الشيوخ والعلماء في الحجاز مراث كثيرة في أمراء مكة الزيديين حين يلبون نداء ربهم ، وبالمثل تلقانا مراث كثيرة للأئمة الزيديين في اليمن ، كما تلقانا مراث أخرى لدعاة النحلة الإسماعيلية الفاطمية من الصليحيين وآل زريع ، وسنعرض لها في حديثنا عن

(٣) غواربه: أعاليه .

(١) تساور : توائب .

(٤) العقد الثمين ٣ / ٣٢ .

(٢) أزور : مال وانحرف .

شعراء الدعوة الإسماعيلية .

وفي كل زمن وكل دولة تلقانا مرأى الشعراء ، ونفس من ترجمنا لهم من شعراء المديح نجد بجانب مدائحهم مرأى كثيرة على نحو ما نجد في ديوان ابن هُتَيْمَل فقيه باب خاص بالمرأى ، وهى تتردد عنده بين النذب والتأبين ، أما النذب فعلى أبنائه وإخوته ، وزوجته وقد بكاهها في مرثيتين ، يقول في إحداها (١) :

يَعَزَّ عَلَى أَنْ عَظُمَ الْمَصَابُ وَلَا صَبْرٌ لَدَى وَلَا احْتِسَابُ
بِنَفْسِي عَصَرَ يَوْمَ السَّبْتِ نَعَشُ تَدَاوَلُهُ الْمَنَاكِبُ وَالرَّقَابُ
مِنَ الْخَفَرَاتِ يُخْفِي اللَّيْلُ مِنْهَا إِذَا مَا جَنَّ مَا لَا يُسْتَرَابُ
تَكْفَنُ فِي الثِّيَابِ فَلَيْتَ جَلْدَى لَهَا كَفَنٌ وَلَيْتَ دَمِي خِصَابُ

والمرثية تمتلئ بمشاعر صادقة ، مشاعر شخص اکتوى قلبه بالحزن على زوجته ، ولم يعد أمامه إلا أن ينظم فيها أشعاراً تعبر عن لوعته وما يكتظ به فؤاده لها من وجد وصباية . وله تأبين لبعض أمراء الخلفاء السليمانى وحكام مسقط رأسه «نَجْرَان» بوادى «ضِمْد» من ذلك تأبينه لحاكمها «سلطان» صاحب ضِمْد جميعها بمثل قوله (٢) :

الرَّزْءُ أَكْبَرُ أَنْ يَقُومَ بِيَوْمِهِ جَزَعُ الرِّجَالِ وَرَنَةُ النِّسْوَانِ
وَيْلٌ لَأُمِّ الْأَرْضِ مَاذَا ضُمِّنَتْ مِنْ أَعْظَمِ أُدْرِجَنْ فِي الْأَكْفَانِ
ذَاكَ النَّدَى وَالْبَاسُ بَيْنَ حَقِيرَةٍ أَطْبَاقُهَا طَوِيَتْ عَلَى نَهْلَانِ
إِنْ التَّمَسُّكُ بِالسَّاحِ وَبِالْوَفَا مِنْ بَعْدِهِ ضَرْبٌ مِنَ الْهَدَّيَانِ

ولم يكن يموت سلطان من سلاطين الرسوليين إلا ويكثر الشعراء من تأبينه وذكر خصاله وأعماله وما نهض به في دولته ، وربما بالغوا في بيان الحزن فجعلوا الدين والدنيا والكواكب السماوية محزونة تبكيه ، على شاكلة افتتاح الخزرجى لراثته السلطان الأفضل المتوفى سنة ٧٧٨ يقول (٣) :

بَكَتِ الْخِلَافَةُ وَالْمَقَامُ الْأَعْظَمُ وَالْمَلِكُ وَالِدَيْنِ الْحَنِيفُ الْقِيَمُ
وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ الْمُنِيرُ كِلَاهِمَا وَالْأَرْضُ تَبْكِي وَالسَّمَاءُ وَالْأَنْجَمُ
وَالْبَيْتُ وَالْحَرَمُ الشَّرِيفُ بِمَكَّةَ وَالْحِجْرُ وَالْحَجَرُ الْيَمَانِي الْأَسْحَمُ (٤)

(٤) الحجر بكسر الحاء : ماحواه الحطيم بالكعبة .

الأسحم : الأسود .

(١) الديوان ص ٨٣ .

(٢) الديوان ص ٩٧ .

(٣) العقود اللؤلؤية ٢ / ١٦٠ .

ومدارسُ العلم الشريف وأهلُه والمسلمون فصيحهم والأعجمُ
 فالعالم كله يبكي الأفضل والحرم الشريف وكل ما فيه من مقدسات والأرض والسماء
 والنجوم ومدارس العلم وأساتذته وطلابه . ومضى يصور مجده وحروبه وكرمه وبأسه
 وانصياع أمراء اليمن له وعدله الذي عمَّ به رعيته . ولم يلبث أن جعل الشمس عليه كاسفة
 تنوح وتلطم والأرض راجفة تميد وتهتز والجو مغبراً مظلماً وبكل ركن من بلاده حسرة وبكل
 بيت ماتم . وكل هذا إسراف في التأبين ومبالغات مفرطة . ويتولى الحكم بعده ابنه
 الأشرف ، وله مآثر كثيرة ، وتوفى زوجه في سنة ٧٩٦ فيريثها جماعة من الشعراء ، وهي
 ظاهرة كانت تشيع في اليمن منذ عصر الصليحيين ، إذ تُوِّين سيدات الأمراء ، وتُعقد لتأبينها
 الاحتفالات ، ويتبارى الشعراء في وصف فضائلها وبكائها ونديها ندباً حاراً ، بمثل قول
 الخزرجي (١) :

بكنَّها السما والأرضُ يومَ وفاتها وأمسى سحابُ الأفق أدمعهُ تَسْرَى
 على وجهكِ الميمون حياً وميتاً سلامٌ يزيد العطرُ عطراً إلى العطرِ
 سلامٌ على ذاك الجبينِ ورحمةٌ على شخصك المدفون في ذلك القبرِ

وتوفى الأشرف سنة ٨٠٣ ولإسماعيل بن أبي بكر المقرئ فيه مريثة بديعة (٢) .
 ويموج كتاب تاريخ الشعراء الحضرميين بمراثٍ كثيرة ، وهي تتردد بين الندب والتأبين
 والعزاء ، أما الندب فإننا نجد في الكتاب شعراء كثيرين يكون آباءهم مشيدين بتقواهم
 وعلمهم الفياض ، كقول محمد بن عبد العليم الخولاني في رثاء والده (٣) :

تبكى عليه منابرٌ ومحابرٌ تبكى عليه محاجرٌ بدماء
 فالله يُسكنه الجنانَ بفضلِهِ ويعمُّه بسوابغ النعماء

وقد أطلال في وصف خسارة العلم والعلماء بفقده ، إذ يجعله مفسراً كالواحدى وقتادة
 وعطاء بن أبي رباح ، ومتصوفاً كمكي والغزالي ، ومحدثاً يدرس لطلابه صحيحى
 البخارى ومسلم وموطأ مالك ، وفقياً شافعيًا يتقن درس أمهات الفقه الشافعى من مثل
 الوسيط في المذهب للغزالي والمهذب للشيرازى والروضة للنووى . ويكثر تأبين التلاميذ
 لشيخهم من الفقهاء والمتصوفة ، وقد يخلطونه بالعزاء كقول عبد الله بن جعفر العلوى في
 شيخه عبد الله بن أبي بكر باحسن (٤) :

(٣) تاريخ الشعراء الحضرميين ١٤٤ / ٢

(٤) نفس المصدر ١١٣ / ٢

(١) العقود اللؤلؤية ٢٥٤ / ٢

(٢) نفس المصدر ٣١٨ / ٢

خطبُ أَلَمَّ وهولٌ هائلٌ وردَا ونازلٌ فَتَّتَ الأحشاء والكبدَا
وقد شُغِفْنَا بدارٍ لا وفاء لها وشَمَلُ سكاكها أضْحى بها بَدَدَا^(١)
والمرء فيها كظُلٍّ زائلٍ نَسَحَتْ أفياءه ظلماتُ الليل إذ وفدا^(٢)
والطَّرْفُ بالكِ وإن الأرض تبكى أَسَى كلاهما يَنْدُبَانِ السَّيِّدَ السَّنْدَا
تاجُ الكرام شريفٌ طاب عُنْصره لمطلب المجد في الآفاق كم وردَا
نَسَلُ الأفاضل ينبوعُ الفضائل بل كنزُ الأمائل خيرُ الأكرمين ندَا
وللشاعر نفسه مريّة ثانية في شيخ آخر جعلها عزاء ودعوة إلى الإذعان للقضاء فالدنيا
دار زوال وانتقال ، والأيام تمضي بالناس جميعاً إلى وادي الفناء والعدم ، والسعيد من
سارع إلى المتاب واعتبر بمن يموتون كل يوم ، واتجه إلى ربه وعمل لآخرته . وهذه الصورة
من المراثي كانت تعم في كل مكان : في عمان والبحرين ونجد ، فالمرثي دائماً ندب أو تأبين
أو عزاء ، وقد تمتزج الصور الثلاثة ، ومن طريف ما نقرأه للمستألي شاعر عمان من رثاء قوله
في أبي محمد بن نيهان المتوفى سنة ٦٧٤ للهجرة يؤبّنه :

رَزَيْنَا هُمَاماً يَعْلَمُ الْأَزْدُ أَنَّهُ إِذَا خَطَرْتُ صَيْدَ الْمُلُوكِ خَطِيرُهَا^(٣)
تَبَوَّأَ مِنْ قَحْطَانٍ بَيْتاً ثَقُلَهُ قَوَاعِدُ بَنِيَانِ الْعَتِيكَ وَسُورُهَا^(٤)
فَطَالَ بِهِ أَصْلُ الْمَعَالَى وَفَرَعَهَا وَطَابَ لَهُ خَيْرُ الْمَسَاعِي وَخَيْرُهَا^(٥)

ولابن المقرب العيوني مراثٍ مختلفة في بعض القضايا وبعض أهله ، ولعل من الخير أن
نخص بالحديث شاعرين من شعراء المراثي هما : محمد بن علي التهامي وجعفر الخطّي
البَحْرَانِي .

التَّهَامِي^(١)

هو أبو الحسن علي بن محمد الشاعر المشهور بلقبه التهامي أي المكي ، إذ تسمى مكة
باسم تهامة ، ولذلك يقال الرسول ﷺ تهامي ، لأنه من مكة . وتطلق تهامة على الساحل
الممتد على طول الجزيرة شرق الحجاز بين مكة واليمن ، ولكن نسبة الشاعر إنما هي إلى مكة

(١) انظر ترجمة التهامي في تمة البيّمة ١ / ٣٧ ودمية

القصر ١ / ١١٠ والنجوم الزاهرة ٤ / ٢٦٣ وشذرات

الذهب ٣ / ٢٠٤ وابن خلكان ٣ / ٣٧٨ وغير الذهبي

١٢٢ / ٣ وديوانه مطبوع بمطبعة الأهرام بالإسكندرية

سنة ١٨٩٣ .

(١) بددا : متفرقا .

(٢) أفياءه : ظلاله .

(٣) الصيد : السادة .

(٤) العتيك : عشيرة ابن نيهان الأزدية .

(٥) خيرها بكسر الحاء : خيارها .

إذ ينسب نفسه إليها في بعض شعره حين نزلت به كارثة السجن في آخر حياته كما سيأتي قائلاً
عن نفسه :

وهذا التهاميُّ من مكةٍ برجليه يَسْعَى إلى حَتْفِهِ

ولا يُعَرِّفُ زمن مولده ، وتدل مدائحه في الديوان على أنه ارتحل من موطنه إلى العراق
والموصل وديار بكر ، إذ بين ممدوحيه أناس من الكوفة وبغداد وميّا فارقين وآمد ونصيبين ،
وأيضاً بينهم قُرَواش (٣٩١ - ٤٤١ هـ) صاحب الموصل وبواديّه . ويلاحظ أن ديوانه
يخلو من مدائح أمراء مكة ، مما يدل على أنه غادرها مبكراً . ويبدو أنه بارح كل تلك
الأنحاء إلى الشام كما يذكر صاحب دمية القصر ، وبها ألقى عصاه في الرملة عند آل الجراح
أمراء طيبيّ ، وقد عينوه خطيباً لبلدتهم . وفي ديوانه مدائح مختلفة لأُميرهم المُفرّج
دَغَل المتوفى سنة ٤٠٤ ولعله أول من استقبله من آل الجراح أصحاب فلسطين ، وعاش
في رحابه ورحاب ابنه حسان (٤٠٤ - ٤٦٧ هـ) . وكانت نفسه حدثته بالشغب على
الفاطميين - على عادة آبائه - فرأى أن يرسل التهامي إلى بني قُرة في صعيد مصر كي يحدثوا
شغباً عليهم ، وأرسل معه كتباً كثيرة إليهم . فقدم القاهرة مستخفياً في سنة ٤١٦ غير أن
الفاطميين ظفروا به ، فاعتقلوه في سجن خزانة البنود في السادس والعشرين من شهر ربيع
الآخر ، وظل به إلى أن توفى - أو قُتل - في تاسع جمادى الأولى من نفس السنة .
والتهامي يُعَدُّ في الذروة من شعراء الجزيرة في هذا العصر ، وفيه يقول صاحب
الدمية : « له شعر أدقُّ من دين الفاسق ، وأرقُّ من دمع العاشق ، كأنما رُوح بالشَّمال
(الريح) أو عُلِّلَ بالشَّمول (الخمر) فجاء كئيل البغية ودرك المأمول » وقال ابن تغري
بردي : « كان من الشعراء المجيدين وشعره في غاية الحسن » ونقل ابن خلكان عن ابن بسام
قوله عنه في كتابه الذخيرة : « كان مشتهراً بالإحسان ، ذرب اللسان ، مخلي بينه وبين
ضروب البيان ، يدل شعره على فوز القِدْح ، دلالة برّد النسيم على الصبح ، ويُعْرَب عن
مكانه من العلوم ، إعراب الدمع عن سر الهوى المكثوم » . وقد اشتهر بمرثيات له في ابنه أبي
الفضل الذي هصرت المنون غصنه النضير تحت عينه ، وأهم تلك المراثي رائيته ، وهو
يستهلها واعظاً ، بقوله :

حُكْمُ النِّيَّةِ فِي الْبَرِّيَّةِ جَارِي	ما هذه الدنيا بدارٍ قَرَارِ
طُبِعَتْ عَلَى كَدَرٍ وَأَنْتَ تَرِيدُهَا	صَفَوْا مِنَ الْأَفْدَاءِ وَالْأَكْدَارِ
وَمَكْلَفُ الْأَيَّامِ ضِدَّ طَبَاعِهَا	مَتَطَلَّبٌ فِي الْمَاءِ جَذْوَةُ نَارِ
وَالْعَيْشُ نَوْمٌ وَالنِّيَّةُ يَقْظَةٌ	وَالْمَرْءُ بَيْنَهَا خِيَالٌ سَارِ

فاقصوا مآربكم عِجالاً إنما أعماركم سَقَرٌ من الأسفار
 ليس الزمانُ وإن حَرَصْتَ مسلماً خَلَقُ الزمانِ عدواةُ الأحرار
 وبمثل هذه العظمت التي تمس دخائل القلوب وأعناق النفوس يفتتح التهامي مرثيته
 لفلذة كبده ، مصوراً الدنيا وكثوسها المليئة بالأقذاء وأيامها التي تدنى الآجال وتقطع
 الآمال ، وتجعل الإنسان دائماً بين يومين : يوم مضى بنكده وبؤسه ويوم بقى لا يدرى
 الإنسان هل سيقطعه إلى نهايته أو أن أنفاسه ستقطع دون غايته ، فتخرج منه النفس ويحل
 في الرُّمُس ويتجه بعد هذا العزاء الذي يذيب فؤاده حشرات إلى بكاء ابنه الذي اختطفه
 الموت منه وهو لا يزال غَضّاً في كِمِّه :

يا كوكباً ما كان أقصرَ عمره وكذاك عُمُرُ كواكبِ الأسحارِ
 وهلالَ أيامٍ مضى لم يَسْتَدِرْ بَدَراً ولم يَمَهْلُ لوقتِ سِرارِ^(١)
 جاورتُ أعدائي وجاور ربّه شَتانَ بين جواره وجواري
 أُخِنِي من الرُّقباءِ ناراً مثلاً يُخَنِي من النارِ الزَّنادُ الواري
 وتلهبُ الأحشاء شَيْبَ مَفَرِّقِ هذا الضياءُ شعاعُ تلك النارِ

ويعضى في وصف زفراته وعبراته ونيران الأسى تلذع فؤاده ، وقلبه يمتلئ حسرة وشقاء
 ونفسه تمتلئ لوعة وعناء ممضاً ، وما الحياة ؟ إنها لم تعطه ما كان يريد من ابتسام بل أعطته
 كل ما أمكن من أذى وآلام ، وإن ذكرى ابنه لهى نفس هذه الآلام الثقيل ، وإنه ليحس
 إزاءها بحريق لا يزال يأخذ بسويداء فؤاده . والمرثية تمتد إلى مائة بيت ، ومثلها في الطول
 مرثية رائية لابنه تبلغ ٧٨ بيتاً وفيها يقول محزوناً :

محاك الرَّدَى من رأيٍ عيني وما محا خيالك من قلبي وذكَرك من ذكرى
 وهو من شعراء المديح المبدعين ، ويكاد المديح يستنفد شعره جميعه ، وهو فيه طويل
 النفس ، ومن خير مدائحه ما قدمه للمفرّج الطائي وابنه حسان ، وفيه يقول :
 فَنِي جُبِلَتْ يَداه على العطايا كما جُبِلَ اللِّسانُ على الكلامِ
 وَيُسْرَاهُ لَنِيْلٍ أو عِنانٍ وَيُمْنَاهُ لُرُمَحٍ أو حُسامِ^(٢)
 لقد أحيا المكارم بعد موتٍ وشاد بناءها بعد انهدام
 بصَفْحَةٍ خَدَّه لِلبِشْرِ ماءً كمثل الماء في صَفْحِ الحُسامِ^(٣)

(١) السرار : ليالى آخر الشهر التي لا يظهر فيها القمر . (٣) الماء هنا : الروتن .

(٢) النيل : العطاء . والعنان : عنان الفرس .

سواءً عنده قولُ المنادي هَلُمَّ إلى الطَّعَانِ أو الطَّعَامِ
وواضح في مديحه سهولة الشعر عليه وأنه يُطلق نفسه على سجيته ، فيأتي بكثير من
المعاني الطريفة والصور البديعة ، على نحو ما يلاحظ في صورة البيت الأول ، فهي صورة
بسيطة ، فالعطايا في يد مفرج كالكلام في لسانه لا يزال يرسلها ، ومثل هذه الصورة في
الطرافة صورة البيت الأخير ، فمدوحه لا يزال في حشد من جوده وبأسه على طعامه
وطعانه . وفيه يقول في مدحة ثانية :

هو السالبُ الأعداء في ساحة الوغَى وَيَسْلُبُهُ فِي سَاعَةِ السَّلَمِ زَائِرُهُ
يَجْبُرُنَا عَنْ جُودِهِ بِشَرِّ وَجْهِهِ وَقَبْلَ انْصِدَاعِ الْفَجْرِ تَبْدُو بِشَائِرُهُ
وَيَصْدُقُ فِيهِ الْمَدْحُ حَتَّى كَأَنَّمَا يَسْبَحُ مِنْ صِدْقِ الْمَقَالَةِ شَاعِرُهُ
والبيتان الأخيران تتضح فيهما الفكرة التي أشرنا إليها آنفاً وهي سهولة كلمه مع طرافة
صوره ، مما يدل على فطرة شعرية أصيلة عند الشاعر ، ومن قوله في مديح حسان بن المرقب
من مدحة طويلة :

هو المَلِكُ يُبْلَى بُسْطُهُ قَبْلَ وَقْتِهَا سَجُودُ مَلُوكٍ فَوْقَهَا وَقِيَامُهَا
بَعِيدٌ مَدَاهُ لَيْسَ تَأْلَفُ كَفُّهُ مِنَ الْمَكْرَمَاتِ الْغَرِّ إِلَّا جِسَامُهَا
وَلَوْ أَنَّ لِلْأَقَارِ ضَوْءَ جَبِينِهِ لَمَا زَالَ عَنْهَا نُورُهَا وَتَمَامُهَا
وَلَيْسَ بِمَشْغُولِ الْبَنَانِ عَنِ النَّدَى إِذَا شَغَلَ الْكَفَّ الْيَمِينَ حُسَامُهَا
وواضح تخلصه في البيت الأخير من أن تكون بنان المدوح مشغولة دائماً بالسيف ،
فَتَشْغَلَ عَنِ الْعَطَايَا وَالْكَرَمِ ، وتكثر في أشعاره مثل هذه التخلصات والصور الدقيقة . وله
نسب بالديار وغزل رقيقان ، وكثير منها يقدم به مدائحه ، على شاكلة قوله في إحدى
مقدمات مدحة دالية :

أَتَرُومُ تَغْطِيَةَ الْهَوَى بِجُحُودِهِ وَنَحُولُ جِسْمِكَ مِنْ أَدَلِّ شُهُودِهِ
كَمْ قُلْتُ إِيَّاكَ الْحِجَازَ فَإِنَّهُ ضَرَبَتْ جَاذِرُهُ بِصَيْدٍ أَسْوَدِهِ
وَأَرَدْتُ صَيْدَ مَهَا الْحِجَازَ فَلَمْ يُسَا عَدَكَ الْقَضَاءُ فَصَرَتْ بَعْضُ صَبُودِهِ
أُخْفِيَ هَوَاهُ وَهُوَ نَارٌ مِثْلَهَا يُخْفِي الزَّنَادُ ضِرَامَهُ فِي عُودِهِ
والصورة في البيت الثاني بدیعة فظباء الحجاز أو جاذره تصيد أسوده ، ومحاول صيد
المها فيصبح من صيدوها ، ونار الحب كامنة في فؤاده كمن نار الزناد في عوده . ونحس
دائماً بأن الصور والمعاني طبيعية ، وكذلك الألفاظ فهي سلسلة سائغة عذبة . وفي أشعاره
حكم وزهد ورفض للدنيا ومتاعها ، ومن طريف حكمه قوله :

وإذا جفاك الدهر وهو أبو الورى طراً فلا تَعْتَبْ على أولاده
فمن جفاه الدهر أو قلب له ظهر المحن ينبغي أن لا يتزل جام غضبه على الناس ، لأن
ما أصابه إنما هو من أبيهم الدهر وليس منهم ، وما كان الابن ليسأل عما قدمته يد أبيه .
والحق أنه كان شاعراً مبدعاً ، وكان الشعر طوع لسانه ومدَّ خيالاته ومشاعره .

جعفر الخطّى^(١)

من قبيلة عبد القيس التي نزلت في الأحساء والقُطيف وبواديها منذ العصر الجاهلي ،
والخطّى نسبة إلى الخطّ وكان يطلق على مدينة القطيف وعلى ساحل الإقليم كله ،
ولا يُعرفُ زمن مولده ، ويبدو أنه نشأ في القطيف ، وفيها حفظ القرآن وتلقّن على الشيوخ
مبادئ الكتابة والقراءة والعربية ، وسال ينبوع الشعر على لسانه ، واتخذ - مثل لداته -
حرفة يتكسب بها منذ أواخر القرن العاشر الهجري ولم يلبث أن غادر مسقط رأسه إلى جزيرة
أوال التي تسمى في عصرنا باسم البحرين ، حاملاً مدائحَه إلى بعض أمرائها وقضاتها
وعلمائها ، واستقبلوه استقبالاً حسناً ، وأسبغوا عليه بعض عطاياهم ، وخاصة وزير أمير
البحرين ركن الدين محمد بن نور الدين وقاضيه عبد الرؤوف البحراني . ولا توافي سنة
١٠١٢ للهجرة حتى يرحل إلى إيران وينزل شيراز ، ويتردد بينها وبين أصفهان ، ويلتقي في
الأخيرة بهاء الدين العاملي صاحب كتاب الكشكول ، ويعارض بعض قصائده ويعجب
بهاء الدين به وبشعره ، وكان يقدمه هناك لبعض ممدوحيه ويجزلون له في العطاء مما جعله
يفضل الإقامة في إيران حتى وفاته سنة ١٠٢٨ للهجرة . وقد أشاد به وبشعره ابن معصوم
في كتابه «سلافة العصر» قائلاً في نعته : «البدیع الأثر والعیان ، الحكیم الشعر الساحر
البيان ، أتى بكل مبتدع مطرب ، ومخترع في حسنه مغرب . وقد وقفت على فرائده التي
لمعت ، فرأيت مالا عين رأت ولا أذن سمعت» . ومن محاسن مراثيه مرثيته في الشيخ
أبي محمد حسين البحراني سنة إحدى وألف ، وفيها يقول :

جَدَّ الرَّدَى سببَ الإسلام فأنجذما	وهذا شامخ دين الله فانهدما
نبيكي فمَيَّ لم يحلَّ الضيمُ ساحتَه	ولا أباَحَ له غيرَ الحِجَامِ حِمِيَّ
ذا منظرٍ يُبصر الأعمى برويته	هدى وذا منطِقٍ يستنطق البُكْمَا

وساحل الذهب الأسود لمحمد سعيد المسلم ص ٢٣٥
وديوانه طبع في إيران سنة ١٣٧٣ هـ .

(١) انظر في ترجمة جعفر الخطي سلافة العصر لابن
معصوم ص ٥٣٢ وخلاصة الأثر في أعيان القرن
الحادي عشر للمحيي ١/ ٤٨٣ ونفحة الرحانة ٣/ ٢٠٤

لو عَلَّمَ الوحشَ ما يُنشيه من حكمٍ لراحَتِ الوحشُ من تعليمه علماً
 ما راح حتى حشاً أسْمَعنا دُرراً من لفظه وسقى أذهاننا حِكْماً
 والتكلف في هذا الرثاء واضح ، ويكشفه ما يحمل من مبالغات على نحو ما نرى في
 البيت الأول والثالث والرابع ، وكان يكنى الشاعر أن يعلم صاحبه الناس فيصبحوا
 علماء ، أما أن يعلم الوحش فتتحول علماء على يديه ، فهذه مبالغة مفرطة . ويتوفى في نفس
 السنة الشيخ أبو علي عبد الله بن ناصر الخطي ، فيشيَّعه بمرثية ، يقول في تضاعيفها :

فَتَى كَرَمَتْ آباؤُهُ وَجُدودُهُ وَطابَتْ مَساعِيهِ فَتَمَّ لَهُ الْفَخْرُ
 جَوادُ لَهُ فِي كُلِّ أُنْمَلَةٍ مَجْدُ بصيرُ لَهُ فِي كُلِّ جَارِحَةٍ فَكْرُ
 ويا بِلَدِ الْخَطِّ اعْتَرَاكَ لَفَقْدَهُ مَدَى الدَّهْرِ كَسْرٌ لَا يُرَامُ لَهُ جَبْرُ
 مِنَ الْآنَ بَدَأَ الشَّرُّ فَيْكَ وَإِنَّهُ لَمُتَّصِلٌ بِأَقْوَائِهِ وَآخِرُهُ الْحَشْرُ
 وَلَوْ خَلَّدَ الْمَعْرُوفُ فِي النَّاسِ وَاحِداً لَخَلَّدَ عَبْدَ اللَّهِ نَائِلُهُ الْعَمْرُ

وفرق بعيد بين لغة هذه الأبيات ومعانيها وصورها ولغة الأبيات السابقة وما تحمل من
 معانٍ وصور ، فهنا طواعية ومرونة في التعبير ، فالألفاظ يشيع فيها التناسق كما يشيع في
 الأفكار والأخيلة . وقد يكون السبب في ذلك أن الشاعر لم يصدر في المرثية الأولى عن تأثر
 حقيقي بخلاف الثانية التي رثى فيها مواطنه الخطي . وطبيعي أن تكون أكثر أشعاره مدائح ،
 مثله في ذلك مثل معاصريه ومن سلفوا قبلهم ، من ذلك قوله في وزير أمير البحرين ركن
 الدين محمد بن نور الدين من مدحة طويلة نظمها في سنة إحدى وألف للهجرة .

مَلِكٌ رَفِي دَرَجَ الْفَخَارِ فَلَمْ يَدَعْ فِيهَا لِرَاقٍ بَعْدَهُ مِنْ مَطْمَعٍ
 وَتَنَاولَتْ كَفَّاهُ أَشْرَفَ رَتْبَةٍ لَوْ قَامَ يَلْمِسُهَا الشَّهَاءُ لَمْ يَسْطَعِ (١)
 أُنْدَى مِنَ الْغَيْثِ الْمَلْتُ إِذَا اجْتَدَى أَحْمَى مِنَ اللَّيْلِ الْهَزْبِ إِذَا دُعِيَ (٢)
 حَيْثُ يَأْكُسِرِي الْمُلُوكَ تَحِيَّةً تُرْبِي عَلَى كَسْرِي الْمُلُوكِ وَتَبْعُ

والتكلف واضح في هذا المديح ، وتبدو في الأسلوب رقع غير ملائمة ، ككلمة « قام
 يلمسها » وكلمة « اجتدى » أى طلبت جداوه وفائدته ، بالإضافة إلى كلمة « كسرى »
 المكررة في البيت الأخير . وهو يستهل هذا المديح بنغمة أى نواس المعروفة من الدعوة إلى
 الانصراف عن ذكر الأطلال إلى ذكر الخمر ، وله بعض خمريات . لعل أطرفها خمرية
 حاثية يقول فيها :

(١) السها : كوكب صغير من نبات نعش الصغرى . القوى .

(٢) الملت : الدائم الملح . الهزير : الأسد الضخم

عاطنِها قبل ابتسام الصباح فَهْيُ تُغْنِيكَ عَنْ سَنَا المِصباحِ
أَنْتِ تَدْرِي أَنْ المُدَامَةَ نَارُ فاقتدَحْها بالصبِّ في الأقداحِ
فَهْيُ تَمَحُو بِضَوْئِها صِبْغَةَ اللَّيْلِ لِمَ فيغدو وَجْهُ الدُّجَى وهو ضاحِ
أَرْسَلْنَاهَا وَرَدِيَّةً كَدَمَ الكَبْرِ شِئْ أَسْأَلْتَهُ مُدِيَّةُ الذَّبَاحِ
وواضح أن التكلف يسرى في هذه الأبيات ، وأن كلمة : «أنت تدرى» في البيت الثاني أفسدت النَّسَقَ فيه . والشطر الثاني في البيت الثالث تكرر للشطر الأول ، وكان يكفيه أن يشبه الخمر بدم الكباش ولا يضيف كلمة «أسأله مدية الذباح» . ومع ذلك كله يعد جعفر الخطيُّ أهم شاعر ظهر في زمنه بالقطيف والأحساء أو بعبارة أخرى بالبحرين ، وهو بلا ريب أشعر من ترجم له ابن معصوم في سلافة العصر والمجى في نفحة الريحانة بالقياس إلى مواطنه .

٥

شعراء الفخر والهجاء

ظل الفخر والهجاء نشطين في هذا العصر نشاطهما في العصور السابقة ، ولكن يلاحظ أن المصادر احتفظت بشعر الفخر أكثر من احتفاظها بشعر الهجاء ، ومَرَّ بنا أن الطاهر الجزري كان من شعراء قُرَواش صاحب الموصل وبواديه ، وله ثلاث أبيات يصف في أولها وثانيها الليل وظلماته وفي الثالث فرسه ، واستطرد من وصفه في كل بيت إلى هجاء شخص يقول (١) :

وليلٍ كوجه البرقعيديّ ظلمةً وبرْدُ أغانيه وطولِ قُرُونِهِ (٢)
قطعتُ دِياجيهِ بنومٍ مُشرِّدٍ كعقلِ سليمانَ بنِ فَهْدٍ ودينهِ
على أَوَّلَيِّ فِيهِ التفاتُ كأنَّهُ أبو جابرٍ في خَبَطِهِ وجُؤنِهِ (٣)

ويبدو أن البرقعيدي كان مغنياً ويصفه ببرودة غنائه وسوء خلقه إذ كان قواداً ، والهجاء في البيتين التاليين مقذع كما هو واضح . ومن الهجائيين المقذعين القاضي العثماني الينبي وله مدائح في أمراء زَيد آل نجاح وفي غيرهم من أمراء الدول الينمية ، ومن أقذع هجائه قصيدته في الداعي علي بن محمد الصليحي حين قتله سعيد بن نجاح أمير زَيد ، وفيها

(٣) الفرس الأولي : شديد السرعة إلى درجة الجنون .

(١) الدمية ١ / ١٢٨ .

(٢) البرقعيدي : نسبة إلى برقعيد قرية بالموصل .

يصف مظلته التي كان يحتفى بها من حرارة الشمس ، وكيف أن سعيداً رفع على عمودها رأسه ، يقول (١) :

يَكْرَتْ مِظْلَتُهُ عَلَيْهِ فَلَمْ تَرْحُ إِلَّا عَلَى الْمَلِكِ الْأَجَلِّ سَعِيدِهَا
 مَا كَانَ أَقْبَحَ شَخْصَهُ فِي ظَلِّهَا مَا كَانَ أَحْسَنَ رَأْسَهُ فِي عَوْدِهَا
 وَأَرَادَ مُلْكُ الْأَرْضِ قَاطِبَةً فَلَمْ يَظْفَرْ بِغَيْرِ الْبَاعِ مِنْ مَلْحُودِهَا
 سُودُ الْأَرَاقِمِ قَاتَلَتْ أَسَدَ الشَّرَى يَا رَحْمَةً لِأَسُودِهَا مِنْ سُودِهَا
 وكان آل نجاح إفريقيين من الحبشة كما مر بنا ، ولذلك كنى عنهم بسود الأرقام أى الأفاعى ، والقصيدة مليئة بالتشقى من الصليحي وبهجاء مرير . وللشيخ محمد بن سعيد المكي فى هجاء بعض أهل عصره (٢) :

اتْرُكِ الْعُجْبَ فَمَا أَنْتِ سِوَى رَجُلٍ إِمَّا لَضَحْكَ أَوْ لَغَمٍ
 كَغُرَابِ السَّوَى يَمْشِي مَرِحاً مُعْجَباً وَهُوَ أَخُو الشُّؤْمِ الْأَذَمِ
 يَغْسِلُ الثُّوبَ وَفِي أَكْتَافِهِ وَسَخُ الْعِرْضِ وَآلَتُ الثَّهَمِ
 ويلقانا الفخر فى كل مكان من الجزيرة على ألسنة الأمراء والشعراء ، ومر بنا فخر عارم لقرواش أمير الموصل وبواديه . ولهباء الدولة منصور بن ديبس المزيدي (٤٧٤-٤٧٩ هـ) أمير بوادي الحلة قصيدة يفتخر فيها بمثل قوله (٣) :

أَوْلُوكَ قَوْمِي إِنْ أَعَدَّ الَّذِي لَهُمْ أَكْرَمُ وَإِنْ أَفْخَرُ بِهِمْ لَا أَكْذَبُ
 هُمُ مَلْجَأُ الْجَانِي إِذَا كَانَ خَائِفاً وَمَأْوَى الضَّرِيكِ وَالْفَقِيرِ الْمُعْصَبِ (٤)
 بِطَاءٍ عَنِ الْفَحْشَاءِ لَا يَحْضَرُونَهَا سِرَاعٌ إِلَى دَاغِي الصَّبَاحِ الثُّوبِ (٥)
 مَنَاعِيشُ لِلْمَوْلَى مَسَامِيحُ بِالْقَرَى مَصَالِيْتُ تَحْتَ الْعَارِضِ الْمُتَلَهَّبِ (٦)
 وهو يفتخر بقومه ، ويقول إنهم ملجأ الجاني يلود بحماهم ، فلا تمتد إليه يد ، ومأوى الفقراء والبؤساء ، مع اجتناب للمحرمات لا يقرفونها ، ومع مسارعة إلى الصلاة فى الفجر وطوال النهار ، ومع إنعاش للصحاب وكرم مدرار ونفاذ فى الشدائد . ومن طريف ما للرسولين من فخرٍ موشعٍ للسلطان المجاهد الرسول يستهله بقوله (٧) :

(١) الخريدة (قسم الشام) ٣/٢٣٣ ، ٣٧٧ .
 (٢) سلافة العصر ص ٢٢٥ .
 (٣) الخريدة (قسم العراق) ٤/١٥٨ .
 (٤) الضريك : البائس . المعصب : الذى لا يجد قوته .
 (٥) داعى الصباح : المؤذن . الثوب : الداعى إلى الفرائض والنوافل .
 (٦) مناعيش : يمنعون من الهلاك . القرى : الضيافة .
 مصاليت : نافذون فى الأمور .
 (٧) الخزرجي ٢/١٢٤ .

نلت أنا العزَّ بأطراف القنا

ليس بالعجز المعالي تُجتنى

نحن بالسيف ملكننا اليمنا

كلُّ فخر تدعى الناسُ لنا أغرق العالم في الملك أنا
وهو يفاخر بأسرته فخراً شديداً ، ويمضى فيسمى آباءه متحدثاً أو مفاخراً بشجاعته
وجوده وبذله للمال وانتجاع العفاة السائلين له وصَفحه الجميل وعفوه . والفخر كثير في
اليمن ، غير أننا نتركها إلى حضرموت وشاعرها ابن عقبة المتوفى سنة ٦٩٥ وشعره يمجج
بالفخر من مثل قوله ^(١) :

إني امرؤ عَفُّ الإزار عن الحنا لم أَغشَ مُنْذُ نَشَأْتُ بَابَ الْمُنْكَرِ
إني على كَسْبِ العلومِ مَخِيمٌ وَيُكَايَ فِي طَلَبِ الْعُلَا وَتَحْسُرِي
إني من العرب الذين نَجَارُهُمْ من خَالِصِ الْعِيقَانِ لِبَّ الْجَوْهَرِ
وتَخَذْتُ أَصْحَاباً إِذَا نَادَمْتَهُمْ لم أَغشَ مِنْهُمْ مِنْ يَنْمُ وَيَفْتَرِي
عِلْمِي وَحِلْمِي وَالْحِصَانُ وَصَارْمِي وَنَدَى يَمِينِي وَالْعَفَافُ وَدَفْتَرِي

وابن عقبة يفتخر بسجاياه الكريمة من العفة والارتفاع عن المنكر والتحلّي بالعلم فهو
حيه الذي يقف نفسه عليه ويبيكه بكاء المحيين لصواحبهم ، ويفاخر بأصله العربي ،
ويحدثنا عن صحابه وندمائه من العلم والحلم والفروسية والبأس والجود والعفاف ودقاتر
الدراسة ، ويطنل في الفخر بقومه من حَوْلَانِ وَكَهْلَانِ وكندة وملوكها الأقدمين . ويكتظ
ديوان ابن مقرب العيوني بالفخر بآبائه والأمراء من أسرته حكام البحرين وبيان ما لهم من
أعجاد ومآثر ، ويفخر كثيراً بنفسه وبشعره ، وقد يخلط فخره بالشكوى من الدهر ، على
شاكلة قوله :

تجاهلَ هذا الدهرُ بي فَتَكَبَّتْ علىَّ بأنواعِ الْبَلَايَا كَتَائِبُهُ
وَإِنِّي وَإِنْ أَبْدَى أَصْعُرَاراً بَخْدَهُ وَأَوْجَفَ بِي وَازَوَّرَ لِلْبَغْضِ جَانِبَهُ ^(٢)
لَأَغْضِي عَلَى بَغْضَائِهِ وَازَوَّرَارِهِ وَأَعْجَبُ مِنْ حَرِّ كَرِيمٍ يَعَاتِبُهُ
وَأَسْتَقْبِلُ الْخُطْبَ الْجَلِيلَ بِثَاقِبٍ مِنْ الْعِزْمِ يعلو لَاهِبَ النَّارِ لَاهِبُهُ
وكانه يحس نفسه صخرة عاتية لا يستطيع الدهر مها ألح عليه ببلاياه أن ينال منه
شيئاً ، مها أبدى من تكبر واستعلاء ومها عدا عليه بكوارثه ، ومها انحرف عنه وأظهر من

(١) تاريخ الشعراء الحضرميين ٦٧/١ وتاريخ
حضرموت السياسي ١٦٩/٢ .
(٢) اصعوارا بخده : ميلا ، كناية عن الكبر . أوجف
بالخيل : عدا بها للقتال . ازور : مال وانحرف .

بغضائه . وإنه ليلقاه بعزم كالشهاب الثاقب تعلقو ناره على نيرانه وتحمدها فلا تشتعل ضده أبداً . ونقف عند شاعرين من شعراء الفخر والمجاء ، هما نشوان بن سعيد الحميري وسليمان التنباني العُماني .

نشوان بن سعيد الحميري^(١)

من أهل جبلٍ شامخٍ مطلٌّ على «تَعِزَّ» اسمه صَبِر ، ولا يعرف بالضبط تاريخ مولده ، وتدل نسبته إلى حمير أنه من سلالتها ، وكان ملوكها يسمون بالأقيال والأدواء ، ونراه ينسب نفسه في قصيدته الحميرية إلى قَيْلٍ يُدْعَى ذا سَحَر ، يقول :

أو ذو مرأشدَ جدُّنا القَيْلُ ابن ذى سَحَرٍ أبوالأدواء رَحْبُ السَّاحِ
ويبدو أنه أكْبٌ منذ نشأته على العلوم المختلفة ينهل منها ، حتى أصبح علماً في اللغة والتاريخ والنحو والفقه والأصول وعلوم الأوائل وعلم الكلام ، وينص من ترجموا له على أنه كان معتزلياً . وذكروا أنه اشتغل بالقضاء في بعض مخاليف اليمن وأنه كانت له في الفرائض (الموارث) وقسمتها يد . وله مصنفات مختلفة ، أشهرها «شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلام» في نحو ثمانية مجلدات ، وذكرنا في الفصل الثاني أنه معجم لغوى ، وهو فيه لا يكتفى بالحديث عن اللغة بل يتسع بالحديث عن المعادن والحيوانات والنباتات والتاريخ وبعض مسائل الطب والفلسفة . وبذلك حوَّله إلى دائرة معارف لغوية وجغرافية وتاريخية ونباتية وحيوانية وطبية وقد طبع من القسم الأول إلى آخر حرف التاء في ليدن ، ثم طبع منه جزآن في القاهرة إلى آخر حرف الشين ، ويتخلل الكتاب فخر عارم باليمن وفضائلها وملوكها الأولين . وله رسالة الحور العين وقد طبعت مع شرحها طبعة سقيمة . وطبعت له بالقاهرة القصيدة الحميرية مع شرحها المسمى «خلاصة» السيرة الجامعة لعجائب أخبار الملوك التابعة ، وهي في أكثر من مائة وثلاثين بيتاً ، استهلها بقوله :

الأمرُ جدُّ وهو غيرُ مزاحٍ فاعمَلْ لنفسك صالحاً يا صاح
ومضى قليلاً في الوعظ ثم خرج إلى تعداد ملوك التابعة والأقيال والأدواء ، والقصيدة بذلك من الشعر التعليمي التاريخي . وقد نال شهرة مدوية في وطنه

(١) انظر في ترجمة نشوان معجم الأدباء ٢١٧/١٩ كبه ومقالة المستشرق سترستين عنه في الجزء الأول من كتاب المتقى من دراسات المستشرقين (طبع القاهرة) وإنباه الرواة للقفطى ٣/ ٣٤٢ والخريدة (قسم الشام) ٣/ ٢٦٨ و ٣٨٥ وبغية الوعاة للسيوطي ومقدمات محققى ص ٧٥ .

لعصره ، لمعارفه الواسعة ، ويبدو أنه لم يكتف بالمجد العلمى فقد رأى أن يضيف إليه مجد الحكم والسلطان ، واستطاع فعلاً أن يستقل بجبل صَبْر موطنه وقلاعه وحصونه وأن يظل ممسكاً بصولجان الحكم فيه حتى وفاته سنة ٥٧٣ للهجرة . وما تأليفه القصيدة الحميرية إلا صورة من صور اعترازه اعتراضاً لا حدَّ له بقحطانيته . وهو يسوق أشعاره جميعها في هذه العنصية المغرقة لقحطان من مثل قوله :

منا التَّابَعَةُ اليمانون الألى ملكوا البَسِيطَةَ ، سَلْ بِذلك تُخَبِّرُ
من كُلِّ مرهوبٍ اللقاء مُعَصَّبِ بالتاج غازٍ بالجِوش مظفَّرُ
تَعْنُو الوجوهَ لسيفه ولرمحه بعد السجود لتاجه والمَغْفِرِ^(١)
فافخِّرْ بقحطاني على كلِّ الورى فالناس من صَدَفٍ وهم من جَوْهرِ
وإذا غَضَبنا غَضَبَةً يَمْنَةً قطرتْ صَوَارِمُنَا بموتِ أحمرِ
فَعَدَّتْ وهادُ الأرضِ مُترَعَةً دماً وغدتْ شِباعاً جائعاتُ الأنسِرِ

والآيات تحمل عنصية عنيفة ، وهى عنصية لا يشيد فيها بالملوك والتابعة الأولين من قومه ، بل أيضاً لا تزال الحاسة تشد به وتتأجج في صدره ، حتى يجعل قحطان فوق الورى والناس جميعاً ، بل حتى يجعلهم من معدن غير معدنهم ، فهم من جوهر والناس من صدف ، ولا كغضبهم ، فغضبهم يملأ الوهاد دماً وأشلاء ما تزال تحط عليها النصور والصقور ، تملأ بطونها الجائعة . ولم يكتف بهذه العنصية الجارحة لقومه ضد مضر والعالم جميعه ، فقد اندفع في نقائض مع الأشراف الرسيين أصحاب صَعْدَة ، وشاع أنه قال :

أما الحسينُ فقد حواه المُلحدُ واغتاله الزمنُ الخثونُ الأنكدُ
فتبصَّروا يا غافلين فإنه فى ذى عرارٍ ويحكمُ مُستشهدُ^(٢)

وحين وصل البيتان إلى أسماع الرسيين غضبوا غضباً شديداً ، وعظم هياجهم ، وردوا عليه بعنف ، مهددين متوعدين بمثل قول عبد الله بن قاسم الزيدى :

أما الصحيحُ فإنَّ أصلك فاسدٌ وجزأك منا ذابِلٌ ومَهْنَدُ^(٣)

في قصيدة طويلة . ووصلت أسماع نشوان ، فلم يخلد إلى الصمت والسكوت ، بل مضى يردُّ بقصيدة دالية يقول فيها :

من أين يأتينى الفسادُ وليس لى نسبٌ خبيثٌ فى الأعاجم يوجدُ
لا فى علوج الروم جدُّ أزرقُ أبداً ولا فى السُود خالٌ أسودُ

استشهد بالقلاة قرب الكوفة مكان النجف الحالية .

(١) تعنو: تنقاد. المغفر: زرد يضعه المحارب تحت القلنسوة.

(٢) العرار: زهر بدوى ويقصد بذى العرار أن الحسين

(٣) ذابِل: رمح . مهندا: سيف .

ومضى يتنصّل من البيتين السالفين . غير أنه ساق تنصّله في تهكم وسخرية لازعة من تهديده بسفك دمه ، قائلاً :

فدّع التهّدّ بالحسام جهالةً فحُسامك القطّاع ليس له يدٌ
من قد تركتَ به قتيلاً ؟! أنبيّ ممن توعدّه ومن تهّدّد
إن لم أمتْ إلا بسيفك إنني لقريرٌ عينٍ بالبقاء مخلدٌ
وكل هذا يمكن أن يحتمل من نشوان في سبيل دفاعه عن نفسه ، ولكنه لم يلبث أن وسم جبينه وصمة لا تمحى بالأبيات التالية :

موتى قریش فكلُّ حَيٍّ مَيّتٌ للموت منا كلُّ حَيٍّ يولّد
قلتم لكم إرثُ النّبوة دوننا أزعمتم أن النّبوة سرمدٌ
منكم نبىٌ قد مضى لسبيله قدما فهل منكم نبىٌ يُعبدُ
وهذه سفاهة وخرقٌ وحقاقة ، ويقول العماد الأصهباني تعليقاً على هذه الأبيات : « قاتله الله ولعنه وأخزاه ، ما أشد افتراه على الله وأجراه ، وأية فضيحة فوق هذا ولولا النبي المصطفى الذي اختاره الله واجتبه ، وجعله الوسيلة إلى نيل رضا ، صلوات الله عليه وسلامه ، ما سعدوا ولا فازوا ولا حازوا من الشرف والفضيلة ما حازوا » وحقاً إنها كلمات خبيثة كلها نكد وخزى وبوار ، ولو أن الشاعر وجّه شعره وجهة أخرى غير وجهة هذه العصية الخرقاء لكان ذلك له أفضل وأجدى .

سليمان النبهاني^(١)

آخر سلاطين بني نبهان العُثمانيين ولا يُعرفُ تاريخ مولده ، وقد عاش حتى سنة ٩١٥ للهجرة وكانت حياته في الحكم سلسلة من الحروب بينه وبين أخيه وبينه وبين خوارج نزوى ، منها وقعة « حَمَت » بينه وبين خوارج نزوى لعهد إمامهم عمر بن الخطاب ، وفيها انهزم عمر ، ودارت الأيام وانتصر عمر عليه ، وسرعان ما توفي فتنفس سليمان الصعداء وعاد إلى عاصمته وأخرج منها شيوخ الخوارج المقيمين بها . وحاربه الخوارج في « واقعة أركى » ودارت الدوائر عليه . وما زال به أبو الحسن بن عبد السلام الذى ولى أمر الخوارج بعد عمر بن الخطاب ، حتى غادر الديار إلى هُرْمُز في أرض فارس ومات أبو الحسن فعاد واسترد سلطانه ، غير أن العنانيين بايعوا إمام الخوارج محمد بن إسماعيل الخروصى سنة ٩٠٦

(١) انظر في ترجمة سليمان النبهاني تحفة الأعيان ديوانه عز الدين التنوخى ، وهى مقدمة بدعية . والديوان لنور الدين السامى ٣٢١/١ وما بعدها ومقدمة محقق مطوع بدمشق .

ونشبت بينهما موقعة الحمة وهزم فيها سليمان ولم تقم له بعدها قائمة . وبذلك ضعفت دولة النبهانيين وكاد يقضى عليها قضاء نهائياً . وديوانه يفيض بثقافة لغوية وأدبية جيدة ، وهى ثقافة تتضح بجلاء خلال معارضاته الكثيرة للشعراء ، إذ كان يعارض أشعار الجاهليين من أمثال امرئ القيس وطرفة وعنترة وزهير وعمرو بن معد يكرب والنابعة والأعشى وأشعار الإسلاميين من أمثال جرير والفرزدق وذى الرمة وكثير وقطرى بن الفجاءة وأشعار العباسيين من أمثال أبى نواس وأبى العتاهية وأبى تمام والبحترى وابن دريد والمتنبى وأبى العلاء . وقد تتبع محقق الديوان الأستاذ عز الدين التنوخى ذكره للمواطن والأماكن التى نثرها امرؤ القيس فى أشعاره ، كما تتبع أخذه من عنترة ومعارضته لطرفة فى معلقته وعمرو بن معد يكرب فى داليته وابن دريد فى مقصورته وأبى نواس فى خمرياته وما تطوى من معان وصور وأوزان وقواف ، ولاحظ معارضته لأبى العلاء فى قصيدته (ألا فى سبيل المجد) وأنه استعار منه المعانى وكثيراً من الألفاظ كما استعار الوزن والقافية ، على شاكلة قوله :

ألا فى سبيل المجد ما أنا صانعُ نفوعُ وضَرَّارُ ومُعْطٍ ومانعُ
وإنى لذو طَعْمينَ شَهِدُ يشوبه رحيقُ وسمُّ دونه السُّمُّ ناقعُ

ولكن من الحق أنه مع هذه المعارضات الكثيرة فى ديوانه وإغاراته على معانى الأسلاف وأخيلتهم وأفكارهم شاعر مجيد يحسن رصف الكلم . والموضوع الأساسى فى ديوانه هو الفخر ، وهو شىء طبعى ، لأنه كان سلطاناً وصاحب دولة ومن فخره الذى يصور فيه بسالته وشجاعته :

يميناً بالصَّوَّارمِ والحِرابِ وبالخيلِ المسومةِ العِرابِ (١)
وَكُلُّ مُفَاضَةٍ كَالنَّهْيِ سَرْدٍ تَرَدُّ الْعَصَبِ مَفْلُولَ الذُّبَابِ (٢)
أنا ابنُ السابقينِ إني المعالي ورغْمُ الصَّيْدِ والشُّوشِ الغَضَابِ (٣)
أنا الملكُ الذى ساد البرايا مَقَرُّ الفخرِ والحسبِ اللُّبَابِ
ولى يومان من نُعْمَى وِئُوسَى ولى طعمان من أَرَى وصابِ (٤)

ويتضح لنا من هذه الأبيات صوته فى الفخر ، فهو يُقسِّم بأدوات الحرب والبأس أنه

(١) المسومة : المعلمة . العراب : الجيدة .
(٢) المفاضة : الدرع . النهى : العذير . والشعراء
يشبهون الدروع وغضونها بمياه الآبار حين تمر بها الريح
فتحدث فيها حركات وغضونا . سرد . منسوجة .
(٣) الصيد : السادة . الشوش : جمع أشوش وهو
التعاطم الذى يتيه بنفسه زهواً .
(٤) الأرى : غسل النحل . الصاب : المر .

سليل السابقين إلى الشرف : شرف النسب وشرف الفعال ، ويتمدح بأنه كالمنذرين ماء السماء الذى كان يتخذ له يومين كل عام يوم نعمى ويوم يؤسى وأن له طعمين حلواً ومراً . وهو يلتقى مع نشوان بن سعيد فى الإكثار من الفخر بقحطان وملوك اليمن وأقباها بمثل قوله :

ونحن ملكنا الجنتين بمأرب ودُسنا برغم أنف كِسرى وقِصْر
ويكثر من تعداد أسماء هؤلاء الأقيال والملوك ، ولكنه لا يبلغ من التيه بهم والزهو مبلغ نشوان ، وإن كنا نحس عنده أيضاً نغمة الفخر على نزار حين يردّد ما قدمه الأنصار للرسول ﷺ وما أدوه من جهاد فى سبيل إعلاء الإسلام وما بذلوا من الأرواح والأموال ، على نحو ما نرى فى قوله :

ولولا الملوك الصّيدُ قومى لم يُقَمِّ لعمري قومٌ قبلة الصّلوات
ضربنا على الإسلام أبناء هاجر فدانوا وأدّوا واجب الزّكوات
ويقصد بأبناء هاجر قريشاً ، وهى أم إسماعيل عليه السلام كما هو معروف . وكثيراً ما يبالغ مبالغات مفرطة فى فخره تتجاوز الحدود كقوله :

وهبَ الإله لى الفضائل مثلاً أعطى الكليم الصّحف والألواح
والكليم هو موسى عليه السلام ، وما كان أغناه عن مثل هذه المبالغة . ويكثر فى ديوانه من ذكر الأطلال والغزل ، وهو فيها مقلد يحتذى على معانى الأسلاف وصورهم . ويتعرض كثيراً لوصف الناقة ، وأهم من وصفه لها وصفه للفرس لأنه يتصل بشجاعته وحروبه ، غير أنه لا يأتى فى الوصفين بجديد ، ويكثر من ذكر الصيد وهو طبعى لأمر يجد فراغاً كثيراً . وله قصيدة ميمية يصف فيها حمار الوحش وأتته ومسيرته معها فى الصحراء بحثاً عن ماء حتى إذا ألمّ به أرسل عليه وعلى الأتّن صائدٌ متربص وراء الأشجار سهامه ، فأخطأت الصيد ومضى الحمار وأتته عبر الصحراء . ويتلو هذا المشهد بمشهد ثانٍ لمعركة بين ثور وكلاب صائد ، ويذكر لنا لون الثور ومبيته بين أشجار تقيه صوب الغمام ، حتى إذا أسفر الفجر وخرج الثور من كِناسه أرسل الصائد عليه خمسة كلاب ، فقتل منها اثنين ، ومضى يشق طريقه فى القلوات مثيراً للغبار من حوله . والمشهدان منقولان حرفياً من بائنة ذى الرمة المشهورة التى عرضنا لها فى كتابنا « التطور والتجديد فى الشعر الأموى » ولم يلتمس الشاعر منه المشهدين فحسب ، بل التمس أيضاً بعض عباراته ومعانيه ، حتى وصف ذى الرمة لثورّه بأنفته من الفرار من المعركة نجده عند التنبأ إذ يقول :

واعتاده أنفُ الكريدِ سم فكّر كالبطل المحامى

وللخمر حيز كبير في الديوان ، ويستظهر الأستاذ عز الدين التنوخي أنه كان يطلق لنفسه العنان في مطالع حياته ، ويقرن إحدى خمرياته إلى خمرة لأبي نواس ، وبين مدى إغارته على معانيها وصورها وعلى الوزن والقافية ، ومن شعره في الخمر قوله :
 وكم جنة في الأرض دانٍ قطوفها بها غُرُفاتُ أئما غُرُفاتِ
 قضينا بها أيامنا بمدامةٍ لدى قاصرات الطرفِ بين سقاةٍ
 وحوِرٍ كأمثال الدُمى وبرَاغِزٍ يُطَرَّبُنَا بالنأيِ والنَّغَمِ
 وواضح أنه لكي يجمّل صورة الجنة جاء بقاصرات الطرف اللاتي يقصرن عيونهن على صواحبهن ولا يلتفتن إلى غيرهم ، كما جاء بالحوِر العين وأضاف إليهن أولادهن من البراغز وهن يطربّنهـن بالضرب والعزف والغناء على الآلات الموسيقية . ويبدو أنه كثيراً ما كان يفكر في الدنيا ونوائها إذ نرى له بعض مواعظ في ديوانه - وله رثاء حار لأخ ثار عليه وقته - ولعل من الطريف أن نجده يختم بعض قصائده بالصلاة على الرسول ﷺ ، على شاكلة قوله في خاتمة إحدى قصائده :

وأختمُ شعري بذكر الرسولِ نبيِّ البريةِ نورِ الظلامِ
 وفي الحق أنه كان شاعراً مجيداً ، وتكثر معارضاته واقتباساته من الشعراء السابقين ، غير أن ملكته الشعرية كانت ملكة خصبة .

الفصل الرابع

طوائف من الشعراء

١

شعراء الدعوة الإسماعيلية

كان أول ظهور للدعوة الإسماعيلية في الجزيرة العربية على يد حمدان قرمط الذي ينسب إليه القرامطة ، وقد أخذ يدعو دعوته القرمطية الإسماعيلية منذ فواتح الربع الأخير من القرن الثالث للهجرة في سواد الكوفة والبصرة . وأرسل أحد دعائه المسمى أبا سعيد الحسن بن بهرام الجنائي إلى البحرين ، فنشر الدعوة فيها واستطاع في سنة ٢٨٦ أن يؤسس بها لنفسه وأبنائه دولة هناك ، على نحو ما مرّ بنا في غير هذا الموضع . وظلت دولته قائمة يتناوب عليها أبنائه وأحفاده حتى سنة ٣٥٨ إذ قطعوا علاقتهم بالفاطميين نهائياً - ودخلوا في طاعة الخليفة العباسي وخطبوا له على المنابر ، وبذلك يتضح كيف أن الأعصم أميرهم حارب الفاطميين - كما مرّ بنا - تحت راية العباسيين سنة ٣٦٠ . وقد أرسل حمدان قرمط داعيين من دعائه إلى اليمن أحدهما يميني هو علي بن الفضل والثاني كوفي هو منصور بن حوشب ، واستطاع علي أن يستولى على صنعاء ، كما مرّ بنا في غير هذا الموضع ، غير أنه قلب للقرامطة وللفاطميين ظهر الحجن ، فأخذ يدعو لنفسه ، وزعم لأتباعه أنه نبي وأنه جاءهم بشريعة جديدة تحلّ لهم المحارم والمآثم وترفع عنهم الصلاة والصيام والحج ، ويروى أنه صعد يوماً المنبر وأنشد له أول بعض شعرائه (١) .

خُذِي العودَ يا هَذِهِ واضْرِبِي	نُقِمْ شَرائعَ هَذَا النَّبِيِّ
تَوَلَّى نَبِيٌّ بَنِي هَاشِمٍ	وَجاءَ نَبِيٌّ بَنِي يَعْرُبَ
أَحَلَّ البَناتِ معَ الأَمْهاتِ	وَمَن فَضله زادَ حِلَّ الصَّبِيِّ
وَقَد حَطَّ عَنّا فَرُوضَ الصَّلاةِ	وَحَطَّ الصَّيَامَ فلمَ تَتعبَ

(١) الخلاف السلياني ١/ ١٤٢ .

ولا تطلب السَّعَى عند الصَّفا ولا زورة القَبْرِ في يَثْرِبَ
فهو نبيٌّ يَعْرُبُ أو قحطان كما يزعم زورا وبهتانا بل كفرا وضلالا . ولم يلبث عدو الله
والإسلام أن لقي حتفه - كما مرَّ بنا - في سنة ٣٠٣ بمشروط حَسَنِيٍّ متطبِّب ظلَّ يترصده حتى
وجد الفرصة سانحة . أما منصور بن حوشب فنفض يده من القرامطة واتصل مباشرة
بالفاطميين حين كانوا لا يزالون في المهديَّة بالقرب من تونس ، واتخذوه داعية لهم في اليمن
فاستولى على بعض الحصون ، وتوفي سنة ٣٣١ فخلفه ابنه حسن على الدعوة . وتوفي
وظلت الدعوة قائمة وظلَّ لها دعاة مختلفون ، وتولاها الداعي الكبير على بن محمد الصُّليحي
(٤٣٩ - ٤٥٩ هـ) مؤسس الدولة الصليحية باليمن كما مرَّ بنا ، وكان قد تلمذ على داع
فاطمى يَمْنَى يسمى سليمان بن عبد الله الزواحي ، حتى إذا مات خلفه عليها ، وكان يستغل
الحج إلى بيت الله الحرام وسيلة لنشر دعوته في اليمنيين الذين يتجمعون هناك من أنحاء
مختلفة . وبإيعه رؤساء قبيلة هَمْدَان على نصرته ، ولم يلبث أصحابه أن تكاثروا فاستولى بهم
على صنعاء وعدن وزَبِيد ودانت له البلاد من مكة إلى حضرموت ، وكان شاعرا ، وتنسب
إليه أشعار جيدة ذكرنا منها بيتين في مستهل حديثنا عن كثرة الشعراء في الفصل الماضي ،
ويشك بعض القدماء فيما ينسب إليه من شعر أحيانا ، ويقولون إنه كان ينظمه بعض
الشعراء على لسانه ^(١) . ويذكرون أنه لما قطع الشريف شكر أمير مكة ذكر اسم المستنصر
الفاطمى من خطبة الجمعة سنة ٤٥٣ تبادل معه رسائل تحمل تهديداً ووعيداً ، وكان مما
أجابه به الشريف شكر قصيدة سينية ينذر فيها بحرب مُبيرة فأمر شاعره عمرو بن يحيى الهيثمي
أن يرد عليه بقصيدة تنقض قصيدته نقضاً ، فردَّ بقصيدة طويلة يقول فيها على لسانه ^(٢) :

دَمُ الْأَبْطَالِ فِي الْيَوْمِ الْعَبَوسِ مُدَامِي لِأَشْرَابِ الْخَنْدَرِيسِ
وَكَمْ مَلِكٍ أَسْرْتُ وَكَمْ خَمِيسٍ أَبَادَ سَرَاتُهُ قَتْلًا خَمِيسِي ^(٣)

وكان الهيثمي ماينى يشيد بعلى الصليحي وحروبه وماسجِّل فيها من انتصارات . وكان
لا يهنض بعمل دون أن ينشده بعض مدائحه ، من ذلك أنه لما عزم على الحج في سنة ٤٥٩
وأنا ب عنه ابنه أحمد المكرم انبرى الهيثمي ينشد ^(٤) :

إِنَّ سَيْفَ الْإِمَامِ كَالْبَحْرِ ذَى الْمَوْجِ جَرَّ لَهُ فِي الْبِلَادِ مَدًّا وَجَزْرُ
وَلَنْ سَاعَنَا فِرَاقُ عَلِيٍّ فَيَحْمَدُ ابْنَهُ لَنَا مَا يَسُرُّ

ولم تكتب لعلى الصليحي العودة إلى عاصمته ودياره من الحج ، إذ كان قد استولى من

(٣) الحميس : الجيش . السراة : السادة .

(١) الخريدة (قسم الشام) ٢٢٦/٣ .

(٤) الخريدة (قسم الشام) ٢٢٧/٣ .

(٢) الخلاف السلباني ٢٧/٢ .

آل نجاح على زبيد ، فرصده سعيد بن نجاح - وكان معه أخوه جياش - في عودته ، وكانت برفقته زوجته أسماء ، فاغتاله ، واقتاد زوجته أسيرة ، وأخذ الشعراء يعزّون فيه ابنه المكرّم ويرثونه ، من ذلك قول الهيثمي ^(١) :

وأنشأ الحجّ إلى مكّة يبغي رضا الله وأجرًا جزيل
وارتجّت الأرض له هيبه بمن بها بين فُراتٍ ونيل
فإن يكن نيل على غيرة فالبدر لأبد له من أفول

وظلت السيدة أسماء في الأسر ثمانية أشهر إلى أن استطاع ابنها المكرّم في سنة ٤٦٠ أن يستخلصها من الأسر ويرد إليها حريتها . وفي العام التالي فلك بسعيد وهرب أخوه جياش إلى الهند . وكانت للسيدة أسماء أعمالٌ كثيرة ، وكان يُخطب لها على المنابر بعد الخليفة المستنصر وزوجها على الصليحي ^(٢) ، وفيها يقول الهيثمي ^(٣) :

رسمت في السباح سنة جود لم تدع من معالم الخُل رَسْمًا
قلت إذ عظموا لبلقيس عرشاً دسّت أسماء من ذرى النجم أسمى

وكانت السيدة أروى بنت أحمد زوجة السلطان المكرّم لاتقل عنها فضلا ، وقد نشأت في حجر السيدة أسماء وعُيت بربيتها وأحضرت لها الدعاة كي يعلموها أصول الدعوة الإسماعيلية الفاطمية . وتوفّي زوجها سنة ٤٧٧ فأسند الفاطميون إليها الدعوة وتدير شؤون الدولة الصليحية ، فكان يُخطب لها على منابر اليمن . واستطاع جياش بن نجاح أن يسترد زبيد سنة ٤٧٨ وكان مما أعانته على ذلك نشوب نزاع شديد بين أسعد بن شهاب واليهما الصليحي ووزيره على بن القيم ، ويقال ان ابن القيم أحسن استقبال جياش حين دخل زبيد ، وتزوجت السيدة أروى بالداعي سبأ بن أحمد الصليحي وأشركته معها في الحكم وكان شاعرا جواداً ، وفيه يقول ابن القاسم من قصيدة ^(٤)

ولما مدحت الهبري ابن أحمد أجاز وكافاني على المدح بالمدح
فعوّضني شعرا بشعر وزادني عطاءً فهذا رأس مالى وذا ربحي

وتوفّي سبأ سنة ٤٩١ وظلت أزمة الأمور بيدها إلى أن توفيت سنة ٥٣٢ . وبوفاتها انتهت هذه الدولة الإسماعيلية ، وترغم الدعوة في اليمن بعدها آل زريع أصحاب عدن وكانوا يُجزّلون العطايا للشعراء حتى عدّوا عند بعض أمراءهم بالعشرات ، وأكبر

(١) الهمداني ص ١٠٣ والخلاف السلبي ٢ / ٣٢ . خطأ أسعد بن يحيى . انظر الهمداني ص ٦٧ .

(٢) الهمداني ص ٦٧ . (٤) ابن خلكان (طبع دار الثقافة بيروت) ٢ / ٣٣٧ .

(٣) تاريخ اليمن لعارة طبعة كاي ١٦ والشاعر يسمى فيه والهبري : الأسد .

شعرائهم غير منازع أبو بكر العنّدى . وله مدائح طنانة في الداعي الزريعى عمران بن محمد ابن سبأ من مثل قوله ^(١) :

ما إن تَحُطُّ يَدُ الْعَلَى أَوْصَافَهُ إِلَّا بِسْمَرِ الْخَطِّ لَا بِيَرَاعٍ ^(٢)
لو أن تُتَبَعَ كان أدرك عصره أضحى له من جُمْلَةِ الْأَتْبَاعِ
خضعت له غَلْبُ الْمُلُوكِ وإنما خضعت لَضَرَّارٍ لها نَفَّاعِ
وعنت لعالى القَدَرِ منه مؤيِّد ماضى الأوامر في الزمان مطاع
والمالُ مَقْتَسَمٌ مُشاعٌ عنده يَبْدُ الثَّدَى والمجدُّ غيرُ مشاعِ

وروى له العماد في الخريدة مدائح كثيرة مُعْجَباً بها ، وذكر أنه كان وزير الدولة الزريعية وصاحب ديوان الإنشاء بها ، وينقل عن عمارة اليمنى إشادة قوية ببيانه وبلاغته . ومع كثرة ما أنشده العماد من مدائحه للداعي الزريعى لانجد فيها إشارات للمذهب الإسماعيلى ، وبالمثل ما أنشده لشعراء الصليحيين ، والعماد في خريدته يتحاشى مثل هذه الإشارات إلا ما جاء عفوا على نحو ما يلاحظ في القسم الخاص بشعراء الدولة الفاطمية في مصر ، واتخذت موقفه أكثر كتب التراجم في عصره وبعد عصره ، وحرى بنا أن نقف عند ثلاثة من الشعراء الإسماعيليين اليمنيين في العصر ، وهم ابن القم ، والسلطان الخطاب ، وعمارة اليمنى .

ابن القم ^(٣)

هو أبو عبد الله الحسين بن على بن القم ، وُلد بزَيد ، وبها نشأ وتلقى معارفه ، واستيقظت موهبته الأدبية مبكرة على ما يظهر ، وكان أبوه على من أنصار على بن محمد الصليحي وشيعته ، فحين وُلَّى الأسعد بن شهاب على زَيد وتهامة بعد استيلائه عليهما سنة ٤٥٢ جعله وزيره . ويبدو أن الأب ألحق ابنه بدواوين على الصليحي في صنعاء منذ سنة ٤٥٨ على الأقل إذ نجده يهنئ المكرم ابنه بزواجه من السيدة أروى الملقبة بالملكة الحرّة في هذه السنة منشداً :

وَكَرِمْهُ الْحَسْبَيْنِ تَكْنَفُ قَصْرَهَا أَسَدٌ تَخَافُ الْأَسَدُ مِنْ صَوْلَاتِهَا
ظفرتُ يداك بها فَبَخَّ إِنَّمَا لك تَذْخُرُ الْعِلْيَاءُ مَصْنُونَاتِهَا

أشيع وكتاب «الصليحيون» للهمداني في صفحات مختلفة
(انظر الفهرس) والخلاف السليمانى ٤١/٢ . وراجع
أيضاً في ترجمته وشعره المفيد في أخبار صنعاء وزيد لعمارة
اليمنى تحقيق محمد بن على الأكوع .

(١) الخريدة (قسم الشام) ١٨٢/٣ .

(٢) سمر الخط : الرماح . اليراع : القلم .

(٣) انظر ترجمته وأشعاره في الخريدة (قسم الشام)

٣/٧٤ ومعجم الأدباء ١٠/١٣٢ وفوات الوفيات (نشر

مكتبة النهضة المصرية) ١/٢٧٨ ومعجم البلدان : مادة

ولما توفي على الصليحي رثاه على لسان أخته السيدة تحفة . وسرعان ما أخذ الشعراء يحرضون ابنه السلطان المكرم على الأخذ بثأره والانتقام من سعيد بن نجاح وأخيه وكانوا حُبشانا ودولتهم حبشية كما مر بنا . وانبرى الحسين بن علي بن القم يحثه هو وقومه على الانتقام لعل الصليحي بمثل قوله :

أَقْحَطَانُ هَزَى الْبَيْضَ وَاعْتَقَلَ السُّمْرَا وَرَدَّى الْعَوَالِي مِنْ دَمَاءِ الْعِدَا حُمْرَا ^(١)
وَلَا تُهْدِرِي ثَارَ الْمَظْفَرِ إِنَّهُ بَنَى لَكُمْ مَجْدًا وَشَادَ لَكُمْ فَخْرًا ^(٢)

وليس في المصادر التي بين أيدينا مدائح له في المكرم ، ولكن أثرت له بعض رسائل وجهها على لسانه إلى المستنصر الخليفة الفاطمي ، مما يدل بوضوح على أنه كان كاتب الإنشاء في عهده ، بينما كان أبوه وزير أسعد بن شهاب في زييد ، كما أسلفنا ، ويبدو أنه استقبل جِيَّاش بن نجاح استقبالا حسنا حين استولى على زييد ، وربما كان من أسباب استيلائه على زييد . وأكبر الظن أن الحسين لم يشارك أباه في خروجه على الصليحيين ، على كل حال شعره يدل على أنه ظل يخدم الملكة الحرة أرؤى وزوجها سبأ ، وله فيها قصيدة دالية بديعة يقول في تضاعيفها :

أَعْلَمْتُ أَنَّ مِنَ الرِّمَاحِ قُدُودًا وَمِنَ الصِّفَاحِ مَحَاجِرًا وَنُهُودًا
أَعْلَى الْأَنَامِ أَبَاً وَأَكْرَمُ طِينَةً وَأَتَمَّ أَعْرَاقًا وَأَصْلَبُ عُودًا
لَوْ كَانَ يُعْبَدُ لِلْجَلَالَةِ فِي الْوَرَى بَشَرٌ لَكَانَتْ ذَلِكَ الْمَعْبُودَا
هِيَ نِعْمَةُ اللَّهِ الَّتِي مَاؤُهَا تَمْدًا وَلَا مَعْرُوفُهَا مَجْهُودَا ^(٣)

والبيت الأول رائع في تصوير حزم هذه السيدة وقدرتها على تصريف شئون الحرب ، إنها ذات بأس وجلال وجمال ، ومن المؤكد أنه ظل على كتابة الإنشاء لها بعد وفاة السلطان المكرم ^(٤) وكذلك لزوجها سبأ بن أحمد حتى توفي سنة ٤٩١ إذ ينص القدماء على أنه كان يقيم معه في حصن أشيخ حتى وفاته ، وفيه يقول من مدحة بائية :

إِنْ ضَامَكَ الدَّهْرُ فَاسْتَعْصِمْ بِأَشِيخٍ أَوْ أَزْرَى بِكَ الْفَقْرُ فَاسْتَمْطِرْ بَنَانَ سَبَا
تَخَالُ صَارِمَهُ يَوْمَ الْوَعَى نَهْرًا تَضَرَّعَتْ حَافَتَاهُ مِنْ دَمٍ لَهَا
والصورة في البيت الثاني طريفة ، وكان يحسن اجتلاب الصور والمعاني ، مع جزالة الأسلوب ونصاعته ، وفي سبأ يقول من قصيدة ثانية :

(١) البيض : السيوف . السمر : الرماح . العوالي : قليلاً .
(٢) أسنة السيوف والرماح .
(٣) تَمْدًا : قليلاً .
(٤) في المفيد لعارة أنه (كان شاعراً ومرسلًا يكتب عن السيدة الحرة إلى الديار المصرية) .
(٥) المظفر : لقب على الصليحي .

كريمٌ إذا جادتْ فواضلُ كَفِّهِ تيقنَتْ أَنَّ البُحْلَ ما تَفْعَلُ السُّحْبُ
وما كنت أدري قبلَ قَطْعِ هباتِهِ إلىَّ الفياقِ أَنَّ اَنْعَمَهُ رَكْبُ

والصورتان طريفتان ، ويروى أنه سمع بيتا لابن سنان الخفاجي معاصره ابتكر معناه
كما يقول العباد- نقلا عن نجم الدين بن مَصال- وقد أحسن صياغة مغزاه ، وهو :

طويْتُ إليك الباخلين كَأَنِّي سَرَّيْتُ إلى شمس الضُّحَى في الغِيَاهِبِ

وهو بيت من قصيدة له في ناصر الدولة أبي علي بن ناصر الدولة بن حمدان ،
فأعجب به إعجابا شديدا وقال : والله لآخذن هذا البيت منه ، وما هي إلا أن مدح سبأ
ابن أحمد فقال فيه :

لفظْتُ ملوكَ الأرضِ حتَّى رأيتُهُ فكنتُ كمن شَقَّ الظلامَ إلى الصُّبْحِ

يقول العباد : « ولم يقصِّر في هذا المعنى لكنه لم يبلغ رتبة ابن سنان فيه » . وربما لم
تعجبه كلمة « لفظت » عند ابن القم وربما فضل شمس الضحى في بيت ابن سنان على
الصبح في بيت ابن القم ، ولكن هذا تشريح أكثر مما ينبغي ، ومن المؤكد أن بيت ابن
القم بديع . ولاحظ الدكتور شكرى فيصل في تعليقاته على أبياته في الخريدة أنه كان يتأثر
غير شاعر ، من ذلك أنه ردَّ قوله في جِيَّاش بن نِجَاح :

وما أنت إلا البدرُ أَظْلَمُ منْزَلِي وكلُّ مكانٍ نورُهُ فيه ساطعُ

إلى قول البحرى في مديح الفتح بن خاقان :

وبدرُ أضواءِ الأرضِ شَرْقاً ومغرباً وموضعُ رجلِي منه أسودٌ مظلمُ

والصلة بين البيتين واضحة ، ولكن ابن القم مع ذلك حاول أن يحدث تحويرا في
الصورة بحيث تُنسب إليه ، ويدل هذا البيت من قصيدة في عتاب جياش وقصائد أخرى
في عتابه على أنه حاول الاتصال - أو اتصل - به فعلا مما جعل سبأ بن أحمد يسخط
عليه ، وكأنما أنضم ذلك إلى صنيع أبيه الذي أسلفناه مما جعله يكتب إلى سبأ بن أحمد
معتذرا مستعطفا . ويرد الدكتور شكرى فيصل أيضاً أبياتا مختلفة له في مدحة ميمية إلى
المتنبى ، من ذلك قوله فيها :

كَأَنَّ مَوَاضِيهِ طُبِعْنَ مِنَ الشَّجَا فَهَنَّ مِنَ الأَعْدَاءِ بَيْنَ الغَلَاصِمِ

فقد ردّه إلى قول المتنبى في مديح على بن إبراهيم التنوخي :

وقد صُغَّتْ الأُسنة من هومٍ فما يَحْطُرْنَ إلا في الفؤادِ

وبيت المتنبي أروع إذ أين الشجاء والهموم من الغلاصم التي تصل بين الرأس والعنق .
بينما موضعها القلب والفؤاد . وردَّ قوله في نفس القصيدة يصف الإبل التي ركبوها إلى
المدوح :

قَصْدُنْ بَنَّا مَنْ لَوْ تَجَبَّنَ قَصْدُهُ سَرَتْ نَحُونَا جَدَّوَاهُ مَسْرَى الْعَامِّ
إلى قول أبي تمام :

كَالغَيْثِ إِنْ جَتَّهَ وَافَاكَ رَيْقُهُ وَإِنْ تَرَحَّلَتْ عَنْهُ لَجَّ فِي الطَّلَبِ
وأيضا بيت أبي تمام أكثر روعة . وقد ردَّ العباد قديما قوله في تصوير بأس البطل
المحارب الذي يبلغ من شجاعته أن يُشغف بسيفه شغفَ المحبين فيقبله ، ولا يزال يعانقه :
يَظُنْ هِنْدِيَّةً هِنْدًا فَيَلِثُمُهُ فَمَا يَزَالُ بَلِيلُ مُعْرِسِ الضَّرْبِ (١)

إلى قول أبي العلاء في تصويره البطولة :

يَقْبَلُ الرُّمَحَ حُبًّا لِلطَّعَانِ بِهِ كَأَنَّمَا هُوَ مَجْمُوعٌ مِنَ اللَّعَسِ (٢)

وبيت أبي العلاء أجمل وأكثر روعة وإبداعا وهو فرق ما بين كبار الشعراء وشاعر مثل
ابن القم : وبدون شك يُشكر ابن القم لمحاولته منافسة الشعراء السالفين البارعين ونفوذه
إلى صور إن لم تكن لها روعة صورهم فإنها جيدة وتدل على لون من المهارة . وله أشعار
مختلفة في الهجاء والثناء والغزل ، ونسب إليه ياقوت البيتين التالين في تحمل مشقات الحب
والمنازع بلذاته :

تَشَكَّى الْحَبِونَ الصَّبَابَةَ لَيْتَنِي تَحَمَلْتُ مَا يَلْقَوْنَ مِنْ بَيْنِهِمْ وَحْدِي
فَكَانَتْ لِنَفْسِي لَذَّةُ الْحَبِّ كُلُّهَا فَلَمْ يَدْرِهَا قَبْلِي مَحَبٌّ وَلَا بَعْدِي

ولا يعرف تاريخ مولده ولا تاريخ وفاته ، وزعم ياقوت أنه ولد سنة ٥٣٠ وتوفي سنة
٥٨١ وهو خطأ واضح ، فإنه من شعراء القرن الخامس الهجري لالقرن السادس ، وقد
أنشدنا له أشعارا نظمها في سنة ٤٥٨ وفيما تبعها من السنوات حتى وفاة سبأ بن أحمد
الصليحي سنة ٤٩١ ، وربما رجع إلى مسقط رأسه زييد بعد وفاة سبأ ، وقد حاول أن ينال
شيئا من صلات جياش حاكمها كما تدل على ذلك أشعاره في الخريدة . والجزء الأخير من
حياته أو قل نهايته أوبعبارة أدق تاريخ وفاته غير واضح ، وربما أدرك أوائل القرن
السادس .

(٢) اللعس : سمة في الشفة .

(١) هنديّة : سيفه . الضرب : عسل النحل .

السلطان الخطّاب^(١) :

هو الخطّاب بن الحسن بن أبي الحفاظ الحَجَّويزي الهَمْداني ، كان أبوه الحسن حاكما لوادى الجُرب ومدينته في إقليم الحبور ، وكان فيما يبدو من رجال الدولة الصليحية إذ يقال إن ابنه الخطّاب كان أخا في الرضاة للملكة الحرة أروى . وتوفى الحسن لأوائل القرن السادس وخلفه ابنه سليمان في حكم الجرب ، ودان له أخوه الخطّاب بالطاعة ، ثم لم يلبث النزاع أن دبَّ بين الأخوين ، ونشبت بينهما حروب انتهت في سنة ٥١٤ بغلبة الخطّاب على أخيه ، بفضل مساعدة الملكة أروى له . وظل الخطّاب يستدرج أخاه ، حتى أمّن جانبه وعاد إليه ، غير أنه قتله غيلة سنة ٥٣٠ ولم يمهل القدر طويلا ، فقد عاجلته المنية في سنة ٥٣٣ . وكان الأخوان شاعرين ، ولكل منهما ديوان ، وكان أحدهما سنيا وهو سليمان والثاني وهو الخطّاب فاطميا إسماعيليا ، بل لقد كان الساعد الأيمن لداعي اليمن الفاطمي في عصره الذَّويب بن إسماعيل ، وكان من مريديه وتلاميذه القريبين من نفسه ، فجعله نائبا له ومؤازرا ومعينا في نشر الدعوة الفاطمية الإسماعيلية باليمن . وقد أخذ عنه علومها مثل الفقه والتأويل والعقيدة أو كما يقولون علم الحقائق . وحدث أن قتل الأمر الخليفة الفاطمي في سنة ٥٢٤ وتولى بعده عبد المجيد ، أحد أبناء الأسرة ، الخلافة والإمامة وتلقب بالحافظ ، وأحدث ذلك انقساماً ، فإن من أسس الدعوة الفاطمية عند كثيرين أن يعقب الخليفة في إمامته وخلافته ابنه الأكبر ، وكانت زوجة الأمر حاملا ، فرأى بعض المتسبين إلى الدعوة أن خلافة الحافظ غير صحيحة وأن صاحبها هو الإمام المستور أبو القاسم الطيب بن الخليفة الأمر . وأعلنت الملكة الحرة أروى تمسكها بخلافة هذا الإمام المستور ، وبذلك انفصلت الدعوة الفاطمية في اليمن عن مركزها في مصر ، وانفصل معها داعيها الذَّويب ونائبه السلطان الخطّاب حاكم الجرب .

وقد نشر إسماعيل قربان حسين ديوان السلطان الخطّاب وألحقه بتعليقات تفسر إشاراتة للعقيدة الفاطمية ، ويكاد القسم الأول منه يكون قسما عقائديا خالصا ، وكل من يقرؤه ويقرأ التعليقات يحس بالصلة الوثيقة بين السلطان الخطّاب وابن هانئ شاعر المعز الفاطمي وأكبر من استظهروا العقيدة الفاطمية الإسماعيلية في أشعارهم لأوائل الحقبة الفاطمية بمصر . وستقف قليلا عند المبادئ الإسماعيلية في الديوان من خلال مديح السلطان

(١) انظر في ترجمة السلطان الخطّاب الحريدة (قسم إسماعيل قربان حسين لديوانه المطبوع بدار المعارف الشام) ٢٠٧/٣ وكتاب «الصليحيون» للهمداني ومقدمة بالقاهرة وما بها من مراجع إسماعيلية فاطمية .

الخطاب للآمر الخليفة الفاطمي ، من ذلك قوله في قصيدته الأولى التي يمدح بها الأمر :
يَا مَنْ أَسْمِيهِ بِالْأَلْفَاظِ مُعْتَرِفًا أَنَّ الْمَعَانِي فِيهَا عَنْهُ تَقْصِيرُ
وَمَا ظَهَرَتْ مِنَ النَّاسُوتِ أَنْتَ بِهِ تَجَلِّيًّا لِهْدَانَا فَهُوَ مُشْكُورُ
صَفْوٌ مِنَ الصَّفْوِ شَفَافٌ تَقْدَسُ أَنْ يَشُوبَ جَوْهَرَهُ الشِّفَافُ تَكْدِيرُ
وهو يصرح في الآيات بأن الأمر فوق الحدود المعروفة لعقول البشر ، ويقول إنه في
الظاهر ناسوت أي جسم ويشير إلى ما كان يردده دعاة الفاطميين من أن جسم الإمام ليس
جسما ماديا ، هو شبح يمكن فيه اللاهوت وهو الجانب النوراني . وفكرة
الناسوت واللاهوت مأخوذة عن عقيدة المسيحيين في المسيح . ويقول الخطاب عن الأمر
إنه صفو شفاف لا تشوبه الأكدار أي أنه نوراني خالص . ونمضي معه إلى القصيدة
الثالثة ، وهي أيضا في الأمر :

يَا مَنْ نَسَمِيهِ تَعْرِيفًا نَقَرُّهُ بِشَخْصِهِ فِي نَفُوسِ الْقَوْمِ تَقْرِيرًا
وَلَوْ نَشَاءُ لَقَلْنَا فِي الدَّاءِ لَهُ بِالصِّدْقِ يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ مَشْهُورًا
يَا عَالِمَ الْغَيْبِ مِنَّا وَالشَّهَادَةِ يَا بَارِي الْبَرِّيَّةِ تَرْكِيبًا وَتَصْوِيرًا
شَهِدْتُ أَنْكَ فَرْدٌ وَاحِدٌ صَمَدٌ شَهَادَةٌ لَمْ تَكُنْ مِثْنًا وَلَا زُورًا

والخطاب يشير في الآيات إلى مازعمه الفاطميون ودعاتهم من أن الله لا يجوز أن يسمى
باسم لأنه أسمى من كل اسم ، ومن ثَمَّ يُصَفُّونَ أسماءه الحسنى في القرآن الكريم على أتمتهم ،
غلوا مذهبهم ، زاعمين أنهم ربانيون لهم ألقاب الله وصفاته ، على نحو ما نرى الآن عند
الخطاب ، إذ لا يجد بأسا من أن ينادى على الأمر بأنه الحي القيوم وأنه الفرد الواحد
الصمد ، كبرت كلمات تخرج من فمه وفم أضرابه من دعاة الفاطميين المارقين ، ويزعم أنه
عالم الغيب والشهادة ، ويمضي في هذا الغلو الشنيع قائلاً للأمر :

أَنْتَ الَّذِي كُلُّ شَيْءٍ نَحْنُ نَعْلَمُهُ فَإِنْ سَوَى وَجْهِهِ عَكْسًا وَتَغْيِيرًا
أَنْتَ الَّذِي قَطَرَ الْأَشْيَاءَ قَاطِبَةً خَلَقًا وَأَمْرًا وَإِمَارًا وَمَأْمُورًا
أَنْتَ الَّذِي سَمَكَ السَّبْعَ الشَّدَادَ عَلَى عِلْمٍ أَدَارَ بِهَا الْأَفْلاكَ تَدْوِيرًا
أَنْتَ الَّذِي سَطَحَ الْأَرْضَ الْمِهَادَ لَنَا فَرَشًا وَقَدَّرَ فِيهَا الرِّزْقَ تَقْدِيرًا

وهو يزعم أن الأمر سرمدى الحياة ، لا يلحقه فناء ، وكأنه إلهي الذات ، ويشير في
البيت الثاني إلى وصف القرآن للذات العلية في مثل قوله : (فاطر السموات والأرض)
وقوله : (أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ) . ويجعله في البيت الثالث رافع السموات السبع ومدبر الأفلاك
فيها . والبيت الرابع مأخوذ من مثل قوله تعالى : (وَالْأَرْضُ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ)

وقوله : (قُلْ إِنْ رَبِّي يَسُدُّ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ) . ويقول أيضا في مديح الأمر :
يا عِلَّةَ لوجود الشيء من عَدَمٍ وكاشفًا عنه بالأنوار للظلم
وعالمًا بخفَيَّاتِ الأمور غَدًا للناس أشهر من نارٍ على علم
شهدتُ أنك فردٌ واحدٌ نطقتُ بفضله سُورُ القرآن عن أَمَمٍ
وجَّهتُ وجهي في سِرِّي وفي علني إليك إذ أنتَ مَعْنَى الْبَيْتِ وَالْحَرَمِ

وهكذا يردد الخطاب ما كان يزعمه دعاة الفاطميين من أن الإمام يمثل العقل الأول الفعال وأن قدرة الله تحلُّ فيه ، بحيث يصبح العقل الكلي وجوهر الملكوت وعنه تصدر جميع المخلوقات ، فهو العلة الأولى ، علة لوجود كل ماسواه . ويزعم الخطاب أنه : (يعلم السر وأخفى) وأن آيات القرآن الكريم نطقت بفضله من أَمَمٍ أى قريب ، يشير إلى مثل قوله تعالى : (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجسَ أهلَ البيتِ ويطهركم تطهيرا) . وكلمة « البيت والحرم » مصطلحان إسماعيليان ، أما البيت فيريد به الإمام وأنه بيت معرفة الله ومستقر التوحيد وحقيقته . وأما الحرم فهو حمى الإمام وعقيدته الفاطمية . وللخطاب رثاء في الملكة الحرة أروى حين توفيت سنة ٥٣٢ يصدر فيه عن عقيدته الفاطمية منشدا مثل قوله :

أمولاتنا يا مَنْ بياهرِ نورها تَجَلَّيْنَ عن أبصارنا الظلماتُ
ويا حُجَّةَ المؤكِّى التي ببيانها هَدَى الله مَنْ حَيَّرَهُ الشُّبُهَاتُ
أُجِّلِكَ عن موتٍ بروحكِ نازلٍ وأنتِ لأرواحِ الأنام حَيَاةُ

وهو يصفها في البيت الثاني بأنها حُجَّةُ الإمام ، والحجة في الدعوة الفاطمية الإسماعيلية مرتبة تلي مرتبة داعي الدعوة في المركز الأم مصر ، وصاحبها يتولى الدعوة في إقليمه والنيابة عن الإمام . وكانت الملكة الحرة حجة المستنصر والأمر في اليمن وزعيمة الدعوة الفاطمية فيها . ويزعم الخطاب في البيت الأخير أنها لم تمت ، وكأن حياتها سرمدية كحياة الأئمة ، وكل ما قدمنا غلو ومروق واضح . ووراء هذا القسم من الديوان قسم ثان يتصل بأحداث حياة الخطاب وحروبه وصلاته بأمراء الدول من حوله ، وفيه كثير من المديح والهجاء والفخر ، وأجود مدائحها فيه ما قدمه للملكة الحرة أروى . وجعله تعمقه في العقيدة الفاطمية الإسماعيلية يكتب رسائل مختلفة في بعض قضاياها وأصولها ومبادئها الكلية ، وعرض إسماعيل قربان حسين لطائفة منها بالتحليل والتعريف .

عمارة اليمن^(١)

هو أبو حمزة عمارة بن أبي الحسن اليمني ، من أهل الجبال في تهامة . من قرية يقال لها مَرطَان في وادي وساع ، وهو قحطاني مَذْحِجِي من سلالة الحكم بن سعد العشيرة . ولد في سنة ٥١٥ في أسرة تهتم بالعلم والثقافة ، ولم تكد توافي سنة ٥٣١ حتى أرسله أبوه إلى زبيد فثقف فيها الفقه الشافعي ، وقُرئ عليه مدة ، وله في الفرائض مصنف مشهور في اليمن . واتصل بآل نجاح حكام زبيد ووزرائهم ، كما اتصل بآل زُرَيْع حكام عدن وبعلي بن مهدي الذي خلف آل نجاح على زبيد ، وكان الأولون سُنَيْن والثانيون إسماعيليين والثالث كان خارجيا . حتى إذا كانت سنة ٥٤٩ توجه إلى حج بيت الله الحرام ، وتعرف إلى أمير مكة قاسم بن هاشم بن فُلَيْتة الزيدى ، وكلفه بحمل رسالة إلى الخليفة الفاتر الفاطمي ، فقدم القاهرة سنة ٥٥٠ واستقبله طلائع بن رُزَيْك وزير الفاتر في قاعة الذهب بقصر الخلافة ، وأنشده عمارة ميمية طويلة يقول في تضاعيفها :

قد رُحْتُ من كَعْبَةِ البَطْحَاءِ والحَرَمِ وَفَدَاً إلى كَعْبَةِ المعروف والكرمِ
فهل دَرَى البيت أنى بعد فُرْقَتِهِ ماسِرْتُ من حَرَمٍ إلا إلى حَرَمِ
ولم يكد يفرغ من إنشاد القصيدة حتى أُفِيضَتْ عليه الخلع ، وأغْدَق عليه طلائع خمسمائة دينار . وصنعت مثله سيدة القصر بنت الخليفة الحافظ . وتهاداه أمراء الدولة وموظفوها الكبار . وقفل راجعا إلى مكة ، فإلى زبيد . وعاد إلى الحج سنة ٥٥١ فكلفه أمير مكة برسالة ثانية إلى الخليفة بمصر ، فقدم إليها واستوطنها حتى آخر حياته . وبالع طلائع وبنوه في إكرامه ، وله فيهم مدائح كثيرة . وقُتِل طلائع بعد قدومه الثاني بأربع سنوات سنة ٥٥٦ . وحظى بعده بجوائز الوزيرين شاور وضرغام ، وله في شاور وطلائع مراث بدعية ، وكان قريبا من نفس الكامل بن شاور قبل وزارة أبيه ، فلما وزر أعرض عنه ، فعاتبه عتابا رقيقا . ومازالت العطايا تُسَبَّغ عليه ، حتى إذا ملك مصر السلطان صلاح الدين مدحه ومدح جماعة من بيته ، وخاصة توران شاه الأيوبي ، وله ميمية حرَّضه فيها على أخذ اليمن أولها :

(١) انظر في عمارة وترجمته وأشعاره الخريدة (قسم الشام) ١٠١/٣ وابن خلكان ٤٣١/٣ والروضتين ٥٧٢/٢/١ ومفرج الكرب ٢١٢/١ ، ٢٣٨ والسلوك للمقريزي ٥٣/١/١ والنجوم الزاهرة ٧٠/٦ والسلوك في طبقات العلماء والملوك للجندي وتاريخ نغر عدن لباعزيمة والشذرات ٢٣٤/٤ وتاريخ ابن الأثير ٣٩٨/١١ وصبح الأعشى ٥٢٦/٣ والانتصار لواسطة عقد الأمصار لابن دقاق ص ٩٤ وكتابه النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية ، وذيل النكت وبه ديوانه .

العَلَمُ مذ كان محتاجٌ إلى العَلَمِ وَشَفَرَةُ السيفِ تَسْتَغْنِي عن القَلَمِ

ويقول ابن خلكان إنه كان فقيها شافعيًا شديد التعصب للسنة ، ويبدو أن ذلك إنما يصدق على أوائل حياته حين كان يدرس مذهب الشافعي في زييد . أما بعد ذلك فإننا نراه يتصل بال زُرَيْعَ الإسماعيليين وبأمر مكة الزيدي . ولعل السبب في أن ابن خلكان أطلق كلامه عليه وعممه أنه وجده في كتابه « النكت العصرية » يتبرأ من التشيع ويذكر أن طلائع بن رزّيك عرض عليه أن يدخل في العقيدة الإسماعيلية ، فأجابه بأن يمين عليه بسدّ هذا الباب . ولكن كتاب النكت - فيما يبدو - أُلّف في عصر الأيوبيين ، فكان طبعيا أن يُخفى إسماعيليته أو تشيعه ، وأن يعلن براءته في تصانيفه وقصائده من التشيع وآله . ونراه في قصيدة له كتب بها إلى صلاح الدين سماها « شكايّة المتظلم ونكايّة المتألم » يصف كثرة ما كان يصله من عطايا الفاتر والعاضد ووزرائهما بمثل قوله :

مذاهبهم في الجود مذهبُ سَنَّةٍ وإن خالفوني في اعتقاد التشيعِ

وهذا وأمثاله كان - في رأينا - سبب ضلال ابن خلكان في الحكم عليه ، فإن من يرجع إلى ديوانه ومدائح في الخليفة الفاطمي العاضد وطلائع وزيره وابنه العادل لا يشك في أنه اعتنق المذهب الفاطمي الإسماعيلي ، من ذلك قوله من قصيدة في مديح العاضد وطلائع :

لا يبلغ البلاء وَصَفَ مناقِبِ أَثْنَى على إحسانها التَّزْيِيلُ
شِيمٌ لكم غُرُّ أُنَى بمدحها الـ فَرْقُبَانِ وَالتَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ
سِيرٌ نَسَخْنَاهَا مِنَ السُّورِ الَّتِي مَا شَانَهَا نَسَخَ وَلَا تَبْدِيلُ

وهو يشير إلى مجاء في الذكر الحكيم من مثل قوله تعالى : (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرّجسَ أهل البيت ويطهركم تطهيرا) ويمد ذلك إلى التوراة والإنجيل وما جاء فيهما من ذكر الرسول على لسان موسى وعيسى ، وكأن ذكره يتضمن ذكر ذريته ، وقد جاء في سورة الصفّ على لسان عيسى : (ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد) وهذه الفكرة التي تصل بين الرسول والأئمة الفاطميين في التوراة والإنجيل كان يرددها شعراؤهم من مثل قول السلطان الخطّاب في الخليفة الأمر :

هو الذي كَتَبَ التَّوْرَةَ عَنْهُ وفي الإنجيل ما ضُمِّنَتْ فيه المزاميرُ
ودائماً يقرّ عماره حق العاضد الثابت بالمعقول والمنقول كما يقول في نفس اللامية

السالفة ، ونراه يقول في دالية مدح بها العاضد ووزيره العادل بن طلائع بن رزّيك :

أغْنَى عن التَّقْلِيدِ نَصُّ إِمَامِيَةِ وَالنَّصُّ يَبْطُلُ عنده التَّقْلِيدُ

لا شيء من حلٍّ وعَقْدٍ في الْوَرَى إلا إلى تدبيره مردودٌ
ملكٌ أغاثَ المسلمين وحاطَهُمْ منه وجودٌ في الزمان وجودٌ

وهو يردّد ما يزعمه الشيعة من أن الإمامة في الأمة إنما تورث بالنص عن الإمام السابق ، فهي ليست مفوضة للأمة ، بل هي من حق الأئمة وحدهم يتوارثونها خالفا عن سالف . ويشير عمارة في البيت الثاني إلى نظرية العقل الفعال التي يمثّلها الإمام والتي تجعله - كما مر بنا عند السلطان الخطاب - يدبّر الكون وشئون الورى وكل ما يتصل بها من حلٍّ وعَقْد . أما البيت الثالث فيصور فيه فكرة الفَيْض الأفلاطوني المعروفة عند الإسماعيليين والتي تجعل الأئمة مائلين في كل وجود إنساني . ويقول في مديح العاضد من قصيدة طويلة :

كم آيَةٍ رُوِيَتْ لكم أسرارُها آلَ الوَصِيِّ وللورى إعلانُها
فكأنما تأويلُكم أرواحُها وكأنما تفسيرُكم أبدانُها
وكانَّ عِلْمَ الكائنات وديعةً مخزونةً وصدوركم خزانُها

وهو هنا يردّد ما يؤمن به الشيعة الإسماعيلية الفاطميون من أن للقرآن الكريم وآياته ظاهرا وباطنا ، والباطن لا يعلمه إلا الأئمة ، فهم الذين يعلمون أسرار الآيات القرآنية وحدهم دون غيرهم ، وهم الذين يعلمون تفسيرها وتأويلها علما حقيقيا . وليس ذلك فحسب ، بل هم يعلمون كل علم ، وما صدورهم إلا خزانات لهذا العلم : علم الحاضر وعلم الغيب . وكل هذه شواهد بيّنة على أن عمارة تحول في مصر فاطميا إسماعيليا . وكان حزنه لا يُحَد ولا يوصف حين دالت دولة الفاطميين ، وبثّ هذا الحزن الغاضب غضبا عنيفا في لامية له مشهورة استهلّها بقوله :

رَمِيَتْ - يا دهر - كفَّ المجدِ بالشللٍ وجيده بعد حُسْنِ الحَلَى بالعَطَلِ
هَدَمَتْ قاعدةَ المعروف عن عَجَلٍ سَقَيْتَ مُهْلًا أما تَمْشِي على مَهَلٍ
يا عاذِلُ في هوى أبناءِ فاطمةٍ لك الملامةُ إنْ قَصُرَتْ في عَدَلِ

وهو في هذا الاستهلال ملتحاق لوعة شديدة على زوال الدولة الفاطمية ، وإنه ليسبّ الدهر الذي أطاح بها ويدعو عليه أن يُسَقَى المُهْل شراب أهل الجحيم . ويدعو عُدَّالَه على حب الأئمة الفاطميين أن يظلوا في عذلم ولومهم وكأنه يجد فيه شفاء لغليل نفسه . وبمضى فیدعو رفيقه أن يبكي معه على ساحة القصرين لا على ساحات معارك صفين وواقعة الجمل ، وكان النكبة هنا أكثر أسى وفجیعة ، ويقول إن الجرح الذي أصاب فؤاده بزوال الدولة الفاطمية لا يتندمل ، وما يلبث أن يقول عجا يتزل كل هذا بالفاطميين لا من الصليبيين ولكن من إخوان لهم في الدين ، ويقول :

لربما عادت الدنيا لمعقلها منكم وأضحت بكم محولة العُقل^(١) والله لا فاز يوم الحشر مبغضكم ولا نجا من عذاب النار غير ولى وهو فى البيت الأول يعلن الثورة صريحة على صلاح الدين زاعما أنه ربما عادت الدنيا لمعقلها ، وكأنما غاب عن صوابه ورشده أن أداة الحكم فى هذا المعقل كانت قد فسدت فساداً لا حد له ، وبلغ من فسادها أن استلب الصليبيون فلسطين من مصر وأغاروا على القاهرة . وأراد الله لمصر بل للعرب أن تُردّ القوس إلى بارئها ، وأن يبدأ صلاح الدين حكمه بالقضاء على هذا المعقل الفاطمى إلى الأبد . وكأنما أصابت العقيدة بصَر عمارة بغشاوة ، فلم ير الحقيقة ، وقد مضى يتوعد مبغض الفاطميين بالنار وسوء المصير ، وتمادى فى هذا الغي والضلال ملوحاً بيده فى وجه صلاح الدين زاعماً أن الأئمة الفاطميين باب النجاة وأن حبه أصل الدين ، يقول :

أئمة خلّقوا نورا فنورهم من نور خالص نور الله لم يقل^(٢)
والله لأزلت عن حبي لهم أبدا ما أخر الله لى فى مدّة الأجل

فالأئمة الفاطميون نور خالص ، نور شفاف ، وهو فيض من نور الله ، لا تشوبه أى مادة ، وهو غلو واضح فى تصور الأئمة كان يردده شعراؤهم . وكُتب لعامة أن يظل يردده حتى بعد زوال دولتهم ، بل إنه ليعلن أنه سيظل على حبه حتى الأنفاس الأخيرة من حياته . وكأنه كان يظن أن دولتهم ستعود إذ تسوّل له نفسه أن يشترك مع ثمانية من أعوان الفاطميين ، فى مؤامرة كبيرة ضد صلاح الدين وكتبوا الفرنج الصليبيين طالبين منهم مددا ، وعُرفت نيّتهم ومؤامرتهم ، فأحيط بهم ، وأُعدموا فى يوم السبت ثانى شهر رمضان سنة ٥٦٩ بالقاهرة . وكان لابد لعامة أن ينتهى هذه النهاية المفجعة بعد أن كاد لدولة صلاح الدين بلسانه وهم أن يكيد بيده ، وكأنما غطّى القدر - كما يقول العباد - على بصره . وقد طُبعت له مصنفات مختلفة ، منها أخبار اليمن نشركاى ، ومنها مختصر المفيد فى أخبار صنعاء وزيد ، ومنها النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية .

٢

شعراء الدعوة الزيدية

تحدثنا فى الفصل الأول عن النحلة الزيدية وأنها كانت أكثر نحل الشيعة اعتدالا ،

(٢) يقل : بأقل : يرغب .

(١) العقل : جمع عقال .

وهي تُنسبُ إلى زيد بن علي زين العابدين بن الحسين الذي ثار على الأمويين بالكوفة سنة ١٢١ وانتهت ثورته بالقضاء عليه ، غير أن دعوته ظلت قائمة بعده ، ومر بنا أن كل العلويين الذين ثاروا على العباسيين في القرنين الثاني والثالث للهجرة كانوا زيديين ، إذ لا نعرف نحلتهم التستر والتخفي للإمام في الدعوة ، وهي لا تشارك نحلتي الإسماعيلية والإمامية في العلم الباطني ، ولا تتغلغل في فكرة العقل الفعال التي مرت بنا عند الإسماعيلية والتي تعطي الإمام صفات الله وأسماءه الحسنى والتي تسند إليه تدبير الكون وأن الوجود بل كل موجود إنما هو فيض منه . وهي لا تأخذ بفكرة النص على الإمام وأن الإمامة تنتقل من الأب إلى الابن عن طريق الوراثة ، بل يكفي أن يكون الإمام الكفاء الداعي لنفسه من أبناء السيدة فاطمة الزهراء وأن يكون عادلا عالما بالشرعية ورعا شجاعا جوادا ، وتجوز هذه النحلة إمامة المفصول مع وجود الأفضل ، وبذلك صححت خلافة أبي بكر وعمر مع وجود علي ، ولم تجوز القدح فيها كما تصنع الإسماعيلية والشيعة الغالية . وارتبطت نحلة الزيدية ارتباطا وثيقا بمدرسة المعتزلة ومبادئها إذ كان إمامها زيد تلميذاً لواصل بن عطاء ، وقوى هذا الارتباط مع الزمن . وإذا كانت ثورات الزيديين في الحجاز والعراق وإيران أخفقت في القرن الثاني للهجرة فإنها نجحت في المغرب على نحو ما هو معروف عن دولة الأدارسة التي أسسها إدريس بن عبد الله الحسني بفاس في عهد الرشيد ، وظلت نحو مائة وأربعين عاما . ونجحت كذلك في طبرستان في النصف الثاني من القرن الثالث للهجرة ، فقامت هناك دولة زيدية ظلت نحو سبعين عاما . واستطاعت أسرة بني سليمان أو بني موسى الرسيين أن يقيموا دولة لهم في مكة منذ سنة ٣٥٦ على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع ، وظلت فيهم حتى اضطرتهم الهواشم من أسرهم أن يغادروا مكة إلى المخلاف السليماني ، وهناك ظل هذا الفرع يدعو للنحلة الزيدية حتى ذاب في دولة الرسوليين ، وقد أسلفنا أن محمد بن جعفر الحسني عاد إلى مكة وأعاد الإمارة إلى أسرته الحسنية .

وقامت في صعدة باليمن دولة زيدية أقدم من الدولتين السالفتين ، إذ أسسها هناك الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم في سنة ٢٨٤ واستطاعت هذه الدولة أن تستولى على صنعاء في حقب كثيرة ، حتى إذا كان القرن العاشر الهجري انضوى اليمن جميعه تحت لوائها ، وإذن كانت للزيدية في الجزيرة العربية لهذا العصر ثلاثة مراكز ، هي مكة والمخلاف السليماني وصعدة وكان المركز الأخير كثيرا ما يتسع ، وشمل بأخرة ديار اليمن جميعها . وعنى الأمراء والأئمة في كل مركز من هذه المراكز بالشعر وأصحابه ، لأنهم أقلام

الدعاية للدولة ، وكثير من الأئمة كانوا شعراء فكان طبيعياً أن يعنوا بالشعر والشعراء . وأول من يلقانا من أئمة مكة الشعراء الأمير أبو الفتوح وقد أنشدنا له أبياتاً طريفة في غير هذا الموضع ، وكان عيسى بن فليّنة أمير مكة المتوفى سنة ٥٧٠ يجزل العطايا لشعرائه وفي مقدمتهم قائده النوبى الأصل سالم بن أبى سليمان ، وفيه يقول من مدحة طويلة ^(١) :

هو نورُ ربِّ العرش بين عبادِهِ فليعلموا والحجّةُ البيضاءُ
للهُ يأمرُ باطنا أو ظاهراً فتصرّفُ الأقدار كيف يشاءُ
يوماه يومٌ للتّوال وآخرٌ تُردى بسطوة بأسهِ الأعداءُ
إنّ الشّاء عليك من ربِّ السّما أغناكَ عما قالت الشعراءُ

وهو يغلو في مديحه لهذا الإمام الزيدى ، وكأننا نقرأ عنده ما نقرؤه عند السلطان الخطاب من الغلو في مديح الأمر الخليفة الفاطمى ، فإمامه نور خالص هو نفس نور الله ، وهو الحجة القائم على رعيته ، وتجرى الأقدار بما يشاء وكيف يشاء ، أما ثناء الله عليه فيريد به ثناء على أهل البيت فى القرآن الكريم وأنه أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً . ومن أئمة مكة الحسن بن على بن قتادة المتوفى سنة ٦٥١ وكان شاعراً ، ومن قوله ^(٢) :

وأذنتُ حين تجلّى الصّباحُ بحجّى على خير هذا العملُ

وكان الزيدية فى الجزيرة بمكة وفى اليمن والمخلاف السليمانى ينادون فى الأذان : بحجّى على خير العمل . ويمتلى كتاب العقد الثمين بمدائح أمراء مكة ، ويكفى أن نستشهد ببعض الأمثلة ، فمن ذلك قول موفق الدين على بن محمد الحنّيدى فى حُمَيْضة أمير مكة المتوفى سنة ٧٢٠ للهجرة ^(٣) :

خليفةٌ لا يُخلف الوعدَ ولا يَصْنُ عن سائله بما اقتنى
إمام حقٍّ جدّ فى الله فما فى الله مُدٌّ جدّ وهى ولا وئى
أخاف فى الله تعالى منْ بَغَى وأمن الخائف حتى أمينا
هو ابنُ منْ أسرى به الله ومنْ منْ قاب قوسين تدلّى ودنا

وليس فى مديحه غلو ، بل هو مديح لإمام زيدى بالكرم والتقوى والعدل ورفع البغى والظلم ونشر الأمن ، ويشير فى البيت الأخير إلى الإسراء بالرسول ومعراجه إلى السموات وما جاء فى سورة النجم : (ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى) . وللحنّيدى فى مديح

(١) الخزينة (قسم الشام) ٤٦/٣ .

(٢) العقد الثمين ٤/٢٤٨ .

(٣) العقد الثمين ٤/١٦٢ .

أخيه رُمَيْثَةُ أمير مكة المتوفى سنة ٧٤٦ للهجرة^(١) :

نَسَبُ كَمَشْتَقُ الشَّمْسِ وَمَفْخَرُ بَاغُ الْكَوَاكِبِ قَاصِرٌ عَنْ طَوْلِهِ
أَمَّا الْفُرُوعُ فَلَيْسَ مِثْلُ فُرُوعِهِ وَكَذَا الْأَصُولُ فَلَيْسَ مِثْلُ أَصُولِهِ
يَابْنَ الْمَظَلَّلِ بِالْغَمَامَةِ وَالَّذِي قَدْ أُنْزِلَ الْقُرْآنُ فِي تَفْضِيلِهِ
مَاذَا عَسَى مَدْحِي وَقَدْ نَزَلَ الثَّنَا فَيَكُمُ مِنَ الرَّحْمَنِ فِي تَنْزِيلِهِ

ووراء الحنديدي كثيرون من الشعراء كانوا يمدحون أمراء مكة الزيديين لا في زمنه فحسب ، بل في جميع الأزمنة ، وفي سلافة العصر لابن معصوم ونفحة الرحانة للمحبي طائفة كبيرة من مدائح الشعراء لهؤلاء الأمراء في القرن العاشر الهجري ، من ذلك قول عبد الرحمن بن وجيه الدين المتوفى سنة ١٠٣٧ للهجرة في حسن بن أبي تَمَى أمير مكة من مدحة طويلة ، عارض بها رائية ابن هانئ المشهورة^(٢) :

مَلِكٌ إِذَا مَا جَالَ يَوْمَ كَرِيمَةٍ لَمْ تَلَقَ غَيْرَ مُجَلَّلٍ وَمُعَرَّرٍ
مَلِكٌ نَدَاهُ الْبَحْرُ إِلَّا أَنَّهُ عَذَبُ أَهْذَا الْبَحْرِ نَهْرُ الْكُوَيْرِ
ذُو الْهَمَةِ الْعَلْيَا الَّذِي قَدْ نَالَ مَا عَنْهُ تَقَصَّرَ هَمَّةُ الْإِسْكَندَرِ
أَعْظَمَ بِهَا مِنْ نِسْبَةِ نَبَوِيَّةٍ عَلَوِيَّةٍ تَنْمِي لِأَصْلٍ أَطْهَرَ

وكثيرون من أمراء المخلاف السلياني وأشرافه كانوا شعراء مثل ابن وهَّاس ودَهْمَش وهما شاعران مجيدان ، ومن أمرائهم الممدحين غانم بن يحيى بن حمزة السلياني المتوفى سنة ٥٦٠ ويروى أن ابن مكرمان مدحه بقصيدة لامية أعطاها عليها ألف دينار ، وفيها يقول^(٣) :

عَلَوِيٌّ مَتَوَجَّعٌ هَاشِمِيٌّ حَسَنِيٌّ نَوَالُهُ مَبْذُولُ
يَا سَلِيلَ الْبَطِينِ وَالْحَرَّةِ الزَّهْدِ رَا هِيَ الطُّهْرُ وَالْحَصَانُ الْبَتُولُ^(٤)
خَمْسَةٌ خَصَّصَهُمُ بِتَخْصِيصِهِ الْخَا لِقُ رَبِّي وَهُوَ اللَّطِيفُ الْجَلِيلُ
مَا لَهُمْ سَادِسٌ غَدَاةَ الَّذِي مَدَّ يَدَهُ عَلَيْهِمْ كَسَاءَهُ جَبْرِيلُ

وهو يشير في البيتين الثالث والرابع إلى ما تذكره الشيعة من أن الرسول ﷺ أُلْقِيَ عَلَيْهِ وَعَلَى عَلِيٍّ وفاطمة الزهراء والحسن والحسين كساء وقال : نحن أهل البيت إيماء إلى قوله تعالى : (إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) . ومعروف

(٣) الخريدة (قسم الشام) ٣ / ٢٦٢ وما بعدها .

(٤) الحصان البتول : العفيفة الطاهرة .

(١) العقد الثمين ٤ / ٤١٩ .

(٢) سلافة العصر ص ٧٩ .

أن الخلاف السلياني أصبح جزءاً من أرض الدولة الرسولية غير أنه اشتمل على إقطاعات كثيرة للسليانيين ، وكانوا يصلون الشعراء ، ويقدمون لهم مدائحهم ، على نحو ما نجد عند ابن هيثم في مديحه للأمير قاسم بن علي صاحب صبيّا ، وله فيه مدائح كثيرة من مثل قوله ^(١) :

حسنى للسائلين وللمح
روم فيا حوت يداه نصيب
ساحة لا يزال فيها رئيس
مستجير وسائل لا يخيب
عز في ظل رحلك القاسمي
ن ومنهم قبائل وشعوب
وسنان القناة لولاه في ط
حى العوالى لم ينفع الأنبوب ^(٢)

والمركز الثالث للزيدية في الجزيرة أهم مراكزهم ، وكانت صعدة نقطة الدائرة فيه ، فمنها انبعثت النحلة ، وظلت فيها ثابتة وظل شأنها يتسع ، حتى انضوت اليمن جميعها منذ القرن العاشر الهجري تحت رايها . ومؤسس هذه الإمامة الزيدية - كما أسلفنا - يحيى بن الحسين بن القاسم ، وله مصنفات مختلفة في الفقه والعقيدة والتفسير ، ويقول فيه ابن حزم : « له رأى في الفقه وقد رأيته ، ولم يبعد فيه عن الجماعة » وكان شاعراً ، وله وصية شعرية ذكرها في كتابه الأحكام عند ذكر الجهاد ، ومن شعره ^(٣) :

بنى حسن إني نهضت بثاركم
وثار كتاب الله والحق والسُنن
وصيرت نفسى للحوادث غرضة
وغبت عن الإخوان والأهل والوطن
ويتوالى أبنائه على صعدة من بعده ، حتى يقدم أبو الفتح الديلمي الحسنى في القرن

الخامس فينتزعها منهم ، وينسحبون إلى جبل قطابة ، وتتوالى أمتهم هناك ، ثم يعودون إلى حاضرتهم صعدة . ومن أهم أمتهم وأشهرهم في القرن السادس المتوكل على الله أحمد بن سليمان (٥٣٢ - ٥٦٦ هـ) وكان شاعراً مجيداً وله مكاتبات ومحاورات مع نشوان بن سعيد الحميري الذي مرت بنا ترجمته بين شعراء الفخر والهجاء ، ومما كتبه إليه قصيدة مطلعها ^(٤) :

دعيني أظنى عبرتى ما بدا ليا
وأبكي ذنوبى اليوم إن كنت باكياً
واستطرد فيها يتحدث عن الملوك ومآثرهم ومصيرهم ، ولم يكذب يقرؤها نشوان بن سعيد حتى ردّ عليه بقصيدة وعظيمة مماثلة مطلعها :

ذكرت دياراً دارسات خواليا
رُسوماً عفت عن أهلها ومغانيا

(٣) صح الأعشى ٤٧/٥ .

(١) ديوان ابن هيثم ص ٣٥ .

(٢) العوالى : جمع عالية وهى النصف الذى يلى السنان (٤) انظر فى هذا البيت والبيتين التالين الجراق

ص ١١٥ .

من القناة . الأنبوب ما بين الكعابين من القناة .

وهى قصيدة تاريخية طريفة لما ذكر فيها من الملوك الماضية والقرون الخالية ، ومما كتبه إلى المتوكل قوله فى أبيات :

وأنت تصلح للرايات تَعَقِّدُهَا وفى الموابك تُحْيِي الدِّينَ والسُّنَنَا
ومن الأئمة الذين عاصروا دولة بنى أيوب فى اليمن المنصور بالله عبد الله بن حمزة . أما فى عهد الرسولين فأشهر الأئمة الذين عاصروهم الإمام المهدي أحمد بن الحسين المكنى بأبى طير (٦٤٦ - ٦٥٦) وله حروب كثيرة مع المظفر الرسولى ، انتهت بمقتله فى معركة الحُصَبَات . وكان أحمد بن الحسين جوادا ، مدحه كثير من الشعراء ، وفى مقدمتهم ابن هُتَيْمَل ، ويقال إنه أجازه على إحدى قصائده خمسين فرسا ، وقد عرضنا فى ترجمته طرفا من مدائحه الرائعة فيه ، ومن أشهر الأئمة الزيدية فى عهد أسرة آل طاهر الإمام المتوكل على الله شرف الدين (٩١٢ - ٩٦٥ هـ) ، وهو ممدوح موسى بن يحيى بهران ، وسنترجم له . أما أئمتهم فى عهد الاحتلال العثماني الأول (٩٤٥ - ١٠٤٥ هـ) فأشهرهم المؤيد بالله محمد بن القاسم (١٠٢٩ - ١٠٥٤) وهو الذى قاوم العثمانيين مقاومة عنيفة حتى اضطروا إلى الجلاء عن البلاد ، ولشاعره محمد بن على بن شمس الدين قصيدة يذكر فيها وقائعه معهم وانتصاراته ، مطلعها (١) :

بلغتْ بنو الزَّهْرَا بك المأمولا وبطولِ سَيْفِ عَلاك زادوا طولا
وخلفه المتوكل على الله إسماعيل (١٠٥٤ - ١٠٨٧ هـ) وقد استولى على عدن وحضرموت وظَفَّار ودانت له جميع الديار اليمنية ، وفيه يقول إبراهيم بن صالح المهدي من ميمية طويلة (٢) :

إمامٌ عَظِيمُ السَّرِّ أَمَّا نَهارُهُ فَصُومٌ وَأَمَّا لَيْلُهُ فَقِيَامٌ
رياضُ الأمانِ فى حِجَاهِ نَضِيرَةٍ وَسُحْبُ النَّدَى من رَاحَتِيهِ سِجَامٌ (٣)
تَحْمَلُ سِرَّ المِصْطَفَى بِسِرِيرَةٍ وَسِيرَةٍ عَدَلٍ لا تَكَادُ تُرَامُ
تَدْفِقُ بَحْرُ العِلْمِ فى طَيِّ صَدْرِهِ أَوادِي لُجٍّ دُرْهَنٍ تُؤَامُ (٤)

ويموج كتاب « نشر العرف لنبلأ اليمن بعد الألف » وهو فى مجلدين ضخمين بشعر زيدى كثير . واشتهرت قصيدة تاريخية فى نحو ٢٤٠ بيتا لصارم الدين إبراهيم بن محمد الوزير الحسنى اليمنى المتوفى بصنعاء سنة ٩١٤ وتسمى البسامة ، عرض فيها لأئمة العلويين على مر التاريخ بالحجاز والعراق واليمن والمغرب حتى زمنه ، ومع مر الأزمنة أخذت تضاف

(١) الجرافى ص ١٤٨ .

(٢) سجام : سائلة كثيرة والانصباب .

(٣) سحْبُ : أمواج . أمواج : مزدوج .

(٤) سلافة العصر ص ٤٧٩ .

لها ذبول كثيرة تشير إلى الأئمة التاليين في اليمن ^(١) . وحرى بنا أن نقف عند ثلاثة من شعراء الزيدية ، أحدهم مكى هو يحيى بن يوسف الملقب بالنشوء ، والآخران يمينان ، هما موسى ابن يحيى بهران وعلى بن محمد العنسى الصنعاني .

يحيى بن يوسف النشوء ^(٢)

مكى مولدا ومنشأ وحياة ، ولد سنة ٧١٢ للهجرة ولم يلبث أن حفظ القرآن الكريم واختلف إلى دروس ابن عمه شيخ العربية أبي العباس النحوى وأخذ كل ما عنده ، واستمع إلى غير محدث ، ونال في الحديث إجازات مختلفة . وعنى بالشعر والرسائل ، فكتب الإنشاء لأمرء مكة في زمنه : عطيفة وابنيه مبارك ومحمد وابن عمها عجلان بن رُمَيْثَة . وكانت ملكته الشعرية خصبة ، ويقول مترجموه : « له شعر كثير سائر مدح وهجابه جماعة من الأعيان » . وتوفى سنة ٧٨٢ . ونجده يكثر من مدائح أمرء مكة الزيديين وفي مقدمتهم من سميناهم آنفا ، وفي عطيفة المتوفى سنة ٧٤٣ يقول فى بعض مدائحه له :

له هِمَّةٌ تَسْمُو إلى كُلِّ غَايَةٍ هو الطَّاهِرُ الْأَنْسَابِ وَالْعَلَمُ الْفَرْدُ
هو الْمَلِكُ الْمَاحِي لِمَنْ كَانَ قَبْلَهُ فما فى ملوك الأرض طُرًّا لَهُ نَدُّ
هو المنعم المولى الجميل تفضلاً فمن سَيِّبه قد أَوْرقَ الْحَجَرُ الصَّلْدُ ^(٣)
تَخِرُّ لَهُ كُلُّ الْمُلُوكِ مَهَابَةً وَتَحْرَسُ مِنْ إِجْلَالِهِ الْأَلْسُنُ اللَّدُّ ^(٤)

وواضح أنه يبالغ فى مديح عطيفة ، ودائما يصفه بأنه سيف دين الله وأن المقادير تجري بما يشاء ، وينعته بالكرم والعدل ، ويشيد بنسبه من الرسول ﷺ ، وهو فخر ما وراءه فخر ، ويمدح ابنه مباركا المتوفى سنة ٧٥١ بنفس الشاكلة ، وفيه يقول :

ورثَ الْفَخْرَ عَنْ جَدودِ كَرَامٍ قد بَنَى فوق ما بَنَى أَمْثَالُهُ
شَرَفٌ ما استفادَهُ مِنْ بَعِيدٍ مَلِكٌ أَرْفَعُ الْمُلُوكَ جَلَالُهُ
نَسَبٌ بَيْنَ أَحْمَدٍ وَعَلَى فَهُوَ مِنْ خَيْرِ [أَلِ] تِلْكَ السُّلَالَةِ
وَهُوَ كَالشَّمْسِ مُدْرِكُ أَمَالِهِ وَجَمِيعُ الْبِلَادِ تَهْوَى وَصَالَهُ

(١) انظر فى السِّلْمَةِ وذيولها نشر العرف لزيارة ١١٣/٢ ١٢٤/٧ وابنه محمد فى ١٤٤/٢ وابن أخيه عجلان فى ٧٢/٦ .

(٢) راجع فى ترجمة يحيى وأشعاره العقد الثمين ٤٥٢/٧ (٣) السبب : العطاء . الصلْد : الصلب .

وكذلك ترجمة عطيفة فى ١٠٢/٦ وابنه مبارك فى (٤) اللد : شديدة العدو .

وواضح أنه سلس اللغة ، فالكلمات خفيفة الوقع على الآذان ، وهى شديدة الاستواء والتناسق يلائم بعضها بعضا ، ويشعر الإنسان إزاءها بجمال الجرس جمالا بديعا ، جمالا يلذ الألسنة والآذان والقلوب ، وله من قصيدة فى محمد بن عطفة مدحه بها سنة ٧٣٩ للهجرة :

إمامٌ له فَضْلٌ عَظِيمٌ عَلَى الْوَرَى كَرِيمٌ الْيَادَى بِالسَّاحَةِ أَوْحَدُ
يَجُودُ بِمَا تَحْوِى يَدَاهُ تَكْرُمًا وَيَعْلَمُ أَنَّ الْمَالَ لَيْسَ يُخَلَّدُ
فَتَى لَمْ يَرِ الرَّاءُونَ مِثْلَ صِفَاتِهِ إِذَا قِيلَ هَذَا حَاتِمٌ فَهُوَ أَجُودُ
أَجَلُّ الْوَرَى جَاهًا وَقَدْرًا وَرَفْعًا وَأَكْرَمُ مَنْ يُرْجَى عَطَاهُ وَيُقْصَدُ

وعلى هذا النحو يشيع الانسجام فى كلماته ، إذ يلائم بينها موسيقيا ملاءمات دقيقة ، بحيث لا تجد فيها قصورا ولا انحرافا ، وإنما تجد صفاء فى الجرس ، سواء عمد إلى الأسلوب الرصين الجزل كما فى هذه الأبيات أو عمد إلى الأسلوب الرقيق كما فى الأبيات السالفة . ومن قوله فى مديح عجلان بن ربيعة المتوفى سنة ٧٧٧ للهجرة :

مَاذَا يَقُولُ الْمَدْحُ فِيهِ وَمَا عَسَى إِذَا كَانَ يَخْدُمُ جَدَّهُ جَبْرِيلُهُ
أَمَّا الْمُلُوكُ فَكُلُّهُمْ مِنْ دُونِهِ كَالْبَدْرِ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ حُلُولُهُ
سُلْطَانُ مَكَّةَ وَالْمَشَاعِرِ وَالصَّفَا مَنْ لَا يَخَافُ مِنَ الزَّمَانِ نَزِيلُهُ
لَوْ حَاوَلَ النَّجْمَ الْعَظِيمَ لَنَالَهُ تُنْبِئُكَ عَنْهُ رِمَاحُهُ وَنُصُولُهُ
سَكَنْتُ مُحِبَّتَهُ الْقُلُوبَ جَمِيعَهَا لَمَّا تَقَارَنَ سَعْدُهُ وَقَبُولُهُ

وكان عجلان محبوبا حقا للقريب والبعيد إذ كان دون أمراء مكة الحسينيين من آبائه وأقاربه يحبُّ أهل السنة وينصرهم على الشيعة ، ويقال إنه كان شافعى المذهب ^(١) . وقصيدة النشو فيه بديعة ، وقد افتتحها بغزل رائع ، إذ يقول :

لَوْلَا الْغَرَامُ وَوَجْدُهُ وَنُحُولُهُ مَا كُنْتُ تَرَحَّمُهُ وَأَنْتَ عَدُوُّهُ
إِنْ كُنْتُ تَنْكَرُهُ فَسَلِّ عَنْ حَالِهِ فَالْحُبُّ دَاءٌ لَا يُفْقِى عَلَيْهِ
يَا مَنْ يُلُومُ عَلَى الْهَوَى أَهْلَ الْهَوَى دَعُ لَوْمَهُمْ فَالصَّبْرُ مَاتَ جَمِيلُهُ

وأنشد صاحب العقد الثمين فى ترجمته للنشو مدائح له جيدة فى الشريف طفيل بن منصور الحسينى أمير المدينة ، استهلها بغزل بديع ، يتحدث فيه عن الغرام وأنه يجد بمحبوبته وجدا لا يشبهه وجد ، إذ نزلت مع صواحبتها بالمنحنى لا من الأودية والتلال ، ولكن من أضلعه ، ومن غزله الرقيق :

أَيْنَ الْمَفْرُ لِمَنْ هَوَاكَ طَلِيئُهُ وَسِهَامُ لَحْظِكَ بِالسَّقَامِ تُصِيئُهُ
يَشْكُو وَلَا أَحَدٌ يَرِقُّ لَمَّا بِهِ وَارْحَمَتَاهُ لِمَنْ جَفَاهُ حَبِيئُهُ
وَجَمِيعُ مَا فِي الْقَلْبِ مِنْكَ عَرَفْتُهُ أَتَكُونُ سَاكِنَهُ وَأَنْتَ تُذْيِيهِ
حَنُّ الْعَذُولِ عَلَيْهِ حِينَ هَجَرْتَهُ وَرَنًا لَهُ الْوَاشِي وَرَقٌ رَقِيئُهُ
يَا وَيْحَ مَنْ يَرَى لَهُ أَعْدَاؤُهُ فَشُجُونُهُ لَا تَنْقُضِي وَنَحِيئُهُ

وهو غزل كله وجد ولوعة وهيام ، غزل يترقق فيه الشوق واللهافة والحنان ، حتى ليحنّ على الحب العذول والواشي الرقيب ، فكلهم يأسى له ، وهو يلتاع بحبه وشجونه ، ولا يكفّ عن النحيب ، إذ يجب صاحبته كما لم يجب فتاة قط ، ويحتمل في ذلك آلاما ثقالا . وله مدائح نبوية كثيرة بديعة ، يستهلها بنسب رائع ، من مثل قوله :

عَرَّجُ بِمُنْعَجِ اللَّوَى وَالْمُنْحَى فَعَسَاكَ تَنْظَرُ مِنْ لِقَاهُمْ بِالْمُنَى
أَهْوَاهُمْ وَهَوَاهُمْ لَا يَنْقُضِي أَبَدًا وَإِنْ شَطَّ التَّبَاعُدُ بَيْنَنَا .
فَلَنْ ظَفِرْتُ بِزُورَةٍ أَحْيَا بِهَا فَلَى السَّعَادَةُ وَالْمُسْرَةُ وَالْهَنَا
يَا أَهْلَ طَيِّبَةٍ إِنَّ لِي فِي حَيْكِمِ قَرَأَ لَهُ كُلُّ الْحَاسِنِ وَالسَّنَا
أَنْوَارِهِ مِنْهَا الدِّيَابِجِي أَشْرَقَتْ بَدَرٌ بِهِ قَدْ تَوَرَّتْ كُلُّ الدُّنَا
وَلَهُ الْفَضَائِلُ وَالْمَآثِرُ وَالْعُلَا وَلَهُ الْمَفَاخِرُ وَالْحَامِدُ وَالثَّنَا

والنسب كالمديح النبوي يذوب رقة وخفة ورشاقة ، مما يدل بوضوح على قدرة الشاعر الموسيقية وأن أذنه كانت من رهاقة الحس بحيث تحسن اختيار القوافي واصطفاء الألفاظ إحسانا بعيدا .

موسى بن يحيى بهران^(١)

شاعر الإمام شرف الدين (٩١٢ - ٩٦٥ هـ .) وليس بين أيدينا معلومات واضحة عن زمن مولده ووفاته . وكان شرف الدين مدّ يده إلى المصريين مُعِينًا حين أرسل قانصوه الغوري طائفة من الجراكسة في سنة ٩٢١ إلى جنوبي البحر الأحمر لرد عدوان البرتغاليين ونزلت في جزيرة كمران ، وطلبت من السلطان عامر آخر أسرة بني طاهر أن يعينها ضدهم ، ولكنه رفض عونها ومنع عنها الميرة ، وكان شرف الدين قد أرسل إليها شيئا من

(١) انظر في ترجمة موسى بن يحيى بهران وأشعاره كتاب
شعر الغناء الصنعاني لمحمد عبده غانم ص ١٨٤ - ١٨٧ ،
شرف الدين . .

(١) انظر في ترجمة موسى بن يحيى بهران وأشعاره كتاب
شعر الغناء الصنعاني لمحمد عبده غانم ص ١٨٤ - ١٨٧ ،
١٩٩ - ٢٠٠ وتاريخ اليمن لعبد الواسع (طبع المطبعة

العون والمؤن ، وشكا من السلطان عامر ، فتعاون قائدها معه على حربه ، وقضيا عليه وعلى حكم أسرته سنة ٩٢٢ . ودخل شرف الدين صنعاء ، ودخلت البلاد جميعها في طاعته وأكثرت الشعراء من تهنئته بهذا النصر المبين ، وفي مقدمتهم موسى بن يحيى بهران إذ هنأه بقصيدة رائعة ، فيها بقول :

خليفة الرحمن في أرضه مبارك الوجه كريم الجدود
بر كريم من بنى المصطفى إمام حق ساعدته الجدود
قالت له الأيام إذ أقبلت ما أحسن الوصل عقيب الصدود
وأهلك الباغين حتى ثووا واستبدلوا بعد القصور اللهود
واستبشر العدل بأيامه فامتلاً الغور به والتجود
وأصبحت صنعاء من عجبها ترفل في مستحسان البرود

وقد ورى الشاعر في البيت الثاني بكلمة الجدود وهو لا يريد بها الآباء كما في البيت الأول - وكما قد يتبادر - وإنما يريد بها الحظوظ . وهو يذكر نسب شرف الدين من الرسول ﷺ ، إذ هو من سلالة الحسن بن السيدة فاطمة الزهراء . ولا يلبث أن يمدحه برفع أعباء الظلم عن كواهل الشعب وإحلاله في كل مكان للعدل الذي لا تصلح حياة الأمم بدونه ، ويشير في البيت الأخير إلى فتح شرف الدين لصنعاء وكيف اتخذت زينتها ابتهاجا به وفرحا . ويسترسل في القصيدة منشدا :

يا شرف الدين وقيت الردى ودمت تحمى بالحداد الحدود
لا غرو أن سدت جميع الورى مثلك يا بحر الندى من يسود
علمك بحر ماله ساحل زندق أورى من جميع الزنود^(١)
وجودك كفيك إذا ما همى غيث مغيث ما له من رعود

وفي البيت الأول جناس واضح بين الحداد أى السيوف والحدود . ومنذ هذا التاريخ بل ربما قبله بحقب يكثر الجناس في شعر اليمنيين ، وقد مضوا أيضا يكثرن من التورية محاكاة للمصريين . والشاعر يمدح شرف الدين بالكرم والشجاعة والعلم بالشرعية . وفي الأبيات السالفة مدحه بالعدل . وكل هذه مبادئ أساسية في الإمامة الزيدية كما مر بنا في صدر هذا الكلام . ومضى في القصيدة مبالغاً في مديحه خاتماً لها بالدعاء له : ولموسى قصيدة بائنة بديعة يهنئ فيها شرف الدين بأحد أعياد الفطر ، وفيها يقول :

حوى شرف الهدى والدين مجدداً رفيعاً وابتنى شرفاً علياً

(١) أورى : من ورى الزند إذا خرجت ناره .

بَرَاهِ الْهُنَا بَرًّا صَفِيًّا ولم يخلقه جَبَّارًا عَصِيًّا
 سَرَى سِرُّ النُّبُوَّةِ فِيهِ حَتَّى حَكَى عَنْ جَدِّهِ خُلُقًا سَيِّئًا
 حَوَى عِلْمَ الَّذِينَ مَضَوْا جَمِيعًا وَأَصْبَحَ وَارثًا لَهُمْ وَلِيًّا
 تَأَزَّرَ وَارْتَدَى بِالْحُكْمِ كَهَلَا وَأُوتِيَ حُكْمَ خَالِقِهِ صَيًّا

وواضح أن قوافي الأبيات مأخوذة من فواصل سورة مريم ، وأن الشاعر لم يكتف بذلك ، بل حاول أن يسبغ على شرف الدين بعض ما جاء في السورة من نعوت للنبي يحيى ، وقارن بين البيت الثانى وقوله تعالى فى نعت يحيى بن زكريا : (وبرأ بالديه ولم يكن جبارا عصيا) . ويشير الشاعر فى البيت الثالث إلى فكرة ميراث النبوة التى جاءت فى السورة على لسان زكريا إذ يدعو ربه أن يهبه غلاما : (فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرْثُنِي وَيُورِثْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا) . ويكمل الفكرة فى البيت الرابع . ولا يلبث أن يسلك فى البيت الأخيرة نهاية الآية الكريمة : (يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيًّا) . وهو غلو واضح . ويمضى فى القصيدة قائلا :

وَقُلْ يَا بَنِي الْأَكَاكِمِ مِنْ قَرِيشٍ وَأَحْسَنَهُمْ - إِذَا ذُكِرُوا - نَدِيًّا
 وَمَنْ دَنَتْ الْمُلُوكُ لَهُ وَذَلَّتْ وَخَرَّتْ مِنْ مَهَابَتِهِ جَنِيًّا
 بِفَضْلِكَ تُتَقَى نُوبُ اللَّيَالِي فَكُنْ فِي النَّائِبَاتِ بِنَا حَقِيًّا

والشطر الثانى فى البيت الأول مستمد من قوله تعالى فى السورة : (أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا) أى مجلسا وجعاعة . والبيت الثانى يستضىء بالفاصلة (جَنِيًّا) الواردة فى السورة أى تَخَرُّ الْمُلُوكِ عَلَى رُكْبِهِا وَلَا تَسْتَطِيعُ الْحَرَكَ هَيْبَةً لَهُ وَإِجْلَالًا . وقافية البيت الثالث مأخوذة من قول إبراهيم فى السورة لأبيه : (سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا) أى رِعْوَفًا يِرْعَانِي . ويختم الشاعر القصيدة بالدعاء لشرف الدين والصلاة على رسول الله ﷺ ، يقول :

عَلَيْكَ سَلَامُ رَبِّكَ مَا تَعَنَّتْ حَامُ الْأَيْكَ صُبْحًا أَوْ عَشِيًّا
 وَصَلَّى اللَّهُ خَالِقُنَا عَلَى مَنْ تَخَيَّرَهُ نَبِيًّا هَاشِمِيًّا
 مُحَمَّدٍ الْمَشْفُوعِ فِي الْبَرَايَا صَلَاةٌ تُبْلَغُ الْأَمَدَ الْقَصِيًّا

وتكثر هذه الخاتمة عند شعراء الجزيرة وخاصة فى القرون الأخيرة من هذا العصر ، وكثيرا ما يضمونها كما صنع الشاعر الإشارة إلى شفاعة رسول الله ﷺ لأمتة يوم القيامة . ولهذا القصيدة وسابقتها مقدمتان غزليتان بديعتان ، ومن قوله فى مقدمة القصيدة الأولى :

لَمَلَقْتِ فِي خَدِّهِ جَنَّةٌ مَحْفُوفَةٌ بِالنَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ

له سيوفٌ طالما سلَّها من لحظه يحمى ورودَ الحدودِ
سبحانَ من صوره فتنةٌ خلَّقه وهو الرحيمُ الودودُ
لم أدر أين الثغرُ من عقده لما تساوى نعره والعقودُ
وفي المها ضِدَّان لم يبرحا قساوة القلبِ ولينُ القدودِ

والآيات تكتظ بالصور وبعنصر المفاجأة الذى يجعلها طريقة كل الطرافة ، فالورود فى خدِّ صاحبه جنة مخوفة بحمرة شديدة كأنها النار الحامية ، وما لحظها إلا حام بسيفه لورود الحدود ، وإنها لفتنة لا تُحاكيها فتنة . ويعود إلى التصوير وعنصر المفاجأة ، فلا يدرى أين ثغرها ولآلى أسنانها وأين العقود ولآلتها فقد اختلط عليه الأمر . ويخالها تحمل من المها قساوة قلبه ولين قدِّه وقامته . أما مقدمة القصيدة الثانية فجعلها حوارا بينه وبين محبوبته نقطتف منه هذه الآيات :

فقلتُ له ونحن بخير حالٍ أتفقَدُ من جنان الخُلْد شيئا
فقال وقد تعجَّب من مقالٍ جنانُ الخُلْد قد جُمِعَتْ لديا
فقلت : فسِحْرُ بابلَ أين أَضْحَى فقال : أما تراه بِمُقْلَتِيَا
فقلتُ : الوردُ أين يكون ؟ قل لى فقال : أما تراه بِوَجْهَتِيَا
فقلت الشَّهْد أين ؟ فقال : هَلْدَى شِفاهى قد حوتْ شَهْدَا جَنِيَا

ويستمر فى حوارهِ مع صاحبه سائلا عن البرق ، فتذكر له أنه يطلُّ من ميسمها الوضى ويسألها عن المرأة وجيد الغزال والثريا فتبدي له خدَّها الباهى وجيدها الفاتن وقد استدار من حوله عقد جواهر أنيقة . ولولا خوف الإطالة لنقلنا الحوار جميعه ، وفى الحق أن شعره يحفل بما يملأ النفس إعجابا بتصاويره وأخيلته ولفظه العذب السائغ ونغمه الموسيقى المصفى ، ولعل ذلك ما دفع المغنين فى اليمن منذ عصره إلى أن يتغنوا بهاتين القصيدتين ، وخاصة بمقدمتهما الغزليتين البديعتين .

على بن محمد العنسى^(١)

يمنى صنعانى ، نشأ بمدينة صنعاء فى بيت علم وفضل ، وبدأ بحفظ القرآن واستظهار الأشعار ثم اختلف إلى مجالس النحاة والفقهاء وعلماء المنطق ، حتى إذا تزود من كل ذلك

(١) انتظر فى ترجمة العنسى وأشعاره البدر الطالع للحسين والسيد عبد الله بن على الوزير ومصطفى الحموى للشوكانى ١ / ٤٧٥ وكتاب نشر العرف لزيارة ٢ / ٢٨٠ وراجع فيه تراجم شرف الدين القاسم والمتوكل القاسم بن

زادا كافياً قُلْدَ القضاء ببلاد العدين من اليمن الأسفل لعهد الإمام الزيدى محمد بن أحمد ابن الحسن (١٠٩٧ - ١١٢٨ هـ) ومازال يتولى هذا المنصب حتى عهد إليه الإمام الزيدى التالى المتوكل القاسم بن الحسين (١١٢٨ - ١١٣٩ هـ) بالقضاء فى بلاده وفى وصاب غربى زَيد . وفى سنة ١١٣٦ وُشئ إلى القاسم أنه يسعى ضده مع بعض الثائرين وأنه صاحب القصيدة : « سماعا عبادَ الله أهلَ البصائر » وهى قصيدة تصور ظلمه وتدعو للثورة عليه . فقبض عليه القاسم وألْقى به فى غياهب السجون ، وأخذ العنسى يرسل إليه قصائد مستعطفا بمثل قوله :

إِمَامَ الْوَرَى عَطْفًا عَلَى خَائِفٍ عَطْفًا بِحَقِّ الَّذِى أَبْقَاكَ فى خَلْقِهِ كَهْفًا
فَوَ اللَّهِ مَالِى قَطُّ ذَنْبٌ عَرَفْتُهُ وَهَذَا الَّذِى أَبْدَى لِلَّهِ مَا يَخْنَى
إِمَامَ الْهَدَى هَبْنِى جَنِيْتُ جَنَايَةً فَهَبْنِى لِأَطْفَالِ كَطِيرِ الْقَطَا ضَعْفًا

وتحقق القاسم من براءته ، فردَّ إليه حريته ، وعينه حاكما بالحِيمَةِ من بلاد صنعاء ، وظل بها إلى أن لَبىَّ نداء ربه سنة ١١٣٩ هـ / ١٧٢٦ م . ويكتظ كتاب نشر العرف بأشعار إخوانية متبادلة بينه وبين بعض الأمراء والأدباء فى ترجمته وتراجمهم . وله قصائد مختلفة تتصل بالأحداث فى عهد المتوكل القاسم بن الحسين ، من ذلك أنه لما أكمل بناء السور على بستان باب السبحة فى صنعاء سنة ١١٣٤ مدحه بنونية يقول فيها :

أَمَا قِيلَ فى البستان وَهُوَ بِأَهْلِهِ وَبِالْمَلِكِ سَامٍ لَا يَدَانِيهِ غُمْدَانُ^(١)
وَيَعْمُرُهُ مَنْ يَعْمُرُ الدِّينَ عَدْلُهُ وَيَحْيَى بِهِ مَعْنَى الْفَخَارِ وَيزْدَانُ

ومن ذلك إيقاع المتوكل القاسم فى صنعاء بقبائل أرحب سنة ١١٣٨ حين اعتدوا على بعض فرسانه ، ففتك بهم فتكا ذريعا . وصوِّرَ ذلك العنسى فى ميمية عارض بها ميمية المتنبي فى سيف الدولة التى وصف فيها واقعة الحدث وهزيمته للروم هزيمة ساحقة . وقد استعار منها كثيرا من قوافيه ومعانيه وصوره وألفاظه ، من مثل قوله :

نَثَرَتْ دَنَانِيرَ الْوَجُوهِ عَلَى الثَّرَى كَمَا نُثِرَتْ فَوْقَ الْعُرُوسِ الدَّرَاهِمُ
هَنِيئًا لَضَرْبِ الْهَامِ وَالْمَجْدِ وَالنَّدَى وَرَاجِيكَ وَالْإِسْلَامِ أَنْكَ سَامِ
وَقُوفُكَ مَا بَيْنَ الْخَمِيسِينَ بِاسْمًا وَمَوْجُ الْمَنَابِيا حَوْلَكَ الْمَتَلَاظِمُ
وَلَسْتَ مَلِيكًَا هَازِمًا لِنَظِيرِهِ وَلَكِنَّكَ الْإِسْلَامُ لِلشَّرِكِ هَازِمُ

والأبيات شديدة الصلة بقصيدة المتنبي : « على قدر أهل العزم تأتي العزائم » . وهى ظاهرة تلاحظ فى شعراء اليمن المتأخرين إذ يكثرون من معارضة الشعراء النابهن لا فى المديح

فحسب ، بل في كل الأغراض الشعرية . ونرى العنسي يقول في افتتاح قصيدة روضية :

يا سَمِيرى وللفتوة قومٌ خَلَقُوا من سُلالة الإنسجامِ
بطراز الرِّفأ بتشبيب مَهيا رٍ بِلُطف الِها بطبع السَّلامى

وهو يصرح في البيتين بأنه من قوم يعنون في شعرهم بالانسجام الموسيقي على شاكلة السَّرى الرِّفأ المشهور بعذوبة ألفاظه ومهيار الذى يمتاز بالسلاسة والبهاء زهير المشهور بالرفقة والسلامى المعروف بجمال نغمه . وطبعا هؤلاء إنما هم بعض من قرأ لهم العنسى وحكاهم وعارضهم في شعره . وله قصيدة تاريخية شيعية في نحو سبعين بيتا استعرض فيها نحو أربعين إماما بادئا بعلى بن أبى طالب الذى اقتلع باب الحصن في خيبر ، فاستوصلت شأقة الكفر ، ويذكر قتله لعمر بن ودّ فارس قريش يوم الخندق ويُشيد بفاطمة الزهراء وبابنها الحسن والحسين ريحانتى أهل الجنة وبعلى زين العابدين ، ثم بإمامهم زيد منشدا :

ويا خير من سلَّ الحُسامَ وقد طَعى لثيمُ بنى مروانَ أشقى بنى الدَّهرِ
فأصبح مِنْهُ الجَدُّ قد عانق العلّا ولكنها فى الدين قاصمةُ الظَّهرِ

وهو يشير إلى ثورة زيد بن على زين العابدين على هشام بن عبد الملك فى الكوفة ومقتله هناك وصلبه ، ويذكر أخاه محمداً الباقر وابنه جعفراً الصادق . ويذكر ثورات الحسينين مبتدئا بثورة النفس الزكية على المنصور وسفك دمه ، ويذكر ثورة الحسين بن على الحسنى على الخليفة العباسى الهادى فى الحجاز ومقتله بفتح بالقرب من مكة ، كما يذكر وقوع يحيى أخى النفس الزكية فى يد الرشيد وإلقائه به فى غياهب السجون حتى مات . ويذكر الزيدية فى طبرستان وآمل . ثم يتحدث عن الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم الحسنى مؤسس مذهب الزيدية فى اليمن ، ويستعرض الأئمة التالين له منوها بهم ومشيدا بأبجادهم ، حتى يصل إلى المؤيد بالله محمد بن القاسم الذى تغلب على العثمانيين وردَّهم عن البلاد سنة ١٠٤٥ وفيه يقول :

ويا حُجَّةَ الله الذى قام داعياً إلى الله فرداً لا بزيدي ولا عمرو
وبشَّرتِ الناسَ الهوائفُ باسمِهِ كما بَشَّرتُ بالمصطفى مبدأ الأمرِ
فأخلا علوجَ الترك عن يَمَنِ الهدى بضربٍ كما هاجَ الوَهيحُ من الجَمَرِ

ويلاحظ أن العنسى لا يقف عند مبادئ الزيدية فى مديحه ، إذ يضيف إليها بعض اعتقادات الشيعة الغالية فى أئمتهم . وقد ساق فى أوائل القصيدة وصفا لجعفر الصادق بأنه يكشف أسرار الحقيقى من علم الحفر ، وهو كتابات تكشف طلاسمها عن أنباء المستقبل وأحداثه ، ويقولون إن الرسول أودعها عليا وتناقلها الأئمة بعده من جيل إلى جيل ،

والزيدية لا يؤمنون في إمامهم بمعرفته لهذا العلم وما يجر إليه من الاعتقادات الباطلة ، ومع ذلك نرى العنسى يشيد بمعرفة جعفر الصادق له ، وكأنه أحد الإسماعيلية الذين كانوا يؤمنون به . وقد يكون في هذا دليل على ما دخل مذهب الزيدية مع الزمن من اعتقادات لا تعرفها نخلتهم ، ومن ذلك وصفه لمحمد بن القاسم بأنه حجة الله . ومربنا أنه اصطلاح إسماعيلي وأن المراد به أنه الداعي للمذهب في بلاده . ويزعم أن الهواتف من الجن كانت تبشر به الناس كما بشرت قديما بالمصطفى ، وكل ذلك غلو مفرط يخرج عن حدود المذهب الزيدى الشيعى المعروف باعتداله وأنه لا يبالغ في تصوّر الأئمة وإسباغ الصفات الربانية عليهم ، كما يفعل الإسماعيلية . وربما كتب العنسى هذه القصيدة في سجنه تقربا إلى القاسم بن الحسين حتى يفك عنه أغلاله ، فخرج إلى هذه المبالغات المسرفة . وقبل أن نختم كلامنا عنه نشير إلى قصيدتين متبادلتين بينه وبين عبد الله بن علي الوزير الذي التزم في جميع أبيات قصيدته التورية وسماها أهرام مصر . ودفع ذلك العنسى إلى التماس التورية بدوره في كثير من أبيات قصيدته . وواضح من تسمية عبد الله الوزير لقصيدته بأهرام مصر أنه كان يعرف بوضوح أن شعراء مصر هم الذين اتخذوا التورية مذهبا أداروا عليه كثيرا من أشعارهم . والقصيدتان من وزن الطويل ، وقد ضمن العنسى قصيدته بعض شطور من قصيدة مجنون ليلي مثل : (قضاها لغيري وابتلاني بحبا) وأيضا بعض شطور من قصيدة المتنبي في كافور مثل : (كفى بك داء أن ترى الموت شافيا) وكان هذا التضمن في الحقب المتأخرة من ذلك العصر يُعدّ من الطُرف البديعة .

٣

شعراء الخوارج

مربنا في الفصل الأول حديث عن الإباضية وأنها كانت إحدى فرق الخوارج الأساسية بجانب الأزارقة والتَّجَدّات والصُّفْرية ، وكان نشاط الأزارقة في فارس وكرمان والصفيرية في الموصل والنجدات في اليمامة ، وانتهت هذه الفرق الثلاث أو كادت بانتهاء العصر الأموي . أما فرقة الإباضية المنسوبة إلى إمامها عبد الله بن إباض التميمي فقد ظلت حية طوال عصر بني أمية والعصور التالية ، واتخذت مركز نشاطها في مدينة نزوى داخل إقليم عُمان جنوبي الجبل الأخضر ، وظلت مدينة عمان طويلا تخضع لدول سنية أو شيعية كما مربنا في غير هذا الموضع ، حتى إذا كان القرن الحادى عشر الهجرى أظلت البلاد جميعها

راية الخوارج إلى اليوم . وكثيرا ما كانت تنشب الحروب بينهم وبين دول مدينة عُمان ، وكانت تقع أحيانا في أيديهم ، واستطاعوا في حقب مختلفة أن يمدوا دولتهم إلى ظفار وحضرموت ، ومن أهم أئمتهم القدامى الخليل بن شاذان ، وكان يمد سلطانه ومذهبه الخارجي الإباضي على حضرموت ، واتخذ عاملا له عليها أبا إسحق الحضرمي ، وكان شاعرا ، وله في الخليل إمامه أشعار كثيرة يصور فيها عونه المالى والحربي ضد خصومه ، وفيه يقول (١) .

هذا الخليلُ إمامُ المسلمين حَكَتْ أنوارُ سيرته في العَدْل نيرانا
ويكتظُّ ديوانه بمدائحه ، ولا تكاد تمر حادثة أو يمر له انتصار حربي إلا ويرسل إليه
القصاصد مهتئا . وخلفه راشد بن سعيد على إمامة الخوارج فأبقى على أبي إسحق عاملا له
على حضرموت ، ويُعدُّ راشد أهم إمام خارجي في الحقب الأولى لهذا العصر ، إذ استولى
على عُمان ، وأصبحت البلاد جميعها يُظَلُّها لواء الإباضية إلى أن استطاع بنونيهان في القرن
السادس أن يستخلصوا منهم عمان . وتستمر الحروب بين الطرفين إلى أن يفرض الخوارج
سلطانهم على البلاد جميعها ، وتعود عمان إلى النهنيين فترة في القرن العاشر ، ثم يستولى
عليها نهائيا ناصر بن مرشد اليعربي (١٠٢٤ - ١٠٥٠ هـ) وتظل منذ هذا التاريخ في أيدي
الخوارج ، وكان البرتغاليون قد نزلوا في شواطئها ، فأخذ ينازهم وظلت مدينتا صُحار
ومسقط في أيديهم واستطاع خلفه سلطان بن سيف اليعربي (١٠٥٠ - ١٠٩١ هـ) أن
يطردهم من البلاد نهائيا وتبعهم أسطوله ينكِّل بهم وبأسطولهم في شرق إفريقيا وغربي
الهند . وفي ذلك يقول شاعره خلف بن سنان الغافري مجداً (٢) .

ثُمَّ أَوْرَى لِمَسْقَطٍ سَقَطَ عَزَمِ أسْقَطَ الظالمين منه ضِرامُ (٣)
وَعَدَتْ مِنْ عُمانَ كَفُّ بَنِي الْأَصَدِّ فَرَ صِفْراً قَدْ هَزَّهَا الْانْهزامُ (٤)
وَبِمِمْبَاسَةٍ أَذَاقَهُمْ بَأْسًا بَتَيْسًا سَيِّئَتْ بِهِ الْأَصْنَامُ
وَلَدَى زَنْجِبَارَ زَمْجَرَ فِيهِمْ وَعَدُّ زَجَرٍ لَمْ يُنْجِ مِنْهُ اعْتِصَامُ
وَيُمْبَائِي نَابِهِمْ مِنْهُ نَابٌ لَمْ يَشْبُهُ عَنِ الْمَضَى انْتِهَامُ (٥)
وهو يشير إلى انتصارات أسطول سلطان على الأسطول البرتغالي في ممباسه
وزنجبار وفي بمبي بالهند . وهي انتصارات جديدة بكل تمجيد وإشادة . وخلفه ابنه

(١) يريد بني الأصفر البرتغاليين .

(٢) تحفة الأعيان ١ / ٢٥٨ وما بعدها .

(٣) انتهام : تكسر ثانيا الأستان من أصولها .

(٤) التحفة ٢ / ٦٠ .

(٥) أوري : أوقد . سقط النار : شرارة أو شعلة منه .

بِطُّعْرَبَ ، وكان شاعرا . وقد تربي في كنفه شاعر خارجي مهم يسمى الجُبْسِي ، وله ديوان استهله بمدائح نبوية على عدد حروف المعجم ، وفيه مدائح كثيرة في بلعرب بن سلطان ، وفيه يقول ^(١) :

يا مَنْ إِذَا ثَارَ فِي الْهَيْجَاءِ يَفْعَلُ فِي أَعْدَائِهِ فِعْلَةً الْجَزَارِ فِي الْبُذْنِ ^(٢)
وَمَنْ إِذَا فَاخِرَ الْأَشْرَافِ فِي مَلَأٍ شَاعَتْ مَفَاخِرُهُ فِي الشَّامِ وَالْيَمَنِ
هَذَا الْكَرِيمِ الَّذِي تَشْفِيكَ رُؤْيَتُهُ مِنْ كُلِّ دَاءٍ وَمِنْ هَمٍّ وَمِنْ حَزَنِ
بِطُّعْرَبَ نَجَلٌ لِسُلْطَانٍ الَّذِي حَسَّنَتْ أَخْلَاقُهُ وَهُوَ رَبُّ الْمَنْظَرِ الْحَسَنِ
وواضح أن شعره متوسط . وأجود شعراء عُمان في أواخر هذا العصر أبو مسلم ناصر بن سالم الرُّوَّاحِي العُمَانِي ، وهو شاعر بارع ، توفي سنة ١٣٣٨ هـ / ١٩٢٠ م ولذلك نرى أن تؤخره إلى العصر الحديث في عمان .

ولابد أن نعرض لدولة بني مهدي الخارجية التي استولت على زبيد من يد بني نجاح ، وقد ظلت نحو خمسة عشر عاما ، وكان مؤسسها على بن مهدي الحميري يعتقد مذهب الأزارقة من الخوارج ، وهو أكثر مذاهبهم تشددا ، وكان يقتل على الكبيرة ويستحل دماء المسلمين من مخالفيه ، ويسترق ذراريهم . ولم يقف عند مبادئ الأزارقة ، فقد استباح نساء المسلمين . وخط آراءه بشيء من مبادئ الإسماعيلية ، فادّعى كما مر بنا العصمة وتسمى باسم الإمام المهدي . واستطاع الاستيلاء على زبيد سنة ٥٥٤ ، وعاجله الموت بعد ثلاثة أشهر ، وتولى بعده ابنه المهدي ، وسار سيرة أبيه في سفك الدماء وسبى المسلمين ، واستولى على تعز والجند ، ويقول العماد الأصبهاني إنه ادعى الإمامة وأقبل على شرب الخمر . توفي سنة ٥٥٩ ، وخلفه أخوه عبد النبي ، وكان مثل أخيه وأبيه سفاكا للدماء ، قتله توران شاه حين استولى على اليمن سنة ٥٦٩ . ومن شعراء هذه الدولة القصيرة الأجل ابن المسبح ^(٣) وعبد الله ^(٤) بن أبي الفتوح الحرازي ومحمد بن عمر العمراني وله من قصيدة يمدح بها عبد النبي ^(٥) :

وَضَحْتُ شَمُوسُ الْحَقِّ بَعْدَ أَقْوَلِهِ وَرَسَتْ هُنَالِكَ قَاعِدَاتُ أُصُولِهِ
وَنَقَفَ قَلِيلًا عِنْدَ شَاعِرٍ مِنْ شُعَرَاءِ الْإِبَاضِيَّةِ ، هُوَ أَبُو إِسْحَقَ الْحَضْرَمِي ، وشاعر من شعراء كدولة بني مهدي الخارجية ، هو ابن الهَيْبِيِّ .

(٤) نفس المصدر ٣ / ٢٧٣ .

(١) التحفة ٢ / ٨٧ .

(٥) طبقات فقهاء اليمن للجعدي ص ١٩٣ .

(٢) البدن : التوق والبرق المهيأ للذبح .

(٣) الخزريدة قسم للشام ٣ / ٢٧٢ .

أبو إسحق الحضرمي^(١)

هو أبو إسحق إبراهيم بن قيس الهمداني الحضرمي ، وُلد بحضر موت ولا يُعرف بالضبط تاريخ مولده ولكن يغلب أن يكون وُلد في مستهل القرن الخامس الهجري أو في أواخر القرن الرابع . وهو من بيت علم وفضل ، كان أبوه - كما يقول مقدم ديوانه - عالما ورعا زاهدا متقشفا . ويبدو أنه كان يعتنق عقيدة الإباضية مثله ، ومثل كثيرين من أهل حضر موت ، ونشأ ابنه على عقيدته ، حتى إذا شبَّ أخذ يتحمس لها ويحاول أن ينشرها في الناس من حوله ، وفي نسبه وإباضيته يقول :

فإن تَسألني عني وعن أهل مذهبي ومن أين داري أنت يا أمَّ حازم
فإني من همدانٍ أصلي وقُدوتي فرداسُ والأوطان أرضُ الحضارمِ
أنا الرجلُ الدَّاعي إلى الحقِّ والذي أبتُ نفسه شتمَ الطُّغاة الأثامِ
أنا الرجلُ الشاري الذي باع نفسه وأصبح يرجو الموتَ عند التصادمِ

وهو في الأبيات يصرح بأنه حضرمي من همدان ، وأنه أخلص نفسه للدعوة الإباضية ، ويصف نفسه بأنه من الشُّراة ، وقد سمي الخوارج أنفسهم بهذا الاسم إشارة إلى قوله تعالى : (ومن الناس من يَشري نفسه ابتغاءَ مرضاة الله) وهو يعلن أنه باع نفسه لربه والدعوة لنحلته ، وأصبح يطلب الموت والاستشهاد في سبيلها حتى يفوز برضوان الله ، ويبدو أن الشعر سال على لسانه مبكرا ، مما جعله يخلف ديوانا ، وهو يصور فيه حياته وأحداثها تصويرا تاما ، وهي حياة وأحداث متصلة بأئمة الإباضية في نزوى إذ نراه على رأس حملة للخليل بن شاذان إمام الإباضية استطاع بها أن يضم حضر موت إلى سلطانه وقد ظل واليا له عليها إلى وفاته ثم خلفه راشد بن سعيد الذي مدَّ جناح سلطانه إلى عُمان ، ونجده يشيد بإمامه الخليل بن شاذان في قصائد كثيرة ، بمثل قوله :

يا أيها العَلَمُ العَدْلُ الذي كملتْ له الخصالُ مُروءاتٍ وإيمان
إني أحبك والرحمن يعلمه حبَّ احتسابٍ إلى ذى الطَّوْلِ قُرْبانا
ويطلب في القصيدة منه معونة ليحطم الغواة الضالين . وكانت لاتزال تأتيه المعونات ولايزال يحارب أعداء عقيدته في حضر موت ، ويبدو أن كثيرين كانوا ينقضون طاعته بين

(١) انظر في ترجمة أبي إسحق الحضرمي وأشعاره كتاب صفحات من التاريخ الحضرمي لسعيد عوض باوزير ص ٦٦ ونخبة الأعيان ٢٥١/١ وفي مواضع متفرقة ، وقد طبع ديوانه مع مقدمة لسليمان الباروني .

البدو وفي المدن الحضرية ، فكان لايزال يرسل إليهم الحملات ، ولا يزال بهم حتى يُلقوا له عن يدٍ وهم صاغرون ، وصوّر ذلك في قصائد كثيرة ذاكرة نشره للدعوة الإباضية وكيف أن خطباء يوم الجمعة يخطبون باسم إمامه في كل مكان بحضر موت ، وكيف أن البلاد والقبائل دانت له مدعنة مستسلمة ، يقول للخليل في إحدى قصائده :

سَلِ الْخُطْبَا لِمَا دَعَوْا لَكَ جَهْرَةً عَلَى رَغَمِ أَهْلِ الْجَوْرِ بَعْدَ التَّصَادِمِ
وَسَلِّ عَرَبَ الْبَيْدَاءِ لِمَا أَذَقْتَهُمْ عَشِيَّةَ خَانُوا الْعَهْدَ سَمَّ الْأَرَاقِمِ
وَأَمَّا نَوَاحِي حَضْرَمَوْتَ فَإِنهَا بِحَوْلِ إلهي طَوَّعَ أَمْرِي كَخَاتَمِي
وَلَمْ يَبْقَ لِي إِلَّا الصُّلَيْحِيُّ قَائِمًا وَهِيَ هِيَ أَيْضًا سَعْدُهُ غَيْرُ قَائِمِ
وَنَحْنُ إِلَيْهِ وَارِدُونَ بِجَيْشِنَا فَمَا هُوَ أَذْهَى مِنْ مُلُوكِ الدِّيَالِمِ

وهو في البيتين الأخيرين يشير إلى أنه عازم على حرب الصليحي مؤسس الدولة الصليحية في اليمن وكان قد أخذ يدعو لنفسه ويبدو أن كلا منهما كان يتحرّش بصاحبه ، ويهدده بأنه سيستعين بإمامه ، وكان الصليحي يهدده بالخليفة الفاطمي وجنوده ، وإلى ذلك يشير أبو إسحق بقوله :

يُخَوِّفُنِي أَنَّ الْمَعَزَّ مَلَاذُهُ بِمَصْرِ وَمَا خَوْفِي لِأَهْلِ الْمَظَالِمِ
إِذَا وَفَدَهُ وَلَّى إِلَى مَصْرَ رَائِدًا مَضَى وَقَدْ نَا قَصْدًا لَخَيْرِ الْعَالَمِ
لِيَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبِ أَسْبَقُ نُصْرَةً وَأَيُّهُمَا أَوْلَى بِفَعْلِ الْمَكَارِمِ

وواضح أنه سمي المستنصر خليفة مصر حينئذ المعز لأنه لا يعرف لقبه الحقيقي ، وخرج هو وخصمه الصليحي من التهديد والوعيد إلى إشعال الحرب ، ونرى أبا إسحق يوجه قصيدة أشبه بنداء إلى إمامه الخليل بن شاذان كي يغيثه وينصره ضد الصليحي ، قبل أن تتفاقم المعارك وتقع الكارثة ، يقول له من قصيدته نونية :

انْصُرْ أَخَاكَ فَإِنَّ الْحَرْبَ قَائِمَةٌ وَالْحَقُّ يَطْلُبُ مِنْ أَهْلِيهِ أَرْكَانَا
اجْعَلْهُ أَوَّلَ مَا تَحْيَا الْبِلَادُ بِهِ إِنَّا نَوْمِلُ جَيْشًا مِنْكَ يَغْشَانَا
وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ قَدْ أَثْرْتَ مَائِرَةً فَارْقَعْ لَهَا شَرْفًا فَلَا مُرَّ قَدْ هَانَا

ويبدو من البيت الأخير أن الخليل بن شاذان كان قد أرسل إليه معونة مالية ، وهو يريد معونة حربية . واستطاع فعلا أن يرد جيوش الصليحي وأن ينزل بها خسائر فادحة ، ويتوفى الخليل بن شاذان إمامه ويخلفه راشد بن سعيد ، ويبقى والياً له على حضرموت ، ويظل يرسل له بقصائد المديح ، وكان قد استولى على عُمان كما أسلفنا ، وله يقول :
أَيَا رَاشِدَ إِنَّا لَعَمْرُكَ نَزْدْهِى بِذِكْرَاكُمْ فِي حَضْرَمَوْتَ تَعَاظَا

إذا ما عُمَانِيَّ أَلَمَّ بِأَرْضِنَا أَحَطْنَا بِهِ نَسَأَلُهُ عَنْكُمْ تَرَاحِمَا
 وله فيه قصيدة دالية يشيد فيها بالإباضية ، وأخلاقهم الفاضلة ، ومناقبهم الكريمة ،
 وكيف أنه أصبح إماماً لهم وقيّماً عليهم ، يصلح أمرهم ، ويدفع عنهم الخطوب ، يقول :
 إباضِيَّةٌ زَهْرٌ كَرَامٌ أَفْضَلُ مُنَاقِبِهِمْ فِي كُلِّ سَامِي عِلًّا تَبْدُو
 وَأَنْتَ لَنَا مِنْ بَعْدِهِمْ صِرَتْ قِيَمًا حَمُولًا لِثَقْلِ الْخُطْبِ يُورِي بِكَ الزُّنْدُ (١)

ونراه في نفس القصيدة يطلب إلى إمامه راشد أن يعث إليه بنجدة تعينه في حربه مع
 قبيلتي نَهْدٍ وَعُقَيْلٍ إِنْ هُمَا لَمْ تَسْتَكِينَا نِهَائِيَا ، ولم تُثَقِّلَا السِّلَاحَ وَهُمَا صَاغِرَتَانِ ، يقول :
 وَإِنْ عَدَلُوا عَنْ بَغْيِهِمْ وَتَرَاجَعُوا إِلَى عَسْكَرِ الْإِسْلَامِ وَالْحَقِّ وَارْتَدُّوا
 فَأَهْلًا وَسَهْلًا بِالْعَشِيرَةِ إِنَّهُمْ إِلَيْكُمْ بِإِخْلَاصٍ لِرَبِّ السَّمَا أَدُّوا
 وَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَصْرِخُونَا فَإِنَّا قَرِيبٌ وَمَا لِلْقَوْمِ مِنْ صَحْبِهِمْ بُدُّ
 وَمَا بَيْنَ وَادِي حَضْرَمَوْتَ وَبَيْنَكُمْ إِذَا سَرَّكُمُ إِيْتَانُنَا نَحُوكُمُ بَعْدُ

وهو يسمى عسكر الخوارج عسكر الإسلام والحق ، ومن قديم كانوا يقولون إن
 معسكرهم هو معسكر الإسلام وحده ، ويصفون خصومهم بالبغي والجور وأنهم خرجوا
 على حدود الدين . ومن الحق أن الإباضية معتدلون ويؤمنون بأن غيرهم من المسلمين أهل
 توحيد ، على نحو ما صورنا ذلك في غير هذا الموضع . وليس في الديوان ما يدل على أنه
 ظل عاملاً لأئمة نَزَوِي بعد راشد ، وظن بعض من عرضوا له أنه ربما استقل ودعا لنفسه
 بالإمامة ونسبتعد ذلك ، ونظن أنه ظل على ولائه لأئمة الإباضية في نزوى ، وحقانراه في
 بعض شعره يصرّح بأنه وهب نفسه لنشر الهدى وإحيائه في كل مكان ، على شاكلة قوله :

عَلِقَ الْفَوَادُ بِأَنْ أَكُونَ أَنَا الَّذِي يُحْيِي الْهُدَى بِقَوَاضِبٍ وَرِمَاحٍ
 وَعَلَى السِّبْوَفِ يَمُوتُ كُلُّ مَكْرَمٍ وَعَلَى السِّبْوَفِ قِيَادُ كُلِّ فَلَاحٍ
 وَعَلَى السِّبْوَفِ يَنَالُ مِنْ طَلَبِ الْعَلَا غُرَفَ الْجَنَانِ وَقَصْدُهُنَّ كِفَاحِي

وهو يقصد بالهدى نخلته الإباضية ، ويقول إنه يشعر في أعماقه أن عليه نشر دعوته
 وإشاعتها في كل بقعة ، ويردد ما يذكره شعراء الخوارج قديماً من محبتهم للاستشهاد في
 سبيل الله ، وكأنه أصبح شعاراً لهم ، حتى يلحقوا بمن سبقوهم من رفاقهم إلى جنات ربهم
 ونعيمه . ولسنا نعرف سنة وفاته وأكبر الظن أنه توفي حوالى منتصف القرن الخامس
 الهجرى .

ابن الهيثمي (١)

من شعراء تهامة في القرن السادس الهجري ، تبع علي بن مهدي حين استولى على زبيد سنة ٥٥٤ وأصبح شاعره وشاعر ولديه من بعده . وكان يجعل شعره شركة بينه وبين علي بن مهدي وولديه المهدي وعبد النبي ، فتارة ينظمه مستقلا ، وتارة ينظمه بلسانهم ، ونص على ذلك القدماء . وقد وصفه عمارة اليمني فقال : « هو أمتن كلاما ، وأقوى نظاما من كثير ممن سمعت به من شعراء اليمن » . وشعره على لسان أمرائه تهديد شديد ووعيد عنيف لخصومهم من القبائل والأمراء وأصحاب الحصون ، من ذلك قوله على لسان ابن مهدي يهدد قبائل خولان وجنب وسنحان وهمدان :

ما بال خولان لا توفي بما تعدُّ يدنو أبو حسنٍ منها وتبتعدُ
وما يجنب وسنحانٍ وأختها همدان تلك الأعراب التي حشدوا
وتسميته لهم بالأعراب كأنه يشير إلى شطري خميرية لأبي نواس يهزأ فيها بالأعراب
قائلاً : « ليس الأعراب عند الله من أحد » . وابن الهيثمي يحمل الكلمة نفس المعنى . وله
قصيدة ميمية طويلة على لسان علي بن مهدي وجه بها إلى أهل حصن تعكر وقبيلة خولان
مندرا لها نذيرا شديدا ، وهو يفتتحها بقوله :

أبلغُ قُرَى تعكرٍ ولا جرما	أن الذي تكرهون قد دهما
وقلُ لجناتها سابدلها	سيلا كأيام مارب عرما
ظلت خويلان أن ستشغلني	عمى لما ظلت اللثام عمى
هل تنقص البحر كف غارفه	أو يخمد النار قايس ضرما
تعا خولان لا أبا لهم	أمسوا وجودا وأصبحوا عدما
إذ نفخوا من صوامي ضرما	واستسمنوا من ظنونهم ورما
وشمرت ساقها الحروب وما	ألفها الليل سائقا حطما

وهو يهدد في أول قصيدته قري تعكر بأنه سيتزل بها ما أنزله الله بقري سبأ ومدنها من
سبل عرم ، يقول جل شأنه : (لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا
من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور فأعرضوا فأرسلنا عليهم سبل العرم
وبدّلناهم بجنتيهم جنتين ذوات أكل خبط واثل وشيء من سدر قليل) والآيات تدل على
براعة شعرية حقيقية في الصياغة والفكرة ونسج الأسلوب . وهو يتأثر في البيت الأخير

بشطين وردا في خطبة الحجاج المشهورة التي خطبها في الكوفة أول قدومه واليا على العراق ، وقد حملها كل ما استطاع من عبارات الوعيد قائلا : « إني لأنظر إلى الدماء تفرق بين العمائم واللحى » ثم أنشد هذا الشطر في وصف الحرب وشدتها : « قد شمرت عن ساقها فشمروا » وتلاه بيت عاصف من الشعر :

هذا أو أن الشد فاشتد زيم قد لفها الليل بسواق حطم
والشد : العدو . وزيم : اسم فرس أو ناقة . واللف : الجمع . والحطم : الظالم للماشية . وواضح أن ابن الهيثمي كَوّن بيته من الشطر السالف ، ثم من الشطر الثاني في البيت ، ليصور ما سبّزله بخولان من معارك مدمرة ساحقة . ويستمر في وصف جنوده ووعيده .

إن نسور الوغى إذا وقعت بأرض قوم أطارت الرخما^(١)
ترمي بنيرانها قرى عدن صبحاً فيمسي شرارها الحرما
أشرب الحمر في ذرى عدن والمشرقيات بالحصيب ظما
ويُلجم الدين في محافلها والخيل من حولى تعلق اللجما

وما جنوده إلا نسور أما جنود خصومه فرخم وطير ما كول ، ويضيف إلى تهديد خولان تهديد عدن وأمرائها من آل زريع ، وكانت تعزّ والجند وتَعَكّر في حوزتهم ، فكان طبيعياً أن يصطدم بهم . والشاعر يزعم على لسان ابن مهدي أن أهل عدن غارقون في الحمر إلى آذانهم ، ويقول إن السيف في الحصيب وادى زبيد ظامئة إلى دمائهم وأن الخيل من حوله تعلق اللحم ، تريد أن تهم بالمسير إليهم وقتالهم . وكان طبيعياً والحرب العسكرية قائمة بين ابن مهدي وولديه من جهة وعدن وأمرائها بنى زريع من جهة ثانية أن يصطدم ابن الهيثمي شاعر بنى مهدي بأبي بكر العيذى شاعر الزريعيين ، وأن يأخذ في التهاجي وما يتصل به من التهديد بالقوة والقهر ، وقد احتفظ العباد في خريدته للشاعرين بنقيضتين من هذا الطراز ، أولاها لابن الهيثمي ونراه يستلها بالإشادة بجنود علي بن مهدي إمامه ، يقول :

أشد إذا ما أبصرت أسد الشرى ورأت حياض الموت لم تتجهجه^(٢)
تعدو أمام متوج متبلج متيقظ متوقد متنبه
متفقه في الدين لكن لم يكن من عند غير الله بالمتفقه
ملك إذا اشتبه الملوك فما له في ملكه وصلاحه من مشبه

(١) الرخم : طائر غرير الريش كبير الجناح طويل . (٢) تتجهجه : ترد .

ومرّة الدين الحنيفي الذي لولا الإمام القطب لم يتّزه بصوارمٍ ولهاذمٍ وضراغمٍ وملاحمٍ بلغت به ما يشتهى^(١) وواضح أنه يشيد بجنود هذا الإمام في رأيه وشدة بأسهم ، ويسبغ عليه صفات التفقه في الدين وحايته بسيوف قاطعة وأسود ضارية وملاحم ساحقة . ويمجد انتصارات على بن مهدي على آل نجاح الأحباش أو الذين يعودون إلى أصل حبشي ، ويعود إلى الإشادة به ، قائلا :

أخبار أيام الإمام فواكه فأصبح سمّعت نحوها وتفكّه
سير الإمام قديمها وحديثها فرح القلوب وروضة المتزّه
أشهى من الماء الزلال على الظّما وألذ من عصير الشباب الأموه^(٢)

ولا شك أن ابن الهبني يحور جورا فظيلا على الحقيقة ، فقد عرضنا لابن مهدي ومبادئه ، وأنه خرج فيها حتى على غلاة الخوارج ، ويكنى وصمة لا تفارق جبينه أنه استباح نساء المسلمين واسترقّ الذراري ، فكان ينبغي على ابن الهبني أن لا يسخر شعره في مدحيه هذا المدح المفرط في الثناء . وتُنسب لابن مهدي دالية لا شك أنها من نظم ابن الهبني ، وفيها يقول على لسانه :

قسمت الرّدى والجود قسمين في الورى فللمعتدى حدّ وللْمُجْتَدِي رَفْدِي^(٣)
ومالي من مالي الذي كسبت يدي ثراث أبقيته سوى الشكر والحمد
تخوّفني جَبُّ بِكْثَرِ عديدها وما لجنود الله حولي من عدّ
تَقَعَّقُ نحوي بالشّنان وهل ترى عوا الكلب يُخْفِي زَاوَةَ الأسدِ الْوَرْدِ^(٤)

والبيت الرابع يشهد بأن القصيدة من نظم ابن الهبني ، إذ جلب فيه عبارة من عبارات الحجاج في خطبته التي أشرنا إليها آنفا فقد قال في تضاعيفها : إنني لا أغمز تغاير التين ولا يُقَعَّقُ لي بالشّنان ، وهي القرب البالية ، وكانوا يحركونها إذا استحثوا الإبل على السير لتفزع فسرّع . وابن الهبني مثل أبي إسحق الحضرمي لا يُعرفُ زمن مولده ولا زمن وفاته ، ولكن من المؤكد أنه عاش في زمن دولة بني مهدي ، وربما لم تمتد به الحياة بعدها أو ربما فارق الحياة قبل قضاء توران شاه عليها في نهاية العقد السابع من القرن السادس .

(٣) رَفْدِي : عطائي .

(١) الصوارم واللهاذم : السيوف . الضراغم : جمع

(٤) الورد : الشجاع الجريء .

ضراغم :

(٢) الأموه هنا : الناصر .

شعراء الدعوة الوهابية السلفية

مرّ بنا أن الدعوة الوهابية السلفية قامت على الرجوع بالإسلام إلى صورته البسيطة الأولى وتخليصه من كل ما دخل عليه من شوائب ، كتقديس الأولياء ، والاعتقاد فيهم أنهم - كما يقولون - ينفعون الناس حتى في قوتهم ، مما جعلهم يزورون أضرحتهم ويتوسلون إليهم أن يباركوا زروعهم وإبلهم وأنعامهم وشاءهم . وينبغي - في رأى ابن عبد الوهاب - أن يكفّ المسلمون عن مثل هذه الاعتقادات وأن يعودوا إلى القرآن الكريم والسنة النبوية ، فهما المصدران الأساسيان للإسلام وأحكامه ، والمدار في الدين إنما هو على النقل ، أما العقل فيتخذ شاهدا ولا يستخدم حكما . وهذه الدعوة - كما قدمنا - تستضيء بأفكار ابن تيمية وإمامه أحمد بن حنبل الذي كان يقدم المنقول على المعقول ، فالمنقول من الكتاب والسنة أولا ، والمعقول يليه ويأتي ثانيا ، ولا يصح التقرب إلى الله بزيارة الولي الصالح ، فضلا عن زيارة جدته ورفاته . وتشدد ابن عبد الوهاب قائلًا إن ذلك يعنى الشرك بالله أن يزور شخص قبور الأولياء ويدعو عندها ، طالبا جلب منفعة أو دفع أذى ، إذ يظن أن الولي من شأنه أن يُعينه على ذلك ، والله يقول لرسوله ﷺ في كتابه : (قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله) . وعلى هذا النحو تشدد محمد بن عبد الوهاب في أنه لا يجوز إشراك غير الله معه في الدعاء ، كأن يقول القائل المتوجه إلى ربه : أسألك بحق فلان من الصالحين ، بينا الله عز وجل يقول : (فلا تدعوا مع الله أحدا) . وبالمثل لا يجوز طلب الشفاعة من ولي أو غيره ، لمثل قوله تعالى : (من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه) . وينبغي أن تُلغى النذور للأولياء جملة ، إذ النذور إنما تكون لله ولا يصح إشراك أحد معه فيها ، ومن أكبر صور الشرك - في رأى محمد بن عبد الوهاب - الإيمان بأن هناك من يعلمون الغيب من المنجمين أو أصحاب السحر والشعوذة ، والله يقول : (والله غيب السموات والأرض) ويقول : (فلا يُظهر على غيبه أحدا) فمن ظن أن هناك من يعلم الغيب فقد جعل لله مثيلا في صفة علم الغيب المقصور على الله جل شأنه . ومدّ حملته إلى المتصوفة والطرق الصوفية ، فأنكرها ودعا إلى إلغائها إلغاء باتا وإلغاء كل ما اتصل بها من حلقات ذكر وأوراد ودلائل خيرات ، فكل هذه - في رأيه - بدع لم يعرفها الإسلام في عهد الرسول ﷺ وعهود أصحابه ، وينبغي أن يعود الإسلام كما كان مع التمسك بالسنة

وإحيائها والافتداء بالسلف الصالح . ولذلك يسمى الوهابيون سلفية . ومما دعا إليه محمد بن عبد الوهاب الإيمان بالقدر وأن لا يفزع أحد إلى التأويل في آيات القرآن الكريم . وإنما عرضنا ذلك كله لتبين الأسس التي دعا إليها محمد بن عبد الوهاب والتي صدر عنها بالتالي شعراء الدعوة الوهابية ، ولعل القارئ لا يعجب إذا عرف أنه من أوائل الشعراء الذين تصدوا بقوة لرفع علمها وتمثل مبادئها شاعر يمني من الأسرة الزيدية ، هو محمد بن إسماعيل الحسني الصنعاني ، وأن أبرع الشعراء الوهابيين الذين خلفوه في هذا العصر هو ابن مشرف الأحساني . ويتكاثر بعده شعراء الدعوة وفي مقدمتهم سليمان بن سحان وابن عثيمين ، ولن نعرض لها لأنها يدخلان في العصر الحديث ، ومن شعراء الدعوة المبكرين حسين بن غنام الأحساني المتوفى سنة ١٢٢٥ هـ / ١٨١٠ م ، وله مرثية في ابن عبد الوهاب حين لبي نداء ربه افتتحها بقوله (١) :

إلى الله في كشف الشدائد نفزع وليس إلى غير المهيمن مفرع
وقصائد كثيرة نظمت في الإشادة بابن عبد الوهاب ومبادئه ، ومن أهمها قصيدة للإمام محمد بن علي الشوكاني اليمنى المار ذكره . ونقف قليلا عند محمد بن إسماعيل وابن مشرف .

محمد بن إسماعيل الحسني الصنعاني (٢)

ولد بحصن كحلان باليمن سنة ١٠٩٩ هـ / ١٦٨٧ م وانتقل مع أبيه إلى صنعاء سنة ١١١٠ هـ / ١٦٩٨ م فآتم بها حفظ القرآن ، وسرعان ما أخذ يختلف إلى العلماء ينهل من حلقاتهم ودروسهم ، فتعلم النحو وعلوم البلاغة والفقه والمنطق وعلم الكلام والأصول ، وعكف على أمهات الكتب الكبيرة يقرأ ويدرس في الفقه وفي النحو وفي غيرها ، وأخذ يدرس كتب الحديث الكبرى على كبار الحفاظ المحدثين من مثل صحيح البخاري وصحيح مسلم وسنن أبي داود ، ونال في ذلك إجازات مختلفة لا في صنعاء فحسب ، بل أيضا على كبار المحدثين في مكة والمدينة ، وعنى بالتبحر في فقه الشافعي وفي الأصول . ودرس للناس بصنعاء الحديث سنوات طويلة ، وله فيه على الجامع الصغير شرح في أربعة مجلدات ، وله في الفقه كتاب العدة على شرح العمدة لابن دقيق العيد ، وله شرح في علوم الحديث

و ٧٦٤ / ٢ وفي مواضع مختلفة. وديوانه طبع بمطبعة المدني

(١) شعراء هجر ص ٥٠ .

بالقاهرة سنة ١٩٦٤ باسم ديوان الأمير الصنعاني . وراجع

(٢) انظر في ترجمة محمد بن إسماعيل وأشعاره البدر

مقدمة على السيد صبح المدني للديوان .

الطالع للشوكاني ١٣٣ / ٢ ونشر العرف لزيارة ٥٠٥ / ٢

والآثار في مجلدين ، غير كتب كثيرة في الأصول وفي النحو وفي بعض الفتاوى . ومن كتبه « إيقاظ الفكرة لمراجعة الفطرة » ويبدو أنه كتبه في الاحتجاج للدعوة الوهابية لأن مترجميه يقولون إنه ترك فيه مقالة الأصحاب ورجَّح أدلة السنة والكتاب . وكان يشتغل بالتدريس ويجمع إليه أحياناً الخطابة . ويُجمع كل من كتبوا عنه أنه كان مجتهداً ينفر من التقليد ومن كل رأى فقهي لا دليل عليه ، ويقول الشوكاني إنه كان « من الأئمة المجددين لعالم الدين » وكان الشوكاني مثله يعجب بالدعوة الوهابية ، ومربناً أن هذه الدعوة أعلنت سنة ١١٥٨ للهجرة حين وضع محمد بن سعود يده في يد محمد بن عبد الوهاب وعاهده على نصرته ، على أن تكون للأول وذريته السلطة الزمنية وللثاني وذريته السلطة الروحية . وما تقدم مع هذا العهد والإعلان للدعوة أكثر من خمس سنين ، حتى نجد صوتاً مدوياً ينطلق من صنعاء باليمن ، هو صوت محمد بن إسماعيل إذ يرسل بقصيدة دالية طنانة إلى الشيخ محمد بن عبد الوهاب مشيداً وممجداً لدعوته استهلها بقوله :
 سلامٌ على نَجْدٍ ومَنْ حَلَّ في نَجْدٍ وإن كان تسليماً على البُعْد لا يُجْدِي
 وقد مضى فيها يعلن إعجابه بمبادئ الدعوة الوهابية ، وهاجم الصوفية وما يزعم غلاتهم من القول بالحلول ، كما هاجم المتصوفة والطرق الصوفية وأورادها ، وأظهر استحسانه لما قيل من حرق الوهابيين للدلائل الخيرات ، يقول مبرراً صنيعهم :
 غلُّمٌ نهى عنه الرسولُ وفريتهُ بلا مريةٍ فاتركهُ إن كنت تستهدي
 أحاديثُ لا تُعزى إلى عالمٍ ولا تُساوى لفلسٍ إن رجعتَ إلى التُّقْدِ
 وهو يضع بذلك دليلين يحوّزان حرقها في رأيه : ما بها من غلو ومن أحاديث ضعيفة واهية ، ويقول إنها من البدع المستحدثة . وكان ماينى ينصح قومه بالانصراف عن مثل هذه الأوراد . وكان يؤذيه أشد الإيذاء تصديقهم للمنجمين وإيمانهم بأنهم يطلعون على الغيب . ويكتب إلى الإمام المهدي العباس سنة ١١٧٠ قصيدة دالية ينهاه عن الاستماع إلى المنجمين وافتراءاتهم الكاذبة ، وفيها يقول :

ولا تستمع من عابِدٍ لنجومه تقاويمُ زورٍ ليس تُغنى ولا تُجْدَى
 أكاذيبُ يُملئها لكلُّ مغفلٍ يصدّقها من ضلٍّ عن طرق الرُّشْدِ
 ووالله ما عند النجومِ دلالةٌ على نحسٍ يومٍ في الزمان ولا سعدٍ
 ووالله ما غيرُ الإلهِ بعالمٍ بما في غدٍ مما يُسرُّ وما يُبْدَى
 وصدق رسول الله ﷺ في قوله : « كذب المنجمون ولو صدقوا » . وله قصيدة جعل مقدمتها في ديوانه على هذا النمط : « هذه نفثة مصدور ، وكلمة صادرة عن قلب

من ضياع الشريعة محرور ، وفيها تفاؤل بمن يقوم بالدين ، ويُحْيِي شريعة سيد المرسلين ،
وفيها إيقاظ للهمم لو كانت نائمة ، ولكنها ميتة لا تُرْجَى لها قائمة . والجهاد باللسان أحد
الأنقسام . نسأل الله قبول الأعمال وحسن الختام » . وفيها يصور جهاد المصلح الديني المنتظر
هو وأنصاره في سبيل دعوته ، وكيف يخوضون إليها غار الحروب ، حتى تبسط سلطانها على
الناس ، يقول :

يَحْفُ به قومٌ على كلِّ سابحٍ	تُعَدُّ المنايا في الحروب مُناها
ولا جمعوا مالا ولا كسبوا لهم	قُصورا ولا باهوا برفع بُناها
وما ادَّخروا إلا حُساما وذابلاً	ومُهراً يبارى الرِّيحَ عند سُرَّها
وما قصدوا من سَفْكَهم لدمِ العدا	وتَطْويقهم بالسَّيفِ بيضَ طُلاها (١)
سوى أنهم يُحيون شرعةَ أحمدٍ	ويَنفون عنها داءها يدَوَّها
سيغسل عنها السيفُ أدْرانَ بدعةٍ	فُيشرق في الآفاق نورُ سَنَّاها

ويذكر بعض مترجميه أن الشاعر نظم هذه القصيدة في سن مبكرة ، ولكن مقدمتها
وما ترسمه من الجهاد لمصلح ديني وأنصاره يريدون إحياء السنة المحمدية وغسلها من أدْران
البدع المستحدثة في الحياة اليومية ، وأنهم لا يريدون بذلك مالا ولا قصورا مشيدة ، إنما
يريدون درء المنكرات ، وإنهم ليحملون في سبيل ذلك السيوف حتى يكف الناس عن هذا
الغى والضلال . كل ذلك يشهد بأن المقصود في القصيدة محمد بن عبد الوهاب وأنصاره
بزعامته محمد بن سعود الذين جردوا سيوفهم ورماحهم لحمل الناس في الجزيرة العربية على
الدعوة الوهابية . وفي الديوان دالية يعلن فيها تبرؤه من ابن عبد الوهاب ودعوته ، وأكبر
الظن أنها موضوعة على لسانه أقحمت من قديم على الديوان تقرباً للأمراء الزيديين من بيته ،
وفي الحق أنه كان يحمل نفساً ثائرة تحب الحق وتؤثره ولو كان فيه خصومة لأهله ويبدو أن
بعض خصومه استغلوا موقفه مع الوهابيين فكانوا يَشُون به لأئمتهم مما أدى أحيانا إلى سجنه
على نحو ما نرى في قوله سنة ١١٦٦ للهجرة :

وما حبسوني أننى جئتُ مُنْكَراً ولا أننى نافستُ في الملك والكُرْسَى
ولكننى أَحْبَبْتُ سَنَةَ أحمدٍ وأبرزْتُها شمساً على العُربِ والفرسِ
وكان أهل بيته من الأئمة يتلقبون ألقابا كثيرة ، وقد لا يكتفى الإمام بلقب واحد بل
يتخذ لقبين أو أكثر مثل الإمام المتوكل على الله شرف الدين والإمام الأعظم المهدي لدين

(١) الطلي : جمع طلية وهى أصل العنق .

، وكأنما كان ذلك يؤذى نفسه أن يسمع تلك الألقاب ولا يرى لأصحابها أعمالاً حميدة ، بل يرى أعمالاً ذميمة فقال :
تسمّى بنور الدين وهو ظلامه وهذا بشمس الدين وهو له خسف
وذا شرف الإسلام يدعوه قومه وقد نالهم من جورهم كلّهم عسف
رؤيتك يا مسكين سوف ترى غداً إذا نُصب الميزانُ وانتشر الصُّحفُ
بماذا تُسمّى هل سعيدٌ فحبذا أو اسمٌ شقيٌّ ينسُ ذا ذلك الوصفُ
وهو نقد شديد بل تجريح للأئمة من بيته في عصره وقبل عصره . وكان لا يخشى في الله لومة لائم . وديوانه يحتفظ بالمواعظ والأدعية والابتهالات إلى الذات العلية ، وله قصيدة في التقوى ختم جميع أبياتها بشهادة : لا إله إلا الله ، وله غير مدحة نبوية وأيضاً له قصيدة في مديح على سماها «التحفة العلوية» وكتب عليها شرحاً سماه «الروضة الندية» . وله أشعار في فنون البديع المختلفة وخاصة في التورية وهو يكثر من التضمين في أشعاره وخاصة من شعر المتنبي . وطالت حياته حتى سنة ١١٨٢ للهجرة وبذلك يكون قد سبق محمد بن عبد الوهاب في الوفاة بنحو ربع قرن تقريباً .

ابن مشرف الأحسانى (١)

هو أحمد بن علي بن حسين بن مشرف الوهبي التيمي الأحسانى ، وُلد وعاش في الأحساء ولا يُعرف تاريخ مولده . وبدأ في نعمة أظفاره بحفظ القرآن الكريم على شاكلة لداته ، ثم أخذ يختلف إلى حلقات العلماء في موطنه ، والتهم كل ما وجد في هذه الحلقات من معارف وخاصة ما اتصل بالفقه والعربية ، واعتنق المذهب المالكي مثل آبائه . وليس في ديوانه ما ينبئنا عن أحواله في فواتح حياته أو في شبابه المبكر ، وقصائده فيه مؤرخة على السنوات ، وهي تمتد من سنة ١٢٤٥هـ / ١٨٢٩م إلى سنة ١٢٨٣هـ / ١٨٦٦م وأكثرها أو قل جمهورها في مديح فيصل بن تركي ، والسنة الأولى هي نفس السنة التي استولى فيها السعوديون على الأحساء ، وكان شعره جميعه تظله الدولة السعودية إذ توفي سنة ١٢٨٥هـ / ١٨٦٨م . وهو في ديوانه يعتنق الدعوة الوهابية وكأنما يعيش لها وبها ، فهي كل حياته وكل أفكاره وكل مشاعره ولا نعرف هل تاريخ اعتناقه لها يسبق امتداد الدولة السعودية إلى الأحساء في سنة ١٢٤٥ أو أنه يقترن بتلك السنة ، على كل حال الديوان كله

(١) انظر في ابن مشرف وحياته وأشعاره شعراء هجر
ص ٧٧ ومقدمة الناشر لديوانه (طبع الرياض) .

مستوحى من الدعوة الوهابية بل قل إنه صادر عنها ، أو قل إنها مادته سواء تغنى بآب
عبد الوهاب وأفكاره أو تغنى بفيض وأعماله أو بغيره من قواده . فالدعوة الوهابية مادة
الديوان وابن مشرف ليس متضامنا معها فحسب ، بل هو أداة من أدواتها يذيعها ويناضل
عنها خصومه ويؤيدها بكل ما استطاع من حجة وبرهان . وقد سمي أول قصيدة في الديوان
باسم جوهرة التوحيد وهو يستضيء فيها بما كتبه محمد بن عبد الوهاب عن التوحيد ،
ويستلهمها بالحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأزواجه وأصحابه ثم تتوالى
فصولها وأولها فصل عن الإيمان وفيه يقول :

الخيرُ والشرُّ جميعُهُ صَدَرَ مِنْ أَمْرِ رَبِّنَا وَذَا هُوَ الْقَدَرُ
وَمَرَّبَنَا أَنْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ كَانَ يَدْعُو إِلَى الْإِيمَانِ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ وَأَنْ كُلُّ شَيْءٍ
مَقْدَرٌ عَلَى الْإِنْسَانِ مِنْذُ الْأَزَلِّ وَلَا صِحَّةَ لِمَا يَقُولُهُ الْمُعْتَزَلَةُ مِنْ أَنَّ الْإِنْسَانَ كَامِلَ الْحَرِيَّةِ فِي
تَصَرُّفَاتِهِ يَأْتِي وَيَتْرَكُ مِنَ الْأَفْعَالِ مَا يَرِيدُ فَهُوَ خَالِقُ أَفْعَالِهِ بِاخْتِيَارِهِ . ويرد على ذلك ابن
مشرف بعبارة أوضح في موضع آخر منشدا :

وَكُلُّ شَيْءٍ قَضَاهُ اللَّهُ فِي أَزَلٍ طَرًّا وَفِي لَوْحِهِ الْمَحْفُوظِ قَدْ سُطِّرَا
وَاللَّهُ خَالِقُ أَفْعَالِ الْعِبَادِ وَمَا يَجْرِي عَلَيْهِمْ فَعَنْ أَمْرِ الْإِلَهِ جَرَى
فَلَيْسَ فِي مُلْكِهِ شَيْءٌ يَكُونُ سِوَى مَا شَاءَهُ اللَّهُ نَفْعًا كَانَ أَوْ ضَرًّا
ويعقد فضلا لأنواع التوحيد . ويقول كما قال محمد بن عبد الوهاب ، إن أضرب
الوحدانية ثلاثة ويعدّها على هذا النمط :

توحيدُ رَبِّ النَّاسِ فِي الْمُلْكِ وَفِي صِفَاتِهِ وَفِي الْعِبَادَةِ اقْتَفَى
فالأولى وحدانية الربوبية وهي اعتقاد كون الملك لله وحده لا شريك له ، فهو
المتصرف فيه بالخلق والتكوين والرزق والحياة والموت . والثانية وحدانية الأسماء
والصفات ، من مثل الحى الباقي القديم الأول الآخر الصمد الواحد الفرد السميع العالم
البصير المريد القدير والثالثة وحدانية العبادة لله وأنه لا شريك له ولا معبود سواه .

ويشير ابن مشرف تبعاً لمحمد بن عبد الوهاب المشكلة القديمة لعصر المأمون والمعتمد
والوائق مشكلة خلق القرآن وعدم خلقه أو مشكلة حدوثه وعدم حدوثه ، وهى المشكلة
التي ورّط المعتزلة فيها هؤلاء الخلفاء وجعلوهم يحاولون أن يحاكموا على أساسها بعض
الفقهاء ممن لا يقولون بخلق القرآن وفي مقدمتهم ابن حنبل إمام الوهابية . ويقول ابن
مشرف إن القرآن الكريم عين كلام الله لفظاً ومعنى والخلق إنما هو نطق الناس به يقول :

الصوتُ للقارئ والكلامُ لله ذا به قد استقاموا
فاللفظ والمعنى من القرآن قد نزلَا من ربنا الرحمن
ومن يُقْلُ بخلقه أو سطره فهو مُضِلٌّ فاستعِذْ من شره
وكان المعتزلة يزهون الذات العلية عن مشابهة المخلوقات فهو ليس جسماً ولا عرضاً
ولا مادة ولا جوهرًا ولا يحيط به مكان ولا زمان ، وأولوا الآيات التي قد تفيد مشابهة مثل
(ثم استوى على العرش) بأن الاستواء في الآية بمعنى الاستيلاء ومثل (يدُ الله فوق أيديهم)
أولوا اليد في الآية بمعنى القدرة . ونفوا الصفات عن الله لأنها من عوارض الأجسام في
رأيهم وقالوا إنها عين الذات . وكل ذلك ردّه محمد بن عبد الوهاب متابعاً ابن تيمية وابن
حنبل ، وأخذ مثلها في الآيات التي تفيد التشبيه بفكرة التنزيه مع الإيمان بما جاء منها في
القرآن ، وعلى ضوء من ذلك كله يقول ابن مشرف :

اللهُ ذو العرشِ على العرش استوى وعلمهُ لكلُّ شيءٍ قد حوى
وما اقتضى التشبيهُ مثلَ العينِ والوجهِ والإصبعِ واليدِ
تؤمنُ به لكن مع التنزيهِ له عن التمثيلِ والتشبيهِ
من شبه الله بخلقه كفرٌ ومن نفى صفاته أصلي سقرٌ
وهو في البيت الأخير يحكم على من ينفي الصفات وهم المعتزلة كما أسلفنا بالكفر ويقول
إن الله يخلق أفعال العباد ولكن لهم كسبا وكل امرئ يحاسب على ما كسبت يده ،
ويتحدث عن إرسال الرسل ورسالة النبي ﷺ ومعجزاته من القرآن كالعراج ويشيد
بأبي بكر وعمر وعثمان وعلى وباقي العشرة المبشرين بالجنة وبأصحاب المذاهب الأربعة
وبسفيان الثوري وداود الظاهري . ويطيل في الحديث عن البعث والمعاد والحساب .
وبذلك يختم الحديث عن النوع الثاني من أنواع الوجدانية وهي وجدانية الأسماء والصفات
ويأخذ في الحديث عن النوع الثالث من أنواع الوجدانية وهو وجدانية العبادة ، فالله وحده
هو الذي يُعبدُ دون سواه ، وهو وحده الذي تقدّم إليه النذور ، ومن الشرك تقديمها لسواه
وأيضاً من الشرك القسّمُ بغيره يقول :

الحلفُ مطلقٌ بغير الله شركٌ بلاشكٌ ولا اشتباه
ويهاجم زيارة القبور : قبور الأولياء والصالحين وما بُني عليها وشيّد من قُبِّ والطواف
حول تلك القبور تقرباً ، وسؤال الناس أصحابها أن يدفَعوا عنهم الأذى ويحبّلوا لهم
النفع ، بل إنهم ليتوجهون إليهم بالدعاء ، كلما أحاط بهم كرب ، طلباً للنجاة ، يقول :
ألم تنظر الشرك الذي فيهم فشا فكّم قبيّة قد شيّدوها على قَبْرِ

وطافوا عليها خاضعين تقرباً إلى ذلك المقبور بالذَّبْحِ والنَّذْرِ
وكم سألوا الأموات كَشَفَ كروبهم ولا سِماً في الفُلْكِ في لُججِ البَحْرِ
فزادوا على شِرْكِ الأوائل إذ دعوا سِوى الله في حالِ الرِّخاءِ وفي العُسْرِ
وعلى هدى من الدعوة الوهابية مضى يهاجم كل ما هاجمته ، وكان مما استحدث في
الجزيرة التذكير قبل الأذان للصلاة ، وعُتِفَت الدعوة الوهابية المؤذنين على هذا التذكير ،
ورأت منعه منعاً باتاً ، واصفة له بأنه بدعة وينبغي الكف عنها ، وفي إثرها يقول ابن
مشرف :

وسلَّ فاعَلَ التذكير عند أذانه أهذا هُدى أم أنت بالدِّين تلعبُ
وهل سنَّ هذا المصطفى في زمانه أو الخلفا أو بعضُ من كان يصحبُ
واستمر يتساءل هل سنَّ التابعون أو سنَّ أحد أصحاب المذاهب الفقهية ، وانتهى إلى
أنه من الأمور المحدثات التي ينبغي أن تجتنب ، قائلًا إن العلم ينبغي أن لا يؤخذ إلا من
الكتاب والسنة . ويخص هذه الفكرة بقصيدة بحث فيها على الأخذ بنصوص الحديث
النَّبوي وآيات الذكر الحكيم ، ويسميها وحيين ، وتسميته الذكر الحكيم وحياً واضحة ،
أما تسميته الحديث بالوحي فلأنه إلهام وهدى رباني ، يقول :

وقدَّمَ أحاديث الرُّسولِ ونَصَّه على كلِّ قولٍ قد أتى بإزائه
وإن جاء رأىٌ للحديث معارضٌ فللرأى فاطرحْ واسترح من عنائه
ومن يكن الوحيُّ المطهر علمه فلارِب في توفيقه واهتدائه
وكلُّ فقيه في الحقيقة مُدعٍ ويثبت بالوحيين صدقُ ادِّعائه

فالكتاب والحديث هما مدار الفقه والفتوى ، فما يرسمه القرآن ويبينه الحديث هو الدين
الحنيف ، وعلى العقل أن يسير وراءهما شارحاً ومفسراً ومبيناً ، لا موجهاً ولا متحكماً
ولا مؤولاً . . وعلى هذا النحو تتجلى في شعر ابن مشرف دائماً الدعوة الوهابية بكل ما
اتصل بها من مبادئ وتعاليم .

٥

شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية

لعل أكبر بيئة عربية شهدت شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية هي بيئة مكة
والمدينة ، فلم يكن هناك زاهد ناسك ولا متصوف عابد إلا ويحج البيت الحرام ولم يكن

هناك مآدح للرسول ﷺ . إلا ويسعى إلى زيارة ضريحه العطر وإنشاده مديحه ، غير من كان يقيم في البلدتين المقدستين من أهلها النساك . وقد ذكرنا في غير هذا الموضع كيف أن كبار المتصوفة المتفلسفة منذ الحلاج كانوا يتزلون في مكة ويجاورون فيها ، وقلنا إنه نزلها ابن عري وجاور فيها سنوات ، وفيها ألف الفتوحات المكية وديوانه الصوفي «ترجمان الأشواق» وفيه يقول :

مَرَضِي مِنْ مَرِيضَةِ الْأَجْفَانِ عَلَّلَانِي بِذِكْرِهَا عَلَّلَانِي
هَفَّتِ الْوُرُقُ بِالرِّيَاضِ وَنَاحَتْ شَجَوُ هَذَا الْحَمَامِ مِمَّا شَجَانِي (١)
وشاع الديوان في مكة والمدينة وفي اليمن وتناقله الحجاج . ومن متفلسفة المتصوفة وشعرائهم الذين جاوروا في مكة ابن سبعين ، أقام بها سنوات طويلة حتى توفي سنة ٦٦٩ وكان يقول بالاتحاد والحلول ، ومن شعره (٢) :

مَنْ كَانَ يُبْصِرُ شَأْنَ اللَّهِ فِي الصُّورِ فَإِنَّهُ شَاخِصٌ فِي أَكْمَلِ الصُّورِ
بَلْ شَأْنُهُ كَوْنُهُ بَلْ كَوْنُهُ كُنْهُهُ فَإِنَّهُ جَمْلَةٌ مِنْ بَعْضِهَا وَطَرَى
ووراء ابن سبعين وابن عري والحلاج كان يتزل بمكة والمدينة المتصوفون السنيون وفي مقدمتهم القشيري الذي لم يثقل الفرقة بين الصوفية وأهل السنة كما مررنا في غير هذا الموضع . ونزلها الغزالي وشهاب الدين السهروردي العراقي وأقام بها ابن الفارض خمسة عشر عاما نظم فيها كثيرا من أشعاره الصوفية الوجدانية من مثل قوله :
هُوَ الْحُبُّ فَاسْلَمْ بِالْحَشَا مَا الْهَوَى سَهْلٌ فَمَا اخْتَارَهُ مُضَيٌّ بِهِ وَلَهُ عَقْلٌ
وَعِشْ خَالِيَا فَالْحُبُّ رَاحَتُهُ عَنَّا وَأَوَّلُهُ سُقْمٌ وَآخِرُهُ قَتْلٌ
وَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَحْيَا سَعِيدًا فَمَتَّ بِهِ شَهِيدًا وَإِلَّا فَالْغَرَامُ لَهُ أَهْلٌ
ولم يبق مآدح للرسول ﷺ إلا زار المدينة ، لتأرج روحه بعطر قبره ، وقد زارها البوصيري أكبر مداح الرسول ، وفيه نظم همزيته في نحو أربعائة وخمسين بيتا ، وسماها «أم القرى في مدح خير الورى» وكذلك ميميته المشهورة باسم البردة ، وقد تناقلها الناس في مشارق العالم الإسلامي ومغاربه إعجاباً وافتناناً . ومديح الرسول قديم منذ ابن دريد في مطلع القرن الرابع الهجري . ولكن لم تنل قصيدة في مديح الرسول حُظوة هاتين القصيدتين .

وبجانب المدائح النبوية وأشعار التصوف المهاجرة إلى المدينتين المقدستين هاجرت إليهما أشعار زهد كثيرة ، كان يرددها النساك والعباد والمجاورون بمكة والمدينة ، على نحو ما نجد في

(١) هفت الورق : خفق الحمام بأجنحته . (٢) العقد الثمين ٣٣٩/٥ .

ديوان الزمخشري الذي جاور في مكة طويلا ، حتى لُقّب « جَارُ اللَّهِ » . وكان هؤلاء المجاورين الكثيرون يضمنون الزهديات مصنفاتهم التي يؤلفونها في مكة أو المدينة ، ومن يقرأ تفسير الزمخشري الذي ألف بمكة والذي سماه الكشف يجده عند تفسير الآية الكريمة : (إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها) ^(١) ينشد توسلاً لطيفاً لشاعر على هذه الصورة :

يا من يرى مدَّ البعوض جناحها في ظلمة الليل البهيم الأليل ^(٢)
ويرى عروق نياطها في نحرها والمخ في تلك العظام النحل
اغفر لعبدٍ تاب من قُرطاته ما كان منه في الزمان الأول

ولترك المجاورين بالحرمين الشريفين إلى سكان البلدتين ، ومن أهم من تلقاه ابن ظفر ^(٣) المولود بمكة في شعبان سنة ٤٩٧ وبها نشأ ، واختلف إلى حلقات العلماء فيها ينهل عنهم ، وكان ذكيا ذكاء شديدا ، وحُببت إليه الرحلة ، فارتحل إلى صقلية ، وبها ألف لحاكمها في سنة ٥٥٤ كتابه «سلوان المطاع في عدوان الأتباع» وهو كتاب نفيس ترجمه المستشرقون إلى الإنجليزية والإيطالية ، ويمتلى بأشعاره ، وهى تصور زهده وتقشفه مع براعة في نسج الشعر ونظمه من مثل قوله ^(٤) :

يا مُتعباً كدَّه الحرُّ صُ في الفضول وكادَّه
لو حُزَّتْ ما حاز كسرى وما حوى وأفاده
ما كنت إلا مُعنىً ومُغرماً بالزيادة
لم يَصِفُ في الأرض عيشٌ إلا لأهل الزَّهادَة

ولم يكن يقول ذلك عظة أو تمثلا ولكن كان يقوله عن اقتناع ، فقد كان أحد من رفضوا الدنيا وعاشوا فقراء زاهدين ، تكفيهم الكسرة . وكان يتحول واعظا كلما نزل بلدة ، ونزل بلادا كثيرة ، نزل مصر وبلاد المغرب وعاد إلى المشرق ، فألم ببغداد ودمشق ثم نزل حماة واستوطنها إلى وفاته سنة ٥٦٧ . ومن زهدياته ^(٥) :

راقك الزهد إنما الزهد رقصُ لفضولٍ تُلهى وتُطغى وتردى ^(٦)
مرحبا بالكفاف عيشا هنيئا ثم لا مرحبا بمرحوصٍ وكدِّ
لا يزال الحريصُ يستامه الحرُّ صُ يُنصب من الشقاء ونكدٍ ^(٧)

(١) سورة البقرة : الآية رقم ٢٦ .

(٢) الأليل : شديد السواد .

(٣) انظر في ابن ظفر الخريدة (قسم الشام) ٤٩/٣ وابن

خلكان ٣٩٥/٤ ومعجم الأدياء ٤٨/١٩ والوافى

١٤١/١ والعقد الثمين ٣٤٤/٢ .

(٤) الخريدة (قسم الشام) ٥٥/٣ .

(٥) نفس المصدر ٥٦/٣ .

(٦) تردى : تهلل .

(٧) يستامه : يذله ويصرفه .

ثم لا يستطيع أن يتعدى قدرا ما لحكمه من مردّ
فهو ينصح بعيش الكفاف وبالزهد في كل ما وراء ذلك من فضول ومتع لا تفيد إلا
اللهو والطغيان والهلاك إن كان يمكن أن يفيد الطغيان والهلاك أحدا . ولا يزال الخريص
يدفعه حرصه إلى غير قليل من الشقاء والنكد والتعب ، ومع ذلك لن يعدوا ما كتبه له
القضاء .

ولشعراء مكة والمدينة مدائح نبوية كثيرة ، على نحو ما نجد عند النّشو ، وقد سقنا
له في ترجمته مثالا ، ولحب الدين الطبري المكي المتوفى سنة ٦٩٤ مدحة نبوية استلها
بقوله : « رحلت إلى المختار خير البرية » ذكر فيها المنازل بين مكة والمدينة ، ولابنه محمد
مدحة نبوية بارعة يقول في أولها (١) :

أَنْخُ أَيُّهَا الصَّادِي الشَّدِيدُ ظَاوُهُ وَرَدُّ مَهْلًا أَحَلَّى مِنَ الشَّهْدِ مَاوُهُ
وَسَلُّ عِنْدَ بَابِ الْمُصْطَفَى أَيْ حَاجَةٍ أَرَدْتُ وَمَا تَهْوَى فَرَحْبُ فِنَاوُهُ
ووراء هاتين المديحتين عشرات من المدائح يكفي أن نشير إليها ، ولشاعر متأخر يسمى
عبد العزيز الزمزمي المكي ديوان مديح في الرسول والصحابه .

وكثر بجانب ذلك الغزل الصوفي في مكة والمدينة ، من مثل قول أبي إسحق المكي
المتوفى سنة ٧٢٣ للهجرة (٢) :

مُعَذِّبَتِي كَمْ ذَا الصُّدُودُ إِلَى مَتَى مَضَى عُمْرِي وَالْوَصْلُ مِنْكَ أَرُومُ
فَجُودِي وَرَقِي أَوْ فُجُورِي وَعَذِّبِي فَمَا الْقَلْبُ إِلَّا فِي هَوَاكَ مُقِيمُ
وفي كتابي سلافة العصر ونفحة الريحانة لشعراء مكة والمدينة في القرن الحادي عشر
المهجري مدائح ومناجيات وتوسلات مختلفة (٣) .

وإذا تركنا الحجاز إلى اليمن لقينا قصيدة بديعة لأبي بكر العيذي ابتدأها بوصف غرام
له بالحجاز ليس يدفعه ، وينقاد له قلبه ويتبعه ، ويأخذ في وصف مكة ويذكر مناسك
الحج منسكا منسكا ، ثم ينتقل إلى وصف يثرب بمثل قوله (٤) :

وَفِي رُبِّي يَثْرِبُ غَايَاتُ كُلِّ هَوًى يَجِلُّ عَنْ مَوْقِعِ الْأَشْوَاقِ مَوْقِعُهُ
حَيْثُ النَّبُوءَةُ مَضْرُوبٌ سُرَادِقُهَا وَالْفَضْلُ شَامِخٌ طَوْدِ الْفَخْرِ أَفْرَعُهُ
وَخَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ الْمُصْطَفَى شَرَفًا مُحَمَّدٌ بَاهِرُ الْإِشْرَاقِ مَضْجَعُهُ
صَلَّى الْإِلَهُ عَلَيْهِ مَا تَكَرَّرَ بِالْصَّ لَآلَةِ قَرَضٍ مُصَلٍّ أَوْ تَطَوُّعِهِ

(٣) انظر مثلاً سلافة العصر ص ١٤٧ ، ٢٥٤ .

(١) العقد الثمين ١/ ٢٩٥ .

(٤) الخريدة (قسم الشام) ٣/ ١٨٤ .

(٢) العقد الثمين ٣/ ٢٤٥ .

والقصيدة تكتظ بالحنين إلى الحج وزيارة قبر الرسول عليه السلام ، حيننا يشمل كل المواضع هناك ، وكأنما يريد أن يعانقها ، فهي هواه وحبه وأماكن افتتاحه وصباته . وتكثر في اليمن كما كثرت في مكة والمدينة الأدعية والابتهالات كما يكثر الشعر الصوفي والمديح النبوى ، ومن اشتهر بهما عبد الله ^(١) بن أسعد اليافعى اليمنى نزيل مكة وشيخ الحرم ، ولد سنة ٦٩٨ ونشأ بعدن واختلف إلى العلماء فيها ، وحج في سنة ٧١٢ وعاد فأحب الخلوة والانقطاع عن الناس والسياحة في الجبال ، ولزم شيخا صوفيا يسمى الشيخ الطواشى ، فسلكه في الطريق . وعاد إلى مكة وجاور بها ملازما للعلماء نحو عشر سنوات ، ورحل إلى الشام ، كما رحل إلى مصر وكانت أكثر إقامته بها في القرافة في مشهد ذى النون المصرى . وعاد إلى الحجاز وجاور بالمدينة مدة ثم تركها إلى مكة ، وعاد إلى اليمن سنة ٧٣٨ لزيارة شيخه الطواشى . وألقى عصاه بمكة وتوفى بها سنة ٧٦٨ وله في الصوفية وتراجمهم كما مر بنا كتاب « روض الرياحين وحكايات الصالحين » ومن غزله الصوفى قوله ^(٢) :

قَفَا حَدَّثَانِي فَالْفَوَادُ عَلِيلُ عَسَى مِنْهُ يُشْفَى بِالْحَدِيثِ غَلِيلُ
أَحَادِيثُ نَجْدٍ عَلَّلَانِي بِذِكْرهَا فَقَلْبِي إِلَى نَجْدٍ أَرَاهُ يَمِيلُ
وَلَا تَذَكَّرَا لِي الْعَامِرِيَّةُ إِنَّهَا يَوْلَهُ عَقْلِي ذَكَّرَهَا وَيُزِيلُ
وَلَكِنْ بِذِكْرِي عَرْضًا عِنْدَهَا فَإِنْ تَقُلْ كَيْفَ هُوَ قُولًا بِذَاكَ غَلِيلُ
فَإِنْ تَعْطِنِي يُشْفَى وَإِنْ تُعْرِضَنِي فَنِي هَوَاكِ الْمَعْنَى الْمُسْتَهَامُ قَتِيلُ

وهو يصور حبه ووجده وهيامه بليلي العامرية رامزا بها إلى الذات الإلهية دون تغلغل في حلول أو اتحاد أو فناء ، فتصوفه تصوف سنى ، يقف عند إعلان المحبة الإلهية ولا يعدوها ، فهو محب مولاه ، وحسبه أن يصور ولده وحبه . وله بجانب هذا الغزل الصوفى مدائح نبوية كثيرة ، من مثل قوله في إحدى مدائحه ^(٣) :

نَبِيٌّ عَلَا فَوْقَ السَّمَوَاتِ مَنَصِبًا بَدَا نُورُهُ مِنْ قَبْلِ نَشْأَةِ آدَمَ
بِهِ الدَّهْرُ أَضْحَى ضَاكِحًا مَتَسِمًا عَبَّوسًا عَلَى أَعْدَائِهِ غَيْرَ بِاسْمِ
عَلَا فَوْقَ كُلِّ الْمُصْطَفَيْنِ مُقَرَّبًا بِأَعْلَى مَقَامٍ مَالَهُ مِنْ مُزَاحِمِ
وهو في البيت الأول يستلهم فكرة الحقيقة المحمدية المعروفة عند الصوفيين وما يتصل بها من فكرة أزلية النور المحمدى . وابنه عبد الرحمن يحاكيه في الجانبين من شعر التصوف

(١) انظره في العقد الثمين ١٠٤/٥ والنجوم الزاهرة

٩٣/١١ والدرر لابن حجر (طبع دار الكتب الحديثة)

٣٥٢/٢ والبدرد الطالع ٣٧٨/١ وتاريخ ثغر عدن

لباخمة ١٠٩/٢

(٢) العقد الثمين ١١١/٥

(٣) العقد الثمين ١١٤/٥

ثم المديح النبوى . ومن شعراء التصوف اليمنيين محمد بن إبراهيم بن الوزير^(١) ، وله ديوان سماه «مجمع الحقائق والرفائق في ممدوح رب الخلائق» . وقد نشر في القاهرة باسم مدائح إلهية ، وعُني محمد بن إسماعيل الصنعاني الذى ترجمنا له بين شعراء الدعوة الوهابية بشرحه وسمى الشرح : «فتح الخالق في شرح مجمع الحقائق» . وقد ترجم له الشوكاني في كتابه البدر الطالع ترجمة ضافية ذكر فيها أنه ولد سنة ٧٧٥ وقال إنه عُني بالتأليف وذكر بعض مؤلفاته ، وقال إنه لم يلبث أن أقبل على العبادة وانقطع عن الناس حتى وافاه أجله سنة ٨٤٠ هـ / ١٤٣٦ م . والديوان جميعه شعر صوفى سنى ، ولكنه لا يتخذ الغزل وسيلة في التعبير ، بل يسلك إلى ذلك مسالك العباد النساك من التوجه إلى الله بالتضرع والرجاء وحسن التوكل والشكر والتخويف من غضب الله وطلب العفو منه والغفران ، على شاكلة قوله في التضرع والرجاء والتوكل :

أَرْجِيكَ إِذْ كُنْتَ أَهْلَ الرَّجَا	وَأَخْشَاكَ إِنِّي مِنَ الظَّالِمِينَ
وَأَسْأَلُكَ الْعَفْوَ إِذْ كُنْتَ قَدْ	عَلِمْتُ بِجَبِّكَ لِلْسَّائِلِينَ
وَفَوَّضْتُ أَمْرِي بَعْدَ الدُّعَا	بِحَقٍّ إِلَى أَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ
إِذَا شِئْتَ أَغْفِيَنِي مِنْ ذُنُوبِي	وَسَامَحْتَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ
وَهَذَا الَّذِي أَنْتَ أَهْلٌ لَهُ	وَأَنْتَ تَحْتُّ بِهِ الْمُحْسِنِينَ
وَأَنْتَ الَّذِي قُلْتَ لَا تَقْنَطُوا	خِطَابًا خَصَّصْتَ بِهِ الْمُسْرِفِينَ

وهو يشير في البيت الأخير إلى قوله تعالى : (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ) . وهو يكثر من نظم الآيات القرآنية في الديوان ، وهذه الأبيات من أعذب ما فيه لغة وأسلوبا . وتبدو الكثرة وكأنها شعر وعظ مرصوف أو مركوم بعضه فوق بعض . وربما كان الذى دفع محمد بن إبراهيم بن الوزير إلى هذه الطريقة في شعر التصوف معاصره إسماعيل^(٢) بن أبى بكر المعروف بالمقرئ الشافعى شيخ الفقهاء فى زَيد وتهامة ، فإنه حين رأى جماعة من صوفية زَيد أوهموا من ليس له كثير نباهة علو مرتبة ابن عربى ونفى العيب عن كلامه هاجمه وهاجم طريقته وكل ما اتصل بها من فناء فى الله جل شأنه ومن حلول واتحاد ، وأودع ذلك قصائد طنانة كان لها دوى بعيد فى اليمن فانصرف الشعراء أو كثير منهم فى عصره - كما يبدو - عن الشعر الصوفى القائم على تصوير

(١) انظر البدر الطالع ٨١/٢ وراجع ديوانه «مدائح إلهية» طبع المطبعة السلفية بالقاهرة .
(٢) انظر فى ترجمته البدر الطالع ١/١٤٢ .

الحجة الإلهية ، تصوريا ينتهى إلى الإيمان بالاتحاد بالذات العلية وما إلى ذلك مما يردده أصحاب المتزاع الصوفى الفلسفى .

ويفيض كتاب نشر العرف بشعر وعظ وزهد كثير فى الحقب المتأخرة على أنه ينبغي أن نذكر أنه شاع فى اليمن شعر صوفى متجول بأخرة من العصر كان المداحون يغنونه على نقر الطار والطلل ، وأكثره فى المديح النبوى لأكبر صوفية اليمن عبد الرحيم البرعى ، وسنخصه بكلمة مفردة .

ويكثر المديح النبوى والشعر الصوفى فى حضرموت ويفيض كتاب تاريخ الشعراء الحضرميين بهما وبزهديات كثيرة ، حتى ليظن الإنسان أنه لم يوجد شاعر هناك إلا وتغنى بمدح الرسول ﷺ . وبعض غزليات صوفية وأشعار زهدية ، ولأبى بكر العيدروس^(١) المتوفى سنة ٩١٤ هـ / ١٥٠٨ م ديوان صوفى سماه محجة السالك وحجة الناسك وهو يزخر بالشعر الصوفى ، وكثير منه بالعامية اليمنية ، فهو - كما يسمونه - شعر حُمينى . وهو صوفى سنى وجميع صوفية حضرموت سنيون ومن قوله :

نعم لو صحَّ تحقيقى شهودى لأشغلى الشُّهُودُ عن المقالِ
ولوحلَّ اليقينُ صميمَ قلبى لكنت هجرتُ فى المؤلى الموالى
ولو كان الحضورُ نزيلَ صدرى لما بالغيرُ لذلَّ لى اتصالى
وهو يصرح بأنه لم يصل إلى مرتبة الشهود للحضرة الإلهية فضلا عن الفناء فى الذات

العلية وانفصاله عن وجوده البشرى ، حتى لا يكون هناك موجود ولا مشهود سوى الله . وهو بذلك صوفى سنى ، ويناجى ربه مناجيات كثيرة خاشعا متضرعا ، ويمدح الرسول ﷺ وهو يُعد من كبار الصوفية الحضارمة . ولعمر^(٢) باخرمة المتوفى سنة ٩٥٢ هـ / ١٥٤٥ م شعر صوفى تكثر فيه المناجيات والاستغاثات والتوسلات والمدائح النبوية ومن قوله فى أحد توسلاته :

اللهُ يا من لا إلهَ نؤمُّهُ إلا هو انظرْنى بعينِ تَفَضُّلٍ
يامنْ هو الله العظيمُ ومن له ال عرشُ العظيمُ ومن عليه توكلِ
يامن يُغيثُ المستغيثَ يغيثُه غوثاه أدركنى عدمتُ تحيلى
ومن متصوفة حضرموت عبد الله^(٣) الحداد العلوى . وقد أنشد له الثقاف أشعارا كثيرة فى التصوف والزهد والمديح النبوى والرجاء والصبر على الشدائد وفى الأشواق والمواعظ وفى

(١) تاريخ الشعراء الحضرميين ١٠٥ / ١ وما بعدها . (٣) نفس المصدر ٢ / ٢٤ .

(٢) تاريخ الشعراء الحضرميين ١٣٠ / ١ .

المناجاة والاستغاثة بالله ، ومن قوله في استغاثة نبوية :

يا رسولَ الله يا أهلَ الوفا يا عظيمَ الخلق يا بحرَ الصِّفا
أنتَ بعدَ اللهِ نعمَ المرْتَجَى واللِّجَا يا مُجْتَبَى يا مصطفى
يا خِتامَ الرُّسُلِ يا خيرَ الوَرَى يا سَرِيعَ الغَوثِ أدركُ من هَفا

وفي كتاب السقاف مالا يكاد يحصى من أشعار صوفية وزهدية ونبوية ، وسنخصص أحد من ترجم لهم وهو عبد الرحمن بن مصطفى العيدروس بكلمة مجملة .

وإذا تركنا حضرموت إلى عُمان لاحظنا ما ذكرناه في غير هذا الموضع من أن الشعر الصوفي لم يشع في هذه البيئة لغلبة الخوارج عليها ، إذ المعقول أن يشيع هناك شعر الزهد والتقشف لا شعر التصوف بفرعيه السني والفلسفي . ونفس مدينة عُمان الإمامية حيناً والسنية حيناً آخر لم تعن بالشعر الصوفي الخالص . ونجد لشاعر النبهانيين السنين حكام عمان أحمد ابن سعيد الستالي الذي ترجمنا له بين شعراء المديح ميمية كلها ثناء على الله وعلى آلائه ، ويختتمها بدعوة حارة إلى الزهد والتقشف . ومن متأخري الشعراء هناك الحبسي وقد ذكرنا أن له ديواناً افتتحه بقصائد نبوية بعدد حروف الهجاء .

وتتحول إلى البحرين وطبيعي أن تسهم في شعر الزهد ، ومن يرجع إلى كتاب سلافة العصر يجد فيه لشعراء البحرين مناجيات ربانية ، ومواعظ مؤثرة ، وبعض أشعار صوفية من مثل قول أبي عبد الله محمد بن أبي شَبَابَةَ البحراني ^(١) :

لعمري لقد ضلَّ الدليلُ عن القَصْدِ وما لاح لي برقٌ يدلُّ على نَجْدِ
فَبِتُّ بليلٍ لا ينامُ ومهجةٌ تَقْلُبُ في نارٍ من الهمِّ والوَجْدِ
وقلْتُ عسى أن أهندي لسيلها بِنَفْحة طيبٍ من عَرارٍ ومن رَنَدٍ ^(٢)
وكم طامعٍ في حُبِّهم مات غُصَّةً وقد كان يَرْضَى بالمحال من الوَعْدِ

ولابن مشرف الأحسائي الذي ترجمنا له بين شعراء الدعوة الوهابية أشعار في الدعوة إلى الزهد ورفض متاع الحياة ، إذ تُضْحَكُ وسرعان ما تُبْكِي ، وما سرورها إلا أضغاث أحلام ، وحرى بالإنسان أن لا يبرح الموت خياله ، وأن يظل رافعاً له يديه نصب عينيه ، فكل من عليها فان ، ولن ينفع المرء إلا ما قدمت يداه . وله مدحة نبوية يشيد فيها بالرسول ورسالته الربانية . وحرى بنا أن نقف الآن عند عبد الرحيم البرعي اليمنى وعبد الرحيم بن مصطفى العيدروس الحضرمي .

(١) سلافة العصر ص ٥١٣ . ونفحة الرحمة ٣ / ١٨٩ . (٢) العرار والرند : من أزهار البادية .

عبد الرحيم البرعى^(١)

شاعر صوفي سنيّ بمعنى ، وليس لدينا معلومات واضحة عن مولده ونشأته ، ويقول ابن زبارة : « هو عبد الرحيم بن علي البرعى الهاجرى اليمنى سكن في النيابتين من جبل برع باليمن ، حيث اشتهر بالعلم والشعر ، وتوفى سنة ٨٠٣هـ / ١٤٠١م . وخطأ ما يقوله بروكلمان من أنه من شعراء القرن الخامس الهجرى وما يقوله نيكلسون من أنه من شعراء القرن الثاني عشر الميلادى . والديوان في جمهوره مقسوم بين تسيحات وتحميدات لله ومناجيات واستغاثات له وبيان وحدانيته ونعمه ولطفه ودلائل قدرته وبين مدح الرسول ﷺ والاستغاثه به والتوسل وبيان فضائله ومعجزاته وخصائصه وصفاته . وهو في القسم الأول يعبر تعبيراً حاراً عن تعلقه بربه ، ولا يتخذ لذلك صيغة الغزل الصوفي بالذات الإلهية وما يتبع ذلك من مجاهداته الروحية في المحبة الصوفية ونشوته بشهود الجمال الربانى وما يبعث فيه من لوعة ووجد وهيام على نحو مانجد عند ابن الفارض مثلاً ، إذ نجده يحاول بكل ما استطاع التخلص من عالمه المادى ليستغرق في العالم الربانى بل ليُمحى فيه محواً وليفنى فيه فناء مطلقاً . وكأنما فنيت فيه أو مُحيت كل إرادة وكل شعور ولم يعد يحس شيئاً إلا الذات العلية وجهاً الذى تفيض أشعته على الوجود .

عبد الرحيم البرعى إذن ليس شاعراً صوفياً بهذا المعنى وإنما بمعنى آخر هو تمجيد الذات العلية دون اتخاذ رموز الحب الصوفى ، وهو تمجيد يصور فيه عجائب الخلق الإلهى وعلم الله الذى وسع كل شىء وقدرته التى تسيطر على كل ذرة فى الكون ، مع حمده على آلائه ، ومع بسط بعض ما جاء فى القرآن من صفاته الربانية ، ومع المناجيات والدعاء والوعظ الجميل والحض على التوبة والعمل الصالح ، ومن بديع ماله قوله :

قِفْ بالخضوع وناذِ ربَّكَ يا هوْ إنَّ الكريم يُجيب من ناداهُ
واقصده منقطعاً إليه فكلَّ مَنْ يرجوه منقطعاً إليه كفاهُ
هو أوَّلُ هو آخرُ هو ظاهرُ هو باطنُ ليس العيونُ تراه
سكَّ عنه ذرَّاتُ الوجود فإنها تدعوه مَعْبُوداً لها ربَّاه

وهو يستخدم كلمة « هو » فى التعبير عن الذات الإلهية ، وهو استعمال مألوف عند

(١) انظر فى البرعى وأشعاره ملحق البدر الطالع لابن زبارة ص ١٢٠ وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان . (طبع دار المعارف) ٥٨/٥ وقد أخطأ فى اسمه واسم أبيه فسماه عبد الرحمن بن أحمد وانظر : « فى التصوف الإسلامى » لنيكلسون (ترجمة غفنى) ص ١٦٥ وشعر الغناء الصنعانى لمحمد عبده غانم ص ٥٥ و ١٨١ و ١٩٨ وديوانه طبع مراراً بالقاهرة .

الصوفية وخاصة في شعر الذكر ، إذ يهتفون : « هو هو » بسكون الواو وكأن كل ما في الوجود يغيب عنهم ما عدا الله ، وهم يصيحون بكلمة هو وكأنها تعينه وحده دون سواه مع عرفانهم به وبربوبيته . والقصيدة من أهم قصائد الغناء في اليمن ^(١) . ويستمر البرعى في القصيدة بمثل قوله :

أَبْدَى بِمُحْكَمِ صُنْعِهِ مِنْ نُظْفَةٍ بَشَرًا سَوِيًّا جَلَّ مَنْ سِوَاهُ
وَبَنَى السَّمَوَاتِ الْعُلَى وَالْعَرْشَ وَالْكَرْسَى ثُمَّ عَلَا الْجَمِيعَ عِلَالَهُ
وَدَحَا بَسِطَ الْأَرْضِ فَرَشًا مُثَبَّتًا بِالرَّاسِيَّاتِ وَالْبَنَاتِ حِلَالَهُ ^(٢)
تَجْرَى الرِّيحُ عَلَى اخْتِلَافِ هَبُوبِهَا عَنْ إِذْنِهِ وَالْفُلُكُ وَالْأُمُوهُ
وهو هنا يتحدث عن قدرة الله العظيمة وخلقته للإنسان وصنعه للكون وبسطه للأرض وتثبيتها برواسٍ من الجبال وتزينها بنبات بهيج ، وتسخير الرياح بين السماء والأرض وإجراء الفلك في البحر بريح طيبة ، وكل هذا يستمد من الذكر الحكيم لبيان قدرة الله التي تبسط سلطانها على كل ما في العالم كما قال جَلَّ شَأْنُهُ : (وسع كرسى السموات والأرض) فقدرته لا تحدُّها حدود . ويختم القصيدة بالتوسل إلى الله برسوله أن يشمل برحمته وكرمه وغفرانه ورعايته ورضاه ، يقول :

يَا ذَا الْجَلَالِ وَذَا الْجَبَالِ وَذَا الْكَرَمِ يَا مُنْعِمًا عَمَّ الْأَنْامَ نَدَاهُ
اقْبَلْ تَوَسَّلْنَا بِفَضْلِ مُحَمَّدٍ وَعَمَّنْ لَهُ فَضْلٌ لَدَيْكَ وَجَاهُ
وَأَشَدُّ عُرَى عَبْدِ الرَّحِيمِ بِرَحْمَةٍ إِنْ الْخَوَاطِثُ قَدْ فَصَّصْنَ عَرَاهُ
وَأَنَلُّهُ فِي دُنْيَاهُ كُلِّ كَرَامَةٍ وَقِهِ الَّذِي يَخْشَاهُ فِي أُخْرَاهُ
وَأَذَقَهُ بَرْدَ رِضَاكَ عَنْهُ فَلَمْ يَخِبْ مَنْ كَانَ عَيْنُكَ بِالرِّضَا تَرَعَاهُ

وتكثر هذه التوسلات في الديوان مع إعلان الطاعة والخضوع والتذلل لرب العالمين تذلل النفوس المخلصة المحبة لربها حبا يستأثر منها بمشاعرهما وعواطفهما فلا تستطيع عن تمجيد ربها انصرافا ولا حولا . ويقابل هذا القسم في الديوان قسم ثان يمكن أن نطلق عليه اسم المديح النبوى ولكنه مديح من نوع خاص مديح كله شغف وحب وتولة وهيام ووجد وبيان لمعجزات الرسول وفضائله وشيمه الكريمة . ولا تخلو مدحة من التوسل والتضرع إليه ليكون له شفيعا عند ربه ، فيشمله بعفوه ويرعاه في دنياه وأخراه ، ونسوق بعض أبيات من مدحة نونية له :

وَاللَّهُ مَا حَمَلَتْ أُثْنِي وَلَا رَضَعَتْ كَمَثَلِ أَحْمَدَ مِنْ قَاصٍ وَلَا دَانِي

(٢) دحا : بسط ووسع . الراسيات : الجبال .

(١) انظر شعر الغناء الصنعاني ص ١٨١ .

مهذبٌ شرف الله الوجودَ به وخصَّه بدلالاتٍ وبرهانٍ
ومعجزاتٍ بعدد الرمل لو كُتبت لم يُحصها ماء سيجانٍ وجيحانٍ
محمدٌ سيد الكونين والثقلين والفريقين من عجمٍ وعربانٍ
وسيجانٍ وجيحانٍ نهران في آسيا الصغرى . والآيات عذبة ، ومدائح البرعى للرسول
ﷺ من أسلس المدائح النبوية وأخفها وقعاً على الآذان ، بل إنها لتمتع الأسماع حين
تُصغى إليها كما تمتع الألسنة حين تنطق بها لما تمتاز به من صفاء وحلاوة موسيقية . ومن
روائع توسلاته قوله في خواتيم هذه المدحة :

ياسيدي يا رسول الله يا أملي يا مؤثلي ياملاذى يوم يلتقاني
هبنى بجاهك ماقدمت من زللي جوداً ورجح بفضل منك ميزاني
واسمع دعائي واكشف ما يساورني من الخطوب ونفس كل أحزاني
وامنع حماي وأكرمني وصل نسبي برحمة وكراماتٍ وغفرانٍ
وكل أمله في هذا التوسل برسول الله ﷺ أن يتقبله في ساحته وأن يكون ملاذه وأن

يغفر له زلله وعثراته ، وأن يجعله ممن ثقلت موازين حسناته ، حتى يستحق رضوان ربه
ونعيمه وفردوسه ، وأن يكشف عنه كل ما يواثبه من الخطوب وينازله ، وأن يدفع عنه كل
أحزانه وهمومه ، وأن يحمي حماه . وأن يسبغ عليه كرمه ورحمته وغفرانه . والرسول ﷺ
بذلك هو الشفيع المشفع لأفراد أمته ، ممن يمنحهم الغفران والإقالة من الخطيئات والفوز
بالجنان ، كما يمنحهم العون في الكوارث والخطوب وينقذهم من الضلال ويفرج عنهم
الهموم ، إنه الإنسان الكامل الذى يتقبل الله منه شفاعاته ، وهو كمال في الخلق والشيم لا
يزال البرعى يتغنى به وبما أجرى الله على يديه من معجزات ، بل إنه يقول :

كانت نبوته وآدمُ صورةً في الماء والطين المصور منها
وبه وجود الكون من عدمٍ فقد ملأ الزمان تفضلاً وتكرماً
ونحس في البتين إيمانه بالحقيقة المحمدية التى تغنى بها البوصيرى وغيره ، إذ يستلهمون
الأثر المشهور : « كنت نبيا وآدم بين الماء والطين » وكأن حقيقته أقدم من خلق آدم ، وإن
الكون كله ليستمد وجوده منه كما يقول البرعى في البيت الثانى ، وكأنه مبدأ الحياة ، الذى
يسرى في كيان الوجود كله . ويقول فيه مادحاً :

من نور ذى العرش معناه وصورته ومنشأ النور من نورٍ يحسسه
فهو من نور الله ، وكل نور في الوجود ناشئ من نوره ، فنوره يشاهد في كل نور .
ويردد البرعى دائماً فضائل الرسول المثالية الرفيعة . وله مخمسان بديعان في وصف تلك

الفضائل ، استهل أولها بقوله :

بِمَحَمَّدٍ خَطَرَ الْحَمَامِدِ يَعْظُمُ وَعُقُودُ تِيجَانِ الْعُقُودِ تَنْظُمُ
وَلَهُ الشَّفَاعَةُ وَالْمَقَامُ الْأَعْظَمُ يَوْمَ الْقُلُوبِ لَدَى الْحَنَاجِرِ كُظُمُ
فَبَحَثَهُ صَلَّوْا عَلَيْهِ وَسَلَّمُوا

ويدور الشطر الأخير مع كل بيتين تالين ، وبذلك جعل الخمس صالحا لأن ينشده منشد وترد عليه جماعة بالشطر الخامس . وعلى شاكلة هذا الخمس خمسة الثاني ، وقد جعل الشطر المكرر فيه : « صلوا عليه وسلموا تسليما » . ونبوياته بحق رائعة وقد شُغِفَ بها المغنون الجوالون في اليمن يغنونها ويوقعون أشعارها على الطَّارَاتِ أزمنة متطاولة .



عبد الرحمن العيُدرُوس^(١)

حَضَرَمِيٌّ مِنْ بَيْتِ عِلْمٍ وَفَضْلٍ ، وَلِدَ بِمَدِينَةِ تَرِيمٍ فِي سَنَةِ ١١٣٦ هـ / ١٧٢٣ م ، وَبِهَا نَشَأَ فِي رِعَايَةِ أَبِيهِ وَجَدَهُ فَحَفِظَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ وَشَدَّ الْعَرَبِيَّةَ ، وَتَفَقَّهُ عَلَى الشَّيْخِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بَلْفَقِيهِ . وَسَافَرَ مَعَ أَبِيهِ إِلَى الْهِنْدِ ، وَكَثُرَتْ رِحَالَتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ ، فَقَدْ عَادَ مِنْهَا ، بَعْدَ أَنْ تَزَوَّدَ مِنْ عِلْمِهَا زَادًا حَسَنًا ، وَذَهَبَ إِلَى مَكَّةَ لِلْحَجِّ وَأَخَذَ عَنْ شَيْخِ الْحِجَازِ ، وَزَارَ مِصْرَ سَنَةِ ١١٥٨ هـ / ١٧٤٥ م وَعَادَ إِلَى مَكَّةَ وَسَكَنَ الطَّائِفَ ، ثُمَّ زَارَ مِصْرَ سَنَةِ ١١٦٢ هـ / ١٧٤٨ م فَكَثَّ بِهَا عَامًا وَاحِدًا وَعَادَ إِلَى الطَّائِفَ ، ثُمَّ رَأَى آخِرًا أَنْ يَسْتَوْطِنَ مِصْرَ فَنَزَلَهَا بِأَسْرَتِهِ سَنَةَ ١١٧٤ هـ / ١٧٦٠ م وَفِي أَثْنَاءِ اسْتِيطَانِهِ مِصْرَ زَارَ دِمَشْقَ سَنَةِ ١١٨٢ هـ وَزَارَ الْآسَاتَانَةَ سَنَةَ ١١٩١ هـ وَعَادَ إِلَى مِصْرَ وَتَوَفَّى بِهَا سَنَةَ ١١٩٢ هـ / ١٧٧٨ م وَدُفِنَ فِي مَقَامِ الْعَتَرِيسِ إِلَى جَانِبِ مَسْجِدِ السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ . وَكَانَتْ قَدْ طَارَتْ شَهْرَتُهُ بِالْصَّلَاحِ وَالنَّسْكِ فِي حَيَاتِهِ . وَتَعَلَّقَ بِهِ شَيْخُ الطَّرِيقِ الصُّوفِيَّةِ . وَلَهُ مَصْنُفَاتٌ كَثِيرَةٌ ، تَغْلِبُ عَلَيْهِ فِيهَا التَّرْعَةُ الصُّوفِيَّةُ ، وَيَذْكُرُونَ لَهُ شَرْحًا عَلَى بَيْتِي ابْنِ الْعَرَبِيِّ :

إِنَّمَا الْكَوْنُ خَيَْالٌ وَهُوَ حَقٌّ فِي الْحَقِيقَةِ

كُلُّ مَنْ يَفْهَمُ هَذَا حَازَ أَسْرَارَ الطَّرِيقَةِ

وهو لا يغلو غلوه في التصوف الفلسفي ، فليس في أشعاره حلول ولا اتحاد بالذات العلية ولا شعور بأن فيه قبسا من الحقيقة الإلهية ولا أنه ينعم برؤية النور الرباني . وحقا نجد

(١) انظر في عبد الرحمن العيُدرُوس وشعره تاريخ

الجبرقي ٢٧/٢ وسلك الدرر للمرادي وتاريخ الشعراء

بالقاهرة .

الحضرميين ١٨٩/٢ ونشر العرف لزيارة ٥٠/٢ وشعر

عنده بعض أحاديث عن الفناء وعن المَحْوِ والصَّحْوِ ، ولكن لا تظن أنه يستغرق في ذلك استغراق ابن عربي ، أو حتى استغراق ابن الفارض ، كأنه يلمُّ بظاهر من ذلك دون توغل فيه ، كما يلم بالخمر ونشوتها على طريقة الصوفيين ، ولكن دون أن تسلبه حواسه على شاكلة قوله :

أَنْعَشْتَنِي خَمْرَةً لِلْغَيْرِ تَمَحَّوْ فَأَعْتَلَلَنِي بِالْهَوَى الْقُدْسَى شَطَحْ
عَاذَلِي كُنْ عَاذِرِي أَوْ عَاذَلِي أَنَا مِنْ خَمَرِ التَّجَلَّى لَسْتُ أَصْحُو
أَنَا فَإِنْ وَالْفَنَّا عَيْنُ الْبَقَا فِي رَشَاءٍ مِنْ دُونِهِ سَيْفٌ وَرُمَحُ
هَامَ شَخْصُ الْقَلْبِ مِنْ خَمَرِ الْفَنَّا فَهُوَ مِنْ تِلْكَ الْحُمَيَّا لَيْسَ يَصْحُو
أَنَا فِي مَحْوٍ وَصَحْوٍ دَائِمًا حَيْثُ لِي فِي مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ سَبْحُ

وكل ما يمكن أن يقال عن تصوفه هو أن فكرة الفناء الصوفية وما يتصل بها من فكرة المحو حتى لتزول في المتصوف جميع الصفات البشرية ليكون على استعداد لشهود ربه ، وأيضاً فكرة الصحو وأنه يظل له القرب والشهود للذات العلية دون سكر ، كل ذلك نجد ظاهراً منه عند العيدروس ، ولكن لا نجد حرارة ولا استغراقاً في لذة الفناء المسكرة كما يقول المتصوفة ، ومن خير غزلياته غزلية يشدو بها اليمينيون ويتغنون بها إلى اليوم يستهلها بقوله :

شَرَحَ الدَّمْعُ عَلَى مَتْنِ الْخُدُودِ مَا أَلَا قِيَهُ مِنَ الطَّبْئِ الشُّرُودِ
يَالْقَوْمَى مِنْ غَزَالٍ صَادَنِي وَعَجِيبُ رَشَاءٍ صَادَ الْأَسُودِ
أَهْيفُ الْقَامَةِ فِي وَجَّتِهِ جَنَّةُ الْخُلْدِ وَنِيرَانُ الْخُلُودِ
غُصْنُ حُسْنٍ قَدْ سَقَى مَاءَ الْبَهَا مُثْمَرًا - أَضْحَى - بِرُمَانِ التُّهُودِ

وواضح أن هذا الغزل الإلهي لا يفترق في شيء عن غزل الحب الإنساني ، حتى ليؤمن من يقرؤه لأول وهلة أنه غزل في فتاة حقيقية صَبَتْ قلب العيدروس بجبالها المغرى . وكأنى به يتأثر في هذا الغزل المادى بديوان ابن عربي : « ترجان الأشواق » الذي يكتظ بالوصف الحسى لجبال محبوبته ، حتى ليظن قارؤه أنه يتغزل غزلاً إنسانياً ، وهو إنما يرمز به إلى حبه الرباني . ويمضي العيدروس منشداً :

أَيُّهَا الطَّبْئُ التَّفْتُ نَحْوَ الْحَشَا أَيُّهَا الشَّمْسُ أَزَلْ نَارَ الصَّدُودِ
عَطْفَةً بِالْقَدِّ مِنْ هَذَا الْجَفَا وَأَيُّكَ الْعَطْفُ مِنْ شَأْنِ الْقُدُودِ
كَمْ أَرَى بَارِقَ وَعْدٍ أَوْ مَضَا قَدْ مَضَى وَقْتُ الْمَعْنَى فِي وَعُودِ
وَصَلَاةُ اللَّهِ تَغْشَى الْمُصْطَفَى مَاتَلَا الْبَرْقُ مِنْ أَقْصَى التُّجُودِ

وهو يتمنى لفته من الطَّبْئِ الشُّرُودِ أو قبسا من الشمس الهادية يطفئ غليل ظمته ،

ويأمل في عطفة نحوه أو في وصل طالما رأى بُروق وعوده ، وكأنه دائما في هجر وفراق ومطل وبين وإنه ليتوسل إلى ربه ضارعا أن يمنحه القرب والشهود ، وإنه ليشكو دائما من الضنّ بالوصال ، يقول :

أُتْسَلُّ عَنْ عَيْنِي لِمَا هِيَ تَدْمَعُ وَجِسْمِي نَحِيلُ وَالْحَشَا يَتَقَطَّعُ
وَلَوْ نِي كَتِيبُ وَالْفَوَادُ بِحَسْرَةٍ وَمَالِي سَهَرِ الطَّرْفِ وَالْقَلْبُ مَوْجَعُ
فَمَا نَالِي هَذَا سِوَى مَنْ فَرَّقَ مِنْ لَهُ التُّورُ يَبْدُو فِي الْبَقَاعِ وَيَلْمَعُ
فهو دائم البكاء ، حتى لقد شحب جسمه وضؤل ، وحتى لقد تقطعت أحشائه واكتأب لونه والتاع فؤاده ، ودائما مسهد الطرف ساهره ، وقلبه مكتظ بالأوجاع واللوعات لهجر محبوه الذى يملأ العالم بنوره ، وهو ما يني يذكره ويرسل دموعه ، لعل محبوه - كما يقول - يعطف عليه ويخلصه من عذاب الهجر وأوصابه ومن قوله :

أَلْهَيْتَنِي عَنْ جِهَانِي يَا رَاحَتِي يَا حَيَاتِي
مَا ضَرَّ يَا مَنْ سَبَانِي لَوَجُدْتِ لِي بِالتَّفَاتِ
يَا مَنْ رَمَانِي بِأَسْهُمِ صَائِبَاتِ
عَطْفًا عَلَى الصَّبِّ عَطْفًا مِنْ قَبْلِ كَاسِ الْمَاتِ

وهو يصرح في الشطر الأول من هذه الأبيات بأنه لم يعد يشعر بمكانه ولا بما حول مكانه ، وكأنما غاب عن وجوده ، وتأهب لكي يتحدث لنا عن وجوده الإنساني وفنائه في الوجود المرئى ، وكأنما لم يعد له وجود ذاتي ، أو كأنه يدخل عالم الفناء الصوفي أو عالم الشهود الإلهي ، ولكنه لا يستمر في بيان ذلك ، وكأنه استعار الشطر من ابن عربي وأمثاله ، ولم يفكر في الشهود ولا في الفناء . ولا نريد أن ننفي بذلك عنه صفة التصوف ، فهو متصوف سني ، لا يتعمق في تصوفه تعمقا من شأنه أن يجعله يتجرد من حواسه ومن وجوده ومن كيانه المادى . وله يائية يعارض بها يائية ابن الفارض يقول في فواتحها :
صاحي عرَّجْ عَلَى نَجْدٍ وَحَيَّ أَهْلَ حَيٍّ لَمْ يَكُنْ يَحْكِيهِ حَيٌّ
وهو إنما يعارض بيأتيته ظاهرا من يائية ابن الفارض ، فليس عند وجده ولا التباعد ولا مجاهداته في الوصول إلى مرتبة الشهود ولا شغفه بالجمال المطلق وفيوضاته الإلهية . لم يكن العيدروس يتعمق في تصوفه هذا التعمق ، فتصوفه إنما كان تصوفا سطحيا نجد عنده لغة الصوفية ومصطلحاتهم ولكن دون حرارة ودون وله جارف .

الفصل الخامس

النثر وأنواعه

١

تنوع الكتابة

كانت نجد أقل بيئات الجزيرة عناية بالكتابة لصعوبة حصولها على الورق والحبر وغيرهما من وسائلها المادية ، وأغلب الظن أن الإماراتين اللتين تأسستا في شرقها لأوائل هذا العصر : إمارة بني مزيد في الحِلَّة وبني عُقيل في الموصل كانتا تعنيان بالكتابة ، فابن خلكان يذكر أن علي بن أفلح الكاتب الشاعر المتوفى سنة ٥٣٧ للهجرة كان يكتب بين يدي أمير من أمراء بني مزيد في شببته ^(١) ونظن أنه كان لأمرأ بني عقيل كتاب يكتبون بين أيديهم على شاكلة ابن أفلح كاتب بني مزيد . غير أنه ليس بين أيدينا رسائل للإمارتين جميعاً ، مما يدل على أن هذا النشاط الكتابي فيها كان محدوداً . ومربنا في غير هذا الموضع أنه نشأت في الشمال الغربي للجزيرة إمارات بدوية لآل فضل وآل مرا وآل علي ، كانت تدين بالولاء لحكام مصر من الأيوبيين والمماليك ، وفي صبح الأعشى مراسيم كثيرة صادرة من مصر بأمرة أمرائهم ، وكذلك لآل مهدي في البلقاء ، غير أننا لا نعثر برّد من أحدهم أو بعبارة أدق برسالة موجهة إلى مصر أو أحد حكامها المختلفين ، وبالمثل لا نجد كتابات أو كتباً موجهة من أواسط نجد إلى خارجها ، فقد كانت بعيدة عن الحضارة وأكثر بدادة من أطرافها الشرقية والغربية ، ولعل ذلك ما جعل القلقشندي يقول : «إنه لا اعتناء لأهل البادية بفن الإنشاء جملة ، وإنما يُكتبُ عنهم بحسب ما يقتضيه حالهم ، على أن فيما يأتون به مقنعا من الفصاحة والبلاغة بكل حال ، إذ عنهم قد علم اللسان وعليهم فيه يعول ^(٢) » . وهو قول دقيق وصحيح .

وإذا تركنا نجدا إلى الحجاز وخاصة مكة وجدنا أمراءها يتخذون كتاباً للإنشاء ، أو بعبارة أدق ليكتبوا ما يريدون من رسائل في مخاطبة سلاطين مصر وحكام اليمن والعراق .

(٢) صبح الأعشى ٧٦/٨ .

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ٤٩١/٢ .

وفي صبح الأعشى عهد في صورة يمين لأبي نُصَيٍّ أمير مكة حلف بها لقلاوون ، وفيه صور مختلفة لتنصيب أمراء مكة والمدينة وما كان يكتبه لهم سلاطين المالك في هذا التنصيب^(١) ، إذ كان لهم أمر توليتهم وعزلهم ، فقد كانتا تتبعان مصر منذ عصر الأيوبيين ، بل في حقب كثيرة منذ عصر الفاطميين . وكانت مصر في أثناء ذلك هي التي تعين أصحاب الوظائف الكبرى في البلدين ، وخاصة في القضاء وفي مشيخة الحرم النبوي ، وفي صبح الأعشى نماذج مختلفة لهذا التعيين ، تُذكر فيها واجبات الوظيفة^(٢) . ويكثر تبادل الرسائل الشخصية بين العلماء والأدباء في مكة والمدينة والطائف على نحو ما يلقانا في كتاب سلافة العصر لابن معصوم ، وتلقانا فيه خُطَب زواج طريفة إذ ظلوا يحتفظون في عقد الزواج بهذا التقليد القديم ، وهي خطب منمقة يشيع فيها السجع ، على نحو ما نقرأ لأحد القضاة ، وهو تاج الدين بن أحمد إمام المالكية بالمسجد الحرام من قوله في خطبة زواج : « إن الزواج جنة تنقّي بها الفتنة ، وجنة يثلى على متفبئى ظلالتها : (اسكن أنت وزوجك الجنة) تثمر رياضه الرحمة بين الزوجين والوداد ، وتطلع زينة الحياة الدنيا إذا احتملت غرائسه ثمرة الفؤاد ، وتُسفر ليلته عن طرة صبح تحت أذيال الدجى ، ويتبلّج يومه عن شمس توارى بحجاب الحجال^(٣) والحجا ، وهو الغرض الذى لا يخطئ قاصده الإصابة ، والعرض الذى لا يقوم إلا بجوهر أفخر عصابة ، والحصن الذى يُعتصم به عن الوقوع فى حمى الحرج ، ويحتفى به من مصارع الرجال التى هى ما بين معترك الأحداق والمهج ، والوسيلة التى يتوسّل بها الآخذ بزمام التقوى إلى مطلوبه ، ويُثشده بليل الأفراح هنيئاً لمن أسمى سمر حبيبته ، وناهيك فى فضله ما ورد فيه من الآيات ، والأحاديث الثابتة فى صحيح الروايات^(٤) » والتنميق فى الخطبة واضح .

ومرّ بنا فى الحديث عن الثقافة كيف تحول الحرمان : المكي والمدني إلى ما يشبه جامعتين كبيرتين لكثرة العلماء من كل صنف فى البلدين المقدستين ولكثرة المجاورين بهما من كبار علماء العالم الإسلامى . وشاعت منذ القرن الخامس الهجرى كتابة الإجازات العلمية ، فالعالم الكبير يكتب لبعض طلابه النابهين إجازات بمروياته ومصنفاته ، وعادة يذكر من أخذ عنهم المرويات من شيوخه ، ويكتب فى صدر الإجازة تنويعها بالعلم وفضله وبالتلميذ ونباهته ، ثم يسرد المؤلفات والمرويات . ويجانب هذه الإجازات أخذ يتكاثر تقرير

(١) صبح الأعشى ١٢ / ٢٣٣ ، ٢٤٢ وما بعدها . البيت . الحجا : العقل .

(٢) صبح الأعشى ١٢ / ٢٤٠ ، ٢٥٨ وما بعدها . (٤) سلافة العصر ص ١٤٢ .

(٣) الحجال : ستر أو أستار تضرب للعروس فى جوف

الكتب المصنفة ، وعادة كان المصنف لكتاب يعرضه على عالم كبير إما من علماء الحرمين المقيمين وإما من العلماء المجاورين بالمدينتين . وقد ساق مؤلف كتاب العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين طائفة من التقريظات لمصنفاته في ترجمته بالجزء الأول من كتابه ^(١) ، وهى تصور مدى ما كان يأخذ به المقرّطون لكتاب أنفسهم بتنميق كلامهم أو شهاداتهم وبنائها على السجع وما يشيع فيه من جمال فى الجرس والأداء .

ولعل قطراً فى الجزيرة العربية لم تزد به الكتابة كما ازدهرت فى اليمن ، ونلاحظ هذا الازدهار منذ عهد الدولة الصليحية الإسماعيلية (٤٣٩ - ٥٣٢ هـ) إذ كانت تتخذ لنفسها ديواناً للإنشاء ، ومن كبار الكتاب فيه الحسين بن على بن القيم الشاعر النابه الذى ترجمنا له بين الشعراء وله ديوان رسائل لما ينشر ، وسنعرض لرسالة سياسية له وأخرى شخصية . وقد ذيل السيد حسين بن فيض الله الهمدانى كتابه « الصليحيون والحركة الفاطمية فى اليمن » بطائفة من الرسائل المتبادلة بين الحكام الصليحيين والخلفاء الفاطميين ، وهى رسائل نفيسة لا لما تصور من شئون السياسة فحسب ، بل أيضاً لما تصور من نشاط الكتابة الفنية وازدهارها فى اليمن منذ القرن الخامس الهجرى . وكان يعاصر الصليحيين دولة آل نجاح فى زيد ، ونجد بين أمرائها أدبياً نابها هو جياش بن نجاح صاحب كتاب المفيد فى أخبار زيد الذى اختصره عمارة اليمنى ، وكان يضم شعراء زيد وأدباءها ، وقد وضع للكتاب مقدمة مسجوعة احتفظ عمارة بكثير منها . وأهم من ذلك أن عمارة يقول إنه كان له ترسل جيد بعيد من الكلفة وإنه رأى منه عدة مجلدات ، ويقول إنه عمل ممتع ، مقدماً بذلك لترجمته فى المختصر . ومن فقهاء هذه الدولة الحسن بن أبى عقامة كما مرّ بنا ، وكان شاعراً قتله جياش بن نجاح ، ويقول الجندى عنه « إليه تنسب الخطب العقامية ، وله شعر فائق ، وترسل رائق » ^(٢) . وبالمثل بعث بنو زريع بعدن (٤٧٦ - ٥٦٩ هـ) حركة أدبية قوية وكان لهم ديوان إنشاء اشتهر فيه غير كاتب مثل أبى بكر العيذى ، وفيه يقول عمارة اليمنى فى صدر ترجمته بكتابه مختصر المفيد : « سمعت الشيخ الموفق أباً الخلال فى الأيام الفاترية (أيام الخليفة الفاتر الفاطمى) والقاضى الجليس أبى المعالى عبد العزيز ، وهما يومئذ صاحبا ديوان الإنشاء للدولة العلوية (الفاطمية) وما منها إلا من يقول : لم يصل إلينا من الآفاق ، ولا رأينا لكتاب الشام والعراق ، أحسن من مكاتبات ترد علينا من جزيرة اليمن من إنشاء الشيخ الأديب الفاضل أبى العتيق أبى بكر بن محمد العيذى بعدن فإن له بلاغة تشهد عذوبة مطبوعها بكرم ينبوعها ، وألفاظاً تدل معانيها على فضل معانيها » وكان شاعراً

(٢) انظر الجندى فى السلوك - النكت ٦٣٢ .

(١) العقد الثمين ١/ ٣٤٧ وما بعدها .

بارعاً ، ومربناً بعض شعره . ولما فتح توران شاه اليمن حاول أن يتخذ كاتباً له ، فامتنع . وليس بين أيدينا شيء من رسائله لا هو ولا ابن أبي عقامة ولا جياش ، ولكن على كل حال فيما قدمنا ما يدل على ازدهار الكتابة باليمن . وندخل في عهد جديد هو عهد الأيوبيين ، وسرعان ما تقوم بها الدولة الرسولية (٦٢٦ - ٨٥٨ هـ) وتُعنى بالكتابة الديوانية ، ويحفظ كتاب العقود اللؤلؤية للخزرجي ببعض عهود من الأمراء إلى أولياء عهودهم وبعض رسائل سياسية ، ويتبادل الرسوليون الكتب والرسائل بينهم وبين سلاطين الممالك ، وفي صبح الأعشى رسائل كثيرة موجهة من هؤلاء السلاطين إلى الرسوليين^(١) . ويبدو أن الكتابة كانت نشطة في بيئة الأئمة الزيدية ، وفي صبح الأعشى ما يدل على كثرة المكاتب بينهم وبين سلاطين الممالك ، إذ ينص على رسم المكاتب إليهم وأنها كانت ، «أدام الله تعالى - أو ضاعف الله تعالى - نعمة - أو جلال - الجانب الكريم العالی السیدی الإمامی الشریفی النسیبی الحسنی العلامی سلیل الأطهار ، جلال الإسلام ، شرف الأنام ، بقية البيت النبوی ، فخر النسب العلوی ، مؤيد أمور الدين ، خليفة الأئمة ، رأس العلواء ، صالح الأولياء ، علم الهداة ، زعيم المؤمنين ، ذخر المسلمين ، منجد الملوك والسلاطين ، ولا زال زمانه مربعاً ، وغيله مُسْبِعاً ، وقراره مُشْبِعاً ، وكرمه لفيض نداء منبعاً ، وهُداه حيث أم بالصفوف متبعاً^(٢) . . . » وفي ذلك ما يدل على أن المراسلة بين هؤلاء الأئمة الزيديين وسلاطين مصر كانت لا تنقطع .

وطبيعي أن تكثر الإجازات في اليمن كما كثرت في المدينتين المقدستين بالحجاز . وتكثر تقاريط الكتب ، من مثل تقريب القاضی شرف الدين إسماعيل بن أبي بكر المعروف بالمقرئ اليمني لأحد مصنفات صاحب العقد الثمين إذ يقول : «وقفت على هذا التأليف التالى فوائد العبر ، والآتى بأحاديث المواعظ الحسان بأصح خبر ، فله در مصنفه من إمام حافظ ، وبحر بجواهر العلوم لافظ ، ولا حق ، برز على السابق ، وبذل في علو مرتبة الأعلام الحفاظ موافق ، بلغه الله غاية الأمانة ، وأجزل ثوابه على هذا المقرون بحسن النية» .

وطبيعي أن تكثر المواعظ باليمن ، واشتهر فيها وعاظ كثيرون من أهمهم الشيخ الصالح أحمد بن علوان المتوفى سنة ٦٦٥ وله في الوعظ كتاب نحى فيه نحو ابن الجوزى ، وله في التصوف فصول كثيرة وكلمات مأثورة بديعة^(٣) . وامتازت اليمن بأخرة من هذا العصر

(١) انظر صبح الأعشى ٧/ ٣٤٤ ، ٣٥٣ ، ٣٥٧ ، (٢) صبح الأعشى ٧/ ٣٣٤

(٣) العقود اللؤلؤية ١/ ١٦٠ - ١٦٢ . ٣٦٠ ، ٣٦٣ ، ٣٦٦ .

بكتابات أدبية فكهة سنعتقد لها حديثاً مستقلاً في غير هذا الموضع .

وكل ما لقيناه في اليمن من نشاط كتابي نلتقى به في حضرموت . فهناك الرسائل السياسية والشخصية وهناك الإجازات ، من مثل إجازة الشيخ الحسن بن صالح البحر لتلميذه السيد عيدروس بن عمر ، وقد جاء في صدرها : « الحمد لله جامع الظواهر والسرائر ، على ما يحبه ويرضاه الأول والآخر ، حتى ترتفع عنها الستائر ، وتتجلى لها من ظلمات الأغيار البصائر ، وتقبل بكليتها على من هو الباطن والظاهر ، لترتقى بعين عنايته ورعايته إلى تلك الحظائر ، ولم تزل تعتلى بعمارة ظواهرها وسرائرها بما تشاهده تلك النواظر ، وتتجلى وراء ما هو أفل وغابر ، حتى تشاهد الجمال المطلق بقيومية من هو فوق عباده قاهر ، حتى يأتيها النداء : إن هذا جمال لا أول له ولا آخر ^(١) » . ويظل طويلاً في هذه النعمة الروحية الصوفية ، وكأنه يريد أن يصل تلميذه مع أخذه عنه لمصفاته بنور الذات العلية المطلق الذي تعم الوجود أضواؤه .

وظلت عُمان تحتفظ بنشاط كتابي طوال العصر ، وقد عُنى نور الدين السالمى بعرضه في كتابه « تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان » . وفي طليعة ما نجد عنده كتاب كتب به الإمام راشد ابن سعيد الإباضى الذى دانت له عُمان جميعها سنة ٤٤٢ للهجرة بعد قضائه على ملك بنى مكرم الشيعة الإماميين ولاية البويهيين هناك . والكتاب موجه إلى أحد ولاته وهو يستهله على هذا النمط : « إني أوصيك بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ والانتهاء عما حرم الله عليك في زواجه ، والعمل بما أمرك الله به من أوامره ، فيما ساءك أو سرك ، ونفعلك أو ضرك ، وأن تأمر بالمعروف وتعمل به ، وتنهى عن المنكر وتكف [الناس] عن فعله ، وتتحذر من خدائع الشيطان ، ومن يؤازره على ذلك من الأعوان ^(٢) » . وواضح أن الكتاب يحفل بالسجع . ومن الأئمة بعد هذا الإمام الإباضى راشد بن على المتوفى سنة ٥١٣ للهجرة ، ونرى قاضيه محمد بن عيسى السرى يكتب له شروطاً بها أسجع ^(٣) . ويخلفه محمد بن أبى غسان ويكتب إليه أهل إحدى الولايات العمانية كتاباً مسجوعاً من مثل قولهم : « الله تعالى يحرس علينا شريف بقاءه ، ويزيد في رفعة وارتقائه ، ويدبم عليه ما اتسع من نعمائه ، وينعم علينا عاجلاً بكرم لقاؤه ^(٤) » : ويتولى بعده موسى بن أبى المعالى بن نجاد سنة ٥٤٩ ونقرأ كتاباً إلى بعض من تحدثهم أنفسهم بالخروج وهو كتاب

(٣) تحفة الأعيان ١ / ٢٧٥ .

(٤) تحفة الأعيان ١ / ٢٩٢ .

(١) تاريخ الشعراء الحضرميين ٣ / ١٥٤ .

(٢) تحفة الأعيان ١ / ٢٦٤ وما بعدها .

مسجوع^(١). وقلما يورد نور الدين السالمى فى كتابه «تحفة الأعيان» شيئاً من رسائل بنى مكرم الشيعة الإماميين الذين حكموا مدينة عمان من سنة ٣٩٠ إلى سنة ٤٤٢ ، وكذلك قلما يورد شيئاً من رسائل بنى نيهان السنين الذين حكموها من القرن السادس الهجرى إلى القرن التاسع . حتى إذا رجع الحكم بعدهم إلى أئمة الإباضيين أخذ يورد رسائلهم ، وهى رسائل منمقة إذ يغلب عليها السجع والترصيع . ويشيع هذا الترصيع والسجع فى رسائل موجهة من بعض شيوخ الخوارج إلى أئمتهم فى شكل نصائح ووصايا أو موجهة إليهم من بعض أشياعهم أو من أهل نزوى ابتغاء إحقاق العدل ونشر الرأفة والعفو عند المقدرة . وليس بين أيدينا نشاط كتابى كثير لأهل البحرين ، غير أننا نجد فى صبح الأعشى فى رسم المكتبة إليهم فصلاً^(٢) طريفاً مما يدل على تبادل الرسائل بينهم وبين حكام مصر وخاصة فى عهد الماليك . ودون ابن معصوم فى كتابه «سلافة العصر» بعض رسائل شخصية لأدبائها . وفى كتاب شعراء هجر من القرن الثانى عشر إلى القرن الرابع عشر بعض رسائل أخرى . وجميعها يشيع فيها السجع وقد يسود بعضها تصنع شديد .

٢

رسائل ديوانية

مرّ بنا أن الرسائل الديوانية بين المدينتين المقدستين بالحجاز وبين مصر كانت متصلة فى العصرين الأيوئى والمملوكى بل لا شك فى أن تاريخها يرجع إلى ما قبل ذلك فى العصر الفاطمى ، غير أن ما بقى من هذه الرسائل فى المصادر التاريخية وغيرها قليل جداً من ذلك ما كتب به الظاهر بيبرس إلى أبى نُمى أمير مكة سنة ٦٧٥ يزجره عن الظلم^(٣) : «من بيبرس سلطان مصر إلى الشريف الحسيب النسيب أبى نُمى محمد بن أبى سعد : أما بعد فإن الحسنة فى نفسها حسنة ، وهى من بيت النبوة أحسن ، والسيئة فى نفسها سيئة ، وهى من بيت النبوة أو حش . وقد بلغنى عنك أيها السيد : أنك آويت المجرم ، واستحللت دم المحرم ، ومن يُهن الله فما له من مُكرم ، فإن لم تقف عند حدك ، وإلا أغمدنا فىك سيف جدك ، والسلام» . فكتب إليه أبو نُمى : «من محمد بن أبى سعد إلى بيبرس سلطان مصر : أما بعد فإن المملوك معترف بذنبه ،

(٣) العقد الثمين ١ / ٤٦٥ .

(١) التحفة ١ / ٢٩٥ .

(٢) صبح الأعشى ٧ / ٣٧٠ .

تائب إلى ربه ، فإن تأخذ فيدك الأقوى ، وإن تَعَفُ فهو أقرب للتقوى . والسلام .
 وكان سلاطين الممالك حين يتوقعون من أحد أمراء المدينتين المقدستين اعوجاجا في حكمه أو جورا يأخذون عليه العهود والأيمان أن يسير مسيرة قديمة ملتزما فيها بما عاهدهم عليه من شأن رعية بلده وشأن الحجيج ، مع ذكرهم في الخطبة ، ومع ضرب السكة أو النقود بأسمائهم ، وفيما يلي عهد أبي نُعْمَى للسلطان قلاوون سنة ٦٨١ أن ينفذ السياسة المرسومة له وهو يمضى على هذا النمط ^(١) :

«أخلصت يقينى وأصفيت طويتى وساويت بين باطنى وظاهرى فى طاعة مولانا السلطان الملك المنصور (قلاوون) وولده السلطان الملك الصالح وطاعة أولادهما . . وإنى عدو لمن عاداهم ، صديق لمن صادقهم ، حرب لمن حاربهم ، سلّم لمن سالمهم . . وإنى ألّزمت ما اشترطته لمولانا السلطان وولده فى أمر الكسوة الشريفة المنصورية الواصلة من مصر المحروسة وتعليقها على الكعبة المشرفة فى كل موسم وأن لا يتقدم علّمه علّم غيره ، وإنى أُسبِلُ زيارة البيت الحرام أيام مواسم الحج وغيرها للزائرين والطائفين والبادين والعاكفين اللائذين بحرمه والحاجّين والواقفين ، وإنى أجتهد فى حراستهم من كل عاد بفعله وقوله ، وإنى أؤمّنهم فى شربهم ، وأُعذّب لهم مناهل شربهم ، وأنى أؤسّس - والله - بتفرد الخطبة والسكة بالاسم الشريف المنصورى ، وأفعل فى الخدمة فعل المخلص الولى . وإنى - والله - أمتثل مراسيمه امتثال النائب للمستنيب ، وأكون لداعى أمره أول سميع مجيب » .
 وواضح أن أبانمى لم يستخدم فى هذا العهد السجع كما استخدمه فى الخطاب الذى رد به على بيبرس ، وكأنه عنى هنا بالمضمون أكثر من عنايته بالأسلوب ، ولذلك لم يستخدم السجع ، أو لعل الخطاب السابق من صنع كاتب الإنشاء لعده ، أما العهد فمن صنعه هو وإملائه ، ولذلك جاء خاليا من التنميق .

والرسائل الديوانية فى اليمن كثيرة منذ الدولة الصليحية ، ومن أبلغها بيانا رسالة الحسين ابن على بن القمّ كاتب الإنشاء للدولة الصليحية على لسان الملك المكرم أحمد بن على الصليحي سنة ٤٦٠ وهى موجهة إلى الخليفة المستنصر الفاطمى يخبره فيها باغتيال سعيد بن نجاح وأخيه جياش لملى بن محمد الصليحي فى طريقه إلى الحج فى ذى القعدة لسنة ٤٥٩ وما كان من استردادهما لزييد وكيف مضى الملك المكرم يستعد للأخذ بثأر أبيه ، مما مكّنه أن ينقضى على آل نجاح فى السنة التالية ، ويسحق جموعهم . ويفتك بسعيد ويهرب أخوه جياش إلى الهند ، وتدخل زييد فى طاعته . ويصور ابن القمّ فى الرسالة انتصارات الملك

المكرم على جيوش الزيدية والخارجين وكيف محققاً . والرسالة تفتتح بالبسملة والحمد لله والصلاة على رسوله ، ويتوالى الثناء على الخلفاء الفاطميين وغمسه أو صبغه بالعقيدة الفاطمية الإسماعيلية ، ونحن نسوق منها أطرافاً تصور روحها البيانية ^(١) :

« المملوك يناجى حضرة الإمامة ، ويناهى سدة الخلافة ، جعل الله عزهما باقيا على الأيام ، ومجدهما غير منقطع الدوام ، عالماً أنه يلبسُ بذلك شرف الدارين ، ويستولى به على الحُسَيْنين ، شائماً (متطلعاً) من مولاه برقاً مُضِيّاً ، ومستظلاً من سحاب الإكرام ودفاً (غيثاً) رويّاً ، ومتبوّئاً من رُتب الاختصاص مكاناً عليّاً ، ومتعرضاً منزلةً من أدناه وقرّبه نَجِيّاً . إنه قد كان قدّم خدمة يطالع بها بأنباء جزيرته ، وينهى أخبار دعوته ، وما جرى عليه أمرها من الفتن ، ودارت فيه من دوائر المحن ، التى ملأت قلوب أعداء الدين سروراً ، وازداد بها الكافر طغياناً وكفوراً ، وأظهر كل منافق ما كان من الغدر كامناً مستوراً ، وقال الذين فى قلوبهم مرض (ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً) . . . وجمّد عزم المملوك (الملك المكرم) بعد خيرة الله تعالى وخيرة وليه صلوات الله عليه على المسير للعبيد (يريد آل نجاح الأحباش قتلة أبيه) إلى مدينة زبيد . . . فوردها فى التاسع والعشرين من صفر سنة ٤٦٠ وقد سبق النذير إلى العبد (يريد سعيد بن نجاح أمير زبيد) وألفاه المملوك صافاً على أحد أبواب المدينة ، وقد نفخ الشيطان ريح الطغيان فى أنفه ، وأراه الحياة فى حتفه ، قد عصب برأسه من الكبر تاجاً ظن أن الله لا يستطيع له نزعاً ، وتجلّب من الجبروت بثوب لا يروم له ما عاش خلعا . . (أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون مَنْ هو أشدُّ منه قوةً وأكثر جمعا) . فدكّف إليه المملوك فى جماعة من المؤمنين قاموا لله أنصاراً ، واتخذوا الصبر شعاراً ، والله - عز وجل - جأرُ المتمسكين بسبب الله الذى لا ينقطع من تمسك بسببه ، جائدين بأنفسهم فى ابتغاء رضاه وطلبه ، وخوف سخطه وغضبه . . فلما تراءى الجمعان وتدانى الفريقان ، ماجت الصفوف ، وسالت الزحوف ، ولعت السيوف ، ووكفت (سالت) الختوف ، وترلزلت الأقدام ، وصال الحجام ، واغبرّ القتّام (الغبار) وتداعت الأبطال ، وتدانى الآجال ، واكتأبت الرجال ، وانقطعت الآمال . . وشخصت الأبصار ، والتحمت الشُّفار (السيوف) وطُلبت الأوتار ، وأغوز الفرار . . وطفقت سيوف الحق تلتهمهم ، وأيدى المؤمنين تقتسمهم ، فتركوهم بين ضريح بدمه ، وهاو ليديه وفه ، وشارد لم ينجه سعى قدمه ، ونادم لم يتفجع بدمه . . . ومعقور نطيح ، ومطعون جريح ، قد عادوا فرصة لكل واثب ، وأكلة لكل ناهب ، مصرعين

(١) انظر الرسالة فى كتاب «الصليحيون والحركة الفاطمية» فى اليمن» للدكتور حسين الهمداني ص ٣٠٨ .

مصارع أمثالهم الكافرين ، وواردين موارد أعمالهم خاسرين ، قد قطع الله أوصالهم ، وبتَّ من حبله حبالهم .

والرسالة طويلة وابن القيم يلتزم فيها السجع ، وواضح أنه يعنى باصطفاء ألفاظه ، والملاءمة بينها حتى يحكم ما يريد من الجرس لكلامه وحسنه واستوائه بحيث لا نحس نبواً ولا نشازاً في عبارة من عباراته . وما يصور عنايته بنغم كلامه أن الآيات القرآنية التي يقتبسها تلتقى فواصلها مع قوافيه التقاء طبعياً ، وهو التقاء كان يقصد إليه قصداً حتى يلتحم جرس النغم في الرسالة التحاماً تاماً .

وكأن ابن القيم كان استهلالاً قوياً لأن تأخذ اليمن منذ عصره في العناية برسائلها الديوانية عناية يعم فيها غير قليل من التتميق ورصف السجع وتديججه . ويلاحظ ذلك بوضوح في الرسائل والعهود المكتوبة في الدولة الرسولية ، على نحو ما يلاحظ في العهد الذي فوّض فيه السلطان المظفر (٦٤٧ - ٦٩٤) الحكم من بعده لابنه السلطان الأشرف عمر ، وهو يستهله بقوله بعد الحمد والثناء والصلاة على رسول الله ﷺ والدعاء (١) : «أما بعد فقد ملكنا عليكم من لا تؤثر فيه - والله - داعي التقريب ، على باعث التجريب ، ولا عاجل التخصيص ، على آجل التمهيص ، ولا ملازمة الهوى والإيثار ، على مداومة البلوى والاختبار . وهو سليلنا الخطير ، وشهابنا المنير ، وذخيرتنا على المراد ، وبصيرنا الذي نرجوه صلاح البلاد والعباد ، ونؤمل فيه من الله الفوز والنجاة في المعاد ، وقد رسمنا له من وجوب الذب والحماية ، ومعالم الرفق والرعاية ، ما قد التزم بوفاء عهده . والمسئول في إعانته من لا عون إلا من عنده . ولن نعرفكم من حميد خصاله ، وسديد فعاله إلا بما قد بدا للعيان ، وزكا مع الامتحان ، وفشا من قبلكم في كل لسان » وواضح ما في العهد من ميل شديد إلى تصفية اللفظ وأن يكون سلساً سلاسة الماء النير ، وواضح أيضاً ما فيه من موازنة دقيقة بين سجعاته ، فكلمة «داعي التقريب» توضع على وزنها كلمة «باعث التجريب» وكلمة «عاجل التخصيص» تليها موازنة لها كلمة «آجل التمهيص» وكلمة «ملازمة الهوى والإيثار» توازنها كلمة «مداومة البلوى والاختبار» وكل ذلك إرضاء لأذن السامع . ومثله محاولة الإتيان بالمترادفات في نهاية السجعة مثل «الذب والحماية» و«الرفق والرعاية» و«حميد خصاله» و«سديد فعاله» مما يدل بوضوح على الرغبة في اكتمال نغم الكلام .

وتلقانا في عهد السلطان الأشرف وربما كان في عهد أخيه المؤيد (٦٩٦ - ٧٢٠ هـ)

رسالة موجهة من الأمير الزيدى محمد بن المطهر إلى السلطان المملوكى . الناصر محمد بن قلاوون يستنصره فيها على السلطان الرسول الذى طالت بينهما الحروب ، معددا قبائحها ، مؤملا أن يسعفه بجيش لإجلائه عن دياره ، وإجرائه مجرى الذين ظلموا فى تعجيل دماره . وقال فى رسالته : إنه إذا حضرت الجيوش المؤيدة قام معها ، وقاد الأشراف والعرب أجمعها ، ثم إذا استنقذ منه ما بيده أنعم عليه ببعضه ، وأعطى منه ما هو إلى جانب أرضه ، ثم قال : « وكنت إلى السلطان مؤذناً بالإجابة ، مؤدياً إليه ما يقتضى إعجابه . . ولا رغبة لنا فى السلب ، وأن النصرة تكون لله خالصةً وله كل البلاد لا قدر ما طلب » .

واقطف القلقشندى قطعة من الرسالة مسجوعة ^(١) ، وكان السجع أصبح منذ ابن القيم صفة عامة فى الرسائل والعهود اليمنية . ونمضى إلى زمن السلطان الرسول الأشراف إسماعيل (٧٧٨ - ٨٠٣ هـ) فیرسل السلطان المملوكى برقوق إليه برسالة معها هدية ، يحملها القاضى برهان الدين إبراهيم بن عمر الحلى لتسهيل متجره وما يحمله من عدن من عروض التجارة ، ويبادلها الأشراف إسماعيل هدية بهدية ، وكتاباً بكتاب أو رسالة برسالة . ويطلب فى رسالته أن يرعى السلطان برقوق من يفد على مصر من رعيته اليمنية تاجراً وغير تاجر ، وأن يأذن له فى حج البيت الحرام ، لقضاء الفرض والتبرك بالمشاعر العظام . ويشكو من ارتفاع النفقات فى مكة على حاج اليمن لعله يتوسط لدى أميرها كى يخفضها ، لأنه تابعه . وإن كان لم يصرح بذلك . ونحن نسوق قطعة من هذه الرسالة يتحدث فيها الأشراف إسماعيل عن هديته إلى السلطان برقوق وأنها دون مقامه ومكانته ، يقول ^(٢) :

« لو أهدينا إلى جلال المقام الشريف الظاهرى ، أعزَّ الله أنصاره ، بمقدار همته الشريفة العالية ، ورتبته المنيفة السامية ، لاستصغرت الأفلاك الدائرة ، والشهب السائرة ، واستثقلت السبعة الأقاليم تحفة ، والأرض وما أقلتة طُرقة ، ولم نرض أن نبعث إليه الأنعام ممالك وخولا (عبيدا) ، ونجى إليه ثمرات كل شئ قبلاً ، ولورام محب المقام (يقصد نفسه) هذه القضية لقصر عنها حوُّه ، ولم يصل إليها طوُّه (قدرته) ولكنه يرجع إلى المشهور ، بين الجمهور ، فيجد العمل يقوم مقامه الاعتقاد ، وليس على المستمر على الطاعة سوى الاجتهاد ، والمخلص فى الولاء محمول على قدرته لا على ما أراد » .

وللرسالة كلها من هذا الأسلوب الذى يمتاز بانتخاب ألفاظه والسجع فى عباراته ، حتى يروق الأسماع ، بل حتى يبرها ، بحسن تنسيقه وجمال رصفه ونسجه . وكان كتاب الإنشاء فى كل دولة عربية يتبارون فى تلك الحقب بما يصوغون من هذا الأسلوب

الموسيقى ، حتى تلد ألفاظه الألسنة ، وحتى تقع موقعاً حسناً من القارئ لها والسماعين .
ومرربنا فى عُمَان أن الأئمة الإباضيين كانوا يؤجهون بكتب إلى علمهم ، يأمرؤنهم فيها
بالنهى عن المنكر والأمر بالمعروف وأن يسىروا فى الرعية سيرة عادلة ، وكانت الرعية كثيراً
ما ترسل إليهم برسائل تطلب فيها العدل والحكم الصالح . ومضوا على ذلك طويلاً حتى
إذا كنا فى القرن الحادى عشر الهجرى وجدنا الإمام الإباضى ناصر بن مرشد (١٠٢٤ -
١٠٥٠ هـ) يكتب إلى عماله عهوداً كثيرة يشيع فيها السجع من مثل قوله لأحد عماله فى
« الباطنة » ^(١) :

« إني قد وليتكَ على قرية لوى من الباطنة . على أن تأمر أهلها بالعدل والمعروف ،
وتنهاهم عن المنكر المحوف ، وأن تعمل فيهم بكتاب الله المستبين ، وتُحَيِّ فيهم سنة النبى
الأمين ، وآثار الأئمة المهتدين ، وسيرة القادة المخلصين ، الذين جعلهم الله منار الهدى ،
وقادة الناس إلى التقوى ، وأورثهم الكتاب والسنة ، يدعون إلى طريق الجنة . ولا تخفُ
فى الله لومة لائم ، ولا عدل مجرم آثم ، وأن تخلط الشدة باللين ، وأن تخفض جناحك لمن
اتبعتك من المؤمنين . فالله ! الله يا أبا الحسن فى اكتساب الحسنات ، وإنكار المنكرات ،
بغير تجاوز منك إلى غير واجب أوجهه الله فى الجدِّ والتشمير ، وترك التهاون والتقصير » .
ولا يطرد السجع دائماً فى عهود ناصر بن مرشد ، وحتى فى العهد الواحد يستعمله حيناً
وحيث لا يستعمله . ويغلب فى سجعه وسجع غيره من الأئمة الإباضية أن لا يكون
متكلفاً ، وكذلك ألفاظهم لا يبدو فيها شيء من الرئى فى اختيارها إلا قليلاً ، وكأنهم
يقبلون ما يفد عليهم عفو الخاطر . وولى سلطان بن سيف (١٠٥٠ - ١٠٩١ هـ) ويفتح
ولايته بعهد منه إلى جميع عماله يستهله بهذه الصورة ^(٢) :

« الحمد لله العزيز عزَّ أن تعوم فى بحور صفاته جوارى (سفن) الفكر ، وأن تروم تنظر
كواكب تكيِّفه بصائر أوى البصر ، أو أن تشاهده بمخارق العيان والنظر ، العالم بديب
النخلة والذر . الذى (لا يعزبُ عنه مثقالُ ذرة فى السموات ولا فى الأرض) ولا (فى
ظلمات البر والبحر) الجليل قدره عن مشاكلة صفات البشر ، أو أن يدرك الأشياء بالسمع
والخبر ، أو أن تجرى عليه أحداث القضاء والقدر . أحمده على ماصب برياض قلوبنا من
سلسال العبر ، وحسم عنا من أوصاب الكدر . وأشكره على ما خولنا من يانع نعمه وقدر ،
وسقانا من عصير كرم كرمه وعزَّ وتكبر . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة
أعدها جنة ليوم المحشر ، يوم لا ملجأ لنا من الله ولا وزر . . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله

دعا إلى الله وأنذر ، وقاد الناس إلى الخيرات وبشّر ، ونصب أنموذج الهداية لمن خاف الله من ذات نفسه وفكره .

وأكبر الظن أن كاتب هذا العهد ليس سلطان بن سيف نفسه ، بل هو كاتب أديب من الإباضية كان يكتب بين يديه ، بل لقد كان أديباً عالماً ، فهو يصدر في أول العهد عن عقيدة الإباضية التي تحدثنا عنها في الفصل الأول وأنهم كانوا يؤمنون بما آمن به المعتزلة من نفي التجسيم عن الله بكل صورة من صورته وتنزيهه تنزيهاً مطلقاً عن الشبه بال مخلوقات وأن يلحق ذاته العلية كيف أو جهة أو أى صفة من صفات البشر . والكاتب أديب بارع ، فقد التزم في نحو صحيفة كبيرة صدر بها الرسالة قافية الراء ، وطاوعته دون أى عسر أو التواء ، مما يدل على تملكه لناصية الكلام . وهو يعنى بالتنميق في عباراته ، إذ يضيف إليها وشى الجناس والتصاوير والاقتراس من الذكر الحكيم ، على نحو ما يتضح في اقتباسه لقوله جلّ شأنه : (لا يعزبُ عنه مثقالُ ذرةٍ في السموات ولا في الأرض) وقوله (في ظلمات البر والبحر) . وتكثر الاقتباسات والجناسات في العهد بعد تلك المقدمة . وقد ذكرنا في الفصل الأول أن سلطان بن سيف أهم سلاطين اليعربيين الإباضيين قبض على صولجان الحكم في دياره ومدينتا صحار ومسقط في أيدي البرتغاليين ، فطردهم كما مر بنا منها ومن سواحل بلاده شر طردة مستعينة في ذلك بأسطول ضخم حطم به أسطول البرتغال وسيطر به على الهند وشواطئها الغربية ، كما سيطر به على شواطئ إفريقيا الشرقية وتعقب أسطولهم في كل موقع ، ويبدو أن سفناً منه حاولت الإلحاح باليمن ، فدمرها تدميراً . ونعجب أن يغضب من صنيعه أمير اليمن الزيدى إسماعيل بن القاسم (١٠٥٤ - ١٠٧٩ هـ) ويعجب سلطان بن سيف أشد العجب ، ويتبادلان رسالتين ، في أولاهما يقول سيف بن سلطان لصاحبه ^(١) :

«إنكم علينا عاتبون ، ومنا واجدون ، لأجل قطع جنودنا في العام الماضي رقاب المشركين على بابكم ، وأخذهم لسفنه الواردة لجنابكم . ولعمري إنا لندرى أن العتاب بين الأخلاء عنوان المودة الخالصة والصفاء ، وزائد محض المودة الصادقة والوفاء ، غير أنه يجب عند اقرار الجرائم ، وانتهاك المحارم . ونحن لم نقصد إلى انتهاك دارك سبيلاً ، ولا نجد لك على إلزامنا فعل ذلك دليلاً ، إذ كنا لم نجهز مراكبنا ، ونتخذ محالينا ، لمشاركة (للمخاصمة) رعيتك ، ولا لاستباحة دم أهل حُكمك وأقضيّتك (أقالملك) ولكن جهزنا الجيوش والعساكر ، وأعددنا اللهازم والبواتر ، لتدمير عبدة الأوثان ، وأعداء الملك الديان

تَعْرُضاً مِنَّا لِرِضَا رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَإِحْيَاءَ لِسُنَّةِ نَبِيِّهِ الْأَمِينِ ، وَرَغْبَةً فِي إِدْرَاكِ أَجْرِ الصَّابِرِينَ الْمُجَاهِدِينَ . وَحَاشَا لِمِثْلِكَ أَنْ يَغْضَبَ لِقِتَالِ عَبْدِ الْأَوْثَمِ ، وَأَعْدَاءِ اللَّهِ وَالْإِسْلَامِ ، أَلَسْتَ مِنْ سُلَالَةِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، السَّاقِي الْمَشْرُوكِينَ وَبَيْءَ الْمَشَارِبِ ، وَأَنْتَ تَدْرِي مَا جَرَى بَيْنَنَا وَإِيَّاهُمْ مِنْ قَبْلُ فِي سَوَاحِلِ عُثْمَانَ ، وَفِي سَائِرِ الْأَمَاكِنِ وَالْبُلْدَانِ مِنْ سَفْكِ الدِّمَاءِ وَكَثْرَةِ الصَّيَالِ ، وَتَنَاهَبِ الْأَمْوَالِ وَالْأَمْوَالِ ، وَإِنَّا لَنَأْخُذُهُمْ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ تَحِلُّ بِهِ مَرَكَبُهُمْ وَتَغْشَاهُ ، حَتَّى مِنْ كَنْجٍ وَجِيرون بَنَدَرِي الشَّاهِ (مَلِكِ فَارَسِ) وَلَمْ يُظْهَرْ لَنَا مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ عِتَاباً وَلَا نَكِيراً ، وَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِنْ ذَلِكَ فَاسْتَلْ بِهِ خَبيراً »

وَيَذْكُرُ سَيْفُ بْنُ سُلْطَانَ لِإِسْمَاعِيلَ بْنِ الْقَاسِمِ أَنَّهُ تَرَكَ فِي تَعْقِبِ الْبَرْتَغَالِيِّينَ مَدَافِعَ فِي ظَفَارِ التَّابِعَةِ لَهُ وَأَنَّهُ حَرَى أَنْ يَرُدَّهَا عَلَيْهِ . وَتَمْتَلِئُ قُلُوبُنَا أَسَى حِينَ نَقْرَأُ رِسَالَةَ إِسْمَاعِيلَ بْنِ الْقَاسِمِ الَّتِي رَدَّ بِهَا عَلَى سَيْفِ بْنِ سُلْطَانَ إِذْ بَدَلَا مِنْ أَنْ يَطْلُبَ مِنْهُ الصَّفْحَ عَنْ كِبَوْتِهِ وَعَثَرَتِهِ الْمُرْدِيَةِ ، وَيَرْجِعَ إِلَيْهِ مَدَافِعُهُ وَأَسْلِحَتُهُ ، يُبْرِقُ لَهُ وَيُرْعَدُ ، وَيَتَهَدَّدُ وَيَتَوَعَّدُ ، إِذْ تَمْضِي رِسَالَتُهُ عَلَى هَذِهِ الشَّكْلَةِ (١) .

« وَصَلَ كِتَابُكَ الَّذِي شَحَّتَهُ بِالْإِبْرَاقِ وَالْإِرْعَادِ وَعَدَلْتَ بِهِ مِنْ تَحْسِينِ الْعِتَابِ ، إِلَى تَحْسِينِ الْخُطَابِ ، ظَنَّا مِنْكَ أَنْ هَذِيانَ وَعِيدِكَ ، وَطَنَيْنَ ذِيَابَ تَهْدِيدِكَ ، يَزْعَزَعُ مِنْ بَأْسِنَا صَخْرَةً صَمَاءً ، أَوْ يَحْرُكُ مِنْ وَقَارِنَا جِبَالاً شَمَاءً ، وَكَيْفَ يَكُونُ ذَلِكَ :

وَأَسْيَافُنَا فِي كُلِّ شَرْقٍ وَمَغْرِبٍ بِهَا مِنْ قِرَاعِ الدَّارَعِينَ فُلُولُ
أَيْنَ ذَهَبَ حِجَاكَ حَتَّى طَلَبْتَ مِنَّا الْمَدَافِعَ ، بِهَذِهِ الْأَرَاخِيفِ وَالْفَقَاقِعِ ، وَإِنَّمَا تَقْطَعُ
أَعْنَاقَ الرِّجَالِ الْمَطَامِعِ . أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ اللَّيْثَ إِذَا هَيَّجَ عَلَى فَرَسَةٍ كَانَ أَشَدَّ إِقْدَاماً ، وَأَعْظَمَ
جَرَأً وَاعْتِرَافاً ، لَا جَرَمَ أَنَّهَا لَمَّا نَأَتْ بَنَّا وَبَكَ الدِّيَارِ ، وَحَالَتْ دُونَنَا وَدُونِكَ الْأَمْصَارِ ،
اسْتَرْسَلَتْ فِي لَفْظِكَ ، وَجَاوَزَتْ فِي سُوءِ الْمَقْدَارِ حَدَّكَ ، وَانْفَرَدَتْ بِأَرْضِكَ ، فَطَلَبْتَ
الطَّعْنَ وَالتَّزَالَ وَحَدَّكَ :

يَا سَالِكَا بَيْنِ الصَّوَارِمِ وَالْقَنَا إِنِّي أَشُمُّ عَلَيْكَ رَائِحَةَ الدَّمِّ
فَاقْطَعْ عُرى آمَالِكَ عَنْ هَذِهِ الْمَدَافِعِ ، فَهِيَ أَوَّلُ غَنِيمَةٍ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - مِنْ قَطْرِكَ
الشَّاسِعُ »

وَالْكِتَابُ حَقّاً مَحْزُونٌ ، إِذْ كَانَ الْمُنْتَظَرُ أَنْ يَضَعَ إِسْمَاعِيلُ بْنُ الْقَاسِمِ يَدَهُ فِي يَدِ سُلْطَانَ بْنِ
سَيْفٍ حِينَ جَاءَهُ كِتَابُهُ ، وَيَعُودَ إِلَيْهِ صَوَابُهُ ، وَيُعْلَنُ نَصْرَتُهُ لَهُ ضِدَّ الْبَرْتَغَالِيِّينَ الْآثِمِينَ .
وَعَلَى الْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ مَضَى فِي غِيٍّ يَتَوَعَّدُ سُلْطَانَ بْنَ سَيْفٍ بِمَعْرَكَةِ كَمْعَرَةَ النُّهْرَوَانِ الَّتِي

تعقب فيها على بن أبي طالب الخوارج ومزق جموعهم ، وكان حربا أن يحبى فيه جهاده للبرتغاليين ويشد أزره ، لا يرد المدافع والأسلحة التي تركها في ظفار فحسب بل أيضا بإمداده بالأموال ، إن لم يستطع أن يمدّه بالفرسان والرجال ! . والرسالتان تتخذان السجع قرارا لها ، فهو اللغة العامة للرسائل الديوانية مهما شرقنا أو غربنا في الجزيرة العربية .

٣

رسائل شخصية

طبعي أن نجد رسائل شخصية متنوعة لأدباء مكة والمدينة ، إذ كان يلم بها كثير من العلماء والأدباء ، وكانوا يتكاتبون ويتراسلون مع علماء البلدتين وأدبائها ، وقد أثبتت كتب التراجم طائفة من رسائل القوم ، من ذلك رسالة كتب بها مفتي مكة الحنفى وأحد أعلامها العلماء في نهاية القرن العاشر ومطلع القرن الحادى عشر للهجرة الشيخ وجيه الدين عبد الرحمن بن عيسى العمرى إلى أبى المواهب البكرى مفتى الديار المصرية ، وذلك في سنة ١٠٢٢ وفيها تحدث عن مواقف مشرفة له حين حج في السنة المذكورة ، وهو يستهل رسالته على هذا النمط ^(١) :

«إن أشرف ما تتوج به المفارق والرهوس ، وأبهر ما تتهيج به المهارق والطرّوس ، وأبهى ما يتنظم في سلك السطور ، من الدّرر الباهرة لدرر النحور ، وأنهى ما يرقم (يكتب) في صكوك الصدور ، من الغرر المضاهية للآلى البحور ، تحيات نظمت بأنامل الإخلاص عقودها ، وتسليمات رقت بطراز الاختصاص برودها ، تشفعها الأدعية التي على ألسن المقربين تتلى . . صادرة من قلب منيب أواه ، ناظرة أن ليس في الوجود إلا الله ، فيها ملائكة الإجابة ، تحفها بالقبول والإنابة ، بأن يديم الله للعلم وأهله ، ويثبى للفرع وأصله ، بقاء مولانا الأستاذ الأعظم ، والملاذ الأعصم ، والجهذ النقاد ، والكوكب الوقاد ، والبحر الزخار ، والليث الزّءار ، عالم الإسلام على الحقيقة ، الجامع للشرعة والطريقة ، كشاف مشكلات العلوم ، حلال معضلات الفهوم :

علامة العلماء واللّجج الذى لا ينتهى ولكلّ لُجّ ساحلُ

الإمام العلامة ، الهام الفهامة ، شيخ الإسلام ، ملجأ الأنام ، مفتى المسلمين ، صدر المدرسين ، الحبر التحرير ، إمام الفقه والتفسير . . مفتى السلطنة الشريفة (يريد السلطنة

العثمانية) بالقاهرة الزاهرة المنيفة». وإذا تساءلنا ماذا قرأنا في الرسالة حتى الآن لاحظنا أننا لم نقرأ إلا سلاماً وتحية ودعاء وثناء. وهذه المعاني البسيطة تتحول إلى ما يشبه خيطاً تنشر عليه عبارات منمقة تستمد من مبالغات مفرطة، صيغت في أسجاع تحفّ بها استعارات تلمع، ولكنها سرعان ما تتلاشى دون أن تترك وراءها مضموناً واضحاً، على شاكلة ما نقرأ للشيخ حنيف الدين المكي من رسالة كتب بها إلى صديق له في الطائف رداً على رسالة كان بعث بها إليه، وهو يَمْضِي فيها على هذا النحو^(١):

«ما روضة غنّاء تدفقت أنهارها، وما حديقة حسناء تصادحت أطيارها، ومادّوحة أمال أغصانها النسيم، وما سرحة (شجرة) غرّدت بأفنانها الطير فأسجعت بصوتها الرخيم، وما هيفاء قد برزت متلثمة بالجلال، وطلعت بأفق الحسن كالهلال، وما الخزامى والمنديل (العود) الرطب، وما العنبر والعنبر إذا فاح وشبّ (سطع). وما الدر المكنون في الصّدف، وما ساعات السرور المعدومة من الصّدف، بأجل من كتاب ورد فبرّد بوروده غليل مشتاق، وأخجل بورده وعوده روائح النرجس الغصّ وما يُنثر في الأطباق، قد نظمت قلائد عقيانه أنامل مولى تسنّم ذروة المجد، وأبرزته أفكار مخدوم حاز من الفضائل ما فاق به السعد، تحتال في رياضه النضرة فرسان البلاغة فلا تلحق جواده، وترشف حياضه العذبة أرباب الفصاحة والبراعة مقتفية آثاره كي لا تفضل جادّة الإصابة والإجادة، قد هبّ من خلال سطوره نسيمة الرطب فأشفي العليل، وجرى من بحر منشوره شهده العذب، فبرّد اللوعة وأطفأ الغليل»

وهذه القطعة من الرسالة تحمل مبالغات مكررة واضحة، وكأن ليس الغرض أن تؤدى الرسالة طائفة من المعاني، إنما هي تؤدى طائفة من الألفاظ والأساليب المنمقة المسجوعة المليئة بالتكرار وبيان القدرة على جلب العبارات المحشوة بضروب الاستعارات والمجازات وألوان الجناس. وحاول الشيخ أن يظهر تفننه في صنع العبارة المسجوعة، فأطالها في آخر هذه القطعة، ولكن بعد أن جعلها تتوازن داخلياً، فكلمة «فرسان البلاغة» في عبارة يقابلها «أرباب الفصاحة والبراعة» في العبارة التالية، وكذلك كلمة «نسيمة الرطب» في عبارة يتلوها في العبارة التالية «شهده العذب» وليس وراء ذلك كله إلا التكلف الشديد.

وإذا تركنا الحجاز إلى اليمن استقبلتنا فيه رسالة استعطاف بديعة للحسين بن علي بن القيم وجه بها إلى السلطان سبأ بن أحمد الصليحي (٤٨٦ - ٤٩١ هـ) يستعطفه،

ولا ندرى بالضبط ما سبب هذا الاستعطاف وخاصة أنه كان - كما مر بنا في ترجمته بين الشعراء - القائم على ديوان الإنشاء للدولة وكتب رسائلها . وتذكر المصادر أن أباه وضع يده في يد جيش بن نجاح حين استولى على زبيد من الدولة الصليحية . وربما حدثت نبوة بينه وبين سبأ فلم بزبيد فأغضبه ذلك منه ، والرسالة تَمْضِي على هذا النمط ^(١) :

« كتب عَبْدُ حَضْرَةِ السُّلْطَانِ الْأَجَلِّ مَوْلَايَ ربيعَ الْمُجْدِيدِينَ ، وَقَرِيعَ الْمُتَأَدِّبِينَ ، جَلْوَةَ الْمَلْتَبِيسِ ، وَجَذْوَةَ الْمُقْتَبِيسِ ، شَهَابَ الْمَجْدِ الثَّاقِبِ ، وَنَقِيبَ ذَوَى الرُّشْدِ وَالْمُنَاقِبِ ، أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ ، وَأَدَامَ عُلُوَّهُ وَارْتِقَاءَهُ ، مَا قُدِّمَتِ الْعَارِيَةُ لِلْمُسْتَعِيرِ ، وَلَزِمَتِ الْبَيَاءُ لِلتَّصْغِيرِ ، وَجَعَلَ رَتَبَتَهُ فِي الْأَوَّلِيَّةِ عَالِيَةِ الْمَقَامِ كَحَرْفِ الْإِسْتِفْهَامِ ، وَكَالْمُبْتَدَأِ إِنْ تَأَخَّرَ فِي الْبَيْتَةِ ، فَإِنَّهُ مُقَدَّمٌ فِي النَّبْتَةِ . وَلَا زَالَتْ حَضْرَتُهُ مِنَ الْخَادَثَاتِ حِمَى ، وَلِلْوُفُودِ مُزْدَحَمًا وَمُلْتَزِمًا ، حَتَّى يَكُونَ فِي الْعُلَا ، بِمَنْزِلَةِ حَرْفِ الْإِسْتِعْلَا . . وَلَا زَالَ عَدُوُّهُ كَالْأَلْفِ ، حَالَهَا يَخْتَلِفُ ، تَسْقُطُ فِي صِلَةِ الْكَلَامِ ، وَلَا سِيَّامَا مَعَ اللَّامِ ، فَإِنَّهُ - أَدَامَ اللَّهُ عُلُوَّهُ - أَحْسَنَ إِلَى ابْتِدَاءِ ، وَنَشْرٍ عَلَى مَنْ فَضْلُهُ رِذَاءٌ ، أَرَادَ أَنْ يَخْفَى ، وَكَيْفَ يَخْفَى ؟ لِأَنَّ مِنْ شَرَفِ الْإِحْسَانِ ، سَقُوطُ ذِكْرِهِ عَنِ اللِّسَانِ - كَالْمَفْعُولِ رُفِعَ رُفْعَ الْفَاعِلِ الْكَامِلِ لَمَّا حُذِفَ مِنَ الْكَلَامِ ذِكْرُ الْفَاعِلِ - وَأَنَا أَهْدِي إِلَيْهِ سَلَامًا مَا الرُّوْضُ ضَاكِحُكَ النَّوْضُ ^(٢) ، غُرْسٌ ، وَحُرْسٌ ، وَسُقَى ، وَوُقَى ، وَغَيْبٌ ، وَصَيْبٌ ^(٣) ، فَأَخْذٌ مِنْ كُلِّ نَوْءٍ ^(٤) بِنَصِيبٍ ، زَهَاهُ الزَّهْرُ ، وَسَقَاهُ النَّهْرُ ، جَاوَرِ الْأَضَا ^(٥) فَحَسَّنْ وَأَضَا ، رَتَعَ فِيهِ الشُّحُورُ ^(٦) ، وَمَرَحَ الْعَصْفُورُ ، فَنَظَرَ إِلَى أَقَاحِيهِ ، تَفَتَّرُ فِي نَوَاحِيهِ ، وَإِلَى الْبَهَارِ ، يَضَاحُكُ شَمْسُ النَّهَارِ ، فَجَعَلَ يَلْتَمِسُ مِنْ وَرْدِهِ خُدُودًا ، وَيُضْمُ مِنْ أَغْصَانِهِ قُدُودًا ، وَيَقْتَبِسُ النَّارَ ، مِنَ الْجَلْنَارِ ^(٧) ، وَيَلْتَمِسُ الْعَقِيقَ مِنَ الشَّقِيقِ ^(٨) فَتَشْتِي ثِمَلًا ، وَغَنَى خَفِيفًا وَرَمَلًا ، بِأَطْيَبِ مِنْ نَفْحَتِهِ الْمُسْكِيَّةِ ، وَأَعْطَرَ مِنْ رَاحَتِهِ الذَّكِيَّةِ ، وَإِنِّي وَإِنْ أَهْدَيْتَهُ فِي كُلِّ أَوَانٍ ، مِنْ أَدَاءٍ مَا يَجِبُ غَيْرَ وَانٍ ، أَعُدُّ نَفْسِي السُّكَيْتَ ^(٩) فِي السَّبْقِ ، لَتَقْصِيرِي لَمَّا وَجِبَ عَلَيَّ مِنَ الْحَقِّ » .

وكل من يقرأ رسائل أبي العلاء المعري يحس بوضوح صلة هذه الرسالة بها ، ومررنا في حديثنا عن شعره أنه كان يستوحيه في بعض أبياته ، ومعروف أن أبا العلاء كان يتصنع في

(١) معجم الأدباء ١٠ / ١٣٢ .

(٢) الشحور : طائر كالعصفور رخم الصوت .

(٣) غيب : غاب بذره في الأرض . وصيب : أمطر .

(٤) النوء : المطر .

(٥) الغدير .

(٦) السكيت : آخر خيل الحلبة .

(٧) الجلتار : زهر الرومان .

(٨) الشقيق : ورد كبير أحمر .

(٩) السكيت : آخر خيل الحلبة .

رسائله تصنعاً واسعاً لجلب مصطلحات العلوم اللغوية ، وهو أول من نهج بقوة هذه السبيل ومهّدها لمن جاءوا بعده ^(١) ، وتأثره فيها شرقاً وغرباً الكتاب ، وها هو ابن القم اليمنى الذى يوشك أن يكون معاصراً له يتأثره فى هذا الأسلوب الجديد ، فإذا هو يدعو لسبيل بن أحمد بدوام علوه وارتقائه دوام لزوم الياء عند الصرفين للتصغير ، ويدعو له بدوام تقدم رتبته على الأمراء والسلاطين من حوله كدوام تقدم حرف الاستفهام على جملته أو عبارته ، وكدوام تقدم المبتدأ على الخبر ، وحتى إن هو تأخر عنه كان متقدماً عليه فى النية . وإنه ليرضى له أن يظل دائماً متسماً بذروة العلا ، مثله مثل حروف الاستعلاء عند أصحاب التجويد والقراءات وهى سبعة : ق ، ظ ، خ ، ص ، ض ، غ ، ط ، وهى دائماً تفخم فى النطق ، فلا يدخل عليها ترقيق . ويجعل عدوه كالألف ، حاله دائماً مختلفة ، إذ هى تأتى للوصل وللقطع ، ولا ينطق بها فى مثل الشمس والنور والصلاة .

ولا ريب فى أن ذلك تعقيد وتصنع شديد ، إذ لا يستطيع أن يفهم عبارات الرسالة إلا من عرف علوم الصرف والنحو والتجويد والقراءات . وظاهرة ثانية فى الرسالة اندفع فيها ابن القم وراء أبى العلاء وإن لم يبعد إبعاده ، وهى ظاهرة التصنع للفظ الغريب ، فقد وشّاهها به ، وكأنما أصبح غاية من غايات الكتاب البارعين أن يجلبوا الألفاظ الغريبة إلى رسائلهم ، حتى يثبتوا مهارتهم ، وهى مهارة لغوية خالصة . ونحمد لابن القم أنه لم يسرف فى هذه المهارة . والرسالة تصور براعة حقيقية فى استخدام السجع ، فقد كان يستطيع أن يأتى به قصيراً ، بل مفرطاً فى القصر ، حتى لتكون السجعة أحياناً كلمة واحدة . والجناس كثير فى العبارات ، من مثل قوله : « جَلْوَةُ الملتبس » و « جَدْوَةُ المقتبس » و « البهار » و « النهار » إلى غير ذلك من جناسات ناقصة تكتظ بها الرسالة ، وهو يعمى فيها مستعطفًا محاولاً بكل ما فى وسعه أن يستل الضغينة من صدر سبأ بمثل قوله :

«وأما حال عبده ، بعد فراقه فى الجلد ، فحال أم تسعة من الولد ، ذكور ، كأنهم عِقبان وصقور ، كنوا ^(٢) فى وُكور ، اخترم ^(٣) منهم ثمانية ، وهى على التاسع حانية . نادى النذير ، العُربان فى البادية ، للعادية ، ياللعادية ^(٤) ، فلما سمعت الداعى ، ورأت الخيل وهى سراع ، جعلت تنادى ولدها : الأناة ! الأناة ! وهوينادى العُدّة ! العُدّة :

(١) انظر كتابنا الفن ومذاهبه فى النثر العربى (نشر دار

المعارف - الطبعة الثامنة) ص ٢٧٣ وما بعدها .

(٣) اخترم : مات .

(٤) العادية الأولى : الداهية ، والثانية : الخيل .

(٢) كنوا : استنروا وأقاموا .

بَطْلٌ كَانَ ثِيَابُهُ فِي سَرَحَةٍ يُحْدَى نَعَالَ السَّبْتِ لَيْسَ بَتَوْءٌ^(١)
 فَحِينَ رَأَتْهُ يَجْتَالُ فِي غَضُونِ الزَّرْدِ الْمَصُونِ^(٢) أَنْشَأَتْ تَقُولُ :
 نَشَدْتُ أَضْبَطًا يَمِينُ بَيْنَ طَرْفَاءٍ وَغِيلٍ^(٣)
 لِبَاسُهُ مِنْ نَسَجٍ دَا وَدَ كَضَحَضَاحٍ يَسِيلٍ^(٤)
 فَعَرَضَ لَهُ فِي الْبَادِيَةِ أَسَدٌ هَضُورٌ ، كَانَ ذَرْعُهُ مَسْدٌ^(٥) مَضْفُورٌ :
 فَتَطَاعَنَا وَتَوَاقَفَتْ خِيَلَاهُمَا وَكَلَاهُمَا بَطْلُ الْلِقَاءِ مَقْنَعُ
 فَلَمَّا سَمِعَتْ صِيَاحَ الرَّعِيلِ^(٦) ، بَرَزَتْ مِنَ الْخِذْرِ بِصَيْرٍ قَدْ عِيلَ^(٧) . فَسَأَلْتُ عَنْ
 الْوَاحِدِ ، فَقِيلَ لَهَا : لِحَدِّهِ الْلَا حِدَ :

فَكَّرْتُ تَبْتِغِيهِ فَصَادَفْتُهُ عَلَى دَمِهِ وَمَصْرَعِهِ السَّبَاعَا
 عَيْنِي بِهِ فَلَمْ يَتَرَكَنَّ إِلَّا أَدِيمًا قَدْ تَمَزَّقَ أَوْ كُرَاعًا^(٨)
 وَمَا هَذِهِ الْأُمُّ الثَّكَلِيَّ بِأَشَدِّ مِنْ عَبْدِكَ تَأْسَفًا ، وَلَا أَعْظَمُ كَمْدًا وَتَلْهَفًا ، وَإِنَّهُ لَيَعْنِفُ
 نَفْسَهُ دَائِمًا ، وَيَقُولُ لَهَا لَا تَمَنَّ : لَوْ فَطِنْتَ لَقَطَنْتَ^(٩) وَلَوْ عَقَلْتَ لَمَا انْتَقَلْتَ ، وَلَوْ قَنَعْتَ
 لَرَجَعْتَ ، وَمَا هَجَعْتَ :

يُقِيمُ الرِّجَالُ الْمَوْسِرُونَ بِأَرْضِهِمْ وَتَرْمِي النَّوَى بِالْمُقْتَرِينَ الْمَرَامِيَا^(١٠)
 وَمَا تَرَكُوا أَوْطَانَهُمْ عَنْ مِلَالَةٍ وَلَكِنْ حَذَارًا مِنْ شِمَاتِ الْأَعَادِيَا
 أَيُّهَا السَّيِّدُ ! أَمِنْ الْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ ، وَمَحَاسَنِ الشِّيمِ وَالْأَوْصَافِ ، إِكْرَامُ لِمَهَانِ ،
 وَإِذْلَالُ جَوَادِ الرِّهَانِ ، يَشْبَعُ فِي سَاجُورَةِ كَلْبِ الزُّبُلِ ، وَيَسْعَبُ فِي خَيْسِهِ أَبُو الشَّيْلِ^(١١) :
 إِذَا حَلَّ ذُو نَقْصٍ مَكَانَةَ فَاضِلٍ وَأَصْبَحَ رَبُّ الْجَاهِ غَيْرَ وَجِيهِ
 فَإِنْ حَيَاةَ الْحَرِّ غَيْرُ شَهَّةٍ إِلَيْهِ وَطَعْمُ الْمَوْتِ غَيْرُ كَرِيهِ

(١) البيت لعنزة والسرحة : شجرة طويلة . يصف عليها .
 خصمه بالبطولة والطول كأنه سرحة أو شجرة سامقة (٥) هضور : شديد . ذرع : طول . مسد : حبل .
 ويصفه بالترف إذ يتعلل بنعال السبت الحيدة ، كما يصفه (٦) الرعيل : القطعة من الخيل .
 بالقوة إذ ليس توأما شرکه غيره في بطن أمه . (٧) عيل : نفذ .
 (٢) غضون : ثنایا . ويريد بالزرد المصون الدرع . (٨) الكراع : الساق .
 (٣) الأضبط : العامل أو المقاتل يمينه ويساره . (٩) قطن : أفت .
 والطرفاء : شجر . الغيل : القابة . (١٠) المقترون : أصحاب العيش الضيق .
 (٤) تصف درعه وأنه متين من نسج داود ، ويشبهون (١١) الساجور : خشبة صغيرة تعلق في عنق الكلب .
 كثيراً الدروع وثنایاها بغدران المياه حين هبوب الرياح (١٢) يسغب : يحوج . الخيس : غيل الأسد .

أقول لنفسى الدنية هبى طال نومك ، واستيقظى لاعز قومك ، أرضيتِ بالعباء المتزور^(١) وقنعتِ بالمواعيد الزور ، يقطعةً فإن الجِدَّ قد هَجَّع ، ونُجْمَةٌ فمن أَجْدَب انتجع .

ويتشبه ابن القم في هذه القطعة بأبى العلاء من ناحية وببديع الزمان الهمداني من ناحية أخرى ، أما تشبیه بأبى العلاء أو محاكاته له فتتضح في الألفاظ الغريبة التي يحشدها في نثره ، وحتى الشعر يرى أن يختار أبياته من ذوات اللفظ الغريب ، على الأقل إلى حد ما . وكان بديع الزمان يزين رسائله بالأشعار ، وقد حاكاه في ذلك وفي تضمين رسائله بعض الحكايات القصصية ، حين شبه نفسه وتحسره على ما فقده من قرب سبأ وقيامه على ديوانه بأم لتسعة فقدت ثمانية منهم ، وبقي لها ولد واحد ، هو كل أملها في الحياة ، فإذا غارة على الحى ، وركب ولدها فيمن ركبوا للدفاع والذود عن الحرم . وهى تصيح به من ورائه خائفة جزعة تريد أن ترده ، ويتراءى لها في بطولته وبأسه وسلاحه ، وعبثاً تحاول رده . ويلقاه من الأعداء فارس ، بل أسد هصور ، وتدور عليه الدوائر ، وتسمع صياح الخيل حين عودتها ، فتبرز من بيتها تسأل عن فلذة كبدها ، وتعرف أنه سُفِكَ دمه ، فتخرج إلى العراء باحثة عنه ، وتجده أشلاء ممزقة . فياللهول ويا للكارثة المقتضة للمضاجع . ويقول إنه ليس أشد أسفاً منها ولا كمداً وتلهفاً على فقده لعمله عند سبأ ولعطفه ورعايته . ويلوم نفسه أن ترك العمل بديوانه بل إنه ليعاتب سبأ عتاباً رقيقاً ، كله لطف ، ملوِّحاً له بحقه عليه ، وأنه قَرَّبَ إليه واصطفى من هم دونه في المنزل الأدبية ، وكأنه يعرض عليه الصفح عنه والعفو ، آملاً في العودة ، إلى سابق مكانته ، وإنه ليصرح بأنه أجذب ، وخليق به أن ينتجع ، وأن يجد الوادى ممرعاً كعهده .

وإذا كنا قد وجدنا في اليمن كاتباً مبكراً يحاكي أبا العلاء وبديع الزمان في بعض رسائلها فإننا نجد في حضرموت كاتباً يحاكي الحريرى لا في مقاماته ، ولكن في بعض رسائله ، وكان الحريرى قد اشتهر برسالة سينية جميع كلماتها من ذوات السين كتبها على لسان بعض أصدقائه يعاتب فيها صديقاً أخلَّ به في دعوة دعا غيره إليها . وعلى غرار هذه الرسالة كتب السيد عمر السقاف الحضرمى رسالة سينية طويلة تقتطف من مطلعها قوله^(٢) :

« باسم السلام^(٣) أستبدى ، وبأسعافه أستهدى ، وبأسمائه أستنجد ، ولنفتات سره

(٣) السلام : من أسماء الله .

(١) المتزور : القليل .

(٢) تاريخ الشعراء الحضرميين ١٤ / ٣ .

أستشد، وبإسبال ستره أستظل، وبإسدال أستاره أستقل... تقدرس سبحانه، وسما إحسانه، واستطال سلطانه، وأستعنه وأستنصره، وأستقيه وأستغفره، وأستعيذه من دسائس إبليس، وسائر التلايس، وسطوة النفوس، وسؤال المنحوس... وأسأله التيسير، وسكون الفردوس لا السعير، وأسلم سلاما مستمرا، يتلمس سيد السادات سني السيرة، حسن السريرة، المحرس بلسنه الملسين، السالك سبيل أسلافه السائدين». وتمضي الرسالة في ألفاظ مبعدة في الغرابة، كي يدل الكاتب على مهارته، وهي ليست مهارة أدبية، ولكنها مهارة لغوية، وكانوا يعدونها زخرفا وتتميقا، ونحس كأن الكلمات يحرص بعضها بجوار بعض في الرسالة، فهي صفوف سينية، أو هي صناديق سينية، نقرأ فيها سينية، ولكن لا نقرأ فكرا ولا شعورا، وقد كثر فيها الجنس كثرة مفرطة. وكل ذلك محاكاة للحريى ومحاولة للدنو من طريقته في رسالته السينية وبيان القدرة على جمع الكلمات ذوات السين، مع ما يطوى في ذلك من التصعب والتعقيد. ويقول من ترجموا له وكتبوا عن هذه الرسالة إنه كان لها دوى بعيد في الأوساط الأدبية الحضرية، إذ عدوها طرفة غريبة وظلوا يتداولونها طويلا. على أن الكثرة من رسائل الأدباء الحضريين لم تكن تُغرب هذا الإغراب، بل كانت تكتفى بالسجع، وقلماء اصطنعت الألفاظ الغريبة الآبدة.

ونترك حضرموت إلى البحرين، ونلتقي في كتاب سلافة العصر ببعض رسائل لأدبائها، من ذلك رسالة كتب بها ابن أبي شابة البحراني إلى ابن معصوم صاحب الكتاب، ونحس فيها بالتكلف الشديد منذ فواتحها، يقول (١):

«أنهى أبهى سلام، شدت بنغات السرور أطياره، وبدت على صفحات الدهور أنواره، وأصلح دعاء تعاضدت شرائط إجابته، وترادفت وسائل إصابته، وسمت مصاعد قبوله، ونمت فوائد فروعه وأصوله، وأنفس ثناء ثنيت بالوفاء وسائده ومسانده، وثبتت على الولاء قواعد ومقاعده، وخالص إخلاص حديث خلوصه قديم، وحظ خصوصه مستقيم، أخدم به... شمس سماء المحامد والفضائل، وغرة سماء الأماجد والأفاضل، ديباجة صفحتي الشرف والفتوة، ونتيجة مقدمتي الولاية والنبوة، صاحب ذيول العز الشامخ، وصاحب أصول المحدث الباذخ، مربع الكرم والجود، ومرتع الآمال والمقصود، الذي نيظت أعمدة فضائل أحسابه الفائقة بسلاسل أنسابه السامقة، وأصبحت كعوب أعراقه في الكرم متناسقة، وشعوب أخلاقه في الهمم متوافقة».

وتتطرد الرسالة على هذه الصورة من الخناسات المتلاحقة ، وأكثرها يظهر فيه التصنع وأنه مجلوب لا لأداء معنى وإنما لأداء وشئ الجناس ، إن صح أن يسمى هذا وشيا ، وما هو بوشى ، بل هو ألفاظ مترصّة ، قد وضعت متقابلة فكل عبارة تقابلها أخرى بعدد ألفاظها ، والعدد ليس كافياً ، بل لابد أن تكون موازنة لها موازنة تامة ، فكلمة « شدت بنغيات السرور أطياره » توازنها كلمة « بدت على صفحات الدهور أنواره » وكلمة « تغاضدت شرائط إجابته » توازنها كلمة « ترادفت وسائط إصابته » وفي أثناء ذلك تُرصّ الجناسات رصّاً ، فالوسائد تليها المساند ، والقواعد تليها المقاعد ، وبلى ذلك خالص وإخلاص وخلوص وخصوص . وكلمة « شمس سماء المحامد والفضائل » توازنها كلمة « غرة سماء الأماجد والأفاضل » وكلمة « ديباجة صفحتى الشرف والفتوة » توازنها كلمة « نتيجة مقدمتى الولاية والنبوة » . وناهيك بقدرة الكاتب على استخدام المثنى فى الكلمتين السالفتين واستخراج هذا التقسيم . ونحس وكأننا لسنا بإزاء عبارات طبيعية أو شبه طبيعية ، بل نحن بإزاء عبارات هندسية تقاس بالمسطرة والفرجار ، وقد حُشد الجناس بجميع صوره : جناس الاشتقاق والجناس الناقص ، وحُشد كثير من الاستعارات ، ولكنها متكلفة غاية التكلف على نحو ما يلاحظ فى وسائد الثناء ومسانده وكعوب الأعراق وشعوب الأخلاق . وهذه الصورة التى يسودها التصنع كانت شائعة فى البلاد العربية وخاصة فى حقب هذا العصر المتأخرة .

٤

مواعظ وخطب دينية

لا ريب فى أن المواعظ كانت مزدهرة فى مكة والمدينة طوال هذا العصر بحكم من كان فيها من الوعاظ الذين يخطبون الناس ، أو يلقون عليهم المحاضرات ، واعظين مذكرين بالتقوى والعمل الصالح والاستعداد لليوم الآخر ، فالناس كأنهم سَفَرٌ وقوف ، وكل منهم ينتظر أجله ، ولن ينفع أحداً إلا ما قدمت يداه . وكان يفد على المدينتين المقدستين كثير من وعاظ العالم الإسلامى ، بل كاد أن لا يفوت واعظ منهم الإمام بالمدينتين أو على الأقل بمكة حتى يودى فريضة الحج ، وكان كثير منهم يحاور بها أو بالمدينة ، ويتحول واعظاً فى الحرم المكى أو الحرم المدنى . وكما كان الأدب العربى بَشْرىً ويغنى لو أن الوعظ فى المدينتين سُجِّلَ فى الكتب وعُنى به من يحفظ عيونه . ولعله من الطبيعى أن نجد ابن ظفر المكى الذى

مرَّبنا ذكره بين شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية يتحول بكتابه «سلوان المطاع في عدوان الأتباع» واعظا ، وعادة يذكر المعنى ثم يتلوه بموعظة مسجوعة ، تعقبها أحيانا أبيات حكيمة .

والمعنى الذى يلم به «سلوانة» أو سلوة ومن هنا جاء اسم الكتاب . وكثيرا ما تجرى سلواناته فى شكل حكم ، كقوله فى سلوانة التأسى : «التأسى جنة البلاء ، وسنة الثبلاء . التأسى درج الاضطراب ، كما أن الجزع درك الثبار (الهلاك) . ومن قوله فى سلوانة الرضا : من رضى ، حظى . من ترك الاقتراح ، أفلح واستراح . كن بالرضا عاملا قبل أن تكون له معمولا ، وسر إليه عادلا وإلا صرت نحوه معدولا» . والكتاب يفيض بالحكم الواعظة من مثل قوله : «ما أحرى الملول ، بأن يحرم المأمول . من لزم الرقاد ، حرم المراد . التمتع فى الدنيا يضاعف حسرة زياها (مفارقها) ويؤكد غصة اغتيالها . الهوى طاغية فمن ملكه ، أهلكه . الهوى كالنار إذا استحكمت أبقاها عسر إخمادها . الغريب ميت الأحياء قد أعاده البين ، أثرا بعد عين» .

وتتحول من الحجاز إلى اليمن ، وتلقانا فيها المواعظ فى كل مكان وزمان ونجدها فى الرسائل وفى الوصايا على شاكلة ما نقرأ فى وصية الملكة الحرة الصليحية أروى بنت أحمد ، وهى لاشك من عمل بعض الوعاظ ، وقد جاء فى فواتحها (١) :

«لا إله إلا الله تعالى مبدع المبدعات ، وخالق المخلوقات ، جلّ وعلا أن تناله صفة ، أو تدركه معرفة ، الخلاق فى قبضته ، والأشياء صادرة عن أمره وإرادته ، لا معقب لحكمه ، ولا رادّ لأمره ، إنه العدل الذى لا يجر ، والحكم الذى لا يحيف ، والصادق الذى لا يخلف ، والعفو الذى لا يؤاخذ ، خالق السموات والأرضين ، وإله الأولين والآخرين ، ذو الأسماء الحسنى ، والكلمات التامة صدقا وعدلا . له ملائكة انتخبهم من بريته ، وانتخبهم للسفارة بينه وبين المصطفين من أمته (يسبحون الليل والنهار لا يفترون) ولا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون) . وإن الجنة حق ، خلقها الله للمطيعين من بريته ، الخائفين من سطوته ، المؤمنين به ، المصدقين لوعده ، الموفين بعهده ، المتبعين لرسله ، العاملين بمقتضى آياته وكتبه . وإن النار حق أعداها الله لمن جحد أنبياءه ، وخالف أوليائه . . وتمادى فى غيّه وأسرف فى أمره ، وأصرّ على كفره» .

وهذه الموعظة فى مطلع الوصية كان وراءها مواعظ كثيرة ، لا فى بيئة الدولة الصليحية

وحدها ، بل في بيئات كل الدول والإمارات التي كانت تعاصرها ، وأيضا في الدول التي جاءت بعد ذلك ، ونقصد إمارة الزيديين ودولتي الرسولين والطاهريين ، حتى إذا أصبح الصولجان في اليمن بيد الزيديين ظل الوعظ مزدهراً . وكانت ترفده دائماً خطابة الجمعة في المساجد والجوامع أسبوعياً ، كما كان يرفده المتصوفة ، ومن أشهرهم في عهد الرسولين أبو الغيث^(١) بن جميل الملقب بشمس الشمس المتوفى سنة ٦٥١ للهجرة ، وسُئل عن الصوفي من هو ؟ فقال : « هو مَنْ صَفَّاسِرُهُ من الكدر ، وامتلأ قلبه من العبر ، وانقطع إلى الله عن البشر ، واستوى عنده الذهب والمدر^(٢) » . ومن دعائه : « اللهم إني أسألك يا روح روح الروح ، وبالبُّ لبُّ اللبِّ ، وبيا قلب قلب القلب ، هَبْ لي قلباً أعيش به معك ، فقد خلقت كلَّ ما هو دونك لأجلك ، فاجعلني ممن شئت من هذه الجملة » . وكان يعاصره أحمد بن علوان الذي مرَّ ذكره وله في الوعظ كتاب نَحَى فيه منحى ابن الجوزي فلذلك يقال له جَوَزَى اليمن وله في التصوف فصول كثيرة^(٣) ، وله أتباع من الدراويش المعروفين في اليمن بالمجاذيب ، كانوا ينشرون هناك كلامه ومواعظه . ومرَّ بنا في غير هذا الموضع حديث عن عبد الله بن أسعد اليافعي نزيل مكة وشيخ الحرم بها وله شعر صوفي ومواعظ كثيرة . وصنف في الصوفية وتراجمهم - كما مرَّ بنا - كتاباً سماه « روض الرياضين وحكايات الصالحين » .

وكان الوعظ مزدهراً في حضرموت ، إذ اشتهر فيها صوفيون كثيرون بمواعظهم ، غير من كانوا يعظون الناس وراءهم في المساجد وفي خطابة الجمع ، ومن أشهر متصوفها أبو بكر العيدروس ، ومرَّ بنا ذكره وبعض أشعاره الصوفية في حديثنا عن شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية ، وله نثر صوفي ووعظ كثير ، ومن قوله في الفرق بين الشريعة والحقيقة^(٤) :

« الحمد لله وهو الحامد لنفسه والمحمود ، ومنه انبعث القصد للقاصدين وهو المقصود ، خلق لعبده إرادة بإرادته وأثبتته ، حتى أقام عليه حجته ، وبإثباته له قام عليه أمره ونهيه وجازاه ، على مقتضى سعيه فناداه : (وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى) وتارة أقام نفسه وأخفاه ، فقال : (وما تشاءون إلا أن يشاء الله) فحصلت الحيرة ، وعميت الأبصار والبصيرة . فوقَّ من شاء من عبادته للوقوف عند مكنون علمه ، فوقف مع الشريعة بجسمه ومع الحقيقة بقلبه ، فالعلم المتجلى على الجسم علم ظاهر ، وهو علم

(٣) العقود اللؤلؤية ١ / ١٦٠ .

(١) العقود اللؤلؤية ١ / ١٠٧ .

(٤) تاريخ الشعراء الحضرميين ١ / ١١٨ .

(٢) المدر : القطعة من الطين .

الشريعة ، والعلم المتجلى على القلب علم باطن ، وهو علم الحقيقة . فأقام ظاهر الإسلام على أركان ، القائم بها جوارح الأبدان ، وأقام حقيقة الإيمان والإحسان على يقين وبيان ، القائم بها صميم الجنان ، ولكن لما خفي عن الأسماع الحسية ما بالقلب جعل له ترجان وهو اللسان ، فارتبطت الشريعة بالحقيقة ، والحقيقة بالشريعة .

وأبو بكر العيدروس يشير في أول كلمته إلى الخلاف بين الجبرية القائلين بأن كل شيء قدر مقدور ولا مفر منه ، ولا حول ولا قوة للإنسان إزاءه ، وبين القدرية القائلين بأن كل عمل للإنسان إنما هو بإرادته وحرية وأن كل شيء إنما هو بمشيئته . ويقول إنها جميعاً حائران ، ويضع فوقها أهل الحقيقة من الصوفية القائلين بأداء فرائض الإسلام وأحكامه ويسمى ذلك عمل الجوارح ، ويقول إنهم يجمعون بين هذا العمل وعمل القلوب وصدق شعورها الباطن الذي لا ينضب معينه إذ يستمد من المحبة الإلهية ورحيقها الصافي . وتصفوه بذلك تصوف سني كتصوف الغزالي وأضرابه ، ممن يقيمون تصوفهم على الجمع بين علم الشريعة الظاهر وعلم الحقيقة الباطن .

وطبيعي أن يكثر الوعظ في خطابة الخوارج الإباضية بعمان ، وقد وقف الجاحظ في كتاب البيان والتبيين مراراً عند خطابة الخوارج من جميع فرقهم ، ونوّه بين الإباضية خاصة بخطابة أبي حمزة قائد عبد الله بن يحيى الكندي ، وروى بعض خطبه ، وهي تمتاز بألفاظها الطليّة ومعانيها القوية . ولا شك في أنه ظلت شعاعات من خطابته وخطابة عبد الله بن يحيى وعبد الله بن إياض تدور في السنة خطباء الإباضيين بعدهم ، وتلقانا خطبة جمعة متأخرة في عصر إمامهم ناصر بن مرشد (١٠٢٤ - ١٠٥٠ هـ) وهي تمضي على هذا النمط ^(١) :

« بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله الذي هدم بالموت مشيد الأعمار ، وحكم بالفناء على أهل هذه الدار ، وجعلهم أغراضاً لسهام الأقدار ، ووكل بهم أمراضاً ترزعجهم عن القرار ، وتجري منهم مجرى الدماء في الأبشار ، لا يعتصم منهم معتصم بالحذر ، ولا يختص بها الفقراء دون ذوى اليسار ، بل هي آيات عدلٍ عدل الله بها في البادين والحُضار ، أحمده على نعمه المسبلة الغزار ، وأعوذ به من العتوّ والاستكبار ، وأستغفره للذنوب والأوزار ، من الكبائر والإصرار . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة منجية من عذاب النار ، ميوّنة مَنْ شهد بها دار القرار ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله المختار ، أرسله بأيمن شعار ، وأبين فخار ، وأنور منار ، وأظهر إعلان وإسرار ، وأظهر

(١) تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان ٣٦/٢ .

برهان وإنذار ، من صميم العرب في النصار ^(١) ، وأكرمها في الفخار ، مؤيدا بالمهاجرين والأنصار ، منصورا بالملائكة الأبرار ، وعلى آله الأطهار ، آناء الليل وأطراف النهار : أيها الناس ! إن قوارع الأيام خاطبة فهل أذن لعظتها واعية ، وإن فجائع الأحكام صائبة فهل نفس لعجائبها مراعية ، وإن مطاعم الآمال كاذبة فهل همة إلى التتره عنها داعية ، وإن طوالع الآجال واجبة فهل قدم إلى التزود من الدنيا ساعية .

وتستمر الخطبة في الوعظ بالموت وأنه لا ينجو منه الآباء الكبار ولا الأبناء الصغار بل الجميع بترت أعمارهم الدهور الغواير ، وابتلعهم الحفر والمقابر . ومثل السلف الخلف ، فهم دائماً هدف للتلف . عظة ينبغى أن يتعظ بها العاقل ، فينفق ساعاته في التقوى والعمل الصالح . وتعود الخطبة إلى الصلاة على الرسول ﷺ وعلى آله قائلة : « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ما ذرَّ شارق ^(٢) ، وأومض بارق ، وفاه ناطق ، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد بعدد أنفاس الخلائق ، وبعدد ما في السموات السبع الطرائق ، وبعدد ما خلقت وما أنت خالق » . ثم تستتزل الخطبة الرضوان على صاحب الرسول في الغار ورفيقه في الأسفار ، معدن الجود والفخار ، وسيد المهاجرين والأنصار . أول ساع إلى شرف التصديق ، أنى بكر الصديق ، وأيضا على جميع المؤمنين من الأولين والآخرين . والخطبة مبنية على السجع ، وليس ذلك فحسب ، فإن منشئها تكلف في الأسجاع الأولى أن يلتزم فيها الرأء دلالة على مقدرته البلاغية ، حتى إذا انتهى من التحميد والشهادة والتمجيد لله ولرسوله وأخذ في الوعظ بنى قوافي أسجاعه على الألف والعين والتاء ، فواعية تليها مراعية وداعية وساعية ، ورأى أن يضيف إلى ذلك قافية داخلية في العبارات أو السجعات ، فكلمة خاطبة في السجعة بأعلى هذه الصفحة تقابلها في السجعات التالية كلمات صائبة وكاذبة وواجبة ، فكان السجعات المتوالية لا تتوازن خارجياً في القوافي النهائية فحسب ، بل تتوازن أيضاً داخلياً ، إذ تتقابل فيها قواف تتوسط العبارات ، وكأن كل قافية متوسطة تطلب قرينتها في العبارة أو العبارات التالية .

وإذا كانت المصادر لم تسعفنا بمواعظ أو خطب دينية في البحرين فإنه مما لا شك فيه أنه دُبجت هناك خطب ومواعظ كثيرة شأن البحرين في ذلك شأن نجد وشأن جميع البلاد العربية في الجزيرة ووراء الجزيرة إذ كان الوعظ دائماً قائماً ، كما كانت الخطابة في المساجد يوم الجمعة قائمة لأنها جزء لا يتجزأ من الصلاة وكانت في جملتها مواعظ خالصة .

(١) النصار : الذهب والخالص من كل شيء . (٢) الشارق : الشمس .

محاوَرَات ورسائل فكاهية ومقامات

تلقانا في الحقب المتأخرة من هذا العصر باليمن محاورات ورسائل فكاهية متنوعة ، من ذلك محاوراة لعل بن صالح بن أبي الرجال جعل تاريخها سنة ١٠٨٥ للهجرة بين مسجد المذهب والمدرسة المرادية ^(١) ، وكان المسجد قد بناه العثمانيون قبل مغادرتهم الأولى لليمن سنة ١٠٤٥ وأصبح في حال رثة فلا فراش ولا سراج ، فشكا حاله لمسجد جناح ، فأشار عليه من باب النصيحة ، لما بينهما من المودة الصحيحة ، أن يتزوج بمدرسة من مدارس الأتراك ، إذ النساء مصاييح البيوت ، وفؤوس له مسجد المذهب اختيار المدرسة التي يراها كفؤاً له ، وأشار عليه بإحدى مدرستين : البكيرية فريدة العصر ، أو المرادية خريدة القصر . وذهب معه إلى البكيرية ، فلما عرض عليها مسجد جناح الأمر أعرضت مدلة ، وقالت له : اخرج يا جناح أنت والمذهب ، قبل أن تُضْفَع وتُضْرَب . وخرجنا ، وجناح يتمثل بقول ذي الرمة : على وجه مئى مسحة من ملاحية وتحت الثياب الخزى لو كان باديا ونهضا إلى المدرسة المرادية ، وأفهمها جناح أن المذهب جاء معه لخطبتها ، وأنه نعم الرجل الصالح ، العاقل الراجح ، فقبلت واشترطت على المذهب مفرشتين (سجادتين) تستر بهما وتجمل ، وقنديلاً تتنفع به ليلة تتأهل . ويمضى على بن صالح قائلاً : « فقال المذهب : من هذا كنت أحاذر ، فلست على تحصيلهما بقادر ، فالمقارش غالية ، وليس عندي غير بسط بالية . فقال له جناح : أشهد أنك رجل وقاح . أما علمت أن المقارش كسوة أمثالها ، وأنه لا يخطر البساط بياها ، وسأشير عليك بما يأسو جراحك ، ويريش جناحك ، فقال : سمعاً لأمرك ، وطوعاً لحكمك . فأمرنى بما تراه ، فإني لا أتعداه ، فقال : قد علمت أن البكيرية طردتك ، وتهددتك بالضرب وتوعدتك ، فإذا كان جُنْح الظلام ، وقد هجع التَّوَام ، انسلت انسلال الخائف الذليل ، وأخذت منها مفرشتين وقنديل ^(٢) فقال : قد أشرت بما في النفس ، فإني مُهمَّهمُّ به من أمس . فلما نشر الظلام ثيابه ، ومدَّ على الأنام جلبابه ، خرج من محله وانسل ، وسقط عليها سقوط الطل ، فأخذ المفرشتين والقنديل ، وعاد إلى منزله فرحاً بالتحصيل ، ولما أسفر ضوء

(١) نشر العرف لنبلأ اليمن بعد الألف لابن زبارة (٢) الكلمة منصوبة وترك نصبها للجمع .

الصباح أشار إلى مسجد جناح ، بأن المطلوب قد حصل ، فانهض بنا لتقام العمل . فحملا إلى المرادية ما اشترطته . . . »

وتعصى المحاورة ، فتذكر أن بعض الدواوين المجاورة للمدرسة المرادية توصل إليها بماله من حق الجوار أن يحمل مسجد المذهب له مفرشةً وقنديلاً . يقول على بن صالح : « فقال له جناح : عاودُ ذلك المحل ، فلعلك تظفر بالأمل . وقد كانت البكيرية جمعت مَنْ حولها من المساجد القريبة ، وطلبت منها الرأي في دفع هذه المصيبة ، فأجمع رأى المساجد والمدارس ، على أن يستأجروا لها حارس^(١) فقالت : علىّ تحصيل الأجرة ، وعليكم تحصيل رجل من أهل الخبرة ، فاختاروا لها مسجد عقيل ، وقالوا لها : هذا نعم الحارس والتزيل . فلما جَنَّ الظلام وهجع النوام ، أقبل مسجد المذهب ، وهو خائف يترقب ، فخرج عقيل ومَنْ حوله من المساجد ، وحملوا عليه حملة رجل واحد ، فهرب من بينهم وفر ، فاقعد في مجلسه ولا استقر ، حتى وصلت إليه المساجد على الأثر وهتف بها أن عُقَيْلاً ومن معه يغيرون عليه ، فأقبلوا يُهْرَعُونَ إليه ، واشتد بينه وبين المساجد الخصام وكثر الكلام والزحام ، فقال : اعلموا يا جيرانى ، أنى راقد بمكانى ، فأتت المساجد فى جنح الدياجى ، تريد^(٢) تسرق بساطى وسراجى ، فأعينونى على الحق ، وأدركونى ولما أَمْزَقَ ، فرجع كل مسجد إلى مكانه . واجتمعت المساجد عند البكيرية فى الليلة الثانية ، ليتفاوضوا فى دفع هذه الداهية ، فأجمعوا على أن يحفروا للمذهب حفرة فى أرض ، بقدر طوله والعرض ، وأن يربطوا الشباك إلى جانب المئذنة والشباك . فسكت عنهم أيام^(٣) ، ثم أقبل على حين غفلة من الأنام . . . فوقع فى تلك الشباك ، وكاد أن يشرف على الهلاك . »

ويمضى على بن صالح فى المحاورة ذاكرة أن المساجد تجمعت من حوله ، وكل منها يشكو حاله وكيف أنه صابر على ما صار إليه من الشدة ، منتظرا انقضاء المدة ، وأخذت المساجد تضربه وتركه ، وافدة عليه رَعِيلا فى إثر رَعِيل ، وهو بينهم كالأسير ، قد غلبه البكاء والزفير . وبعد محاورات ومداورات يحن عليه مسجد الإمام ويرق لشكواه ، ويدعو له المدرسة المرادية فى الحال . وأقبلت تبختر فى ثيابها تائهة على أترابها . ويهجم عليها فى غير حياء . فتغضب المساجد ، وتقدمه إلى الجامع الكبير ليعظه . ويعزم على الرحيل ، ويأسى مسجد الإمام له . لافتتانه بالمرادية ويطلب إلى مساجد الأبرز وطلحة والأبهر أن تتوسط له

(٣) ترك النصب للسمع .

(١) لم ينصب كلمة حارس للسمع .

(٢) حذف أن بين الفعلين كما تحذفها العامة .

لدى المرادية ، فنهضوا إليها . وعرضوا الكلام عليها ، فرفعت النقاب ، وقالت : ما أشار به مسجد الإمام فهو الصواب ، وتقول : « على أن ما عند المذهب من الغرام إلا بعض ما عندى ، وكاد الهوى أن يخرجنى عن جلدى . . وإني كنت لا أصلح للمثله ، ولم أكن قد تزوجت من قبله ، فقد أردت معرفة هذا الأمر ومعرفة الشيء خير من جهله ، واشهدوا بأنى قد وكلت مسجد الإمام ، يعقد لى بالمذهب ، قبل أن يتبع هواه أو يترهب . . وعقد لها مسجد الإمام بعد ما سمع شهادة الحاضرين وقال : بالرفاء والبنين . »

والخاورة طريفة فى فكاهتها خفيفة فى ألفاظها وأسجاعها ، وهى تمتد إلى نحو اثنتى عشرة صحيفة ، ولها قيمة تاريخية ، لأنها تصور ما أصاب مساجد صنعاء فى عصر الكاتب من عدم العناية بفرشها ومصابيحها وتجسيصها أو طلائها بالجبص وترميم جدرانها وما تأكل من حيطانها ، ولعلى بن محمد العنسى المترجم له بين الشعراء رسالة فكهة ، كتبها على إثر أمر للإمام الزيدى القاسم بن الحسين (١١٢٨ - ١١٣٩ هـ) الملقب بالمتوكل أمر به الفقيه الزهوانى أن يعطيه عشرين قدحاً من الشعير ، وقد سماها : الروض الأقحوانى فى الشعير الزهوانى . وكان قد أعطاه أربعة أقداح وأخذ يطله ويؤجله فى البقية فكتب إلى القاسم بن الحسين متفكها (١) :

« مولاي حامى حمى الدين ، وحافظ بيضة المسلمين ، خلد الله إقباله ، وضاعف جلاله ، حوّلتم للمملوك بعشرين قدحاً على الفقيه الزهوانى ، الذى لا تقبض الحوالة منه إلا بالأمانى ، فسلم للمملوك منها أربعة أقداح شعير كان قدسها عنها خازن الإمام صلاح الدين فى ذلك العصر ، فتركها فى زاوية من زوايا القصر ، ثم مرّت عليها الأعوام والدهور . . وغمرها التراب إلى كعب الشراك (٢) . لما استولت على اليمن علوج الأتراك . ثم لاحت أنوار الدولة القاسمية التى لبس الدهر بها شبابها ، وزان جبينه بأشرف عصابه . وقد صار ذلك الشعير دفيناً تحت ترابه . وقد ذهب لُبُّه لطول المدة فلم يبق غير إهابه . ثم تعاقبت على الخزن أيدي الخزان ولكنهم لم يبلغوا فى التحرى والتفتيش ما بلغه هذا الرجل النصيح ، ذو الطبع المرصى والخلق الشحيح ، فإنه لفرط الأمانة لم يترك التلفت على الزوايا ، ولا أهل المثل السائر : كم فى الزوايا من الخبايا ، فعثر فى بعض لفئاته على تلك الزاوية التى اشتد ظلامها ، وخفيت أعلامها ، فرأى شيئاً مجموعاً ، وتلاً مرفوعاً . . فلاحته له منه شعيرة بغير شعوره ، أسرف لأجلها فى حُبوره ، وتصحيف سروره (٣) ، فأمر بإثارة ذلك الكتز

(٣) تصحيف سروره : يقصد سروره .

(١) نشر العرف ٢ / ٢٩٥ .

(٢) الشراك : الخذاء .

المدفون ، والدفين المخزون . ثم عير^(١) ، فحصل منه أربعة أقداح ، فجاءت وفق الاقتراح ، واتفق لسوء الحظ حضور الرسول الغرير^(٢) ، حال بُعث من مرقدته ذلك الشعير ، فكيل له في الغرائر^(٣) على غيرة ، وقيل له : خُذها ، واحذر العود بعد هذه المرة .

والفكاهة واضحة في الرسالة ، وهي تلسع ولا تجرح ولا تدمى ، فكاهة تحمل حيناً دعابة وحيناً سخرية خفيفة ، دون أن تؤذى ، وقد أنهاها بقطعة شعرية بديعة . وكانوا يلبسون أحياناً الفكاهة ثياب قضية طريفة كأن نجد يحيى بن إبراهيم الجحّاف يسوق سؤالاً^(٤) عن صديق عاهده على التعاون ، وخاصة حين تبسم له هو الدنيا ، وتعبس في وجه صديقه ، فإنه حينئذ يمد له يد العون ولا يتركه لحن الدهر تعصف به ، غير أن هذا الصديق لم يف بعهده ، وإنه ليسأل علماء العدل وقضاة الإحسان وحكام الإنصاف ومشايخ المروءة ما يقولون في صديقين تغذيا بلبان المحبة واستظلا بظلال الصداقة جمعتهما أخوة الأدب التي هي أوثق من أخوة النسب ، وأقبلت الدنيا على أحدهما وأدبرت عن صاحبه ، فتناساه وأهمله ، فما حكمه ؟ يقول : « فهبت لأحدهما ريح الإقبال ، ولعت له لمعة سعد ، وأمطرته سحابة خير . . . وبقي الثاني في ظل العفو وروض العافية . . . يسبح من حسن الظن في غير ماء ، ويطير مع طول الأمل بغير جناح . . . إن التفت بمنة وجد محنة . أو نظر بسرة رأى حسرة ، أو حاول به اللحاق . احتاج إلى البراق . وقد كان يقسم بالله الذي وسعت العباد رحمته ، وشملتهم نعمته أنه إذا أثبت له الوسادة ، ولاحظته عين السعادة ، وخرج من زاوية الخمول ، وطلع نجمه بعد الأفول . . . ليبلغه من الخيرات ما لا قلبٌ فكر فيه ، ولا لسان نطق به ، ولا جارحة تكلفته ولا عين رآته ولا أذن سمعته ، ولا خطر على قلب بشر قط . فافتونا مأجورين مثابين إن شاء الله تعالى : ما الذي يجب في شريعة المودة ، ويُسنُّ في دين الفتوة ، ويُندب في ملة الوفاء ، ويباح في فقه العرف . . . وهل من توبة تعلمونها لهذا الصاحب . . »

والقضية طريفة ، وهي قضية اجتماعية ، فكم من صديق تعاهد مع صديقه على البر والتعاون ، وخاصة حين يرزق السعادة ، فإنه لن يترك صديقه يعاني بؤس الحياة ومرارتها ،

(١) عير : كال من الكيل . فيه الشعر ونحوه .

(٢) الغرير : الغر الذي لا تجر به .

(٤) نشر العرف ٨١٣/٢ .

(٣) الغرائر : جمع غرارة ، وهي وعاء من الخيش يجعل

بل سيأخذ بيده ، ويكون عند وعده له بالتكافل والتضامن . حتى إذا أقبلت الدنيا عليه لم يذكر صديقه ، وكأن لم يكن بينهما عهد ولا وعد ولا أخوة ولا مودة وثيقة .

وتلقانا - من حين إلى حين - مقامات فكهة ولكن لا بالصورة التي تركها الحريري وإنما بالصورة التي تطورت إليها فيما بعد من المناظرات بين الموضوعات المتقابلة كالصيف والشتاء ، قصداً لبيان القدرة الأدبية ، وفي الجزء الرابع من نفحة الريحانة مقامة طريفة للسيد محمد بن حيدر على لسان الفقر والغنى جعل فيها الفقر يتفوق على الغنى في العلم وتحصيله .

القسم الثاني

العراق

الفصل الأول

السياسة والمجتمع

١

البويهون والسلاجقة والخلفاء العباسيون .

البويهون ^(١) أسرة فارسية تُنسب إلى بويه ، وهو فارسي ديلمى ، ويقال إنه كان صيِّداً على بحر قزوين ، وكان أبناؤه على والحسن وأحمد من حوله يَحْتَطِبُونَ . ونراهم حين صار إليهم الملك ينسبهم المؤرخون - ملقأهم فيما يبدو - إلى الملك الساساني بهرام جور ، ومهما يكن فقد التحق بويه وأبناؤه بخدمة ما كان بن كاكي ، حتى إذا انتصر عليه مرداويج الزيارى صاحب جرجان تحولوا إليه ، وأيدوه في حروبه ضد الدولة العلوية الزيدية بطبرستان ، فولَّى عليا الكرج في الجنوب الشرقى من همدان سنة ٣٢٠ للهجرة ، ولم يلبث على أن استولى على فارس وأرجان واتخذ شيراز مقراً له . وقُتل مرداويج في سنة ٣٢٣ فاستولى هو وأخوه الحسن على أصفهان والرَّى اللتين كانتا تابعتين له وتولى الحسن شؤنيهما وشئون بلاد الجبل ، واستولى أخوهما أحمد على كرمان ، وظل يتقدم تدريجاً نحو الغرب حتى استولى على الأهواز سنة ٣٢٦ ومضى يتقدم حتى استولى على واسط ، وفي هذه الأثناء كانت المجاعة تهدد بغداد ، وكان الجند الأتراك ثائرين على الخليفة وقواده لعجزه عن دفع رواتبهم ، فوجد أحمد الأبواب جميعها مفتوحة إلى بغداد فدخلها في جمادى الأولى سنة ٣٣٤ . ورحَّب به الخليفة المستكنى منقداً ومخلصاً ، ومنحه إمرة الأمراء ولقبه معز الدولة ، ولقب أخاه عليا صاحب فارس وشيراز عماد الدولة والحسن صاحب بلاد

القرن الرابع الهجرى لآدم ميتز (طبعة القاهرة) ص ٢٧ وما بعدها وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٢٤٤ وتاريخ الأدب في إيران من الفردوسى إلى السعدى لبراون ترجمة الدكتور إبراهيم أمين الشوارى ومادة بنى بويه في دائرة المعارف الإسلامية .

(١) انظر في الدولة البويهية تجارب الأمم لمسكويه وذيله لأبى شجاع والمتنظم لابن الجوزى وتاريخ ابن الأثير وابن خلدون والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى وأحسن التقاسيم للمقدسى في مواضع متفرقة وابن خلكان في تراجم أمرائها وكذلك الجزء الثانى من كتاب اليتيمة للذهلى وابن طبلطبا (الفخرى في الآداب السلطانية) والحضارة الإسلامية في

الجيل ركن الدولة ، وضربت ألقابهم على السكة ، وذكّرت أسماءهم وألقابهم مع الخليفة في خطبة الجمعة . ومن حينئذ بالغ البويهيون في الألقاب الفخمة يُضفونها على أنفسهم وعلى وزراءهم . . ولم يكد الشهر التالي لدخول معز الدولة بغداد يتقدم حتى خُلع المستكني وسُملت عيناه ، وولى الخلافة بعده ابن عمه المطيع لله ، ولم يكن له ولا لمن تلاه من الخلفاء العباسيين في عهد البويهيين حَوْل ولا طَوْل ولا سلطان إلا ما كان من ذكر أسمائهم في خطبة الجمعة وعلى السكة المضروبة . وكأنما أصبحوا مجرد صنائع في أيدي البويهيين يسبغون عليهم الرواتب بالمقدار الذى يريدون .

وظل معز الدولة يلى شئون بغداد والعراق والأهواز وكرمان إلى أن توفي سنة ٣٥٦ وخلفه ابنه عز الدولة بختيار ، وكان شديد البأس شجاعاً يمسك الثور العظيم بقرنيه فلا يتحرك ، وتزوج الخليفة الطائع ابنته شاه زمان في سنة ٣٦٤ على صداق قدره مائة ألف دينار . وكانت ولاية فارس قد صارت إلى ابن عمه عضد الدولة ابن ركن الدولة منذ وفاة عمه عماد الدولة سنة ٣٣٨ للهجرة إذ لم يترك ولداً . قالت ولايته إلى أخيه ركن الدولة ، فنحها ابنه عضد الدولة . وتوفى ركن الدولة سنة ٣٦٥ وجعل لعضد الدولة أقاليم فارس وكرمان وأرجان وشيراز ، ولأخيه مؤيد الدولة الرى وأصفهان ، ولأخيها فخر الدولة همدان والدينور ، وجعل لعضد الدولة الرياسة على أخويه ، ولم تلبث الأمور أن ساءت بينه وبين بختيار ابن عمه معز الدولة ، فاشتبك في حروب ، قُتل فيها بختيار في شوال سنة ٣٦٧ . وبذلك دخلت بغداد وما تبعها من العراق في حوزة عضد الدولة منذ هذا

التاريخ .

وعضد الدولة هو أعظم ملوك بني بويه ، إذ بلغ سلطانه من سعة الملك ما لم يبلغه أحد من أسرته وهو أول من خطب له - فيما يقال - على منابر بغداد بعد الخلفاء وأول من لُقّب بشاهنشاه (ملك الملوك) في الإسلام وأصبح البويهيون بعده يلقّبون بهذا اللقب ، وكانت فيه قسوة شديدة ، وما يصور ذلك رمية بابن بقية الوزير تحت أرجل القيلة حين سلّمه إليه بختيار لأمر ساءته ، فقتلته بأرجلها شر قتلة . وقد قضى على لصوص الطرق قضاء مبرماً وأعاد الأمن إلى نصابه في صحراء كَرْمَان وصحراء جزيرة العرب ، ورفع عن قوافل الحجاج الجباية واحتفر لهم الآبار في سبلهم إلى مكة وأدار على مدينة الرسول ﷺ سوراً حصينا ، وأمر بعمارة منازل بغداد وأسواقها وابتدأ بعمارة المساجد ، وألزم أصحاب العقارات تشييد بيوتهم وأقراض من قصرت يده من بيت المال وخاصة من كانت بيوتهم تقع على شاطئ دجلة ، وعُني بالبساتين فامتلت خرابات بغداد بالزهر والخضرة ، وجلب

إلى بغداد الغروس في سائر البلاد ، وعُني بجداؤها وجسورها ، وأنشأ سوقاً للبرّازين . وبني مارستاناً كبيراً ببغداد ، وأجرى الرواتب على العلماء من كل صنف ، وكان عادلاً سيّوساً يحسن اختيار ولاته وعماله ، وكانت جريّاته متصلة على الفقراء والمساكين . غير أن مدة حكمه لبغداد والعراق لم تطل ، فقد توفي سنة ٣٧٢ ، وكأنها لم تنعما بحكمه إلا خمس سنوات متصلة . وكان قد قسم مملكته بين أبنائه الثلاثة : شرف الدولة وصمصام الدولة وبهاء الدولة ، وهو تقسيم أثبتت الأيام دائماً أنه نذير بضياع الدولة واختلال شئونها . وتولى شئون بغداد والعراق صمصام الدولة يعاونه وزيره أبو عبد الله بن سعدان صاحب أبي حيان ، ولم ينجح أمر صمصام الدولة وغلب عليه أخوه شرف الدولة سنة ٣٧٦ وقهره وجسه وأخذ بغداد منه ، ويتوفى شرف الدولة سنة ٣٧٩ بعد أن عهد بالملك لأخيه بهاء الدولة وضياء الملة الذي ظل حاكماً لبغداد والعراق حتى وفاته سنة ٤٠٣ وكان - كما يقول المؤرخون - ظالماً غشوماً سفاكاً للدماء ، وقد قبض على الخليفة الطائع سنة ٣٨١ وخلعه من الخلافة ، وولاه القادر بالله ، ولم يكن في ملوك بني بويه أظلم منه ولا أقيح سيرة ، ويقال إنه جمع من المال ما لم يجمعه أحد . وتوزعت الدولة بعده بين أبنائه الأربعة : مشرف الدولة وقوام الدولة وجلال الدولة وأبي شجاع سلطان الدولة وهو الذي ولي بغداد بعد أبيه بعهد منه ، وظل يلى شئون ولايته حتى سنة ٤١٢ حين عظم أمر أخيه مشرف الدولة وعلت كفته ، فخطب له ببغداد في الحرم وخوطف بشاهنشاه . ويدور العام ، فيتم الصلح بين الأخوين ، ويعود ذكر سلطان الدولة إلى الخطبة ، ويتوفى سلطان الدولة في سنة ٤١٥ ولا يلبث أخوه مشرف الدولة أن يتوفى بعده في سنة ٤١٦ وتصبح بغداد خالصة هي والعراق لأخيهما جلال الدولة ، ويستورز أباسعيد بن ماكولا ، ويلقبه علم الدين سعد الدولة أمين الملة شرف الملك ، مما يصور مدى تعالى البويهيين في الألقاب . ويطول حكم جلال الدولة حتى وفاته سنة ٤٣٥ ويختل الحكم في أيامه ويختل السلطان حتى يبلغ من ذلك أن يستولى العيارون واللصوص على بغداد سنة ٤٢٦ ويفعلون بها أفعالا قبيحة ، واختلت الشئون المالية ، وبلغ من سوء اختلالها أن باع جلال الدولة ثيابه وماعون بيته وآلاته في الأسواق ، وخلت داره - كما يقول ابن الجوزي - من الحجاب والفراشين والبوابين . وخلفه أبو كاليجار بن سلطان الدولة حاكم فارس والأهواز ، وكان شجاعاً فاتكاً مشغولاً باللهو ، وفي عهده أخذ المذ السلجوقي يزداد حتى شمل أكثر إيران ، مما جعله يموت غماً سنة ٤٤٠ ويخلفه ابنه أبو نصر الملقب بالملك الرحيم ، وبلغ من ضعفه أن جرّده أحد قواده الأتراك ، ويسمى الباساسيرى ، من سلطانه

كله ، وأحسن الخليفة العباسي القائم بأمر الله بخطره ، وعرف أنه يكاتب سراً الخليفة المستنصر الفاطمي بمصر ، وأنه يدبر أمرا خطيرا . وكانت الدولة السلجوقية قد أخذت يعظم شأنها في خراسان بقيادة طغرل بك ودانت لها خراسان وشرط كبير من إيران ، فكتب إليه الخليفة يستنهضه إلى المسير إلى بغداد سنة ٤٤٦ هـ ، وأمر أن يذكر اسم طغرل في الخطبة وعلى النقود قبل اسم الملك الرحيم . ولم يلبث أن دخل بغداد وقضى نهائياً على الدولة البيهية . والسلاجقة ^(١) شعبة من الأتراك الغز الذين أخذوا يُغيرون بقيادة زعيمهم سلجوق منذ

سنة ٤٢٠ هـ للهجرة على حدود إيران الشمالية والشرقية ، جاءوا من التركستان إلى بلاد ما وراء النهر ، وكانوا يقضون مشاتهم بالقرب من بخارى ومصيفهم بالقرب من سمرقند . وقد اعتنق سلجوق الإسلام السني وتبعته قبيلته . ويقال إن السلطان محمود الغزنوي دعاهم إلى الإقامة في الأقاليم المحيطة ببخارى ، غير أنه عاد فتوجس منهم شراً ، مما جعله يأمر بالقبض على إسرائيل بن سلجوق ، وحسبه في قلعة ببلاد الهند ، ظل بها حتى مات . وتوفي محمود . وفكر السلاجقة في الثأر فانقضوا على بخارى . وهزموا جيوش مسعود بن محمود . وأعلن طغرل بك نفسه ملكاً على خراسان في صيف سنة ٤٣٠ هـ للهجرة ، ودانت له مرو ونيسابور ، ولم يلبث مسعود أن توفي سنة ٤٣٢ هـ فتمكنوا من الاستيلاء على بقية خراسان واستولوا على طبرستان وسجستان وهرات وبُست وأخذ طغرل يولّي أبناء أسرته وعمومته على البلاد ، واتخذ الرئي حاضرة له . واستنجد به الخليفة القائم بأمر الله كي يضبط بغداد على نحو ما أسلفنا ، فدخلها في سنة ٤٤٧ هـ وهرب منها البساسيري ، وخلع عليه الخليفة خلعة سنوية وأجلسه على العرش إلى جواره ، وألبسه حلة فاخرة ، وكان البساسيري قد فرّ إلى الشمال فتعقبه طغرل بك حتى الموصل ، واضطر أن يتركه إلى حرب أخ لأمه يسمى إبراهيم بن ينال خرج عليه في همدان ، وعرف البساسيري كيف يستغل الفرصة ، فوضع يده في يد أحد أمراء بني عَقِيل ، وهو قريش بن بدران ، واستوليا على بغداد وأمر الخطباء على منابرها بذكر اسم المستنصر الخليفة الفاطمي في خطبة الجمعة ، وكذلك صنعوا بما استوليا عليه من

(١) انظر في السلاجقة تاريخ ابن الأثير وابن طباطبا وابن خلدون وابن تقي بركي في مواضع متفرقة وكتاب راحة الصدور في تاريخ الدولة السلجوقية للراوندي ترجمة الدكتور إبراهيم أمين الشواربي والدكتور عبد النعم حسن (طبع القاهرة) وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٢٧١ ومادة السلاجقة في دائرة المعارف الإسلامية .

(٢) انظر في السلاجقة تاريخ ابن الأثير وابن طباطبا وابن خلدون وابن تقي بركي في مواضع متفرقة وكتاب راحة الصدور في تاريخ الدولة السلجوقية للراوندي ترجمة الدكتور إبراهيم أمين الشواربي والدكتور عبد النعم حسن (طبع القاهرة) ومجموعة النصوص المتعلقة بتاريخ السلاجقة نشر هوتسا بليدن وتاريخ دولة آل سلجوق للمعاد الأصهباني (مختصر البنداري) ووفيات الأعيان

المدن . وأخرج البساسيري الخليفة من بغداد إلى عانة من مدن الجزيرة ، ولكن طغرل لم يلبث أن عاد إلى بغداد وأعاد إليها الخليفة وقضى على هذه الفتنة قضاء مبرماً ، مما جعل الخليفة يلقيه بلقب ملك الشرق والغرب .

وطغرل هو أول ملوك الدولة السلجوقية العظام ، وكان شجاعاً مقداماً كريماً حليماً حازماً حريصاً على أداء واجباته الدينية ، وتوفى بمدينة الرى سنة ٤٥٥ فخلقه ابن أخيه ألب أرسلان بن جُغرى بك ، كان اسمه بالعربية محمداً ، ولقب بالملك العادل ، ويقال إنه أول من لقب بالسلطان من بني سلجوق ، ودُكر على منابر بغداد ، وكان شجاعاً مطاعاً ، وهو أعدل بني سلجوق في الرعية وقد وسع حدود مملكته من الصين شرقاً إلى الشام غرباً ، وقد استولى على ما بيد الفاطميين من البلاد حتى دمشق ، وقاد حملات مظفرة ضد

دولة الروم الشرقية وأسر إمبراطورها « رومانوس ديوجين » سنة ٤٦٢ في موقعة دمر فيها الجيش الرومي تدميراً . ويقال إن جيشه لم يكن يزيد على خمسة عشر ألف محارب بينما كان الجيش الرومي في تلك الموقعة يتألف من مائتي ألف رجل من يونان وأرمن وقوقاز وروس وغيرهم . وفدى الإمبراطور نفسه بمليون دينار ، وعقد معه ألب أرسلان معاهدة لمدة خمسين سنة ، على أن تلبيه جنود الروم إذا طلبها ، وأن تُردَّ إلى أسرى المسلمين حرياتهم . وكان مدبر مملكته وزيره نظام الملك ، وكان حصيفاً وافر العقل ، وسياسياً حكيماً بصيراً بتدبير الأمور ، محباً للعلم ، وقد بعث في دولته نهضة علمية أسس لها مدارسه المعروفة باسم المدارس النظامية ، أقامها في كثير من البلدان ، وعنى خاصة بمدرسته النظامية ببغداد واستقدم لها العلماء من نيسابور وغيرها وفي مقدمتهم أبو إسحق الشيرازي والغزالي وغيرهما من كبار العلماء . وخلف ألب أرسلان حين توفي سنة ٤٦٥ ملكشاه ابنه ، وكان شاباً في الثامنة عشرة من عمره ، فأحكم له نظام الملك شئون دولته وفرَّق البلاد على أولاده ، وجعل مرجعهم إلى ملكشاه . وكان مظفراً ، استولت جيوشه على كثير من البلاد ، حتى قيل إنه ملك من الأقاليم ما لم يملكه أحد من السلاطين ، فكانت مملكته تشمل على جميع بلاد ماوراء النهر وإيران والعراق وبلاد الروم والجزيرة والشام ، وكان ملكه يمتد من مدينة كاشغر - وهي أقصى مدينة للترك - إلى بيت المقدس طولاً - كما يقول ابن تغرى بردى - ومن بحر قزوين والقسطنطينية إلى بحر الهند عرضاً .

وكان من أحسن الملوك سيرة ، وبالمثل كان وزيره نظام الملك ، ويروى أنه لما تسلطن خرج عليه عمه « قاورد بك » صاحب كرمان ، فحاربه وأخذه أسيراً فلما مثل بين يديه قال له : أمراؤك كاتبوني وأبرز له مكاتبات ، فأخذها ملكشاه وأعطاها إلى وزيره نظام

الملك ، فتناولها منه وألقاها في موقد نار كان بين يدي ملكشاه فاحترقت . فسكنت قلوب الأمراء وبذلوا الطاعة ، وثبت ملكه بهذا الصنيع الجميل لنظام الملك . وكان ملكشاه مولعاً بالعائر ، فعمّر الأسوار والقناطر وحفر الأنهار ، وأبطل المكوس في جميع بلاده ، وأقام مصانع الماء بطريق مكة وأنفق عليها أموالاً طائلة ، وهو الذي عمّر جامع السلطان ببغداد سنة ٤٨٥ وكانت الطرق في أيامه آمنة ، تسير القوافل من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب في مملكته وليس معها خفير .

وتزوج الخليفة المقتدى بابته سنة ٤٨٠ . ويقول ابن خلكان : كان الين والبركة مقرونين بناصبته ، وكان إذا دخل بغداد أو أصبهان أو أى بلد من البلاد دخل مع عدد لا يحصى لكثرتة ، فيرخص السعر وتنحط أثمان الأشياء عما كانت عليه قبله . ويتكسب المتعيشون مع عسكره الكسب الكثير . وكان ينفق الأموال الكثيرة على المدارس والرباطات . وتوفي ببغداد في شوال سنة ٤٨٥ وحُمل تابوته إلى أصبهان ودفن في مدرسة موقوفة على الشافعية والحنفية . وبه ينتهى عهد السلاجقة العظام ، وخلفه ابنه بركياروق ، وكان أخوه السلطان سنجر نائبه على خراسان ، ودخل في حروب مع أخيه محمد صاحب أذربيجان ، وكانت كفته دائماً الراجحة ، وحاربه عمه تثنش صاحب دمشق ، وقتل في بعض المعارك : ودوَّخ الإسماعيلية الباطنية في إيران ، وقتل منهم كثيرين ، وكان على المهمة إلا أنه كان مولعاً بالشراب والإدمان عليه وتوفي سنة ٤٩٨ . وخلفه أخوه محمد ، وله وقائع مع الإسماعيلية وانتصارات متوالية استولى فيها على بعض حصونهم ، ويقول ابن خلكان : « له الآثار الجميلة والسيرة الحسنة والمعدلة الشاملة والبر بالفقراء والأيتام والحرب للطائفة الملحدة (يريد الإسماعيلية) والنظر في أمور الرعية » . وتوفي سنة ٥١١ . وقام بالملك بعده ابنه محمود وهو يومئذ في سن الحلم ، وكان قوى المعرفة بالعربية حافظاً للأشعار والأمثال عارفاً بالتواريخ والسير شديد الميل إلى أهل العلم والخير ، وهو ممدوح حيص بيص الشاعر المشهور ، ويقول ابن خلكان إن السلطنة ضعفت في أواخر أيامه وقلت أموالها حتى عجزوا عن إقامة وظيفة الفقاعى أو الشرائى ، فدفعوا له يوماً بعض صناديق الخزانة حتى باعها وصرف ثمنها في حاجته .

وتوفي سنة ٥٢٥ بعد أن عهد لابنه داود وهو صغير في المهدي ، ولما كان لا يصلح لصغره تولى السلطنة عمه طغرل ، وتوفي سنة ٥٢٧ فصارت إلى أخيه مسعود . وكان قد سلمه أبوه إلى أتابكة الموصل : مودود ثم آق سنقر ثم جوش بك ، وكان شجاعاً ، غير أنه أقبل على

الاشتغال بالذات ، وطالت أيامه حتى سنة ٥٤٧ هـ وقتل من الأمراء خلقاً كثيراً ، ومن قتلهم الخليفان لعهد المسترشد بالله والراشد . وفي هذا ما يدل على أن السلاجقة استهانوا بخلفاء بني العباس ولم يدعوا لهم حولا ولا طولا ، إذ استخلصوا منهم كل شيء حتى حق الحياة . ويقول ابن خلكان لم تقم للسلاجقة بعد مسعود راية ، وكأنه يختم دولتهم في العراق ، أو قل كأن قتله للخليفين المسترشد والراشد كان إيذانا بانتهاء الدولة السلجوقية ، وأقيم بعده في الملك ابن أخيه ملكشاه بن محمود ، ولم يلبث أن توفي بعد خمسة أشهر من حكمه .

ولابد أن نلاحظ أنه منذ انتهاء عهد السلاجقة العظام بموت ملكشاه سنة ٤٨٥ أخذ البيت السلجوقي يضعف لصغر السلاطين الذين كانوا يعتلون العرش وهم أحداث . وابتدع السلاجقة نظام الأتابكة ، وهم قواد يتولون تربية أبنائهم ، وكانوا يجعلونهم معهم حين يولونهم بعض الإمارات فيصبحون هم الحكام الحقيقيين ، وليس ذلك فحسب ، فكثيراً ما تنافسوا فيما بينهم ، فكان كل منهم يريد أن يفوز لأمره الذي في رعايته بالسلطنة ، وبذلك حمل الإخوة وأبناء الأعمام السيوف وشهرها بعضهم في وجوه بعض ، مما جعل عهود بركياروق ومحمد وابنه محمود ومسعود حروباً متصلة ، وبذلك ضعفت الدولة أو أخذت في الضعف سريعاً .

وكانت تُمنح لبعض هؤلاء الأتابكة بلدان وإقطاعات تقطعها الدولة لهم ، حتى يساعدوها بما تحتاج إليه من مال وجُند . وانتهاز بعض هؤلاء الأتابكة الفرصة فاستقلوا ببلدانهم وجعلوها وراثة في أسرهم . نذكر منهم الأرتقيين أو الدولة الأرتقية في ديار بكر والجزيرة وبلدانها ميافارقين وآمِد وحصن كَيْفا وخرّان وماردين ، كما نذكر منهم بني زنكي في الموصل ولهم الفضل الأكبر في القضاء على الصليبيين فإن « زنكي » الملقب بعماد الدين هو الذي افتتح سلسلة دحرهم وطردهم من ديارنا باستيلائه على « الرها » من جوسلين الصليبي ، وبذلك سقطت أولى ممالكهم ، وتبعه ابنه نور الدين يمحققهم محققاً في الشام ، وحين علا نجم صلاح الدين وتبعته الشام ترك للأسرة الموصل وبلدانها سنجار وغيرها .

على كل حال كان طبيعياً أن تهبط الدولة السلجوقية بعد صعود ويأفل نجمها ، وقد حاول محمد شاه بن محمود السلجوقي في سنة ٥٥٢ الاستيلاء على بغداد غير أنه أرغم على فك الحصار ، أرغمه الخليفة المقتني وجنوده ، ولم يستطع السلاجقة بعد ذلك العودة إلى بغداد ، بل انحازوا إلى همدان حيث توالى فيها سلاطينهم إلى حين . وعاد إلى بغداد وما يتبعها من البلدان جنوبي الموصل استقلالها ، وردّت إلى الخلفاء حرياتهم وسلطانهم

وللمقتنى^(١) (٥٣٢ - ٥٥٥ هـ) الفضل في عودة صولجان الحكم إلى أيدي الخلفاء العباسيين. وظلوا قابضين عليه حتى الغزو المغولي أو التتاري سنة ٦٥٦ وكان المتني عالماً أديباً دمث الأخلاق.

وخلفه ابنه المستنجد (٥٥٥ - ٥٦٦ هـ) وكان عادلاً محبوباً في الرعية أزال المظالم والمكوس. وولى الخلافة بعده ابنه المستضيء (٥٦٦ - ٥٧٥ هـ) وكان حسن السيرة أسقط المكوس والضرائب في أيام خلافته. وفي أيامه أعاد صلاح الدين الخطبة باسمه في مصر والثغور الشامية، وانقطعت دولة الفاطميين من مصر وأعمالها، وبذلك عاد للأمة اجتماعها على خليفة واحد. وخلفه ابنه الناصر (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ) وفي عهده سحق صلاح الدين الصليبيين في الشام واستولى منهم على بيت المقدس وغيره من البلدان والحصون. واستطاع عبد الجبار البغدادي في أيامه أن يحوّل جماعة الفتن الذين كانوا يرهبون الناس في بغداد وينهبون الأموال إلى جماعة كبيرة للفتوة والبسالة، واتخذ لهم سراويل مخصوصة، وبذلك أحاطهم إلى جماعة حربية، واستنفر فئات منهم كثيرة للجهاد الصليبيين في الشام مع الأيوبيين، ورعى الناصر الجماعة خير رعاية، وانضم إليها ولبس سراويلها، وأرسل بها إلى ولاته كي يلبسوها ويصبحوا من فتيان الأمة المجاهدين. ومن أرسلها إليهم الملك العادل أخو صلاح الدين وأبناءؤه، فلبسوها، ولبسها شهاب الدين صاحب غزنه والهند.

وبتولى الخلافة بعد الناصر ابنه الظاهر، ولا يدور العام حتى يتوفى، ويخلفه ابنه المستنصر (٦٢٣ - ٦٤٠ هـ) وكان شغوفاً بالعلم فأسس مدرسته المستنصرية المشهورة. ونشر السنن وكفّ الفتن. وأخذ سيل المغول أو التتار يتعاظم في عهده ويكتسح خوارزم وإيران وتمتد بعض سيوله إلى ديار بكر والجزيرة. وولى الخلافة بعده ابنه المستعصم (٦٤٠ - ٦٥٦ هـ) وكان ضعيفاً جاهلاً بتدبير الملك، استورر مؤيد الدين بن العلقمي، وكان رافضياً حربياً على زوال الدولة، فكاتب هولاكو وأرسل إليه أخاه وغلामه، وسهّل عليه فتح العراق وأخذ بغداد.

وسارع هولاكو، وهاجم بغداد، ولقيه العسكر والبغداديون على مرحلتين من بغداد،

الخلفاء للسيوطي (طبع القاهرة) وجامع التواريخ لرشيد الدين الهمداني ترجمه إلى العربية محمد صادق نشأت ومحمد موسى هنداوي وفؤاد عبد المعطي الصياد (طبع القاهرة) وتاريخ العراق في العصر العباسي الأخير للدكتور بدرى محمد فهد (طبع بغداد).

(١) انظر في مقتنى والخلفاء العباسيين التالين تاريخ ابن الأثير وابن طباطبائي وابن تغري بردى وابن خلدون والبداية والنهاية لابن كثير والعبر في خبر من غير للذهبي (طبع الكويت) وخلاصة الذهب المسبوك للإربلي (طبع بغداد) ومآثر الإنافة في معالم الخلافة للقلقشندي وتاريخ

وسرعان ما انكسروا وأخذتهم السيوف ، وأشار ابن العلقمي على المستعصم أن يخرج للقاء هولاءكو ومفاوضته ، فقتله خنقاً ، ودخل التتار بغداد وظلوا يعملون السيف في أهلها أربعة وثلاثين يوماً ، حتى بلغ عدد القتلى نحو ثمانمائة ألف ، وخربت بغداد خراباً لا حد له ، وأحرقت بها كتب العلم والأدب ، وانقضت الخلافة العباسية منها وزالت أيامها ، وراثها الشعراء مرأى كثيرة من مثل مرثية الشيخ تقي الدين التنوخي ، وفيها يقول :

يا زائرين إلى الزّوراء لا تَفِدُوا فما بذاك الحمى والدارِ ديارُ
وذاق ابن العلقمي الذل والهوان من التتار ، كما ذاقها أيضاً مَنْ مالأها من حكام الموصل والجزيرة ، وفي مقدمتهم بدر الدين لؤلؤ . وكان الأمير الزنكي أستاذه الملقب بالملك القاهر صاحب الموصل قد توفي سنة ٦١٥ وخلفه ابنه نور الدين وسنه عشر سنوات ، وكان قد جعل بدر الدين لؤلؤاً أتابكاً له ، ولم يلبث نور الدين أن توفي ، فأقام لؤلؤ مكانه أخاه ناصر الدين ، وله من العمر ثلاث سنوات ، وما زال يعمل على تثبيت سلطانه ، حتى ملك الموصل في سنة ٦٣٠ وأزال منها الأسرة الزنكية . وما إن تدافعت أمواج التتار نحو أذربيجان حتى أخذ يمدهم بما يحتاجون إليه من الزاد والعتاد منذ سنة ٦٣٤ وما إن علم بتقدم هولاءكو نحو بغداد حتى أعد جيشاً لمساعدته بقيادة ابنه إسماعيل إلا أن الجيش تأخر قليلاً ، فما كان من هولاءكو إلا أن حَزَّ رأس إسماعيل وأرسل بها إلى أبيه ، فذهب إليه هلعاً فرعاً يحمل الهدايا ، وتوفي بدر الدين في سنة ٦٥٧ . ولم يلبث هولاءكو أن اجتاحت الموصل بجيوشه ، وقتل حاكمها الصالح بن بدر الدين لؤلؤ ، فلم تنفعه لا هو ولا أبوه خياناتهما المتكررة ، وأصبحت العراق كلها في حوزة التتار .

٢

الدول : المغولية والتركانية والصفوية والعثمانية

المغول أو التتار قبائل رُحَّل كانت تستوطن منغوليا على حدود الصين ، واستطاع أحد أبناءها وهو جنكيز خان أن يجمعها تحت لوائه ، وأن يفتح بها الصين وبكين ، حتى إذا تم له ذلك وجّه جموعه نحو فارس فاستولت على بخارى ومملكة خوارزم وزحفت سيولها إلى الرّي وهذان ، مستولية على شمالي فارس فيما بين سنتي ٦١٦ و ٦٢٥ للهجرة وتوفي في السنة الأخيرة بالصين . وخلفه ابنه أوكدي (٦٢٥ - ٦٣٩) الذي استطاع أن يُخضع روسيا وبولندا لحكمه ، وخلفه ابنه كيوك حتى وفاته سنة ٦٤٦ وولى بعده ابن عمه منكو ، وهو

الذى أرسل بأخيه هولاكو إلى إيران ، فقصى فيها على الإسماعيلية الحشاشين ، وأخذ يعمل على الاستقلال بإيران مع تبعيته لأخيه ، ولم يكف بها ، فقد امتدت مطامعه إلى العراق وبغداد ، ولم يلبث أن خرَّب بغداد المدينة التاريخية العظيمة كما أسلفنا سنة ٦٥٦ ، واتخذ هولاكو لقب (إيل خان) أو تابع الخان وهو لقب ورثه عنه خلفاؤه على إيران والعراق مما جعل دولتهم تسمى الدولة الإيلخانية ، بينما انتسب المد المغولى الثانى فى إيران والعراق إلى تيمورلنك ، مما جعل دولته هو وأبنائه تسمى الدولة التيمورية ، وبذلك تنقسم الدولة المغولية إلى دولتين : الدولة الإيلخانية والدولة التيمورية .

الدولة المغولية الإيلخانية^(١)

تنسب هذه الدولة إلى هولاكو (إيلخان) الذى أطبقت جموعه على بغداد والعراق فى سنة ٦٥٦ ومضت إلى الشمال فاستولت على ديار بكر والجزيرة وأخذت تعد العدة للاستيلاء على الديار الشامية والمصرية . ومضوا فى سنة ٦٥٨ يستولون على حلب وبلدان الشام ، وسلمت لهم دمشق ، وسقطوا إلى فلسطين فى الجنوب ، فلقبهم الجيش المصرى بقيادة قُطر والظاهر بيبرس فى عَيْن جالوت بالقرب من نابلس ، فزق جموعهم تمزيقا ، وقُتل قائدهم ، وكانت مجزرة عظيمة لهم حتى إنه لم يسلم منهم إلا فلول قليلة ولت الأدبار ، وتبعها الظاهر بيبرس إلى أطراف الشام فى الشمال . وبذلك رُدَّ سيلهم عن الشام ومصر إلى غير مآب . ولم يملك هولاكو - كما قدمنا - ملكاً مستقلاً فقد كان نائباً عن أخيه منكو ، ولم يضرب باسمه مستقلاً سكة درهم ولا دينار ، بل كانت تضرب باسم أخيه . وكان وثنيا كأجداده وقومه ، غير أنه كان يعطف على النصارى إرضاء لزوجته النصرانية : « دُفوز خاتون » ومات سنة ٦٦٣ وقيل سنة ٦٦٤ وخلفه على العراق وإيران ابنه « أبغا » . ولما ملك أضاف اسمه إلى اسم الخان الأكبر فى بكين ووجه أخاه منكوتمر بالعساكر إلى الشام للاستيلاء عليها ، فالتقى مع الجيوش المصرية الشامية عند حمص « بقيادة قلاوون وهُزم هزيمة منكرة فلما بلغت الهزيمة أبغا سنة ٦٨٠ رجع إلى همدان فأت بها غمًا وكمدًا . وخلفه منكوتمر ، وكان نصرانيا ، ولم يلبث أن مات بنفس الكمد والغم . وملك بعدهما

الأدب فى إيران من الفردوسى إلى السعدى لبراون (ترجمة الشواربى) وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان وإيران : ماضيها وحاضرها لدونالد ويلز ص ٦٥ والعراق فى عهد المغول الإيلخانيين لجعفر خصباك (طبع بغداد) .

(١) انظر فى هذه الدولة تاريخ ابن كثير وابن خلدون والنجوم الزاهرة والجزء الثانى من دول الإسلام للذهبى (طبع حيدرآباد) وجامع التواريخ لرشيد الدين المهدائى (الترجمة العربية) ومسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى والجزء الرابع من صبح الأعشى وتاريخ

أخوهما بوكدار بن هولاء سنة ٦٨١ وأسلم وحسن إسلامه ، وتسمى أحمد ، وبني بمالكة الجوامع والمساجد وصالح السلطان الملك المنصور قلاوون الذى فرح بإسلامه . وحاول أن يحمل عسكره على الإسلام فقتلوه سنة ٦٨٣ وملك بعده ابن أخيه « أرغون بن أبغا » حتى سنة ٦٩٠ وكان سفاكاً للدماء شديد الوطأة ، وولى الملك بعده أخوه « كيخْتُو » فأفحش فى الفسق بنساء المغول وبناتهم فوثب عليه ابن عمه يئدو بن طرغاي بن هولاء وقلته سنة ٦٩٣ ولم يلبث أن قُتل بدوره فى أواخر هذه السنة ، وملك بعده غازان بن أرغون بن أبغا بن هولاء ، وأسلم فى سنة أربع وتسعين ، وتسمى محموداً ، واحتفل بإسلامه ونثر الذهب والفضة واللؤلؤ على رؤس الناس ، وأسلم غالب جنده وعساكره ، وفشا الدين الحنيف بإسلامه فى ممالك التتار ، وقد اختار المذهب السنّى .

وهو أجل ملوك المغول من بيت هولاء ، ودخلت جيوشه الشام فى سنة ٦٩٩ وتمت لها الغلبة على جيوش الناصر محمد بن قلاوون ، وملك الشام ، ولا نمضى إلى سنة ٧٠٢ حتى يكيل له الناصر محمد بن قلاوون الصاع صاعين ، إذ تنشب بينهما الحرب بالقرب من دمشق ، ويدمر فيها جيش المغول أو التتار تدميراً ، وظلت الصرخات والنياحات فى ديارهم - حين بلغهم الخبر - شهرين . واغم غازان غما عظيماً ، ويقال إنه لم يصل إليه من جيشه إلا واحد من كل عشرة انتخبهم للحرب . وكان من قبله منذ هولاء يحكمون باسم الخان الكبير فى بكين ، فاتخذ لنفسه صفة الحاكم بإرادة الله ، وكان الخراج يُفرض قبله حسب أهواء الحباة من حكام المغول فأمر بأن تُمسح الأراضى وأن يتخذ ذلك أساساً فى فرض الضرائب حتى لا يظلم أحد ، وأصلح النظام النقدى فى الدولة وجعله نقداً معدنياً صحيح الوزن والقيمة ، وأعاد للشريعة الإسلامية سلطانها وقوتها .

وكان يتخذ تبريز حاضرة له فزينا بالمساجد ودور العلم وشيد بها مرصداً فلكياً عظيماً . وتوفى سنة ٧٠٣ وولى الملك بعده أخوه « خدابندا » والعامّة تسمية « خربندا » وكان سنياً ثم أصبح شيعياً غالباً وأظهر الرفض فى بلاده سنة ٧٠٩ وأمر الخطباء أن لا يذكروا فى خطبهم إلا على بن أبى طالب وولديه وأهل البيت ، وتوفى سنة ٧١٦ .

وخلفه بوسعيد ابنه ، وكان يعتنق المذهب الحنفى وكان ملكاً جليلاً مهاباً حصيفاً ، وكان يجيد ضرب العود والموسيقى وصنّف فى ذلك ، وكان حسن السيرة ، أبطل عدة مكوس فى مملكته وأراق الخمر فى بلاده ومنع الناس من شرها وهدم الكنائس . وكانت بينه وبين الناصر محمد بن قلاوون مودة بعد وحشة ، ومكاتبات ومراسلات ، توفى سنة ٧٣٦ . وهو آخر ملوك المغول المهمين من بيت هولاء ، وبوفاته تفرقت المملكة بأيدي حكام

مختلفين ، وأصبحوا شبيبين بملوك الطوائف من الفرس . وفي مسالك الأبصار بعد ذكر بوسعيد : « ثم هم (أى التتار في إيران والعراق) بعده في دهباء مظلمة وعمياء مقتمة ، لا يُفْضَى ليلهم إلى صباح ، ولا فرقتهم إلى اجتماع ، ولا فسادهم إلى صلاح ، وفي كل ناحية هاتف ، يُدعى باسمه ، وخائف أخذ جانباً إلى قسمه ، وكل طائفة تتغلب وتقيم قائماً تقول من أبناء الخان أو القان ، وتنسبه إلى فلان ، ثم يضمحل أمره عن قريب ، ولا تتحقق دعوته حتى يُدعى فلا يجيب ، وما ذلك من الدهر بعجيب » . وفي سنة ٧٤٠ صارت بغداد والعراق بيد الشيخ حسن الكبير ، وهو الحسن بن الحسين بن أقبا ، كان جده رقيقاً لهولاً كوا . وتوفي سنة ٧٥٧ .

وملك بغداد والعراق بعده ابنه أويس ، وهو سبط أرغون بن أبغا أو ابن ابنته ، وكان حسن السيرة عادلاً محباً للفقراء والعلماء توفي سنة ٧٧٦ وخلفه ابنه السلطان الملك المعز حسين ، وكان قد ولاه مكانه في أواخر أيامه ، وكانت العراق في عهده مطمئنة معمورة ، وقتله أخوه أحمد سنة ٧٨٤ وتولى الملك بعده ، وتلقب بالسلطان غياث الدين ، وكان ظالماً سفاكاً للدماء أسرف في قتل أمرائه وبالغ في ظلم الرعية وأهمك في الفجور والفساد ، فكتب أهل بغداد تيمورلنك بعد استيلائه على مدينة تبريز يحثونه على المسير إلى بغداد ، فتوجه إليها بعساكره سنة ٧٩٥ واستولى عليها وفر أحمد بن أويس إلى الديار الشامية ، مستغيثاً بالسلطان برقوق صاحب الشام ومصر وكان تيمور قد فارقه فأعانه على استردادها في السنة التالية ، وسرى في حديثنا عن تيمورلنك وأسرته ما كان من أمره .

الدولتان : المغولية التيمورية^(١) والتركانية

قاد الموجه المغولية الثانية تيمورلنك المولود في « كش » من بلدان ما وراء النهر ، وهو ينحدر من سلالة جنكز خان ، وكانت ولادته سنة ٧٣٦ للهجرة ، وكان أبوه والياً لكش وأعمالها ، وكان طموحه واسعاً ، فعمل على جمع زمام الأمور في يده لا في كش وحدها ، بل في كل بلاد ما وراء النهر بحيث أصبحت لسنة ٧٧١ جميعاً في قبضته ، ثم أخذ يعدُّ العدة للانقضاض على خراسان واستولى عليها سنة ٧٨٢ ومضى في سنة ٧٨٤ يستولى على مازندران وسجستان وجرجان ، ولم يلبث أن استولى على فارس وأذربيجان سنة

(١) ترجمة في المجلد الثاني ٢٣٢/١ ، وراجع تاريخ ابن خلدون والضوء اللامع في أعيان القرن التاسع وتاريخ الشعوب الإسلامية ليوكليان ودائرة المعارف الإسلامية في تيمور وأوزون حسن التركاني ، وإيران : ماضيها وحاضرها لدونالدولير .

(١) انظر في تيمور وحكام بغداد بعده أحمد بن أويس والتركمان ابن عريشاه في كتابه « عجائب المقدور في نواب تيمور » وابن تغرى بردى في الجزء من الثاني عشر والثالث عشر وخاصة في ٢٥٤/١٢ حيث عقد لتيمورلنك ترجمة طويلة وبالمثل عقد لأحمد بن أويس

٧٨٨ وأخذ يفتح البلدان في شمالي العراق ، حتى إذا كان شهر شوال سنة ٧٩٥ حاصر بغداد ، وهرب منه أحمد بن أويس إلى السلطان برقوق في الشام وخرَّب تيمور غالب العراق ومدنه : بغداد والبصرة والكوفة ، وقصد الشام في سنة ٧٩٨ ورجع خائفاً من الظاهر برقوق إلى سمرقند عاصمته وكانت جيوشه قد تغلغت في روسيا واستولت على موسكو ، وسار إلى الهند في سنة ٨٠٠ وعبر نهر السند واستولى على دلهي بعد أن قتل من أهلها ثمانين ألفاً ، وكان أحمد بن أويس قد عاد إلى بغداد بمعونة المصريين ، ومثله قرأ يوسف عاد إلى نيابته على الرُّها في الجزيرة . وبلغ تيمور موت السلطان الظاهر برقوق صاحب مصر والشام وموت برهان الدين أحمد صاحب سيواس بالجنوب الغربي من آسيا الصغرى ، فرأى أن الظفر بمملكتهما أصبح قريباً ، وكاد أن يطير بموتهما فرحاً ، فاستناب بالهند من يثق به من أمرائه ، وعاد إلى سمرقند . ثم خرج منها مسرعاً في أوائل سنة ٨٠٢ ومضى إلى تبريز فاستخلف فيها ابنه ميران شاه . وكان أحمد بن أويس قد سار مع أمرائه ورعيته سيرة سيئة ، فقاتلوه وخرج منهزماً واستنجد بالأمير قرايوسف التركماني صاحب تبريز والرُّها وديار بكر ، وعاد معه إلى بغداد . وصيَّف تيمور في بلاده ثم مضى إلى سيواس فاستولى عليها أول سنة ٨٠٣ وخرَّبها ومَحَا رسومها . ثم قصد الديار الشامية ، واستولى على حلب بعد أن أعمل السيف في جنودها وأهلها حتى امتلأت الجوامع والطرقات بالقتلى ، وعمل تيمور - فيما يقال - من رءوس القتلى منائر عدة ترتفع عن الأرض عشرة أذرع تهديداً ووعيداً . ورحل عن حلب بعد أن تركها خاوية على عروشها خالية من سكانها وأنيسها ، وكان ابنه ميران شاه قد أخذ حماة وأشعل النار بها وأصحابه يقتلون ويأسرون وينهبون ، وقتلوا الأطفال على صدور الأمهات ، واتجه إلى دمشق وواقعته جنود السلطان فرج بن برقوق ولم تثبت طويلاً ، ولم يلبث أن وقَّع مع أهل دمشق صلحاً ، ودخلها هو وجنوده وغدر بهم فأشعل جنوده بها النار ، فاحترقت وسقطت بعض سقوف الجامع الأموي ، وصارت أطلالا بالية ورسوماً دائرة كما يقول المؤرخون . وأقام هو وجنوده عليها ثمانين يوماً ، ثم رحل عنها في شعبان سنة ٨٠٣ وظل في انسحابه مع جنوده من الشام ، وأوهم أنه يريد سمرقند وهو إنما يريد بغداد ، وكان أحمد بن أويس قد استناب عنه فيها أميراً يسمى فرجاً ، واتجه هو وقرايوسف صاحب الرُّها نحو آسيا الصغرى ، فندب تيمور بعض قواده لأخذ بغداد ، ثم تبعه وحاصر بغداد حتى أخذها عنوة في يوم عيد النحر أو العيد الأضحى من نفس السنة ، ووضع السيف في البغداديين ، حتى سالت الدماء أنهاراً ، ويقال إنه قتل من أهلها نحو مائة ألف إنسان ، وبني من رءوسهم - على عادته كلما دخل

مدينة عنوة - مآذن كثيرة .

ثم رحل من بغداد إلى الشمال متجهاً إلى آسيا الصغرى وحرب بايزيد العثماني ، وانضم إلى جيشه التركان في قيسارية وسواس وتقدم نحو سهل أنقرة وكاتب من مع بايزيد من التتار وأنه أولى بأن ينضموا إليه لأنهم من أبناء جلدته ، فوعده أن ينضموا إليه حين تدور رحى الحرب بينه وبين بايزيد ، وكان بايزيد قد نكل ببعض أمراء السلاجقة واستولى على بلدانهم ، فانضموا إلى تيمورلنك . والتقى الجيشان في الشمال الشرق من أنقرة في التاسع عشر من ذى الحجة عام ٨٠٤ وانفض عن بايزيد جنوده التتار منضمين إلى تيمور كما وعده وكانوا معظم عسكره ، وتلاههم ولده عثمان الذي عاد بجنده إلى مدينة بروسة ، ولم يبق مع بايزيد إلا نحو خمسة آلاف فارس ، فثبت بهم إلى أن أخذ أسيراً على بعد ميل من أنقرة وكان قد حاول الفرار ، وأكرمه تيمور ، وأسف لموته في شعبان سنة ٨٠٥ وأذن بدفنه تكريماً له في جامع بروسة .

وعاد تيمور إلى سمرقند عاصمته ، واستقبل فيها كثيراً من السفراء من بينهم سفير ملك قشتالة . وزين عاصمته بالقصور الفخمة مستعيناً بمن جلبهم إليها من بتائي الفرس وغيرهم ، وكان يعطف بوصفه مسلماً على العلماء ورجال الدين من الصوفية وخاصة دراويش الطريقة النقشبندية وقد استطاع فعلاً أن يستعيد مملكة جنكيزخان من موسكو إلى نهر الكنج ومن حدود الصين حتى سوريا ورأى مقتدياً بسلفه أن يستولى على الصين ، فأرسل إليها حملة في سنة ٨٠٧ غير أنه لم يلبث أن مرض وتوفي في شعبان من نفس السنة بإحدى المدن فيما وراء النهر ، ونُقل إلى عاصمته ودفن بها في ضريح فخم لا يزال قائماً بها إلى اليوم .

وتوزعت إمبراطوريته بين ولديه : شاه رخ وميران شاه ، وكان للأول النصيب الأكبر فحكم خراسان وسجستان وما وراء النهر وإيران ، وحكم ميران شاه العراق وأذربيجان والكرج أو جورجيا ، وكان يخضع لسلطان أخيه ، ولم يلبث أن قُتل في حربه مع قرايوسف التركماني صاحب تبريز سنة ٨١٠ هـ / ١٤٠٧ م فدخلت بلاده في حوزة أخيه ، فأصبح يحكم كل مملكة أبيه تيمورلنك ما عدا الشام والعراق وعربستان ، وقد بسط سلطانه على الصين والهند ، وعاش طويلاً حتى سنة ٨٥٠ هـ / ١٤٤٧ م وكان يرعى العلوم والآداب في مملكته الواسعة .

وخلفه ابنه ألف بك وكان عالماً فلكياً واهتم برعاية الأدبين الفارسي والتركي غير أنه قتل بعد سنتين بيد ابنه عبد اللطيف . ويتتاب الدولة التيمورية اضمحلال سريع ، ويتقاتل

الإخوة وأبناء العم ، ويستولى على صولجان الحكم بوسعيد سنة ٨٥٤ هـ - ١٤٥٠ م ويستقر زمام الحكم في يده ويقتل في حرب طاحنة مع أوزون حسن صاحب ديار بكر وأرمينية في سنة ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م وتعود المملكة إلى الاضطراب . وقد استطاع شيباني زعيم الأوزبك في سنة ٩٠٦ هـ / ١٥٠٠ م خلع بابر حفيد أبي سعيد عن عرشه في سمرقند ، فهاجر إلى الهند وأسس بها دولة المغول العظام .

وأما العراق وبغداد فعادتا بعد وفاة تيمور إلى أحمد بن أويس وتنشب حرب بينه وبين قرايوسف التركاني صاحب تبريز ويخرب في ميدانها صريعا سنة ٨١٣ وتقع العراق وبغداد في قبضة التركانيين بزعامة قرايوسف حتى وفاته سنة ٨٢٣ ويتوارثها عنه أبنائه وأحفاده ، وفي أيامهم ودولتهم عمها الحراب لفساد حكمهم حتى ليقول ابن تغرى بردى : لا أعلم في طوائف التركان أقبح طريقة ولا أسوأ سيرة من أولاد قرايوسف ويتزعها منهم في سنة ٨٧٢ هـ / ١٤٦٧ م أوزون حسن المار ذكره وكان تركانيا واسع الطموح ، فوضع نصب عينيه إنشاء دولة قوية لا يكتفى فيها بمقر حكمه وهو ديار بكر ، بل تتسع لتشمل أرمينية وإيران والعراق ، ودخل في حروب طويلة مع العثمانيين . وفي هذه الأثناء كانت أسرة صوفية في أردبيل قد أخذ نفوذها يتسع منذ عهد مؤسسها الشيخ إسحق صفي الدين ، وبلغ حفيده خوجا على من الشهرة بالتقوى ما جعل تيمورلنك بعد انتصاره على بايزيد العثماني يقف أردبيل وضواحيها عليه وعلى عقبه . وسرعان ما تحولت إلى ما يشبه إقطاعاً لهم ، وعقد أحد أحفاده المسمى حيدراً صلة وثيقة بينه وبين أوزون حسن ، وزوجه أوزون ابنته مارثا وأنجب منها ابنه إسماعيل الذي أتيح له أن ينشئ لأسرته الصوفية دولة وطيدة في إيران .

الدولة الصفوية^(١)

كان حيدر بعيد النظر ، فأعاد تنظيم طريقة آيائه الصوفية الشيعية على أسس جديدة ، متخذاً لها شعاراً للرأس ، أو بعبارة أخرى عمامة سُميت تاج حيدر الأحمر ، وهي عمامة ذات اثنتي عشرة ذؤابة رمزاً إلى أن صاحبها شيعي إمامي اثني عشري . وما وافت سنة ٨٨٨ هـ / ١٤٨٣ م حتى بدأ حملاته الحربية ، فقاتل الجراكسة واشتبك في سنة ٨٩٤ هـ / ١٤٨٨ م في حرب مع صهره يعقوب بن أوزون حسن وسقط قتيلًا في المعركة ،

(١) انظر في الدولة الصفوية تاريخ الموصل لصايف ولونكريك ترجمة جعفر خياط (طبع بيروت) وتاريخ وتاريخ بغداد وتاريخ الدولة الفارسية في العراق لنعمان الأعظمي وأربعة قرون من تاريخ العراق لستيفن دونالدولير .

وتوفى يعقوب بعده بنحو سنتين وتصارع أولاده واشتبكوا في حروب دامية ، مما أتاح الفرصة لأبناء حيدر كي يعود لهم نفوذهم من جديد .

وتطورت الظروف سريعاً ، بحيث لا نصل إلى أوائل القرن العاشر الهجري حتى نجد إسماعيل بن حيدر يخرج بعد وفاة أخوين له كانا أكبر منه للمطالبة بثار أبيه ، ويمد سلطانه تدريجاً على شيروان وأذربيجان ويأخذ في تأسيس دولة فارسية وطنية ويستولى على تبريز في سنة ٩٠٨ هـ / ١٥٠٢ م ويتوج فيها ملكاً (شاه) على إيران . وأعلن أن العقيدة الشيعية الإمامية الاثني عشرية مذهب الدولة الرسمي . ولم يكتف بذلك فقد أكره الرعية على سب أبي بكر وعمر وعثمان . وأخذ يُعدّ العدة لمنازلة مراد خان التركماني صاحب بغداد والعراق ، وكان قد هزم أخاه ألوند هزيمة ساحقة في أذربيجان واستولى منه على فارس ، وما توافى سنة ٩١٣ هـ / ١٥٠٧ م حتى يستولى من مراد على بغداد والعراق ، ويفرّ مراد آخر سلاطين التركمان إلى السلطان سليم العثماني . ومضى في سنة ٩١٦ هـ / ١٥١١ إلى الشرق لمحاربة شيباني زعيم الأوزبك والتقى قرب مرّو ، ودارت الدوائر على شيباني وجنده وسقط صريعاً في الحرب ، وبذلك اتسعت مملكة إسماعيل ، حتى امتدت من هراة شرقاً إلى بغداد غرباً ، ووضح للعيان أنه لا بد من الاصطدام بين دولة الشاه إسماعيل الصفوي الشيعي الإمامي وبين دولة السلطان سليم العثماني السني ، وخاصة أن الشاه إسماعيل كان قد بالغ في اضطهاد أهل السنة ، مما جعل السلطان سليماً يدعو إلى الجهاد ضد الشاه والشيعية . والتقى الجيشان الصفوي والعثماني بالقرب من تبريز بوادي جالداران في المحرم سنة ٩٢٠ هـ / ١٥١٤ م ومضى الشاه بهزيمة منكرة ، وفتحت عاصمته «تبريز» أبوابها للسلطان سليم ، واضطرّ الشاه إسماعيل إلى أن يعقد معه صلحاً ، ولم يفكر بعد ذلك في حرب العثمانيين إلى أن توفي سنة ٩٣٠ هـ / ١٥٢٣ م وخلفه ابنه طهاسب وهو في العاشرة من عمره ، وطالت مدته في الحكم اثنين وخمسين عاماً امتلأت بالحروب المتصلة ضد أعدائه الشيبانيين في الشرق والعثمانيين في الغرب . واستطاع ذو الفقار خان رئيس قبيلة كردية أن يزحف على بغداد ويقتل حاكمها من قبل طهاسب سنة ٩٣٠ وتظل في حوزته حتى سنة ٩٣٦ هـ / ١٥٢٩ م إذ استعادها طهاسب ومضى في اضطهاد أهل السنة مما جعل السلطان سليمان العثماني يوجّه في أواخر سنة ٩٤٠ هـ / ١٥٣٤ م حملة إلى تبريز ، فتستولى عليها ، ويتجه هو إلى بغداد فيدخلها في أول المحرم سنة ٩٤١ . وبذلك ينتهي عهد الدولة الصفوية في العراق .

الدولة العثمانية ^(١)

تم للسلطان سليمان العثماني الاستيلاء على العراق وبغداد في سنة ٩٤١ هـ ورُفِر العلم العثماني على البصرة في سنة ٩٤٦ هـ وبذلك أصبح العراق جميعه ولاية عثمانية ، بل قل ولايات عثمانية ، إذ قُسم إلى أربع ولايات . ولاية البصرة ، وولاية بغداد ، وولاية شَهْرزور ، وولاية الموصل . وفي حقب متفاوتة عُدَّت الأحساء والبحرين ولاية خامسة ، وارتبطتا بالبصرة حيناً وببغداد حيناً آخر . وقُسمت كل ولاية إلى ألوية ، على رأس كل لواء سنجق أو أمير لواء . وكان الوالى يُعَدُّ الرئيس للسلطة التنفيذية مع الإشراف على الشؤون الإدارية ، وكان يعاونه عدد من الموظفين ، في مقدمتهم « الكتخدا » وهو مدير مكتبه الخاص وكثيراً ما كان يخلفه بعد وفاته ، و « الدفتر دار » وهو مدير الخزانة ومدير الشؤون المالية . وكانت هناك دواوين مختلفة ، أهمها ديوان الروزنامه أى ديوان الدفتر اليومي ، وكان به كثير من الكتّاب أو كما كانوا يسمونهم أصحاب الأقلام .

وكان يوجد بجانب الوالى قاض كبير يتبع قاضى القضاة فى الأناضول ، وكان للقاضى نواب كثيرون فى كل ولاية يضطلعون بمهمة القضاء . ويشرف القاضى على تنفيذ القوانين حسب الشريعة الإسلامية كما يشرف على تنفيذ أوامر الدولة العثمانية .

وكانت توجد بجانب الوالى قوة عسكرية أساسية تحمى المدن والقلاع ، وتُعدُّ فرعاً من الإنكشارية جند الدولة العثمانية الذين كانت تأسرهم فى حروبها بأوروبا ، وهم لا يزالون غلماناً وتربيتهم تربية عسكرية ، وكانوا يُمنحون إقطاعات ، وكثيراً ما توارثوها أو وقفوها ، فلم تُرد إلى الدولة . وكانوا كثيراً ما يؤذون الناس فى بغداد والعراق ويتعدون عليهم . وكان يوجد بجانبهم للولاية جند يحصلون عليهم بطريق الأسر أو الشراء .

ويعر حكم الدولة العثمانية للعراق بثلاثة أدوار : الدور الأول يبتدئ من سنة ٩٤١ هـ /

١٥٣٤ م إلى سنة ١١١٦ هـ / ١٧٠٤ م وأهم الأحداث فى هذا العهد فتن الحند كما حدث

فى عام ١٠٣١ هـ / ١٦٢١ م فقد ثاروا على والى بغداد بزعمامة ضابط يسمى بكرّاً برتبة

على الصوفى (طبع الموصل) والعراق : دراسة فى تطوره
السياسى لفيلىب إيرلند ترجمة جعفر خياط (طبع بيروت)
وإمارة العبادية للدملوجى (طبع الموصل) ومقدمة تاريخ
العرب الحديث ١٥٠٠ - ١٩١٨ الجزء الأول - للدكتور
عبد الكريم محمود غرابية (طبع دمشق) .

(١) انظر فى الدولة العثمانية بالعراق تاريخ بغداد وتاريخ
البصرة لنعمان الأعظمى وعشائر العراق لعباس العزاوى
(طبع بغداد) والبلاد العربية والدولة العثمانية للحصرى
(طبع القاهرة) وأربعة قرون من تاريخ العراق لستيفن
لونكرىك ترجمة جعفر خياط (طبع بيروت) وتاريخ
الشعوب الإسلامية لبروكلمان ، والماليك فى العراق لأحمد

سوباشي وقتلوا الوالي يوسف باشا وتولى بكر مقاليد الحكم وحاربه الدولة ، فاستعان ضدها بشاه إيران عباس الصفوى ، وسرعان ما احتل هذا الشاه بغداد سنة ١٠٣٣ هـ / ١٦٢٣ م وقتل بكراً وكنل بأهل السنة واعتقل الألوف منهم ، وحاول شيعة بغداد مخلصين إنقاذ مواطنيهم فشهدوا لكثيرين منهم بأنهم شيعة .

وسارع الشاه إلى احتلال بقية العراق ، غير أن البصرة استعصت عليه ، إذ دافع عنها حكامها من آل أفراسياب وكانوا قد أتاحوا لها استقلالاً ذاتياً عن العثمانيين من ١٠٠٥ هـ / ١٥٩٧ م إلى ١٠٧٨ هـ / ١٦٦٨ م للهجرة وقد دافعوا عن مدينتهم أمام جيوش عباس الصفوى دفاعاً مجيداً فارتدت عنها .

وظلت بغداد وبقية العراق مع الإيرانيين نحو خمسة عشر عاماً إلى أن استرجعها العثمانيون بقيادة السلطان مراد الرابع سنة ١٠٤٨ هـ / ١٦٣٨ م وفي هذه الأثناء سمح حكام البصرة للبرتغاليين بتأسيس وكالة تجارية لهم فيها سنة ١٠٣١ هـ / ١٦٢٢ م وبالمثل سمحوا للإنجليز في سنة ١٠٤٩ هـ / ١٦٣٩ م بتأسيس وكالة تجارية لهم ، وأغلقت سنة ١٠٦٩ هـ / ١٦٥٨ . وينتهى الدور الأول لحكم العثمانيين العراق سنة ١١١٦ هـ / ١٧٠٤ م كما مر بنا ، ويتبدى دور ثان سُمي دور المماليك ، وفيه تعرّضت العراق لخطر إيراني كبير ، أدّى إلى أن يتسلّم صولجان الحكم فيها حسن باشا وابنه أحمد باشا ومماليكها الذين أخذوها بضرب من التربية يشبه صنيع الدولة في إستانبول بالإنكشارية ، وكان حسن باشا قد تدرّج في مناصب الدولة إلى أن أصبح وزيراً ، وولى بعض الولايات ، ثم نُقل إلى بغداد في سنة ١١١٦ فعمل على الاستقلال بها واتخاذ هؤلاء المماليك سنداً له . وكانت الدولة حينئذ مشغولة بحروبها في أوروبا مع الروس والبلغان ، فترك لحسن باشا وابنه أحمد ومماليكها إدارة بغداد والعراق .

وطبعي أن تصبح المناصب العليا فيهما وقفاً على المماليك . وقد آل إليهم حكمها بعد وفاة حسن باشا وابنه ، وكان الوالي منهم إذا وثق بأحد المماليك زوجه ابنته واتخذ « كتحذا » أو أميراً للأمرء ، حتى إذا توفى خلفه في الحكم . وإذا عرفنا أنه حكم بغداد حينئذ عشرة من الولاة كان سبعة منهم من هؤلاء المماليك عرفنا أنه جدير بهذا الدور حقاً أن يسمى دور المماليك ، وآخرهم داود باشا . وكانوا في سبيل الوصول إلى أريكة الحكم يكثر من التآمر ، مما زاد الأمن في بغداد والعراق اضطراباً على اضطراب وفساداً على فساد . ولما ساءت الأمور وتفاقم سوءها رأى الباب العالي في سنة ١٢٤٦ هـ / ١٨٣٠ م أنه لابد من ردّ الأمور إلى نصابها في العراق ، فأرسل حملة تأديبية أسرت داود باشا وقضت

على حكم هؤلاء المالك قضاء نهائياً . وبذلك تدخل بغداد والعراق في الدور الثالث من أدوار الحكم العثماني الذي أظلّ البلاد حتى سنة ١٣٣٦ هـ / ١٩١٨ م . ويمكن أن تدخل الشطر الأكبر من هذا الدور في حقب العصر الحديث في العراق ، إذ هبّ جماعة من المصلحين في تركيا يحاولون إصلاح أداة الحكم الفاسدة ، واضطر السلطان عبد المجيد أن يصدر أمراً بإلغاء الاحتكارات والمصادرات وتحديد الضرائب على أسس قومية من العدالة . وكان ذلك إيذاناً بعصر جديد في تركيا والولايات التابعة لها في العراق وغير العراق ، غير أن الولاة الذين تعاقبوا على العراق حتى سنة ١٢٨٦ هـ / ١٨٦٩ م لم يصدروا عن ذلك في حكمهم ، فظل الظلام والفساد محيَّمين عليها إلى أن وليها مدحت باشا في السنة آتفة الذكر ، وكان معروفاً بتزعمته الإصلاحية وما قام به من خدمات عظيمة في ولايته على بلغاريا . ولم يكد يستلم مقاليد الولاية في العراق حتى نهض فيها بإصلاحات كثيرة في إدارة الحكم ، فألغى نظام الالتزام وردّ الأرض على الفلاحين العراقيين نظير أقساط محدودة ، وأنشأ مطبعة لطبع الجريدة الرسمية وطبع الكتب ، كما أنشأ طائفة من المدارس المهنية والعلمية النظرية ، وبنى مستشفى كبيراً ، ومدّها بخط للبرق ، وأصلح نظام الموازين والنقود بحيث تعد ولايته بحق البدء الحقيقي للعصر الحديث في العراق . وقد ظل العثمانيون في العراق وبغداد قبله نحو ثلاثة قرون ونصف لم يعنوا فيها أي عناية بإصلاحات اجتماعية أو تعليمية أو اقتصادية .

الحالة الاجتماعية

٣

المجتمع

كان المجتمع في بغداد والعراق يتألف من ثلاث طبقات : طبقة أروستقراطية ، على رأسها الخليفة والسلطان الحاكم ويتلوها حواشيها من الوزراء والقادة والأمراء والولاة وكبار الموظفين والإقطاعيين ، ويدخل في هذه الطبقة بعض التجار الرأسماليين . وطبقة وسطى تتكون من صغار الموظفين والتجار والصناع والقضاة والعلماء ورجال الحسبة ، وطبقة دنيا هي طبقة العامة من الزراعة والخدم والرقيق وأصحاب الحرف . ويُسلّك أهل الذمة في الطبقتين الأخيرتين عادة ، إلا من ارتفع منهم إلى الوزارة ، وكان ذلك يحدث نادراً كما حدث في عهد عضد الدولة ، فقد اتخذ له وزيراً نصرانياً ، هو نصر بن هرون ، الذي ترك له تدبير شئون فارس بينما كان وزيره المدير لشئون بغداد والعراق المطهر بن عبد الله .

وكانت الطبقة الأولى تعيش في رخاء بل في ترف ، لكثرة ما كان يُصَبُّ في حجورها من الأموال ، عن طريق الضرائب التي كانت تؤخذ من الناس وكانت متعددة ، فهناك ضرائب الزكاة على الزروع ، وهناك ضرائب الصادرات والواردات التي تجبي على البضائع المنقولة وتسمى المكوس ، وهناك ضرائب على الأسواق والحوانيت . وأهم من ذلك الضرائب أو الأموال التي كانت تؤخذ من أصحاب الإقطاعات وقد توسع فيها البويهيون ثم من خلفهم من السلاجقة والمستوليين على البلاد ، إذ منحوها لكبار القواد ، حتى قد يمنحونهم قرى برمتها . وهذه الإقطاعات العسكرية هي التي كانت شائعة ، وإحدى اثنتين إما أن تكون إقطاع تملك يورث وعلى أصحابه دفع العُشْر للدولة ، وإما إقطاع يُسْتَعْلَى طالما كان صاحبه حيا ، وكأنه كان منحة تُعطى للقواد بدلاً من رواتبهم . وكان كبار الموظفين والأثرياء من التجار وغيرهم يمتلكون الضياع ويدفعون عنها العُشْر ويُزْمَوْنَ بإصلاح القنوات التي تمرُّ بأرضهم . وطبيعي أن كانت هناك ضياعٌ سلطانية للخليفة وللأمير البويهى وللحاكم لبغداد . وكانت هناك أراض موقوفة لأغراض دينية كالإنفاق على المساجد أو على الجهاد أو على الفقراء أو على الحرمين . وكان القاضي هو الذى يشرف على إدارة الأراضى الموقوفة . وحدث أن صادر عضد الدولة أراضى السواد الموقوفة ^(١) ، غير أن من بعده أعادوها إلى الوقف . وكان الوزراء كثيراً ما تصادر أموالهم حتى بعد وفاتهم كما حدث للمهلبى ^(٢) وزير معز الدولة البويهى . وكانوا يصادرون أحياناً تركة بعض الإقطاعيين ذوى الثراء . ويروى أنه في سنة ٣٥١ توفى رجل اسمه دَعْلُج تاركاً ثلاثمائة ألف مثقال من الذهب فاستولى عليها معز الدولة ، ولم يمسَّ أى مسٍّ ما خلفه من أوقاف .

على كل حال كانت موارد الدولة كثيرة ، ومن أجل ذلك تعددت الدواوين التي يُخَزَنُ فيها المال أو يجلب إليها مثل ديوان الإقطاع ، وديوان الخراج ، وديوان الأوقاف ، وديوان الجوالى أو الجزية التي كانت مفروضة على أهل الذمة ، وديوان الخلافة الذى كان يُنْفَق على القصر وماليكه وحجابه وخدمه وحرسه وكانوا يُعَدُّون بالمئات ، وديوان التركات وكانت تؤخذ عليها ضريبة ، ومن ليس له وارث كانت الدولة تستولى على تركته . ثم ديوان الزمام وهو الذى يشرف على مالية الدولة ونفقاتها وكل ما يتصل بشئونها المالية من رواتب ومن إعداد للجيوش . وكان الخلفاء العباسيون ينثرون الأموال نثراً على حواشيهم وفي أعراسهم ، كما حدث في زواج الخليفة الطائع لابنة بختيار ، وكان صداقها مائة ^(٣) ألف

(١) أبو شعاع ص ٧١ .

(٢) مسكويه ٦ / ٢٥٨ .

(٣) ابن خلكان (طبع دار صادر بيروت) ١ / ٢٦٧ .

دينار. واتسع هذا الاحتفال بزواج الخلفاء من بنات الأمراء السلاجقة ، ويُروى أنه حين تزوج الخليفة المقتدى بنتاً للسلطان ملكشاه نُقل جهازها على ١٣٠ بعيراً في موكب كبير كانت تُدقّ فيه الطبول والبوقات وتنتثر الأموال على الرعية^(١). وبالمثل حين زُفّت الخاتون ابنة ملكشاه إلى الخليفة المستظهر بالله سنة ٥٠٤ زُيّنَت بغداد ، وقد حَمَلَ جهازها ١٦٢ بعيراً و ٢٧ بغلاً^(٢) سارت في شوارع بغداد بينا جواهر الناس رجالاً ونساء يرقصون ويغنون مبتهجين. وكانت قصور الخلفاء تكتظ بالتحف وأواني الذهب والفضة ، ويُروى أنه حدث حريق في أواخر سنة ٦٥١ بدار الخلافة ، فاستُخرج بعد إطفائه من تلك الأواني ما تزيد قيمته على مائتي ألف دينار ، وسبقه حريق في سنة ٦٠١ فبلغ ما احترق بالدار فيه أكثر من نصف مليون دينار^(٣).

وكانت نساء الخلفاء وجواريهن يبالغن في زينتهن ، حتى يقال إن زوجة الخليفة المستضيء كانت تزين نعالها باللائى الكبار^(٤) ، فما بالناس بما كانت تتخذة وراء ذلك من الحلى والجواهر. ويقال أيضاً إن جارية للمستنصر بالله بلغ من عنايتها بثيابها وزينتها أن صاحب ديوانها رصد ما أنفقته في شهر للزراكية والصاغة والبزازين (تجار الملابس) والجوهرين ، فإذا هو مائة ألف دينار ونحو خمسمائة ألف درهم^(٥). ويُروى عن هذا الخليفة أنه نفح كبير حرسه علاء الدين الطبرسى ليلة زفافه على ابنة الأمير بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل مائة ألف دينار غير إقطاع كبير أهدها إليه^(٦) ، ويقال إنه أُحصيت في عيد الفطر سنة ٦٢٦ الخلع التي وهبها الطبرسى للمالكة وأتباعه فبلغت ١٧٠٠ خلعة^(٧). فقصرُ الخلافة بل كل حواشى القصر كانوا يعيشون في ترف شديد. وقل ذلك نفسه عن السلاطين وحواشيهم من البويهيين والسلاجقة والإيلخانيين ومن جاء بعدهم ، وكانت الأموال تُصَبّ في حجورهم وينفقون منها كثيراً على ترفهم وبذخهم. ويقال إن ميزانية الدولة بلغت في عهد عضد الدولة نحو اثنين وثلاثين مليوناً من الدنانير. وكان يُعنى ببناء القصور وعمارتها ، ويُروى أن ميزانية الدولة في عهد ملكشاه السلجوقي بلغت عشرين مليوناً من الدنانير^(٨) ، وكثير من الملايين المذكورة كان يتحول في قصورهم إلى ترف ما بعده ترف ،

(١) المنتظم لابن الجوزى ٣٦/٩ وانظر كتاب العامة
البدرى فهد ص ٢١٣ .

(٢) مزار الحقائق ١٨٣ وبدرى فهد ص ٣٨٢ .

(٣) بدرى فهد ص ٢٥٢ .

(٤) بدرى فهد ص ٣٨٣ .

(٥) المنتظم ٧/٩ .

(٦) دول الإسلام للذهبي (طبع حيدرآباد) ٨٠/٢ .

(٧) انظر مزار الحقائق وسر الخلائق لمحمد بن تقي

الدين الأيوبي ١٢٣- وراجع تاريخ العراق في العصر

وظل ذلك بقصور الخلفاء في العهد الأخير من الدولة العباسية كما مر بنا آفا . ولا شك في أن شيئاً كثيراً من التدهور أصاب بغداد بعد الغزو المغولي ، إذ أصبحت مع ما يتبعها من العراق ولاية ضمن ولايات متعددة يدبر شؤونها الإيلخانيون ثم التيموريون ومن جاء بعدهم . ومعروف أن الإيلخانيين لم يتخذوا بغداد عاصمة لهم ، بل كانت عاصمتهم تبريز ومدينة بنوها سموها السلطانية ، وعاد حقاً إلى بغداد شيء من النشاط في عهد الشيخ حسن الكبير وأبنائه ، بل قبل ذلك في عهد بوسعيد ، ولكن على كل حال لم يعد لها مجدها القديم ، بل سرعان ما تردت في هوة من فساد الحكم . وغزاها تيمورلنك وتولاها بعده أحمد بن أويس ثم قرايوسف وأبناؤه ثم أوزون حسن كما أسلفنا ، وأصبحت إحدى الولايات في الدولتين الصفوية والعثمانية . وإذا كان ابن جبير زارها سنة ٥٨٠ وقال إنه ذهب أكثر رسمها ولم يبق منها إلا شهير اسمها وإنها أصبحت كالطلل الدارس والأثر الطامس^(١) فإن ابن بطوطة حين زارها سنة ٧٢٨ في عهد بوسعيد الإيلخاني أعاد إلى الأذهان كلام ابن جبير ، وعلق عليه بقول أبي تمام . قائلاً كأنه اطلع على ما آل إليه أمرها حين قال فيها :

لقد أقام على بغداد ناعياً فليكنها الخراب الدهر باكيها^(٢)

وبدون شك كانت حيوية بغداد أقوى من الخراب الذي أصابها مع غزو هولاكو ومع خروج صولجان الحكم منها فقد ظلت لها مسحة غير قليلة من عراقها ، وظلت منزلاً للعلم والعلماء ، بفضل ما كان يجنيه حكامها من حوض دجلة والفرات وما به من أشجار وزروع وثمار . وإذا كنا قد رأينا الخلفاء والحكام وحواشيهم يتنفسون حياة مترفة ، فقد كان يتنفسها معهم الأشراف وكبار الموظفين والإقطاعيون والوزراء . وكان الآخرون خاصة يدبرون شؤون الدولة وتصير إليهم أموالها ، فأثرى منهم كثير ثراء فاحشاً ، وغرقوا في الترف والنعيم ويلقانا في أول العصر المهلبي وزير البويهيين ، وكان يشتهر بمآذبه وكثرة ما كان يقدم فيها من أصناف الطعام والحلوى ، وقالوا إنه كان « إذا أراد أن يأكل شيئاً بمعلقة كالأرز واللبن وقف من جانبه الأيمن غلام معه نحو ثلاثين ملعقة زجاجاً مجروداً ، فيأخذ منه ملعقة يأكل بها من ذلك اللون لقمة واحدة ، ثم يدفعها إلى غلام آخر قام من الجانب الأيسر ، ثم يأخذ أخرى فيفعل بها فعل الأولى ، حتى ينال الكفاية ، لثلا يعيد الملعقة إلى فيه دفعة

ثانية»^(١). وفي هذا الخبر ما يدل على مدى الترف وما دخله من تعقيد في الوسائل ، فاللون من الطعام لا يؤكل بملقعة واحدة وإنما يؤكل بملاق كثيرة . وأبعد من هذا الخبر دلالة على الترف الذي غرق فيه بعض الناس وكثرة ما كانوا ينفقون فيه ما يروى عن المهلبى أيضاً من أنه « ابتاع له في ثلاثة أيام وردُّ ألف دينار فرشت به مجالسه وطُرح منه كمية كبيرة في بركة عظيمة كانت في داره ، ولها قَوَارَات عجيبة يطرح الورد في مائها وينفضه »^(٢) وإذا كان يشتري من الورد وحده في ثلاثة أيام بألف دينار كى يزين به مجلسه وبركة قصره ، فماذا اشترى لهذا القصر من السجاجيد والبسط والطنافس والستور وأنواع الوسائد والديباج والتحف . لا بد أنه اشترى من ذلك كله بمئات الألوف . ولم يكن هذا شأنه وحده ، بل كان أيضاً شأن الوزراء جميعاً وكبار الإقطاعيين والتجار . واشتهر بمجالس أنسه التي كان يعقدها بقصره ليلتين في كل أسبوع ، ويقول ابن خلكان : « كان يجتمع فيها عنده ندامؤه من الفقهاء والقضاة على اطراح الحشمة والتبسُّط في القصف والخلاعة ، وهم القاضي أبو بكر ابن قريعة وابن معروف والقاضي التنوخي وغيرهم ، وما منهم إلا أبيض اللحية طويلها ، وكذلك كان المهلبى . فإذا تكامل الأنس وطاب المجلس ولذَّ سماع الغناء وأخذ الطرب منهم مأخذه وهبوا ثوب الوقار للفقار وتقلبوا في أعطاف العيش ، بين الحقة والطيش ، ووضع في يد كل واحد منهم طاس ذهب فيه ألف مثقال ، مملوء شراباً قُطْرُبِيّاً أو عُكْبَرِيّاً ، فيغمس لحيته فيه ، بل يَنقَعها حتى تشرب أكثره ويرش بعضهم بعضاً ، ويرقصون بأجمعهم ، وعليهم الثياب المصبَّغات ومخاتق المنثور ، فإذا أصبحوا عادوا لعادتهم في التوقر والتحفظ بأبهة القضاء وحشمة المشايخ الكبراء »^(٣).

وظل هذا الترف طويلاً في مجالس الوزراء والسلاطين والأمراء ، واشتهر عضد الدولة بمجالس أنسه في بغداد وغير بغداد وما كان بها من السماع وغناء الجوارى والمغنين وألوان الفاكهة والرياحين وأقداح الشراب ، ويقال إنه غنَّى يوماً بأبيات للخليفة المطيع لله وكان قد لحنها ، فلم يعجبه لحنه^(٤) . وكان الخلفاء وأبناء الخلفاء كانوا لا يزالون يضعون الألحان لبعض الأغاني كما مر بنا في العصر العباسي الأول . وبدون ريب كان يعيش هذه المعيشة المترفة التي لا تخلو من خمر وغير خمر كبار القواد ورؤساء الدواوين والإقطاعيين وكبار التجار والموظفون . ويعرض محمد بن أحمد أبي المطهر الأزدرى - في حكايته الطريفة عن

(١) معجم الأدباء ١٥٣/٥ وانظر الفن ومذاهبه في (٣) ابن خلكان ٣/٣٦٦ .

(٤) معجم الأدباء ١٧/١٠١ وما بعدها .

الشعر العربي ص ٢٧٩ .

(٢) معجم الأدباء ٩/١٣٨ .

أبي القاسم البغدادى التى تقص حياة شيخ طفيل بغدادى فى يوم ببغداد فى القرن الخامس للهجرة - ما كانت تلبسه الطبقة المترفة من ملابس أنيقة مجلوبة من جميع البلدان العربية موشاة بديباج الذهب المنسوج وكأنما نُسجت من أزهار الربيع ، كما يقول ، يفوح منها العنبر والطيب . ويذكر بيوت هذه الطبقة فيقول إن سقوفها غشيت بالساج وزينت تعاريحها بالآبنوس والعاج ، مع الأروقة المليحة والأبهاء المشرفة العالية ومع الأواوين (جمع إيوان) وقد فُرشت بالطنافس والمخادذ المذهبة والأبسطة والمقاعد المموهة بالذهب والمطارح المحشوة بريش العصافير الهندية والديباج التُسْتَرَى المقصَّب الذهبي . ثم يُفيض فى القول فى الأطعمة من كل صنف والأفواه والعطور وأنواع المسك والعنبر والعود المطيب وأدوات الزينة من الأمشاط وغير الأمشاط . ويوازن بين هذه الحياة المترفة وحياة الطبقة الوسطى والدنيا الخشنة ، واصفاً أطعمتها ودورها . ويبدو أنهم كانوا يضيفون إلى كثير من الأطعمة أنواع الطيب وماء الورد والتفاح وحبَّ الرمان والزعفران ، ويعرض أصنافاً كثيرة للحلوى ، وطبيعى أن تكثر فيها العطور . ويقول إنه حين يُرْفَعُ الطعام يأتى فراش مهتل الوجه نظيف الثياب خفيف الروح بيده خلال سلطاني مطيب ، ويغسل الضيوف أيديهم ، ويناولهم الفراش مناديل ألين من القُرْ وأنعم من الخُرْ . ويطلق الوصف للوز والجوز المقشورين وأنواع الفواكه وما كانت تزين به الموائد من الأزهار والأنوار ، ويتحدث عن الخمر وكنسها ودنانها مطبناً مطيلاً . ويذكر ما فى مجالس السَّراة من المتعين الذين يأخذون بمجامع القلوب ، إذ يملأون الآذان سروراً ويقدحون فى القلوب نوراً^(١)

وكانت المغنيات يغنين فى مجالس السلاطين والخلفاء من وراء ستارة ، أما فى مجالس السراة وعلية القوم والنوادر فكن يغنين دون ستارة غالباً ، ويطلق ابن أبى المطهر الأزدي فى الإشادة بمغنيات بغداد وزمماراتها وطبالاتها وصنَّاجاتها ورقاصاتها وضاربات العود بها ، ويصف إحداهن ممن يضربن على العود قائلاً : تدخل المجلس تعطره من نسيمها بالمسك والكافور والعنبر وتجرى عليها غلالة جَرَى الماء ورداء قصبٍ مزين مرصع بالزبرجد الأخضر والياقوت الأحمر وفى عنقها سُبُحَة (عقد) من الحب الكبار بما يعادل ألف دينار ، والجواري يحملن ذبول ثوبها . وتجلس وعلى وجهها إزار قصب أبيض رقيق ، وتبدو متفبّة لا يُرى منها إلا المحاجر وأطراف الذوائب ، وتلقى بجدith كزهر الجنان أوصوب الغمام أعذب من الماء الزلال ، وأعلق بالنفوس من السحر الحلال ، ثم تحسر

(١) حكاية أبى القاسم البغدادى (نشر ميتر فى

النقاب وتتناول عوداً من ساج منقوشاً بالعاج وتجسّ أوتاره وتفتتح غناء - كما يقول أبو القاسم - أعذب من تيار الفرات وتفتّته في مجارى الحلق وتكسّره في مجارى النّفس . يقول : وهناك لا تسمع إلا شهقة عالية ، ومقلّة باكية ، وجيّباً مشقوقاً ، وفؤاداً يطير خفوقاً^(١) .

ولم نلم إلا بكلمات قليلة من وصف أبي القاسم لهذه الجارية المغنية ، لندل على أن الغناء كان لا يزال مزدهراً ببغداد حتى القرن الخامس ، ونظن ظناً أن هذا الازدهار ظل له طويلاً ، وغاية ما في الأمر أنه لم يتح له عالم يؤلف فيه على نحو ما ألف أبو الفرج الأصفهاني كتابه الأغاني عن المغنين والمغنيات في القرون الثلاثة الأولى للهجرة . وفي كتاب الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي في أوائل هذا العصر نص طويل^(٢) يصور ازدهاراً عظيماً للغناء في زمنه ومدى تأثير الناس به وطربهم عند سماعه على لسان المغنيات والمغنين ، ويحكى لنا كيف كان شخص يسمى البرداني يطرب طرباً شديداً حين يستمع إلى علوة جارية ابن علوية ، وهي تغنى بأبيات للسّروى يقول فيها :

بِالْوَرْدِ فِي وَجْتَيْكَ مَنْ لَطَمَكَ وَمَنْ سَقَاكَ الْأُمْدَامَ لِمَ ظَلَمَكَ

ويسترسل أبو حيان في وصف انفعال السامعين إزاء الغناء ببغداد في عصره ، من مثل ابن فهم ، وكان يَطْرِبُ إِذَا اندفعت « نهاية » جارية ابن السّلمى بشدوها :

أُسْتَوْدَعُ اللَّهَ فِي بَغْدَادَ لِي قَمَرًا بِالكَرْخِ مِنْ فَلَكِ الْأَزْوَارِ مَطْلَعُهُ
وَدَعْتُهُ وَبُودَى لَوْ يُوَدِّعُنِي صَفْوُ الْحَيَاةِ وَأُنَى لَا أُودِّعُهُ

والبيتان من قصيدة أبي محمد علي بن زريق وسننشدُ منها أبياتاً أخرى في الفصل الثالث . ولما سمعهما منها ضرب بنفسه الأرض وتمرّخ في التراب وهاج وأزبد وتعقّر شعره ، وهيات من الرجال مَنْ يَضْبُطُهُ وَيُمْسِكُهُ وَمَنْ يَجْسُرُ عَلَى الدُّنُوِّ مِنْهُ ، فَإِنَّهُ يَعْصُ بِنَابِهِ ، وَيَحْمِشُ بِظَفَرِهِ ، وَيَرْكُلُ بِرِجْلِهِ وَيَحْرِقُ الْمَرْقَعَةَ (رداء الصوفية) قطعة قطعة ، ويلطم وجهه ألف لكمة ، كأنه عبد الرازق المجنون بباب الطاق . وكثيرون كانوا يطربون طرب هذا الصوفي ، فتقلب حمالق عيونهم ، ويسقطون مغشياً عليهم ، ويرشون عليهم الكافور وماء الورد - كما يقول أبو حيان - ويقرءون في آذانهم آية الكرسي والمعوذتين ، ويرقونهم رُقًى مختلفة ، حتى يفيقوا من سكرتهم ، منهم أبو الحسن الجراحى قاضي الكرّخ ، فإنه كان إذا سمع الجارية « شُعْلَةَ » وهي تغنى أغنياتها :

لَا بَدْءَ لِلْمَشْتَاكِ مِنْ ذِكْرِ الْوَطَنِ وَالْيَأْسِ وَالسَّلْوَةِ مِنْ بَعْدِ الْحَزَنِ

(٢) الإمتاع والمؤانسة ١٦٥/٢ - ١٨٣ .

(١) حكاية أبي القاسم ص ٥٠ وما بعدها .

ابتَلَّتْ شَيْبَتُهُ بِالدَّمُوعِ ، مع شجنٍ قد ثَقَبَ القلبَ وأوهنَ الروحَ وَفَتَّتِ الصَّخْرَ وَأَذَابَ
الحديدَ ، يقول أبو حيان : «وهناك ترى - والله - أحداقَ الحاضرينَ باهتةً ، ودموعهم
متحدرةً ، وشهيقهم قد علاَ رَحْمَةً لهُ ، وَرَقَّةً عَلَيْهِ ، ومساعدةً لحاله . وهذه صورة إذا
استولت على أهل المجلس وجدت لها عَدَوِي لَا تُمَلِّكُ ، وغاية لَا تُدْرِكُ ، لأنه قلما يخلو
إنسان من صَبَوَةٍ أَوْ صَبَابَةٍ ، أَوْ حَسْرَةٍ على فائتٍ ، أَوْ فِكْرٍ في مَتَمَنٍّ ، أَوْ خَوْفٍ من
قطيعة ، أَوْ رَجَاءٍ لِمُنْتَظَرٍ ، أَوْ حُزْنٍ على حالٍ » . ويسوق أبو حيان لنا صوراً من طرب
الشعراء حين سماع بعض الجوارى أو المغنين ، فهذا ابن نباتة يطرب على صوت جارية
تسمى «خاطف» وهذا ابن حجاج يطرب على غناء قُتُوَّةَ البصرية ، وهى جارتة وعشيقة .
ويذكر أبو حيان أن الطرب كان يأخذ بابن صُبْرٍ القاضي كل مأخذ ، حين يستمع إلى
«دُرَّة» جارية أبي بكر الجراحى وهى تغنى :

لَسْتُ أَنْسَى تِلْكَ الزِّيَارَةَ لَمَّا طَرَقْتُنَا وَأَقْبَلْتُ تَتَنَّنَى
كَمْ لِيَالٍ بَيْنَنَا نَلْدُ وَنَلْهُو وَنُسَقَى شَرَابَنَا وَنُغْنَى
هَجَرْتُنَا فَمَا إِلَيْهَا سَبِيلٌ غَيْرَ أَنَا نَقُولُ : كَانَتْ وَكُنَّا

يقول أبو حيان : «وإذا بلغت : «كانت وكنا» رأيتَ الْجَيْبَ مَشْقُوقًا ، وَالذَّيْلَ
مَخْرُوقًا ، والدَّمْعَ مِنْهَمْلًا ، وَالبَالَ مِنْخَذَلًا ، وَمَكْتُومَ السَّرِّ فِي الْهَوَى بَادِيًا ، ودليلَ العشق
على صاحبه منادياً» . ويعرض علينا أبو حيان صوراً مختلفة من طرب الصوفية مثل المعلم
غلام الحُصْرَى شيخ الصوفية ، ومثل ابن سَمْعُونٍ أكبر واعظ شهدته بغداد في زمنه ، فإن
الطرب كان يقيمه ويقعده حين يستمع إلى ابن بَهْلُول ، وهو يززل الدنيا بصوته الناعم
وُغْنَتِهِ الرخيمة وظرفه البارِعِ ودمائمه الحلوة . ويذكر أبو حيان جارية كانت تنوح تسمى
حَبَابَةَ كَانَتْ فِي التَّوْحِ واحدة لا أخت لها وقد تهالك الناس بالعراق على نوحها ، يقول :
ورأيتُ لها أختاً يقال لها «صَبَابَةُ» كانت في الحسن والجمال فوقها . . وزلزلت هذه بغداد في
وقتها ، ولم يكن للناس غير حديثها لنوادرها وحاضر جوابها . ثم يقول أبو حيان في ختام
هذا الفصل الطريف .

«ولو ذكرت هذه الأَطْرَابَ من المستمعين والأَغَانِي من الرجال والصبيان والجوارى
والحرائر لأُطْلِتْ وَأَمَلَّتْ وزاحمت كل من صَنَّفَ كتاباً في الأَغَانِي والأَلْحَانِ . وعهدى بهذا
الحديث سنة ستين وثلاثمائة . وقد أحصيت - أنا وجماعة في الكرخ - أربعمائة وستين
جارية في الجانبين (جانبى بغداد الغربى والشرقى) ومائة وعشرين حرة يجمعن بين الحسن
والحدق والظرف والعشرة . وهذا سوى من كنا لا نظفر به ولا نصل إليه لِعَزَّتِهِ وحرسه

ورقبائه ، وسوى من كنا نسمعه ممن لا يتظاهر بالغناء وبالضرب إلا إذا نشط في وقت أو تَمَلَّ (سَكِرَ) في حال ، وخلع العِذار في هوى قد حالقه وأضناه .

ولا ريب في أنه كان بجوار أولئك المئات من المغنيات مئات من المغنين ، وكم كنا نتمنى لو أن أبا حيان أطال وأملَّ وصنف في أغاني عصره كتاباً ككتاب أبي الفرج الأصبهاني ، ولكنه لم يُعَنَّ بذلك فحَسَرَ الشعر والغناء خسارة كبرى لأن معاصريه ومن جاءوا بعده لم يحاولوا التأليف في الأغاني والمغنيات والمغنين على غرار صنيع الأصبهاني . وأكبر الظن أن هذا الازدهار للغناء ظل حتى غزو التتار لبغداد ، وبقيت منه أسراب في الحقب المغولية ، إذ نجد ابن بطوطة حين زار بغداد سنة ٧٢٧ يذكر أنه رأى السلطان الإيلخاني بوسعيد في سفينة بدجلة يتنزه ، وعن يمينه وشماله قوارب وسفن لأهل الطرب والغناء ، ويذكر أيضاً أنه رأى هذا السلطان في أحد مواكب تنقله ، ومع كل أمير من أمرائه عسكريه وطبولة ، وكان يتقدم الموكب الحجاب والنقباء ثم أهل الطرب وهم نحو مائة رجل ، كانوا يغنون في مجموعات بالتناوب ، ولا يزالون يتداولون الغناء بينهم ، حتى ينزل بوسعيد ، فإذا ركب عادت المجموع إلى الطرب والغناء^(١) .

ولم تكن الطبقة الدنيا تنعم بالغناء نعيم الطبقة الأرستقراطية ، والمظنون أن الطبقة الوسطى كانت تنعم به بعض الشيء ، أما من وراءهم من عامة الناس فلم يكن لديهم من المال ما يجعلهم يأخذون بنصيب من هذا النعيم ، إلا ما قد ينعمون به في الأعياد العامة ، وعادة كانت بغداد تزين بالأعلام ذات الألوان الزاهية في عيدي الفطر والأضحى ، ومع مواكب الحج في رحيلها وقدموها ، وظل الاحتفال بذلك كله حتى نهاية هذا العصر ، وكانوا يحتفلون بأعياد الفرس ويخرجون فيها للمتزهات وسماع المغنين والمغنيات ، وأهمها عيد المهرجان في السادس والعشرين من أكتوبر ، ويستمر ستة أيام ويسمى اليوم السادس منه المهرجان الأكبر ، ويأتي بعده عيد السَّدَق ، وهو يوافق عيد الميلاد ، وفيه تُشْعَلُ النار في السفن والزوارق بدجلة ، وتخرج العامة للفرجة عليها وبأيديهم الشموع ، وبلى هذا العيد عيد النيروز في أول الربيع ، ويتبدئ في الحادى والعشرين من مارس ويستمر ستة أيام مثل عيد المهرجان . وبجانب ذلك كانوا يحتفلون بأعياد النصارى ويخرجون فيها للمتزهات والأديرة ، وكان لكل دير عيده .

ومن المحقق أن العامة كانت تعاني كثيراً من الضنك والضيق لكثرة الضرائب التي كانت تُجَبَّى منها وقلة ما كان يعود عليها من الكسب ، وقد يدل على ذلك من بعض الوجوه أن

(١) ابن بطوطة ١٤٣/١ وما بعدها .

الطبيب حين كان يدور من بيت إلى آخر لمعالجة العامة كان يأخذ أجراً له عن كل مريض ربع درهم^(١) ، ويذكر التنوخي أن رجلاً كان يستأجر حائوتاً بنصف درهم وزيدت إلى درهم^(٢) . والخبران من أخبار أوائل العصر في القرن الرابع الهجري ، فما لبنا بما صارت إليه العامة بعد ذلك من بؤس وتعاسة ، وهذا هو السبب في كثرة العيَّارين ببغداد طوال القرنين الرابع والخامس الهجريين ، ومن يقرأ أخبارهم يحس أنهم كانوا يستشعرون فكرة العدالة الاجتماعية ، إذ يرون طائفة قليلة من الوزراء والقواد وكبار الموظفين والإقطاعيين والتجار الموسرين يتمتعون بل يتمرغون في الترف والتَّعيم وهم محرومون يتجرعون البؤس والمسغبة ، وقد أشعلوا في شهر المحرم لسنة ٣٦٤ للهجرة ببغداد حريقاً عظيماً ، واستفحل أمرهم حتى خافهم الجند وتلقبوا بالقواد وتسلطوا على بغداد وأخذوا الضرائب من الأسواق^(٣) ، ويذكر أبو حيان من قوادهم ابن كبرويه وأبا الدرد وأبا الذباب وأسود الزَّبد^(٤) . وعادوا إلى التسلط على بغداد سنة ٣٨٠ فنهوها وعينوا عريقاً لهم في كل محلة^(٥) . وأخذ ينتظم مع الزمن في صفوفهم كثير من العلويين والعباسيين كما حدث في فتنهم سنة ٣٩٢ مما يدل على أنهم كانوا ساخطين سخطاً شديداً على الأغنياء المترفين من رجال الدولة وغيرهم ، وأنهم كانوا ينادون بفكرة العدالة الدينية . ونمضى في القرن السادس الهجري فنجد فتنهم تشتعل ببغداد من حين إلى حين ، ويعظم شأنهم في عهد السلطان مسعود السلجوقي (٥٢٧ - ٥٤٧ هـ) وينهون بغداد مراراً . وما زالت فتنهم تنشب فيها طوال القرن السادس ، حتى إذا كنا في عصر الخليفة الناصر (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ) وجدناه في سنة ٥٧٨ يستدعى شيخاً من بينهم عُرِف بأن له أتباعاً كثيرين ، فعرض عليه أن ينتظم معه ومع أتباعه في الفتوة ، على أن تتجه وجهة صالحة ، فلا تكون للإفساد ولا للنهب ولا للقتل ، بل تكون فتوة فاضلة تقوم على المروءة وشرف النفس . وشرب الناصر من يد الشيخ عبد الجبار ماء الفتوة وهو ماء مملوح ، وكأنه يشير عندهم إلى أنهم لا يشربون الخمر وأيضاً لبس الناصر سراويلها كما أسلفت وأخذ في تنظيم هذه الفتوة الشريفة ، فدخل فيها أهل بغداد أفواجاً ، وعمد إلى نشرها في الآفاق وطلب إلى الحكام أن يدخلوا فيها ، ودخل كثير منهم ، على هدى منشور فيها ، أرسله إلى الآفاق يحض على الانتظام في سلوكها ، وكان ممن انتظم فيها شهاب الدين الغوري سلطان غزنة والهند ، كما ذكر ابن الأثير في حوادث سنة ٦٠٢ وانتظم فيها السلطان

(١) مسكويه ١٩٨/٢ .

وابن تغري بردى .

(٢) الفرج بعد الشدة للتنوخي ١٥٥/٢ .

(٤) الإمتاع والمؤانسة ١٦٠/٣ .

(٣) انظر حوادث سنة ٣٦٤ في المتظم وابن الأثير (٥) راجع في السنة المذكورة المتظم وابن الأثير .

العادل الأيوبي وأبناؤه كما مرّ بنا. وكان هذا عملاً جليلاً، لأنه أنقذ بغداد من العيارين والنهب والسلب المستمر فحسب، بل لأنه وجّه شباب بغداد بل شباب الأمة إلى اتخاذ الفتوة الفاضلة درعاً في حروبهم مع أعدائهم من الصليبيين، وقد تحولت إلى نظام عظيم، كتب فيه العلماء كتباً، من أهمها كتاب الفتوة لابن المعمار البغدادي المتوفى سنة ٦٤٢ وهو يوضح فيه حقيقتها ومنشأها ومزلتها من الشريعة الإسلامية وشرائطها ومصطلحاتها على السنة الفتيان النبيلة^(١). غير أن بغداد لم تلبث أن اكتسحتها أمواج التتار هي والعراق، وحكمها الإيلخانيون ومن جاء بعدهم من التيموريين والتركمان والصفويين والعثمانيين، وأخذت أحوال أهلها هي والعراق عامة تزداد سوءاً من عصر إلى عصر، لكثرة ما كان يفرض على الناس في المدن والريف من الضرائب الفادحة.

ولم نتحدث عن أهل الذمة من الجوس والنصارى والصابئة واليهود، وكانوا يتمتعون بتسامح واسع نظير ما يدفعونه من الجزية، وكانت لا تتجاوز ديناراً للعامّة ودينارين للطبقة الوسطى وثلاثة دنانير لأصحاب الثراء، وكانت أشبه بضريبة تؤخذ للدفاع الوطني، إذ لم يكن يؤديها إلاّ من يقدرّون على حمل السلاح، فلا يؤديها النساء ولا الرهبان ولا من لم يبلغ الحلم ولا العجوز ولا الفقير البائس ولا ذوو العاهات. وكانت الدولة وخاصة في الحقبة البويهية تستخدم بعض النصارى في الدواوين واتخذ منهم عضد الدولة وزيراً - كما مرّ بنا - وكان منهم أطباء كثيرون في مختلف الحقب، أما اليهود فكانوا يشتغلون بأهون المهن، فكان منهم الصّباغون والحرازون وأمثالها كالأسكاف.

وكان الرقيق كثيراً أكثر مفرطة، وكان من أجناس مختلفة، فنه الإفريقي ومنه التركي الآسيوي ومنه الأوربي وخاصة الصقلي والرومي. وكانت له سوق رائجة في بغداد من قديم، وكانت التجارة فيه تدرّ أرباحاً طائلة على النخاسين، وكانت لهم حيل كثيرة يخدعون بها الناس عند شراء الجوارى والرقيق بعامّة، ومن أجل ذلك ألف ابن بطلان المتوفى بعد سنة ٤٥٥ للهجرة رسالة سماها «شراء الرقيق وتقليب العبيد» وفيها يصور حيل النخاسين في تحسين الجوارى وطرق خداعهم في إزالة آثار الجدري والوشم والتمش من أجسادهم وصيغهن بألوان تحقّى ما قد يكون من آثار البرص أو البهق وصيغ عيونهن بألوان تجعلها كحلّاء أو زرقاء، ويصور بعض مقاييس الحسن في الجارية من أخصص قدمها إلى

للمستشرق الألماني فرانز تيشنر في كتاب المتقي من دراسات المستشرقين (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر).

(١) انظر في الفتوة وتنظيم الناصر لها كتاب الفتوة لابن المعمار (طبع بغداد) والمقدمة الطويلة التي كتبها الدكتور مصطفى جواد لهذا الكتاب. وانظر الفتوة والخليفة الناصر

مفروق شعرها^(١) وكانت المخطوطات منهن تُجَلَّبُ إلى دور الخلفاء والسلاطين ، وكثير من الخلفاء كانوا من أبنائهن ، فالقائم بأمر الله (٤٢٢ - ٤٦٧ هـ) كانت أمه قطر الندى جارية رومية^(٢) ، وابنه المقتدى (٤٦٧ - ٤٨٧ هـ) كانت أمه جارية أرمنية^(٣) ، وكذلك كانت أم المستظهر (٤٨٧ - ٥١٢ هـ) من الجوارى^(٤) . وكان منهن كثيرات في قصر الخلافة يخدمن زوجات الخلفاء أو يكن وصيفات لهن^(٥) .

وكانت الجارية المغنية تباع بأعلى الأثمان ، وكان في بغداد بعض نوادٍ بها جوار مغنيات يختلف إليهن الشباب لسماع الغناء واللهو^(٦) . واشتهر كثيرات منهن باللفظ والظرف والبديهة الحاضرة ونظم الشعر^(٧) وحب الأزهار ونقش الأبيات الرقيقة على الأردية والأنكماش والعصائب والمناويل ، وكان لذلك تأثير في رقى الأذواق ببغداد من قديم . وكان شرب الخمر معتاداً في كثير من مجالس السلاطين والوزراء وسرّة القوم ، على نحو ما مرّ بنا عن المهلبى وزير معز الدولة البويهى ، وحكوا عن ابنه عز الدولة بختيار أنه « كان يحب أن يقضى أوقاته في الصيد والأكل والشرب والسماع واللهو واللعب بالزرد وتحريش الكلاب والديكة والفتاخ (العقبان)^(٨) . و مرّ حديثنا عن عضد الدولة البويهى ومجالس أنسه وطربه وشربه . وكان السلطان مسعود السلجوق منهمكاً في اللذات والانعكاف على الخمر والراحات^(٩) . ويكثر وصف الخمر على السنة الشعراء وفي حكاية أنى القاسم البغدادى وصف كثير لها في غير موضع ، وفيه تُساق بعض أشعار الماجنين الكبيرين ببغداد في القرن الرابع الهجرى : ابن حجاج وابن سكرة ، وهما أكبر مجان بغداد - إن لم يكن كل البلدان العربية - على مرّ التاريخ .

وكان الصيد لهواً عاماً للسلاطين والناس ، وكان من أكبر هواه ملكشاه السلجوق ، ويقول ابن خلكان : « كان لهجاً بالصيد ، حتى قيل إنه ضُبط ما اصطاده بيده فكان عشرة آلاف فتصدّق بعشرة آلاف دينار . وصار بعد ذلك كلما قتل صيداً تصدق بدينار . . وخرج مرة من الكوفة لتوديع الحجاج . . وصاد في طريقه وحشاً كثيراً ، وبنى هناك منارة من حوافر الحمر الوحشية وقرون الطباء مما صاده^(١٠) » . وكانت العامة تلهج بالصيد مما دفع

- (١) انظر رسالة شراء الرقيق وتقليب العبيد بين الرسائل التي نشرها عبد السلام هرون باسم نوادر المخطوطات .
(٢) المنتظم ٥٨/٨ .
(٣) المنتظم ٢٩١/٨ و ٢٠٠/٩ .
(٤) المنتظم ٨١/٩ .
(٥) المنتظم ٢٣٠/٨ والمستجد من فعلات الأجواد للتوخى ٢٣ .
(٦) أخبار الطراف والمجانين لابن الجوزى (طبع دمشق) ص ٩٧ .
(٧) نفس المصدر ص ٩٧ وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٣١/٨ .
(٨) مسكويه ٣٨٦/٦ .
(٩) ابن خلكان ٢٠٢/٥ .
(١٠) ابن خلكان ٢٨٤/٥ .

الناصر إلى أن يجعله جزءاً من الفتوة ، إذ اشترط فيها إحسان المنتسب إليها الرمي بالبندق ، وكأنه كان يريد أن يبرهن الشباب لا على الصيد من حيث هو وإنما على صيد أعداء العرب والإسلام ، ولمعاصره الفتى عمر بن السفت خممس طويل في وصف قوس البندق وإحكام الصيد^(١) .

واستمر من هواياتهم في هذا العصر اللعب بالرُّد وكذلك اللعب بالشطرنج وفي حكاية أبي القاسم وصف طويل للشطرنج واللعب به . وكان من تسلّياتهم القديمة مهارشة الديكة ولعبة خيال الظل ، وكانوا يلعبون بالحمام ويتخذون له أبراجاً كبيرة ، وكانوا يقامرون عليه ، فيرسل كل حمامه ، ومن جاء حمامه أولاً كسب الرهان ، ومن أهم أنواعه الزاجل ، وكانت الحكومات تستخدمه في البريد أو التراسل . وكان من ألعابهم سباق الخيل . وكانت الفروسية مهوى أفئدة الشباب ، وخاصة أصحاب الفتوة فكانوا يتمنون على استخدام السلاح سواء أكان ضرباً بالسيف أو رمياً بالنبل . وكان من العادات الشائعة الاحتفال بالختان وبختم القرآن وبالزواج وكان الفقراء يستعيرون لفتياتهم ولأنفسهم الملابس والحلى للظهور بالمظهر الكريم في حفل الزفاف . ومن المؤكد أنه ظل يحثم على صدر بغداد حزن كثيب منذ غزاها المغول حتى العصر الحديث .

الحالة الدينية

٤

التشيع

يقوم التشيع على أساس نظرية في إمامة المسلمين يؤمن بها الشيعة جميعاً ، وهي نظرية تعتمد على أن هذه الإمامة وراثية في علي بن أبي طالب وأبنائه المختارين للنهوض بالخلافة الشرعية للمسلمين من الوجهتين الدينية والدنيوية . ولذلك لا يسمون الحاكم الأعلى للمسلمين في رأيهم خليفة كما يسميه أهل السنة ، وإنما يسمونه إماماً ليدل هذا اللقب على مكانته الدينية . والإمام الأول عندهم هو علي الذي اختاره الرسول ﷺ في اعتقادهم ، ليكون إمام المسلمين بعده ، ويسمون ذلك وصية ، إذ يقولون إن الرسول أوصى لعلّي بالإمامة بجوار غدير خُتم بين مكة والمدينة . فهو وصي النبي وكل إمام بعده وصي لسلفه ، عينه بعده صراحة وفقاً لترتيب إلهي . ويضيف الشيعة إلى ذلك أن الرسول ﷺ بثَّ علياً علوماً خصّه بها ، وهي علوم تجعل له - في عقيدتهم - قدسية وصفات روحية خاصة ،

وهي صفات وعلوم يرثها كل إمام عن سالفه .

والشيعة فرق كثيرة ، ونقصر حديثنا على ثلاث منها عُرفت بالعراق لهذا العصر ، هي الإمامية الاثنا عشرية والزيدية والتَّصَوُّيَّة . والأولى ^(١) هي التي يدين بها جمهور الشيعة في العراق حتى اليوم ، أما الفرقتان الثانية والثالثة فُعُرُفَتَا في بعض البيئات والمدن ، ولم تُعَمَّا في العراق إنما التي عَمَّت الإمامية الاثنا عشرية ، ولذلك ينبغي أن نفصل القول فيها بعض التفصيل . وعندهم أن إمامة علي وأبنائه من السيدة فاطمة الزهراء بنت الرسول ﷺ جزء لا يتجزأ من صحة العقيدة الإسلامية ، يقول الكليني المتوفى سنة ٣٢٨ في كتابه الأصول من الجامع الكافي : « ليس بمسلم حقاً من لا يعترف بالله ورسوله والأئمة جميعاً وإمام عصره ومن لا يفوض أمره للإمام ويبذل نفسه في سبيله » والإمامية بذلك يجعلون من أركان الإسلام الأساسية - في عقيدتهم - الإيمان بالأئمة والانضواء تحت لواء إمام العصر ^(٢) ويضفي الإمامية على الإمام صفات روحية قدسية أودعها الله فيه مع ما أودع من العلوم ، وهي صفات يعلو بها على المستوى البشري للناس ، بها يكون هادياً لهم وموجِّهاً ، إذ ورثها عن الأئمة قبله ، وورث معها المعارف والأحكام الإلهية ، وكلُّ ما يجدُّ يعرفه عن طريق الإلهام بالقوة القدسية والمشيتة الإلهية . فكل علم له إنما هو من لدن الله وكل أمر إنما هو بتوجيه الله ^(٣) . وطاعة الأئمة لذلك واجبة ، إذ هم أبواب الله والسبل إليه والإدلاء عليه ، وهم ذخيرة علمه وتراجمه وحبه وأركان توحيده وخزَّان معرفته . . أمَّهم أمر الله ، ونهْيهم نهْيهم ، وطاعتهم طاعته ، ومعصيتهم معصيته ^(٤) . ومما يستدلون به على وجوب طاعتهم قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) وأولو الأمر ليسوا هم - كما يدل ظاهر الآية - علماء الأمة المجتهدين ، وإنما هم الأئمة . ويقولون إن الله أوجب طاعتهم بالإطلاق كما أوجب طاعته وطاعة رسوله . وعلى هذا النحو يرتفع الشيعة الإمامية بأئمتهم عن الطبيعة البشرية إذ يجعلونهم معصومين عن الخطأ واقتراف الذنوب والآثام . وتُعَدُّ هذه العصمة للأئمة من المبادئ الأساسية في العقيدة الإمامية ، ويستدلون عليها باختيار الله لهم - على نحو ما تصور ذلك عقيدتهم - والله لا يختار لعباده

(١) انظر في الإمامية الملل والنحل للشهرستاني وعقائد

الشيعة الإمامية لابن بابويه القمي والعقيدة والشرعية في الإسلام لجولدسيير والجزء الثالث من ضحى الإسلام لأحمد أمين .

(٢) راجع الكليني ص ١٠٥ و ٣٦٨ وجولدسيير

ص ١٨١ وفي مواضع مختلفة

(٣) راجع عقائد الإمامية للشيخ محمد رضا المظفر

(طبع القاهرة) ص ٧٢ والكليني ص ١٤٦ ، ١٤٨

(٤) انظر المظفر ص ٧٤

في رأيهم إلا المعصومين^(١).

ويؤمن الإمامية الاثنا عشرية بأن الأئمة اثنا عشر، ولذلك يسمون الاثني عشرية، وهم - على الترتيب - علي بن أبي طالب، فابنه الحسن، فأخوه الحسين، فابنه علي زين العابدين، فابنه محمد الباقر، فابنه جعفر الصادق، فابنه موسى الكاظم، فابنه علي الرضا، فابنه محمد الجواد، فابنه علي الهادي، فابنه الحسن العسكري، فابنه محمد المهدي المولود سنة ٢٥٦ للهجرة، وقد اختفى عندما كان طفلاً. ويؤمن الإمامية بأن هذا الإمام حي وأنه سيعود ليملأ الأرض عدلاً بعد أن مُلئت جوراً، ويعيد سنن الرسول ﷺ ويسترد حق أسرته في الولاية على الأمة في يوم موعود به من الله، هو سر من الأسرار الإلهية. ويقولون إن هذا حقاً مخالف للمألوف أن يكون إماماً وهو قد رحل وعمره خمس سنوات وأن يظل قروناً متوالية حياً، ولكنها - كما يعتقدون - معجزة ستحقق، إذ يعود إليهم هذا المهدي المنتظر الذي يحرر - في عقيدتهم - العالم من مفاسده وشروره، ويُشيع في الناس العدالة. وهو بذلك حيّ، وكل ما في الأمر أنه غائب خفي عن الأعين^(٢). وهو عندهم في أثناء غيابه واختفائه «قائم الزمان» يسير بين الأحياء ولا يروونه، ويرعى شئونهم، ويدبر مصالحهم^(٣).

وتؤمن الإمامية الاثنا عشرية بنظرية الرجعة، إذ يعيد الله بعض الأموات إلى الدنيا ليقروا بين البشر نواميس العدالة الإلهية، ثم يعودون بعد ذلك إلى الموت، وكأنها بعث موقوت في الدنيا، وهي طبعاً غير التناسخ، فالتناسخ انتقال الروح من بدن إلى بدن، أما الرجعة فمعاد جسماني في الدنيا بنفس الصورة والشخصية، ويستدلون على هذه الرجعة بما جاء على لسان عيسى عليه السلام في الذكر الحكيم: (وَأَبْرَأُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ) وما جاء عن قصة أهل الكهف في القرآن الكريم، وأيضاً عن صاحب القصة في قوله تعالى: (فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ). غير أن فكرة الرجعة اختلطت بفكرة المهدي الذي سيأتي آخر الزمان ويتم على يديه الإصلاح المأمول، ويقول الشيخ المظفر: «على كل حال الرجعة ليست من الأصول التي يجب الاعتقاد بها، وإنما اعتقادنا بها كان تبعاً للآثار الصحيحة الواردة عن آل البيت عليهم السلام^(٤)». وهو يلفتنا بذلك إلى أهمية

(١) انظر في عصمة الإمام لدى الاثني عشرية (٣) انظر جولدسيهر ص ١٩٦.

جولدسيهر ص ١٨٨. (٤) عقيدة الإمامية للمظفر ص ٨٣ وما بعدها وراجع

(٢) انظر في نظرية المهدي الكتب الشيعية السابقة في عقيدة الرجعة لدى الاثني عشرية جولدسيهر ص

جولدسيهر ص ١٩١ وما بعدها وراجع في الغيبة عقائد ١٩١.

الإمامية للمظفر ص ٨٠.

الروايات المنسوبة إلى الأئمة في البيئة الإمامية فهي أقوى عندهم من كل برهان لأنهم في رأيهم معصومون منزهون عن الخطأ.

وتلتقى العقيدة الإمامية مع الاعتزال في كثير من الأصول ، فالإمامية كالمعتزلة يرون أن صفات الله قائمة بذاته ، فهو عالم بذاته لا يعلم ، وكذلك بقية صفاته ، ويروون عن جعفر الصادق : « العلم ذات الله ولا معلوم ، والسمع ذاته ولا مسموع ، والبصر ذاته ولا مبصر ، والقدرة ذاته ولا مقدور^(١) » . وهم كالمعتزلة ينفون التشبيه عن الله ، فهو متميز عن المكان والزمان والشبه بالمخلوقات ، إذ ليس جسماً ولا عرضاً ولا جوهرًا ، وقد سلكوا مسلك المعتزلة في تأويل الآيات القرآنية التي قد تفيد مشابهة الذات العلية للمخلوقات في مثل (يد الله فوق أيديهم) فعنى اليد القدرة . وهم كالمعتزلة في إثبات العدل على الله ، أما أفعال العباد فيقفون فيها موقفًا وسطاً بين المعتزلة والقائلين بالجبر ، فهي بين بين ، أو هي بين الاستطاعة والجبر . وظلت الصلة قوية بين الإمامية والاعتزال طوال العصر.

وقد أخذ المذهب الإمامي الاثنا عشرى يتشر في العراق منذ أوائل هذا العصر ، إذ تحول صولجان الحكم إلى البويهيين وكانوا إمامية ، ونرى حاكمهم الأول معز الدولة يأمر في سنة ٣٥١ بلعن معاوية وكبار الصحابة وكتب بعض الشيعة ذلك على حيطان المساجد ، فحيا الكتابة أهل السنة^(٢) . ولم يلبث معز الدولة أن أمر أهل بغداد بالاحتفال بيوم عاشوراء في سنة ٣٥٢ وهو اليوم الذي استشهد فيه الحسين ، وقد أصبح منذ هذا التاريخ أكبر عيد للشيعة ، وفيه أمر معز الدولة أن تُغلق الأسواق ويعطل البيع والشراء ولا يذبح القصابون ولا يطبخ الطبّاخون وأصحاب الحلوى ، والجميع ينوحون ويبكون الحسين وينصبون القباب ويتخذون المسوح وتخرج النساء منشورات الشعور مسودات الوجوه مشقوقات الثياب ويذرن في بغداد نائحات لاطحات وجوههن على الحسين^(٣) . وفي هذا اليوم يزار قبر الحسين بكربلاء ، ويقام فيها مأتم كبير كما تم في بغداد ، ويقام أيضاً في المدن العراقية الأخرى . ولا يزال يقام هذا المأتم إلى اليوم . وفيه يقام موكب كبير للناحّين ببغداد ، وتتلّى سيرة الحسين في البيوت والنوادي وتنشد مراث كثيرة فيه وفي أبيه وفي الأئمة المستشهدين ، يصور فيها الشعراء محن آل البيت على مر التاريخ . ويجانب هذا العيد الحزين عيد فرح

(١) الفصول المهمة في أصول الأئمة للعامل (طبع) (٣) المتظم ١٥/٧ وابن الأثير وابن تغري بردي في النجف) ص ٥٣ وانظر جولدسمير ص ١٩٨ وما بعدها . حوادث عام ٣٥٢ .
(٢) انظر ابن الأثير وأبا الفدا في حوادث عام ٣٥١ .

وسرور فرضه أيضاً معز الدولة البويهى فى الثامن عشر من ذى الحجة سنة ٣٥٢ وهو عيد الغدير : غدير خُم الذى يذهب الشيعة - كما أسلفنا - إلى أن الرسول ﷺ عهد إلى على بالخلافة قريباً منه وأنه قال : مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلَى مَوْلَاهُ ، اللهم وال مَنْ وَالاهْ وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ . وقد أمر معز الدولة أن يستشعر الناس فيه الفرح ومظاهره من اتخاذ الزينة ونُصُب القباب وتعليق الثياب ، وأشعلت النيران ليلاً وضُربت الدبادب والبوقات ^(١) . ولم يلبث أهل السنة ببغداد أن اتخذوا لهم عيدين بإزاء العيدين السالفين ، فجعلوا لهم عيداً بعد عيد الغدير بثمانية أيام ، سموه عيد الغار ، أحيوا فيه ذكرى اليوم الذى دخل فيه النبی ﷺ وأبو بكر الصديق فى غار حراء ، وبالمثل جعلوا لهم عيداً بعد يوم عاشوراء بثمانية أيام أحيوا فيه ذكرى اليوم الذى قُتل فيه مصعب بن الزبير ^(٢) .

واشتهر الكرخ فى غربى بغداد بأنه كان حَيَّ الشيعة الإمامية ^(٣) ، ويقول هلال الصائى إنهم لم يحتلوا باب الطاق إلا فى أواخر القرن الرابع الهجرى ^(٤) ، وكان يقابلهم فى القسم المواجه من بغداد أهل السنة وكان أكثرهم من الحنابلة ، ولهم فتن كثيرة مع الشيعة تقصصها كتب التاريخ . ويذكر ابن بطوطة فى رحلته مدينة الحِلَّة ويقول إن أهلها لزمه فى القرن الثامن إمامية اثنا عشرية ^(٥) ، ومرَّبنا فى حديثنا عن بنى مزيد فى الجزيرة العربية أنهم كانوا لعهدهم بالحِلَّة فى القرن الخامس رافضة ، وقد يكون فى ذلك ما يدل على اكساح مذهب الإمامية لمذهب الإسماعيلية فى العراق . ووصف ابن بطوطة كَرْبلاء ومشهد الحسين بها ، وقال إن « الروضة المقدسة داخلها وعليها مدرسة عظيمة وزاوية كريمة فيها الطعام للوارد والصادر ، وعلى باب الروضة الحُجَّاب والقومة ، ولا يدخل أحد إلا عن إذنهم ، فيقبل العتبة الشريفة وهى من الفضة ، وعلى الضريح المقدس قتاديل الذهب والفضة ، وعلى الأبواب أستار الحرير » ^(٦) . وهى أول مرة يوصف فيها مشهد الحسين من داخله . وهو تحفة من التحف النفسية بما يغطى الضريح ومثذنة المشهد من صفائح الذهب ، وبالمثل مشهد أبيه على فى الكوفة . وتحضُّ العقيدة الإمامية على زيارتها وزيارة قبور الأئمة بالعراق وإيران . وقد أتيح لتلك العقيدة فى عهد إسماعيل الصفوى ودولته أن تصبح المذهب الرسمى للدولة فى العراق وإيران . غير أن تلك الدولة لم تدم فى العراق طويلاً .

(١) ابن الأثير والمتظم فى حوادث عام ٣٥٢ . (٤) كتاب الوزراء ص ٣٧١ وانظر للمتظم فى حوادث

(٢) كتاب الوزراء للهلال بن الحسن الصائى ص عام ٣٨٩ .

(٣) ٣٧١ . (٥) رحلة ابن بطوطة ١ / ١٣٨ .

(٦) ابن بطوطة ١ / ١٣٩ . (٣) انظر مادة كرخ فى معجم البلدان لياقوت .

وكان بجانب العقيدة الاثني عشرية في العراق عقيدتان أخريان شيعيتان، إحداهما متطرفة غاية التطرف حتى ليعتبر منها الشيعة الاثنا عشرية ، والثانية معتدلة غاية الاعتدال ، أما المتطرفة ففرقة النُصيرية كان لها أتباع في مدينتي عانة والحديثة ، وهم في الحق مسلمون اسماً فحسب ، أما بعد ذلك فهم خارجون على الإسلام إذ عدّوا على بن أبي طالب وأبناءه آلهة وعبدوهم من دون الله ، واتخذوا لأنفسهم كتاباً عدّوا القرآن ثانوياً بالقياس إليه . وطبيعي ، أن يرفضوا بعض أركان الشريعة الإسلامية ، وقد أنزلوا الرسول ﷺ منزلة دون منزلة على ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم الآثمة ، ويقول جولدتسيهر إن عقيدتهم تحمل كثيراً من عناصر الوثنية الآسيوية القديمة ^(١) . وحرى بنا أن نلاحظ أنه كان يندس بين الإمامية بعض النصيرية وبعض الشيعة الغالين أو بعبارة أدق الرافضة ، وخاصة من يرفعون عليا إلى مرتبة ربّانية . ونجد أحد خطباء الشيعة ببغداد في عام ٤٢٠ للهجرة يدعو في خطبة الجمعة بعد الصلاة على النبي ﷺ فيقول : « وعلى أخيه أمير المؤمنين على ابن أبي طالب مكلم الجمجمة ، ومحبي الأموات ، البشري ، الإلهي ، مكلم فتية أصحاب الكهف ^(٢) » . وكأنه يؤمن بأن عليا صورة جديدة لعيسى عليه السلام ، اجتمع فيه اللاهوت والناسوت مما يتيح له في رأيه إحياء الموتى والخلود من أول الزمان . وهي نفس عقيدة النصيرية فيه إذ ذهبت إلى أن فيه جزءاً إلهياً وأنه كان موجوداً قبل خلق السموات والأرض ، وأن الإله ظهر بصورته وخلق بيديه وأمر بلسانه ^(٣) إلى غير ذلك من كفر ما وراءه كفر .

وعلى عكس النصيرية كانت هناك فرقة معتدلة أشد الاعتدال ، هي فرقة الزيدية التي نشأت في الكوفة على يد زيد بن علي زين العابدين بن الحسين ، وقد ظل لها في هذا العصر أنصار عديدون في تلك المدينة ، وكانوا لا يقصرون الإمامة على أشخاص معينين من أبناء الحسين كما ذهب الإمامية ، بل يرونها حق كل علوى فاطمي ما دام له من الاستعداد الروحي ما يؤهله للإمامة ، وكانوا ينكرون فكرة الإمام الغائب التي آمنت بها الإمامية وما يطوى فيها من نظرية الرجعة وأيضاً فكرة العصمة ، وأيضاً لم يضيفوا إلى الإمام فكرة العلم الباطني المتوارث وما يطوى فيها من صفات روحية قدسية تُضفي على الإمام ، فيكفي

(١) العقيدة والشريعة في الإسلام لجولدتسيهر الإسلامية لآدم ميتز (طبعة القاهرة) ١/٨٢ .

ص ١٨٤ ، ٢٢١ . (٣) الملل والنحل للشهرستاني بتحقيق محمد سيد

(٢) المنتظم في حوادث سنة ٤٢٠ وانظر الحضارة كيلاني (نشر مكتبة مصطفى الحلبي) ١/١٨٨ وما بعدها .

فيه أو قل يشترط فيه أن يكون فقيهاً ، ولكن دون تصور علم لدني يهبط عليه ، واشتروا في الإمام أن يكون كريماً سمحاً عادلاً شجاعاً . ونهوا عن ذم الصحابة وأبي بكر وعمر ، لأنهم لم يبايعوا علياً بالخلافة ، وجوزوا إمامة الفضول من غير ذرية علي بن أبي طالب على الأفضل من ذريته . وعقيدتهم بذلك لا تبعد كثيراً عن عقيدة أهل السنة ولذلك كان يقال من قديم إنهم أكثر الفرق الشيعية إنصافاً واعتدالاً^(١) .

٥

الزهد والتصوف

كانت موجة الزهد في هذا العصر لا تقل حدة واتساعاً عنها في العصور السابقة ، ومعروف أن القرآن دعا إليه مراراً كما دعا الرسول في أحاديثه النبوية إلى الزهد في عرض الحياة الدنيا وطلب ما عند الله من ثواب الآخرة ، وبذلك كان الزهد من طوابع الحياة الإسلامية المستقرة في الأمة . وأخذت تتكون منذ عهد الرسول ﷺ طبقات كثيرة من الزهاد المتقشفين الذين ينبذون وراء ظهورهم مباهج الحياة ويتجردون لعبادة ربهم . ونراهم في هذا العصر بكل بلد من بلدان العالم الإسلامي يُعدّون بالعشرات بل بالمئات ، ويمكن أن نسلك فيهم بصفة عامة طبقات الفقهاء ، فمن يقرأ في طبقات الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة يجد المترجمين لهم يسوقون أخباراً كثيرة عن مدى ما كان يأخذ به الفقهاء من كل مذهب أنفسهم من التقشف وطمأنينة النفس القانعة مع ما يُذكر من أن هذا الفقيه أو ذاك اعتكف في بيت الله خمسين سنة أو أنه صام حياته أو أنه صام خمساً وسبعين سنة . وتسوق كتب التاريخ أسماء زهاد كثيرين ومن يرجع إلى المنتظم لابن الجوزي وابن الأثير وابن تغري بردي سيراهم يذكرون في وفيات السنوات أسماء كثرة من الزهاد ، فمثلاً في سنة ٣٤٨ توفي جعفر بن حرب وكان في نعمة كبيرة ، فاجتاز يوماً بموكبه ، فسمع قارئاً يقرأ : (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ) فصاح : بلى والله قد آن ، ونزل عن دابته وفرق جميع أمواله ولزم العبادة حتى مات . وفي نفس السنة توفي عالم زاهد كان يصوم الدهر ويُفطر كل ليلة على رغيف ويترك منه لقمة ، فإذا كان ليلة الجمعة تصدق بذلك الرغيف وأكل تلك اللقم التي استفضلها . وفي سنة ٣٨٤ توفي

أبو العباس عبد الله بن محمد ، وكان قد ظل سبعين سنة ناسكاً عابداً لا يستند إلى حائط ولا إلى وسادة أو غيرها . وكانوا يكرهون في الزاهد أن يتولى عملاً للسلطان يكسب منه مالا^(١) ، وكانوا إذا عرفوا أن طعام شخص من مال أخذه من السلطان امتنعوا من أكله^(٢) . وكانت موجة الزهد عامة فكثيراً ما نقرأ عن هذا الخليفة أو ذاك أنه كان زاهداً ، وبذلك اشتهر الخلفاء القادر والمسترشد والقائم ، ويقال عن الأخير إنه كان في وجهه أثر صُفرة من قيام الليل^(٣) . وكان من الوزراء وأبنائهم من يرجعون إلى أنفسهم فينصرفون عن الدنيا ومتاعها الزائل إلى عبادة الله وما عنده من الثواب الآجل ، ويروى عن سليمان بن الوزير نظام الملك ، وكان يتولى المدرسة النظامية التي بناها أبوه ببغداد ، كما مر بنا ، أنه كان يحضر مواعظ ابن الجوزي واعظ بغداد المشهور ، فأخذه الوجد يوماً . فقام وأشهد ابن الجوزي والناس من حوله أنه قد اعتق جميع ما يملك من الرقيق ، ووقف ما يملك على أعمال البر^(٤) . ويبدو أن كثيرين كانوا يبالغون في الزهد ، حتى ليفرضون على أنفسهم العبادة ليل نهار ، بل حتى لينصرفون عن الحياة الزوجية ويمتنعون منها . وكل ذلك مغالاة في الزهد لا يرضاها الإسلام ، الذي لا يريد للزاهد أن يفصل عن المجتمع والحياة . وقد روى أن جماعة من الصحابة كانوا في سفر أثنوا للرسول عليه السلام على رفيق لهم كان لا يزال داعياً ربه في ركوبه مصلياً له في نزوله فقال لهم « فن كان يكفيه علف بعيه وإصلاح طعامه ؟ قالوا : كلنا ، قال : فكلكم خير منه^(٥) » . فالزهد الإسلامي ينكر إهمال الشخص لشئونه الدنيوية ، كما ينكر بقوة فكرة العزوبة المعروفة عند رهبان النصارى^(٦) . ونرى ابن الجوزي يحمل حملة شعواء على الزهاد الذين يمتنعون عن الزواج ونظرائهم الذين يمشون الليل والنهار في العبادة والتسلك وقد نخلت أجسامهم وشجبت ألوانهم ودقت عظامهم ، حتى إنهم لا يستطيعون الصلاة واقفين ، بل يصلون من قعود . ويقول إن هذا كله مخالف للشريعة والسنة^(٧) .

وراجع طبقات ابن سعد ج ١ ص ٢٨٧ ج

٢ ص ٩٠٤

(٦) انظر عيون الأخبار لابن قتيبة (طبع دار الكتب

المصرية) ١٨/٤ وروض الرياحين لليافعي (طبع

القاهرة) ص ٣٨ .

(٧) صيد الخاطر لابن الجوزي (طبع القاهرة) ص

١٣٨ .

(١) النجوم الزاهرة ١١٧/٥ .

(٢) النجوم ٥٧/٥ .

(٣) النجوم ٩٨/٥ .

(٤) الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة

السابعة (طبع بغداد) ص ١٢٤ وانظر تاريخ العراق في

العصر العباسي الأخير لبدرى فهد ص ٣٩٧ .

(٥) أعلام النبوة للهاوردي (طبع القاهرة) ص ١٥٣ .

وكان طبيعياً أن يتحوّل كثير من الزهاد إلى متصوفة ، لا يكفون بالإعراض عن ملاذ الدنيا وطيباتها قانعين من الطعام بالكسرة ومن الثياب بالخرقة ، لا يشغلهم مال ولا زوجات ولا أولاد . وقد أخذت تُبنى لهم الرِّباطات والخانقاهات في العالم الإسلامي ، تَبْنِيها الدولة أحياناً ، وبينها ذوو اليسار ابتغاء وجه الله أحياناً أخرى . وكان ما بها من طعام يأتي عن طريق الصدقات أو عن طريق ما يُحبَسُ عليها من الأوقاف ، ولم يكن يُسمَحُ بالأكل من هذا الطعام إلا للعابد الناسك نسكاً لا يستطيع معه كسب قوته أو إلا إذا أصبح من الشيوخوخة بحيث تُفَعِّده عن العمل ، وبذلك لم يكن يؤذن لعاطل بالأكل من هذا الطعام . وكان في الأريطة والخانقاهات مجاميع من الشيوخ والشباب أصحاب الخلوة . وعادة كان لكل رباط شيخ كبير يصبح كل من فيه من أتباعه . والمحور الأساسي للتصوف هو محبة الله محبة يقضي فيها الصوفي الحب في الحقيقة المطلقة حقيقة الكائن الإلهي ، وقد أخذ يتداخل غلو كثير في هذه العقيدة . ومرّ بنا في كتاب العصر العباسي الثاني أنه بلغ من غلو الحلاج في هذه العقيدة أن جرى على لسانه كلمات وأشعار كثيرة تصرّح بفكرة الحلول من مثل قوله : « أنا الله وأنا الحق » مما جعل الفقهاء يفتون بزندقته وقلته . غير أن هذا الغلو لم يمت بموت الحلاج ، بل لقد رافقه غلو آخر عند بعض الصوفية لعله أكثر عنثاً إذ ذهب فريق منهم إلى أنه ينبغي أن يُظهروا للناس أنهم لا يعملون بشرائع الإسلام وإن كانوا يعملون بها فعلاً ، وهم المسمون باللامية أي المستحقين للوم ، مبتغين من ذلك أن يكونوا محل احتقار وازدراء حتى يبلغوا مرتبة عليا من التصوف والانصراف عن الدنيا . وكثير من الصوفية أخذوا يعلنون أنه لا عبرة بأداء الفرائض الدينية أو كما يسمونها عمل الجوارح ، إنما العبرة بعمل القلب . وكل هذا انحراف بالتصوف عن منهجه الصحيح . وكان ذلك سبباً في أن تنشأ حرب عاصفة منذ أوائل هذا العصر بين الفقهاء من جانب والمتصوفة من جانب آخر ، فكان الفقهاء يرونهم خارجين على الإسلام بما يشيعون من أفكار الحلول وما يتصل بها وبما يأخذ بعضهم به أنفسهم من القعود عن أداء فرائض الإسلام ، قاطعين بذلك كل سبب بينهم وبين دينهم الخفيف . وتفاقت الحرب بين الطرفين بحيث أصبحت هناك ضرورة أن يوجد بعض المتصوفة المصلحين الذين يعيدون الأمر إلى نصابه ، حتى لا يخرج التصوف عن حدود الشريعة . وسرعان ما ظهر أبو نصر السراج الصوفي الطوسي المتوفى سنة ٣٧٨ وألف كتابه « اللمع » وفيه ينكر على الصوفية كل انحراف فلسفي وشطح صوفي يؤدي إلى نظرية الحلول ، كما ينكر تعطيل الفرائض الدينية ويجعلها جزءاً لا يتجزأ من التصوف ، فبدونها لا يتحقق له وجود . وحمل أفكاره تلميذه أبو عبد

الرحمن السُّلَمِيُّ صاحب طبقات الصوفية ، وَلَقَّنَهَا بدوره تلميذه عبد الكريم القُشَيْرِيُّ المتوفى سنة ٤٦٥ وقد ألف رسالة طويلة مشهورة رَأَبَ بها هذا الصدع الذى حدث بين الفقهاء والمتصوفة . ودَوَّت الرسالة منذ عصره فى العالم الإسلامى ، وهو فيها يرسم مبادئ التصوف مبيناً أنها لا تناقض الدين الحنيف بل تتحد معه فى وثام ، ويعرض أعلام الصوفية مع طائفة من أقوالهم التى تربط بين التصوف والنهوض بفرائض الإسلام مع حملة شعواء على من يستخفون بالصوم والصلاة وأداء الفروض الدينية وعلى من لا يميّزون بين الحلال والحرام مدّعين أنه زالت عنهم أحكام الدين . وخلفه أبو حامد الغزالى حجة الإسلام المتوفى سنة ٥٠٥ فوصل بين التصوف والشرعية وصلاً وثيقاً لم يصبه وهنٌ بعده ، بحيث أصبح التصوف فى صورته العامة سُنَّياً ، وحقا انفصلت عنه بعض أسراب فلسفية استمرت فيها فكرة الحلول ، ولكنها أسراب فردية على نحو ما هو معروف عن ابن عربى وابن سبعين الأندلسيين . أما بعد ذلك فقد عم التصوف السنّى على نحو ما رسمه الغزالى فى كتابه «إحياء علوم الدين» وهو فى النصف الأول منه يتحدث عن الفرائض الدينية والنوافل من مثل الذكر وتلاوة القرآن والتهجد والأدعية . ويبدأ الحديث فى النصف الثانى بما ينبغى من صفاء القلب صفاء تقهر فيه النفس شهواتها وملاذها . ثم يتحدث عن صفات الكمال الروحى الذى يتطلبه الصوفى وما ينبغى له من التوبة والصبر والشكر والخوف والرجاء والزهد والتوكل والحب والإخلاص والمحاسبة والتفكير وتذكر الموت وما وراءه . وسنعود إلى الكتابة عن الغزالى والقشيرى وأبى نصر السراج الطوسى فى القسم الخاص بإيران . وسرعان ما أصبح هذا التصوف السنّى القائم على أعمال الجوارح من الفرائض الدينية وأعمال القلب من الإخلاص وصدق المحبة الإلهية مطلب كثر من الناس فى العالم الإسلامى جميعه . والغزالى لا يضع أصوله فحسب ، بل يُعَدُّ العدة لكى تشيع الطرق الصوفية فيه ، فقد تحدث فى الجزء الثالث من الإحياء عن الشيخ الصوفى وتلميذه أو مريده ، وقال إنه ينبغى أن يلزم شيخه لزوم الأعمى الماشى على شاطئ النهر لمن يقوده ، ويقول : على الشيخ أن يدفعه إلى الخلوة والصمت والصوم والأرق مع دوام الذكر ومع التخلص من كل الشهوات . وسرعان ما أخذت الطرق الصوفية فى الظهور ، ومن أقدمها الطريقة القادرية المنسوبة إلى الشيخ محبى الدين أبى محمد عبد القادر^(١) الجيلانى مولداً الحسينى نسباً المتوفى سنة ٥٦١ وقد ولد بجيلان سنة ٤٧١ وجاء إلى بغداد فى شبابه ولزم حلقات الفقهاء والمحدثين ، ثم أخذ يعظ

(١) انظر فى الجيلانى الذيل على طبقات الحنابلة لابن لابن الفوطى (طبع لاهور) ٣٨١/٥ .
رجب والنجوم الزاهرة ٣٧١/٥ وتلخيص مجمع الآداب

الناس بعد سنة ٥٢٠ وبُنيت له مدرسة فلزمها وتكاثر الناس على سماع وعظه إلى أن لَبَّى نداء ربه ، ويقول عنه ابن تَعْرَى بَرْدَى : « كان ممن جمع بين العلم والعمل أفتى ودرّس ووعظ سنين ، وكان محققاً صاحب لسان في التحقيق وبيان في الطريق ، وهو أحد المشايخ الذين طَنَّ ذكرهم في الشرق والغرب » . وله كتابان مطبوعان يصوران طريقته هما سر الأسرار والغنية لطالبي طريق الحق ، وهو فيها يدعو إلى التمسك بالشرعية الإسلامية وأداء الفرائض الدينية مع الخلوص للمحبة الإلهية . وقد وُضعت في مناقبه كتب كثيرة ، منها كتاب بهجة الأسرار ومعدن الأنوار في مناقب القطب الرباني سيدى محيى الدين أبى محمد عبد القادر الجيلانى ، وهو مطبوع بالقاهرة .

ومن الطرق الصوفية العراقية التى ذاعت فى العالم الإسلامى الطريقة الرفاعية المنسوبة إلى الشيخ الصالح العربى الأصل أبى العباس أحمد^(١) بن أبى الحسن على المعروف بالرفاعى « إمام وقته فى الزهد والصلاح والعبادة » وقد شاعت طريقته فى عصره وكثر أتباعه . ويُقال إن شخصاً زاره فى ليلة النصف من شعبان ، فوجد عنده نحو مائة ألف إنسان « وكان متواضعاً مجرداً من الدنيا » . وكان مولده سنة ٥٠٠ ووفاته سنة ٥٧٨ . ومن قوله : « سلكت كل طريق ، فما رأيت أقرب ولا أسهل ولا أصلح من الذل والافتقار والانكسار لتعظيم أمر الله والشفقة على خلق الله والافتداء بسنة سيدى رسول الله ﷺ » . وله كتاب سماه « حالة أهل الحقيقة مع الله » حققه وقدم له محمد نجيب خياطة ، وهو مطبوع بجلب ، وقد بناه الرفاعى على أحاديث نبوية ، وكثير منها يتصل بالمحبة الربانية ومعرفة الله ووصف المتصوفة أهل الحقيقة ، وقد سئل أحد أتباعه عن وِردِهِ ، فقال : كان يصلى أربع ركعات بألف (قل هو الله أحد) ويستغفر كل يوم ألف مرة ، واستغفاره أن يقول : (لا إله إلا أنت سُبْحانَكَ إني كنت من الظالمين) عملت سوءاً وظلمت نفسى وأسرفت فى أمرى ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفرلى ، وتُبَّ علىَّ ، إنك أنت التواب الرحيم ، يا حيُّ ، يا قيوم ، لا إله إلا أنت » - ويقول ابن خلكان : لأتباعه أحوال عجيبة من أكل الحيات وهى حية والنزول فى التناير وهى تتصرَّم ناراً فيطفئونها ، ومثل هذا وأشباهه .

وبجانب هاتين الطريقتين العراقيتين : الرفاعية والقادرية كان هناك أقطاب للصوفية

(١) راجع فى الرفاعى مرآة الزمان ٣٧٠/٨ والشدرات (طبعة عيسى البابى الحلى) ٢٣/٦ ؛ وابن خلكان ٢٥٩/٤ والنجوم الزاهرة ٩٢/٦ وطبقات السبكي ١٧١/١ وطبقات الشعراوى ١٤٠/١ .

كثيرون من أمثال المرتضى الشهرزورى ، وشهاب الدين أبو حفص ^(١) عمر السهروردى البغدادى ، وهو تلميذ عبد القادر الجيلانى ، وله كتاب يسمى عوارف المعارف يوضح فيه ما يجب على المتصوف من أداء الفرائض الدينية ومتابعة السنة النبوية ، ومن أطرف ما فيه الحديث عن المريد وشيخه وأنه ينزل منه منزلة الولد من أبيه . ويتحدث عن المدة التى قطعها المريد حتى يتبها لانتظامه فى طريقة شيخه ويصبح مُعَدّاً أو مهياً لأن يخلع عليه « الخِرقة » شعار الصوفية وهى ترمز رمزين : رمزاً إلى أن المريد تلاشت إرادته فى إرادة شيخه ، ورمزاً ثانياً إلى أنه قد تسلم منه الخِرقة ويد الله ورسوله فوق يد شيخه وأنه قد تم له الإذن بانتظامه فى الطريقة . ويقول السهروردى إن « المريد الصادق إذا دخل تحت حكم الشيخ وصحبه وتأدب بآدابه يسرى من باطن الشيخ حال إلى باطن المريد كسراج يقتبس من سراج ، وكلام الشيخ يلحق بباطن المريد وينتقل الحال من الشيخ إلى المريد بواسطة الصحبة وسماع المقال » ^(٢) . ويتحدث السهروردى عن آداب الخلوة اللازمة للمتصوف ، ويقول إن الخلوة تستغرق أربعين يوماً من كل عام ، تُقَصَّى فى الصلاة والصيام ، ويذكر أن الغرض منها تصفية النفس وإزالة الحجب البدنية ، ولذلك ينبغى على المريد إذا أراد الخلوة أن يجرد نفسه من العالم ومن كل ملكه ، ويصلى ركعتين ويتوب إلى الله توبة نصوحاً ، ويبكى ويتضرع إليه ولا ينقطع عن ذكره طوال خلوته ^(٣) . وكان على المريد أن ينشر طريقة شيخه فى المدن والقرى بكل ما يستطيع ، وبذلك أمكن للطريقتين القادرية والرفاعية أن ينتشرا لا فى العراق فحسب بل أيضاً فى كل العالم الإسلامى .

ومنذ القرن الخامس الهجرى أخذ يشيع فى التصوف وبين المتصوفة ما سُمي بالذكر ، وهو أن يتقابل الصوفية فى صفين ذاكرين الله مع التمايل عيناً وشبلاً ، ويقوم بين الصنفين منشد ينشد بعض الأشعار الصوفية أو الغزلية الوجدانية التى تدلح المحبة الإلهية فى القلوب ، وقد عمَّ هذا الذكر عند القادرية والرفاعية وما نشأ بعدهما من طرق صوفية . ولابد أن نلاحظ أنه أخذت تنشأ فى الحقب المتأخرة من هذا العصر أو قل منذ أواسطه جماعات الدراويش ، وهم صوفيون متجولون كانوا يطوفون العالم الإسلامى ، وأخذت تظهر بينهم

(١) انظر فى ترجمته ابن خلكان ٤٤٦/٣ وغير الذهبى

١٢٩/٥ وطبقات الشافعية ٣٣٨/٨ ومراة الزمان

(٢) ٦٧٩/٨ والنجوم الزاهرة ٢٨٤/٦ .

(٣) انظر كتابه عوارف المعارف (طبع دار الكتاب

العربى بيروت) ص ٩٦ ، وينسب الكتاب خطأ إلى

عمه عبد القاهر بن عبد الله السهروردى .

(٣) عوارف المعارف ص ٢٢١ .

في القرن الثامن الهجري وما بعده فرقتان اشتهرتا ، هما النَّقْشَبَنْدِيَّةُ ، وقد رعاها تيمورلنك في دولته ، والبكتاشية ، وقد نشأت في جو الشيعة الإمامية ، بدلالة تقديسها للأئمة العلويين ، وهي تعتنق إلى حد ما نظرية الحلول ، ويقال إن بعض معتنقيها لم يكونوا يهتمون بالشعائر الدينية ، ولكن مما لاشك فيه أنها كانت طريقة صوفية تقوم على التقشف ، واشتهر عنها تقديس الأولياء .

وفرق صوفية كثيرة أو قل طرق صوفية كثيرة أخذت تتفرع عن الرفاعية والقادرية بجانب طرق جديدة نشأت بدورها ، وكان لهذه الطرق وأتباعها من الدراويش السانحين أو الجوالين أثر بعيد في نشر الإسلام بشرقي إفريقيا وغربها ووسطها ، وأيضاً بالهند والملايو وجزر الهند الشرقية ، وكان لهم دور عظيم في أن تظل للعالم الإسلامي وحدته على الرغم من توزيعه بين دول شتى ، وكذلك كان لهم دور عظيم في بث الروح الدينية في نفوس العامة على مر الحقب حتى اليوم .

الفصل الثاني

الثقافة

١

الحركة العلمية

ظلت الحركة العلمية ناشطة وخاصة في أوائل العصر وقبل الغزو التتارى ، فكانت هناك الكتاتيب للصُّبية يتعلمون فيها القراءة وشيئاً من القرآن الكريم والشعر والحساب ، وكان الصبي لا يبلغ التاسعة إلا وقد حفظ القرآن واستظهر بعض مقامات بديع الزمان الهمداني ، وحلت محلها منذ أوائل القرن الخامس مقامات الحريري . وكان يستظهر أيضاً بعض قصائد الشعراء المشهورين وخاصة أبا تمام والبحترى والمتنبي . وكان الناشئة يتحولون من الكتاتيب إلى المساجد ، حيث حلقات العلماء من القراء والمفسرين والمحدثين والفقهاء والمتكلمين واللغويين والنحويين والمؤرخين ومن يشدون بعض علوم الأوائل ، فكانت المساجد في بغداد تحل محل التعليم الثانوى والجامعات في عصرنا ، وبالمثل في البصرة والموصل وغيرها من بلدان العراق . وكان الأستاذ عادة يستند في المسجد إلى أسطوانة ، ويقعد الطلاب من حوله ، وقد يجلس على مقعد عالٍ والطلاب يستديرون حوله . وكان يلى على الطلاب محاضراته ، وهم يكتبون ، وإذا تكاثروا اتخذ مستملياً يردّد كلامه حتى تسمعه الصفوف الخلفية . وكان المؤلف أو المحاضر يعيد أحيانا ما ألفه على طلابه ، وهم يعارضون نسخهم على قراءته . وقد يعنُّ له أن يدخل في القراءة الثانية شيئاً من التصحيح أو التهذيب على ما صنّفه ، فكان الطلاب يدخلونه على نسخهم ، ومن خير ما يصور ذلك ما يُروى عن عالم لغوى يسمى أبا عمر المطرّز من أنه أملى كتابه الباقوت في اللغة على الطلاب بمسجد المنصور ببغداد سنة ٣٢٦ ثم عاد فقرأه على طلابه مضيفاً بعض التصحيحات والزيادات . وعاد مرة ثانية ، فأدخل عليه زيادات وتصحيحات جديدة ، واعتمد العرضة الأخيرة للكتاب سنة ٣٣١ - وبها نشره تلاميذه^(١) . وكان جامع

(١) الفهرست لابن النديم (طبع القاهرة) ص ١١٩

وراجع إنباه الرواة ١٧٥/٣ .

المنصور ببغداد يشبه جامعة كبيرة ، وكان كل أستاذ نابغ يتمنى أن تكون له فيه حلقة ، ويصور ذلك من بعض الوجوه ما يُروى عن الخطيب البغدادي حافظ بغداد - المتوفى سنة ٤٦٣ - من أنه حين حجَّ شرب من ماء زمزم ثلاث مرات ، وسأل الله ثلاث حاجات : الأولى أن يحدث بكتابه «تاريخ بغداد» والثانية أن يُعَلِّم على الطلاب بجامع المنصور ، والثالثة أن يُدْفَن إذا مات عند قبر بشر الحافي . وتحققت له الأمنيات الثلاث^(١) . وكان الأساتذة والشيوخ في المساجد أحيانا لا يُملون مؤلفات لهم ، بل يشرحون بعض كتب مشهورة للطلاب وقد يعمدون إلى إملاء شروح لهم على بعض المختصرات . واتسع ذلك منذ القرن السابع الهجري بحيث نستطيع أن نسمى القرون التالية في العصور قرون الشروح ، وقد تُشرح الشروح بما يسمى حاشية ، وقد توضع على الحواشي ملاحظات تسمى تقارير .

وأخذت تظهر منذ أواخر القرن الرابع الهجري بجانب المساجد دور للعلم ، عادة يكون فيها مقاعد للطلاب ، وقد يحاضرهم العلماء ، وتُلقَى بها مكتبات ضخمة على نحو ما يحدثنا المؤرخون عن دار للعلم ، أسسها الوزير سابور بن أردشير في سنة ٣٨٣ للهجرة بالكرك غربي بغداد ، ووقفها على العلماء واشترى لها كتباً كثيرة ، بلغت عشرة آلاف وأربعمائة مجلد كان معظمها بخط أصحابها أو من الكتب الموثقة التي كان يملكها علماء وثقات مشهورون ، وكان بها مائة مصحف نفيس^(٢) . وأسس الشريف الرضي الشاعر المشهور نقيب العلويين المتوفى ببغداد سنة ٤٠٦ داراً للعلم فتحتها للطلاب ورصد لهم جميع ما يحتاجون إليه^(٣) .

وحين خلفت الدولة السلجوقية دولة بني بويه وأصبح الوزير نظام الملك مدبر الحكم في زمن ألب أرسلان السلجوقي عُني ببناء طائفة من المدارس في بلدان مختلفة في العراق وإيران ، لمحاربة النحلة الإسماعيلية ونشر مذهب الشافعي في الفقه ومذهب الأشعرى في علم الكلام ، وكان منها ثلاث بناها في بغداد والموصل والبصرة^(٤) وقف عليها أوقافاً كثيرة ، وبني فيها للأساتذة مساكن ، وجعل لهم رواتب ثابتة ، كما جعل لطلابها نفقات معيشة ، وألحق بها مكتبات نفيسة . وكان في هذه المدارس أساتذة مختلفون يحاضرون - بجانب

مشهورة له وانظر شروح سقط الرند ص ١٢٣٩ .

(٣) ديوان الشريف الرضي طبعة سنة ١٣٠٧ بيروت

ص ٣ .

(٤) طبقات الشافعية للسبكي ٣١٣/٤ .

(١) طبقات الشافعية للسبكي (الطبعة الثانية بتحقيق

عبد الفتاح الحلو ومحمود الطناحي) ٣٥/٤ .

(٢) المنتظم وابن الأثير والنجوم الزاهرة في حوادث

سنة ٣٨٣ وأشار أبو العلاء إلى هذه الدار في قصيدة

أساتذة علم الكلام والفقه - في علوم الحديث والتفسير واللغة والرياضيات والأدب . وأخذ الوزراء بعد نظام الملك يبنون مدارس على غرار مدرسته النظامية ببغداد ، فبنى أبو الغنائم الملقب بتاج الملك سنة ٤٨٠ بباب أبرز إحدى محالِّ بغداد وأحيائها مدرسة سميت التاجية ضاهى بها النظامية^(١) ، وأخذ بعض المؤسسين يعنون ببناء المدارس ببغداد ، فابتنى المستوفى الخوارزمي - وكان متعصبا لأبي حنيفة - المدرسة الكبيرة بباب الطاق^(٢) وأخذت المدارس تتكاثر في بغداد حتى إذا زارها ابن جبير سنة ٥٨٠ قال إن ببغداد ثلاثين مدرسة ، وكلها بالجانب الشرق «وما منها مدرسة إلا ويقصر القصر البديع عنها ، وأعظمها وأشهرها النظامية وهي التي ابتناها نظام الملك وقد جُدِّدت سنة أربع وخمسمائة ، ولهذه المدارس أوقاف عظيمة محبوسة تصير إلى الفقهاء المدرسين بها ، ويُجرون منها على الطلبة ما يقوم بهم . ولهذه البلاد في أمر هذه المدارس والمؤسسات شرف عظيم وفخر مخلد ، فرحم الله واضعها الأول ، ورحم من تبع ذلك السنن الصالح^(٣) »

وكانت المدرسة النظامية أشبه بجامعة كبيرة ، ويتوقف ابن خلكان في وفيات الأعيان وكذلك المؤرخون مرارا ، ليقولوا إن هذا الشيخ أو ذاك دَرَسَ في النظامية . وقل مثل ذلك في نظامية البصرة ونظامية الموصل . وذكر ابن خلكان أنه بُني بجوار النظامية الأخيرة في الموصل تسع مدارس ، هي : القاهرة والأتابكية والعتيقة والنورية والعزّية والبُقْشِيَّة والعلائية والكمالية والبدرية^(٤) . وبُنيت مدارس كثيرة في المدن العراقية الأخرى ، ذكر ابن خلكان منها في إربل ثلاثا هي المظفرية والقلعة والعقيلية^(٥) . وبني الخليفة المستنصر ببغداد جامعة كبيرة أو قل مدرسة كبيرة ، هي المستنصرية ، وقد كتب فيها الأستاذ ناجي معروف كتابا ، عرض فيه أساتذتها ونشاطها العلمي وهو يعطينا معارف كثيرة عنها حين فتحت أبوابها للطلاب ، وقد كان بها للفقهاء وحده عشرون فقيها ، يتقاضى كل منهم اثني عشر دينارا في كل شهر ، وكان بها للفقهاء ستة معيدين لكل منهم ثلاثة دنانير شهريا . وكان هناك فروع أخرى للقراءات والحديث لها شيوخها ومعيدوها ، وكان بها مئات من الطلاب لكل منهم ديناران شهريا . وكان لها موظفون مختلفون من مشرفين وخزّنة وفراشين من كل لون . وكانت تقدّم للشيوخ والطلاب يوميا جرايات أو قل كان يقدم لهم طعام كامل غير

(١) النجوم الزاهرة ١٢٥/٥ .

(٢) النجوم الزاهرة ١٦٧/٥ .

(٣) رحلة ابن جبير ص ٢٢٩ .

(٤) انظر ابن خلكان ١٠٨/١ ، ١٩٣ ، ٤/٤ ،

٣١٣ ، ٣١١/٥ ، ٢٥٣ .

(٥) ابن خلكان ١٠٨/١ ، ٨٧/٧ ، ٣٣٨ .

ما يقدم للطلاب من الخبر والورق والأقلام^(١). وعاد إلى هذه المدرسة، أو قل الجامعة، نشاطها بعد الغزو التتارى، وقد وصفها ابن بطوطة لما زارها سنة ٧٢٧ بقوله: «بها المذاهب الأربعة» - يقصد مذاهب المالكية والحنفية والشافعية والحنبلية - ولكل مذهب إيوان فيه المسجد وموضع التدريس وجلس المدرس في قبة خشب صغيرة على كرسى عليه البسط، ويقعد المدرس وعليه السكينة والوقار، لابساً ثياب السواد، معتماً، وعلى يمينه ويساره معيدان يعيدان كل ما يمليه. وهكذا ترتيب كل مجلس من هذه المجالس الأربعة، وفي داخل هذه المدرسة الحمام للطلبة ودار الوضوء^(٢).

ويبدو أن ما شاع من أن الحركة العلمية في بغداد خمدت خموداً تاماً بعد الغزو التتارى غير صحيح، يمكن أن يصدق ذلك على العهد التتارى الوثنى أما منذ دخول غازان والتتار في الإسلام فيبدو أن بغداد استعادت نشاطها العلمى، وإن لم يبلغ مبلغه أيام ازدهارها في العصر العباسى والمعروف أن هولاكو دمر كثيراً من مدارسها وقد أعيد بناء بعض هذه المدارس، وعُني غازان - كما أشرنا - وخلفاؤه الإيلخانيون بها.

ولاشك في أنه ران على الحركة العلمية غير قليل من الظلام في العهدين التركمانى والعثمانى، غير أن النشاط أخذ يدب فيها أواخر الحقبة العثمانية منذ ولى العراق مدحت باشا فإنه أسس بها مطبعة كان لها أثر بعيد في نهضة العراق وأسس بها أيضاً مدارس نظرية وفنية.

ولابد أن نلاحظ أن مساجد بغداد الكبرى ظل لها نشاطها العلمى بعد الغزو التتارى، وكان من أهمها لعهد ابن بطوطة جامع الخليفة المتصل بقصور الخلفاء، ويقول إنه سمع فيه على مُسند العراق - سراج الدين أبى حفص عمر القزوينى - جميع مسند الدرهمى^(٣). وكانت الدراسة في مساجد بغداد ومدارسها بالجمان، بل كان الطلاب في المدارس خاصة يأخذون رواتب كما مربنا. وربما كانت المساجد أهم من المدارس في نشر العلم، فقد كانت أبوابها مفتوحة دائماً لكل قاصد، وكان الناس من مختلف المهن والصناعات والحرف يختلفون إلى حلقات الشيوخ فيها ينهلون ما شاء لهم أن ينهلوا، مما جعل العلم بحق شعبياً لجميع أفراد الشعب، يصيبون منه ما يوافق أمزجتهم وميولهم. وكثيراً ما كان يحدث أن يشعر صاحب مهنة أو تجارة بقصوره في علم من العلوم، فإذا هو يترك مهنته أو تجارته ويتفرغ للعلم الذى يريده حتى يصبح من أقطابه، وتلقانا من ذلك أخبار كثيرة في ابن خلكان وغيره.

(١) انظر تاريخ علماء المستنصرية لتاجى معروف

(٢) ابن بطوطة ١/ ١٤١.

(٣) ابن بطوطة ١/ ١٤٢.

٥٧/١، ٧١-٨٢ وفي مواضع متفرقة.

وعلى هذا النحو لم يكن العلم في بغداد احتكاراً لطبقة بعينها ، بل كان مباحاً لجميع الناس ، وبخيل إلى الإنسان كأنما كان كل أهل بغداد على حظ من العلم والثقافة قليل أو كثير ، ومن خير ما يصور ذلك قصة المزين الثرثار الطريفة في كتاب ألف ليلة وليلة ، فقد ذكر فيها أنه قال لشاب بغدادى في تضاعيف حديث وجهه إليه : « قدمن الله عليك بمزين منجم عالم بصناعة الكيمياء والسيماء والنحو والصرف واللغة وعلم المعاني والبيان وعلم المنطق والحساب والهيئة والهندسة والفقه والحديث والتفسير . . . وقد قرأت الكتب ودرستها ومارست الأمور وعرفتها ، وحفظت العلوم وأتقنتها ، وعلمت الصنعة (الكيمياء) وأحكمتها ، ودبرت جميع الأشياء وركبتها » . ولم تكن العامة من الرجال فقط هى التى تحسن هذه الثقافة وحدها ، فقد كانت تحسنها أيضا الجوارى على نحو ما تصور ذلك قصة الجارية تودد فى ألف ليلة وليلة وفيها تُناظر جلة العلماء فى مختلف العلوم والفنون وتُظهر براعة فائقة فى ليال كثيرة ماتزال فيها تحاور محاورات علمية بديعة . وكانت النساء تحضر مع الرجال مجالس العلماء ، وتحمل عنهم كثيراً من كتب الحديث ، وعنهن يحملها كثير من الحفاظ المشهورين ، على نحو ما هو معروف عن الخطيب البغدادي وحمله أو أخذه صحيح البخارى عن كريمة المروزية (١) .

وطبعي أن تنشط الوراقة فى هذا العصر الذى كان مكتظا بالعلوم والفنون من كل صنف وعلى كل لون ، وقد بلغ من ازدهار نسخ الكتب والأجور التى كانت تدفع للناسخ أن وجدنا بعض كبار العلماء والأدباء يتخذونه وسيلة لعيشه هو وأسرته ، مثل يحيى بن عدى المتفلسف المتوفى سنة ٣٦٤ و يروى عنه أنه كتب بخطه نسختين من تفسير الطبرى (٢) ، ومثل أبى حيان التوحيدى أكبر أدباء عصره ، فقد اشتهر بنسخ الكتب ودقته فى هذا النسخ ، مما جعل صاحب بن عباد يستخدمه لنفس الغاية (٣) . وكان للوراقين سوق معروفة فى بغداد تباع فيها الكتب ، وكانوا يقومون فى هذا العصر مقام أصحاب المطابع فى عصرنا ، إذ كانوا ينسخون الكتب أو يكلفون من ينسخها ويصححها ويحدها ، وكانت من الكثرة بحيث يصعب إحصاؤها والوقوف عليها فى كل فن . ومع ذلك فقد اضطلع ابن النديم المتوفى سنة ٣٨٥ بهذا العمل الخطير فى كتابه « الفهرست » وقد وزع فيه الكتب على جميع أنواع العلوم والفنون مترجماً لأصحابها ، ولم يترك كتاباً إلا ذكره ، وأفرد لكتب الفرس والهند واليونان صحفاً كثيرة . والكتاب طرفه من أروع الطرف ، وهو يوج

(٣) معجم الأدباء ٢٦/١٥ .

(١) السبكي ٣٠/٤ .

(٢) تاريخ الحكماء للقفطى (طبعة ليبزج) ص ٣٦١ .

بآلاف الكتب ، مما يدل بقوة على النهضة العلمية في هذا العصر .

وكان من آثار هذه النهضة أن كثُر عدد العلماء في كل علم وفن كثرة مفرطة ، أهلت فيما بعد لتأليف كتب في تراجم كل مجموعة على حدة ، فكتب للفقهاء وكتب للمفسرين وكتب للقراء وكتب للنحاة وكتب للأطباء إلى غير ذلك من الأصناف . ووضعت كتب عامة مثل معجم الأدباء ووفيات الأعيان لابن خلكان . ويخيل إلى الإنسان أنه لم يكن شخص في بغداد - مددا متطاولة من هذا العصر الذي امتدَّ قرونا متعاقبة - إلا وهو يلمُّ بعلم أوطائفة من العلوم . وكان هناك كثيرون يشبهون الصحفيين في عصرنا ، فهم يستطيعون أن يتحدثوا في كل موضوع ويناقشوا كل فكرة ، وهياً ذلك لندوات كثيرة كانت تُعقد أحيانا في قصور السلاطين والوزراء وعلية القوم ، وكثيرا ما دارت في هذه الندوات مناظرات خصبة ، على نحو ما نسمع عن مجلس عز الدولة بختيار وما أثير فيه من مناظرات في مسائل كلامية أو تتصل ببعض قراءات الذكر الحكيم^(١) . ولعل مجلسا لم تحتدم فيه المناظرات كما احتدمت في مجلس الوزير ابن سعدان المتوفى سنة ٣٧٥ وقد قصَّ علينا منها أطرافا كثيرة أبو حيان في كتابه «الإمتاع والمؤانسة» وكان هذا المجلس يضم بعض الشعراء وبعض المتفلسفة وبعض المترجمين وبعض المهندسين وبعض الأخلاقيين وبعض إخوان الصفا وبعض الكتاب والأدباء . كان مجلسا حافلا ، وكانت تُعرض فيه كل جوانب الثقافة من لغة وشعر وإلهيات وأفكار فلسفية وخلقية ، ويتحاور هؤلاء المفكرون في كل ذلك محاورات بديعة . وكانت تثار مناظرات كثيرة في المساجد بين الفقهاء بعضهم وبعض ، وكذلك بين المتكلمين واللغويين . وبلغ من اتساع المناظرات حينئذ أنهم نقلوها أحيانا إلى الأسواق ، فأبو حيان يعرض مناظرة طويلة ثارت في سوق الوراقين بين طائفة من المفكرين المتفلسفين وبين أحد إخوان الصفا المسمى المقدسي ، وكان موضوعها ما يزعمه المقدسي وزملاؤه من الصلة بين الفلسفة والدين^(٢) . ومن الندوات المشهورة في القرن الرابع ندوة أبي سليمان المنطقي السجستاني صاحب صوان الحكمة المتوفى بعد سنة تسعين وثلاثمائة وهو من تلامذة الفارابي وامتاز بعقل خصب نادر ، وقد سجل أبو حيان في كتابه «المقابسات» كثيرا مما كان يدور في ندوته من شعب الفكر في الإلهيات والطبيعات والنفس والروح والأخلاق . ونذهل حين نقرأ الحوار في المسائل الكثيرة التي كانت تدار في هذه الندوة وكذلك في ندوة ابن سعدان ، وكأننا بإزاء مصانع مستحدثة كانت تصنع الأفكار المتفلسفة صناعة غريبة

(١) مثالب الوزيرين لأبي حيان التوحيدي (طبع) (٢) الإمتاع والمؤانسة ٣/٢ وما بعدها .

عجبية ، مما أتاح بحق لبغداد أن تعظم منزلتها العلمية وأن يحج إليها العلماء وخاصة في أوائل هذا العصر ، يريدون أن يتزودوا منها زادا علميا رفيعا .

٢

علوم الأوائل : تفلسف ومشاركة

رأينا في كتاب العصر العباسي الثاني كيف ازدهرت الترجمة خاصة عن اليونانية ، وكيف تحوّل المترجمون من الترجمة الحرفية إلى ترجمة المعنى الكلى للفقر ترجمة أكثر دقة ، وكادوا لا يتركون كتابا يونانيا مهما في أصله اليوناني أو في ترجمته السريانية إلا نقلوه إلى العربية ، وكانت الدولة حينئذ تغدق على المترجمين إغداقا واسعا ، ومن يرجع إلى كتاب الفهرست لابن النديم أو أخبار الحكماء للقفطى أو طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة يبره كثرة ما نقلوه من المأثورات الإغريقية في الفلسفة والعلوم . ومنذ العصر العباسي الأول لا يكتفى النقلة بما يترجمون ، بل يضيفون إليه ، وكذلك يضيف إليه معهم من استوعبوا من الناطقين بالضاد علوم الأوائل إضافات لا تكاد تحصى في كل فروع الفلسفة والعلم على هدى ما قرءوه وجرّبوه بأنفسهم ونفذوا إليه بفطنهم . وقد افتتح العصر العباسي الثاني بعالم رياضى عظيم هو الخوارزمى مؤسس علم الجبر وبفيلسوف عربى هو الكندى . ومضت الترجمة في النشاط والازدهار ، ومضت معها الحركة العلمية والفلسفية تؤتى ثمارها حتى ظهر الفارابى الفيلسوف الكبير الملقب بالمعلم الثانى .

وتبلغ الحركة الفلسفية والعلمية أوجها في القرن الأول من هذا العصر قرن ابن سينا والبيرونى في إيران وابن الهيثم في العراق ، وقد ظلت الترجمة حية ناشطة فيه ، وانصبَّ عمل المترجمين حينئذ على تصحيح بعض الترجمات القديمة ومن أهمهم يحيى ^(١) بن عدى النضرانى يعقوبى المتوفى سنة ٣٦٤ وهو من تكريت على نهر دجلة ، تتلمذ على الفارابى ومثى بن يونس ، ويقول القفطى : «إليه انتهت رئاسة أهل المنطق في زمانه» ويذكر له كتاباً عدة ترجمها لأرسططاليس وشراحه اليونانيين ، ويقول أبو حيان التوحيدي «تخرج

(١) انظره في صوان الحكمة لأبى سليمان المنطقى (نشر دار مكتبة الحياة ببيروت) السجستاني (طبع طهران) ص ٣٢٧ والإمتاع والمؤانسة ص ٣١٧ والعلم عند العرب لألدومبيل (الترجمة العربية لأبى حيان التوحيدي (طبع القاهرة) ٢٧/١ والفهرست لابن النديم (الطبعة الثانية بالقاهرة) ص ٣٨٣ وأخبار الحكماء للقفطى (طبعة ليبزج) ص ٣٦١ وطبقات

عليه كثير من المترجمين والمفلسفة « مثل عيسى ^(١) بن علي بن عيسى المتوفى سنة ٣٩١ وكان حاذقاً في الترجمة قياً بعلم الأوائل ، ويقول القفطى : رأيت نسخته من السماع الطبيعى التى قرأها على يحيى بن عدى بشرح يحيى النحوى وهى فى غاية الجودة والحسن والتحقيق » . ومن تلامذة يحيى بن عدى عيسى ^(٢) بن زُرْعَة ، وكان نصرانياً يعقوبياً مثله توفى سنة ٣٩٨ يقول القفطى عنه : « أحد المتقدمين فى علم المنطق والفلسفة وأحد النقلة المجودين » ويشيد به أبو سليمان المنطقى السجستانى وينوه بما ينقله إلى العربية تنويعاً كبيراً ومن تلامذة يحيى بن عدى أيضاً أبو الخير الحسن ^(٣) بن سوار النصرانى المعروف بابن الحُجَّار البغدادى وقد نقل عدة مؤلفات يونانية من السريانية إلى العربية ، وكان متفلسفاً وطبيباً ومن علماء الطبيعة ، وكان فصيحاً متمكناً فى العربية ، وهناك مترجمون مختلفون سوى يحيى بن عدى وتلاميذه ، منهم من شطّط به الدار فى إيران ، ومنهم من نزل بغداد مثل نظيف ^(٤) الرومى الشيرازى القسّ ، وله ترجمة المقالة العاشرة لأقليدس ، وكان طبيباً حاذقاً .

ونخيل إلى الإنسان أنه لم تبق فى العراق وإيران مدينة إلا اهتمت بالفلسفة وعلوم الأوائل ، يدل على ذلك أكبر الدلالة ظهور إخوان الصفا فى البصرة أوائل هذا العصر ، وهى جماعة سرية متفلسفة ، دانت بالمذهب الإسماعيلى الشيعى ورأت أن تدعو له دعوة مستترة فى رسائل فلسفية وعلمية ، وهى عصابة - كما وصفها أبو حيان - تألفت بالعشرة وتصافت بالصدقة ، واجتمعت على القدّس والطهارة والنصيحة ، فوضعوا بينهم مذهباً زعموا أنهم قرّبوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله والمصير إلى جنّته ، وذلك أنهم قالوا : الشريعة قد دُنست بالجهالات واختلطت بالضلالات ، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة ، وذلك لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية ، وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال ، وصنفوا خمسين رسالة فى جميع أجزاء الفلسفة : علميها وعمليها ، وأفردوا لها فهرستا وسموها « رسائل إخوان الصفا

١٦٤ وابن أنى أصيبعة ص ٤٢٨ وبروكلمان ١٥٨/٤ .

(٤) انظره فى صوان الحكمة ص ٣٣٨ وفى الإمتاع

والمؤانسة ٣٧/١ والمقاييس لأبى حيان التوحيدى (طبع

بغداد) ص ٤٢٤ والفهرست ص ٣٨٥ وابن أنى أصيبعة

ص ٣٢٢ ويقول إنه كان ينقل من اليونانية إلى العربية

وراجع القفطى ص ٣٣٧ وبروكلمان ١٨٣/٤ .

(١) راجعه فى صوان الحكمة ص ٣٣٢ والإمتاع

والمؤانسة ٣٦/١ والقفطى ص ٢٤٤ .

(٢) انظره فى صوان الحكمة ص ٣٣٣ والإمتاع

والمؤانسة ٣٣/١ والفهرست ص ٣٨٣ والقفطى ص

٢٤٥ وابن أنى أصيبعة ص ٣١٨ وبروكلمان ١٢٢/٤ .

(٣) راجعه فى صوان الحكمة ص ٣٣٥ ، ٣٥٣ والإمتاع

والمؤانسة ٣٣/١ والفهرست ص ٤٨٤ والقفطى ص

وخلان الوفا ، وكتبوا أسماءهم وبثوها في الوراقين^(١) . ويسمى أبو حيان طائفة من مؤلفي هذه الرسائل هم زيد بن رفاعه وأبو سليمان المقدسي وأبو الحسن علي بن هرون الريماني وأبو أحمد المهرجاني والعمري ، ويشير إلى أنه شركهم آخرون غيرهم^(٢) . ويبدو أن هؤلاء المتفلسفة الكثيرين كانوا يُعدُّون مادة هذه الرسائل وأن أبا سليمان المقدسي هو الذي أخرجها وأعطاهها صورتها النهائية ، ولذلك ينسبها إليه معاصره أبو سليمان المنطقي السجستاني أكبر متفلسفة بغداد حينئذ ، إذ يقول عنه : « له الرسائل الإحدى والخمسون المسماة رسائل إخوان الصفا^(٣) » . والمظنون أنه أضيف إليها فيما بعد رسالة ، فأصبحت اثنتين وخمسين رسالة ، منها ١٤ رسالة في الرياضيات والمنطق و١٧ في العلوم الطبيعية وعلم النفس و١٠ في الميتافيزيقا والإلهيات و١١ في التصوف والتنجيم والسحر . وهي مغموسة في الأفلاطونية ، وتشوبها نزعات أرسططاليسية وأفكار مانوية وإسماعيلية ، وتهبط درجات عن مستوى الفلسفة والعلم المعاصرين لها ، ولعل ذلك ما جعل أبا حيان يقول عنها إنها تُنفّ من كل فن بلا إشباع ولا كفاية ، وفيها خرافات وكتابات وتلفيقات وتلزيقات ، وقد عرَّ الصواب فيها لغلبة الخطأ عليها . ويقول إنه عرض منها عدة رسائل على شيخه أبي سليمان المنطقي السجستاني فنظر فيها أياما ، واختبرها طويلا ، وردّها عليه قائلا : « تعبوا وما أغنوا . . وحاموا وما وردوا » . ويردّ أبو سليمان على نظريتهم في وصل الدين أو الشريعة بالفلسفة ردا طويلا سنلخصه في الفصل الخامس ومن قوله : إن الدين وحى من السماء والفلسفة من عمل العقل ، ولا حاجة للدين بالفلسفة بكل فروعها من رياضيات وطبيعات ومنطق وموسيقى^(٤) .

على كل حال توضح لنا هذه الرسائل لإخوان الصفا كيف أن الثقافة الفلسفية كانت شائعة في كل الأوساط ، حتى لتلجأ جمعية سرية إسماعيلية لاتخاذها وسيلة لنشر مذهبها . وظن بعض المعاصرين حين رأوا في هذه الرسائل إنكاراً لفكرة الإمام المهدي المحتفي أن العصابة التي اجتمعت لتأليفها لم تكن شيعة وهو ظن مخطيء حقا يؤيد هذا الإنكار أنهم لم يكونوا إماميين يؤيدون فكرة الإمام المهدي المحتفي ، ولكنهم كانوا أكثر إيمالا في التشيع إذ كانوا يعتقدون المذهب الإسماعيلي ، يدل على ذلك مثل قولهم في أهل البيت : « هذه الولاية المخصوصة لأهل بيت الرسالة لا يحتاجون فيها إلى مدبرين غيرهم وإلى علماء سواهم ، ولا يطلع الناس على أسرارهم . . إن هو إلا علم إلهي وتزليل رباني ، تنزل به

(٣) صوان الحكمة ص ٣٦١ .

(٤) الإمتاع والمؤانسة ٦/٢ .

(١) الإمتاع والمؤانسة ٥/٢ .

(٢) الإمتاع والمؤانسة ٤/٢ .

ملائكة كرام كاتبون ، وحفظة حاسبون ، يُلقونه بأمر الله على من اصطفاه من خلقه وارتضاه لخلافته في أرضه»^(١) . والإسماعيلية معروفون بترتيب أتباعهم في طبقات ، ونرى أبا سليمان المنطقي السجستاني حين يقتبس نصًّا من الرسائل لأبي سليمان المقدسي يقتبس له النص الذي رتب فيه جماعتهم ، وقد جعلهم في أربع مراتب حسب أعمارهم وقواهم ، أما المرتبة الأولى فلمن بلغوا خمس عشرة سنة وهم أصحاب القوة العقلية والنفوس الصافية . المرتبة الثانية لمن بلغوا الثلاثين سنة وهم أصحاب القوة الحكيمة الرؤساء ذوو السياسة . المرتبة الثالثة لمن بلغوا الأربعين وهم أصحاب القوة الناموسية أولو الأمر والنهي . والمرتبة الرابعة لمن بلغوا خمسين سنة وهي مرتبة التسليم ومشاهدة الحق عيانا . ونراهم يطلبون إلى إخوانهم في كل قطر أن يعقدوا اجتماعات دورية يتذكرون فيها العلم وشئون الإخوان . وكل ذلك دليل على أنهم كانوا يريدون برسائلهم تنظيم الدعوة الإسماعيلية ، أما لماذا أخفوا أسماءهم فلأنهم كانوا يعيشون في العراق وسط أصحاب المذهب الإمامي الاثني عشري ، فخافوا على أنفسهم وخاصة أنهم هاجموا هذا المذهب الشيعي كما قدمنا . ومع ذلك فيبدو أنهم حاولوا نشر مذهبهم في بغداد ، إذ تحدثنا أبو حيان عن لقائه المتكرر لاحدهم ، وهو زيد بن رفاعه . وينقل مناقشة طويلة بين أبي سليمان المقدسي والحريزي في وصل إخوان الصفا بين الشريعة والدين . ويبدو أن استيلاء عضد الدولة على بغداد سنة ٣٦٧ هـ ألهم هذه الفرصة ، فقد كان يقرب القرامطة الإسماعيليين منه ، وكان يتخذ أحيانا لنفسه منهم وزيرا أو نائباً ، ويقول صاحب النجوم الزاهرة إنه كان يتشيع ويكرم جانب الرافضة^(٢) . على كل حال يبدو أن دعوة المقدسي وزيد بن رفاعه باءت بالإخفاق والخذلان في بغداد خذلانا إلى أقصى حد .

وتشير هـذه الرسائل - كما مر بنا - إلى أن الفلسفة وعلوم الأوائل كانتا من مدارك الطبقة العامة المثقفة في مطالع هذا العصر ، عصر الدول والإمارات ، وخاصة في بغداد . ولعل أكبر شخصية متفلسفة كانت بها حينئذ شخصية أبي سليمان^(٣) المنطقي السجستاني ، الذي نشأ بسجستان وشدا فيها علوم الأوائل ، ويبدو أنه أراد منها زادا أكبر ، فرحل إلى بغداد في شبابه ، ولزم يحيى بن عدي وأخذ عنه كل ما عنده ، وسرعان

(١) رسائل إخوان الصفا ١٠٣/٤ وما بعدها . وكذلك المقايسات ، وراجع ابن أبي أصيبعة ص ٤٢٧

(٢) النجوم الزاهرة ١٤٢/٤ . والفهرست ص ٣٨٣ وبروكلمان ص ١٥١ ومقدمة

(٣) انظر في أبي سليمان المنطقي القفطي ص ٢٨٢ عبد الرحمن بدوي لصوان الحكمة .

والإمتاع والمؤانسة في مواضع متفرقة (انظر الفهرست)

ما عُرِف فضله وتألّق نجمه ، وكان دميم الخلقه وبه وَضَحُ ظاهر فلزم داره ، وتحوّلت هذه الدار إلى متدى كبير يختلف إليه الفلاسفة والعلماء والمتقفون من حوله ، ينهلون من ينابيع فكره ما يمتعون به عقولهم ونفوسهم . وكانوا مختلفي المشارب ، فمنهم المسلم وغير المسلم ومنهم المتفلسف ، مثل الطبيب المجوسى المعروف بفيروز^(١) وأبى إسحق^(٢) الصائى الكاتب وابن زرعه^(٣) النصرانى ومثل أبى زكريا الصيمرى وأبى الفتح النوشجاني وأبى محمد العروضى المتفلسفين ، ومثل أبى القاسم عبيد الله بن الحسن المعروف بغلام زحل المنجم ، ومثل على بن عيسى الرمانى مفلسف النحو ومباحثه ومثل القومسى الكاتب والمقدسى صاحب رسائل إخوان الصفا وقد ترجم له أبو سليمان فى نهاية كتابه صوان الحكمة كما أشرنا إلى ذلك آتفا . يقول أبو حيان : « وكل واحد من هؤلاء إمام فى شأنه وفرد فى صناعته ، سوى طائفة دون هؤلاء فى الرتبة^(٤) » . وهذا المتدى الكبير ظل عشرات السنين تثار فيه مشاكل الميتافيزيقا والإلهيات والطبيعات والرياضيات والأخلاق والنفس والروح والجسم والعقل وعلم التنجيم والكهانة وأطراف من اللغة والبلاغة والأدب . ويُلقى كل فيلسوف بدلوه ، ثم يردُّ الرأى النهائى إلى أبى سليمان ، فيسمعه الجميع خاشعين مُكبرين ، ولبسانهم يقول له فيروز : « عَيْنُ الله عليك أيها السيد ، فوالله ما نجد شفاء لداء الجهل إلا عندك ، ولا نظفر بقوت النفس إلا على لسانك ، ولا نعلم يقينا أنا لا نحسن شيئا إلا إذا فاتحناك ، ولا يحمل ظننا بأنفسنا إلا إذا بعدنا عن مجلسك ، ولو كانت هذه الفائدة (يريد ما سمعه منه فى المسألة المطروحة) بعينها عندنا متى كنا نأتى بها على هذه الطلاوة والحسن ، أمتع الله الأرواح بروؤيتك ، والعقول بهدايتك^(٥) » . ولأبى حيان التوحيدى يدٌ لا تجحد ، لتسجيله ما كان يدور فى مجالس أبى سليمان من حوار يتناول كل وجوه الفكر والتفلسف فى عصره ، على نحو ما صنع فى كتابه النفيس « المقابسات » وهى تعنى مجالس أبى سليمان وما كان يُقْبَسُ منها من أضواء المعرفة . ويصرّح أبو حيان مراراً بعمله فيها وأنه هو الذى أخرجها فى صورتها المكتوبة^(٦) ، وينبغى أن لا نبالغ فى هذا التصور وخاصة بالقياس إلى أبى سليمان وإن قال إنه كان مصاباً « بلكنة ناشئة من العجمة^(٧) » واللكنة شىء والتعبير الفصيح شىء

(١) المقابسات (طبع بغداد) ص ٤٢٧ . الكتاب وفى الإمتاع والمؤانسة ليعرف بهم (انظر

(٢) المقابسات ص ٢٧٢ . فهرسها) .

(٣) المقابسات ص ٢٤٢ وهنا أيضا يذكر أن عيسى (٥) المقابسات ص ٤٢٩ .

(٦) انظر المقابستين : الثانية والرابعة . ابن على بن عيسى كان حاضراً .

(٤) المقابسات ص ٥٧ وقد توقف أبو حيان فى هذا (٧) الإمتاع والمؤانسة ٣٣/١ .

آخر ، ومرت بنا آنفاً كلمة فيروز الطيب ووصفه لما على كلامه من الطلاوة والحسن ، وقد نقل أبو حيان بعض المقابسات البديعة عن صوان الحكمة دون أن يخرج حرفاً من كلام أبي سليمان ! ^(١) . على أن بين المقابسات مقابسات لبعض المتفلسفة من ندوة أبي سليمان مثل عيسى بن علي بن عيسى وأبي الحسن العامري وغيرهما .

ومتدى ثان ببغداد لم يكن عاما مثل المتدى السابق ، فقد كان خاصا بوزير من وزراء الدولة البويهية وكان يعقده ليلا بداره ، هو ابن سعدان الذى وزر لصمصام الدولة فى سنة ٣٧٣ ولم يكده يدور عامان حتى قتله سنة ٣٧٥ . وكانا ستين غنيتين بالفكر والفلسفة والأدب ، إذ كان يختلف إلى ندوته صفوة من المتفلسفة المفكرين مثل ابن زُرعة النصرانى المتفلسف ومسكويه صاحب تهذيب الأخلاق وأبى الوفاء الرياضى الفلكى المهندس وبهرام بن أردشير المجوسى وابن عبيد وأبى بكر القومسى الكاتبين وابن الحجاج الشاعر وزيد بن رفاعة أحد إخوان الصفا وقرمطى يسمى ابن شاهويه ^(٢) . وكان ابن سعدان يباهى برفاقه ويفخر بهم على رفاق غيره من الوزراء قائلا : « والله ما لهذه الجماعة بالعراق شكل ولا نظير ، وإنهم لأعيان أهل الفضل وسادة ذوى العقل » ^(٣) . وكان أبو الوفاء قريبا من ابن سعدان فوصله بأبى حيان التوحيدى ، يعرض عليه ثمار الفكر والفلسفة فى عصره ، واستقبله ابن سعدان استقبالا حسنا ، وأخذ يُلقى عليه فى ليال متصلة أسئلة فى مختلف فروع الفكر واللغة والأدب ، ويتلقى من أبى حيان إجاباته ، ويتشقق الحوار والحديث فى مسائل فلسفية وإلهية وطبيعية وأخلاقية ونفسية وروحية وسياسية وأدبية ولغوية . وقد يحكى له مناظرة طويلة كمناظرة السيرافى ومتى بن يونس فى النحو والمنطق وقد مرت بنا فى كتاب العصر العباسى الثانى ، ويروى له أحيانا أخبار بعض المتصوفة ، ويذكر له بعض جوانب الحياة فى بغداد . وبحق يقول القفطى عن الكتاب إنه « كتاب تمتع على الحقيقة لمن له مشاركة فى فنون العلم فإنه خاض كل بحر وغاص فى كل لُجّة » ^(٤) . ولم يروِ أبو حيان فى الكتاب الذى يقع فى ثلاث مجلدات كبل اللبالي التى قضاهم محاورا مناقشا فى متدى ابن سعدان ، فقد اقتصر منها على سبع وثلاثين ليلة وزع عليها الكتاب وقد ألفه لأبى الوفاء المهندس ، ذكرى عزيزة لابن سعدان . وربما صنفه لأبى الوفاء فى

٣/٢ وراجع النجوم الزاهرة ١٢٥/٤ .

(٣) الصداقة والصديق ص ٨٣ .

(٤) القفطى ص ٢٨٣ .

(١) قارن المقايسة السابعة والثلاثين بصوان الحكمة ص ٣٣٣ وما بعدها .

(٢) انظر فى هؤلاء الجلساء الصداقة والصديق

لأبى حيان (طبع القاهرة) ص ٧٧ والإمتاع والمؤانسة

حياة صديقه ، ويبدو أنه كان قد كتب مسودات هذه الليالي ، حتى إذا رأى إهداءها
لأنى الوفاء عُنى أحياناً بتقوم بعض عباراتها مع شرح الغامض وصلة المحذوف وإتمام
المنقوص ، ومع سبكها بناصع اللفظ ^(١) وما عُرف من ميله فى كتابته إلى الأزواج .

وكان وراء هذين المتدينين الفيلسفين العلميين منتديات كثيرة فى دور العلماء والمفلسفة
مثل دار يحيى بن عدى وفى المكتبات الكبيرة مثل مكتبة سابور بن أردشير . ونذكر نفرا من
الرياضيين والفلكيين فى القرن الرابع الهجرى لندل على النهضة العلمية حينئذ ، وأول من
نقف عنده أبو القاسم على بن الحسن المعروف بابن الأعلم ^(٢) المتوفى سنة ٣٧٥ وكان عضد
الدولة يرعاه واشتهر بزيحه الذى ظل به العمل حتى زمن القفطى . وكان يعاصره
وَيَجَنَّ ^(٣) بن رُسْتَم الكوهى وكان رئيساً للمرصد الذى أسسه شرف الدولة البويهى فى
حديقة القصر ببغداد ، وقد أمره فى سنة ٣٧٨ برصد الكواكب السبعة وعاونه فى ذلك
فلكيون ورياضيون أهمهم أبو الوفاء ^(٤) محمد بن محمد بن يحيى البوزجاني صديق أبى حيان
التوحيدى الذى توفى سنة ٣٨٨ وفيه يقول ابن خلكان : أحد الأئمة
المشاهير فى علم الهندسة ، وله فيه استخراجات غريبة لم يسبق بها ، وكان شيخنا العلامة
كمال الدين أبو الفتح موسى بن يونس ، تغمده الله برحمته وهو القيم بهذا الفن ، يبالغ فى
وصف كتبه ويعتمد عليها فى أكثر مطالعاته ويحتج بما يقوله ، وكان عنده من تواليفه عدة
كتب وله فى استخراج الأوتار تصنيف جيد نافع . ويقول عنه ألدومبيل : « كان أحد
المرجمين العظام الأواخر من اليونانية ، وشارح أقليدس وديوفانتوس وبطليموس وهو
كذلك عالم أصيل رفيع المنزلة ، ويقرن اسمه على وجه الخصوص بتنمية حساب المثلثات ،
والمسائل الهندسية التى عالجها بخبرة جد كبيرة ، وكان له تأثير قوى فى الفلكيين المحدثين » .
وبالمثل كانت العلوم الطبيعية ناهضة ناشطة ، ولعل خير ما يصور ذلك ظهور أبى على
الحسن ^(٥) بن الهيثم البصرى المتوفى حوالى سنة ٤٣٢ للهجرة ، وقد ذكر له ابن أبى أصيبعة
ثلاثة وأربعين كتابا فى الفلسفة والعلم الطبيعى وخمسة وعشرين كتابا فى الرياضيات

(١) الإمتاع والمؤانسة ١/٢ .

(٢) انظر فى ابن الأعلم القفطى ص ٢٣٥ .

(٣) راجعه فى الفهرست ص ٤٠٩ والقفطى ص ٣٥١ .

(٤) و بروكلمان ٢١٩/٤ وألدومبيل ص ٢١٢ .

(٥) انظره فى الفهرست ص ٤٠٨ والقفطى ص ٢٨٧ .

وابن خلكان ١٦٧/٥ والواقى بالوفيات للصفدى .

١/٢٠٩ وتمة البيهقي ٧٦ وبروكلمان ٤/٢٢٢ وألدومبيل

ص ٢١١ ، ٢١٥ .

(٥) راجع فى ابن الهيثم القفطى ص ١٦٥ وابن

أبى أصيبعة ص ٥٥٠ وألدومبيل ص ٢٠٦ وما به من

مراجع وانظر كتاب ابن الهيثم لمصطفى نظيف ودائرة

المعارف الإسلامية وما بها من مراجع .

والهندسة ، وهو يُعدّ بحق من علماء الطبيعة العالميين ، يشهد له بذلك كتابه « المناظير » في البصريات وانعكاس الضوء والعدسات فقد ترك تأثيرا عميقا في كل من روجر بيكون ووايتلو عن طريق ترجمته قديما إلى اللاتينية ، واتسع تأثيره في كثيرين من علماء الغرب كما يحدثنا بذلك الإدوميلي . وسمع الخليفة الحاكم الفاطمي بذكائه وقدرته الهندسية وشاع عنه أنه يقول لو نزل مصر لوضع مشروعا ينظم المياه في النيل ، واستقدمه الحاكم ، غير أنه رأى صعوبة تطبيق مشروعه . ويقول ابن أبي أصيبعة : إنه لخص كثيرا من كتب أرسططاليس وشرحها وكثيرا من كتب جالينوس في الطب . وحين نزل مصر أقام بقبة على باب الجامع الأزهر . وكان يقتات من نسّخه سنوياً أقليدس والجسطنى ، ويضيف إليهما القفطى كتابا ثالثا ، ويقول إنه كان يبيعها جميعا بمائة وخمسين دينارا مصريا ، وصار ذلك كالرسم المعتاد له .

وكان الطب والعلوم الطبية بالمثل ناهضين ، وساعد على ذلك منذ العصر العباسي إنشاء البيمارستانات في بغداد ، ومن البيمارستانات المهمة التي أنشئت في القرن الرابع الهجرى البيمارستان العضدى نسبة إلى عضد الدولة ، أنشأه في الجانب الغربى لبغداد وأنفق عليه أموالا عظيمة ، ويقول ابن خلكان : « ليس في الدنيا مثل ترتيبه وبه من الآلات ما يقصر الشرح عن وصفه » ولما فرغ من بنائه سنة ٣٦٨ عيّن به أربعة وعشرين طبيا ربّهم فيه لمعالجة المرضى ، منهم نظيف القس الرومى وأبو الحسن بن كشكرايا وأبو الخير الجرائحى وأبو يعقوب الأهوازى وابن مندويه ^(١) .

وهذه النهضة العلمية الفلسفية في القرن الرابع اطردت في القرنين التاليين إذ يلقانا بهما متفلسفة ورياضيون وفلكيون وطبيعيون وأطباء مختلفون في كتابى القفطى وابن أبى أصيبعة ، نذكر منهم أبا الفرج عبد الله ^(٢) بن الطيب المتوفى سنة ٤٣٥ وفيه يقول القفطى « فيلسوف فاضل . . اعتنى بشرح الكتب القديمة في المنطق وأنواع الحكمة من تأليف أرسططاليس وبشرح كتب جالينوس في الطب ، ويقال إنه بقى عشرين سنة في تفسير ما بعد الطبيعة . وأهم تلاميذه ابن بطلان ^(٣) النصرانى المتوفى بعد سنة ٤٥٥ وكان حاذقا في الطب واشتهر برحلته إلى القاهرة حيث لقي الفيلسوف المصرى ابن رضوان ، ونشبت بينهما مناظرات حادة ، وأشهر مؤلفاته كتاب تقويم الصحة ، ولا يوجد منه إلا

(١) انظر القفطى ص ٣٣٧ ، ٤٠٣ ، ٤٠٧ ، (٣) القفطى ص ٢٩٤ وابن أبى أصيبعة ص ٣٢٥
٤٣٦ ، ٤٣٨ . وراجع ابن خلكان ٥٤/٤ . وألدوميلي ص ٢٤١ ، ٢٥٣ ودائرة المعارف الإسلامية .

(٢) القفطى ص ٢٢٣ .

ترجمة لاتينية وأخرى ألمانية في عصر النهضة . ومن الأطباء الناهين بعده أبو الحسن سعيد^(١) بن هبة الله طبيب الخليفين المقتدى والمستظهر ، وكان لا يزال على قيد الحياة في سنة ٤٨٩ ويظن أنه توفي سنة ٤٩٦ وقد اشتهر بكتاب كبير في الطب صنفه للمقتدى ، سماه المغنى في تدبير الأمراض وتعريف العلل والأعراض . وكان يعاصره يحيى بن عيسى^(٢) بن جرّلة المتوفى سنة ٤٧٣ وكان نصرانيا ثم اعتنق الإسلام ، وصنف كثيرا من الكتب باسم الخليفة المقتدى أهمها كتاب تقويم الأبدان في تدبير الإنسان ، وقد ترجم إلى اللاتينية ثم الألمانية ، ويشتمل على ٤٤ لوحة ، وبه وصف لنحو ٣٥٠ مرضا . وأنبه الأطباء في القرن السادس هبة^(٣) الله بن التلميذ النصراني المتوفى سنة ٥٦٠ وكان طبيب الخليفة المقتنى ، ويقول ألدومبيلي إن كتبه خالية من كل أصالة ، وهي صفة تشتمل أطباء العراق بعامته بعده . وليس معنى ذلك أن العناية قلت بالبيارستان وأطبائه ، فقد زار ابن جبير بغداد سنة ٥٨٠ وشاهد البيارستان ووصفه بقوله : إنه « على دجلة وتتفقدّه الأطباء كل يوم اثنين وخميس ويطلبون أحوال المرضى به ويرتبون لهم أخذ ما يحتاجون إليه ، وبين أيديهم قومة يتناولون طبخ الأدوية والأغذية ، وهو قصر كبير فيه المقاصير والبيوت وجميع مرافق المساكن الملوكية »^(٤) .

وتمضى الحركة العلمية والفلسفية في نشاطها بالعراق إلى أن يكتسحه قُطْعان المغول في منتصف القرن السابع الهجرى ، إذ قوّضوا صرحها في بغداد وغير بغداد ، وربما كان أنبه المشتغلين بعلوم الأوائل قبل هذا الانهيار الفظيع أثر الدين الأبهري^(٥) الموصلى المتوفى سنة ٦٦٣ وله مختصر في علم الهيئة ورسالة في الإسطرلاب وشرح لإيساغوجي وكتاب هداية الحكمة في المنطق والطبيعات والإلهيات . ويضعف الاشتغال بعلوم الأوائل أو يأخذ في الضعف ، ومن المؤكد أنه ظل ، ولكن لم تعد له نفس القوة القديمة ، ويلقانا من حين إلى آخر بعض المتفلسفين أو العلماء مثل أبي القاسم محمد بن أحمد السماوى^(٦) العراقى الذى عاش في النصف الثانى من القرن السابع الهجرى ، وله كتب كثيرة في الكيمياء أشهرها كتاب العلم المكتسب في زراعة الذهب ، ومن تلقى بهم في القرن التاسع الهجرى بدر

(١) راجع ابن أبى أصيبعة ص ٣٤٢ وألدومبيلي ص (٤) ابن جبير ص ٢٢٥ .

(٢) راجع فيه ابن خلكان ٣١٣/٥ في ترجمة كمال (٥) راجع فيه ابن خلكان ٣١٣/٥ في ترجمة كمال . ٢٥٤ ، ٢٤٢ .

(٣) ابن أبى أصيبعة ص ٣٤٣ والقفطى ٣٦٥ الدين بن يونس ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من .

وألدومبيلي ص ٢٤١ ، ٢٥٣ . مراجع ويروكلمان (في الطبعة الألمانية) ٤٦٤/١ .

(٤) ابن أبى أصيبعة ص ٣٤٩ والقفطى ص ٣٤٠ (٦) انظر ألدومبيلي ص ٣٠٨ .

وألدومبيلي ص ٣٢١ .

الدين محمد سبط المارذني^(١) المتوفى سنة ٨٩١ وله كتب مختلفة في الحساب والهندسة . وتأخذ المعرفة بعلوم الأوائل في الضعف مع الحقبة العثمانية إذ لم تعد هناك عناية بها ولا رعاية لها .

ولابد أن نقف قليلا عند مصنفاتهم في السياسة على هدى كتابات أفلاطون وأرسطو وما ترجمه ابن المقفع عن الفارسية هو وغيره من آداب الحكم والسياسة ، وقد افتتح ابن قتيبة كتابه عيون الأخبار بباب طويل عن السلطان والسياسة والحكم ، وتناول هذا الموضوع كثيرون بعده مثل الوزير المغربي أبي القاسم الحسين بن علي المتوفى سنة ٤١٨ فإنه ألف في السياسة رسالة طريفة . ومن خير الكتب التي ألقت في هذا الموضوع كتاب الأحكام السلطانية للمأوردى^(٢) أبي الحسن علي بن محمد البصري البغدادى المتوفى سنة ٤٥٠ للهجرة ، وكان فقيها شافعيًا ، وتولى القضاء في بلدان كثيرة بالعراق ، وهو في كتابه يصل بين السياسة والمسائل الشرعية في النظم الإسلامية ، وبذلك يصبح الكتاب في سياسة الحكم الإسلامى ، وهو يستهله بالحديث عن إمامة المسلمين ثم يتحدث عن تقليد الوزارة وقادة الجيوش المجاهدة في سبيل الله ، ويتحدث عن ولاية القضاء والمظالم والولاية على الصلاة والحج والصدقات وأحكام الفئء والغنيمة والجزية والخراج وأحكام الإقطاع والدواوين وبيت المال .

وقد نشط العراقيون لهذا العصر في الكتابات الجغرافية ، وأول من يلقانا منهم أبو إسحاق الفارسي الإصطخرى^(٣) الكرخی المتوفى حوالى منتصف القرن الرابع الهجرى ، ويبدو أنه عاش طويلاً في بغداد ، كما يدل على ذلك لقبه الكرخی ، وله كتاب جغرافى سماه « المسالك والممالك » تحدث فيه عن مملكة الإسلام وصور أقاليم الأرض ومدنها وبحارها وأنهارها وسُهوُبها وجبالها ، وقد نقل إلى كتابه صور الأقاليم التى بثها أبو زيد البلخى في كتابه المعروف بهذا الاسم ، ولابن حوقل البغدادى^(٤) معاصره كتاب باسم المسالك والممالك أيضاً هو تهذيب لكتاب الإصطخرى . وكان شيعياً إسماعيلياً ، واستغله الفاطميون في الدعوة لهم على ما يظهر وقد زار الأندلس وإفريقيا الشمالية وبلدان إيران وجزء من الهند .

- (١) راجع فيه بروكلمان (الطبعة الألمانية) ٣٥٧/٢ . (٣) انظره في إصطخر بمعجم ياقوت وفى دائرة المعارف الإسلامية . وتاريخ الأدب الجغرافى العربى . (٢) انظره فى ابن خلكان ٢٨٢/٣ و٢٨٢/٨ و١٩٩/٨ وطبقات الشافعية ٢٦٧/٥ وتاريخ بغداد ١٠٢/١٢ و١٠٢/١٢ . (٤) راجعه فى الدومبيل ص ٢٢٧ وفى دائرة المعارف الإسلامية . وفى كراتشكوفسكى ٢٠٠/١ .

وأهم جغرافي ظهر بالعراق لهذا العصر هو ياقوت الحموي البغدادي ^(١) المتوفى سنة ٦٢٦ وكتابه معجم البلدان أنفس كتب الجغرافية العربية ، وهو في ست مجلدات ضخام ، ونراه يذكر في مقدمته مصادره اليونانية والعربية وكاد أن لا يترك كتابا في المكتبة الجغرافية العربية إلا ذكر أنه اطلع عليه ونقل عنه ، ولم يكتف بتلك الكتب التي كَوَّن منها مادة كتابه ، فقد رجع إلى دواوين الشعراء ينقل عنها ، وألمَّ في كل بلدة بأهم من عاش فيها من العلماء والأدباء كتاباً وشعراء ، مما يضيف قيمة واسعة للكتاب إذ يصبح مصدرا من مصادر العلم والأدب ورجالها حتى عصره . وله أيضا في الجغرافيا كتاب ثان بعنوان « المشترك وضعاً المختلف صقعا » . ويمكن أن نلحق بكتب الجغرافية كتب الرحلات ، وربما كان أهمها كتاب الإفادة والاعتبار بما في مصر من الآثار لعبد اللطيف ^(٢) البغدادي المتوفى سنة ٦٢٩ وقد وصف فيه وصفا بديعا آثار مصر ، وصوّر كثيرا من شئونها الاجتماعية . وترجم الكتاب إلى اللاتينية ، كما تُرجم إلى الفرنسية ، وطُبع مرارا .

٣

علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد

تظل بغداد ومدن العراق ناشطة في المباحث اللغوية والنحوية والبلاغية والنقدية ، ومن الصعب أن نفصل بين اللغويين والنحويين ، وبالتالي أن نفصل بين مباحثهما ، إذ يكثر أن ينهض اللغوي بمباحث نحوية ، وبالمثل يكثر أن ينهض النحوي بمباحث لغوية . وبلغنا ابن ^(٣) دُرستويه المتوفى سنة ٣٤٧ معنيا بشرح فصيح ثعلب ، وبالمثل ابن نايقا والعكبري وغيرهما كثيرون ، ويضع له عبد اللطيف البغدادي بعدهما ذيلًا . وتكثر العناية بكتاب لغوي ثان ، هو إصلاح المنطق لابن السكيت ، فيضع السيرافي ^(٤) الحسن بن عبد الله

(١) انظره في النجوم الزاهرة ٢٨٣/٦ وشذرات الذهب ١٢١/٥ وابن خلكان ١٢٧/٦ ومروءة الجنان ٥٩/٤ وتاريخ الأدب الجغرافي العربي لكراتشكوفسكي ٣٣٥/١ .

(٢) ترجم له ابن أبي أصيبعة في طبقاته ص ٦٨٣ ترجمة ضافية نقلها عن كتاب له ، تحدث فيه عن سيرته ، وقد لخصته هذه السيرة في كتابنا الترجمة الشخصية طبع دار المعارف ص ٣٢ .

(٣) انظر ترجمته في تاريخ بغداد ٤٢٨/٩ وإنباه الرواة ١١٣/٢ وابن خلكان ٤٤/٣ .

(٤) راجعه في تاريخ بغداد ٣٤١/٧ ومعجم الأدباء ١٤٥/٨ وإنباه الرواة ٣١٣/١ ونزهة الألباء لابن الأتباري (طبعة أبي الفضل إبراهيم) ص ٣٠٧ والفهرست ص ٩٩ واللباب ٥٨٦/١ وشذرات الذهب ٦٥/٣ ومروءة الجنان ٣٩٠/٢ . وابن خلكان ٧٨/٢ .

المتوفى سنة ٣٦٨ شرحا لشواهد ، وتتوالى مختصرات هذا الكتاب وتهذيباته ، منها مختصر يسمى المختل لأبي القاسم الوزير المغربي المار ذكره ، ومنها تهذيب للخطيب التبريزي^(١) يحيى بن علي المتوفى سنة ٥٠٢ للهجرة .

ومن الكتب اللغوية المهمة كتاب التنبيهات على أغلاط الرواة لعل^(٢) بن حمزة البصري المتوفى بصقلية سنة ٣٧٥ ويشتهر بنزول المتنبي عليه حين قدم إلى بغداد من الكوفة ، وهو في كتابه يصحح الأغلاط التي وردت في طائفة من كتب لغوية مهمة ، هي نوادر أبي زياد الأعرابي ، ونوادر أبي عمرو الشيباني ، وكتاب النبات لأبي حنيفة الدينوري ، وكتاب الكامل للمبرد ، وكتاب فصيح ثعلب ، وكتاب الغريب المصنف لأبي عبيد القاسم ابن سلام ، وكتاب إصلاح المنطق لابن السكيت ، وكتاب خلق الإنسان لأبي ثابت ، وكتاب المقصود والممدود لابن ولاد وقد ذكر مع نقده لهذا الكتاب ما أملاه المتنبي عليه من نقد بالفسطاط . وتكثر الكتابة في الأسماء المقصورة والممدودة ، منذ ابن دستورية وابن جني في القرن الرابع .

وتتكاثر شروح الشعر والنثر في العصر منذ أوائله ، وشرح ابن جني لديوان المتنبي مشهور وقد سماه الفسر ، ويعد التبريزي المذكور آنفاً - وكان يدرس الأدب في المدرسة النظامية - من أكثر شراح الشعر آثارا ، وله شروح مطولة على مجموعة القصائد المسماة بالمفضليات للمفضل الضبي ، وعلى المعلقات أو القصائد العشر ، وعلى حاسة أبي تمام وديوانه وعلى سقط الزند لأبي العلاء المعري . وله شروح موجزة على لامية العرب للشنفرى ، وقصيدة «بانت سعاد» لكعب بن زهير ، ومقصورة ابن دريد . وإذا كان التبريزي وضع شرحا مطولا لديوان أبي تمام فإن العكبري أبا البقاء في القرن السادس الهجري وضع شرحا مطولا بدوره للمتنبي . وعنى ابن المستوفى الإربلي^(٣) المتوفى سنة ٦٣٧ بوضع شرح مطول لديوان أبي تمام والمتنبي سماه النظام في شرح شعر المتنبي وأبي تمام في عشر مجلدات . ومنذ وضع الحريري مقاماته أخذت شروحها تتكاثر . ومن شروحها في القرن السادس بالعراق شرح القاسم^(٤) بن القاسم الواسطي ، وشرح العكبري النحوى شارح المتنبي ، ولابن

- (١) انظره في معجم الأدباء ٢٨٦/٧ وبغية الوعاة والأنساب للسمعاني الورقة ١٠٣ ونزهة الألباء ص ٣٧٢ والمتنظم ١٦١/٩ ومروءة الجنان ١٧٣/٣ والشذرات ٥/٤ وابن خلكان ١٩١/٦ ودمية القصر ٢٣٧/١ .
(٢) راجعه في بغية الوعاة ومعجم الأدباء ٢٠٨/١٣ .
(٣) انظره في ابن خلكان ١٤٧/٤ وبغية الوعاة والشذرات ١٨٦/٥ . وعبر الذهبي ١٥٥/٥ .
(٤) راجعه في إنباء الرواة ٣١/٣ وقد ذكر القفطى أنه صف شرحين للمقامات وأن له شرحاً لديوان المتنبي اختاره من شرح الواحدى وأضاف إليه من كتاب المتصف لابن وكيع .

الخشاب^(١) البغدادى المتوفى سنة ٥٦٧ مبحث لغوى فى أغلاط الحريرى فى مقاماته ورد عليه ابن برى العالم المصرى اللغوى المتوفى سنة ٥٨٢ مبحث لغوى دقيق انتصر فيه للحريرى ، والمبحثان ملحقان بطبعة مقامات الحريرى نشر مكتبة ومطبعة الحلبي بالقاهرة ومنذ جمع الشريف الرضى خطب الإمام على بن أبى طالب وأخرجها باسم نهج البلاغة أخذ كثيرون يعنون بشرحها ، حتى بلغوا نحو أربعين شارحاً وربما كان شرح ابن أبى الحديد المتوفى سنة ٦٥٦ أكبر هذه الشروح وهو مطبوع ، ولابن الساعى^(٢) على بن أنجب المتوفى سنة ٦٧٤ شرح على نهج البلاغة وشرح لفصيح ثعلب ، وثلاثة شروح لمقامات الحريرى : كبير ومتوسط وصغير ، والمتوسط فى خمس مجلدات . وقد عني محمود^(٣) بن أحمد الزنجاني المتوفى سنة ٦٥٦ بوضع مختصر لصحاح الجوهري سماه «ترويح الأرواح فى تهذيب الصحاح» . ومنذ السيراني تكثر الشروح لشواهد الشعر فى كتب النحو على غرار كتابه فى شرح شواهد سيبويه ، بل إننا نجد عبد القادر^(٤) البغدادى المتوفى سنة ١٠٩٣ يحول شرحه لشواهد كتاب الكافية لابن الحاجب إلى موسوعة لغوية تاريخية ، وبحق سماه «خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب» وقد ذكر فى مقدمته مصادره من شروح الشواهد واللغة وأشعار العرب . ومما ذكره من كتب اللغة : الجمهرة لابن دريد ، والصحاح للجوهري والعباب للصاغاني والقاموس المحيط للفيروزابادى واليواقيت للمطرز وكتاب ليس لابن خالويه ، والنهاية لابن الأثير والزاهر لابن الأنبارى وكتاب النبات لأبى حنيفة الدينورى وإصلاح المنطق لابن السكيت وتهذيبه وشروحها وفصيح ثعلب وذيله وشروحه وأدب الكاتب لابن قتيبة وشروحه والأضداد لغبر مؤلف والفروق لأبى هلال العسكري وخلق الإنسان للزجاج والمعرّب للجوالقي والمثلثات لابن السيد البطليوسى والمرصع لابن الأثير والمزهر للسيوطى .

وإنما سقنا هذه الكتب اللغوية ، لندل على أن ما كان يكتب فى اللغة بأى بلدة من البلدان كان ينقل إلى بغداد وغيرها من الحواضر ، فالعالم العربى واحد ، وكل ما ينتجه بلد

- (١) انظره فى معجم الأدباء ٤٧/١٢ وإنباه الرواة (٣) انظره فى الحوادث الجامعة لابن الفوطى (طبع ٩٩/٢ وبغية الوعاة والمنظم ٢٣٨/١٠ والنجوم الزاهرة ٢٣٧ ص (بغداد) وطبقات الشافعية للسبكي ٣٦٨/٨ والنجوم الزاهرة ٦٨/٧ وتاريخ علماء المستنصرية لناجى ١٠٢/٣ .
- (٢) انظر فيه تذكرة الحفاظ ٢٥٠/٤ وشذرات الذهب معروف .
- (٣) انظره فى خلاصة الأثر للمحبي ٤٥١/٢ ودائرة المعارف (طبع دار المعارف) وما ذكره من مصادر .
- (٤) انظره فى خلاصة الأثر للمحبي ٤٥١/٢ ودائرة المعارف الإسلامية فى كلمة البغدادى .

في علم من العلوم تتناقله البلدان الأخرى ، وهؤلاء الذين رجع إليهم عبد القادر البغدادي منهم من عاش في أقصى الشرق من العالم العربي ، ومنهم من عاش في أقصى الغرب منه أو في أواسطه ، ولذلك يكون من الخطأ أن نعد إنتاج أي بلد إنتاجا مستقلا هو مدار الحكم عليه ، فقد كان يُموج بإنتاج البلدان الأخرى في كل علم وكل فن ، وتظل شروح الشعر ناشطة لا الشروح الماثورة فقط ، بل تضاف إليها شروح كثيرة ، ولعله لم تظهر قصيدة مهمة دون أن تُشرح شروحا عدة ، نذكر من ذلك رَشَف الضَّرْب في شرح لامية العرب للشيخ عبد الله ^(١) السويدي المتوفى سنة ١١٧٤ للهجرة وشرح بانث سعاد للسيد ^(٢) عبد الله الفخري المتوفى سنة ١١٨٨ . وهناك شروح لعلماء مختلفين شرحوا قصائد عاصرتهم أو شرحوا قصائد لابن الفارض . وعنى الشيخ حسن ^(٣) القفطان المتوفى سنة ١٢٧٥ بوضع تعليقات على القاموس والمصباح في رسائل مختلفة ، ولشهاب الدين الألوسي ^(٤) المتوفى سنة ١٢٧٠ شرح على درة الغواص للحريري باسم كشف الطُّرَّة عن الغرة وللشيخ إبراهيم ^(٥) الحيدري المتوفى سنة ١٣٠٠ شروح مختلفة على ديوان أبي تمام ومقامات الحريري وسقط الزند لأبي العلاء . وكأن النشاط اللغوي لم يتوقف بالعراق في حقبة من حقب هذا العصر حتى أواخره وقد عنى العلماء بجانب بحثهم في لغة الفصحى أن يحيطوها بأسوار من الصحة ، حتى ينقوها من أوضار العامية التي أخذت تنتشر بقوة منذ مطالع العصر ، ونجد القاضي أبا الحسن عليا المؤيدي يضع سنة ٤٢٠ كتاباً في الأمثال البغدادية العامية ^(٦) وأهم من ذلك كتاب الحريري : « دُرَّة الغواص في أوهام الخواص » وهو في أغلاط المثقفين ، ووضع له أبو منصور موهوب بن أحمد الجوالقي ^(٧) المتوفى سنة ٥٣٩ تكملة أو تمة سماها « التكملة فيما تلحن فيه العامة » . وأهم من هذا الصنيع كتابه « المعرب »

- (١) راجعه في المسك الأذفر في نشر مزايا القرن الثاني عشر والثالث عشر لمحمود شكرى الألوسي (طبع بغداد) ص ٦٠ .
 (٢) راجعه في تاريخ الأدب العربي في العراق للعزاوي ٣٨/٢ .
 (٣) العزاوي ٥٧/٢ وماضي النجف وحاضرها ج ٣ ص ١٠٩ .
 (٤) انظر في الشهاب أعلام العراق لمحمد بهجت الأثرى والآداب العربية في القرن التاسع عشر لشيخو ٨٩/١ ونهضة العراق لمحمد مهدي البصير ٢١٩ ومقدمة تفسيره .
 (٥) العزاوي ٥٨/٢ .
 (٦) انظر تاريخ الأدب العربي لبروكلمان (الترجمة العربية) ١٦٠/٥ وقد نشر ماسينيون كتابه في القاهرة سنة ١٩١١ .
 (٧) انظر ترجمته في إنباه الرواة ٣٣٥/٣ ومعجم الأدياء ٢٠٥/٥ والأنساب الورقة ١٣٩ واللباب ٢٤٤/١ وابن خلكان ٣٤٢/٥ ومرآة الجنان ٢٧١/٣ وبغية الوعاة وشذرات الذهب ١٢٧/٤ .

وهو معجم نفيس للألفاظ الأعجمية الدخيلة على العربية ، ولم يؤلف في موضوعه أكبر منه ، وفيه يقول ابن خلكان : إنه من مفاخر بغداد .

وكانوا يعنون من حين إلى حين بجمع مختارات شعرية ، ولابن الشجرى ^(١) هبة الله بن على المتوفى سنة ٤٥٠ كتاب سماه الحماسة ضاهى به حماسة أبى تمام ، وهو مطبوع فى حيدر آباد ، وله كتاب الأملى وهو أيضاً مطبوع فى حيدر آباد ، وهو أكثر تأليفه إفادة ، ويقول ابن خلكان إنه من الكتب الممتعة لروعة أشعاره المختارة . ومن كتب المختارات الشعرية كتاب منتهى الطلب من أشعار العرب لمحمد بن المبارك بن ميمون ^(٢) ، وهو مجموعة كبيرة من قصائد الجاهليين والإسلاميين ، وقد جمعه أو صنفه ببغداد سنة ٥٨٩ وهو فى الستين من عمره ، ومنه بعض مجلدات بدار الكتب المصرية . وصنف على بن أبى الفرج البصرى فى القرن السابع الهجرى الحماسة البصرية ، وقد حُققت وأُعدت للطبع . .

ولعل نشاط بغداد فى النحول هذا العصر كان أكبر من نشاطها فى اللغة ، فقد استحدثت فيه المذهب النحوى البغدادى على نحو ما صورنا ذلك فى كتابنا المدارس النحوية ، وهو مذهب كان أصحابه ينتخبون من المذهبين البصرى والكوفى آراءهم ، ويضيفون إلى ما ينتخبون آراء جديدة ينفذون إليها . وأهم نحوى بغدادى تلقاه فى القرن الرابع الهجرى هو ابن جنى ^(٣) المتوفى سنة ٣٩٢ وكان اهتمامه بعلم الصرف عظيماً ، فصنع فيه شرحاً نفيساً لكتاب التصريف للمازنى سماه المنصف ، وهو فى ثلاثة أجزاء ، شرح فيه مادة الكتاب شرحاً وافياً ، وأضاف إليها كثيراً من ملاحظاته كملاحظته أن الأفعال تشتق من أسماء الأعيان ومن الحروف . وله سر صناعة الإعراب وهو دراسة صوتية واسعة لحروف المعجم ومخارجها وأصواتها ، وله أيضاً فى الصرف كتاب التصريف الملوكى ، وأهم كتبه فيه كتاب الخصائص ، وهو مطبوع فى ثلاثة أجزاء ، وفيه وضع للصرف قضاياها الكلية ، وذكر فيه ما أسماه الاشتقاق الأكبر وهو يقوم على فكرة خاصة ، هى أن كل كلمة ومقلوباتها تشترك فى معنى واحد ، فكلمة قول . ومقلوباتها : قلو ، ووقل ، وولق ، ولوق ، وولوق ، جميعها تفيد أوتعنى الخفة والحركة . وبجانب وضعه لأصول علم الصرف نراه فى النحو يختار من الآراء البصرية والكوفية جميعاً ، ويضيف باجتهاده آراء جديدة ، وكان يكثر من متابعتها لأستاذه

- (١) نظره فى نزهة الألباء ص ٤٠٤ ومعجم الأدباء (٣) انظر فى ترجمة ابن جنى نزهة الألباء ص ٣٣٢
 ٢٨٢/١٩ وإنباه الرواة ٣/٣٥٦ وبغية الوعاة وابن خلكان ٤٥/٦ ورواة الجنان ٣/٢٧٥ وشذرات الذهب ٤/١٣٢ .
 ١٩/٢٨٢ وإنباه الرواة ٣/٣٥٦ وبغية الوعاة وابن خلكان ٤٥/٦ ورواة الجنان ٣/٢٧٥ وشذرات الذهب ٤/١٣٢ .
 (٢) انظر بركلمان ٥/١٦٩ .
 (٣) انظر فى ترجمة ابن جنى نزهة الألباء ص ٣٣٢ وتاريخ بغداد ١١/٣١١ ومعجم الأدباء ١٢/٨١ وإنباه الرواة ٢/٣٣٥ وابن خلكان ٣/٢٤٦ وبغية الوعاة ١/١٠٨ ورواة الجنان ٢/٤٤٥ والشذرات ٣/١٤٠ وروضات الجنات ص ٤٦٦ وكتابنا المدارس النحوية ص ٢٦٥ .

أبى على الفارسي ، وهو من طرازه بغدادى فى مذهب النحوى ، وكل ذلك مصور فى كتابنا المدارس النحوية . وكان يعاصره نحويان كبيران هما السيرافى شارح كتاب سيبويه والرماني وهو مثله شرح الكتاب ، غير أنها لا ينتظان فى المدرسة النحوية البغدادية الجديدة ، إذ كانا لا يخرجان عن المذهب البصرى ، فعدادهما فى المدرسة البصرية لا البغدادية ، وفى كتاب المدارس النحوية حديث مفصل عن السيرافى وكثرة تعليقاته وتخرجاته النحوية . ويُعنى النحاة بشرح كتاب الإيضاح لأبى على الفارسي ، ويشرحه ابن جنى ، ويشرحه غير واحد من بعده مثل العكبرى ، ويعنون بشرح اللمع فى النحو لابن جنى ، ومن شرحه عمر بن ثابت الثماني (١) تلميذه ، وشرحه مخطوط بدار الكتب المصرية ، ومن شرحه العكبرى ، وهم كثيرون . ومن نحاة مدرسة بغداد المهمين أبو البركات بن الأنباري (٢) المتوفى سنة ٥٧٧ وهو تلميذ ابن الشجرى الذى تتلمذ بدوره لأبى على الفارسي ، وبذلك يتصل به . وكان يدرس كتبه لتلاميذه فى المدرسة النظامية ، يدل على ذلك حاشيته على كتاب الإيضاح . وقد عني بدراسة وجوه الخلاف بين المدرستين البصرية والكوفية فى مسائل النحو ، وألف فى ذلك كتابين هما : الإنصاف المطبوع بمصر ، وقد طبعه فايل لأول مرة وقدم له بمقدمة طويلة ، والكتاب الثانى أسرار العربية المطبوع بدمشق ولاحظ فايل أنه رجع آراء الكوفيين بكتابه الإنصاف فى سبع مسائل ، وكان ينتخب آراءه من المدرستين البصرية والكوفية جميعا . وكان يقف مع الفارسي أستاذ شيخه ابن الشجرى فى كثير من المسائل فهو بغدادى المذهب . وله فى أصول النحو كتاب سماه لمع الأدلة وهو مطبوع بدمشق وطبع له مع الكتاب السابق كتاب الإعراب فى جدل الأعراب ، وله فى تراجم النحاة كتاب نزهة الألباء . وكان يجرى على غراره فى اتباع المذهب البغدادى فى النحو أبو البقاء العكبرى (٣) الضريع ، المتوفى سنة ٦١٦ وتدل مصنفاته على توفره على كتب أبى على الفارسي وابن جنى وله كما أسلفنا شرح للإيضاح وكذلك للمع ، وأيضا « الإفصاح عن معانى أبيات الإيضاح » و « تلخيص أبيات الشعر لأبى على الفارسي » وتلخيص التنبيه لابن جنى و « المنتخب من كتاب المحتسب فى

(١) راجع فى الثماني معجم الأدباء ٥٧/١٦ وابن خلكان ٤٤٣/٣ ونزهة الألباء ص ٣٥٠ ونكت الهميان ص ٢٢٠ والشذرات ٢٦٩/٣ .

(٢) انظر فى ابن الأنباري إنباه الرواة ١٦٩/٢ وبغية

الوعاء وابن خلكان ١٣٩/٣ والسبكي ١٥٥/٧ ومروءة

الجنان ٤٠٨/٣ والمختصر المحتاج إليه من تاريخ ابن

الديشى (طبع بغداد) ص ٢٠٩ وكتابنا المدارس

النحوية ص ٢٧٨ .

(٣) راجعه فى إنباه الرواة ١١٦/٢ وبغية الوعاة وابن

خلكان ١٠٠/٣ والشذرات ٦٧/٥ وابن الديشى ص

١٤٠ ونكت الهميان ص ١٧٨ وكتابنا المدارس النحوية

ص ٢٧٩ .

شواذ القراءات» لابن جني أيضا ، ومن كتبه «إملاء مامن» به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن». وله كتاب الباب في علل البناء والإعراب . وقد حققه بعض الطلاب وأعدّه للنشر. وله أيضاً إعراب مشكل الحديث . ذيل به كتاب جامع المسانيد لابن الجوزي . ومن كتبه المسائل الخلافية في النحو وعنى بنشره بعض المستشرقين . وقد صورنا في كتابنا المدارس النحوية كيف كان يعول على الاختيار من آراء البصريين والكوفيين والبغداديين . ومن نخاة بغداد في القرن السابع الهجري عز الدين عبد الوهاب^(١) ابن إبراهيم الزنجاني وله كتاب باسم تصريف الزنجاني أو العزى أومبادىء التصريف ، وقد طارت شهرته في الآفاق وصنعت له شروح وحواش كثيرة ، عددها بروكلمان في تاريخه ، ومنها طائفة كبيرة في دار الكتب المصرية . وقد طُبع في روما مع ترجمته إلى اللاتينية ، وطُبع في الآستانة والقاهرة ودلهي بالهند ومع ترجمة إلى الفارسية لمحمد بركة الله اللكنوى في لكنو . ومن نخاة القرن السابع أيضا جمال الدين الحسين بن بدر الدين بن أبياز^(٢) البغدادي المتوفى سنة ٦٨١ وكان يتولى مشيخة النحو في المدرسة المستنصرية ، وله كتاب القواعد في النحو ، ولا توجد منه سوى مخطوطة بدار الكتب المصرية كتبت سنة ٦٧٨ في حياته ، وله أيضا المحصول شرح الفصول لابن معطى وشرح التصريف لابن مالك ومسائل الخلاف في النحو . ومن النخاة المهمين ببغداد بدر الدين^(٣) الإربلي المتوفى سنة ٧٥٥ وله حواش على كتاب التسهيل لابن مالك وشرح على الكافية لابن الحاجب وآخر على كتابه الشافية . وللشيخ عبد الله السويدي المار ذكره كتاب إتحاف الحبيب على مغنى اللبيب^(٤) . ويكثر الشارحون للألفية ولقَطْر ابن هشام وغيرهما من متون النحو كما يكثر من يصنعون الحواشى . ونكتفى بذكر مثال هو إبراهيم الحيدري المار ذكره في النشاط اللغوى ، فله حاشية على كتاب سيبويه وأخرى على شرح ألفية ابن مالك للسيوطي وحاشية على شرح الشافية لابن الحاجب للنجار بردى وتقرير على حاشية عبد الحكيم الهندي على حاشية عبد الغفور اللارى على شرح الجامى لكافية ابن الحاجب ، وشرح على كتاب الاقتراح للسيوطي^(٥) .

وكان للنشاط في الدراسات البلاغية دوره في العصر ، ومن خير هذه الدراسات كتاب

-
- (١) انظره في بغية الوعاة للسيوطي وفي تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ١٧٩/٥ .
 (٢) المسلك الأذفر ص ٦٠ والعزوى ١٢٨/٢ .
 (٣) هدية العارفين ١٣٥/٢ والعزوى ١٧١/١ .
 (٤) المسلك الأذفر ص ٦٠ والعزوى ١٢٨/٢ .
 (٥) هدية العارفين ٤٢/١ والعزوى ١٤٢/٢ .
 والعزوى ١٦١/١ .

النكت في إعجاز القرآن للرماني^(١) شارح كتاب سيبويه ، كما أسلفنا ، وقد توفي سنة ٣٨٤ للهجرة ، وبهنا من الكتاب حديثه عن البلاغة وقد جعلها في ثلاث طبقات^(٢) : عليا ووسطى ودنيا ، والعليا بلاغة القرآن المعجز والوسطى بلاغة الأدباء حسب تفاوتهم في البلاغة . ويوزعها على عشرة أقسام هي الإيجاز والتشبيه والاستعارة والتلاؤم والفواصل والتجانس والتصريف والتضمن والمبالغة وحسن البيان ، ويفصل القول في كل قسم من هذه الأقسام بادئاً بتعريفه ثم باسطةً تفريعاته . وللحاتمي^(٣) أبي علي محمد بن الحسن البغدادى المتوفى سنة ٣٨٨ كتاب في البلاغة وأنواع البديع سماه حلية المحاضرة في صناعة الشعر ، وقد اعتمد عليه ابن رشيقي اعتماداً واسعاً في كتابه العمدة في صناعة الشعر ونقده أثناء عرضه لألوان البديع ، وقد تحدث فيه عن الاستعارة والجناس والطباق والمقابلة والتتميم والتشبيه والإغراق والإشارة والوحي والتصدير والتسهم والترصيع والتوشيح والمائلة والمبالغة والالتفات والمساواة إلى غير ذلك من فنون البديع ومحسناته . ويكتب الباقلافي الذي ستحدث عنه في علم الكلام المتوفى سنة ٤٠٣ كتابه « إعجاز القرآن » وبهنا فيه حديثه عن وجوه البديع ، وهو يستهلها بالكلام عن الاستعارة ، ويتلوها بالإرداف ثم المائلة فالمطابقة فالجناس فالموازنة ، فالمساواة ، فالإشارة ، فالمبالغة ، فالغلو ، فالإيغال ، فالتوشيح ، فصحة التقسيم ، فصحة التفسير ، فالترصيع والتتميم ، فالتكافؤ والتعطف إلى غير ذلك^(٤) . وهو يتفق مع ابن المعتز وصاحب الصنائع في كثير من مصطلحاته ، ونلتقي بالشريف الرضى المتوفى سنة ٤٠٦ وله كتابان : أحدهما في مجازات القرآن ، والثاني في المجازات النبوية ، وهو يعرض في الكتاب الأول مجازات الآيات القرآنية مرتبة على السور وفقاً لترتيبها في آياتها مبيناً ما فيها من استعارة أو مجاز أو كناية . وبالمثل علّق في الكتاب الثاني على نحو ثلاثمائة وستين حديثاً ، والكتابان بحث تطبيقي عام ، وإن كان يلاحظ أن الفروق عنده بين الاستعارة والمجاز والكناية غير دقيقة ، لأنها لم تكن قد حرّرت حتى زمنه^(٥) .

وعُيّنت طائفة من البلاغيين بالكتابة في بعض جوانب من البلاغة مثل كتاب التشبيهات لابن أبي عون المتوفى سنة ٣٢٢ وقد نشره عبد المعيد خان في سلسلة جب التذكارية

- (١) انظر في علي بن عيسى الرماني تاريخ بغداد ١٠٣/٣ والأنساب ١٤٨ وابن خلكان ٣٦٢/٤ ومعجم الأدباء ١٦/١٢ ومعجم الأدباء ٧٣/١٤ وإنباه الرواة ٢٩٤/٢ والأنسب الورقة ٢٥٨ وشذرات الذهب ١٠٩/٣ .
 (٢) انظر تحليل هذا الكتاب في كتابنا البلاغة تطور وتاريخ ص ١٠٣ .
 (٣) انظر في الحاتمي تاريخ بغداد ٢١٤/٢ وإنباه الرواة ٢٩٤/٢ .
 (٤) انظر في تحليل هذا الكتاب كتابنا البلاغة تطور وتاريخ ص ١٠٧ .
 (٥) البلاغة تطور وتاريخ ص ١٣٩ .

بلندن ، وهو في التشبيهات عامة من الشعر القديم والحديث ومن الذكر الحكيم . وأهم منه كتاب « الجمان في تشبيهات القرآن » لابن ناقياً^(١) البغدادى المتوفى سنة ٤٨٥ والعناية بالتشبيه قديمة نجدها في كتابات الجاحظ وابن المعتز^(٢) . وقد نُشر كتاب الجمان في دمشق تحقيق عدنان زرزور ومحمد رضوان الداية ، والكتاب مرتب حسب السور القرآنية والآيات الواردة في تضاعيفها وعادة يفسر الآية الكريمة بإيجاز ، ثم يذكر ما فيها من تشبيه ، وإذا كان له نظير في القرآن ذكره ، ودائماً يذكر الأشعار التي اقتبسته ، وكثيراً ما يعرض المحسنين لهذا الاقتباس والمقصرين ، موضحاً بلاغة القرآن المعجز وأنه لا يبلغ مبلغه شاعر . يقول : « وكذلك كل ما ينقله الشعراء وغيرهم من أرباب البلاغة إلى كلامهم من معاني القرآن ، لا يبلغون شأوه ولا يدركون مناله إعجازاً وإبداعاً وإباء وامتناعاً » .

ويُعنى بعض البلاغيين بوضع كتب مستقلة في الجناس ، مثل شميم^(٣) الحلبي المتوفى سنة ٦٠١ فله فيه كتاب باسم الأنيس الجليس في التجنيس كما جاء في معجم الأدياء ، وفي دار الكتب المصرية مخطوطة منه باسم الأنيس في غرر التجنيس .

ولانلبث أن نستقبل كتاب المثل السائر لضياء الدين نصر الله بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري المتوفى ببغداد سنة ٦٣٧ وكان قد توجه إليها رسولا من لدن صاحب الموصل ، وكان كاتب إنشائه . وقد بنى كتابه على مقدمة^(٤) ومقالتين ، أما المقدمة فجعلها لعلم البيان ومباحثه المتصلة بالمعاني والبديع ، ويقول إن موضوع هذا العلم البلاغة والفصاحة ، ويعرض لأدواته التي لا بد من إتقانها لمن يتصدى للكتابة والشعر ويعقد فصلين للمعاني يتحدث في أولها عن حمل الكلام على ظاهره والتأويل فيه بحيث يمكن أن يُفهم البيت أفهاماً كثيرة . وفي الفصل الثاني يتحدث عن احتمالات النصوص والترجيح بين المعنيين المتقابلين . وتحسُّ صلته في هذين الفصلين بعلماء الأصول وكلامهم عن دلالات العبارات ومايدخلها من الاحتمالات . ويتحدث بعد ذلك عن الفصاحة والبلاغة

معجم الأدياء ٥٠/١٣ وإنباه الرواة ٢٤٣/٢ وبغية الوعاة والشذرات ٤/٥ وميزان الاعتدال ٨٢/٢ والجواهر المضية في طبقات الحنفية ٢٨٣/١ وابن خلكان ٣٣٩/٣ .

(٤) راجع في تحليل كتاب المثل السائر كتابنا البلاغة تطور وتاريخ ص ٣٢٣ .

(١) راجع في عبد الله بن محمد بن ناقياً إنباه الرواة ١٣٣/٢ وابن خلكان ٩٨/٣ والجواهر المضية ٢٨٣/١ وميزان الاعتدال ٥٣٣/٢ ولسان الميزان ٣٨٤/٣ والخريدة (قسم العراق) ١٤٢/١ ومقدمة المحققين لكتابه .

(٢) البلاغة تطور وتاريخ ص ٥٥ ، ٧٣ .

(٣) انظر في علي بن الحسن بن عثر الملقب بشميم الحلبي

وأدوات الكتابة وأركانها . ويخرج إلى المقالة الأولى ، وقد جعلها للصناعة اللفظية وقسمها قسمين : قسما خاصا باللفظة المفردة ، وقسما خاصا بالألفاظ المركبة ، ويُطَنَّب في بيان حسن الألفاظ وصفاته ، متأثرا في وضوح بابن سنان الخفاجي في كتابه « سر الفصاحة » . وبالمثل يثأثر به في حديثه عن صفات الحسن في الألفاظ المركبة مفصلا القول في السجع والتصريع والتجنيس والتصريع ولزوم ما لا يلزم والموازنة واختلاف صيغ الألفاظ وتكرار الحروف . وينتقل إلى المقالة الثانية الخاصة بالصناعة المعنوية ، ويعرض للسراقات ، ثم يتحدث عن الاستعارة والمجاز والتشبيه والتمثيل ، ويعرض الالتفات وصوره وبعض الصيغ النحوية ، ثم يتحدث عن التقديم والتأخير وبعض صيغ الاختصاص والإيجاز والإطناب والكناية والتعريض ، ولجَّ في بعض مسائل نقدية ، ثم تناول الجناس والاقتراس ، وفتح فصلا للسراقات ، وختم الكتاب بكلمة عن فضل الفصاحة والبلاغة ذكر فيها الفرق بين الشعر والنثر .

ونلتقي في أواخر القرن السابع بكتاب « الأقصى القريب في علم البيان » المطبوع بالقاهرة من نسخة قرئت على المؤلف محمد بن محمد التنوخي ^(١) سنة ٦٩٢ ويسمى صاحب كشف الظنون الكتاب باسم « أقصى القرب في صناعة الأدب » ويقول إن مؤلفه توفي سنة ٧٤٩ للهجرة ، ولعله أخطأ في سنة وفاته ولا يُعرف موطنه ، وقد ضممناه إلى العراق لغلبة النزعة المنطقية عليه وأصدائها الواضحة في مباحثه . ووضح من عنوان الكتاب ^(٢) أن مؤلفه أطلق على مباحث البلاغة اسم البيان متابعا في ذلك ابن الأثير ، وهو يفتح الكتاب ببحث منطقي في التصور والتصديق وفي القضية المنطقية وصورها المختلفة ، ثم يتحدث عن الجملة النحوية وبقيض في مباحث الحروف والأسماء والأفعال . ثم ينتقل إلى علم البيان ومباحث الفصاحة والبلاغة فيه والحقيقة والمجاز وحسن المفردات وقبحها وصفاتها . ويخرج إلى الحديث عن المعاني ويتبدئ حديثه فيها بالكلام عن الاستعارة ، ثم يتحدث عن التشبيه والالتفات والنفي والاعتراض والإيجاز والإطناب والكناية والتعريض والتقديم والتأخير والاشتقاق والتكرار وبعض ألوان البديع ، وهو شديد التأثر في كل ذلك بابن الأثير في كتابه المثل السائر . ويلقانا جلال الدين القزويني صاحب كتاب التلخيص المولود بالموصل ، ويبدو أنه غادره في مطالع شبابه ، وأنه أتم ثقافته في بلاد الروم وديار الشام ، ولذلك سترجى الحديث عنه إلى الجزء الخاص بالشام ومصر .

(١) انظر في التنوخي بروكلمان ١٨٥/٥ وكشف
الظنون لحاجي خليفة (طبع إستانبول) ١/ ١٣٧ وكتابه
نشرته مكتبة الخانجي بالقاهرة .
(٢) راجع في تحليل هذا الكتاب كتابنا البلاغة تطور
وتاريخ ص ٣١٦ .

وُسُهم العراق في نظم القصائد المعروفة بالبديعيات. وعلى^(١) بن عثمان الإربلي المتوفى سنة ٦٧٠ هـ أول من فتح الطريق إلى هذا الاتجاه ، فقد نظم قصيدة في مديح بعض معاصريه وضمّن كل بيت فيها لوناً من ألوان البديع ، وذكر بإزاء كل بيت اللون الذي يُطوَّى فيه ، ولم تصل إلينا القصيدة غير أن صاحب فوات الوفيات ذكر منها ستة وثلاثين بيتاً . وإذا مضينا إلى القرن الثامن التقينا بصنى الدين الحلي المتوفى سنة ٧٥٠ للهجرة ورأيناه ينظم قصيدة في مديح الرسول ﷺ على شاكلة بردة البوصيري مفتتحاً لها بقوله :

إِنْ جِئْتَ سَلْعًا فَسَلِّ عَنْ جِيرة العَلَمِ وَأَقْرِ السَّلَامَ عَلَى عُرْبٍ بِذِي سَلَمٍ

وهي مائة وخمسة وأربعون بيتاً من وزن البسيط ، وكل بيت فيها يحمل محسناً من محسنات البديع ، وهي تضم نحو مائة وخمسين محسناً ، إذ جعل للجناس فيها اثني عشر لوناً صورها في الأبيات الخمسة الأولى ، وواضح أن مطلعها يشتمل على المحسن المعروف باسم براعة الاستهلال ، كما يشتمل على لونين من الجناس بين سلام وسلم وبين العَلَمِ وسلم . وقد سماها الكافية البديعية في المدائح النبوية وصنف لها شرحاً سماه النتائج الإلهية في شرح الكافية البديعية . ويذكر في مقدمته للشرح أنه قرأ ثلاثين كتاباً قبل تأليفه لبديعته وأنه زاد على ما قرأ محسنات جديدة . وتلقانا بعد صنى الدين بديعيات أخرى وشروح وتلخيصات لكتب البلاغة ، ويستمر العلماء في صنع هذه التلخيصات والشروح لافى أزمان المغول والتركمان فحسب ، بل أيضاً في زمن العثمانيين ، وللشيخ عبد الله السويدي المار ذكره كتاب في الاستعارة ومحمد أمين الخطيب العمري بديعية وشرح لها ، وللشيخ إبراهيم الحيدري كتاب في البديع ولشهاب الدين الألوسي أبي الثناء شرح وحاشية على كتاب الاستعارات لابن عصام .

وإذا تركنا النشاط البلاغي إلى النشاط النقدي وجدناه على أتمه في مطالع هذا العصر ، وأول ما يلقانا منه كتاب الموازنة بين أبي تمام والبحتري للآمدي^(٢) الحسن بن بشر المتوفى سنة ٣٧١ وقد استهل الكتاب^(٣) بالحديث عن مذهبين مختلفين في فهم الشعر ونقده وصنعه وعمله ، وهما مذهب المجددين من أنصار أبي تمام أصحاب المعاني والفلسفة والبديع ، ومذهب المحافظين من أنصار البحتري الذين يتمسكون بعمود الشعر العربي

(١) انظر في ترجمة علي بن عثمان كتاب فوات الوفيات ٢٨٥/١ وما به من مراجع وروضيات الجنات ٢١٩ .

(٢) طبعة محمد محي الدين عبد الحميد ١١٨/٢ والنجوم (٣) راجع في تحليل كتاب الموازنة كتابنا النقد (طبع دار المعارف) ص ٦٤ وما بعدها وكتابنا البلاغة تطور وتاريخ الزاهرة ٢٣٦/٧ .

(٢) انظر في الآمدي معجم الأدباء ٧٥/٨ وإنباه الرواة ص ١٢٨ .

وتقاليد مؤثرين حسن العبارة وحلاوة اللفظ وجمال أنغامه . ويمضى الآمدى فيصور جدلا بين أصحاب المذهبين في فن الشاعرين وأيهما يتفوق على صاحبه ، عارضا احتجاجات أصحاب أبي تمام وردود أصحاب البحرى عليهم ، ومن أطرف مااحتجوا به أن أبا تمام صاحب مذهب جديد في الشعر وصناعته ونوقش مذهبه مناقشة واسعة . ويتحدث الآمدى بعد ذلك عن سرقات الشاعرين وأخطائها ، وهو يتحيز في الموازنة للبحرئى تحيزاً واضحاً .

وكان يعاصره المرزبانى ^(١) محمد بن عمران المتوفى سنة ٣٨٤ وهو خراسانى الأصل بغدادى المولد والموطن ، وله كتاب الموشح فى مآخذ العلماء على الشعراء ، وهو سجل لنقد اللغويين من القرن الثانى حتى القرن الرابع لشعراء الجاهلية والإسلام والعصر العباسى حتى نهاية القرن الثالث ، متخللاً ذلك بنظرات نقدية كثيرة له ولسابقه . ومن أطرف فصوله الفصل الخاص بأبى نواس ، وكذلك الفصل الخاص بأبى تمام ، وقد دَوّن فيه رسالة ابن المعتز فى بيان محاسن شعر أبى تمام ومساويه ومنها استمد كل من نقدوا أبا تمام بعده ، مثل ابن عمار القطر بلى المتوفى سنة ٣١٩ فى رسالته التى كتبها فى أخطاء أبى تمام ، وكذلك الآمدى فى موازنته السالفة . وفى رأينا أن هذه الرسالة هى التى دفعت الصولى للانتصار للشاعر وكتابة مصنفه عنه المعروف باسم أخبار أبى تمام . وحينما يتحدث الآمدى عن أنصار أبى تمام إنما يريده . ونلتقى بناقد مهم للمتنبى سبق أن عرضنا له فى حديثنا عن النشاط البلاغى وهو أبو على الحاتمى البغدادى الذى تصدى للشاعر الكبير ينقده نقداً مجحفاً فى كثير من الأحوال ، وله فيه رسالة عما وافق فيه المتنبى كلام أرسطو . حاول فيها أن يرد كثيراً من حكمه إلى أقوال الفيلسوف ، وبمجرد أن نطلع عليها نعرف أن المتنبى على فرض أنه استعار بعض حكمه من أرسطو أعطاها صياغة جديدة باهرة ، وفى الحق أن جمهور حكمه إنما هو من تجاربه ومن خبرته بالحياة الإنسانية . وللحاتمى فيه رسالة ثانية أوكتاب ثان هو الموضحة ^(٢) وفيها يذكر أن الوزير المهلبى هو الذى دفعه إلى نقد المتنبى ، ويقول إن معارك نشبت بينه وبين المتنبى حين لقيه ، ويصور فى الكتاب هذه المعارك وأنها امتدت فى عدة مجالس ، كان أولها فى الدار التى نزل فيها المتنبى ، أمام طائفة من العلماء الأدباء . وقد أخرج الحاتمى الكتاب بعد وفاة صاحبه ولعله تريد فيه ، وهو

(١) انظر فى المرزبانى تاريخ بغداد ١٣٥/٣ ومعجم

الأدباء ٢٦٨/١٨ وابن خلكان ٣٥٤/٤ والشذرات

١١١/٣ وميزان الاعتدال ٦٧٢/٣ والوفائق بالوفيات

فى بيروت .

(٢) حقق الدكتور محمد يوسف نجم هذا الكتاب ونشره

فى بيروت .

٢٣/٤ وعبر الذهبي ٢٧/٣ ولسان الميزان ٢٣٦/٥ .

يذكر حدود الشعر ويتحدث عن سرقات المتنبي وعيوبه ويوازن بين معانيه ومعاني أبي تمام والبحترى . والتجنى على المتنبي واضح في الكتاب ، فلم يكن يمسك في يده بمعايير نقدية منصفة . ومع ذلك فإن كثيرين من نقاد المتنبي بعده حملوا عنه نقده وأذاعوه في كتبهم ودراساتهم . ويُشغَل كثيرون بالمتنبي في جميع البلدان العربية ، وسنرى في إيران مباحث كثيرة عنه وعن شعره .

ويلقانا في العراق ابن الدهان ^(١) سعيد بن المبارك المتوفى سنة ٥٦٩ وله رسالة في سرقات المتنبي سماها « الرسالة السعيدية في المآخذ الكندية » وقد وقف فيها طويلاً عند سرقاته من أب تمام الطائي ، وعنى ببيان سرقاته من البحترى الطائي أيضاً ، ولذلك قد تسمى في بعض المصادر باسم « المآخذ الكندية من المعاني الطائية » ولابن الأثير كتاب يرد فيه على هذه المآخذ سماه « الاستدراك في الرد على رسالة ابن الدهان المسماة بالمآخذ الكندية من المعاني الطائية » عنى فيها بالرد على ابن الدهان في مآخذه على المتنبي وقد وزع أكثرها على جانبين هما : مآخذه على ابن الدهان فيما زعمه من مآخذ المتنبي من أبي تمام ، واستدراكه على ما فات ابن الدهان من مآخذ المتنبي أو سرقاته من أبي تمام . وهو يستهل الرسالة ببيان عيوب ابن الدهان في مبحثه ، ذاكرةً أنه ترك من سرقات المتنبي من أبي تمام مثلاً أخذ ، وأنه قد يعدُّ بيتاً للمتنبي مسروقاً من صاحبه ، ويتأمله يلاحظ أنه غير مسروق ، وأنه قد يعزو إلى المتنبي وأبي تمام والبحترى أبياتاً ليست لهم ، وأنه أطال مقدمة كتابه أو رسالته فكان كمن بنى داراً فجعل دهليزها ذراعاً وعرضها شبراً ، على أنها لا تناسب الكتاب ولا تشاكله . ولابن الأثير في الكتاب - شأنه في كتاب المثل السائر - نظرات نقدية كثيرة جيدة . ولابن أبي الحديد رسالة في نقد المثل السائر لابن الأثير سماها « الفلك الدائر على المثل السائر » وهي إلى أن تكون نقداً لغوياً أقرب منها إلى أى نقد آخر ، ورد عليه كثيرون منتصرين لابن الأثير مثل محمود بن الحسين السنجاري المتوفى سنة ٦٤٠ في كتابه « نشر المثل السائر وطى الفلك الدائر » .

ولصنى الدين الحلى المار ذكره في البديعيات كتاب نفيس في الأشعار العامية الشعبية سماه « العاقل الحالى والمرخص الغالى في الأزجال والموالى » عرض فيه فنون الشعر العامي من الزجل والمواليا والقوما والكان وكان موضحاً نشأتها وتاريخها وأوزانها وقوافيها وما يجوز فيها وما لا يجوز . ويلاحظ أنه سبقت الأزجال في الأندلس قصائد عامية ذات قافية واحدة

(١) انظر في ابن الدهان معجم الأدباء ٢١٩/١١ خلكان ٣٨٢/٢ والشذرات ٢٢٣/٤ .

ونكت الهيمان ص ١٥٨ وإنباه الرواة ٤٧/٢ وابن

كقصائد « الشعر الفصيح » كانت تسمى بالقصائد الزجلية ، ثم نوعوا فيها الأوزان والقوافي على شاكلة الموشح . وهو يقوم في ضبط أوزان الأشعار العامية مقام ابن سناء الملك المصرى في ضبطه للموشحات بكتابه المعروف « دار الطراز » . وتعرض صفي الدين الحلبي لبعض أشعار ابن سناء الملك بنقد لغوى ذاهبا إلى أنه لما قلّد الأندلسيين في موشحاته وجعل خرجاتها عامية كثر في نظمه استخدام اللفظ العامي ، ويضرب لذلك بعض الأمثلة - في رأيه - من شعره . وقد صحح هذه الأمثلة وردّها الصفدى في شرحه للامية العجم الذى سماه « الغيث الذى انسجم فى شرح لامية العجم » . ولانعود نسمع عن كتاب مهم فى النقد بالعراق بعد كتاب العاقل الحالى ، فقد انصرف الباحثون إلى الدراسات البلاغية بين شروح وتلخيصات كثيرة .

٤

علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام

مرّ بنا فى كتاب العصر العباسى الثانى نشاط العراق فى روايته لقراءات الذكر الحكيم وكيف أن ابن مجاهد استخلص منها سبعا ، هى قراءات الأئمة : نافع فى المدينة وعبد الله ابن كثير فى مكة وعاصم وحزمة والكسائى فى الكوفة وأبى عمرو بن العلاء فى البصرة وعبد الله بن عامر فى دمشق ، وشاعت فى العالم الإسلامى إلى اليوم مدوّنة بكتابه السبعة الذى مضى العلماء منذ عصره يتدارسون^(١) وآلف كتابا ثانيا فى شواذ القراءات عنى بالتعليق عليه ابن جنى مسميا تعليقه المحتسب ، وهو محقق ومنشور بالقاهرة . وذهب كثيرون بعد ابن مجاهد إلى أنه لا تقل عن القراءات السبع التى دَوَّنَهَا بكتابه قراءة أبى جعفر يزيد ابن القعقاع شيخ نافع المتوفى سنة ١٣٠ للهجرة ويعقوب بن إسحق الحضرمى البصرى المتوفى سنة ٢٠٥ وخلف بن هشام البغدادى المتوفى سنة ٢٢٩ . وبضم هذه القراءات إلى قراءات ابن مجاهد تصبح القراءات عشرا وتؤلف فيها الكتب . ويضم إليها كثيرون أربع قراءات هى قراءة ابن مُحَيِّصِ المكى معاصرين كثير وقراءة الأعمش الكوفى وقراءة اليزيدى البصرى تلميذ أبى عمرو بن العلاء وقراءة الحسن البصرى . وبذلك تصبح القراءات أربع عشرة . وتنشط العراق فى التأليف فيها ، تارة يؤلف العلماء فى السبع وتارة يؤلفون فى العشر أو فى الأربع عشرة . فمن ذلك كتاب الجامع فى القراءات العشر لعلى بن محمد الحياط المتوفى سنة ٤٠٥ وكتاب الروضة للحسن البغدادى فى إحدى عشرة قراءة وقد توفى

(١) حققتُ ونشرت فى دار المعاف هذا الكتاب .

سنة ٤٣٨ وكتاب المفيد في القراءات العشر لأبي نصر البغدادي المتوفى سنة ٤٤٢ وكتاب التذكار في القراءات العشر لابن شيطا البغدادي المتوفى سنة ٤٤٥ وكتاب المستنير لأحمد ابن علي بن سوار البغدادي المتوفى سنة ٤٩٦ وهو أيضا في القراءات العشر وكتاب المذهب في القراءات العشر لمحمد بن أحمد بن الحياط البغدادي المتوفى سنة ٤٩٩ وكتاب الإرشاد في العشر للواسطي المتوفى سنة ٥٢١ وكتاب الموضح والمفتاح في القراءات العشر لابن خيرون البغدادي المتوفى سنة ٥٣٩ وكتاب المبهج في القراءات الثمان لسبط الحياط البغدادي المتوفى سنة ٥٤١ وله كتاب الكفاية في القراءات الست ، وكتاب المصباح في القراءات العشر لأبي الكرم البغدادي المتوفى سنة ٥٥١ وكتاب الكثر في القراءات العشر لأبي محمد عبد الله الواسطي المتوفى سنة ٧٤٠ وله كتاب الكفاية وهي قصيدة في القراءات العشر على وزن القصيدة المشهورة باسم الشاطبية ورواها ، وكذلك لمعاصره أبي الحسن علي الديواني الواسطي المتوفى سنة ٧٤٣ قصيدة ماثلة للشاطبية . وكل هذه الكتب عرّف بها ابن الجزري في كتابه « النشر »^(١) في القراءات العشر و ترجم لأصحابها في كتابه غاية النهاية في طبقات القراء .

وإذا انتقلنا إلى التفسير والمفسرين وجدنا العراق تنشط في التفسير الفقهي والاعتزالي والسني والشيعي ، وقلما عنيت بالتفسير الصوفي ، وكأنما تركته لمتصوفة خراسان وإيران من أمثال أبي عبد الرحمن السلمى والقشيري ومتصوفة الأندلس من أمثال ابن عربي . وقد عنيت مبكرة بالتفسير الفقهي ، على نحو ما نرى عند ابن الجصاص^(٢) أحمد بن علي المتوفى سنة ٣٧٠ في كتابه أحكام القرآن ، وهو مطبوع في ثلاثة أجزاء بالقاهرة ، ومثله كتاب أحكام القرآن للكيّا^(٣) الهراسي المتوفى سنة ٤٥٤ وأصله مثل ابن الجصاص إیراني ، ولكنها نزلت ببغداد ، واستقر فيها أما ابن الجصاص فقد نزلها سنة ٣٢٥ وتلقى بها العلم ، ثم أصبح مدرسا للفقهاء الحنفي وتركها بأخرة إلى نيسابور حيث توفي فيها ، وأما الكيّا الهراسي فقد درس في نيسابور وعلم في إحدى قرأها المسماة بيهق . ثم خرج إلى العراق وتولى التدريس في المدرسة النظامية ببغداد حتى توفي ، وكان في خدمته بها الشاعر الغزّي المشهور . وألفت في أحكام القرآن كتب أخرى ليس لها شهرة الكتابين السابقين . وقد ذكرنا في العصر

(١) انظر في الكتب السالفة وأصحابها النشر في رقم ١١ وبستان المحدثين لعبد العزيز الدهلوي ١٢٦

القراءات العشر لابن الجزري (طبع القاهرة) و«النجوم الزاهرة» ٤/١٣٨ والفوائد البية ص ٢٧

(٢) انظر في الكيّا الهراسي المنتظم ١٦٧/٩ وتبيين ٧٤/١-٩٥

(٣) راجع في ترجمة ابن الجصاص الجواهر المضية كذب المفترى ٢٨٨ والسبكي ٧/٢٣١ وعبر الذهبي ٨/٤

والشذرات ٨/٤ وابن خلكان ٣/٢٨٦

العباسي الثاني تفسيرات المعتزلة في القرن الثالث الهجري ، ويستمر نشاط المعتزلة في تفسير الذكر الحكيم لهذا العصر وخاصة في أوائله ، ويلقانا فيه تفسير لعلي بن عيسى الرمانى المعتزلى ، ومر بنا أنه توفي سنة ٣٨٤ وكان يقول : تفسيرى بستان يُجتنى منه ما يشتهى ، وقيل للصاحب بن عباد معاصره هلا تصنف تفسيراً ؟ فقال : وهل ترك لنا على بن عيسى شيئاً^(١) ، ويقول صاحب النجوم الزاهرة : « له كتاب التفسير الكبير وهو كثير الفوائد إلا أنه صرح فيه بالاعتزال ، وسلك الزمخشري سبيله وزاد عليه »^(٢) . ومن هذا الاتجاه الاعتزالى كتاب التفسير الكبير لعبد السلام^(٣) بن محمد القزوينى نزيل بغداد وشيخ المعتزلة المتوفى سنة ٤٨٨ ويقول السمعاني إنه مزج تفسيره بكلام المعتزلة وبث فيه معتقده وهو فى ثلاثمائة مجلد ، منها سبع مجلدات فى سورة الفاتحة ، ويقول صاحب النجوم الزاهرة إن الكتاب كان وقفا فى مشهد أبى حنيفة ببغداد . ويبدو أن المعتزلة اكتفوا فيما بعد بتفسير الزمخشري المسمى بالكشاف ، إذ لم ينشطوا بعده للتأليف فى تفسير القرآن .

ويظل التفسير السننى مزدهرا بعد تفسير الطبرى الذى عرضنا له فى العصر العباسى الثانى ، ومن التفسيرات السننية المهمة فى العصر تفسير النقاش^(٤) البغدادى محمد بن الحسن المتوفى سنة ٣٥٠ كان إمام أهل العراق فى القراءات والتفسير ، وقد سمي تفسيره شفاء الصدور ، وطُوف من مصر إلى ما وراء النهر فى لقاء المشايخ ولكنهم ضعّفوا أحاديثه ، وقالوا إنه ليس بثقة على جلالته ونبله . ولأبى الحسن الماوردى إمام الشافعية فى عصره المتوفى كما مر بنا سنة ٤٥٠ تفسير من أجل التفاسير . ويلقانا تفسير سننى لا يزال مخطوطا بدار الكتب المصرية وهو لأحمد^(٥) بن محمد الغزالى أخى الإمام الغزالى مدرس النظامية ببغداد المتوفى سنة ٥٢٠ . واشتهر ابن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ بتفسيره الذى سماه « زاد المسير فى علم التفسير » . ومن أصحاب التفاسير السننية الرَّسَعَنى^(٦) عبد الرزاق المتوفى سنة ٦٦١ وفيه يقول السيوطى : « صنف تفسيراً حسناً يروى فيه بأسانيد » . ومنهم علاء الدين على بن محمد البغدادى صاحب التفسير المعروف بتفسير الخازن^(٧) المتوفى سنة ٧٤١ ، وهو ملهى

(١) النية والأمل لابن المرتضى ص ١١٥ الاعتدال ٥٢١/٣ وابن خلكان ٢٩٨/٤ والسبكي

١٤٥/٣

(٢) النجوم الزاهرة ١٦٨/٤

(٣) انظر طبقات المفسرين ١٩ والنجوم الزاهرة (٥) انظره فى المنتظم ٢٦٠/٩ وميزان الاعتدال

١٥٦/٥ وتذكرة الحفاظ ٨/٤ ولسان الميزان ١١/٤ ١٥٠/١ وابن خلكان ٩٧/١ والسبكي ٦٠/٦ والشذرات

والسبكي ١٢١/٥ والشذرات ٣٨٥/٣ . ٦٠/٤ ومرآة الجنان ٢٢٤/٣ ولسان الميزان ٢٩٣/١ .

(٤) راجعه فى تاريخ بغداد ٢٠١/٢ ومعجم الأدياء (٦) راجعه فى طبقات المفسرين للسيوطى رقم ٥٦

١٤٦/١٨ وتذكرة الحفاظ للذهبي (طبع حيدر آباد) (٧) انظره فى طبقات المفسرين للدوادى والدرر الكامنة

١١٥/٣ وطبقات القراء لابن الجزرى ١١٩/٢ وميزان ١٧١/٣

بالإسرائيليات . ومن خير التفاسير السنية تفسير ذاع وشاع منذ تأليفه في القرن الماضي ، وهو كتاب «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني» لشهاب الدين محمود الألوسي الذي مر ذكره والمتوفى سنة ١٢٧٠ هـ / ١٨٥٣ م ، وهو يعنى في تفسيره ببيان أسباب النزول وبتفسير آى القرآن بعضها ببعض ، وتفسيرها بالحديث النبوى ، ويعنى باللغة ومسائل النحو والبلاغة ، وقد اعتمد على كثير من مصادر التفسير في القديم ، وخاصة على الكشاف والبيضاوى والفخر الرازى ، وهو يخوض مثل الفخر فى مباحث فلسفية ورياضية وطبيعية كثيرة . وقد عُنِيَ عناية واسعة بالرد على الطبرسى الشيعى فى تفسيره ، وخاصة فى مسائل الإمامية الاعتقادية . ونراه يعنى بالرد فى مسائل كثيرة على حجج الشافعية ، وخاصة تلك التى يثيرها المفسر الشافعى الكبير الفخر الرازى فى تفسيره . ومع أنه كان حنفياً ، والحنفية غالباً كانوا معتزلة أو ماتريدية ، نراه فى تفسيره أشعرياً ، وهو بذلك يلتقى مع الفخر الرازى فى نصيرته للمذهب الأشعري . ويذكر ابن عربى مراراً فى تفسيره ، ويتضح تأثره به وبتفاسير الصوفية عامة حين نراه فى كثير من الآيات بعد أن يوضح المراد منها يتغلغل فى معان باطنة لا يدل عليها ظاهرها أى دلالة ، ومن الغريب أنه يذكر مراراً أن قَصْرَ مراد الله على التأويلات البعيدة كفر صريح ومع ذلك نراه أحياناً يتأدى فيها ، وكان حرياً أن يخلى تفسيره منها ومن شوائبها إخلاء تاماً .

وقد ذكرنا فى العصر العباسى الثانى للتفسير الشيعى بعض التفاسير التى نسبها الشيعة إلى أئمتهم ، مثل تفسير الإمام الحسن العسكرى المتوفى سنة ٢٦٠ وهو الإمام الحادى عشر فى ترتيب الإمامية ، وبمجرد اطلاعنا عليه نستبعد أن يكون من صنعه حقاً لركاكة أساليبه ولما فيه من تأويلات باطنية بعيدة . ويأتى بعده تفسير القمى ^(١) على بن إبراهيم المتوفى لأوائل القرن الرابع الهجرى ، وهو فى جملته نقول عن أئمة الإمامية وكثير منها يبعد عن ظاهر النص القرآنى ومراده ، مما يدل على أن نسبتها إليهم غير صحيحة . وما نصل إلى أواخر القرن الرابع حتى نلتقى بالشرىف الرضى المتوفى سنة ٤٠٦ . وبتفسيره الذى سماه «حقائق التأويل فى متشابه التنزيل» وقد نشر منه فى بيروت الجزء الخامس ، ومن يطلع عليه يجد له فيه عملين كبيرين : أولهما البعد عن التفسير الباطنى الشيعى لآيات الذكر الحكيم ، وثانيهما ترك الروايات عن الأئمة والاحتكام إلى العقل ، وهو احتكام وصل تفسيره بتفاسير المعتزلة ،

(١) انظر فى طبقات المفسرين للداودى ٣٨٥/١ مطبوع بالنجف .

والذريعة إلى تصانيف الشيعة لأغابرك ٣٠٢/٤ وتفسيره

والصلة بين المعتزلة والشيعة الإمامية قديمة ومعروفة ، وتتردد في التفسير أسماء بعض أعلامهم مثل أبي علي الجبائي وعلي بن عيسى الرماني والقاضي عبد الجبار . واتجه نفس الوجهة أخوه الشريف المرتضى^(١) في كتابه «الأمالى» إذ نراه فيه يقف إزاء الآيات التي قد يفيد ظاهرها التشبيه على الذات العلية أو الجبر ليؤوها على طريقة المعتزلة ، وفي الوقت نفسه لا يروى فيها نقولاً عن الأئمة . وبذلك يُعدّان للتفسير بالرأى والعقل في بيئة الإمامية ، واستضاء بعملهما في هذا الاتجاه الطوسي^(٢) . أبو جعفر محمد بن الحسن تلميذ الشريف المرتضى ، وقد توفي سنة ٤٦٠ هـ واشتهر بتفسيره للذكر الحكيم سماه «التيبان في تفسير القرآن» وهو مطبوع بالنجف في عشرة أجزاء ، وقد عُني في تفسيره بالتقريب بين تفسيرات الشيعة وتفسيرات أهل السنة . إذ روى في تفسيره عن الصحابة من أمثال أبي بكر الصديق وعمر ، وكذلك عن التابعين دون تعصب مذهبي ، ووضع بجانبهم ما نقله عن الأئمة في عقيدته الإمامية ، واتخذ تفسير الطبري السني هادياً له في تفسيره ، وكما نقل عن كتب الحديث الشيعية مثل الأمالى لابن بابويه القمي وأمالى ابن النعمان المفيد نقل عن كتب الحديث المشهورة لأهل السنة مثل مسند ابن حنبل وكتب الصحاح الستة . وعلى ضوء دراسات الشريفين المرتضى والرضي عُني بالتفسير العقلي وفسح للتأثر بالمعتزلة في نفي التشبيه عن الذات العلية . وليس معنى ذلك كله أنه تخلص في تفسيره من عقيدته الإمامية ، بل لقد نصرها في مواطن كثيرة وخاصة عقيدتهم في الإمام وأنه معصوم وحجة الله في أرضه وصاحب علم باطني متوارث إلى غير ذلك من أصول العقيدة الإمامية ، وقد تأثر به الطبرسي في تفسيره تأثراً واسعاً .

وكانت بغداد داراً قديمة للحديث ، وظلت شديدة العناية به وبحفظه طوال هذا العصر ، وأول من نقلناه من أعلامه البراز محمد^(٣) بن عبد الله المتوفى سنة ٣٥٤ وله كتاب العوالي في الحديث وهي مجموعة يمتاز سندها بقوة رواته ، وكان يعاصره الآجری^(٤) أبو بكر محمد بن الحسين المتوفى سنة ٣٦٠ وله كتاب يضم أربعين حديثاً مختارة ،

- (١) راجع في الشريف المرتضى تاريخ بغداد ودائرة المعارف الإسلامية .
 ٤٠٢/١٢ وثمة البيهقي ٥٣/١ وابن خلكان ٣/٣١٣ (٣) انظره في تذكرة الحفاظ ٩٦/٣ وطبقات الحفاظ ومعجم الأدباء ١٤٦/١٣ وإنباه الرواة ٢٤٩/٢ وما به من مراجع
 (٤) راجعه في تذكرة الحفاظ ١٣٩/٣ وتاريخ بغداد
 (٢) انظر في الطوسي المنتظم ٢٥٢/٨ والنجوم الزاهرة ٢٠٣/٢ والسيكى ١٤٩/٣ وابن خلكان ٤/٢٩٢ والشذرات ٣٥/٣ والمنتظم ٥٥/٧ والوافى ٣٧٣/٢ .

ويخلفها الدارقطني^(١) على بن عمر المتوفى سنة ٣٨٥ وهو منسوب إلى محلة ببغداد تسمى دارقطن ، وله كتاب السنن « وقد نُشر قديماً في دلهي ، واشتهر الدارقطني بأنه تعقب في كتابه الاستدراكات وجوه الضعف في بعض أحاديث رواها الشيخان : البخاري ومسلم ، وله كتاب في الضعفاء والمتروكين من الرواة « وكتاب في العلل ، وآخر في غريب الحديث . وكان يعاصره الكلاباذي^(٢) أحمد بن محمد المتوفى سنة ٣٩٨ وله كتاب في رجال البخاري ، وجاء بعده اللالكائي^(٣) هبة الله بن الحسن محدث ببغداد المتوفى سنة ٤١٨ وله كتاب في رجال الصحيحين وكتاب في السنن ، وكان يعاصره البرقاني^(٤) أحمد بن محمد شيخ ببغداد المتوفى سنة ٤٢٥ وله مصنفات مختلفة في الحديث ، منها مسند ضمنه ما اشتمل عليه صحيح البخاري ومسلم . ثم يلقانا الخطيب^(٥) البغدادى أحمد بن علي بن ثابت المتوفى سنة ٤٦٣ وكان في وقته حافظ المشرق الذي لا يدافع ، وله مصنفات كثيرة في الحديث ورجاله ، ومن أطرف ماله كتاب تقييد العلم ، وفيه يتحدث عن تدوين الحديث وأوائل من دونه . وكان يعاصره ابن ماكولا^(٦) المتوفى سنة ٤٧٥ وهو صاحب الإكمال تتبع فيه الألفاظ المشتبهة في أسماء رواة الحديث ، يقول ابن خلكان : هو في غاية الإفادة في رفع الالتباس والضبط والتقييد وعليه اعتماد المحدثين وأرباب هذا الشأن فإنه لم يوضع مثله ولقد أحسن فيه غاية الإحسان . ومن محدثي القرن السادس ابن الجوزي عبد الرحمن ابن علي المتوفى سنة ٥٩٧ ، وله عدة مصنفات في الحديث من أهمها كتابه « الموضوعات » في أربعة أجزاء ذكر فيه الأحاديث الموضوعة . وكان يعاصره مجد الدين المبارك بن محمد المعروف بابن^(٧) الأثير الجزري الموصلي المتوفى سنة ٦٠٦ وله جامع الأصول في أحاديث الرسول جمع فيه بين الصحاح الستة ، وله أيضاً كتاب النهاية في

- (١) انظره في تاريخ بغداد ٣٤/١٢ والمتنظم ١٨٣/٧
أو الأنساب ٢١٧ وطبقات القراء ٥٥٨/١ والسبكي
٤٦٢/٣ وتذكرة الحفاظ ١٨٦/٣ وابن خلكان ٢٩٧/٣
وعبر الذهبي ٢٨/٣ واللباب ٤٠٤/١ .
(٢) انظره في تذكرة الحفاظ ٢١٦/٣ وتاريخ بغداد
٤٣٤/٤ وبروكلمان ٢٢٨/٣ .
(٣) تذكرة الحفاظ ٢٦٧/٣ وتاريخ بغداد ٧٠/١٤
(٤) تذكرة الحفاظ ٢٥٩/٣ وتاريخ بغداد ٣٧٣/٤
والسبكي ٤٧/٤ والمتنظم ٧٩/٨ .
(٥) انظره في تذكرة الحفاظ ٣١٢/٣ وتهذيب ابن
عساكر ٣٩٨/١ ومعجم الأدباء ١٣/٤ والمتنظم ٢٦٥/٨
والعبر ٢٥٣/٣ والشذرات ٣١١/٣ والسبكي ٢٩/٤ وابن
خلكان ٩٢/١ وكتاب الخطيب البغدادى مؤرخ بغداد
ومحدثها ليوسف العش .
(٦) راجعه في تذكرة الحفاظ ١/٤ والمتنظم ٥/٩
ومعجم الأدباء ١٠٢/١٥ وابن خلكان ٣٠٥/٣ وعبر
الذهبي ٣١٧/٣ والشذرات ٣١٨/٢ وفوات الوفيات
١٨٥/٢ .
(٧) انظره في تذكرة الحفاظ ١٨٥/٤ وابن خلكان
١٤١/٤ ومعجم الأدباء ٧١/١٧ وإنباه الرواة ٢٥٧/٣
ومرآة الجنان ١١/٤ والسبكي ٣٦٦/٨ والعبر ١٩/٥
وروضات الجنات ٥٨٥ .

غريب الحديث . وجاء بعده ابن نقطة ^(١) محمد بن عبد الغنى الحنبلى المتوفى سنة ٦٢٩ وله ذيل على الإكمال لابن مأكولا في مجلدين ، وله كتاب التقيد لمعرفة رواة السنن والمسانيد . وكان يعاصره ابن الدُبَيْتِيُّ وابن النجار وسنعرض لهما في حديثنا عن علم التاريخ . وجاء بعدهما من كبار الحفاظ ابن الفُوطِيّ المتوفى سنة ٧٢٣ وسنذكره معها . وجاء بعده صفى الدين الحسين ^(٢) بن بدران مدرس الحديث بالمستنصرية المتوفى سنة ٧٤٩ وخلفه الكرمانى شمس الدين محمد بن يوسف المتوفى سنة ٧٨٦ وله الكواكب الدرارى فى شرح صحيح البخارى ، وهو مطبوع بالقاهرة . وتلاه ابنه تقي الدين ^(٣) يحيى البغدادى المتوفى سنة ٨٣٣ وله شرح على صحيح البخارى ومسلم .

وحتى الآن لم نعرض لكتب الحديث عند الشيعة الإمامية ، ومن أهمها عندهم كتاب الأمالى لابن بابويه القمى المتوفى سنة ٣٨١ ولا يقل عنه أهمية كتاب الأمالى للمفيد ^(٤) محمد بن محمد بن النعمان المتوفى سنة ٤١٣ وهو أستاذ الطوسى المفسر الذى مر ذكره ، وأماله مطبوعة بالنجف ، وهى تشمل على اثنين وأربعين مجلداً تقتصر على أحاديث مروية عن الرسول ﷺ وآل بيته . وللطوسى كتب مختلفة فى الحديث مطبوعة بالنجف وأهمها الاستبصار فيما اختلف من الأخبار ، وهو من الكتب الأربعة الأساسية فى العقيدة الإمامية . ودائماً كتب الشيعة الإمامية فى العقيدة مشحونة بالأحاديث ، وظل ذلك طوال هذا العصر على نحو ما نجد عند المطهر ^(٥) الحلى الحسين بن يوسف المتوفى سنة ٧٢٦ وكان رأس الشيعة الإمامية الاثنى عشرية بالحلة ، ولازم النصير الطوسى مدة واشتغل فى العلوم العقلية - كما يقول ابن حجر - فمهر فيها ، وله مصنفات كثيرة فى الإمامة والشرعية ، ردّ عليه فيها ابن تيمية وأظهر - كما يقول ابن حجر - أن كثيراً من الأحاديث عنده غير صحيحة .

وكما كانت بغداد داراً للحديث وحفاظه كانت أيضاً داراً للفقهاء والفقهاء ، وأول مذهب فقهى نقف عنده مذهب أبى حنيفة ، ولعل أول فقيه حنفى جدير بالوقوف عنده فى هذا العصر القدورى ^(٦) أحمد بن محمد المتوفى سنة ٤٢٨ وله مختصر مشهور فى الفقه الحنفى لا يزال

(١) راجعه فى تذكرة الحفاظ ١٩٧/٤ والعبر ١١٧/٥

وبروكليان ٣/٣٤٩ .

(٥) راجعه فى الدرر الكامنة لابن حجر (طبعة دار

وابن خلكان ٣٩٢/٤ والشذرات ١٣٢/٥ .

الكتب الحديثة) ١٥٨/٢ والغزوى ١/١٦٦ .

(٢) انظره فى الدرر الكامنة ١٣٩/٢ والشذرات

(٦) انظره فى تاريخ بغداد ٣٧٧/٤ وابن خلكان

١/٦٦٣ .

٧٨/١ والعبر ١٦٤/٣ وتاج التراجم رقم ١٣ والجواهر

(٣) راجعه فى الضوء اللامع ٢٥/١٠ والغزوى ١/٦٧

المضية ٩٣/١ والفوائد البية للكتوبى ١٧ وبروكليان

(٤) انظره فى كتاب الرجال للنجاشى ٢٨٣ ومنهج

٢٦٩/٣ .

المقال للاسترايادى ٣١٧ وروضات الجنات ٥٦٣

يدرس إلى اليوم وقد طُبِعَ طبعات مختلفة واهتم به العلماء الأحناف بعده وصنعوا له شروحاً مطولة وموجزة . وكان يعاصره أبو زيد الدبوسي ^(١) عبد الله بن عمر المتوفى سنة : ٤٣٠ وله تأسيس النظر في الخلاف ، وهو مطبوع في القاهرة ، ويقال إنه أول من أسس علم الخلاف بين الفقهاء ومذاهبهم المتقابلة . ومنذ أبي يوسف في عهد الرشيد وعنايته بأن يجعل على القضاء فقهاء الأحناف في بغداد وغيرها نشط الفقه الحنفي في العراق ، وكان مما ساعد على ذلك المدرسة التي بناها المستوفى الخوارزمي في عهد السلطان ملكشاه السلجوقي للحنفية ^(٢) عند مشهد الإمام أبي حنيفة . وحين بنى المستنصر مدرسته المستنصرية - كما مر بنا - جعل لكل مذهب من المذاهب الأربعة : الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي إيواءً فيه المسجد وموضع التدريس . وبذلك ظل لفقهاء الحنفية نشاطهم . ومنهم مظفر ^(٣) الدين بن الساعاتي المدرس بالمستنصرية المتوفى ببغداد سنة ٦٩٦ وله كتاب مجمع البحرين شرحه في مجلدين . ومنهم أبو البركات ^(٤) النسفي ، المتوفى سنة ٧٠١ وله مصنفات مختلفة في الفقه الحنفي ، من أهمها الكتر وله شهرة كبيرة في تدريس المذهب ، وعليه شروح كثيرة وملتقى منذ هذا التاريخ بشروح ومتون مختلفة في الفقه الحنفي . وكان البغداديون أقل عناية بالفقه المالكي ، وأكثر من كانوا يعتنقون هذا المذهب وفدوا على بغداد ، ومع ذلك نجد من حين إلى حين فقيهاً مالكياً كبيراً ببغداديا أو عراقياً مثل الباقلاني المتوفى سنة ٤٠٣ وكان شيخه ابن مجاهد محمد بن أحمد الطائي مالكياً مثله ^(٥) . ومن وفدوا على العراق أبو العباس المالكي أحمد ^(٦) بن محمد المتوفى سنة ٥٠٧ . وكانت حلقة المذهب في المدرسة المستنصرية كما ذكرنا آنفاً سبباً في أن يظل حياً بالعراق ، ويظل له شيوخه وفقهاؤه .

وكان الفقه الشافعي أكثر نشاطاً من فقه المذهبيين المالكي والحنفي ، ومن أهم فقهاء أبو ^(٧) حامد المرورودي أستاذ أبي حيان التوحيدى ، وعنه حمل المذهب فقهاء البصرة ، وقد توفى سنة ٣٦٢ ويلقبنا بعده في بغداد أبو حامد الإسفراييني ^(٨) المتوفى سنة ٤٠٦ وله في

(١) راجع في الدبوسى الفوائد البية ٢٥ والجواهر المضية (٥) السبكي ٣٦٨/٣

(٢) وابن خلكان ٤٨/٣ وتاج التراجم رقم ١٠٧ (٦) المنتظم ١٧٥/٩

(٧) انظره في السبكي ١٢/٣ وابن خلكان ٦٩/١ وبيروكلان ٢٧٣/٣ .

(٨) ابن خلكان ٤١٤/٥ . والعبر ٣٢٦/٢ والشذرات ٤٠/٣

(٩) انظره في تاج التراجم ص ٦ والجواهر المضية ٨٠/١ (٨) راجعه في السبكي ٦١/٤ وتاريخ بغداد ٣٦٨/٤

والفوائد البية ١٦ . وبيروكلان ٣٥٧/٦ . وابن خلكان ٧٢/١ والعبر ٩٢/٣ والشذرات ١٧٨/٣

(٤) سذكر مصادر ترجمته في القسم الخاص بإيران

المذهب التعليقة الكبرى ، وكان يحضر مجلسه ثلاثمائة فقيه . ومن نابهى فقهاء المذهب ببغداد المحامي^(١) الضبّي المتوفى سنة ٤١٥ وله كتاب اللباب في الفقه الشافعي واختصره أبو زرعة العراق المتوفى سنة ٨٢٦ واختصر هذا المختصر شيخ الإسلام المصري زكريا الأنصاري المتوفى سنة ٩٢٦ . ومربنا حديث عن الماوردي المتوفى سنة ٤٥٠ وكتابه الأحكام السلطانية ، وقد درّس المذهب في البصرة وبغداد ، وله في الفقه كتابان هما الحاوي والإقناع ونشرله في العراق كتاب أدب القاضي في مجلدين ، وقد ذكرنا له كتاباً في التفسير . ويزدهر المذهب الشافعي في العراق منذ تأسيس نظام الملك لمدرسته النظامية ببغداد سنة ٤٥٨ وأسس لها أختين في البصرة والموصل ، ووقف عليها جميعاً أوقافاً كثيرة ، وجعل التدريس فيها خاصاً بفقهاء الشافعية لا في الفقه وحده بل في مختلف العلوم ، وقد أسند تدريس المذهب في نظامية بغداد لأبي إسحق الشيرازي أحد أئمة المشهورين ، ويظل يتداول وظائفها كبار الفقهاء في المذهب ، مما أحدث فيه ازدهاراً حقيقياً لا في بغداد وحدها بل أيضاً في البصرة والموصل ، ويُعنى السبكي في طبقاته بالترجمة لأعلام الشافعية في العراق وإحصاء مصنفاتهم ولن نستطيع أن نتابعه ، ونكتفي بأن نذكر من بين من ترجم لهم الشهرزوري^(٢) قاضي القضاة محمد بن محمد المدرس بنظامية الموصل المتوفى سنة ٥٨٦ وابن فضلان^(٣) محمد بن واثق مدرس المستنصرية المتوفى سنة ٦٣١ وابن يونس^(٤) الموصلی عبد الرحيم ابن محمد المتوفى سنة ٦٧١ ، وله التعجيز: مختصر الوجيز والنبیه في اختصار التنبيه ومختصر الحصول في أصول الفقه ، ويقول السبكي : « كان آية في القدرة على الاختصار ، ومن أحسن مختصراته في الفقه كتاب سماه « نهاية النفاسة » قل أن رأيت مثله في عذوبة منطقته وكثرة المعنى وصغر الحجم ، وسأله الحنفية أن يختصر لهم مختصر القدوري » أو موجزه فاختصره اختصاراً حسناً . وعلى هذا النحو ظل الفقه الشافعي ناشطاً في العراق بفضل مدارسه وفقهائه . وكان للمدرستين النظامية والمستنصرية في ذلك حظ موفور .

ولعل المذهب الحنبلي كان أكثر المذاهب الفقهية شياعاً وأنصاراً في بغداد ، منذ التف الناس حول مؤسسه أحمد بن حنبل ، وقد جعله موقفه من الدولة في إنكار الفكرة القائلة

(١) انظره في السبكي ٤/٨٤ وتاريخ بغداد ٤/٣٧٢ (٣) انظره في السبكي ٨/١٠٧ والشدرات ٥/١٤٦ والعبر ٣/١١٩ والمتنظم ٨/١٧ وابن خلکان ١/٧٤ والعبر ٥/١٢٦ والشدرات ٣/٢٠٢ . (٤) راجعه في السبكي ٨/١٩١ والشدرات ٥/٣٣٢ .

(٢) راجعه في السبكي ٦/١٨٥ والعبر ٤/٢٥٩ ومروءة الجنان ٤/١٧١ وذيل مروءة الزمان ٣/١٤ . والنجوم الزاهرة ٦/١١٢

بأن القرآن مخلوق زعيماً شعبياً ، وكان ذلك من أسباب ازدهار مذهبه طوال هذا العصر ، ويكنى أن تمثل بطائفة من فقهاء ، ومن يلقانا منهم في مطالع العصر ابن^(١) بطة عبيد الله بن محمد العكبري المتوفى سنة ٣٨٧ وله كتاب الإبانة بأصول الديانة ، وهو شرح لعقيدة ابن حنبل السنية . ومن ناهيهم في القرن الخامس الشريف أبو^(٢) جعفر المتوفى سنة ٤٧٠ كان إمام الحنابلة في عصره ، وله رءوس المسائل وشرح المذهب ، وجزء في أدب الفقه . ومنهم في القرن السادس أبو الخطاب محفوظ^(٣) الكلواذاني المتوفى سنة ٥١٠ أحد أئمة المذهب ومن تصانيفه الهداية في الفقه والخلاف الكبير المسمى بالانتصار في المسائل الكبار ، والخلاف الصغير المسمى برءوس المسائل ، وكان يعاصره يحيى^(٤) بن منده المتوفى سنة ٥١٢ صنف مناقب الإمام أحمد بن حنبل في مجلد كبير ، وكان يعاصرها أبو^(٥) الوفاء ابن عقيل ، المتوفى أيضاً سنة ٥١٢ ، وله في الفقه الحنبلي كتاب الفصول ويسمى كفاية المفتي ، في عشرة مجلدات وكتاب عمدة الأدلة ، وأكبر كتبه كتاب الفنون وهو كبير جداً ، يقال إنه كان في مائتي مجلد ، وهو في الوعظ والتفسير والفقه والنحو واللغة والشعر والتاريخ والحكايات ، وفيه مناظراته ومجالسه ، وقال الحافظ الذهبي في تاريخه : لم يصنف في الدنيا أكبر من هذا الكتاب . وكان يعاصره ابن أبي يعلى الفراء^(٦) المتوفى سنة ٥٢٦ وله تصانيف كثيرة في الفقه والأصول ، منها المجموع في الفقه ، ورءوس المسائل ، والمفردات في الفقه ، وأيضاً المفردات في أصول الفقه . وولدت في أواخر القرن السادس بعلم حنبلي كبير هو ابن الجوزي . وظل الفقه الحنبلي مزدهراً في العراق طوال العصر ، ومن فقهاء ابن^(٧) البرزالي الحنبلي المدرس بالمستنصرية المتوفى سنة ٧٣٤ وكان يعاصره صفي^(٨) الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادى المتوفى سنة ٧٣٩ ودرس معه في المستنصرية ، ومن درسوا فيها ابن العاقولي^(٩) محمد بن محمد المتوفى سنة ٧٩٧ . ويجانب هذه المدرسة كان

- (١) انظره في تاريخ بغداد ٣٧١/١٠ وطبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ٣٤٦ .
 (٢) راجعه في ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (طبعة المعهد الفرنسي بدمشق) ٢٠/١ .
 (٣) انظره في ابن رجب ١٤٣/١ والنجوم الزاهرة ٢١٢/٥ .
 (٤) راجعه في ابن رجب ١٥٤/١ وابن خلكان ١٦٨/٦ والشذرات ٣٢/٤ والعبر ٢٥/٤ ورواة الجنان ٢٠٢/٣ .
 (٥) انظره في ابن رجب ١٧١/١ والنجوم الزاهرة ٢١٩/٥ .
 (٦) راجعه في حجر في الدرر الكامنة ٣٢/٣ أنه كان شيخ العراق على الإطلاق ، وعد له مصنفات كثيرة وقال : أخذ عنه عمر بن علي معيد الحنابلة .
 (٧) انظره في الشذرات ٣٥١/٦ والدرر الكامنة ٣١٤/٤ وراجع ابن حجر في إنباء الغمر بأنباء العمر (طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة) ٥٠٤/١ حيث يقول إنه انتهت إليه رئاسة المذهب الحنبلي ببغداد ، ويذكر له كتاب شرح المصابيح وأربعين حديثاً عن أربعين شخصاً .

كثير من الحنابلة يدرسون في جامع المنصور وفي بعض مدارس بغداد المتفرقة .

وكان مذهب داود الظاهري في الفقه الذي تحدثنا عنه في العصر العباسي الثاني لا يزال له أنصار في القرنين الأولين من هذا العصر ، وهو مذهب كان ينكر القياس والرأى في الفقه ، وتبعه كثيرون في المائتين الرابعة والخامسة في الأندلس ، إذ عمل هناك ابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ على إزاعته ، وألف كتباً كثيرة لنصرتة ، ونجد أحد تلاميذه وهو الحميدى^(١) محمد بن فتوح المتوفى سنة ٤٩١ يستوطن بغداد منذ أواسط القرن الخامس وفيها أذاع كثيراً مما كان يحمله عن أستاذه ابن حزم . ولا تزال نسمع في العراق وبغداد عن أتباع المذهب الظاهري حتى أوائل القرن السابع الهجري ، إذ نجد من معتنقيه أبا سليمان^(٢) الداودي الضرير المتوفى سنة ٦١٥ . وكان الطبري مفسر القرآن العظيم قد اتخذ لنفسه مذهباً فقهياً يقوم على الاجتهاد ، ولكن مذهبه لم ينجح نجاح المذهب الظاهري ، ومع ذلك نجد من أتباعه في أواخر القرن الرابع الهجري المعافى^(٣) بن زكريا النهرواني المتوفى سنة ٣٩٠ وهو من قضاة بغداد ، ويقول ابن خلكان في ترجمته : إنه كان للطبري أتباع وأخذ بمذهبه جماعة ، منهم المعافى المذكور . وعلى كل حال لم يعيش هذا المذهب الفقهي طويلاً ، وعاش مدة أطول منه المذهب الظاهري في بغداد ، غير أننا لا نعود نسمع به بعد إنشاء المدرسة المستنصرية ، إذ كانت العناية فيها فقط بالمذاهب الفقهية الأربعة : مذاهب أبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل .

وكان الفقه الشيعي يقابل كل هذه المذاهب ، وكان هناك فقهاء : فقه الزيدية وفقه الإمامية ، وكانت الكوفة مركز الفقه الأول في القرن الرابع الهجري ، وانقسم فقهاؤها إلى أربعة مذاهب على نحو ما يوضح ذلك كتاب الجامع^(٤) الكافي في فقه الزيدية لأبي عبد الله محمد بن علي الحسيني المتوفى سنة ٤٤٥ . ويبدو أن نشاط الفقه الزيدي هناك توقف منذ القرن الخامس ، إذ استغرق الكوفة وبغداد المذهب الإمامي عند الشيعة ، وكان نشاط الفقه الزيدي انسحب إلى اليمن : أما الفقه الإمامي فبأخذ في النشاط طوال العصر ، منذ ألف الكليني^(٥) الرازي محمد بن يعقوب كتابه الكافي في علم الدين ، وقد توفي ببغداد

(١) انظر بروكلمان : تاريخ الأدب العربي (طبع دار

المعارف) ٣/٣٣٤

(٢) راجعه في الأنساب ٤٨٦ والرجال للنجاشي ٢٦٦

وروضات الجنات ٥٥٠ ولؤلؤ البحرين ليوسف البحراني

٣١٤ وبروكلمان ٣/٣٣٩

(١) انظره في ابن خلكان ٢٨٢/٤ وتذكرة الحفاظ

١٧/٤ والمتنظم ٩٦/٩ والصلة لابن بشكوال (طبع

القاهرة ٥٣٠ والواقى ٣١٧/٤ .

(٢) راجعه في طبقات القراء ٢٧٨/١ .

(٣) انظره في ابن خلكان ٢٢١/٥ وما به من مراجع

سنة ٣٢٨ وكتابه أحد الكتب الأربعة الأساسية عند الشيعة الإمامية . وهو يتناول فيه عقيدة الإمامية وأسسها وبه أكثر من ستة عشر ألف حديث . وجاء بعده ابن (١) بابويه القمي نزيل بغداد الذي ذكرناه في غير هذا الموضع وله كتاب من لا يحضره الفقيه في تطبيق أحكام الفقه ، وهو من الكتب الأربعة الأساسية عند الشيعة الإمامية ، وهو مطبوع ، وللشيخ المفيد الرسالة المقتنعة في أسس التشريع ، وهي مطبوعة مع شرح لتلميذه الطوسي في تبريز . وللطوسي كما مر بنا في الحديث كتاب الاستبصار ، وهو كتاب فقهي ويعتمدون عليه اعتماداً كلياً في استنباط الأحكام الشرعية ، وله أيضاً كتاب تهذيب الأحكام ، وهو أيضاً من المصادر الأربعة الأساسية عند الإمامية ، وأحدثه مرتبة على أبواب الفقه الأساسية . ومن كتبه في الفقه «المبسوط» وهو مطبوع بإيران ، وكتاب النهاية في مجرد الفقه والفتاوى ، وهو مطبوع ، وقد اتخذته الشيعة الإمامية محوراً لدراساتهم الفقهية منذ عصره ، وله في العبادات كتاب مصباح المتهجد جعله في عشرة أبواب ، وزاد عليه في القرن الثامن المظهر الحلي المار ذكره بابا سماه الباب الحادي عشر ، جعله مكملاً له ، والكتاب مطبوع ومعه شرح للمقداد بن عبد الله الحلبي .

ومررنا في العصر العباسي الثاني حديث مفصل عن الاعتزال وأئمنه وانبثاق مذهب الأشعري منه مع بيان وجوه الخلاف بينه وبين المعتزلة ووجوه الصلة بينه وبين أهل السنة ، وقد طار مذهبه في هذا العصر كل مطار ، فكان الشافعية في خراسان وبغداد وأكثر بلدان العالم الإسلامي يعتنقونه طوال العصر . وبالمثل اعتنقه المالكية حتى قيل إنهم أحص الفقهاء به . واعتنقه أكثر الحنفية في بغداد ، أما في خراسان فقد اعتنقت كثرتهم العقيدة الماتريدية لمحمد بن محمد الماتريدي السمرقندي المتوفى سنة ٣٣٣ وهو يقترب في عقيدته اقتراباً شديداً من الأشعري معاصره ، وكل ما يمكن أن يقال إنه أخذ بفكرة الاختيار في خلق الناس لأفعالهم ، بينما كان الأشعري يقول - كما مررنا في كتاب العصر العباسي الثاني - إن أفعال الإنسان لله خلقاً وصنعاً وللإنسان كسباً وإرادة ، فهو يريد لها والله يخلقها فيه . ولم يكن ذلك معارضة شديدة لمذهب الأشعري فإن بعض الأشاعرة ممن جاءوا بعده أوشكوا أن يأخذوا برأى الماتريدي ، ومن المؤكد أن عقيدته سنية كعقيدة الأشعري . ويروى السبكي أن فضلاء الحنابلة كانوا أشاعرة ، إلا من جنح منهم إلى تشبيه (٢) أخذاً

(١) انظره عند النجاشي ٢٧٦ وفي لؤلؤة البحرين

٣٠٠ وروضات الجنات ٥٥٧ وبروكلمان ٣/٣٤٣ ومابه

من مراجع

(٢) السبكي ٣/٣٦٥ - ٣٧٤ وما بعدها .

بظاهر القرآن . ومعنى ذلك أن مذهب الاعتزال أخذ يتضاءل خاصة بعد القرن الرابع الهجرى ، حقا نسمع من حين إلى حين ببعض المعتزلة مثل الزمخشري ولكن كثرة الفقهاء والعلماء انضوت تحت راية الأشعرى . ومن كبار الأشعرية فى القرن الرابع أبو بكر الباقلاني ^(١) محمد بن الطيب البصرى المتوفى سنة ٤٠٣ يقول ابن خلكان : كان على مذهب أبى الحسن الأشعرى ومؤيدا اعتقاده وناصراً طريقته سكن بغداد وتولى بها القضاء وصنف التصانيف الكثيرة المشهورة فى علم الكلام ، انتهت إليه الرياسة فى مذهبه ، وكان كثير التطويل فى المناظرة والجدل قوى الحجة والبرهنة على آرائه ^(٢) ، ومن مصنفاته فى عقيدته البيان والتهديد فى الرد على الملحدين وأضرابهم ، وهو منشور ومثله كتابه الاستبصار ، وخالف الأشعرى فى مسائل ، منها ما ذهب إليه الأشعرى من أن الكافر لا تُسبغ عليه نعمة ، إذ كل ما يتقلب فيه استدراج ، وكان أبو حنيفة يذهب إلى أن النعمة تُسبغ عليه ووافقه الباقلاني ^(٣) . وكان الأشعرى كما مر بنا آنفاً ينفى الاختيار عن أعمال الإنسان ويجعله كسباً ، بينما كان الماتريدى يجعله اختياراً ، ويفهم من كلام الباقلاني أنه يأخذ برأى الماتريدى أو يتقدم نحوه خطوة ، ويقول السبكي : « وإمام الحرمين والغزالي فى ذلك مذهب يزيد على مذهب الباقلاني والأشعرى ويدنوكل الدنو من الاعتزال » أو بعبارة أدق من رأى الماتريدى ^(٤) . وعلى ضوء ما ذهب إليه أبو الحسن الأشعرى من أنه لا بد من اقتران الأدلة العقلية بالأدلة السمعية من الكتاب والسنة كان الباقلاني ينكر على بعض الفقهاء الشافعية من الأشعرية قولهم بأنه : « يجب شكر المنعم عقلاً » ^(٥) إذ كان ينبغي أن يقولوا : يجب شكر المنعم عقلاً وشرعاً . ويكثر علماء العقيدة الأشعرية فى القرن الخامس وما بعده ، ويكفى أن نعد منهم أبا حامد الإسفرايينى وإمام الحرمين الجوينى والقشيرى والغزالي ، وعدّ منهم السبكي فى ترجمته للأشعرى خمس طبقات ، وكل طبقة تكتظ بأئمة العقيدة وأعلامها فى الوطن الإسلامى ^(٦) . وألف أهل السنة من الحنابلة كتباً كثيرة فى

والخلاء وأن العرض لا يقوم بالعرض (مقدمة ابن خلدون : فصل علم الكلام) وانظر فى بقية آراء الباقلاني الملل والنحل للشهرستاني : الفصل الخاص بالأشعرية . (٣) السبكي ٣/ ٣٨٤ .

(٤) السبكي ٣/ ٣٨٦ وانظر الملل والنحل للشهرستاني (تحقيق محمد سيد كيلاني نشر مكتبة مصطفى الحلبي)

٩٧/١

(٥) السبكي ٣/ ٢٠٢

(٦) السبكي ٣/ ٣٦٨ وما بعدها

(١) راجع فى ترجمة الباقلاني تاريخ بغداد ٥/ ٣٧٩

وابن خلكان ٤/ ٢٦٩ والأنساب للسمعاني ٦١ وتبيين

كذب المفترى لابن عساكر ٢١٧ والمتنظم ٧/ ٢٦٥

والوفاى ٣/ ١٧٧ والديباج المذهب لابن فرحون ٢٦٧

والشذرات ٣/ ١٦٨ وترجمة القاضي عياض له الملحقه

بكتابه «التهديد فى الرد على الملحدة المعطلة والرافضة

والخوارج والمعتزلة» تحقيق الدكتور أبو ريدة (نشر دار

الفكر العربى بالقاهرة)

(٢) مما كان يذهب إليه الباقلاني إثبات الجوهر الفرد

عقيدتهم السنية ، وهى منبئة فى تراجم فقهاءهم مثل كتاب عمدة الأدلة لأبى الوفاء بن عقيل وله أيضاً كتاب الإرشاد فى أصول الدين والانتصار لأهل الحديث ونفى التشبيه ، ومربنا بين فقهاء الحنابلة ابن أبى يعلى الفراء ، وله أيضاً الأدلة فى الرد على الفرق الضالة المضلة ، وشرف الاتباع وسرف الابتداع .

وكان للشيعنة مباحثهم فى العقيدة وعلم الكلام ، وكتبهم الأساسية التى يعدونها أصول عقيدتهم الإمامية هى - كما أسلفنا - كتاب الكافى فى علم الدين للكلينى وكتاب من لا يحضره الفقيه لابن بابويه القمى وكتابا الاستبصار وتهذيب الأحكام للطوسى .

٥

التاريخ

ظلت كتابة التاريخ ناشطة فى بغداد على نحو ما رأينا فى العصرين : العباسى الأول والعباسى الثانى ، وقد مضت تتناول التاريخ العام أو التاريخ الخاص أو تاريخ المدن أو تاريخ الرجال فى الحديث أو الأعيان عامة أو العلماء من كل صنف أو الشعراء أو الأدباء أو سير رجال بذاتهم . وكتب التاريخ العام منها ما هو ذيل على كتب سابقة ، ومنها ما هو مستقل ويشتهر فى أوائل العصر كتاب تجارب الأمم لابن مسكويه وهو تاريخ عام ، وسنقف عنده فى حديثنا فى الفصل الأخير من هذا القسم ويشتهر أبو^(١) شجاع وزير الخليفة المقتدى المتوفى سنة ٤٨٨ بذيل له على هذا الكتاب وهو مطبوع . ويلقانا فى القرن السادس كتاب المنتظم فى تاريخ الأمم لابن^(٢) الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ وهو تاريخ عام يبتدئ بأول الخليفة حتى آخر أيام المستضىء بالله العباسى ، وهو مرتب على السنوات مثل الطبرى ، وعادة يذكر فى كل سنة أحداثها ثم من قضى نحبه فيها مرتبين على حروف الهجاء ، وهو يعنى خاصة ببغداد وأخبارها ، مما يتيح لتصور تاريخها السياسى والاجتماعى تصوراً بَيِّناً . وجاء بعده كتاب الكامل فى التاريخ لعز^(٣) الدين بن الأثير على

(١) انظره فى المنتظم ٩٠/٩ والخريدة قسم العراق وابن خلكان ١٤٠/٣ والنجوم الزاهرة فى سنة ٥٩٧ والوفاء ٧٧/٣ والسبكى ١٣٦/٤ وابن خلكان والشذرات ٣٢٩/٤ وغير الذهبى ٢٩٧/٤ وكتابنا الترجمة الشخصية ص ٤٥ .

(٢) ترجم ابن الجوزى لنفسه فى سياق رسالة نصح فيها ابنه سماها : « لفظة الكبد إلى نصيحة الولد » وهى مطبوعة ، وانظر فيه ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (٣) راجعه فى ابن خلكان ٣٤٨/٣ وغير الذهبى ١٢٠/٥ والشذرات ١٣٧/٥ والسبكى ٢٩٩/٨ والنجوم الزاهرة ٢٨١/٦ .

بن محمد المتوفى سنة ٦٣٠ وهو أنفس كتاب في التاريخ الإسلامى حتى سنة ٦٢٨ وهو مرتب على السنوات ، وقدم له بتمهيد طويل عن تاريخ الفرس والروم وعرب الجاهلية ، وتحدث حديثاً مُسهباً عن أيام العرب القديمة ووقائعهم قبل الإسلام . وجرّدو من السند ، ودعا ذلك إلى أن يقرأ روايات الخبر الواحد في تاريخ الطبرى ويقارن بينها ويستخلص الحقيقة التاريخية منها استخلاصاً رائعاً . ومضى بحسّه التاريخى الدقيق يعرض أحداث التاريخ إلى منتهى الكتاب ، وبذلك أدّى خدمة جليلة للتاريخ الإسلامى ، بل خدمة رائعة . وله كتاب تاريخ دولة أتابكة الموصل وهو مطبوع . وخلفه سبط ^(١) ابن الجوزى المتوفى سنة ٦٥٤ صاحب كتاب « مرآة الزمان في تاريخ الأعيان » وهو كتاب ضخّم كان يقع في أربعين مجلداً ، واشتهر بذكره لمناكير الأخبار ، ويقول الذهبي إنه يترفض في تاريخه وقد نشر منه بجيدر آباد قسمان من الجزء الثامن طبعاً بمطبعة دائرة المعارف العثمانية .

ومن كتب التاريخ العام تاريخ مختصر الدول لابن العبري ^(٢) المتوفى سنة ٦٨٥ كتبه بالسريانية ثم ترجمه إلى العربية وهو مطبوع بالمطبعة الكاثوليكية ببيروت . ومن هذه الكتب كتاب الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية لابن الطقطقي ^(٣) المتوفى سنة ٧٠٩ وقد سماه الفخرى نسبة إلى لقبه ، جعل له مقدمة في السياسة والسلطان ، ثم أخذ يتابع تاريخ الدولة الإسلامية حتى غزو التتار لبغداد ، ويعنى فيه عناية خاصة بوزراء كل خليفة وهو مطبوع مراراً .

وبجانب هذه الكتب التاريخية العامة نلتقى في أواسط القرن الرابع الهجرى بكتاب التاجى في تاريخ الدولة البويهية ، وقد بُنى على السجع ، وبذلك سنّ مؤلفه أبو إسحق الصائى المتوفى سنة ٣٨٤ لبعض المؤرخين سنة سيئة أن يهتموا بتنميق العبارات لا بالتحليل التاريخى كما صنع معاصره ابن مسكويه . ويصنف بعده العاد الأصبهانى كتاباً في تاريخ السلاجقة يسميه نصرة الفطرة وسنترجم له في مصر . ويعنى ابن الساعى المار ذكره المتوفى سنة ٦٧٤ بكتابة تاريخ الدولة العباسية ويؤلف في ذلك تاريخاً جامعاً ثم يجعل له ملخصاً باسم الجامع المختصر وقد نشره الدكتور مصطفى جواد ببغداد الجزء التاسع من هذا الجامع المختصر ، ونشر له بدار المعارف بالقاهرة كتابه « نساء الخلفاء » ويمكن أن نلحق بهذه

(١) انظره في ابن خلكان في ترجمة جده ١٤٢/٣ (٣) انظر فيه الغزوى ٢٦٤/١ ودائرة المعارف الإسلامية وما بها مصادر .
النجم الزاهرة ٣٩/٧ والشذرات ٢٦٦/٥ والجواهر
المضية ٢/٢٣٠ والقوائد البية ٩٦ .

(٢) انظر فيه كتاباً مطبوعاً باسمه في بيروت وبروكلمان

الكتب الخاصة بالتاريخ السياسي كتاب الوزراء لهلal^(١) بن الحسن الصابي المتوفى سنة ٤٤٨ وقد طُبعت منه قطعة في مجلد كبير خاصة بوزارة المقتدر ، وهي حافلة بالأخبار السياسية والاجتماعية والاقتصادية . وأيضاً يمكن أن نلحق بكتب التاريخ السياسي ترجمة بهاء^(٢) الدين ابن شداد لصلاح الدين بطل حطّين وقد سماها النوادر السلطانية والحاسن اليوسفية ، وهو موصل تعلم في بغداد وعين معيداً بها في المدرسة النظامية ، ثم تركها إلى نظامية الموصل ، والتحق بخدمة صلاح الدين ، وظل يتولى القضاء في بعض مدن الشام حتى توفي سنة ٦٣٢ . وعلى غرار سيرته صنع بعض المؤرخين العراقيين سيرة للخليفة الناصر معاصر صلاح الدين .

وعُني بعض المؤرخين بتاريخ المدن ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي السابق ذكره والمتوفى سنة ٤٦٣ تحفة نفيسة ، وقد جعل مقدمتها في مجلد يشتمل على اسم بغداد وتاريخ بنائها وأحيائها الغربية والشرقية وقصورها ومساجدها وكل ما يتصل بها وأفرد بعد ذلك ثلاثة عشر جزءاً لكل من عاش فيها من الأعيان والعلماء والأدباء . كتاب لا نظير له بين كتب التاريخ الخاصة بالمدن . ولابن النجار^(٣) المؤرخ المتوفى سنة ٦٤٣ ذيل عليه في ٣٠ مجلداً واختصره ابن الدمياطي باسم المستفاد من ذيل تاريخ بغداد وفي دار الكتب المصرية نسخة من هذا الذيل بخط مؤلفه . ويذكر ابن خلكان أن لابن^(٤) الدبيثي المتوفى سنة ٦٣٧ تاريخاً لمدينة واسط ، وأهم من ذلك أن له ذيلاً على تاريخ بغداد للسمعاني ترجم فيه للمتوفين ببغداد بعد سنة ٥٥٠ إلى أيامه . وللذهبي انتقاء من هذا الذيل باسم المختصر المحتاج إليه من تاريخ الحافظ ابن الدبيثي نشر منه الدكتور مصطفى جواد جزءين ببغداد . ولابن المستوفي المبارك بن أحمد المار ذكره بين شراح المتنبي تاريخ إربل . وتلقانا كتب مختلفة للصحابة ورجال الحديث ، من أهمها أسد الغابة في معرفة الصحابة لعز الدين بن الأثير الجزري المار ذكره ، وهو معجم أيجدى لتراجمهم ، وهو مطبوع في خمسة مجلدات . وله كتاب اللباب مختصر كتاب الأنساب للسمعاني وهو مطبوع . وألف الدارقطني كتاباً سماه «المختلف والمؤتلف» وقد جمع بينه الخطيب البغدادي

- (١) راجعه في تاريخ بغداد ٧٦/١٤ والمتنظم
١٧٦/٨ ومعجم الأدباء ٢٩٤/١٩ وابن خلكان
١٠١/٦ .
(٢) انظره في ابن خلكان ٨٤/٧ وعبر الذهبي ١٣٢/٥
ومرآة الجنان ٨٢/٤ والشذرات ١٥٨/٥ والسبكي
١٤٥/٢ والشذرات ١٨٥/٥ ومرآة الجنان ٩٥/٤ .
(٣) راجعه في تذكرة الحفاظ ٢١٢/٤ ومعجم الأدباء
٤٩/١٩ والشذرات ٢٢٦/٥ والسبكي ٩٨/٨ والفوات
٥٢٢/٢ .
(٤) انظره في ابن خلكان ٣٩٤/٤ وعبر الذهبي
١٥٤/٥ والسبكي ٦١/٨ والوافي ١٠٢/٣ وطبقات القراء
٣٦٠/٨ .

وبين مشتبته النسبة لعبد الغنى بن سعيد ، وزاد عليها وسمى كتابه « المؤتلف تكملة المختلف » .
ثم جاء بعده أبو نصر بن ماكولا - كما مر بنا - وزاد على هذا الكتاب زيادات في كتاب
مستقل سماه الإكمال ، ومر بنا مديح ابن خلكان له وثناؤه عليه وأن ابن نقطة جعل له ذيلًا
لم يقصّر فيه . ولابن النجار كتب مختلفة في الرجال ، منها : المؤتلف والمختلف ؛ والمتفق
والمفترق في نسبة المحدثين إلى الآباء والبلدان وكتاب جنة الناظرين في معرفة التابعين .
وللزين العراقي المتوفى سنة ٨٠٦ ذيل طويل على الذهبي في الرجال .

وهناك كتب كثيرة وُضعت في تراجم العلماء والأدباء من كل صنف . ومن الكتب
الجامعة لكل فروع الحركة العلمية والأدبية والفلسفية والمأثورات المترجمة عن الهند والفرس
واليونان كتاب الفهرست لابن النديم وسبق أن تحدثنا عنه في غير هذا الموضع ، وتحدث
الآن عن كتب التراجم العلمية والأدبية ونبدأ بما وضع في الفقهاء بعامة مثل كتاب
أبي إسحق الشيرازي أول المدرسين في نظامية بغداد المتوفى سنة ٤٧٦ وقد ضم في كتابه إلى
فقهاء المذاهب الأربعة فقهاء المذهب الظاهري . وأول من وضع كتاباً في طبقات الشافعية
أبو حفص عمر المطوعي المتوفى سنة ٤٤٠ سماه « المذهب في فقهاء المذهب » ، ووضع
فيهم أبو النجيب السهروردي البغدادي المتوفى سنة ٦٣٢ مختصراً ، ثم ألف فيهم
إسماعيل بن هبة الله بن سعيد بن باطيش ^(١) الموصلي المتوفى سنة ٦٥٥ وهو أحد مصادر
السبكي في طبقات الشافعية . واهتم الحنابلة بالكتابة في تراجم فقهاءهم ، من ذلك كتاب
طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى الفراء الذي مر ذكره ، ووضع له ابن رجب ^(٢) البغدادي
ذيلًا طويلاً في مجلدين ، وقد توفي سنة ٧٩٥ . وعنى الشيعة بالكتابة في رجالهم ، وكتاب
الرجال للنجاشي أحمد بن علي المتوفى سنة ٤٥٠ مشهور وهو مطبوع .

وضع أحمد بن بختيار الواسطي المتوفى سنة ٥٥٢ كتاباً ^(٣) في القضاة . ومما وضع في
اللغويين والنحاة كتاب أخبار النحويين البصريين للسيرافي وكتاب نزهة الألباء لابن
الأنباري وهما منشوران . ومن كتب التراجم المبكرة كتاب صوان الحكمة لأبي سلمان
المنطقي السجستاني المار ذكره وهو في تاريخ الأطباء والفلاسفة وقد نُشر منتخب له في طهران
حققه الدكتور عبد الرحمن بدوي ، وهو موزع على قسمين : قسم خاص بفلاسفة اليونان
وأطبائهم وقسم خاص بالمشتغلين بالفلسفة في الإسلام ، وهو كتاب نفيس .
ووضعت في الشعر والشعراء كتب كثيرة منها كتاب المختلف والمؤتلف في أسماء الشعراء

(١) انظره في السبكي ١٣١/٨ والشذرات ٢٦٧/٥

(٢) راجعه في الدرر لابن حجر ٤٢٨/٢

(٣) انظره في معجم الأدباء ٢٣١/٢ والسبكي ١٤/٦

للآمدي المارّ ذكره ، وكتاب معجم الشعراء للمرزياني معاصره صاحب كتاب الموشح ، وقد نشرت منه قطعة ، ووضع أبو المعالي ^(١) الحظيري المتوفى سنة ٥٦٨ كتاباً في الشعراء على غرار دمية القصر للباخرزي وبتيمة الدهر للثعالبي سماه زينة الدهر وعصرة أهل العصر في ذكر لطائف الشعراء ، ووضع بعده العماد الأصهباني دائرة معارف كبرى في شعراء العالم العربي سماها خريدة القصر وجريدة العصر. ويشتهر ابن الجوزي بكتابه في الصوفية « صفة الصفوة » وهو مطبوع في أربع مجلدات وله كتاب في الأذكياء وكتاب في الظرفاء وكتاب في أخبار المغفلين . ولياقوت الحموي البغدادى المار ذكره كتاب معجم الأدباء وهو مطبوع في عشرين جزءاً ذكر فيه أخبار اللغويين والنحويين والقراء والمؤرخين والكتاب والمؤلفين ولابن الشعار ^(٢) الموصلي المتوفى سنة ٦٥٤ كتاب في شعراء القرن السابع سماه « عقود الجنان في شعراء الزمان . ولابن القوطي المار ذكره ^(٣) المتوفى سنة ٧٢٣ كتاب الدرر الناصعة في شعراء المائة السابعة ، وله معجم رتبته حسب الألقاب ، نشر منه مصطفى جواد الجزء الرابع الأقسام (١ - ٤) ونشر القاسمي في لاهور الجزء الخامس . واشتهر ابن ^(٤) خلكان الموصلي المتوفى سنة ٦٨١ بكتابه « وفيات الأعيان » وهو غاية في الدقة والتحرى .

-
- (١) راجعه في معجم الأدباء ١٩٤/١١ وابن خلكان ٣٧١/٥ ومرآة الجنان ١٩٣/٤ والنجوم الزاهرة ٣٥٣/٧ والوفاء بالوفيات ٣٠٨/٧ وحسن المحاضرة للسيوطي (طبعة محمد أبو الفضل إبراهيم) ٥٥٥/١ والدارس في تاريخ المدارس للتميمي (طبع دمشق) ١٩١/١ وروضات الجنات ٨٧ وراجع ترجمته في أول الجزء السابع من كتابه وفيات الأعيان .
- (٢) راجعه في معجم الأدباء ١٩٤/١١ وابن خلكان ٣٦٦/٢ وخريدة القصر (قسم العراق) ٢٨/١/٤ .
- (٣) من كتابه مصورة بمعهد المخطوطات بالجامعة العربية .
- (٤) انظره في تذكرة الحفاظ ٤/٢٧٤ والدرر الكامنة ٤٧٤/٢ .
- (٥) انظر في ابن خلكان العبر ٣٣٤/٥ وفوات الوفيات

الفصل الثالث

نشاط الشعر والشعراء

١

كثرة الشعراء

ظلت موجة الشعر التي مرت بنا في العصرين العباسي الأول والثاني حادة طوال القرن الرابع الهجري ، بل لعلها ازدادت حدة ، ويكفي للدلالة على ذلك أن يبرز في مستهل المتنبي وفي أواخره الشريف الرضي ومهيار ، غير شعراء كثيرين ، فتح لهم الثعالب في كتابة البيمة ثم في تمة البيمة الفصول تلو الفصول ، وقد بلغ عددهم في العراق عنده أكثر من سبعين شاعراً مما يصور ازدهار الشعر حينئذ ، وهو ازدهار هيات له عوامل مختلفة ، من رعاية الخلفاء وأمرأ بني بويه ولاهم ووزرائهم للشعراء ، فقد أغدقوا عليهم المكافآت والجوائز ، وليس ذلك فحسب . فقد استقبلوهم في مجالسهم وحولوها أو حولها بعضهم مثل عضد الدولة البويهى إلى نواد أدبية .

وربما كان الجيل الأول من البويهيين لا يحسن العربية ، فقد روى أن معز الدولة أول حاكم منهم لبغداد حين دخلها احتاج إلى من يترجم له كلام الوزير على بن عيسى^(١) ، غير أن الجيل التالى له أكب على الثقافة العربية والقرين على نظم الشعر ، حتى لنجد صاحب البيمة يسلك في الشعراء ابنه بختيار ، غير أمراء آخرين من بيته^(٢) . وكان وزراء بني بويه يتنافسون في جذب الأدباء والشعراء إليهم ، حتى غدت مجالسهم نوادى شعرية حقيقية ، وأول من اشتهر بذلك من وزرائهم في العراق المهلبى وزير معز الدولة ، وكان غيثاً مدراراً للشعراء ، فأكبوا على مجالسه يمدحونه ، ويفيض كتاب البيمة بمدائحه . وكان لا يقل عنه رعاية للشعراء سابور بن أردشير وزير بهاء الدولة بن عضد الدولة ، وقد عقد صاحب البيمة لمدائحه باباً مستقلاً عرض فيه خمس عشرة مدحة لناجيههم^(٣) . وكان يرعى

(١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لآدم (٢) البيمة ٢١٦/٢

(٣) البيمة ١٢٤/٣

ميتز (طبعة القاهرة) ٢٨/١

الشعراء بجانب ذلك كثير من ذوى البيوتات ، وفي مقدمتهم الشريف الرضى ورعايته لمهيار مشهورة . ولابد أن نلاحظ أن الثعالبي فاته الوقوف عند بعض الشعراء ، في عصر البويهيين مثل مُدرك بن محمد الشيباني ، وهو بدوى قدم بغداد في شبابه وتولى بها القضاء وتوفى سنة ٣٩٠ واشتهر بأرجوزة ماجنة نظمها في غلام نصراني في نحو خمسين دوراً ذكر فيها شعائر الديانة المسيحية وطقوسها وحواريها ذكراً مفصلاً^(١) ، ومثل أئى الحسن محمد بن عمر الأنباري ، وكان صديقاً للوزير ابن بقية ، فلما صلبه عضد الدولة البويهى رثاه بمرثية رائعة . وتلقانا بعد اليتيمة وتتمتها موجه ثانية من الشعراء في كتاب دمية القصر للباخرزى ، وقد توفى بعد الثعالبي بنحو ثلاثين عاماً سنة ٤٦٧ للهجرة ، مما جعلها يتواردان أحياناً في الحديث عن بعض الشعراء . وفي الحق أن شعراء الدمية مخضرمون لحقوا عصر بنى بويه وامتد بهم الأجل في عصر السلاجقة .

وبذلك كانت الدمية لا تصور تماماً الحركة الشعرية في العصر السلجوقي ، لسبب طبيعى ، وهو أنها إنما أُلِّمَتْ بأوائله . ومربنا في الفصل الثانى ما دفع إليه وزير ألب أرسلان نظام الملك (٤٦٥ - ٤٨٥ هـ) من نهضة علمية وأدبية مباركة ، فقد فتح أبوابه للشعراء وأغدق عليهم نوالاً غمراً ، فجاءوه يمدحونه من كل أنحاء العراق ، وينشد الباخرزى في مواضع كثيرة بعض مدائحه . وتلقانا بعد الباخرزى ثغرة أو فجوة نحو خمسين عاماً ، لو أن ذيل الدمية المسمى كتاب زينة الدهر وعُصرة أهل العصر للحظيرى نُشر لسدَّ هذه الثغرة ، فإن الحظيرى توفى سنة ٥٦٧ وكان قد جمع طائفة كبيرة من شعراء أهل عصره وممن تقدمهم ، وذكر لكل شاعر طرفاً من أحواله وشيئاً من أشعاره . وحرى بنا أن نذكر صُرْدَر (على بن الحسن) الشاعر المشهور ببغداد في أواسط القرن الخامس ، وقد توفى سنة ٤٦٥ وله ترجمة في ابن خلكان ، وبالمثل ابن السراج البغدادى (جعفر بن أحمد) صاحب مصارع العشاق المتوفى سنة ٥٠٠ وله ترجمة في ابن خلكان وغيره . وقد تلا الحظيرى مباشرة العباد الأصبهاني بكتابه الخريدة التى ترجم فيها لشعراء العالم العربى على طريقة الدمية واليتيمة ، غير أن ترجماته مستفيضة ، وهو ينقل فيها مراراً عن الحظيرى ، مما يدل على أنه يتلافى كثيرين ممن سقطوا في الثغرة التى تحدثنا عنها آنفاً . والمنشور حتى الآن من قسم العراق في الخريدة أربعة مجلدات ضخمة . وهى تتناول في العراق ، كما في الأقاليم الأخرى ، شعراء القرن السادس الهجرى حتى نحو سنة ٥٧٠ ، وقد تعرضت لبعض شعراء

(١) معجم الأدباء ١٩/١٣٥ وانظر تاريخ بغداد

القرن الخامس . والعماد فيها يجمع بين فترتين : فترة سلجوقية تبدئ من القرن السادس حتى سنة ٥٥١ ثم فترة الخلافة العباسية إذ رُدَّ إلى الخلفاء صولجان الحكم منذ هذا التاريخ ، وانتهى بذلك عهد السلاجقة في بغداد والعراق . والعماد يفتح المجلد الأول من الخريدة بعرض تراجم للخلفاء العباسيين منذ القائم بأمر الله (٤٢٢ - ٤٦٧ هـ) حتى المستضيء بأمر الله (٥٦٦ - ٥٧٥ هـ) ومع كل خليفة ماله من أشعار . ثم يفتح باباً يذكر فيه محاسن الوزراء والكتاب منذ أواسط القرن الخامس حتى زمن المستضيء ، منشداً ما عرفه من أشعارهم ، وقد يذكر بعض ما قبل من مدائح ، ويُمضِي في ذلك كله نحو مائتي صفحة من القطع الكبير من المجلد الأول ، ويترجم للشاعر المعروف باسم الحَيْصُ بيص ترجمة ضافية ، يَعْرِض فيها أشعاراً كثيرة من ديوانه مرتبة على الحروف في نحو مائة وخمسين صحيفة ، ويتبعه في المجلد الثاني بالترجمة لستة وثلاثين شاعراً ، لعل أهمهم علي بن أفلح وابن الهبارية وابن جليّنا . وتلت في المجلد الثالث بجماعة من أعمال سواد بغداد شرقاً وغرباً ، لعل أهمهم الحظري والبندنجي ، ثم يذكر جماعة من شعراء الحلة والكوفة وهيت والأنبار . وقد عرضنا لشعراء الحلة عند العماد في القسم الأول من هذا الكتاب في تضاعيف حديثنا عن شعراء البدو ، وينتهي المجلد الثالث بالحديث عن شعراء واسط ، وربما كان أهمهم ابن السوادى ، وهو ماجن من طراز ابن سُكَّرة وابن حجاج . ويستمر المجلد الرابع في عرض شعراء من واسط أهمهم ابن المعلم ، ثم يذكر طائفة من شعراء البصرة وأدبائها ، أهمهم الحريري ويحيى بن سعيد بن ماري النصراني ، وله ستون مقامة حاكي فيها الحريري ولكنها دون مقاماته . ونظل بعد سنة ٥٧٠ دون مرشد هاد ، إلا ما اشتمل عليه كتابا معجم الأدياء لياقوت ووفيات الأعيان لابن خلكان من شعراء بغداد ، مما يكاد يشغل المائة التالية للخريدة . ولو أن كتاب عقود الجمان في شعراء هذا الزمان لابن الشعار الموصلى المتوفى سنة ٦٥٤ نُشر لسد الفراغ الشاغر من شعراء النصف الأول من القرن السابع الهجري في العراق وغير العراق ، ولكنه لما ينشر . وفي معهد المخطوطات بالجامعة العربية مصورة منه ، والأعلام فيه ليست مرتبة على الأقاليم والبلدان مثل الخريدة والدمية واليتمية ، وإنما على حروف المعجم ، كترتيب المعاجم ، وهو كتاب نفيس . على كل حال يسدُّ ابن خلكان وياقوت وأيضاً فوات الوفيات هذه الثغرة التي تمتد حتى اكتساح التتار لبغداد سنة ٦٥٦ . ونستطيع أن نتعرف على بعض الشعراء النابهين في تلك الحقبة مثل ابن التلميذ هبة الله بن صاعد المتوفى سنة ٥٦٠ وسبط ابن التعاويذى المتوفى سنة ٥٨٣ ولعل العماد الأصبهاني ترجم لهما في المجلدين اللذين لما ينشرا من القسم العراقي بالخريدة ، ومثلها الأبله الشاعر المتوفى سنة

٥٧٩. وتلقانا في النصف الأول من القرن السابع طائفة من الشعراء ، من أهمهم أبو حفص عمر السُّهْرَوْرْدِيُّ البغدادي الصوفي والحاجري المتوفيان سنة ٦٣٢ والصَّرَصْرِيُّ وابن أبي الحديد المتوفيان سنة ٦٥٦ .

ويكتسح التتار بغداد والعراق ، ويحذف كثير من ينابيع الفكر والحضارة والعلم والأدب ، ويظل للشعر شيء من نشاطه في زمن المغول الإيلخانيين ، ويلقانا ابن رشيد البغدادي المتوفى سنة ٦٦٢ والشهاب التَّلَعْفَرِيُّ والواعظ الكوفي البغدادي المتوفيان سنة ٦٧٥ . ونغضى إلى القرن الثامن ونلتقي بشعراء عراقيين مختلفين ترجم لهم ابن حجر في الدرر الكامنة ، ويظهر كوكب شعري كبير وسط الدياجي التي أخذت تطبق على الحياة الأدبية في العراق ونقصد صني الدين الحِلِّيَّ المتوفى سنة ٧٥٠ وهو خاتمة شعراء العراق العظام قبل العصر الحديث . وكان يعاصره محمد بن القاسم الملقب بالمليحي الواسطي المتوفى سنة ٧٤٤ وله ترجمة في الدرر الكامنة ، ومثله على بن الرُّردَةِ المتوفى سنة ٧٥٠ . ولا نكاد نلتقي بشاعر مهم في زمن التُّركان ، بين من ترجم لهم السخاوي في كتابة « الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع » وبالمثل لا يلقانا شاعرنا به في زمن العثمانيين سواء في دورة حكمهم الأولى أو في دورة المماليك . وحقا يوجد بعض شعراء عراقيين في كتب التراجم مثل « سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر » لابن معصوم و « خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر » للمحبي وكتابة « نفحة الرحانة » ومثل « سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر » للمرادي . ومن لمع اسمه في الدوريتين المذكورتين شهاب الدين الموسوي المتوفى سنة ١٠٨٧ هـ / ١٦٧٦ م وديوانه مطبوع وشعره فيه متوسط ، ومثله الشيخ محمد كاظم الأزرى المتوفى سنة ١٢١١ هـ / ١٧٩٦ م وقد طبع ديوانه في بومباي . وقد يكون من الطريف أن نفرا من الشعراء كانوا يقدِّمون لدواوينهم ^(١) ، ولكن على كل حال كانوا جميعا نظامين أكثر منهم شعراء بالمعنى الحقيقي لكلمة شعراء .

٢

رُبَاعِيَّاتٌ وَتَعْقِيدَاتٌ وَمَوْشَحَاتٌ

مرَّبَّنَا في كتاب العصر العباسي الأول ما نهض به الشعراء من تجديد في الأوزان وكيف أن هذا التجديد رافقه تجديد آخر في القوافي ^(٢) ، ولعل أول ما شاع من صوره اللونُ

(١) راجع تاريخ الأدب العربي في العراق لعباس (٢) انظر في ألوان هذا التجديد كتاب العصر العباسي العزاوي (طبع بغداد) ٢/٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٣٠٣ الأول (طبع دار المعارف) ص ١٩٦ وما بعدها .

المسمى بالمزدوج ، إذ استخدمه الوليد بن يزيد وأخذ استخدامه بعده يتسع في الشعر التعليمي منذ أبان بن عبد الحميد ، وتبعه الشعراء ينظمون فيه التاريخ والعلوم والفلسفة . وهو الذي سماه الفرس فيما بعد باسم المثنوى مختارين له وزناً معيناً وفيه تتحد القافية بين شطري كل بيت مع تغييرها من بيت إلى بيت . وبذلك لم تعد الوحدة فيه البيت ، وإنما الشطر ، وأكبر الظن أن ذلك هو الذي ألهم الوشاحين فيما بعد أن تقوم الوحدة في موشحاتهم على الشطر لا على البيت . وقد اتسع استخدام هذا اللون المزدوج في هذا العصر : عصر الدول والإمارات ، إذ لم يترك العلماء علماً دون أن يودعوه في أرجوزة مزدوجة ، وتوجد المكتبات العربية بهذه المزدوجات في كل علم وكل فن .

وقد ظهرت المسمطات منذ فواتح العصر العباسي الأول ، وهي قصائد تتألف من أدوار ، وكل دور يتألف من أربعة شطور أو أكثر ، وتتفق شطور كل دور في قافيتها ما عدا الشطر الأخير فإنه ينفرد بقافية مغايرة يلتزمها الشاعر في جميع الشطور الأخيرة من الأدوار . والمسمط مشتق من السَّمَط ، وهو قلادة تنتظم فيها عدة سلوك تلتق عند جوهرة كبيرة ، وكأن كل دور في المسمط الشعري سلك يلتق مع الأدوار أو الأسلاك الشعرية الأخرى في قافية الشطر الأخير . وقد مثلنا في كتاب العصر العباسي الأول بمسمطين لأبي نواس يتألف الدور في أحدهما من أربعة شطور وفي الثاني من خمسة . وتظل المسمطات طوال عصر الدول والإمارات قائمة بجوار القصيدة ، وينظم الشعراء فيها من حين إلى حين إظهاراً للبراعة ، وعنى كثير منهم أشد العناية بتصفية ألفاظه وخفها على اللسان ورشاقها على نحو ما نجد في هذه الأدوار من مسمط ^(١) أنشده العماد الأصبهاني في الخريدة لأبي المعالي بن مسلم :

يَارِيمُ كَمْ تَجَنَّى ؟	لَمْ قَدْ صَدَدْتَ عَنَّا	صِلْ عَاشِقًا مَعْنَى
	بِالْوَصْلِ مَا تَهَنَّا	
السَّلْسَبِيلُ رِيْقُ	وَالشَّهْدُ وَالرَّحِيقُ	وَالوَرْدُ وَالشَّقِيقُ
	مِنْ وَجَنَّتِيهِ يُجَنَّا	
قَدْ غَيَّرُوا وَلَا مَوَا	مِنْ شَقَّةِ السَّقَامُ	مَا يَنْفَعُ الْمَلَامُ
	مَنْ فِي هَوَاكَ جُنَّا	

والدور في هذا المسمط يتألف من أربعة شطور ، والرابع قطبها الذي تدور عليه ، ومثله المسمطات ذات الشطور الخمسة وتسمى الخمسات ، ومثلها ذات الشطور الستة

والسبعة وتيسمى المسدّسات والمسيّعات . وشاع في الحقب المتأخرة تخميس بعض القصائد المشهورة مثل همزية البوصيري وبردته

وتظهر الرباعيّات مع المسمّطات والشعر المزدوج ، وقد ذكرنا في كتاب العصر العباسي الأول أنها بدأت مع بشار وحامد عجرد وأنها كثرت عند أبي نواس وأبي العتاهية ، وضررنا لها بعض الأمثلة ، والرباعية أربعة شطور من الشعر تؤلّف بيتين ، ولأنها تتكوّن من أربعة شطور سميت رباعية ، وعادة يتحد الشطر الأول والثاني والرابع في القافية ، أما الشطر الثالث فقد يتحد مع تلك الشطور في قافيته وقد يختلف . وتلقانا هذه الرباعيّات كثيراً في اليتيمة والدمية والخريدة ، وفي كتب الأدب مثل معجم الأدباء ، ومربّنا أنه ترجم لشاعر يسمى مدرك بن علي الشيباني ، وذكر له أرجوزة تشتمل على خمسين دوراً كل دور رباعية منفردة . وبذلك أعدد نمط الرباعية من قديم لظهور الشعر الدوري في العربية . ولم يكن شعراء العصرين : العباسي الأول والثاني يَحْصُصُونَ الرباعية بوزن معين ، بل كانوا ينظمونها في جميع أوزان الشعر حتى إذا كان هذا العصر : عصر الدول والإمارات وجدنا الفرس يَشْرَكُونَ العرب في استخدامهما متخذين لها اسم « دوبيت » و « دو » عندهم اثنان . وأيضاً فإن الفرس والعرب جميعاً أخذوا يستخدمون فيها وزناً جديداً هو : « فَعْلُنْ مُتَفَاعِلُنْ فَعُولُنْ فَعْلُنْ » وهو الذي ضبطه العروضيون ، وأهم منه وزن ثان هو « فَعْلُنْ فَعْلُنْ مُسْتَفَعِلُنْ مُسْتَفَعِلُنْ » . وتصور ذلك رسالتان ^(١) فريدتان في عروض الدوبيت نشرهما هلال ناجي ببغداد ، وهما لمالك بن المرحّل المتوفى سنة ٦٩٩ وأولاهما تُعْنَى بالوزن الأول للدوبيت ، والثانية تعنى بالوزن الثاني ، ومن أجل ذلك رجح هلال ناجي أن لا تكون الرسالة الثانية من صنع مالك . ويبدو أن الفرس في القرن الخامس كانوا أكثر شغفاً بالرباعيّات من العرب على نحو ما هو معروف عن الخيام في رباعيّاته ، وتلقانا في الخريدة رباعيّات كثيرة ، ويترجم العماد فيها لشاعر من موظفي الخلافة العباسية وعمالها في الستينيات من القرن السادس الهجري ، يسمى أبا المحاسن ^(٢) بن البوشنجي ، ويقول إنه كان لهجاً بنظم الرباعيّات ، ويسوق له طائفة منها في الغزليات والخمريات من مثل قوله متغزلاً :

ما أطيّب ما زارَ بلا ميعادٍ يَحْتَالُ كَغُصْنٍ بَانَةٍ مَيَّادٍ

(١) انظر الرسالتين في العدد الرابع من المجلد الثالث من (٢) انظر ترجمته في الخريدة ٢/٢٥٧ .
مجلة المورد ببغداد .

ماطلٌ ، ولا بَلَّ غَلِيلَ الصَّادِي حَتَّى قَرَّبَ الْبَيْنَ وَنادى الحادِي
فصاحبه زارته دون موعد ، مختالة بجماها كغصن متمائل ، ويقول إنها ماطلت
وزارت ، ولا بَلَّتْ غليله المتقد الظامي للقاء ، حتى كان الفراق ونادى حادى الركب ،
فجاءت تودعه من وقوف أو كما يقال : ما سلّمت حتى ودّعت . ومن رباعياته الخمرية
قوله :

رَقَّتْ وَصَفَتْ وَاسْتَرَقَتْ أَلْبَابَا رَاحَ لَبَسَتْ مِنَ الضَّنَا جَلْبَابَا
يَا بَدْرُ أَدِرْ وَعَدَّ عَمَّنْ يَأْبَى كَأَسَا ، طَرَدَ الهمُّ بها فأنْجَابَا

والرباعية فيها شيء من روح رباعيات الخيام وما فيها من دعوة إلى العكوف على شرب
الخمر ، أو بعبارة أدق الفرار إليها من الهم والغم ، حتى تنتعش النفس ، كما يقول ، وتطرح
عنها بؤس الحياة بما تعب من دنان الخمر وما تجد في مجلسها من أنس وطرب . ويسوق
صاحب رسالة الدوبيت الثانية تسع رباعيات قائلاً إنه مما أنشده أبو عبد الله محمد بن حامد
الأصبهاني صاحب الخزيدة ، ويستهلها بالرباعية التالية :

الْوَرْدُ عَلَى خَدِّكَ مَنْ أَنْبَتْهُ وَالْمَسْكُ عَلَى وَرْدِكَ مَنْ فَتَنَتْهُ
وَالْقَلْبُ عَلَى نَائِكَ مَنْ ثَبَّتَهُ اجْمَعْ شَمْلًا هَوَاكَ قَدْ شَتَّتَهُ

وهي رباعية بديعة بما اشتملت عليه من تصوير يحمل غير قليل من المفاجأة ، حين
يجعل صاحبها الخد ورداً حقيقياً ، ويعود فيجعله ناشراً لأريج عطر حوله ، وكأن
مسكاً دُرّ عليه ونثر ، ويعجب أن تنأى صاحبه وقلبه لا يزال في صدره . وإن فؤاده
ليتوزع فوقاً ، ويضرع لصاحبه أن تجمع شمله المشتت ، لعل صوابه يرد إليه . ويسوق
صاحب رسالة الدوبيت الثانية أيضاً طائفة من رباعيات أنشدها ابن الجوزي يُفَتِّ على
عشر ، وموضوعها غزل ولكنه غزل صوفي ، فقد كان ابن الجوزي من كبار الوعاظ وكان
سني التصوف ، ومما أنشده :

الْحُبُّ يَقُولُ لَا تُشْغِ أَسْرَارِي وَالدمعُ يَسِيلُ هَاتِكَا أَسْتَارِي
وَالشُّوقُ يَزِيدُ ، لَا عَلَى الْمَقْدَارِ وَأَنَا رَى ! مِنْ هَذَا الْهَوَى وَأَنَا رَى

فحببيه يطلب إليه أن يكتم حبه ، وهو لا يستطيع له كتماناً ، إذ دائماً يبكي طالباً
الوصال ، ملحاً في طلبه وفي بكائه ، والدموع تسيل مدراراً كسحب منهلة ، والشوق
يلدعه ويكويه وهو يتوجع من نيرانه . إنه حب الذات العلية الذي يُضْنِي ويسقم
والحب يتألم آلاماً لا يطيقها إلا الصابرون المولعون بوصال الذات الربانية . ومما أنشده

ابن الجوزى فى تلك الرباعيات :

ما أصنع ؟ هكذا جرى المقدورُ الجبرُ لغيرى وأنا المكسورُ
مأسورُ هوى متيمٌ مهجورُ هل يمكن أن يغيرَ المسطورُ

والرباعية تفيض بياس حب مهجور ، يقول ما أصنع والحجاب يقوم بينى وبين محبوبى ، هكذا جرى القلم ولا يسعه إلا أن يمثّل ويدعن ، وإنه لياسى أسى عميقاً لنفسه ، فغيره يُجبرُ ويوصلُ وهو يُحرّمُ ويُبعدُ ويكسرُ كترجاج مصدوع لا يُشعبُ ، وإنه لأسير هذا الهوى الذى يبرّح به والذى يتعثّر فى شباكه ، قدرُ أزل كُتب عليه ، لا مفرّ منه ولا مهرب . وابن الجوزى توفّى سنة ٥٩٧ وتوفى العباد فى نفس السنة ، وفى كثرة إنشادها للرباعيات ما يدل على أنها قد شاعت فى عصرها وانتشرت انتشاراً واسعاً . وهى تلقانا عند الحاجرى وغيره من شعراء القرن السابع . ويقول مالك بن المرحّل إنها تستعذب فى الغناء ، وأكبر الظن أنها لم تكن تستعذب فى الغناء فحسب بل كانت تستعذب أيضاً فى أناشيد المتصوفة بحلقات الذكر ، وقد جمع كامل الشيبى طائفة كبيرة منها على مر العصور ونشرها باسم ديوان الدوبيت .

وأخذ يعم منذ أوائل هذا العصر مذهب التصنع والتعقيد الذى صورناه بالتفصيل فى كتابنا « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » وقد أوضحنا كيف أن المحسنات البديعية فى مذهب التصنيع والتنميق السابق له كأنما أخذت تزايلها أو تفارقها بعض أصباغها عند العراقيين وغيرهم من شعراء العصر ، ومثلنا لذلك باستخدام المتنبى للطباق والاستعارة واستخدام غيره للجناس . وقد أولع الشعراء فى هذا العصر باللون الأخير ، وأخذوا يطلبون فيه صعوبات مختلفة ، ومن أخف صورها قول أبى الجوازى الواسطى ^(١) المتوفى سنة ٤٦٢ :

واحزنى من قولها خانَ عهدى ولها
وحق من صيرنى وفقاً عليها ولها
ما خطرْتُ بخاطرى إلا كسّتنى ولها

ولها فى نهاية البيت الأول من اللهو ، وقد جانس بينها وبين الجار والمجرور فى نهاية البيت الثانى ثم جانس بينهما وبين كلمة « وله » أى شدة الوجد فى نهاية البيت الثالث . وقد يقبل هذا الجناس العقد فى تلك الأبيات لحفته ، غير أننا لا نكاد نمضى بعد

(١) انظر فى أبى الجوازى ابن خلكان ١١١/٢ وتاريخ والمتنظم ٢٥٨/٨ وميزان الاعتدال ٢٣٨/١ .

بغداد ٣٩٣/٧ والدمية ٣٤٢/١ والحريدة ٤/ ٣٤٣

صاحبه حتى نلتقي بالحسن^(١) بن أسد الفارقي المتوفى سنة ٤٨٧ ، وكان يكثر من التجنيس ، كما لاحظ العباد الأصهباني وياقوت ، وله قصيدة تجمع خمسة عشر بيتاً ، وكل بيت فيها مختوم بكلمة «عين» طلباً للجناس الكامل ، فهي تتوالى بمعنى عين الإنسان وبمعنى رقيب وبمعنى عين الماء إلى غير ذلك من معانيها . وهو تكلف شديد . ونظن ظناً أنه أحد من أشاعوا فكرة تكوّن الجناس بين كلمة وكلمتين يؤديانها لفظاً في مثل قوله :

تُرَاك يا متلفَ جسمي ويا مُكثِرَ إعلاي وأمرأسي
من بعد ما أضنيتني ساخطاً علىَّ في حبك أم راضي

وواضح أن كلمتي «أم راضي» في البيت الثاني تقابلان أو تجانسان كلمة «أمرأسي» في البيت الأول . ويلاحظ أن مثل هذه الجناسات في نهايات الأبيات لم تكن تحقق فكرة الجناس فحسب ، بل كانت تحقق أيضاً فكرة لزوم ما لا يلزم في القوافي إذ تصبح القافية أكثر من حرف أو روى ، ولذلك يقول العباد إنه كان يلتزم ما لا يلزم في قوافيه . وفي الحق أن أبا العلاء هو الذي فتح في لزومياته لمثل هذه الكلف في الجناس على نحو ما يوضح ذلك كتابنا «الفن ومذاهبه في الشعر العربي» وكان يطلبه أحياناً بين أول كلمة أو كلمتين في البيت وآخر كلمة ، مما جعل الحريري يستلهم صنيعه في المقامة الحلبية قائلاً :

سِمَ سِمَةً تَحْسُنُ آثَارَهَا وَاشْكُرْ لِمَنْ أَعْطَى وَلَوْ سِمْسِمَةً
والمكرُّ مِمَّا اسْطَعَتْ لَا تَأْتِي لَتَقْنِي السُّودْدَ وَالْمَكْرُمَةَ

والجناس واضح بين أول البيتين وآخرهما وهو في البيت الثاني جانس بين اللفظة الأولى وجزء من تاليته وبين اللفظة الأخيرة . وكل ذلك تصعيب وتعقيد في التماس الجناس . ويخلف الحريري يحيى بن سلامة الحَصَكِي نزيل مِيفَارِقِينَ المتوفى سنة ٥٥٣ فزاه ينظم بعض قصائد قاصداً بها إلى التجنيس منها قصيدة بناها على التجنيس الناقص افتتحها بقوله^(٢) :

أَطْعِ الْهَوَى فَاَلْعَقْلُ خَازٍ خَازِمٌ وَالْجَهْلُ يُغْرِى وَهُوَ هَازٍ هَازِمٌ

وخاز : قاهر . وهاز : ساخر . ويمضى في القصيدة مجانساً بين كلمتين متواليتين على هذه الصورة المتكلفة وكأنه لم تعد هناك حاجة وجدانية لنظم الشعر ، إذ حلت محلها

(١) راجع في الحسن بن أسد الفارقي الحفيدة (قسم ٢٢٩/١ .

(٢) الحفيدة (قسم الشام) ٥٠٨/٢ .

٤١٦/٢ ومعجم الأدياء ٥٤/٨ وإنباه الرواة ٢٩٤/١ وشذرات الذهب ٣٨/٣ وفوات الوفيات

حاجة إلى التعقيد في الشعر وتصعيب ممراته التي يسلكها الشاعر إلى صناعته .
 وإذا رجعنا إلى البديعيات منذ بديعية صفي الدين الحلي وجدنا الشعراء دائماً يعقّدون
 فيها ، وقد يضيفون ألواناً جديدة ولكن ينقصها الحسن والرونق والبهاء . وقد أكثروا من
 الاقتباس ، وحسّن أن يقتبس الشاعر بعض ألفاظ القرآن الكريم والحديث الشريف فإنها تلذ
 النفس ، غير أن الشعراء أكثروا من اقتباس أشعار الأسلاف يضمنونها قصائدهم ،
 مما يعطل الحركة الوجدانية في أشعارهم ، وبلغ من تكلفهم في هذا اللون أن نجد شاعراً
 يسمى الشيخ أحمد النجفي الحليّ المتوفى سنة ١١٨٣ هـ/ ١٧٦٩ م يضمن إحدى مدائحه
 شطوراً من ألفية ابن مالك المشهورة في النحو ، فله شطر ولابن مالك شطر^(١) .
 ودفع المتنبي الشعراء منذ أوائل هذا العصر إلى التصنع للثقافات المختلفة ، وقد
 أوضحنا ذلك في كتابنا « الفن ومذاهبه في الشعر العربي » فصورنا تصنعه لبعض
 مصطلحات التصوف وسمات العبارة الصوفية وللأفكار والصيغ الفلسفية ولألفاظ
 اللغة الغربية وبعض اشتقاقاتها النادرة وأساليبها النحوية الكوفية الشاذة . وتبعه أبو
 العلاء يكثر في لزومياته من التصنع لألفاظ العلوم اللغوية والإسلامية . ومضى الشعراء
 في العراق وغير العراق بعد الشاعرين الكبيرين يلتمسون أحياناً التجديد في الأساليب
 بما يطوى فيها من مصطلحات علمية . وكل ذلك كان تعقيداً وقيداً ، حتى يصعب
 الشعراء عملهم ، وحتى يظهروا مهارتهم في السلوك إليه من أضيّق الممرات والدروب .
 وأخذت تظهر سريعاً صور من التمارين الهندسية في الشعر ، وكأن الشاعرية لم تعد
 تقاس بالأثر الوجداني الذي يحدثه الكلام في نفوس الناس ، بل غدت تقاس بما يمكن
 أن يستحدثه الشاعر من عقّد ، وربما كان الحريري أهم من فتح هذه الأبواب ، إذ
 نراه في مقاماته لا يزال يغرب بأفانين لفظية كثيرة ، فمن ذلك أن تُقرأ الأبيات طرداً
 وعكساً كما جاء في المقامة المغربية من مثل قوله :

اسلُ جنابَ غاشمٍ مشاغِبٍ إن جلسا

فإن البيت يُقرأ من آخره كما يقرأ من أوله دون أى اختلاف في لفظ أو حرف ،
 ومن الغريب أن من جاءوا بعده جعلوا ذلك لوناً من المحسنات البديعية وسموه
 « ما لا يستحيل بالانعكاس » . وتتمرّن هندسى ثان عرضه في المقامة الشعرية ، وهي
 أبيات التزم في داخلها قافية غير قافيتها الخارجية على هذه الصورة :

يا خاطبَ الدنيا الدنيّة إنها شركُ الرّدى وقرارة الأكدار

دارُ متى ما أضحكْتُ في يومها أبكتُ غداً بُعداً لها من دارٍ
فإننا إذ أوقفنا عند الكلمة الدالية في الشطر الثاني أصبح البيتان من مجزوء الكامل
على هذا النحو :

يا خاطب الدنيا الدنيءة إنها شرك الردى
دارُ متى ما أضحكْتُ في يومها أبكتُ غدا

وبجانب هذا التمرين الهندسى الذى لا يضيف معنى نجده فى مقامته التى سماها
بالرُقطاء يتكرر تمريناً أحد حروف كلماته منقوط وتاليه غير منقوط من مثل قوله :
خلفٌ متلفٌ أغرٌ فريدٌ نابهٌ فاضلٌ ذكىٌ أنوفٌ
ويتلو هذا التمرين بتمرين مماثل فى نفس المقامة ، وكرر ذلك فى المقامتين المروية
والبكرية . ونراه فى المقامة الحلبية يتدع تمريناً شعرياً من طراز خطي آخر ، هو طراز
الحروف الخالية من النقط فى مثل قوله :

أعدِدْ لحسادِك حدَّ السَّلاحِ وأوردِ الآملِ وردَ السَّاحِ

ولا يكتفى بهذا التمرين ، بل يضيف إليه تمريناً شعرياً خطياً ثانياً ، كل كلماته مؤلفة
من حروف معجمة أو منقوطة من مثل قوله :

فَتَنَّنِي فَجَنَّنِي (تَجَنَّنِي) بَتَجَنَّنِي يَفْتَنُّ غِبَّ تَجَنَّنِي

وكأن هذين التمرينين الهندسيين فى تلك المقامة لم يُقنعا ، أو كأنه أحس أنه من
الممكن محاكاتها فجاء بتمرين خطي ثالث ، لا يتعلق هذه المرة بالنقط وعدمه ، بل
يتعلق بشكل الحروف ، إذ يظن من ينظر إلى كلماتها نظرة سريعة أنها متماثلة مثل :
زُيْنَتْ زُيْنَبُ بِقَدْ يَقْدُ وتلاه - وَيلاه - نَهْدُ يَهْدُ

وواضح أن بين كل لفظين متوالين تجنيساً خطياً واضحاً . وكل ذلك ليس شعراً
وإنما هو تمارين أو لعبٌ هندسية ^(١) ، غير أنهم كانوا يعجبون بها ، ولذلك نرى
الشعراء - وخاصة المتأخرين - ينظمون منها كثيراً . ومن تمة هذه التمارين الهندسية فى
العصر كثرة الألفاظ والأحاجى فى الشعر وقد خصوها بالتأليف اهتماماً بها ، من ذلك
كتاب الإعجاز فى الأحاجى والألفاظ للحظيرى وعنه ينقل العماد فى الخريدة ^(٢) ، ولا
يلبث أن يترجم لشاعر شُغِف بها هو الحكيم ^(٣) النيل الطيب ، ويذكر له طائفة من

الغازه الشعرية في العقل والرمانة وكيزان الفخار والنأي وفيه يقول :

له رأسٌ يخالف منه جسماً بلا رجلٍ فقسُ فيما تقيسُ
يثنُ أنينُ صَبٍّ مستهامٍ مشوقٌ قد نأى عنه أنيسُ
وليس بذي صَبَابَاتٍ فيهِوى ولكنَّ الهوى فيه حبَّيسُ

غير الغاز آخرى ذكرها العماد ، والغازه طريفة ، غير أن من جاء وابعده حشدوا فيها شعراً رديئاً معقداً . وقد أكثر الشعراء في الحقب المتأخرة من التواريخ في الشعر ، إذ يحسبون بيتاً أو نصف بيت بحساب الجمل مؤرخين للسنة التي نظموا فيها قصائدهم أو لسنة العرس الذي هنأوا به أو للسنة التي وُلد فيها غلام إلى غير ذلك مما لا يفيد معنى . ومع ذلك فقد كان هناك شعراء مجيدون دائماً ، كانوا أعلاماً ناهين ، وسنفرد لهم بعض الصفح التالية .

ومن أهم ما تمتاز به أقالمتنا في العصور الوسطى أنه كانت تسود بينها في الأدب وفي العلم وحدة ، جعلت كل شاعر نابه في إقليم كأنه شاعر البلاد العربية جميعها ، كما جعلت كل لون جديد يظهر في إقليم لا يلبث أن تنظم فيه الأقاليم الأخرى ، ومن خير الأمثلة الدالة على ذلك الموشحات ، إذ نجدتها تظهر في الأندلس ويضع لها قوانينها في القرن السادس شاعر مصري هو ابن سناء الملك ، ونراها على السنة الشعراء في الشام والعراق وغيرهما من البلدان العربية ، ومن أمثلتها في الخريدة موشحة ^(١) لشاعر موصل هو التاج البلطى المتوفى سنة ٥٩٩ . ويلقانا في القرن السابع وشاح عراقي كبير ترجم له ابن تغرى بردى في المنهل الصافي باسم شهاب الدين الموصلى ^(٢) أحمد بن الحسن صاحب الموشحات ، وكان يستخدمها في المديح وغير المديح ، وينشد ابن تغرى بردى موشحة له عارض بها موشحة للقاضى الفاضل عبد الرحيم ، تجرى على هذا النحو :

بى مَنْ حَوَى الحسْنَ كُلَّهُ	وفاق	غَيْدَ الأَكِلَةِ ^(٣)
بَذَرُ تَمَامٍ مَصَوَّرٍ	ما	فيه نَقْصُ الأَهْلَةِ
فَشَعْرُهُ لليالَى	وَفَرَقُهُ	للصباحِ
وَجَفَنُهُ للنِّصَالِ	وَقَدُّهُ	للرِّمَاحِ
وَرِيْقُهُ للزُّلالِ	وَنَعْرُهُ	للأَقَاحِ

(٣) الأكلة هنا : جمع كلة وهى السر أولعها جمع

(١) الخريدة (قسم الشام) ٣٨٩/٢

(٢) انظر ترجمته في المنهل الصافي لابن تغرى بردى إكليل وهى عصابة تزدان بالجواهر

(طبع دار الكتب المصرية) ٢٥١/١

وقد بدأ موشحته بالقفل وتلاه بالدور ، ثم تتابعت الأقفال والأدوار ، وكان يعرف كيف ينتخب كلماته عذبة رشيقة ، كما كان يعرف أنه لكي تتكامل رشاقة الموشح يحسن أن تكون الشطور في الأدوار قصيرة وأن يسرى فيها صفاء موسيقى بديع . وأنشد له ابن تغرى بردى موشحة يعارض بها موشحة مظفر الأعمى المصرى :

كَلِّمِي يَا سَحْبُ تَيْجَانَ الرَّبِّي بِالْحَلِي

وظن بعض الأسلاف أن هذا الموشح لابن سناء الملك ، لروعة موسيقاه ، وهو ظن مخطيء وكان مظفر يعاصره تقريباً ، فقد توفى بعده بنحو خمس عشرة سنة . وتمضى موشحة الموصلى في هذه الصورة :

جَلِّمِي	يَارَاحُ كَأْسِي	وَلَهَا كَلِّمِي
بِالْحَلِي	سَوَارَهَا	ثُمَّ لَهَا خَلِّمِي
	مَنْ غُرَّ	حَبَابِكَ الْمَنْظُومِ مِثْلَ الدَّرِّ
	بِالْخَمَرِ	كَأَنَّهُ الْيَاقُوتُ فَوْقَ الْجَمْرِ
	وَالزُّهَرِ	فِي الرَّوْضِ أَمْثَالُ النُّجُومِ الزُّهَرِ

ومهارته واضحة في انتخاب الألفاظ والملاءمة بينها في الجرس والنغمة ، وبحق يصف ابن تغرى بردى موشحاته بأنها بديعة وأنها ذات نظم رائع . ويقول إن له موشحات كثيرة . وربما كان أهم الوشاحين العراقيين بعده صنى الدين الحلى ، وثلث في ديوانه باثنتي عشرة موشحة منها ست في مديح الملوك والأمراء وخمس في الغزل وموشحة صوفية . ومع أنه أجمل صوت يلقانا بعد القرن السابع فإنه يهبط في موشحاته درجة أو درجات عن الموصلى وربما كان أخف مطلع لموشحاته قوله في فاتحة موشحة عارض بها أبا بكر بن بقل الأندلسي المشهور في موشحة بديعة له :

صَاحِبَ السِّيفِ الصَّقِيلِ الْحَلِّي	جَرَّدَ اللَّحْظَ	وَالْتَمَّ السَّلَاحَ
لَكَ يَا رَبَّ الْعَيُونِ	الْقَوَاتِلُ	
مَا كُنِيَ عَنْ حَمَلِ سَيْفٍ	وَذَابِلٍ ^(١)	
أَعْيُنٌ تَبْدُو لَدِيهَا	الْمُقَاتِلُ	

ما سرى في جفنها الحسن إلا أوثقت منا قلوباً جراحاً وربما كانت المعارضة هي التي جعلته يتفوق في هذه الموشحة ، كما جعلته يصفى لفظه تصفية ، شديدة بحيث أصبح يشبه الماء العذب السلسيل ، وخاصة في هذا المطلع البديع .

شعراء المديح

لا نبالغ إذا قلنا إن كل من تلقاهم من عشرات الشعراء - إلا مَنْ ندر - عند أصحاب اليتيمة والدمية والخريدة ومن جاءوا بعدهم كانوا شعراء مديح ، ونبغى أن لا نقلل من أهميتهم وأهمية شعرهم ذاهبين مع مَنْ يذهبون إلى أن هذا الشعر كان في مجموعه نفاقاً وملقاً ، وهى فكرة مخطئة ، فقد ظهر العرب على مسرح التاريخ منذ العصر الجاهلى وهم يتغنون بمديح شيوخهم وأبطالهم راسمين فيهم الأجداد الحرية لقبائلهم ومثالياتهم الخلقية الكريمة ، مُدْكِين بذلك الحماسة فى نفوس الشباب . وبذلك كان الشعر ديوان مفارخهم أو عبارة أدق كان المديح هو هذا الديوان ، وأيضاً كان ديوان مثلهم الخلقية من الجود وعزة النفس والكرامة . وانضمت إلى ذلك إشاعات إسلامية منذ ظهر الدين الحنيف ، إذ مضى شعراء المديح حين يمدحون خليفة أو والياً يتحدثون عن العدل أو العدالة التى لا تصلح حياة الناس بدونها ، كما يتحدثون عن تقواهم وصدورهم فى الحكم عن روح الإسلام وتعاليمه . ولم يتركوا معركة بينهم وبين أعدائهم من الأجانب إلا سجّلوا مجدنا الحربى فيها ليدفعوا الشباب إلى سَلِّ السيوف وقطع رقاب الأعداء ومحققهم محققاً . وبذلك كله كان المديح طوال العصور السابقة لهذا العصر صحيفة تربية ، يجد فيها الشباب القدوة الحسنة فى العمل المجيد وفى الخلق الحميد . وظلت لها هذه الغاية طوال عصر الدول والإمارات ، فالشعراء يصوّرون فيها رجال الأمة العربية وكل ما يتحلّون به من خصال رفيعة وكل ما يحققونه لدولهم وإماراتهم من أعمال حربية ، وكأنهم يريدون أن يرفعوهم نُصَبَ عيون الشباب شعارات تعبّر عن آمال الأمة التى حققوها والأخرى التى تأمل منهم أن يحققوها ، مما جعلهم أحياناً يبالغون فى تصويرهم كأنما يريدون أن يحملوهم على النهج الصحيح الذى تريده الأمة ، ولذلك يكثر أن لا يكتفوا بتصويرهم فى صورهم الحقيقية ، بل يصوروهم كما تريد لهم ومنهم الأمة أو الإمارة .

وأول موجة تلقانا من شعراء المديح فى العصر شعراء اليتيمة وتتمتها الذين عاصروا الدولة البويهية ، وفى الحق أن البويهيين ووزاءهم - كما مرّ بنا - بعثوا فى هذا العصر نهضة شعرية قوية ، بما أسبغوا على الشعراء من عطايا وما فتحوا لهم من مجالسهم ، ولن نستطيع أن نعرضهم جميعاً ، غير أننا سنقف قليلاً عند ثلاثة من أفذاذهم ، هم أبو الحسن محمد

بن عبد الله السَّلامى وأبو الفرج عبد الواحد بن نصر المعروف باسم البَغَّاء وأبو نصر عبد العزيز بن محمد بن نُباتة المعروف باسم ابن نَباتة السَّعدى . والثلاثة من مداح سيف الدولة بحلب وحكام العراق جميعاً . وقد ولد السَّلامى بكرَّخ بغداد ^(١) وتوفى سنة ٣٩٣ وله مديح رائع فى عضد الدولة البويهى يقول فيه من قصيدة طويلة :

إليك طوى عَرَضَ البَسِيطَةِ جاعلاً قُصَارَى المطايا أن يلوح لها القَصْرُ
فكنت وعزى فى الظلام وصارمى ثلاثة أشباه كما اجتمع النَّسْرُ
وبشَّرتُ آملى بملكٍ هو الورى ودارٍ هى الدنيا ويومٍ هو الدهرُ
وأبو الفرج البَغَّاء ^(٢) من نصيبين فى الموصل ، توفى سنة ٣٩٨ وذكره الثعالبي طائفة من أشعاره كان يُتَغَنَّى بها فى عصره ، وله مدائح مختلفة فى سابور بن أردشير وزير بهاء الدولة البويهى ، ومن مدحه لسعيد الدولة بن سيف الدولة بن حمدان :

لَا غَيْثُ نُعْمَاهُ فى الْوَرَى خَلْبُ الْبَرْقِ وَلَا وَرْدُ جُودِهِ وَشَلُّ ^(٣)
جَادَ إِلَى أَنْ لَمْ يُبْقِ نَائِلُهُ مَالاً وَلَمْ يُبْقِ لِلْوَرَى أَمَلُ

وَأَبْنُ نَبَاتَةِ السَّعْدَى ^(٤) من شعراء بغداد وأفرادهم المبدعين ، توفى سنة ٤٠٥ وهو من مداح عضد الدولة ، وله فيه قصائد مختلفة يصف فى إحداها نار السَّدَق ، وكان عيدا مشهورا للنار عند الفرس فى الإسلام كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع ، وله فى سيف الدولة قصائد بديعة ، منها قصيدة فى وصف فرس أغر محجل أهدها إليه ، وفيها يقول :

نَخْتَالُ مِنْهُ عَلَى أَغْرٍ مَحْجَلٍ مَاءُ الدِّيَاجِى قَطْرَةٌ مِنْ مَائِهِ
فَكُنَّا لَطَمَ الصَّبَاحِ جَبِينَهُ فَاقْتَصَّ مِنْهُ فَخَاضَ فى أَحْشَائِهِ

وهو تعليل بديع لبياض الغرَّة والساقين معاً ، وكنى عن شدة سواده كناية رائعة إذ جعل الدياجى قطرة من سواده ، وله فى سيف الدولة بيتة المشهور :

لَمْ يُبْقِ جُودُكَ لى شَيْئاً أَوْمَلُهُ تَرَكْتَنى أَصْحَبُ الدُّنْيَا بِلَا أَمَلٍ

وكان يحدو حدو المتنبي فى كثرة الفخر والحماة والشكوى من الدهر والزمن ، وايضاً كان يحاكيه فى نثر الحكم بشعره من مثل قوله :

(١) انظر فى ترجمة السَّلامى البيهية ٣٩٥/٢ . وابن خلكان ١٩٩/٣

١٢٤/٣ وابن خلكان ٤٠٣/٤ وتاريخ بغداد ٣٣٥/٢ (٣) وشل : ضحل

(٤) انظر فى ترجمة ابن نَباتة السَّعدى البيهية ٣٧٩/٢ والمتنظم ٢٢٥/٧ والوافى ٣١٧/٣

(٢) راجع فى ترجمة البَغَّاء البيهية ٢٣٦/١ وتاريخ بغداد ٤٦٦/١٠ وابن خلكان ١٩٠/٣ وعبر

بغداد ١١/١١ والمتنظم ٢٤١/٧ والشذرات ١٥٢/٣ الذهبى ٩١/٣ والشذرات ١٧٥/٣

وَمَنْ لَمْ يَمْتَ بِالسَّيْفِ مَاتَ بغيرِهِ تَنَوَّعَتِ الْأَسْبَابُ وَالْمَوْتُ وَاحِدٌ

وسنعرض لشاعرين كبيرين من شعراء العصر البويهى بين شعراء التشيع هما الشريف الرضى ومهيار . ولا يلقانا في الدمية شاعر كبير ولعل من الغريب أنها لم تترجم لأكبر شعراء القرن الخامس : على ^(١) بن الحسن الرئيس أبى منصور المشهور بلقبه صُرْدُرُ المتوفى سنة ٤٦٥ وديوانه مطبوع بدار الكتب المصرية ، ويقول ابن خلكان : جمع شعره بين جودة السبك وحسن المعنى ، وعليه طلاوة رائعة وبهجة فائقة . وديوانه يموج بالمدائح البديعة ، ومن قوله فى الخليفة القائم :

كَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَلْقَى رِداءَهُ من « القائم » الهادى على جبَلٍ راسى
زَمَانُ الْوَرَى فى ظِلِّهِ وَجَنَابِهِ كَأَيَّامِ تَشْرِيقِ وَلِيْلَاتِ أَعْرَاسِ
هُوَ الْمُصْطَفَى التَّقْوَى مُتَاعاً لِنَفْسِهِ بِجَوْهَرِهَا حَالٍ بِسُنْدُسِهَا كَاسِ
من الخلفاء الرافعين ببناءهم بِأَطْوَلِ أَعْمَارٍ وَأَثْبَتِ آسَاسِ
وواضح أن لغته رصينة وصوره بديعة ، وقد جعل زمان الناس فى أيام القائم أعراسا
وأيام تشرىق وهى أيام عيد الأضحى بعد يوم النحر ، فأيامه أعياد وأعراس وأفراح لما أشاع
فيها من عدل وأمن . وله فى فخر الدولة محمد بن محمد بن جهمير حين تولى الوزارة سنة
٤٥٥ قصيدة من مشاهير القصائد كما يقول ابن خلكان فى ترجمة ابن جهمير ، وسننشد
بعض غزلها فى حديثنا عن شعراء الغزل ، وفيها يقول له :

أَعَدْتُ إِلَى جِسْمِ الْوِزَارَةِ رُوحَهُ وَمَا كَانَ يُرْجَى بَعْثُهَا وَنُشُورُهَا
وهى قصيدة بديعة ، ولا يقل عنها إبداعا قصيدة ثانية للشاعر مدح بها ابن جهمير حين
أعاده الخليفة القائم إلى الوزارة سنة ٤٦١ بعد عزله ، وفيها يقول :

قَدْ رَجَعَ الْحَقُّ إِلَى نِصَابِهِ وَأَنْتَ مِنْ كُلِّ الْوَرَى أَوَّلَى بِهِ
مَا كُنْتَ إِلَّا السَّيْفَ سَلَّتْهُ يَدٌ ثُمَّ أَعَادَتْهُ إِلَى قِرَابِهِ
أَكْرَمَ بِهَا وَزَارَةً مَا سَلَّمْتُ مَا اسْتُودِعْتُ إِلَّا إِلَى أَرْبَابِهِ
مَشُوقَةً إِلَيْكَ مَذْ فَارَقْتُهَا شَوْقَ أَخِي الشَّيْبِ إِلَى شَبَابِهِ
وقراب السيف : غمده . والقصيدة كأختها رائعة . ويموج كتاب الخريدة بشعراء

كثيرين ومدائحهم ، نذكر من بينهم الحَيَّصَ ^(٢) بَيَّضَ أبا الفوارس سعد بن محمد التميمي

(١) انظر فى صُرْدُرُ المنتظم ٢٨١/٨ وابن خلكان (العراق) ٢٠٢/١ ومعجم الأدباء ١٩٩/١١ والمنتظم ٣٨٥/٣ ، ١٢٩/٥ وعبر الذهبي ٢٥٩/٣ والشذرات ٣٢٢/٣ والنجوم الزاهرة ٩٤/٥ .
(٢) أبى أسبعية (طبع مكتبة الحياة ببيروت) ، ص ٣٨٠ والسبكي ٩١/٧ وقد نشر ديوانه ببغداد .

المتوفى ببغداد سنة ٥٧٤ عُرِفَ باسم الحَيَّصِ يَبُصُّ لأنه رأى الناس يوماً في حركة شديدة فقال : ما للناس في حَيَّصٍ يَبُصُّ ، فلصقت به الكلمة لقباً له ، وهو يشغل في المجلد الأول من القسم العراقي في الخريدة نحو مائة وستين صحيفة ، استهلها العماد بأنه من سلالة أكرم ابن صبيح الحكيم الجاهلي ، وذكر أنه قرأ عليه ديوانه واقتطف قطعة من خطبته للديوان يفضل فيها الشعر على النثر ، وقطعة أخرى يتحدث فيها عن اشتغاله في أول شبابه بالفقه ومسائل الخلاف فيه ، ثم اتجه إلى الشعر فبرع في نظمه . ويستعرض العماد ديوانه على ترتيب الحروف في الافتخار والمديح ، ويذكر له ثلاثة أبيات هنا بها الخليفة المستضيء بأمر الله حين اعتلى عرش الخلافة سنة ٥٦٦ تجرى على هذا النمط :

سألنا الله أن نُعْطَى إماماً نعيش به فأعطانا نَجِيًّا
بَلَّغْنَا فوق ما كنا نرجى هنيئاً يا بني الدنيا هِنِيًّا
وقد كُشِفَ الظلامُ بمستضيءٍ غداً بالناس كلهم حَقِيًّا

وسرَّ المستضيء حين سمع منه ذلك فأعطاه ثلاثمائة دينار وخلعة وداراً ، وأقطعه ضيعة كبيرة . ولعل في ذلك مايدل على أن سوق المديح ظلت رائجة طوال أزمنة الخلافة العباسية ببغداد . وخلف المستضيء الناصر (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ) فعمل على رواج سوق المديح بكل ماوسعه ، حتى لقد أنشأه ديواناً خاصاً وسمى الشعراء المدونة أسماؤهم فيه باسم شعراء الديوان ^(١) ، وأكبر الظن أنه كان يُجْرَى عليهم رواتب ، وكانت لهم مواسم كثيرة يلقون فيها الشعر حين يتولى خليفة وحين يُقبل عيد أو يُولد ولد أو يُختن ، وكذلك حين يسترد الخليفة صحته من مرض ألمَّ به . وبالمثل كان للوزراء وذوى البيوتات شعراؤهم ، وشاعر الناصر الفذ سَيِّط ابن التَّعاوِذي ، وسنترجم له . ويقال إن محي الدين بن الجوزي كان ينظم في كل أسبوع قصيدة يمدح بها الناصر ^(٢) ، فما بالناس بغيره من شعراء الديوان الذين كانوا يلتزمون المناسبات لنظم مدائحهم . ومنذ احتدمت الحروب بين صلاح الدين والصليبيين وأخذت انتصاراته تتوالى أخذ كثيرون من شعراء العراق ينظمون مدائحهم فيه ، من مثل العلم الشاتاني ^(٣) الموصلي المتوفى سنة ٥٧٩ وله فيه مدحة استهلها بقوله :

(١) انظر نساء الخلفاء لابن الساعي تحقيق د. مصطفى جواد (طبع دار المعارف) ص ٩ وراجع الجامع المختصر لابن الساعي (طبع بغداد) ٦٩/٩ ، ١٥٣ ، والوافي ١٠١/٢ و ٣٧٩/٤ .
٣٣٧/١
(٢) انظر في ترجمة الشاتاني الخريدة (قسم الشام) ٣٦١/٢ وابن خلكان ١١٣/٢ وتهذيب ابن عساكر ١٧٧/٤ والسبكي ٦١/٧ .
(٣) ذيل مرآة الزمان لليوني (طبع حيدر آباد)

أرى النَّصْرَ معقوداً برايتك الصَّفْراً فسرّ وافتح الدنيا فأنّت بها أحرى
ونوّه صاحب النجوم الزاهرة بآبن الشَّحْنَة الموصلى أبى حفص عمر بن محمد لمُدْحَة
قافية له في صلاح الدين ^(١) . ومن مداحه بالموصل أيضاً ابن الدهان ^(٢) أبو الفرج عبد الله
ابن أسعد المتوفى سنة ٥٨١ ، وقد نشر ديوانه ببغداد أخيراً ، وقصد مصر زمن الوزير
الفاطمي طلائع بن رُزَيْك وأنشده في مديحه قصيدة كافية بديعة ، ويقال : بل أرسلها إليه
فكافأه عليها بجائزة سنّية وفي تخلصه بها من الغزل إلى المديح يقول :

لَانَلْتُ وَصَلَكُ إِنْ كَانَ الَّذِي زَعَمُوا وَلَا سَقَى ظَمَى جَوْدُ ابْنِ رُزَيْكَ
الْقَاتِلُ الْأَلْفَ يَلْقَاهُمْ فَيَغْلِبُهُم وَالْوَاهِبُ الْأَلْفَ تَلْقَاهُ فَيَغْنِيكَ

ونغضى في القرن السابع الهجرى ، فتلتقى براجح ^(٣) الحليّ المتوفى سنة ٦٢٧ وتهنئة أنشدها
الكمال سلطان مصر حين استخلص دمياط من الصليبيين سنة ٦١٨ وردّهم مدحورين إلى
البحر المتوسط وما وراءه ، وكان قد عاونه في دَحْرهم أخواه المعظم عيسى والأشرف
موسى ، وإلى ذلك يشير راجح في قصيدته مستخدماً للتورية إذ يقول :

تَهَلَّلْ وَجْهُ الدَّهْرِ بَعْدَ قُطُوبِهِ وَأَصْبَحْ وَجْهُ الشَّرْكِ بِالظُّلَمِ أَسْوَدَا
أَعْبَادَ عَيْسَى إِنْ عَيْسَى وَجَزَبَهُ وَمُوسَى جَمِيعَا يَخْدُمُونَ مُحَمَّدَا
وواضح أنه قصد إلى التورية حين جعل المعظم عيسى والأشرف موسى يقفان في خدمة
أخيها الكامل محمد ، وهى تورية بديعة . ويتوفى الخليفة الناصر ، ويخلفه ابنه الظاهر
لنحو سنة ، ويتوفى ، فيخلفه ابنه المستنصر (٦٢٣ - ٦٤٠ هـ) ومن أهم شعرائه ابن أبى
الحديد المتوفى سنة ٦٥٦ وقد نظم فيه مجموعة من المداخل طبعت باسم المستنصرين ،
وسنعرض له بين شعراء الشيعة ، ومن شعرائه أيضاً مجد الدين النشائي ^(٤) أسعد بن إبراهيم
الإربلى المتوفى سنة ٦٥٧ وكان يكثر من مديحه بمثل قوله :

وَرِثَ النَّبُوَّةَ طَاهِراً عَنْ طَاهِرٍ إِرْثًا يَنْزُهُ عَنْ مَقَالَةٍ مُفْتَرَى
وَإِذَا رَأَى الرَّاعُونَ نُورَ جَلَالِهِ لَمْ تَلَقَ غَيْرَ مَهْلَلٍ وَمُكَبَّرٍ

(١) النجوم الزاهرة ٥٨/٦

شاكر الكبي ٣١٨/١ والشذرات ١٢٣/٥ .

(٢) راجع ترجمته في الخريدة (قسم الشام) ٢٧٩/٢ (٤) راجعه في فوات الوفيات ١٧/١ وقد روى له

وابن خلكان ٥٧/٣ والسبكي ١٢٠/٧ وتهذيب ابن

عساكر ٢٩٢/٧ والشذرات ٢٧٠/٤

(٣) انظر ترجمة راجح وشعره في ابن خلكان ٧/٤

والنجوم الزاهرة ٦/٢٤٢ ، ٢٧٣ وفوات الوفيات لابن

ويكثر مثل هذا الغلو في المديح منذ أوائل العصر ، وأكبر الظن أنه من أصداء مدائح الشيعة لأنتمهم وما أحاطوهم به من هالة قدسية ومن مبالغات مفرطة . وطبعاً أُلغى ديوان الشعراء بعد الغزو التتارى وركدت سوق الشعر . ونمضى في القرن السابع فتلنقى بفخر الدين مظفر بن الطراح المتوفى سنة ٦٩٤ وله مدائح كثيرة في علاء الدين عطا ملك الجوينى صاحب ديوان بغداد ^(١) . وكان يعاصره ابن نعيم الحلى ، وله ديوان ^(٢) سماه « شرف المزية في المدائح العزمية » مدح به صدر الحلة عز الدين أبا محمد حسن بن الحسين الأسدى الحلى ، ويكفى القرن الثامن فخراً ظهور صفى الدين الحلى فيه . ومربنا في فواتح الفصل اسم شهاب الدين الموسوى في العصر العثمانى الأول واسم محمد كاظم الأزرى في العهد العثمانى الأوسط أو عهد المالك ، ولها ديوانان يطفحان بالمديح ، ولعل من الخير أن نخص بالحديث كبار شعراء المديح في العصر : المتنبى ، وسبط ابن التعاوىذى ، وصفى الدين الحلى .

المتنبى ^(٣)

هو أبو الطيب أحمد بن الحسين من عشيرة جُعْفَى المذحجية اليمنية ، ولد سنة ٣٠٣ هـ بحى كِنْدَةَ في الكوفة ، ولذلك قد يقال له الكندى . أما أمه فكانت همدانية ، فهو يمينى أباً وأماً . وذكر بعض خصومه وهجائييه أن أباه كان سقّاء ، وأضاف بعضهم أن اسمه

بغداد) والوساطة بين المتنبى وخصومه لعل بن عبد العزيز الجرجاني (طبع دار إحياء الكتب بالقاهرة) والصحيح المتنبى في الكشف عن حبيبة المتنبى للبديعي (طبع دار المعارف) وذكرى أبى الطيب للدكتور عبد الوهاب عزام ومع المتنبى لطف حسن والمتنبى لمحمود محمد شاكر وكتابتنا الفن ومذاهبه في الشعر العربى (الطبعة العاشرة) ص ٣٠٣ وكتابتنا فصول في الشعر ونقده : ما كتب فيه بعنوان العروبة في شعر المتنبى وكتاب بلاشير عن أبى الطيب المتنبى . ويذكر ابن خلكان أنه وقف حتى عصره على أكثر من أربعين شرحاً لديوانه ، وأهم شروحه المطبوعة شرح ابن جنى وبينه وبين المتنبى مراجعات كثيرة وشرحه نفيس ، ومن شروحه شرح العكبرى وشرح الواحدى وهما مطبوعان . وشرحه أبو العلاء بشرح مطول سماه معجز أحمد ، يقصد ديوانه .

(١) العزوى ١/٣١٦ .
(٢) العزوى ١/٣١٧ .
(٣) انظر في ترجمة المتنبى اليتيمة للثعالبي ١١٠/١ وتاريخ بغداد ١٠٢/٢ ونزهة الألبا لابن الأنبارى (طبعة دار نهضة مصر) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ص ٢٩٤ والأنساب للسمعاني ورقة ٥٠٦ ووفيات الأعيان ١٢٠/١ . وألفت قدما كتب كثيرة حول شعره ، منها الموضحة للحاتمي (نشر د . محمد يوسف نجم ببيروت) والرسالة الخاتمية فيما وافق فيه المتنبى كلام أرسطو ورسالة الكشف عن مساوئ المتنبى للصاحب ابن عباد والواضح في مشكلات شعر المتنبى للأصفهاني (طبع تونس) والفتح الوهبي على مشكلات المتنبى لابن جنى تحقيق د . محسن غياض (طبع بغداد) والفتح على فتح أبى الفتح لابن فورجه تحقيق د . محسن غياض (طبع

«عبدان» . ولم يُعْرِ ابن خلكان هذه الدعوى اهتماما ، وهى دعوى ملفقة كيدا للشاعر الفذَّ وحسداً . وكل شيء فى سيرة الشاعر يؤكد بطلانها ، فقد ذكروا أن أباه ألقاه بكتاب أبناء الأشراف ، ويَعُدُّ أن ينتظم فى سلك هؤلاء الأبناء وأبوه سقاء يحمل الماء لأهل الحى القاطن به . وقد تفتحت موهبته الشعرية مبكراً ، وهو فى نحو الثامنة من عمره ، واتفق أن قال له بعض رفاقه من الصبية : ما أحسن وفرتك وشعرك ، وفوجئ الصبى برده :

لَا تَحْسُنُ الْوَفْرَةَ حَتَّى تُرَى منشورة الصَّفْرَيْنِ يَوْمَ الْقِتَالِ
عَلَى فَتَى مُعْتَقِلٍ صَعْدَةً يُعْلِيهَا مِنْ كُلِّ وَافٍ السَّبَالِ

فالوفرة - أو الشعر المجتمع على الرأس - لا يحسن منظره إلا يوم القتال حين تشعث ذوائبه على رأس فتى باسل يعقل صعدة أورشحا يُعلِّها أو يروها من دماء الرجال ، فتى لا يبرح ميادين النضال والقتال . وفى ذلك ما يدل على أنه كان يستشعر منذ نعومة أظفاره نفسا كبيرة بين جنبيه ، نفسا ستعيش للفتوة والإقدام ، ولن يجذبها أى جبال حصى أو متاع مادى فى الحياة ، مما جعله ينصرف عن الخمر بل ينهى عن احتسائها ، أما ما قيل من حبه للعبة الشطرنج فلاها تمثل مواقع الحرب والعراك . وما يكاد الفتى يبلغ التاسعة من عمره ، حتى يغزو القرامطة الكوفة ويسفكوا الدماء ويسبوا النساء ، ويفر الناس منها جزعا وفرعا ، ويفر به أبوه إلى بادية السماوة بين العراق والشام ويظل المتنبي نحو عامين أو ثلاثة يتردد فى القبائل ويتغذى بلغتها ، وتتغذى فتوته الجائمة بين ضلوعه . ويعود إلى الكوفة فى مستهل سنته الثانية عشرة ، ولا ندرى هل كان أبوه لا يزال حيا وأنه توفي قبيل عودته أو بعد عودته بقليل ، ونظن ظنا أن أمه فارقت الحياة قبل أبيه ، بل لعلها فارقتها وهو لا يزال رضيعا . وإنما يحملنا على ذلك أننا لا نجد لأمه ولا لأبيه ذكرا فى ديوانه ، بينما نجد نجله يرثى جدته وهو فى نحو الثلاثين من عمره رثاء حارا قائلاً :

ولو لم تكونى بنتَ أكرم والدٍ لكان أباك الضَّخَمَ كَوْنَكَ لى أُمًّا

وفى تسميته لها بأنها أمه ما قد يشهد بوفاة أمه فى باكورة حياته وأن جدته هى التى قامت على تربيته . وحاول بعض المعاصرين أن يُلْقَى شيئا من ظلال الشك على نسبه ، لأنه لم يذكر فى شعره أباه ولا أمه مما قد يؤكد أنه كان يشعر بشعور الضعة من ناحية أسرته وأهله الأذنين ، وجعله ذلك يبغض الناس . والنتيجة ومقدمتها غير صحيحتين ، فإن كثيرا من شعراء العرب لم يذكروا فى أشعارهم آباءهم ولا أمهاتهم ، وليس فى ذلك أى دليل على

أن أسرهم كانت وضيفة ، بل إننا نجد سيد بنى عامر وفارسهم فى الجاهلية عامر ابن الطفيل يقول :

وما سودثنى عامر عن وراثته أبى الله أن أسمو بأُم ولا أب

فهو يفخر بأن سيادته لقومه ليست وراثته عن آبائه ، مع أنهم كانوا سادة بنى عامر فعلا ، ويريد أن يقول إنه ساد بنى عامر بياسه وأعماله المجيدة ، بالضبط كما قال المتنبي :

لا بقومى شرفت بل شرفوا بى وبفسى فخرت لا يجدودى
وهم فخر كل من نطق الضا د وعود الجانى وغوث الطريد

على أن المتنبي يعود فيفخر بقومه ، أما عامر فيطلق فخره بنفسه إطلاقا . ولعل فى ذلك ما يدل على أن كل ما رتبته بعض المعاصرين على هذين البيتين للمتنبي وما حاولوا أن يسوقوا من شك فى نسبه غير صحيح . ومن المؤكد الذى لا يرقى إليه شك أن المتنبي كان عربيا صميا وأن العرب لم يثبت بينهم شاعر قبله ولا بعده استشعر العروبة استشعاره حتى لو أردنا أن نقيم للعروبة والعرب تمثالا لكان المتنبي هو الشاعر الخلق بأن يقام له هذا التمثال ، وقد لبس درعا ، وشدا فى وسطه منطقة وسيفا ، وفى إحدى يديه رمح مصوب وفى الأخرى ريشة الشاعر ، وهو يمتطى حصانا وكأنه يطلب القتال والزال . فهو هذا التمثال الذى يرمز أروع رمز إلى العرب واستصغارهم لذوى الحكم والسلطان وصياحهم فى وجوه أعدائهم ، وإنه ليصبح بكل قوته هادرا عاصفا ، يريد أن يوقظ من حوله من العرب ويستنقذهم مما تورطوا فيه من هوان وتواكل واستسلام لحكامهم العاتين ، ومن أجل ذلك يصور نقائصهم بمثل قوله :

ودهر ناسه ناس صغار وإن كانت لهم جث ضخام

وليس ذلك عن بغض للناس كما قال بعض المعاصرين وإنما محاولة صارمة لتخليصهم

من أخلاقهم الذميمة التى جعلتهم يخضعون لحكامهم الأعاجم الذين كانوا يرهقونهم من أمرهم عسرا .

وستضح شخصية المتنبي حين نتابعه فى حياته ، وقد رأيناه يخرج إلى البادية فى سن التاسعة ويعود فى الثانية عشرة من سنه ، ويكب على كل ماكان فى الكوفة من ثقافات ، فإذا هويلتهم كتب اللغة التهاما ويلتهم أيضا كتب النحو . ويتعرف على كتب الفلسفة عن طريق ممدوح كوفى له يسمى أبا الفضل وعن طريقه يتعرف على التصوف . وبكل ما قدمنا نستطيع أن نعرف العناصر التى أسهمت فى تكوين شخصيته ، فهو عربى لحاودما ، وتستأثر

به العروبة إلى أقصى حد حتى لتجعله لسانها الناطق بها طوال حياته . وهو قد تغذى بلبان البادية ، وأفادته صقلا في لغته ووقوفاً على الغريب والشواذ اللغوية ، كما أفادته صقلا في فتوته وإحساسه بعروبه ، ثم هو قد ثقف كل أنواع الثقافات في عصره ، واقترض منها في شعره صيغا من النحو الكوفي الشاذ ومن الغرائب اللغوية ومن الأفكار والألفاظ والعبارات الفلسفية ، ومن مصطلحات التصوف وشارات عباراته . وكل ذلك فصلنا الحديث عنه في كتابنا « الفن ومذاهبه في الشعر العربي » .

وكان أبواه قد توفيا ، وأكثر القرامطة من غاراتهم على الكوفة في سنوات ٣١٥ و ٣١٦ و ٣١٩ فرأى الفقي أن يبرح مسقط رأسه إلى بغداد ، ومدح بها أحد العلويين ومتصوفاً يسمى هرون بن علي الأوراجي ، ولا نراه يمدح خليفته ولا حاكمها الأعجمي ولا أحداً من ذوى السلطان ، وكأنما وقف حائلاً بينه وبينهم ما رآه بأم عينه من فساد الحكم وتسلب الحكام الأعاجم على العرب ، ويتألم لما أصابهم من ذل وهوان ، ويُقَمِّع صدره بمشاعر العروبة ، وتثور نفسه ثورة عاصفة ويصبح من أعماقه :

إلى أى حين أنت في زى مُحْرَمٍ وحتى متى في شِقْوَةٍ وإلى كم ؟
والا تَمُتْ تحت السيوف مَكْرَماً تَمُتْ وتُقاسِر الذِّلَّ غير مَكْرَمٍ
فَتَبْ واثقاً في الله وثبةً ماجدٍ يرى الموت في الهيجَا جَنَى النَّحْلِ في الفَمِّ

وهو يستحث نفسه والعرب من حوله أن يخلعوا زِيَّ المحرمين بالحج ، يريد زِيَّ الاستسلام إزاء حكام بغداد الأعاجم الفاسدين ، ويلبسوا مكانه دروع الحرب لمنازلتهم منازل لا تبقى منهم ولا تَدْرُ . ويبتس من حوله أن يثوروا معه ضد الفساد والظلم والطغيان ويولّو وجهه نحو بوادى الشام وحواضرها ويمدح شيوخ البدو وبعض رعاة الأدب في طرابلس واللاذقية ، وهو لا يكف عن المجاهرة بالثورة على الحكام الأعاجم الجائرين الذين لا يراعون للعرب حرمة ولا عهداً ولا ذمة ، ويصبح في قومه :

وإنما الناس بالملوك وما تُفْلِحُ عُرْبٌ ملوكها عَجَمٌ
لا أدبٌ عندهم ولا حَسَبٌ ولا عهودٌ لهم ولا ذِمَمٌ

وهو يقول إنه لن يكتب للعرب فلاح طالما كانوا مستذلين للحكام الأعاجم راضخين لسلطانهم مع ما يسومونهم به من العسف والقهر . ويمضى في دعوته وثورته في بوادى الشام من اللاذقية إلى بعلبك ، ويحسُّ في أهل « نخلة » بالقرب من بعلبك تواكلاً وتحاذلاً وأنهم لا يسارعون معه إلى الثأر لكرامتهم المهذرة ، فيستثيرهم بقصيدة ملتهبة يقول فيها :

ما مقامى بأرض نَحْلَةَ إلا كمقام المسيح بين اليهود
عِشْ عزيزاً أَوُمْتُ وَأَنْتَ كَرِيمٌ بين طَعْنِ القَنَا وَخَفَقِ البنودِ
واطلبِ العِزَّ فى لَطَى ودَعِ الذِّ لَّ ولو كان فى جَنانِ الخلودِ
أنا تَرَبُّ النَّدا وربُّ القوافى وسامُ العِدا وغيظُ الحسودِ
أنا فى أمةٍ تداركها اللدُّ هُ غريبٌ كصالحٍ فى تَمُودِ

وكان تشبيهه لنفسه فى القصيدة بالمسيح وبالنبي صالح سبباً فى أن يتهمة بعض معاصريه بادعائه النبوة ، وبالغوا فزعوا أنه ادعى لنفسه قرآناً ذكروا بعض فقر منه ، وكل ذلك غير صحيح ، فقد كانت ثورته سياسية قومية لا دينية ولا قرمطية كما توهم بعض الباحثين . أما لقبه المتنبي فهو الذى لقب نفسه به ، أولعل بعض المعجبين بشعره هم الذين لقبوه به ، رمزا لعبقريته الشعرية وأنه يأتى فى أشعاره بالمعجز الذى ليس له سابقة . وهو يضع فى البيتين الثانى والثالث دستور العرب على مر التاريخ فإما العيش العزيز وإما الموت الكريم فى ساحة الشرف والنضال ، ولا حياة بدون العزة والكرامة . وإن العربى الحر ليفضل العز فى الجحيم على الذل فى الفرديس . ويترك قرية نَحْلَةَ إلى بادية اللاذقية ويتبعه كثيرون لآخر سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة ، ويقود ثورة ضارية ، وكان لا يزال فى العشرين من عمره . ويقضى لؤلؤ والى حمص من قبل الإخشيد على ثورته ويَزَجُّ به فى غياهب السجن . ويظل به نحو سنتين ، وتُرَدُّ إليه حريته ، ويعود إلى توقيع أشعاره على قيثارته فى مديح ولاية البلدان الشامية ، وخاصة بدرين عمار الأسدى صاحب دمشق من قبل بغداد ، ووجد فيه المتنبي أمنيته فى فارس عربى ، فدحه ونوّه بفروسيته فى تصويره الرائع لفتكه بأسد ، مستهلاً له بقوله :

أَمْعَرُ اللَّيْثِ الْهَزْبِ بِسَوْطِهِ لَمَنِ ادَّخَرْتَ الصَّارِمَ الْمَصْقُولَا
يقول له إنك صرعت الأسد بسوطك فلمن أبقيت سيفك ، ومضى يشيد ببابه ومضائه . وظل لا ينسى دعوته إلى الثورة مستهزئاً هم قومه ضد حكامهم الأعاجم بمثل قوله :

لَا يُعْجِزُ مَضِيماً حَسُنْ بَزَّتِهِ وهل يروقُ دَفِيناً جودُهُ الكَفَنِ
وقوله :

ذَلَّ مَنْ يَغْطُ الذَّلِيلَ بِعِيشِ رَبِّ عِيشٍ أَخْفُ مِنْهُ الْحِجَامُ
مَنْ يَهْنُ يَسْهَلُ الْهَوَاؤُ عَلَيْهِ مَا لَجُوحِ بَيْتِ إِيْلَامُ
وفى أواخر هذا الاضطراب بين ولاية الشام التابعين لبغداد والآخرين التابعين لمصر جاءه

نعى جدته ، فحزن عليها حزنا شديدا ورثاها رثاء حارا بميميته التى يقول فيها مفاخرا بقومه وأهله :

وإني لمن قومٍ كأن نفوسهم بها أنفٌ أن تسكن اللحم والعظم
فلا عبرت بي ساعةٌ لا تُعزّنى ولا صحتى مهجةٌ تقبلُ الظلما

وهما بيتان رائعان يصوران الأنفة والعزة إلى أبعد حد ، وهو جانب فى شعر المتنبى جعله محببا لكل عربى ، إذ توهج أشعاره بخصال العربى الكريم وما يشعر به من العزة والأنفة والإباء والشعور بالكرامة والترفع عن الدنيا إلى أقصى حد ، وكأنه ترجان العرب عن فضائلهم العليا الوطيدة كالصخر . وبهذه النفس العاتية كان المتنبى ينظم شعره منذ سال على لسانه فى الكتاب معبرا عن الروح العربية التى لا تقهر ، مها نزل بها من الكوارث والخطوب . وهو نفسه قد نزلت به كارثة أو محنة إحقاق ثورته ، ومع ذلك لا يزال يهدر ويزجر ويزأر ، ولا يجد سميعا ولا مجيبا . وتحذثه نفسه فى سنة ست وثلاثين وثلاثمائة أن يقدم مدائحه لولاة سيف الدولة الحمدانى ، وكان أميرا لحلب واتسع بإمارته إلى حمص وأنطاكية منتزعا لهما من يد الإخشيديين ، فقدّم المتنبى مدائحه إلى واليه على أنطاكية أبى العشائر الحمدانى ابن عمه ، فأجزل له فى العطاء . ومضى فى مديحه ، ويقدم سيف الدولة إلى أنطاكية فى جمادى الأولى من سنة سبع وثلاثين ، فيمدحه المتنبى ، ويُعجب كل منهما بصاحبه . ويطلب سيف الدولة منه أن يصطحبه إلى حلب وينزل عنده ، ويقول الرواة إن المتنبى اشترط عليه أن لا يقبل الأرض بين يديه وأن لا ينشده مدائحه إلا قاعدا ، ويحييه سيف الدولة إلى شرطيه ، ولعل فيها ما يشير إلى شعور المتنبى بالعزة والكرامة شأن العربى الأصيل . ويظل المتنبى عنده تسع سنوات ، ينظم فيها مدائح وأشعارا فى أمره ، تؤلف ديوانا ، وهو ديوان من أنفس دواوين الشعر العربى ، لا من حيث كثرة قصائده فحسب ، بل أيضا من حيث روعتها ، وقد بلغت نحو أربعين قصيدة وإحدى وثلاثين مقطوعة ، واستقرّ حينئذ فى نفسه أنه لقي أمل العرب وحاميهم وفارسهم الذى يمزق جموع الروم شرّ ممزق فى الشمال ، وغداً يمزق جموع الحكام الأعاجم من البويهيين فى بغداد ، ويردّ للعرب دولتهم المفقودة . وكان سيف الدولة بحق بطلا مغورا وشجاعا مقداما ، حطّم جيوش الروم مرارا واستنقذ منهم غير ثغر وحصن ، وكان المتنبى يصحبه فى غزواته ، حتى إذا عاد معه أنشده بلبل ما نظمته فى بطولته وبطولة جنوده . وكانت أول موقعة حضرها الشاعر مع البطل موقعة الحداث سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة ، وكان الروم قد استولوا على هذا الحصن ، فرأى سيف الدولة أن يسترده ويعيد بناءه ، وأعدّ جيشا جرّارا

زحف به من حلب ، ولقيه الروم وهزموا هزيمة ساحقة ، قُتل منهم فيها ثلاثة آلاف من بينهم ابن القائد برداس فوكاس وصهره ، وأسر منهم آلاف ، وُضعت في أرجلهم الأغلال والسلاسل ، وبُنِيَ سيف الدولة الحصن بين تكبير المسلمين وتهليلهم ، وسجل المتنبي الواقعة في ميمية رائعة خاطبه فيها مبهجا بقوله :

وقفت وما في الموت شكُّ لو اقفِ كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمرُّ بك الأبطالُ كلِّمى هزيمةً ووجهك وضاحٌ ونعركَ باسمٍ
ضممتَ جناحيهم على القلبِ ضمةً تموتُ الخوافى تحتها والقوادمُ
بضربِ أتى الهاماتُ والنصرُ غائبٌ وصارَ إلى اللبَّاتِ والنصرُ قادمٌ
نثرتهمُ فوق الأحيذبِ نثرةً كما نُثرتُ فوق العروسِ الدراهمُ
وهو يصور سيف الدولة في المعركة رابط الجأش ثابت الجنان والرءوس تطاير والأشلاء
تتناثر ، والموت يحدق من كل جانب ، وكأنه في جفنه وهو نائم عنه ، مهابة ليس وراءها
مهابة . وتمربه جنود الروم جرحى مهزومة هولاء ورعبا ، ولم يلبث أن لفَّ جناحى جيشهم
على القلب لفةً سريعة وحطم رءوسهم حطا إلى اللبَّات والنحور . وولوا الأدبار مندحرين
وسيف الدولة وجنوده ينثرونهم على جبل الأحيذب كما تُنثر الدراهم على العروس ابتهاجا ،
وكانه لم يكن يوم حرب ، إنما كان يوم زفاف لنصر عظيم . والمتنبي لا يبارى في وصفه
لوقائع سيف الدولة مع الروم ، حتى لكأنما نسمع في قصائده السيفية قعقة السلاح ،
وهى لا شك القطع الأرجوانية الرائعة في ديوانه ، وبحق قال ابن الأثير : « اختص المتنبي
بالإبداع في مواقع القتال . . وذلك أنه إذا خاض في وصف معركة كان لسانه أمضى من
نصاها وأشجع من أبطالها وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها ، حتى يُظنَّ أن الفريقين قد
تقابلا والسلاحين قد تواعلا » . وتوفيت في نفس هذا العام عام سبعة وثلاثين أم سيف
الدولة فرثاها بقصيدة بديعة ، وفيها يقول بيتيه المشهورين :

رمانى الدهرُ بالأرزاء حتى - فؤادى في غشاءٍ من نبالٍ
فصرتُ إذا أصابتنى سهامُ تكسرتِ النَّصالُ على النصالِ
ونفس عليه كثيرون من حاشية سيف الدولة - وفي مقدمتهم أبو فراس الحمداني
الشاعر - منزله ، فأخذوا يكيدون له عنده ، وأحسَّ المتنبي بكيدهم ، وأن سيف الدولة
يُرْهف سمعه إليهم ، فأنشده قصيدة ميمية يعاتبه فيها عتابا مرًّا بمثل قوله :

يا أعدلَ الناسِ إلا في معاملتى فيمَ الخصامُ وأنتَ الخصمُ والحكمُ
إذا ترحلتَ عن قومٍ وقد قدروا أن لا تفارقهم فالراحلون همُ

ويحاول سيف الدولة مرضاته ولكن حاشيته تظل تكيد له ، وعجيب أمر الناس فإنهم يظنون يحسدون الأديب ، حتى لو كانت ملكاته من الخصب مثل المتنبي ، بل هم يحسدونه لهذه الملكات ويحاولون أن يفسدوا بينه وبين راعيه . ومن عجب أن يسمع سيف الدولة لحساد المتنبي ، وهو لم يكن يقدم له مدائح المعجب فحسب ، بل مدائح المحب المفتون ، وإنه ليعلم ذلك في غير قصيدة من مثل قوله :

مَالِي أَكْتُمُ حُبًّا قَدْ بَرَى جَسَدِي وَتَدْعَى حُبَّ سَيْفِ الدَّوْلَةِ الْأُمِّ
ولعله أول من خلط المديح بالحُب بل إنه ليخلط به وصف المعامع ، إذ يسوق فيه الفاظ النسب والتشبيب والغزل كقوله :

أَعْلَى الْمَالِكِ مَا يُبْنَى عَلَى الْأَسَلِ وَالطَّعْنُ عِنْدَ مُحْيِيْنٍ كَالْقَبْلِ
ويصمم على الرحيل ، ويرحل إلى دمشق ، ويلتقي فيها بأصحاب كافور وأولائه ، فيُفَرِّقونه بلقائه في الفسطاط وأنه لا بد أن سيقمه واليا على « صيداء » أو ما يماثلها من بلدان الشام ، وكأنما زَيَّنَتْ نفسه له حين يوليه ولاية من الولايات أن يستبد بالأمر دونه ويحقق أمانيه القديمة في إقامة الدولة العربية المنشودة . وينزل بساحته على ضفاف النيل سنة ٣٤٦ وينثر عليه كافور أمواله ، فيصارحه بمثل قوله :

وَمَا رَغْبَتِي فِي عَسَجِدٍ أَسْتَفِيدُهُ وَلَكِنِّي فِي مَقْخَرٍ أَسْتَجِدُّهُ
ويلوِّح في غير قصيدة بوعد أصحابه له بأنه سيمنحه ولاية ، ولكن دون جدوى ، فيستقم منه شر انتقام إذ استطاع بخبرته في الصياغة الشعرية أن يوجه له مدائح هي في ظاهرها ثناء ولكنها في باطنها هجاء مُرٌّ من مثل قوله :

وَأَظْلَمُ أَهْلِ الظُّلَمِ مَنْ بَاتَ حَاسِدًا لِمَنْ بَاتَ فِي نَعَائِهِ يَتَقَلَّبُ
والبيت يمكن أن يُحْمَلُ على من يُسَبِّحُ عليه العطاء فلا يعترف بالجميل ، وبذلك يكون من الظلم بمكان . ويمكن أن يحمل على كافور وأنه يحسد من يُسَدِّى إليه العطاء ، وبذلك يصفه بدناءة لا تدانيها دناءة . ويقول بعض الباحثين إن المتنبي استدلَّ نفسه حين رضى بمدح كافور الأعجمي الحبشي ، وهو الذى طالما هجا الأعاجم ، ويستطردون فيقولون إنه تخلَّى عن مسؤوليته الأدبية . وليس هناك تخلٍ من المتنبي ولا ما يشبه التخلّي ، فقد مدح كافورا في سبيل أن يصبح صاحب ولاية وسلطان ، فلما ما طله ، سلَّ عليه لسانه ، وظل له عنده شعوره الجامح بكرامته وفتوة نفسه ، حتى كأن نفسه من طبيعة فوق طبيعة نفوس الناس ، فهي لا تضعف ولا تهزم ، مهما تقدمت بالمتنبي السن ومهما اشتعل عذاره شيئا ، بل لكأن شعرات شبيه البيضاء حراب مشرعة لتزال أعدائه ، حراب من

ورائها نفس تزجر ، لها أنياب الأسد ومخالبه ، ويصور ذلك تصويرا رائعا في قصيدة مدح بها كافورا سنة تسع وأربعين إذ يقول :

وفي الجسم نفس لا تشبُّ بشيئه ولو أنَّ ما في الوجه منه حرابُ
لها ظُفْرٌ إن كَلَّ ظُفْرُ أُعْدُوهِ ونابٌ إذا لم يبق في الفم نابُ

فاليأس المرير الذي ذاقه طوال أربع سنوات مجدبة لم يمس نفسه ، بل ظلت فتية فتوة خليقة بكل إكبار . وفي أواخر مقامه بمصر أَلَمَّتْ به حُمَّى ، فوصف نزولها به في الظلام ومبيتها في عظامه وأثرها في جسمه وصفا رائعا ، ولها يقول بيته البدیع :

أَبْنَتُ الدَّهْرِ عِنْدِي كُلُّ بَنَاتٍ فَكَيْفَ وَصَلَتْ أَنْتِ مِنَ الزُّحَامِ
وَعَرَّضَ فِي الْقَصِيدَةِ بَرَحِيلَهُ ، فَقَدْ أَحْسَنَ بِإِخْفَاقِ رَحْلَتِهِ إِلَى مِصْرٍ وَارْتَحُلَ لَبِيلُ ، وَهُوَ يرمى كافورا بشواط من هجائه على نحو ما نرى في داليته ، وقد مرَّق فيها أديمه تمزيقا بمثل قوله :

لَا تَشْتَرِ الْعَبْدَ إِلَّا وَالْعَصَا مَعَهُ إِنْ الْعَبْدَ لِأَنْجَاسٍ مَنَاقِيدُ
وسقط بعض شرر من هجائه على مصر ، ولكنه لم يكن يقصدها لنفسها ، إنما كان يقصد كافورا بهجائه وذمه . وقد بارحها في أواخر سنة ثلاثمائة وخمسين ، واتجه إلى الكوفة مسقط رأسه ، واشترك مع أهلها في الدفاع عنها حين هاجمها القرامطة ، ولعل في ذلك ما يقطع بأنه لم يكن قرمطيا يوما . ويرسل إليه سيف الدولة بهدية ومعها كتاب بخطه ويرد عليه بلامية بديعة يستحثه على منازلة البويهيين الأعاجم ببغداد وينزلها في سنة إحدى وخمسين ، وفيها يجتمع له كثيرون يأخذون عنه ديوانه ، ويتعرض له الخاتمي - بإيعاز من الوزير المهلبى - ينقد بعض أشعاره ، وتكون في ذلك قطيعة بينه وبين الوزير فلا يمدحه ، ويعود إلى الكوفة بعد أشهر ، ويكاتبه ابن العميد في سنة ثلاث وخمسين متوددا إليه آملا في زيارته ويقدم عليه في « أَرْجَان » سنة أربع وخمسين ويمدحه بقصيدة يشيد فيها بالضاد قائلا في وصفه :

عَرَبِيٌّ لِسَانُهُ فَلسَفِيٌّ رَأْيُهُ فَارِسِيَّةٌ أَعْيَادُهُ
ففخره ابن العميد الكبرى فصاحة لسانه وعروبة بيانه ، ويستقدمه عضد الدولة إلى « شيراز » ويمرُّ ببستان يسمى « شَعْبَ بَوَّان » ويروعه جلاله ، غير أنه مع روعته كدَّرَ نفسه أن لا يرى أثرا للعروبة فيه وفيما حوله من ديار ، مما جعله يفتتح قصيدته بقوله :
مَغَانِي الشَّعْبِ طَبِيبًا فِي الْمَغَانِي بِمَنْزِلَةِ الرَّبِيعِ مِنَ الزَّمَانِ
ولكنَّ الْفَتَى الْعَرَبِيَّ فِيهَا غَرِيبُ الْوَجْهِ وَالْيَدِ وَاللِّسَانِ

وأروع مدائح في عضد الدولة هائيته ، وهو يستلها بتصوير حنينه إلى منازل حبيباته العربيات في الشام ، وتطفئ عليه حرارة هذا الحنين وما يلبث أن يحسسه في فتاة عربية شامية خلبت له ، ويصور جمالها وعفتها بمثل قوله :

كلُّ جريحٍ تُرْجَى سلامتهُ إلا فؤاداً دهته عيناها
في بلدٍ تُضربُ الحِجَالُ بهِ على حِسانٍ وَلَسْنَ أشباها
فيهنَّ مَنْ تَقَطَّرُ السيوفُ دماً إذا لسانُ المحبِّ سَمَّاهَا
إنهن عربيات دونهن الموت الزُّؤام . وعلى هذا النحو ظلت العروبة تختلط بدمائه ، حتى أنفاسه الأخيرة فقد بارح شيراز سريعا ، وفي طريقه بالقرب من بغداد خرج عليه في أواخر شهر رمضان من سنة ٣٥٤ فاتك بن أبي جهل في بعض الشذاذ من قطاع الطرق ، وصرعه هو وابنه وغلامه ، وبذلك أحال أعراس الشعر مآتم على شاعر العروبة العبقري : مآتم حداد وسواد . وقد بكاه كثير من معاصريه بكاء حاراً .

ولعل فيما قدمنا ما يصور الموضوعات الأساسية التي تغنى بها المتنبي ، وهي المديح والهجاء والفخر والثناء ، وأروع مدائح كما قدمنا ما نظمه في سيف الدولة وتصوير معاركه ، وهجاؤه ينبث في مدائح ونقصد هجاءه لأعاجم بغداد ، وفيهم يقول :
في كل أرضٍ وطِئْتُها أُمُّمٌ تُرْعَى بَعْبِدِ كأنهم غَنَمٌ
يَسْتَحْشِنُ الخَزْرَ حين يَلْبَسُهُ وكان يُبْرَى بِظُفْرِهِ القَلَمُ
والبيت الثاني يحمل سخرية قاتلة فقد كانوا - كما يقول - عبيدا غلاظا لا يعرفون إلا الملابس الخشنة ، وقد طالت أظفارهم ، وإذا هم يعيشون في النعيم ، يلبسون الإِسْتَبْرَقَ بل يستحشنونه ، ويملثون ديار العرب بَغْيًا وظلما ، ومرت بنا أبيات أخرى في هجائهم ، وأشرنا إلى هجائه لكافور وهو هجاء مرير . ويكثر الفخر في شعر المتنبي ، وهو طبيعي لمن يتصف بالبأس والشجاعة واحتمال المكاره والطموح والثقة بالنفس ثقة تدفعه إلى مغالبة الزمن حتى ليقول :

أَمْثَلِي تَأْخُذُ النكباتُ منه ويجزَعُ من ملاقاتِ الحمامِ
ولو برز الزمانُ إلىَّ شخصا لخصبَ شَعْرَ مَفْرَقِهِ حُسامي
وفي ديوانه مرات مختلفة ، ولكن أهمها مراثيه في جدته والأخرى التي نظمها في أم سيف الدولة ، وقد مرت الإشارة إليهما ، والمراثية الأولى تطفح بالفخر بينما تطفح الثانية بالتفكير في الحياة والموت ، وفيها يقول :

يُدْفَنُ بَعْضُنا بَعْضًا وَتَمْشِي أَوَاخِرُنا على هامِ الأوالى

وفي رأينا أن هذا البيت هو الذى ألهم أبا العلاء قصيدته : « غير مجد فى ملتي واعتقادي » . وتَسَرَّى فيه روح تشاؤم جعلته ناثراً على الزمن والدهر والناس ، وهى روح تحيَّب أشعاره إلى قارئه ، من مثل قوله :

صَحِبَ النَّاسُ قَبْلَنَا ذَا الزَّمَانِ وَعَنَاهُمْ مِنْ شَأْنِهِ مَا عَنَانَا
وَتَوَلَّوْا بَعْضَهُ كُلُّهُمْ مِنْهُ وَإِنْ سَرَّ بَعْضَهُمْ أَحْيَانَا

وتكثر فى شعره الحكم والأمثال ، حتى ليصبح جُلُّ ما يدور من خواطر فى أذهان الناس أمثالاً أو حكماً ينطق بها فى شعره ، ولفت ذلك القدماء وحاولوا أن يصلوا بينه وبين أرسطو فيه ، ولكن من المؤكد أن حكمه وليدة عقله الكبير وخبرته الواسعة بالحياة والناس ، وقد أنشدنا منها أطرافاً فيما مرَّ من الحديث . وله غزل طريف ، وهو فيه مفتون دائماً بالبدويات للجاهن الفطرى وفى ذلك يقول :

حَسُنُ الْحُضَارَةُ مَجْلُوبٌ بِتَطَرِيَةٍ وفى البداوة حُسْنٌ غَيْرُ مَجْلُوبٍ
أَقْدَى ظِبَاءٍ فَلَاةٍ مَا عَرَفْنَا بِهَا مَضَّغَ الْكَلَامِ وَلَا صَنَعَ الْحَوَاجِبِ

وأكبر الظن أن فيما قدمت ما يحلو بعض الجلاء شخصية المتنبي الفذة ويرد عنها جملة التُّهم التى نسجها بعض الباحثين المعاصرين من العرب والمستشرقين حول نسبه وصحته وحول قرمطيته وعقيدته ، وهو قد فرَّغَ أباه من وجه القرامطة حَدَثاً ورحل بسببهم عن الكوفة فى باكرة شبابه ، وحاربهم بأخرة من عمره ، ومع ذلك يقال إنه قرمطى ، ويُلقَى ظل من الشك على عروبه ، مع أن العروبة لم تجد من يَفْضُله لتختاره تَرْجَاناً لها أروع ما يكون الترجمان .

سِبْطُ (١) ابن التعاويذى .

هو أبو الفتح محمد بن عبيد الله بن عبد الله ، كان أبوه مولى لبنى المظفر واسمه نُشْتَكِين ، فسماه ابنه عبيد الله وسمى جده عبد الله ، وقد وُلِدَ لأبيه ببغداد سنة ٥١٩ وبيدو أنه توفى وابنه لا يزال صغيراً ، فكفله جده لأمه أبو محمد المبارك الزاهد المعروف بابن التعاويذى وكان صالحاً ، فقام على تربيته خير قيام ، إذ ألحقه بكتّاب ، ثم بملقات العلماء

التعاويذى : حياته وشعره لنورى شاكِر الألويسى (طبع بغداد) وديوانه طبع قديماً بالقاهرة فى مطبعة المقتطف بتحقيق مرجليوث .

(١) انظر فى ترجمة سبط ابن التعاويذى معجم الأدباء ٢٣٥/١٨ وابن خلكان ٤٦٦/٤ ونكت الهميان ص ٢٥٩ والوافى بالوفيات ١١/٤ وغير الذهبى ٢٥٣/٤ والشذرات ٢٨١/٤ والنجوم الزاهرة ١٠٥/٦ وسبط ابن

في المساجد ، ولم يلبث أن استيقظت موهبته الشعرية ، ولم تشمله عناية جده فحسب ، فقد عُني به أيضاً بنو المظفر مواليه ، إذ أسبغوا عليه وعلى جده من أفضالهم الكثير ، وكان لهم شأن كبير في الدولة ، إذ كان منهم وزراء وكتاب مختلفون ، فألحقوه بدواوين الخلافة ، واختاروا له الكتابة بديوان الإقطاع ، وجعلته وظيفته في هذا الديوان يتصل بكبار رجال الدولة وموظفيها المختلفين من غير بنى المظفر ، وله مدائح في الخلفاء وفي غير وزير ، وخاصة ابن هبيرة . ويظهر أنه كان من جملة من فصلهم وزير الديوان أبو جعفر أحمد بن محمد التيمي المعروف بابن البلدى لعهد الخليفة المستنجد (٥٥٥ - ٥٦٦ هـ) إذ نراه يهجوهم هجاء مرا ، وكان هذا الوزير قد عزل أرباب الدواوين وحبسهم وحاسبهم وصادرهم وعاقبهم ونكّل بهم ، وفيه يقول :

يا قاصدا بغداد حِدَّ عن بلدةٍ للجور فيها زَخْرَةٌ وعُبابُ
إن كنت طالبَ حاجةٍ فارجعْ فقد سُدَّتْ على الرَّاجي بها الأبوابُ
بادتْ وأهلوها معاً فبيوتُهم ببقاء مولانا الوزير خرابُ
وارتَهُمُ الأجداثُ أحياءُ تُها لُ جنادلُ من فوقهم وترابُ

ونراه في قصيدة أخرى يشكو من ابن البلدى ومن ضائقته وعطلته مما يدل دلالة قاطعة على أنه كان قد فصل مع من فصلهم . ولم يلبث أن عاد إلى وظيفته ، وأكبر الظن أن الخليفة المستنجد هو الذى أعاده ، وكان جده لأمه ابن التعاويذى قد توفى ورثاه مرثية جيدة ، استهلها بقوله :

لكلِّ ما طال به الدهرُ أمدٌ لا والدًا يُبقي الردى ولا وَلَدُ

وليس في الديوان بعد ذلك ما يدل على أن أحداثاً خطيرة مرت به . وقد ظل في ديوان الإقطاع حتى سنة ٥٧٩ إذ كُفَّ بصره ، ولم يعد يستطيع العمل فيه ، ويلتمس حينئذ من الخليفة الناصر (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ) أن ينقل راتبه في الديوان إلى أبنائه ، وكانوا كثيرين كما يبدو من إحدى قصائده . ويحييه إلى ملتسمه ، غير أنه يعود فيطلب إليه أن يُجدد له راتباً خاصاً به مدة حياته ، ويحقق له طلبه ، ويكثر حينئذ من ندب بصره بمثل قوله :

ألا مَنْ لمسجونٍ بغير جنائية يُعدُّ من الموتى وما حانَ يومُهُ
يرُوعُهُ عند الصباح انتباهُهُ فطوبى له لو طالَ وامتدَّ نومه

ولم يعيش طويلاً وهو مكفوف ، فقد توفى بعد نحو أربع سنوات سنة ٥٨٣ وقيل بل سنة ٥٨٤ . وكان قد جمع ديوانه بنفسه قبل كُفِّ بصره ، وعمل له خطبة طريفة ، كما يقول ابن خلكان ، ورتبه في أربعة فصول ، وكل ما نظمه بعد هذا الترتيب سماه الزيادات ،

والفصل الأول في مدائح الخلفاء ، والفصل الثاني في مدائح جماعة من الوزراء والأكابر كما يقول في مقدمته ، والفصل الثالث في مدائح بني المظفر ، يقول : « لأنني نشأت فيهم ، وصحبته أنا وجدى لأمى ، وكنت منقطعاً إليهم لا أشيم (أنظر) غير سمائهم ، فنظمت فيهم جُلَّ شعري ، وأنفقت معهم طائفة من عمري » والفصل الرابع متنوعات من مرث وزهد وغزل وعتاب وهجاء . والزهد عنده قليل مما يدل على أن أثر جده لأمه الورع فيه كان ضعيفاً . وواضح أن جمهور الشعر في الديوان مدائح ، ومع ذلك نرى له قصيدة ينصح فيها الشعراء أن يهجروا المديح إلى الهجاء ، ويبدو أنه قالها في لحظة عارضة في حياته . وقد توه به وبشاعريته ابن خلكان تنويهاً عظيماً قائلاً : « كان شاعراً وقته ، لم يكن فيه مثله ، جمع شعره بين جزالة الألفاظ وعذوبتها ورقة المعاني ودقتها ، وهو في غاية الحسن والحلاوة ، وفيما اعتقده لم يكن قبله بمائتي سنة من بضاهيه » .

وأول خليفة مدحه سبط ابن التعاويذى الخليفة المستنجد (٥٥٥ - ٥٦٦ هـ) وليس لأبيه المقتنى ذكر في الديوان ، وليس له في المستنجد نفسه سوى قصيدة ، وكأنه كان بعيداً عنه لعهد وزير الديوان ابن البلدى . حتى إذا ولي المستضى (٥٦٦ - ٥٧٥ هـ) رأيناه يكثر من مدائحه ، كما أكثر من مدائح ابنه الناصر ، وظاهرة مهمة تلاحظ في هذه المدائح ، هي أن الشاعر يقترض من بيئة الإمامية الشيعية وغيرها من الغلاة بعض الأوصاف التي يصفون بها أئمتهم ، ويصف بها المستضى وابنه الناصر ، وكأنه لم يعد هناك فرق بين مدح الشيعة لأئمتهم ومدح الشعراء لخلفاء بني العباس ، وأقرأ هذا الاستهلال لمدحة لسبط ابن التعاويذى في المستضى :

لك التَّهْيُّ بعد الله في الخلق والأمر وفي يدك المبسوطة النفع والضَّرُّ
وطاعتك الإيمان بالله والهدى وعصيانك الإلحاد في الدين والكفر
ولولاك ما صَحَّتْ عقيدة مؤمن تقى ولم يُقبلْ دعاة ولا نذر
مُرَّ الدهرُ يفعل ما تشاء فإنه بأمرك يَجْرى في تصرفه الدهر
والغلُو واضح في البيتين الأخيرين ، بل في الأبيات كلها ، حتى ليجعله بصرف الدهر كما يشاء . ويمضى في القصيدة فيصفه بأنه أمين الله ووارث النبي وإمام هدى عمَّ عدله الرعية ، وقد نطقت بفضلته آى الذكر الحكيم بقصد قوله تعالى : (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) . ودائماً يردّد في مدائحه له أنه جار على سنن الرسول ﷺ ، وأن مديحه له سيَعُدُّ يوم القيامة من حسناته . ويخطو الشاعر في مديحه للناصر خطوات أكثر غلواً على شاكلة قوله :

أنت الإمام المهديُّ ليس لنا إمامٌ حقٌّ سِوَاكَ يَنْتَظِرُ
يا صاحبَ العصرِ والزمانِ ومن في يده النَّفْعُ بعدُ والضَّررُ
ومنَ له الليلُ والنهارُ وما كَرَّا عليه والشمسُ والقمرُ
والبرُّ والبحرُ والشواهِقُ والدُّغُرُ العَوادي والنَّجْمُ والشَّجَرُ

ولو لم نعرف اسم الممدوح لظنناه إماماً شيعياً فهو المهدي الذي تنتظره الشيعة لينقذ العالم من مفاسده وشروعه ، وهو صاحب العصر والزمان الذي يخفي عن الأعين ومع ذلك يرعى أمور رعيته ويدبر شئونها ، بل إنه ليدبر الكون كله بلبه ونهاره وأفلاكه وكواكبه وأرضه وسمائه وبره وبحره . وعلى نحو ما يضيف الشيعة إلى أئمتهم العلم وأنهم خزنة وذخائره كذلك يكرر الشاعر بأن العباسيين علماء الدين الحنيف وأعلام الهدى ، ولا يملُّ من تكرار نشرهم للعدل . وكان الشيعة يرددون أن أئمتهم حجج الله في أرضه على عبادته ، ويقبض الشاعر هذه الفكرة في مدحه للناصر قائلاً :

حُجَّةُ اللَّهِ أَنْتَ وَالسَّبَبُ الْمَمْدُودُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ

ولعل في ذلك كله ما يدل على أن من الخطأ أن يُسَلَّكَ سَيْطُ ابن التعاويذي بين شعراء الشيعة كما ظن بعض المعاصرين ، فهو شاعر عباسي ، متعصب لخلفاء بني العباس أشد التعصب ، ولذلك أمثلة كثيرة في شعره ، وهو يقرر دائماً أنهم أصحاب الحق الشرعي في الخلافة ، ولذلك كنت أشك في أنه نظم مريثة الحسين .

أَرَقْتُ لِلْمَعْرِ بَرَقٍ حَاجِرٍ تَأَلَّقَ كَالْهَامِي الْمَشْرِقِي
ويغلب أن تكون المريثة أضيفت إلى الديوان في زمن مبكر .

وحين كاد العباد الأصهباني يعمل في دواوين الخلافة ببغداد انعقدت بينه وبين الشاعر صلة مودة ، فلما بارح العباد العراق إلى الشام واتصل بصلاح الدين كان الشاعر يرأسله ، ويقول يا قوت إن العباد ذكر في ترجمته بعض ما كان بينها من مراسلات ، وفي ابن خلكان رسالة بديعة للشاعر أرسل بها إلى العباد يطلب منه قُرْوة . ويبدو أن العباد عمل على أن يصل بينه وبين صلاح الدين من جهة ووزيره القاضي من جهة ثانية ، وفي ديوانه أربعة مدائح وجه بها إلى صلاح الدين بين سنتي ٦٧٠ و ٦٨٠ كافأه عليها مكافآت سنوية ، لعل أهمها النونية ، وفيها يقول :

قَادَ الْجِيَادَ مَعَاقِلًا وَإِنْ اكْتَفَى بِمَعَاقِلٍ مِنْ رَأْيِهِ وَحُصُونٍ
سَهَرَتْ جَفُونُ عِدَاهُ خَيْفَةً مَاجِدٍ خُلِقَتْ صَوَارِمُهُ بِغَيْرِ جَفُونٍ

لو أن لَيْثَ الهَزْبِ سَطَاهُ لم يلبأ إلى غابٍ له وعَرَبٍ
وغزله في مفتتح هذه المدحة رائع ، وله في القاضي الفاضل ثلاث مدائح أروعها رائية
يشكو فيها فقد بصره شكوى مرة ، إذ يقول :

نَاءٍ عن الأحياء في بَرْزَخٍ منقطعٍ من بينهم ذِكْرِي
ليلُ حِجَابٍ لا أرى فَجْرَهُ يا مَنْ رأى لَيْلاً بلا فجر
وفي الحق أنه كان شاعراً بارعاً ، وقد وفَّاه ابن خلكان حقه من الثناء ، ونحس
عنده كأن نبعاً سائغاً شرابه يتدفق عذباً عذوبة حلوة .

صفي^(١) الدين الحلي

هو عبد العزيز بن سرايا الحلي الطائي ، ولد بالحلة القريبة من الكوفة سنة ٦٧٧ لأسرة
على شيء من اليسار وسعة الحال ، فكان طبيعياً أن تُلحقه بكتاب يتعلم فيه القراءة وحفظ
القرآن الكريم وبعض الأشعار . وكان الغلمان من لداته يتدربون على ركوب الخيل
فحاكاهم في هذا التدريب . وأحسن في نفسه ميلاً شديداً إلى الشعر ، فأكبَّ على حفظ
نصوصه العباسية والإسلامية والجاهلية ، مما جعله فيما بعد يُعنى بتضمين كثير من هذه النصوص
في شعره وبعض موشحاته . ويبدو أن موهبته الشعرية استيقظت فيه مبكرة ، إذ يقول في
المقدمة التي صنعها لديوانه : « إني كنت قبل أن أشبَّ عن الطوق ، وأعلم ما دواعي
الشوق ، لهجاً بالشعر نظماً وحفظاً ، متقناً علومه معنى ولفظاً » . وهو يقصد بالعلوم علوم
العربية وعلوم البيان والمعاني والبدیع ، ونراه فيما بعد يؤلف في الجناس كتاباً سماه « الدر
النفيس في أجناس التجنيس » . ومربنا في غير هذا الموضوع أنه ألف قصيدة بديعية هي
مدحة نبوية تضم أبياتها نحو مائة وخمسين محسناً من محسنات البديع . ومن مؤلفاته كتاب
الأوزان المستحدثة مثل الدوبيت وغيره ، وأيضاً كتاب العاطل الحالى ، وهو - كما مرَّ
بنا - في فنون الأشعار العامة . ويصرح في مقدمة ديوانه بأنه لم يفكر في بدء حياته أن يمدح
أحداً أو يهجو أحداً ، بل لقد كان يرى أن يتعد بأشعاره عن هذين الجدولين ، وجعله
ذلك لا ينظم إلا في موضوعين هما مدح الرسول ﷺ وآله ، والفخر بآبائه . ولم يكد

(١) انظر في ترجمة صفي الدين الدرر الكامنة لابن حجر ٤٧٩/٢ وفوات الوفيات لابن شاکر الکتبی ٥٧٩/١ والبدر الطالع للشوکانی ٣٥٨/١ والنجوم الزاهرة
احمد علوش (طبع بغداد) . وديوانه طبع في القرن
الماضي طبعين : طبعة في دمشق وطبعة في بيروت وكلتاها
ملينة بالأخطاء وفي دار الكتب المصرية منه أربع
مخطوطات ٢٣٨/١ وكتاب شعر صفي الدين الحلي للذكتور جواد

يتجاوز العشرين من عمره حتى تعاظمت الخزازات والثارات بين عشيرته وأسرته وبعض الأسر أو العشائر في الحِلَّة ، وقُتل خاله ، وبكاه في غير قصيدة وأخذ يدعو للثأر له ، فنشبت معارك وسفكت دماء . وهاله أن يرى ذلك تحت بصره ، فلم تدخل سنة سبعة حتى خرج عن الحِلَّة ، ولم يكتف بالبعد عنها في بغداد ، فقد أبعد في ارتحاله حتى نزل عند ملوك ماردين في الموصل من آل أرثق أصحابها وأحسن لقاءه واستقبله ملكها المنصور نجم الدين غازي بن أرثق ، وهو يشيد به وبعطايه وعطايا ابنه الملك الصالح في مقدمته للديوان ، وفي استقبال المنصور له يقول :

لَا قَيْتَنَا مَلَقَى الْكَرِيمَ لَضِيفِهِ وَصَمَمْتَنَا ضَمَّ الْكَمَى لِسِيفِهِ

وقد أنزله في دار فخمة نوه بها في شعره ، وظل يصحبه في حِلَّه وترحاله ونزهاته ، وفيه نظم مدائح كثيرة في الأعياد وفي بعض انتصاراته . ولم يكتف بذلك فقد رأى أن ينظم فيه ديواناً مستقلاً سماه « دُرر النُحور في مدائح الملك المنصور » وهو ملحق بديوانه المطبوع في دمشق ، ويحتوى على تسع وعشرين قصيدة اشترط فيها على نفسه أن تكون كل قصيدة منها على حرف من حروف المعجم التسعة والعشرين ، وأن يكون عدد أبيات كل منها تسعة وعشرين ، وأن يبدأ في كل بيت منها ، ويختمه بنفس الحرف ، وفي إحداها يقول :

رَبُّ النَّوَالِ وَمَحْمُودُ الْخِصَالِ وَمَقْدُومُ النِّزَالِ وَأَمْنُ الْخَائِفِ الْحَذِرِ
رَاعَى الْأَنَامَ بَعِينَ غَيْرَ رَاقِدَةٍ قَدْ وَكَّلْتُ فِي أُمُورِ الْمَلِكِ بِالسَّهْرِ
رَاضٍ مَعَ السَّخَطِ يُبْدِي عِزَمَ مَنْتَقِمٍ لِلْمَذْنِبِينَ وَيَعْفُو عَقُومَ مَقْتَدِرِ
رَاحَتُهُ مُذْنَشَفٍ فِي الْمَلِكِ قَدْ عَاهَدَتْ يَوْمَ النَّدَى وَالرَّدَى بِالنَّفْعِ وَالضَّرْرِ

ولا ريب في أن هذا الصنيع ضرب من التكلف الشديد ، ولذلك حين نقرأ قصائد هذا الديوان نشعر كأننا بإزاء لون من الشعر التعليمي الذي يراد به إظهار المهارة اللغوية . ويتوفى الملك المنصور سنة ٧١٢ ويخلفه ابنه الملك الصالح وتظل له منزلته ، ويظل له راتبه الذي كان يأخذه في عهد أبيه ، ويصحبه في نزهاته وخروجه للصيد ، ويتخذة أنيساً له في مجالس شربه . ونراه في أواخر العقد الثاني من هذا القرن الثامن وقد مرَّ به نحو عشرين عاماً في ظلال الدولة الأرتقية يفكر في زيارة الشام بحجة رغبته في التجارة ، وكانت تجارته الدارَّة شعره ، فنزل بحجة ومدح سلطانها المؤيد وابنه الأفضل ، وفي أثناء مقامه عندهما يُرسل بمدائح إلى الملك الصالح . ويفكر في قضاء فريضة الحج ، ويحج إلى بيت الله الحرام في سنة ٧٢٣ ويزور قبر الرسول ﷺ ، ويفكر في العودة ولا يعود إلى الموصل ولا إلى الشام ولا إلى بغداد ، إذ يتجه إلى القاهرة وينزل بساحة سلطانها الناصر محمد بن قلاوون ،

ويستقبله أدياء مصر استقبالاً حافلاً ، ويمدح الناصر بقصيدتين ، ربما كانا أروع مدائحه جميعاً ، أما أولاهما فعارض بها قصيدة المتنبي :

بأبي الشموسُ الجانحاتُ غوارباً اللابساتُ من الحريرِ جلابياً
واختياره لمعارضة المتنبي شاعر العربية الفذ دليل قوى على ثقته بنفسه ، وقد أظهر في معارضته براعة فائقة ، وهو يستهل معارضته بقوله :

أَسْبَلَنَ من فوقِ الثُّهودِ ذَوَاتِباً فجعلنَ حَبَاتِ القلوبِ ذَوَاتِباً
والجناس في كلمتي ذواتب بديع ، فالأولى بمعنى الضفائر ، والثانية من الذوبان ، والجناس كثير في شعره ، وكان يعرف بمقدرته الشعرية كيف يجعله سائغاً . ويمضي في مديح الناصر قائلاً :

الناصرُ الملكُ الذي خضعتُ له صِيدُ الملوكِ مشارقاً ومغارباً
لم تَحُلْ أرضٌ من ثَناءٍ وإنْ خَلتُ من ذكره مُلُتْ قَنّاً وقَوَاضِباً
تُرْجَى مواهبه وَوَرَهَبُ بَطْشُهُ مثلُ الزمانِ مسالماً ومحارباً
فإذا سَطَا مَلَأَ القلوبَ مَهَابَةً وإذا سَخَا مَلَأَ العيونَ مواهباً
ولم يفتتح القصيدة الثانية بالنسيب أو الغزل . وكأنما سحر الطبيعة المصرية وجمال رياضها وبساتينها ملاً عينيه وقلبه ، فرأى أن يعدل عن النسيب إلى وصف الجمال الهاجع على ضفاف النيل وجداوله من مثل قوله :

خَلَعَ الربيعُ على غُصُونِ البانِ حُللاً فَوَاضِلُها على الكُتُبَانِ
والظِّلُّ يَسْرِقُ في الخِثَالِ خَطْوَهُ والغُصْنُ يَخْطُرُ خَطَرَةَ النَّشْوَانِ
وكانما الأغصانُ سوقُ رواقصٍ قد قَيَّدَتْ بسلاسلِ الرِّيحانِ
والشمسُ تنظرُ من خلالِ فُرُوعِها نحو الحداثِ نظرةَ الغَيْرَانِ
والطَّلُعُ في خَلَلِ الكِيَامِ كأنَّه حُلٌّ تَفَتَّقَ عن نُحُورِ غَوَانِ

وصفى الدين يحيل الطبيعة المصرية نشوى بما يترأى له فيها من غناء ورقص وغوان وجمال فاتن يأخذ بالألباب . ويمضي محفواً بهذا الجمال من كل جانب ، مادحاً للناصر محمد بن قلاوون بمثل قوله :

ملكٌ إذا اكْتَحَلَ الملوكُ بنوره خَرُّوا لهيبتهِ إلى الأَذْقَانِ
شاهدتهُ فشهدتُ لِقَمَانِ الحِجَى ونظرتُ كِسْرَى العَدَلِ في الإيوانِ
وافى وقد عاد السباحُ وأهلُهُ مَوْنَى فكان له المسيحُ الثاني
لا عيبَ في نِعْماءِ إلَّا أنَّها يَسْلُو الغربُ بها عن الأوطانِ

ويُشيد بإنعام الناصر عليه في مقدمة ديوانه ، وأن رئيس وزرائه أبلغه رغبته في أن يجمع شعره في ديوان ويؤبه ويرتبه . ولبيّ صفي الدين رغبة الناصر ، فجمع ديوانه ، وجعله في اثني عشر باباً تشتمل على ثلاثين فصلاً ، والأبواب في الفخر والحلاسة والمدح والطرديات والإخوانيات والمراثي والغزل والخمريات والشكوى والهدايا والألغاز والزهد والهجاء ومعه الملح والأحماض . وكأنما أريد لديوان صفي الدين أن يشيع من مصر ، على نحو ما تطبع في عصرنا بمصر دواوين كثيرة لشعراء البلاد العربية . وفي الديوان مدائح مختلفة للرسول عليه السلام ولعلي بن أبي طالب رضوان الله عليه ، وقد درسها الدكتور جواد علوش وانتهى من درسها إلى أنه كان شيعياً إمامياً ، وكل ما جاء به من أدلة على ذلك إشارته في بعض تلك المدائح إلى أن الرسول جعله وصياً له وأنه عهد له بهذه الوصاية حين نزل بِغَدِيرِ خُمٍّ بين مكة والمدينة ، يقول في مديح على :

إمامٌ له عَقْدُ يَوْمِ الْغَدِيرِ بنصِّ النَّبِيِّ وأقواله

وذكر صفي الدين لهذا العهد لايُثبت أنه شيعي إمامي ، إذ لا نجد في شعره شيئاً من عقيدة الإمامية ، ومعروف أن الزيدية مثل الإمامية يؤمنون بهذا العهد ، ونجده في نفس باب مديحه للرسول ولعلي يبرئ نفسه من تفضيل بعض الصحابة على بعض ، يقول :

ولأني لآل المصطفى عَقْدُ مذهبي وقلبي من حُبِّ الصَّابَةِ مُعَمِّمٌ
وما أنا ممن يستجيزُ بحُبِّهم مَسَبَّةُ أقوامٍ عليهم تقدّموا
ولكنني أُعْطِي الفريقين حَقَّهُم ورَبِّي بحالِ الأفضليَّةِ أَعْلَمُ

والبيتان الثاني والثالث يخرجه من العقيدة الإمامية التي تُضفي على عليٍّ وأبنائه من الأئمة صفات روحية قدسية لا توجد في غيرهم من أفراد الأمة ، والبيت الثالث يخرجه من الزيدية ، هم حقاً يصححون خلافة أبي بكر وعمر ولكن مع الإيمان بأن علياً أفضل منهما وأنه تجوز إمامة المفضول مع وجود الأفضل . وإذن فصفي الدين لا إمامي ولا زيدي ، ومن قوله :

قيل لي : تعشقت الصحابة طُرّاً أم تَفَرَّدْتَ منهمُ بفريقٍ
فإلى من تَميلُ ؟ قلتُ إلى الأَرْبَعِ لا سِماً إلى الفاروقِ

ويكنى أن يقول إنه يميل إلى الفاروق عمر أكثر من علي ، ليخرج من كل أبواب التشيع ، أما ورود عهد الغدير في بعض شعره فلعله قال ذلك عفواً في حديثه ، وخاصة أنه نشأ في الحِلَّةِ ، وهي بيئة قديمة من بيئات التشيع ، وهو نفسه يقول في مقدمة الديوان إن شعره في الرسول وآله نظمه في باكورة حياته .

وفي الديوان ظواهر مهمة يحسن أن نشير إليها ، ففيه اثنتا عشرة موشحة وفيه ثلاثة مسمطات وسبعة مخمسات وبعض رباعيات كقوله :

لا تحسب زورة الكرى أجفاني من بعدك من شواهد السلوان
ما أرسلت الرقاد إلا شركاً تصطاد به شوارد الغزلان

وتكثر في شعره المحسنات البديعية ، وخاصة الجناس بجميع صورته الممكنة ، ومربنا أن له كتاباً مستقلاً فيه ، وفي شعره كل ألوانه : التام والناقص والمقلوب والملفق ، وله قصيدة بنى كل شطر من شطورها على ثلاثة جناسات مثل :

سَلَّ سَلْسَلَ الرِّيقِ لِمَ لَمْ يَرَوْ حَرَّ ظَا بِلْ بَلْبَلِ الْقَلْبِ لِمَا زَادَ آلَامَا

وواضح أن حرفي « سَلَّ » كررا ثلاث مرات في الشطر الأول وكرّر حرفا « بِلْ » في الشطر الثاني ثلاث مرات . وقد يلجأ إلى جناس آخر لا يقل تعقيداً إذ يجانس بين ختامي الشطرين في قصيدة على هذه الصورة :

شَدِيدُ الْبَاسِ ذُو أَمْرِ مَطَاعٍ مُضَارِبُ كُلِّ قَرَمٍ أَوْ مَطَاعِنُ

ومضى في القصيدة يضيف نوناً إلى الكلمة المنونة في آخر الشطر الأول ليحدث هذا الجناس المتكلف . وأكثر من التضمين في قصائده ، بحيث يصبح له في القصيدة شطر ولبعث السابقين من مثل امرئ القيس والمتنبي وغيرهما شطران . وليس هذا فحسب فقد تبع الحريري في نظم قصائد مهملة غير منقوطة وأخرى معجمة منقوطة أو يستقل فيها بيت أو شطر بالإعجام وبيت أو شطر بالإهمال أو تتوالى الكلمات فيها كلمة معجمة وكلمة مهملة . وقد تتكون الأبيات من حروف مقطعة غير موصولة أو من حروف موصولة بحيث لا يكون فيها حرف مفصول ، وله قصيدة كل كلماتها مصغرة ، إلى غير ذلك من هذه التمرينات الهندسية التي لا تحوى شعراً ، وإنما تحوى مهارات لغوية . وصفى الدين بذلك وباستخدامه الواسع للتضمينات والجناسات يفتح الأبواب على مصاريعها لشعراء العراق بعده كي تحمد شاعريتهم وتجف ينابيعها ، مع أن ملكاته الشعرية كانت من الخصب بحيث لو اتجه بها نحو وصف الطبيعة وكان يجيده لأضاف إضافات رائعة إلى الشعر العربي .

٥

شعراء المراثي والهجاء والشكوى

لا نبالغ إذا قلنا إنه قلما وجد شاعر من الشعراء ، وخاصة شعراء المديح ، إلا وقد نظم مراثي مختلفة فيمن سبق إليه الموت من كبار ممدوحيه أو من أهله أو من أصدقائه ، ونكتفي

بالإشارة إلى بعض المراثي البديعة ، فمن ذلك مرثية أبي الحسن محمد بن عمر الأنباري الصوفي الواعظ لصديقه الوزير ابن بقية حين قتله عضد الدولة البويهى وصلبه في بغداد لسنة ٣٦٧ وقد استهلها بقوله (١) :

عُلُوٌّ فِي الْحَيَاةِ وَفِي الْمَمَاتِ لِحَقِّ أَنْتَ إِحْدَى الْمَعْجَزَاتِ
كَأَنَّ النَّاسَ حَوْلَكَ حِينَ قَامُوا وَقَوْدُ نَدَاكَ أَيَّامَ الصَّلَاتِ
كَأَنَّكَ قَائِمٌ فِيهِمْ خَطِيباً وَكُلُّهُمْ قِيَامٌ لِلصَّلَاةِ
مَدَدَتْ يَدَيْكَ نَحْوَهُمْ احْتِفَاءً كَمَدَّهُمَا إِلَيْهِمْ بِالْهَبَاتِ

ويشبهه صلبه بصلب زيد بن علي زين العابدين في أواخر العصر الأموي ، ويتصور الجذع المصلوب إليه كأنه يعانق المكرمات ، ويظن كأن الكوارث التي طالما رَدَّها عن الناس تأثرت لنفسها منه ، ويقول إن باطن الأرض حين ضاق عن أن يضم علاه جعلوا الجوقبره كما جعلوا أكفانه غبار الرياح ، ويستنزل عليه أويستمطر شآبيب الرحمة والرضوان . ويكثر في العصر رثاء الشعراء ، وفي مقدمتهم المتنبي ، وفي كتاب الدمية للباخرزي مرثاة مختلفة له ، ومن رثاه أبو القاسم المظفر بن علي الطَّبَّسي ، وفيه يقول (٢) :

لَا رَعَى اللَّهُ سِرْبَ هَذَا الزَّمَانِ إِذْ دَهَانَا فِي مِثْلِ ذَلِكَ اللِّسَانِ
مَا رَأَى النَّاسُ ثَانِيَّ الْمُتَنَبِّئِ أَيْ ثَانٍ يُرَى لِيَكْرَ الزَّمَانِ
كَانَ مِنْ نَفْسِهِ الْكَبِيرَةِ فِي جَيْدٍ شَيْءٍ وَفِي كِبْرِيَاءِ ذِي سُلْطَانِ
هُوَ فِي شَعْرِهِ نَبِيٌّ وَلَكِنْ ظَهَرَتْ مُعْجَزَاتُهُ فِي الْمَعَانِ

وكان الشريف الرضي يكثر من رثاء أصدقائه من الكتاب والشعراء ، وقد رثى أبا إسحق الصائبي بقصيدته الدالية مفتتحاً لها بقوله :

أَرَأَيْتَ مَنْ حَمَلُوا عَلَى الْأَعْوَادِ أَرَأَيْتَ كَيْفَ خَبَأَ ضِيَاءَ النَّادِي
وَعَاتِبَهُ النَّاسُ فِي ذَلِكَ لِكَوْنِهِ شَرِيفاً مِنْ سُلَالَةِ الرُّسُولِ وَرَثَى صَابِئاً ، فقال : إِنَّمَا رِثْتُ فَضْلَهُ . وتوفي الرضي فرثاه مهيار بلامية تأثر في مطلعها بمطلع داليتة آففة الذكر إذ يقول :

حَمْلُوكَ لَوْ عَلِمُوا مِنَ الْمَحْمُولِ فَارْتَاضَ مُعْتَاصٌ وَخَفَّ ثَقِيلٌ

وهذا باب يطول . ونكتني بأن نقول إنه لم يمت خليفة ولا وزير ولا حاكم إلا وأكثر الشعراء من رثائه . وأهم من هذه المراثي لأشخاص رثاه بغداد حين اكتسحها التتار وخربوها ودمروها تدميراً فقد بكاهها الشعراء بكاء حاراً ، بكوا أهلها الذين سُفِكَتْ

(١) انظر النجوم الزاهرة ١٣٠/٤ وابن خلكان (٢) ابن خلكان ١٢٤/١ وانظر الدمية ١٠٥/١ ،

دماؤهم وقُتِلوا تَقْتِيلاً ، وبكوا تاريخها ومدنيتها وماكان بها من علوم وعلماء ، وقد أشرنا في الفصل الأول إلى مريثة الشيخ تقي الدين التنوخي لها ، وقد أكثر من رثائها شمس الدين الكوفي الواعظ المتوفى سنة ٦٧٥ واحتفظ ابن شاكر في كتابه فوات الوفيات بطائفة من مرثيته في ترجمته للخليفة المستعصم ، وفي إحداها يقول (١) :

أين الذين عهدتهم ولعزمهم ذُلًّا تَخَرُّ معاهدُ التَّيجانِ
كانوا نجوم من اقتدى فعلهم يبكي الهَدَى وشعائر الإيمانِ
لما رأيتُ الدارَ بعد فراقهم أضحتْ معطلةً من السَّكَّانِ
مازلتُ أبكيهم وألثمُ وحشةً لجاهم مُسْتَهْدِمَ الأركانِ

وكان لهذه النكبة صداها المدوي في جميع البلدان العربية وفي إيران ، حتى لرى الشيخ سعدى الشيرازي وغيره من شعرائها يندبوننا ندباً كله لوعة وحسرة على ما أصابها من دمار ونكال .

ولعل الهجاء كان أكثر ذيوغاً وانتشاراً من الرثاء ، ومربنا أن المتنبى هجا كثيراً الأعاجم كما هجا كافوراً الإخشيدى ، وتلقانا في البيمة والدمية والخريدة أهاج كثيرة ، بل يلقانا شعراء وقفوا حياتهم أو كادوا على الهجاء مثل محمد بن محمد بن جعفر البصرى المعروف باسم ابن (٢) لَنُكْث المتوفى سنة ٣٦٠ وكان قد قصَّره جهده عن بلوغ الغاية أو المتزلة التي يأملها لنفسه ، فسلَّ لسانه على معاصريه من الشعراء حتى المتنبى فإنه هجاه ، وهو الذى زعم أنه ابن سقاء بالكوفة ، كما لاحظ ياقوت في ترجمته له . وكان يتهاجى مع شاعر معاصر له يسمى أبارياش ، وفيه يقول :

على القُبْحِ الفُطَيْحِ أبو رياش يُعَاشِرُنَا بِأَخلاقٍ ملاحِ
يُبِيحُ أَكْفَنَّا أبداً قَفَاهُ فَتَصَفَّعُهُ عَلَى جَهَةِ المَزاحِ

وهما من أنظف ما قال فيه ، وكأنه كان يريد أن يتشفَّى من الزمن بهجوه وهجو غيره من الشعراء لكساد شعره وهوان شأنه على الناس . ومن كبار المهجائين في العصر ابن الهَيَّارِية المتوفى سنة ٥٠٤ وسنترجم له في غير هذا الموضع ، وقد ذكر العباد في الخريدة أن له قصيدة (٣) في هجو أرباب الدولة في عهد ملكشاه السلجوقي (٤٦٥ - ٤٨٥) وساق منها قطعتين طويلتين ، وفيهم يقول :

(١) فوات الوفيات ١/ ٥٠٠ . وفوات الوفيات ١/ ٥٤ وشعر ابن لنكك البصرى بتحقيق

(٢) انظر في ابن لنكك البيمة ٣٤٨/٢ وتاريخ بغداد زهير غازى زاهد (طبع البصرة)

٢٩٩/٣ ومعجم الأدباء ٧٨/٧ والوفاء بالوفيات ١٥٦/١ (٣) الخريدة (قسم العراق) ٨١/٢ .

لى مَاتُمْ مِنْ سُوءِ فِعْلِهِمْ وَلَهُمْ بِحَسَنِ مَدَائِحِي عُرْسُ
وَلَقَدْ غَرَسْتُ الْمَدَحَ عِنْدَهُمْ طَمَعًا فَحَنَظَلْ ذَلِكَ الْغَرَسُ

وَيَمُضَى فِي ثَلَاثِهِمْ وَاحِدًا وَاحِدًا أَقْبَحَ ثَلَبَ وَأَشْنَعَهُ . وَعَلَى شَاكِلَةِ هَذِهِ الْقَصِيدَةِ
سِنِيَّةٌ ^(١) لِلشَّارِفِ أَبِي نَزَارٍ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْكُوفِيِّ ذِمٌّ فِيهَا سَادَاتُ بَنِي عَمَةٍ مِنَ الْكُوفَةِ
وَالْحِلَّةِ . وَمَرَّبْنَا تَعْرِضَ سَيْطِ ابْنِ التَّعَاوَيْدِيِّ لِلْوَزِيرِ ابْنِ الْبُلْدِيِّ ، وَفِيهِ يَقُولُ ابْنُ لُثَكٍ :
يَبْدُو لِرَاجِيهِ عَلَى وَجْهِهِ غِلْظَةٌ لَيْثٌ بِالشَّرِّ مُخْذَرٌ ^(٢)
لَوْ أَنَّهَا بِالْأَرْضِ مَا أَخْصَبَتْ أَوْ بِالسَّحَابِ الْجَوْنِ لَمْ يُمَطِّرْ
وَفِي دِيْوَانِ صَفِيِّ الدِّينِ الْحَلِيِّ بَابٍ لِلْهَجَاءِ كَمَا أَسْلَفْنَا ، وَإِنَّمَا نَمَثِلُ فَقَطْ بِيَعُضِ
النُّصُوصِ .

وَطَبِيعِي أَنْ تَكْثُرَ فِي الْعَصْرِ الشُّكُوفَى مِنَ الزَّمَانِ ، وَنَكَادُ نَلْتَقِي بِهَا بَعْدَ الْمُنْتَبِي عَلَى
لِسَانِ كُلِّ شَاعِرٍ ، وَلَا يَخْتَلِفُ اثْنَانِ فِي أَنْ أَرُوعَ قَصِيدَةً فِي الشُّكُوفَى مِنَ الدَّهْرِ وَتَصَارِيفِهِ
قِيلَتْ فِي الْعَصْرِ قَصِيدَةُ أَبِي مُحَمَّدٍ ^(٣) عَلَى بْنِ زُرَيْقٍ الْكَاتِبِ الْكُوفِيِّ وَهُوَ مِنْ شُعْرَاءِ
الْيَتِيمَةِ ، وَيُقَالُ إِنَّهُ أَلَمْتُ بِهِ أَيَّامَ عَسِيرَةٍ ، فَرَأَى الْارْتِحَالَ إِلَى الْغَرْبِ ، وَارْتَحَلَ تَارِكًا وَرَاءَهُ
فِي بَغْدَادٍ زَوْجَةً كَانَ صَبًّا بِهَا مَغْرَمًا ، غَيْرَ أَنَّ الْأَيَّامَ لَمْ تَسْعِفْهُ ، وَبِيَالِغٍ بَعْضُ الرِّوَاةِ
فِيَزَعُمُونَ أَنَّهُ ظَلَّ رَاحِلًا حَتَّى وَصَلَ إِلَى الْأَنْدَلُسِ وَامْتَدَحَ أَحَدَ أَمْرَائِهِ ، فَلَمْ يَعْطِهِ مَآكَانَ
يَتَمَنَاهُ ، فَبَكَى أَمْلَهُ الضَّائِعَ فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ ، وَفِيهَا يَقُولُ مُحَاطِبًا زَوْجَهُ وَبَاكِئًا نَفْسَهُ :
لَا تَعْدِلِيهِ فَإِنَّ الْعَذْلَ يُؤْلَعُهُ قَدْ قَلَّتْ حَقًّا وَلَكِنْ لَيْسَ يَسْمَعُهُ
فَاسْتَعْمَلِي الرَّفْقَ فِي تَأْنِيهِ بَدَلًا مِنْ عُنْفِهِ فَهُوَ مُضْنَى الْقَلْبِ مَوْجَعُهُ
تَأْتِي الْمَطَالِبُ إِلَّا أَنْ تَكَلَّفَهُ لِلرِّزْقِ سَعْيًا وَلَكِنْ لَيْسَ يَجْمَعُهُ
وَالْحَرَصُ فِي الْمَرْءِ - وَالْأَرْزَاقُ قَدْ قُسِمَتْ - بَغْيٌ أَلَا إِنْ بَغَى الْمَرْءُ يَصْرَعُهُ
أَعْطِيَتْ مُلْكًا فَلَمْ أَحْسِنْ سِيَاسَتَهُ وَكُلُّ مَنْ لَا يَسُوسُ الْمُلْكَ يَخْلَعُهُ
وَيَصُورُ فِي الْقَصِيدَةِ لَوَعَةُ الْفِرَاقِ وَسُوءُ الْحِظِّ وَأَنَّهُ لَا يَزَالُ فِي حُلٍّ وَتَرَحُّالٍ وَرَاءَ
الرِّزْقِ ، وَهُوَ يَلْمَعُ لَهُ كَسْرَابٌ يَحْسِبُهُ الظَّمَانُ مَاءً ، حَتَّى إِذَا أَنْتَهَى إِلَيْهِ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا .
وَالْقَصِيدَةُ كُلُّهَا شُكُوفَى وَأَنْبِيْنٌ وَلَوَعَةٌ مَمْضَةٌ . وَسَنَقِفُ قَلِيلًا عِنْدَ شَاعِرَيْنِ مِنْ شُعْرَاءِ الْهَجَاءِ ،
أَحَدُهُمَا مِنْ شُعْرَاءِ الْيَتِيمَةِ وَالثَّانِي مِنْ شُعْرَاءِ الْخَزِيدَةِ ، وَهُمَا السَّرِيُّ الرَّفَّاءُ الْمَوْصِلِيُّ وَابْنُ
الْقَطَّانِ الْبَغْدَادِيُّ .

(٣) انظر في ابن زريق اليتيمة ٣٧٦/٢ وابن خلكان

(١) الخريدة ٢٦٢/١/٤ .

(٢) الشَّيْءُ : الْغِيلُ . مُخْذَرٌ : فِي خَدْرِهِ أَوْغِيلُهُ . ٣٣٨/٥ وَبِسْمِيهِ مُحَمَّدًا ، وَرَاجِعُ بَرْوَكِيَّانَ ٦٦/٢ .

السَّريُّ (١) الرَّفَاءُ

هو أبو الحسن السري بن أحمد الكندي الموصلی ، وُلد لأسرة متواضعة ، يدل على ذلك أننا نجد أباه يسلمه صبياً للرَّقائين ، فكان يَرَفُو ويَطْرُز ، ويبدو أنه تعلم القراءة والكتابة في صباه وحفظ القرآن أو بعضاً منه واستظهر بعض الشعر ، إذ يقول مترجموه عنه إنه بينما كان يعمل رَفَاءً في باكورة شبابه كان ينظم الشعر ويحيده . ويبدو أنه أخذ يُكَبِّ على دواوين الشعراء ، وخاصة شعراء العصر العباسي المشهورين من أمثال أبي تمام والبحتري وابن المعتز وابن الرومي والمتنبي ، يدل على ذلك بوضوح الفصل الذي عقده الثعالبي لسرقاته . وكأنه أحسَّ أنه إنما خُلِق لكي يكون شاعراً لا لكي يكون رَفَاءً ، ولم تكن حرفته تدرُّ عليه إلا كفافاً من العيش يسدُّ به رمقه ، وإلى ذلك يشير قائلاً :

قد كانتِ الإبرةُ فيما مضى صائنةً وَجْهي وأشعاري
فأصبح الرِّزْقُ بها ضيقاً كأنه من نُقْبها جاري

واجتمع عزمه على أن يهجر حرفة الرِّفُو والتطريز إلى حرفة الأدب والشعر ، واشتغل بالوراقة فكان ينسخ ديوان شعر كُشاجم ، إذ كان معاصروه يقبلون عليه إقبالاً شديداً ، ويعيش بما يأخذ من أجرة نَسْخه .

وكان معه في الموصل فتیان أخوان ينظمان الشعر ويحيدهان ، هما أبو بكر محمد وأبو عثمان سعيد الخالديان فحدثت بينه وبينهما منافسة ، وكانا يحسنان الشعر ، فرأى أن يكيد لهما بإضافة أجود ما ينظمانه إلى ديوان كُشاجم ، ليزيد حجمه ويَنفُث سوقه من جهة ، وليشيعَ عليهما بأنهما يسرقان شعره كما يسرقان شعر غيره من جهة ثانية ، مما أشعل نار الهجاء بينه وبينهما ، وظلت لا تَحمد أبداً . ويسمع بما ينثره سيف الدولة الحمداني في حلب من عطايا وأموال على الشعراء ، فيشدُّ رحاله إليه ، وقد أكرم وفادته عليه ، فأقام بحضرته ، فاشتهر وطلع سعده بعد الأفول ، وبعْدَ صيته بعد الخمول ، وله فيه مدائح بديعة كقوله في تصوير فرار الروم بين يديه ومَقْتَلته فيهم مقتلة عظيمة :

ترَكَّهم بين مصبوغٍ تَرَائِيهِ من الدماء ومخضوبٍ ذَوَائِيهِ
فحائِذٌ وشهابُ الرُّمَحِ لاحِقُهُ وهاربٌ وذبابُ السيفِ طالِيهِ

ذباب السيف : طرفه الحاد . ولما توفي سيف الدولة انتقل السريُّ إلى بغداد ومدح

(١) انظر في ترجمة السري الرفاء اليتيمة ١١٧/٢ الأدباء ١٨٢/١١ وابن خلكان ٣٥٩/٢ والنجوم الزاهرة

وتاريخ بغداد ١٩٤/٩ والأنساب للسماعاني ٢٥٥ ومعجم

٦٧/٤ وديوانه مطبوع بالقاهرة .

الوزراء وغيرهم من الرؤساء وحسنت حاله ، إذ نفق شعره وراج وسار في الآفاق ،
وتهاداه الأدباء في خراسان وسائر البلدان . ويقول ابن خلكان إنه جمع شعره قبل وفاته في
نحو ثلاثمائة ورقة ثم زاد فيه ، ويذكر من تصانيفه كتاب الدِّيرة وكتاب المحب والمحبوب
والمشموم والمشروب . وقد أنشد الثعالبي من شعره في اليتيمة نحو ستين صحيفة وزعها على
سرقاته وما تكرر من معانيه وأهاجيه ومدىحه ولهوه ومجونه وربيعياته وأوصافه وغزلياته
وما يتعنى به من أشعاره . ويسوق له الثعالبي طائفة من أهاجيه في الخالدين مدعياً عليها
أنهما يسرقان أشعاره ، من ذلك قوله :

أفَى كُلِّ يَوْمٍ لِلْغَيْثِ غَارَةٌ تَرُوعُ أَلْفَاظِي الْحَجَلَةِ الْغَرَا
فَهَلَّا أَبَا عَمَّانَ مَهَلًا فَإِنَّمَا يَغَارُ عَلَى الْأَشْعَارِ مَنْ عَشِقَ الشُّعْرَا
لَأَطْفَاءُ تِلْكَ النُّجُومَ بِأَسْرَهَا وَدَنَسْنَا تِلْكَ الْمَطَارِفَ وَالْأُزْرَا
فَوَيْحَكُمَا هَلَّا بِشَطْرِ قِنَعِنَا وَأَبْقَيْنَا لِي مِنْ مُحَاسِنِهِ شَطْرَا

ويكثر من اتهام الخالدين بتلك السرقة ، ويردد ذلك في مدائحه وأنهما يبيعان أشعاره
في العراق ، وليتها يبيعانها لمن يستحقها ، فإنهما يبيعانها بثمان بنحس لكل من لقياه ، غير
مقدرين لقيمتها ، ولا واعيين لقدرها ، ويزعم أن غارتها على شعره غارة عامة للمديح
وغير المديح ، يقول :

ذُبَّانَ لَوْ ظَفَّرَا بِالشُّعْرِ فِي حَرَمٍ لَمَزَّاهُ بِأَنْيَابٍ وَأَظْفَارٍ
بَاعَا عَرَائِسَ شَعْرَى بِالْعِرَاقِ فَلَا تَبْعُدُ سَبَايَاهُ مِنْ عُونٍ وَأَبْكَارٍ
وَمَا رَأَى النَّاسَ سَبِيًّا مِثْلَ سَبِيهَا يَبِيعُ نَفْسَيْتُهُ ظِلْمًا بِدِينَارٍ
وَاللَّهِ مَا مَدَحَا حَيًّا وَلَا رَكِيًّا مِيتًا وَلَا افْتَخَرَا إِلَّا بِأَشْعَارِي

ولا يزال يصف هذا السبى الشعري من عُون أو ثيبات وأبكار ، وكيف أن من هذا
السبى جرحى لم تُضرب بحد سيف ، وأسرى لم تُحمل على ظهور خيل . ويبكى تعبته في
نظم أشعاره ويشبهها بالرياض ويصور إشفاقها على أنفسها من هذين اللصين وسيوفهما
التي تفتك بها فتكاً ذريعاً . ويعقد الثعالبي فصلاً لأهاجيه لابن العصب الملحي الشاعر
وكان يتعصب للخالدين عليه ، وهو في هجائه له يقذف إقذاعاً شديداً زاعماً مشاهدة
أهل الرِّيب في منزله بين اللهو والخمر والقصف ، وكأنه لا يعيش في منزل إنما يعيش في
حانة ، يقول في وصف دعوة دعاه فيها ساخراً :

وَطَافَ الشَّيْخُ بِالْدَّنِّ إِلَى أَنْ تَرَفَ الدَّنَّا
فَأَذْنَى كَدَرَ الْعَيْشِ بِهَا لَا كَانَ مَا أَذْنَى

مُدَامُ تَجْلِبُ الهمُّ ولا تَطْرُدُهُ عَنَّا
فلا النفسُ بها سُرْتُ ولا القلبُ لها حَنَّا

وهي سخرية قاتلة من الشيخ ، ولم نسق ما أضافه إلى الخمر من التبذل والتهتك واطراح الحشمة في صراحة ، لأن الهجاء بذلك يتحول سباً يؤذى النفوس . وفي رأينا أن هجاءه ينزل درجات عن بقية فنونه الشعرية ، وخاصة في فني المديح والغزل ، وكان يتغنى بشعره في بغداد لعصره وبعد عصره بمثل قوله متغزلاً :

بنفسى مَنْ أجودُ له بنفسى وَيَبْخُلُ بالتحية والسلام
وحتى كامنٌ في مُقْلَتِهِ كُمُونَ الموتِ في حَدِّ الحسام

والصورة في البيت الثاني بديعة . ولا يُعرف تاريخ مولده ، أما وفاته فكانت في بغداد سنة ٣٦٠ وقبل سنة ٣٦٢ وقيل بل سنة ٣٦٦ إذ اتخذها دار مقام له في أخريات حياته .

ابن القَطَّان^(١) البغدادي

هو أبو القاسم هبة الله بن الفضل بن القطان ، ولد ببغداد سنة ٤٧٨ وأكب على دراسة الحديث النبوي في نشأته ، ثم اتجه إلى دراسة الطب فأقننها ، حتى عدَّ من أطباء بغداد ، وكان كثير النواذر ، وغلب عليه الشعر ، وكان خبيث اللسان هجاء ، كما كان غاية في المحون والخلاعة وكثرة المزاح والدعابة ، وقد هجا جماعة من الأعيان وكبار رجال الدولة ، وكاد لا يسلم منه أحد لا خليفة ولا غيره ، وعوقب مرة على هجائه إذ هجا قاضي القضاة الزينبي بقصيدة كافية أولها :

يا أخى الشَّرْطُ أملكُ لستُ للسُّلبِ أنتركُ
وهي طويلة عدد أبياتها مائة وثمانية عشر بيتاً ، وتناقلتها الرواة واشتهرت ولاكتها الألسنة ، فبلغ ذلك القاضي الزينبي ، فأحضر ابن القطان وصفه وحبسه مدة ، ثم ردَّ إليه حريته . وكان يعرف كيف يخز في هجائه وَخَزَ الإبر ، من مثل قوله في الوزير أنوشروان ذاماً له بالتواضع :

هذا تَوَاضَعُكَ المشهورُ عن ضَعَةٍ
قعدتَ عن أملِ الرَّاجي وقتَ له
فصرتَ من أجله بالكِبرِ تَتَهَمُ
فذا وثوبٌ على الطلابِ لا لهم

١٨٩/٦ ومرآة الجنان ٣/٣١٥ والخريدة (قسم العراق)

٢٧٠/٢ وفوات الوفيات ٢/٦١٧ .

(١) انظر في ترجمة ابن القطان المنتظم ١٠/٢٠٧

وطبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (نشر دار مكتبة الحياة

بيروت) ص ٣٨٠ وابن خلكان ٦/٥٣ ولسان الميزان

ويكثر مثل هذا الوخز وما يحمل من سخرية في هجوه ، مما يدل على قدرة حقيقية في الهجاء ، إذ لم يكن يعتمد إلى السب والشتم ، إنما يعتمد إلى سمو تفتك بمن تسلط عليه كقوله في ابن المرحم قاضي القضاة ببغداد :

يا ابن المرحم صرتَ فينا قاضياً خَرَفَ الزمانُ تَراه أم جُنَّ الفَلَكُ
إن كنتَ تحكُمُ بالنجوم فربما أَمَّا بِشَرِّ مُحَمَّدٍ من أين لَكَ
وهو بُعِدَ في الهجاء وهزء ما بعده هزء بقاضي القضاة في عصره . وله قصيدة طويلة في هجاء كُتَّاب الديوان لزمته ، وكان بينهم عباسيون ، فعرض لأحدهم يغمزه في نسبه إلى العباس بن عبد المطلب جدّه ، قائلاً :

نسبُ إلى العباس ليس نظيرُهُ في الضَّعْفِ غَيْرَ الباقِلَاءِ الأَخْضَرِ
وضعف عود الباقلاء الأخضر معروف . وله قصيدة طويلة يسخر فيها من واعظ ووعظه وأنه يعظ الناس بما لا ينهى عنه نفسه ، وله يقول :

وَأَنْتَ تَنْهَى النَّاسَ عَنْ غِييَةٍ فِي مِثْلِهَا تَأْمُرُ بِالرَّدِّ
إِذَا بَتَخَوِيفٍ مِنَ النَّارِ أَوْ بِنَوْعٍ تَشْوِيقٍ إِلَى الْخُلْدِ
وبعد ذا تفعلُ بي هكذا زِنْهَارُ من سَالُوسِ السَّرْدِ
وهذه العجمة مِنْ عِنْدِكَ أَقْ تَبَسُّهَا مَا هِيَ مِنْ عِنْدِي
ارجعْ إِلَى اللَّهِ وَدَعْنِي وَلَا تَرْمِ بِسَهْمِ الطَّيْشِ مِنْ بَعْدِ
فهو ينهى الناس عن الغيبة ويغتابه ، مع أنه كثيراً ما يلوح للناس بأنها قد تدخلهم النار وأن تركهم لها قد يدخلهم الفردوس ، والشرط الثاني في البيت الثالث عبارة فارسية يشير بها إلى أصل هذا الواعظ الأعجمي ، وكلمة زنهارة كلمة استغاثة بالفارسية . والسالوس السرد : الكلام المعسول البارد . وهو يستغيث بذلك من وعظه ، ويقول له ساخرًا إنما اقتبست هذه الصيغة الأعجمية من عندك فأنت أعجمي اللسان لا تكاد تفصح في البيان ، ويناديه هازئاً به ارجع إلى ربك واستغفر لذنبك . وتكثر في القصيدة الألفاظ والعبارات الفارسية ، مما يدل على معرفته التامة لتلك اللغة . وعلى هذا النحو كان ابن القطان لا يزال يسخر سخریات لاذعة بمن حوله ، كقوله في وزير كان يستثقل وزارته وظلّه :

يا معشر الناسِ النَفِيرَ النَفِيرُ قَدْ جَلَسَ الْهَرْدَبُ فَوْقَ السَّرِيرِ
وصارَ فينا أَمْرًا نَاهِيًا وَكُنْتُ أَرْجُو أَنَّهُ لَا يَصِيرُ
فَكَلِمًا قَلْتُ قَدْ دَيَّ يَنْجَلِي وَظَلَمْتُ عَمَّا قَلِيلٍ تُنِيرُ

فَتَحْتُ عَيْنِي فَإِذَا الدَّوْلَةُ الـ سَدُولَةُ وَالشَّيْخُ الْوَزِيرُ الْوَزِيرُ
والهردب : العجوز الغليظ ، يريد أنه لا يستطيع حراكاً فكيف يحرك دواليب دولة ، وإنه
ليطلب إلى الناس أن تنفر للقاء هذا الأمر الخطير ، ويرأها غُمَّة على صدر الأمة
لا تنجلي ، ويفتح عينه في كل يوم أو في كل صباح فيراها جاثمة لا تريم . ولعله كان
يريد القاضي الزينبي الذي زَجَّ به في السجن كما مر بنا ، فإنه تولى الوزارة ، ويقال إنه
لما وليها دخل عليه ابن القطان والمجلس غاص بأعيان الرؤساء وقد اجتمعوا لتهنئته ،
فوقف بين يديه ودعا له وأظهر الفرح والسرور ، ورقص . فلما رآه الزينبي يرقص أسرَّ
إلى بعض خواصه : قَبَّحَ الله هذا الشيخ ، فإنه يشير برقصه إلى ما تقول العامة في
أمثالها : « ارقص للقرء في زمانه » . وبحق ما قاله الزينبي إذ نراه يقول في هجائه لبعض
الرؤساء :

كُلُّ مَنْ صَفَّقَ الزَّما نٌ لَهُ قَتُّ أَرْقَصُ
وكان بينه وبين الحَيْصَ بَيْصَ الشاعر بُغْضٌ ومهاترة ، وكانا يصطلحان وقتاً ثم
يعودان إلى ما كانا فيه من التناوب والتهاجي تماجنا وتظرفا ودعابة ، فمن ذلك أن الحَيْصَ
بَيْصَ خرج ليلة من دار الوزير الزينبي ، فنبج عليه جَرُّو كَلْبَةٍ ، وكان متقلداً سيفاً ،
فوكزه بعقب السيف ، فأت . وعلم بذلك ابن القطان ، فنظم أبياتاً ، وأضاف إليها
بيتين من أبيات ديوان الحماسة لأعرابي قتل أخوه ابناً له ، فَقَدَّمْ إليه ليثأر منه وكان بيده
سيف ، فألقاه من يده وأنشد البيتين . وكتب ابن القطان الأبيات في ورقة وعلَّقها في
عنق كلبه لها جِراء ، ورَتَّبَ معها مَنْ طردها هي وجِراءها أو أولادها إلى باب دار
الوزير كالمستغيثة ، فأخذت الورقة من عنقها ، وعُرِضَتْ على الوزير ، فإذا فيها :
يا أهل بغدادَ إِنْ الحَيْصَ بَيْصَ أَتَى بفعلَةٍ أَكسَبَتْهُ الخِزْيَ في البَلَدِ
هو الجبانُ الَّذِي أَبْدَى شجاعَتَهُ على جَرِيٍّ ضَعِيفِ البَطْشِ والجَلْدِ
فأنشدتُ أُمَّهُ من بعد ما احتسبتُ : دَمُ الأَبْيَلِيقِ عند الواحدِ الصِّدِّ
« أقول للنفسِ تأساءً وتعزياً إحدى يَدَيَّ أَصابَتْنِي ولم تُرِدْ
كلاهما خَلْفٌ من قَدِّ صاحبه هذا أَخِي حين أدعوه وذا ولدي »

وَجَلَّبُ ابن القطان البيتين الأخيرين من ديوان الحماسة من أروع أمثلة التضمين ،
فقد بلغ بهما كل ما أراد من سخرية بالحَيْصَ بَيْصَ ، إذ جعل الكلبة تقول بلسان حالها
إن أَخِي الحَيْصَ بَيْصَ الَّذِي موقعه مني موقع إحدى يَدَيَّ جَنَى عَلَيَّ سهواً وخطأً
لا عمدًا ولا قَصْدًا لسوء ، وإن كلا من الأخ القاتل سهواً والابن المفقود يعوِّض عن

فقدان صاحبه ، وبذلك جعله من فصيلة الكلاب ، متسللاً إليه من تضمين البيتين في مقطوعته ، فضلاً عما صورّه به من الجبن والهلع إزاء جرّو مستضعف لا حول له ولا قوة . وكانت في ابن القطان دعابة وميل شديد إلى النادرة ، وروى ابن خلكان طائفة من نوادره ، من ذلك أنه دخل على الوزير ابن هبيرة وعنده نقيب للأشراف يشتهر ببخله وكان دخوله عليه في يوم حر شديد في شهر رمضان ، فقال له الوزير : أين كنت ؟ فقال على البديهة : في مطبخ سيدى النقيب أتبرد ، يريد أنه ليس فيه نار ولا طبيع في رمضان ، فضحك الحاضرون وخجل النقيب . وما زال يُطَرّف البغداديين بنوادره حتى توفّي عن سن عالية ببغداد في عيد الفطر سنة ٥٥٨

٥

شعراء التشيع

مر بنا في الفصل الأول كيف أن مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية أخذ يعم في العراق منذ فواتح هذا العصر إذ كان البويهيون شيعة إمامية ، فأخذ المذهب يتشرف في عصرهم ، وأخذ أتباعه يتكاثرون ، وتكاثر معهم الشعراء ، ومضوا ينظمون في موضوعين أساسيين هما : مناقب علي بن أبي طالب رضوان الله عليه ، متحدّثين عن سيرته وانتصاراته على مشركى قريش وغيرهم وما فتح الله على يديه من حصون خيبر ، مضيفين إلى ذلك كلّ ما يروى له من فضائل منذ اعتنق الدين الحنيف وجاهد في سبيله إلى وفاته . أما الموضوع الثاني فهو بكاء الحسين وندبه ، واتسع ذلك حتى أصبح يوم مصرعه مأتماً عاماً في كربلاء وبغداد ، وهياً لذلك أن حاكم بغداد البويهى معز الدولة ألزم الناس - كما أسلفنا - في سنة ٣٥٢ بغلق الأسواق في يوم عاشوراء ، يوم مقتل الحسين ، وأن ينصبوا القباب ويرفعوا فوقها المسوح السوداء ، كما ألزمهم بأن تخرج النساء منشورات الشعور يندبن ويلطمئن على الحسين . وأقيم مأتم مماثل في كربلاء . ومنذ هذا التاريخ يتكرر هذا المأتم كل عام . وكان الإمامية لا يكتفون بهذا اليوم فكانوا يندبون الحسين في أيام أخرى طوال العام ، وإن لم يأخذ ندبهم فيها شكل هذا المأتم الكبير . على كل حال أعدت هذه المأتم لأن يصبح بكاء الحسين وندبه موضوعاً أساسياً في شعر الشيعة الإمامية ، وكثيراً ما تبارى الشعراء فيه يوم الاحتفال الكبير بكربلاء مصرعه ، ولا يزال هذا شأنهم إلى اليوم . ولن نستطيع أن نتحدث بالتفصيل عن شعراء الشيعة الإمامية في العصر ،

إنما حسبنا أن نشر إلى بعض مشاهيرهم ، ويمكن القارئ أن يعود إلى كتاب أدب الطّف (كربلاء) لجواد شبر المطبوع في بيروت ، ويقرأ فيه الجزء الثاني الخاص بشعراء القرنين الرابع والخامس فسيرى كثيرين من شعراء الشيعة الإمامية ، وفي مقدمتهم الزاهي^(١) الشاعر البغدادي المتوفى سنة ٣٦١ وقد أنشد له المؤلف مجموعة من القصائد في بيان مناقب الإمام علي بن أبي طالب ، واستهل إحدى قصائده بقوله :

تَوَلَّيْتُ خَيْرَ الْخَلْقِ بَدْءًا وَآخِرًا وَأَلْقَيْتُ رَحْلِي فِي حِجَاهِمُ مُجَاوِرًا
أَتَمَّةً حَقًّا خَاتَمُ الرُّسُلِ جَدُّهُمْ وَوَالِدُهُمْ مِنْ كَانَ لِلْحَقِّ نَاصِرًا

ومضى يذكر الأئمة الاثني عشر واحداً واحداً مشيداً بهم - إلى أن انتهى إلى مهديهم ، ويكيهم ، وبمعى نفسه بظهور المهدي قائم الزمان ، حتى ينشر بين الناس العدل الذى لا تصلح حياتهم بدونه . ويبدو أنه كانت في السريّ الرفاء نزعة شيعية ، وقد أنشد له صاحب أدب الطّف قصيدة موجودة في ديوانه يمدح فيها آل البيت ويكي الحسين قائلاً :

كَأَنَّ أَحْشَاءَنَا مِنْ ذِكْرِهِ أَبَدًا تُطَوَّى عَلَى الْجَمْرِ أَوْ تُحْشَى السَّكَاكِينَا
ومثله أبو بكر محمد الخالدي الموصلي ، ومرّ بنا أنه كانت بينه وبين السريّ منازعة في الشعر ومهاجاة وأكبر الظن أنه كان شيعياً إمامياً مثله ، فقد ترجم له صاحب أدب الطّف ، ونرى الثعالبي في اليتيمة ينشد له قطعة في نذب الحسين يقول فيها^(٢) :

عَفَرْتُمْ بِاللَّيْثِ جَبِينِ فَتَى جَبْرِيلُ بَعْدَ النَّبِيِّ مَاسِحُهُ
سَيَّانَ عِنْدَ الْأَنَامِ كُلُّهُمْ خَاذِلُهُ مِنْكُمْ وَذَاجِحُهُ

وهو يسوّى في الإثم بين من خذلوه من أهل الكوفة ومن ذبحوه ، فجنايتهم واحدة في رأيه . وكان طبيعياً أن تتكون مع هذا النذب والنواح في بغداد والكوفة وكربلاء طائفة من النّاحة ، ينوحون على الحسين في يوم عاشوراء وغيره من الأيام^(٣) ، واشتهر من بينهم ببغداد حوالى منتصف القرن الرابع الهجرى أحمد المزوّق ، وكان يجد أكبر

(١) انظر في ترجمة الزاهي اليتيمة ٢٣٣/١ وابن خلكان ٣٧١/٣ والنجوم الزاهرة ٦٣/٤ وتاريخ بغداد ١١/٣٥٠ والمتنظم ٥٩/٧ وأدب الطّف ٥٠/٢ .
مرجليوث ٢١٩/١ أن رجلاً يسمى ابن أصدق وامرأة تسمى خلّب كانا من النّاحة على الحسين ، وبما كانا يتوحان به قصيدة لشاعر كوفي أولها :

أَيُّهَا الْعَيْنَانِ فَيَضَا وَاسْتَهْلَا لَا تَغِيضَا
(٢) اليتيمة ١٨٧/٢

(٣) في نشوار المحاضرة للتوحي (طبعة هندية) بتحقيق

مدد لنواجه في شعر الناشئ^(١) الأصغر على بن عبد الله بن وصيف المتوفى سنة ٣٦٦
ويقول ابن خلكان : هو من الشعراء المحسنين ، وكان متكلماً بارعاً وله في أهل البيت
قصائد كثيرة ، ويقول ياقوت : « كان يعتقد الإمامية وينظر عليها بأجود عبارة واستند
عمره في مديح أهل البيت حتى عُرف بهم » وأشعاره فيهم لا تحصى كثرة . وكثير من هذه
الأشعار كان يناح بها في مساجد بغداد ، ينوح بها أحمد المزوق وغيره ، ويروى أنه ناح
يوماً في أحد هذه المساجد بقصيدة ملتاعة للناشي الأصغر ، وفيها يقول :

بنی أحمد قلبی لكم یقطعُ بمثل مصابی فیکمُ ليس یسمعُ
عجبتُ لكم تَقْنُونُ قتلاً بسیفکم ویسْطو علیکم مَنْ لکم کان یخْضَعُ
کأنَّ رسولَ الله أوصی بقتلکم فأجسامُکم فی کل أرضٍ توزعُ
فما بَقْعَةٌ فی الأرض شرقاً ومغرباً وليس لکم فیها قتلٌ ومصرعُ

وكان الشاعر حاضراً ، فظل يلطم وجهه ، وتبعه النائح والحاضرون يلطمون وجوههم
وينوحون بأبيات القصيدة من الضحى حتى صلاة الظهر . وللناشي قصيدة بائنة يدعو فيها
للأخذ بثأر الحسين كان الناس ينوحون بها في أيامه ببغداد وفي مشهد الحسين بكرلاء ،
وفيها يقول :

متی تأخذون الثأرَ ممن تآلبوا علیکم وشبوا الحربَ وهی ضروبُ
شهیدٍ توزَعَنَ الصوارمُ جسمه فخرٌ بأرض الطّفِّ وهو ترِبُ
قتیلٍ علی نهرِ الفراتِ علی ظمًا تطوف به الأعداءُ وهو غریبُ
وأرض الطف : كربلاء . وتریب : معقر التراب . والناشي الأصغر يشير إلى سفك دم

الحسين بكرلاء ، ويمضي فيشيد بالأئمة الأولين : على والحسن والحسين الذين حووا - في
رأيه - علم كل ما قد كان أو هو كائن أو يكون ويقول :

حوّوا علمَ ما قد کان أو هو کائنٌ وكلٌّ رشادٍ یتنغیه طلبوبُ
وقد حفظتْ غیبَ العلومِ صدورهم فما الغیبُ عن تلك الصدور غیبُ

ولابد أن نلاحظ أن كثيرين من الشعراء بكوا الحسين ، ولم يكونوا شيعة مثل سبط ابن
ال تعاويني ، وهو أكبر مداح للخلفاء العباسيين في القرن السادس ، حتى إنه ليخلع عليهم
صفات أئمة الشيعة كما مر بنا في غير هذا الموضع ، ومع ذلك رأينا له مرثية يائية للحسين ،
إن صح أنها له كما مر بنا . وكأنما أصبح رثاؤه موضوعاً عاماً يشترك فيه الشيعة وغير الشيعة ،

(١) انظر في الناشئ الأصغر البيعة ٢٣٢/١ ومعجم ٢٣٨/٤

الأدباء ٢٨٠/١٣ وابن خلكان ٣٦٩/٣ ولسان الميزان

لعظم المحنة فيه . ولعل فيما قدمنا ما يصور من بعض الوجوه نشاط الشعر الشيعي في فواتح العصر ، وظل ذلك سارياً طوال حقبة ، وهو جانب يطول عرضه ، ولذلك نكتفي بالحديث عن ثلاثة ، لعل أولهم وثانيهم يعدان أنه شعراء العراق بعد المتنبي ، وهم الشريف الرضي ومهيار وابن أبي الحديد .

الشريف الرضي ^(١)

هو أبو الحسن محمد بن الطاهر أبي أحمد الحسين من سلالة جعفر الصادق المعروف بالموسوي ، كان أبوه أبو أحمد عظيم المنزلة عند خلفاء بني العباس والبهيين ، وتولى نقابة الطالبين مرات ، وتولى المظالم والحج بالناس دفعات ، وقد وُلد له أولاً الشريف المرتضى سنة ٣٥٥ ثم وُلد له الشريف الرضي سنة ٣٥٩ ولما شبَّ كانا ينوبان عن أبيهما في النقابة ، منذ سنة ٣٨٠ وخُلع عليهما من دار الخلافة واختص أبوهما بالنظر في المظالم وأمور المساجد والحج بالناس ، وكتب أبو إسحق الصائغ عهداً بذلك . وكانت تربط الشريف الرضي بالخليفة الطائع مودة وثيقة . ويُقبض على الخليفة في سنة ٣٨١ ويتولى الخلافة القادر ، ويعني والد الشريف الرضي من وظائفه في سنة ٣٨٤ وترد إلى الشريف الرضي تلك الوظائف جميعاً سنة ٣٨٨ وأبوه حي .

وقد تتلمذ الشريف لعلماء عصره في بغداد من رجال الشيعة وغيرهم ، مثل أبي علي الفارسي وابن جني والمزباني في اللغة والنحو ، والقاضي عبد الجبار في الاعتزال ، والشيخ المفيد في الفقه وأصول العقيدة الإمامية . وأكبر الظن أنه لم يترك مفسراً لعصره إلا اختلف إلى دروسه ، بل لقد أُقبل على كتب التفسير السابقة يعبُّ منها ، يدل على ذلك كتابه في التفسير الذي ذكرناه في غير هذا الموضع والذي سماه حقائق التأويل في مشابه التتزيل ، وبالمثل أُقبل على كتب الحديث النبوي ينهلُ منها ، على نحو ما يتضح في كتابه المجازات النبوية . ومعروف أنه هو الذي جمع خطب الإمام علي في الكتاب المعروف باسم نهج البلاغة ، وعرضنا في كتابنا « العصر الإسلامي » لما داخله من وضع .

ص ٥٧٣ والنجوم الزاهرة ٢٤٠/٤ وميزان الاعتدال ٥٢٣/٣ وراجع فيه عبقرية الشريف الرضي لركي مبارك والشريف الرضي لإحسان عباس . والديوان مطبوع طبعات مختلفة في بمباي والقاهرة وبيروت .

(١) انظر في ترجمة الشريف الرضي البيهية ١٣١/٣ وابن خلكان ٤١٤/٤ والدمية ٢٧٣/١ وتاريخ بغداد ٢٤٦/٢ وإنباء الرواة ١١٤/٣ والمتنظم ٢٧٩/٧ والواق بالوفيات ٣٧٤/٢ ولسان الميزان ١٤١/٥ والشذرات ١٨٢/٣ ومرة الجنان ١٨/٣ وروضات الجنات

وكان ذكياً ذكاء نادراً مع حضور البديهة ورهافة الحس ، ويُروى أنه أحضر إلى يوسف بن أبي سعيد السيرافي النحوى وهو طفل لم يبلغ عمره عشر سنوات ، فلقنه النحو ، وقد معه يوماً فى حلقة - كما يقول مترجموه - فذاكره بشيء من الإعراب على عادة التعليم ، فقال له : إذا قلنا « ضرب زيداً عمراً » فما علامة النصب فى عمرو؟ فقال : بغض على (يشير إلى عمرو بن العاص) . فعجب أستاذه والحاضرون من حدة خاطره . وهو زعيم شعراء العراق فى عصره غير مدفع ، وقد تفتحت موهبته الشعرية مبكرة بعد العاشرة من عمره بقليل كما يقول الثعالبي ، ويمضى مشيداً به وبشعره قائلاً : « هو اليوم أبداع أبناء الزمان وأنجب سادة العراق ، يتحلّى مع محنّته الشريف ، ومفخره المنيف ، بأدب ظاهر ، وفضل باهر ، ولحظ من جميع المحاسن وافر ، ثم هو أشعر الطالبين : من مضى منهم ومن غير ، ولو قلت إنه أشعر قریش لم أبعد عن الصدق ، وسيشهد بما أجره من ذكره شاهد عدل من شعره العالى القدح ، الممتنع عن القدح ، الذى يجمع إلى السلاسة متانة ، وإلى السهولة رصانة ، ويشتمل على معان يقرب جناها ، ويبعد مداها » . ويقول صاحب الدمية : « أنا إذا مدحته كنت كمن قال للشمس : ما أنورك . . وله شعر إذا افتخر به أدرك من المجد أقاصيه ، وعقد بالنجم نواصيه » . وقد توفى ببغداد ودفن فى الكرخ سنة ٤٠٦ وهو فى السابعة والأربعين من عمره ، ويقال إن رفاقه نُقل إلى مشهد الحسين فى كربلاء . ويدل شعر الشريف الرضى على أنه تأثر أشد التأثر بالمتنبى فقد أكبّ عليه يقرؤه المرة والمرة ، محباً له متعاطفاً معه ، متمثلاً لكل ما يقول من شكوى الزمان وأنه لا يعطيه ما يستحقه ، وكان المتنبى كما مرّ بنا يريد أن يكون دولة عربية ، والدهر يناهضه ، وكان الرضى يشعر فى أعماقه بأنه خليف أن يكون هو الخليفة دون أبناء عمه العباسيين ، وتدفعه الضرورة إلى مصانعتهم بمديح لا يزال يزخر - مثل مديح المتنبى - بالفخر والشكوى من الأيام التى لا تنيله مبتغاه ، حتى ليقول للقادر :

عظافاً أمير المؤمنين فإننا فى دَوْحِ العُلياء لا ننفِرُ
ما بيننا يومَ الفَخارِ تفاوتٌ أبداً كِلانا فى المعالى مُعَرِّقُ
إلا الخِلافةَ مِيزَتُكَ فإننى أنا عاطِلٌ منها وأنت مطوَّقُ

وظل شعوره بأحقّيته فى الخلافة لا يفارقه طوال حياته ، مما جعل أشعاره تُطبع - كما طُبعت أشعار المتنبى - بالتدّمر من الدهر ، بل بالثورة عليه دون أن يلم به شيء من يأس أو قنوط . وليس هذا ما يجمعه بالمتنبى فقط ، فإنه يجمعه به أيضاً شعور عارم بالفتوة وقوة النفس والكبرياء والكرامة والأنفة والعزة ، ولذلك كان شعرهما من خير ما يُربّى به

الشباب ، إذ يدلع في أنفسهم الشعور الطاغى بالقوة وتمثل الأخلاق الرفيعة ، على نحو ما نرى في هذه الأبيات من قصيدة :

لغيز العُلا منى القلبي والتجئبُ ولولا العُلا ما كنت في الحب أرغبُ
وإن تكُ سني ما تطاول بأعها فلي من وراء المجد قلبٌ مدرّبُ
وحسبي أني في الأعادى مبعّضُ وأنى إلى غرّ المعالي محبُّ
وللحلم أوقاتٌ وللجهل مثلها ولكن أوقاتي إلى الحلم أقربُ^(١)
ولا أعرف الفحشاء إلا بوصفها ولا أنطق العوراء والقلب مُعصّبُ^(٢)

وتنوح أشعاره بمثل هذا الفخر الذي يضرم جذوة النفس ويوقدها إيقاداً ويدفعها دفعا إلى النهوض بجلائل الأعمال . وجامعة ثلاثة تجمعها بالمتنبى هي استشعار البادية وروحها ، إحساساً منه بأنه عربي أصيل ، نفس إحساس المتنبى الذي دفعه إلى أن يجعل البدويات موضع نسيه ، كذلك صنع صنيعه الرضى ، فهو دائم التغزل بالبدويات ، دائم الافتتان بهن والتغنى بجمالهن وحسنهن الطبيعي ، وله في ذلك أشعار بديعة من مثل قوله :

يا ظبيّة البانِ ترعى في خيائله ليهنك اليوم أن القلب مرعاكِ
الماء عندك مبذولٌ لشاربه وليس يرويك إلا مدمعُ الباكي
سهمٌ أصاب وراميه بذي سلمٍ من بالعراق لقد أبعدت مرماكِ^(٣)
حكّت لحاظك ما في الرّيم من ملحٍ يوم اللقاء فكان الفضلُ للحاكي
أنتِ النعيمُ لقلبي والجحيمُ له فما أمركِ في قلبي وأحلاكِ

وهو نسيب رقيق كنسب العذريين ، بل ربما كان أكثر رقة ، إذ تجرى فيه نغمة من لأسى والحزن واللوعة وكأنما يثُ فيه يأسه من آماله في الخلافة ، وكأنما يراها نفس هؤلاء البدويات اللاتي يتعرّ في شباك هواهن ، دون أن يقطف شيئاً من أزهار حبه . وإنما استطردنا كل هذا الاستطراد في الشريف الرضى ليطلع القارئ على روعة أشعاره ، قبل أن نعرض لراثه جده الحسين ، وفي الديوان مرث كثيرة لأم الرضى وأبيه ولبعض أساتذته وأصدقائه مثل ابن جنى وأبي إسحق الصائغ ، وله في جده الحسين خمس مرث ، وهو يتسع أحياناً في بعضها فيجعلها مرثية عامة لآل البيت ، ونكتفي بأن نعرض أهمها في رأينا ، وهي آخر مرثيته لجده ، وأعتقد أنه أراد بها النواح عليه وأن ينشدها الناحة في بغداد وكرّ بلاء ، وهو يستهلها بقوله :

(٣) ذوسلم : موضع بالحجاز . والسلام : شجر من

العضاء .

(١) الجهل هنا : الغضب

(٢) العوراء : الكلمة القبيحة

كَرْبَلَا لَا زَلَّ كَرْبَاً وَبَلَا مَا لَقِيَ عِنْدَكَ آلُ الْمُصْطَفَى
وَيَصُورُ المَوْقِعَةَ وَمَا سَالَ فِيهَا مِنْ دَمَاءٍ طَاهِرَةٍ وَدُمُوعٍ جَارِيَةٍ ، وَالنِّسَاءَ اللَّائِي كُنَّ مَعَ
الْحُسَيْنِ يَمْسَحْنَ الرَّمْلَ عَنْ نَحْوِ المَلَطِّخِ بِالدَّمَاءِ ، وَلَمْ تَلْبَثِ الْوُحُوشُ أَنْ طَعَمَتْ مِنْ أَشْلَاءِ
الْقَتْلَى أَرْجُلًا طَالَمَا قَامَتْ إِلَى الصَّلَاةِ وَأَيْمَانًا طَالَمَا رُفِعَتْ إِلَى السَّمَاءِ وَوَجُوهًا طَالَمَا تَبَتَّلَتْ إِلَى
اللَّهِ ، وَيُنْشَدُ :

يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ عَايَنْتَهُمْ	وَهُمْ مَا بَيْنَ قَتْلَى وَسِبَا
لَرَأْتُ عَيْنَاكَ مِنْهُمْ مَنْظَرًا	لِلْحَشَا شَجْوًا وَلِلْعَيْنِ قَذَى
لَيْسَ هَذَا لِرَسُولِ اللَّهِ يَا	أُمَّةَ الطُّغْيَانِ وَالْبَغْيِ جَزَا
غَارِسٌ لَمْ يَأْلُ فِي الْغَرْسِ لَهُمْ	فَأَذَاقُوا أَهْلَهُ مَرَّ الْجَنَّا
جَزَرُوا - جَزَرَ الْأَضْحَى - نَسْلَهُ	ثُمَّ سَاقُوا أَهْلَهُ سَوْقَ الْإِمَا (١)

وَهُوَ يَصُورُ رَكْبَ الْحُسَيْنِ ، أَمَّا الرِّجَالُ فَسُفِكَتْ دِمَاؤُهُمُ الذَّكِيَّةُ ، وَأَمَّا النِّسَاءُ
فَسَيَقُوا سَيِّئَاتِ مَحْمُولَاتٍ عَلَى ظُهُورِ الْإِبِلِ دُونَ مَهَادٍ أَوْ كِسَاءٍ يَسْتَرْحَنُ عَلَيْهِ ، فَيَا لِلظُّلْمِ
وَيَا لِلْقَسْوَةِ ، وَهِنَّ مَشْعَثَاتُ الشُّعُورِ مَكْشُوفَاتُ الْوُجُوهِ وَالْأَعْنَاقِ يَهْتَفْنَ بِاسْمِ رَسُولِ اللَّهِ ،
وَلَا مِنْ يُشْفِقُ عَلَيْهِنَّ أَوْ يَرْحَمُ . وَيَقُولُ الرِّضَى : أَهَكَذَا يَكُونُ جَزَاءُ رَسُولِ اللَّهِ فِي سَبْطِهِ
وَأَلِّهِ ؟ يَغْرُسُ وَتُفْتَحُ لِدِينِهِ الْخَنِيفُ الْأَرْضُ وَلَا يَذُوقُ أَهْلُهُ سَوَى الْخَنْظَلِ ، بَلْ إِنَّهُمْ
لَيُدْبِحُونَ ذَبْحَ الْأَضْحَى ، يُدْبِحُ الرِّجَالُ ، وَتَسَاقُ النِّسَاءُ سَيِّئَاتٍ ، وَيَتَجَهَّ الرِّضَى إِلَى جَدِّهِ
الْحُسَيْنِ مُنْشِدًا :

يَا قَتِيلًا قَوَّضَ الدَّهْرُ بِهِ	عَمَدَ الدِّينِ وَأَعْلَامَ الْهُدَى
قَتَلُوهُ بَعْدَ عِلْمٍ مِنْهُمْ	أَنَّهُ خَامِسُ أَصْحَابِ الْكِسَا (٢)
مَرْهَقًا يَدْعُو وَلَا عَوْتَ لَهُ	بَابٍ بَرٍّ وَجَدَّ مُصْطَفَى
وَبِاسْمٍ رَفَعَ اللَّهُ لَهَا	عَلَمًا مَا بَيْنَ نِسْوَانِ الْوَرَى
مَيِّتٌ تَبْكِي لَهُ فَاطِمَةُ	وَأَبُوهَا وَعَلَى ذُو الْعُلَا
لَوْ رَسُولُ اللَّهِ يَحْيَا بَعْدَهُ	قَعَدَ الْيَوْمَ عَلَيْهِ لِلْعَزَا

وَالْقَصِيدَةُ كُلُّهَا لَوَاعَاتُ وَأَنَاتُ عَلَى هَذَا النِّحْوِ ، وَعُنِيَ الرِّضَى بِرِصْفِ كَلِمَاتِهَا بِحَيْثُ
لَا تَعْلُو عَلَى أَفْهَامِ الْعَامَةِ ، وَلِتَكُونَ صَالِحَةً لِكَيْ يَرُدِّدَهَا النَّاحَةُ . وَجَعَلَتْ هَذِهِ السَّهْوَةَ

(١) الْأَضْحَى : ذَبَائِحُ عِيدِ الْأَضْحَى . الْإِمَا : الرُّسُولُ ﷺ أَلْقَى كِسَاءَهُ عَلَيْهِ وَعَلَى السَّيِّدَةِ فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءَ
وَعَلَى وَابْنَيْهِ الْحُسَيْنِ وَالْحُسَيْنِ ، وَقَالَ : هَؤُلَاءِ عِزَّتِي وَأَهْلُ
الْإِمَامَةِ .

(٢) يُشِيرُ إِلَى حَدِيثِ تَرْوِيهِ الشَّيْعَةِ الْإِمَامِيَّةِ : يَقُولُونَ إِنَّ بَيْتِي ، وَبِذَلِكَ سَمَوُ أَصْحَابِ الْكِسَاءِ .

في ألفاظها بعض الباحثين يظن أنها منحولة على الرضى ، وليست من الانتحال في قليل ولا كثير ، إذ هي سهولة مقصودة لتخف على السنة الناحية والناس .

مهيار (١)

هو أبو الحسن مهيار بن مَرْزَوِيَه الدَّيْلَمِيّ الفارسي الأصل ، وُلد على ما يظهر حوالى سنة ٣٦٠ للهجرة ويغلب أن يكون ميلاده بعدها بقليل ، وليس لدينا معلومات دقيقة عن مسقط رأسه ونشأته ، فهل وُلد ببغداد وبها نشأ ، وكان بها مجوس كثيرون ، أو وُلد في بلاد الدَّيْلَم ، وهاجر منها وحده أو مع أبيه ؟ . وأغلب الظن أنه وُلد ببغداد وتربى بها وتثقف . ولا نعرف من كانوا أساتذته وتخرَّج على أيديهم ، ويبدو أنه كان فيه ذكاء حاد جعله يحسن العربية سريعاً ، ويُرَوَى أنه كان يسكن في الكرخ مستقر شيعه بغداد الإمامية ، ولعل ذلك هو الذى أعطاه الفرصة لكى يدرس عقيدتهم ، حتى إذا أسلم انتظم في سلكها .

ونظن ظناً أنه كان يحضر قبل اعتناقه الإسلام دروس رأس الإمامية في زمانه محمد بن محمد بن النعمان المشهور بالشيخ المفيد المتوفى سنة ٤١٣ وكان يُلقَى دروسه في الكرخ . ويقول بعض مترجميه إنه أسلم على يد الشريف الرضى سنة ٣٩٤ ونظن ظناً أن إسلامه يسبق هذه السنة بشهادة كثير من قصائده المؤرخة في ديوانه ، ونراه يذكر فضل أبى العباس الضبي عليه في إرشاده وهدايته إلى الإسلام ، إذ يقول في إحدى مدائحه له :

هو الْمُتَّقِذَى من شِرْك قَوْمِي وباعثى على الرُّشْد أن أَصْفَى هَوَاىَ مُحَمَّدَا
وَأَتْرَكَ بَيْتَ النَّارِ يَكْبَى شَرَّاهُ عَلَى دَمَا إِذْ صَارَ بَيْتَى مَسْجِداً

والمظنون أنه زار أبا العباس الضبي حين كان وزيراً بمدينة الرِّى . على كل حال من الممكن أن يكون أسلم على يد الشريف الرضى . ولكن ليس من الضروري أن يكون تاريخ إسلامه صحيحاً . ويقال إن الرضى أعانه في أن يصبح كاتباً بدواوين الخلافة ، ولا نعرف متى كان ذلك بالضبط ، وأغلب الظن أن ذلك يسبق إسلامه ، ودائماً يلقبه مترجموه بلقب الكاتب .

وإذا كنا ترددنا في أن يكون إسلامه على يد الرضى في سنة ٣٩٤ فما لا يقبل شكاً أنه

(١) انظر في ترجمة مهيار تاريخ بغداد ٢٧٦/١٣ الزاهرة ٢٦/٥ والفن ومذاهبه في الشعر العربى (الطبعة والدمية ٢٨٤/١ والمتنظم ٩٤/٨ وابن خلكان ٣٥٩/٥ العاشرة) ص ٣٥٥ .
وعبر الذهبي ١٦٧/٣ والشذرات ٢٤٢/٣ والنجوم

هو الذى رعاه أدبيا ، وخاصة أنه رأى عنده استعداداً حسناً ، فضى معه يثقفه ويدربه ، حتى خرّجه شاعراً بارعاً . والرضى بذلك يُعدُّ استاذة الفن ، فلا غرابة إذا وجدنا التلميذ ينسج على منوال أستاذه ، وهو نسيج بلا حظ من جهتين : جهة معارضته لكثير من قصائد الرضى ، يأخذ منه الوزن والقافية ، وينظم على غراره . وجهة ثانية لعلها أهم هي تمثّل اتجاهاته الشعرية ، ونقص اتجاهات الشكوى من الزمن والفخر والتزوع إلى التبدى أو النسب والغزل بالبدويات ، أما الشكوى فإنه يشكو كثيراً سوء بخته وأن الزمن لا ينيله ما يتمنى ، بل يقف حجر عثرة دون أمانيه .

وكان الرضى يفخر بمحتده الشريف وعروبه العريقة ، فباذا يفخر مهيار ؟ لقد اتجه بفخره في بواكير حياته نحو قومه ، وبذلك استحال فخره شعوبيا دميماً ، على نحو ما يلقانا في مثل قوله :

أُعْجِبْتَ بى بين نادى قَوْمِها	أَمْ سَعِدَ فَضْتُ تَسْأَلُ بى
قَوْمى اسْتَوْلَوْا عَلَى الدَّهْرِ فَتىَّ	وَمَشَوْا فَوْقَ رَعُوسِ الْحَقْبِ
عَمَمُوا بِالشَّمْسِ هَامَاتِهِمْ	وَبَنَوْا أَبْيَاتِهِمْ بِالشُّهْلِ
قَدْ قَبَسْتُ الْمَجْدَ مِنْ خَيْرِ أَبٍ	وَقَبَسْتُ الدِّينَ مِنْ خَيْرِ نَبِى
وَضُمْتُ الْفَخْرَ مِنْ أَطْرَافِهِ	سَوَّدْتُ الْفُرْسَ وَدِينَ الْعَرَبِ

وقد التقينا بهذا الصوت المنكر في كتاب العصر العباسى الأول عند بشار ، وأخذ يخفت غير أنه كان يظهر من حين إلى حين ، حتى إذا كان ابن قتيبة وجدناه يمزج بين الثقافة الإسلامية العربية - كما أشرنا إلى ذلك في كتاب العصر العباسى الثانى - وبين الثقافات الأجنبية ، حتى يزيل الحواجز والفروق بين النوعين من الثقافات والحضارات ، وحتى يقطع الطريق على الشعبين وما يدعونه من تفوق الفرس والروم على العرب في الحضارة والمدنية . ومع ذلك ظلت أصوات ضعيفة ترتفع من حين إلى حين ، كصوت أبى عبد الله أحمد بن محمد بن نصر الجيهاى وزير السامانيين وكان يُظهر الإسلام ويبطن الزندقة ، فألف كتاباً حمل فيه على العرب وتبديهم حملات شعواء ، صورها أبو حيان في كتابه الإمتاع والمؤانسة ، ناقضاً لها نقضاً شديداً . وكأنا وجد الجيهاى الفارسى في مهيار مستجيباً له ، لا في هذه الياثية وحدها ، بل أيضاً في قصائد أخرى . ونراه مع الزمن يتخلص من هذه النزعة الشعوبية ، ويملاً شعره بالحنين إلى نجد وبدوياتها الفاتنات ، مستلهماً في ذلك أستاذه الرضى ، بمثل قوله :

يا نسيم الصُّبح من كاظمة شَدَّ ماهِجَتَ الجوى والبرحا^(١)
 الصِّبا! إن كان لأبدُ الصِّبا إنها كانت لقلبي أروحا
 يا ندماي سَلِّعْ هل أرى ذلك المعبق والمُضطجعا^(٢)
 اذكرونا مثل ذِكرانا لكم ربِّ ذِكرى قَرِبتُ من نرَحا
 واذكروا صَبًا إذا غَنَّى بكم شَرِبَ الدَّمْعَ وعافَ القَدَحا
 قد عرفتُ الهَمَّ من بعدكم فكأنى ما عرفتُ الفرحا

وهذه القطعة وسابقتها من أروع شعر مهيار في البناء اللفظي ، وهما لذلك لا توضحان خصائصه الفنية التي تحدث عنها بالتفصيل في كتاب « الفن ومذاهبه في الشعر العربي » حيث أوضحت أثر نشأته الأعجمية في شعره وأن اللفظة الحادة كانت تضل منه ، فكان يدور حول الفكرة دورانا يصيب شعره أحيانا بغير قليل من الركاكة والإسفاف ، وكان مع ذلك يطيل قصائده طولا مسرفا ، مما جعل رُفْعَتها تتسع أو قل رُفْعُها ، فيتضح فيها التلفيق وكثرة التكرار للكلمات وما يدخل في ذلك من الحشو والاعتراض . وحين أسلم أخذ يُكثر في شعره من ذكر مناقب أهل البيت ورتاء الحسين ، ولم يكتف بذلك ، كما كان يصنع أستاذه ، بل أكثر أيضا من سب الصحابة رضوان الله عليهم ، ويُروى أن أبا القاسم بن برهان النحوي قال له : يا أبا الحسن ! انتقلت بإسلامك في النار من زاوية إلى زاوية ، فقال له : وكيف ذلك ؟ قال أبو القاسم : لأنك كنت مجوسيا وصِرتَ تسب أصحاب رسول الله ﷺ ، والمجوسى والرافضى في النار . وله من قصيدة يمدح فيها آل البيت ، وقد بث في مطلعها شكواه من الزمن :

لَئِنْ نَامَ دهرى دون المُنَى فلى أسوةً ببني أَحْمَدِ
 بأكرم حَى على الأرض قامَ وميتَ توسدَ في مُلْحَدِ
 أناكم على فترّة فاستقام بكم جائرين عن المقْصِدِ
 وولّى حميدا إلى ربِّهِ ومن سنَّ ما سنّه يُحْمَدِ
 وقد جعل الأمر من بعده لِحَيْدَرِ بالخبر المُسْنَدِ
 وسماه مولىً بإقرار من لو أتبع الحقَّ لم يَجْهَدِ

وواضح أن تعبيره عن حرمان الدهر له ما يتمناه بنومه عنه غير دقيق ، وهو تعبير فاتر إن صح هذا التعبير ، والأبيات الأربعة التالية في مديح الرسول عليه السلام ، وهى تخلو

(١) كاظمة : موضع على الخليج العربى جنوبى العراق (٢) سلع : جبل متصل بالمدينة .
 فى الكويت .

من أى حرارة ، وكأنها نثر لُفِّت ألفاظه وهو فى البيتین الآخرین يشير إلى ماتذهب إليه الشيعة من أن الرسول عليه السلام أوصى لعلی أو كما یسمیه حیدراً بالخلافة یوم غدیرخُم ، إذ آخاه قائلاً - كما یروون - : علی منی کھرون من موسى ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ، وانصر من نصره واخذل من خذله . والأبیات تخلو من العاطفة ومن اللذع والحدة ، ولذلك لا تکاد تؤثر فى قارئها أى تأثير . وله فى رثاء علی والحسین قصائد أخرى من أروعها لاميته ، وفيها یقول :

وشھید بالطف أبكى السَّمَوَا ت وكادت له تزولُ الجبالُ
يا غليلي له وقد حرَّم الما ء عليه وهو الشراب الحلالُ
قُطِعَتْ وَصْلَةُ النَّبِيِّ بَأْن تُقْ طَع من آل بيته الأوصالُ
لم تُنَجَّ الكھول سنُّ ولا الشُّ بَأْن زُھدٌ ولا نجا الأطفالُ
لهفَ نفسى يا آل طه عليكم لهفَةً كلُّها جوى وخبالُ

وهو رثاء حار یمتلى باللوعة والحسرة والنواح على الحسین ومن قُتل معه من آل بيته . ولمهيار مرث أخرى فى الحسین وآله تجمد فيها العاطفة فلا نار تنقد فى الأحشاء ولا لب يستعر فى الأفئدة . وليس معنى ذلك أن مهيار لم يكن مخلصاً لعقيدته الإمامية ، ولكن معناه ما قلته من أنه كان يعثر على ضالته من التعبير اللاذع أحياناً ، وأحياناً يضل منه هذا التعبير ، لأنه لم ينشأ فى مهد عربى يمكِّنه دائماً من تملك السليقة العربية فى التعبير والصياغة .

ابن أبى (١) الحديد

هو عز الدين عبد الحميد بن هبة الله المعروف بابن أبى الحديد ، ولد فى « المدائن » سنة ٥٨٦ لقاضيهما وأحد العدول فيها ، وبها نشأ وتلقى معارفه ، ويقول ابن خلكان عنه وعن أخ له يسمى موفق الدين إنهما كانا فقيهين أدبيين ، لهما أشعار مليحة » . ويبدو أنه شبَّ على الاعتزال والتشيع جميعاً ، وكان لا يزال يغدو ويروح إلى بغداد وإلى حى الكرخ الشيعى

طبعت قصائده السبع العلويات فى إيران وطُبعت مشروحة فى صيدا بلبنان وطُبعت قصائده المستنصرات ببغداد ، وله مؤلفات مختلفة ، من أشهرها شرح نهج البلاغة للإمام على والفلك الدائر على المثل السائر

(١) انظر فى ترجمة ابن أبى الحديد وفيات الأعيان ٣٩١/٥ وفيات الوفیات لابن شاکر الکلبى ٥١٩/١ ومعجم الألقاب لابن القوطى ج ٤ ق ١ ص ١٩٠ وذيل مرآة الزمان (طبع حيدر آباد) ٦٢/١ والتكلمة لوفیات النقلة للمندرى (طبع النجف) ٢٤٥/٤ وقد

خاصة ، ثم لا يلبث أن يعود إلى مسقط رأسه ، حتى إذا بلغ الخامسة والعشرين من عمره نظم قصائده السبع العلويات ، وهى فى مديح على بن أبى طالب وبيان فضائله ، وفيها لا يبدو شيعياً إمامياً فى هذه الحقبة من حياته ، بل يبدو رافضياً غالباً فى الرفض ، إذ يخلع على الإمام على صفات الله جل شأنه ، وكأنه حلَّ فيه وامتزج بذاته ، تعالى الله علواً كبيراً عما يلج فيه من مثل قوله فى على أو كما يسميه حيدراً^(١) :

والله لولا حيدرُ ما كانت الـ دُنْيَا ولا جَمَعَ البرَّة مَجْمَعُ
من أجله خُلِقَ الزمانُ وضوءَتْ شُهْبُ كَنَسَنَ وَجَنَ لَيْلٍ أَدْرَعُ^(٢)
عِلْمُ الغيوبِ إليه غيرَ مدافعِ والصُّبْحُ أبيضُ مُسْفِرٌ لا يُدْفَعُ
وإليه فى يومِ المعادِ حسابنا وهو المَلَأَ لَنَا غَدَاً والمَفْرَعُ

فعلى علة الوجود من أجله خُلِقَ الكون والزمان وأضاءت الشمس والكواكب وأظلم الليل وانتشرت دُجَّتُهُ ، وهو علام الغيوب أو عالمها ، وهو - يومَ البعث - الذى سيحاسبُ الناس على ما قدمت أيديهم من خير أو شر . وكل هذا تجديف فى حق الذات العلية ، فعلى ليس علة الكون والوجود ، فثله مثل البشر جميعاً ، حقا هو صحابى جليل ، ولكن ذلك لا يرفعه على بشريته ولا يجعله سر الوجود ولا علة له ، ومعاذ الله أن يكون علام الغيوب ، وقد استأثر الله بعلم الغيب كما نصت على ذلك آيات الذكر الحكيم من مثل قوله تعالى : (قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله) وقوله : (عالم الغيب فلا يُظهر على غيبه أحداً) . وبالمثل زعم ابن أبى الحديد أن الناس يعرضون على الإمام على ابن أبى طالب يوم البعث فيحاسبهم على أعمالهم ، والحساب إنما هو لله وحده جلَّ شأنه .

ويتأدى فى علوياته الرافضة ، فيتعرض بالبهتان على أول من صدَّق بالرسول ﷺ من الرجال وأوثق الصحابة صلة به ورفيقه فى الهجرة ، على الصديق أبى بكر ، ومعروف أن الرسول ﷺ ولاه أمور دين المسلمين من الحج بهم فى السنة التاسعة للهجرة والصلاة بهم فى مرضه ونرى ابن أبى الحديد يزعم افتراءً وبهتاناً أن الرسول أناب أبابكر كى يقيم للناس الحج ثم عزله^(٣) ، وهو لم يُعزل إذ أقام الحج فعلاً للناس . ومعروف أنه حين اشتد المرض بالرسول ﷺ قبيل انتقاله إلى الرفيق الأعلى أمر أبابكر أن يصلى بالناس ، فصلى بهم سبع

(١) القصائد السبع العلويات مع شرحها (طبع صيدا (٢) كَنَسَنَ : سرن ، جن : دجا . أدْرَعُ : مظلم .

(٣) القصائد السبع العلويات مع شرحها ص ٤٦ .

بليان) ص ١٠١ .

عشرة صلاة ، وصلى الرسول عليه السلام مؤتماً به ركعة ثانية من صلاة الصبح ، ثم قضى الركعة الباقية وقال : « لم يُقبَضْ نبيٌّ حتى يؤمَّه رجل من قومه » . ومع تواتر هذه الولاية من الرسول ﷺ لأبي بكر الصديق على أمور المسلمين في الصلاة والحج وثبوتها ثبوتاً قاطعاً يزعم ابن أبي الحديد زعماً باطلاً أن الرسول عزل أبا بكر عن الصلاة ^(١) . كما عزله عن الحج . وكل هذا غلو في البهتان والرفض . ويترك المدائن إلى بغداد نهائياً في تاريخ غير معروف تماماً ، ويدعو أنه تخلى عن رفضه ورجع إلى صوابه ، إذ نراه يمدح الناصر ، ثم يلزم الخليفة المستنصر العباسي ويدبج فيه مدائح عُرفت بالمستنصريات ، وقد بلغت خمس عشرة قصيدة نظمها في السنوات من ٦٢٩ إلى ٦٣١ وكان ألحق بدواوين الدولة وأصبح من موظفيها ، وإنه لينقلب عباسياً ضد العلويين يحطّب في حبل العباسيين ويدعو لهم ، بمثل قوله في المستنصر :

يا بني هاشمٍ بكم يغفرُ اللهُ الخطايا وَيُقْبَلُ الأَعْمَالُ
أنتمُ بالنبيِّ أُولَى فَإِنْ شَاءَ كَجَهْلٍ فَلْيَقْرَأُ الأَنْفَالُ
وإليكم إرثُ النبيِّ تناهى وإليكم سرُّ الإلهِ تعالى
وقد يقال إن البيت الأول عام في بني هاشم جميعاً علويين وعباسيين ، غير أنه لا يلبث في البيت الثاني أن يصرح بأن العباسيين أحق بإرث الخلافة عن الرسول ﷺ لقوله تعالى في سورة الأنفال : (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله) مشيراً بذلك إلى حكم الإسلام في الميراث وأن العم وهو العباس يحجب ابن العم وهو علي بن أبي طالب كما يحجب أبناء بنت الرسول ، والعباسيون كما يقول في البيت الأخير الورثة الحقيقيون للخلافة . وبمثل هذه الأبيات ، بل بمستنصرياته جميعاً نقض رفضه ، بل تشيعه عامة ، حتى لنراه يقول في المستنصر :

وأنت الدهرُ يخفَضُ كُلَّ عَالٍ بِقُوَّتِهِ وَيُمْسِكُ كُلَّ هَارِي ^(٢)
ويُزِيلُ ما يشاءُ بلا اعتسافٍ وينقضُ ما يشاءُ بلا اقتسارٍ
وكانه تمثل فيه ثانية غلوه السالف في علي بن أبي طالب ، فجعله الدهر يخفض ويرفع ويعصم من السقوط ويرم الأمور وينقضها نقضاً .

ولا يزال يعمل في دواوين الخلافة حتى يتوفى المستنصر ويخلفه ابنه المستعصم (٦٤٠ هـ - ٦٥٦ هـ) . ويعزل من وظيفته سنة ٦٤٢ ويتولى أعمالاً مختلفة حتى يتوفى سنة ٦٥٦ وقيل بل سنة ٦٥٥ وكانت قد توثقت صلته بابن العلقمي وزير المستعصم وكان شيعياً فيستحثه على

(٢) هاري : متصدع يوشك أن ينهدم .

(١) نفس المصدر والصفحة .

شرح نهج البلاغة ويصدع لرأيه ، وهو في هذا الشرح يتردد بين مذهب أهل السنة حتى ليقول إنه ليس هناك أى نص صريح على خلافة على للرسول عليه السلام ^(١) ومذهب الزيدية إذ يذهب مثلهم إلى صحة إمامة الفضول مع وجود الأفضل ^(٢) ومذهب الشيعة الرافضة الذين يحاولون الغض من الشيخين العظيمين أبى بكر وعمر ^(٣) . ومعروف أن لها عند الله الدرجة العظمى بما أدّيا للدين الحنيف من خدمات جلّلى ، كُتبت - ولا تزال تكتب - فيها المجلدات الضخام .

(١) راجع شرح نهج البلاغة (طبعة أبو الفضل إبراهيم
بدار إحياء الكتب العربية بالقاهرة) ٥٩/٢ .

(٢) شرح نهج البلاغة ١٥٦/١ .
(٣) انظر شرح نهج البلاغة ٢٢٦/١٠ .

الفصل الرابع

طوائف من الشعراء

١

٩ شعراء الغزل

لعلنا لا نغلو إذا قلنا إنه لم يَحُلْ شاعر من شعراء اليتيمة والدُّمِيَّة والخريدة ومن تلاهم على مر الحقب من بعض قصائد أو مقطوعات تَغْنَى فيها بالحب ، مصورا هذه العاطفة الإنسانية التي تملك على النفوس أهواءها وأحاسيسها ومشاعرها . ويمتلى تاريخ الشعر العربي بأبطال لهذه العاطفة ، يعيشون للحب وآماله وآلامه ، يَجْرَعُونَ غصصه في صبر ، مهما أَلَمَّ بهم اليأس وما يُطْوَى فيه من حزن . ومن أطرف الأشياء حقا أن نقرأ شعر أحد هؤلاء الأبطال وما يعانون من وَجْد لا يشبه وجد وخطوب لا تدانيها خطوب . وهم دائما من العشاق العذريين الذين يتعمقهم الحب ويستأثر بقلوبهم ، ويفتنهم فتنة لا يستطيعون الخلاص منها ، حتى لتصبح المحبوبة كأنها معبودة ، فهم يحبونها ، بل يقدسونها ، ويقدمون لها الأشعار ، بل التراتيل التي يتغنون فيها بسحرها سِحْرًا يشغلهم عن كل شيء وعن كل متاع في الحياة إلا ما يكون من الغرام العنيف وما ينسج فيه العاشق بشعره من شباك الأمل والتضرع والاستعطاف . وهذا اللون من الحب العذري العفيف الذي يتحول في قلب صاحبه إلى ما يشبه جذوة من النار لا تنطفئ أبدا قديم في الشعر العربي منذ العصر الجاهلي ، وأصبح ظاهرة عامة في بوادي نجد والحجاز طوال العصر الأموي ، وظل حيا بقوة في العصرين : العباسي الأول والعباسي الثاني ، وكانت ترافقه من قديم موجة من الغزل المادى اتسعت مع العصر العباسي الأول وما كان به من فنون اللهو والمجون على نحو ما يصور ذلك بشارو أبو نواس . غير أن الشعراء التالين حاولوا أن يخففوا من حدة هذا المجون والعبث ، بما أشاعوا في غزلهم من عفة ومن نقاء وطهارة ، على نحو ما هو معروف عن أبي تمام والبحرئى وابن الرومى وأضرابهم ، ومع ذلك كانت لا تزال تظهر في بغداد وغير بغداد جماعات من الغزلين الماجنين . ولعل ذلك هو الذى دفع المتنبي في أوائل هذا

العصر إلى أن يهجر في غزله المرأة المتحضرة ، وكأنه رآها أو رأى كثيرات من الجوارى ببغداد في أوائل شبابه يتهاكن على اللهو ويُسرفن فيه ، فصمم - كما مرّ بنا - أن يتخذ البدويات الأعرايبات موضوعاً لغزله ، حتى يردّ إلى الغزل في أيامه العفة والسمو والنبل والارتفاع عن الجسد والغريزة التي يشترك فيها الإنسان والحيوان ، وحتى يذيع فيه أريج الوجدان النقي الأفلاطوني البريء ، كما يذيع فيه شدّة الحنان الذي يكتظ به الغزل العذرى عند العرب وما يُطوى فيه من حرارة ولوعة . وهذا الوتر من الغزل البدوى الطاهر الملتاع الذي شدّه المتنبي إلى قيثارته ، تبعه فيه الشريف الرضى يشده بدوره إلى قيثارة شعره مستخرجاً منه ما لا يكاد يحصى من الأنغام كما أشرنا إلى ذلك في ترجمته ، على شاكلة قوله :

خُذِي نَفْسِي يَارَيْحُ مِنْ جَانِبِ الْحِمَى وَلَا تَقِي بِهِ لَيْلاً نَسِيمَ رَبِّي نَجْدِ
فَإِنَّ بِذَلِكَ الْجَوَّ حَيًّا عَهْدُهُ وبالرغم مني أن يطولَ به عَهْدِي
وَلَوْلَا تَدَاوَى الْقَلْبِ مِنْ أَلَمِ الْجَوَى بذكر تلاقينا قضيتُ من الوجدِ
وَمَا شَرَبَ الْعُشَّاقُ إِلَّا بِقَيْتِي وَلَا وَرَدُوا فِي الْحَبِّ إِلَّا عَلَى وَرْدِي

فقد انقطعت الأسباب بينه وبين محبوبته النجدية ، ولم يبق من أمل إلا أن تلتقي نفسه من جانب الحمى بقطع من النسيم المعطر بشدّة صاحبته ، نسيم ربي نجد الذكي ، وإنه يشعر بالآلام ثقال بقلبه من أثر الحب وعذابه وأوصابه ، آلام ليس لها من دواء إلا دواء ذكريات لقاءها ، ولولا هذا الدواء لمات أسى والتياعا . وباله من عاشق شرب كأس الحب ، حتى لم يبق لغيره منها سوى المثالة ، وكأنه أبّ العشاق أو كبيرهم ، فجميعهم إنما يردّ على ورده وينهل من بقية شربه . وتبعه تلميذه مهيار يشدّ إلى قيثارته نفس هذا الوتر ، كما مرّ بنا في ترجمته ، صاباً في أشعاره منه ألحانا كثيرة من مثل قوله .

قُلْ لَجِيرَانِ الْغَضَا آهِ عَلَى طِيبَ عَيْشٍ بِالْغَضَا لَوْ كَانَ دَامَا
نَصِلُ الْعَامَ وَلَا نَسَاكُمُ وَقَصَارَى الْوَجْدِ أَنْ تَسْلَخَ عَامَا
حَمَلُوا رِيحَ الصَّبَا نَشْرُكُمُ قَبْلَ أَنْ تَحْمَلَ شَيْحاً وَثَمَا
وَابْعَثُوا أَشْبَاحَكُمْ لِي فِي الْكُرَى إِنْ أَذِنْتُمْ لِحَفْوَنِي أَنْ تَنَامَا

والغضا من أشجار نجد ، وكذلك الشيح والثام من نباتاتها ذات الرائحة الطيبة . والقطعة تفيض بالحنين لصاحبته وأهلها من جيران الغضا أو أهل نجد ، فإنه لا ينسأهم ولا يسلوهم ، ولا يزال يأمل في أن تحمل ريح الصبا نَشْرُهم العطر حتى يردّ إليه روحه ،

ويتمنى أن يرى صاحبه ولو خيالا أو شبعا في النوم حتى تملأ نفسه بهجة وغبطة . ولصردر
أشعار نجدية أو في نجد ومحوباته بها بديعة ، من مثل قوله في مطلع قصيدته الهائية التي
أشرنا إليها في حديثنا عن شعراء المديح :

وقفنا صفوفاً في الديار كأنها	صحائفُ ملقاةٌ ونحن سطورها
يقول خليلي والظباء سوانحُ	أهذى التي تهوى ؟ فقلتُ نظيرها
ويا عجي منها يصد أنيسها	ويدنو على دُعرٍ إلينا نفورها
ووالله ما أدرى غداةً نظرَتنا	أتلك سهامُ أم كئوسُ تُديرها
فإن كنَّ من نبلٍ فأين حفيفها	وإن كنَّ من خمرٍ فأين سرورها
أراك الحمى قل لي بأى وسيلةٍ	وصلتَ إلى أن قبلتك ثغورها

وتصوير صردر نفسه وصحبه وهم وقوف بأطلال الديار كأنهم سطور بديع ، ولا نكاد
نمضي معه حتى نشعر بروعة التصوير ودقة الشاعر . فصواحه والظباء جنس واحد يدنو
وحشيه مذعورا ويصد أنيسه نفورا ، ولا يدري ما الذي أودعته ظباء الإنس - حين نظرن
اليهم - قلوبهم وأفئدتهم ، هل أودعتها نبلا قاتلا ، أو كئوسا من خمر تلذ الشاربين .
ويظل في حيرته ويتساءل إنها إن كانت نبلا فأين حفيفها ودوئها ؟ وإن كانت كئوسا فأين
سرورها ومتاعها . ويلتفت إلى شجر الأراك وبراهن يتخذن منه المسواك ، فيسأله مذهولا
كيف وصل إلى ثغورها . وكلها حيرات تصور لوعات هذا العاشق المفتون ، ومن بديع
غزلياته قوله :

نسائل عن ثلماتٍ يحزوى	وبأن الرمل يعلم من عينا
وقد كشف الغطاء فما نبأ	أصرحنا بذكرِك أم كئينا
بنفسى رامياتٍ ليس تفنى	نصولُ سهامهنَّ إذا رمينا
وأمسينا كأننا ما افترقنا	وأصبحنا كأننا ما التقينا

إنه يشي على استحياء في ديار صواحه يحزوى يسأل عن نبات الثمام ، وكل شيء في
الديار حتى ما بها من أشجار البان تعلم حقيقة أمره وخبيثة سره ، فقد كشف الغطاء وذاع
السر المحبوء . وإنه ليفدى بروحه من رمته بسهامها ، ويقول إن سهامها لا تفنى أبدا ، فهي
ما تنى ترسلها على المعجبين والمحبين . والبيت الأخير حكمة بديعة تصدق على كل شيء في
الدنيا وكل أمل ضائع أو سيضيع .

وهذا الوجد في شعر الغزل البدوي وما يثير في النفس من حنين ومن ظمأ لا يرتوى إلى رؤية المحبوبة استغله المتصوفة منذ ظهوره للتعبير عن حبهم للذات الإلهية بما فيه من مواجد ومن لوعات ، لوعات تلذع في الفؤاد كأنها نيران محرقة ، فإنهم وجدوا فيه خير معبر عن تشوقهم لرؤية الذات الإلهية ، وأنى لهم ! ، فضوا يتغنون به في حفلات الذكر المعروفة حين ينعقد الذاكرون لله في صفين متقابلين ، ويقف منشدين بينهما ، يرتل أشعار الوجد والهيام تارة مما نظمته الصوفية وتارة مما نظمته الشريف الرضى ومهيار وغيرهما ممن تلاهما واستلهم طريقتها البدوية النجدية في الغزل ، لما أحسوا في هذه الطريقة من الوجد والصبابة ، بل من سعة النداء فيها . وهي سعة تلاحظ أيضا في الغزل الصوفي ، وكأن هذين الضربين من الغزل يلتقيان ، وهو التقاء هيا لأن يتأثر الغزل عامة بالشعر الصوفي ، وأن يتيح ذلك الفرصة لظهور ما يمكن أن نسميه الشعر الوجداني الصافي ، على نحو ما سنرى عند الحاجري والتلعفري .

ولا بد أن نلاحظ أن وتر الغزل البدوي الذي شدّه المتنبي إلى فيثارته ظل الشعراء بعده لافي العراق وحده بل في جميع الأقاليم العربية يشدونه إلى فيثاراتهم حتى العصر الحديث ، إذ وجدوا فيه فسحة للتعبير عن حبهم ووجدهم وما يثيران في القلوب من العواطف والأهواء . وقد تفجرت ينابيعه فجرا في مقدمات المدائح النبوية التي أخذت تجرى على كل لسان منذ القرن السابع الهجري . ومررنا في الفصل الأول من هذا القسم حديث طويل عن تغنى الجوارى والحرائر في بغداد لزمن أبي حيان التوحيدي ، وما ذكره من أنه كان ببغداد أربعائة وستون جارية ومائة وعشرون حرة يتغنن بأشعار غزلية تدلّع الوجد والحنين واللوعة في قلوب الناس من المتصوفة وغير المتصوفة ، فتفتت قلوبهم وتتحدرو دموعهم ويعلو نحيبهم ، ومنهم من يسقط مغشياً عليه ، ومن يَلْطَم وجهه ويحرق ثيابه أو يمزقها ، ومن يضرب الأرض بقدمه أو يجسده ويُرغى ويُرَبد . وكان وراء هؤلاء المغنيات مغنون يُعَدُّون أو قل لا شك أنهم كانوا يُعَدُّون بالعشرات إن لم يكن بالمئات ، كانوا يزلزلون الأرض - كما يقول أبو حيان - بأصواتهم الناعمة وألحانهم الرخيمة ودماثهم الحلوة . وكل ذلك عمل على ازدهار شعر الحب وأغانيه .

وطبعي أن يتكاثر شعراء الغزل في هذا العصر كما تكاثروا في العصور السابقة ، وأن لا يقف ذلك عند شعراء القرنين الرابع والخامس وأن يتعداهم إلى شعراء القرنين السادس والسابع ومن جاء بعدهم ، ومن أهم الشعراء الذين عاشوا للغزل وشعر الصبابة في القرن

السادس الشاعر الملقب بالأبله ^(١) لُقِّبَ بذلك لأنه كان فيه طَرَفٌ بلهٍ ، وقيل بل لأنه كان غاية في الذكاء فلُقِّبَ بذلك على طريقة الأضداد ، واسمه أبو عبد الله محمد بن بختيار ابن عبد الله المولاهُ أَى الهائم صباية وعشقا ، وحُرِّفَت الكلمة في بعض الكتب فقبل المولد بدلا من الموله ، وهو تحريف واضح . وذكره العماد الأصهباني في كتاب الخريدة ، فقال : « هو شاب ظريف يترنَّى بَزَى الجند ، رقيق أسلوب الشعر حلو الصناعة ، رائق البراعة ، عذب اللفظ ، أرق من النسيم . وكل ما ينظمه ، ولو أنه يسير ، يسير ، والمغنون يغنون برائقات أبياته (مؤثرين لها) عن أصوات (أغاني) القدماء ، فهم يتهافون على نظمه المطرب ، تهافت الطير الحوْم على عَذْب المشرب » . ثم قال أنشدني لنفسه من قصيدة سنة ٥٥٥ ببغداد :

زارَ مَنْ أَحْيَا بَزورَتِهِ والدُّجَى في كَوْنِ طُرَّتِهِ
يا لها من زورةٍ قَصُرَتْ فأماتتْ طولَ جَفَوْتِهِ
آه من خَصَصٍ له وعلى رَشْفَةٍ من بَرْدِ رِيقَتِهِ
ياله في الحسن من صَنَمٍ كُلُّنا من جاهليَّتِهِ

والكلمات محكمة ، وتكاد تطير عن الشفاه طيراناً لحقتها ، والدقة واضحة في تشبيهاته وطباقاته ، وأيضاً في مراعاته للنظائر في الكلمات كما في البيتين الأخيرين : وقد جعل محبوبته صنما يريد أنها معبودة لفتنتها وسحر جمالها وكأنها أعادت الناس إلى زمن الجاهلية ، فكلهم عابدها مسحور . والكلمات والأبيات معدة حقاً للغناء ، إذ كان أستاذاً في زمنه من أساتذة الأغاني ، ولذلك كان يتخاطف المغنون والمغنيات غزلياته . ويقول ابن خلكان : « جمع الأبله البغدادي في شعره بين الصناعة والرقّة وله ديوان شعر بأيدي الناس » وقال ابن الجوزي في المنتظم كانت وفاته ببغداد سنة ٥٧٩ وقال غيره بل سنة ٥٨٠ ومن غزله البديع قوله في مطالع إحدى قصائده :

يا بَرِّقْ إن تجفُ العقيقَ فطالما أغنَّته عنك سحائبُ الأَجْفانِ
هيهات أن أنسى رُبّاكَ ووقفَةً فيها أُغِيرَ بها على الغَيْرانِ
ومُهَفِّهٍ ساجي اللِّحَاطِ حفظتُهُ فأضاعني وأطعته فعضاني
يُصمِّي قلوبَ العاشقين بقلّةٍ طَرَفُ السَّنانِ وطَرَفُها سيَّانِ

(١) أنظر في ترجمة الأبله المنتظم والنجوم الزاهرة في سنة ٥٧٩ وابن خلكان ٤٦٣/٤ والوافي للصفدي ٢٤٤/٢ وغير الذهبي ٢٣٨/٤ والشذرات ٢٦٦/٤ .

ما قام معتدلاً يهزّ قوامه إلا وبانت خجلة في البان
وفي الأبيات انسياب مع جمال التصوير ، بل مع التصوير المفاجئ ، إذ نراه يخاطب
البرق المحتفى مع السحاب عن ديار صاحبه بأن سحاب الأجفان ودموع العيون حرة أن
ترويه ويقول إنه حفظ صاحبه فأضاعته ، وأطاعها فعصته ، ويعقد صلة بين طرفها
وطرف السنان ، فكلاهما يصمى ويقتل ، ويذكر أن قوام صاحبه لا يشبه قوام شجر البان
في اعتداله فحسب ، بل إنه حين يبصره شجر البان يسرى فيه خجل وحياء شديد لحسن
قوامه بالقياس إليه وجمال استوائه ومن أبياته السائرة قوله من قصيدة :
لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانها

ولن نستطيع أن نمضي في عرض أشعار الغزلين لكثرتهم ونكتفي بالحديث عن ابن المعلم
والحاجري والتلعفري ، إذ هم أهم من نظم الغزل في العصر ، وقد استطاعوا التفوذ فيه إلى
ضرب جديد من الشعر الوجداني يكتظ بالشوق والوجد والحب المبرح الذي يستأثر بالقلوب
والأفئدة .

ابن المعلم^(١)

هو أبو الغنائم نجم الدين محمد بن علي المعروف بابن المعلم ، ولد بقرية الهُرث من
أعمال واسط جنوبي العراق سنة ٥٠١ هـ وتوفي بها سنة ٥٩٢ هـ واستيقظت موهبته الشعرية
مبكرة ، فقصده بشعره حكام بغداد وبها اصطدم بشاعرها سيّط ابن التعاويذي بعامل التنافس .
وكان كلما ألم ببغداد لا يلبث أن يفارقها إلى مسقط رأسه ، وفيه يقول العماد الأصهباني في
الخريدة : « متقدم الهُرث شعره الديباج الملمع المعلم ، طرازه المعنى الممنع المحكم ، فلفظه
السوّار ومعناه المِعصم . . كلامه خلّو حال ، عالٍ غالي ، صَفْو من الرّنق خال . . فأين
مهيّار من أسلوبيه ! لو عاش شرب من كوبه » . ويقول ابن خلكان : « كان شاعراً رقيق
الشعر لطيف حاشية الطبع يكاد شعره يذوب من رفته . . وأكثر القول في الغزل والمدح
وفنون المقاصد ، وكان سهل الألفاظ صحيح المعاني ، يغلب على شعره وصف الشوق
والحب وذكر الصبابة والغرام ، فعلق بالقلوب واستشهد به الوعاظ واستحلاه
السامعون » . وأتاحت له رقة شعره الوجداني صلة وثقى بينه وبين أصحاب الشيخ أحمد

(١) انظر في ترجمة ابن المعلم وأشعاره الخريدة (قسم
العراق ٤٣٠/٢/٤ وابن خلكان ٥/٥ والوافي ٣١٠/٤ والنجوم الزاهرة ١٤٠/٦ وانظر ص ١٠٢ .
بالوفيات ١٦٥/٤ وعبر الذهبي ٢٧٩/٤ والشذرات

الرفاعي ، فكانوا يتغنون بغزلياته ، ويرونها معينا لا ينضب لاستثارة حبه الصوفي ، ويقول ابن خلكان : « سمعت جماعة من مشايخ البطائح (يريد أصحاب الرفاعي) يقولون : ما سبب لطافة شعر ابن المعلم إلا أنه كان إذا نظم قصيدة حفظها الفقراء (المتصوفة) المنتسبون إلى الشيخ أحمد الرفاعي وغنوا بها في سماعاتهم (يريد أذكارهم) وطابوا عليها ، فعادت عليه بركة أنفاسهم . . وبالجمله فشعره يشبه النّوح ، ولا يسمعه من عنده أدنى هوى إلا فتنه وهاج غرامه » . وملاحظة ابن خلكان أن شعر ابن المعلم يشبه النّوح ملاحظة دقيقة توضح السبب الحقيقي في تعلق طائفة الرفاعيين به ، لما يحمل من كثرة الوجد ولوعاته وحرارته التي لا تنطفئ في فؤاده أبدا ، فهو دائما يريد الوصال ، ولا وصال على طريقة الصوفية ، بل فراق متصل ، يشقى به الحب ويبكى وينوح ولا مغيث ولا مخلص ولا معين ولا أمل في لقاء أو ما يشبه اللقاء ، يقول :

لو قَصَى من أهل نَجْدٍ أَرَبَةً	لم يَهْجُ نَشْرُ الخُزَامِي طَرَبَةً
عَلَّوْا الصَّبَّ بِأَنفَاسِ الصَّبَا	إِنهَا تَشْفِي النُّفُوسَ الوَصْبَةَ
فَهِيَ إِنْ مَرَّتْ عَلَيْهِ نَشَرَتْ	مَا انطوى عنه وَجَلَّتْ كُرْبَةً
كَلَفِي فِيكُمْ قَدِيمٌ عَهْدُهُ	مَا صَبَابَاتِي بِكُمْ مُكْتَسِبَةٌ
عَنْ جَفَوِي النُّوْمِ مِنْ بَعْدُهُ	وَإِلَى جِسْمِي الضَّنَا مِنْ قُرْبَةٍ
فَصِلُوا الطَّيْفَ إِذَا لَمْ تَصِلُوا	مُسْتَهَامًا قَدْ قَطَعْتُمْ سَبِيلَهُ

فهو لم يقض أربا من صاحبه ، وذلك هو مصدر لهفته ولوعته ، وإنه ليرتجى أن تمر به أنفاس الصبا محملة بنشرها علها تشفيه من أوصابه وأوجاعه وتنقذه من كربه العظيم ، وإنه ليكلف بها أشد الكلف ، كلفا كأنما فطر عليه ، فهو يعذبه ويشقيه ويسهده ويؤضيه ، وإنه ليرتجى أقل التمتي : أن يرى طيف المحبوبة ولكن أنى له ، وهو لا ينام ، بل يظل ليله - مثل نهاره - يحتمل مالا يستطيع تحمله من آلام الحب الذي أصبح محنة ، لا يستطيع قلبه أن يجد إلى التخلص منه سبيلا . ويشد له العناد قطعة من كلمة له سارت وأنجذت وغارت حتى شدا بها الشادى ، وحدا بها الحادى ، ووجد بها أرباب الغناء الغنى والوجد ^(١) وأصحاب القلوب الهوى والوجد ، وهى مطلع لإحدى مدائحه وفيها يقول :

تَبَّيْ يَا عَذَابَاتِ الرَّنْدِ	كَمْ ذَا الْكَرَى ؟ هَبْ نَسِيمَ نَجْدِ
مَرَّ عَلَى الرُّوضِ وجاء سَحْرًا	يَسْحَبُ بُرْدِي أَرْجِي وَبُرْدِ

حتى إذا غانقتُ منه نَفْحَهُ عادَ سَمُومًا والغرامُ يُعْدِي
واعجباً مني ! أَسْتَشْفِي الصَّبَا وما تَزِيدُ النَّارَ غَيْرَ وَقْدٍ
أَعْلَلُ الْقَلْبَ بِبَابِ رَامَةٍ وما يَنُوبُ غُصْنٌ عَنْ قَدْ
وَأَسْأَلُ الرَّبْعَ وَمَنْ لِي لَوْ وَعَى رَجَعَ الْكَلَامُ أَوْ سَخَا بِرَدِّ
أَقْتَضَى النَّوْحَ حَمَامَاتِ اللَّوَى هَيْهَاتَ مَا عِنْدَ اللَّوَى مَا عِنْدِي
بَانُوا فَلَا دَارُ الْعَقِيقِ بَعْدَهُمْ دَارُ وَلَا عَهْدُ الْحَمَى بِعَهْدِ

والقطعة تكتظ بحب محروم يلذع فؤاد صاحبه لذعا بنيانه ، وبينما هو في الآله
وغصصه التي يتجرعها محزوناً إذا نسيم نجد يهبُّ محملاً بشذى عطر ، يرد الروح ، وكأنه
رحيق الحياة ، غير أنه لا يكاد يعانق منه نفحةً حتى يحس كأنما فارق كل ما كان به من برد
ولطف وعاد سَمُومًا ، بل سَمًا . ويا للهول نسيم أرج بارد يصبح ريحا سموما ساخنا ، وإنه
ليزيد نار حبه وَقْدًا واشتعالًا . ويتلفت يسأل الربع عن محبوبته ، وليس عند الربع من
جواب ، وإنه ليشن وينوح ويطلب من حمامات اللوى أن تنوح وتئن معه ، فهو أولى من
اللوى بالأنين والنواح ، إنه ليس عندها ما عنده من تباريح الغرام ، فقد رحلت
صاحبته ، ولم تعد دار العقيق دارها ولا عهد الحمى بعهد لها . لقد ذهب منه كل شيء
ولم يعد له إلا النواح والبكاء . وله من أخرى في قفِّها وحلاوتها وحسنها كما يقول العباد
الأصبهاني :

أَرْقَى وَهُوَ الْحَبُّ الْمُسْتَهَامُ مَا يُدَاوَى بِالتَّعَاوِذِ الْغَرَامُ
قَصُرَتْ عَنْ بُرْثِهِ أَيْدِي الْأَسَا كَيْفَ حَسَمُ الدَّاءِ وَالِدَاءُ عُقَامُ (١)
يَا لَدَيْغِ الْحَدَقِ الثُّجَلِ مَتَى تَجْدُ الْبِرَّةَ وَحَامِيَهُ الْحُسَامُ
وَدَوَاءُ الْحَبِّ فِي شَوْكِ الْقَنَا مَتَى لَدَيْغًا كُلُّ دِرْيَاقٍ سِهَامُ
قُلْ لُنُومِ الْغَضَا عَنْ سَاهِرٍ مَنْ تَجَافَاهِ الْهَوَى كَيْفَ يَنَامُ
غَنِمُ بِالشَّمْسِ عَنْ نَظَرِهِ وَالضُّحَى مِثْلُ الدُّجَى كُلُّ ظَلَامُ

فحبه مرض عضال لا يداوى بالتعاويز والرقي ، وقد عجزت عن برثه وشفائه أيدى
الأسا والطب والعلاج ، إنه داء لا يمكن الخلاص منه ، وإنه للدغ الحدق الثجل
الساحرة ، وكل درياق له أو دواء إنما هو سم فلا يدري المصاب به أي شرب رحيقاً شافياً أم
سماً قاتلاً . ويتجه إلى أهل الغضا يشكو سهادته وجفاء محبوبه ، فقد غابوا بشمسهم عن

(١) الأسا : المداواة والعلاج . عقام : لا يشفى منه .

بصره ، وأصبح ضحاه مثل دجاء ، وأظلمت الدنيا في عينيه ، وأصبح كل شئ قِطْعاً من الظلام بعضها فوق بعض ، وعثا يرى نور محبوبته فقد أرخى الظلام من حوله سُدُوله ولم يعد هناك أمل في انفراجه ، وهويشٌ وينوح نواحاً لا ينقطع كما يقول ابن خلكان . ولعل في ذلك كله ما يصور كيف أن غزله الوجداني كان خليقاً أن تتداوله طائفة الرفاعية الصوفية ، لتعبر به عما يختلج في حنايا صدورهم وقلوبها من الحب الإلهي وكل ما يطوى فيه من وجد ولهفة ولوعة وظمأ لا ينتهى إلى رؤية الذات العلية ، وكأنما مسته - كما تصوّر شيوخهم - بركة أنفاسهم ، أو كما نقول كأنما مسته أنفاس وجدهم الرباني الحار ، مما جعلهم يحفظون شعره ويتناشدونه ، وينشده معهم الوعاظ في وعظهم . ويروى ابن خلكان أن الشاعر مرّ يوماً على ابن الجوزي وهو يعظ الناس وهم مزدحمون في مجلسه ، وكان عجه شديداً حين سمعه يستشهد على بعض إشاراته ببيت من شعره منها به .

الحاجرى^(١)

هو أبو الفضل حسام الدين عيسى بن سِنَجَر بن بَهْرَام بن جَبْرِيل بن خُمَارِ تَكِين بن طاشَتِكِين الإربلي المعروف بلقبه الحاجرى نسبة إلى الحاجر بلدة كانت بالحجاز أكثر من ذكرها في شعره ، فُنُسِبَ إليها . وهو إربلي الأصل والمولد والمنشأ ، ويقول ابن خلكان إنه كان صاحبه ، ومع ذلك لا يذكر لنا شيئاً عن زمن مولده ولا عن أسرته ونشأته ، وكل ما يقول إنه جندي من أولاد الأجناد الأتراك ، ويبدو أنه كان على شئ من اليسار ، إذ لا نراه في ديوانه مشغولاً بممدوحين مختلفين يُهدِيهم أشعاره ، إلا ما كان من مدحة يستهل بها ديوانه مدح بها الأمير ركن الدين أحمد بن الأمير شهاب الدين قراطايا بإربل ، ولعله أراد أن يستل من نفسه ضغينة عليه ، إذ جاء في مقدمة مدحته إنه كان السبب في مقتله ، ويقول ابن خلكان إنه خرج من إربل في سنة ٦٢٦ بينما كان الحاجرى معتقلاً في قلعتها لأمر يطول شرحه ولعل الأمير السالف هو الذى دبر له هذا الاعتقال ، وله في ذلك أشعار يشكو فيها من حبسه مثل قوله :

قَيْدٌ أَكْبَدُهُ وَسِجْنٌ ضَيَّقُ
يَا رَبُّ شَابَ مِنْ الهمومِ المَفْرِقُ

ويذكر ابن خلكان أنه بلغه بعد ذلك خروجه من الاعتقال وأنه اتصل بخدمة الملك

(١) انظر في ترجمة الحاجرى ابن خلكان ٥٠١/٣ والنجوم الزاهرة ٢٩٠/٦ والشذرات ١٥٦/٥ وديوانه طبع طبعة سقيمة بالقاهرة سنة ١٣٠٥ وذكر بروكلمان (١٧/٥) منه مخطوطات كثيرة ، وهو حرى بأن يحقق تحقيقاً علمياً .

المعظم مظفر الدين كوكبوريّ وإلى إربل من قبل صلاح الدين منذ سنة ٥٨٦ هـ وتقدم عنده وتزيّاً بزى الصوفية . وتوفى مظفر الدين سنة ٦٣٠ هـ فغادر الحاجرى إربل ، وكأنه كان لا يزال يخشى بأس غريمه المذكور آنفاً ، غير أنه سرعان ما عاد إليها حين صارت في مملكة الخليفة المستنصر بالله وتولاها عنه الأمير شمس الدين أبو الفضائل باتكين ، فأقام مدة قصيرة وهو لا يدرى أن وراءه من يقصده واتفق أن خرج يوماً من بيته قبل الظهيرة ، فوثب عليه شخص وضربه بسكين ضربة قاتلة توفى على إثرها في شوال سنة ٦٣٢ هـ ويقدر ابن خلكان عمره بخمسين سنة . ويقول : « له ديوان شعر تغلب عليه الرقة ، وفيه معان جيدة ، وهو مشتمل على الشعر والدوبيت والموايا ، وقد أحسن فيها جميعاً مع أنه قلّ من يجيد في مجموع هذه الثلاثة ، بل من غلب عليه واحد منها قصّر في الباقي ، وله أيضاً « كان وكان » واتفقت له فيه مقاصد حسان وهو شعر عامى ، سنعرض له في غير هذا الموضع . وأول ما نقرأ في ديوانه مطلع مدحته لابن قراطايا ، وفيه يقول :

ما للدموع تسيلُ سَيْلَ الوادى	أَحَدًا بِرَكْبِ العامريّة حادى
نعم استقلُّوا ظاعنين وخلفوا	ناراً لها في القلب قدحُ زناد ^(١)
ما كان أطيبَ للوداع عناقنا	لو لم يكن منا عناقٌ بعد
يا سائقَ الوجناء غيرَ مقصّر	يطوى المفاوز من ربّى ووهاد ^(٢)
مالى إليك سوى التحية حاجة	تلقى سعادَها ودارَ سعاد
عَرَّجَ برامةً إنَّ رامةً منتهى	أملى وغايةً بُعِيتى ومرادى ^(٣)
يأيها الرّشّاء الذى بلحاظه	دَعَجَ يصول به على الآساد ^(٤)
الله فى كبدى التى أحرقتها	عَبَثًا بحمرة خَدَكِ الوقاد

وبلى هذا الاستهلال غزل من هذا الطراز يكاد يستنفد الديوان جميعه بما فيه من مخمسات ودوبيئات أو رباعيات ، وواضح أنه مرحلة جديدة للغزل بالبدويات الذى قرأناه عند المتنبي والشريف الرضى ومهيار ، وكان الحاجرى استوعب غزلهم وتمثله تمثلاً نادراً ، فإذا هو ينفذ مثل ابن المعلم إلى هذا الغزل الجديد الذى سمّيناه بحق شعراً وجدانياً ، شعراً ينساب من معين تُرّلا يزال يتدفق حاراً دون أى تكلف أو تصنع . وإن نار الحب لتتقد في قلبه وتسيل دموعه أنهاراً فقد فارقتة صاحبتة إلى رامة ، وهو لا يملك إلا أن يرسل إليها

(١) قدح الزناد : استخراج النار منه بضرب حجرين . (٣) رامة : موضع بالبادية .

(٢) الوجناء : الناقة الشديدة . (٤) الدعج : اشتداد السواد والبياض في العين .

بتحية رقيقة ، وإنه ليدكر سهام عينيها الفاتنتين ويتضرع إليها مستعطفاً لكبده التي أحرقتها
بجمرة خذها الوقاد ، ونحس دائماً كأنما يتوجع حقاً من حريق فكل شيء من صاحبتها
يلهب صدره وقلبه بنار لا تخمد أبداً حتى الرضاب أو الريق ، يقول :

ويلاه من بَرْدِ رُضَابٍ لها أشكو إلى العُدَالِ منه الحريقُ

وهو في أثناء هذا الحريق الذي يأخذ قواده من كل جانب يلتاع لوعات ممضة ، كان
يرُوع منها دائماً ، فيهتف منشداً أشعاره الوجدانية التي تكتظ بالحنين إلى رؤية صاحبتها في
رامة وغير رامة من منازل نجد والحجاز ، مثل قوله :

إِنَّ الْأَلَى رَحَلُوا غَدَاةَ مُحَجَّرٍ ملثوا القلوبَ لواعجَ الأحرانِ
نزلوا برامةَ قاطنينَ فلا تَسَلُ ما حلَّ بالأغصانِ والغزلانِ
فلا بُعْثَنَ مع النسيمِ إليهمُ شكوى تَميلُ لها عُصُونُ البانِ
يا عاذلي فيمن أحبُّ جهالةً عني إليك فليس شأنك شاني
لَمْ لا أَحِنُّ إلى الحجازِ صبايةً ويحودُ دمعُ العينِ بالهملانِ

فقد رحلت صاحبتها عنه وتركته بجاجريشكو آلام حبه ولواعج حزنه وأوجاعه ، ونزلت
رامة فأخجلت بقدها وجمال عينيها الأغصان والغزلان ، ولم يعد له إلا أن يبعث إليها
بالسلام مع النسيم ، لعلها ترقُّ له وتذكره ، ويلتفت إلى عذوله ينهأ أن يتعرض له فليس
من دربه ، وليس ذلك من شأنه ، ويتساءل إن كل محب ليصبو قلبه إلى الحجاز ونازليه ،
ويذرف الدمع مدراراً . لغة سهلة هي لغة الشعر الوجداني الذي ينساب في النفس
انسياباً . وله قصيدة تفيض بحنين رائع صَوَّرَ فيها تصويراً بديعاً حزنه لفراق صاحبتها كأقوى
ما عرف الناس من الحزن للفراق بين المحبين قائلاً :

أَحِبَّاؤُنَا بِثَمٍّ عَنِ الْخَيْفِ فَاشْتَكْتُمْ لُبْعَدَكُمْ أَصَالُهَا وَضُحَاها
كَأَنَّكُمْ يَوْمَ الرِّحْلِ رَحَلْتُمْ بنومي فعنني لا تُصِيبُ كَرَاهَا^(١)
رَعَى اللَّهُ لِيَلَاتٍ بِطِيبِ حَدِيثِكُمْ تَقَضَّتْ وَحْيَاها الْحَيَا وَسَقَاها
فَمَا قَلْتُ إِيَّاهُ بَعْدَهَا لِمَسَامِرٍ من الناسِ إِلَّا قَالَ قَلْبِي آها
مَتَى تَنْقُضِي أَيَّامَ ذُلِّي وَأَجْتَنِي ثَمَارَ وَصَالٍ قَدْ حُرِمْتُ جَنَّاها
وَأُسْتَصْحَبُ الْقَوْمَ الَّذِينَ بِمَهْجَتِي لَفَقَدَهُمْ نَارٌ يَشِبُّ لَظَاها

فهو لا يشكو فراقهم بل تشكوه معه الطبيعة ، وإنه ليشكو من سهاده ، فالنوم لا يلمُّ ليلاً بطرفه ، وهو يذكر ليلاً سمره مع صاحبه ويدعو لها مذبذباً في دعائه حيناً حاراً ، ويصور نفسه ، فهو مع سمره أحياناً لا يزال قلبه يتوجع ، وهو مع ابتساماته تملأ الهموم أحشاه ، وإنه ليتمنى أن يجتمع بصاحبه ويقتطف ثمار وصاله ويطفئ النار التي تستعر بفؤاده .

وله بجانب هذه الأشعار الوجدانية البديعة مخمسات بنفس الروح ونفس المعاني والوجد والصبابة كقوله في فاتحة مخمس :

خَلِيلِي عَوْجاً بِالْغَوِيرِ وَكُتْبِي وَلَا تَمْنَعَا الْمَشَاقَّ مِنْ لَثَمِ تَرْبِيهِ
هُوَ الصَّبُّ يُصْبِيهِ الْهَوَى دُونَ صَحْبِهِ خُذَا مِنْ صَبَا نَجْدٍ أَمَاناً لِقَلْبِهِ
فَقَدْ كَادَ رِيَّاهَا يَطِيرُ بَلْبُهُ

والغوير : ماء في بادية الشام ، والديوان يطفح بأسماء المواضع والمنازل في نجد والحجاز . وفي ديوانه رباعية يُذِيبُ فيها وجده وَجَبَةً قَائِلاً :

حَيًّا وَسَقَى الْجَمِيَّ سَحَابٌ هَامِي مَا كَانَ أَلَذَّ عَامَهُ مِنْ عَامِ
يَا عَلُوَّةُ مَا ذَكَرْتُ أَيَّامَكُمْ إِلَّا وَتَظَلَّمْتُ عَلَى الْأَيَّامِ

وقد نوه القدماء طويلاً بما في شعره من انسياب موسيقى رائع ، وبلغ من إعجابهم به أن سموا ديوانه « بلبل الغرام الكاشف عن لثام الانسجام » وفي دار الكتب المصرية مخطوطة شعرية له باسم : « القصائد الحجازيات في مدح خير البريات » وهي مجموعة من المدائح النبوية ، لم يضمن ديوانه منها شيئاً .

التَّلْعَفَرِيُّ (١)

هو شهاب الدين أبو عبد الله محمد بن يوسف المعروف بالتَّلْعَفَرِيُّ نسبة إلى « تلّ أعفر » بين سنجار والموصل ، ويروى ابن خلكان عنه أنه ولد بالموصل سنة ٥٩٣ هـ وبها كانت نشأته وتربيته الأدبية . وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، فرأى أن يمدح الحكّام والأمراء على عادة الشعراء في عصره ، ولم يكتف بأمرء موطنه ، فقد اتجه بمدحيه أيضاً إلى أمراء الشام ،

(١) انظر في ترجمة التلعفري ابن خلكان ٤٠/٧ ، ٤٥ ، وشذرات الذهب لابن العماد ٣٤٩/٥ وديوانه طبع قديماً وفوات الوفيات لابن شاکر ٥٤٦/٢ والنجوم الزاهرة في القاهرة وبيروت .

ولزم كثيرين منهم وخاصة الملك الأشرف موسى الأيوبي الذي ظل مستولياً على صولجان الحكم في دمشق من سنة ٦٢٦ إلى سنة ٦٣٥ وكان يسبغ عليه كثيراً من العطاء الجزل ، غير أن التلعفري كان مغرّياً بشرب الخمر والقمار ، وكان الأشرف موسى يراجع في ذلك كثيراً ، ولم يكن يصبر عليهما أو يستطيع شيئاً من الصبر ، وفي ذلك يقول :

أَقْلَعْتُ إِلَّا عَنِ الْعُقَارِ وَتُبْتُ إِلَّا مِنْ الْقَهَارِ
فَالْكَأْسُ وَالْقَمَرُ لَيْسَ يَخْلُو مِنْهَا يَمِينِي وَلَا يَسَارِي

ولما أُعيت الحيل الأشرف موسى معه أمره بمغادرة دمشق ، فتركها إلى حلب وصاحبها الملك الناصر الأيوبي ، فقرّبه منه ، وجعله من جلسائه ، وقرّر له راتباً ، راجياً أن ينوب ويتوب ، غير أنه سرعان ما عاد إلى سيرته السيئة في دمشق ، فكان يشرب ويقامر بكل ما يحصل عليه من مال ، حتى قيل إنه قامر بشبابه ونعليه . وعرف ذلك الملك الناصر ، فأمر أن ينادى في حلب من قِبَلِ السلطان : « مَنْ قَامَرَ مَعَ الشَّهَابِ التَّلْعَفَرِيِّ قَطَعْنَا يَدَهُ » فضاعت عليه حلب وأرضها بما رحبت وعاد إلى دمشق ، وكان الملك الأشرف موسى قد توفى ، وظل بها يستجدي ويقامر حتى ساءت حاله سوءاً شديداً ، ورحل إلى مصر في هذه الأثناء إذ يقول ابن خلكان إنه لقيه بها سنة ٦٣٨ وعاد منها لا إلى دمشق ولا إلى حلب ، بل إلى حماة وصاحبها الملك المنصور ، فاحتفى به وأضفى عليه عطاء وفيراً أتاح له بأخرة من حياته عيشاً كريماً . وظل بحماة حتى وفاته سنة ٦٧٥ وكان آخر ما تلفظ به من شعره قبيل موته .

إِذَا مَا بَاتَ مِنْ تُرْبِ فِرَاشِي وَبَتُّ مَجَاوِرَ الرَّبِّ الْكَرِيمِ
فَهَنُّونِي أَصْبِحَابِي وَقُولُوا لَكَ الْبُشْرَى قَدِمْتَ عَلَى رَحِيمِ

وليس في الديوان مدحة من مدائحه ، إلا ما قد يشير إلى بعضها في الأبيات التي نختتم بها ما احتفظ به من بعض مطالعها ، وبذلك يصبح الديوان كله غزلاً ، وهو غزل من طراز غزل الحاجري ، أو هو بعبارة أدق شعر وجداني يسيل رقة وعدوية وسلاسة ، وكأنه الماء النثير حلاوة وصفاء ورشاقة ونعومة حتى ليشفع له فيما أبلى به من القمار ، وهو فيه يجري على هذا النمط الوجداني الرائع :

أَيَّ دَمْعٍ مِنَ الْجَفُونِ أَسَالَهُ إِذْ أَتَتْهُ مَعَ النِّسَمِ رِسَالَةٌ
سَلَّ عَقِيقَ الْحِمَى وَقُلُّ إِذْ تَرَاهُ خَالِياً مِنْ ظِلَائِهِ الْمُخْتَالَةِ

أَيْنَ تِلْكَ الْمَرَاشِفُ الْعَسَلِيَّةُ تَ وَتِلْكَ الْمَعَاطِفُ الْعَسَّالَةُ (١)
 وَلَيْالٍ قَضَيْتُهَا كَلَالٍ بَغْزَالٍ تَغَارُ مِنْهُ الْغَزَالَةُ (٢)
 بِأَبْلَى الْأَلْحَاطِ وَالرَّبِيقِ وَالْأَلِ خَفَاطِ كُلِّ مُدَامَةٍ سَلْسَالَةٍ
 وَسَقَمِ الْجَفُونِ وَالْخَضِرِ وَالْعَهْدِ لِمِ فِكْلٍ تَرَاهُ يَشْكُو اعْتِلَالَهُ
 أَوْقَعَ الْوَهْمَ حِينَ يَرْمَى فَلَمْ نَدَّ رِ يَدَاهُ أَمْ عَيْنُهُ النَّبَالَةُ

والقصيدة كلها تموج بهذه الرقة والعذوبة مع الانسياب والتدفق ، وكأننا يازاء جدول يسيل شعرا ووجدا وهياما ، مع جمال القافية وحسن الألفاظ وطواعيتها للشاعر ، وكأن كلا منها تجذب صاحبها تريد أن تعانقها عناق ذوى الرحم والقرابة . وتلك الألفاظ والربيق والألفاظ لصاحبته جميعا كأنها رحيق مسكر ، وما أجمل جمعه بين سقم الجفون وفتورها وهو جمال وحسن فيها ، وبين الخضر وسقمه أو نحوله وهو يستحب فيه ، وأخيرا بين هذين السقمين وسقم عهد صاحبته فهي تُدِلُّ عليه ولا تنى بوعداها ، وهكذا يشكو كل سقمه واعتلاله . ودائما يذكر الشعراء سهام العيون وكيف تصمى الأفئدة ، وهو يضم إليها سهام الأيدي الفاتنة ، فلا يدري أحد من أين يأتي النبل أمن الأيدي أم من العيون ، ويكرر كثيرا أن حاجبي صاحبته قوسان كبيران لا يزالان يرسلان النبل والسهام ويصوبانها إلى العاشقين المفتونين . وله يصور ألم الفراق .

إِنِّي لِأَعْجَبُ مِنْ مَحَبٍّ مُشْعَفٍ عَيْشًا لَهُ مِنْ بَعْدِ حَثِّ الْأَيْثِقِ
 يَايُهَا الْحَادَى بِعَوْدِكَ سَالِمًا أَلَا رَثِيَتْ لَشِمْلَنَا الْمَتْرُقِ
 أَرِحِ الْمَطْيُ وَهَا فَوَادَى فَاقْتَبَسْ وَامْتَنُ عَلَى وَهَا دُمُوعِي فَاسْتَقِ
 لَيْسَ التَّعْجَبُ مِنْ رِقَادَى - إِذْ مَضَى - فِيهِ وَلَكِنْ مِنْ جَمِيعِي إِذْ بَقِيَ
 لِدَلَالِهِ ذُلِّي بِهِ وَلَجْبِهِ وَهَوَاهُ مَا يَلْقَى الْفَوَادُ وَمَالِقِي

فهو يعجب من أن يعيش العاشق الولهان بعد فراق صاحبته ، وإنه ليهتف بالحادى أن يريح مطيه ، وإذا كان يريد نارا فليقتبسها من فؤاده ، أو ماء فليستق من دموعه التي تتدافع سيلًا مدرارا . ويأسى لبخته أو حظه إزاء صاحبته ولا يعجب من سهادته فيها ، بل يعجب من أن يظل جميعه حيا يتنفس ، وإنه ليتذلل ويضرع أسى ووجدا . وكل ذلك شعر وجداني وقف عليه التلعفري - مثل أستاذه الحاجرى مواطنه - حياته وشعره ، وله موشحة وحيدة مدح بها العزّازى الشاعر الوشاح المصرى احتفظ الديوان بها تامة وهى من

(١) السليات : المنسوبة إلى العسل ، وأراد بالمعاطف (٢) الغزالة : الشمس .

القوام . العسالة : اللينة .

نفس المعين الذى يستمد منه شعره الوجدانى ، على نحو ما يتضح من قوله فى مطلعها :
 ليس يُرَوَى ما بقلبي من ظمًا غيرُ برِّقٍ لائحٍ من إضمٍّ^(١)
 إن تبدَّى لك بأنُّ الأجرع^(٢)
 وأثيلاتُ النَّقا من لعلٍ^(٣)
 يا خليلي قِفْ على الدارِ معي
 وتأمِّلْ كم بها من مَصْرَعٍ
 واحترِزْ واحذرْ فأحداقُ الدُّمى كم أراقتُ فى رُبَّها من دَمٍ

وللحاجرى موشح فى ديوانه ، ولكنه لا يبلغ جمال هذا الموشح فى موسيقاه ورصف
 ألفاظه . وليس معنى ذلك أن التلعفري يتفوق على الحاجرى فى روعة شعره ، فالحاجرى هو
 الأستاذ وهو الذى مهد الطريق وعبَّدها للتلعفري ، وهما جميعا يجلبان فى غزلها تجلية
 بدیعة . ويقول ابن تغرى بردى عن التلعفري إنه كان يتشيع ، ولكنه لم يفسح لنحلته فى
 شعره .

٢

٦

شعراء اللهو والمجون

مرَّ بنا فى حديثنا عن المجتمع فى الفصل الأول كيف أن الطبقة المترفة من الحكام
 والوزراء وعلية القوم كانت تنغمس فى الترف ، وكيف كان كثيرون منها يقبلون على اللهو
 واحتساء الخمر فى مجالس أنس كانت لا تزال تنعقد فى بغداد ، وذكرنا من بين هذه
 المجالس مجلس الوزير المهلبى ومن كان يحضره من القضاة والفقهاء وكيف كانوا يطرحون
 الحشمة والوقار ويقبلون على القصف والخلاعة والرقص ، وفى يد كل منهم طاس مملوء
 خمرًا يعبُّ منه عبًّا . ولم يكن جميع الوزراء مثل المهلبى ، ولكن كثيرين منهم كانوا
 يقيمون هذه المجالس وإن لم يتسعوا مثله فى اللهو والعبث ، ويصور محمد بن أبى المطهر الأزدى
 فى كتابه « حكاية أبى القاسم البغدادى » - الذى عرضنا له فى غير هذا الموضع - بعض
 هذه المجالس فى القرن الخامس الهجرى وكيف كانت تعبق بالطيب على بساط الرياحين

(١) إضم : الوادى الذى فيه المدينة المنورة . (٢) أثيلات : شجر . النقا : القطعة من الرمل .

(٢) البان : شجر . والأجرع : الرملة الطيبة الميت لعلع : ماء بالبادية .

والورود وكيف كانت تهبّ للأنس رياح ، سحابها الأفداح ، وبرقها الراح ، وقد نطقت
 السنة العبدان والنباتات تسند غناء الجوارى والمغنين بألحانها الشجية ، ويطلق في وصف
 الخمر وأن منها ما كأنه عُصر من خَدَّ الشمس ، وما هو أصنى من الماء ، وأرق من دَمعة
 العاشق المهجور^(١) . والكتاب إنما كتب في وصف المجون ببغداد لعصر مؤلفه ، وينبغي أن
 لا نظن أنه يمثل صورة الحياة العامة ، إنما هي صورة حياة طبقة خاصة هي الطبقة المترفة ،
 وكان وراءها الشعب يكدح ويتصبّب جبينه عرقاً كي تملأ هذه الطبقة بطونها وتملأ مجالسها
 بالشرب من الطاس والكاس . وحقا كانت للشعب مواسم للهو والعبث ، غير أنها قلما
 تعدّت أعياد المجوس والنصارى مما عرضنا له في غير هذا الموضع .

على كل حال ينبغي أن لا نبالغ في تصور ما كان ببغداد من اللهو والمجون ، وأن نقصر
 ذلك على الفئة الأرستقراطية أما الشعب فحسبه منها ما كان يستمتع به من هو في بعض
 الأعياد وخاصة أعياد الربيع ، وظل ذلك طوال العصر ومن خير ما يصوره مقامة لظهير
 الدين الكازروني المتوفى سنة ٦٩٧ عرض فيها لهذا الجانب من هو البغداديين وخروجهم إلى
 الرياض وتترهيمهم في الحدائق والأنهار قائلا : « أما زمان الربيع وأيام الوشى البديع فإنهم
 كانوا يصطحبون ويتجمعون وينتالون (كأنهم إلى نُصَب يُوفضون) فيترلون الجوارى
 (السفن) في رهط من الجوارى ، ويدخلون نهر عيسى ويباكرون إلى قَصده . . ويخرقون
 أشجاره ويقطفون ثماره ونوّاره ، ويفترشون رياضه وأزهاره ويتزلون غيطانه وأنهاره ، ثم
 تعزف القيان وتصطخب العبدان ، وتصفّق الغُدران ، وترقص الأغصان ، وتميد
 الأفنان ، وكلما دَسَع (امتلأ) الرَّأووقُ (دَنّ الخمر وطاسه) طاب المشوق . . وكلما طرب
 العود ، زججرت الرعود ، وقد انتظموا في سلك الراحة ، واجتمعوا للاستراحة ، كذلك
 أياما لا يطعمون مناما^(٢) » ولم تكن حانات بغداد في الكرخ ولا حانات المنتزهات وحدها
 هما اللتان يجد فيها عشاق المجون ما يصبون إليه من الخمر بل كانوا يجدونها أيضا في
 الأديرة .

وبذلك كله ظلت الخمرية تتردد على السنة الشعراء ، وظلوا يصوغونها ، وكل منهم
 يحاول أن يأتي فيها بمقطوعة أو قصيدة بديعة ، وقد نُظمت كثير من الخمريات في مجالس
 الوزير المهلبى ، ولعل جليسه القاضي أبا القاسم التنوحي كان المجلّى بين ناظميها بمثل قوله في

(١) حكاية أبي القاسم البغدادى ص ٤٥ وما بعدها . ص ٢٧ .

(٢) انظر مقامة ظهير الدين الكازروني (طبع بغداد)

إحدى خمرياته^(١) .

وراح من الشمس مخلوقة بدت لك في قدح من نهار
هواء ولكنه جامد وماء ولكنه غير جار
وهو تصوير يديع أن يجعل الخمر شمسا أو قطعة منها وماء غير جار والكأس نهارا وهواء
جامدا . وكان كثيرون من أهل بغداد رجالا ونساء يحفظون الخمرية لجمال تصويرها ، يدل
على ذلك ما حكاه ابن خلكان - في ترجمة صاحبها - عن الحسن بن عسكر الصوفي
الواسطي قال : كنت ببغداد في سنة إحدى وعشرين وخمسمائة جالسا على دكة بباب أبرز
للفرجة إذ جاء ثلاث نسوة فجلسن إلى جانبي ، فأنشدتُ ميمثلا :

هواء ولكنه جامد وماء ولكنه غير جار
وسكت ، فقالت إحداهن : هل تحفظ لهذا البيت تماما ؟ فقلت : ما أحفظ سواه ،
فقلت : إن أنشدك أحدُ تمامه وما قبله ماذا تعطيه ؟ فقلت ليس لي شيء أعطيه ،
فأنشدتني الخمرية وزادت بعد البيت السابق :

إذا ما تأملتها وهي فيه تأملت نورا مُحيطاً بنار
فهذا النهاية في الایضاض وهذا النهاية في الاحمرار

فحفظت البيتين منها . وإنما رويانا ذلك لندل على ظرف الجوارى في بغداد وأن سوق
الخمريات كانت رائجة ، ولذلك كان الشعراء يحاولون الإبداع فيها والإتيان بالمعاني المبتكرة
الطريفة كقول البيضاء في عتق الخمر^(٢) :

وعريقة الأنساب والشيم موجودة والخلق في العدم
هي آدم الكرم المولد في الـ دُنيا وحوًا الخمر في القدم
ظهرت ونور الشمس في فلك من قبل خلق الصبح والظلم
واشتق معنى اسم السلاف لها من كونها في سالف الأمم

وبون بعيد بين هذه الخمرية وخمرية التنوخي في بعد الخيال والتصوير . ومن قديم يمزج
الشعراء في الخمرية بين الحب ونشوة الخمر . ومن طريف ما كان يطرب الناس ببغداد لعهد
أبي حيان التوحيدي غناء سندس جارية ابن يوسف صاحب ديوان السواد ، وهي تشاجي
وتدلل وتمايل وتتكسر متغنية بهذه الخمرية^(٣) .

(١) انظر ترجمة القاضي التنوخي في ابن خلكان (٢) البيمة ٢٦٢/١ .
(٣) ٣٦٦/٣ والجواهر المضية ومعجم الأدياء ١٦٢/١٤ . (٣) الإمتاع والمؤانسة ١٧٣/٢ .

مجلسُ صَبَّينَ عَمِيدَيْنِ لَيْسَا مِنَ الْحَبِّ بِخُلُوبَيْنِ
 قد صَبَّيَا رُوحَيْهَا واحداً واقتساه بين جَسْمَيْنِ
 تنازعا كأساً على لَذَّةٍ قد مَرَّجَاهَا بين دَمْعَيْنِ
 والكأسُ لا تحسنُ إلا إذا أَدْرَتْهَا بين مُحِبَّيْنِ

ومن قديم أيضاً يمزج الشعراء بين النشوة بالخمير والنشوة بالطبيعة ، إذ كانوا فعلاً كما مر بنا يشربونها على أبسطه الربيع وبين آسه وورده وزهره ، ونقلوا الأزهار إلى مجالسها ، حتى تعبق بروائحها أو قل نقلوا الربيع بكل ما فيه نقلاً يأخذ بمجامع القلوب ويمتزج بالنفوس . فكان طبيعياً أن يتحدث الشعراء في خمرياتهم عن جمال الطبيعة وجمال الورود والرياحين في الربيع ، وقرنوا إلى ذلك سقوط الثلج في الشتاء كقول الوزير المهلب في إحدى خمرياته (١) :

الوردُ بين مضمخٍ ومضرجٍ والزهرُ بين مكلَّلٍ ومتَّوجٍ (٢)
 والثلجُ يهبطُ كالنَّثارِ فقمُ بنا نلتدُّ بابنةِ كرمٍ لم تَمَرَّجِ (٣)

وكان الغناء يرافق الخمر ، كما أشرنا إلى ذلك ، فعرضت خمريات كثيرة للغناء والخمر معا ، كما عرضت أخرى للغزل بالسقاة من الغلمان ، وكثير منه كان يُقصدُ به إلى التندر والدعابة في أثناء السكر . وكان الغزل بالغلمان لونا من ألوان التماجن في العصر ، وهو - لاشك - وصمة معيبة في جبين أصحابه .

ودفع التماجن إلى ظهور أشعار لا يستحي أصحابها من ذكر العورات والإسراف في الفحش ، ونعجب الآن أن يتخذ ذلك ضرباً من الهزل والتسرية عن الناس ، وكأنما أعيانهم أن يسروا عن أنفسهم ، فالتمس بعض الشعراء هذه التسرية التي تؤذى النفوس الكريمة . وكان شعراء هذا الهزل الماجن يمزجونه بفكاهات ونوادر ودعابات كثيرة ، وكأنهم أحسوا أنه يجب تخفيف حدته ، وأنى لهم ؟ ! فقد كان يمتلئ بسخف كثير ، وسخفه ليس ناشئاً عن التورط في الخمر فحسب وإنما أيضاً عن التورط في وصف الفواحش والتصريح بالآثام في غير استحياء . وكان الذي دفع إلى ذلك ابن سكرة وابن الحجاج في القرن الرابع ، غير أن شعراء الخمر أنفسهم من حولها ومن بعدهما كانوا يترفعون عن هذا الدرك

(٣) النثار : ما ينثر في حفلات العرس والسرور من

(١) البتمة ٢/ ٢٣٧ .

(٢) مضمخ : ملطخ بالطيب ، مضرج : ملطخ نقود أو حلوى بالحمرة .

الأسفل من التصريح بالآثم على نحو ما نرى في خمريات عبد الصمد^(١) بن بابك المتوفى بعدهما سنة ٤١٠ وله من خمرية :

عُقَارٌ عَلَيْهَا مِنْ دَمِ الصَّبِّ نَفْضَةٌ وَمِنْ عِبَرَاتِ الْمُسْتَهَامِ فَوَاقِعُ
مَعُودَةٌ غَضَبَ الْعُقُولِ كَأَنَّمَا لَهَا عِنْدَ أَلْبَابِ الرِّجَالِ وَدَائِعُ
تَحْيِرٍ دَمْعُ الْمُزْنِ فِي كَأْسِهَا كَمَا تَحْيِرٌ فِي وَرْدِ الْخُدُودِ الْمَدَامِعُ

وقد أبدع في تصوير فواقعها في كأسها بأنها عبرات شاربها العاشق الوطان ، ويقول إنها استردت منه وديعتها ، ففارقه عقله . ويصل بين امتزاج الماء بالخمير المحمرة في كأسها وبين الدموع وتحدرها على خدود المحبوبة الموردة ، وله من أخرى :

يَا صَاحِبِي امزُجَا كَأْسَ الْمُدَامِ لَنَا كَمَا يُضِيءُ لَنَا مِنْ نُورِهَا الْعَسَقُ
خَمْرًا إِذَا مَا نَدِيمِي هَمٌّ يَشْرِبُهَا أَخْشَى عَلَيْهِ مِنَ اللَّأَلَاءِ يَحْتَرِقُ
لَوْ رَامَ يَخْلِفُ أَنَّ الشَّمْسَ مَا غَرَبَتْ فِي فِيهِ كَذَّبَهُ فِي وَجْهِهِ الشَّقَقُ
وخوفه على نديمه من الاحتراق في لألاء الخمر غريب ، وأغرب منه دعواه أن الشمس غربت في فمه بدليل ما تتضرج به خدوده من حمرتها ، وكأنها تركت عليها شفقتها أو بصاتها الحمراء . ويظل الشعراء بعد ابن بابك ينظمون في الخمر متفنين في معانيها محاولين بكل جهدهم أن ينفذوا فيها إلى طرائف جديدة ، على نحو ما يلقانا عند سبط ابن التعاويذي والحاجري والتلعفري وصفى الدين الحلبي . وانحصرت موجة المجون والفحش بذلك عند ابن سكرة وابن الحجاج وتراجعت عند خالفهم وكادت تنحصر في شعر هزلي مضحك على نحو ما هو معروف عند صريع^(٢) الدلاء المتوفى بمصر سنة ٤١٢ من مثل قوله :

مَنْ مَضَّغَ الْأَحْجَارَ أَدَمَتْ فَكَّهُ فَالضَّرْسُ لَمْ تُخْلَقْ لِتَلِينِ الْحَصَى
مِنْ قَطْعِ النَّخْلِ وَظِلِّ رَاجِيًا ثَمَارَهَا فَذَاكَ مَقْطُوعُ الرَّجَا
وقد يحاول شاعر من باب الدُعابة محاكاة ابن حجاج أو ابن سكرة ، غير أنه يخفف جدا من تماجنه وتعايشه بحيث لا يستخدم شيئا من ألفاظ الفحش ، إنما يكتفي ببيان عكوفه على الخمر وأنها كل لذته في دنياه ، حتى إنه لا يستطيع أن يهجرها في ليالي رمضان

(١) انظر في ترجمة عبد الصمد اليتيمة ٣٧٤/٣ وابن خلكان ١٩٦/٣ وعبر الذهبي ١٠٢/٣ والنجوم ١٤/١ وابن خلكان ٣٨٣/٣ وعبر الذهبي ١١٠/٣ والشذرات ٢٤٥/٤ والشذرات ١٩١/٣ . وله ديوان مخطوط . انظر بروكلمان مخطوط . انظر بروكلمان ٢٥/٥ . - ٦٥/٢

(٢) انظر في ترجمة صريع الدلاء تمة اليتيمة للشعالي

قبل سحوره ، وفي ذلك يقول ابن السَّوَادِي (١) من شعراء القرن السادس مَماجنا .
 الصُّبُوحُ الصُّبُوحُ فِي شَعْبَانٍ لَا تُخْلُوا بِهِ مَعَ الْإِمْكَانِ
 وَاسْقِنِيهَا يَوْمَ الثَّلَاثِينَ فِي الشَّدِّ لَكُ وَبَعْدَ السُّحُورِ قَبْلَ الْأَذَانِ

وبعد أن تماجن طويلا في القصيدة راجع نفسه وعاد يعلن حسن إسلامه وطاعة ربه
 وأنه براء من كل ما يصف به نفسه ، قائلا :

نَيْتِي غَيْرُ مَا سَمِعْتَ وَمَا كَا نَ لِسَانِي عَنْ نَيْتِي تُرْجَانِي

ومضى يذكر أن عُدَّتَه في معاده شفاعة الرسول عليه السلام وعلى وفاطمة الزهراء
 والحسين ، وبذلك محا كل ما جاء به في قصيدته من تماجن ، مصرحا بعقيدته الشيعية
 وما يعتقده الشيعة في شفاعة علي والسيدة فاطمة والحسن والحسين . وما دمنّا بصدد التماجن
 فحرى بنا أن نتوقف قليلا عند علميه في العصر : ابن سكرة وابن الحجاج .

ابن سَكْرَةَ (٢)

هو أبو الحسن محمد بن عبد الله المعروف بابن سكرة البغدادي الهاشمي ، وهو من
 سلالة علي بن المهدي بن أبي جعفر المنصور الخليفة العباسي المشهور ، ويبدو أنه كان في
 يسار وسعة من المال وأنه عاش للمجون والخلاعة . ولسنا نعرف شيئا عن نشأته وتربيته
 وحياته إلا ما يصفه به الثعالبي في اليتيمة من قوله : « هو شاعر متسع الباع ، في أنواع
 الإبداع ، فائق في قول الملح والطُرف ، أحد الفحول الأفراد ، جارٍ في ميدان المجون
 والسخف ما أراد . . . ويقال إن ديوانه يربو على خمسين ألف بيت ، منها في قينة سوداء
 يقال لها خمرة أكثر من عشرة آلاف بيت ، وكانت عُرْضة نوادره ومُلْحَحه . وحكى بعض
 معاصريه أنه حلف بطلاق امرأته - وهي ابنة عمه - أنه لا يخلى بياض يوم من سواد شعره
 في هجاء خمرة ، ولما علمت امرأته بالقصة كانت كل يوم إذا انفتل زوجها من صلاة
 الصبح تجيئه بالدواة والقرطاس وتلزم مصلاه لزوم الغريم غير الكريم ، فلا تفارقه مالم
 يقرض ولو بيتا في ذكرها وهجائها . وتدل الأشعار التي أنشدها له الثعالبي على شاعرية
 خصبة في الغزل وغير الغزل من مثل قوله :

(١) راجع في ترجمة ابن السوادى وشعره الخريدة (قسم العراق) ٣٦٩/١/٤ وابن خلكان ٤٨١/٣ .
 وتاريخ بغداد ٤٦٥/٥ والمتنظم ١٨٦/٧ وعبر الذهبي
 (٢) انظر في ترجمة ابن سكرة وأشعاره اليتيمة ٣/٣
 ٣٠/٣ وابن خلكان ٤١٠/٤ والشذرات ١١٧/٣ ومرة
 الجنان لليافى ٤٢٧/٢ والوفى ٢٠٨/٣ .

حَذَارٍ مِنْ وَصَلٍ مَنْ بَلِيَتْ بِهِ فَقَدْ لَقِيتُ الرَّدَى بِجَفْوَتِهِ
دَنُوتٌ مِنْهُ كَمَا أَقْبَلُهُ فَلَمْ تَدْعُنِي نِيرَانُ وَجَنَّتِهِ

فقد جعل النيران المشتعلة في وجنات محبوبته وخدودها تدفعه دفعا وتردّه ردا عنيفا ،
ومن هذا النمط قوله متغزلا :

مَنْعَتْنِي مِنْ مُقَبِّلِهِ حِينَ أَدْنُو مِنْهُ عَقْرَبُهُ
وَاسْتَدَارَتْ فَهْنِي تَحْرُسُهُ مِنْ فَيِّ بُخْلًا وَتَرْقُبُهُ

وكانت النساء تلوى على أصداغها خُصلة من شعرها في شكل عقرب تزينا وتجملا ،
فاستغل ذلك حتى الهاية ، إذ الخصلة مثل العقرب تستدير وترتفع في طرفها ، وكأنها تراقب
صاحبها وتستعد للدغ من يقترب من خدودها . ولن نستطيع أن نروى شيئا من فحشه في
الغزل ، ونكتفي بذكر بعض أبيات تصور مجونه دون أن تؤذى الذوق ، من ذلك قوله :

وَيَوْمٍ لَا يِقَاسُ إِلَيْهِ يَوْمٌ يَلُوحُ ضِيَاؤُهُ مِنْ غَيْرِ نَارِ
أَقْنَا فِيهِ لِلذَّاتِ سُوقًا نَبِيعَ الْعَقْلِ فِيهَا بِالْعُقَارِ

فهو يعيش للإكباب على اللذات والانهاك في المجون والعبّ من الخمر وإنه ليقم
للمجون سوقا يبيع فيه عقله ببيع وَكَسٍ يَدَنْ زَهِيدٍ من الخمر يفقده رشده ، ومن قوله :
اشربْ فَلَليومِ فَضْلٌ لَوْ عَلِمْتَ بِهِ بَادَرْتَ بِاللَّهْوِ وَاسْتَعَجَلْتَ بِالطَّرَبِ
ورُدُّ الخُدُودِ وورد الروض قد جُمعا وَالْغَيْمِ مَبْتَسِمٌ وَالشَّمْسُ فِي الْحُجُبِ
لَا تَحْبِسُ الْكَأْسَ وَاشْرَبْنَاهَا مُشْعِشَةً حَتَّى تَمُوتَ بِهَا مَوْتًا بِلا سَبَبِ

وقد جعل كل شيء في الزمان والمكان يحث على اللهو والطرب ، فقد اجتمعت الخمر
وورد الحدود كما يقول وورود الرياض في يوم من أيام الشتاء الغائمة الباسمة . ويذكر أن
ذلك كله يدعو لاحتساء الخمر حتى الموت موتا بلا سبب ، دعابة مقصودة ، ومن قوله :
قَدْ بَدَأَ الصَّبْحُ مَوْذَنًا بِسُفُورِ وَفَرَى الْفَجْرُ حُلَّةَ الدِّيُجُورِ (١)
فأسفنتني قهوةٌ تترجم بالرَّقْدِ عَنِ دَمْعِ عَاشِقٍ مَهْجُورِ

فالخمر رقيقة رقة دمع العاشق لكثرة حباته المتساقطة من مآقيه . ولو عرف قيمة الملكة
الشعرية التي رَزَقَهَا لحفظ لها حقها ولم يسقط في شعر الفحش والمآثم ، ولا لطلخ أشعاره
بهذا الدنس . وله هجاء كله سخرية ووخز كوخز الإبر . وكان واسع الخيال إلى درجة
الوهم على نحو ما نرى في قوله :

(١) فرى : شقّ . الديجور : الظلمة .

قيل : ما أعددتَ للبرِّ د فقد جاء بشدّه
قلت : دُرَاعَةٌ عُرِّيَ تحتها جُبَّةٌ رِعْدَه

والدراعة : ثوب من صوف ، وبلغ من وهم خياله أن جعل للعرى دراعة وللردة من برد الشتاء جُبَّة . وما أظنه كان يصور شيئاً من حقيقة حياته ، فقد كان على غير قليل من اليسار . وكأنه في البيتين استعار من معاصريه هذا اللون من التفارق وإظهار الخصاصة ، وكان لهما شعراء معروفون هم شعراء الكُذبة ، فجاراهما في بيته نظرفاً ودعابة . وقد توفي سنة ٣٨٥ للهجرة .

ابن الحجاج^(١)

هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد ، نسب إلى جدِّ له يسمى الحجاج ، ويبدو أن أباه كان من العمال ، وعُني بترية ابنه ، فاختلف إلى مجالس الفقهاء والعلماء فضلاً عن مجالس الأدب ، والتحق بالدواوين كاتباً ثم أصبح ضامناً لفرائض الصدقات بسقي الفرات مدة ، ثم تولى حِسبة بغداد فترة إلى أن عُزل بأبي سعيد الإصطخري الفقيه الشافعي . وكان أكبر شعراء زمانه في التهاجن والتعابث ، وهو يخطو فيها خطوات بعيدة بالقياس إلى ابن سكرة ، حتى زعم الرواة والنقاد أنه « فرد زمانه في فنّه الذي شُهر به وأنه لم يُسبق إلى طريقته ، ولم يُلحق شاؤه في نمطه » وفيه يقول أبو حيان : « سخيّف الطريقة بعيد من الجدِّ ، قريعٌ (فحل) في الهزل ، ليس للعقل من شعره منال ، ولا له في قرّضه مثال ، على أنه قويم اللفظ سهل الكلام ، وشئائله نائية بالوقار ، عن عادته الجارية في الخسار ، وهو شريك ابن سكرة في هذه الغرامة ، وإذا جدَّ أقمي^(٢) ، وإذا هزل حكى الأفعى » ويقول صاحب اليتيمة : « هو وإن كان في أكثر شعره لا يستتر من العقل بسجف^(٣) ، ولا يبنى جلّ قوله إلا على سُخْف ، فإنه من سَحرة الشعر ، وعجائب العصر . وأشعاره مشوبة بلغات الخُلديين (أصحاب الحرف) والمكّدين (أدبانية العامة) والسطار . . وكلامه يمدُّ يد المجون فيعرك بها أذن الحرِّم ، ويفتح جراب السخف فيصفع قفا العقل ، ولكنه على علّاته تتفكه الفضلاء بثمار شعره ، وتستملح الكبراء بنات طبعه . . ولقد مدح الملوك والأمراء والوزراء والرؤساء . وهو عندهم مقبول الجملة غالى مهر الكلام ، موفور

(١) انظر في ترجمة ابن الحجاج وأشعاره اليتيمة ٣٠/٣ والشذرات ١٣٦/٣ .

وتاريخ بغداد ١٤/٨ ومعجم الأدباء ٢٠٦/٩ والإمتاع (٢) أقمي هنا : قعد ولم يتم جده .

والمؤانسة لأبي حيان ١٣٧/١ وابن خلكان ١٦٨/٢ (٣) سجف : ستر .

الحظ من الإكرام والإنعام ، مجاب إلى مقترحه من الصَّلَاتِ الجِسام . . وكان طول عمره يتحكم على وزراء الوقت ورؤساء العصر : تحكم الصبي على أهله ، ويعيش في أكنافهم عيشة راضية ، ويستثمر نعمة صافية ضافية . . وإلى ذلك يشير في شعره مرارا ، وأنه بناه على التماجن والفحش للتفكه والدعابة طلبا للكسب به ، يقول :

لَوْ جَدَّ شَعْرِي رَأَيْتَ فِيهِ كَوَاكِبَ اللَّيْلِ كَيْفَ تَسْرِي
وَإِنَّمَا هَزَلُهُ مَجُونٌ يَمْشِي بِهِ فِي الْمَعَاشِ أَمْرِي

وقد عاش عيشة رفاهٍ ويسارٍ حتى توفي سنة ٣٩١ . وكان يكثر من نظم هذا الشعر الماجن حتى قالوا إن ديوانه يبلغ عشرة مجلدات ، وكان يباع في حياته بخمسين دينارا إلى سبعين ، ولكثرة ما ملأه به من ذكر العورات والمقاذير قال فيه ابن سكرة الماجن حين سئل عن قيمته إن « قيمته برّخ » أى بالوعة تحمل القاذورات وما ينضاف إليها . وإذا كان هذا حكم ابن سكرة فما بالنّا بحكم الناس وراءه في عصره وبعد عصره : وقد دعا بعض أصحاب الحسبة في كتبهم إلى منع الغلمان والصبيان من حفظ أشعاره وأخذهم بالضرب إن هم حاولوا ذلك . وينبغي أن نشير إلى ما ذكره أبو حيان من أنه كان فيه وقار يخالف هذا الإغراق في التماجن ، وكأنه كان تماجنا مقصودا به إلى الإضحاك : إضحاك الرؤساء والكبراء ، غير أنه تجاوز فيه حده . وكان حسبه ما لديه من القدرة على الفكاهة ليضحك الناس دون التردّي في بالوعات الفحش وقاذوراته ، ويصور تماجنه من بعض الوجوه قوله في مديحه لبختيار الحاكم البويهى لبغداد في عصره :

فَدَيْتُ وَجَهَ الْأَمِيرِ مِنْ قَمَرٍ يَجْلُو الْقَدَى نَوْرُهُ عَنِ الْبَصَرِ
فَدَيْتُ مَنْ وَجْهَهُ يُشَكِّكُنِي فِي أَنَّهُ مِنْ سُلَالَةِ الْبَشَرِ
إِنْ زُلِّيخَا لَوْ أَبْصَرْتُكَ لَمَّا مَلَّتْ إِلَى الْحَشْرِ لَذَّةَ النَّظَرِ

ويستمر في مثل هذا التماجن . وهو لا يطبق الصبر حتى مع بختيار في تماجنه ، إذ يمضى فيلطح المدحة في أواخرها بشيء من قاذوراته . وكان شيعا إماميا ، وكان يشوب تشيعه أحيانا بشيء من الغلو ، وكان قريبا من نفس الشريف الرضى ، فاختار من شعره قطعة تخلو من قدره وسخفه . وراثه حين توفي رثاء حارا ، ومن خمرياته التى تخلو من فحشه وبذائه قوله :

يَا صَاحِبِي اسْتَيْقِظَا مِنْ رَقْدَةٍ تُزْرِى عَلَى عَقْلِ اللَّيْبِ الْأَكْيَسِ

هذى المجرة والنجوم كأنها نهر تدفق في حديقة نرجس
 قوما اسقياني قهوة رومية من عهد قيصر دنها لم يمسس
 صرفاً تضيف إذا تسلط حكمها موت العقول إلى حياة الأنفس

والصورة في البيت الثاني جيدة إذ جعل نهر المجرة يتدفق في حديقة نرجس ، وجعل
 الخمر في البيت الأخير تमित العقول في رأيه ، ولكنها تحبى النفوس . وله خمرية قالها في
 عيد المهرجان ، وهي تخلو من مقارذه غير أن فيها تبجحا شديداً باعترافه بعصيانه لربه لشربه
 الخمر مع ما جاء من تحريمها في الذكر الحكيم .

وكل ذلك كان يريد به التماجن والتعابث والإضحاك ، وقد عاد في هذه القصيدة أو
 الخمرية يعلن أن رأس ماله كله خسران إلا ما كان من حبه لآل البيت وللرسول عليه
 السلام والإمام على وفاطمة الزهراء والحسن والحسين ، وتكثر في أشعاره الكذبة أو
 الشحاذة الأدبية ، فهو يكثر من بيان فقره وحاجته ، وأنه لا يجد المرق فضلاً عن اللحم ،
 وأنه دائماً يأكل الخبز بالملح دون إدام فيجرح حلقة من خشوته ، ودائماً لا يجد صوفاً يقيه
 برد الشتاء ولا خيشاً يقيه حر الصيف . وكل ذلك دعاية وفكاهة ، فقد كانت الدنانير
 والدراهم تنسكب عليه من كل جانب .

٣

شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية

منذ ظهور الإسلام يُعدّ الزهد والتقشف من صميم حياة المسلم ، زهد في طيبات الحياة
 ومتاعها وإقبال على ما عند الله من ثواب الآخرة ، وهو إقبال يوازن فيه المسلم بين نسكه
 وتعبد له لربه وبين السعي لرزقه ، فهو يعمل لدنياه كأنه يعيش أبداً ويعمل لآخريته كأنه
 يموت غداً . وهو يضع ثقته في الله ويتوكل عليه حق التوكل ، ولا يرى في سعيه لكسب
 قوته ما يقلل من هذا التوكل أو تلك الثقة . وتلقانا في العراق مع العصر الأموي طوائف
 من التناك والعباد الزهاد ، فالزهد والنسك قديمان في هذه البيئة ، وأخذت تتسع موجة
 الزهد مع العصرين العباسي الأول والثاني . وظلت حادة في هذا العصر ، ولا شك في أنها
 كانت أحد أكثر اتساعاً وجمهوراً بل جماهير من موجة اللهو والمجون ، فقد كانت هذه

تكاد تكون خاصة بالطبقة المترفة في الأمة ومن حَفَّ بها من المغنين والمغنيات والشعراء وأهل العبث . وكان الشعب لا يشترك في اللهو إلا في مواسم خاصة كأعياد الجوس والنصارى . أما موجة التقشف والنسك فكانت عامة يشترك فيها كثير من الطبقة العامة وجمهور أو جماهير الأمة ، إذ كانت تغدو صباح مساء إلى المساجد تتلو القرآن وتسبح الله وتذكره ليلاً ونهاراً . وكان يغذى هذه الروح في المساجد وعاظ يزدحم الناس على مجالسهم .

ومن كبار الوعاظ ابن سمعون ^(١) المتوفى سنة ٣٨٧ ويقول ابن خلكان : كان وحيد دهره في الكلام على الخواطر وحسن الوعظ وحلاوة الإشارة ولطف العبارة » ومن قوله : « سبحان من أنطق باللحم ، وبَصَّرَ بالشحم ، وأسمع بالعظم » إشارة إلى اللسان والعين والأذن ، وإياه عَنَى الحريري في المقامة الرازية الحادية والعشرين بقوله في أوائلها : « رأيت بالرَّيِّ ذات بُكرة ، زمرة في إثر زمرة ، وهم منتشرون انتشار الجراد ، ومستنون ^(٢) استنان الجياد ، ومتواصفون واعظا يقصدونه ، ويُحَلُّون ابن سمعون دونه » ولم يكن له نظير في زمنه . وكانت تعاصره ميمونة ^(٣) بنت ساقولة الواعظة البغدادية المتوفاة سنة ٣٩٣ وكان لها لسان حلو في الوعظ . وكان قبلها وبعدها كثيرات زاهدات ، وكان بعضهن يعظن وبعضهن يُحْمَلُ عنهن الحديث وقد ترجم ابن الجوزي في كتابه « صفة الصفوة » لطائفة كبيرة منهن . وفي سنة ٤٩٦ توفى ببغداد واعظ كبير هو أردشير بن منصور « وبوعظه حَلَقَ أكثر الصبيان رءوسهم ولزموا المساجد وبددوا الخمر وكسروا الملاهي » ^(٤) ومن كبار الوعاظ الزهاد أبو الوفاء بن عقيل الحنبلي المارّ ذكره ويقول ابن رجب : « من معاني كلامه يستمد أبو الفرج بن الجوزي » . وفي كل بلدان العراق تلتقى بأخبار هؤلاء الوعاظ مثل محمد بن عبد الملك الفارقي ^(٥) المتوفى سنة ٥٦٤ وقد ترجم له العماد ترجمة ضافية ، ذكر فيها مواعظه ومناجياته لربه ، وكان يضمها أشعارا في الزهد والوجد مثل قوله :

(١) انظر في ترجمة ابن سمعون ابن خلكان ٣٠٤/٤
وتاريخ بغداد ٢٧٤/١ وطبقات الحنابلة لابن أبي يعلى
١٥٥/٢ وصفة الصفوة ٢٦٦/٢ والوفاء ٥١/٢ .
(٢) مستنون من استن : جرى .
(٣) النجوم الزاهرة ٢٠٩/٤ .
(٤) النجوم الزاهرة ١٨٦/٥ .
(٥) انظر ترجمة محمد بن عبد الملك في الحريدة
(قسم الشام) ٤٣١/٢ ومابعدا والمتنظم ٢٢٩/١٠
والوفاء ٤٤/٤ .

مَنْ كَانَ فِي ظِلْمَاءٍ لَيْلٍ سَارِيًّا رَصَدَ النُّجُومَ وَأَوْقَدَ الْمِصْبَاحَ
 حَتَّى إِذَا مَا الْبَدْرُ أَشْرَقَ نَوْرُهُ تَرَكَ السَّرَاجَ وَرَاقِبَ الْإِصْبَاحَ
 حَتَّى إِذَا انْجَابَ الظَّلَامُ جَمِيعُهُ وَرَأَى الضِّيَاءَ بِأَفْقِهِ قَدْ لَاحَا
 هَجَرَ الْمَسَارِجَ وَالْكَوَاكِبَ كُلَّهَا وَالْبَدْرَ وَارْتَقَبَ السَّنَا الْوَضَّاحَا
 وهى قطعة صوفية رمزية إذ يشير إلى أن من أظلمت عليه الدنيا فى مطلبه الأسنى من
 الاتصال بربه ، يلجأ إلى نجوم فهمه ومصباح قريحته وسراجها ، حتى إذا بدد الدرية
 والمعرفة أشرق على نفسه هجر ذلك السراج وتلك النجوم وانتظر الإصباح والسَّنا الوضاح
 فرأى عين اليقين ونهل من معين الحب الإلهى ورحيقه المصنى . وربما كان أكبر واعظ
 عرفته العراق فى هذا العصر ابن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ وقد وصف مجلس وعظه ابن
 جبير سنة ٥٨٠ وصفا مسهباً قائلاً « شاهدنا صبيحة يوم السبت الثالث عشر من شهر صفر
 مجلس الشيخ الفقيه الإمام الأوحى جمال الدين أبى الفضائل عبد الرحمن بن على الجوزى
 بإزاء داره على الشطِّ بالجانب الشرقى فى آخره على اتصال من قصور الخليفة . . وهو
 يجلس به كل يوم سبت ، فشهدنا مجلس رجل . . آية الزمان وقرة عين الإيمان رئيس
 الحنبلية والمخصوص فى العلوم بالرتب العليا إمام الجماعة ، وفارس حلبة هذه الصناعة
 (يريد الوعظ) والمشهود له بالسبق الكريم فى البلاغة والبراعة ، مالك أزمة الكلام فى
 النظم والنثر ، والغائص فى بحر فكره على نفائس الدر ، فأما نظمه فرضى الطباع مهيارى
 الانطباع ، وأما نثره فيصعد بسحر البيان ، ويعطل المثل بقسٍّ وسجَّبان ، ومن أهر آياته
 وأكبر معجزاته أنه يصعد المنبر ويبتدئ القراء بالقراءة وعددهم نيف على العشرين قارئاً ،
 فينتزع الاثنان منهم أو الثلاثة آية من القرآن يتلون على نسق بتطريب وتشويق ، فإذا فرغوا
 تلت طائفة أخرى على عددهم آية ثانية ، ولا يزالون يتناوبون آيات من سور مختلفات . .
 فإذا فرغوا أخذ هذا الإمام الغريب الشأن فى إيراد خطبته عجلاً مبتدراً ، وأفرد فى
 أصداق الأسماع من ألفاظه درراً ، وانتظم أوائل الآيات المقروءات فى أثناء خطبته
 فقرأ . . ثم أكمل الخطبة على قافية آخر آية منها . . وحديثٌ ولا حرج عن البحر ، وهيات
 ليس الخبر عنه كالخبر . ثم إنه أتى بعد أن فرغ من خطبته برقائيق من الوعظ وآيات بينات
 من الذكر طارت لها القلوب اشتياقاً ، وذابت بها الأنفس احتراقاً ، إلى أن علا الضجيج
 وتردد الشيخ ، وأعلن التائبون بالصباح ، وتساقطوا عليه تساقط الفراش على المصباح ،
 كل يلقي ناصيته بيده فيجزّها ويمسح على رأسه داعياً له ، ومنهم من يُعشى عليه ، فيرفعُ
 فى الأذرع إليه ، فشهدنا هولاً يملأ النفوس إنابة وندامة ، ويدكرها هول يوم القيامة ،

فلو لم تركب بُنَجَ (وسط) البحر ، ونعتسف مفازات الفقر، إلا لمشاهدة مجلس من مجالس هذا الرجل لكانت الصفة الرابعة، والوجهة المفلحة الناجحة . فالحمد لله على أن مَنْ بقاء مَنْ تشهد الجادات بفضلها ، ويضيق الوجود عن مثله ^(١) .

وطبيعي أن يَنْهَى هذا الوعظ الذي كانت تتدفق جداوله في المساجد الناس عن ارتكاب المعاصي وأن يدفع كثيرين دفعا إلى الزهد في متاع الحياة وخيراتها فضلا عن قمع النفس عن الشهوات وارتكاب المآثم . وكما كان للوعاظ فضل كبير في سريان هذه الروح كذلك كان لفقهاء الحنابلة نفس الفضل ، فقد كانوا يؤلفون جمهورا كبيرا ببغداد ، وكثيرا ما كانوا يثيرون طالبين إلى الدولة قلع المواخير وتتبع المفسدين ومن يبيع النبذ . وكثيرا ما نهضوا بأنفسهم فكسوا الدور وأراقوا الأنبذة ^(٢) . وكانت الدولة لا ترى بدا من التزول على إرادتهم ، وسيرهم كما يمثلها كتاب طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى وذيله لابن رجب تفوح دائما بشذى الزهد والتكشف والإعراض عن الدنيا وملذاتها ، ويستحيل ذلك عند كثيرين منهم إلى أشعار زاهدة وأخرى تفيض بوجد ملتاع . وكان هذا الوجد يصل بين الزهاد والمتصوفة على نحو ما مرَّ بنا آنفا في مقطوعة واعظ مياقارين وزاهدا محمد بن عبد الملك . وتمتلى كتب طبقات المتصوفة بأشعارهم الصوفية الخالصة التي يصورون فيها عشقهم الإلهي ومكابدتهم معطلين لحواسهم وعقولهم بينا يتجلى الله في كل الموجودات ، وهم ساجدون في بحار الوجد وبين أمواجه ، غارقون في آلام حبههم وأشجانه ودموعه ، على نحو ما يصور ذلك الشيخ أحمد الرفاعي صاحب الطريقة الرفاعية المشهورة في قوله : ^(٣)

إذا جنَّ ليلي هَامَ قلبي بذكركم أنوحُ كما ناحَ الحمامُ المطوقُ
وقوفي سحابٌ يُمطرُ همَّ والأسَى وتحتي بحارٌ بالأسَى تتدفقُ
وسبق أن عرضنا لشهاب الدين السُّهْرَوْرْدِيَّ البغدادي في الفصل الأول . وهو إمام صوفية بغداد ومقدمهم في القرن السابع الهجري ، وولِّي عدة رُبط للصوفية ، وكان فقيها عالما واعظا ، عقد مجلس الوعظ سنين ، ويروى أنه أشدَّ يوما في تضاعيف وعظه ^(٤) :

لا تسقني وحدي فما عودتني أني أشيحُ بها على جلاسى
أنت الكريمُ ولا يليقُ تكرُّماً أنْ يعبرَ الندماءُ دَوْرُ الكاسِ

(١) انظر رحلة ابن جبير وزيارته فيها لبغداد (طبع)

ليدن) ص ٢٢٠ ومصادر ترجمة ابن الجوزي مذكورة

(٢) ابن خلكان ١٧٢/١

(٣) ابن خلكان ٤٤٦/٣

في صفحة ٣١٨ .

فتواجد الناس بذلك ، وقُطعت شعور كثيرة وتاب جمع كبير ، وواضح أنه عبر بالخمير عن النشوة بالعشق الإلهي ، ومن غزله الصوفي :

تَصَرَّمَتْ وَحْشَةً اللَّيَالِي وَأَقْبَلْتُ دَوْلَةَ الْوِصَالِ
تَقَاصَرْتُ عَنْكُمْ قُلُوبٌ فَيَالَهُ مُورِداً حَلَا لِي

وهو يعبر عن فرحته الهنيئة بصلته أو اتصاله بربه ، وكأنه تحقق له عالم الشهود أو عالم الفناء ، فانجذب عنه الحجاب ، وأضاءت مشكاة قلبه بنور ربه . وانبثقت من الشعر الصوفي منذ ابن دريد في أوائل القرن الرابع الهجري مدائح نبوية عطرة بالسيرة الذكية ، وما نصل إلى القرنين السادس والسابع حتى يتكاثر هذا المديح ويزدهر ، ونظن ظنا أنه كان للحروب الصليبية أثر في ذلك ، فقد رأى المسلمون تعظيم الصليبيين لعيسى عليه السلام واهتمامهم بمولده وحربهم للدين الحنيف وصاحبه ، وعرف الشعراء أنها حرب دينية يشنها الغرب على الرسالة النبوية ورسولها الكريم ، فاستحثوا الناس للدفاع عن دينهم ، بل لقد مضوا يستصرخونهم للذود عن وطنهم الإسلامي محاولين - بكل ما وسعهم - أن يحيلوهم شعلا آدمية تشوى وجوه الصليبيين وتأتى عليهم كأن لم يكونوا شيئا مذكورا . وفي الوقت نفسه مضوا بمدحون النبي الكريم بعرض سيرته وشذاها العطر ورفعوها شعارات بل لواءات ، ليتجمع من حولها أبطال الإسلام والعرب ويقضوا على الصليبيين قضاء مبرما . ولم يكنف بعض الشعراء بمدحتين أو مدائح معدودة للرسول ، بل نظم في ذلك ديوانا مثل محمد بن أبي بكر بن رشيد الواعظ البغدادى فقد نظم في مديح الرسول عليه السلام ديوانا سماه القصائد الوترية في مدح خير البرية وهي تسع وعشرون قصيدة مقفاة على حروف المعجم ، وختار ثلاثة من الشعراء يمثلون الزهاد والمتصوفة ومداح الرسول عليه السلام ، وهم على الترتيب ابن السراج البغدادى والمرضى الشهرزورى والصّرصرى .

ابن السراج البغدادى^(١)

هو جعفر بن أحمد بن الحسين السراج البغدادى المقرئ المحدث الأديب ، ولد ببغداد سنة ٤١٧ أوفى أول سنة ٤١٨ وقرأ القرآن وتلقن قراءاته وأقرأه سنين ، وعنى بالحديث النبوى ورحل في طلبه إلى مكة والشام ومصر ، وخرّج له الخطيب البغدادى خمسة أجزاء تسمى

ومعجم الأدباء ١٥٣/٧ وابن خلكان ١/٣٥٧ .

(١) انظر في ترجمة ابن السراج وشعره كتاب الذيل على

طبقات الخنابلة لابن رجب ١/١٢٣ والمتنظم ٩/١١١

السَّراجيات ، وله مصنفات مختلفة وكان شاعرا مطبوعا ، واستغلَّ موهبته الشعرية في نظم كتب الفقه مثل كتاب المبتدى وكتاب مناسك الحج وكتاب الخَرْقِي وكتاب التنبيه . وأهم كتبه وأشهرها كتاب مصارع العشاق ، وهو في أخبار العباد والنساک ، وبه أشعار كثيرة تفيض بوجد مبرح . وكان حَبْلِيَا حُمِلَ عنه الحديث كما حملت القراءات ويقول ابن الجوزي « حدثنا عنه أشياخنا ، وآخر من حدثنا عنه شهدة بنت الإبري » ، قال : وقرأت عليها كتابه المسمى بمصارع العشاق بسماعها منه » ويقول ابن خلكان عن شهدة : « بغدادية المولد والوفاة كانت من العلماء ، وسمع عليها خلق كثير ، واشتهر ذكرها وبعد صيتها ^(١) » . وقد جعل السراج كتابه « مصارع العشاق أجزاء ، وكتب على كل جزء آياتا ، من ذلك قوله على الجزء الأول :

هذا كتابُ مصارعِ العشاقِ صرَّعَتْهُمُ أَيْدِي نَوَى وفراقِ
تصنيفُ مَنْ لدَغَ الفراقُ فَوَادَهُ وتطلَّبَ الراقِ فَعَزَّ الراقِي

وكان تقيا ورعا يغلب عليه الزهد مع حسن الطريقة ومع الظرف ولطف الأخلاق . وأكثر أشعاره في نظم كتب الفقه كما مرَّ بنا وفي الزهد ، والتخلص من درك الهوى إلى ذُرَى الهدى ، والترفع عن اللذات البدنية ، والشهوات الدنيَّة ، ومن قوله :

أَفْلَحَ عَبْدٌ عَصَى هَوَاهُ وَفَاقَ فِي دِينِهِ وَكَاسَا ^(٢)
وَلَمْ يَرْحُ مُدْمِنًا لِحَمْرِ يَنْهَلُ طَاسًا يَعْلُ كَاسَا ^(٣)

فهو يدعو الإنسان إلى عصيان هواه وأن يكون كَيْسًا فلا يقع في الخطايا والزلات ويحفظ نفسه من الخمر أو المنكرات ، وبذلك يرتقي في درجات الهدى بقمعه لشرطانه وأمانه من غائلته . وله شعر وجداني من مثل قوله يصوِّرُ حنين ناqqته لمنازلها في نجد والحجاز :

قَضْتُ وَطْرًا مِنْ أَرْضِ نَجْدٍ وَأُمْتُ عَقِيقَ الْحِمَى مُرْخًى لَهَا فِي الْأَرْضِ ^(٤)
وَحَبَّرَهَا الرِّوَادُ أَنَّ لِحَاجِرٍ حَيًّا نَوَّرَتْ مِنْهُ الرِّيَاضُ فَحَنَّتْ ^(٥)
وَلَاحَ لَهَا بَرْقٌ مِنَ الْغَوْرِ مَوْهِنًا كَشَعْلَةٍ نَارٍ لِلطَّوَارِقِ شَبَّتْ ^(٦)

(١) ابن خلكان ٤٧٧/٢ .

(٤) أمت : قصدت .

(٥) حاجر : من منازل الحجاز . حيا : غيتا .

(٢) كاس : أصبح كَيْسًا حكيماً حصيفاً .

(٦) الغور : غور تامة وهو ما انحدر منها غرباً . موهنا :

(٣) النهل : الشرب الأول . الطاس : إناء

بعد نصف الليل . الطوارق : الضيوف .

الخمر ومثله الكاس . العلل : الشرب الثاني .

وَعْنَى لَهَا الْحَادَى فَأَذَكَّرَهَا الْحِمَى
وَقَدْ شَرِكْتَنِي فِي الْحَنِينِ رَكَائِي
أَلَا لَيْتَ شَعْرَى هَلْ تَعُودُ رَوَاجِعًا لِيَالِي الصَّبَا مِنْ بَعْدِ مَا قَدْ تَوَلَّتْ

والحنين يجري في الأبيات كما يجري الماء والخضرة في الأغصان النضرة ، وقد جعل ناقته أودابته نفسها تحنُّ حنيناً لا يتقطع إلى منازلها ، وهو حنين يضاعفه في نفسها ما يلوح لها من برق ليلا صادرا من جانب العُور ، وكأنه شعلة نار تستدعيها وتناديها من بعيد . كما يضاعف هذا الحنين شدو الحادى وغناؤه ، فتذكر أيامها في وجرة وغير وجرة . ويصرِّح بأن ناقته وركائبه تشركه في الحنين ، بل تزيد عليه رنة بعد رنة ، فيأسى لها ولنفسه ، ويتمنى لو عادت ليالي الصبا وكيف تعود وقد تولت إلى غير مآب ، ولم يبق إلا الوجد والحنين الذى يتَّقد في فؤاده بمثل قوله :

حَبْدًا نَجْدًا بِلَادًا لَمْ نَجِدْ رَاحَةً لِلْقَلْبِ فِي أَرْضٍ سِوَاهَا
فَإِذَا مَالَحَ مِنْهَا بَارِقٌ هَاجَ أَشْوَاقِي أَوْ هَبَّتْ صَبَاها
لَسْتُ أَنْسَى إِذْ سُلِّمَى جَارَةً تَبْدُلُ الْوَدَّ وَتُصَفِّينَا هَوَاهَا
أَرْسَلْتُ طَيْفَ كَرَى لَكِنَّهُ زَارَنَا وَالْعَيْنُ قَدْ زَالَتْ كَرَاهَا (٣)

فَنَجْدٌ راحة نفسه ومسرة قلبه ، وإنه ليدكر أيامها وما كان يغمره فيها من متاع وسعادة ، حتى إذا لاح برق أو هب نسيم صباً هاجت به أشواقه ، وأعادت إليه ذكرى حبه لسليمى حين كانت تبادلُه الهوى والود . وقد ضاع كل هذا الحلم منه وضاع منه النوم ، فلم يعد يستطيع أن يراها أو يرى طيفها ، وهو يتجشم أهوال وجدده ويحتمل آلامه ، باكياً ذارفا دموعه كما يقول :

بَانَ الْخَلِيطُ فَأَدْمَعَى وَجَدًا عَلَيْهِمْ تَسْتَهْلُ (٤)
وَحَدَا بِهِمْ حَادَى الْفِرَا قِي عَنِ الْمَنَازِلِ فَاسْتَقَلُّوا (٥)
قُلُ لِلَّذِينَ تَرَحَّلُوا عَنْ نَاضِرَى وَالْقَلْبَ حَلُّوا
مَا ضَرَّهْمُ لَوْ أَنَّهُلُوا مِنْ مَاءٍ وَصَلَّهُمْ وَعَلُّوا

فأحبابه رحلوا وحبَّات دموعه لا تزال تتساقط على خدوده ، وهل يملك سوى البكاء

(٤) تستهل : تنصب .

(٥) استقلوا : ارتحلوا .

(١) وجرة : موضع بنجد .

(٢) الركائب : الإبل .

(٣) الكرى : النوم .

والدموع الغزيرة ، لقد كان في حلم غمره وملاً عليه فؤاده ، وأفاق منه على فراق أحبابه ، وإنه ليعلم إن كانوا قد رحلوا وبعدوا عن مرأى عينه فسيظل وفيا للعهد ، وسيظلون يحلون في سويداء قلبه . ويفضى إلى اليأس قائلاً : ما ضرهم لو أذاقوه وصلهم وجعلوه ينعم به مرارا . ومع ذلك فسيظل يذكرهم بل سيظل جهم في قلبه قويا حارا . وله وراء ذلك أشعار مختلفة في مديح إمامه أحمد بن حنبل وأصحابه . توفي ببغداد سنة ٥٠٠ للهجرة .

المرتضى الشهر زورى^(١)

هو أبو محمد عبد الله بن القاسم بن المظفر الشهرزورى الملقب بالمرتضى ، وُلد بالموصل سنة ٤٦٥ وتوفي بها سنة ٥١١ في أرجح الأقوال ، أقام ببغداد مدة يشتغل بالحديث والفقه ، ورجع إلى الموصل وتولى بها القضاء بجانب ما كان ينهض به من الوعظ والتذكير . وكان صالحا تقيا ناسكا متعبدا ، ولم يلبس خرقة الصوفية ولا لزم رباطا من رُبطهم ، ومع ذلك كان صوفيا كبيرا ، صوفيا سنيا ، يدل على ذلك أكبر الدلالة ما تبقى من أشعاره واحتفظت به الخريدة للعماد ووفيات الأعيان لابن خلكان ، وروى له الأخير قصيدة صوفية رائعة ، يقول في تضاعيفها :

لمعت نارهـم وقد عسعس اللـيـلُ وملَّ الحادى وحارَ الدليلُ^(٢)
فتأملتها وقلت لصحبى هذه النارُ نارُ ليلي فميلوا
وهي تعلو ونحن ندنو إلى أن حجزت دونها طولُ مُحول^(٣)
فدنونا من الطلول فحالت زفراتُ من دونها وغليلُ
قلت : من بالديار؟ قالوا جريحُ وأسيرُ مكبلُ وقَتيلُ^(٤)
فحططنا إلى منازل قوم صرعتهم قبل المذاق الشمولُ^(٥)
قلت : أهلَ الهوى سلامٌ عليكم لى فؤادُ عنكم بكم مشغولُ
جئتُ كى أصطلى فهل لى إلى نا ركمُ هذه الغداة سبيلُ

إنه لا يزال ساريا طوال الليالى يبحث عن نار الذات الإلهية ، أو قل إنه يتخذ النار رمزا للمنازل على عادة الشعراء الغزلين ، ويراهـا من بعيد في الظلام الدامس وقد كلَّ الحادى

(١) انظر في ترجمة المرتضى وأشعاره الخريدة (قسم (٣) محول : مجدية .

الشام) ٣٠٨/٢ وابن خلكان ٤٩/٣ والشذرات ١٢٤/٤ (٤) مكبل : مقيد .

ومرأة الزمان ١٢١/٨ والنجوم الزاهرة ٢٣١/٥ . (٥) الشمول : الحصر .

(٢) عسعس : أظلم .

لطول السرى وحر الدليل المرشد ، وإذا النار أوقس منها يظهر فجأة ، فينادى صحبه : رأيت نار ليل فيلوا ، وكلما جد في السرى إليها ودنا منها علت وارتفعت إلى أن امتدت بينه وبينها طول محول ، ويحاول الدنو من الطول وتحول بينه وبينها دموعه وزفراته الحارة . ولا يجد في الديار سوى العشاق ، وهم كثيرون بين جريح ومغلول في القيود وقتيل . ويتزل بين قوم شغفهم الحب الرباني ، بل لقد صرعهم قبل أن ينتشوا به ويدوقوا خمره . ويسلم ، ويقول إنه جاء يصطلي بالنار : نار الحب المشتعل ، ويقولون له إن أحدا لا يبلغها ولا يصل إليها ، فدونها أهوال وأمواج تجرفهم إلى طولها . إنها نار تضيء للسارى بالليل ولا تنال ، ومنتهى الحظ أن يتزود اللحظ منها ، وهم حيارى وقوف قد أصبحوا أشباحا ناحلة وأنفاسا متلاشية ، وكلما ذاقوا كأس يأس مريرة لمعت لهم كأس رجاء حلوة ، فيقولون : صبر جميل .

والقصيدة من أروع ما خلف الصوفية على مر الحقب ، وقد أشدها بكلمات ابن خلكان ، وقال إنما أثبتتها كاملة ، لأنها قليلة الوجود وهى مطلوبة ، ويقول العباد في الخريدة : « وجدت من كلام القاضى المرتضى أبى محمد الشهرزورى رسالة سلك بها مسلك الحقيقة ، وسبق أهل الطريقة ، مشحونة بأبيات في رقة السلسال والشمول » وكأنه لم ينظم فى التصوف فحسب ، بل كتب أيضا ، غير أن العباد لم يُعَنَّ بأن يروى شيئا مما كتبه ، إنما عني بما جاء فى الرسالة من رقائق الغزل الصوفى من مثل قوله :

وعاودتُ قلبى أسأل الصبر وقفةً عليها فلا قلبى وجدتُ ولا صبرى
وغابتُ شمسُ الوصل عني وأظلمتُ مسالكهُ حتى تحيرتُ فى أمرى

والبيتان طريفان ، فقد وقف بالديار فضاخ منه قلبه وعزَّ صبره ، وغربت شمس الوصل وأصبحت جميع المسالك حوله مظلمة ، وهو حائر لا يهتدى ولا يجد من ينقذه . إنه محب مهجور قد حُرِم وصله وخُطف منه أو أُسر قلبه ، ويقول :

يالْئيلُ ما جئتكمُ زائراً إلا وجدتُ الأرض تُطوى لى
ولا ثنيتُ العزم عن بابكم إلا تعثرتُ بأذيالى

فهو دائماً على عتبات الباب لا يدخل ولا ينعم بوصل ولا لقاء ، ويميل الوقوف والانتظار ، ولكنه لا يستطيع الإياب ، كأنما شئ يسلك بتلايه ، فكلمة حاول الانصراف وأعياء الانتظار ورغب فى الرجوع تعثر فى أذياله فتسمر فى مكانه ، ومن قوله : شكوتُ إليها ما بقلبي من الجوى فقالت : وهل أبقي الفراق له قلباً

فقلت : فهل لى فى وصالك مطمعُ
فقلت : فهل من زورةٍ يَجْتَنى بها
فقلت إذا ما غاب عن كلِّ مشهدٍ
وأصبحَ فينا حائراً ذا ضلالةٍ

وهى محاوره بديعة بينه وبين محبوبته رمز بها إلى حبه الربانى ، فمن يجب الذات العلية يفقد قلبه ولا يصبح له مطمع حقيقى فى وصال ولا فى زورة يقتطف فيها ثمار المني وينهل معها من الماء ما يطفى ظمأه إلا إن غاب عن كل مشهد فى الوجود واقتحم حياض الردى لايبالى ، وحتى إن فعل فسيصبح حيران ضالاً الطريق يواصل من بعيد ويهجر من قريب . ومن قوله يشكو آلامه وعذابه فى حبه الإلهى .

بقلبي منهم حرقُ لها الأحشاء تحترقُ
ولا وصلٌ ولا هجرٌ ولا نومٌ ولا أرقُ
فليتهم وقد قطعوا ولم يُبقوا علىَّ بقوا
فأنفى فى محبتهم وريحُ محبتى عبقُ
كمثل الشمع يُمتنع من يناديه ويمحقُ

فأحشاؤه تحترق ، ولا وصل ولا هجر ، ولا يأس ولا طمع ، ولا نوم ولا أرق ، ولا صبر ولا جزع ، وإنه ليكونى بنيران هذا الحب مؤملاً - على طريقه الصوفيين - أن تمنحى حواسه وأحاسيسه ، حتى يفنى فناء مطلقاً فى الذات العلية ، فناء ينعدم فيه وجوده البشرى انعداماً تاماً ، كما ينعدم الشمع المضيء ، وينمحق انمحاقاً خالصاً .

الصَّرَصْرِى (١)

هو جمال الدين أبو زكريا يحيى بن يوسف الصَّرَصْرِى ، نسبة إلى صَرَصَر : قرية قريبة من بغداد ، ولد سنة ٥٨٨ وحفظ القرآن واختلف إلى دروس العلماء والفقهاء والمحدثين ، وكان حنبلياً ، ويصفه ابن تغرى بردى فى كتابه النجوم الزاهرة بالإمام الأديب الربانى ، ويقول كان من العلماء الفضلاء الزهاد العبّاد ، كانت له اليد الطولى فى النظم وشعره فى غاية الجودة ، ويقول الصفدى عنه « صاحب المدائح النبوية السائرة فى الآفاق ، ولا أعلم

(١) انظر فى ترجمة الصرصرى ومدائحه النبوية ذيل مرآة الزمان للقطب اليونى (طبع حيدر آباد) ٢٥٧/١ - والشذرات ٢٨٤/٥ . ٩٦/٧ والذيل على طبقات الخنابلة لابن رجب ٣٣٢ ونكت الحميان للصفدى ص ٣٠٨ والنجوم الزاهرة

شاعرا أكثر من مدائح النبي ﷺ أشعر منه ، وشعره طبقة عليا . . يدخل شعره في ثمان مجلدات وكله جيد» ويقول القطب اليوناني وابن تغري بردي : إن مدائحه في النبي ﷺ تقارب عشرين مجلدا . ولا يزال الديوان غير منشور وفي دار الكتب المصرية مخطوطة منه . ويذكر الصفدي أن بين مدائحه النبوية قصيدة التزم في كل حرف منها ظاءً وثانية التزم في كل حرف منها ضادا وثالثة التزم في كل حرف منها زايا ، وبالمثل بقية الحروف الصعبة ، وقصيدة كل بيت منها يشتمل على حروف المعجم أو بعبارة أخرى الحروف الهجائية يقول الصفدي : وهذا دليل القدرة والاطلاع والتمكن .

والصرصرى في المدائح النبوية يعرض السيرة النبوية العطرة مع بيان معجزات الرسول عليه السلام وانتصاراته على أعدائه ويشيد بصحابته وخدماتهم للإسلام وفي مقدمتهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ، ويتوّه بزوجاته أمهات المؤمنين وفي مقدمتهم السيدة خديجة والسيدة عائشة والسيدة حفصة . وهو يترأى في نبوياته سنياً حنبلياً حتى ليعرض في بعضها لمديح ابن حنبل وأتباعه ، ويروى له ابن تغري بردي أبياتا من هزمية نبوية يقول فيها :
يا هلال السرور يا قرّ الأنس سر ونجم الهدى وشمس البهاء
يا ربيع القلوب يا قرّة العيّن من وباب الإحسان والنعماء

وهو يصدر في القصيدة عن محبة للرسول عليه السلام شغفت قلبه ، حتى ليراه كل جمال في الوجود فهو الهلال والقمر والنجم والشمس والربيع وقرّة العيون ومسرة النفوس وباب الإحسان والعطاء وكل نعماء ، ويروى له الصفدي قطعة طويلة من مدحة خائية يقول في تضاعيفها :

يا خاتم الرُّسل الكرام وفاتح الـ خيرات يا مُتواضعا شَمّاخا
يا مَنْ رَسَتْ وسمت قواعِدُ دينه وبه هَوَى أَسُ الضلال وساخا
يا خير مَنْ شَدَّ الرِّحالَ لقصده حادى المطى وفي هواه أناخا
عَطْفًا على عَبْدٍ تعلقَ حَبْكُم طفلا وفي صدقِ المحبة شاخا

وهو يكثر من المناجاة للرسول عليه السلام مستعطفا ومتشفعا به . ويبدو من القطعة الطويلة من أشعاره التي رواها القطب اليوناني أنه كان يصدر أحيانا عن نظرية الحقيقة الحمديه المعروفة ، إذ ذهب إلى أزلية وجود الرسول وأنه مبدأ الوجود ومركزه . وليس في يدنا الديوان لنحكم على الصرصرى حكما دقيقا في هذا الجانب غير أن هناك بعض إشعاكات من الفكرة نلتقي بها عند اليوناني مثل قول الصرصرى عن الرسول :

هو سابق الأعيان إذ كُتِبَ اسْمُهُ بالعرش ثم استودع الألواح
 فإذا كان قد أراد بسبقه الأعيان أن نوره يسبق الموجودات جميعاً من قبل أن تخلق
 أو تخرج إلى الوجود فإنه يكون مستمداً حينئذ من نظرية الحقيقة المحمدية ، وبالمثل ما نجد
 عنده من الحديث عن قدم نور الرسول عليه السلام ، وأنه تنقل في صلب آدم والأنبياء من
 بعده ، إذ يقول :

حَلَلَتْ صُلْبَ أَيْنَا عِنْدَ مَهْبَطِهِ وَصُلْبَ نُوحٍ وَقَدْ غَشَى الْوَرَى الزَّيْدُ^(١)
 وَكُنْتُ فِي صُلْبِ إِبْرَاهِيمَ مُسْتَرَا وَنَارُ نُمُرُودَ أَشَقَى الْخَلْقِ تَبْقَدُ^(٢)
 وَحَازَ نوركَ إِسْمَاعِيلُ يُودِعُهُ أَبْنَاءُ الْعُرِّ حَتَّى حَازَهُ أُودُ^(٣)

ويعضى الصرصرى فيذكر أن عدنان نال بهذا النور المتزلة الرفيعة ، وما زال النور يتنقل
 حتى انعقد به على رأس هاشم إكليل فخر لا يشبهه إكليل . واتصل النور بعبد المطلب
 وابنه عبد الله ، ولم تلبث أضواء النور أن انبثقت في المشارق والمغرب ..
 وكانت وفاة الصرصرى سنة ٦٥٦ دخل عليه التتار في اكتساحهم لبغداد ، وكان
 ضريرا ، فطعن بعكازه يظن واحد منهم فقتله ، وقتل شهيدا .



شعراء الفلسفة والشعر التعليمي .

يكثُر الشعر على ألسنة المتفلسفة منذ الكِنْدِي ، وفي الكتب الخاصة بتراجمهم من ذلك
 أسراب غير قليلة ، وكثيرا ما كانوا ينظمون بعض معارفهم الفلسفية أو الطبية . وتلقانا في
 كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أَصْبِيْعَةَ بعض وصايا طبية طريفة^(٤) ،
 وكثيرا ما كانوا يعرضون للنفس والجسم والعلاقة بينهما في الحياة وبعد الممات ، على شاكلة
 ما أنشده أبو النقيس^(٥) أحد متفلسفة القرن الرابع الهجري :

فِي النَّفْسِ وَالْجِسْمِ إِنْ فَكَّرْتَ مَعْتَبِرٌ بَلْ دُونَ ذَلِكَ ضَلَّ الرَّأْيُ وَالْفِكْرُ
 وَحَارَ كُلُّ لَبِيبٍ فِي اتِّحَادِهِمَا وَتَلَكْ عَيْنٌ وَهَذَا حِكْمَةُ الْأَثَرِ

(١) غشى الورى الزيد : يشير إلى الطوفان المشهور (٤) ابن أبي أصيبعة ص ٣٩٠ .

زمن نوح عليه السلام . (٥) صوان الحكمة لأبي سليمان المنطقي السجستاني

(٢) الفردوس : الملك الوثنى الذى ألقى بإبراهيم الخليل (بتحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوى - طبع طهران)

في النار فكانت عليه برداً وسلاماً . ص ٣٥٩ .

(٣) أود : أبو قبيلة عربية ، رمزه إلى العرب .

يَا لَيْتَ شَعْرِي إِذَا الْأَبْدَانُ أَضْمَرَهَا يَدُ الْبَلْبَى وَحَوَاهَا التُّرْبُ وَالْمَدَرُ
 هَلْ لِلنَّفُوسِ التَّفَاتُ نَحْوَ عَالِمِهَا كَمَا تَلَفَّتْ نَحْوَ الْمَرْكَزِ الْحَجَرُ
 لِيَحْصَلَ الْفَوْزُ فِي دَارِ الْخُلُودِ لَهَا وَتَنْتَفِي دُونَهَا الْآفَاتُ وَالْغَيْرُ
 أَمْ تَضْمَحَلُّ كَمَا قَدْ بَانَ هَيْكَلُهَا وَلَا يَحْسُ لَهَا وَرْدٌ وَلَا صَدْرُ
 هَذَا الَّذِي صَدَيْتَ مِنْهُ خَوَاطِرُنَا وَلَيْسَ يَحْلُو صَدَاهَا الْعِلْمُ وَالْحَبْرُ

والآيات تعرض مشكلة خلود النفس بعد الموت ، فهل تنفى كما يفنى الجسد ، أو تنفصل عنه إلى عالمها : عالم الخلود ، وهي مشكلة حارت فيها من قديم العقول ، فهذا الجسم مادي محسوس يفنى بموت صاحبه ، وهذه لا تحس ولا ترى إلا بأثرها ويبث الحياة في الجسم ، حتى إذا فارقت انتقل إلى عالم العدم والفناء ، فهل يكون مصيرها نفس مصيره ، أو أنها تحيا حياة جديدة خالدة في الملا الأعلى . إنها مشكلة محيرة في رأى أبى النفيس يطبق عليها ظلام غامر لا يرفعه علم ولا خبرة ، والآيات تمضى فتجعل علم الحقيقة بذلك للواحد الأحد . وإذا تصفحنا كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة وجدنا به متفلسفين عراقيين كثيرين يجيدون نظم الشعر ، مثل ابن التلميذ ^(١) المتوفى سنة ٥٦٠ ومن شعره في ابنه سعيد :

حُبِّي سَعِيداً جَوْهَرٌ ثَابِتٌ وَحُبُّهُ لِي عَرَضٌ زَائِلٌ
 يَوْجُهُاتِي السَّتُّ مَشْغُولَةٌ وَهُوَ إِلَى غَيْرِي بِهَا مَائِلٌ

والجهات الست هي اليمين واليسار والأمام والخلف والأعلى والأسفل ، يريد أنه مشغوله بابنه بكل كيانه وكل عواطفه ومشاعره ، وقد جعل حبه له جوهراً ثابتاً بينما حب سعيد ابنه له عرض زائل ، ومن قوله :

كَانَتْ بُلْهَنِيَّةُ الشَّيْبَةِ سَكْرَةً فَصَحُوتُ وَاسْتَأْنَفْتُ سِيرَةَ مُجْمِلٍ
 وَقَعَدْتُ أَرْتَقِبُ الْفَنَاءَ كَرَائِبٍ عَرَفَ الْمَحَلَّ فَبَاتَ دُونَ الْمَتَرَلِ

والصورة في البيتين بدیعة ، فقد صحا من سكرة الشباب واستأنف سيرة معتدل فاضل ، وقعد ينتظر دوره ومماته ، وكأنما هو راكب يعرف منزله وبيته ودونه بقليل ، ولا بد من الوصول . وكان ابن التلميذ يكثر من الشعر ومثله البديع الإصطراحي وهبة الله ابن الفضل ومحمد بن الجملی المعروف بالعنتری وابن هبل .

(١) انظر في ابن التلميذ وشعره معجم الأدياء ٦٩/٦ .

٢٧٦/١٩ وابن أبى أصيبعة ص ٣٤٩ وابن خلکان

ومرّ بنا في كتاب العصر العباسي الأول كيف أن كثيرين من شعراء بغداد عنوا باستحداث نظم شعري جديد هو الشعر التعليمي ، في مقدمتهم أبان بن عبد الحميد الذي ترجم كليله ودمنة شعرا ونظم قصائد طويلة في الفقه والمنطق والتاريخ ومبدأ الخلق . ويستمر هذا النمط الجديد في العصر العباسي الثاني على لسان ابن الجهم وابن المعتز وابن دُرَيْد ، حتى إذا كنا في هذا العصر اتسعت موجهه وشملت جميع أنواع المعارف والعلوم . ومرّ بنا في ترجمة ابن السراج أنه نظم أربعة كتب فقهية . ويذكر ابن الجزري في كتابه طبقات القراء أن أبا الخطاب بن الجراح على بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٤٩٧ نظم كتابا في القراءات ^(١) ، ونظم الحريري صاحب المقامات ملحّة الإعراب في النحو وأبوابه وقواعده وهي مطبوعة . ونظم ابن أبي الحديد فصيح ثعلب وهو مطبوع ، ونظم فخر الدين بن الفصيح مدرس العربية في المستنصرية المتوفى سنة ٧٥٥ كتاب الكثر في الفقه والسراجية في الفرائض وقصيدة طويلة في القراءات ^(٢) ، وهو باب يطول ويتسع إن نحن حاولنا حصر ما نظم من العلوم والمعارف على مرّ الحقب لهذا العصر ، ونقف قليلاً عند شاعر متفلسف وشاعر تعليمي ، وهما على الترتيب ابن الشَّيْل البغدادي وابن الهَبَّارية .

ابن الشَّيْل البغدادي ^(٣)

هو أبو علي الحسين بن عبد الله بن يوسف بن أحمد بن الشَّيْل ، مولده ومنشؤه ببغداد وبها توفي سنة ٤٧٤ ومن المؤكد أنه اختلف إلى مجالس المتفلسفين في زمنه ، من أمثال يحيى ابن عدى ، وأخذ عنهم كل ما كانوا يعرفونه من فلسفة وطب وفلك وتنجيم ، ويقول ياقوت : « كان متميزا بالحكمة والفلسفة خبيرا بصناعة الطب أديبا فاضلا وشاعرا مجيدا . » وهو صاحب القصيدة الرائية التي نسبت إلى الشيخ الرئيس ابن سينا وليست له ، وقد دلت على علو كعبه في الحكمة والاطلاع على مكنوناتها وقد سارت بها الركبان ، وتداولتها الرواة « وهو يستلها بقوله :

بِرَبِّكَ أَيُّهَا الْفَلَكَ الْمُدَّارُ أَقْصَدُ ذَا الْمَسِيرِ أَمْ اضْطَرَّارُ
مَدَارُكَ قُلْ لَنَا فِي أَيْ شَيْءٍ فَنِي أَفْهَامِنَا مِنْكَ أَنْبَهَارُ

-
- (١) غاية النهاية في طبقات القراء ٥٤٨/١ .
 (٢) النجوم الزاهرة ٢٧٧/١٠ والعزاي ٣٢٧/١
 (٣) انظر في ترجمة ابن الشَّيْل وشعره الدمية ٣٥٢/١ ومعجم الأدباء ٢٣/١٠ وابن أبي أصيبعة ٣٣٣ . وفوات

الوفيات ٣٩٣/٢ وسماه محمد بن الحسن بن عبد الله
 ابن الشَّيْل وذكر أن وفاته كانت في سنة ٤٧٣ وراجع
 الوافي بالوفيات ١١/٣ .

وفيك نرى الفضاء وهل فضاءً سوى هذا الفضاء به تُدارُ
وعندك تُرْفَعُ الأرواحُ أم هل مع الأجساد يُدْرِكُها البوارُ
وموجٌ ذى المجرة أم فرندٌ على لُجَجِ الدروع له مدارُ
وطوقٌ للنجوم إذا تبدى هلاكٌ أم يدٌ فيها سوارُ
وأفلاذٌ نجومك أم حبابٌ تولّف بينه لُجَجُ غزارُ
وتُنشَرُ فى الفضاء ليلاً وتُطوى نهارة مثلاً يُطوى الإزارُ

ومعروف أن من الفلاسفة من كانوا يذهبون إلى أن العالم يديره الفلك دورة مقصودة له ، وكان هناك من يذهبون إلى أن للكواكب تأثيراً بعيداً فى حياة الناس وكل أحوال العالم . وواضح أن ابن الشبل يصور حيرة لا قرار لها حول الفلك وحركته ، فهل هى اضطرارية من قبل الذات العلية أو هى اختيارية ، ويتساءل فى أى شىء مداره وحركته . وهل تُرْفَعُ الأرواح إلى عالمه العلوى أو تنفى مع الأجساد فى العالم السفلى ، وهذه المجرة التى تتدفق ليلاً فى السماء بالنور هل هى موج من الأضواء كموج البحر أو هى أثر تموجات ضوئية تُلَمَحُ كما يلمح تموج الضوء فى صفحة الفرند أو السيف ، وهل الهلال طوق معلق للنجوم أو سوار يلمع فى يد على صفحة السماء ، والنجوم هل هى أفلاذ وأرواح أو هى حباب طاف على سطح السماء كحباب الماء ، إنها تُنشَرُ ليلاً وتُطوى نهارة . فما أعظم ذلك من لغز كبير ، بل ألغاز كبيرة ، يقف الإنسان إزاءها مبهوتا يتملكه الدهش وتملكه الحيرة ، حيرة يضل بين لججها ولا يمكنه أن يرسو على شاطئ ، لأن أحداً لا يملك الجواب ولا يعرفه ، ويمضى ابن الشبل فى عرض هذه الألغاز :

ودهرٌ ينثرُ الأعمارَ نثرًا كما للوردِ فى الروض انتشارُ
ودنيا كلما وضعتُ جنينًا غَذَتْهُ من نوائها ظُورُ^(١)
هى العشواء ما خَبَطْتُ هَشِيمٌ هى العجماء ما جَرَحَتْ جَبَارُ^(٢)
فمن يومٍ بلا أمسٍ ويومٍ بغير غدٍ إليه بنا يُسارُ

فهذا الدهر . يُسْقَطُ الأعمار كما تَسْقَطُ الورود فى الروض وتبدل وتفارقها النظرة والحياة ، وهذه الدنيا كلما وضعت جنينا لم تُرْضعه ، بل تركته لظُور أو مرضعة ترضعه النوائب والخطوب ، وما الدنيا ؟ إنها عشواء لا تبصر ، وكل ما تحبّطه من الأنفس يصبح هشيما ، إنها لعجماء خرساء كل ما تجرحه يُهْدَرُ ولا يُصْلَحُ أبداً . وما الحياة فى رأى ابن الشبل إلا يوم بدون أمس يسبقه ويوم بدون غد يلحقه ، إنها مأساة كبرى ، سببها ذنب آدم

(٢) جبار : هدر لا قصاص فيه ولا غم .

(١) ظُور : المرضعة لابن غيرها .

وعصيانه ربه وأكله من الشجرة . فأخرج من الفردوس ثم أهبط إلى الأرض ، ويصور ذلك ابن الشبل قائلا :

لقد بلغ العدو بنا مناه وحلّ بآدم وبنا الصغار^(١)
فبالك أكله ما زال منها علينا نعمة وعليه عار
نُعاقب في الظهور وما ولدنا ويُدبِح في حشّا الأمّ الحوَار^(٢)
ونخرج كارهين كما دخلنا خروج الضبّ أخرجه الوجار^(٣)
وكان وجودنا خيراً لو أنا نُخَيِّر قبله أو نستشار
أهذا الداء ليس له دواء وهذا الكسر ليس له انجبار

وهو يقصد بالعدو إبليس وأنه بلغ في بني الإنسان كل مناه من الغواية والضلال فحلّ بآدم وبهم الهوان والصغار ، فيالها أكلة إثم وياله ذنب جرم ! . ويعود ابن الشبل إلى أساه وحزنه على أبناء جنسه ، فقد يعاقبون وهم أجنة في أحشاء أمهاتهم فيموتون ، ومن يولد وتمتد به الحياة يخرج منها كرها خروج الضبّ من جحره . وهكذا نجى ونخرج دون اختيار ، وإن هذه الحياة كلها بأسرارها وأغازها لداء يعز دواؤه ، وهذا الموت إنه لكسر لا يمكن انجباره . ويمضي فيتحدث عن انقضاء الحياة الدنيا وتحطمها كما يصور ذلك القرآن الكريم إذ تتكور الشمس وتتناثر الكواكب وتنفطر السموات وتذهل كل مرضعة عن ابنها وتسير الجبال وتسجر البحار ، ويقول إن في ذلك كله لعبرة وعظة لأولى الأبواب . وله مرثية بديعة في أخيه أحمد يقول في تضاعيفها :

يا أخى عاد بعدك الماء سماً وسموماً ذاك النسيم الرُخَاء
كيف أرجو شفاء ما بي وما بي دون سُكْنَى في ثراك شفاء
شطر نفسي دفت والشطر باق يتمنى ومن مناه الفناء
إن تكن قدّمته أبدى المنايا فإلى السابقين تمضي البطاء
إنما الناس قادمٌ إثر ماضٍ بدء قومٍ للآخرين انتهاء

والمرثية كلها بكاء وأنين ، وتفكير في الموت ، موت الأحباب واندلاع الحزن بعدهم والبقاء ، مع ما يخلّفون من غصص تعترض بالشجي في الخلق . ويقول إنما نحن بين ظفر وناب من خطوب كأنها سباع ضارية ، ويأسى للإنسان وغدر الدنيا به واستردادها في المساء ما وهبته في الصباح ، وكأن الإنسان يعيش في حلم أو كأنما يعيش بدون عقل ،

(١) الصغار : الذل والهوان . (٢) الحوَار : ولد الناقة لحظة وضعه ويريد الجنين . (٣) الوجار : جحر الضب وغيره . والضب : من جنس الزواحف ، يكثر في صحراء الجزيرة العربية .

فليست تُعَقِّل الدنيا إزاء هذا الفساد الذى يعم كل شىء فى الكون من أحياء وغير أحياء . وفى الحق أن الفلسفة عمقت تفكيره ، وقد جمع إليها شاعرية خصبة وحسّاً دقيقاً مرهفاً .

ابن الهَبَّارِيَّة^(١)

هو أبو يَعْلَى محمد بن محمد بن صالح بن الهَبَّارِيَّة العباسى ، نسب إلى هَبَّار جده لأمه ، ولد ونشأ ببغداد ، وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، وكان خيىء اللسان ، فلم يكذب يسلم من هجائه أحد ، وفيه يقول العماد الأصبهاني : « من شعراء نظام الملك (وزير ألب أرسلان وابنه ملكشاه) غلب على شعره الهجاء والمزل والسخف ، وسبَّك فى قالب ابن الحجاج وسلك أسلوبه وفاقه فى الخلاعة والمجون ، والتنظيف من شعره فى نهاية الحسن » ويقول ابن تغرى بردى : « كان فيه إقدام بالهجو على أرباب المناصب » . ومرت بنا فى حديثنا عن الهجاء فى الفصل السابق إشارة إلى قصيدة له فى هجاء أرباب الدولة فى عهد ملكشاه السلجوقى . وحتى راعيه نظام الملك لم يسلم من لسانه ، ويقال إنه حين سمع هجاءه له أمر بأن يُصرف رسمه أو راتبه مضاعفاً ، وعُدَّت تلك مئةً من نظام الملك دالةً على مكارم أخلاقه وسعة حلمه . وأشعاره مليئة بالهجو إلى حد الإقذاع ، حتى ليهجو الإنسانية جميعاً قائلاً :

خُذْ جملةَ البُلُوْى ودَعْ تفصيلها ما فى البرية كلُّها إنسانُ

وجعلته صلته بنظام الملك يقيم بجواره مدة طويلة فى أصبهان عاصمة ألب أرسلان وملكشاه ، ويبدو أن مقامه لم يستمر بها طويلاً بعد وفاة نظام الملك سنة ٤٨٥ . ولم يعد إلى بغداد ، بل اتجه إلى كرمان وأقام بها إلى أن توفى سنة ٥٠٤ .

ولسنا نريد الحديث عن ابن الهبارية وهجائه ومدىحه ، وإنما نريد الحديث عن شعره التعليمى فقد نهض بعملين كبيرين فيه : أوَّلها نظمُه لقصص كليلة ودمنة ، وقد سماه « نتائج الفطنة فى نظم كليلة ودمنة » وهو على غرار نظم أبان من وزن الرجز المزدوج ، فكل بيت فيه يتفق شطراهما فى قافية واحدة . وفى فواتحه ما يدل على أنه نظمُه فى كرمان ، وقد نوه بنظم أبان للقصص ، وأبان يتفوق عليه فى جودة شعره وإن كان عمله سقط من يد الزمن إلا ما رواه منه الصولى فى ترجمته له بكتابه الأوراق . ونتائج الفطنة مطبوع فى بومباى من قديم .

(١) انظر فى ترجمة ابن الهبارية وأشعاره كتاب خريدة
القصر (قسم المراق) ٧٠/٢ وابن خلكان ٤٥٣/٤
والنجوم الزاهرة ٢١٠/٥ والواق ١٣٠/١ ولسان الميزان
٣٦٧/٥ والشذرات ٢٤/٤ .

والعمل الثاني من شعره التعليمي ديوان الصادح والباغم ، والصادح : رافع صوته بالطرب والباغم خافض الصوت في لين . والديوان أراجيز قصصية مزدوجة ، أو قل كثرت قصصٌ ثم يليها وعظ خلق وحكم متعاقبة . وقد طُبِع الديوان في القاهرة وبيروت ولكن في الهند . وهو يستهله بالحمد لله والصلاة على رسوله ﷺ ، ويقول :

هذا كتابٌ فيه علمٌ وأدبٌ يفوق أنواع القريض والخطبِ
عملتهُ لسيد الملوكِ وموئل الملهوف والصُّلوكِ
فجاء مثل الذهب المسبوكِ سلكتُ نهجاً ليس بالمسبوكِ
وضعتهُ مخترعاً معناه للملك ما خاب مَنْ رجاه

ويصرح باسم الملك وهو صدقة بن منصور الأسدي صاحب الحلة المتوفى سنة ٥٠١ . وقد مضى يمدحه طويلاً ، حتى إذا تمَّ الديوان سَّيره إليه من كَرَّمان مع ولده فأجزل صلته وأسنى جائزته . ويمضى ابن الهبارية في الديوان بعد تقديمه لصدقة ومدحها فيذكر مناظرة بين هندي وفارسي استمع إليها في أحد أسفاره ، وفيها يفتخر كل منهما لوطنه ، أما الهندي فافتخر باختراع بلاده للشطرنج ووضعها لكليلة ودمنة ، وأما الفارسي فافتخر باختراع بلاده للترد . وتتوالى القصص ، وقليل منها الذي يشبه كليلة ودمنة في جريانه على ألسنة الحيوانات والطير . ونقرأ قصة الناسك واللص الفاتك ، والبعير والجمال والتاجر ، وامرأة الراعي ، وامرأة التاجر ، والذئب والغزالة ، إلى غير ذلك من قصص تعليمية أراد بها ابن الهبارية العظة والعبرة . غير أن هذا الصوت القصصي في الديوان لا يلبث أن ينقطع ، ويحل محله صوت آخر ، ليس فيه شيء من القصص ، إذ يتحول ابن الهبارية مريباً يقدم النصائح في السياسة ومعاملة الناس وفي الزهد وعلو الهمة والنهي عن الظلم والأمر بالعدل ، وكأن ابن الهبارية نفسه فقد إيمانه بعمله القصصي الأدبي ، ولعل ذلك ما جعل الأديباء بعده ينصرفون عن مجاراته في هذا العمل الفني ، وكان حرياً أن تأخذ القصص مجرى كبيراً في الشعر العربي ، غير أن النموذج الذي وضعه ابن الهبارية كان من الضعف - في رأيي - بحيث لم يمهّد تمهيداً حسناً لهذا الاتجاه الكبير . ونراه يختم الديوان بقوله :

هذا كتابٌ حسنٌ تحار فيه القِطَنُ
أنفقتُ فيه مُدَّةَ عشر سنين عِدَّةَ
بيوئته ألفانٍ جميعها معاني

ولعل ابن الهبارية بالغ في قصة السنوات العشر ، ومع ذلك كله لا بد أن نبقى له على

شئ من الإحسان ، فقد كانت ملكته الشعرية خصبة ، وساق له العمد وابن خلكان كثيرا من الأشعار البديعة ، وحقا ليست من الأشعار التعليمية ، ولكنها تدل على براعته الشعرية .

٥

شعراء شعبيون

قد يُظنُّ من هذا العنوان أن من شعراء العصر من كانوا شعبيين ومن كانوا غير شعبيين ، والحق أن صفة الشعبية هذه تشمل كل فنون الشعر وكثرة الشعراء ، أما فنون الشعر فإنها جميعا كانت تصوِّر حياة الشعب ، فالمديح يصوِّر انتصاراته ويصور مطامحه في الحاكم العادل ، ويصور المهجاء الأخلاق الذميمة التي يرى الشعب تنحيها عن المجتمع وأفراده . وشعر الغزل كان يصوِّر في كثير من جوانبه العلاقة الخالدة بين الرجل والمرأة ، بينما شعر الزهد كان يصور من بعض جوانبه حياة الشظف والحرمان ، وحتى شعر اللهو كان يصور أيضا من بعض جوانبه قُصْف الشعب في أعياده .

فليس هناك انفصال بين فنون الشعر العربي والشعب ، وكذلك ليس هناك انفصال بين الشعراء والشعب ، فقد كان جمهورهم من طبقاته الدنيا ، وكانوا يحملون في صدورهم أحاسيسها ومشاعرها ، ويصدرون عنها في أشعارهم . ولابد أن نلاحظ أنه كانت هناك عوامل مهمة عملت على وصل الشعر العربي بشعوبه في بغداد وغير بغداد وفي مقدمتها أن الثقافة كانت عامة ، وكانت حقا للجميع ، إذ كانت تُلقَى في المساجد يوميا ، يلقيها كبار العلماء ، والناس يتحلّقون من حولهم ، وكلُّ يحد ما يريد من لغة ونحو ومن فقه ومن قراءات ومن حديث نبوي ومن دروس أدبية يُروى فيها الشعر ويعرض العلماء لما فيه من فنون البلاغة والنقد .

لم تكن هناك حواجز ولا أسوار تفصل بين أي فرد من أفراد الشعب وبين الغذاء بكل ما يريد من ألوان الثقافات شعرا وغير شعر . وقد أتاح ذلك لكثيرين في مراحل متأخرة من حياتهم أن يصبحوا علماء في هذا الفن أو ذاك . ولم يكن يُشترطُ فيمن يحضّر حلقات العلماء والأدباء أي شرط ، ولذلك كان يحضرها كثير من الأميين ، وأتاح ذلك لفر منهم أن يصبحوا شعراء . ومن يرجع إلى كتب التراجم يصادفه من حين إلى آخر شاعر أمي أو شاعر من أصحاب الحرف والصناعات ، نذكر منهم الخباز الموصلی ، وله ترجمة في كتاب

اليثيمة^(١) للثعالبي ، وفيه يقول : « من عجيب شأنه أنه كان أميا ، وشعره كله ملح وتحف وغرر وطرف » . وانتظامه في اليثيمة يدل على أنه كان من شعراء القرن الرابع للهجرة ، وقد أشار إلى أميته في بعض شعره قائلا لبعض خصومه :

بالغت في شتمى وفي ذمى وما خشيت الشاعر الأمي
جربت في نفسك سُمًا فما أحمدت تجريك للسم

وكان يحفظ القرآن الكريم ، فلقببس من آياته مرارا وتكرارا ، وكأنما جعل ذلك خاصة فنية له تميزه من نظرائه ، كقوله متغزلا :

كأن يميني حين حاولت بسطها لتوديع إلى والهوى يذرف الدُمعا
يمين ابن عمران وقد حالت العصا وقد جعلت تلك العصا حية تسعى
وقائلة هل تملك الصبر بعدهم فقلت لها : لا (والذي أخرج المرعى)

وهو في البيت الثاني يقتبس قوله تعالى في سورة طه عن عصا موسى بن عمران عليه السلام حين ألقاها فحالت أو تحولت : « فإذا هي حية تسعى » واقتبس في البيت الثالث آية سورة الأعلى : (والذي أخرج المرعى) . ويقول الثعالبي إنه « كان يتشعب ويتمثل في شعره بما يدل على مذهبه » وينشد طائفة من أشعاره الشيعية . ويلقانا في الخريدة شاعر أمي ثان هو نباته^(٢) الأعور الأبري ، وكان هجاء خبيث اللسان شغوبا بهجوا أحد العلويين وفيه يقول :

شريف أصله أصل حميد ولكن فعله غير الحميد
ولم يخلق رب العرش إلا لتنعطف القلوب على يزيد

وهو يريد يزيد بن معاوية عدو العلويين والشيعية . ويلقانا كثيرون من أصحاب الحرف يشغفون بالشعر ويصادف فيهم ملكات خصبة فيصبحون من شعرائه النابهن مثل السري الرفاء الذي تقدمت ترجمته في الفصل الماضي ، ومثل الزاهي أبي القاسم علي بن إسحق بن خلف البغدادى وكان قطانا وكانت دكانه في قطيعة الربيع ، وقد عرضنا له بين شعراء التشيع في الفصل الماضي ، وأنشد له ابن خلكان البيتين التاليين المعروفين في كتب البلاغة وفيهما يصف البنفسج^(٣) :

ولا زورديّة تزهو بزرقها بين الرياض على زرق اليواقيت

(١) انظر ترجمة الخباز البلدى وأشعاره في اليثيمة (قسم الشام) ٣٠٦/٢ .

(٢) وقد حقق شعره ونشره ببغداد صبيح رديف . (٣) ابن خلكان ٣٧٢/٣ .

(٢) راجع ترجمة نباتة الأعور وأشعاره في الخريدة

كأنها فوق قاماتٍ ضَعُفْنَ بها أوائلُ النارِ في أطرافِ كِبَرِيَةٍ
وَقَرْنُ البنفسجِ الذي ترفُّ أوراقه الرطبة ويترقق الماء في غصنه بلهب نارٍ في أعواد
كِبَرِيَةٍ جافة يدل على قدرة خيالية بديعة . وما أنشده له ابن خلكان قوله :
ويبيضُ بالحاظِ العيونَ كأنما هَزَزْنَ سيوفاً واستَلَلْنَ خَنَاجِرا
سَفَرْنَ بدوراً وانتَقَيْنَ أهْلَةً ومِسْنَ غصونا والتَفَتْنَ جَاذِرا^(١)
وأطلعنَ في الأجيادِ بالدرِّ أنجماً جَعَلْنَ لِحَبَاتِ القلوبِ ضُرَائِرا

والتقسيم في البيت الثاني بديع فقد جعلهن حين سفرن عن وجوههن بدورا وحين
انتقبن وظهرت جباههن أهلة ، وحين تبخرن غصونا وحين التفتن جاذر ، وبذلك ومثله
عدُّ شاعراً مبدعاً . ولا ريب في أن مشاركة ذوى الحرف والأمين في شعر العصر دليل قوى
على صلته بالشعب ، فأبناؤه جميعاً يشاركون فيه حتى الأميون الذين لا يقرءون
ولا يكتبون .

ولم تقف مشاركة العامة في الشعر عند هذا الحد ، فقد أخذ يظهر بينهم شعراء
لا ينظمون شعرا فصيحاً ، وإنما ينظمون شعرا ملحونا بلغتهم العامية ، وأخذ ذلك يظهر
بوضوح منذ القرن السادس الهجري ، وخير كتاب يصور هذا الجانب كتاب العاقل الحالى
والمرخص الغالى لصنى الدين الحللى ، وفيه يتحدث صنى الدين بالتفصيل عن الفنون
العامية ، المواليا والزجل والقوما والكان وكان ، ويقول إن الثلاثة الأخيرة ملحونة أبداً ،
أما الموالياً فقد تكون معربة وقد تكون ملحونة ، ويقول إن أول من اخترعها أهل واسط
اقتطعوها من بحر البسيط وجعلوها معربة مثله ، ومعروف أن وزنها « مستفعلن فاعلن
مستفعلن فَعْلُنْ » وهى أربعة شطور بقافية واحدة ، ويقول صنى الدين إن أهل واسط
تغزلوا بها ومدحوا وهجوا ، والجميع معرب ، إلى أن وصل إلى البغادة فلطّفوه ولحنوه
وسلكوا فيه غاية لا تدرى ، ويذكر من أمثلة المواليا المعربة قول الخباز البغدادي في مديح
الصاحب بن الدّباهي (أحد متولّى الخراج فيما يبدو) :

بِكم قُرَى نَهْرٍ عَيْسَى أَصْبَحَتْ كَالْمَدُنِ أَيْ بِأَذِلِّينِ الْقِرَى أَيْ عَاقِرِينَ الْبُدُنِ^(٢)
رَلَوْ تَشَاءُوا بِأَطْرَافِ الرَّمَاحِ اللَّدُنِ صَيَّرْتُمُ الْأَسَدَ تَحْرُثُ فِي مَكَانِ الْفُدُنِ^(٣)

(١) سفرن : كشفن عن وجوههن - انتقبن : لبسن
بلفظ . مسن : تبخرن . الجاذر جمع جؤذر وهو ولد
بقرة الوحشية .
(٢) أى : يا . القرى : الضيافة . البدن : النوق
والبقر التي تذيب قرباناً أو للضيوف .
(٣) اللدن : اللينة : كناية عن حدة قطعها . الفدن .
الثيران .

(٢) أى : يا . القرى : الضيافة . البدن : النوق

ومع أن صنى الدين يعدّ هذه المواليا من الجزل المعرب إلا أنها لم تخل من اللحن كما هو واضح في جزم الفعلين المضارعين « تشاءوا وتحث » . ويتحدث صنى الدين بالتفصيل عن الزجل وظهوره في الأندلس وكبار أعلامه ويطيل في بيان ما يدخله من اللحن عادة أو ضرورة ، ويقول لأهل بغداد خاصة أزجال رقيقة بألفاظ لطيفة على اصطلاح لغتهم وجارى ألسنتهم على قاعدة اللحن المختص بهم ، ويذكر طائفة من زجالي بغداد على رأسها على بن المراغى ، ويذكر مطلع زجل له على هذا النمط :

لما أسرتم فؤادى أطلقتُ دمعى المصُونُ
وصرتُ فيكم أغالى جهدى ولى تُرْخِصُونُ

وواضح أن المطلع غير ملحون . والفن العامى الثالث الذى تحدث عنه صنى الدين فن الكان وكان ، وهو يتكون من أدوار كل دور أربعة شطور ، وتشترك شطور المنظومة الثانية والرابعة بكل دور في قافية واحدة مُرَدَّقة قبل حرف الروى بأحد حروف العلة ودائماً الشطر الأول في كل بيت أطول من الثانى . اخترعه البغداديون كما يقول صنى الدين ثم تداوله الناس في البلاد . ويذكر أنه سُمى بذلك لأن البغداديين أول ما اخترعوه لم ينظموا فيه سوى الحكايات والخرافات ، فكان قائله يحكى ما كان وكان . واتسع طريق النظم فيه على يد كبار الوعاظ من أمثال ابن الجوزى في أواخر القرن السادس وشمس الدين محمد بن أبى بكر بن رشيد صاحب القصائد الوترية وشمس الدين محمد بن أحمد الكوفى في القرن السابع . ويقول صنى الدين إنهم نظموا فيه المواعظ والرفائق والزهديات والأمثال والحكم فتداولها الناس وصارت حتى عصره تُستَحْضَرُ في المذاكرات ويذاكر بها في المحاضرات ، ويُنبَشَد من الكان وكان غزلية موجهة في الطيور ، وفي تضاعيفها :

طَيْرِى الذى كانَ الْفَى لو رِدْتُ مِثْلُو ما حَصَلَ
وهو عَلَى معوِّدٍ وانا عليه معتاد
إذا قلعَ من عندى فما تزال عيني معوِّ
واعْرِفَ مطارو واقعد فى البُرج بالمرصاد

والمنظومة طويلة والشاعر يتخذ لغزله رمزا : طيراً نصب له شبكا فصاده وفرح واتخذهُ إلفاً له . ويمضى فيصور كيف أن طيره أو طائره إذا حطَّ فى بُرجٍ لغيره لا يزال يرقبه ، ومع أنه يعرف من يتزل عندهم كما يعرف جميع رفاقه يساعده ، وحين يأتيه يرضى عنه وينسى خصاله ، ويقول إن الماضى : ماضى الناس جميعا لا يعود . وربما شرد منه أسبوعا بطوله ، ثم أتاه ليلة الجمعة فاستقبله خيراً استقبال . والمنظومة طريفة كما هو واضح .

والفن العامى الرابع القوما ، ويقول صنى الدين إن له وزنن : وزناً مثل الرباعية يتكون من أربعة شطور ، يتحد أولها وثانيها ورابعها فى القافية ويختلف الثالث ، ومعروف أن هذا الوزن يخرج من بحر البسيط ، وأن الشطر فيه إما مستفعلن فعلن وإما مستفعلن فاعلن . أما الوزن الثانى فيقول صنى الدين إن الدور فيه يتكون من ثلاثة شطور أو كما يسميها ثلاثة أقفال مختلفة الوزن متفقة القافية ، والشطر الأول أقصر من الثانى ، والثانى أقصر من الثالث ، ويذكر أن البغداديين اخترعوه فى دولة العباسيين برسم السحور فى شهر رمضان واشتقاق اسمه من قول المسحرين فى آخر كل دور منه : « قوما للسحور » ينهون بذلك ربّ المنزل ويمدحونه ويدعون له ، فأطلق عليه اسم « قوما » وصار علماً له . ويذكر صنى الدين إنه قيل إن أول من اخترعه ابن نقطة برسم الخليفة الناصر (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ) ويعود فيقول : الصحيح أنه اخترع من قبله وكان الناصر يطرب له وجعل لابن نقطة رسماً فى كل سنة وحدث أن توفى وكان له ابن يحسن القوما ، فأخذ أتباع والده فى أول ليلة من ليالى رمضان وتغنّى على مسمع من الناصر :

ياسيد السادات لك بالكرم عادات
أنا بنى ابن نقطة والى تعيش انت مات

فأعجب الخليفة منه هذا الاختصار واستحضره وخلع عليه وفرض له ضعفى ما كان لأبيه . والقوما هنا من الوزن الأول الذى ذكره صنى الدين ، وقد ذكر منه منظومات تحتوى أكثر من عشرين دوراً . ومثل للنوع الثانى من القوما بقوله .
داوى عضالك^(١) بعدنا واترك نضالك بالرغم كان تركك لنا لا بالرضا لك
دام العنا لك إشن ترى فى العشق نالك ما نال احد من بعد أحابو متالك

وينبغى أن نعرف أن هذه الفنون الأربعة العامية لم يكتب لها أن تكون الترجان الدقيق عن مشاعر الشعوب العربية فى بغداد وغير بغداد ، فقد ظلت فى مرتبة دانية ، وظل يُنظر إليها على أنها إنما تصلح للهزل أكثر منها للجد ، وبذلك ظل الصولجان للشعر الفصيح وظل مهوى أفئدة العرب فى كل مكان ، كما ظل ترجاناً صادقاً عن كل ما يأملون ويألمون وكل ما يلهم بهم من ابتهاج وابتئاس ، حتى لنجد أصحاب الكدّية والشحاذة الأدبية يؤثرونه على الشعر العامى ، لما له من تأثير بعيد فى نفوس السامعين ، وتقف قليلاً عند الأحنف العكبرى كبيرهم فى بغداد .

(١) الداء العضال : الذى لا طب له ولا دواء .

الأحنف العكبري^(١)

هو أبو الحسن عقيل بن محمد الملقب بالأحنف العكبري ، ظريف الشعراء المكدين ببغداد وهم شعراء كانوا ينسبون أنفسهم إلى بني ساسان الفارسيين نظرفا ، ويعيشون على الكدبة أو الشحاذة الأدبية ، يطوفون من بلدة إلى بلدة . وفيه يقول الصاحب بن عباد :
« لو أنشدتك ما أنشدنيه الأحنف العكبري لنفسه ، وهو فرد بني ساسان اليوم بمدينة السلام (بغداد) لامتلات عجا من ظرفه وإعجابا بنظمه » . ومن قوله يفتخر بمهنته وما اختاره لنفسه من الكدبة والشحاذة :

ألا إني بحمد الله به في بيت من المجد
ياخواني بني ساسا ن أهل الجد والجد^(٢)
لهم أرض خراسان فقاشان إلى الهند
إلى الروم إلى الزنج إلى البلغار والسند
قطعتنا ذلك التهج بلا سيف ولا غمد
ومن خاف أعاديه بنا في الروع يستعدي

وهو يفتخر بانتسابه إلى هذا البيت الكبير بيت بني ساسان أو بيت الشحاذة الأدبية ويصور تطوافه وتطواف إخوانه الساسانيين ، فقد قطعوا البلدان من خراسان وقاشان في إيران إلى الهند ، ومن أرض الروم والبلغار إلى أرض الزنج والسند ، كل ذلك بدون أى عدا حربية ، لأن أحدا لا يعترضهم ، إذ هم شحاذون لا يملكون شيئا . وتنبه الصاحب بن عباد إلى ما يشير إليه البيت الأخير ، فقال : لهذا البيت معنى بديع : يريد أن ذوى الثروة وأهل الفضل والمروءة إذا وقع أحدهم في أيدي قطاع الطريق وأحب التخلص قال : أنا مكدي (أى لا يملك شروى نقيز) فانظر كيف غاص ، وأبرز هذا المعنى المعتاص . ويشكو الأحنف الفقر وتطوافه في الأرض مرارا في شعره بمثل قوله :

عشت في ذلة وقلة مال واغتراب في معشر أنذال
بالأمانى أقول لا بالمعاني فغداي حلاوة الآمال

وطبيعي أن تمر عليه أوقات رخاء وتعقبها أوقات شدة حين يقل ماله ولا يجد حوله من يسعفه فيشعر بالغرابة ونكدتها ومرارتها وما يداخلها من حرمان ، ويحس كأنه يعيش ويتغذى

(١) انظر في ترجمة الأحنف وأشعاره تاريخ بغداد (٢) الجد بفتح الجيم : الخط .

واليتيمة ١١٧/٣ والنجوم الزاهرة ١٧٣/٤ .

بالآمال ، وقد ضُيِّقَ عليه الخناق . وكثيرا ما يشكو همه ويؤسه وتعاسته حتى ليقول :

العنكبوتُ بَنَتْ بَيْتاً على وهنٍ تأوى إليه ومالى مثلهُ وَطَنُ

والخنفساءُ لها من جنسِها سَكَنُ وليس لى مثلها إلفٌ ولا سَكَنُ

فليس له بَيْتٌ حتى ولا بَيْتٌ واه كبيت العنكبوت ، بيت يجعله يشعر أن له وطناً يأوى

إليه ، فهو شريد ، وحتى الخنفساء لها سَكَنٌ ولها إلفٌ ، وهو لا إلفَ له ولا سَكَنَ . وهذه

الآيات وما يماثلها كان يتخذها وسيلة لتركِّ له القلوب وتُمدُّ إليه الأيدي بالعطاء . وشعره

كشعر أمثاله من هذه الطائفة يخلو من التلميذ والمحسنات البديعية ، إذ هو شعر الطبيعة

والفطرة ولذلك لا يلقانا فيه أى حلية أو زينة . وقد توفى سنة ٣٨٥ . وفى رأى أن شعر

الكُذْبِ والشحاذة الأدبية هبط بعد زمنه ، إذ شغلت مكانه المقاماتُ عند بديع الزمان

والحريرى .

الفصل الخامس

النثر وكتابه

١

٢
تنوع النثر :

رأينا في العصرين العباسي الأول والثاني كيف تنوع النثر تنوعاً واسعاً ، فكان هناك النثر العلمي والنثر الفلسفي والنثر الأدبي ، وكانت هناك المناظرات والمواظع والقصص وكتب الأدب التهذيبي ، وكانت هناك الرسائل الشخصية والسياسية ، وكل هذه الأنواع مضت تزدهر في عصر الدول والإمارات بالعراق وخاصة في القرنين الرابع والخامس للهجرة . ولا نبالغ إذا قلنا إنها كانت أزهى القرون في العصر بالقياس إلى النثر وفنونه ، فقد بلغ العقل العربي كل ما كان يرجى له من نصج ، إذ ظل المترجمون ينقلون إليه قبل ذلك كل ما كان عند الأمم القديمة من معارف ، وظل يتغذى بها وينمو ولم يلبث أن شارك فيها وأصبح للعرب علماءهم ومفلسفهم ، وظل يقطع أشواطاً ومراحل حتى بلغ القمة في مطالع هذا العصر .

وكانت قد بقيت للترجمة بقية ، وهي تدل بوضوح على ما نقوله ، فقد كانت انتقلت من الترجمة الحرفية إلى الترجمة بالمعنى على نحو ما صورنا ذلك في كتاب العصر العباسي الثاني ، وإذا رجعنا إليها وإلى أصحابها في هذا العصر لاحظنا أنهم انتقلوا بها نقلة واسعة نحو العناية بالأداء والصياغة ، حتى لكان المترجمات توضع في العربية ابتداء ، فلا عوج ولا أمت في صيغة ، بل مع الرويق وحسن الأداء ، ونضرب مثلاً للمترجمين عيسى بن زرعة البغدادي المتوفى سنة ٣٩٨ وفيه يقول أبو سليمان المنطقي السجستاني : « هو آخر من يُرْتَضَى نقله لكتب الحكيم أرسططاليس : البسائط والجوامع . . وكتاب جالينوس « منافع الأعضاء وغيره من الكتب » . ويذكر مثلاً لما ترجمه من كلام أرسططاليس على هذا النمط ^(١) :

(١) انظر في الفقرة التالية المترجمة كتاب منتخب صوان الحكمة لأبي سليمان المنطقي السجستاني (طبع طهران) ص ٣٣٣ .

«الإنسانية أفق ، والإنسان متحرك إلى أفقه بالطبع ، ودائر إلى مركزه ، إلا أن يكون مؤوفاً (معلولاً) في طبيعته ، مخلوقاً بأخلاق بهيمة . ومن رفع عصاه عن نفسه ، وألقى حبله على غاربه ، وسيب هواه في مرعاه ، ولم يضبط نفسه عما تدعوه إليه طبيعته ، وكان لئن العريكة لاتباع الشهوات الرديئة ، فقد خرج عن أفقه ، وصار أزدل من البهيمة بسوء إيثاره» .

ولو أننا لم نعرف أن هذه الفقرة مترجمة عن أرسططاليس ما تنبها إلى ذلك لصياغتها العربية المحكمة ، وما يجري فيها من روتق الصياغة الأدبية كما هو واضح في مثل قوله : «ومن رفع عصاه عن نفسه ، وألقى حبله على غاربه ، وسيب هواه في مرعاه» . وهي استعارات وكتابات بيانية . وأرسططاليس في الفقرة يشير إلى ما ذهب إليه من أن الإنسان مكوّن من طبيعة هي البدن وما يتصل به من الملذات ، وهي تصلح وتفسد ، وأيضاً من النفس التي لا تبلى والتي يترقى بها الإنسان ويكمل . وابن زرعة يترجم حقل ، ولكنها ترجمة أشبه بأن تكون من إنشائه ابتداء ، ولذلك تصبح الفقرة ، وكأنها وصية أو نصيحة لواعظ - كما لاحظ أبو سليمان المنطقي السجستاني - يريد بها للإنسان أن يصلح من طبيعته الأمارة بالسوء ولا يستجيب إلى شهواتها ومآربها المادية . ولم يقلها مترجم يعرف العربية فحسب ، بل ترجمها أديب يتذوق أساليب العربية ويفقه دقائقها وخصائصها البيانية . ويشيد ابن أبي أصيبعة في كتابه طبقات الأطباء ببلاغة كثيرين منهم ومن العلماء بالرياضيات والطبيعات ، ويسوق لهم أشعاراً كثيرة .

وشملت هذه الصياغة المحكمة الفلسفة ، ويخيل إلى الإنسان أنها كانت قد أصبحت في القرنين الرابع والخامس للهجرة قوتاً أو غذاء عاماً للشعب ، بحيث لم تقتصر على الطوائف العليا والوسطى في المثقفين ، بل اتسعت حتى احتوت الطوائف الدنيا ، وذكرنا في الفصل الثاني دليلاً قوياً على ذلك هو أن جماعة إخوان الصفا السريّة التي كانت تدعو في البصرة إلى المذهب الإسماعيلي لجأت إلى الفلسفة والعلوم في صنع رسائل اتخذتها وسيلة لنشر هذا المذهب ، ولو أنه استقر في نفسها أن العلوم والفلسفة معاً يرتفعان عن مدارك العامة ما لجأت إلى هذه الوسيلة ولعرفت منذ أول الأمر أنها وسيلة قاصرة فكفت عنها ، أما وقد تمادى إخوان الصفا فيها ومضوا يدرسون رسائلهم في دكاكين الوراقين ببغداد والبصرة فإن ذلك دليل حى على تعلق العامة بمعرفة الفلسفة ، وسرى عما قليل مناظرة بين زعيمهم المقدسى والحريرى في دكان حمزة الوراق بشارع الوراقين في بغداد ، تتناول الأسس

والغايات التي من أجلها كُتبت رسائل إخوان الصفا ، وقد عمل المقدسي ورفيقه زيد بن رفاعه على إذاعتها ونشرها ببغداد .

وأخرى أُلْمِنَا بها في فصل الثقافة وهي تدل على أن الفلسفة أصبحت في القرن الرابع الهجري شائعة مشتركة بين الناس أو قل بين البغداديين ، وهي كثرة المنتديات التي كانت تثار فيها مسائلها ، ومثلنا لذلك بندوة أبي سليمان المنطقي السجستاني ، وذكرنا من كان يؤمها من عُلَمَاءِ المتفلسفة ، وكان وراءهم آخرون دونهم في الرتبة ، يؤمون داره كل يوم . وكان كثيراً ما يُلقَى سؤال وتدور حوله محاوراة كبيرة ، كل متفلسف يرى فيها رأياً يُدلى به ، ثم يكون الرأي الأخير لأبي سليمان ، وكأنه المنارة الهادية . وقد استطاع أحد تلاميذه وهو أبو حيان التوحيدى - كما مرَّ بنا - أن يجمع طائفة كبيرة من هذه المحاورات الفلسفية ، وسماها المقابسات أى المحاورات ، وكأنما ارتضى لها كلمة المقابلة لتدل على أن كل من كان يحضر الندوة ويحاور فيها كان يقتبس من فكر صاحبه . وكأنما استحال بينهم الفكر الفلسفى إلى ما يشبه ناراً كل يقبس منه حسب استطاعته . وقد بلغت المقابسات مائة وستة وستين في نحو أربعمئة صفحة كبيرة ، وهي أشبه بدائرة معارف فلسفية تضم مباحث عميقة في الإلهيات والطبيعيات والنفس والعقل والأخلاق والأدب والبلاغة . ويمكن أن ندخل متفلسفة القرن الرابع في هذه الندوة وغيرها في دائرة الفارابى وتلاميذه ، فقد مضوا جميعاً في إثره يُعَوِّنونَ بالإلهيات وبمنطق أرسطو وبالنفس والعقل متأثرين بنظرية الفيض التي بثَّها الأفلاطونية الحديثة ، وهي ماثوثة في كلام أبي سليمان وتلميذه التَّوَشَّجَانِي ، وقد عرض لها الأخير في المقابلة السادسة والثلاثين ولا نرى أحداً يراجعها مما يدل على إيمانهم بها جميعاً . وفي مواضع كثيرة من المقابسات نرى أبا سليمان وغيره من تلاميذه يرفعون من شأن الدين ، وقد حاول هو وبعض مريديه مراراً وتكراراً أن يدفعوا الفكرة أو النظرية التي قامت عليها رسائل إخوان الصفا ، وهي الوصل بين الفلسفة والشرعة ، كما مر بنا في فصل الثقافة ونقضوها عليهم نقضاً ، وصور أبو حيان في كتابه الإمتاع والمؤانسة ردَّ أبي سليمان عليهم ^(١) ، وهو رد مفحم رائع أوضح فيه أن مرد الشرعة إلى الله والوحى ومرد الفلسفة إلى الرأى والعقل ، ونعرض جانباً من رده لنرى قدرته البيانية ، يقول :

«الشرعة مأخوذة عن الله عزَّ وجلَّ بواسطة السفير بينه وبين الخلق من طريق الوحى وباب المناجاة ، وشهادة الآيات وظهور المعجزات ، على ما يوجبه العقل تارة ، ويجوزُه

(١) الإمتاع والمؤانسة ٢/ ٦ - ١٨ وانظر في أبي سليمان ص ٢٨٥ السابقة .

تارة ، لمصالح عامة متقنة ، ومرشد تامة مبيّنة ، وفي أثنائها مالا سبيل إلى البحث عنه والغوص فيه (كالبحث) ولابد من التسليم للداعى إليه والمنبه عليه ، وهناك يسقط لم ؟ ويبطل كيف ؟ ويزول : هلاً ، ويذهب لو وليت في الريح ، لأن هذه المواد عنها محسومة واعتراضات المعترضين عليها مردودة ، وارتباب المرتابين فيها ضار ، وسكون الساكنين إليها نافع .. وأساسها على الورع والتقوى ، ومنتهاها إلى العبادة وطلب الزلى . ليس فيها حديث النجم في تأثيرات الكواكب وحركات الأفلاك .. ولا حديث صاحب الطبيعة الناظر في آثارها .. ولا فيها حديث المهندس .. ولا فيها حديث المنطقى .. فعلى هذا كيف يسوغ لإخوان الصفا أن ينصبوا من تلقاء أنفسهم دعوة تجمع حقائق الفلسفة في طريق الشريعة .. وكما لم نجد في هذه الأمة من يفزع إلى أصحاب الفلسفة في شيء من دينها ، كذلك أمة عيسى عليه السلام ، وهى النصارى ، وكذلك المجوس .. فأين الدين من الفلسفة ؟ وأين الشيء المأخوذ بالوحي النازل من الشيء المأخوذ بالرأى الزائل ؟ .. وبالجمله النبى فوق الفيلسوف والفيلسوف دون النبى ، وعلى الفيلسوف أن يتبع النبى وليس على النبى أن يتبع الفيلسوف ، لأن النبى مبعوث والفيلسوف مبعوث إليه . ولو كان العقل يُكتفى به لم يكن للوحي فائدة ولا غناء ، على أن منازل الناس متفاوتة فى العقل وأنصاءهم مختلفة فيه ، فلو كنا نستغنى عن الوحي بالعقل كيف كنا نصنع ؟ وليس العقل بأسره لواحد منا وإنما هو لجميع الناس .. والنبى يقول أمّرت وعُلمت وقيل لى وما أقول شيئاً من تلقاء نفسى ، والفيلسوف يقول رأيت ونظرت واستحسنست واستقبحت ، والنبى يقول : معى نور خالق الخلق أمشى بضائه ، وهذا يقول معى نور العقل أهدى به ، والنبى يقول : قال الله تعالى وقال الملكُ ، وهذا يقول قال أفلاطون وسقراط .. » .

وواضح أن أسلحة أبى سليمان من المنطق والتفلسف أسلحة حادة ، فقد فصل بوضوح بين الدين أو الشريعة وبين الفلسفة ، فالدين مرجعه الوحي والفلسفة مرجعها العقل ، والدين مرجعه الله والفلسفة مرجعها آراء الفلاسفة ، وهى تتفاوت وتختلف باختلافهم ، والشريعة مستغنية عن الفلسفة بكل فروعها . والنبى فوق الفيلسوف ، والشريعة تدعو إلى التقوى والورع ولا شأن للفلسفة بذلك . ولعل وصل إخوان الصفا بين الشريعة والفلسفة هو الذى دفع أبى سليمان وغيره من أفراد مدرسته إلى مهاجمة المتكلمين ، لأنهم صدروا فى مباحثهم الكلامية كثيراً عن هذا الوصل وما يتصل به من التوفيق ، وكأن أبى سليمان أحس أنهم هم المسئولون عن هذا العمل المغرض الذى يراد به الدعوة إلى المذهب الإسماعيلى الشيعى الغالى غلوّاً شديداً ، ولذلك مضى يهاجمهم مهاجمة عنيفة - كما نقل عنه أبو حيان

في المقاييسات - قائلاً إنهم يعتمدون على الجدل والمغالطة ومحاولة إسكات الخصم والإيهام مع قلة تأله وسوء ديانة . ومن المؤكد أن وصفهم بقلّة التأله وسوء الديانة فيه مبالغة ، وقد يكون اتفاق له منهم من رأى فيه انحرافاً عن الدين ، وكان ينبغي أن لا يعمّم حكمه . على كل حال إنما أردنا بما اقتبسناه من كلامه عن إخوان الصفا والوصل بين الشريعة والفلسفة أن ندل على أن لغة المتفلسفة في العصر صُيغت بأصابع أدبية واضحة ، إذ يعرف أبو سليمان كيف يصطنع ألفاظه ، وكيف يحرق فيها ترادفاً بديعاً يجعل لوقعها على الآذان جلالاً ، وكيف ينسق عباراته ويأتى بها قصيرة متلاحقة . ونقرأ في المقاييسات قطعاً فلسفية أدبية للكثيرين من تلاميذه ورفاقه مثل النوشجاني الذي نراه يستدل على الحياة بعد الموت على هذا النمط ^(١) :

«إذا كان صنف من أصناف الموجود في حكم المعدم لحساسته ، ونقصه وتهافته ، وفساد طبيعته ، وطموس ضيائه ، وقبح صورته ، وانحفاء بهجته ، وخمود شعاعه ، وفقد تمامه ، وتقطع نظامه ، واستيلاء رذيلته ، وبطلان فضيلته ، فلا تنكر أن يكون في مقابلته ويزائره صنف آخر من المعدم في حكم الموجود لصحة صورته ، ونفاضة جوهره ، وكإل فضيلته ، وظاهر عفته ، وبهاء هيئته ، وغلبة عدالته ، ونقاء سنخه ، وصفاء سوسه ^(٢) ، وطهارة ذاته ، وظاهر زيتته ، ودوام نضرته ، وتناسب جملمته وتفصيله ، وسائر ما لا يحيط القول به . . فإنك متى حويت هذه المعاني . . اكتفتك الخيرات عاجلاً ، والسعادات آجلاً . فتكون حينئذ موجوداً وإن عدمت ، وباقياً وإن فنيته ، وحاصلاً وإن فقدت ، وثابتاً وإن نُفيت ، وحياً وإن مت ، وظاهراً وإن بطنت ، وجلياً وإن خفيت ، وواضحاً وإن أشكلت ، وشاهداً وإن غبت ، وقادراً وإن عجزت . . هنالك تصل إلى غنى بلا قنينة ^(٣) ، وتنطق بلا عبارة ، وتفعل بلا آلة ، وتصيب بلا مشورة ، وتعقل بلا مقدمة ، وتبقى بلا آفة . . وتسعد بلا شوب . إلهية ورثتها من البشرية ، وربوبية وصلت إليها بالعبودية» .

ويمضي النوشجاني فيقول لمنكر الحياة بعد الموت إنك إنما تنكرها حين تنظر إلى شخص في إفسار الحس وقشور البدن مع فساد العقيدة والعكوف على الشهوات المهلكة ، فتقول متى يكون لهذا رجوع وحياة بعد الموت ؟ وكان حرياً به أن يبين هواه ويختار الحق ويؤثر الخير إذن تكون السعادة غايته ، والأبد نعتة ونهايته . وصياغة النوشجاني رائعة بما فيها من

(١) للمقاييسات (طبعة بغداد) : المقاييسات السادسة (٢) السوس والسنخ : الأصل .
والأربعمون وانظر في النوشجاني المقاييسات ٢٩ ، ٣٦ ، (٣) القنينة : ما يكتب من المال ويفتق .

جمال الجرس في الأداء الناشئ عن قصر العبارات وحسن انتخاب الألفاظ وما يجري فيها من ترادف بدیع وقدرة على التناسق في الكلمات والصيغ وسيلانها ، بل تدفقها ، بالفكر الصافي الخالي من الشوائب . وهو ما نقوله إن النثر الفلسفي في هذا العصر التقي بالأدب والتمتع في أثناؤه وعلى حواشيه ، فغدا يروع السمع كما يروع الفكر والذهن .

وطبيعي في هذه الأثناء أن تزدهر المناظرات ، وأن تشيع في كل مجلس وبين العلماء والأدباء ، وقد اشتهر مجلس المهلبي ببعض مناظرات بين الحاتمي والتمتبي على نحو ما يوضح ذلك الحاتمي في رسالته « الموضحة » واشتهر عضد الدولة البويهی بما كان يُعقد من مناظرات بين العلماء في مجالسه ، ويحدثنا القاضي عياض في ترجمته ^(١) للباقلاني عن مناظرته بحضرة عضد الدولة للأحدب رئيس معتزلة بغداد حول تكليف مالا يطاق ، ومناظرته بحضرة أيضاً لأبي إسحق التَّصِينِي رئيس معتزلة البصرة حول رؤية الذات العلية . وكانت المناظرات لاتزال ناشبة بين أصحاب الطب وغيره من علوم الأوائل حتى لنجد طيباً بغدادياً في القرن الخامس الهجري هو ابن بطلان يرحل إلى مصر لمناظرة ابن رضوان الطيب المصري والحوار معه ^(٢) . ومالنا نذهب بعيداً ومتمدناً أو ندوة أبي سليمان المنطقي السجستاني في القرن الرابع الهجري كانت تعج بالحوار والجدال في كل فروع الفلسفة ومسائلها الدقيقة . ولم تكن المناظرات تقتصر على الندوات أو على المساجد ، بل كانت أيضاً تجري في الأسواق وخاصة سوق الوراقين حيث يلتقي أصحاب المذاهب والآراء ، فتتشب بينهم معارك الجدل والمناظرة ، من ذلك المناظرة الطريفة التي حكاها أبو حيان بين شخص يسمى الحريري كان يأخذ بشيء من الفلسفة والفكر الدقيق وبين المقدسي أبي سليمان محمد بن معشر البيهقي الرازي مخرج رسائل إخوان الصفا كما أسلفنا في فصل الثقافة ، ولذلك نسبها إليه أبو سليمان المنطقي السجستاني كما مرَّ بنا ، وكان لا يزال يرى ببغداد في ندوته ، وفي شارع الوراقين . وكان الرأي العام السائد هناك يعارض نظريته في التوفيق بين الشريعة والفلسفة ، ولعلهم كانوا يعرفون مقصده الذي نهى إليه مراراً ، وكانوا يتعرَّضون له فلا يراهم أهلاً للجواب ، حتى كان يوم - وهو يتجول في الوراقين - تعرَّض له فيه الحريري غلام ابن طرارة وهيج به بما أورد عليه من أدلة ، مما جعله يندفع قائلاً ^(٣) الشريعة طِبَّ المرضى والفلسفة طب الأصحاء ، فالأنبياء يُطَبِّون للمرضى حتى

ص ٣٢٥ وما بعدها .

(١) انظر هذه الترجمة في نهاية كتاب التهيد للباقلاني

(٣) الإمتاع والمؤانسة ١١/٢ وما بعدها .

(نشر دار الفكر العربي بالقاهرة) ص ٢٤٦ .

(٢) راجع الفقه ١ - ٢٩٨ ، ٤٤٤ وابن أبي أصيبعة

لا يتزايد مرضهم أو حتى يزول بالعافية ولا شيء وراء العافية ، وأما الفلاسفة فيطؤون للأصحاء وبذلك يفيدونهم كَسَبَ الفضائل التي تؤهلهم للحياة الإلهية . وإن كَسَبَ المريض بعض الفضائل فليست فضائله من جنس فضائل الصحيح ، إذ الأولى (فضائل المريض) تقليدية والثانية برهانية ، والأولى مظنونة والثانية مستيقنة ، والأولى جسمية والثانية روحانية ، والأولى دهرية والثانية زمانية . وقال إننا جمعنا بينهما لأن الشريعة لا تعترف بالفلسفة بينما الفلسفة تعترف بها لأن الشريعة عامة والفلسفة خاصة فجمعنا بينهما لأن العامة قوامها بالخاصة ، كما أن الخاصة تمامها بالعامة .

وأخذ الحريري ينقض أفكاره فكرة فكرة مبيناً ما فيها من فساد ، فقال له إن كلامك يخالف الواقع ، إذ لا يوجد طبيبان : طبيب للمرض وطبيب للصحة ، بل ذلك شيء خارج عن العادة ، فدائماً الطبيب يُعنى بحفظ الصحة ودفع المرض ، وإذن سقطت تلك الفكرة المضللة . ونقض عليه ما زعمه من أن الفضيلة الدينية تقليدية والفلسفة برهانية ، فقال له إن الدينية برهانية لأنها صادرة عن الوحي ولذلك تستقيم مع أى برهان ، أما الفضيلة الفلسفية فهي التقليدية ، لأن مدارها على رأى الشخص فيوافقه أو يخالفه آخر ، فهي لا تثبت ولا تستقر بحال . ويعجب الحريري أشد العجب من جعل المقدسى الشريعة من باب الظن وهي بالوحي ، والفلسفة من باب اليقين وهي من الرأى . ويقول له : إنك غالطت وموهت إذ زعمت أن الفضيلة الدينية جسمية والفضيلة الفلسفية روحانية ، إذ الصحيح العكس لأن الشريعة وحي من الله والفلسفة من قبل أشخاص ذوى أجسام ، وهي تناقض الأجسام والأعراض . ويسأله إنك تقول إن الفلسفة للخاصة فلماذا تحاولون جمع العامة لها ، بينما تقولون الشريعة للعامة ، فلم تجمعون بين متفرقين ؟ إنه لجهل أى جهل . وبالمثل يقول له إنك تذكر أن الشريعة تجحد الفلسفة ، فلماذا تريدون حملها عليها قسراً . وبذلك أخرسه . وقد عاد يسأله أى شريعة تريدون وصلها بالفلسفة ، ولماذا تعنون بالتوفيق بينها وبين الدين الحنيف ، بينما فى المتفلسفة نصارى ومجوس ويهود . ويصارحه بأنه لا يرى من إخوان الصفا من يقوم بأركان الدين ويتقيد بالكتاب والسنة ويراعى معالم الفريضة ووظائف النافلة ، ويتساءل أين كان الصحابة والتابعون من الفلسفة ؟ ويعلن إليه أن هذه المحاولة من التوفيق بين الشريعة والفلسفة إنما هى كيد للدين القويم ، حاوله من قبلهم كثيرون فباءوا بالخذلان والخسران المبين . ويذكر له طائفة كبيرة من معجزات الرسل ، ويدعو المقدسى وصحبه إلى الإيمان بالشريعة دون تأويل ولا تدليس ولا تعليل ولا تلبيس .

والحريري إنما هو شخص أشبه بأن يكون من العامة ، ولذلك عرضنا مناظرته مع المقدسي لنل على مدى ما حظي به العقل العربي في القرن الرابع من قدرة على الاستنباط والتعليل وتحليل الأفكار وتشييعها ونقضها من أساسها نقضاً . واستمرت هذه الحركة الفكرية الفلسفية خصبة مثمرة حتى منتصف القرن الخامس ، ثم أخذت تتراجع موجاتها إلى الوراء ، أو قل أخذت جددتها تخف ، بسببين : أولاً لانتشار التصوف وتعلق العامة به ، وخاصة بعد أن وجهه أبو نصر السراج الطوسي والقشيري نحو التصوف السني ، ويعم هذا التصوف منذ القرن السادس الهجري بعد ظهور الشيخ عبد القادر الجيلاني والشيخ الرفاعي ، ولا يلبث الدراويش أن ينتشروا في العراق وغير العراق . وثانياً لأنه أتيح للسنة ونصرتها على الفلسفة عالم كبير هو الغزالي الذي كان لحمالاته العنيفة على الفلسفة والمتفلسفة أكبر الأثر في انصراف الناس عنها ، وكان هو نفسه صوفيّاً سنّياً ، فدعم التصوف السني إلى أقصى حد ، وأصبحت كفته هي الراجحة طوال قرون متطاولة .

وقد مضت خطابة الوعظ تزدهر في العصر على نحو ما مرّ بنا في حديثنا عن شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية ، وأخذت تكثر أدعية ومناجيات مختلفة للذات العلية ، ويكفي أن نذكر من كتبها كتاب الإشارات الإلهية لأبي حيان التوحيدي ، وهو مطبوع ، وجميعه دعاء واستغفار وتضرع إلى الله وتوبة وطلب للهداية واتباع سبيل الرشاد . وتلقانا من حين إلى آخر أدعية ومناجيات بديعة ، من ذلك دعاء^(١) لمحمد بن عبد الملك الفارقي المار ذكره في الفصل الماضي . وأخذت توضع كتب كثيرة في التصوف وفي القصص والحكايات عن أصحابه ، من أهمها كتاب اللمع في التصوف لأبي نصر السراج الملقب بطاووس الفقراء المذكور آنفاً المتوفى سنة ٣٧٨ وهو من طوس وحين ورد على بغداد أفردت له غرفة خاصة في جامع الشونيزية وأعطى رئاسة الدراويش ، وكتاب قوت القلوب لأبي طالب^(٢) المكي الوافد على بغداد المتوفى بها سنة ٣٨٦ . ويلقانا من كتب القصص كتاب حكايات المشايخ الجعفر^(٣) الخلدی المتوفى سنة ٣٤٨ ومرّ بنا في حديثنا عن ابن السراج البغدادي بين شعراء الصوفية كتابه « مصارع العشاق » وهو يزخر بأخبار وأقاصيص عن العباد والنسك .

الجنان ٢ / ٤٣٠ .

(١) خريدة القصر (قسم الشام) ٢ / ٤٣٣ .

(٢) انظره في تاريخ بغداد ٧ / ٢٢٦ وبروكلمان

(٣) راجع في أبي طالب تاريخ بغداد ٣ / ٨٩ وابن

خلكان ٤ / ٣٠٣ والواق ٤ / ١١٦ وميزان الاعتدال ٤ / ٧٥ .

٣ / ٦٥٥ والشذرات ٣ / ١٣٠ ولسان الميزان ٥ / ٣٠ ومراة

وأخذت تؤلف كتب قصص عامة ، على نحو ما نرى عند أبي على المحسن^(١) التنوخي المتوفى سنة ٣٨٤ وله ثلاثة كتب قصصية ، هي : كتاب « المستجاد من فعلات الأجواد » وهو أقاصيص عن مجموعة كبيرة من الأجواد أو الكرماء الماضين ، وهو مطبوع ، و « نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة » وهو أقاصيص وأخبار عن معاصريه وهو أيضاً مطبوع ، ثم كتاب الفرج بعد الشدة وهو مطبوع ، وهو أقاصيص ونوادر وأخبار وأمثال ولابن مسكويه كتاب أقاصيص سماه « أنس الفريد » سقط من يد الزمن . وأخذ بعض الكتاب يحاولون تقليد بديع الزمان الهمذاني في مقاماته ، وفي مقدمتهم أبو القاسم عبد الله بن محمد بن ناقي الذي ذكرناه في فصل الثقافة بين علماء البلاغة في القرن الخامس الهجري ، وهو سابق للحريري ، وقد ألف تسع مقامات بطلها واحد وهو الإشكري ، ورواتها متعددون ، وتدور على الكدية أو الشحاذة الأدبية ، وهي مطبوعة من قديم في إستانبول مع ثلاثين مقامة لأبي العلاء أحمد بن أبي بكر بن أحمد الرازي من أدباء القرن السادس وقد حاكى بها مقامات الحريري وأهداها إلى أبي حامد الشهرزوري المتوفى سنة ٥٨٦ ، وكان يعاصره ابن الجوزي الذي مر ذكره في غير موضع ، وله خمسون مقامة ، غير أنه لم يجعل لها بطلاً من الأدباء الشحاذين أصحاب الكدية ، وإنما نحا بها نحو الوعظ ، على طريقة الزمخشري في مقاماته الوعظية . وربما كانت أهم المقامات التي ألقت في القرن السادس بعد مقامات الحريري مقامات يحيى بن سعيد بن ماري النصراني البغدادى المتوفى سنة ٥٨٩ وتسمى المقامات المسيحية لنصرانيته ، وهي ستون مقامة ضاهى بها مقامات الحريري . وولتقى في أواخر القرن السابع بالمقامات الزينية لمعد بن نصر الله ابن رجب الجزري المعروف بابن الصيقل المتوفى سنة ٧٠١ وهي خمسون مقامة ، فرغ من تأليفها سنة ٦٧٢ . ويخلفه كثيرون يؤلفون مقامات مفردة أو بضع مقامات مجموعة . وتظل مقامات الحريري في الذروة ، لا يبلغ شأوه فيها أى أديب بعده ، وسنفرد له كلمة نعرض فيها لمقاماته .

وتكثر في العصر كتب الأدب التهذيبي ، وتتخذ مجريين : مجرى فلسفياً فكرياً على نحو ما نرى في كتاب تهذيب الأخلاق لمسكويه ، ومجراً عملياً تربوياً مثل كتاب أدب الدنيا والدين لأبي الحسن علي بن محمد الماوردي المار ذكره وهو مقسم إلى خمسة أبواب : باب في فضل العقل وذم الهوى ، وباب في أدب العلم ، وباب في أدب الدين . وباب في

(١) راجع ترجمته في البيهية ٣٤٥/٢ وتاريخ بغداد وابن خلكان ١٥٩/٤ والنجوم الزاهرة ١٦٨/٤ ١٥٥/١٣ ومعجم الأدباء ٩٢/١٧ والمتنظم ١٧٨/٧ والشذرات ١١٢/٣ .

أدب الدنيا ، وباب في أدب النفس ، وكل باب ينقسم إلى فصول ، وفي كل فصل تذكر الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأشعار التي تحت على الفضائل وتنبى عن الرذائل . وكان هذا الكتاب مقررأ للمطالعة فى المدارس الثانوية وما أجدره أن يعود إليها لتربية النشء على الأخلاق القويمة . وتكثر كتب الأدب التهذيبى بعد هذا الكتاب ولكنها لا تبلغ مبلغه فى النفع والفائدة .

وتنوع اليتيمة والخريدة بالرسائل الشخصية أو الإخوانية ، وتتكاثر كثرة مفرطة ، فى الشكر والثناء والتهنئة والعتاب والاعتذار والاستعطاف والتهادى والتعزية ، وعادة تدور حول معان محدودة ، ولكن الكتاب يتفنون فى تطويلها ، وبذلك يستحيل المعنى الضئيل النحيل إلى ما يشبه خيطاً أو حبلاً تعلق عليه سجوف من السجع والجناس وفنون البديع تكدّس فيها أكداًساً ، وتكدّس معها تعقيدات بصور كثيرة تارة يجلب بعض المصطلحات العلمية وخاصة منذ القرن الخامس وما بعده ، وتارة باتخاذ حرف واحد بُنيت عليه الرسالة . وللحريرى رسالتان إحداهما سينية كل كلماتها من ذوات السين ، والثانية شينية كل كلماتها من ذوات الشين ، وقد قلده الحَصَكْنى ^(١) يحيى بن سلامة خطيب مياً فأرقين المتوفى سنة ٥٥١ فصنع رسالة سينية ، وحاول الإغراب أكثر فصنع رسالة من الحروف المهملة وخطبة ليس فى حروفها حرف منقوط ، وكان شغوفاً بالجناس وصُنِع المنعكس منه بحيث تشتق كل كلمة من أختها على هذه الشاكلة :

« النفس بعقود التذرُّع حالية ، ولقعود التعذر حائلة ، ومن الودائع المعجزة مالية ، وإلى الدواعى المزعجة مائلة ، وفى بحار الحمد راسية ، وفى رحاب المدح سارية » . ويستمر بهذه الصورة ، فكل كلمة فى السجعة الأولى تعود فى السجعة الثانية مقلوبة معكوسة فى هيئتها وبنيتها وصورتها ، فعقود تتحول إلى قعود والتذرُّع إلى التعذر وحالية إلى حائلة . وهى مهارة تُحيل الرسالة إلى ما يشبه العمل المطبعى الذى يؤدِّيه عمال المطابع من جمع الحروف بعضها إلى بعض من أول الكلمة إلى آخرها تارة ومن آخرها إلى أولها تارة ثانية جمعاً يصور مهارة ، ولكنها مهارة لفظية أشبه باللعب . ونلتقى بمعاصر للحصكْنى ، هو الحِصص ييُص البغدادى المارَّ ذكره بين الشعراء وفيه يقول العماد الأصبهاني : « له رسائل ومكاتبات معدول بها عن الفن المعتاد والأسلوب المعروف » يقول : وهى كثيرة ، وسأورد

(١) انظر فى الحصكْنى الخريدة (قسم الشام) ٢ / ٤٧١ وما بعدها والمتنظم ١٠ / ١٨٣ والسبكى ٧ / ٣٣٠ وابن خلكان ٦ / ٢٠٥ ومعجم الأدباء ٢٠ / ١٨ وكتابتنا الفن ومذاهبه فى النثر العربى (الطبعة الثامنة بدار المعارف) ص ٣٠٤ وبارد الكتب المصرية نسخة مخطوطة من رسائله .

منها نبذاً يستدلّ بها على الباقيات . وتدلّ التبدُّل على أنه كان يحشد فيها أوابد اللغة وشواردها وشواذها متقعرّاً فيها أبعد تقعر ، وهو تقعر لا يفيد حسناً ولا جمالاً ، وإنما يضيف صعوبات لغوية ، وكأن الرسالة مجموعة من الألفاظ ، وكلما فك القارئ فيها لغزاً لقيه لغز جديد ، لا يقل عنه تكلفاً وإغراباً . وقد استطاع أبو السَّمْح^(١) سعيد بن سَمْرَةَ أن يؤلف على نمط الحريري لا رسالة سينية أو شينية ، بل أن يؤلف رسائل كل رسالة منها كلماتها على حرف من حروف المعجم . ونصبح منذ القرن السادس حقاً بإزاء رسائل شخصية معقدة غاية التعقيد ، وحتى المحسنات البديعية مثل الجناس استحالت بدورها عقداً ، وكأنما فارقت كل ما كانت تزدان به من حسن وجمال . وحرى بنا أن نتحول إلى الحديث عن كتاب الرسائل الديوانية .

٢

كتاب الرسائل الديوانية

كانت الدواوين طوال هذا العصر كثيرة ومتنوعة ، فكان هناك ديوان الخليفة وديوان الزمام الخاص بالشئون المالية وديوان الضياع والعقار وديوان الجيش وديوان النفقات وديوان الأوقاف وديوان التركات وديوان الجوالى أو الجزية الخاص بأهل الذمة وديوان السلّة الذى تحفظ فيه الكتابات الديوانية ، وأهم من هذه الدواوين جميعاً ديوان الإنشاء الخاص بالرسائل الصادرة عن الخليفة وحاكم بغداد العام ، وعُنى البويهيون بهذا الديوان منذ استيلائهم على بغداد فاتخذوا له بعض النابهين من الأدباء ، وكثيراً ما كان يقوم عليه وزيرهم ، وأول من نهض بأعبائه فى عهدهم وكان له ذكر حسن أبو محمد المهلبى^(٢) الذى ورّر لمعز الدولة البويهى منذ سنة ٣٣٩ وكان شاعراً كاتباً وأنشد الثعالبي فى يتيمة طائفة من شعره ، أما نثره فاكتفى فيه بفصول قصيرة تدل على أنه كان يسجع فى كتاباته ، والسجع فى ديوان بغداد قديم منذ عصر المقتدر كما مر بنا فى كتاب العصر العباسى الثانى ، وقد مضى كتاب الدواوين بعد عصره جميعاً يسجعون . ويظل المهلبى ناهضاً بالوزارة والكتابة حتى وفاته سنة ٣٥٢ . وأهم كتاب البويهيين ببغداد بعده أبو القاسم عبد العزيز^(٣) بن يوسف ،

(١) انظر فى ترجمته الخريدة (قسم العراق) ٩/٧ ومعجم الأدباء ١١٨/٩ والشذرات ٩/٣ وكتب التاريخ العامة فى سنة وفاته . ٢٦٣/٢ .

(٢) انظر فى المهلبى وترجمته اليتيمة ٢/٢٢٣ والمتنظم (٣) راجعه فى اليتيمة ٣١٢/٢ .

وفيه يقول الثعالبي : « كان أحد المقدمين في الآداب والكتابة والبراعة والكفاية وجميع أدوات الرياسة ، وكان مع تقلده ديوان الرسائل لعضد الدولة طول أيامه معدوداً في وزرائه ، وتقلد الوزارة بعده دفعات لأولاده » . ويورد الثعالبي مقاطع من رسائله السلطانية يشيع فيها السجع على عادة كتاب الدواوين في عصره . وبدون ريب أكبر كاتب للرسائل الديوانية زمن البويهيين أبو إسحاق الصائغ وسنخسه بكلمة عما قليل . وعنى السلجوقيون مثل البويهيين بديوان الإنشاء وحين دخلوا بغداد وجدوا عليه العلاء ابن الموصلا يافقد كان كاتب الديوان العزيز أو ديوان الخلافة منذ سنة ٤٣٢ ورأوا أن يظل عليه ، ومضت عشرات من السنين وهو على ديوان الإنشاء حتى قضى نحبه ، وسنخسه هو الآخر بكلمة مفردة . وأهم من تولوا الديوان بعده في العصر السلجوقي سديد الدولة أبو عبد الله محمد ^(١) بن عبد الكريم الأنباري منشى ديوان الخلافة لعصر خمسة من الخلفاء هم المستظهر والمسترشد والراشد والمقتنى والمستجد الذين تولوا الخلافة من سنة ٥٠٣ إلى سنة ٥٥٨ وهي سنة وفاة سديد الدولة ، وبذلك ظل كاتب الإنشاء نيافاً وخمسين سنة ويقال إنه عُمِّرَ حتى قارب التسعين ، ولم يسجل العباد ولا صُحِبَ الأعشى للقلقشندي شيئاً من نثره . وخلفه على ديوان الإنشاء ابنه محمد ^(٢) بن محمد بن عبد الكريم ، وظل قائماً عليه حتى توفي بدوره سنة ٥٧٥ . وربما كان أهم من ولوا هذا الديوان في عهد الخليفة الناصر لدين الله يحيى ^(٣) بن زبادة المتوفى سنة ٥٩٤ وقد أشاد به ابن خلكان ونوّه طويلاً قائلاً : « انتهت إليه المعرفة بأمر الكتابة والإنشاء والحساب مع مشاركته في الفقه وعلم الكلام والأصول وغير ذلك . . . وخدم الديوان من صباه إلى أن توفي عدة خدمات ، وكان ملبح العبارة في الإنشاء جيد الفكرة حلو الترصيع لطيف الإشارة ، وكان الغالب عليه في رسائله العناية بالمعاني أكثر من طلب التسجيع ، وله رسائل بليغة » . وقد احتفظ القلقشندي برسالة ^(٤) له كتب بها عن الخليفة الناصر إلى الطواشي طغرل صاحب إقطاع البصرة ، وقد بلغ الخليفة أنه ترح عنها مفارقاً لطاعته عندما طلب من ديوانه بعض المال ، وهو في الرسالة يحاول إثناءه عن خلع الطاعة ويذكر أن الخليفة سيتلقاه بالصفح والقبول ، وفيها يقول :

(١) انظر الحزينة (قسم العراق) ١٤٠/١ والمتنظم ٢٠٦/١٠ والنجوم الزاهرة ٣٦٤/٥ والشذرات ١٨٤/٤ .
 (٢) انظره في الحزينة (قسم العراق) ١٤١/١ وابن الأثير في وفيات سنة ٥٧٥ .
 (٣) انظر ترجمة ابن زبادة في معجم الأدباء ١٦/٢٠ وابن خلكان ٢٤٤/٦ ومروءة الجنان ٢٤٤/٦ والشذرات ٣١٨/٤ .
 (٤) صبح الأعشى (طبع دار الكتب المصرية) ٢٦٩/٨ .

«ولولا أن الأيام صحائفُ العجائب ، ولا يأنس بمتجدداتها إلا من حنَّته التجارب ، لم أصدِّق هذه الحركة ، وإني ما أراها إلا عثرة من جواد وعورة على كماله ، وإلا فمن أين يدخل الزلل على ذلك الرأى السديد والعقل الراجح والفكر الصائب . . والفائتُ لا كلام فيه ، غير أن العقل يقضى باستدراك الممكن وتلافيه ، بالانحراف عن الهوى إلى الرأى الصادق ، والرجوع عن تأويل النفس إلى مراجعة الفكر الناضج» .

ونمضى الرسالة على هذا النحو ، لا يدخل السجع فيها عن تكلف أو تعمل ، بل لا بأس بما يأتي منه عفواً دون تعمد الإتيان به ومحاولة جَلِّه مع كل عبارة وصيغة . وأكبر الظن أن ابن زبادة كان شذوذاً بين كتاب الإنشاء قبله وبعده ، فقد كانوا غرقى في السجع ومحسنات البديع إلى آذانهم . ولم نعرض للعماد الأصبهاني ، وكان كاتباً بليغاً ، لأن حياته الأدبية إنما تتكامل له في ظل نور الدين وصلاح الدين ، إذ عمل في دواوينهما ، فحرى أن يوضع بين كتاب الرسائل الديوانية في الشام ومصر ، مع من عاشوا في ظل هذين البطلين العظمين . ونمضى إلى أيام المغول وبلغنا عطا ملك الجوثي المتوفى سنة ٦٨١ وكان رئيس الديوان ببغداد ، وقد اهتم به ، فوظف فيه طائفة من الكتاب المجيدين ، منهم بهاء^(١) الدين الإربلي المتوفى سنة ٦٩٢ وشرف^(٢) الدين علي بن أميران المتوفى سنة ٦٩٣ . وبلغنا في صبح الأعشى كاتبان يكتب كل منهما رسالة باسم بوكدار بن هولكو الذي مرَّ بنا في الفصل الأول أنه أسلم في سنة ٦٨١ وحسَّن إسلامه ، وتسمَّى باسم أحمد . أما الرسالة الأولى فكتبها الفخر بن عيسى الموصلى عن السلطان أحمد إلى الملك المنصور قلاوون صاحب الديار المصرية في جمادى الأولى سنة ٦٨١ يخبره فيها بما أتمَّ الله عليه من نعمة الإسلام ، وهو يفتتحها على هذا النمط^(٣) :

«إلى سلطان مصر ، أما بعد فإن الله سبحانه وتعالى بسابق عنايته ، ونور هدايته ، قد كان أرشدنا في عُثْقوان الصِّبا ورِيَّعان الحداثة إلى الإقرار بربوبيته ، والاعتراف بوحدانيته ، والشهادة لحمد عليه أفضل الصلاة والسلام بصدق نبوته ، وحسن الاعتقاد في أوليائه الصالحين من عباده وبرِّيته (فمن يُردِّ الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) فلم نزل نميل إلى إعلاء كلمة الدين ، وإصلاح أمور الإسلام والمسلمين ، إلى أن أفضى إلينا بعد أبينا الجليل وأخينا الكبير نوبةُ الملك ، فأضنى علينا من جلايب أطافه ولطائفه ،

(١) انظر ترجمته في فوات الوفيات ١٣٤/٢ وعند جواد - طبع ببغداد ص ٤٨٠ وعند الغزوى ١/٢٦٠ .

(٢) صبح الأعشى ٨/٦٥ .

الغزوى ١/٢٥٩ .

(٣) راجعه في الحوادث الجامعة (تحقيق مصطفى

ما حقق به آمالنا في جزيلى آلائه وعوارفه .
 وتمضى الرسالة بهذه الصورة من السجع والصياغة الجيدة . والرسالة مؤرخة بأواسط
 جمادى الأولى سنة إحدى وثمانين وستمائة وكتب الرد في رمضان سنة ٦٨١ ناصر^(١) الدين
 شافع بن على بن عباس كاتب الإنشاء عن السلطان المنصور قلاوون . وقد ذكر السلطان
 أحمد بن هولاكو في رسالته - كما هو واضح - إسلامه وأيضاً أنه حرم على عساكره الغارات
 على البلاد ، وتقول الرسالة إن في اتفاق السلاطين صلاح العالم . ومن كتاب
 الإنشاء في القرن الثامن يحى^(٢) بن عبد الرحمن الجعفرى الملقب بنظام الدين المتوفى سنة
 ٧٦٠ وكان يكتب عن السلطان بوسعيد (٧١٦ - ٧٣٦ هـ) . ويبدو أنه رحل إلى مصر
 ودمشق بعد وفاة السلطان ، ثم عاد إلى بغداد ، وأعيد إلى وظيفته في كتابة الإنشاء عن
 حكامها إلى وفاته . ويلقانا في أواخر القرن التاسع الغياث^(٣) البغدادي عبد الله بن فتح الله
 كاتب الإنشاء ببغداد ، ولا نعود نسمع عن كاتب مهم في هذا العصر ، فسرعان ما دخلت
 العراق في حكم الدولة العثمانية ، وكانت لاهتم بديوان الإنشاء في بغداد ، فضعف شأنه
 إلى أبعد حد . ولعل من الخير أن نتوقف قليلاً عند أهم كتاب الدواوين في العصر : أبى
 إسحاق الصائى والعلاء بن الموصلايا وضياء الدين بن الأثير .

أبو إسحاق^(٤) الصائى

هو إبراهيم بن هلال بن إبراهيم بن زهرون الصائى المكنى بأبى إسحاق ، أصل آبائه من
 حرّان ، وُلد ببغداد سنة نيف وعشرين وثلثمائة ، وبها نشأ وتثقف وتأدب ، ولزم فيها
 مواطنيه الحرّانيين وأخذ ما عندهم من الطب والرياضة والهندسة وعلم الفلك ، ويقول
 القفطى : له مؤلف في المثلثات . ويبدو أنه أحسن في نفسه مبكراً بتزوع شديد نحو الأدب
 وأن يصبح من كتاب الدواوين ، فأخذ يكبّ على النصوص الشعرية والنثرية ، وحفظ
 القرآن الكريم ، وكان شاعراً ففتحت له الأبواب وتعرّف عليه الوزير المهلبى ، وأعجب
 به ، فاصطنعه لنفسه ، وأحضره مجالس أنسه ، ولم يلبث أن قلّده ديوان الرسائل سنة ٣٤٩

- (١) صبح الأعشى ٢٣٧/٧ .
 (٢) ترجمته في الدرر الكامنة لابن حجر ١٩٢/٥ .
 (٣) العزراوى ٢٧٧/١ .
 (٤) انظر في ترجمة الصائى البيهية ٢٤١/٢ وما بعدها ٤٨٣/٦ و٣٦٠/١٤ (راجع الفهرس) وكتابنا الفن
 ومعجم الأدباء ٢٠/٢ وابن خلكان ٥٢/١ ، ٤٤٥ ومذاهبه في النثر العربى (الطبعة الثامنة) ص ٢١٧ .

وصوان الحكمة ص ٣٤٢ وتاريخ الحكماء للقفطى

ص ٧٥ والشذرات ١٠٦/٣ والإمتاع والمؤانسة ٦٨/١

والمقابسات لأبى حيان (انظر الفهرس) وصبح الأعشى

انظر في ترجمة الصائى البيهية ٢٤١/٢ وما بعدها ٤٨٣/٦ و٣٦٠/١٤ (راجع الفهرس) وكتابنا الفن

ومعجم الأدباء ٢٠/٢ وابن خلكان ٥٢/١ ، ٤٤٥ ومذاهبه في النثر العربى (الطبعة الثامنة) ص ٢١٧ .

حتى إذا توفى المهلب سنة ٣٥٢ وصادر معز الدولة البويهى أمواله قبض على أبى إسحاق الصائى فيمن قبض عليه من أصحابه وخلصائه . واستعطف معز الدولة بقصائد جعلته يعفو عنه ويعيده إلى عمله فى ديوان الرسائل . وظل قائماً عليه طوال عهد ابنه عز الدولة بختيار ، وكان قد نشب خلاف بينه وبين ابن عمه عضد الدولة البويهى ، وكان الصائى فى أثناء ذلك يكتب باسمه مكاتبات إلى عضد الدولة تؤله ، وحدث أن تقرر الصلح بينهما ذات مرة ، فطلب بختيار إلى الصائى أن يكتب نسخة يمين يستوفى فيه الشروط على عضد الدولة حتى الاستيفاء ، ولم يجد عضد الدولة حينذاك بدءاً من حلف اليمين ، وعرف أن أبى إسحاق الصائى كاتبه . فحقد ذلك عليه . وتطورت الظروف ، ونشبت حرب بين بختيار وعضد الدولة سنة ٣٦٧ وسقط بختيار فى ميدانها صريعاً واستولى عضد الدولة على بغداد والعراق ، وسرعان ما اعتقل الصائى وزجَّ به فى غياهب السجون . ومازال بعض كبار رجال الدولة يشفعون له ، فقال عضد الدولة : ليصنف كتاباً فى أخبار آل بويه ، فأخذ فى تصنيف كتاب «التاجى» وهو فى السجن، ونُقل إلى عضد الدولة أنه سُئل عما يصنع ، فقال : أباطيل أنمقها وأكاذيب ألقها ، فحقق عليه حقناً شديداً ، وصمم أن يرميه تحت أرجل الفيلة ليقتل أشنع قتلة ، وعاد كبار رجال الدولة يتشفعون له ، فعفا عنه إلا أنه ظل مبعداً فى أيامه . حتى إذا توفى عضد الدولة سنة ٣٧٢ عاد إلى تولى ديوان الإنشاء وظل يليه إلى وفاته سنة ٣٨٤ . وقالوا إنه كان يتولى نقابة الصابئة فى بغداد وإنه كان شديد الإيمان بدينه الوثنى ، وحاول عز الدولة مراراً أن يدخله فى الدين الخفيف فكان يعتذر . وكان يصوم شهر رمضان مع المسلمين . وظل الحكام البويهيون ووزراؤهم يرتضون أن يكون على رأس الديوان أحد الصابئة عبدة الكواكب والنجوم ، وكأنهم تسامحوا معه لتفوقه فى الكتابة ، يقول الثعالبي إنه «أوحد العراق فى البلاغة ومن به تُثنى الخناصر فى الكتابة ، وتتفق الشهادات له ببلوغ الغاية فى البراعة والصناعة» ويقول أبو حيان التوحيدي : «نظمه مشوره ، ومشوره منظومه ، إنما هو ذهب إبريز كيفما سُبِكَ فهو واحد . وله فنون من الكلام ما سبقه إليها أحد ، وما ماثله فيها إنسان» وقد نشر شكيب أرسلان مختارات من رسائله بلبنان فى مجلدين ، وهى مطبوعة بطوابع السجع والمحسنات البديعية ، وفيها يقتبس كثيراً من آى القرآن الكريم ، ويضمنها أحياناً بعض الأحاديث النبوية وبعض الأشعار القديمة والحديثة ، وكان يظيل فى التحميدات أول الرسائل حتى ليظن قارؤه أنه من جلة المسلمين ، كقوله فى مطلع إحدى رسائله :

«الحمد لله العلى العظيم ، الأزل القديم ، المتفرد بالكبرياء والملكوت ، المتوحد

بالعظمة والجبروت ، الذى لاتحده الصفات ، ولا تحوزه الجهات ، ولا تحصره قرارة مكان ، ولا يغيره مرور زمان ، ولا تتمثله العيون بنواظرها ، ولا تتخيله القلوب بخواطرها ، فاطر السموات وما تظلل ، وخالق الأرض وما تُقِلّ .

وهو يستمر فى هذا التحميد طويلاً ، ولولم نعرف أن الصائى كاتبه لظنناه أحد الكتاب المسلمين المثقفين بثقافة الاعتزال ، المؤمنين بوحداية الله وتنزيهه عن الشبه بال مخلوقات ، فلا يحصره مكان ولا زمان ولا تحده جهات ولا صفات ، إذ ليس يجسم ولا عرض ، فالعيون لا تتمثله والخواطر لا تتخيله ، مبدع السموات والأرض . وفى هذه السطور من التحميد ما يوضح قدرته على السجع ، وهو لا يكتفى فيه بالروى الذى يجمع بين نهايتى السجعتين ، بل يحاول أن يوازن بين ألفاظ كل سجعتين فى عدد حروفهما وحركاتهما وسكناتهما ، وكأن الرسالة صفوف موسيقية متقابلة ، فكلمة « العلى العظيم » يليها « الأزل القديم » وكلمة « المتفرد بالكبرياء والملكوت » يليها « المتوحد بالعظمة والجبروت » وتتوالى السجعات ، فكل سجعة تسمع فى تاليتها جرسها الموسيقى ، مع المهارة فى اصطفاء الألفاظ . وقرأ له هذه القطعة من رسالة على لسان عز الدولة . . حاول فيها أن يستعطف عضد الدولة وأن يرده إلى ما بينهما من صلة الرّحم :

« إن من أعظم محن هذا البيت أن تزول منابت فروعه عن منابت أصوله ، وأن تُوتى مراسى أوتاده من ذوائب عروشه ، وأن تدبّ بينهم عقارب المشاحنة ، وتسرى إليهم أرقام المناقشة ، وتنبث الدواهى فيهم من ذاتهم ، وقد كانت محسومة من أضدادهم وعداتهم . وإنما تمثلنا بهذه القطعة لنشير إلى أنه كان فى أحيان قليلة لا يلتزم السجع بين كل عبارة وتاليتها ، ومع ذلك كان يلتزم فيها الموازنة الصوتية الدقيقة بين كلمات الصيغتين المتجاورتين حتى يتلافى ما نقصهما من تماثل الروى فى نهايتها . ومرّبنا أن أبا حيان أشار إلى أن له فنوناً من الكلام لم يسبقه إليها أحد ، ولعله يشير بذلك إلى بعض رسائل هزلية له ، وهى ليست رسائل سلطانية ولا إخوانية جادة ، إنما هى رسائل أراد بها إلى الإضحاك وإدخال شىء من السرور والسعادة على قارئه ، من ذلك رسالة رواها ابن خلكان كتبها رداً على رقعة وصلت إليه من شخص ، كان أهدى إليه جملاً ، وذكر ذلك فى رقعته ، وفيها يقول : « ذكرت حملاً (كبشاً) جعلته جملاً ، . . فلما أن حضر رأيت كبشاً متقادماً الميلاد ، من نتاج قوم عاد ، قد أفتته الدهور ، وتعاقبت عليه العصور . . فبان دمامته ، وقصرت قامته ، وعاد ناحلاً ضئيلاً ، باليا هزيباً ، بادى الأسقام ، عارى العظام . . لا تجد فوق عظامه سلباً ، ولا تلق يدك منه إلا خشباً ، قد طال للكلاّ فقده ، وبعداً للمرعى عهده ،

لم ير القَتَّ إلا نائماً ، ولا الشَّعير إلا حالماً . . . وقلت أذبحه ليكون وظيفة للعيال . . . فأنشدني وقد أضرمت النار ، وحدثت الشُّفار :

أعيذها نظراتٍ منك صادقةً أن تحسب الشَّحْمَ فيمن شَحْمُهُ وَرَمٌ^(١)
ثم قال : وما الفائدة من ذبحي ، ولست بذى لحم فأصلح للأكل لأن الدهر قد أكل لحمي ، ولا ذى جلد يصلح للدَّبَاغِ لأن الأيام قد مزقت أَدْمِي ، ولا ذى صوف يصلح للغزل لأن الحوادث قد حَصَّصَتْ (أذهبت) وَبَرَى .

ولست الفكاهة شيئاً سهلاً ، فقليلون هم الذين يحملون هذه الروح ، وهي تدل على ظرفه وأنه كان لطيف المحضر حلو الحديث ، ولذلك قرب من نفوس معاصريه . وسجعه في هذه الرسالة التي يجدر بنا أن ندخلها في حيز الرسائل الأدبية مكتمل الأداء الموسيقي ، وهو قصير قصراً تَسْرَى فيه العذوبة والرشاقة . وقد تطول السجعة كما في السجعات الثلاث الأخيرة ، ولكنه يحتال عليها باكتمال الملاءمة الصوتية بين كلمات كل سجعة وتاليها وكأننا بإزاء معادلات موسيقية تامة . وللصائب رسالة أدبية هزلية أخرى تحتل في الجزء الرابع عشر من صبح الأعشى ست^(٢) صفحات كبيرة ، وهي صورة عهد بالتطفل كتبه على لسان متطفل بغدادى كبير في عصره كان يسمى عليكا إلى متطفل ناشئ ، يسمى على بن عرس الموصلى ، وهو يستهله بأن عليكا عهد إلى تلميذه بإحياء سنته وحفظ رسومه من التطفل على أهل بغداد وما يتصل بها من أرباضها (ضواحيها) وأكنافها في سوادها وأطرافها لما توسَّمه فيه من قلة الحياء ، وشدة اللقاء ، وكثرة اللقَم ، وجودة الهضم ، وبأخذ في سرد وصاياه في شكل أوامر وفرائض يجب أن يتبَّعها ابن عرس ، من ذلك أنه :

«أمره أن يعتمد موائد الكبراء والعظماء بغزايه ، وسُمُطُ الأمراء والوزراء بسراياه . . وأمره أن يتبع ما يعرض لموسرى التجَّار ، ومجهزى الأمصار ، من بنیان الدار ، والعُرس والإعذار (الختان) . . وربما صَبَرُوا على تطفيل المتطفلين ، وأَغْصَوْا على تهجم الواغلين (الممعنين في التطفل) ليتحدثوا بذلك في محافلهم الرَّذْلة ، ويعُدُّوه في مكارم أخلاقهم الثَّذْلة . . وأمره أن يصادق قَهَّارمة الدور ومدبَّريها ، ويرافق وكلاء المطايخ وحمَّالِها ، فإنهم يملكون من أصحابهم أزمَّة مطاعمهم ومشاربهم ، ويضعونها بحيث يحبون من أهل موداتهم ومعارفهم . . وأمره أن يتعهد أسواق المُسَوِّقين ، ومواسم المتبايعين ، فإذا رأى

(١) البيت للمتنبى من قصيدته التي عاتب فيها سيف الدولة الحمداني . والضمير في أعيذها يعود إلى نظرات يقول له : أعيذ نظراتك البصيرة أن تخدعك فلا تفرق بين شاعرك وغيره من حاسديه الذين يتظاهرون لك بتل مودته تمويها وخداعا .

(٢) صبح الأعشى ٣٦٠/١٤

وظيفةً قد زيد فيها ، وأطعمة قد احتشد مشتريها ، أتبعها إلى المقصد بها ، وشيعها إلى المنزل الحاوى لها ، واستعلم ميقات الدعوة . . وأمره أن ينصب الأرصاد على منازل المغنيات والمغنين ، فإذا أتاه خبر لجمع يضمهم ، ومأذبة تغمهم . . حمل عليها حملة الحوت الملتقم ، والثعبان الملتهم ، واللئث الهاصر ، والعقاب الكاسر . . وأمره أن يروض نفسه ، ويغالط حسه ، ويضرب عن كثير مما يلحقه صفحاً ، ويطوى دونه كشحاً ، فإن أتته اللكرة في حلقة ، صبر عليها في الوصول إلى حقه ، وإن وقعت به الصفعة في راسه ، صبر عليها لموقع أضراره ، وإن لقيه لاق بالجفاء ، قابله باللفظ والصفاء .
والعهد بديع ، وهو يصور حياة المتفقلين المتسكعين ببغداد ، وكانت قد نشأت منهم طبقة كبيرة احترفت الأدب واتخذته وسيلة للشحاذة الأدبية ، وهم أهل الكذبة ، وقد تحدثنا عنهم في غير هذا الموضع مصورين كيف كانوا يتخذون الشعر الفكه لتصوير إفلاسهم ويؤسهم تصويراً يبعث السرور في نفوس سامعيهم . ولا ريب في أن أهل بغداد ظلوا يضحكون طويلاً كلما قرءوا عهد أبي إسحق الصائى السالف أو تذكره ، وسجعه فيه مكتمل الأداء الموسيقى ، سواء قصّره أو طوّله ، إذ يبغى به دائماً أن يلد الآذان ، حين نصت إليه لذة موسيقية بديعة .

العلاء ^(١) بن الموصلياً

هو أمين الدولة أبوسعده العلاء بن الحسن بن وهب بن الموصلياً البغدادي ، ولد سنة ٤١٢ ببغداد وبها كان منشؤه ومرباه ، ونشأ نصرانياً ، وأقبل على دراسة الأدب وحفظ نصوصه من الشعر والنثر ، كما أقبل على حفظ القرآن الكريم حتى يعد نفسه مثل أبي إسحاق الصائى ليكون موظفاً بالدواوين ، وسرعان ما بهر الناس بأدبه ، ولم يلبث الخليفة القائم (٤٢٢-٤٦٧ هـ) أن جعله كاتب الإنشاء بدار الخلافة سنة ٤٣٢ وظلت له هذه الوظيفة في عهد المقتدى (٤٦٧-٤٨٧ هـ) والمستظهر (٤٨٧-٥١٢ هـ) حتى توفي سنة ٤٩٧ وبذلك شغلها خمسا وستين سنة . وأتم الله عليه في أثناء ذلك نعمته ، فأسلم وحسن إسلامه ، واختلف من ترجموا له في زمن إسلامه ، فالعماد الأصبهاني يقول إنه كان في زمن القائم ، ويقول ابن خلكان إنه كان في زمن المقتدى ويعين السنة بأنها كانت سنة ٤٨٤ .

(١) انظر في ترجمته وما استشهدنا به من نصوصه
الخريدة (قسم العراق) ١٢٣/١ والمتنظم ١٤١/٩
ونكت الهميان ص ٢٠١ والنجوم الزاهرة ١٨٩/٥ وابن
خلكان ٤٨٠/٣ وصبح الأعشى ٤٠٤/٦ ، ٤١٥ ،
٤٥٣ ، ٣١/١٠ ، ٢٣٤ ، ٢٩٤ .

ونمى إلى الأخذ برأى العماد لأنه ظل طويلاً ببغداد . وقد كُفَّ بصر العماد في آخر حياته فكان ابن أخته هبة الله بن الحسن يكتب الرسائل عنه . وظل جاهه يزيد عند المقتدى كل يوم حتى ضُمَّ إلى رياسته لديوان الرسائل النيابة في الوزارة وظل يضمهما في عهد المستظهر . ويقول العماد عنه : « كان بليغ الإنشاء ، شديد الآراء ، رسائله تعبر عن غزارة فضله ووفور علمه » ويقول الصفدى : « أخذ الكتاب المعروفين الذين يُضْرَب بهم المثل » .

وقد احتفظ كتابُ صبح الأعشى للعماد في جزئه السادس بثلاث رسائل : رسالة بشارة بالنصر على البساسيرى في منتصف القرن الخامس حين قضى عليه طُغْرُكُك ، وهى موجهة من الخليفة القائم إلى صاحب غَزَنَة ، ورسالة ثانية موجهة من الخليفة القائم أيضاً إلى شخص عيَّنه وزيراً له ورسالة ثالثة موجهة منه إلى أتمز . وبالمثل احتفظ صبح الأعشى في جزئه العاشر بثلاث رسائل أخرى ، أولاها عهد ليوسف بن تاشفين بسلطنة الأندلس وبلاد المغرب ، وهو موجه إليه من الخليفة القائم ، ومعروف أن يوسف ابن تاشفين إنما تسلطن على الأندلس في سنة ٤٨٥ بعد وفاة القائم بنحو ثمانية عشر عاماً ، فإما أن يكون العهد خاصاً بسلطته على بلاد المغرب ، وإما أن يكون موجهاً إلى يوسف من الخليفة المقتدى الذى تسلطن يوسف على الأندلس في عهده أو من الخليفة المستظهر تاليه في الخلافة منذ سنة ٤٨٧ والعهد طويل ، إذ يقع في نحو أربع عشرة صفحة ، ويشتمل على عشرين آية قرآنية ، مما يدل بوضوح على حفظ ابن الموصلابا للقرآن وأنه كان يقبس من أضوائه في رسائله مثل الصائى . والرسالة الثانية موجهة من القائم إلى ابن جهير حين استوزره وأرَّخ القلقشندى الرسالة بسنة ٤٧٢ وكان القائم قد توفى منذ خمس سنوات ، ومعروف أن القائم استوزر ابن جهير مرتين : مرة سنة ٤٥٥ ومرة سنة ٤٦١ وظل في الوزارة حتى توفى القائم ، وأقره الخليفة المقتدى على الوزارة سنين ، ثم عزله . وبذلك يكون التاريخ الذى أرَّخ به القلقشندى هذه الرسالة الثانية غير دقيق .

والرسالة الثالثة موجهة من القائم إلى جاثليق النصارى النسطوريين في صورة عهد بحياطته هو وأهل ملته في نفوسهم وأموالهم وبيعهم وديارهم ومقارَ صلاتهم ، على أن تؤخذ الجزية - وكانت أشبه بضريبة دفاع - من رجالهم ذوى القدرة دون النساء ومن لم يبلغ الحلم ، ولا تؤخذ إلا مرة واحدة في السنة . والعهد يجعل الجاثليق النسطورى لا رئيساً للنساطرة المسيحيين الشرقيين فحسب ، بل أيضاً للروم واليعاقبة في بغداد وسائر البلدان الإسلامية ، فهو بطرك النصارى العام . ويلفتنا في العهد لابن تاشفين وفي الرسالة الموجهة إلى ابن جهير وكذلك في الرسالة التى تبشر بالنصر على البساسيرى أن ابن الموصلابا يطيل

في الحمد لله ، والصلاة على رسول الله ﷺ ، وتجري الصلاة في رسالة البساسيري على هذا النمط :

« الحمد لله الذي اختص محمداً ﷺ برسالته وحباؤه ، وأولاه من كرامته ما حاز له به الفضل وحواه ، وبعثه على حين فترة من الرسل ، وخلاء من واضح السبل ، فجاهد بمن أطاعه من عساه ، وبلغ في الإرشاد أقصى غايته ومداه . . إلى أن دخل الناس في الدين أفواجا ، وسلخوا في نصرته جدداً (طريقاً) واضحاً ومنهاجاً ، وغدت أنوار الشرع ضاحكة المباسم ، وآثار الشرك واهية الدعائم ، ومناهل الهدى عذبة صافية ، فصلّى الله عليه وعلى آله الطاهرين وأصحابه المنتخبين ، وخلفائه الأئمة الراشدين ، وسلّم تسليماً .

ولعل لا أخطئ إذا قلت إنه أسلم مبكراً على الأقل في منتصف القرن الخامس حين كتبت هذه الصلاة في رسالة البساسيري لا كما ذهب ابن خلكان إلى أنه أسلم سنة ٤٨٤ . وواضح أن السجع كان يسيل على قلمه ، وكان يعنى فيه باصطفاء أفاضله وأن تروع بجرسها الأسماع على نحو ما نرى في الفقرة التالية من عهد يوسف بن تاشفين :

« وأمره الخليفة أن يعدل في الرعايا قبله ، ويحلّهم من الأمن هضابه وقّله ، ويمنحهم من الاشتمال ، ما يحمى به أمورهم من الاختلال . . ويضفى على المسلم منهم والمعاهد (الذمى) من ظل رعايته ما يساوى فيه بين القوى والضعيف ، ويلحق التليد منهم بالطريف ، ليكون الكل وادعين في كنف الصّون ، راجعين إلى الله تعالى في إمدادهم بالتوفيق وحسن الطاعة والعون ، وأن ينظر في مظالمهم نظراً ينصر الحق فيه ، وينشر علكم العدل في مطاويه . . مُلِيناً لهم في ذلك جانبه ، ومُيِّناً ما يظل به كاسب الأجر وجالبه ، جامعاً لهم بين العدل والإحسان ، وجاعلاً أمر الله تعالى في ذلك متلقياً بالطاعة الواضحة الدليل والبرهان ، قال الله تعالى : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) .

وهو يلتزم السجع على هذا النحو في رسائله ، محاولاً بكل ما استطاع أن يصفى أفاضله من الشوائب ، ويخلصها من جميع الأدران حتى تروق السامع ، وحتى يبلغ من التأثير فيه كل ما يريد ، وهو يستم تأثيره بما يتحتم به فقره في هذا العهد وفي غيره من رسائله بما يورد من آيات الذكر الحكيم التي تضىء بأشعتها الكلام وتجذب إليه القلوب والأفئدة .

ضياء الدين بن الأثير^(١)

هو ضياء الدين نصر الله بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري ، ولد بجزيرة ابن عمر شمالي العراق سنة ٥٥٨ لأسرة تُعنى بعلوم الشريعة واللغة ، ووجهه أبوه لحفظ القرآن الكريم ، وفرَّغه للدراسة كما فرَّغ أخويه : المبارك وعز الدين صاحب كتاب الكامل في التاريخ . وانتقل ضياء الدين مع أبيه إلى الموصل سنة ٥٧٩ وفيها أتمَّ دراسته للعلوم الإسلامية واللغوية والبلاغية ، وأكبَّ على حفظ الأحاديث النبوية والأشعار القديمة والحديثة وخاصة أشعار أبي تمام والبحتري والمتنبي . ولما أحسَّ أنه كملت له أدواته في الكتابة قصد صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٧ ووصله به القاضي الفاضل وزيره ، فعمل في دواوينه نحو أربعة أشهر ، ثم طلبه الأفضل نور الدين من أبيه صلاح الدين ، ولَّي طلب ابنه ، فانتقل إلى العمل معه بنفس راتبه ، واتخذ لنفسه مستشاراً ووزيراً . وتوفَّى صلاح الدين ، فصارت دمشق للأفضل ، وكلف ضياء الدين بتدبير شئونها ، فأساء التدبير والمعاملة مع أهلها ، حتى هُمُّوا بقتله . وتتطور الظروف ويصبح الأفضل سلطاناً على مصر ، فيلحق به سرّاً في صندوق مقفل عليه خوفاً من الدمشقيين أن يقتلوه . ويظل نور الدين في مصر عاماً يأخذها منه عمه العادل ويعوّضه منها قلعة على الفرات تسمى سُمَيْسَاط . ويخرج ضياء الدين وراءه مستتراً إلى ولايته الجديدة ، ويقم عنده مدة ، ثم يفارقه إلى غير مأب في سنة ٦٠٧ ويرحل إلى أخيه السلطان الظاهر صاحب حلب ، ولا يطول مقامه عنده ، فيولى وجهه نحو الموصل ، ولا تستقيم حاله ، ويفارقها إلى إربل سنة ٦١١ ولا يستقر بها ، بل سرعان ما يخرج منها إلى الموصل ، وبها يلقي عصاه منذ سنة ٦١٨ إذ يصبح كاتب الإنشاء لصاحبها ناصر الدين محمود حتى نهاية حياته ، ويحدث أن يرسله في سنة ٦٣٧ إلى بغداد في بعض المهام ، فيدركه بها الموت .

وحظيَّ ضياء الدين عند الأسلاف بشهرة عظيمة لروعة أسلوبه في رسائله ويقول ابن خلكان إنها كانت تشغل مجلدات ، واختار منها - كما يقول - مجلد واحد . وربما كان أهم منها في سبب شهرته كتابه : « المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر » وفيه صوّر الصناعة اللفظية وما يتصل بها من المحسنات البديعية ، والصناعة المعنوية وما يتصل بها من

(١) انظر في ضياء الدين وترجمته ابن خلكان ٣٨٩/٥ والشذرات ١٨٧/٥ وانظر كتابنا : البلاغة : تطور
والحوادث الجامعة (طبع بغداد) ١٣٦ وعبر الذهبي
١٥٦/٥ ومراة الجنان ٩٧/٤ والنجوم الزاهرة ٣١٨/٦
وتاريخ (طبع دار المعارف) ص ٣٢٣ .

صور البيان ، موضحاً توضيحاً تاماً ما يحتاج الكاتب إلى العكوف عليه واستيعابه وتمثله من العلوم اللغوية والبلاغية والأشعار وأمثال العرب وحفظ القرآن الكريم والحديث النبوى مع معرفة الأحكام السلطانية وخاصة أحكام الخلافة والولايات وما يتصل بذلك من الفقه . وبلغ من إعجاب بعض الأسلاف بالكتاب أن قالوا : « إن المثل السائر للنظم والنثر بمنزلة أصول الفقه لاستنباط أدلة الأحكام » . وله بجانبه كتب أخرى ، منها كتاب الوشى المرقوم فى حلّ المنظوم ، وقد أفرد فيه فصلين لبيان الاستعانة بآيات القرآن الكريم والحديث النبوى فى الرسائل .

وكتاب المثل السائر يضع تحت أعيننا طريقته وخصائصه فى رسائله الديوانية ، وهو يُعنى فيها قبل كل شىء بالسجع وتوشيته بالصور البيانية والمحسنات البديعية ، مع نثر ألفاظ القرآن للكريم والحديث النبوى فيها وحلّ آيات الشعر . وعادة يسوق فى الكتاب أمثلة كثيرة من كتاباته يصور بها جوانب من صناعته فى رسائله ، من ذلك استيحاؤه آيات سور الرعد والذاريات والصفافات ، وهى : (الله الذى رفع السموات بغير عمدٍ ترونها) (وفى السماء رزقكم وما تعدون) (وحفظاً من كل شيطان ماردٍ لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويُقدّفون من كل جانب) إذ يقول فى إحدى رسائله واصفاً غبار الحرب : « وعقد العجاج^(١) شفقاً فانعقد ، وأرانا كيف رفع السماء بغير عمد ، غير أنها سماء بُنيت بسنابك الجياد ، وزُيّنت بنجوم الصّعاد^(٢) ، ففيها ما يُوعد من المنايا لا ما يوعد من الأرزاق ، ومنها تُقدّف شياطين الحرب لا شياطين الاستراق » .

ويعرض علينا أمثلة من اقتباسه للحديث النبوى وألفاظه فى رسائله ، فمن ذلك ما روى عن الرسول عليه السلام من أنه فى غزوة حُنين أخذ قبضة من التراب وألقاها فى وجوه الكفار قائلاً : « شامت الوجوه » . ونقل ذلك ابن الأثير إلى إحدى رسائله واصفاً الانتصار على العدو وسحق جنوده قائلاً : « أخذنا بسنة رسول الله ﷺ فى النصر الذى نرجوه ، ونبذنا فى وجه العدو كفاً من التراب ، وقلنا : شامت الوجوه » . ويورد ضياء الدين أمثلة كثيرة من حله للأشعار ، من ذلك بيت المتنبي الذى يصف فيه استنقاذ سيف الدولة لقلعة الحدث من الروم وتجديد بنائها وتمزيق العدو شرمزق ، إذ يقول : وكان بها مثل الجنون فأصبحت ومن جث القتلى عليها تمائم وقد نثره ضياء الدين فى وصف معركة ماثلة قائلاً : « وكأنما كان بالبلدة جنون ، فبعث لها من عزائمها عزائم ، وعلّق عليها من رءوس القتلى تمائم » . ومن ذلك بيت البحتري :

سَلَبُوا وَأَشْرَقَتِ الدَّمَاءُ عَلَيْهِمْ حَمْرَةً فَكَأَنَّهُمْ لَمْ يُسَلَبُوا
فقد نثره في فصل من جملة رسالة تتضمن البشرى بهزيمة الكفار ومحققهم محققاً لم يبق
منهم ولم يَدْر. والفصل يجري على هذا النمط :

«سَلَبُوا وعاضتهم الدماء عن اللباس ، فهم في صورة عار وزُرُّهُمْ زِي كاس ،
وما أسرع ما حيط لهم لباسُها المحمَّر ، غير أنه لم يُجَيَّب^(١) عليهم ولم يُزَّرْ ، وما لبسوه حتى
لبس الإسلام شعار النصر ، الباقي على الدهر ، وهو شعار نسجه السَّنان الخارق ،
لا الصَّنْعُ الحاذق ، ولم يَغِبْ عن لابسِه إلا ريثما غابت البيض^(٢) في الطُّلى والهام^(٣) ،
وَأَلَّفَ الطَّعْنُ بين ألف الخط واللام .»

والفصل يدل على مهارة ضياء الدين في السجع ، وهي مهارة كتب بها مجلدات ، كما
أسلفنا من الرسائل الديوانية . ونراه في المثل السائر يحمل على الأسجاع الغثة التي تحيل
الكلام رصفاً لألفاظ وحشداً لكلمات دون أن تحمل شيئاً من المعاني الطريفة المبتكرة ،
بحيث لا يلذ السجع الفكر كما لا يلذ السمع .

وينوه ابن خلكان ببعض صوره واستعاراته في أسجاعه ، ويضرب لذلك بعض
الأمثلة ، منها قوله في وصف النيل وقت زيادته وفيضانه في رسالة من رسائله : «وَعَذَّبَ
رُضَابُهُ فضاءَها جَنَّا النَّحْلِ^(٤) ، واحمَرَّ صَفِيحُهُ فَعَلِمْتُ أَنَّهُ قَتَلَ الْمَحْلَ^(٥) » . ويقول ابن
خلكان : «وهذا بدیع غريب نهاية في الحسن ، ولم أقف لغيره على أسلوبه » . وضياء الدين
يشير به إلى طمى النيل ، وكأنه في رأيه دماء الجذب ، وهي حقاً صورة رائعة . وجعلته
عنايته بالمعاني والصور المبتكرة يؤلف كتابه «المعاني المخترعة في صناعة الإنشاء» كما جعلته
عنايته بحل الشعر والاقباس من آيات القرآن والأحاديث النبوية يؤلف كتابه : «الوشى
المرقوم» .

وفي الحق أن ضياء الدين بن الأثير كان من الكتاب المجيدين ، ولم تحظ العراق بعده
بكتابت ديوانى على مثاله أو مثال أنداده السابقين . وحرى بنا أن نترك كتاب الدواوين إلى
أدباء العصر الناهين : أبى حيان التوحيدي ، وابن مسكويه ، والحريري .

(١) جيب الثوب : جعل له جيباً وهو فتحه العليا . (٤) الرضاب : الريق ورغوة العسل . جنا النحل :

عسله .

(٢) البيض : السيوف .

(٣) الطلى : الأعناق ، والهام : الرؤوس . (٥) المحل : الجذب .

أبو حيان ^(١) التَّوْحِيدِيّ

هو أبو حيان علي بن محمد بن العباس التَّوْحِيدِيّ ، وقد اختلف في مسقط رأسه وتاريخ مولده ووفاته ، فقليل مسقط رأسه شيراز بفارس ، وقليل نيسابور بخراسان ، وقليل واسط بجنوبي العراق ، وقليل بغداد ، وهو القول الراجح في رأينا ، إذ ذكر كثير من مترجميه أن أباه كان يبيع نوعا من التمر ببغداد يعرف باسم التوحيد ، وعليه حمل شراح المتنبي قوله :

يترشّفن من فنى رشقاتٍ هنّ فيه أحلّى من التوحيد
وكانه هو وأباه نسباً إلى هذا التمر . وخطأ ما ذهب إليه ابن حجر وغيره ممن ترجموا له من أن نسبته إلى التوحيد تعنى أنه من أهل العدل والتوحيد أى من المعتزلة ، إذ القدماء لا ينسبون إليهم هذه النسبة ، وإنما يقولون هذا معتزلى وذلك غير معتزلى ، وسرى عما قليل أبا حيان من ألد خصومهم وخصوم المتكلمين عامة ، فليس بصحيح أنه منهم ولا أنه منسوب إليهم ، إنما هو ابن بائع متجول ببغداد كان يبيع تمر التوحيد . وفي هذا ما يشير بوضوح إلى أنه كان بغداديا ومن أسرة متواضعة . وتاريخ مولده بالدقة غير معروف ، إنما يعرف بالتقريب ، إذ روى ياقوت رسالة له مؤرخة بشهر رمضان سنة ٤٠٠ ذكر فيها أنه في عشر التسعين ، وإذن فيغلب أن يكون مولده في العقد الثاني من القرن الرابع بين سنتي ٣١٠ و ٣٢٠ . ويقال إنه في السنة المذكورة كان قد ألقى عصاه في شيراز وظل بها حتى توفى ، ويتأخر بعض مترجميه بوفاته إلى سنة ٤١٤ . وليس في المصادر القديمة نص على جنسيته أو على أصله ، واختلف المعاصرون من قائل إنه فارسي ، ومن قائل إنه عربي ، ويرجح عروبه اعترافه - كما جاء في ترجمه ياقوت له - بأنه لم يكن يعرف الفارسية ، وكرّر ما يشير

وزكريا إبراهيم ومحمد كرد علي في الجزء الثامن من مجلة الجمع العلمي العربي بدمشق وأحمد أمين في تقديمه لكتاب الهوامل والشوامل وزكي مبارك في كتابه النثر الفني وإبراهيم الكيلاني في مقدمتيه لثلاث رسائل ولكتاب مثالب الوزيرين ومحمد توفيق حسين في تقديمه لكتاب المقاييسات ويروكلان ٣٣٥/٤ ودائرة المعارف الإسلامية .

(١) انظر في أبي حيان أو ترجمته معجم الأدباء ٥/١٥ وابن خلكان ١١٢/٥ وشهد الإزار لمعين الدين الشيرازي ٥٣ والمتنظم ١٨٥/٨ والسبكي ٢٨٦/٥ وتهذيب الأسماء واللغات ٢٢٣/٢ وميزان الاعتدال للذهبي ٣٥٥/٢ ، ٥١٨/٤ ولسان الميزان لابن حجر ٣٦٩/٦ وروضات الجنات ٧١٤ وكتبته عنه في العصر الحاضر مؤلفات وبحوث كثيرة لعبد الرزاق محيي الدين وإحسان عباس

إلى ذلك في المقابلة الثانية من كتابه «المقابسات» وفي المسألة الرابعة والثلاثين من كتابه «الهوامل والشوامل». وأيضاً فإنه يدافع عن العرب بقوة - دفاع العربي الأصيل - ضد الشعوبيين من معاصريه أمثال الجّهاني ، ويرفعهم مكاناً عالياً ، كما يرفع لغتهم على كل اللغات لبيانها الرائع على نحو ما يلقانا في الليلة السادسة من ليالى كتاب الإمتاع والمؤانسة . وليس بين أيدينا شيء واضح عن طفولة أبي حيان ومرباه ومنشئه ، وطبيعي أن تكون طفولته عادية وأن يختلف إلى الكتاب مثل لداته يحفظ القرآن الكريم والشعر ويتعلم الخط والحساب ، وأكبر الظن أن أباه لاحظ فيه مخايل ذكاء منذ نعومة أظفاره ، مما جعله يدفعه إلى حلقات العلماء في المساجد ، وكانت مفتوحة ومهيأة لكل من أراد لونا من ألوان المعرفة . ويذكر أبو حيان طائفة كبيرة من أساتذته في كتاباته ، منهم في النحو واللغة أبو سعيد السيرافي المتوفى سنة ٣٦٨ وفي البلاغة والبيان على بن عيسى الرمانى المتوفى سنة ٣٨٦ وفي الفقه أبو حامد المروى روى المتوفى سنة ٣٦٢ وفي الحديث أبو بكر الشافعى صاحب الغيلانيات المتوفى سنة ٣٥٤ ، وفي التصوف جعفر الخلدى تلميذ الجنيد المتوفى سنة ٣٤٨ وفي الفلسفة وعلوم الأوائل يحيى بن عدى تلميذ الفارابى المتوفى سنة ٣٦٣ وأبوسليمان المنطقى السجنانى الذى مر ذكره ، وقد تعرّف به في مجلس يحيى بن عدى وانهقدت بينها صداقة وثيقة ، حتى إذا استقل أبوسليمان بندوة أو مجلس كمجلس يحيى بن عدى أصبح أبو حيان من رواده ، بل من ملازميه ومسجلى ما يدور بحضرته . وكان من أكبر الأسباب في اتساع ثقافته وأنها شملت كل علم وفن احترافه الوراقة أو نسخ الكتب بالأجرة للناس ، فقد قرأ وكتب بيده كثيراً من الكتب في كل فن وفي كل علم ، وانطبع كثير مما كتبه في ذهنه وحافظته سواء أكان نثراً أو شعراً . واشتهر بشغفه بكتب الجاحظ وتوفره على تصحيحها وخاصة كتاب الحيوان ، فكان ما يكتبه منه يُعدّ نسخاً نفيسة في عصره ويُدرّ عليه مكافأة جزيلة ، كما جاء في مقدمة كتاب الإمتاع والمؤانسة ، بل لاشك في أن كل ما كان يكتبه كان يُجزى عليه الجزاء الحسن .

وتظل حياة أبي حيان مجهولة لنا حتى أوائل العقد السادس من القرن ، إلا ما نعرفه عنه من أنه كان ورّاقاً ، يعيش من نسخ الكتب ، ونراه يذهب إلى الحج في سنة ٣٥٣ ويتعرف في مكة على جماعة من الصوفية ، منهم ابن الجلاء والحراّنى ، وفي كتاباته روايات وأخبار نسبها إليهما . وعاد إلى بغداد في سنة ٣٥٤ والتقى فيها ببعض المتصوفة . ويبدو أنه أنس في نفسه شيئاً من القدرة الأدبية ، فرأى أن يقصد إلى ابن العميد في الرّى لعله يجد لنفسه عملاً عنده ، أو لعله يوصى به أولى الأمر في خراسان . ويظل بعيداً عن بغداد منذ سنة

٣٥٥ حتى سنة ٣٥٨ إذ عاد إليها خالى الوفاض بعد أن طال وقوفه بباب ابن العميد . وكان تعرف في هذه الرحلة الطويلة إلى ابن مسكويه وبعلم من أعلام الهندسة والرياضة هو أبو الوفاء المهندس . وطبيعى أن يعود أبو حيان إلى عمله في الوراقة ونسخ الكتب . ويحدث في سنة ٣٦٣ أن تشتد مظالم الدولة للرعية بما ترهقها به من الضرائب وأن ثور الطبقات البائسة المحرومة ، واستفحل أمر العيارين وسيطروا على بغداد ونهبوا كثيرا من الدور خاصة دور الأغنياء ، وكان مما نهبوه دار التوحيدى ، فقد أخذوا كل ما كان بها من ذهب وثياب وأثاث وكل ما كان جمعه منذ أيام صباه كما يقول هو نفسه في الجزء الثالث من كتابه الإمتاع . ولعل هذا ما جعله يهاجم العيارين لا في هذا الكتاب وحده ، بل أيضا في كتاب الصداقة والصدق ، بل إنه يهاجم العامة جميعا حتى يقول في الليلة السادسة عشرة من كتاب الإمتاع : « طلب الرفعة بينهم ضعة والتشبه بهم نقيصة » . وهو استعلاء غريب على العامة من رجل أسرته منهم ونشأ بينهم . وأهم من ذلك أنه يعترف بما أكسبته الوراقة من ذهب وثياب وأثاث ، ومع ذلك نراه هاجسا لهذه المهنة أشد الهجاء بالبالها أشد الثلب حتى ليسميا « حرفة الشؤم » . وهو يضيف إلى ذلك شكوى مرة من البؤس ، مما جعل كل من كتبوا عنه في هذا العصر يرثون لبؤسه وفقره ، معللين ذلك بأنه كان يعيش على الوراقة ، مع أنه كان يعيش منها في عصره بعض كبار العلماء دون شعور بالبؤس ، بل كان منهم من يكفى بالقليل مما ينسخ في حدود حاجته على نحو ما يروى ياقوت في ترجمته للسيرافى أستاذ أبى حيان في النحو واللغة من أنه كان لا يخرج إلى مجلسه في القضاء بين الناس أو في محاضرة طلابه حتى ينسخ عشر ورقات بعشرة دراهم بقدر مئوته يوميا . وطبعا لم يكن أبو حيان وأمثاله من المحترفين للوراقة يكتبون بمثل هذه الورقات القليلة . وكان يحيى بن عدى أستاذه في علوم الأوائل وما يتصل بها من الفلسفة يحترف الوراقة على نحو ما يروى القفطى في ترجمته ، كما مر بنا ، وكان يكتب في اليوم واللييلة مائة ورقة . فالوراقة لم تكن مهنة بائسة كل هذا البؤس الذى تصوّره المعاصرون من شكوى أبى حيان المستمرة من الضنك وضيق العيش . وفى رأينا أن بؤسه كان بؤسا نفسيا أكثر منه بؤسا ماديا ، فقد كان يرى كثيرين ارتفعوا في الحياة وهم دونه في الثقافة والمعرفة والأدب والكتابة ، فكان يشعر بضجر شديد وبشقاء لا حد له يملا قلبه حسرة ولوعة ، وظل هذا الشعور يلزمه حتى الأنفاس الأخيرة من حياته .

على كل حال لم تمنحه الوراقة راحة ولا رضا ولا طمأنينة ، ولعله من أجل ذلك فكر أن يضيف إليها بعض مؤلفات يكتبها أو يهديها باسم بعض الأعيان أو بعض ذوى المناصب

الكبرى ، وأيضاً فإن ذلك لم يُعدّ عليه بشيء من طمأنينة النفس وراحة الفؤاد فظل يشعر بالتعاسة والقلق المضمّن . . ومن أوائل ما ألفه كتابه « البصائر والذخائر » الذى نشره الدكتور إبراهيم كيلانى بدمشق فى ستة أجزاء ، ويقول التوحيدى فى مقدمته إنه ابتداءً فيه سنة ٣٥٠ وانتهى منه فى سنة ٣٦٥ كما يقول إنه استقاه من كتابات الجاحظ وابن قتيبة والمبرد وغيرهم من أعلام الأدب فى القرن الثالث الهجرى . والكتاب على طريقة الجاحظ فى كتابه البيان والتبيين ، ويحمل كثيراً من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأقوال النساك وأشعار الشعراء وكلام حكماء الفرس واليونان والهند ، مما قرأه أبو حيان فى أثناء نسخه للكتب من كل لون وللدواوين القديمة والحديثة وفيه كثير مما سمعه من أساتذته ومعاصريه . وليس له فيه إلا جودة الاختيار وإلا مقدمته التى يدعو فيها إلى الزهد فى الحياة الدنيا الزائلة . وهى نزعة كانت تمس نفسه فى الأربعينيات على ما يظهر ، وكذلك فى الخمسينيات من عمره وبعد ذلك ، وهى التى دفعته إلى الحج ، غير أنها لم تكن تعمقه ، ولذلك نراه يطلب الدنيا فيذهب إلى الرىِّ وأرجان وافداً على أبى الفضل بن العميد ، ويرجع بخفى حنين . ويدور الزمن ويتولى الوزارة ابنه أبو الفتح ، ويزور بغداد ويتناقل الناس أخبار عطايه للعلماء وفى مقدمتهم السيرافى وأبوسليمان المظفى ، ويشد أبو حيان الرحال إليه فى الرىِّ سنة ٣٦٦ راجياً أن يعوضه ما نهبه منه العيارون منذ ثلاث سنوات ، ويقدم إليه رسالة رواها ياقوت تكتظ بملق مسرف غاية الإسراف وإلحاح شديد فى السؤال وطلب النوال ، حتى لكأنه من أهل الكدبة والشحاذة الأدبية . وما كان أغناه عنها ، فإن أبا الفتح قابلها بالإعراض ، وكان أبو حيان يسرع دائماً إلى الهجاء والذم ، فربما بلغه عنه شيء منها على الأقل يتصل بأبيه أبى الفضل بن العميد الذى ازورّ عنه . وتتطور الحوادث سريعاً ، ويفتك مؤيد الدولة البويهى بأبى الفتح ويخلفه الصاحب بن عباد ، فيعرض عليه أبو حيان خدماته ، ويكلفه بالوراقة له والنسخ ، ويظل ناسخاً له مدة ثلاث سنوات حتى سنة ٣٧٠ . وكان يحضره مجالسه وعلى مواعده ، فيتدخل فيما يكون من حديث ببجاجة وزهو وتعلم مما ملأ نفس الصاحب عليه حقاً وموجدة ، فبرم به الصاحب برماً شديداً ، وأبو حيان لا يراجع ، بل يزداد وقاحة . ولا يبعد أن يكون أبو حيان قد أخذ يسأل عليه لسانه ، وأن شيئاً من ذمه نُقل إليه . على كل حال فسد ما بينها فساداً من الصعب إصلاحه أو رتقَه . وأخذ الصاحب يحفوه ويصدّه عن مجالسه صداقبيحاً . وليس ذلك فحسب فقد حرمه من مكافآته على ما ينسخ ، إذ حبس عنه أجرته ، وكلما لقيه تجهّم له ، مما اضطر أبا حيان أن يرحل عنه بعد عمل متواصل لمدة ثلاث سنين دون أن يأخذ منه كما قال درهما

أوما قيمته درهم . وبمجرد أن عاد أبو حيان إلى بغداد انتقم منه ومن أبي الفضل بن العميد شر انتقام بتأليفه فيها كتابه « مثالب الوزيرين » الذى نشره بدمشق الدكتور إبراهيم الكيلانى ، وهى صحف هجاء لاذعة أشد اللذع للوزيرين الكاتبين المشهورين ، إذ تحامل عليها تحاملا مسرفا وتجنى عليها تجنيا قبيحا ، محاولا بكل ما استطاع أن يسلبها ما اشتراها به فى الناس من الفضائل . ونصيب الصاحب فى هذا الهجاء المقذع أكثر من نصيب أبي الفضل بن العميد ، لأن جرح أبي حيان منه كان أبعد غوراً وأشدّ إيلا .

ويعود أبو حيان جريحا كسيرا إلى بغداد وإلى حرفته فى الوراقة ، ويشفق عليه ابن مسكويه وصديقه أبو الوفاء المهندس ، لما تجرّع من حرمان مرير ، ومدّ إليه يد العون أبو الوفاء . أما ابن مسكويه فإنه ارتضى منه أن يؤلف معه كتابه « الهوامل والشوامل » والهوامل أسئلة لأبى حيان فى الفلسفة والطبيعة والسلوك واللغة ، والشوامل إجابات بديعة لابن مسكويه ، وقد نشره أحمد أمين والسيد صقر فى القاهرة ومعروف أن ابن مسكويه كان يلازم عضد الدولة ، فلا بد أن يكون قد نزل معه بغداد حين استولى عليها من ابن عمه بختيار سنة ٣٦٧ وكان أبو حيان غائبا فى الرى ، حتى إذا عاد وجد ابن مسكويه وكان قد تعرف به قديما حين نزل الرى زمن أبي الفضل بن العميد . والمظنون أن حوار الهوامل والشوامل لم ينعقد بينهما حينئذ ، وإنما انعقد فى بغداد بعد مجيء أبى حيان من لدن الصاحب كاسف البال مقروح الكبد ، يؤكد ذلك أننا نجد ابن مسكويه يحاول أن يفرّج عنه الغم الذى ملأ قلبه وما انطوى عليه من الإحساس باليأس والمرير من الزمان والإخوان ، إذ لاحظ مسارب ذلك فى حنايا نفسه وجوانب أسئلته ، فقال له فى مطلع أجوبته : « انظر حفظك الله إلى كثرة الباكين حولك وتأس ، أو إلى الصابرين معك وتسلى ، فلعمر أبىك إنما تشكو إلى شاك وتبكي على باك ، ففى كل خلق شجى وفى كل عين قدى » . فالناس كلهم شاكون باكون مثل أبى حيان ، وكلهم يعترض فى حلقة ما يكاد يغصُّ به ، وحسبه أن يكون له فى الناس قدوة وأسوة . وكأن ابن مسكويه أراد بالكتاب أن يكون فيه سلوان لأبى حيان ، ينسيه همومه ولو إلى حين . ومع تقديمه هذه الهدية الفكرية لأبى حيان نجده يهاجمه فى الليلة الثانية من كتابه الإمتاع ، ويبدو أن سبب تهجمه عليه ما نعت به أبو حيان من أنه كان شحيحاً شحاً شديدا ، وكأن أبا حيان لم يجد عنده ما كان يأمله من العون على ما كان يتجرّعه من الصاب والعلقم .

أما أبو الوفاء المهندس فكان نعم الصديق لأبى حيان ، وكان قد تعرف عليه قديما ووعده بالسعى فى صلاح حاله ، وحين لقيه بعد عودته من لدن الصاحب أراحه بصره كما يقول أبو

حيان وأعاره سمعه ، وبدأ فتوسط له عند القائمين على بیمارستان بغداد ، فعيّنوه راعياً لبعض شئونه . وأهم من ذلك أنه قرّبه من ابن سعدان أحد كبار رجال الدولة البويهية ، فكلفه بنسخ كتاب الحيوان للجاحظ ، وأخبره زيد بن رفاعه في سنة ٣٧١ أن أبا حيان يفكر في صنع رسالة عن الصداقة والصديق ، فشجع ابن سعدان أبا حيان على إنجازها غير أنه لم ينجزها تواً ، بل ظل يراجعها ويزيد فيها حتى نشرها سنة أربعمئة ، وهي أقوال وأشعار مجموعة على طريقته في كتابه البصائر والذخائر ، ولا يكاد يكون له فيها سوى المقدمة وحديث عن ندماء ابن سعدان وحسن اختياره للمادة التي كوّن منها الموضوع ، والرسالة طُبعت بإستانبول والقاهرة . ويتسم الزمن لابين سعدان من سنة ٣٧٢ حتى سنة ٣٧٥ إذ يصبح وزيراً لضمصام الدولة البويهى ويتخذ له مجلساً علمياً فلسفياً أديباً للحوار ليلاً في كل ما يتصل بالإنهيات والطبيعات والأخلاق وعلم الكلام واللغة والشعر وقد ذكر أبو حيان العلماء والمتفلسفة الذين كانوا يتحاورون في هذا المجلس بكتابه « الإمتاع والمؤانسة » وقد نشره أحمد أمين وأحمد الزين في ثلاث مجلدات بالقاهرة . وجعل ابن سعدان أبا حيان واسطة عقد هذا المجلس ، فأزال من نفسه غشاوات الكآبة التي كانت قد تراكمت فيها طوال سنوات وقوفه بأبواب الوزراء : أبى الفضل بن العميد وابنه أبى الفتح والصاحب بن عباد ، وسأله صديقه أبو الوفاء أن يسجل في كتاب أطرف المسائل التي تناوّلها حواراه مع ابن سعدان ، فألف له كتاب الإمتاع مقتصرًا فيه على مادار في سبع وثلاثين ليلة ، وعادة يعرض الوزير سؤالاً ويأخذ أبو حيان في الإجابة ، وقد يطلب إليه في موضوع أن يكتب فيه رسالة حتى يوفيه حقه ، وقد ينقل إليه مناظرة طويلة دارت في سوق الوراقين أو دارت في عهد وزير آخر مثل مناظرة السيرافى ومتى بن يونس في النحو والمنطق بمجلس الوزير ابن الفرات سنة ست وعشرين وثلثمئة ، وقد رواها أبو حيان كاملة في الليلة الثامنة . وعرض الحوار جانب من حياة البغداديين كجانب الغناء واللهو . وليس في الكتاب ما يدل على أنه أُلّف بعد فلك ضمصام الدولة البويهى بابين سعدان سنة ٣٧٥ ويغلب أن يكون أبو حيان ابتداءً تأليفه في حياة الوزير ، وأتمه بعد وفاته ، ذكرى عزيزة له ولمجلسه العلمى الفلسفى الرائع الذى لم يبلغ مبلغه مجلس أى وزير أو حاكم بويهى في زمنه .

وعلى نحو ما سجل أبو حيان حواراه مع ابن سعدان في الإمتاع والمؤانسة سجّل في كتاب المقابسات أطرف ما دار من حوار في ندوة أبى سليمان المنطقى السجستانى ، ومرّ بنا في غير هذا الموضوع حديث طويل عن المقابسات وعن أبى سليمان ، ونرى أبا حيان يصرّح

في المقابلة الخامسة والثلاثين أنه يكتبها ووراءه خمسون عاما ويذكر في المقابلة الحادية والستين أنه قرأ على أبي سليمان كتاب النفس ببغداد سنة ٣٧١ ، ويتحدث في المقابلة الثانية والخمسين عن شخص توفي سنة ٣٨٦ وهناك مقابلة هي المقابلة الثانية والثمانون اختلفت المخطوطات في تاريخ إملاء أبي سليمان لها على تلاميذه ، هل هي سنة إحدى وسبعين أو هي سنة إحدى وتسعين . وإن صح التاريخ الأخير كان زمن المقابلات وإلقائها يمتد طويلا من نحو سنة ٣٧٠ حتى سنة ٣٩١ وإلا فقد امتد يقينا حتى سنة ٣٨٦ .

وليست المقابلات جميعها من إملاء أبي سليمان فكثير منها من إملاء من كانوا يحضرون ندوته من المتفلسفة ورجال الفكر . ويذكر أبو حيان في المقابلات الثانية والرابعة والواحدة والتسعين أنه حرر كلام أبي سليمان وغيره من أهل الندوة فأخلاه مما كان فيه من اضطراب اللفظ وزيج التأليف ، ويقول إنه استنفد الطاقة في تنقية الألفاظ من الشوائب ، حتى يسلم التعبير . وجعل ذلك بعض المعاصرين يتسع في الظن ، فيقول إن صياغة المقابلات وغيرها من النصوص التي يحكيها أبو حيان عن المتفلسفة إنما هي من صنيعه ، وإن أبا سليمان وغيره من جلسائه إنما لهم المعنى وحده . وقد يؤكد ذلك بالقياس إلى أبي سليمان خاصة ما وصفه به أبو حيان في الليلة الثانية من كتابه « الإمتاع » بأن في لسانه لُكْنَةٌ ناشئة عن عجمته وما ذكره عنه من أن في عبارته تقطعا في السياق ، غير أن ما نعرفه عن أبي حيان من أن أحدا لم يسلم من لسانه يجعلنا نشك فيما قاله عن أستاذه . ولعل لا أجاوز الحق إذا قلت إن المقابلات في جملتها من كلام أبي سلمان ورفاقه نصًّا ولَفْظًا . ومما يؤكد ذلك أن من يرجع إلى المقابلة السابعة عشرة المنسوبة لابن سوار المشهور باسم ابن الخمار المتفلسف يجدها بنصّها ولفظها في كتاب صوان الحكمة لأبي سليمان المنطقي ص ٣٣٥ ومثلها المقابلة الثانية والأربعون المنسوبة إلى نفس المتفلسف فإنها بنفس اللفظ والنص في صوان الحكمة ص ٣٥٣ . والمقابلة التاسعة والعشرون المنسوبة إلى النوشجاني موجودة بلفظها ونصها في صوان الحكمة ص ٣٤١ . ونفس أبي سليمان في كتابه صوان الحكمة وفي رسائله التي ألحقها به الدكتور بدوى يملك بوضوح زمام العربية ويصدر عن ملكة بيانية جيدة . ونحن لا ننفي عن أبي حيان جهده في تنسيق المقابلات وتصحيحه أو إصلاحه بعض عباراتها ، ولكن هذا لا يعني ما قيل من أن اللفظ أو الصياغة في المقابلات له ، والمعنى لأبي سليمان وصحبه ، فصياغتها ولفظها أيضاً لهم إلا ما أدخله أبو حيان في بعض التغييرات وبعض الحذف أو الزيادات أحيانا . وقد طُبِعَ كتاب المقابلات طبعات مختلفة في بومباي والقاهرة وبغداد .

ونمضى مع أبى حيان بعد وفاة ابن سعدان ، ويبدو أنه عاد بعده إلى عملين : الوراقه وتأليف بعض الكتب والرسائل وأهم كتاب أخرجه بأخرة من حياته كتاب الإشارات الإلهية المطبوع في القاهرة وبيروت ، وأكثره مكتوب في صورة رسائل موجهة إلى بعض الضالين عن طريق الهداية الإلهية وإلى بعض السالكين وإلى مجموعة من المتصوفة . وتتخلل ذلك مناجيات وأدعية وابتهالات تصوّر استشرافه إلى الملأ الأعلى . وقد يهبط من هذا الملكوت إلى تصوير ما استشره سنوات طوالا من الضياع والحرمان والشكوى من الناس شكوى مريرة حتى ليتجه إلى ربه في رسالته رقم « يه » قائلا : « اللهم إليك أشكو ما نزل بي منك ، وإياك أسأل أن تعطف علىّ برحمتك ، فقد - وحقك - شددت الوثاق ، وضيق الخناق ، وأقت الحرب بيني وبينك » . ومثل هذا الإحساس بالتمرد على الخالق إنما بلغ ذروته ، حتى أصبح إحساسا بالحرب كما يقول ، في عهود وقوفه بأبواب الوزراء : أبى الفضل بن العميد وابنه أبى الفتح والصاحب بن عباد . ولذلك نطن ظنا أن الإشارات الإلهية مثلها مثل كثرة كتبه لم تؤلف في عام واحد ولا في أعوام قليلة ، فبعضها يرجع إلى الستينيات من حياته إن لم يكن إلى الخمسينيات ، وبعضها متأخر في السبعينيات من حياته وبعد السبعينيات يدل على ذلك ما يجرى في كلامه من هجر للدنيا وترهاها وتعلق بالله ووقوف طويل ببابه في طلب العفو والرجاء في نعيمة ، وعينه تعصرها الدموع ، وقلبه يتحرق شوقاً لاكتحال بصره بنور ربه .

وحاول الدكتور عبد الرحمن بدوى في تقديمه للكتاب أن يربط بين مناجيات أبى حيان في الإشارات وبين مزامير داود وبعض آيات الأنجيل وأولى من ذلك في رأينا الربط بين مناجياته والمناجيات الماثورة في عيون الأخبار لابن قتيبة ، فصادرها عنده مصادر إسلامية لا أجنبية . وهى تدل بقوة على تعمق الدين الحنيف في قواده وصفاء جوهره الروحى . أما ما رده ابن الجوزى والذهبي وغيرهما - ونقله عنهم السبكى في طبقاته - من أنه كان زنديقا كبيرا ، فهو بهتان عليه أى بهتان ، وقد دافع عنه السبكى ، وقال إن الذهبي حمل عليه ، كما حمل على المتصوفة جميعاً ، وهى حملة ظالمة .

والحق أنه كان سنيا شديد التمسك بالسنة ولعل هذا هو السبب المهم الذى جعله يهاجم المعتزلة والأشاعرة والمتكلمين مهاجمة عنيفة ، حتى ليقول فيهم عامة في الليلة الثامنة من كتابه الإمتاع : « لم أر متكلماً في مدة عمره بكى خشية أو دمت عينه خوفاً أو أقنع عن كبيرة رغبة . . . جدّ الله عروقهم واستأصل شأفتهم » وبفضل الأمين عليهم ويقول إنهم أتق الله عز وجل وأذكر للمعاد وأيقن بالثواب والعقاب ، ويسلق الباقلا في الأشعري العظيم

بلسان حاد . وهى طبيعةً أبى حيان حين يهجو يُسِفُّ فى هجائه إسفافاً شديداً ، حتى لنراه يصف الباقلا فى بأنه على طرائق الملحدة . وربما كان من أسباب حملته على المتكلمين - بجانب أنه سنى - ما أشرنا إليه فى غير هذا الموضع من أنهم كانوا يصلون بين الفلسفة والدين ، وكان هو وأستاذه أبو سليمان يرون الفصل بينهما ، حتى لا يتسلل الإسماعيلية وغيرهم عن طريق هذا الوصل ، كما مرَّ بنا ، إلى مذاهبهم ونحلهم الباطلة . وكان يهاجم الشيعة كما هاجم المتكلمين وكانت الدولة البويهية الحاكمة لبغداد شيعية ، فلم يهاجرهم بالهجوم ، بل اتبع طريقة أخرى : أن يكتب رسالته التى سماها رسالة السقيفة ، وينسبها إلى أبى بكر وعمر زاعماً أنها وجهها بها إلى على بن أبى طالب لبيان أنه دون أبى بكر منزلة فى استحقاق الخلافة . وقد نشرها بدمشق إبراهيم الكيلانى مع رسالتين أخريين : أولاهما فى علم الكتابة والثانية فى بيان أنواع الحياة على نحو ما كان يتصورها المتفلسفة فى عصر أبى حيان . وله رسالة فى بيان ثمرات العلوم نشرت ملحقة بكتاب الصداقة والصدى المطبوع فى القاهرة وبها تعريفات للعلوم المختلفة .

ووراء كل ما قدمنا لأبى حيان كتب ورسائل أخرى سقطت من يد الزمن ، فلم تصلنا ، منها رسالة سماها « الحج العقلى إذا ضاق الفضاء عن الحج الشرعى » وأكبر الظن أنه يقصد بها - إن صحت نسبتها إليه - النسك والعبادة لمن لا يستطيعون إلى الحج سبيلاً . وذكر ياقوت رسالة له كتبها إلى أحد أصدقائه سنة أربعائة وفيها يذكر أنه أحرق كتبه ، لما فقد من الولد النجيب والصدى والحبيب والتابع الأديب ، ونظن ظناً أنه لم يحرق جميع كتبه ، وإنما أحرق طائفة منها يريد أن ينشرها فى الناس ، ولعله لم يرتض أن تنسب إليه . وعلى كل حال كتبه المهمة كانت قد ذاعت وشاعت نُسخُها فى الناس ، فلم يؤثر إحراقه لها - إن كان قد أحرقها - شيئاً . وكأن هذا الإحراق كان معلماً قوياً على طريق حياته التى أخذ يَمْضِيها فى شيراز منذ هذا التاريخ متجهاً بكيانه وروحه إلى بارئه ، مناجياً له وداعياً ، مع اتخاذه لنفسه حلقة يروى فيها الناس عنه - كما ذكر السبكى - الحديث النبوى حتى وفاته .

وأبو حيان يُعَدُّ أكبر أدباء العراق فى هذا العصر من القرن الرابع الهجرى إلى القرن الثالث عشر ، ويمتاز أدبه بتنوع موضوعاته ، إذ تناول فيه - كما فى كتابه الإمتاع والمؤانسة - كثيراً من جوانب التفلسف والفكر العميق فى الإلهيات والطبيعات والإنسان والأخلاق والنفس ، فأدبه ليس لفظياً ، قَعَقَعَةً ولا طَحْنً ، بل هو أدب يحمل زادا كبيراً من المعانى ، وقد أشار مراراً فى الإمتاع وغيره من كتبه إلى أن واجب الكاتب أن يعنى بالمعانى كما يُعْنَى بالألفاظ ، وهو شئ طبيعى لمن تمثل مثله ثقافة زمنه على اختلاف ألوانها ، فقد

استوعبها استيعاباً رائعاً، وصدر عنها في كتاباته صدوراً طبعياً ، كما يصدر الضوء عن الشمس . وأداه ذلك إلى أن ينفصل عن موجة السجع التي سادت الكتابات الأدبية في أيامه ، إذ رأى فيها طلباً للفظ أو الألفاظ واستعلاء لها على المعاني ، بل قل تحيُّفاً وانتقاصاً ، فازورَّ عنها . وكانت المكتبة العربية قد أَلقت بكنوزها بين يديه في أثناء وراقته ونسخه ، فراحه أسلوب الجاحظ وأدبه ، إذ رآه يوازن موازنة دقيقة بين الأداء الصوتي والمعاني ، مستخدماً أسلوب الازدواج الذي عُرِف به ، وقد يتخلله في الحين البعيد بعد الحين السجعُ ، ولكن دون التزامه ودون الإكثار منه ، فاستقر هذا الأسلوب في نفس أبي حيان وأصبح جزءاً لا يتجزأ من أدبه وكتاباته . ويبلغ فيه ذروة من الجمال الصوتي لعلها لا تقل جمالاً وروعة عن نظيرتها عند الجاحظ . وهو يتسع اتساعاً واضحاً في أسلوبه بالترادف وما يتبعه من التقطيع الصوتي ، ولنقرأ هذه الفقرة في فاتحة الرسالة التي توصل بها إلى أبي الفتح بن العميد .

« اللهم هبَّ لي من أمرى رشدًا ، ووفَّقني لمرضاتك أبداً ، ولا تجعل الحرمان عليَّ رَصداً ، أقول وخير القول ما انعقد بالصواب ، وخير الصواب ما تضمن الصدق ، وخير الصدق ما جلب النفع ، وخير النفع ما تعلق بالمزيد ، وخير المزيد ما بدا عن شكر ، وخير الشكر ما بدا عن إخلاص ، وخير الإخلاص ما نشأ عن اتفاق ، وخير الاتفاق ما صدر عن توفيق » .

وقد بدأ أبو حيان الرسالة بالسجع وسرعان ما انصرف عنه إلى أسلوب الازدواج ، معادلاً بين كل عبارة وتاليها معادلة صوتية دقيقة ، وليس ذلك فحسب ، فإنه يستغل قدرته الفكرية في تفریع الجمل بعضها من بعض ، إذ بدأ بالصواب وجعله ينتهي بالتوفيق . ونحس كثيراً إزاء ازدواجات أبي حيان وتفريعاته كأنما يريد أن يكتسح بها قارئه اكتساحاً ، دون أن يستطيع تخلّصاً أو إفلاتاً . وكان عجباً له أن هذه الرسالة التي كتبها لأبي الفتح لقيت منه إعراضاً ، وعرف أن السبب في ذلك أنها لم تكتب بلغة السجع لغة معاصريه ، إنما كتبت بأسلوب الجاحظ ، فرأى أن يدافع عن هذا الأسلوب بقوة مما جعله يكتب رسالة في تقييد الجاحظ يشيد فيها به وبفنه . ولا يروعنّا عنده ظاهر هذا الأسلوب وما يتخلله من السجع أحياناً إنما يروعنّا فيه أيضاً ما شفعه به من تلوينات عقلية تتداخل في جميع أوعيته الصوتية ، ونقصد الشراب السائع الذي تحمله هذه الأوعية من المعاني الغزيرة حين يتحدث عن موضوع من الموضوعات ، فإذا هو يستقصيه من جميع أطرافه ، ولا يكاد يترك فيه فكرة ولا خاطرة . ويكفي لبيان ذلك كتابه « مثالب الوزراء » الذي

يقع في نحو ثلثائه وستين صحيفة ، إذ لم يترك جانبا فيها إلا مزقه تمزيقا ، وخاصة صاحب بن عباد ، وإنه ليعتذر عن ثلثه وذمه بمثل قوله في الكتاب :

« رماني عن قوسه مُعْتَرَقاً ^(١) فأفرغت ما كان عندي على رأسه مغيطا ، وحرمني فازدريته ، وحقرتني فأخزيتي ، وخصّني بالخيبة التي نالت مني ، فخصصته بالغيبة التي أحرقتي ، والبادي أظلم ، والمتصف أعذر ، وكنت كما قال الأول :

وإن لسانی شَهِدُهُ يُشْتَفَى بِهِ أَجَلٌ وَعَلَى مَنْ صَبَّهُ اللَّهُ عَلَقُمُ وَلَنْ كَانَ مِنْعِي مَالَهُ الَّذِي لَمْ يَبْقَ لَهُ ، فَا حَظَرَ عَلَى عِرْضِهِ الَّذِي بَقِيَ بَعْدَهُ ، وَلَنْ كُنْتُ أَنْصَرَفْتُ عَنْهُ بِخُفْيٍ حَيْنٍ ، لَقَدْ لَصِقَ بِهِ مِنْ لِسَانِي وَقَلَمِي كُلِّ عَارٍ وَشَنَارٍ ^(٢) وَشَيْنٍ ، وَلَنْ لَمْ يَرِنِ أَهْلًا لَنَاثِلَهُ ^(٣) وَبِرِّهِ ، إِنِّي لِأَرَاهُ أَهْلًا بِقَوْلِ الْحَقِّ فِيهِ ، وَنَتْ ^(٤) مَا كَانَ اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنْ مَخَازِيهِ ، وَلَنْ كَانَ ظَنُّ أَنْ مَا يَصِيرُ إِلَيَّ مِنْ مَالِهِ ضَائِعٌ ، إِنِّي لِأَوْقِنُ الْآنَ أَنْ مَا يَتَصَلُّ بِعَرَضِهِ مِنْ قَوْلِي شَائِعٌ . والمنصف في الحكم يَعُذِّرُ الْمَظْلُومَ ، وَيُلُومُ الظَّالِمَ » .

وواضح في الفقرة أن أبا حيان يعتمد في أسلوبه المزدوج على المقابلات ، فهو يقابل بين صنيع الصاحب به وصنيعه بالصاحب في كل عبارتين متواليتين . وهو يتسع في ذلك هنا وفي كثير من جوانب كتاباته ، يرفده في ذلك ذهن خصب حافل بالمعاني المتقابلة فلا يكاد المعنى يدونه قلمه حتى يسيل معه مقابله . وشيء من ذلك كان عند الجاحظ وقد صورناه في حديثنا عنه بكتابنا « الفن ومذاهبه في النثر العربي » ولكن الجاحظ لا يبلغ فيه هذا المبلغ الذي نجده عند أبي حيان فقد كانت ثقافته ، وخاصة الثقافة الفلسفية ، أوسع بحكم تقدم العصر ، فغزر فكره إلى أقصى حد ، وكان لسانه يطاوعه ولا يتأني عليه شيء من التعبير ، فأتسعت المقابلات عنده واتسع توليد المعاني بل فيضانها من نبع متدفق لا يتوقف رفدُهُ ولا مددُهُ . ونراه في الإشارات يصور إحساسه في أواخر حياته بالغرابة التي طالما أمضته والتي وصفها في مقدمة رسالته : الصداقة والصديق ، إذ لم يبق له مؤنس ولا صاحب ولا مشفق إلا الوحشة والوحدة ، وكادت شمس الحياة تغرب ، وماء الحياة ينضب . وإنه ليطيل في الإشارات في وصفه للغريب إذ يمتد في ست صفحات لَبَّته فيها الألفاظ وَلَبَّته المعاني بمثل قوله :

« قد قيل الغريب مَنْ جفاه الحبيب ، وأنا أقول : بل الغريب من واصله الحبيب ،

(١) معترقا : أى حتى نفذ السهم من اللحم إلى

(٢) نازل : عطاء .

(٣) نث : نشر .

العظم .

(٤) شنار : شنة .

بل الغريب من تغافل عنه الرقيب ، بل الغريب من حابه الشَّريب^(١) ، بل الغريب من نودى من قريب ، بل الغريب من هو فى غربته غريب ، بل الغريب من ليس له نسيب ، بل الغريب من ليس له من الحق نصيب . . والغريب من غربت شمس جاله ، واغترب عن حبيبه وعدَّاه . . والغريب مَنْ إن حَضَرَ كان غائبا ، وإن غاب كان حاضرا . . والغريب من إذا ذُكر الحق هُجر ، وإذا دعا إلى الحق زُجر ، وإذا قعد لم يُزْر . . الغريب مَنْ إذا قال لم يسمعوا قوله ، وإذا رأوه لم يدوروا حوله . . الغريب من إذا أقبل لم يوسَّع له ، وإذا مرض لم يُسأل عنه . . الغريب من إن زار أُغلق دونه الباب ، وإن استأذن لم يُرفع له الحجاب . . الغريب ليله أَسَف ، ونهاره كَهَف ، وغداؤه حَزَن ، وعشاؤه شَجَن ، وسيره عَلَن ، وخوفه وطن . .

وهى كلمات من سيل الغربة الذى تدفق فى صفحات الإشارات ، وكأنما هو سيل ليس له آخر من المعانى التى صيغت فى أسلوب الازدواج . وغلبَ السجع فى هذه الكلمات ، وهو يكثر فى الإشارات كثرة لا نراها فى كتبه الأخرى ، مما يدل على أنها حقا آخر كتاباته . ونجد فيها نفس الحرارة التى لا تغيب أبدا عن كتابات أبى حيان لا فى شبابه ولا فى هرمه . وارجع إلى فكر أبى حيان الخصب فى هذه الكلمات وما يصوره من ضروب الغربة ، حتى لتشمل الغربة النفسية لمن لم يغترب ، بل لمن يواصله الحبيب وينعم بوصله . وبذلك بثَّ فى كلامه معانى إنسانية عميقة ، وهى تجرى فى كتاباته ، وقد ختم حديثه عن الغريب بقوله : « دع هذا كله . الغريبُ من أخبر عن الله بأنباء الغيب داعيا إليه ، بل الغريب من تهالك فى ذكر الله متوكلا عليه ، بل الغريب من توجه إلى الله قاليا لكل من سواه ، بل الغريب من وهب نفسه لله متعزضا لجَدَّواه » . فحتى الصوفى غريب ، ولعله أولى بالشفقة والعطف من جميع الغرباء حوله . ومن أروع الأشياء حقا أدعيته ومناجياته لربه فى الإشارات من مثل قوله :

« اللهم رَوْحَ صدورنا بنسيم وُدِّك ، واغمرُّ أرجاء قلوبنا بغوامر من رِفْدك ، وأدِقْنَا حلاوة بَرِّك ، وجُدْ علينا بك ، وخَلِّ بيننا وبينك ، وجَلِّ أبصارنا إليك . . واجعل أرواحنا مغارس معرفتك ، وألستنا قواطف وصفك ونعتك ، فى قدرتك وحكمتك ، وإذا عطشنا فَرَوْنَا ، وإذا ضعفنا فقَوْنَا ، وإذا اعوجَجْنَا فسَوْنَا ، وإذا اعتللتنا فداوْنَا ، وإذا كدَرْنَا فصَفَّيْنَا ، وإذا دَنَسْنَا فَنَقَّيْنَا . . وإذا بَنَّا منك فصلْنَا بك » .

وخصائصه التى صورناها واضحة فى هذا الدعاء ، فهو يعتمد فيه على الازدواج

(١) الشريب : المشارك فى الشرب .

ومغادلاته الموسيقية ، هو وما قد يلتحم معه من السجع ، كما يعتمد على التفريعات في المعاني والتوليدات والمقابلات والاستعارات مما يروع قارئه روعة شديدة ، بل مما يتمتع سمعه وعقله وقلبه متعة هنيئة .

٤

ابن^(١) مسكويه

هو أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب بن مسكويه ، واضطربت المصادر القديمة في مسكويه هل هو اسم جده أو هو اسمه ، فذكر ياقوت في ترجمته وكذلك القفطى في تاريخ الحكماء أن مسكويه اسمه ، وقال ابن خلكان في ترجمة ظهير الدين الروذراورى إنه أبو علي أحمد بن محمد المعروف بمسكويه . وجعلت المصادر الأخرى لترجمته مسكويه اسم جده ، وهو الذى يتبادر من اتفاق المصادر على أن اسمه أحمد بن محمد ، وكأن اسم جده غلب عليه أحياناً . ويقول ياقوت إن مسكويه كان مجوسياً وأسلم وكان عارفاً بعلوم الأوائل معرفة جيدة ، وكأنه خلط بين الحفيد والجد ، فالمجوسية للجد والمعرفة بعلوم الأوائل للحفيد .

وليس بين أيدينا شيء واضح عن نشأة ابن مسكويه ومرباه فضلاً عن مولده ومسقط رأسه ، وأكبر الظن أنه ولد حوالى سنة ٣٢٠ للهجرة لا سنة ٣٣٠ كما ظن مرجليوث في مقدمته لكتاب تجارب الأمم ، إذ نراه يعمل مع المهلبى وزير معز الدولة البويهى منذ سنة ٣٤٥ حتى وفاته سنة ٣٥٢ والمعقول أن يلتحق بالعمل في دواوينه وهو في نحو العشرين على الأقل . ونسبه بعض من ترجموا له إلى الرى ، وقد تكون مسقط رأسه وموطن آبائه . ويبدو من صلته المبكرة بالمهلبى وعمله معه ببغداد أنه إما أن يكون منشؤه ومرباه فيها بحيث أتاحت له فرصة تعرفه على المهلبى ، وإما أن يكون قد نزلها في شبابه لاستكمال ثقافته . وتدل كتبه ومؤلفاته على أنه كان فيه نزوع للاطلاع على كتب الأدب والتاريخ وعلوم الأوائل ، ولا بد أنه اختلف في بغداد إلى كثير من أساتذة هذه العلوم . ونظن ظناً أنه

الإسلام لدى بورص ١٥٨ ومقدمة مرجليوث لكتاب تجارب الأمم والراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية ترجمة د . بدوى ص ٩٠ ودائرة المعارف الإسلامية فى مادة ابن مسكويه وكتاب ابن مسكويه : فلسفته الأخلاقية ومصادرها لعبد العزيز عزت (طبع القاهرة) ومقدمة د . عبد الرحمن بدوى لكتابه الحكمة الخالدة .

(١) انظر فى ابن مسكويه وترجمته تمة اليتيمة ٩٦/١ ومعجم الأدباء ٥/٥ وابن خلكان ١٣٧/٥ وروضات الجنات للخواصارى ٣٦ وتاريخ الحكماء للقفطى ٣٣١ وابن أبى أصيبعة ٣٣٠ ورسائل الخوازمى وصوان الحكمة ص ٣٤٦ وما بعدها والإمتاع والمؤانسة لأبى حيان ٣٥/١ ومقدمة أحمد أمين للهوامل والشوامل وتاريخ الفلسفة فى

اختلف مع لداته إلى يحيى بن عدى ومجالسه التي كان يحاضر فيها تلاميذه في تلك العلوم ، كما اختلف إلى حلقات شيوخ مختلفين في اللغة والتاريخ ، ثم التحق بالعمل مع المهلبى ، ونراه في كتابه تهذيب الأخلاق يصرح بأنه مرت عليه فترة كان يعكف فيها على اللذات الجسمانية ويستكثر من المطاعم والملابس والزينة وأنه تدرج إلى فطام نفسه بعد الكبر واستحكام العادة وأنه جاهد نفسه جهادا عظيما حتى استخلصها من مطالب النفس الشهوانية وارتقى بها إلى مطالب النفس الناطقة أو العاقلة من الفضائل . وأغلب الظن أن هذا الاسترسال في اللذات إنما كان في عهد المهلبى الذى مرَّ بنا انهاكه في الغناء والقصف وشرب الخمر وأنه كان يعقد بقصره لذلك ليلتين في كل أسبوع . ولابد أن ابن مسكويه كان يحضر هذا المجلس من حين إلى آخر ، واندفع فيما اندفع فيه المهلبى من اللهو ، حتى إذا توفى وصادر معز الدولة أمواله وقبض على بعض حواشيه ولَّى ابن مسكويه وجهه نحو الرِّىِّ ووزير ركن الدولة هناك أبى الفضل بن العميد ، فأقامه خازنا على مكتبته . وربما كان في ذلك ما يدل على أنه عُرِف بثقافة واسعة تشمل كل علم وكل فن ، ولذلك اتخذ ابن العميد مشرفاً على مكتبته ينظّمها ويضيف إليها روائع الكتب لزمه في مختلف العلوم والفنون . وتعرّف عليه أبو حيان التوحيدي حين وفوده على ابن العميد . وقال إنه رآه يهتم بعلم الكيمياء دون غيره من علوم الأوائل . وأكبر الظن أن أبا حيان بالغ في قوله ، فقد كان ابن مسكويه يهتم بعلوم الأوائل جميعاً كما يتضح من مديحه لأبى الفضل بن العميد في الجزء السادس من كتابه تجارب الأمم ، إذ يقول عن شغفه بهذه العلوم : « فأما علم المنطق وعلوم الفلسفة والإلهيات منها خاصة فما جسر أحد في زمانه أن يدعيها بحضرته » وطبيعى وابن مسكويه خازن كتبه أن يكون له بها نفس اهتمامه . وكان يعهد إليه بتربية ابنه أبى الفتح وتعليمه . ولما توفى أبو الفضل سنة ٣٦٠ وتحولت مقاليد الوزارة إلى أبى الفتح ظل خازنا لكتبه وأعلى منزلته . ويُقبَضُ على أبى الفتح سنة ٣٦٦ ويتحول ابن مسكويه إلى عضد الدولة البويهى ، مؤملا العمل عنده فيتخذه خازنا لكتبه ، ويجعله من ندمائه المقربين إليه ، حتى إذا استولى على بغداد سنة ٣٦٧ تحوّل معه إليها . وأخذ يُعْنَى - منذ هذا التاريخ على الأقل - بمجالس المتفلسفة ومصاحبهم ، فكان لا يكاد يفترق عن ابن الحماّار المتفلسف الذى مرّ ذكره ، كما كان يلم أحيانا بمجلس أبى سليمان المنطقى السجستانى ويستمع إلى ما فيه من محاورات بين متفلسفة عصره . أما زعم أبى حيان بأنه أعطاه شرحاً لإيساغوجى وقاطيغوريوس لأبى القاسم غلام أبى الحسن العامرى سنة ٣٧٢ فلا يغض من شأنه كما أراد ، بل لعله يدل على رغبته في الاطلاع على كتب الفلسفة . وظل بعد وفاة عضد الدولة

في السنة المذكورة يعمل مع ابنه صمصام الدولة (٣٧٢ - ٣٧٦ هـ) ثم مع ابنه الثاني بهاء الدولة (٣٧٩ - ٤٠٣ هـ) ويبدو أنه تحول مع صديقه ابن الخمار إلى بلاط خوارزم شاه مأمون بن مأمون إذ يُذكر أنها خدماه مع جملة من الأطباء منهم ابن سينا ، ويغلب أن يكون ذلك في أوائل القرن الخامس الهجري . وحدث بينه وبين ابن سينا شيء من الجفوة ، حتى ليذكر القفطى أن ابن سينا قال إنه حاضره في مسألة فاستعاده كرات دون أن يفهمها ، ويصفه بأنه كان عسر الفهم . وفي رأينا أن ابن سينا تجنّى عليه ، كما تجنّى عليه أيضاً أبو حيان في كلمته عنه بكتابه الإمتاع إذ قال إنه «عَبَى بَيْنَ آبْنَاءِ» . وكتبه تشهد بفصاحته وذكائه . وبأخرة من حياته ترك خوارزم إلى أصفهان وعاش حتى بطلت حركته وبلغ من الكبر عتياً ، فقد توفي عن نحو مائة عام سنة ٤٢١ . وكان شيعياً إمامياً يعتقد بعصمة الإمام علي نحو ما ذكر ذلك في خواتيم كتابه الفوز الأصغر .

وابن مسكويه يُعدّ في الصفوة من فضلاء عصره وأجلّائه ، يقول الثعالبي في وصفه : «إنه في الذروة العليا من الفضل والأدب والبلاغة والشعر» ويذكر له طائفة من أشعاره تدل على براعته الشعرية وإحسانه في صنع الشعر ونظمه ، غير أنه لم يتفرغ له ولم يجعله وكدّه وهمّه . وكان ناثراً بليغاً كما يتضح من ترأسله مع الخوارزمي وبديع الزمان . وفي رسائل الخوارزمي رسالة يعزّيه فيها عن زواج أمه بعد وفاة أبيه ، مما يؤكد أن صداقة كانت ناشبة بينهما ، وربما رجعت إلى أيام شبابه . وفي ترجمة ياقوت له رسالتان متبادلتان بينه وبين بديع الزمان ، يتنصّل البديع في أولاهما من شيء بلغ ابن مسكويه عنه بعد مودة وثيقة كانت بينهما ، وردّ عليه ابن مسكويه فاسحاً في تنصله ومشيداً ببلاغته . ولم يجعل ابن مسكويه التراسل الأدبي صناعته ، إذ كان يهتم بالتأليف ورسالة خلقية كبرى جرّد نفسه لها في معظم كتاباته وتأليفاته ، ويذكر له القفطى من كتبه المتصلة بالطب كتاباً في الأدوية المفردة ، وذكر له كتاباً في الأعطمة .

وأول ما نقف عنده من كتبه كتابه «تجارب الأمم» وهو في التاريخ العام من الطوفان حتى سنة ٣٦٩ مع أنه عاش بعد ذلك طويلاً كما مرّ بنا ، ويقال إنه وصل به حتى وفاة عضد الدولة صاحبه سنة ٣٧٢ . ويبدو من مقدمة الكتاب ومن نفس اسمه أنه أراد به أن يتخذة الناس وخاصة الملوك والحكام والقواد عظة وعبرة ، مما يرون فيه من أحداث التاريخ وتجاربه ، فقصده مقصد أخلاق ، وهو المقصد الأسمى الذي ابتغاه في تأليفه على نحو ما سنرى عما قليل . وللكتاب أهمية تاريخية بعيدة ، وقد سقط من يد الزمن أكثر أجزائه ، ونُشر منه القسم الأخير الخاص بالقرن الرابع الهجري وهو فيه يعرض تاريخ البويهيين الذين خدم في

دولتهم عرضاً عادلاً منصفاً دون تحيز ، ومما يدل على ذلك موقفه من صديقه أبي الفضل ابن العميد حين كفَّ يده عن مساعدة المتطوعين لجهاد الروم الذين أقبلوا من خراسان في حماسة بالغة حين جاءهم النبا المشئوم باستيلاء الروم على ثغرى المصيصية وطرسوس في شمالي الشام ، إذ وفدوا على أبي الفضل بن العميد في الري سنة ٣٥٤ يطلبون المال للميرة والسلاح ، فردَّهم ردّاً منكراً ، وكأنه خشي منهم مكيدة فسلط عليهم جنوده ، ففرَّقوا جموعهم ، وبأسى لذلك ابن مسكويه قائلاً : « لو أن هؤلاء المتطوعين لجهاد الروم - وكانوا يبلغون نحو عشرين ألفاً - أعطاهم ابن العميد المال الذي طلبوه لانضمت إليهم في الطريق أعداد ضخمة من الغزاة المجاهدين ولنكَلُّوا بالروم نكالاً شديداً ، لكن لله أمراً هو بالغه » . فصدَّقته لأبي الفضل بن العميد لم تمنعه من تسجيله عليه هذه الوصمة في تاريخه ، ويبدو أن ابن مسكويه فرغ من تأليفه لهذا الكتاب التاريخي الذي كان يقع في ست مجلدات إما في حياة عضد الدولة وإما بعد وفاته مباشرة لأنه لم يذكر فيه شيئاً عن خلفائه من أبنائه .

وهذا المقصد الأخلاق من العبرة والعظة الذي دفعه إلى تأليف هذا الكتاب التاريخي الضخم دفعه أيضاً إلى تأليف كتابه « جاويدان خرد » أي العقل الأزلي ، وقد اختار له اسماً فارسياً ، مما يدل على أنه ألف مبكراً ، وهو لا يزال في الري بخدمة أبي الفضل بن العميد وابنه ، وربما كان أول مصنفاته ، وقد نشره الدكتور عبد الرحمن بدوي باسم الحكمة الخالدة ، وهو يصوِّر في ابن مسكويه منزعاً إنسانياً واضحاً ، إذ يجعل العقل الإنساني وما ينتج من الحكم فوق كل جنس وكل أمة ، بدليل ما جمعه في الكتاب من حكم الفرس والهند والعرب والروم الشرقيين ، مما يثبت أن العقل الإنساني واحد مهما اختلفت الأزمنة والأمكنة بالإنسان ، ومهما اختلفت الظروف الطبيعية والاجتماعية .

وقد شغل ابن مسكويه نفسه بالأخلاق حتى عدَّ من أئمة نظرياتها ومباحثها ، وهو يعرض لها في ثلاثة كتب ، هي الفوز الأصغر وتهذيب الأخلاق والهوامل والشوامل . أما الفوز الأصغر فقد تناول فيه ثلاث مسائل كبرى ، وجعل كل مسألة في عشرة فصول ، والمسألة الأولى تتصل بالإلهيات ، وهي في إثبات الصانع وأنه واحد أزلي ليس بجسم وأنه واجب الوجود ليس بمتركب ولا متكثر ولا متحرك مما يؤكد أنه إنما يُعرَفُ بطريق السلب دون الإيجاب ، وأيضاً فإن الله أبدع الأشياء لا من شيء . والمسألة الثانية تتصل بالنفس وأحوالها وأنها ليست بجسم ولا عرض وأنها تدرك المحسوسات والمعقولات وأنها ليست بالحياة بل هي التي تعطي الحياة ، وهي لا تبطل ولا تموت ، ولها حال من الكمال تكون بها سعادة

الإنسان عن طريق الحكمة النظرية والأخرى العملية التي تحصل بها الهيئة الفاضلة التي تصدر عنها الأفعال الجميلة . وإذا عاق هذه الحكمة عائق فإنه يتدنى في حال من النقص يكون فيها شقاؤه . ويوضح هنا توضيحاً رائعاً كيف أن الإنسان خلق مدنياً بالطبع ، إذ لم يخلق خَلْقَ مَنْ يعيش وحده من الوحش والبهائم والطيور وحيوان الماء ، فكلها تتم لها حياتها خَلْقَ وإلهاماً ، أما الإنسان فلا تتم له حياته إلا بالتعاون والتعاقد في كل ما يتعلق به من المطعم والملبوس والمشروب . ويحمل على الزهاد الذين يحرمون المكاسب لأنهم يعتمدون على الناس في ضرورات أبدانهم ويطلبون معونتهم ولا يعاونونهم بشيء ، وهم بذلك - في رأيه - جائرون ظالمون . والمسألة الثالثة في النبوات ، وقد بدأ فصولها بالحديث عن مراتب الموجودات في العالم التي تسرى فيها الحكمة ويظهر التدبير المتقن ، وهي النبات والحيوان والإنسان . وكل نوع في هذه الموجودات الثلاثة لا يزال يترقى حتى يصل إلى صورة النوع الذي يليه ، فالنبات لا يزال يرقى حتى نرى أرفعه يقبل صورة الحيوان على نحو ما يرى في أشجار النخيل ففيها المذكر والمؤنث وتحتاج إلى التلقيح كالسَّفاد في الحيوان ، والحيوان لا يزال يرقى حتى يقبل صورة الإنسان في القرد وما يماثلها في الخلقة الإنسانية . وهي تقترب في التمييز وقبول المعارف من الزنج وأشباههم . وبالمثل لا يزال يرقى الإنسان حتى يبلغ وجوداً أعلى من الوجود الإنساني وهو وجود الملائكة . ومن هنا أو في هذه الدائرة يظهر الأنبياء . وواضح أن فكرة ترقى الموجودات عند ابن مسكويه تشبه نظرية أهل النشوء والارتقاء ، مما يدل على روعة تفكيره وأصالته .

وخصَّ ابن مسكويه نظريته الأخلاقية بكتاب مفرد هو تهذيب الأخلاق ، وهو كتاب نفيس إلى أقصى حد ونظريته فيه تقوم على المزج بين الروح الإسلامية كما يمثلها القرآن الكريم والسنة النبوية وبين آراء فلاسفة اليونان : أرسطو وجالينوس وأفلاطون وكذلك آراء الكندي والفارابي وما قرأه من حكم الفرس والهنود والعرب وما تلقفه من تجارب الحياة . وهو يستهله بتعريف النفس وأنها ليست جسماً ولا جزءاً من جسم ولا عرضاً ، ويستدل على أنها ليست جسماً بأنها تقبل صور الأشياء المتناقضة بينما الأجسام لا تقبل إلا صورة واحدة كالطول والعرض والبياض والسواد ، ثم هي تدرك المحسوسات والمعقولات وتميز المدركات الحسية والعقلية الصحيحة والخاطئة . ويلاحظ - كما لاحظ الفلاسفة قبله - أن للنفس ثلاث قوى : قوة شهوانية وقوة غضبية وقوة عقلية . ويقول إن الغرض من كتابه إصابة الخلق الشريف الذائق لا العرضي عن طريق المال أو السلطان أو المكاثرة والمغالبة . ويمضي فيما وضع الكتاب من أجله وهو بيان نظريته الخلقية عن الخير

وكيف أنه غاية الإنسان من وجوده حتى يحصل على الفضائل ، وهو لا يحصل عليها إلا إذا طَهُرَتْ نفسه من الشهوات الجسدية والتزوات الهيمية ويفرق بين الخير والسعادة ، فالخير عام للبشر جميعاً والسعادة خاصة بكل إنسان حسب ما يحقق لنفسه من المآرب العقلية وغير العقلية . ولما كان الخير كثيراً ولم يكن في طاقة الإنسان الواحد القيام بجميعه وجب أن تنهض به جماعة كثيرة ، حتى يتوزعوه ، ولذلك يجب على الناس أن يحب بعضهم بعضاً لأن كلا منهم لا يتحقق كماله إلا بغيره . ويرى أن الأجناس الكبيرة للفضائل أربعة هي الحكمة والعفة والشجاعة والعدل ، ويأخذ في بيان أنواع كل جنس من هذه الأجناس ملاحظاً نظرية الأوساط الأخلاقية عند أرسطو ، وهي أن الفضيلة دائماً تقع بين رذيلتين . ويأخذ برأى جالينوس القائل بأن الناس أقسام ثلاثة : أخيار بالطبع وهم قلة ، وأشرار بالطبع لا يمكن أن يتحولوا أخياراً وهم كثرة ، ووسط بين الطرفين ، وهم قابلون لأن يكونوا أخياراً بالتأديب أو أشراراً أيضاً بالتعليم ، وقد ينتقلون إلى الخير بمصاحبة الأخيار وبالمثل إلى الشر بمصاحبة الأشرار . وينقل عن أرسطو أن الشرير قد ينتقل إلى الخير بالتأديب . ويعرض للشرعية وأنها هي التي تقوم الناشئة وتعودهم الأفعال الحيرة ، ويقول إن كمال الإنسان في اللذات المعنوية لا في اللذات الحسية ، وإن من الواجب أن تُربى الناشئة على أحكام الشرعية ثم تنظر في كتب الأخلاق حتى تتأكد تلك الأحكام والآداب في أنفسها . ويؤدّي بفصل طويل في تأديب الناشئة والصبيان يقتبس أكثره من بروسن ويتحدث عن طائفة من الآداب في المطاعم وغيرها ، ويطيل في الحديث عن الخير والسعادة وفرق ما بينهما مما أشار إليه . ويفيض في بيان الفضائل . ثم يتحدث عن التعاون والاتحاد ، وفي رأيه أنه لا يمكن أن تقوم جماعة بدون المحبة ، وأن علم الأخلاق إنما هو علم الإنسان بما يجب عليه في الجماعة ، وبها تفسر الأخلاق ، فليس هناك خلق فاضل لا يكون محوره الجماعة ، ومن هنا كانت الأفعال الدينية لا توصف بأنها خلقية وكانت العبادة تخرج عن علم الأخلاق . ومن آرائه الطريفة أن أحكام الدين الحنيف تؤلف مذهباً خلقياً يقوم على محبة الإنسان للإنسان ، ولذلك كانت العبادات دائماً تتطلب الجماعة على نحو ما هو معروف عن النذب لصلاة الجماعة وفرض صلاة الجمعة واشتراك الناس في أداء فريضة الحج . وهكذا تقوم شريعتنا على الأُنس والمحبة ، وفي الذروة من المحبة محبة الله وتليها محبة التلاميذ لأساتذتهم ثم محبة الأبناء لآبائهم . ويقف عند الصداقة طويلاً مبيناً آدابها ، ثم يتحدث أحاديث طريفة عن أمراض النفس وأسبابها وعلاجها وكيف أن الإنسان في حاجة إلى أن يعرف عيوب نفسه ، ويعرض طائفة من الرذائل كالتهور والغدر والغضب .

وكان هذا الكتاب النفيس يُدرّسُ للناشئة في كثير من البلدان العربية في هذا العصر وشطر من العصر الحديث ، وحرى بنا أن نعود إلى دراسته لهم في المدارس الثانوية ، حتى نمدّهم بخير زاد لتقويم سلوكهم وتربيتهم تربية خلقية سديدة . وكثيرون يظنون أن قوام نثرنا الرسائل الرسمية والشخصية !

وحسبنا هذا الكتاب لنرى منه خطأ هذه الفكرة وأن في العربية كتباً نثرية نفيسة لا تمتد صفحاتها في أسجاع قلما تحوى غذاء فكرياً ، بل تمتد في أسلوب مرسل وتشتمل على زاد من غذاء خلقى تربوى رائع .

ومر بنا أننا نظن ظناً أن ابن مسكويه ألف هذا الكتاب قبل أن يعرض عليه أبو حيان أسئلته الكثيرة التي أجاب عنها في الهوامل والشوامل ، وظننا أن ابن مسكويه أجاب أبا حيان عن أسئلته الكثيرة بعد رجوعه بخفى حنين من لدن الصاحب ترويحاً عن نفسه الجريح ، ونقول الآن إن كتاب تهذيب الأخلاق هو الذى دفع أبا حيان إلى أن يعرض أسئلته الكثيرة على عالم الأخلاق وفيلسوفها كما اتضح في هذا الكتاب ، وأيضاً كما اتضح في الفوز الأصغر ، فقد ألفه ابن مسكويه هو الآخر قبل الهوامل والشوامل بدليل أنه ذكره في بعض صفحته .

ويكمل كتاب الهوامل والشوامل نظرات ابن مسكويه الأخلاقية . والكتاب مجموعة من المسائل الهوامل التي تحتاج إلى إجابة ، جمعها أبو حيان ، وقد بلغت مائة وخمسا وسبعين مسألة ، وجهها إلى الفيلسوف الأخلاقى ابن مسكويه ، فأجاب عليها إجابات شوامل ، وهى موزعة بين مسائل خلقية ولغوية وأدبية وعلمية . وإجابات ابن مسكويه تصوره حقاً متفلسفاً ومفكراً كبيراً ، وقد أعجب الأستاذ أحمد أمين في تقديمه للكتاب بإجابة بديعة من إجاباته رد بها على سؤال أبي حيان هل تأتى الشريعة بما يخالف العقل ويأباه كذبح الذبائح مثلاً ؟ فقد ردّ على هذا السؤال قائلاً :

« ليس يجوز أن تردّ الشريعة من قبل الله تعالى بما يأباه العقل ويخالفه ، ولكن الشاك في [مثل] هذه المواضع لا يعرف شرائط العقل وما يأباه ، فهو أبدأً يخلطه بالعادات ، ويظن أن تأتى الطباع من شيء هو مخالفة للعقل . والعقل إذا أبى شيئاً فهو أبدى الإباء له لا يجوز أن يتغير في وقت . . . وأمر العادة قد يتغير بتغير الأحوال والأسباب والزمان . . . وذبح الحيوان ليس من الأشياء التي يأباه العقل وينكرها بل هو من الأشياء التي تأباه بعض الطباع والعادة » .

ويذكر ابن مسكويه أن ما يعرض للإنسان من كراهية ذبح الحيوان إنما هو لمشاركته له

في الحيوانية وأنه يخطر بباله أنه ربما أصابه نفس المكروه بجامع الحيوانية بينه وبين الحيوان . ولا يزال ابن مسكويه يتعمق في الإجابة موضحاً أن الشريعة لا تخرج عن مقتضى العقل بحال . ونذكر طرفاً من إجابة ابن مسكويه عن مسألة خلقية سألها أبو حيان ، وهي إذاعة الأسرار مهما ضُرب عليها من حُجب الكتمان ، يقول :

« قد تبين في المباحث الفلسفية أن للنفس قوتين إحداها معطية والأخرى آخذة . فهي بالقوة الآخذة تستثيب (تسترجع) المعارف وتشتاق إلى تعرف الأخبار ، وبها يوجد الصبيان أول نشوئهم محبين لسماع الخرافات ، فإذا اكتهلوا أحبوا معرفة الحقائق . وهذه القوة هي انفعال وشوق إلى الكمال الذى يخص النفس . وهي بالقوة المعطية تُفيض على غيرها ما عندها من المعارف ، وتفيده العلوم الحاصلة لها ، وهذه القوة ليست انفعالاً بل فاعلة . وهاتان القوتان موجودتان للنفس بالذات لا بالعرض . فكل إنسان يحرص بإحدى قوته على الفعل ، وهو الإعلام ، وبالأخرى على الانفعال ، وهو الاستعلام . . فقد ظهر السبب الداعى إلى إخراج السر ، وهو أن النفس لما كانت واحدة واشتاق بإحدى قوتها إلى الاستعلام ، واشتاقت بالأخرى إلى الإعلام لم ينكمس سرٌّ بته . وهذا تدبير إلهى عجيب ، ومن أجله نُقلت الأخبار القديمة وحُفظت قصص الأمم ، وعُنى المتقدمون بتدوين ذلك وحرص المتأخرون على نقله وقراءته » .

ويمضى ابن مسكويه فيذكر أن صاحب السرينغى أن لا يستودع إلا القادر على نفسه والقاهر لتزواتها ، وأن إخراجها من جملة شهوات النفس وأن حفظه لذلك يحتاج بمجاهدة شديدة . وهذه الإجابة توضح كيف كان عقل ابن مسكويه خصباً وكيف كان حافلاً بالآراء الطريفة ، وهو يعرضها في أسلوب جزل مصقول ليس فيه أى صعوبة ولا أى عوج أو التواء . وقد روى ياقوت في ترجمته نسخة وصية له طريفة يعاهد فيه الله على العفة والشجاعة والحكمة وما يتفرع عن ذلك من شيم نبيلة رفيعة .

٥

الحريرى^(١)

هو أبو محمد القاسم بن علي الحريرى ، كان أبوه من أثرياء « المشان » ، وهى قرية قريبة

(١) انظر في الحريرى وترجمته الأنساب للسمعاني ١٦٥ ب وخريدة القصر (قسم العراق) ٥٩٩/٢ ٢١٣/٣ والعبرى خير من عبر ٣٨/٤ والنجوم الزاهرة . ومعجم الأدياء ٢٦١/١٦ وابن خلكان ٦٣/٤ وإنباه الرواة ٢٣/٣ وتذكرة الحفاظ والسبكي ٢٦٦/٧ الأنبارى ص ٣٧٩ وشرح الشريشى على المقامات = وشذرات الذهب ٤/٥٠ واللباب ١/٢٩٥ ومرآة الجنان

من البصرة ، وقد ولد له سنة ٤٤٦ وبها كان منشؤه ومرباه . ثم سكن البصرة في حى بنى حرام الفراريين ، وأخذ يختلف إلى علماء عصره ، يأخذ عنهم الحديث والفقه والأدب ، ويسميه ، ويعددهم ، السبكي في طبقاته . ويذكر مترجموه أنه تولى وظيفة الخبر في ديوان الخلافة بالبصرة ، وهى وظيفة تشبه وظيفة مصلحة الاستعلامات في عصرنا ، ولا يعرف بالضبط متى تقلدها ولا متى عهد إليه بها ، وظل في هذه الوظيفة إلى وفاته سنة ٥١٦ وظلت بعده في أبنائه حتى آخر عهد المتقي بالله (٥٣٠-٥٥٥ هـ) . ولم تمنعه الوظيفة من أن يعكف على الأدب واللغة ، بل أن يفرغ لها ، فيكتب مجموعة من الرسائل ، وآيته الرائعة : المقامات ، وينظم من الشعر ما يتيح له أن يكون من أصحاب الدواوين ، ويؤلف كتابه المعروف «درة الغواص في أوهام الخواص» وهو مطبوع مراراً وواضح من عنوانه أنه فيه يسجل أغلاط المتأدين مما يشيع على السنة العامة ، وإن كان قد بالغ في ذلك حتى عدَّ بعض الكلمات الفصيحة غير صحيحة . ولشهاب الدين الخفاجي شرح عليه طبع في إستانبول ، ومرَّبنا في غير هذا الموضع أن لتلميذه الجواليقي تكملة ألحقها بالكتاب وهى مطبوعة . ويؤلف الحريري أيضاً ملحة الإعراب ، وهى منظومة في النحو شرحها شرحاً جيداً ، وهى مطبوعة في القاهرة مراراً . وكان لا يزال يختلف بين عمله في البصرة وضياعه في المشان وبين بغداد دار الخلافة وملتقى العلماء والأدباء . ومما يدل على أنه كان يختلف إلى بغداد منذ أواخر القرن الخامس ما أنشده له العباد الأصهباني في مديح سعد الملك وزير السلطان محمد شاه السلاجوقى الذى صلبه وقتله سنة ٥٠٠ للهجرة . ويقول السبكي إنه حدث في بغداد بجزء من حديثه وبمقاماته .

وكان الحريري لا يبارى في الأدب والبلاغة والفصاحة ، وتعدُّ مقاماته آية براعته التى ليس لها لاحقة ماثلة وكأنما أغلق الأبواب بكلمات يديه بعده ، فلم يستطع أحد أن يجاريه أو يبلغ مبلغه في تلك المقامات ، ويشهد بذلك الزمخشري قائلاً :

أقسم بالله وآياته ومشعر الحج وميقاته
إن الحريري حريٌّ بأن نكتب بالتبر مقاماته

ويقول السمعاني عنه : «لم يكن له في فنه نظير في عصره ، ولو قلت إن مفتتح الإحسان في شعره كما أن محتتم الإبداع في نثره ، وأن مسير الحسن تحت لواء كلامه ، كما أن

= الحرية ، وهو مطبوع في مصر مراراً ، وهو شرح نفيس المعارف ص ٤٤ والفن ومذاهبه في النثر العربى وتكتظ رفوف المكتبات بشروح للمقامات لا تزال ص ٢٩٢ مخطوطة . وراجع فيه وفي مقاماته كتابنا (المقامة) طبع دار

مَحْيَمَ السحر عند أقلامه ، لما زَلَقْتُ من شاحق الإنصاف ، إلى حضيض الاعتساف .
ويقول العباد الأصهباني : « طلعت ذُكَاءٌ ^(١) ذكائه في المغرب والمشرق ، وامتلاّت ببضائع
فوائده ، ونواصع فرائده ، حقائقُ المشيّم والمعرق . . حريرى الوشّى ، عراقى
الوشم ^(٢) ، لؤلؤى النظم ، كلامه يتيمة البحر ، وتيمة النحر ، وذرة الصدف ، وذرى
السدف ^(٣) . . قد أعجز الفصحاء بصناعته ، وأبّر ^(٤) على البلغاء ببراعته » . ويقول الرواة
إنه كان بخيلاً دميم الخلقة والهيئة ، تقتحمه العين ، وكان يعتاد نتف لحيته ، والناس على
الرغم من ذلك يزدهمون عليه لسباع مقاماته وإجازتهم بروايتها . ويقال إنه أجاز لسبعائة
طالب أن يرووها عنه ، وفي ذلك ما يدل على ما كان يحظى به هو ومقاماته في عصره من
منزلة أدبية رفيعة .

والمقامات أقاصيص قصيرة تصور مواقف متنوعة لأديب متسول يحتال ببيانه وفصاحته
لسانه على الناس ، فيلقون إليه بالدراهم والدنانير . وهى تزخر بحركة تمثيلية ، غير أنها
لا تتسع لتصوير حياة مجتمعتها ، فقد كانت غاية الحريرى منها غاية بيانية بلاغية فحسب ،
واستطاع أن يحقق هذه الغاية إلى أبعد مدى . ويزعم الرواة أن سبب صوغه لها ما حكاه
عن نفسه من أنه كان جالساً فى مسجد بنى حرام فى البصرة فدخل شيخ رث الهيئة ، كان
شحاذاً أديباً فسلم ثم سأل ، فأعجبت الحاضرين فصاحته وحسن بيانه ، فسألوه عن كنيته
فقال أبو زيد ، وسألوه عن موطنه ، فقال من سروج ، وهى بلدة قرب حرّان شمالى
العراق ، فعمل الحريرى المقامة المعروفة باسم الحرامية ، وهى المقامة الثامنة والأربعون ،
ونسبها إلى أبى زيد السروجى المذكور ، واشتهرت ببلغ خبرها - فيما يقال - أنوشروان
ابن خالد وزير الخليفة المسترشد (٥١٢-٥٢٩ هـ) . فأشار عليه أن يضم إليها غيرها ،
فأتمها خمسين مقامة . ويقال بل إنه حين عاد إلى البصرة صنع أربعين مقامة ، ورجع إلى
بغداد ، فأعجب بها الأدياء ، وطلبوا إليه أن يؤلف على غرارها مقامة امتحاناً له ، فظل
أربعين يوماً لا يُفْتَحُ عليه بشيء ، فعاد إلى البصرة ، وألف عشر مقامات ، وأصعد بها إلى
بغداد فعرف الأدياء فضله . وقال بعض حساده إنها من صناعة شخص كان استضافه ،
فأت عنه . وقال حساد آخرون إن البدو أخذوا جراباً مغربى من بعض القوافل كانت به
هذه المقامات ، وتصادف أن اشتراه منهم الحريرى فنسبها إلى نفسه ! .

وكل ما قدمنا قصص غير صحيحة ، وفى مقدمتها قصة تشجيع أنوشروان بن خالد له

(٣) السدف : الظلم .

(٤) أبّر : غلب .

(١) ذكاء : شمس .

(٢) الوشم : النقش .

وبعثه على تأليفها ، فإنه تولى وزارة المسترشد بعد وفاة الحريري ، وكذبها ابن خلكان بطريق آخر إذ قال إنه رأى نسخة من المقامات بخط الحريري نفسه كتب بخطه على ظهرها إنه صنفها للوزير جلال الدين بن صدقة وزير المسترشد وقد وزر له في أول خلافته سنة ٥١٢ . وكأنه هو الذى أشار إليه في مقدمة المقدمات بقوله : « فأشار من إشارته حكم وطاعته غنم إلى أن أنشئ مقامات أتلو فيها تلو البديع » يريد البديع الهمداني ومقاماته . وتوقف الشريشي في شرحه إزاء هذه العبارة ، وكأنه أراد أن يدحض كل ما قيل من أن المقامات ألقت في عهد المسترشد بإشارة أحد وزيريهِ : ابن صدقة أو ابن خالد ، فقال إنها إنما ألقت بإشارة الخليفة المستظهر (٤٨٧ - ٥١٢ هـ) وبدأ الحريري تأليفها سنة ٤٩٥ واستغرقت منه نحو عشر سنوات حتى سنة ٥٠٤ .

واتسعت الأسطورة بأبي زيد ، أديب المقامات الشحاذ ، فقليل إنه نحوى يسمى المطهر ابن سَلار ، ونرى كتب تراجم النحاة تترجم له ذاكرة أنه صاحب الحريري الذى أنشأ المقامات على لسانه ، وتقول إنه روى عنه أرجوزته « ملححة الإعراب » وربما كان المطهر شخصية حقيقية ، ودخل الوهم منه على النحاة ، فظنوا أنه أبو زيد السروجي . ومن المؤكد أن أبا زيد في المقامات شخصية خيالية اخترعها خيال الحريري ليحوك من حولها حيل أديب متسول . وقد سمي راويته الحارث بن همام يعنى به نفسه أخذاً من الحديث النبوى : « كلكم حارث وكلكم همام » أى كاسب كثير الاهتمام . ومن المؤكد أيضاً أنها بناء متكامل ، لم يُعدَّ مجزأً ولا قطعة تلو قطعة ، ويتضح ذلك من طريقة الحريري في عرضه المقامة الأولى ، إذ جعلها لتعريف أبي زيد براويته ، بينما جعل الأخيرة ، وهى ذات الرقم الخمسين ، لتوبة أبي زيد من حرفة الشحاذة وحيلها الكاذبة وندمه على ما تقدم من ذنوبه ، ويغيب عن راويته ، ولا يزال يبحث عنه حتى يجده في بلدته سروج وقد تحول ناسكاً متصوفاً مستغرقاً في عبادة ربه . وسمى المقامات فيما عدا ثلاثاً منها باسم البلدان التى تنقل فيها أبو زيد من مشرق العالم الإسلامى إلى مغربه . ونرى الحريري يذكر في مقدمتها مقصده منها إذ يقول : « أنشأت خمسين مقامة تحتوى على جد القول وهزله ، ورقيق اللفظ وجزله ، وغرر البيان ودرره ، وملح الأدب ونوادره ، إلى ما وشَّحت به من الآيات ، ومحاسن الكنايات ورصعته فيها من الأمثال العربية ، واللطائف الأدبية ، والأحاجى النحوية ، والفتاوى اللغوية ، والرسائل المبكرة ، والخطب المحبرة ، والمواعظ المبكية ، والأصاحيك الملهمية . ومعنى ذلك أنه لم يقصد فيها إلى القصص لذاته ، وإنما قصد فيها إلى أفانين من النثر فضلاً عما التزمه من السجع . وكان ذوق التصنع عمّ في الكتابة ، فلم يقف الكتاب عند السجع

والمحسنات البديعية ، بل أخذوا يضيفون إلى ذلك عَقْدًا غريبة يصعبون بها المرور إلى السجع ، حتى يشبثوا براعتهم الأدبية ، وما نكاد نلّم بالمقامة السادسة ، حتى نراه يخلب ألباب الناس برسالة تتوالى كلماتها : كلمة حروفها منقوطة وكلمة حروفها غير منقوطة ، حتى إذا كانت المقامة المغربية السادسة عشرة عرض عقدة أو لُعبة غاية في العسر تسمى مالا يستحيل بالانعكاس كقوله . «لَمْ أَخَا مَلَّ» فإن العبارة تُقرأ طرداً وعكساً فلا تتغير حروفها ، ومضى يعرض طائفة كبيرة من مثل هذه العبارة نثراً وشعراً ، مما ملأ الحاضرين به إعجاباً شديداً . وفي المقامة القهقرية التالية جاء بطائفة كبيرة من الحكم تُقرأ الألفاظ فيها لا الحروف طرداً وعكساً مثل «مع اللجاجة تُلغى الحاجة» فإنها يمكن أن تُقرأ «الحاجة تلغى مع اللجاجة» . ويسمى المقامة السادسة والعشرين باسم الرّقطاء لأنها تتألف من كلمات تتوالى حروفها بالتبادل بين النقط وعدمه مثل «ناثل يديه فاض ، وشحّ قلبه غاض» . وفي المقامة الثامنة والعشرين نرى أبا زيد يخطب خطبة كل كلماتها غير منقوطة ، ويعود إلى نفس اللعبة في المقامة التالية . وكل هذه عقد غريبة كان يمكن أن تخنق المقامات خنقاً لولا ما امتاز به نسج الحريري من عذوبة ورشاقة . وكانت لُعبة الألغاز شاعت في العصر ، فأفرد لها مقاماته : السادسة والثلاثين والثانية والأربعين والرابعة والأربعين . وخصّ النحو بالمقامة الرابعة والعشرين ، إذ عرض فيها اثنتي عشرة مسألة نحوية ، وأفرد للفقهاء مقامتين : الخامسة عشرة والثانية والثلاثين . وقلما يُعنى بعرض شئون عصره السياسية والاجتماعية إلا أشياء طفيفة هنا وهناك ، فقد كان مشغولاً بعرض الأمثال والكنائيات وألفاظ اللغة الغريبة ، على أن تكون مقبولة لا تَصُكُّ الأسماع ولا تستثقلها الأفواه . وهو يُكثر في مقاماته من الآيات القرآنية ومن أشعاره الجيدة ومن المحسنات البديعية وخاصة الجناس . وطبيعي أن تتعدد فيها المواقف ويتنوع معها وصفه ، فتارة يصف روضة أوفلاة أو بحراً أو سوقاً ، وتارة ثانية هو زاهد متعبد يكثر من وعظه بمثل قوله :

«ابن آدم ما أغراك بما يغرك ، وأضرأك (أجراك) بما يضرأك ، وأهيجك بما يُطغيك ، وأبهيجك بمن يُطريك . . لا بالكفاف تقتنع ، ولا من الحرام تمتنع ، ولا للعضات تستمع ، ولا بالوعد ترتدع . . يعجبك التكاثر بما لديك ، ولا تذكر ما بين يديك . . أتظن أن سَتَرَكَ سُدى ، وأن لا تحاسب غداً . . كلا والله لن يدفع المنون ، مالٌ ولا بنون ، ولا ينفع أهل القبور ، سوى العمل المبرور ، فطوبى لمن سمع ووعى ، وحقق ما ادعى (ونهى النفس عن الهوى) وعلم أن الفائز من ارعوى (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يُرى)» .

والمواعظ والأدعية الإلهية كثيرة في المقامات ، ودائماً تُعَرَّضُ في مثل هذه الأسجاع الخفيفة التي تطير عن الأفواه في عدوبة ورشاقة . وبينما يلقانا أبو زيد في بعض النوادي واعظاً إذا هو يتحول من حين إلى حين ماجناً مع ندامى يَحْتَسِي العُقار ويخلع الوقار . ولكن من الحق أن ذلك قليل في المقامات ، وقد أراد به الحريري إلى الفكاهة والدعابة ، وهما واضحتان عنده في مقامات عدَّة ، وخاصة حين يظهر أبو زيد مع ابنه أو مع زوجته مختصمين إلى أحد القضاة أو الحكَّام على نحو ما نرى في المقامة الإسكندرانية ، إذ تنكَّر في زى شيخ هرم خبيث تجرَّه بعنف امرأة معها طفل نخيل ضئيل ، وتقدما إلى القاضي وكانا قد عرفا أنه أحضر مال الصدقات ليوزعه على الفقراء وذوى الحاجات ، ولم تلبث المرأة أن بادرت إليه قائلة :

« أَيْدِ الله القاضي ، وأدام به التراضي ، إني امرأة من أكرم جرثومة ، وأظهر أرومة ، ميسَمَى الصَّوْن . . وخلقى نعم العَوْن ، وبينى و بين جارأتى بَوْن ، وكان أبى إذا خطبني بُناة المجد ، وأرباب الجدِّ ، سَكَّتْهم وبَكَّتْهم ، وعاف وُصِّلَتْهم وصِلَتْهم ، واحتجَّ بأنَّه عاهد الله تعالى بِحِلْفَةٍ ، أن لا يصاهر غير ذى حِرْفة ، فقيَّضَ القدر لِنَصَبِي ووَصَّي ، أن حضر هذا الخُدعة نادى أبى ، فأقسم بين رَهْطه ، أنه وفَّق شرطه ، وادَّعى أنه طالما نظم دُرَّة إلى دُرَّة ، فباعها ببُدرة (مال كثير) فاغترَّ أبى بزخرفة مِحالِه (كيدِه) وزوَّجنيهِ قبل اختبار حاله ، فلما استخرجني من كِناسي (بيتي) ورَحَّلني عن أناسي ، ونقلني إلى كِسْرِه (بيته) وحصلَني تحت أسرِه ، وجدته قُعدة جُثمة (لا يفارق البيت) وألفيته ضُجعة (عاجزاً) نُومة . . . ومزَّق مالى بأسره ، وأنفق مالى في عسره . . . ولى منه سُلالة ، كأنه خلالة ، وكلانا ما ينال منه شُبعة ، ولا ترقأ له من الطَّوى (الجوع) دَمعة ، وقد قُدَّته إليك ، وأحضرتَه لديك ، لتعْجُم (لتختبر) عودَ دعواه ، وتحكم بيننا بما أراك الله » .

وتمضى المقامة على هذا النمط الفكه ، ويردَّ الشيخ بقصيدة طويلة يدعى فيها أنه لا يُشَقُّ غُبَارُه في العلم والشعر ، وأنه طالما اكتسب الأموال بדרך كلامه ، غير أن سوق الأدب كسدت ، لانقراض جيل الكرام ، مما اضطره إلى بيع كل ما يملك هو وزوجته ، حتى لقد باع - كارهاً والدموع تترقق في عينيه - جِهَازها وكل ما دخلت به من أثاث ورياش أو ثياب فاخرة . وتنتهى المقامة بعطف القاضي على الشيخ وزوجته وفرضه لهما في الصدقات حصَّة .

والمقامات يشيع فيها الجناس والمحسنات البديعية ، كما تشيع فيها العدوبة ، ويخيل إلى قارئ الحريري في مقاماته كأنما جمع العربية كلها في كِنانة أو حقبة ثم نثر ألفاظها بين

يديه ، وأخذ يختار منها ويتخب أروع ما عرفت لغتنا من أساليب مسجوعة ، وكأنما كان يعزفها على قيثارة عَزَفَ ملحن مبدع ، مما جعل معاصريه ومن جاء بعدهم يتخذونها النموذج النثرى الذى لا يجارى فى عَرَس ذوق العربية فى نفوس الناشئة وكل ما يُطَوَّى فى هذا الذوق من إحساس بجمال الصياغة الأدبية الثرية . ومررنا فى الفصل الثانى من هذا القسم الخاص بالعراق أن لابن الخشاب البغدادى المتوفى سنة ٥٦٧ مبحثاً لغوياً فيما زعمه من أغلاط الحريرى فى مقاماته وأن لابن برِّى اللغوى المصرى المتوفى سنة ٥٨٢ مبحثاً رداً عليه انتصر فيه للحريرى .

وكان للحريرى بجانب مقاماته مجموع رسائل ، لم تحتفظ به يد الزمن ، غير أن العماد فى خريدته وياقوت فى معجمه احتفظا ببعض رسائله ، وأطال العماد الأصبهاني فى قطف منتخبات كثيرة من هذه الرسائل شغلت منه فى ترجمته له نحو أربعين صحيفة ، وقد سجل منها هو وياقوت رسالتين اشتهرتا فى عصر الحريرى وبعد عصره ، اختار كلمات الأولى منها من ذوات السين ولذلك سميت السينية ، واختار كلمات الثانية من ذوات الشين ، ولذلك سميت الشينية . والتكلف فيها واضح لالتزام كلمات بعينها ، وكأنه فيها يحجل فى قيود ثقيلة . غير أن ما وراءهما من رسائل يشهد له بسلاسة سجعه وحسن رصفه فى رسائله شأنه فى مقاماته ، كقوله فى وصف جواب أو رسالة من أحد أصدقائه :

«وصل الجواب . . وخلته كتاب الأمان ، من الزمان ، فتلقته كما تلقى يد الإنسان ، صحف الإحسان ، وصكاك العطايا الحسان . لا : بل كما تلقى أناملُ الرَّاح (الكف) كاسات الرَّاح (الخرم) من أيدي الصُّباح (الفاتنات) فى نسائم الصُّباح ، ومازلت أتمتع بحُلِيِّ ودُرَر ، ووَشْيٍ وحِبر (حرير) ومُلَحٍّ وزَهَر . . فله ما جمع فيه من أنوار ونُوار (زهر) ونضير (جميل) ونُضَار (ذهب) وتحسين وإحسان ، ومَعِين (ماء عذب) ومَعَان .»

وواضح ما فى هذا السجع من خفة ورشاقة بما يحتويه من مهارة فى انتخاب ألفاظه وتقصير عباراته بحيث يتمتع الألسنة بكلامه حين يجرى عليها متدفقاً فى عذوبة ، كما يتمتع الآذان حين تستمع إلى جرسه ونبراته ، حتى يشعر قارئه أن متاعاً موسيقياً خلافاً يصبُّ فى حنايا سجعه ، متاعاً يلذ الآذان والقلوب والأفئدة .

القسم الثالث

إيران

الفصل الأول

السياسة والمجتمع

١

دول متقابلة

أخذت تنشأ في إيران منذ القرن الثالث الهجري دول متقابلة ، كانت أولاها دولة الطاهريين بخراسان التي أنشأها طاهر بن الحسين قائد المأمون ، وخلفه عليها أبنائه حتى سنة ٢٥٩ للهجرة ، وكانوا تابعين للخلافة ببغداد ، فكانوا يرسلون لها بالجبايات والضرائب . وفي سنة ٢٤٧ أقام يعقوب بن الليث الصفار الدولة الصفارية في إقليم بلوخستان شرقي إيران ، ومدّ حدودها حتى شملت كرمان جنوبي إيران ، وأفغانستان ، واستولى على خراسان التي كانت بيد الطاهريين . وخلفه أخوه عمرو حتى سنة ٢٨٦ إذ قضى عليه السامانيون قضاء مبرماً . ويغلب الحسن بن زيد العلوي على طبرستان منذ سنة ٢٥٠ ويقم بها دولة علوية يخلفها عليها أخوه محمد لسنة ٢٧٠ حتى إذا كانت سنة ٢٨٧ هاجمه السامانيون ولم يلبثوا أن أسروه على أبواب جرجان ، وبذلك أجهزوا على تلك الدولة العلوية ، كما أجهزوا من قبل على الدولة الصفارية . وكتب للسامانيين أن تظل دولتهم قائمة حتى سنة ٣٨٩ وبذلك تشغل شطراً من العصر العباسي الثاني إذ بدأت في سنة ٢٦١ وظلت فترة طويلة في عصر الدول والإمارات ، متقابلة مع الدولة البويهية التي سيطرت منذ فواتح هذا العصر على الأقاليم الجنوبية والجنوبية الغربية من إيران ، ومدّت ذراعها إلى بغداد فسيطرت عليها وعلى العراق ، وكانت تقابلها الدولة الزيارية التي سيطرت على طبرستان بعد زوال الدولة العلوية منها ، وقد مدّت سلطانها أحياناً على جرجان وبلاد الجبل . ولا يكاد القرن الرابع ينتهي حتى يبرز نجم الدولة الغزنوية . وبذلك كانت تتقابل في أوائل عصر الدول والإمارات دول السامانيين والبويهيين والزياريين والغزنويين .

الدولة السامانية^(١)

يرجع نسب السامانيين - فيما يذكر البيروني وغيره - إلى بهرام جوبين الذي كان مَرْزُبَانًا لِخَشْرُو أَبَرْوِز (٥٩٠ - ٦٢٧ م) على ولاية أَذَرَبَيْجَان الفارسية ، وقد أسلم جدهم سامان خوداه أى سيد قرية سامان الواقعة في إقليم بَلْخ بخراسان زمن خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٤ هـ) . ولم يلبث اسمه أن لمع بين أصحاب أبي مسلم الخراساني حين نهض بالدعوة للعباسيين في أواخر العصر الأموي ، وتوفى ، فحلَّ ابنه أسد مكانه في خدمة العباسيين حتى توفى لعصر الرشيد . ويصطنع المأمون أبناءه ، ويأمر عبد الله بن طاهر أمير خراسان أن يوليهم على ما وراء النهر ، فيولي أحمد فرغانة ونوحا سمرقند ويحيى الشَّاش وأشروسنة ، كما يولي أخاهم إلياس هَرَاة في أفغانستان . ويغلب أحمد على أخويه نوح ويحيى ويصبح له أمر ما وراء النهر جميعه . ويتوفى سنة ٢٦١ ويخلفه ابنه نصر على ما بيده ، ويفزع إليه أهل بُخَارَى ، فيُرسل إليهم أخاه إسماعيل ، ويصبح نائباً له عليها . وتفسد الأمور بين الأخوين ، وتكون الغلبة لإسماعيل ، فيجرد أخاه من كل سلطان . وهو يُعَدُّ المؤسس الحقيقي للدولة السامانية .

وتلتقى جيوش إسماعيل في سنة ٢٨٦ للهجرة مع جيوش عمرو بن الليث الصفار صاحب كَرْمان والرى وبلوخستان ، وتدور الدوائر على عمرو ، ويصير ما بيده من البلدان إلى إسماعيل ، ويُرسَل إليه الخليفة المعتضد بخلعة السلطنة . ولا يكاد يدور عام حتى تنشب الحرب بين إسماعيل ومحمد بن زيد العلوي صاحب طبرستان ، ويؤسر محمد بعد أن أصابته ضربات قاتلة ، ويموت متأثراً بجراحه ، ويستولى إسماعيل على إمارته . وبذلك تتسع الدولة السامانية سعة كبيرة ، مما جعل السامانيين يقيمون على ولاياتها نواباً عديدين ، وبينما كانوا يقيمون في بُخَارَى حاضرتهم كان قائد جيشهم يقيم في نيسابور حاضرة الدولة الطاهرية القديمة . وتكَلَّل انتصارات إسماعيل بانتصار حاسم له على الترك سنة ٢٩١ للهجرة فقد زحفوا في جيش جرار ، فنادى إسماعيل في خراسان وبقية إمارته

(١) انظر في الدولة السامانية الآثار الباقية للبيروني وتجارب الأمم لابن مسكويه وابن الأثير وابن تغري بردي في مواضع متفرقة وتاريخ ابن خلدون (طبع دار الكتاب اللبناني) ٧١٢/٤ وكتاب تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي لراون ترجمة الدكتور إبراهيم أمين الشواربي وإيران ماضيها وحاضرها لدونالدوليز (الترجمة: بيروت) ص ٢٦٢ .

العربية - طبع القاهرة) ص ٥٢ وتاريخ الأدب العباسي لنيكلسن ترجمة صفاء خلوصي (طبع بغداد) ص ٣٥ والحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لآدم ميتز (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٢٤ وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان (نشر دار العلم للملايين

بالنفير ، وجاءت الجنود من كل فجٍّ ، وهجم بهم على الترك في السَّحَر ، فقتل منهم مقتلة عظيمة ، وقرَّ الباقيون لا يَلَوْن . وإسماعيل أعظم أمراء هذه الدولة ، فهو الذى نظَّم علاقتها بالخلافة العباسية في بغداد ، فلم يكن يؤدَّى لها ضرائب مالية ، بل كان يكتفى بإرسال بعض الهدايا ، ويقال إن هديته لسنة ٢٩٢ اشتملت على ثلثائة بعير كانت تحمل صناديق المسك والعنبر والثياب وتحفًا كثيرة . وقد منحه الخليفة حقَّ ذكر اسمه معه في خطبة الجمعة وحقَّ نقش اسمه على الدنانير . وظلَّ ذلك تقليدًا للأمرء السامانيين ، وهو رمز واضح لاستقلالهم السياسى عن الخلافة ، ومع ذلك كانوا يفتقرون دائماً إلى عهود تولية من الخلفاء العباسيين حتى يكون حكمهم شرعيًا ، وكانوا تبعاً لذلك سنيين مما جعلهم دائماً خصوماً للشيعة .

وخلف إسماعيل ابنه أحمد (٢٩٥-٣٠١ هـ) . وكان شجاعا ، فاستولى على سِجِسْتان ، غير أن غلمانه لم يلبثوا أن قتلوه ، فولى بعده ابنه نصر (٣٠١-٣٣٢ هـ) . ومنه اقتطع مرداويج الزبارى طبرستان سنة ٣١٦ وأتهم باعتناقه للمذهب الإسماعيلى الشيعى ، فاضطره حرسه إلى التنازل عن السلطان لابنه نوح (٣٣٢-٣٤٣ هـ) . وهو أول سلاطين الدولة في هذا العصر : عصر الدول والإمارات ، وكانت فيه شدة وعنف ، فلما خرج عليه أخواه وعمه إبراهيم سَمَلَ عيونهم جميعا . وخلفه ابنه عبد الملك (٣٤٣-٣٥٠ هـ) . وكان ضعيفا . وولى بعده أخوه منصور (٣٥٠-٣٦٦ هـ) . وأرسل إليه الخليفة المطيع لله بالخلع والتقليد . وأخذ البويهيون منذ ظهورهم يقطعون من السامانيين كثيرا من أطراف دولتهم في إيران ، فاستولوا على كرْمَان . غير أن خراسان ظلت في أيدي السامانيين هي وما وراء النهر ، وظل سلطانهم قويا فيها حتى عهد منصور . وكانوا يمتازون بنشر العدل والأمن في ربوع بلادهم . ويحكى ذلك ابن حوقل قائلاً : « ليس بأرض المشرق ملك أُمِنَ جانباً ، ولا أوفر عِدَّةً ، ولا أكمل عُدَّةً ، ولا أنظم أسبَاباً ، ولا أكثر أعطيةً ، ولا أدرَّ طعاماً ، ولا أدومَ حسن نيات من السامانيين ، مع قلة جباياتهم ونُزور أخرجتهم ، وقلة الأموال في خزائنتهم ، وذلك أن جباية خراسان وما وراء النهر لأبى صالح منصور بن نوح في وقتنا هذا ، لكل خراج يُقْبَضُ وضمان يُحْمَلُ في كل ستة أشهر ، عشرون ألف ألف درهم . وعليه أربعة أطعمة في كل سنة دَارَّةً ، غير مقطوعة ولا ممنوعة ، وكل طَعْم منها في رأس تسعين يوما ، يُخْرَج منه إلى غلمانه وقواده ولسائر المتصرفين خمسة آلاف ألف درهم ، وتستوعب أطعمتهم نصف جباياته المذكورة ، وهى عشرون ألف ألف درهم ، عن نفس طيبة ومسرة ظاهرة ، وغبطة بقيام المعدلة فيهم تامة . . . ولهذا الحال أعمالهم مشحونة

بالقضاة والجُباة والكفاة والولاة مَترَلين على أرزاق تتساوى ، وأحوال في المراتب تتداني ، وذلك أن رزق القاضي وصاحب البريد والعامل على جباية الأموال من البنادرية (المدن) ووالى الصلاة والمعونة وراتبهم واحد بقدر كل ناحية وحسب كل كورة ، وليس ينقص بعضهم عن بعض . وهى شهادة قيمة من شاهد عيان غير متحيز ، إذ كان ابن حوقل شيعيا إسماعيليا ، وكان السامانيون سنين ، خصوصا لشيعته ، ومع ذلك يشهد لهم شهادة صدق بالعدل الذى لا تصلح حياة الرعية بدونه ، كما يشهد لهم بحسن الإدارة وتنظيم الدولة وتسويتهم بين موظفيها فى الأرزاق والرواتب ، مما جمعهم لهم على الإخلاص والتفانى فى خدمتهم .

وخلف منصور ابنه نوح الثانى (٣٦٦-٣٨٧ هـ). وكان صغيرا لا يتجاوز عمره ثلاث عشرة سنة ، وكأنما كان ذلك نذيرا بتضعضع شئون الدولة ، فقد أخذ القرخانيون حكام الترك بين فرغانة وحدود الصين ينازلون السامانيين فيما وراء النهر ، وكانوا قد أبلوا فى حربهم قبل ذاك طويلا ، وبنوا على حدودهم معهم رُبطا كثيرة ، حتى إذا ولى نوح وهو غلام استفحل خطر الترك وأخذوا يكثرُونَ من الإغارة على السامانيين ، وكان عبد الملك أبوه قد ولى ألبتكين قائد جيوشه أمر غزاة ، فاستعان بمملوكه سُبُكْتِكِينَ ، ولم يلبث أن خلفه على ولايته وأدارها إدارة حسنة ، فولّى نوح الثانى ابنه محمودا الغزنوى خراسان ، وتوفى نوح ، واضطربت الأمور بعد وفاته ، بين ابنه منصور وعبد الملك ، وعلت كفة الأخير ، غير أن إيلك خان حاكم الترك القرخانيين أغار على بخارى وأخذ عبد الملك أسيرا ، فخلا الجو لمحمود الغزنوى ، وضم خراسان إلى مملكاته سنة ٣٨٩ وبذلك انتهت الدولة السامانية.

الدولة البُويهيَّة^(١)

لما خرج فرسان الديلم وبعض قوادهم لامتلاك البلاد لم يخرجوا إلى جنوبى بحر قزوين موطنهم فقط ، بل تغلغلوا فى إيران ، وكان فى مقدمة من خرجوا على بن بُويه وأخواه الحسن وأحمد ، وعملوا أولا - كما مربنا فى قسم العراق - مع القائد الديلمى ماكان بن كاكى ، حتى إذا هزمه مرداويج الزيارى حاكم طبرستان وجرجان تركوه إلى خصمه قائلين له - كما روى ابن مسكويه - «الأصلح لك مفارقتنا إياك لتخفف عنك مثوننا ، ويقع كلُّنا (عبثنا) على غيرك ، فإذا تمكنتَ عاودناك» . ووقع على بن بويه من مرداويج موقعا حسنا

(١) انظر فى الدولة البويهيّة المصاير المذكورة فى الفصل

الأول من قسم العراق

فولاه على الكرج إلى الجنوب الشرقى من همدان سنة ٣٢٠ للهجرة ، ولم يلبث أن استولى فى السنة التالية على أَرَّجان وفى تاليها على فارس . وقُتل مرداويح فى سنة ٣٢٣ فانتَهز على وأخوه الحسن الفرصة واستوليا على أصفهان والرَّى اللتين كانتا بيده . وكان أخوهما - كما مرَّ بنا فى قسم العراق - قد استولى على كَرَمان جنوبى إيران فى سنة ٣٢٢ ومنها استولى على الأهواز سنة ٣٢٦ وتآمر معه عامل واسط على اقتحامه بغداد ، وكانت تعاني من فوضى شديدة ، فدخل أحمد - كما مرَّ بنا فى قسم العراق - بغداد دون مقاومة سنة ٣٣٤ وخلع عليه الخليفة المستكفى ولقبه معزَّ الدولة ، ولقَّب أخاه عليا صاحب فارس عماد الدولة ولقَّب أخاهما الحسن صاحب بلدان الجبل والرى ركن الدولة .

وبذلك أصبح الشطر الأكبر من إيران والعراق فى قبضة البويهيين ، وأخذوا يزعمون أنهم من سُلالة الملوك الساسانيين ، ويذكر البيرونى أنهم انتسبوا إلى الملك الساسانى بهرام جور ، بينما ينسبهم ابن الجوزى فى كتابه المنتظم إلى سابور بن أردشير . ويروى أن بُوَيَّه أباهم كان صَيَّادا بائسا على بحر قزوين لا يكاد يجد ما يتبلَّغ به . ويغلب أن يكون هذا النسب الشريف صنعه لهم بعض المتملقين من المؤرخين إرضاء لهم . وبلغ الإخوة الثلاثة من السلطان مبلغا عظيما ، حتى كانت السَّكَّة تُضْرَبُ بأسمائهم ، وحتى كانت أسماءهم تُدَكَّرُ مع الخليفة فى خطبة الجمعة .

وكانوا شيعة ويذهب ابن حَسَّول إلى أنهم كانوا يعتقدون المذهب الزيدى^(١) ، ولعله تأثر فى هذا الحكم بأن أصلهم من الديلم وكان المذهب الزيدى قد شاع هناك منذ خروج الحسن بن زيد فى أواسط القرن الثالث بتلك الديار ، ونمَّى المذهب بعده هناك أخوه محمد ، ثم الحسن الأطروش . والحق أن البويهيين كانوا إمامية اثنى عشرية على نحو ما سنوضح ذلك فى حديثنا عن التشيع ويقال إن معز الدولة فكر فى نقل الخلافة إلى العلويين ، فخوَّفه بعض أصحابه مغبة ذلك قائلا له : « متى أجلس بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته ، فلو أمرهم بقتلك لفعلوه » فانصرف عما كان عزم عليه . وظل الخلفاء العباسيون فى يده وأيدى البويهيين بعده كأنهم أسرى .

وكانت رئاسة البيت البويهى للأخ الأكبر عماد الدولة ، فلما توفى سنة ٣٣٨ للهجرة ولم يترك عقبا انتقلت الرئاسة إلى أخيه ركن الدولة ، كما انتقلت إليه ولاية عماد الدولة على فارس ، وجعلها ركن الدولة لابنه عضد الدولة ، حتى إذا حانت وفاته سنة ٣٦٥ قسم

(١) تفصيل الأثرار على سائر الأجناد لابن حَسَّول (طبعة إستانبول) ص ٣٢ .

ملكه بين أولاده، فجعل - كما مرّ بنا في قسم العراق - لعضد الدولة أقاليم فارس وكرمان وأرجان ولأخيه مؤيد الدولة الرى وأصفهان ولأخيها فخر الدولة همدان والديّور. وجعل لعضد الدولة الرياسة على أخويه، وصدّعا لأمره، فكانا لا يجلسان في حضرته ويقبلان الأرض بين يديه على عادة الديلمة، ويخدمانه بالريحان. ولم تلبث الأمور أن فسدت بين عضد الدولة وبين ابن عمه بختيار بن معز الدولة صاحب بغداد والعراق، ونشبت بينهما الحرب وسقط في ميادينها بختيار، فاستولى عضد الدولة على بغداد سنة ٣٦٧. ووضع في سنة ٣٧١ أخوه فخر الدولة يده في يد قابوس بن وشمكير صاحب طبرستان ضده، فوجه إليها أخاه مؤيد الدولة فاستولى على بلادهما.

ومرّ بنا في قسم العراق أن عضد الدولة المتوفى سنة ٣٧٢ أعظم الحكام البويهيين، فقد اتسعت دولته حتى شملت كرمان وإقليم فارس والأهواز وبغداد والعراق وطبرستان، وأنه أول من خطب بالملك شاهنشاه (ملك الملوك) في الإسلام. وبلغ من شعوره بأجماده واعتداده بنفسه أن فكر يوما في أن يتقلد خلافة المسلمين، فقد ذكر ابن حزم في كتابه «نقط العروس في تواريخ الخلفاء» أنه أمر لذلك الحسن بن علي البصري المعروف باسم الجعل أن يؤلف كتابا في تقليد الخلافة في غير قریش أملا منه في أن يتسمّى بها، وألف الجعل الكتاب، وانتشر الخبر إلى خراسان، فصاح الناس في مجالس الفقهاء: وإسلاماه! وإسمدهاه! وبلغ ذلك عضد الدولة، فخشى الثورة عليه، وسمّ الجعل، وقنع الناس بموته وسكن الأمر^(١). وكانت فيه قسوة شديدة جعلت قائده المظهر بن عبد الله يقتل نفسه حين هزمه بعض الثوار خوفا ورعبا، وبلغ من قسوته أنه خشى على ملكه من تدلّيه بفتاة، فأمر بتغريقها في غير شفقة ولا رحمة. وكان يضبط أمور دولته ضبطا دقيقا، فطهر الطرق من اللصوص - كما مرّ بنا في قسم العراق - ورفع الجباية عن قوافل الحجاج، واحترف لهم الآبار في الطريق إلى الحرمين، وبني كثيرا من المساجد الجامعة في مملكته وعنى بالعمران وزرع البساتين عناية واسعة.

ويتوفى ويخلفه - كما مرّ بنا في قسم العراق - ابنه صمصام الدولة، وتتوالى الأحداث، فيتوفى سنة ٣٧٣ مؤيد الدولة دون عقب، فيستدعى وزيره الصاحب بن عباد أخاه فخر الدولة من نيسابور، ويسلمه أمور الجبل وطبرستان وكل مقاليد دولة مؤيد الدولة وبلاده. ويخرج في سنة ٣٧٦ على صمصام الدولة أخوه شرف الدولة، ويصبح له الأمر

من دونه حتى يتوفى سنة ٣٧٩ فيخلفه أخوه أبو نصر الملقب بهاء الدولة وضياء الملة (٣٧٩-٤٠٣ هـ). وكان البويهيون يستكثرون من الألقاب ، ولم يكتفوا بتلقب أنفسهم ، فقد أكثروا من تلقب وزرائهم بمثل كافى الكفاة وأوحد الكفاة إلى غير ذلك . ومعروف أن السامانيين لم يكونوا يعنون بتلقب أنفسهم ، ولكنهم تفتنوا فى تلقب قواد جيوشهم . وبلغ من شيوخ ذلك بين حكام إيران أن نجد بغراخان التركى حين يثور على الدولة فى سنة ٣٨٢ يلقب نفسه شهاب الدولة .

وكان بهاء الدولة - كما مر بنا فى قسم العراق - ظالماً سفاكاً للدماء ، وهو أقبح ملوك بنى بويه سيرة ، وولى بعده ابنه سلطان الدولة (٤٠٣-٤١٥ هـ) . وانتزع الملك منه أخوه مشرف الدولة صاحب كرمان إلى أن توفى سنة ٤١٦ فخلفه أخوه جلال الدولة (٤١٦-٤٣٥ هـ) . ولا يلبث محمود الغزنوى أن يستولى من يد مجد الدولة بن فخر الدولة على الرى وأصفهان وبلاد الجبل . وتعظم الفوضى فى عهد جلال الدولة ، ويخلفه أبوكاليجار محبى الدولة (٤٣٥-٤٤٠ هـ) . ويعظم فى عصره شأن السلاجقة ، ويستولون على كثير من إيران ، ويتوفى أبوكاليجار غمّاً ، ويخلفه الملك الرحيم ، ويدخل طغرل بك بغداد سنة ٤٤٧ للهجرة ، كما مر بنا فى قسم العراق ، وبذلك يتقوّض سلطان البويهيين فى العراق وإيران نهائياً .

الدولة الزيارية^(١)

زعم البيرونى فى كتابه الآثار الباقية أن هذه الدولة تُنسبُ إلى الملك الساسانى قُباذ الذى حكم من سنة ٤٤٨ إلى سنة ٥٣١ للميلاد ، وسواء أكان هذا النسب صحيحاً أو غير صحيح ، فإنها ترجع إلى أصل إيرانى ، وكان مؤسسها مَرْدَاويج بن زيار الديلمى (٣١٦-٣٢٣ هـ) أحد قواد الجبل الذين ظهرُوا فى شمالى إيران لذلك العهد ، وقد انتظم فى سلك القواد الذين عملوا تحت لواء أسفار بن شيرويه الديلمى المتغلب على قزوین وديارها ، ولم يلبث أن وثب على أسفار وقتله ، وملك البلاد ، مؤسساً لأسرته إمارة فى طبرستان وجرجان جنوبى بحر قزوین أو كما يسمى بحر الخزر ، ومدّاً أطراف إمارته

(١) راجع فى الدولة الزيارية الآثار الباقية للبيرونى (الأندلس بيروت) ٨٢/٤ وما بعدها ، وإيران ماضيها وتكلمة تاريخ الطبرى للهمدانى (طبع بيروت) وتاريخ ابن مسكويه وابن الأثير وابن خلدون وابن تغرى بردى متفرقة من كتابه : تاريخ الأدب فى إيران من الفردوسى فى مواضع متفرقة ومروج الذهب للمسعودى (طبعة دار إلى السعدى ترجمة الشوارى .

جنوباً وغرباً ، حتى الرىّ وأصفهان وهمدان وأرمينية وأذربيجان وخوزستان ، واتخذ أصفهان حاضرة لإمارته ، وكان فيه عتو شديد ، وكان شعوبياً شديداً الكراهية للعروبة ، فزعم - فيما زعم - أنه سيستعيد مجد دولة العجم ويبطل دولة العرب فلا تقوم لها قائمة ، ووعد شيعته بالمسير إلى بغداد والقبض على الخليفة وتوليته ديار الإسلام ومدنه . وسأل عن تيجان الفرس فثقلت له هيئتها ، فاختار هيئة تاج كسرى أنوشروان ، وأمر بأن يصنع له على مثاله تاج من الذهب محلىّ بالجواهر ، وصنع له عرش من الذهب مرصع بالحجارة الكريمة . وكان يبطن المجوسية ، ولعله من أجل ذلك كان يحتفل بأعيادها احتفالات عظيمة ، واشتهر احتفال له بعيد ليلة الوقود المسمى بعيد السّدق ، وفيها كانوا يوقدون ناراً كثيرة . وقد أمر في تلك الليلة بأن تُجمع الأخطاب من أنحاء إمارته إلى حضرته أصفهان ، ونصّبها على التلال والجبال حولها وأشعلها وأشعل معها شموعا عظيمة اتّخذت لها تماثيل وأساطين ضخمة . وتمادى في بغيه وعتوه تمادياً شديداً ، حتى أوغر صدور بعض غلامه ، ففتكوا به في الحمام سنة ٣٢٣ للهجرة ، ونهبوا خزانته وأمواله . ويقال إن الديلم حزنوا عليه حزناً شديداً ، جعلهم يمشون حفاة أربعة فراسخ وراء تابوته .

ومرّ بنا في حديثنا عن الدولة البويهية أن قائده على بن بُويه استولى عقب وفاته على أصبهان والرى وأن بلدانا كثيرة أخذت تسقط في يده ويد أخويه إلا ما كان من طبرستان وجرجان ، فإنها ظلتا في يد خلفاء مرداويج الزياريين ، وقد خلفه أخوه وشمكير (٣٢٣-٣٥٦ هـ) . ويقال إنه ركب فرسا وشبّ وهو غافل عنه ، فسقط ميتا . وخلفه ابنه قابوس (٣٥٦-٤٠٣ هـ) . وكان كاتباً وشاعراً ، ومازال البويهيون يُغيرون عليه حتى قرّ من إمارته عام ٣٧١ إلى السامانيين ، وعاش عندهم مكرماً حتى عام ٣٨٨ وفيه استرد ملكه . ويقال إنه عتّا وبغى ، واشتد بغيه وعتوه ، فأجمعت حاشيته على خلعه ، واضطرت ابنه منوْجهر (٤٠٣-٤٢٦ هـ) أن ينزل على إرادتها ، وحُبس قابوس في إحدى القلاع حتى مات من شدة البرد . وظل منوْجهر يرسل بالأموال إلى محمود الغزنوي استرضاء له ، وطلبه سنة ٤٢٠ فأوغل في البلاد متحصناً منه بجبال وعرة ، وتركه محمود ولم يلبث أن توفي فخلفه ابنه أنوشروان (٤٢٦-٤٣٠ هـ) . ومن يده استولى مسعود بن محمود الغزنوي على الإمارة ، كأن لم تكن شيئاً مذكوراً .

الدولة الغزنوية^(١)

كانت الدولة السامانية تستعين في جيوشها بكثير من الترك وبذلك هيأت لهم - كما هيأ العباسيون من قبل - أن يصبح كثير من الوظائف المدنية بأيديهم ، وأن يصلوا إلى رتب القيادة في الجيش ، وأن يقوّضوها نهائيا بحيث تصبح أثرا بعد عين . وكان من آثار ذلك قيام الدولة الغزنوية ، فإن عبد الملك بن نوح الساماني (٣٤٣-٣٥٠ هـ) كان قد عين مملوكه التركي : ألبتكين قائدا عاما ، حتى إذا توفي عبد الملك مضى إلى غزنة بأفغانستان ، وأعلن نفسه أميرا عليها ، وعاجلته المنية ، فخلفه ابنه إسحق ، غير أنه لم يلبث أن توفي فقام عليها مملوك أبيه سُبُكْتِكِين (٣٦٦-٣٨٧ هـ) . وهو المؤسس الأول للدولة الغزنوية ، وقد بدأ أعماله بالاستيلاء على مدينة بُسْت في أفغانستان بمنطقة سِجِسْتَان القديمة ، وغنم فيما غنم منها الكاتب الفذّ أبا الفتح البستي ، وكان يكتب لأمرها المغلوب ، فأصبح كاتباً للدولة الجديدة . وأخذ سُبُكْتِكِين يغزو الهند . وسقط كثير من قلاعها في يده ، وجرّد حملتين كبيرتين لحرب ملك البُنجاب المسمى جِيَّال ، وأرغمه على الطاعة والصلح على أموال طائلة ، وأن يتخلّى له عن إقليم كابل في شرقي أفغانستان ، وكان يُشرف على الطرق المؤدية إلى السهل الهندي الحصب . واستغاث به نوح بن منصور في سنة ٣٨٤ ضد الثائرين عليه ، فنكّل بهم ، مما جعله يلقّبهُ بناصر الدولة ، ويولى ابنه محمودا على خراسان ويلقبه بسيف الدولة .

وتوفي سُبُكْتِكِين ، فخلفه ابنه إسماعيل بعهد منه ، وكان ضعيفا ، فطلب إليه أخوه محمود أن يتنازل له عن الحكم لتلك الدولة المترامية الأطراف ، وكان محمود لا يزال واليا للسامانيين على خراسان ، وأنى إسماعيل ذلك إباء شديدا ، فسار محمود على رأس جيش إلى غزنه وهزم أخاه واضطره إلى إعلان تنازله . ومحمود الغزنوي (٣٨٧-٤٢١ هـ) أكبر أمراء هذه الدولة وأبعدهم صيتا لمدّه أطناها شرقا وغربا وشمالا ، ولنبضته بالعلوم والآداب في عصره نهضة واسعة . وكان مثل أبيه وأسرته والأتراك جميعا سنيّا ، ولعل ذلك ما جعله يضطهد الشيعة ، وخاصة الغلاة منهم ، واضطهد أيضا المعتزلة لأنه كان

(١) الفردوسي إلى السعدي لبراون ترجمة الدكتور إبراهيم أمين الشواربي في أماكن متعددة وإيران ماضيها وحاضرها ص ٥٤ ، وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٢٦٦ .

(١) انظر في الدولة الغزنوية الآثار الباقية للبيروني وتاريخ ابن الأثير وابن خلدون وابن تقي بردي وكتاب تاريخ اليعقوبي للعتبي مع شرح المنيني (طبعة القاهرة) في مواضع متفرقة وكذلك تاريخ الأدب في إيران من

على مذهب أهل السنة^(١) . وكان الأمير منصور بن نوح الثاني الساماني قد انتهر فرصة مبارحته لخراسان لحرب أخيه ، فولّى عليها أحد أتباعه ، وتطورت الأمور ، كما مرّ بنا في حديثنا عن السامانيين ، بسقوطهم واستيلاء محمود على ديارهم ، واعترف محمود اعترافاً كاملاً بالسلطة الروحية للخليفة العباسي ، مما جعله يخلع عليه لقب : « يمين الدولة وأمين الملة » . ويذهب براون إلى أنه لقب نفسه بلقب « ظل الله في أرضه » وكان يتلقب بلقب السلطان وهو أول من تلقب بهذا اللقب في الإسلام . واتسع سلطانه حتى شمل إمارة خوارزم الصغيرة والكرج (جورجيا) وما وراء النهر وإيران الوسطى والشرقية غير مبق للبوهميين سوى كرمان وفارس .

ويشتهر محمود بكثرة حروبه وفتوحه في الهند وتمكينه للدين الحنيف في ديارها . وهو يُعدّ فاتحها الحقيقي ، أما فتح محمد بن القاسم الثقفي لها في عهد الوليد بن عبد الملك فيُعدّ غزواً أكثر منه فتحاً حقيقياً ، ومما فتحه في الهند المثلثان وكشمير والبُنجاب . وكان يبتغي بفتوحه هناك نشر الإسلام وإعلاء كلمة الله لا طلب المغنم ، كما يزعم بعض المستشرقين . واستغل أموال هذه الفتوح الطائلة في عمارة غزنة ومدن سلطنته وبناء المساجد الفخمة وفي إحداث نهضة كبيرة علمية وأدبية ، وفيه يقول الفردوسي مصوراً استنثاره بقلوب شعبه وعظمة شأنه وملكه : « عند ما يُفطم الصبي ويتوقف جريان لبن أمه على شفثيه يكون أول ما ينطق به ويجرى على الشفتين لفظ محمود . إنه كالقيل يجسده ومثل جبريل بروحه ، أما كفه فزن هاتل ، وأما قلبه فنهر النيل بخيراته . إنه السلطان والملك الكبير الشأن ، الذي جعل الشاة تنهل مع الذئب من حوض واحد في أمان » .

وعهد محمود من بعده لابنه محمد . وكان ابنه الأكبر مسعود غائباً بأصفهان ، فأحفظه هذا العهد بعد وفاة أبيه ، واشتبك مع أخيه في حروب كُتب له فيها النصر ، وأصبح هو صاحب الدولة (٤٢١ - ٤٣٢ هـ) . وفتح - كما مرّ بنا - جرجان وطبرستان ، وقضى على الدولة الزيارية . وكانت أمواج السلاجقة بدأت في مدّها ، ولم يستطع وقفها ، فقد هُزم أمامها في عام ٤٣١ مما جعل رجال الدولة يعزلونه ويولون أخاه محمداً مكانه ثانية ، وسرعان ما قتلوه وولوا مسعوداً مكانه ، وقتلوه بدوره ، وولوا مكانه ابنه مودوداً . ولم تمض سوى ثلاث سنوات حتى هزمه في إثرها السلاجقة بخراسان هزيمة ساحقة فتركها لهم ولقائدهم « طغرلبيك » . وأخذ نجم هذه الدولة في الأفول ، فانسحب سلاطينها من إيران مكتفين بغزنة وبما وراءها من ديار الهند ، ومن أهمهم إبراهيم المتوفى سنة ٤٩٣ وكان حازماً

(١) في المنتظم ٤٠/٨ أنه أمر بحرق كتب المعتزلة والفلاسفة والروافض .

عادلا بعيد الهمة ، وخلفه ابنه مسعود الثالث (٤٩٣-٥٠٨ هـ) وتولى بعده ثلاثة من أولاده متعاقبين هم شيرزاد المتوفى سنة ٥٠٩ وأرسلان المتوفى سنة ٥١٢ وهرامشاه (٥١٢-٥٤٧ هـ) واضطره السلطان السلجوقي سنجر سنة ٥٣٠ إلى الدخول في طاعته ، ودفع إتاوة له صاغرا . وفي سنة ٥٤٢ رأى بهرامشاه بسوء تدبيره أن يقتل صهره الأمير الغوري قطب الدين محمد ، وكان ذلك نذير شؤم باندلاع الحروب بين الغوريين والدولة الغزنوية ، ومازالوا يعصفون بهم حتى اضطروهم في سنة ٥٥٧ إلى الانسحاب نهائيا إلى عاصمتهم في الهند «لاهور» وتعقبوهم هناك حتى قضوا عليهم بتلك الديار سنة ٥٨٢ للهجرة .

٢

دول متعاقبة

انتهى حوالى منتصف القرن الخامس للهجرة عصر الدول المتعاقبة في إيران التي كانت توزعها فيما بينها والتي كثيرا ما تحاربت وعاشت في خصام ، وقد أخذت تحل محلها دول متعاقبة ، كانت كل منها تجمع شمل إيران وتنشر على بلدانها لواءً واحداً ، وكان لكل دولة من هذه الدول عصرها التاريخي ، وجدير بنا أن نلم بها في إيجاز .

دولة السلاجقة^(١)

السلاجقة طائفة من قبائل الترك المعروفين باسم الأوغوز ، ويسميه مؤرخو العرب الغزّ تخفيفاً ، ونرى اسمهم يتردد بين هؤلاء المؤرخين منذ أواخر القرن الرابع الهجري ، وهم ينسبون إلى رئيسهم سلجوق وقد نزل بهم قريبا من بحر الخزر (بحر قزوين) في الهضاب المتصلة بنهرى سيحون وجيحون متخذاً مدينة «جند» حاضرة له . وأخذت بعض جموعه تنزل فيما وراء النهر وتمتد إلى القرب من بخارى في خراسان . وكانوا يعتنقون المذهب السني ، وكانوا بدؤوا فاعتمدوا على الوزراء في حكمهم ، وأخذ شأنهم يعظم ، مما جعل محمودا الغزنوي يتنبه لهم ، خوفا من استيلائهم على بعض دياره في خراسان . وكان سلجوق قد توفى وخلفه ابنه إسماعيل ، فكاتبه محمود وزير له أن يقدم عليه ، وما كاد يلقاه حتى قبض عليه وزجَّ به في غياهب السجون ، وظل سجيناً يحدى قلاع الهند حتى

(١) انظر في السلاجقة المصادر المذكورة في الفصل

الأول من قسم العراق .

توفى سنة ٤٢٢. وكان محمود قد توفى قبله ، وصمم السلاجقة بقيادة طغرل بك على الانتقام ، فاشتبكوا مع مسعود الغزنوى فى سلسلة حروب انتهت باستيلائهم على خراسان فى سنة ٤٢٩ وحاول مسعود أن يسترجعها ، ولكنه هُزم هُزماً متوالية فى الستين التاليتين ، وأعلن طغرل بك نفسه ملكاً على البلاد ، كما مرَّ فى قسم العراق . ومضى يستولى على ما كان بيد الغزنويين من إيران الوسطى والجنوبية ، واستولى على طبرستان وجرجان وبلاد الجبل . واعترف الخليفة « القائم بأمر الله » بتلك الدولة السنية الناشئة وأمر بأن يذكر اسم طغرل بك فى الخطبة وأن يُضرب اسمه على النقود . وقضى طغرل بك على البويهيين نهائياً - كما مر بنا فى قسم العراق - ودخل بغداد فى سنة ٤٤٧ فى موكب رسمى ، وأجلسه الخليفة معه على العرش - كما مر بنا - وخلع عليه الخلع السنية وكان يقوم بالترجمة بينها وزير طغرل بك محمد بن منصور الكُندرى . واتخذ طغرل بك مدينة الرى حاضرة له ، وولى على البلدان إخوته وأبناءهم ، ودانت له العراق كما دانت له إيران ، وكان وزيره الكندرى هو الذى يصرفُ الأمور فى دولته الواسعة وكان أدبياً شاعراً ، وكان يظهر التسنن غير أنه كان فى حقيقته مُعزّلياً .

وتوفى طغرل بك سنة ٤٥٥ وخلفه - كما مر بنا فى قسم العراق - ابن أخيه « ألب أرسلان » وكان له أخ يسمى سليمان ، حاول الوزير الكندرى أن ينصبه على العرش من دونه ، فلما استولى ألب أرسلان على صولجان السلطنة قبض على الكندرى ، وأرسل به إلى مرو ، واستبقاه بها سنة ثم أمر بقتله . وكان ألب أرسلان (٤٥٥ - ٤٦٥ هـ) بطلامغوار قضى على كل من ثاروا عليه ، سواء فى هرة أو فيما وراء النهر أو فى فارس وكرمان . وخضد شوكة الفاطميين مستولياً منهم على حلب ودمشق ومكة والمدينة . وأعد الروم له جيشاً كثيفاً قوامه مائتا ألف رجل يتقدمهم الإمبراطور البيزنطى « ديوجينس رومانوس » فأسرع إليهم فى خمسة عشر ألفاً من صفوة جنوده ، والتقى بهم بالقرب من مدينة خللاط فى أرمينية ، وعصفت جنوده - كما مرَّ بنا فى قسم العراق - بهذا الجيش الضخم مُترلة به هزيمة ساحقة ، استسلم على إثرها الإمبراطور خاساً ذليلاً ، ونزل على الشروط التى طلبها ألب أرسلان ومنها أداء مليون دينار فدية لنفسه وعقد معاهدة لمدة خمسين عاماً يتعهد فيها الإمبراطور أن تكون جيوشه على استعداد دائم لمعونة ألب أرسلان وأن يحرق جميع أسرى المسلمين . وبينما كان يحارب الترك عند نهري جيحون ومترلا بهم هزائم متوالية وافاه القدر . وكان يدبر له هذه السلطنة المترامية الأطراف ووزيره نظام الملك ، وكان من أعظم رجال الإدارة والسياسة ، وكان عدواً للرافضة والإسماعيلية سنى العقيدة ، واشتهر - كما مرَّ

بنا في قسم العراق - بتأسيسه للمدرسة النظامية ببغداد التي أحدثت بها نهضة علمية واسعة ، وأسس على غرارها مدارس اشتهرت باسمها في أصفهان ومرو ونيسابور وبلخ وهراة وطبرستان ، وعمل على تشجيع الشعراء والأدباء وألغى كثيرا من الضرائب التي كانت ترهق الشعب ، وكان أشعريا شافعيا ، فازدهر المذهبان الشافعي والأشعري لعهد .

وخلف ألب أرسلان - كما مرَّ في قسم العراق - ابنه ملكشاه (٤٦٥ - ٤٨٥ هـ) وكان في الثامنة عشرة من عمره فأدار له دولته الوزير نظام الملك إدارة حسنة ، وكان ملكشاه يُعجب بأصفهان ويقيم فيها أكثر أيامه ، وخرج عليه بعض أقربائه ، ولكنه انتصر عليهم جميعا . وأمر في سنة ٤٦٧ ببناء المرصد العظيم الذي وضع فيه عمر الخيام وجماة من العلماء التقويم الجلالى ويرجع تاريخه إلى عيد النيروز في سنة ٤٧٢ . وكانت جيوشه ماتني غادية راتحة ، واستولت على كثير من مدن ما وراء النهر وفي مقدمتها سمرقند ، وبلغ من خوف إمبراطور بيزنطة منه أن أرسل إليه وهو في مدينة « كاشغر » النائية الجزية المفروضة على بلاده . ومما يدل على ما وصلت إليه إمبراطوريته الواسعة من علو الشأن أن أصحاب السفن الصغيرة الذين عبروا به وبحيشه إلى الضفة المقابلة لهم من نهري جيحون أخذوا أجرتهم صكوكا تدفع لهم في أنطاكية بديار الشام حتى يروا مدى اتساع السلطنة . ويقال إنه ركب جواده على شاطئ اللاذقية ، وخاض به البحر شاكراً ربّه على ما أنعم به عليه من هذا الملك الواسع الذي امتد من بلاد التتار والصين إلى ديار الشام على البحر المتوسط ، وعُني بحفر الآبار في طريق الحجاج وتخفيف الضرائب عنهم . ودسَّ خصوم نظام الملك له عنده ، فأعفاه من الوزارة ، ولم تلبث أن امتدت إليه يد أحد الإسماعيليين أعدائه في الظلام ، فطعنته طعنة نجلاء كانت سببا في وفاته سنة ٤٨٥ . ولم يلبث ملكشاه أن توفي بعده بشهر واحد . وبذلك ينتهى - كما مرَّ بنا في قسم العراق - عهد السلالة العظام .

وفام بالسلطنة بعد ملكشاه ابنه بركياروق أكبر أولاده (٤٨٥ - ٤٩٨ هـ) . ولُقّب بركن الدولة ، وخالفه عمه تئش صاحب دمشق وأخوه محمد صاحب أذربيجان ، وله معها وقائع كُتِبَ له فيها النصر ، وكان يتعقب الباطنية الإسماعيلية - كما أسلفنا في قسم العراق - وقتل منهم في بعض السنوات مئآت ، وخلفه أخوه محمد (٤٩٨ - ٥١١ هـ) . ومضى مثله يتعقب الإسماعيلية ويستولى على حصونهم ، وتولى السلطنة بعده ابنه محمود (٥١١ - ٥٢٥ هـ) . وكان شديد الحق ، فحارب عمه سنجر أمير خراسان المغوار ودارت عليه الدوائر ، غير أن عمه عفا عنه وولاه العراق . وامتد حكم سنجر أربعين سنة (٥١٣ - ٥٥١ هـ) . واستقل عنه في سنة ٥٣٥ ملك خوارزم أئيز ، وحاربه الترك في سنة

٥٣٦ واستولوا منه على مرو ونيسابور وسرخس ، وحاربه الغز في سنة ٥٤٨ وأسروه ، وظل في أيديهم إلى أن هرب سنة ٥٥١ ولم يلبث أن قضى نحبه . واشتهر في هذه الدولة أربعة من سلاجقة كرمان هم ثوران شاه المتوفى سنة ٤٩١ وابنه إيران شاه المتوفى سنة ٤٩٥ وأرسلان شاه المتوفى سنة ٥٣٧ وابنه مغيث الدين محمد المتوفى سنة ٥٥١ وقد تجزأت الإمبراطورية السلجوقية في سرعة شديدة ، حتى فقد الأمراء سلطانهم ، وحتى استبد بهم في كل بلد نوابهم المسمون باسم الأتابكة .

الدولة الخوارزمية^(١)

مؤسس هذه الدولة أحد ممالك السلطان ملكشاه ، وهو أنوشكين ، حين جعله هذا السلطان واليا على خوارزم سنة ٤٧٠ فأسس بها دولة ملوك خوارزم أو خوارزمشاه ، واستطاع خلفاؤه أن يتخلصوا من كل صلة تربطهم بالسلاجقة ، ومن أهم ملوكهم أنشيز (٥٢١ - ٥٥١ هـ) . وله وقائع مع سنجر السلجوقي ، وتمكن أحيانا من الاستيلاء على مرو ونيسابور ، ويقترب باسمه كاتبه المشهور رشيد الدين الوطواط . وقد تمكن من جاءوا بعده من القضاء على سلطان السلاجقة في إيران وفرض سيطرتهم عليها ، وخاصة الأجزاء الشمالية ، وكان آخرهم جلال الدين منكبرتي الذي صمد صمودا باهرا للغزو التتاري من سنة ٦١٧ إلى سنة ٦٢٩ حين استسلم ولكن بعد نضال عظيم .

الدولة المغولية

المغول قبائل رحل كانت تتزل في قلب آسيا على حدود الصين في الإقليم المسمى منغوليا ، وكانت تعيش على الرعي والصيد ، واستطاع جنكيزخان أن يجمع شمل هذه القبائل ويفتح بها بلاد الصين - كما مر في القسم الخاص بالعراق - ثم يغيرها على مملكة خوارزم ويقوض هذه المملكة ، كما أغار بها على خراسان ، وامتدت سيولها تجرف كل ما أمامها حتى الرى وهمدان ، متزلة فظائع وحشية ، وبحق يقول ابن الأثير في حوادث سنة ٦١٧ إن فتوح التتار في بلاد الإسلام أعظم مصيبة حلت بالعالم . وامتدت أيام جنكيزخان في إيران

العصر العباسي الأخير للدكتور بدرى محمد فهد (طبع بغداد) والشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي لحافظ حمدي (طبع القاهرة) وتاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي لبراون .

(١) انظر في الدولة الخوارزمية ابن الأثير وابن خلدون والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى وزبدة النصرة للبندارى (مختصر تاريخ دولة آل سلجوق للهاد الأصهباني) وذيل الروضتين لأبي شامة في مواضع متفرقة وسيرة السلطان جلال الدين منكبرتي للنسوى . وراجع تاريخ العراق في

من سنة ٦١٦ إلى سنة ٦٢٥ وهى السنة التى قضى نجبه فيها بالصين بعد أن حكم المغول اثنين وعشرين عاما . واجتمع أمراء المغول بعد وفاته من البلاد الشاسعة التى افتتحوها فى الصين وما وراء النهر وخراسان وإيران وخوارزم ، واتفقوا جميعا على أن يتولى بعده ابنه أوكدى (أوكتاى) (٦٢٥ - ٦٣٩ هـ) . واتخذ عاصمة له قراقورم وأخضع لحكمه - كما مرر بنا فى قسم العراق - أوروبا الشرقية : روسيا وبولندا ، ونكلت جيوشه بالناس فيها تنكيلا شديداً على نحو ما نكلت جيوش أبيه بالإيرانيين والصينيين ، ويقال إن آذان ضحاياها فى بولنده بلغت مائتين وسبعين ألفا . وحين توفى خلفه ابنه كيوك وظل يدير هذه الدولة المترامية الأطراف حتى وفاته سنة ٦٤٦ وخلفه ابن عمه منكوس سنة ٦٤٩ فأرسل أخاه هولاكو إلى إيران فعمل على الاستقلال بها مع تبعيته لأخيه هو وأبنائه ، وأخذ يوطد حكمه بها منذ سنة ٦٥٤ بادئا باستئزال الإسماعيلية الملقبين بالحشاشين من معاقلهم فى « الموت » وغيرها والقضاء عليهم قضاء نهائيا . ولم يلبث أن أرسل إنذارا إلى الخليفة « المستعصم بالله » أن يسلم نفسه إليه ويعطيه مفاتيح مدينة بغداد . وتقدم إليها فى سنة ٦٥٦ فاكسحها كما مرر بنا فى الحديث عن العراق ، بعد حصار دام نحو شهر وقتل فيه هو وجنوده - كما يقول المؤرخون - نحو مليون من سكانها ، وقتلوا الخليفة وأكثر أهله - كما مرر بنا فى قسم العراق - وحرقوا قصوره ، ونهبوا البلدة وما كان بها من الكتب ، وكان ذلك إيذانا بدمار الحركة العلمية فيها وأقول نَجْمُها .

الدلة المغولية ^(١) الإيلخانية

اتخذ هولاكو لقب إيل خان (تابع الخان) وهو اللقب الذى ورثه عنه خلفاؤه من بيته على إيران والعراق مما جعل دولتهم فيهما - تسمى دولة الإيلخانيين ، وأرسل فى سنة ٦٥٨ جيشا كثيفا للاستيلاء على سوريا ومصر - كما مرر بنا فى قسم العراق - واستولى على أكثر البلاد السورية ، غير أن جيش مصر الباسل بقيادة قُطز والظاهر بيبرس تصدى للمغول فى عين جالوت بفلسطين وهزمهم هزيمة ساحقة ، وتعقبهم فى سوريا حتى ردهم عنها إلى العراق وما وراءه . وتوفى هولاكو فى عام ٦٦٤ للهجرة ، فخلفه ابنه أبغا (٦٦٦ - ٦٨٠ هـ) . وقد وجه إلى سوريا حملات باءت كلها بالإخفاق الذريع أمام الجيوش المصرية ، إذ كانت دائما تنزل بها ضربات قاصمة . وأخذت من حينئذ تنفصم الصلات التى كانت تربط الإيلخانيين فى إيران بأباطرة المغول فى (قراقورم) . وبموت أبغا ينتهى العهد الوثنى للمغول

(١) راجع فى الدولة المغولية الإيلخانية المصادر المذكورة فى الفصل الأول من قسم العراق .

وحكامهم فإن خلفه بوكدار أخاه اعتنق الدين الحنيف ، ولم يُمضَ في الحكم سوى عام واحد ، إذ قتلته يد آئمة . وولى بعده أخوه أرغون (٦٨١ - ٦٩٢) وفي عهده حظى المسيحيون النسطوريون بعطف واسع ، وخلفه أخوه كيخْتُولْمْدَة ستين ، ثم يَبْدُو وقُتل سريعا . وولى بعده - كما مرَّ في قسم العراق - غازان (٦٩٣ - ٧٠٣) الذي أتاح لدولة الإيلخانيين في إيران والعراق عهدا ذهبيا عظيما ، إذ اعتنق الإسلام وعمل على نشره بين المغول نشرا واسعا ، وعُني بأن تصبح تبريز عاصمته من أجمل المدن الإسلامية ، وقد بنى فيها رباطا وبمارستانا ومدارس دينية ومرصدا كبيرا ومكتبة فخمة ، وأقام لأصحاب العلوم والفنون ضاحية مؤلفة من ثلاثين ألف بيت لعلماء الدين والفقهاء والمحدثين والقراء والأساتذة والطلاب . وخلفه أخوه خُدا بَنْدَا سنة ٧٠٣ واهتم مثله بنهضة العلوم والفنون ، واتخذ عاصمة له مدينة بناها بالقرب من قزوین سماها السلطانية ، واحتفل في بنائها والاهتمام بها احتفالا واسعا . وتوفي سنة ٧١٦ وتولى بعده ابنه بوسعيد حتى سنة ٧٣٦ للهجرة ، وكان في الثانية عشرة من عمره ، فلم يستطع ضبط البلاد ، وأخذ أبناء عمومته يتناحرون على الولايات والبلدان ، وكونوا دويلات صغيرة ، كان من أقواها الدولة المظفرية في كرمان التي استطاعت أن تبسط نفوذها على فارس والجزء الجنوبي من إيران . وتظل البلاد في فوضى نحو نصف قرن من الزمان ، إلى أن يغزو تيمورلنك إيران والبلاد العربية .

الدولة المغولية التيمورية^(١) وما تلاها من الدول

مؤسس هذه الدولة تيمورلنك المولود - كما مر في قسم العراق - في كَش من أعمال ما وراء النهر بالقرب من سَمَرْقَنْد سنة ٧٣٦ للهجرة ، وهو من سلالة جنكيزخان ، كان أبوه واليا لكش ونواحها ، واستطاع تيمورلنك بذكائه وشجاعته أن يستميل حكام ما وراء النهر ، فيقربوه منهم ويستوزروه في بعض الأحيان . وما زال يعمل على أن يجمع زمام السلطة في يده - كما مر في قسم العراق - حتى غدا الحاكم الوحيد لإقليم ما وراء النهر جميعه سنة ٧٧١ للهجرة ، ومدَّ سلطانه إلى خراسان في سنة ٧٨٢ واستولى على مازندران وسجستان وجرجان في سنة ٧٨٤ ولم يلبث في سنة ٧٨٨ - كما مر في قسم العراق - أن استولى على فارس وأذربيجان . وبدأ منذ سنة ٧٩٥ ما يعرف بحرب السنوات الخمس ، فأغار على

٧٦/٢ ٨٢٥ وإيران ماضيها وحاضرها لدونالد ولير ص

وما بعدها .

(١) انظر في الدولة المغولية التيمورية المصادر المذكورة

في الفصل الأول من قسم العراق . وانظر في الدول التالية

تاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٤٢٠ وفيليب حتى

أقاليم الخزر وآسية الصغرى واستولى على الرُّها وتكرت وآمد وحاصر بغداد - كما مر في قسم العراق - سنة ٧٩٥ ، وسار في سنة ٨٠١ إلى الهند وعبر نهر السند واستولى على دِلْهى . ثم اتجه شرقاً في سنة ٨٠٣ فاستولى على سيواس وملطية في آسية الصغرى ، ودخل ديار الشام ، واستولى على حلب وحماة وحمص وبلبك ودمشق . ولم يفكر في متابعة حملاته إلى الجنوب حتى مصر ، وكأن ذكرى هزيمة أسلافه التتار في عين جالوت أمام المصريين كانت لاتزال ماثلة نصب عينيه ، ويستولى على بغداد . ويتجه إلى آسية الصغرى في سنة ٨٠٤ وتدور رحى حرب طاحنة بينه وبين العثمانيين بقيادة بايزيد ويُهزَمون هزيمة ساحقة . ويعود تيمورلنك إلى عاصمته سمرقند سنة ٨٠٧ ويعدّ حملة كبيرة على الصين ، وتسير الحملة في وجهتها ، غير أن أجله يوافيه ، فيتوفى عن واحد وسبعين عاماً بعد أن حكم هذه الإمبراطورية الضخمة ستاً وثلاثين سنة . وقد ملأ سمرقند بالعائز الفخمة ، وضريحه فيها آية من آيات العمارة الرائعة . وكانت فتوحاته أقل بقاء وأقصر عمراً من فتوحات جنكيزخان وخلفائه ، فبمجرد أن مات رجعت سوريا وآسية الصغرى إلى حكامها الأصليين .

وتوزع ابنائه : شاه رخ وميران شاه إمبراطوريته - كما مر في قسم العراق - فكان شطرها الشرقى الشامل لإيران من نصيب شاه رخ ، بينما كانت العراق وأذربيجان والقوقاز من نصيب ميران شاه . وتوفى سنة ٨١٠ فضم نصيبه شاه رخ إلى سلطانه ، وكان يتخذ هراة بأفغانستان عاصمة له إلى أن توفى سنة ٨٥١ للهجرة . وخلفه ابنه ألغ بك (٨٥١ - ٨٥٣ هـ) وكان راعياً كبيراً للفن والأدب الفارسيين . وولى بعده بوسعيد (٨٥٤ - ٨٧٤ هـ) وكان سلطانه وطيداً في دياره إلى حدود الهند . وأعقبه حسين بايقرا (٨٧٤ - ٩٠٢ هـ) وفي عهده أصبحت سمرقند مركزاً مهماً من مراكز الثقافة الإسلامية . ولم تلبث هذه النهضة أن توقفت فإن قبيلة أوزبك التركمانية بقيادة زعيمها شيبانى قضت على التيموريين في الشرق ، وفرّ آخر حكامهم سنة ٩٠٦ إلى الهند وأسس هناك دولة المغول العظام . وكانت قبيلة قرايوسف التركمانية قد استولت على غربى إيران ، واتخذت تبريز عاصمة لها . ولم يلبث قرايوسف أن استولى على العراق سنة ٨١٣ وظل التركمان يحكمونه هو وغربى إيران كما مر بنا في قسم العراق حتى ظهر إسماعيل الصفوى (٩٠٧ - ٩٣٠ هـ) واستولى على إيران جميعها وأسس بها دولة جديدة هى الدولة الصفوية . وفى قسم العراق حديث عنه وعن دولته أكثر تفصيلاً ، وكانت تمتد شرقاً إلى هراة وغرباً حتى شملت العراق جميعه . وجعل دولته دولة إيرانية قومية ، متخذة العقيدة الإمامية الشيعية عقيدتها الرسمية ، مما دفعه هو وخلفاؤه إلى الاشتباك في حروب متوالية مع الترك العثمانيين السنيين . وظل حكم الدولة

الصفوية في إيران نحو مائة وأربعين عاماً ، وخلفهم عليها الأفغانيون ، وجاء في إثرهم الأفشاريون ثم الزنديون ، وخلفهم القاجاريون في أواخر القرن الثاني عشر وظلوا نحو مائة وثلاثين عاماً وفي كل هذه الحقب وخاصة منذ حكم الصفويين خمد النشاط الأدبي العربي في إيران خموداً تاماً .

٣

المجتمع

كان يتكون المجتمع الإيراني في هذا العصر من ثلاث طبقات : طبقة عليا ، تتضمن الأمراء الحكّام والوزراء والقادة والولاة على البلدان وكبار رجال الدولة والإقطاعيين ، وطبقة وسطى تتضمن موظفي الدواوين وأوساط التجار والصناع ورجال الحسبة والقضاء ، وطبقة دنيا تتضمن العامة من أصحاب الحرف ومن الزراعة والخدم والرقيق ، ويدخل أهل الذمة في الطبقتين الأخيرتين بحسب أعمالهم .

وكانت الطبقة الأولى منعمة مترفة ترفاً واسعاً ، وكان في أعلى درجاتها الأمراء الحكام الذين دانت لهم رقاب العباد ، وصُيِّبَت الأموال التي تُعَدُّ بالملايين في خزائهم ، وكانت مصادرها متعددة ، إذ كانوا يجمعون الضرائب من الناس ، ضرائب الأرض ، وكان لها نظام خاص هو نظام الزكاة الإسلامي ، وكان لها في كل مدينة ديوان هو ديوان الخراج ، وهو بمثابة خزانة مالية للدولة أو الإمارة ، وكانت أعطيات الجند ونفقات البلدة تؤخذ منه ، ويُحْمَلُ ما يتبقَّى إلى ديوان الخراج أو بيت المال في حاضرة الدولة ، وهناك ينفقه الأمير على الجيش وحاجات الإمارة . وما بقى منه يصبح رهن حياته المترفة في القصر دون رقيب . ويجانب ضرائب الأرض كانت هناك ضرائب كثيرة على الصادرات وعلى بعض الواردات من الرقيق ومن عروض التجارة . ولا بد أن نلاحظ كثرة الحروب في العصر وأن إمارات بحالها كانت تكتسح أحياناً وتدخل في سلطان هذا الحاكم البويهي مثلاً أو الحاكم الغزنوي أو الساماني أو السلجوقي ، وحينئذ تكتظ خزائن هذا المحارب المنتصر بالأموال الطائلة . وظل ذلك طوال العصر بل تفاقم في عهد التتار ومن تلاهم . وكان يتبع الإمارة عادة كثير من الضياع وكانت ثمارها جميعها تعود إلى الأمير وخزائنه . وكثرت في تلك العصور مصادرة أموال الوزراء حين يُعزَّلون أو يموتون ، وكذلك الكتاب والعمال ، فكانت أموالهم وإقطاعاتهم وضياعهم تصبح ملكاً للدولة .

ولعل في ذلك ما يوضح كيف أن الأموال في خزائن الأمراء أو على الأقل في خزائن

بعضهم كانت تُكال كَيْلاً ، وأيضاً ما يوضح النصوص التي نقرأها في كتب التاريخ عن تركات بعض هؤلاء الأمراء وما أنفقوه أحياناً في أعراسهم أو أعراس أبنائهم وفي بناء قصورهم ، فمن ذلك ما يُروى عن فخر الدولة البويهى صاحب همدان والجليل والديّ نور وجرجان من أنه خلّف حين مات مليونى دينار وثمانمائة وخمسة وسبعين ألفاً ومائتين وأربعة وثمانين ، كما خلف من الجواهر والياقوت واللاّلى ما قيمته ثلاثة ملايين دينار ، ومن الفضة ما وزنه ثلاثة ملايين ، ومن الثياب ثلاثة آلاف حمل^(١) . أما أخوه مؤيد الدولة فيروى أنه أنفق في عرس زواجه من ابنة عمه معز الدولة السيدة زبيدة سبعمائة ألف دينار^(٢) . أموال كانت تسيل إلى خزائنه من إمارته الإيرانية في الرى وأصفهان لا يعرف لها قيمة ، ولذلك يبدّرها ويتلفها حسب هواه . وعظم شأن أخيها عضد الدولة ، فخضعت لسلطانه البلاد الممتدة من بحر قزوين إلى جنوبى إيران وحتى العراق وعمان مما جعله يتلقب بشاهنشاه (ملك الملوك) لأول مرة فى الإسلام ، وكان دخله - فما يُروى - ثلثمائة وخمسة وعشرين مليوناً من الدراهم ، وقيل بل كان اثنين وثلثين مليوناً من الدنانير ومائة ألف درهم^(٣) . وكان عضد الدولة بدوره ينفق الملايين على بدّخه ، وخير ما يصور ذلك قصره الذى بناه بشيراز ، فقد رآه المقدسى بعد موته بفترة قليلة ، وُهِت حين رآه ، وفى ذلك يقول : «بنى عضد الدولة بشيراز داراً لم أر فى شرق ولا غرب مثلاً ، ما دخلها عامى إلا افتتن بها ، ولا عارف إلا استدل بها على نعمة الجنة وطيبها . شقّ فيها الأنهار ونصب عليها القباب ، وأحاطها بالبساتين والأشجار ، وحفر فيها الحياض ، وجمع فيها المرافق والعُدد . وسمعت رئيس الفراشين يقول : فيها ثلثمائة وستون حجرة ، كان مجلسه كل يوم فى واحدة إلى الحول . . وطُفّت فيها ورأيت الأنهار تطّرد فى البيوت والأروقة . وأظنه بناها على ما سمع من أخبار الجنة ، وبان بوناً بعيداً وضلّ ضلالاً مبيناً»^(٤) .

وهذا القصر صورة من صور الترف المفرط ، فالأمير لا يريد أن يجلس بيته فى حجرة مهتأة جلوسه كل يوم ، بل يريد أن تتغير ، بحيث لا يعود إليها إلا فى عام تال ، وكأن الحجر فى القصر أصبحت كآزائه ، فهو يبدّلها كل يوم ، وطبعاً لا يهيم الشعب الكادح وراء هذا القصر ولا تهمة مصالحه ، وإن كان عضد الدولة قد اشتهر بضبطه الأمن والنظام فى ربوع إمارته الواسعة ، كما اشتهر بعنائه بالثقافة والعلم والعلماء ، ولكن لاشك أنه كان

(١) النجوم الزاهرة ١٩٧/٤ والمتنظم ١٩٨/٧ . (٤) أحسن التقاسيم للمقدسى (طبع ليدن) ص ٤٤٩ .

(٢) المتنظم ١٢٢/٧ . وانظر فى قصر بناه فخر الدولة بجرجان البيّمة ٢٧١/٣ .

(٣) المتنظم ١١٦/٧ .

يُغْرِق نفسه في الترف والنعيم .

وعلى شاكلة هؤلاء الأمراء البويهيين كان الأمراء السامانيون والزياريون ، فقد كان الأمير دائماً يَعدُّ الإمارة ضَيْعَةً له ، ولعلَّ أميراً لم يَحْزُ من الأموال ما حازه محمود الغزنوي من غنائمه في الهند ، فقد ظل ينازل الهنود مدة أربع وعشرين سنة ، وهو يمدُّ حدود إمارته حتى شملت كشمير والشمال الغربي من الهند ، وفي أثناء ذلك غنم غنائم لا تحصى . ويكفي أن نذكر من غنائمه ما أخذه من معبد سومنات الذي كان يحج إليه الهنود الوثنيون ، وسومنات اسم الصنم الكبير فيه وكان مرصعاً بالجواهر والحجارة الكريمة ، وكان إلى جواره ست وخمسون سارية صفائحها من الذهب المرصع بالجواهر النفيسة ، وكان يحيط بهيكله ألوف من التماثيل الذهبية والفضية . ويُحصى العُتْبَى في كتابه اليميني هذه الذخائر وما يماثلها مما يخرج عن طوق الخيال ^(١) . وقد أتاحت لمحمود أن يشيد جامعه العظيم بغزنة وأن يحدث نهضة علمية وأدبية في إمارته النائية ، كما أتاحت له ولأبنائه وأحفاده ثروة هائلة توارثها الأجيال ، غير ما كان يُجَبِّى لهم سنوياً من تلك الديار .

وبالمثل كان السلاجقة يمتلكون في خزائهم الأموال الطائلة ، وقد اتسعت مملكتهم اتساعاً كبيراً ، حتى لقد كانت تمتد في عهد ألب أرسلان من أقصى حدود ما وراء النهر إلى أقصى حدود الشام ، وكانت له حروب وفتوحات كثيرة غنم منها مغام شتى ، من أهمها حروبه مع البيزنطيين في آسيا الصغرى وقد وقع بإحدى المعارك في أسرهِ إمبراطورهم «ديوجينيس رومانوس» وافتدى نفسه بمليون دينار - كما مر بنا - ودفع له الجزية صاغراً . ويذكر ابن الأثير أنه زوّج ابنته من الخليفة المتقي وهو لا يزال ولي عهد وأنه نثر على الناس ليلة زفافها جواهر كريمة كانوا يلتقطونها في دهشة وعجب كبير ^(٢) ، ويقال إن خراج خلفه ملكشاه بلغ عشرين مليون دينار ^(٣) . ويُروى أنه حين غلب سنجر السلجوقي صاحب خراسان على غزنة عام ٥٠٨ هـ وقعت في أيديه وأيدي أصحابه أموال لا تعد ولا تحصى وكان في جملة ما استولى عليه خمسة تيجان قيمة الواحد منها تزيد على مليونين من الدنانير ، واستولى أيضاً على ألف وثلثمائة قطعة مصاغ مرصعة وسبعة عشر سريراً من الذهب والفضة ^(٤) . وكان السلطان محمود السلجوقي مبذراً متلفاً ، وأتلف فيما أتلفه ما ورثه من

(١) اليميني للعتي ٩٩/٢ وانظر في غنائمه من البويهيين البويهيات مائة ألف دينار (ابن الأثير ١٠٥/٩ ، المنتظم ٤٠/٨ .

(٢) ابن الأثير (تحقيق إحسان عباس - طبع دار صادر (٣) المنتظم ٧/٩ .

(٤) ابن الأثير ١٠٧/١٠ وكان صداق الأميرات بيروات) ٧٠-٧١ وكان صداق الأميرات

أموال كانت محفوظة بخزائن الدولة ، وكانت ثمانية عشر مليوناً من الدنانير^(١) . واحتترقت له دار في سنة ٥١٥ واحترق فيها لزوجته «ملاحد له من الجواهر والحلى والفرش والثياب ، وأقيم الغسالون يخلصون الذهب ما أمكن تخليصه ، وهلك الجواهر جميعه إلا الياقوت الأحمر^(٢)» .

وهذه أخبار متناثرة في كتب التاريخ تدل بوضوح على معيشة الأمراء الذين كانوا يحكمون إيران وكيف أنهم كانوا يغرقون إلى آذانهم في الترف والنعم ، غير حاسبين للشعب حساباً . ومثلهم كان الوزراء وقد تعلقوا في هذا العصر بالألقاب وتعددها منذ أوائله حتى لنجد أبا بكر الخوارزمي المتوفى سنة ٣٨٣ يشكو من ذلك شكوى مرة^(٣) . وكان الوزير يتولى الإشراف على مالية الإمارة ووجوه جمعها وإنفاقها ، وكان يقود الجيوش بنفسه ، على نحو ما كان وزيراً بويه : ابن العميد والصاحب بن عباد ووزير السلاجقة نظام الملك ، واتخذ عضد الدولة البويهى وزيرين أحدهما كان نصرانياً هو نصر بن هرون وكان له النظر في شئون فارس . وكان الوزير يتقاضى مرتباً ضخماً ، جعله يحيط نفسه بمظاهر الفخامة التامة ، متخذاً لنفسه حرساً كبيراً كان يعدُّ بالعشرات وأحياناً بالآلاف^(٤) ، فكان إذا سار برز للناس في موكب باهر من الحراس . وكان أمراؤهم لا يكتفون بما يعطونهم من مرتبات جزيلة فقد كانوا يضيفون إليها كثيراً من الضياع والإقطاعات ، بحيث يعظم دخل الوزير ويعيش في ترف بالغ . وهياهم ذلك ليسوا القصور الباذخة ، على نحو ما يحدثنا الثعالبي في كتابه اليتيمة عن قصر بناء ابن العميد^(٥) ، وقصر آخر بناء الصاحب بن عباد في أصبهان تبارى شعراؤه في وصفه بالقصائد الطوال^(٦) ، وكانت داره لا تخلو في كل ليلة من ليلالى رمضان من ألف نفس تُفطّر فيها ، وكانت صلواته وصدقاته وقرباته في هذا الشهر تبلغ مبلغ ما يُطلقُ منها في جميع شهور السنة^(٧) . وكان الوزراء يتأنقون في ملابسهم ، ولم يقف تأتقهم عند أنفسهم ، فقد كانوا يطلبونه في خدمهم وحواشيهم وكل ما يتصل بهم من ملابس ومطاعم ، ومن طريف ما يُروى من ذلك ما ذكره الثعالبي عن الصاحب بن عباد من أنه كان يعجبه الخبز (الحريز) ويأمر بالاستكثار منه في داره ، وألمَّ به

(١) زبدة النصرة للبندارى مختصر تاريخ دولة آل

سلجوق للعماد الأصبهاني (طبع ليدن) ص ١٤١ .

(٢) ابن الأثير ٥٩٤/١٠ .

(٣) اليتيمة ٢٠٣/٣ وانظر وصفهم لقصر آخر له في

(٤) اليتيمة للثعالبي (طبعة محمد محي الدين جرجان اليتيمة ٣٦/٤ .

(٥) اليتيمة ١٩٣/٣ .

(٦) اليتيمة ٢٣٠/٤ .

(٧) اليتيمة ١٩٣/٣ .

أبو القاسم الزعفراني الشاعر يوماً ، فرأى جميع من حوله من الخدم والحاشية يلبسون
الخزوز الفاخرة الملونة ، فأنشده على البديهة ^(١) .

كسوتَ القيمين والزائرين كسَى لم يُخلْ مثلها ممكنا
وحاشيةُ الدار يمشون في ضروبٍ من الخنزِ إلا أنا

وكان الصاحب يكثر من إهداء الخلع إلى زواره ، كما يشير أبو القاسم فما إن سمع
بقوله ، حتى أمر له من الخنزِ بحجة وقيص ودُرَاعَة وسراويل وعمامة ومنديل ومُطَرَف (ثوب)
ورداء وجورب . وكان الولاة مثل الوزراء يحيطون أنفسهم بهذا الجو المترف ، فكانوا يبنون
القصور ذات الأواوين الضخمة ، ويروى أن أبا جعفر والى سجستان تأتق في قصر بناه
لنفسه كان مكتوباً في صدر إيوانه ^(٢) :

من سرّه أن يرى الفردوس عاجلةً فليُنظرَ اليوم في بُنيانِ إيوانِ
أوسرّه أن يرى رِضوان عن كُتبٍ بملء عينيه فليُنظرُ إلى الباني

وبالمثل كان كبار الموظفين في الدواوين وغير الدواوين يعيشون معيشة مترفة كلها زينة
وأناقة ، سواء أكانوا متصلين بأعمال الخراج وأموال الدولة أو غير متصلين . ويبدو أن
الكتاب كانوا من أكثر هؤلاء الموظفين عناية بأناتهم ، ويلاحظ ذلك على كتاب السامانيين
العبودي الشاعر فينشد ^(٣) :

أُكَّتابَ ديوانِ الرسائل ما لكم تجمَّلتمْ بل مُتَّم بالتجملِ

وكان كبار القضاة يدخلون في هذه الطبقة لما يتقاضون من رواتب عالية ومثلهم
أصحاب المظالم . وكان للقواد مكانة كبيرة ، وكأنما كانوا يشركون الأمراء في إماراتهم
فأوسعوا عليهم في الرواتب والأرزاق . ونستطيع أن نقول بصفة عامة إن كل المتصرفين في
أعمال الدولة كانوا يعيشون معيشة بذخ على حساب الشعب الكادح ، فلهم القصور
ولديهم الأموال والخلع التي يهبونها للشعراء والناس ، وكان كثير منهم يشعر باستعلاء على
أبناء الأمة ناسياً أنه يعيش من عرق جبينهم ، ويشكو شاعر من هذا الاستعلاء البغيض
قائلاً ^(٤) :

أُكَلُّ منَ كان له نعمةٌ أوسعُ من نعمةِ إخوانِهِ
أم كلُّ من كان له جَوْسَقٌ مشرفٌ شيد بأركانِهِ ^(٥)

(٤) بيتة ٩١/٤ .

(٥) الجوسق : القصر .

(١) بيتة ١٩١/٣ .

(٢) بيتة ٣٣٨/٤ .

(٣) بيتة ٧٧/٤ .

أَمْ كُلُّ مَنْ كَانَ لَهُ كِسْوَةٌ يَبْذُلُهَا فِي بَعْضِ أَحْيَانِهِ
يُرَى بِهَا مُسْتَكْبِرًا تَائِهًا عَلَى أَدَانِيهِ وَخِلَاتِهِ

ويلحق بهذه الطبقة بل يأتي في مقدمتها الإقطاعيون أصحاب الإقطاعات الواسعة التي كان يُغدقها الأمراء على الحواشي من الوزراء والقواد والقضاة والولاة وغيرهم من أفراد الأمة . وكان النظام الإقطاعي معروفاً في إيران قبل الإسلام ، ومما ساعد عليه اختلاف أصقاعها وبقاعها بين قلاع صخرية وصحار وسهول ، وأخذ هذا النظام يعود منذ عصر الرشيد ، حتى إذا كنا في هذا العصر نفاقم أمره ، حتى ليقول المقدسي في القرن الرابع إن أكثر الضياع بفارس مقطعة ^(١) ، وظل ذلك بعد عصر بني بويه ، بل لقد اتسع في عصر السلاجقة وأيام نظام الملك وزيرهم ، فإنه لما اتسعت مملكة السلاجقة رأى أن يسلم القرى إلى مجموعة من الإقطاعيين : قرية أو أكثر أو أقل ، كل على قدر إقطاعه ^(٢) . وعُرف بجانب الإقطاع في هذا العصر نظام الضمان ، وأعدَّ بدوره لظهور طبقة أخرى من الرأسماليين ، إذ كان يضمن خراج الضياع وأحياناً القرى ، بل أحياناً الولايات ، شخص يفرض على نفسه ما لا يؤديه عنها ، ويأخذ لنفسه أضعاfe . وكثيراً ما كان هؤلاء الضامنون أصحاب الخراج أنفسهم ، إذ تحولوا بدورهم إلى إقطاعيين وأصحاب ضياع واسعة . وكل ذلك معناه أنه كانت هناك طبقة كبيرة تملك الإقطاعات والضياع الكثيرة معصرة دماء الشعب ، وكان حسبُ الشخص ضيعة واحدة ليكون ثريا ، وصور ذلك المعافى بن هزيم شاعر أبيورد قائلاً ^(٣) .

كَفَتْنِي ضَيْعَتِي مَدَحَ الْعِبَادِ وَظَعَنَّا فِي الْبِلَادِ بَغِيرَ زَادٍ
غَدْتُ سَكْنِي وَخَادِمَتِي وَظَرَّتِي وَفِيهَا أَسْرَتِي وَبِهَا تِلَادِي
صَدِيقُ الْمَرْءِ ضَيْعَتُهُ وَكَمْ مِنْ صَدِيقٍ فِي الصَّدَاقَةِ مُسْتَرَادٍ
يَخُونُكَ فِي الْمَوَدَّةِ مَنْ تَوَاحَى وَمَالُكَ لَا يَخُونُكَ فِي الْوَدَادِ

وكان الأبناء يتوارثون عن آبائهم هذه الضياع والإقطاعات ، مما أعدَّ لنشوء طبقة أرسقراطية واسعة ، كانت تنفق عن سعة ، وكان كثير منها جواداً ممدحاً ، ويلقانا ذلك

(١) أحسن التقاسيم للمقدسي ص ٤٢١ .

(٢) طبقات الشافعية للسبكي (طبعة محمود الطناحي

وعبد الفتاح الحلو نشر مكتبة عيسى البابي الحلبي) ٤٧٤/١٠ .

(٣) يتيمة ١٣٢/٤ والظفر: المرصعة .

(١) أحسن التقاسيم للمقدسي ص ٤٢١ .

(٢) طبقات الشافعية للسبكي (طبعة محمود الطناحي

وعبد الفتاح الحلو نشر مكتبة عيسى البابي الحلبي) ٤٧٤/١٠ .

(٣) يتيمة ١٣٢/٤ والظفر: المرصعة .

السلجوقي أن نرى في همدان زيدا الحسنى العلوى يدفع إلى

بوضوح في كتب تراجم الشعراء مثل اليتيمة ودمية القصر والخريدة ، إذ نجد عشرات الأسماء المجهولة تُمدَّحُ أمداحاً كثيرة ، وحقا قال بشار :

يسقط الطيرُ حيث يَنثُرُ الحَبُّ وَتُعْشَى منازلُ الكرماءِ

وكان ذلك سبباً في أن نلتقي بكثيرين من رعاة الشعر والشعراء في كل بلدة .

وكانت الطبقة الوسطى تتألف من عناصر كثيرة ، في مقدمتها القضاة والفقهاء وعلماء العربية وكان لكثيرين منهم رواتب يُقدِّرها الأمراء أو وزراءهم . ويدخل في هذه الطبقة عمال الحسبة والبريد ودواوين الجيش والشهود الذين كان القضاة يقيمونهم للشهادة ، فقد أصبح مثلهم مثل العمال الثابتين ، وكانوا دائماً موضعاً للشكوى وفيهم يقول أبو عبد الله الخوزي ^(١) :

وَيْلٌ لِمَنْ عَدَّلَهُ الْقَاضِي وَاللَّهُ عَنْهُ لَيْسَ بِالرَّاضِي
تَمْضِي الْقَضَايَا بِشَهَادَاتِهِ وَهُوَ إِلَى النَّارِ غَدَاً مَاضِي

ويتنظم في هذه الطبقة الصناع وأوساط التجار أما كبارهم فكانوا ذوى رءوس أموال ضخمة ، وعدادهم لذلك في الطبقة السابقة . ومن العناصر المهمة في هذه الطبقة الشعراء الذين كان يُعَدَّقُ عليهم أفراد الطبقة الرفيعة الأموال والعطايا ، ومثلهم المغنون والمغنيات ، ودائماً تلقاهم في كل بلاط وفي كل قصر ، فقد كان الشعب من كبره إلى صغيره مولعاً بالغناء .

وتأتى بعد ذلك الطبقة العامة من الرعية ، وهى التى كانت تعمل في الصناعات والتجارات الصغيرة وفي خدمة أرباب القصور ، وكانت أشبه بالعبيد وخاصة من كان منها يعمل في فلاحه الأرض إذ لا يكاد يجد ما يسدُّه رمقه ، وليست هناك مهنة إلا عملت فيها هذه الطبقة حتى أحقر المهن . وكانت حياتها كلها عرقاً وعنتاً ومشقة لكي تملأ الطبقة العليا في الإمارات بطونها وتكتظ قصورها بأدوات الترف واللهو والطرب .

وكان وراء تلك الطبقات أهل الذمة من المجوس والنصارى واليهود ، وكان المجوس في أوائل هذا العصر كثيرين في إيران وخاصة في قلاعها البعيدة ، ويروى أنه وقعت في شیراز لسنة ٣٦٩ للهجرة فتنة بينهم وبين المسلمين ^(٢) ، ولم تكن الحكومات تتدخل في شعائهم ولا في شعائر النصارى واليهود ، وكان لهم محاكمهم الخاصة التى تفصل بينهم في خصوماتهم ، وكانوا يدفعون ، نظير ما يتمتعون به من تسامح واسع ، الجزية ، وكانت أشبه بضريبة للدفاع الوطنى إذ لم يكن يدفعها إلا القادر على حمل السلاح ، ولم تكن تؤذيها

النساء ولا الرهبان ولا ذوو العاهات ولا من لم يبلغ الحلم ولا العجوز ولا الفقير البائس . وكانت لا تتجاوز الدينار لعامتهم ودينارين لمتوسطى الثراء وثلاثة دنانير لأصحاب الثراء الطائل ، وكانت تبلغ قيمة الدينار نحو اثني عشر درهماً . وكانت أبواب العمل لهم مفتوحة ، وكان أكثر الأطباء وكثير من الكتبة نصارى ، وكان على بن بويه ركن الدولة يستخدم كاتباً نصرانياً^(١) ، بل لقد اتخذ عضد الدولة كما قدمنا وزيراً نصرانياً ، وكان اليهود يعملون في أحقر المهن ، فكان منهم الصباغون والأساكفة والخزازون .

وكانت تتفنن الطبقتان العليا والوسطى في الملبس والمطعم ، فكانوا يلبسون الدَّراريع وهي ثياب مشقوقة من الصدر كما كانوا يلبسون الأقبية والسراويل والحلل المطرزة . وكانوا يلبسون الخُرَّ صيفاً والفراء والصوف شتاء كما كانوا يلبسون الجوارب القطنية والصوفية والحريرية . وكانت النساء حرائر وجوارى أكثر تفنناً في أناقتهن ، فكن يلبسن الإستربق والسُّندس والوشى ، وكن يتحلين بالجواهر النفيسة من كل صنف ، وكن يتعطرن بأنواع الطيب والمسك والغالية .

ومضوا يتفننون في المطاعم ، فكانوا يصنعون منها ألواناً كثيرة وخاصة في بيوت الأمراء والوزراء ، مما جعل كثيرين يُعْتَوْنَ بالتأليف في كتب الأطعمة ، مثل ابن مسكويه ، الذي أحكم كتابه فيها غاية الإحكام وأتى منه بكل غريب حسن^(٢) ، ومثل ابن خلاد القاضي الذي أهدى إلى ابن العميد كتاباً في الأطعمة ، فأجابه بقصيدة طويلة عدّد فيها كثيراً من أنواعها التي ذكرها في كتابه^(٣) . وعرفوا حينئذ توالى ألوان الطعام على المائدة بين وضع ورفع . وكانت تقدم أحياناً قبل الطعام وأحياناً بعده الفاكهة والحلوى من كل صنف . وكانوا يمتكثون بعد الطعام للسمر والشراب وسماع الغناء ، وكانوا يستطيّبون ذكر الفكاهات والنوادر والحكايات الدالة على اللباقة في أثناء سمرهم ومنادمتهم على الشراب . ومن قديم تقترن الخمر بالغناء في إيران ، حتى ليروى صاحب الشهنامة في تربية قورش الملك الإيراني القديم صورة مجلس شراب وغناء كان قورش يشترك فيه بنفسه ساقياً ، وكأنما كانت الخمر والغناء إحدى شعائر الفرس منذ أقدم العصور^(٤) ، وطبيعي أن يظل ذلك ديدنهم حتى هذا العصر ، بحيث يشترك في المتاع بهما الأمراء من مثل فخر الدولة^(٥)

فارس (الترجمة العربية) ص ٢٦٣ .

(٥) ابن مسكويه ٣٨٦/٦ وانظر في عضد الدولة

ومجالس شرابه اليتيمة ٢١٨/١ وابن الأثير (طبعة دار

صادر - بيروت) ٢٠/٩ .

(١) ابن مسكويه ٤٦٤/٥ .

(٢) أخبار الحكماء للقفطي ص ٣٣٢ .

(٣) يتيمة ١٦٨/٣ .

(٤) انظر الشاهنامه نشر د . عزام ٣١٣/١ وتراث

والوزراء من مثل أبي الفتح بن العميد^(١) والقضاة من مثل القاضي أبي أحمد منصور الهروي^(٢) . وكانوا ينثرون الورود في قاعات الشراب^(٣) . وكان يجيئ بعضهم بعضاً بالورود والرياحين والفواكه في أثناء الشرب ، يقول عبّادان الأصهباني^(٤) :

سُقِيتُ وفي كَفِّ الحبيبة وردةٌ وأترجةٌ تُغْرِى النفوسَ بِصَوْنِها
مُداماً فلما قابلتني بوجهها شربتُ فحيّتني بلونى ولونها

وبلغ من تفشى الغناء والرقص في فارس أن نجد عضد الدولة يفرض ضريبة فيها على المغنيات والراقصات^(٥) . وأكبر الظن أن إيران جميعها كان يشيع فيها ذلك بصور مختلفة ، وكانت أكبر فرصة تتاح للناس كي يقصفوا ويمجنوا ما شاء لهم المجون والقصف هي الاحتفالات بالأعياد^(٦) المسيحية من مثل عيد الميلاد وعيد الزيتونة وعيد الشعّانين ، وفي العيد الأخير يقول أحمد بن المؤمل مشيراً إلى ما كان فيه من لهو وموسيقى وغناء^(٧) :

سَقِيّاً لِدَهْرٍ مضى إذ نحن في شُغْلٍ بالعَرَفِ والقَصْفِ عن شُغْلِ السَّلَاطِينِ
إذ يومنا يومُ عيدٍ طول مُدَّتْنا وَلَيْلُنَا كُلُّهُ لَيْلُ الشَّعَّانِينِ

وكانوا يُطلقون لأنفسهم العنان في الأعياد المجوسية من مثل عيد السّدق ، وهو عيد لاشتعال النيران ، وكان يقع في شهر يناير من كل عام ، ويصوّر البيهقي في تاريخه الاحتفال به في سنة ٤٢٦ ، فيقول : « اقترَب عيد السّدق ، فأخذوا يجمعون له الطّرفاء وعيدان الخطب ، حتى تراكمت وأصبحت كالقلعة ، وأقاموا عرائس من الخشب صارت كالجلجل ارتفاعاً ، وأتوا بكثير من المعدادات والطيور ومايلزم هذا العيد من الحاجيات ، وحلّ العيد وجلس السلطان في مخيم له ، وجاء الندماء والمطربون وأشعلوا النيران ، وكانت تُرى على بعد عشرة فراسخ ، وأطلقوا الطيور المبللة بالنفط وكذلك الوحوش ، فكانت تجري وقد علقت بها النيران »^(٨) . وكان أهم من هذا العيد عيد النّيروز في أول الربيع ، وكان موسماً كبيراً للمجون والشراب . ومثله عيد المهرجان في السادس والعشرين من أكتوبر كل عام . ويقول البيهقي : « كان السلطان يجلس له صباحاً للمعايدة . . ويجتمع أعيان الدولة

(١) ابن الأثير ٦٧٦/٨ . للبيروني ص ٢٧٩ .

(٢) دمية القصر (طبعة دار الفكر العربي بالقاهرة) (٦) انظر في احتفالهم بالأعياد كتاب الآثار الباقية للبيروني ص ٢١٥ .

(٣) ١٦٧/٢ . (٤) بيتمة ٢٤٤/٣ .

(٥) بيتمة ٢٤٤/٣ . (٦) البيتمة ١٤٩/٤ .

(٧) بيتمة ٣٠٠/٣ . (٨) تاريخ البيهقي (الترجمة العربية - نشر مكتبة

(٥) المقدسي ص ٤٤١ وتحقيق ماللهند من مقولة الأنجلو ص ٤٧٠ - ٤٧١ .

والأمراء ومجلس الندماء ، ويبادرون إلى اللهو ، وتدور أقداح الشراب ، وتعزف آلات الطرب ، ويأخذ المغنون في الغناء»^(١) .

وكانوا يخرجون مواكب وفردى للصيد والطرْد ، وكان فخر الدولة البويهى مولعاً بالصيد^(٢) . ومثله ملكشاه السلجوقي ، ويقال إن صيده بلغ في بعض الأيام سبعين غزلاً^(٣) . وكان من أحب هواياتهم إليهم اللعب بالترْد والشطرنج ، وكانوا يُشغَفون بلعب الصولجان والكرة ويسماع الغناء . ومما يدل على انتشار كل هذه الملاهي في خراسان وإيران عامة أن نجد كيكائوس في القرن الخامس الهجري يفرّد في كتابه : «قابوسنامه»^(٤) فصولاً مختلفة لكل هذه الألعاب والملاهي ، وظل ذلك ديدنهم طوال العصور التالية .

٤

التشيع^(٥)

يقوم التشيع - كما مر بنا في قسم العراق - على أساس نظرية يؤمن أصحابها بالوراثة الشرعية لولاية الحكم على المسلمين أو بعبارة أخرى للخلافة ، فهي ليست مفوضة للأمة ، بل هي خاصة بمن اختارهم الله من آل البيت ، من الأئمة ، ويسمى كل منهم إماماً تفرقه بينه وبين اسم الخليفة للدلالة على مكانته الدينية . وتتفق الشيعة على أن الرسول ﷺ أوصى لعلي بن أبي طالب بالخلافة بالقرب من غدِير خُمّ بين مكة والمدينة ، وهم فرق كثيرة ، أهمها ثلاثة : الزيدية والإمامية الاثنا عشرية والإسماعيلية .

والزيدية - كما مر بنا في قسم العراق - أقربهم إلى أهل السنة ، وهم ينتسبون إلى إمامهم زيد بن علي بن زين العابدين بن الحسين ، وكانوا يُقَرُّون ولاية الخلفاء من غير العلويين أخذاً بمبدئهم القائل بأنه تجوز ولاية المفضول على المسلمين مع وجود العلوي الأفضل ، وبذلك لم يطعنوا في الصحابين الجليلين : أبي بكر وعمر ولا في ولايتهما أمور الأمة . وكانوا لا يأخذون بنظرية الإمام المختفي مثل الإمامية الاثني عشرية ، ولا بنظرية

(١) البيهقي في سنة ٤٢٧ ص ٥٣٩ .

(٢) ابن مسكويه ٣٨٦/٦ .

(٣) براون (ترجمة الشواربي) ص ٢٢٨ .

(٤) ترجم هذا الكتاب إلى العربية ونشرته مكتبة الأنجلو

(الإسماعيلية) للغزالي واعتقادات فرق المسلمين والمشرّكين

للفخر الرازي وبراون (ترجمة الشواربي) في مواضع

المصرية .

(٥) بجانب مصادر التشيع المذكورة في الفصل الأول من متفرقة .

الإمام المستور مثل الإسماعيلية ، وهم لا يأخذون بفكرة العصمة في الإمام ولا بفكرة العلم الباطن ولا بفكرة أن الإمامة مقصورة على فرع الحسين وحده من العلويين دون فرع الحسن . وبذلك كانت الزيدية فرقة شيعية معتدلة .

ومرَّبنا في قسم العراق حديث مفصَّل عن فرقة الإمامية الاثني عشرية وأنها تجعل الإمامة مقصورة على أبناء الحسين ، وترى أنها تتابعت بعد علي في الحسن ثم الحسين وذريته بادئة بابنه علي زين العابدين ، فابنه محمد الباقر ، فابنه جعفر الصادق ، وتفرق بعد هذا الإمام السادس فرقة الإمامية عن فرقة الإسماعيلية كما مرَّبنا في العراق ، إذ ترى أن الإمامة بعد جعفر الصادق انتقلت إلى ابنه موسى الكاظم ، وتوالت بعده في أبنائه وأحفاده : علي الرضا ، فمحمد الجواد ، فعلي الهادي ، فالحسن العسكري ، فمحمد المهدي الذي اختفى ، وهو الإمام الثاني عشر ولذلك يسمون الاثني عشرية ، ويؤمن الإمامية حتى اليوم بأنه سيعود ويملا الأرض عدلاً وعلماً ، وهو بذلك الإمام المنتظر صاحب الزمان .

وعنصر أساسي ثان في عقيدة الإمامية عرضنا له في قسم العراق وهو ما يعتقدونه من أن الإمام معصوم ، وهي عصمة ترفعه درجات عن الطبيعة البشرية في اعتقادهم إذ تجعله نقياً من الذنوب بريئاً من العيوب ، لا يعتره خطأ . وعنصر أساسي ثالث هو علمه لا العلم الظاهر فحسب ، كما يؤمن الزيدية ، بل العلم الباطني الإلهي الذي يتوارثه الأئمة عن النبي والذي ينتقل فيهم من إمام إلى إمام ، بحيث يصبحون هم وحدهم العالمين بالمعاني الحقيقية للقرآن الكريم ، وهو ما فسخ عند الإمامية والإسماعيلية أيضاً للتأويل الواسع في آيات الذكر الحكيم .

والإسماعيلية تختتم سلسلة أئمتها الظاهرين بالإمام السابع إسماعيل بن جعفر الصادق ، وكان قد توفي قبل أبيه فعدلت عنه الإمامية الاثنا عشرية إلى أخيه موسى الكاظم ، أما الإسماعيلية فتمسكت به لأنه الابن الأكبر لجعفر الصادق وعندهم أن النص على الإمام لا يتغير ، بل يرثه عنه ابنه الأكبر ، حتى لو توفي في حياة أبيه كما توفي إسماعيل ، وتبعه خلفاؤه في سلسلة متصلة ، وهم مستترون مخفون ، حتى آتت الدعوة السرية ثمرتها ، فظهر الإمام في شخص عبید الله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية في شمال إفريقيا .

وتسمى هذه الفرقة باسم السبعية تمييزاً لها من الإمامية الاثني عشرية ، لأنها تجعل أئمتها يتوالون في حلقات أو أدوار سبعة ، والسابع أعلاهم درجة إذ هو الإمام الناطق المبعوث برسالة تفوق كل رسالة سبقتها ، حتى رسالة الرسول ﷺ ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم . وعندهم أن الإمام هو التجلي الأعظم للعقل الكلي ، وفي ذلك ما يؤكد نفوذ

الفلسفة الأفلاطونية إليهم وما يتصل بها من نظريتها المعروفة في الفيض ، وهي النظرية التي بنى عليها إخوان الصفا البصريون فلسفتهم الدينية في موسوعتهم المشهورة . ومن تنمة نظريتهم أن العقل الكلي الذي يتجلى في أئمتهم تجلى منذ آدم في الأنبياء ، وهو الذي يسير الكون ويدبره ، وهو ما جعل الحاكم الخليفة الفاطمي الإسماعيلي يعتقد أن التجسد الإلهي تمثل فيه وأنه خالق بعبادته . ومات مقتولاً ، فادّعى بعض الإسماعيلية حين ذاك أنه يعيش متخفياً ، وأنه سيرجع . وكان نظرية الرجعة عند الإمامية الاثني عشرية وجدت طريقها إلى الفرقة الإسماعيلية في شخص الحاكم . وكان القرامطة إحدى شعب الإسماعيلية ظنوا من قبل أن محمد بن الإمام السابع إسماعيل سيرجع بعد موته ، وأنه الإمام الغائب المنتظر . وواضح أن الإسماعيلية غلت في تشيعها غلواً بعيداً إذ رفعت الأئمة إلى مراتب الآلهة ، حتى لنجد كثيرين من علماء الإسلام ومفكره يسمونهم دهرية زنادقة ، وقد حمل عليهم الغزالي حملات عنيفة في كتابه « فضائح الباطنية » الذي سجل عليهم فيه ضلالهم وخروجهم عن جادة الإسلام ، ولا بد أن نشير إلى أن تابعي هذه الفرقة كانوا يصعدون في سبع مراتب : مرتبة للعامة ، ثم تعلوها مراتب حتى المرتبة السابعة ، وصاحبها خالق عندهم بأن يكون من الدعاة . ومن حق الإسماعيلي والإمامي جميعاً أن يخفيا عقيدتهما في البلد الذي يسود فيه خصومهما وهو المذهب المعروف عندهما باسم التقية ، وقد طبع دعوتهما في حقب وأماكن كثيرة بطابع السرية .

وهذه الفرق الشيعية المختلفة كانت على صلة وطيدة منذ أول الأمر بالاعتزال والمعتزلة ، فقد كان زيد بن علي مؤسس فرقة الزيدية تلميذاً لواصل بن عطاء مؤسس مذهب الاعتزال . وتعاقت منذ العصر العباسي الأول مذهب الإمامية مع الاعتزال في أثناء الجدل الذي كان دائراً بين أعلامها حتى لنجد النظام المعتزلي المشهور يؤمن بنظرية الإمامية الخاصة بعصمة الإمام ، وكان يعاصره ثمامة بن أشرس الذي لعب دوراً كبيراً لعهد المأمون في حمله على أن يكتب إلى الآفاق بتفضيل علي بن أبي طالب على أبي بكر وعمر وجميع الصحابة . ومن يرجع إلى مصنفات الشيعة في عقيدتهم يجدون يفردون فصولاً طوالاً للحديث عن التوحيد والعدالة ، على غرار ما يصنع المعتزلة . وفي رأينا أن هذه الصلة الوثيقة بين الاعتزال والشيعة هي التي جعلت أهل السنة في العصر ينفرون منه ، ويعتقون المذهب الأشعري .

وكانت إيران في هذا العصر تُعدّ أكبر مركز للتشيع ، وقد مرّت بنا في كتاب العصر العباسي الثاني حركة زيدية قوية غلبت على طبرستان وبلاد الديلم ، وعلى الرغم من إجهاز

الدولة السامانية عليها كما مر بنا في أوائل هذا الفصل ظلت لها هناك بقية ، وظل هناك أئمة يقودونها مثل الإمام المؤيد بالله أحمد بن الحسين الهاروني المتوفى سنة ٤١١ للهجرة . وكان تقلد البويهيين الإماميين لإماراتهم المختلفة في إيران إيذاناً بأن يأخذ المذهب الإمامي طريقه إلى الانتشار ، واشتهرت مدينة « قم » باعتناقها وقد ظل منتشراً بها واعتنقه كثيرون في الحقب التالية ، وقبض له كثير من العلماء يعملون على نشره مثل ابن بابويه القمي المتوفى سنة ٣٨١ وقد كان أبوه شيخ الشيعة في مدينة « قم » وخلفه في مشيخته ، وألف كتباً كثيرة في المذهب ، محتجالة ، داعياً إليه ، ومن كتبه المطبوعة في طهران كتب العلل والأحكام وكتاب عقائد الشيعة الإمامية .

وقد نشطت الفرقة الإسماعيلية في إيران منذ أوائل هذا العصر ، ويقال إنهم استطاعوا أن يدخلوا في عقيدتهم نصر بن أحمد الساماني أمير خراسان (٣٠١ - ٣٣٢ هـ) . مما جعل حرسه يضطره إلى التنازل عن السلطان لابنه نوح ، ويقال أيضاً إن أبا علي بن سيمجور أحد رجالات الدولة في خراسان لأواخر أيامها كان إسماعيلياً ، مما جعل السلطان محموداً الغزنوي يفتك به . ويبدو أن الإسماعيليين جدوا حينئذ في نشر دعوتهم بإيران ، حتى لنجد محموداً الغزنوي حين يستولى على الري من البويهيين سنة ٤٢٠ يكتب إلى الخليفة العباسي ببغداد خطاباً طويلاً ، يقول فيه ^(١) :

« قد أزال الله عن هذه البقعة أيدي الظلمة ، وطهرها من دعوة الباطنية الكفرة ، والمبتدعة الفجرة . وقد تناهت إلى الحضرة المقدسة حقيقة الحال فيما قصر العبد عليه سعيه واجتهاده من غزو أهل الكفر والضلال وقمع من نبغ ببلاد خراسان من الفئة الباطنية الفجار . . . وطلعت الرايات بسواد الرى . . . وخرج الديالة معترفين بذنوبهم ، شاهدين بالكفر والرفض على نفوسهم ، فرجعنا إلى الفقهاء في تعرف أحوالهم ، فاتفقوا على أنهم خارجون عن الطاعة وداخلون في أهل الفساد ، فيجب عليهم القتل والقطع والنفي على مراتب جنائياتهم . واعتقادهم في مذاهبهم لا يعدو ثلاثة أوجه تسود بها الوجوه يوم القيامة : التشيع والرفض والباطن . وذكر هؤلاء الفقهاء أن أكثر القوم لا يقيمون الصلاة ولا يؤتون الزكاة ولا يعرفون شرائط الإسلام ، ولا يميزون بين الحلال والحرام ، بل يجاهرون بالقذف وشم الصحابة ، ويعتقدون ذلك ديانة . . . ويعدون جميع الملل مخاريق الحكماء ، ويعتقدون مذهب الإباحة في الأموال والفروج والدماء . »

والخطاب طويل ، وهو يصور مدى ما داخل العقيدة الإسماعيلية في إيران من فساد ،

حتى كان أصحابها لا يؤدّون شعائر الإسلام ، بل كانوا ينكرونه هو وجميع الديانات السماوية جملة . وليس ذلك فحسب ، فقد اختلطت بعقيدتهم العقيدة المزدكية الفارسية القديمة التي أحلَّ صاحبها «مَزْدَك» النساء وأباح الأموال وجعلها شركة للناس ، ودعا إلى العكوف على اللذات والشهوات^(١) . ونمضى بعد عهد محمود الغزنوى ، فوجد الدعوة الإسماعيلية تنشط في إيران طوال القرنين الخامس والسادس للهجرة ، إذ تعهدوا هناك دعاة مختلفون ، كان يؤيدهم تأييداً قوياً الخليفة الفاطمى المستنصر (٤٢٧ - ٤٨٧ هـ) وقد ظل الرئيس الأعلى للإسماعيليين طوال ستين عاماً ، واستطاع أن يسطر سلطانه على واسط وبغداد حاضرة الخلافة العباسية في منتصف القرن الخامس . وقد حاربت الدولة السلجوقية العقيدة الإسماعيلية دون هوادة ، ولكن دعايتها ظلوا منبئين في أنحاء إيران ، مثل ناصر خسرو الأديب الرحالة ، الذى لقبه أتباعه بلقب «حجة خراسان» وقد زار القاهرة سنة ٤٣٧ وأقام بها سبع سنوات ، وعاد إلى وطنه خراسان ، وأخذ يدعو للفاطميين الإسماعيليين بمصر ، غير أن خصومه اضطروه إلى الفرار إلى مرتفعات «سيمنجان» . وكان أخطر منه في الدعوة للإسماعيليين الفاطميين أحمد بن عبد الملك بن العطاش الذى نهض بالدعوة في أذربيجان وأصفهان ، وقد استولى بجانب المدينة الأخيرة على حصن منبع يسمى «شاه دز» جعله وكرّاً لأتباعه ودعوته . وكان أشد منه خطراً الحسن بن الصباح ، وكان عالماً بالهندسة والحساب والنجوم والسحر ، وتلقن الدعوة عن بعض دعايتها الفاطميين والإيرانيين الذين صحبهم في مدينة الرى ، ويقال إنه لقي بها في رمضان سنة ٤٦٤ ابن العطاش وإنه نصحه بالمسير إلى القاهرة حاضرة الخلفاء الفاطميين ليتلقن الدعوة من أربابها وشيوخها المقدمين . ووصل القاهرة سنة ٤٧١ وأسبغ المستنصر عليه جوائزه . ويقال إنه سأل من الخليفة بعده ؟ فأجابه ابنى نزار الأكبر ، ورجع إلى إيران سنة ٤٧٣ يدعو إلى نزار ، وولّى المصريون بعد المستنصر ابنه المستعلى ، مما كان سبباً في انقسام الإسماعيلية إلى شعبتين : شعبة غربية تدعو إلى المستعلى وتشمل مصر والشام وشعبة شرقية تشمل إيران وتدعو إلى نزار .

واتسعت دعوة الحسن بن الصباح ، حتى ضمت بين جناحيها كرمان وطبرستان والدأماغان وقزوین ، واستطاع الاستيلاء على حصن في غاية المناعة ، هو قلعة «الموت» سنة ٤٨٣ . ومعنى اسمها بلسان الديلم تعليم العقاب ، كأنها ، لعلوها الشاهق ، وكرّله . وجعله استيلاؤه على هذه القلعة يضع لأتباعه خطة محكمة أن يستولوا على مثيلها في إيران ،

(١) انظر كتابنا العصر العباسى الأول ص ٨٠ .

فاستولوا على «خالنجان» بالقرب من أصفهان بالإضافة إلى ما كانوا استولوا عليه بجوارها من «شاه دز» واستولوا على «طَبَس» و«قَاين» و«تُون» و«رَوَزَن» و«خُور» و«خُوسَف» في قُهِسْتَان وعلى «شَمَكُوه» بجوار أبهر ، وعلى «أَسْتُونَاوَنَد» في مازَندَران ، وعلى «أَرَدَهَن» و«كُردكوه» وقلعة الناظر في خوزستان ، وعلى «قلعة الطنبور» بجوار أَرْجَان ، وعلى قلعة «خَلَاذَخَان» في فارس . وكان تملك الحسن بن الصَّبَّاح وأتباعه لهذه القلاع الحصينة سبباً في أن يشعروا بأن لهم سلطاناً سياسياً ، حتى إذا توفى المستنصر ظلوا يدينون لتزار منفصلين عن الدعوة الفاطمية بمصر ، وكان يطلق عليهم اسم الإسماعيليين الباطنيين والحشاشين . وفي الاسم الأخير ما قد يدل على أن كبارهم - على الأقل - كانوا يعرفون المخدر المعروف باسم الحشيش . ومضوا يدعون سرّاً لعقيدتهم ، وتحولوا إلى جماعات إرهابية تقتل كل من يقف في سبيل دعوتها ، وكان من أهم من قتلوه نظام الملك الوزير السلجوقي المصلح حين تصدى لهم وحاربهم وحاصر قلعتهم «أَلُوت» على نحو ما مرَّ بنا في غير هذا الموضع . ونرى ابن الأثير يذكرهم ويذكر ما كانوا يسفكونه من دماء ويثرونه من رعب على مر السنين ، من مثل قتلهم لفخر الملك بن نظام الملك ولعبد الرحمن السميرامي الوزير السلجوقي وللفقيه عبد الواحد الروياني في طبرستان والقاضي سعد الهروي في همدان . وكان السلاجقة يردون على هذه الاغتيالات بقتل بعض زعمائهم وأتباعهم ، على نحو ما هو معروف عن قتل ابن عطاش وبعض أتباعه بأصبهان سنة ٤٩٩ ، وللسلطان سنجر مقتلة عظيمة فيهم سنة ٥٢١ رداً على قتلهم لوزيره معين الملك . وكان الحسن بن الصباح حياً في أيام هذا السلطان ، غير أنه لم يكن يبارح قلعة «أَلُوت» وبها توفي سنة ٥١٨ للهجرة . وخلفه في رئاسة الطائفة كيازرك حميد ثم ابنه محمد ، وتبعها دورُ ظهور الأئمة من أحفاد نزار ، إذ ظلت في أيديهم مقاليد السلطان والدعوة ، وظل نشاط هؤلاء الحشاشين أو الإسماعيليين الشرقيين ، حتى استطاع المغول في منتصف القرن السابع الهجري دكَّ حصونهم وقتل آخر أئمتهم ركن الدين خورشاه (٦٥٣ - ٦٥٥ هـ) . وبقتله وتحطيم حصون أتباعه ينتهى عهد الإسماعيلية بإيران ، ولا تبقى منهم إلا بقية لا وزن لها ، ويعود هذا الفرع الإسماعيلي الشرقى إلى الظهور في الهند ، ويتخذ أصحابه «آغاخان» رئيساً روحياً لهم ، وعادة يكون من أحفاد ركن الدين خورشاه الذى كان آخر أمراء قلعة «أَلُوت» .

ومنذ قضاء المغول على إسماعيلية إيران تتحول تدريجاً إلى قبضة الفرقة الإمامية الاثني عشرية ، ومع ذلك فقد ظل كثيرون يتبعون المذهب السنى ، وينعكس ذلك على العلماء

والفقهاء والصوفية لا بين من كانوا يتخذون العربية لسانهم فحسب ، بل أيضاً بين من كانوا يتخذون الفارسية لساناً لهم ، مثل الشيخ سعدى الصوفى المشهور المتوفى سنة ٦٩١ وله شعر عربى قليل . ولا نصل إلى عصر إسماعيل الصفوى مؤسس الدولة الصفوية (٩٠٧-٩٣٠ هـ) حتى يصبح المذهب الإمامى الاثنى عشرى عاماً فى إيران إذ أعلنه مذهباً رسمياً للدولة . وبذلك غلب على مذهب أهل السنة هناك حتى اليوم .

ويحتفل الشيعة وفى مقدمتهم الإمامية من قديم - كما مر فى العراق - بعيدين : عيد الغدير ، يريدون غدير خم ، وموعده الثامن عشر من ذى الحجة ، وهو الغدير الذى يروون أن الرسول ﷺ أوصى عنده لعل بالخلافة من بعده قائلاً له . أنت منى بمنزلة هرون من موسى ، وهو عندهم عيد سرور يظهرون فيه الفرح والزينة ، وكان أول احتفال لهم به فى عهد البويهيين ، وظل ذلك ثابتاً عندهم على مر السنين . أما العيد الثانى فكان مأتماً كبيراً ، يقيمونه يوم عاشوراء (العاشر من شهر الحرم) من كل عام حداداً على قتل الحسين وآله فيه بكربلاء ، تائبين إلى الله ومستغفرين من آثام هذه الكارثة المروعة . وهذا العيد الحزين أقدم من عيد الغدير بكثير ، حتى ليرجعه البيرونى إلى زمن بنى أمية ، قائلاً إن الناس كانوا يظهرون فيه السرور والفرح ، بينما كانت العامة (يقصد الشيعة) تكره فيه تجديد الأواني والثياب ^(١) . وقد استحال منذ عهد البويهيين إلى يوم حداد كبير ، يترأى فيه الشيعة بأجسام ضاوية وشفاه ظامئة وعيون ساهمة باكية ، ومن حولهم الشعراء يرثون الحسين رثاء حاراً مصوراً يؤس العلويين وما احتملوا من آلام التقتيل والاضطهاد فى أيام الأمويين والعباسيين وما عانوا من صنوف البؤس والعذاب والشقاء ، وكيف كانت حياتهم كلها محناً وبلاء . وصبغ ذلك الحزن العميق فى تلك الذكرى الرهيبة شعر الشيعة بسواد لا آخر له ، فكله شكوى ممضة وعبرات وزفرات وأنات .

وكان من آثار إجلال الإمامية الاثنى عشرية لأئمتهم أن أصبح حجهم إلى قبورهم فى العراق سنة متبعة ، وأصبح للأماكن والأضرحة التى دفنوا فيها قدسية خاصة عندهم ، مما جعل البويهيين يهتمون بها ، ولعل فى هذا الاهتمام منهم ما يدل على أنهم كانوا إمامية دلالة قاطعة ، وكان أول من اهتم بذلك عضد الدولة فإنه شيد ضريحاً كبيراً لقبر على بن أبى طالب بالنجف ، ونقل إليه جثمانه بعد وفاته فدفن به ، كما دفن به أيضاً ابنه شرف الدولة وبهاء الدولة ^(٢) . واهتم عضد الدولة أيضاً بضريح الحسين ، وبنى حوله حضرة

(١) الآثار الباقية للبيرونى (طبعة أوربا) ص ٣٢٩ . بيروت ١٨/٩ ، ٦١ ، ٢٤١ .

(٢) انظر المنتظم ١٢٠/٧ وابن الأثير (طبعة دار صادر

جليلة^(١). ولا يزال عيد عاشوراء حتى اليوم مأثماً كبيراً يقام في كل عام ، يقيمه إمامية إيران والعراق .

٥

الزهد والتصوف^(٢)

ظلت نزعة الزهد التي تحدثنا عنها في كتابي العصر العباسي الأول والثاني متغلغلة في نفوس كثيرين من أهل إيران وفقهائهم ومحدثيهم ، وكانت المساجد بيوتاً مفتوحة للعبادة والنسك ، وكان الوعاظ لا يزالون يعظون فيها داعين الناس إلى الزهد في متاع الحياة الفانية وطلب ما عند الله من ثواب الآخرة . وأقبل كثيرون على حياة التقشف والنسك ، وقرأ في كتاب للمحدثين مثل تذكرة الحفاظ للذهبي أو في كتاب للفقهاء مثل طبقات الشافعية للسبكي فستجد صوراً قوية للزهد ، وسترى مَنْ ظل صائماً طول حياته ، ومن بلغ من نسكه أن لا يرفع رأسه إلى السماء داعياً ، ومن يدقق في أحكام الشريعة مبالغاً تخرجاً وخوفاً من الله مثل أبي محمد عبد الله بن يوسف الجويني المتوفى سنة ٤٣٨ فقد حكى السبكي في ترجمته أنه بلغ من ورعه وتحرجه أنه لم يكن يستند في داره إلى الجدار المشترك بينه وبين جيرانه ولا يدقّ فيه وتداً وأن جارية أرضعت ابنه إمام الحرمين الفقيه المشهور لبنا وهو في المهد ، فقلبه ، ليرده ، حتى لم يدع في باطنه شيئاً ، قائلاً : هذه الجارية ليست لنا وليس من حقنا أن نتصرف في شيء من لبنها . ولا ريب في أن كثرة الوعاظ هي التي أعدت - من بعض الوجوه - لسريان هذه الروح المتحرجة الورعة ، ويتوقف السبكي مراراً في طبقاته ليصور لنا وعظ الوعاظ في نيسابور وغيرها ومدى تأثيره في نفوس السامعين كقوله عن أحدهم : « صار مجلسه روضة الحقائق والدقائق ، وكلماته محرقة الأكباد والقلوب ، ومواجيده مقطرة الدماء من الجفون مكان الدموع ، ومفطرة الصدور

(١) المنتظم ١٤٩/٧ .

الغافلين للسمرقندي وطبقات الشعراني ، وانظر جولدتسيهر في كتابه « العقيدة والشريعة في الإسلام » ونيكلسون في كتابه « في التصوف الإسلامي وتاريخه » ترجمة أبو العلا عفيفي والملايمنية والصوفية وأهل الفتوة لعفيفي وآدم ميتز في كتابه الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري .

(٢) راجع في الزهد والتصوف المنتظم وابن الأثير وطبقات الشافعية للسبكي في مواضع متفرقة وكتاب طبقات الصوفية للسلمي وحلية الأولياء لأبي نعيم والفصل في الملل والنحل لابن حزم ورسالة القشيري وإحياء علوم الدين للغزالي وصفة الصفوة لابن الجوزي وقوت القلوب للمكي ومصارع العشاق للسراج وبستان العارفين وتنبيه

بالتخويف والتفريع»^(١).

وأخذت موجة التصوف في العصر تزداد حدة وقوة ، وكان من مظاهر ذلك كثرة الرُّبُط المنظمة منذ القرن الرابع الهجرى ، وأصل معنى الرباط مكان مرابطة الخيل للجهاد والحرب ، وكان زوايا المتصوفة كانت تُبنى لهم في هذا التاريخ على حافة قواعد الحرب الأمامية لجهاد أعداء الإسلام . واتسع مدلول الكلمة فيما بعد فأخذت تطلق على زوايا المتصوفة عامة ، وكأنما أصبحت مكاناً لتجمع المجاهدين أينما وجدت . ويقول المقدسى في أواخر القرن الرابع الهجرى إنه كان في إسبانيا فيما وراء النهر على حافة الحرب مع الترك ألف وسبعائة رباط ، بينما كان في بيكند ألف رباط^(٢) ، وهى ثغر جليل بين بخارى ونهر جيحون . وإذا كان هذا العدد الضخم من الرباطات في ثغرين من ثغور الحرب فيما وراء النهر فما بالنا بما كان ببقية الثغور . ويذكر الحجويزى الأفغانى أنه لقي ثلثائة من مشايخ الصوفية بخراسان ولكل منهم طريقته^(٣) .

ويشير المقدسى إلى كثرة الخانقاهات بإيران وما وراء النهر ، وهى بيوت للعبادة كان يتخذها المتصوفة للنسك والإقامة ، وهيات هذه البيوت بسرعة لفكرة الشيخ ومريده ، إذ كان يلزم شيوخ التصوف تلاميذ يأخذون عنهم طريقتهم وينشرونها ، وكانوا يمنحون مريدتهم خرقاً حين يتم قبولهم رمزاً إلى اعتزالهم متاع الحياة ، بل كل الحياة وزخارفها ، وكان ذلك يتم عن طريق مجاهدات كثيرة يقوم بها المريد قبل قبوله ، وفى مقدمتها التجرد الكامل عن ضرورات الحياة ورفض مباهجها وتبذ متعها وتحمل آلام الفقر والجوع وكل ما يتعلق بالجسد ، حتى الزواج فكان كثير منهم لا يتزوجون ، بل قل إن كثرتهم الغالبة كانت لا تتزوج ، ويحث أبو الليث السمرقندى المتوفى سنة ٣٧٣ كل من يستطيع الاستغناء عن الزواج أن يظل أعزب^(٤) حتى يتجرد لعبادة الله ويتفرغ تفرغاً كاملاً . وحتى المرض ينبغى أن لا يهتم به الصوفى فيعرض نفسه على الأطباء للتداوى ، فالطبيب هو الله ، وهو جانب من عقيدتهم فى التوكل على الله حق التوكل ، حتى ليهمل الصوفى كل تصرف شخصى ، ويترك نفسه لعناية الله وقضائه ، فلا يفكر فى رزقه ولا فى قوته ولا فى غده ثقة فى الله . ودائماً يرددون ذكر الله ، واتسع ذلك عندهم حتى كانوا يعقدون له اجتماعات تقف بها طائفة منهم فى صفتين متقابلين ، وهى تذكر الله ، متحركة بحسدها دون أقدامها يميناً

(١) طبقات الشافعية للسبكي ٦٩/٥ . العربية - للدكتورة إسعاد عبد الهادى (نشر المجلس الأعلى

للشئون الإسلامية بالقاهرة) ٣٩١/١ .

(٢) أحسن التقاسم للمقدسى ٢٧٣ ، ٢٨٢ .

(٣) انظر كشف المحجوب للهجويزى - الترجمة (٤) انظر كتابه بستان العارفين ص ١٩٧ - ١٩٨

ويسارا، ومنشد ينشد في أعلى الصفيين، وفي أثناء ذلك يهيم نفر منهم ويتششى، حتى ليحس كأنه غاب عن عالم حسه، وهو ما يسمونه بالسكر وكأنما يروى رياً مسكراً بجمال الذات الإلهية، إذ تمتلئ بنور الله نفسه ويسلبها حواسها الجسدية، فتشعر كأنما تتجرد، عن كل إرادة، لمحبوها الرباني، وهو ما يسمونه بالحبّة الإلهية، وكأنما الذكر رحيقها المسكر الذى يذيب الصوفى في الجمال الرباني ويجعله يفنى فيه في وجد لا يماثله وجد. ومنذ الحلاج الذى تحدثنا عنه في العصر العباسي الثاني أخذ بعض المتصوفة يؤمنون مثله بفكرة الاتحاد بالله، معتقدين أنه يتجلّى فيهم كما يتجلّى في خلقه، وكأنهم يشاهدونه في أنفسهم، أو كأنما يحلّ فيهم، مما هياً لظهور فكرة الحلول عند بعض الغلاة من المتصوفة، وكانت هذه الأفكار سبباً في أن يحدث شيء من الانفصام بين أهل السنة والمتصوفة ووسّع الهوة بين الطرفين أمثال أبي سعيد بن أبي الخير (٣٥٧-٤٤١ هـ). أكبر الصوفيين الإيرانيين المتفلسفين في عصره، وكان يُعَلِّم عمل الصوفى بقلبه على أداء فرائض الإسلام وأحكامه، وفي ذلك يقول ابن حزم: «إن من الصوفية من يقول إن من عرف الله سقطت عنه الشرائع. . . وبلغنا أن بنيسابور اليوم في عصرنا هذا رجلاً يكنى أبا سعيد بن أبي الخير من الصوفية مرة يلبس الصوف، ومرة يلبس الحرير المحرم على الرجال، ومرة يصلى في اليوم ألف ركعة، ومرة لا يصلى فريضة ولا نافلة، وهذا كفر محض، ونعوذ بالله من الضلال»^(١). وليس هذا كل ما أحدث الهوة بين المتصوفة وأهل السنة، فقد أوغل بعضهم في آراء ضالة، حتى ليعتق بعض آراء المزدكية في العكوف على الحمر واستحلال المحرم، وغلا بعضهم في تقدير شيوخ الصوفية حتى قدّمهم على الرسل والأنبياء، يقول ابن حزم: وطائفة من الصوفية زعمت أن في أولياء الله تعالى من هو أفضل من جميع الأنبياء والرسل، وقالوا: من بلغ الغاية القصوى من الولاية سقطت عنه الشرائع كلها من الصلاة والصيام والزكاة وغير ذلك، وحلّت له المحرمات كلها. . . وقالوا: إننا نرى الله ونكلمه، وكل ما قُذِف في نفوسنا فهو حق»^(٢).

ولم تقف المسألة عند أفراد، فقد أخذت بعض طوائف الصوفية في إيران تضعف عندها الوازع الديني ويشيع عنها اهمال فرائض الإسلام، وسرعان ما تحولوا إلى طوائف من المتسولين، نذكر منهم جماعة الكرامية بخراسان وماوراء النهر، وكانوا، أو قل تحولوا، دراويش يطوفون في البلدان لابسين أردية من الصوف، ومدلّين فوطا على رءوسهم تحيط

بها قلانس طويلة ، ويقول المقدسي إنهم لا يخلون من أربع خصال : التقى والعصبية والذل والكُذبة أى التسول ^(١) . ومثلهم الملامية ، وكان مبدؤهم الأساسى الملامة ، فالصوفى الكامل فى رأيهم من يرتكب أشياء يلومه عليها الناس ، ومن أجل ذلك كانوا يقومون بأعمال ينكرها الشرع ، وقد ينتهكون فيها حرمة ، حتى يتم لهم مبدؤهم ، وأعدوا مثل الكرامية لظهور فكرة الدراويش الرحل الذين يعيشون على التسول ، ويتخذونه ذريعة للبطالة ، وكأنما أصبح الصوفى هو المتسول ، ولا بأس من أن يُسقط عنه الفروض الدينية أحياناً .

ولم يكن التسول يغضب أهل السنة بمقدار ما كان يغضبهم إنكار فرائض الإسلام وسننه ، مما جعلهم يحملون على المتصوفة حملات شعواء ، متهمين لهم بالزندقة والكفر ، وزاد هذه الحملات اشتعالاً ما وجدوه يتردد على السنة المتصوفة وفى كتبهم من كلام عن السكر والفناء واتحاد الصوفى بالذات الإلهية ، ومن الحق أنه كان هناك كثيرون من الصوفية لا يلوكون كلمات الاتحاد بالله ، ويرون أن الصوفى لا يبلغ مرتبة الكمال إلا إذا أدى الفرائض والسنة ، مخلصاً صادقاً . غير أن هؤلاء لم يكونوا موضع الخصومة مع أهل السنة إنما كان موضعها دراويش الملامية والكرامية وأمثال أبى سعيد بن أبى الخير ، ممن أسقطوا فرائض الإسلام وشعائره .

وأخذ هذا الصدع بين الصوفية وأهل السنة يتفاقم ، وكان لابد أن يُرأب ، حتى لا تنتشق الأمة على نفسها انشقاقاً قد يؤول إلى عواقب وخيمة ، فقيض الله لها صوفيين عظاما ، تداركوا هذه الطامة الكبرى كان أولهم أبو نصر السراج ^(٢) عبد الله بن على الطوسى الزاهد صاحب كتاب اللمع المتوفى سنة ٣٧٨ وفيه قال أبو عبد الرحمن السلمى تلميذه فى كتابه « طبقات الصوفية » : « كان المنظور إليه فى ناحيته فى الفتوة ولسان القوم مع الاستظهار بعلوم الشريعة » . فتصوفه لم يكن تصوفاً فلسفياً يتغلغل فى الحلول وما إليه ، بل كان تصوفاً سنياً يرتبط بأداء الفرائض الدينية . وكان رحالة تجول فى العالم الإسلامى من نيسابور إلى القاهرة ، ووفد على بغداد فأفردت له غرفة خاصة فى جامع الشونيزية وأعطى رئاسة الدراويش . ولا تغلو إذا ذهبنا إلى أنه يُعدّ مؤسس مدرسة التصوف السنى فى عصره ، وهو تصوف يستمد من الكتاب والسنة ، وليس فيه حلول ولا شطحات .

٩١/٣ وكتابه اللمع (نشره نيكلسون فى سلسلة جب

(١) احسن التقاسيم ص ٤١ .

(٢) انظر فى أبى نصر السراج الطوسى طبقات الصوفية (التذكارية) .

للسلمى وكشف المحجوب للهجويزى وشذرات الذهب

ويوضح مذهبه الصوفي كتابه اللمع الذي أشرنا إليه ، وفيه يفيض في الحديث عن حقيقة التصوف ومذهب الصوفية ومقاماتهم وأحوالهم . وتلقن عنه المذهب في نيسابور تلميذه أبو عبد الرحمن السلمى ، ولقَّنه بدوره عبد الكريم ^(١) القشِيرى النيسابورى ، وتلمذ عبد الكريم أيضاً على أبي على الدقاق ، وكان متصوفاً سنياً ، فوصل تلميذه بهذا التصوف ، بل ملأ قلبه به حماسة كما ملأه نفوراً من التصوف الفلسفى وما دخل عليه من أفكار بوذية هندية كفكرة التسول والمسكنة ، وكذلك ما دخل عليه من أفكار الاتحاد بالذات العلية والحلول . وما تُوفى سنة ٤٣٧ للهجرة حتى يؤلف رسالته المشهورة التى طُوِّت الآفاق غرباً وشرقاً وقد وجهها إلى جماعات الصوفية فى البلدان الإسلامية ، ليصحح لهم أفكارهم عن التصوف بما رسمه فيها من مبادئ التصوف السنى الحقيقى وما سجله من سير أعلام التصوف وأقوالهم ، مما يصل التصوف وصلاً وثيقاً بالشريعة ، وهو يستلها بقوله :

« اندرست الطريقة بالحقيقة ، ومضى الشيوخ الذين كان بهم الاهتداء ، وقلَّ الشباب الذين كان لهم يسيرتهم وسننهم اقتداء ، وزال الورع وطوى بساطه ، واشتد الطمع وقوى رباطه ، وارتحلت عن القلوب حرمة الشريعة ، فعَدَّوا قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة ، ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام ، ودانوا بترك الاحترام ، وطرح الاحتشام ، واستخفوا بأداء العبادات ، واستهانوا بالصوم والصلاة ، وركضوا فى ميدان الغفلات ، وركنوا إلى اتباع الشهوات ، وقلة المبالاة بتعاطى المحظورات . ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الأفعال ، حتى أشاروا إلى أعلى الحقائق والأحوال ، وادَّعوا أنهم تحرَّروا من رِقِّ الأغلال ، وتحققوا بحقائق الوصال ، وأنهم قائمون بالحق تجرى عليهم أحكامه ، وهم مَحَوُّ ، وليس لله عليهم فيما يؤثرونه عَتَب ولا لوم ، وأنهم كوشفوا بأسرار الأحدية ، واختطفوا عنهم بالكلية ، وزالت عنهم أحكام البشرية » .

وبهذه الرسالة العظيمة التى شرقت وغربت وطارت كل مطار رفع القشِيرى الحواجز التى كانت قد استحكمت بين أهل السنة والمتصوفة بل لقد أثبت أنها أقواس وهمة ، فالتصوف ليس خصماً للشريعة ، بل هى قوامه وصراطه الموصل إليه وأساسه وعماده . ولم يلبث متصوف كبير أن أحكم هذه الصلة إحكاماً وثيقاً ، وهو أيضاً نيسابورى ، أصله طوسى حقا ولكنه تلقن التصوف السنى فى نيسابور حيث مدرسته الكبرى : مدرسة أبى نصر السراج والقشِيرى ، ونقصد أبا حامد ^(٢) الغزالى المتوفى سنة ٥٠٥ وقد لزم فقهاء

(١) انظر مصادر ترجمة القشِيرى فى الفصل الرابع من (٢) انظر فى الغزالى المنتظم ١٦٨/٩ واللباب ٢/ ١٧٠ والوفى بالوافيات ١/ ٢٧٤ وابن خلكان (طبعة دار = هذا القسم .

نيسابور وأخذ عنهم كل ما عندهم ، وسرعان ما أصبح شيخاً يُشار إليه بالبنان ، وأكْبَ الطلاب على دروسه . وأخذت شهرته تطبّق الآفاق . وقدم على نظام الملك وزير ملكشاه السلجوقي ، فعَيَّنه أستاذاً للفقه الشافعي في مدرسته النظامية ببغداد سنة ٤٨٤ هـ ولم يلبث أن اعترته أزمة نفسية سنة ٤٨٨ هـ فبارح بغداد إلى أداء فريضة الحج ، وولّى وجهه نحو الصوامع النائية في مساجد بيت المقدس ودمشق معترلاً للناس مستغرقاً في تأمل الفرق الإسلامية ، واستقر في نفسه أنه ينبغي تخليص الأمة من الدقائق التي يخوض فيها المتكلمون ومن خلافات الفقهاء وما يتجادلون فيه من فروع دون طائل ، وأخذ يحمل على الفقهاء والمتكلمين جميعاً حملات عنيفة ، مبيناً أن ما هم فيه من جدال ليس من الدين في شيء ، وأن من شأنه أن يززع العقيدة العامة ويحدث بلبلة في العقول . وبالمثل حمل على الفلاسفة وأعلن عليها حرباً شعواء في كتابه « تهافت الفلاسفة » وخاصة على فلسفة ابن سينا المشائية ، ووجّه حملاته بقوة إلى الإسماعيلية في كتابه « فضائح الباطنية » . وهدته تأملاته في عزله إلى أنه لا بد من الوصل بين التصوف والسنة كي ينمو الشعور الديني ويصبح تجربة نفسية قلبية بحيث يتعاقب عمل القلب وعمل الجوارح في أداء الشعائر والفروض والنوافل حتى ينهض بها المسلم مصحوبة بالإخلاص وبصدق الشعور الباطني ، وحتى تكون محبة الله الدافع الأساسي لكل ما يصدر عنه من قول وفعل . وألّف على هذا الهدى كتابه « إحياء علوم الدين » محلاً فيه الحياة الدينية والأخلاقية للمسلم على مبادئ تستمد من التصوف وروحه ، ونقصد التصوف السني الذي أقامه هو والقشيري والسراج بنيانه ، والذي يرفض أفكار الصوفية الغالية مثل الاتحاد بالله والحلول . وقد جعل القلب أساس السعي إلى الله حتى يقرب منه المسلم وينال محبته ومبتغاه ، وحقاً لا بد أن تؤدّي الفرائض والسنن ، ولكن لا بد معها من عمق الإخلاص وعمق الشعور الديني وصدقه ، إذ هو جوهر الحياة الدينية . وبذلك وصل الغزالي وصلاً وثيقاً بين أهل السنة والمتصوفة دون لجاج في اتحاد المتصوف بالذات الإلهية ودون تعثر في شباك الحلول ، ومع الإيمان بأن أحكام الشريعة أساس الحياة الدينية الصادقة المفعمة بالإخلاص . ومن أهم ما نفذ إليه الغزالي في

لجولدتسير القسم الرابع وفي التصوف الإسلامي لنيكلسون
ترجمة عفيق ص ١٣٩ وسيرة الغزالي لعبد الكريم العثمان
(طبع دمشق) والحققة في نظر الغزالي لسليمان دنيا (طبع
دار المعارف بمصر).

= (صادر) ٢١٦/٤ وطبقات الشافعية للسبكي (١٩١/٦)
ومقدمة بويج لنشرته لكتابه التهافت طبع بيروت ومؤلفات
الغزالي لعبد الرحمن بدوي ومحاضرات مهرجانه في دمشق
سنة ١٩٦١ وتاريخ الفلسفة في الإسلام لدى بورض
١٩٦ وبراون ص ٣٦٨ والعقيدة والشريعة في الإسلام

أثناء كتاباته فكرة الحقيقة المحمدية ، وهي تبدو واضحة - كما يقول نيكلسون^(١) - في كتابه «مشكاة الأنوار» وكأن الرسول صورة للأمر الإلهي أو الكلمة الإلهية . وكان لهذه الفكرة تأثير بعيد في متصوفة الأجيال التالية ، ونقصد فكرة الإنسان الكامل الذي يتمثل في الرسول ﷺ . وقد تكاملت للغزالي هذه النزعة الصوفية في أثناء عزله وخلوته بصوامع مساجد الشام مدة عشر سنوات ، عاد بعدها إلى بغداد ، ولكنه لم يعقد بها مجالس للفقهاء أو علم الكلام ، وإنما عقد بها مجالس للوعظ حدث فيها بكتابه «الإحياء» . وراجع إلى موطنه خراسان وألم بالمدرسة النظامية في نيسابور مدة يسيرة وتركها إلى طوس مسقط رأسه . وهناك أقام بجانب داره مدرسة للفقهاء «وخانقاه» للمتصوفة ، واشتغل بالنسك والعبادة حتى لبى نداء ربه بعد أن زاوج بين التصوف والشرعية مزاجية بقيت على مر العصور التالية ، وبعد أن هاجم الفلسفة هجوما عنيفا جعلها تسقط أمام التصوف ووصوله . وقد ازدهر التصوف السني في إيران وغير إيران من العالم الإسلامي ، بفضل أعلامه الثلاثة السابقين وخاصة الغزالي ، وليس معنى ذلك أن التصوف الفلسفي انتهى ، فقد ظلت منه أسراب ولكنها أسراب فردية على نحو ما يلقانا عند يحيى السهروردي^(٢) الإيراني المولود بسهرورد سنة ٥٤٥ للهجرة في الإقليم الإيراني المعروف باسم إقليم الجبال وقد أكب على كتب التصوف والفلسفة . واستوت له فلسفة صوفية إشراقية وسنعود إلى الحديث عنه في الفصل الرابع . ومن أصحاب التصوف الفلسفي بعد السهروردي صدر الدين الشيرازي المتوفى سنة ١٠٥٠ للهجرة وهو أهم من كتب بعده في التصوف الإشراقي على نحو ما يتضح في كتابه «الأسفار الأربعة» .

ومنذ الغزالي بل قبله منذ السراج والقشيري ينشط نشاطاً واسعاً التصوف السني في إيران ؛ وقد أخذت تظهر فيه مع مر الزمن طرق يتبعها كثيرون ، من أهمها طريقة النقشبندية ، وكان تيمورلنك يرفع أهلها ، كما مر بنا في القسم الخاص بالعراق ، وعاصرتها طريقة البكطاشية ، وقد غمست في التشيع وفي شيء من التصوف الفلسفي . وبدون شك أنتجت إيران في هذا العصر وخاصة منذ القرن السابع طائفة كبيرة من شعراء التصوف في الفارسية في مقدمتهم جلال الدين الرومي (٦٠٤ - ٦٧٢ هـ) . والشيخ سعدى الشيرازي المتوفى سنة ٦٩١ وله بعض قصائد عربية ، وخلفه الصوفي الكبير حافظ الشيرازي المتوفى سنة ٧٩١ وفي الحق أن التصوف ظل مزدهراً في إيران قروناً متطاولة .

(١) في التصوف الإسلامي وتاريخه ص ١٤٦ وما بعدها . الفصل الرابع من هذا القسم .

(٢) انظر مصادر ترجمة يحيى السهروردي في ترجمته في

الفصل الثاني

الثقافة

١

الحركة العلمية

نشطت الحركة العلمية في العصرين : العباسي الأول والعباسي الثاني نشاطا عظيما ، فمن تعليم للناشئة في الكتاتيب إلى تعليم للشباب في المساجد ، ومضت على هذا النحو في أوائل عصر الدول والإمارات في إيران وغير إيران ، وكانت الناشئة تتعلم الخط والكتابة والقراءة وشيئا من الحساب وبعض آيات القرآن الكريم وسوره وبعض الأشعار . أما المساجد فتحولت بجانب ما كان يقام فيها من صلوات إلى جامعات كبرى ، يتعلم فيها الشباب جميع فروع العلم . وكان الأستاذ عادة يستند إلى أسطوانة في المسجد ، ويتحلق الطلاب حوله ، وهو يمل عليهم محاضراته . وكانوا يتكاثرون في بعض الحلقات ، فلا تسمع الصفوف الأخيرة كلام الأستاذ ، فينهض مُستَمِلٌ بترديده ، حتى تسمعه تلك الصفوف . وكانت أكثر الحلقات طلابا حلقات الفقهاء والمحدثين . ولم تكن هناك رسوم أو أجور تؤخذ من هؤلاء الطلاب فقد كانت الدولة تتكفل بأجور العلماء ، وكان منهم من يأبى أن يأخذ أجرا على دروسه ، اكتفاء بما يكسبه من تجارة له أو عمل .

ولا نبالغ إذا قلنا إن القرنين الرابع والخامس للهجرة بإيران يُعدّان أزهى قرون هذا العصر من حيث النهضة العلمية وبلوغها الأوج المنتظر ، ولعل مرجع ذلك إلى التنافس الذي نشأ بين أصحاب الإمارات حينئذ ، فقد مضى كل منهم يجهد جهدا بالغا في أن يضم حوله علماء العصر ليزدان بهم بلاطه وتزدان بهم دولته وكى يبعثوا في شباب الدولة الطموح إلى تحقيق مالم يحققه العلماء قبلهم . ولعل عضد الدولة خير من يمثل ذلك بين البويهيين ، فقد كان يقدر العلم والعلماء ويُجرى الرواتب والأرزاق على الفقهاء والأدباء والقراء ، فرغب الناس في العلم ، وكان هو نفسه يتشاغل بالعلم ، ووُجد في تذكرة له : إذا فرغنا من حل أقليدس كله تصدقت بعشرين ألف درهم ، وإذا فرغنا من كتاب أبي

على الفارسي النحوى تصدقت بخمسين ألف درهم^(١) . ويقول ابن الأثير : « كان يجلس مع العلماء يعارضهم في المسائل ، فقصده العلماء من كل بلد ، وصنفوا له الكتب ، منها الإيضاح في النحو والحجة في القراءات لأبي على الفارسي ، والكناش الملكي في الطب لعلّ ابن العباس المجوسي ، وكتاب التاجي في التاريخ لأبي إسحق الصائبي إلى غير ذلك » . وكان خلفاؤه من البويهيين يُعَنون بالعلم وأهله . وكذلك كان السامانيون ، حتى قالوا إن خراسان جنة العلماء ، وكانت بها نيسابور أكبر مركز للعلم بإيران في العصر ، وسيتردد اسمها كثيرا فيما يلي من كلام . وبالمثل كانت الدولة الزيارية تُعنى في طبرستان بالعلم والعلماء . ولم تكن تقلّ عنها عناية الدولة الخوارزمية بأمرائها الثلاثة في مدينة خيوة المعروف كل منهم باسم « مأمون خوارزم » ويكنى أن نعرف أنه كان يعيش في رعاية ثالثهم الذي استولى محمود الغزنوي على إمارته سنة ٤٠٨ للهجرة صفوة من رجال الفلسفة والعلم في مقدمتهم البيروني وابن سينا وأبو سهل المسيحي والطبيب ابن الحمار والرياضي أبو نصر بن العراق ، وكان محمود الغزنوي قد طلبهم من مأمون خوارزم قبل استيلائه على إمارته ، فاستدعاهم وعرض عليهم رغبته ، ولَبَّاهُ ابن العراق وابن الحمار والبيروني ، ورفضها أبو سهل وابن سينا ، وولّى الأخير وجهه نحو قابوس بن وشمكير الزيارى صاحب طبرستان^(٢) . وفي هذا ما يدل على مبلغ اهتمام محمود الغزنوي^(٣) بجمع الفلاسفة والعلماء في عاصمته « غزنة » التي جعلها مركزا من أهم مراكز العلوم والآداب في الشرق الإسلامي وعمت النهضة في دولته مدنا أخرى مثل هراة . وكثر حينئذ إهداء المؤلفين كتبهم للأمرء ، وكانوا أحيانا لا يَخْصُون بها أميرا واحدا ، بل يتجعجون بها أمرء الدول والإمارات المختلفة ، على نحو ما كان يصنع الثعالبي ، فقد أهدى كتابيه : « المبهج » و « التمثيل والمحاضرة » إلى قابوس بن وشمكير أمير طبرستان وجرجان وكتبه : « النهاية في الكناية » و « نثر النظم » و « اللطائف والظرائف » لمأمون بن مأمون أمير خوارزم ، وكتابه « لطائف المعارف » للصاحب بن عباد وزير البويهيين ، وكتابه « سحر البلاغة » و « فقه اللغة » للأمير أبي الفضل الميكالي راعي العلم والأدب في نيسابور . وكان مما عمل على ازدهار النهضة العلمية في العصر منذ أوائله تأسيس المدارس فيه ، وكانت نيسابور أول مدينة إيرانية سبقت إليها ، إذ تأسست بها في منتصف القرن الرابع الهجري مدرسة أبي حفص الفقيه ، وكان يدرس بها للطلاب ابن شاهويه المتوفى سنة ٣٦١

(١) انظر المنتظم ١١٥/٧ وابن الأثير ٢١/٧ . ١١١ .

(٢) انظر براون (ترجمة إبراهيم أمين الشواربي) ص (٣) انظر في ثقافته ابن تغري بردي ٢٧٣/٤ .

للهجرة^(١) ، وفي أواخر القرن الرابع بُنيت بها مدرسة للمحدث الكبير ابن فورك^(٢) المتوفى سنة ٤٠٦ . ومدرسة ثانية سُميت دار السنة^(٣) . وكثر بها بناء المدارس في النصف الأول من القرن الخامس ، إذ بُنيت بها مدرسة^(٤) لأبي عثمان الصابوني شيخ الإسلام المتوفى سنة ٤٤٩ ثم أربع مدارس^(٥) : هي المدرسة البيهقية ، ومدرسة الإستراباذي المتوفى سنة ٤٤٠ بناها لأصحاب الشافعي ، والمدرسة السَّعدية بناها الأمير نصر بن سُبُكْتِكِين ، والرابعة مدرسة بُنيت لأبي إسحق الإسفرائيني .

ولما أصبحت إيران تابعة للدولة السلجوقية واتخذوا الرأي حاضرة لهم أخذوا يعنون بالحركة العلمية ، ولم يلبث أن وزر لهم في عهد سلطانهم أَلْب أرسلان وزيرهم المشهور نظام الملك المولود بطوس سنة ٤٠٨ . وقد التحق بخدمتهم منذ انتصارهم على الغزنويين في سنة ٤٣١ حتى إذا اعتلى أَلْب أرسلان العرش جعله كبير وزرائه ، وكان سياسيا بارعا وله في السياسة كتاب باللغة الفارسية سَمَّاه «سياسة نامه» . وكان شافعي المذهب أشعريا عدوا للإسماعيلية الباطنية ، فرأى أن يؤسس مجموعة من المدارس ، عُرِفَتْ كل واحدة منها باسم النظامية ، لمحاربة النحلة الإسماعيلية نخلة الحشاشين ، ولنشر المذهب الشافعي والنحلة الأشعرية . فبنى ببلخ مدرسة وكذلك بنيسابور وهراة ومرو وأصفهان وآمل في طبرستان وبالموصل وبغداد . وجميعها تأسست حوالى سنة ٤٥٧ للهجرة ، وكان يُدرَّس فيها بجانب الفقه وعلم الكلام على مذهب الأشعرى علومُ التفسير والحديث واللغة والفرائض والأدب والرياضيات وكان يُختار لكل منها أستاذًا كبيرا . وجعل لأساتذتها مساكن ورواتب منتظمة ، ورصد لطلابها نفقات مقدَّرة ، ووقف عليها جميعا أوقافا كثيرة . وألحق بكل مدرسة مكتبة كبيرة تَعَصُّ بالكتب في كل علم وفن ، ما عدا كتب الباطنية الحشاشين . والاهتمام بالمكتبات عند العصور السابقة سبق أن عرضنا له وبينَّا اهتمام الدولة والأفراد به ، لأنها أداة الثقافة ومنهلها العذب ، وظل الاهتمام بها في هذا العصر ، بل تزايد مع ازدهار الحركة العلمية ، فكانت هناك مكتبات الورَّاقين التي تُعرَّض فيها الكتب للبيع ، وكانت تتكاثر في المدن الكبيرة حتى تصبح سوقا مستقلا . وكانت هناك مكتبات عامة للدولة كمكتبات نظام الملك التي ألحقها بمدارسه المسماة بالنظامية . وكانت في كل جامع كبير مكتبة تضم ما يقفه العلماء على طلاب العلم في الجوامع . وكان هناك رعاية للعلم يبنون

(١) طبقات الشيرازي (طبع بغداد) ١٢١ . (٤) السبكي ٢٩٠/٤ .

(٢) السبكي ١٢٨/٤ . (٥) السبكي ٣١٤/٤ .

(٣) السبكي ١٥٩/٤ .

المكتبات لطلابه ، مثل ابن حبان البستي صاحب كتاب الجرح والتعديل المتوفى سنة ٣٥٤ فقد بنى بنيسابور خزانة كتب ومساكن لطلاب العلم الغرباء وأجرى لهم الرواتب . ويُروى أن أبا علي بن سوار الكاتب في دواوين عضد الدولة المتوفى سنة ٣٧٢ أنشأ دار كتب في مدينة رامهرمز على شاطئ خليج العرب وجعل فيها نفقة لمن قصدها ^(١) .

وكان طبيعياً منذ أوائل هذا العصر أن يُشغف البويهيون بالكتب وجمعها واتخاذ مكتبات خاصة لأنفسهم ، وكان لديهم من ذلك ثلاث مكتبات كبيرة ، أولاها مكتبة عضد الدولة ، وقد رآها المقدسي ووصفها بقوله : «حجرة على حدة ، عليها وكيل وخازن ومشرف من عدول البلد ، ولم يبق كتاب صُنِّف إلى وقت عضد الدولة من أنواع العلوم إلا وحصله فيها ، وهي أزج (بناء) طويل في صُفَّة كبيرة ، فيه خزائن من كل وجه ، وقد ألصق إلى جميع حيطان الأرج والخزائن بيوت طولها قائمة في عرض ثلاثة أذرع من الخشب المزوّق ، عليها أبواب تنحدر من فوق ، والدفاتر منصّدة على الرفوف ، لكل نوع بيوت وفهرستات فيها أسامي الكتب ، ولا يدخلها إلا كل وجه ^(٢) » . والمكتبة الثانية مكتبة وزيره ابن العميد ، وكانت أكبر من السابقة ، ويقال إنها لو حُمِلت ما استطاع أن يحملها إلا مائة بعير ^(٣) ، واتخذ خازنها ابن مسكويه الفيلسوف المعروف لعصره ويقال بل اتخذه عضد الدولة ، ويبدو أنه اتخذ خازناً - كما مرّ في ترجمته - بعد وفاة ابن العميد وابنه أبي الفتح . والمكتبة الثالثة مكتبة الصاحب بن عباد وزير مؤيد الدولة بالرّى ، ويقال إنها كانت أضعاف مكتبة ابن العميد ، إذ كان بها من كتب العلم ما يُحمَل على أربعائة بعير أو أكثر . ويقال : كان فهرست خزانة الكتب بمدينة الرّى عشرة مجلدات ^(٤) .

ولعل في ذلك ما يصور مدى اهتمام أصحاب الإمارات الفارسية ووزرائهم بالثقافة العربية ومصنفاتها الكثيرة ولم يقف ذلك عند البويهيين والسامانيين والزّياريين والحوارزميين ، بل امتد أيضاً كما قدمنا إلى عصر الدولة السلجوقية ووزيرها نظام الملك الذي كانت مجالسه تزدان بالعلماء ، وكان يحضر سباطه القُشَيْرى وإمام الحرمين وأبو إسحق الشّيرازى ، وكثر تصنيف الكتب باسمه من مثل كتاب التبصير في الدين وتمييز الفرقه الناجية من فرق الهالكين لأبى المظفر طاهر بن محمد الإسفرائينى المتوفى سنة ٤٧١ . وقدم له إمام الحرمين أبو المعالى عبد الملك الجوينى كثيراً من كتبه ، وله بنى المدرسة النظامية بنيسابور وظل يدرّس فيها عشرين عاماً إلى أن توفى سنة ٤٧٨ وكان يحضر دروسه أربعائة طالب

(١) المقدسي ص ٤١٣ .

(٣) ابن مسكويه ٢٨٦/٦ وما بعدها .

(٢) المقدسي ص ٤٤٩ .

(٤) معجم الأدباء لياقوت ٢٥٩/٦ .

وأستاذ^(١). وكان الطلاب دائماً كثيرين في حلقات العلماء ، فيُروى أنه كان يحضر دروس أبي الطيب الصعلوكي مفتي نيسابور أكثر من خمسمائة طالب^(٢). وفي هذا ما يدل على إقبال الشباب في نيسابور على دروس الفقه والدين إقبالا منقطع النظير ، ولم يكن ذلك في نيسابور وحدها ، فقد كان عاما في مدن إيران وما وراء النهر من أرض الشاش وقرغانة ، إذ كان حضور حلقات العلماء مباحا للجميع ، فكان الناس من كل الأوساط يقبلون عليها ، لا أوساط المثقفين فحسب ، بل أيضا أوساط العامة ، يدل على ذلك من بعض الوجوه ما رواه السبكي في طبقاته من أن فقهاء الشاش «كتبوا إلى ابن سُرَّيج إمام الشافعية ببغداد يُعلمونه أن الناس في ناحيتهم : أرض الشاش وقرغانة مختلفون في فقهاء الأمصار من لهم الكتب المصنفة والفُتيا ، ويسألونه أن يكتب لهم رسالة يذكر فيها أصول الشافعي ومالك وسفيان الثوري وأبي حنيفة وصاحبيه (محمد وأبي يوسف) ودาวود بن علي الأصفهاني (صاحب مذهب الظاهرية) ويسألونه أن يكون ذلك بكلام واضح يفهمه العامي ، فكتب القاضي لهم الرسالة»^(٣).

فالثقافة الفقهية لم تكن وفقا على الفقهاء وتلاميذهم ، بل كانت العامة تشارك فيها وفي دقائقها وتفرعاتها الكثيرة لا التي اختلف فيها أصحاب المذاهب الفقهية الكبرى : الشافعي ومالك وأبو حنيفة فحسب ، بل أيضا تلك التي اختلف فيها معهم سفيان الثوري ودาวود بن علي الأصفهاني . ونفس ما حدث بين أصحاب مذهب كبير كالمذهب الحنفي من خلاف مثل ما حدث بين أبي يوسف ومحمد بن الحسن الشيباني وقفت عليه العامة فيما وراء النهر . وظاهرة ثانية تدل على شيوع الثقافة الدينية في إيران وأنها كانت عامة بين الناس ، ولا تخص الرجال بل تعم النساء ، وهي تتصل بالحديث النبوي وروايته ، إذ نجد طائفة من النساء الإيرانيات يؤخذ عنهن الحديث كما يؤخذ عن علمائه الأئبات ، ويُذكرن في تراجم بعض المحدثين ويُنصُّ على أنهم حملوا الحديث عنهن ، منهن كريمة المروزية ، وعليها قرأ بمكة الخطيب البغدادي المحدث المشهور صحيح البخاري ، وسمع منها أيضا بمكة سعد الأسد آبادي^(٤) ، فهي لم تحدث في موطنها فحسب ، بل حدثت أيضا في مجمع العلماء بالحرم المكي ، وبأى كتاب ؟ بأعظم كتب الحديث إسنادا : صحيح البخاري . ومن هؤلاء المحدثات المشهورات عائشة^(٥) بنت عبد الله البوشنجية ، وهي من محدثات القرن

(١) طبقات السبكي ١٨٤/٥ .

(٢) السبكي ٣٠١/٤ ، ٣٨٣ .

(٣) التهذيب للنووي (طبعة وستفولد) ص ٣٠٧ .

(٤) السبكي ١١٨/٥ .

(٥) السبكي ٤٥٧/٣ .

الخامس الهجرى ، ومثلها فاطمة بنت أبى على الدقاق شيخ القشيري فى التصوف ، وعنها أخذ الحديث بنيسابور كثيرون^(١) . ومن محدّثات القرن الخامس أيضا كريمة^(٢) بنت محمد ، وشهادة^(٣) بنت أحمد . وهن جميعا أدلة على ازدهار الحركة العلمية بإيران . ومن تمة هذه الأدلة أن نجد العلماء منذ أوائل هذا العصر يحاولون فهرسة كتب المكتبة العربية ، موزعين الكتب على علومها المختلفة ، على نحو ما هو معروف عن فهرست ابن النديم ، وربما كان أهم من ذلك أن نجد معاصره الخوارزمى أبأ عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف يؤلف كتابا موسوعيا هو «مفاتيح العلوم» ويهديه إلى أبى الحسن العتبي وزير الأمير نوح السامانى الثانى (٣٦٦ - ٣٨٧ هـ) . وكان يعيش فى رعايته بنيسابور . والكتاب يشتمل على المصطلحات الفنية للعلوم وتفسيرها وتوضيح دلالاتها ، وهو مقالتان : المقالة الأولى فى علوم الشريعة وما يتصل بها ، والمقالة الثانية فى الفلسفة وعلوم الأوائل .

٢

علوم الأوائل : تفلسف ومشاركة

تحدثنا فى كتابى العصر العباسى : الأول والثانى عن ترجمة علوم الهند والفرس واليونان ، وكيف أنها شملت ما لدى الفرس والهند من مصنفات فى الفلك والرياضيات وما لدى اليونان من مؤلفات فى الرياضيات والطبيعات . وسرعان ما شارك العرب فى كل ما ترجموه ، سواء فى النظريات الفلكية أو فى العلوم الطبيعية ، وقد سارعوا فى نقل كتاب المحسطى لبطليموس الإسكندرى وهو فى الفلك والجغرافية ونقل كتاب الأصول لأقليدس فى الهندسة وكتب أرسطو فى علمى الحيوان والطبيعة وفى المنطق وكتب جالينوس وبقرات فى الطب ، وترجموا أيضا لأفلاطون وغير أفلاطون كتباً مختلفة . وقد ذكرنا فى كتابى العصر العباسى أسماء المترجمين والنقلة من اللغات المختلفة وأشهر ما نقلوه وترجموه ، وعرضنا ذلك كله عرضا مستفيضا . وأوضحنا مساهمة العرب مساهمة حية خصبة فى جميع الميادين العلمية ، بحيث ظهر من بينهم أفذاذ فى الرياضيات دوت شهرتهم فيما بعد فى عالم الغرب مثل محمد بن موسى الخوارزمى الذى يفتح سلسلة الرياضيين العظام بين العرب ، ومثل جابر بن حيان الكيميائى المشهور ، ومثل محمد بن زكريا الرازى ذائع الصيت فى عالم

(٣) السبكي ٧١/٦ ، ٧٣ .

(١) السبكي ١١/٥ .

(٢) السبكي ٩٥/٥ .

الطب الذى اكتشف فى وضوح فرق ما بين مرضى الجُدَرى والحَصبة ووضع أُسساً واضحة للطب النفسى . وكان طبيعياً بعد أن تعمق العرب علوم الأوائل وفلسفاتهم أن يصبح لهم بدورهم فلاسفة نابهن . ويلمع اسم الكندى فيلسوف العرب الأول لعصر المأمون ، ويلمع بأخرة من العصر العباسى الثانى اسم فيلسوف كبير هو الفارابى الذى مزج فى فلسفته بين روحانية الإسلام وأفكار فلاسفة اليونان مزجاً رائعاً ، مصطفياً لأتمته نظريات فلسفية جديدة .

وبانتهاء العصر العباسى الثانى ينتهى عصر المترجمين العظام ، وتدخل فى عصر جديد هو عصر الفلسفة الإسلامية الخالصة والمشاركة العلمية الحصرية ، أما الفلسفة فنبغ فيها اثنان من الفلاسفة الإيرانيين البارعين هما ابن سينا المتوفى سنة ٤٢٨ والبيرونى المتوفى سنة ٤٤٠ للهجرة .

وابن^(١) سينا أكبر فلاسفة الإسلام ، ويلقب بالشيخ الرئيس ، وقد احتفظ ابن أبى أصيبعة بترجمة شخصية له كتبها بقلمه ، وهو يصور فيها حياته حتى بلغ سن الثانية والثلاثين ، وفيها يذكر أن أباه من أهل بلخ وأنه انتقل منها إلى بخارى فى أيام الأمير السامانى نوح بن منصور وتولّى التصرف للسامانيين بقرية خرميث ، وفيها ولد له ابنه سنة ٣٧٠ وانتقل الأب مع أسرته إلى بخارى وعُنى بتربيته فأحضر له معلماً للقرآن ومعلماً للأدب ، وما بلغ العاشرة حتى كان قد حفظ القرآن ، وأقبل على دراسة الفقه . ويذكر أن أباه كان إسماعيلياً ولم يلبث أن أقبل على دراسة المنطق والهندسة والفلك على شخص متفلسف يسمى الناتلى ، وكان يقرأ معه إيساغوجى وكتاب أقليدس والمحسطى ، ويراه لا يفهمها حق الفهم فكان يشرحها لأستاذه . وأكبَّ على علوم الأوائل والطب ، وسرعان ما اشتهر وهو لا يزال غلاماً فى السابعة عشرة من عمره . واستغلت عليه الإلهيات حتى قرأ بالصدقة فيها كتاباً للفارابى ، حلَّ له مستغلقاتها . وحدث أن مرض الأمير نوح بن منصور فاستدعوه لمعالجته بعد أن عجز الأطباء عن مداواته ، ويكون شفاؤه على يديه ، فيوظفه عنده ويغدق عليه

(١) راجع فى ابن سينا وترجمته صوان الحكمة للبيهقى ص ٥٢ والقفطى ص ٤١٣ وابن أبى أصيبعة ص ٤٣٧ وابن خلكان ١٥٧/٢ وروضات الجنات ص ٢٤١ ولسان الميزان ٢٩١/٢ وكتاب لكارادى فوعته (طبع بارس) ومقالته عنه فى دائرة المعارف الدينية والأخلاقية نشره هينتنجر (أذنية ١٩٠٩) ٢/٢٧٢ وبراون (ترجمة د. إبراهيم أمين الشوارى) ص ١١١ ، ١٢١ وتاريخ الفلسفة فى الإسلام لدى بور ص ١٦٤ ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع والعلم عند العرب لألدومبيل ص ١٩٧ وكتاب مؤلفات ابن سينا لفؤاد سيد ولقناتى . وانظر ترجمته بقلمه وتعليقنا عليها فى كتابنا «الترجمة الشخصية» طبع دار المعارف ومقالاتنا عن لغة ابن سينا فى العدد رقم ٦٩١ من مجلة الثقافة ، وهو عدد خاص بعيده الألفى .

(١) راجع فى ابن سينا وترجمته صوان الحكمة للبيهقى ص ٥٢ والقفطى ص ٤١٣ وابن أبى أصيبعة ص ٤٣٧ وابن خلكان ١٥٧/٢ وروضات الجنات ص ٢٤١ ولسان الميزان ٢٩١/٢ وكتاب لكارادى فوعته (طبع بارس) ومقالته عنه فى دائرة المعارف الدينية والأخلاقية نشره هينتنجر (أذنية ١٩٠٩) ٢/٢٧٢ وبراون (ترجمة د. إبراهيم أمين الشوارى) ص ١١١ ، ١٢١ وتاريخ

من أمواله . ويستأذنه ابن سينا في دخول مكتبة القصر وبأذن له فيجد فيها ما لا يحصى من الكنوز في علوم الأوائل . ولم تلبث الدولة السامانية أن انهارت فترك بخارى إلى خوارزم ، ونزل بعاصمتها « خيوة » عند أميرها مأمون مع من كانوا يلوذون برعايته مثل البيروني . وسمع محمود الغزنوي بهذه الصفوة من العلماء والمتفلسفة والأطباء في بلاط أمير خوارزم ، فأرسل إليه في طلبهم ، كما مر بنا ، وأبى ابن سينا أن يذهب إليه ، وأخذ يتنقل في بلدان إيران حتى وصل إلى جرجان وأميرها قابوس بن وشمكير ، فأكرمه وأنزله منزلة عليا ، حتى إذا قُتل سنة ٤٠٣ ولى وجهه نحو أصفهان وأميرها البويهى علاء الدين بن كاكويه . وظل هناك إلى أن أدركته الوفاة بهمدان سنة ٤٢٨ هـ / ١٠٣٦ م وقبره معروف بها إلى اليوم .

وعند ابن سينا تترج الفلسفة اليونانية بالحكمة الشرقية والروح الإسلامية ، ويلقب بالمعلم الثالث بعد أرسطو والفارابي ، وأكثر مؤلفاته بالعربية ، وله مؤلفات بالفارسية ، وأيضا له قصائد فلسفية بجانب نثره الفلسفي ، وله قصص فلسفية كقصّة سَلَامان وأبسال وقصة حيّ بن يقظان ورسالة الطير . ومصنفاته تُعدّ بالمئات ، وأشهرها كتاب القانون في الطب وكتاب الشفاء في الإلهيات وعلوم الطبيعة والرياضيات . وكان الكتاب الأول عماد الغربيين في دراساتهم الطبية بجامعةهم حتى القرون القريبة ، وقد ترجموه إلى اللاتينية ، ويقال إنه طبع بها ست عشرة مرة في القرن الخامس عشر الميلادي وعشرين مرة في القرن السادس عشر . وكتاب الشفاء دائرة معارف كبرى تتناول كل فروع الفلسفة .

وابن سينا يتأثر بأرسططاليس ، وحاول جاهدا أن يوفق بين آرائه وآراء أفلاطون والأفلاطونية الحديثة والإسلام . ونَحَا في كثير من أفكاره نحو الفارابي ، وهو يتفق معه في تفاريع المنطق وفي الإلهيات وماذهب إليه من أن المادة لا تصدر عن الله ، لأنه مترّه عن كل مادة وكل جسم ، والله واحد من كل وجه ، فلا يصدر عنه كثير لا بالعدد ولا بالانقسام إلى مادة وصورة ، وإلا اختلفت الجهات في ذاته . وهو - لذلك - لا يصدر عنه إلا واحد هو العقل الأول . وعن هذا العقل يصدر عقل يدبّر الفلك (الملائكة) ومنه تصدر نفس كما تصدر مادة هي جرم الفلك ، وأخيرا العقل الفعّال الذي تصدر عنه مادة الكائنات في الأرض وصورها الجنسية كما تصدر النفوس الإنسانية . وطبيعي أن لا يرتضى أهل السنة والمعتزلة منه هذه الآراء . وإذا نَحِينَاها عن فلسفة ابن سينا وجدناه بعدها يحاول التوفيق بين فلسفته وبين القائلين بسلطان القضاء ، فيقول إن كل ما في الوجود خيرا كان أم شرا بقضاء الله وقدره على نحو ما توضح ذلك رسالته في القدر . وكان يرى أن من الموجودات ما هو خير محض كالأمور العقلية والسمائية ، ومنها ما يغلب عليه الخير كالوجود

الأرضى والشر فيه من طبيعته لأنه عالم كون وفساد .

وكان يذهب إلى أن العقل أعلى قوى النفس ، وعنده أن النفوس تنقسم إلى مراتب أعلاها النفوس الكاملة التى تتمسك بالمثل العليا وبالخير المحض الخالص وكان يعدّ الموت بطلانا للجسم ، أما النفس فتبقى خالدة وعلى اتصال بالعقل الكلى ، وسعادتها وشقتها حينئذ ترجعان إلى اتحادها به قوة وضعفا . وفى ذلك يكون الثواب والعقاب .

وينخطو ابن سينا بفلسفته خطوة ، فيمزجها بالتصوف الذى تفيض على المتصوف فيه اللذات الروحية فلا يرى فى الكون سوى مبدعه وجهاله على نحو ما تصور ذلك قصته «حى ابن يقظان» و«سلامان وأبسال» وسلمّ بهما فى الفصل الأخير . وفى الأولى يعود حى بن يقظان الفيلسوف إلى مورد المعرفة الصوفية الإلهية ، بينما يتخلص أبسال فى الثانية من أغلال اللذات الحسية موغلا فى اللذات العقلية وما يُطوى فيها من لذات الصوفية الروحية . ويوضح ذلك فى كتابه الإشارات ، فيقول عن الصوفى ويسميه العارف إنه المتصرف بفكره إلى قدس الله مستديما لإشراق نور الحق على نفسه ، وهو يعبد الله لأنه مستحق للعبادة لارغبة من عقابه ولا رغبة فى ثوابه .

والبيرونى ^(١) هو محمد بن أحمد المولود سنة ٣٦٢ بضاحية من ضواحي خيوه عاصمة خوارزم تسمى بيرون ، ولا نعرف شيئا واضحا عن نشأته ، ويبدو أنه تلقن معارفه الأولى بخصوه ، ولم يلبث أن اتجه إلى الرياضيات والفلك فحذقها حذقا رائعا ، وشغف فى أثناء ذلك بمعرفة أحوال البلدان والأمم ، ولم يكد يتدرج فى العقد الثالث من عمره حتى بارح موطنه إلى طبرستان حيث عاش فى رعاية أميرها قابوس ، وإليه قدم أول كتبه : «الآثار الباقية عن القرون الخالية» الذى فرغ من تأليفه حوالى سنة ٣٩٠ وقد صور فيه المناهج التاريخية والتقويم الحسابية لكثير من الأمم المتحضرة وهو أول كتبه العظيمة ، وقد طبعه سخاو فى ليبزج سنة ١٨٧٨ وقدم له بمقدمة نفيسة عن البيرونى وأعماله ومكانته . وكان قابوس متقلبا ، فخشى البيرونى على نفسه منه ، وتركه إلى موطنه وأميره فيه «مأمون خوارزم» . وسمع به وبعلمه محمود الغزنوى ، فطلبه من أميره ، وأبدى البيرونى - فيما

(١) وكتاب العلم عند العرب لألدوميللى ص ١٨٨ وما بعدها ومقاتلى بروكلان وفيدمان عن البيرونى فى دائرة المعارف الإسلامية وتاريخ الأدب الجغرافى لكراتشكوفسكى (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٢٤٥/١ وما بعدها .

(١) انظر فى البيرونى تمة صوان الحكمة للبيهقي ومعجم الأدباء ١٧/ ١٨٠ وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ص ٤٥٩ ومقدمتى سخاو للآثار الباقية وتحقيق ما للهند من مقولة وبراون ١١١ ، ١٢١ وكاجورى فى تاريخ الرياضيات ومادة بيرونى فى دائرة المعارف البريطانية

يُروى - رغبته في الذهاب إليه ، ويقال : بل ظل مع مأمون خوارزم حتى استولى محمود الغزنوى على دياره فصحبه فيمن أخذهم معه من علماء خوارزم لسنة ٤٠٨ للهجرة . وكان البيرونى شيعيا ومحمود سنيا يضطهد الشيعة ، فتحول البيرونى إلى مذهبه ، وربما تحول إلى هذا المذهب قبل صحبتته لمحمود . وكان محمود ماينى يغزو الهند على نحو ما مربنا في الفصل السابق ، فكان يسير معه ، ويظهر أنه أقام بها سنوات متصلة مكنته من دراستها دراسة علمية خصبة ، تعلم في أثناءها اللغة السنسكريتية وقرأ ما كتبه فيها علماءها ، ودرس في عمق فلسفتها ورياضياتها وعقائدها وتقاليدها وجملتها معارفها في التنجيم والتاريخ والفلك ، وكل ذلك أودعه كتابه الرائع : « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة » وقد أتمه سنة ٤٢٣ بعد وفاة محمود الغزنوى بعامين . وفي الكتاب قطع بنصها لمؤلفين هنود ، وفيه وصف جغرافى مفصل للهند وآرائهم الدينية والفلسفية ومعارفهم وتاريخهم وتقاليدهم وعاداتهم وأعيادهم وأنظارتهم في الفلك والتنجيم . ويقارن مقارنات خصبة بين علومهم وعلوم العرب واليونان والفرس . ويعترف بتفوق المعرفة اليونانية لما تمتاز به من كمال المنهج ومن الدقة والعمق . ويقارن بين أديان الهند وأديان الكتب السماوية مقارنات دالة على تأمل دقيق في الديانات وفلسفتها ، ويوسع تأمله ليشمل المانوية وغيرها من ديانات الفرس . وفي كل ذلك ينثر آراءه الأصلية التي تدل على عقل متفلسف دقيق منتهى الدقة . ونراه يبين في قوة وجوه التوافق بين الفلسفة الفيتاغورية الأفلاطونية والحكمة الهندية .

ومن مصنفات البيرونى كتابه القانون المسعودى فى الهيئة والتنجيم ألفه سنة ٤٢١ للسلطان مسعود بن محمود الغزنوى عقب وفاة أبيه وهو دائرة معارف فى الفلك والهندسة والتنجيم ، وقد وصفه ياقوت بأنه يعفى أثر كل كتاب ، صُنّف فى تنجيم أو حساب ، ويقول البيهقى إنه غرة فى وجوه تصانيفه . وفى مقدمته يشيد بالسلطان مسعود الذى قدم إليه الكتاب وقد نشر فى حيدرآباد سنة ١٩٥٣ . وللبيرونى كتب أخرى ، منها كتاب فى المعادن سماه الجواهر فى معرفة الجواهر ، أهداه إلى السلطان مودود الغزنوى ، ومنها كتب فى الطب وكتاب فى الصيدلة نشره ماكس مايرهوف فى برلين وكتب أخرى فى الطبيعيات . وفى الحق أنه شخصية فريدة فى تاريخ إيران العربية .

ويلحق بهذين الفيلسوفين العظيمين الشهر^(١) ستانى أبو الفتح محمد بن أبى القاسم

(١) انظر فى الشهرستانى وترجمته ابن خلكان ٢٧٣/٤ بالوفيات ٢٧٨/٣ وشذرات الذهب ١٤٩/٤ ومرآة

وتذكرة الحفاظ ١٣١٣/٤ والسبكي ١٢٨/٦ والوافى الجنان ٢٨٩/٣ ولسان الميزان ٢٦٣/٥ وغير الذهبى =

المتوفى سنة ٥٤٨ هـ وهو من شهرستان في شمالي خوارزم ، واشتهر بكتابه الفريد «الملل والنحل» الذي ألفه في سنة ٥٢١ هـ وهو في علم مقارنة الملل والأديان . وكان تسامح المسلمين مع أهل الكتاب من قديم سببا في نشأة هذا العلم نشأة مبكرة لدى العرب ، فبذل القرن الثالث الهجري وهم يؤلفون فيه إلى أن ظهر البيروني وألف كتابه «تحقيق ما للهند من مقولة» الذي تحدثنا عنه آنفا ، وقلنا إنه يبحث فيه مباحث دقيقة في الديانات ، وجاء بعده ابن حزم الأندلسي المتوفى سنة ٤٥٦ هـ وألف كتابه «الفصل في الملل والأهواء والنحل» وخلفه الشهرستاني ، فألف كتابه سالف الذكر عارضا فيه جميع الفرق الإسلامية وديانات أهل الكتاب وديانات غيرهم من أهل الشرك في اعتدال وإنصاف وبصر نافذ ، وهو لا يبارى في دقته وذكائه وتمييزه بين المعتقدات والملل سواء تحدث عن عالمه الإسلامي أو عن عالم الفرس للمقدم ودياناته أو عن عالم الهند أو عالم اليونان .

وظلت طوال العصر دراسات علوم الأوائل ناشطة وفي مقدمتها الرياضيات والفلك ، وقد تقدم العرب بهما في مطالع هذا العصر خطوات على نحو ما يصور ذلك ألدومبيلي في كتابه العلم^(١) عند العرب ، ومن نابيهم في القرن الرابع الهجري ممن تحدث عنهم أبو الفتح محمود بن محمد الأصفهاني الذي نقح كتاب المخروطيات لأبولونيوس ، وأبو جعفر الخازن الخراساني ، وله كتاب في الفلك وصف فيه عددا من آلات الرصد الفلكية ، وأبو الحسين الصوفي مؤلف كتاب الكواكب الثابتة ، وهو محلى بالرسوم ، ويقول ألدومبيلي إنه صحح فيه كثيرا من أخطاء بطليموس ، وانتفع بتصحيحاته علماء الفلك المحدثون . واطرد هذا النشاط العلمي في القرن الخامس إذ نجد أبا الحسن علي بن أحمد النسوي يؤلف بالفارسية كتابا في اللوغارتمات ويترجمه إلى العربية بعنوان المقنع في الحساب الهندي . ويشمل نظام الملك في الدولة السلجوقية برعايته الكثير من العلماء الرياضيين ، وفي مقدمتهم^(٢) عمر الخيام صاحب الرباعيات المشهورة ، وله كتاب فذ في علم الجبر رتب فيه - كما يقول ألدومبيلي - الصور المختلفة للمعادلات ذات الدرجة الثانية والثالثة ترتيبا منظما ، وقد عهد إليه نظام الملك بإصلاح التقويم ، وبنى له مرصدا سنة ٤٧١ هـ ويظن أنه إما كان في مرو وإما في أصفهان وإما في نيسابور ، وعيّن له ثمانية من علماء الفلك يساعدونه فأصلح التقويم

= ١٣٢/٤ وروضات الجنات ١٨٦ وبراون ص ٤٥٩ دائرة وآثار البلاد للقرظيني (طبعة وستفولد) ص ٣١٨ وبراون ص ٣٠٤ وألدومبيلي ص ٢١٤ ، ٢٢١ ودائرة المعارف الإسلامية .

(١) انظر العلم عند العرب ص ٢١٢ وما بعدها . الإسلامية .

(٢) راجع في عمر الخيام وترجمته القفطي ص ٢٤٣

وألف فيه كتابه «التاريخ الجلالى» نسبة إلى السلطان جلال الدين ملكشاه السلجوقى . ومن أشهر الرياضيين بعده نصير^(١) الدين الطوسى المولود بطوس سنة ٥٩٧ هـ وقد تلقّاه الإسماعيليون لما رأوا من ذكائه ، فأرسلوه إلى عاصمتهم «ألموت» وهناك وجد مكتبة نفيسة أكبَّ على ما فيها من كتب الفلسفة والرياضيات ، حتى إذا استولى هولاءكو على تلك القلعة انتقل نصير الدين إلى خدمته ، وكرّمه لما سمع من معرفته بالفلك والتنجيم ، وصحبه في هجومه على بغداد ، وانتَهز الفرصة فاستولى على كثير من كتبها النفيسة ، وكوّن منها مكتبة ضمت أكثر من أربعمئة ألف مجلد ، كما يقول ابن شاكِر في كتابه فوات الوفيات . وساعده هولاءكو في بناء مرصد مدينة المراغة المشهور سنة ٦٥٧ هـ وعيّن معه فيه جماعة من صفوة العلماء الرياضيين ، وظل نصير الدين قائما على هذا المرصد حتى وفاته سنة ٦٧٣ هـ وقد أَلَفَ زيجا أو قل تقويما أصْلَحَ به تقويم الخيام ، وألّف كتباً كثيرة في التنجيم والفلسفة والرياضيات والطبيعات . ومن أشهر تلاميذه قطب^(٢) الدين محمود بن مسعود الشيرازى المتوفى سنة ٧١٠ هـ وكان رياضيا فلكيا ، ومن كتبه : «نهاية الإدراك في دراية الأفلاك» . ومنهم نجم^(٣) الدين على بن عمر الكاتبي المشهور باسم دبيران المتوفى سنة ٦٧٥ هـ وكان موظفا في مرصد المراغة بأذربيجان واشتهر بكتاب في المنطق سماه «الرسالة الشمسية في القواعد المنطقية» وهى مشروحة مرارا . وظل مرصد المراغة مجهزا بأكمل الآلات حتى القرن الثامن الهجرى ، وكانت العربية لا تزال في إيران اللغة الأولى للعلوم ، وإن أخذت تراجحها الفارسية حتى ظفرت بها في الحقب للتأخرة .

وعلى نحو ما نهضت العلوم الرياضية والفلكية نهضت العلوم الطبيعية والطبية ، وكانت البيمارستانات تُعدّ مدارس كبرى لتعليم الطب والنهوض به ، ومن أهم الأطباء في القرن الرابع الهجرى على^(٤) بن العباس المجوسى صاحب الكناش الملكى في الطب ، وقد أهداه إلى عضد الدولة البويهى ، وكان يعاصره أبو^(٥) سهل المسیحى الذى ألف ما يشبه دائرة

(١) انظر في نصير الدين الطوسى وترجمته فوات

الوفيات لابن شاكِر (نشر مكتبة النهضة المصرية) ٣٠٧/٢

وروضات الجنات ص ٥٠٦ وشذرات الذهب ٣٣٩/٥

وبراون ص ٦١٥ وألدومبيل ص ٢٨٩ ، ٢٩٦ ودائرة

المعارف الإسلامية ، وقد نشرت له دائرة المعارف العثمانية

بجيدر آباد سنة ١٣٥٨ هـ مجلدين من رسائله ومقالاته .

(٢) راجع في قطب الدين وترجمته الدرر الكامنة لابن

حجر ٣٣٩/٤ والنجوم الزاهرة ٢١٣/٩ وألدومبيل ص

٢٩٨

(٣) انظره في فوات الوفيات ١٣٤/٢ و ألدومبيل ص

٢٧١

(٤) راجع ألدومبيل ص ٢٣٨ وما بعدها حيث يعرض

مجموعة من الأطباء بينها على بن العباس وانظر القفطى

ص ٢٣٢ وبروكلمان ٢٩١/٤

(٥) انظر فيه القفطى ص ٤٠٨ وبروكلمان ٢٩٤/٤

معارف طبية في مائة مقالة . ولزين ^(١) الدين الجرجاني الطبيب المتوفى سنة ٥٣١ موسوعة طبية كتبها بالفارسية سماها « ذخيرة خوارزم شاه » وقد أهداها إلى الشاه الخوارزمي قطب الدين محمد . ويظل الاهتمام بالطب على توالى الحقب ، وكذلك ظل الاهتمام بالصيدلة وعلم العقاقير ، ويشتهر في هذا العلم موفق ^(٢) بن علي الهروي في القرن الرابع الهجري ، كما يشتهر في الكيمياء الطغرائي الشاعر المشهور وزير السلطان السلجوقي مسعود ، وله كتب كثيرة في الكيمياء ^(٣) ، منها الجوهر النضير في صناعة الإكسير . وللقزويني ^(٤) زكريا بن محمد المتوفى سنة ٦٨٢ للهجرة كتاب طريف في التاريخ الطبيعى سماه « عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات »

ومرّ بنا في كتاب العصر العباسي الثاني أن كتاب بطليموس الجغرافي وجّه العرب منذ الخوارزمي الرياضي محمد بن موسى إلى التأليف في علم الجغرافيا أو تقويم البلدان ، ونشط فيه التأليف نشاطا واسعا واتبع الجغرافيون العرب حينئذ منهجا طريفا في وصف البلدان أن يُعَنِّوْا بالحديث عن عادات الشعوب ، ويُقْصُّوْا بعض ماسمعه من الأعاجيب ، مما جعل كتبهم الجغرافية تعتمد على المشاهدة وحكاية ماسمعه الجغرافي بأذنه ورآه تحت بصره ، وبذلك أصبحت تشبه كتب الرحلات . ويلقانا في القرن الرابع رحالة مشهور هو أبو دلف الخزرجي مسعر بن مهلهل شاعر الكُدَيْة الذى سنترجم له بين الشعراء الشعبيين ، وعِداده في شعراء أصفهان ، وأصله كما يبدو من لقبه من أهل المدينة ، وله رحلة إلى بلاد آسيا الوسطى والشرقية قام بها سنة ٣٣٣ للهجرة وقد نشرت منها وزارة التربية والتعليم المصرية قطعة ، حققها المستشرق مينورسكى ، وعنى الدكتور محمد منير مرسى بإعادة نشر هذه القطعة كما سيأتى في الحديث عنه بين الشعراء وفيها يصف أبو دلف بعض مدن الشمال الغربى لإيران . وجاء بعده في القرن الخامس الهجرى رحالة إسماعيلي ، هو ناصر خسرو ، وقد كتب رحلته بالفارسية في كتابه المسمى « سفرنامه » واستغرقت منه الرحلة سبع سنوات (٤٣٧ - ٤٤٤ هـ) . طاف فيها ببلدان موطنه إيران والعراق والجزيرة العربية والشام ومصر ، وهى تخرج عن حديثنا لأنها ليست باللسان العربى . وللإيرانيين بجانب هذه الرحلات البرية رحلات بحرية إذ كان ملاحوهم يتعمقون في المحيطين الهندى والهادى ،

(١) راجع فيه ألدومبيلي ص ٣٢٠ .

(٢) ألدومبيلي ص ٢٣٩ .

(٣) انظر في نشاط الطغرائي الكيميائي ألدومبيلي ص

الإسلامية وما بها من مراجع وتاريخ الأدب الجغرافى

لكراتشكوفسكى ٣٦٠/١ .

ووصفوا رحلاتهم فيها وفي المحيطين وجزرهما وشواطئها في آسيا وإفريقيا وكل ما رآوه من شعوب وحيوانات برية وبحرية وطيور. ومن أهم ما كتبوا من هذه الرحلات كتاب «عجائب^(١) الهند برّه وبحره وجزره وشطآنه» لبزرگ بن شهریار الناخذاه أى الربان. ويدل اسمه على أنه إيراني، وتدل حكاياته على أنه كان يعيش في القرن الرابع الهجرى، وهو يقص في كتابه قصصا بديعا ما سمعه من حكايات عن الملاحين الذين اقتحموا المحيطين الهندي والهادى ووصفوا ما أبصروه من أسماك وطيور وحيوانات وما ألم بسفنهم من عواصف هوجاء، وما شاهدوه من الشعوب وصناعاتها وعاداتها ودياناتها. وهو كتاب جغرافى وأدبى وقصى نفيس.

وربما كان القزوينى زكريا بن محمد المذكور آنفا أكبر جغرافى أنتجته الحقبة التالية في العصر، واسم كتابه الجغرافى: «آثار البلاد وأخبار العباد» وهو فيه يصف الأقاليم السبعة للأرض، ويذكر ما فيها من البلدان والجزر والأنهار، ويهتم بأحوال السكان ويجمع غرائب عن شعوب هذه الأقاليم في آسيا وإفريقيا وأوربا وخاصة شعوب الهند والصين، ويقص حكايات عن شعراء الفرس والزهاد في البلدان الإسلامية، ويعرض عجائب البنيان والآثار ويحكى كثيرا من الأساطير والخرافات مما يجعل كتابه في بعض جوانبه شبيها بكتب الأدب الخيالية المسلية.

ولعل في كل ما سبق ما يصور ازدهار علوم الأوائل في إيران حتى القرن الثامن الهجرى، وقد يدل على ذلك من بعض الوجوه إحساس العلماء بكثرة المصطلحات العلمية وأنهم في حاجة إلى كتاب يجمعها ويعرف بها تعريفا دقيقا، وهو ما جعل السيد الشريف الجرجانى المتوفى سنة ٨١٦ يتجرد لوضع كتاب ينى بهذه الحاجة، على نحو ما يلقانا عنده في كتابه التعريفات الذى أوضح فيه الاصطلاحات العلمية مرتبا لها على حروف المعجم ترتيبا دقيقا.

٣

علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد

نشط البحث في اللغة نشاطا واسعا لهذا العصر، إذ كثرت العلماء الإيرانيون الذين تصدوا للمباحث اللغوية، وكان أكبر ما نهضوا به وضع المعاجم، واهتمامهم به قديم، ولذلك

(١) انظر في هذا الكتاب كراتشكوفسكى ١٤٣/١ وكتابنا «الرحلات» طبع دار المعارف ص ٣٣.

لا يكون عجباً أن أول نسخة تنشر من معجم العين للخليل بن أحمد ، وهو أول معجم وضع في العربية ، إنما تنشر - كما ذكر صاحب الفهرست - من خراسان . ومعروف أن المعجم الثاني في العربية الذي ألف على منهج معجم العين هو الجمهرة لابن دريد المتوفى سنة ٣٢١ هـ وهو أيضاً نُشر لأول مرة في إيران ، إذ استدعى عبد الله بن محمد بن ميكال وإلى الأهواز وفارس ابن دريد من البصرة لتأديب ابنه أبي العباس إسماعيل ، وهناك وضع الجمهرة ، وكان ترتيب الكلمات في هذا المعجم - كترتيبها في معجم العين - على مخارج الحروف ومواقعها من الجهاز الصوتي أى من الحلق واللسان والفم والشفقتين . وأول معجم عام وضع في عصر الدول والإمارات الذي نحن بصدد معجم تهذيب اللغة الذي وضعه أبو منصور محمد ^(١) بن أحمد الأزهري الهروي المتوفى سنة ٣٧٠ هـ وسنجد كثيرين غيره من هراة بأفغانستان الحالية يشتركون في خدمة اللغة وغير اللغة ، وكانت هراة تعد جزءاً من إيران .

ورتب الأزهري معجمه على ترتيب معجم العين أى حسب مخارج الحروف ، وعرض في مقدمته لرواة اللغة وترجم لهم موضعاً مدى الثقة والتهمة في أعمالهم . وكان يعاصر الأزهري عالم فاراب إسحق بن إبراهيم الفارابي المتوفى سنة ٣٥٠ للهجرة وقد وضع في اللغة معجمه ديوان الأدب الذي نشره مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، واتبع فيه طريقة جديدة هي ترتيبه حسب الحروف الهجائية باعتبار أواخر الألفاظ وفقاً للأبنية المختلفة ، ووضع الصاحب بن عباد المتوفى سنة ٣٨٥ هـ معجماً كبيراً سماه المحيط لم تبق منه إلا بعض أجزاء لا تزال مخطوطة . وخلفها أبو الحسين أحمد ^(٢) بن فارس القزويني معلم العربية بهمدان المتوفى سنة ٣٩٥ هـ وله معجمان : المجمل ومقاييس اللغة ، أما المجمل فمعجم عام رتبته حسب الأبجدية المعروفة لنا اليوم ، غير أنه قسم المواد في كل حرف إلى ثنائي ويشمل المضاعف والمطابق ، ثم ثلاثي ، ثم ما جاء على أكثر من ثلاثة حروف أصلية ، والتزم أن يفتح حديثه في كل حرف به مع مايلي . ومعجمه مقاييس اللغة على غرار المجمل ، عني فيه بأن يجعل لألفاظ كل مادة لغوية أصلاً تُرد إليه أو أصليين . وهو فيه أكثر منه في المجمل

(١) انظر في الأزهري ابن خلكان (طبعة دار صادر القصر وابن خلكان ١١٨/١ ومعجم الأدياء ٨٠/٤ بيروت) ٣٣٤/٤ ومعجم الأدياء ١٦٤/١٧ وشذرات الذهب ٧٢/٣ والسبكي في طبقاته ٦٣/٣ . ٢١٢/٤ .

(٢) انظر في أحمد بن فارس اليتيمة ٤٠٠/٣ ودمية

عناية بالشواهد والأمثال والعبارات المجازية ، بينما هو في المجمل أكثر منه في المقاييس عناية بذكر الأعلام .

ولأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري ^(١) معاصره المتوفى سنة ٣٩٥ معجمه المشهور : تاج اللغة وصحاح العربية ويشتهر باسم الصحاح ، وأصل موطن الجوهري فاراب شرق خراسان ، رحل في طلب اللغة إلى بلاد ربيعة ومضر ، ورجع إلى خراسان فنزل في الدامغان ثم ألقى عصاه في تيسابور ، وظل بها يدرس ويصنّف إلى وفاته ، ومعجمه مرتب على الحروف الهجائية ولكن لا بحسب أوائل الكلمات وإنما بحسب أواخرها بنفس المنهج الذي اتبعه خاله الفارابي في معجمه ديوان الأدب ، وأوفى المعجم من الشهرة والذيع ماجعل مؤلفات كثيرة تعنى به عند العلماء في موطنه وفي غيره . ووضع محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي من أهل القرن الثامن الهجري مختصراً له سماه «مختار الصحاح» ورتبه حديثاً محمود خاطر بحسب أوائل الكلمات لا بحسب أواخرها ، وهو مطبوع في عصرنا مراراً وتكراراً . وللزنجشیری ^(٢) محمود بن عمر المتوفى سنة ٥٣٨ معجم عام سماه «أساس البلاغة» وهو مرتب بحسب أوائل الكلمات ويورد من الأمثلة والشواهد ما يوضح استخدامهما ، ويعنى ببيان ما جاء في كل كلمة ومادتها من مجازات مختلفة . ونمضى إلى القرن الثامن فنلتقي بالفيروز ابادي مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي المتوفى سنة ٨١٧ وسبق أن تحدثنا عنه في الفصل الثاني من القسم الأول الخاص بالجزيرة العربية .

وبجانب هذه المعاجم اللغوية صنع علماء إيران اللغويون في الحقب الماضية معاجم خاصة للقرآن الكريم والحديث الشريف . منها معجم أبي عبيد الهروي المتوفى سنة ٤٠١ وهو تلميذ الأزهرى ، ولم يُعَنَّ مثل أستاذه بمعجم عام إنما عُني بمعجم خاص لغريب القرآن والحديث سماه كتاب الغريبين ، وقد يذكر عند بعض أصحاب التراجم باسم كتاب الغريبين في لغة كلام الله وأحاديث رسوله أو باسم غريب القرآن والسنة وتفسيرهما ، ووضع الزوزنى ^(٣) الحسين بن علي بن أحمد المتوفى سنة ٤٨٦ بعده معجماً بالعربية والفارسية سماه

- (١) راجع في الجوهري إنباه الرواة ١٩٤/١ ومعجم الأديباء ١٥١/٦ وشذرات الذهب ١٤٢/٣ واليتيمة للثعالبي ٤٠٦/٤ ودمية القصر للباخرزي وكتب تراجم النحاة والنجوم الزاهرة ٢٠٧/٤ .
- (٢) انظر في الزنجشیری ابن خلکان ١٦٨/٥ والأنساب للسمعاني الورقة ٢٧٧ وروضات الجنات ص ٦٨١ وإنباه الرواة ٢٦٥/٣ واللباب ٥٠٦/٢ ومعجم الأديباء
- ١٢٦/١٩ وطبقات المفسرين للسيوطي ٤١ وشذرات الذهب ١١٨/٤ والنجوم الزاهرة ٢٧٤/٥ وأزهار الرياض ٢٨٢/٣ ونزهة الألباء ص ٣٩١ والجواهر المضية ١٦٠/٢ وكتب التاريخ في سنة وفاته وبراون في تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي ص ٤٥٨ .
- (٣) راجع في الزوزنى إنباه الرواة ١/٣٢٠ وبراون ص ٤٤٩ وبروكلمان ٢٠٧/٥ .

ترجى القرآن . وجاء بعده الراغب ^(١) الأصمهباني الحسين بن محمد المتوفى سنة ٥٠٢ و وضع كتابه أو معجمه مفردات ألفاظ القرآن أو مفردات غريب القرآن ، وهو معجم لا نظير له في بيان دلالات ألفاظ القرآن ، ولا يستغنى عنه ناظر في آيات الذكر الحكيم ولا مفسر للقرآن الكريم . ووضع الزمخشري المذكور آنفاً معجماً لألفاظ الحديث النبوي سماه الفائق في غريب الحديث .

وبجانب هذا النشاط اللغوي نشط علماء اللغة في إيران في دراسة الأمثال وعمل معاجم لها تتضمن شرحها ، ويمكن أن ندخلها في المعاجم الخاصة ، ولعل أول من يصادفنا في هذا الباب حمزة ^(٢) الأصمهباني المتوفى سنة ٣٥٠ وكان يتهم بشعوبيته لافتخاره بنسبة إلى الفرس ، ولأنه فيما يقال وضع كتاباً لعضد الدولة البويهى في الموازنة بين العرب والفرس ، وينبئ عنه بروكلمان هذه التهمة ، ويقول إنه لم يعاد العرب بل أنصفهم وأعلى ذكرهم ! . وله في الأمثال معجم بما صيغ منها على وزن أفعل التفضيل مثل قولهم « أحلم من الأحنف » وسماه الدرة الفاخرة ، وصنع الصاحب المذكور آنفاً أمثال المتنبي ، استخرج من شعره الأبيات التي تجرى مجرى المثل .

وكان يعاصره أبو هلال ^(٣) العسكري المتوفى سنة ٣٩٥ وقد ولد بعسكر مكرم في إقليم خوزستان وإليها ينسب ، وتعلم بها ، واحترف التجارة ، ولم تشغله عن التصنيف والتأليف ، وله في الأمثال معجم سماه جمهرة الأمثال رتبته على حروف المعجم ، ذكر فيه منها نحو ألقى مثل . وشرحها شرحاً وافياً مبيناً مضاربها ومواردها ، وأعقب كل باب بما ذكر حمزة الأصمهباني فيه من الأمثال المصاغة على وزن أفعل . وجاء بعده الميداني ^(٤) أحمد ابن محمد المتوفى سنة ٥١٨ فألف أهم معجم بين كتب الأمثال سماه مجمع الأمثال . حاول فيه أن يستقصى الأمثال العربية ، وهو استقصاء لم يُسبق إليه ، مع شرحها شرحاً مستفيضاً . وخلفه الزمخشري الذي ذكرناه آنفاً فألف معجمه « المستقصى في الأمثال » ، وهو مرتب على الحروف الهجائية مثل معجم الميداني . ولكنه لا يبلغ مبلغه من السعة

(١) انظر في الراغب بغية الوعاة وطبقات المفسرين وتمتة البيهقي ١٠٤ وروضات الجنات ٢٤٩ وبروكلمان ٢٠٩/٥ ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع .

(٢) راجع في حمزة الفهرست لابن النديم ص ٢٠٥ والأنساب ورقة ٤٤١ وبروكلمان ٦٠/٣ ودائرة المعارف الإسلامية .

(٣) انظر في أبي هلال معجم الأدباء ٢٥٨/٨ - ٢٦٧

(٤) راجع في الميداني كتاب الأنساب الورقة ٥٤٨ ومعجم الأدباء ٤٥/٥ والإنباه ١٢١/١ وابن خلكان ١٤٨/١ ونزهة الألباء ٣٩٠ وروضات الجنات ص ٨٠ .

والدقة. ويدخل في هذا النشاط المعجمي بعض اللغويين وضع معاجم لألفاظ الفقهاء مثل المغرب في ترتيب العرب لناصر^(١) المطرزي الخوارزمي المتوفى سنة ٦١٠ خليفة الزمخشري في وطنه خوارزم. ومعجمه يتناول الألفاظ الغريبة التي يستخدمها الفقهاء.

وحاول اللغويون في إيران أن يضعوا كتباً تجذب القارئ بمنهجها مثل ديوان الأدب المار ذكره وهو يتناول أبواباً صرفية، وأهم منه كتاب الصاحي في فقه اللغة ألفه أحمد بن فارس المذكور آنفاً باسم الصاحب بن عباد، وهو أول كتاب منهجي في موضوع أصل اللغة العربية وخصائصها. واهتم اللغويون بما يعرض للكلمات من أخطاء، وتجرّد لذلك أبو أحمد^(٢) العسكري خال أبي هلال، فصنف كتاب التصحيف والتحريف وتوالت بعض الكتب في هذا الموضوع.

ولم يقتصر نشاط اللغويين في إيران على كل ما قدّمنا. فقد بذلوا جهوداً خصبة في شروح الشعر ومن أهمها شرح الواحدى لديوان المتنبي وشرح الزوزنى المار ذكره على المعلقات السبع وقد طبع مراراً ويتداوله الطلاب في الجامعات العربية. واشتهر التبريزي أبو زكريا يحيى بن علي المتوفى سنة ٥٠٢ بكثرة ما صنف من شروح، تناول في بعضها الشعر القديم وفي بعضها الشعر المولد، وقد تحدثنا عن نشاطه في هذا الاتجاه بين اللغويين في العراق، وشرح الزمخشري بعده لامية العرب للشنفرى، وشرح المطرزي خليفته مقامات الحريري.

ونفض اللغويون بمحاولة أخرى هي جمع الأشعار والكلم البليغة، وألفوا في ذلك مصنّفات مختلفة، منها ديوان المعاني لأبي هلال العسكري، وكتاب نثر الدرر لأبي سعيد منصور بن الحسن الآتي^(٣) من أدباء القرن الخامس وكتاب محاضرات الأدباء للراغب الأصبهاني المذكور آنفاً وألف بأخرة من العصر بهاء الدين العاملي المتوفى سنة ١٠٣٠ للهجرة كتابيه الكشكول والمحلة، وهما كتابان نفيسان بما جمعا من طرائف النثر والشعر. ولم يكن اهتمام النحاة بالنحو أقل من اهتمام اللغويين باللغة، وكثير منهم لهم كتب

(١) انظر في المطرزي معجم الأدباء ٢١٢/١٩ وإنباه ومعجم الأدباء ٢٣٣/٨ وإنباه الرواة ٣١٠/١ والمتنظم الرواة ٣/٣٣٩ وروضات الجنات ص ٢٢٣ والجواهر ١٩١/٧.
(٢) انظر في طبقات الحنفية ١٩٠/٢ وابن خلكان ٣٦٩/٧ (٣) راجع في أبي الحسن الآتي دمية القصر ٤٦٧/١ وابن قطلوبغا ص ٧٩.
(٤) انظر في أبي أحمد العسكري ابن خلكان ٨٣/٢ أصبهان وتمة البيتة ١٠٠/١ ومعجم البلدان في آبه من قرى أصبهان.

نحوية متنوعة غير أننا سنكتفي بذكر الأمهات وأصحابها ، وأول من نقف عنده ابن درستويه الفارسي المتوفى سنة ٣٤٧ وقد مر ذكره بين اللغويين في العراق ، وأهم منه إمام النحاة عامة في القرن الرابع الهجري أبو علي الفارسي ^(١) المولود بالقرب من شيراز سنة ٢٨٨ وكان رُحلة في تدريسه ، فأيام في شيراز وأيام في عسكر مُكرّم بخوزستان وأيام في كرمان ، وأيام أخرى في بغداد أو في حلب أو في الكوفة أو في دمشق ، وله كتب يسميها المسائل كل منها منسوب إلى بلدة من هذه البلدان فهناك المسائل الشيرازية والعسكرية والحلبية ، وهكذا . وبجانب ذلك له كتب مستقلة عُني القدماء بشرحها مثل الإيضاح والتكلمة وقد صنفها باسم عضد الدولة . وهو أستاذ ابن جني ، وفي كل مكان من كتبه ينقل عنه وخاصة في الخصائص وما وضعه فيه من القواعد الكلية ، حتى ليخيل إلى الإنسان كأن أكثر الأصول والآراء التي سجلها ابن جني في كتبه إنما استمدّها من إملاءات أبي علي الفارسي . وهو في آرائه النحوية يتنصر مرة للخليل وسيبويه وغيرهما من البصريين ، ومرة ثانية يتنصر للكوفيين ، ومرة ثالثة يستنبط آراء مبتكرة لم يسبق إليها ، نافذاً بذلك إلى المذهب ^(٢) البغدادى الجديد في النحو الذى كان يقوم على الانتخاب من آراء مدرستى الكوفة والبصرة مع الخلوص إلى آراء وأحكام نحوية جديدة .

وكان يعاصره أحمد بن فارس الذى مر بنا ذكره ، وله كتب نحوية كان يذهب فيها مذهب الكوفيين ، واقترح للنحو مقدمة على شاكلة إيساغوجى في المنطق ، سماها مقدمة في النحو . ومن نخبة إيران في القرن الخامس عبد القاهر الجرجاني وسنفضل الحديث فيه بين البلاغيين ، غير أننا نشير إلى أن له كتاباً في النحو سماه العوامل المائة ، عُني به الشراح طويلاً .

ويأتى بعده الزمخشري ، وله كتب نحوية مختلفة ، أشهرها المفصل ، وقد جعله في أربعة أقسام : قسم للأسماء تحدث فيه عن المرفوعات والمنصوبات والمجرورات والنسب والتصغير والمشتقات ، وقسم للأفعال وأنواعها المختلفة وقسم للحروف وأصنافها الكثيرة ، وقسم للمشارك أراد به الإمالة والزيادة والوقف والإبدال والإعلال والإدغام ، وقد شُرح هذا الكتاب مراراً ، وأهم شروحه شرح ابن يعيش في عشر مجلدات . وهو في الكتاب

(١) انظر في ترجمة أبي علي الفهرست ص ١٠١ وإنباه الرواة ٢٧٣/١ وطبقات القراء لابن الجزرى ٢٠٦/١ وتاريخ بغداد ٢٧٥/٧ ومعجم الأدباء ٢٣٢/٧ ولسان الميزان ١٩٥/٢ وشذرات الذهب ٨٨/٣ وابن خلكان (٢) راجع في ذلك كتابنا المدارس النحوية (طبع دار المعارف) ص ٢٤٥ وما بعدها .

بغدادى ينتصر تارة للبصريين وتارة للكوفيين وتارة لمن تلاهم من البغداديين وينفذ إلى بعض الآراء الجديدة ، فهو ينتخب آراءه من المدارس السابقة عليه ، وينفرد بآراء جديدة^(١) . وتلك هى أصول المذهب البغدادى فى النحو الذى استحدثه ابن كيسان والزجاجي وثبته بعدهما أبو على الفارسي وتلميذه ابن جنى . ويؤلف المطرزي كتابا فى النحو يسميه المصباح ويشرحه كثيرون . وإمام النحاة بعد ذلك فى إيران الرضى^(٢) الإستراباذي نجم الدين محمد بن الحسن المتوفى حوالى سنة ٦٨٦ ومولده ومرباه فى إستراباذ من أعمال طبرستان ، وقد عُنى بعملين لابن الحاجب المصرى ، هما الكافية فى النحو والشافية فى الصرف ، فشرحها شرحاً واسعاً ساق فيه آراء النحاة منذ سيبويه حتى عصره ، وفى ذلك ما يدل من بعض الوجوه على عمق الثقافة النحوية فى إيران حتى أواخر القرن السابع الهجرى وهو فى شرحه للكتابين ببغدادى المذهب ، فهو ينتخب من المدارس النحوية السابقة آراءه مفصلاً القول فى اختلاف النحاة ، ومن حين إلى آخر ينفرد بآراء مبتكرة .

وازدهرت مباحث البلاغة بجانب مباحث النحو واللغة ، بل لعل هذه المباحث لم تنشط فيها بيئة كما نشطت إيران ، وأول من نقف عنده فيها أبو أحمد العسكري الذى عرضنا له آنفاً ، فقد ألف فيها كتابا فى صناعة الشعر وهو يعرض فيه لصور البديع بالمعنى العام بحيث يشمل فتنه وفنون البيان ، والرسالة مفقودة غير أن ابن أخته أبا هلال العسكري احتفظ منها بكثير من بحوثها فى كتابه الصناعتين ، وبالمثل نقل عنها كثيراً الباقلافي فى كتابه إعجاز^(٣) القرآن . وكتاب الصناعتين لأبى هلال مطبوع مرارا ، وهو يريد بالصناعتين صناعتى الكتابة والشعر ، وقد جعل الكتاب فى عشرة^(٤) أبواب : باب لموضوع البلاغة وحدودها ، وباب ثان لتمييز جيد الكلام من رديئه ، وباب ثالث لمعرفة صنعة الكلام ، وباب رابع لحسن النظم ، وباب خامس لشرح الإيجاز والإطناب ، وباب سادس للسرقات الشعرية ، وباب سابع للتشبيه ، وباب ثامن للسجع والازدواج ، وباب تاسع لفنون البديع وهو أطول الأبواب ، وباب عاشر لحسن المبادئ والمقاطع وجودة القوافى ودقة الخروج من النسيب إلى المديح .

وخلف أبا هلال القاضي عبد الجبار^(٥) قاضى قضاة البويهيين بإيران المتوفى سنة ٤١٥

-
- (١) انظر فى ذلك كتابنا المدارس النحوية ص ٢٨٣ . (٤) راجع فى تحليل هذا الكتاب : البلاغة تطور وتاريخ ص ١٤٠ وما بعدها .
 (٢) راجع فى الرضا كتابنا المذكور ص ٢٨١ .
 (٣) انظر كتابنا البلاغة : تطور وتاريخ (طبع دار الميزان ٣/ ٣٨٦ والشذرات ٣/ ٢٠٢ ومرتآة الجنان ٣/ ٢٩ = المعارف) ص ١١١ وما بعدها وص ٤١٣ وما بعدها .
 (٥) انظر فى عبد الجبار تاريخ بغداد ١١٣/ ١١ ولسان

وقد عرض في موسوعته الكلامية « المعنى في أبواب التوحيد والعدل » لإعجاز القرآن في الجزء السادس عشر منها . وأدّاه الحديث في الإعجاز إلى عرض كلام أبي هاشم الجبائي في أن المدار في الإعجاز ليس على نظم القرآن وإنما على فصاحته . ويأخذ عبد الجبار في توضيح معنى الفصاحة ، فيقول - كما قال عبد القاهر الجرجاني من بعده - إن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام ، فالكلمة في نفسها لا تُعدّ فصيحة ، بل لابد من ملاحظة أبدائها ونظائرها وحركاتها في الإعراب ومواقعها في التقديم والتأخير . وبذلك يقترب بوضوح من عبد القاهر في تفسيره للنظم في كتابه دلائل الإعجاز ، إذ يشير في صراحة إلى الخصائص النحوية وما ترسم من فروق في الكلام ، أوبعبارة أدق يريد - كما أراد عبد القاهر - النظام النحوي للكلام . ويمنع عبد الجبار - كما منع عبد القاهر فيما بعد - أن يكون للفظلة صفة أدبية في الكلام من حيث هي لفظة مفردة ، فالمدار على موقع الكلمة وكيفية إيرادها وطريقة أدائها . ويقول عبد الجبار إن حسن النغم وجمال اللفظ لا وزن له في الفصاحة ، مع أنها يضيفان إلى الكلام رونقاً وبهاء .

وهذه النظرية ^(١) الجديدة للفصاحة تناولها عبد القاهر الجرجاني ^(٢) المتوفى سنة ٤٧١ كما قدمنا ، فبسطها أعظم بسط وفسرها أروع تفسير بحيث أصبحت منسوبة إليه عند القدماء والمحدثين إذ وضع على أساسها علم المعاني المعروف بين علوم البلاغة العربية ، فالأصل من لدن عبد الجبار والعلم بشعبه وتفاريعه التي يصورها كتاب دلائل ^(٣) الإعجاز من لدن عبد القاهر . وكما وضع علم المعاني وضع علم البيان وضعاً نهائياً في كتابه ^(٤) أسرار البلاغة ، وضعه بتشبيهاته وتفريعاتها الكثيرة وباستعاراته التصريحية والمكنية والتمثيلية وبمجازاته اللغوية والعقلية ، مع روعة العرض وطرافته ، ومع الاهتمام الطريف بالجوانب النفسية . ويخلفه الزمخشري فيطبق في تفسيره الكشف مباحثه في علمي المعاني والبيان تطبيقاً حياً خصباً مضيفاً إليها من حين إلى حين إضافات ^(٥) بارعة ، سواء في

- = وطبقات المفسرين ١٦ والمعتزلة لابن المرتضى
٦٦ وميزان الاعتدال ٥٣٣/٢ والسبكي ٩٧/٥ وكتابتنا
البلاغة : تطور وتاريخ ص ١١٤ .
(١) راجع في تحليل هذه النظرية عند عبد الجبار كتابنا
البلاغة تطور وتاريخ ص ١١٥ وما بعدها .
(٢) انظر في عبد القاهر إنباء الرواة ١٨٨/٢ ودمية
القطر ١٧/٢ والسبكي ١٤٩/٥ وروضات الجنات ١٤٣
وشذرات الذهب ٣/٣٤٠ ومرآة الجنان ٣/١٠١ وفوات
- الوفيات ١/٦١٢ .
(٣) انظر في عرض مواد هذا الكتاب كتابنا البلاغة
تطور وتاريخ ص ١٦٠ - ١٨٩ .
(٤) انظر في تحليل هذا الكتاب كتابنا البلاغة تطور
وتاريخ ص ١٩٠ - ٢١٨ .
(٥) راجع في هذه الإضافات الكتاب السالف ص
٢١٩ - ٢٧٠ .

المعاني الإضافية التي يصورها علم المعاني عند عبد القاهر أو في فنون البيان التي يصورها أيضاً عبد القاهر. وعُني ببعض ألوان البديع مثل الطباق والمشاكلة واللف والنشر والالتفات وتأكيد المدح بما يشبه الذم ومراعاة النظر والتقسيم والاستطراد والتجريد.

وتحول البلاغة بعد الزمخشري وعبد القاهر إلى قواعد جامدة جافة، وأهم من دفعها نحو هذا الاتجاه عاجلا الفخر^(١) الرازي المتوفى سنة ٦٠٦ وقد أوغل في دراسة الفلسفة والعلوم الدينية، وطاف بكثير من البلدان الإيرانية واستقر بمدينة هراة حتى وافاه أجله وهو يمتاز في تأليفه الكثيرة بالقدرة على تشعب الأفكار وتقسيمها وتفريعها، يمد في ذلك عقل متفلسف، إذ كان قد درس الفلسفة دراسة عميقة، وله كتب مختلفة في التفسير والفقه والطب والكيمياء وعلم الكلام. ويهمن كتابه في البلاغة الذي سماه: «كتاب نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز» وهو يعلن في مقدمته^(٢) أنه سينظم ما كتبه عبد القاهر في مصنفه: دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، وينوه بصنيعه قائلاً: «ولما وفقني الله لمطالعة هذين الكتابين التقطت منهما معاهد فوائدهما ومقاصد فرائدهما وراعتي الترتيب مع التهذيب، والتحرير في التقرير، وضبطت أوابد الإجماليات في كل باب بالتقسيمات اليقينية، وجمعت متفرقات الكلم في الضوابط العقلية، مع الاجتناب من الإطناب الممل والاحتراز عن الاختصار المخل». وكأنه يعرفنا بلسانه ما صارت إليه المباحث البلاغية الرائعة عند عبد القاهر من تقسيمات وتفريعات وضوابط وقواعد أحالتها هيكلًا لا حياة فيه فقد ألفت فيها السوم الفلسفية المنطقية ما أحالها شاحبة باهتة. ولم تنفعه إضافات الزمخشري فقد بث فيها نفس السوم. وبالمثل ما نقله عن مواطنه رشيد الدين الوطواط المتوفى سنة ٥٧٣ إذ نقل عن كتابه الذي وضعه بالفارسية وسماه «حداائق السحر في دقائق الشعر». ما ذكره فيه من ألوان البديع، وأسعفه في هذا النقل أن الوطواط ساق أمثلة النثر والشعر في كتابه من الأدبين الفارسي والعربي. ولم تسلم هذه الألوان بدورها عند الرازي من الجفاف الشديد.

ويخلفه السكاكي^(٣) سراج الدين يوسف بن محمد بن علي المولود في خوارزم سنة

(١) انظر في الفخر الرازي ابن خلكان ٢٤٨/٤ تطور وتاريخ ص ٢٧٥.
 وطبقات السبكي (طبعة عيسى الحلبي) ٨١/٨ وطبقات
 المفسرين ٣٩ والوفاي للصفدي ٢٤٨/٤ وتاريخ الحكماء
 للقفطي (طبعة ليزج) ص ٢١٩ وابن أبي أصيبعة
 ص ٤٦٢ وشذرات الذهب ٢١/٥.
 (٢) انظر في السكاكي معجم الأدباء ٥٩/٢٠ والجواهر
 المضية ٢٢٥/٢ والفوائد البهية في تراجم الحفظة للكنوز
 ص ٣٠١ وتاج التراجم لابن قطوبا ص ٨١ وشذرات
 الذهب ١٢٢/٥.

(٢) راجع في تحليل الكتاب ومواده كتابنا البلاغة:

٥٥٥ وقد مضى يعبُّ في موطنه من جداول الفلسفة والمنطق ، وأكْبَّ على العلوم الإسلامية وعلوم العربية ينهل منها ، وذاعت شهرته ، فقصده الطلاب ، وظلَّ يعلم ويلقِّ محاضراته إلى أن توفي سنة ٦٢٧ . ويشتهر السكاكي بتأليفه في البلاغة كتابه « المفتاح » وقد جعله في ثلاثة أقسام ^(١) : قسم لعلم الصرف ، وقسم ثانٍ لعلم النحو ، أما القسم الثالث فقصره على علمي المعاني والبيان ، وألحق بهما ذيلًا تناول فيه مبحثًا عن الفصاحة والبلاغة ومبحثًا ثانيًا لألوان البديع اللفظية والمعنوية . وقَدَّم لعلوم البلاغة بمبحث واسع في علم المنطق ، وتلاه بمبحث في علمي العروض والقوافي ، وبذلك تضمنَ المفتاح علوم الصرف والنحو والمنطق والمعاني والبيان والبديع والعروض والقوافي . وشهرة الكتاب إنما ترجع إلى ما كُتِبَ فيه عن علوم البلاغة ملخصًا ، إذ الكتاب أشبه بمنٍّ في كل ما خاض فيه من مباحث ، وهو ممن استضاء فيه بالفخر الرازي قبله ، مع تفوقه عليه في الدقة وضبط الأقسام ، غير أنه يخلو خلوًا تامًّا من تحليلات عبد القاهر والزمخشري ، ويصبح الكتاب متنا لعلوم البلاغة يُحصي قوانينها وقواعدها ، مع خلوه من كل ما يؤنس النفس ، إذ وضعت تلك القواعد والقوانين في قوالب منطقية شديدة الجفاف ، وهي قوالب يداخلها غير قليل من الالتواء بسبب كثرة التقسيمات ، مما جعل الكتاب أو قل المتن في حاجة إلى الشرح والتوضيح ، وتوالت الشروح ، فشرحه قطب الدين محمود بن مسعود الشيرازي وقد تقدَّم ذكره بين علماء الرياضيات والنجوم ، وشرحه كثيرون من مواطنيه ، من أشهرهم سعد ^(٢) الدين مسعود بن عمر التفتازاني المولود في تفتازان شرق إيران سنة ٧٢٢ وأبعده تيمورلنك إلى سمرقند ، وبها توفي سنة ٧٩١ وله كتب كثيرة في المنطق والنحو . ومن شرح « المفتاح » السيد الشريف ^(٣) الجرجاني المتوفى سنة ٨١٦ صاحب كتاب التعريفات الذي مر بنا ذكره ، وله أيضًا تأليفات كثيرة في المنطق وقواعد البحث . وصنع الخطيب القزويني خطيب جامع دمشق في سنة ٧٣٩ تلخيصًا لهذا المتن موجزًا أشد الإيجاز . فتصدَّى له سعد الدين مسعود التفتازاني بالشرح ، وشرح شرحه تلميذه السيد الشريف الجرجاني بعمل حاشية عليه . ويتوقف عمل علماء البلاغة في إيران عند صنع الشروح والمتون الموجزة التي يعودون إليها بالشرح وشرح الشرح أو وضع الحواشي عليه .

(١) انظر في تحليل المفتاح كتاب البلاغة : تطور

وتاريخ ص ٢٨٧ .

(٢) راجع في ترجمة السعد التفتازاني روضات الجنات

ص ٣٠٩ والبدر الطالع للشوكاني ٣٠٣/٢ والفوائد

الوعاة ودائرة المعارف الإسلامية .

البيهة ص ١٢٨ وحبيب السير لخواندمير ٢٣/٣ - ٨٧ .

(٣) انظر في ترجمة السيد الشريف حبيب السير

لخواندمير ٣/٣ ، ٨٧ والبدر الطالع ٤٨٨/١ وبغية

وعلى نحو ما نشطت المباحث البلاغية في إيران نشطت المباحث النقدية في هذا العصر، وأول ما يلقانا منها رسالة صاحب بن عباد في الكشف عن مساوى المتنبي، وهو فيها ساخط عليه سخطا شديدا، وقد يُردّ سخطه إلى عامل شخصي هو أن المتنبي أبى أن يمدحه، وأهم مساوى المتنبي في رأيه الغموض في أشعاره على طريقة الصوفيين في عباراتهم الموهمة، وأنه استخدم الألفاظ الممعنة في الغرابة، ورداءة المطالع كما يقول، والمبالغة المسرفة والاستعارة الذميمة، والنظم على القوافي الصعبة. ويلقانا في خراسان لعصر نوح بن منصور الساماني (٣٦٦ - ٣٨٧ هـ). راوية للمتنبي يسمى المقيم^(١) وله فيه وفي شعره كتاب الانتصار المنبي عن فضل المتنبي وهو من الكتب المفقودة. وكان المتنبي قد شغل الناس في إيران وغير إيران وأكثروا من التخاصم والجدل في شعره، فألف على^(٢) بن عبد العزيز الجرجاني المتوفى سنة ٣٩٢ كتابه الوساطة بين المتنبي وخصومه، وكان من قضاة الدولة البويهية في إيران، فرأى أن يعرض شعر المتنبي على موازين القضاء العادل، وهذته هذه الموازين منذ الصفحات الأولى إلى أنه ينبغي أن لا يُحكّم على الشاعر بما أساء فيه، فلكل شاعر إساءاته وسقطاته، وإنما يحكم عليه بإحسانه وما جود فيه، ولذلك سارع إلى الحديث عن أغلاط الشعراء القدماء والحديث في معانيهم وألفاظهم، ليبين أن شاعرا ممتازا من السابقين لم يخلُ شعره من هذه الأغلاط، وعرض لبعض ألوان البديع وصوره، ويفيض في بيان الحسن والقيح عند الشعراء وخاصة عند أبي نواس وأبي تمام. ويلمّ بطائفة من أبيات المتنبي التي أخذت عليه لبعده في الاستعارة أو غرابة في اللفظ أو تعقيد في الكلام. ويوضح كيف أن ذلك عند المتنبي قليل. ويشيد بمطالعه الجيدة وحسن تلخيصه ومعانيه الدقيقة، ويتحدث عن سرقاته حديثا مستفيضا مبينا أن السرقات شركة بين الشعراء جميعا. ولعلّ بن عبد العزيز في ثنايا كتابه نظرات نقدية تحليلية رائعة، منها ما يتصل بالغلو والمبالغة في الشعر، ومنها ما يتصل بأثر البيئة في الشعر والشعراء، ومنها ما يتصل بدقائق التشبيهات والاستعارات^(٢). ويأتى بعده الثعالبي^(٣) المتوفى سنة ٤٢٩ ويعقد في كتابه اليتيمة فصلا طويلا عن المتنبي فيما له وما عليه، استغرق من الكتاب نحو مائة صفحة، وقد استلهه بقوله عنه: «نادرة الفلك، وواسطة عقد الدهر في صناعة

(١) انظر في التميمي اليتيمة ١٥٧/٤ ومعجم الأدباء (٣) راجع في الثعالبي دمية القصر وابن خلكان ١٧٨/٣ وعبر الذهبي ١٧٢/٣ وشذرات الذهب ٢٤٦/٣ ونزهة الألباء ص ٣٦٥ وروضات الجنات ٤٦٢ و امرأة الجنان ٢٦٦/٣. ومعاهد التنصيص ٢٦٦/٣.

(٢) انظر في تحليل الوساطة كتابنا البلاغة: تطور وتاريخ ص ١٣٢ وسنترجم للمؤلف بين الشعراء.

(٣) انظر في التميمي اليتيمة ١٥٧/٤ ومعجم الأدباء (٣) راجع في الثعالبي دمية القصر وابن خلكان ١٧٨/٣ وعبر الذهبي ١٧٢/٣ وشذرات الذهب ٢٤٦/٣ ونزهة الألباء ص ٣٦٥ وروضات الجنات ٤٦٢ و امرأة الجنان ٢٦٦/٣. ومعاهد التنصيص ٢٦٦/٣.

الشعر» ويبدأ بنبد عن ابتداء أمر المتنبي، ويورد بعض أخباره، ثم يعرض طائفة من معانيه إلى استظهرها عليه الكتاب في عصره برسائلهم من أمثال الصاحب بن عباد وأبي إسحق الصائبي وأبي العباس الضبّي والخوارزمي، كما يعرض طائفة من المعاني التي سرقها الشعراء منه من أمثال أبي الفرج البغّاء والمهلي الوزير والصاحب بن عباد والسري الرفاء ويقول عنه إنه كثير الأخذ من المتنبي، ويدكر معه أيضاً أبا بكر الخوارزمي وأبا الفتح البستي وأبا الحسن السلمي وأبا القاسم الزعفراني. ويعرض لبعض سرقات المتنبي من غيره وما تكرر من معانيه، ثم يسترسل في بيان مساوي شعره مستضيئاً في ذلك بما كتبه الصاحب بن عباد في رسالته آنفة الذكر، ثم يفيض في بيان محاسن شعره، مشيداً بنسبه بالأعرايات، ومخاطبة الممدوح بمثل مخاطبة محبوب والصدّيق، واستعمال ألفاظ الغزل والنسيب في أوصاف الحرب وما اشتهر به من الأمثال والحكم وطرائف المعاني. وكان يعاصر الثعالبي ناقد يسمى أبا القاسم^(١) عبد الله بن عبد الرحمن الأصفهاني عاش في النصف الأخير من القرن الرابع والربع الأول من القرن الخامس، وقد ألف كتاباً نُشر أخيراً في تونس سماه الواضح في مشكلات شعر المتنبي، ذكر في مقدمته نبذة عن المتنبي عرض فيها لنشأته في الكوفة ولبعض أخباره عن معاصريه من البغداديين والشاميين والشيرازيين، ورماه في هذه المقدمة بنجث الاعتقاد، وقال إنه وقع في صغره إلى شخص يسمى أبا الفضل من الكوفة كان من المتفلسفة فهوّسه وأضلّه. ثم مضى يستدل بأبيات من شعره على أخذه بمذهب السوفسطائية وعقيدة التناسخ ورأى الفضائية والإسماعيلية، وعرض لوصف شعره وأن نعت الخيل والحرب من خصائصه، وأن له النادر البدع، وفي بعض ألفاظه تعقيد وتعويض. ثم أخذ يناقش ابن جني في كثير من تفسير شعره مرتباً الأبيات التي ناقشها على الحروف الهجائية، وهو يدل في نقاشه على قدرة في فهم الشعر وتحليل معانيه. وقد بدأ تحليلاته بقول المتنبي:

أَحِبُّهُ وَأَحَبُّ فِيهِ مَلَامَةٌ إِنْ الْمَلَامَةُ فِيهِ مِنْ أَعْدَائِهِ

وذكر أن ابن جني زعم أنه ناقض بذلك أبا الشَّيْص في قوله:

أَجِدُ الْمَلَامَةَ فِي هَوَاكِ لَذِيذَةً حُبًّا لَذِكْرِكَ فَلَيْلُمْنِي اللَّوْمُ

ويعلق على ذلك بقوله: معنى المتنبي بخلاف قول أبي الشَّيْص، وإتماماً يريد المتنبي: إني أحب حبيبي واللَّوْمَ ينهون عنه فكيف نأتلف، وأبو الشَّيْص يريد يقوله: أحب اللوم لا نهى عن هواك بل لتكرر ذكرك في تضاعيف الكلام وأثناء الملام. ومضى الأصفهاني على هذا التحوير على ابن جني بعض تفسيراته لشعر المتنبي حتى نهاية الكتاب. وعنى بالرد

على تفسيرات ابن جني إيراني^١ ثان هو أبو علي بن فورجة^(١) البروجردى المتوفى سنة ٤٣٧ وقد كتب في ذلك كتابين : كتاب الفتح على فتح أبي الفتح لابن جني يقصد كتابه الفتح الوهبي على مشكلات المتنبي وقد نشره الدكتور محسن غياض ببغداد نشرة علمية محققة . ولابن فورجه كتاب ثان في الرد على ابن جني سماه كتاب التجني على ابن جني ، والأبيات في كتاب الفتح مرتبة على الحروف الهجائية ، وعماده الرد على ابن جني ، وفيه أيضاً ردود على القاضي على بن عبد العزيز الجرجاني في وساطته وأبي على الحاتمي في رسالته الحامية والصاحب بن عباد في كشفه عن مساوي المتنبي ، وهو يغفل - كما لاحظ الدكتور غياض - في ردوده على الصاحب إذ يراه متحاملاً عليه متجنباً ! وفيه يقول : « ما شهدت أحداً من الفضلاء وذوى العقول يذم المتنبي غير هذا الظالم » . ويبدو من ملاحظات ابن فورجة في الكتاب وسوقه لكلامه أنه من أنصار المتنبي وأنه درس شعره دراسة نقدية جيدة جعلته يطالع على كثير من خصائصه ، من ذلك ملاحظته على البيت :
وإني لمن قوم كائن نفوسنا بها أنف أن تسكن اللحم والعظم
فقد لاحظ أن المتنبي في فخره قال كأن نفوسنا ولم يقل كأن نفوسهم بإعادة ضمير الغيبة على القوم ، وهو ضرب من الالتفات ، إذ يلتفتون من ضمير الغيبة إلى ضمير المتكلم كما في البيت أو ضمير المخاطب . ثم قال إن ابن جني سأله عن ذلك فقال إنه إذا أعاد الذكر على لفظ الخطاب كان أبلغ وأمدح من أن يرده على لفظ الغيبة ، ويعقب على ذلك ابن فورجة بقوله : « وقد استقرت شعره كله فوجدته لا يتزل عن هذا المذهب في كل ما مدح به ، فإذا أورد ضميراً في ذم رده إلى الكلام الأول فتادياً أن يخاطب به مواجهاً أو يرده إلى نفسه مخبراً (أى أنه يرد الضمير إلى الغيبة) . ومع أنه يبدو دائماً مدافعاً عن المتنبي وخاصة أمام الصاحب كما قدمنا فإنه ينص على بعض سيئاته ، فيقول في قصيدته « ملئت القطر أعطشها ربوعاً » هذه القصيدة كلها من الشعر الرذل الذي لا يتنفع به ولا بتفسيره . وحرى بنا أن نذكر تمة لهذا النشاط النقدي الذى عقده النقاد الإيرانيون حول شعر المتنبي شرح على بن أحمد الواحدى الذى مر ذكره^(٢) لديوان المتنبي ، وقد ألّف شرح كثيرة للديوان ولكن نخص هذا الشرح بالذكر هنا ، لا لأنه أفاد من كل الشروح السابقة له ، بل لأنه رتب أشعار الديوان ترتيباً تاريخياً على حياة المتنبي وأيامه ، وهو ما لم يتح لديوان

(١) انظر في ابن فورجة تمة البتمة ١/ ١٢٣ ومعجم الأدياء ١٨ / ١٨٨ وفوات الوفيات ٢ / ٢٤٧ وإنباه ٢٥٧ / ٢ وإنباه السبكي ٥ / ٢٤٠ وشذرات الذهب ٣ / ٣٣٠ وابن خلكان ٣ / ٣٠٣

(٢) راجع في الواحدى دمية القصر ومعجم الأدياء ١٨ / ١٨٨ وفوات الوفيات ٢ / ٢٤٧ وإنباه ٢٥٧ / ٢ وإنباه السبكي ٥ / ٢٤٠ وشذرات الذهب ٣ / ٣٣٠ وابن خلكان ٣ / ٣٠٣ وما به من مراجع .

آخر من دواوين شعراء العرب قاطبة ، بحيث أصبح الديوان مُعدّاً لكي يستغله الباحثون في كتابة ترجمة حياة المتنبي على نحو ما صنع بلاشيو وطه حسين . وفي الشرح نظرات نقدية كثيرة ، وخاصة في الآيات الغامضة التي يختلف فيها الشراح ، فإن الواحدى يقارن بين أقوالهم وينفذ إلى الفكرة الصائبة دائماً ، مما يدل على قدرة نقدية حقيقية وذوق أدبي جيد .

٤

علوم التفسير والحديث والفقه والكلام

نشط العلماء لهذا العصر بإيران في تفسير القرآن الكريم ، واتضحت فيه اتجاهات ثلاثة : اتجاه التفسير بالرأى ، واتجاه شيعى ، واتجاه صوفى ، وأهم ما نصادفه من الاتجاه الأول تفسير الزمخشري ، وهو يذيع فيه أفكار مذهبه الاعتزالي فالآيات الكريمة توجه مع فكرة الحرية والاختيار في أفعال العباد ومع فكرة تنزيه الذات العلية عن كل تشبيه ومع إكبار العقل ورفض كل اعتقاد في السحر والكهانة^(١) . ويقف الفخر الرازي المار ذكره أنفاً بعده في الصف المقابل فيدفع في تفسيره العظيم للقرآن « مفاتيح الغيب » آراء المعتزلة بطريقة فلسفية ، إذ كان عقله متفلسفاً إلى أبعد حد ، وهي فلسفة تظهر في تفسيره بصورة كثيرة ، حين يخوض في المباحث العقلية ، وحين نرى المسألة عنده تتشعب شعباً كثيرة . وكان عقله من الخصب بحيث تغدو الفكرة كأنها شجرة كبيرة ، تتفرع منها فروع ، وتتفرع من الفروع غصون إلى غير نهاية . وكان أشعري العقيدة ، فأشاع مذهب الأشاعرة في تفسيره ، وتعقب المعتزلة كما قلنا مُعلّين عليهم وعلى أفكارهم مذهب الأشعري السني . ومن تفاسير هذا الاتجاه بعد الرازي تفسير البيضاوي^(٢) عبد الله بن عمر المتوفى بتبريز سنة ٦٩١ وقد سماه « أنوار التنزيل وأسرار التأويل » وهو يعتمد فيه على الزمخشري وتفسيره ، كما يعتمد على الرازي وغيره من المفسرين ، وهو لا يُنحى في تفسيره باللائمة - كما يصنع الزمخشري - على أهل السنة ، وجاء بعده في هذا الاتجاه أبو البركات النسي^(٣) المذكور بين فقهاء الأحناف في قسم العراق وقد سمي تفسيره « مدارك التنزيل وحقائق التأويل » .

(١) انظر في تأثر الزمخشري بالاعتزال في تفسيره كتاب

المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن لجولده تسيير ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار .

(٢) راجع في البيضاوي السبكي ١٥٧/٨ وبغية الوعاة

وروضات الجنات ٤٥٤ وشذرات الذهب ٣٩٢/٥ ومروءة

الجنان ٢٢٠/٤ .

(٣) انظر في النسي الدرر الكامنة ٣٥٢/٢ وتاج التراجم رقم ٨٦ والكنوز ١٠١ ودائرة المعارف

الإسلامية .

وهذا الاتجاه في التفسير كان يرافقه اتجاه شيعي في بيئات الشيعة المختلفة بإيران ، وكانوا ينسبون من قديم إلى أئمتهم من مثل جعفر الصادق والحسن بن علي العسكري المتوفى سنة ٢٦٠ تفاسير بأسمائهم ، ومن مفسريهم في أواخر القرن الثالث محمد بن مسعود السلمى رأس الإمامية بخراسان ، ومن أشهر تفاسيرهم في هذا العصر تفسير الطوسي أبي جعفر محمد بن الحسن المتوفى سنة ٤٦٠ وكان قد نشأ في طوس ، ثم رحل إلى العراق في الثالثة والعشرين من عمره ، وظل ببغداد إلى أن أصبح شيخ الطائفة ومرجع فتاها ومن أجل ذلك وضعناه في القسم الخاص بالعراق . وولتقى بتفسير الطبرسي^(١) أبي علي الفضل بن الحسن المتوفى بطوس سنة ٥٥٢ ولقبه الطبرسي نسبة إلى طبرستان ، وقد سمي تفسيره بمجمع البيان . وهو في ثلاثين مجلدا .

أما الاتجاه الصوفي فمن التفاسير فيه تفسير أبي عبد الرحمن السلمى المتوفى سنة ٤١٢ وسماه « حقائق التفسير » وأهم منه تفسير القشيري الذي مر ذكره في حديثنا عن التصوف ، وهو في تفسيره كعقيدته صوفي سني ، بعيد عن مناهات الاتحاد بالذات العلية ووحدة الوجود مما يلج فيه بعض متفلسفة الصوفية ، وتغلب عليه روح الوعظ ، ومثله في هذا الاتجاه الغزالي في بعض ما يعرض له من آي الذكر الحكيم ، ولأخيه أبي الفتح أحمد بن محمد الغزالي الواعظ المذكور بين المفسرين في العراق ، تفسير ينحو فيه نحو الوعظ والتصوف ، لا يزال مخطوطاً .

ومن التفاسير العامة تفسير أبي الليث نصر بن محمد السمرقندي المتوفى سنة ٣٧٣ وسماه « بحر العلوم » وتفسير الثعلبي^(٢) النيسابوري المتوفى سنة ٤٢٧ وتغلب عليه النزعة القصصية والنقل عن الإسرائيليات ولتلميذه الواحدى المذكور آنفاً شارح ديوان المتنبي ثلاثة تفاسير : البسيط والوسيط والوجيز وله كتاب « أسباب النزول » واختصر الفراء البغوي الحسين بن مسعود المتوفى سنة ٥١٠ تفسير الثعلبي وسمى مختصره « معالم التنزيل » . ولنظام^(٣) الدين بن الحسن النيسابوري المتوفى في أواسط القرن التاسع الهجري تفسير سماه « غرائب القرآن و رغائب الفرقان » ويعد مختصراً لتفسير الفخر الرازي ويهتم فيه بذكر القراءات .

وظل علم الحديث ناهضاً في إيران لهذا العصر ، ومرّبنا في كتاب العصر العباسي الثاني ما يصور مدى نهضته في هذا الإقليم ، فقد كان من إنتاجه صحيح البخاري وصحيح مسلم

(١) انظر في الطبرسي روضات الجنات ص ٥١٢ ومقدمة ٧٩/١ وإنباه الرواة ١/ ١١٩ وروضات الجنات ٦٨
تفسيره بقلم محسن الأمين وما بها من مراجع . والسبكي ٥٨/٤ والنجوم الزاهرة ٤/ ٢٨٣
(٢) راجع في الثعلبي معجم الأدباء ٣٦/٥ وطبقات (٣) انظره في روضات الجنات ص ٢٢٥ .
المفسرين ص ٥ وطبقات القراء ١٠٠/١ وابن خلكان

وسنن النسائي وابن ماجه القزويني وجامع الترمذي ، ويمكن أن نلحق بتلك الكتب سنن أبي داود السجستاني ، وبذلك تكون كتب الصحيح الستة من الحديث النبوي من صُنع إيرانيين . ومضى هذا النشاط يؤتي ثمارا جديدة في القرون التالية . وأول من تلقاه من كبار المحدثين في العصر محمد^(١) بن أحمد بن حبان البُستي السجستاني قاضي سمرقند ومحدثها المتوفى بها سنة ٣٥٤ ويشتهر بكتابه « الجرح والتعديل » في نقد حملة الحديث ورواته ، وكان يُملئ مصنفاته في الحديث وتُقرأ عليه أو تؤخذ عنه . وكان يعاصره ابن القطان^(٢) الجرجاني المتوفى سنة ٣٦٠ وله كتاب الكامل في الجرح والتعديل أو كتاب الكامل في معرفة ضعفاء المحدثين . وخلفها ابن منده^(٣) الأصبهاني محمد بن إسحق المتوفى سنة ٣٩٥ وقد رحل طويلا في طلب الحديث وله مسند أبي حنيفة وكتب في الحديث مختلفة . وكان يعاصره أبو سليمان حمد^(٤) بن محمد الخطّابي البُستي المتوفى سنة ٣٨٦ وألف في نقد الحديث كتباً منها إصلاح غلط المحدثين ، وله شرح على صحيح البخاري ، وهو أول من رتب أقسام الحديث الثلاثة الكبرى وهي : الصحيح والحسن والضعيف . وعاصره الحاكم النيسابوري^(٥) المعروف باسم ابن البيّغ المتوفى سنة ٤٠٤ وهو الذي جعل أصول الحديث النبوي علما مستقلا ، وكان بنو سامان أصحاب بخاري يوفدونه في سفاراتهم إلى بني بويه ، وله كتاب المستدرك على الصحيحين : صحيح البخاري وصحيح مسلم ، جمع فيه كثيرا من الأحاديث التي لم يُدخلها في صحيحيهما مستدلا ببراهين قوية على أنها مستكملة لشروطها ، والكتاب مطبوع في حيدرآباد ، مع تعليقات في الرد على مؤلفه للذهبي . وكان يعاصره ابن فورك^(٦) محمد بن الحسن الأصبهاني محدث نيسابور ونزيل غزّنه المتوفى بها

-
- (١) انظر في ابن حبان الأنساب ٨١ والوافي بالوفيات ٣١٧/٢ وتذكرة الحفاظ ١٢٥/٣ والسبكي ١٣١/٣
 وميزان الاعتدال ٥٠٧/٣ وشذرات الذهب ١٦/٣
 ولسان الميزان ١١٢/٥
- (٢) راجع في ابن القطان تذكرة الحفاظ ١٤٣/٣
 وميزان الاعتدال ٢/١ ولسان الميزان لابن حجر ٦/١
 وشذرات الذهب ٥١/٣
- (٣) راجع في ابن منده أخبار أصفهان لأبي نعم ٣٠٦/٢
 وتذكرة الحفاظ ٣٣٨/٣ ولسان الميزان ٧٠/٥
- (٤) انظر في الخطّابي السبكي ٢٨٢/٣ وإنباه الرواة ١٢٥/١ والأنساب ٨٠ ب ٢٠٢ ب ومعجم الأدباء
- (٥) راجع في الحاكم النيسابوري الأنساب ٩٩ ب
 والسبكي ١٥٥/٤ وتذكرة الحفاظ ٢٢٧/٣ وطبقات
 القراء ١٨٤/٢ ولسان الميزان ٢٣٢/٥ والمتنظم ٢٧٤/٧
 وتاريخ بغداد ٤٧٣/٥ واللباب ٩٥/٢ وابن خلكان ٢٨٠/٤
- (٦) انظر في ابن فورك السبكي ١٢٧/٤ والوافي ٣٤٤/٢
 وابن خلكان ٢٧٢/٤ والشذرات ١٨١/٣
 والنجوم الزاهرة ٢٤٠/٤

سنة ٤٠٦ وكان شديد الرد على الكرامية وله كتب كثيرة في الحديث والفقه الحنفي ، منها بيان مشكل الحديث ، ورد على الملحدة والمعتلة والمبتدعة من الجهمية والمعتزلة ، وكتب مصنفات أخرى في نفس الموضوع ردا على المشبهة والمجسمة . ومن كبار المحدثين التاليين أبو إسحق الإسفراييني المتوفى سنة ٤١٨ وأبو نعيم الأصفهاني المتوفى سنة ٤٣٠ ويشتهر بكتابه « حلية الأولياء » والبيهقي ^(١) أبو بكر أحمد بن الحسين المتوفى سنة ٤٥٨ بنيسابور ، وبها كان يعلل كتبه وتصانيفه ومن أهمها كتاب السنن الكبير ، وكتاب معرفة الآثار . وازدهرت دراسات الحديث في عصر السلاجقة ازدهارا عظيما ، كان من ثمارها ظهور الفراء البغوي ^(٢) المار ذكره بين المفسرين وله مصنفات كثيرة في الحديث والفقه الشافعي وتفسير القرآن الكريم ، وأهمها كتابه المصابيح جمعه من كتب الصحاح الستة وبوبه وقسم الأحاديث في كل باب إلى صحيحة وتشمل كل ما أخذه من صحيح البخاري ومسلم وإلى حسنة ، وما رأى فيها من ضعف أشار إليه . وجاء بعده في القرن الثامن الهجري محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي فرتبه ترتيبا جديدا وأتمه سنة ٧٣٧ وسماه مشكاة المصابيح ، وألف بجانب المشكاة كتابا في رجالها سماه أسماء المشكاة ، وهو تراجم للرواة المذكورين في المشكاة أتمه سنة ٧٤٠ . وظلت دراسات الحديث وروايته ناشطة بإيران في القرون التالية .

ولم يكن النشاط في علم الفقه أقل منه في علم الحديث ، بل ربما كان أوسع وأعظم ، وقد استقرت منذ أوائل العصر المذاهب الفقهية الكبرى : مذهب أبي حنيفة ومذهب مالك ومذهب الشافعي ومذهب ابن حنبل ، ولم يكن المذهب الحنبلي شائعا في إيران ولا في أى إقليم من أقاليمها ، ومع ذلك لا نعدم أن نجد فيها بعض الحنابلة في هراة وهمذان ^(٣) من مثل أبى إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصارى صاحب كتاب ذم (علم) الكلام ، وكان محدثا يتظاهر بالتجسيم والتشبيه ، وينال من الأشاعرة ^(٤) وربما كان المذهب المالكي أقل أتباعا حتى ليروى أن أحمد بن فارس اللغوي الذى ذكرناه في غير هذا الموضع وكان شافعيّا كان ينزل الرّى ، فصار مالكيّا ، كما يقول ياقوت في ترجمته بمعجم الأدباء ، فسئل في

(١) راجع في البيهقي تذكرة الحفاظ ٣/ ٣٠٩ واللباب ١٢٥٧/٤ وشذرات الذهب ٤/ ٤٨ والنجوم الزاهرة

١٦٥/١ والأنساب ١٠١ وابن خلكان ١/ ٧٥ والسبكي ٢٢٣/٥

(٢) أحسن التقاسيم للمقدسى ١٧٩ ، ٣٩٥ ، ٤٣٩ ، ٨ / ٤

(٣) انظر في البغوى السبكي ٧ / ٧٥ وابن خلكان ٤٨١

(٤) السبكي ٤ / ٢٧٢ ١٣٦/٢ وتهذيب ابن عساكر ٤ / ٣٤٥ وتذكرة الحفاظ

ذلك ، فقال : دخلتني الحمية لهذه البلدة ، يقصد مدينة الري ، كيف لا يكون فيها رجل على مذهب مالك الرجل المقبول القول على جميع الألسنة . وكان مذهب داود الظاهري أكثر اتباعا في إيران أثناء القرن الرابع ، ولكن لم يلبث أن تراجع وخفت صوته أمام المذهبين الكبيرين . مذهب الشافعي ومذهب أبي حنيفة .

وكان للمذهب الشافعي الغلبة وخاصة في شرق إيران وما وراء النهر ، ويقال إن الفقيه أبا بكر^(١) القفال المعروف بالشاشي والمتوفى سنة ٣٦٥ هو الذي نشر مذهب الشافعي في تلك الأصقاع ، ويذكر المقدسي أنه كان غالبا أيضا في كرمان^(٢) ، وعملت مؤثرات سياسية في نشره بل في ازدهاره لعهد السلاجقة ، فإن وزيرهم المشهور نظام الملك كان شافعيًا أشعريًا عدوًا للحشاشين الإسماعيلية ، فأسس ، كما مر بنا ، مدارس في جميع المدن الإيرانية الكبيرة سنة ٤٥٧ ، ورصد لها مبالغ طائلة ، لإلحاق مكاتب بها ولما سكن الأساتذة ورواتهم ، واختار لكل مدرسة صفوة من أئمة الشافعية والأشاعرة في عصره ، وظل ذلك من بعده . فكان طبعيا أن يزدهر المذهب الشافعي في إيران ازدهارا عظيما وأن يتألق في دراساته الفقهية فقهاء كثيرون ، يُعدون في الذروة من الإمامة والقدرة على الفُتيا ، ولولا أن الاجتهاد بالمعنى الواسع كان قد أغلقت أبوابه ، ولم يبق لهم إلا الاجتهاد في الفروع ، لتطوروا بالفقه الشافعي تطورا عظيما . ومن أهم من تلقاه منهم لعصر السلاجقة أبو إسحق الشيرازي المتوفى سنة ٤٧٦ وقد عينه نظام الملك لتدريس فقه الشافعي بنظامية بغداد كما مر في قسم العراق ، وكان يقابله في نظامية نيسابور إمام الحرمين الجويني^(٣) عبد الملك أبو المعالي إمام الأئمة لعصره على الإطلاق المتوفى سنة ٤٧٨ . وقلنا في غير هذا الموضع إنه كان يحضر دروسه أربعائة تلميذ ، ورُزق من التوسع في العبارة وعلوها ما لم يُعهد من غيره ، وله بُنيت المدرسة النظامية بنيسابور ، وظل فيها ثلاثين سنة يلقي محاضراته ، وسُلم له المحراب والمنبر والخطابة ومجلس الوعظ يوم الجمعة وله تصانيف كثيرة منها النهاية في الفقه الشافعي والشامل ؛ والبرهان في أصول الفقه . ومن تلاميذه الغزالي وأجل تلاميذه بعده إلكيا الهراسي^(٥)

(١) انظر في ترجمة القفال الأنساب ٤٦٠ وابن خلكان ٤٣٥ ب وشذرات الذهب ٣٤٩/٣ وابن خلكان

٤٦/٣ وغير الذهبي ٣٣٨/٢ والواق ١١٢/٤ وشذرات ٢٩/١

الذهب ٢٠٧/٣ والسبكي ٢٠٠/٣ (٤) راجع في الجويني الأنساب الورقة ١٤٤ والمتنظم

١٨/٩ وابن خلكان ١٦٧/٣ والسبكي ١٦٥/٥ والعقد (٢) المقدسي ص ٤٦٨

(٣) انظر في ترجمة أبي إسحق الشيرازي السبكي الثمين ٥٠٧/٥ وشذرات الذهب ٣٥٨/٣

(٥) مرّت مصادر ترجمته بين المفسرين في العراق . ٢١٥/٤ والمتنظم ٧/٩ واللباب ٢٣٢/٢ والأنساب

على بن محمد المتوفى سنة ٥٠٤ بدأ حياته العلمية معيداً لإمام الحرمين ، ثم خرج من نيسابور إلى بيهق ودرس بها مدة ، ثم تولى تدريس المدرسة النظامية ببغداد إلى وفاته . وكان يعاصره أبو المحاسن الرويانى ^(١) عبد الواحد بن إسماعيل المتوفى سنة ٥٠٢ بآمل شهيدا على أيدي الباطنية الملاحدة ، وكان مدرس نظامية طبرستان وكان الوزير نظام الملك كثير التعظيم له لكمال فضله وله كتاب البحر في الفقه وهو من أطول كتب الشافعيين وكتاب الكافي ، وصنف في الأصول والخلاف . ومن كبار فقهاء الشافعية في القرن السادس فخر الدين الرازى محمد بن عمر الطبرستانى الأصل الرازى المولد المتوفى سنة ٦٠٦ فريد عصره ، ومر بنا الحديث عن تفسيره وعن كتاب له في البلاغة ، وله كتب كثيرة في علم الكلام وفي الحكمة وفي الطب ، يقول ابن خلكان : « انتشرت تصانيفه في البلاد ورزق فيها سعادة عظيمة ، فإن الناس اشتغلوا بها ورفضوا كتب المتقدمين ، وله في الفقه وأصوله كتب مختلفة ، وكان يعظ مواطنيه باللسانين العربى والفارسى ، ونزل بأخرة من عمره في هراة . وبها توفي ، وله مواعظ طريفة . وكان قريبا من عصره الرافعى ^(٢) المتوفى سنة ٦٢٣ وكان إماماً كبيراً في التفسير والحديث والأصول ، أما الفقه فكان فيه - كما يقول السبكي - عمدة المحققين وأستاذ المصنفين ، وهو قزوينى ، وكان له مجلس للتفسير ولسماع الحديث والفقه ، وله الشرح الصغير والمحزر وشرح مسند الشافعى والشرح الكبير المسمى بالعزير في شرح كتاب الوجيز للغزالي ، واسمه يتردد في كتب الفقه الشافعى وحواشيه التى ألّف بعدها في مصر وغير مصر .

وكان مركز المذهب الحنفى مدينة بخارى لعهد السامانيين وبعدهم ، وكثيرون علماء هذا المذهب الذين ترجمت لهم كتب طبقات الحنفية مثل الفوائد البهية للكنوى والجواهر المضية لابن أبى الوفاء وتاج التراجم في طبقات الحنفية لابن قطلوبغا ، ومن مشاهيرهم في القرن الرابع أبو بكر أحمد بن على الجصاص الرازى الذى سبق ذكره في قسم العراق ومثله مر هناك أبو زيد الدبوسى البخارى المتوفى سنة ٤٣٠ وهو أول من أسس علم الخلاف بين المذاهب الفقهية ، وله تقويم الأدلة في أصول الفقه . ومنهم البرذوى ^(٣) على بن محمد بن عبد الكريم السمرقندى المتوفى سنة ٤٨٢ وله المبسوط في الفقه وكتب مختلفة في علم

(١) انظر في الرويانى كتاب الأنساب ٢٦٣ أ والمتنظم والسبكي ٢٨١ / ٨ ومراة الجنان ٥٦ / ٤ .

١٦٠ / ٩ وابن خلكان ١٩٨ / ٣ والسبكي ١٩٣ / ٧ (٣) انظر البرذوى في الفوائد البهية (طبعة القاهرة) ص

والنجوم الزاهرة ١٩٧ / ٥ ١٢٤ والجواهر المضية وابن قطلوبغا ص ٤١ والأنساب

(٢) انظر في الرافعى تهذيب الأسماء واللغات ٢ / ٢٦٤ ٧٨

وشذرات الذهب ١٠٨ / ٥ وفوات الوفيات ٧ / ٢

الأصول والتفسير. ومنهم السرخسي^(١) محمد بن أحمد المتوفى سنة ٤٩٠ وكان إماما علامة متكلمًا مناظرًا أصوليًا مجتهدًا وله كتاب المسوط في أحد عشر مجلداً ، وهو أشبه بدائرة معارف في الفقه الحنفي ، ومنهم برهان^(٢) الدين أبو الحسن الفرغاني المتوفى سنة ٥٩٣ وله كتاب الهداية شرح البداية في مجلدين وهو من أمهات كتب الفقه الحنفي ، وعليه حواش عدة . ومنهم العميدى^(٣) السمرقندى أبو حامد محمد المتوفى سنة ٦١٥ كان إماما في فن الخلاف ، ويقول ابن خلكان له فيه طريقة مشهورة بأيدي الفقهاء ، ومن مصنفاته الإرشاد ، واعتنى بشرحه كثير من أرباب هذا الشأن . ومنهم حافظ الدين النسفي المذكور بين المفسرين والذي مر ذكره بين فقهاء الأحناف في قسم العراق وقد ذكرنا هناك كتابه المشهور الذي يتداوله علماء المذهب الحنفي والذي سماه كثر الدقائق ، وله طبقات كثيرة في الهند ومصر ، وعنى به كثيرون فشرحوه ، ويكثر الشراح للكتب في القرون التالية . ولا بد أن نلاحظ أن كثيرين ممن مروا بنا في علوم الأوائل وعلوم النحو والتفسير والبلاغة كانوا أحنافا ولهم مشاركة في تأليف مصنفات الفقه الحنفي مثل الزنجشیری وناصر المطرزی ونصير الدين الطوسی .

وكان للشيعة بإيران فقهاؤهم ، ونذكر للزيدية منهم الإمام الماروني^(٤) أحمد بن الحسين البطحاني المتوفى سنة ٤١١ وكان إماما للزيدية بجيلان وبلاد الديلم . وقد أخذ المذهب الزيدي في التضاؤل أمام المذهب الإمامي الاثني عشرى حتى انحسر عن إيران ، وتبعه المذهب الإسماعيلي ، وخاصة بعد القضاء على فرقة الحشاشين الإسماعيلية في منتصف القرن السابع الهجري قضاء نهائيا ، على أننا نلاحظ أن فقهاء المذهب الإسماعيلي كانوا يتركون - في عهد الدولة الفاطمية - موطنهم في إيران وينزلون القاهرة وتذبح منها مؤلفاتهم فهم أولى بأن يُنسبوا إلى موطنهم الجديد ، على نحو ما صنع حميد الدين الكرمانی المتوفى سنة ٤٠٨ والمؤيد في الدين هبة الله الشيرازي المتوفى حوالي سنة ٤٧٠ . أما المذهب الإمامي فهو الذي كتب له أن يذيع وينتشر في إيران ، حتى إذا كانت الدولة الصفوية جعلته المذهب الرسمي للدولة ، ومن فقهاء المبكرين الذين عملوا على تأسيسه في إيران أبو جعفر القمي المتوفى سنة ٢٩٠ والكليني الرازي المتوفى سنة ٣٢٨ قبل هذا العصر بقليل ولكتاباه الكافي

(١) راجع في السرخسي الجواهر المضية والفوائد البية المضية ١٢٨/٢ وتاج التراجم ٥٨ وابن خلكان ٢٥٧/٤ ص ١٥٨ وابن قطلو بغا رقم ١٥٧

(٢) انظر في الفرغاني الفوائد البية ص ٤١ والجواهر

المضية ٣٨٣/١ وابن قطلو بغا ص ٤٢ وبروكلمان ٣٠٩/٦

(٣) راجع ترجمة العميدى في الفوائد البية والجواهر المضية ١٢٨/٢ وتاج التراجم ٥٨ وابن خلكان ٢٥٧/٤ ص ١٥٨ وابن قطلو بغا رقم ١٥٧

(٤) انظر في الفرغاني الفوائد البية ص ٤١ والجواهر المضية ٣٨٣/١ وابن قطلو بغا ص ٤٢ وبروكلمان ٣٠٩/٦

أهمية كبيرة ، ويعد - كما مرّ بنا في قسم العراق - رابع أربعة من الكتب الكبرى للإمامية ، وهو فيه يتناول العقيدة الإمامية بجميع فروعها ويشتمل على أكثر من ستة عشر ألف حديث ، وشرحه كثيرون من علماء إيران الإمامية بعده . وأشهر فقهاء الإمامية في أوائل هذا العصر : عصر الدول والإمارات ابن بابويه القمي نزيل بغداد المذكور في قسم العراق والمتوفى بالرى سنة ٣٨١ وكان أبوه كما مرّ بنا رئيس الشيعة في مدينة قم مركز المذهب الإمامي ، وبابن بابويه استعان ركن الدولة بن بويه في استخدام تعاليم الإمامية في تدبير سياسته ، وفي ذلك دليل يُضَمُّ إلى ما قدمناه من أدلة في غير هذا الموضوع على أن البويهيين كانوا إمامية . ومن أهم مصنفات ابن بابويه الأملّى واعتقادات الإمامية وكتاب من لا يحضره الفقيه ، وهو أحد الكتب الأساسية عند الشيعة ، وأكبر فقهاء الشيعة بعد ابن بابويه أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي وقد تحدثنا عنه في القسم الثاني الخاص بالعراق . ونشط علم الكلام بجانب العلوم الإسلامية السابقة ، وظل للمعتزلة طوال القرنين الرابع والخامس نشاطهم ، ومن أهم رجالهم القاضي عبد الجبار قاضي قضاة البويهيين في الرى المار ذكره في المباحث البلاغية ، وله كتاب المغنى في أبواب التوحيد والعدل ، وهو دائرة معارف واسعة في الاعتزال وأصوله ، وقد نشرت وزارة الثقافة بمصر أجزاء كثيرة منه . ومن أهم رجال الاعتزال بعده الزنجشري ومرّ بنا أنه أخذ نفسه في تفسيره بتوجيه آى الذكر الحكم توجيها اعتزاليا ، أساسه تأويل كل الآيات التى قد يفيد ظاهرها تشبيها ، وكذلك توجيه الأخرى التى قد تدل على فكرة القدر والجبر نحو فكرة الإرادة الحرة في أفعال العباد . وقد عُنى الشيعة دائما بالاعتزال وعدّوه مؤيدا لهم في دعواتهم الشيعية ، ولعل ذلك ماساعد على بقائه بعد القرن الخامس الهجرى ، ولكن على كل حال ضعف شأنه . ومنذ أحمد ابن حنبل وفتنة القول بخلق القرآن وأهل السنة الحنابلة يحملون على المعتزلة حملات شديدة ، حتى ليصمّونهم بالإلحاد أحيانا . ولانصل إلى أوائل القرن الرابع الهجرى حتى يفصل - كما مرّ بنا في العصر العباسى الثانى - أبو الحسن الأشعرى عن المعتزلة ، وكان قد تلمذ لهم ، ويكوّن لنفسه مذهبا جديدا يسمى المذهب الأشعرى ، وهو مذهب يقوم على التوسط بين آراء المعتزلة وآراء أهل السنة ، وكان المعتزلة يقدّمون العقل فيجعل معه بل قبله الكتاب والحديث النبوى . وبذلك أصبحت كل مسألة تُقرن فيها الأدلة العقلية بالأدلة السمعية من القرآن الكريم والسنة ، ونضرب لذلك مثلا تنزيه الله عن التشبيه الذى كان يقول به المعتزلة كما أسلفنا أخذ به ، كما أخذ يقول أهل السنة فى أن الله يرى بالأبصار يوم القيامة ، واستدل على ذلك بأدلة سمعية فى كتابه الإبانة وبأدلة عقلية فى كتابه اللمع . وكان

المعتزلة يحتكون دائماً في الإلهيات إلى العقل فاحتكم معه إلى الشرع والأدلة السمعية من القرآن والسنة . وتوسط بين المحدثين والمعتزلة في فكرة خلق الإنسان لأفعاله ، فقال إن هذه الأفعال لله صنعا وللإنسان كسباً وإرادة ، فالإنسان يريد ما والله يخلقها . وقال ، في مسألة خلق القرآن التي أحدثت فتنة بين المحدثين والمعتزلة في زمن المأمون والمعتصم والواثق ، إن الألفاظ المتزلة بالوحي دلالات على الكلام الأزلي والدلالة مخلوقة محدثة ، وقال إن صفات الله ليست هي عين الذات الإلهية كما قال المعتزلة ولا هي أحوال كما قال أبو هاشم الجبائي المعتزلي وإنما هي زائدة على الذات قائمة بها .

وإنما أطلنا في الحديث عن مذهب الأشعرى لأنه المذهب الذي ساد طوال هذا العصر في أغلب البيئات الإسلامية وخاصة بين الشافعية والمالكية ، وكان المذهب الشافعي - كما مر بنا - منتشراً في شرق إيران ، وكان أصحابه جميعاً أشاعرة ، ولم يلبث نظام الملك الوزير السلجوقي المشهور أن أسس لهذا المذهب الكلامي وبالمثل لقريته المذهب الشافعي كراسي في جميع المدارس التي أنشأها - كما مر بنا - في إيران والعراق ، فازدهر المذهب ازدهاراً عظيماً ، وانتصر فعلاً على المعتزلة والسلفيين من أهل السنة جميعاً ، إذ أصبح المذهب الرسمي آنذاك وكان من أهم رجاله إمام الحرمين الجويني الذي ذكرناه بين الفقهاء ، وكان أعلم أهل زمانه بعلمى الكلام والفقه الشافعي وبنيت له المدرسة النظامية بنيسابور كما أسلفنا ، ونرى الشهرستاني يشرح على لسانه رأيه المتوسط في أفعال العباد وأنها لله خلقاً وللناس كسباً يقول : إن نفي هذه القدرة والاستطاعة (عن الإنسان) مما يأباه العقل والحس ، وأيضاً إثبات قدرة لا أثر لها بوجه كنفى القدرة أصلاً . فلا بد إذن من نسبة فعل العبد إلى قدرته حقيقة لا على وجه الإحداث والخلق ، فإن الخلق يشعر باستقلال إيجاده من العدم ، والإنسان كما يحس من نفسه الاقتدار يحس من نفسه أيضاً عدم الاستقلال فالفعل يستند وجوده إلى القدرة ، والقدرة يستند وجودها إلى سبب آخر تكون نسبة القدرة إلى ذلك السبب كنسبة الفعل إلى القدرة ، وكذلك يستند سبب إلى سبب آخر حتى ينتهي إلى مسبب الأسباب ، فهو الخالق للأسباب ومسبباتها المستغنى على الإطلاق ، فإن كل سبب منها استغنى من وجه محتاج من وجه ، والبارئ تعالى هو الغنى المطلق الذي لا حاجة له ^(١) . وخلف الجويني تلميذه الغزالي ، فقاد هذا المذهب إلى النصر الحاسم ، وظل أعظم المذاهب الكلامية طوال العصر .

وكان يعتنقه الشافعية كما أسلفنا في إيران وغير إيران ، أما الحنفية فكانوا يؤثرون على

مذهب الأشعرى مذهباً متوسطاً مثل مذهب الأشاعرة لعلم من أعلامهم ، وهو مذهب الماتريدى^(١) محمد بن محمد بن محمود المتوفى بسمرقند سنة ٣٣٣ وكان التنافس شديداً بين الماتريدية والأشعرية ، وكانوا أقرب من الأشعرية إلى المعتزلة ، ويمكن معرفة موقفهم هم والأشاعرة والمعتزلة جميعاً من مسألة الإيمان بالله فالمعتزلة يقولون بأن الوسيلة إلى ذلك التى توجهه هى العقل ، ويقول الأشاعرة بل الوسيلة الموجبة هى الشرع الذى يحتم علينا الإيمان بالله ، ويتوسط الماتريدية بين الطرفين فيقولون إن أساس الإيمان بالله الشرع كما يقول الأشاعرة ، ولكن هذا الإيمان يدركه العقل فالعقل وسيلة فيه . ومثلاً في مسألة الصفات الإلهية كان المعتزلة يقولون بأنها عين الذات الإلهية ، وقال الأشعرى إنها زائدة على الذات قائمة بها ، وتوسط الماتريدية فقالوا إن الله عالم وله علم أزل . وبينما كان المذهب الأشعرى يسود في نيسابور كان المذهب الماتريدى يسود في بخارى وسمرقند وآسيا الوسطى حيث يسود المذهب الحنفى في الفقه . وكان الكرامية من الصوفية خاصة يحملون على المذهب الأشعرى ، ومعروف أنهم كانوا يغفلون في التشبيه . وعلى كل حال أخذت كفة المذهب الأشعرى تملو حتى في بيئات الماتريدية منذ اتخاذه عقيدة رسمية للسلاجقة في عهد وزيرهم نظام الملك . وظل المعتزلة ينازعونهم طوال هذا العصر ، حتى في نيسابور نفسها وحتى منذ عهد نظام الملك أو قل قبله بقليل فإن الوزير السابق له أبا نصر منصور بن محمد الكندرى حسن لسلطانه طغرل بك السلجوق أن يمنع الأشاعرة من الوعظ والتدريس وأن يعزله عن الخطابة ، ونشبت بذلك فتنة^(٢) في نيسابور بين الأشاعرة والمعتزلة ، ولم يلبث الوزير أن قُتل وخلفه نظام الملك فازدهر المذهب الأشعرى منذ هذا الحين كما ذكرنا .

وكان أهل السنة الحنابلة يخالفون الأشعرية في الأخذ بفكرة التأويل المجازى للآيات والأحاديث التى قد تدل على التشبيه والتجسيد للذات الإلهية ، دون إثباتها ، ومعروف أن الأشعرى كان يقول إزاء مثل هذه الآيات كما في قوله تعالى (بل يدها مبسوطتان) إن ذلك يُفهمُ ولكن بلا كيف ، حتى لا يأخذ بفكرة التشبيه ، وكان أهل السنة الحنابلة يأخذون مثله بظاهر الآيات مع الإيمان بتنزيه الله عن التشبيه والتمثيل وكانوا يرون أن كلام الله قديم وأن القرآن لذلك غير مخلوق ، بينما توسط الأشعرية ، وقالوا إن كلام الله قديم ولكن

(١) انظر في ترجمة الماتريدى الأنساب للسمعاني ٤٩٨

والفوائد البهية ص ٩٥ والجواهر المضية لابن أبى الوفا

١٣٠/٢ وابن قطلوبغا ص ٥٩ وشرح الإحياء للزبيدي

١٥/٢ ونشر له الدكتور فتح الله خليف كتاب التوحيد

الذى يصور مذهبه الكلامى ، وهو كتاب نفيس .

(٢) راجع في هذه الفتنة طبقات الشافعية للسبكي

٣٨٩/٣ وترجمات عبد الكريم القشيري والجويني وأبي

سهل بن الموفق .

ألفاظ القرآن الدالة عليه مخلوقة ، فهي ليست كلام الله ولكنها تبليغ له . وأيضا توسط الأشاعرة كما أسلفنا بين أهل السنة الحنابلة وإيمانهم بالقدر وبين المعتزلة وإيمانهم بحرية الإرادة للإنسان . وكان ذلك كله مثار جدل عنيف طوال هذا العصر بين أهل السنة الحنابلة والأشاعرة ، وبالمثل بين الأشاعرة والماتريدية ، وكاد يحنى في القرون المتأخرة أنصار الاعتزال ، وألقت في ذلك كله كتب كثيرة ، تنتصر تارة لهذا المذهب أو ذاك ، وتارة تحكى جميع المذاهب والآراء ولا نقصد كتاب الملل والنحل للشهرستاني المؤلف في القرن السادس فحسب بل نقصد أيضاً كتاب المواقف لعصّد الدين^(١) الإيجي المتوفى سنة ٧٥٦ وله شروح نفيسة للسعد التفتازاني والسيد الشريف الجرجاني وغيرهما ، وهو بشروحه موسوعة كبيرة لعلم الكلام ومذاهبه وأصحابه

٥

التاريخ

تنوعت الكتابة التاريخية في إيران كما تنوعت في كل بلد عربي ، فكان هناك المؤرخون العامون للأمم والدول ، وهناك المؤرخون للمدن ، وهناك أصحاب التراجم العامة والخاصة . ومرينا في كتاب العصر العباسي الثاني أن أكبر مؤرخي الأمم والدول في الإسلام كان مؤرخا إيرانيا هو الطبري المتوفى سنة ٣١٠ . وأول من يلقانا في هذا العصر من هؤلاء المؤرخين المطهر^(٢) ابن طاهر المقدسي المتوفى سنة ٣٥٥ وهو ليس إيرانيا كما يشهد اسمه ، ولكنه كتب كتابه بدء الخلق والتاريخ في مدينة بُست شرق إيران ، وأهداه لبعض الوزراء السامانيين ، وهو جمع لمعارف كثيرة عن الأديان . وبه كثير من الأخبار التاريخية . وكان يعاصره مؤرخ إيراني هو حمزة الأصفهاني المتوفى سنة ٣٦٠ ومرينا حديث عنه في عرضنا لكتب الأمثال بين المصنفات اللغوية ، وله تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء ، وقد طُبعت منه ونُشرت بعض أقسام . وبلقانا بعده ابن مسكويه وكتابه « تجارب الأمم » وقد ترجمنا له في القسم الثاني الخاص بالعراق .

وكان في عصره المرعشي المتوفى سنة ٤٢٠ وقد صنف باسم السلطان محمود الغزنوي كتاب الغرر في سير الملوك وأخبارهم ، عُني فيه بسير ملوك الفرس ، ومضى فيه حتى عصره .

(١) انظر في عصّد الدين السبكي ٤٦/١٠ والدرر لابن

حجر ٤٢٩/٢ واليدر الطالع ٣٢٦/١ والشذرات

(٢) انظره في بروكلمان ٦٢/٣

والنجوم الزاهرة ٢٨٨/١٠ ودائرة المعارف

ومن هذه الكتب التاريخية العامة كتاب « الآثار الباقية من القرون الخالية » للبيروني كما مر بنا ويحمل تقاويم وجداول للشهور عند الأمم القديمة مع عرضه لأعيادها ولكثير من المشاكل الفلسفية والتزعات الدينية ، وكان حرَّ الفكر ومع أنه كانت فيه نزعة إلى الاعتداد بقوميته الفارسية فإنه لم يتحيّف العرب في أحكامه ، بل إنه نادى بأن العربية أكثر ملاءمة للغة العلم من الفارسية . وهو يدعو في هذا الكتاب إلى نقد الأخبار التاريخية المغرقة في القدم لما يشوبها من أساطير . ويفوق هذا الكتاب في التاريخ العام أهمية كتابه تحقيق ما للهند من مقولة الذي سبق أن تحدثنا عنه والذي يضم تاريخ هذه الأمة وجغرافية بلادها وما يتصل بذلك من دراسة لأديانها وكل ما يتصل بحياة شعبيها . وكان يعاصره العتبي ^(١) محمد بن عبد الجبار المتوفى سنة ٤٢٧ واشتهر بكتابه الذي ألفه في الدولة الغزنوية لعهد مؤسسها السلطان محمود الغزنوي وقد فصل القول فيه عن هذا السلطان وعن أبيه سُبُكْتِكِين وحروبيهما ، وخاصة حروب محمود في الهند ، وسماه اليقيني نسبة إلى لقبه : يمين الدولة الذي منحه له الخليفة تكريما ، وألفه في لغة مسجوعة منمقة ، حتى عدّه الفرس من روائع آثارهم الأدبية ، ولذلك اعتنى به وبشرحه كثيرون منهم ، ومن شروحه شرح مطبوع معه بمصر باسم « الفتح الوهبي على تاريخ أبي النصر العتبي » . وعنى محمد بن حسين البيهقي المتوفى سنة ٤٧٠ بكتابه تاريخ السلاطين الغزنويين ، غير أن الكتاب فُقد ولم يبق منه إلا جزء خاص بحوادث السلطان مسعود بن محمود الغزنوي ، ولهذا يطلق عليه اسم تاريخ مسعودي ، وهو باللغة الفارسية وترجم حديثا إلى العربية وطبع في مصر باسم تاريخ البيهقي . وألف بعد ذلك الوزير أنوشروان بن خالد المتوفى سنة ٥٣٢ كتابا في تاريخ الدولة السلجوقية ، وعليه اعتمد العماد ^(٢) الأصبهاني المتوفى سنة ٥٩٧ في كتابه عن السلاجقة الذي سماه « نُصْرَةُ الْفِطْرَةِ وَعَصْرَةُ الْقَطْرَةِ » . ويدخل في هذه الكتب التاريخية الخاصة بالدول والسلاطين كتاب ابن عَرَبْشَاه ^(٣) المتوفى سنة ٨٥٤ : « عجائب المقدور في نوابغ تيمور » وهو تاريخ مفصل لتيمور لنك طبع مرارا بمصر وفي أوروبا ، وحقا ابن عربشاه ولد في دمشق ، غير أنه رحل عنها إلى بلاد الروم ثم إلى سمرقند وبلاد المغول في التركستان ، وتلقى العلم على الشيوخ هناك ، فرباه بإيران ، وتولى ديوان الإنشاء هناك ، وكانت تصدر

(١) انظر مصادر ترجمة العتبي في الفصل الأخير من هذا

شامة ص ٢٧ والوافي ١٣٣/١ والسبكي ١٧٨/٦ .

القسم .

(٣) انظر في ابن عربشاه الضوء اللامع ١٢٦/٢

والشذرات ٢٨٠/٧ والبدر الطالع ١٠٩/١

(٢) راجع في العماد معجم الأدباء ١٨/١١ والشذرات

٣٣٢/٤ وابن خلكان ١٤٧/٥ وذيل الروضتين لأبي

عنه الرسائل بالعربية والفارسية والتركية .

وللمؤرخين في إيران كتب كثيرة خَصُّوا بها البلدان عارضين علماءها عرضاً واسعاً ،
فهي من جهة تاريخ علمي للبلدان إيران ومن جهة ثانية تاريخ علمي لعلمائها الناهيين ، ومن
السابقين إلى صنع ذلك في العصر العباسي الثاني ابن منده محمد^(١) بن يحيى المتوفى سنة ٣٠١ ،
فله تاريخ أصبهان ، ومن أوائل ما يلقانا في هذا الاتجاه لأوائل هذا العصر عصر الدول
والإمارات كتاب تاريخ بخارى حتى سنة ٣٣١ لأبي بكر محمد بن جعفر النرشخي المتوفى
سنة ٣٤٨ كتبه لنوح بن نصر الساماني ، واختصره بعده محمد بن زفر بن عمر سنة ٥٧٤
وأكمّله مؤلف مجهول إلى عهد المغول ، ونشره شيفر في باريس . وجاء بعد النرشخي
الحاكم النيسابوري الذي مر بنا ذكره بين المحدثين ، فألف كتابه تاريخ نيسابور أو تاريخ
علماء نيسابور ، ويقول السبكي في طبقاته إنه أكمل من تاريخ بغداد . ويؤلف
الحسن^(٢) بن محمد القمي المتوفى سنة ٤٠٦ تاريخ قم : مدينة الشيعة ، باسم
الصاحب بن عباد ، وهو مطبوع في طهران . ويؤلف أبو نعيم^(٣) المتوفى سنة ٤٣٠ تاريخ
أصبهان ويقول ابن خلكان في ترجمته إنه نقل عن هذا الكتاب اسم أبيه ونسبه . ومن كتب
القرن الخامس تاريخ الري لأبي سعد الآبي صاحب نثر الدرر الذي عرضنا له في غير هذا
الموضع . وولتقي في القرن السادس بتاريخ مرو للسمعاني^(٤) المتوفى سنة ٥٦٢ وتاريخ نسا
وأبيورد للأبيوردي الشاعر المتوفى سنة ٥٧٥ .

وعُتبت طائفة كبيرة من المؤرخين الإيرانيين بصنع كتب التراجم ، ومنها العامة ، ومنها
الخاصة بطائفة معينة كالصوفية والفلاسفة أو الأطباء والشعراء والمغنين ، ونذكر في مقدمة
تراجم الصوفية كتاب طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن^(٥) السلمى النيسابوري المذكور
بين المفسرين المتوفى سنة ٤١٢ للهجرة وعادة يقدم معلومات دقيقة في عبارات موجزة عن
الصوفي الذي يترجم له ويذكر بعض عباراته وبعض ما كان يردده من أشعار . وأوسع منه

- | | |
|---|--|
| (١) ابن خلكان ٢٨٩/٤ وتذكرة الحفاظ ١٠٣١ | ٢٠٩/٣ وشذرات الذهب ٢٠٥/٤ ومراة الجنان |
| والشذرات ٢٣٤/٢ | ٣٧١/٤ والسبكي ١٨٠/٧ وتذكرة الحفاظ للسدي |
| (٢) انظر في القمي بروكلمان (الترجمة العربية) ٢٩/٣ | ١٣١٦/٤ |
| (٣) انظر في أبي نعيم السبكي ١٨/٤ وتذكرة الحفاظ | (٥) انظر في السلمى السبكي ١٤٣/٤ وتاريخ بغداد |
| ٢٧٥/٣ وشذرات الذهب ٢٤٥/٣ والمتنظم ١٠٠/٨ | ٢٤٨/٢ واللباب ٥٥٤/١ والمتنظم ٦/٨ وتذكرة |
| وميزان الاعتدال ١١١/١ وطبقات القراء ٧١/١ وابن | الحفاظ وشذرات الذهب ١٩٦/٣ وميزان الاعتدال |
| خلكان ٩١/١ والعبر ١٧٠/٣ . | ٥٢٣/٣ |
| (٤) راجع في السمعاني المتنظم ٢٢٤/١٠ وابن خلكان | |

في طبقات الصوفية كتاب حلية الأولياء لأبي نُعَيْمٍ صاحب تاريخ أصبهان الذي ذكرناه آنفاً ، وترجماته أوسع وأخصب . ومن كتب تراجم الأطباء والفلاسفة كتاب تاريخ حكماء الإسلام لظهير الدين البيهقي^(١) المتوفى سنة ٥٦٥ وقد يسمّى تنمة صوان الحكمة ، ونشر في مصر بالاسم الأول وفي لاهور بالاسم الثاني .

واهم كتب التراجم التي عنيت بالشعراء كتاب الأغاني لأبي الفرج^(٢) الأصبهاني المتوفى سنة ٣٥٦ ويقع في نحو ٢٥ مجلداً ، ترجم فيه أبو الفرج للناهين من شعراء الجاهلية والقرون الثلاثة الأولى للإسلام ، ولم يترجم لأبيه الشعراء فحسب ، بل ترجم أيضاً لأبيه المغنين والمغنيات حتى نهاية القرن الثالث الهجري . وعادة يذكر صوتاً أو كما نقول الآن أغنية ، ولذلك سماه الأغاني ، ويتلو الأغنية دائماً برقيمه الموسيقى قائلاً مثلاً إنها من الثقليل الأول ونحو ذلك ، ويذكر اسم شاعرها ومن تغنى بها ، ويترجم إما للشاعر وإما للمغني أو المغنية ترجمة مفصلة ، قد تمتد أحياناً إلى مائة صفحة ، وقد تزيد كثيراً ، وبذلك يطلعون على كل ما يتصل بالشاعر من نشأة ومن علاقات اجتماعية ومن آراء لمعاصريه أو للنقاد فيه ، مورداً ذلك كله بأسلوب ناصع شفاف ، يعرف كيف يروى وكيف يقص وكيف يسوق الأخبار سوقاً مشوّقا ، وفي أثناء ذلك يعرض عليك صور الحياة العربية والحضارة العباسية كما يعرض بعض الخلفاء ، ويخيل إليك أحياناً أنك تراهم في قصورهم وفي مجالسهم ومع حواشيهم يلهون ويطربون ، رؤية مجسمة ، تجعل الماضي أمامك حاضراً بخدافيره .

ويُعنى الثعالبي بعده بعمل موسوعته الشعرية التي أشرنا إليها والتي سماها اليتيمة أو «يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر» وهي تراجم لجميع الأقاليم العربية ومن نبغ فيها من شعراء العروبة من الأندلس حتى أقصى الشرق من أقاليم إيران ولها النصيب الأوفر من الاهتمام فقد شغلت من الكتاب نحو نصفه ، وبدأ الحديث فيها بذكر ابن العميد وبعض الوزراء الكتاب الأفاضل ثم تحدث عن شعراء أصبهان فشعراء الجبل فشعراء فارس والأهواز فشعراء جرجان وطبرستان فشعراء خراسان وما وراء النهر ، فبعض الشعراء الناهين المقيمين ببخارى وبغيرها من مدن أقصى الشرق فشعراء نيسابور . وجميعهم من شعراء القرن الرابع وأوائل الخامس ، ويقول في مقدمته إنه أورد فيه لبّ اللب ، وحبّة القلب .

وغير الذهبي ٣٠٥/٢ وميزان الاعتدال ١٢٣/٣ ولسان الميزان ٢٢١/٤ ومراة الجنان ٣٥٩/٢ والشذرات ١٩/٣ والنجوم الزاهرة ١٥/٤ وروضات الجنات ٤٨٧ .

(١) راجع في البيهقي معجم الأدباء ٢١٩/١٣
(٢) انظر في أبي الفرج تاريخ بغداد ٣٩٨/١١ وتاريخ أصبهان لأبي نُعَيْمٍ ١١/٢ والمتنظم ٤٠/٧ ومعجم الأدباء ٩٤/١٣ وإنباه الرواة ٢٥١/٢ وابن خلكان ٣٠٧/٣

ونَظَر العَيْن ، وَنَكْتة الكلمة ، وَوَاسِطَة العَقْد ، وَنَقَش الفَصِّ ، مَعَ كَلَام فِي الإِشَارَة إِلَى النِّظَائِر والأَحَاسِن والسَّرَقَات ، غَيْر أَنَّهُ عُنِيَ بِأَشْعَار الشعراء ، والاختيار مِنْهَا ، وَلَمْ يُعْنِ ، مِثْل أَبِي الفَرَج فِي كِتَابِهِ الأَغَانِي ، عَنَاءَةً وَاسِعَةً بِأَخْبَار الشعراء إِلَّا قَلِيلاً جَدّاً لَا يَكَادِ يَشْنِي غُلَّةً . وَأَتَبَعَ الثَّعَالِي الْيَتِيمَةَ بِذِيلِهَا سَمَاءَ «تَمَّةِ الْيَتِيمَةِ» وَزَع فِيهِ الشعراء عَلَى نَفْسِ الأَقْسَامِ الَّتِي ذَكَرَهَا فِي الْيَتِيمَةِ ، وَبَيْنَمَا تَقَعُ الْيَتِيمَةُ فِي أَرْبَعِ مَجْلَدَاتٍ كَبَارٍ تَقَعُ التَّمَّةُ فِي جُزْءَيْنِ ، وَهِيَ مَطْبُوعَةٌ فِي طَهْرَانَ . وَالتَّمَّةُ وَالْيَتِيمَةُ تَوْرُخَانِ لَشُعْرَاءِ الدَّوْلَتَيْنِ الْبُوهِيَّةِ وَالسَّامَانِيَّةِ وَكَذَلِكَ لَشُعْرَاءِ الزِّيَارِيِّينَ فِي طَبْرِسْتَانَ وَالغَرْنَوِيِّينَ فِي غَزْنَةَ . وَيَلِيهِمَا كِتَابُ «دُمِّيَّةِ الْقَصْرِ وَغُصْرَةِ أَهْلِ الْعَصْرِ» لِلْبَاخْرَزِيِّ عَلِيِّ بْنِ الْحَسَنِ الْمُتَوَفَى سَنَةَ ٤٦٧ هـ وَهُوَ يَوْرُخُ لَشُعْرَاءِ زَمَنِهِ ، وَيَجْرِي عَلَى نَفْسِ نِظَامِ الْيَتِيمَةِ ، فَيَوْرُخُ لَشُعْرَاءِ الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ ، وَيُعْنِي خَاصَّةً بِشُعْرَاءِ إِيرَانَ وَأَقَالِيمِهَا كَمَا عُنِيَ الثَّعَالِي . وَقَدْ سَارَ عَلَى غِرَارِهِ فِي الْعَنَاءَةِ بِشُعْرِ الشعراءِ أَكْثَرُ مَنْ أَخْبَارَهُمْ ، وَكَأَنَّ الثَّعَالِيَّ هُوَ الْمُسْتَوَلُّ عَنْ هَذَا الْإِتِّجَاهِ فِي التَّرْجُمَةِ لِلشُّعْرَاءِ ، إِذْ عَمَّ وَشَاعَ لَا فِي إِيرَانَ وَحْدَهَا بَلْ فِي أَقْطَارِ الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ جَمِيعِهَا . وَيَأْتِي بَعْدَ الْبَاخْرَزِيِّ فِي الأَهْمِيَّةِ كِتَابُ خَرِيدَةِ الْقَصْرِ وَجَرِيدَةِ الْعَصْرِ لِلْعَمَادِ الْأَصْبَهَانِيِّ الَّذِي سَبَقَ أَنْ ذَكَرْنَاهُ بَيْنَ الْمُؤَرِّخِينَ وَهُوَ أَيْضاً يَتَرَجِّمُ لَشُعْرَاءِ الأَقْطَارِ الْعَرَبِيَّةِ لَعَصْرِهِ أَيْ فِي الْقَرْنِ السَّادِسِ الْمُهْجَرِيِّ حَتَّى نَحْوَ سَنَةِ ٥٧٠ هـ لِلْمُهْجَرَةِ ، وَتَرَاوَجَهُ أَوْسَعُ ، غَيْرَ أَنَّهُا تَصْطَلِغُ بِصَبْغَةِ الْيَتِيمَةِ ، وَخَصَّ إِيرَانَ بِقِسْمٍ كَبِيرٍ مِنْ كِتَابِهِ لَمْ يَنْشُرْ حَتَّى الْآنَ ، وَنَشَرَتْ مِنْهُ الأَجْزَاءُ الْخَاصَّةُ بِمِصْرَ وَالشَّامَ وَالْعِرَاقَ وَالْمَغْرِبَ وَالْأَنْدَلُسَ .

وَلَعَلَّ أَهْمَ كِتَابٍ فِي التَّرَاوِجِ الْعَامَةِ هُوَ كِتَابُ الْأَنْسَابِ لِلْسَّمْعَانِيِّ عَبْدِ الْكَرِيمِ بْنِ مُحَمَّدٍ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ بَيْنَ الْمُؤَرِّخِينَ لِلْمَدَنِ وَهُوَ مَطْبُوعٌ فِي مَجْلَدٍ ضَخْمٍ بِالزَّنْكَوْغَرَفِ ، وَهُوَ لَيْسَ فِي الْأَنْسَابِ بِمَعْنَى نَسَبِ الشَّخْصِ فِي آبَائِهِ ، بَلْ هُوَ أَعَمُّ مِنْ ذَلِكَ ، إِذْ يَعْنِي بِأَنْسَابِ الْعُلَمَاءِ وَالْأَدْبَاءِ إِلَى بُلْدَانِهِمْ أَوْ قِبَائِلِهِمْ أَوْ أَسْرِهِمْ أَوْ صَنَاعَاتِهِمْ أَوْ تِجَارَاتِهِمْ . وَيَعْرِفُ أَوَّلًا بِمَا يَنْسَبُ إِلَيْهِ الشَّخْصُ ، وَإِذَا كَانَ بِلَدَةٍ ذَكَرَ مَكَانَهَا ، وَكَذَلِكَ الْأَنْسَابُ الأُخْرَى ثُمَّ يَتَرَجِّمُ تَرْجُمَةً دَقِيقَةً لِصَاحِبِ النِّسْبَةِ ، وَقَدْ يَشْتَرِكُ فِي النِّسْبِ أَوَّلُ الْقَبْلِ الْوَاحِدُ عِدَّةُ أَشْخَاصٍ ، فَيَتَحَدَّثُ عَنْ كُلِّ مِنْهُمْ ، أَوْ قَلَّ يَتَرَجِّمُ لِكُلِّ مِنْهُمْ ذَاكِرًا مَوْلَدَهُ وَوَفَاتِهِ . وَاخْتَصَرَ الْكِتَابُ عِزَّ الدِّينِ ابْنَ الأَثِيرِ فِي مَصْنُفِهِ اللَّبَابِ فِي مَخْتَصَرِ الْأَنْسَابِ ، وَإِلَى الْكُتَّابِينَ نَرْجِعُ فِي كَثِيرٍ مِنَ التَّرَاوِجِ ، كَمَا هُوَ وَاضِحٌ فِي الْهَوَامِشِ .

الفصل الثالث

نشاط الشعر والشعراء

١

الشعر العربي على كل لسان

رأينا في حديثنا عن الحياة السياسية لإيران أنها أخذت تستشعر منذ القرن الثالث الهجري نزعة قومية قوية كان من آثارها في أوائل هذا العصر أن تقابلت دويلات وإمارات فارسية كثيرة على رقعة إيران الفسيحة ، فكان البويهيون في الوسط والجنوب ومدوا أجنحتهم حتى شملت بغداد والعراق . وكان الزياريون في الشمال بطبرستان وجرجان ، وكان السامانيون في خراسان ، وبذلك كانت إمارتهم أبعد الإمارات عن حاضرة اللغة العربية والخلافة الإسلامية : بغداد ، وتليها إمارة الزياريين في البعد . وهياً ذلك للإمارتين جميعاً أن تعملتا على إحياء اللغة الفارسية الأدبية . وكان السامانيون أسبق إلى ذلك ، لأن إمارتهم أسبق في التاريخ ، ولأنهم ورثوا إمارة الطاهريين التي سبقتهم منذ عصر المأمون ، إذ منح طاهر بن الحسين قائده المشهور خراسان طُعمه له ولبنيه ، فاستقلوا بها مبكرين ، وكانت أول الإمارات الفارسية في الظهور والنشأة ، فساعد ذلك أهلها على أن يكونوا السابقين في استشعار القومية الفارسية والعمل على استظهار شعر فارسي لهم ينافسون به الشعر العربي . وكذلك الشأن في إمارة الصفاريين التي عاصرتها ، ويذكر مؤرخو الشعر الإيراني عادة بعض أسماء الشعراء الذين عرفهم القرن الثالث الهجري ، واتخذوا الفارسية لساناً لهم ، يعبرون بها عن مشاعرهم ، وغير قليل منهم يلقه ضباب الأساطير ، وأول شاعر معروف حقاً هو الرودكي السمرقندي جعفر بن محمد المتوفى سنة ٣٢٩ للهجرة وكان يتغنى بمدح السامانيين ووزيرهم البلّعي مترجم تاريخ الطبري إلى الفارسية ، ويقال إن هذا الشاعر ترجم من العربية كليلة ودمنة شعراً فارسياً ، غير أن ترجمته سقطت من يد الزمن . وخلفه الدقيق الطوسي المتوفى سنة ٣٦٧ وهو بدوره من شعراء الدولة السامانية ، واشتهر بأنه اعترم نظم الشاهنامه في تاريخ ملوك الفرس وأبطالهم وأساطيرهم القديمة وأنه نظم منها

ألف بيت ، ثم حال الموت بينه وبين إكمالها ، فأكملها من بعده الفردوسى فى عهد محمود الغزنوى .

ولم يهتم البويهيون أى اهتمام بهذا الاتجاه القومى فى إحياء الآداب الفارسية ، فقد آثروا الانصواء تحت لواء الثقافة العربية الخالصة ، وكثير منهم أتقنوا العربية ، حتى اتخذوها لسانهم للتعبير عن عواطفهم وأهوائهم ، مما جعل الثعالى يترجم لطائفة كبيرة منهم بين شعراء العربية فى إيران . وكان وزراؤهم من كبار الأدباء وفى مقدمتهم ابن العميد والصاحب بن عباد المشهوران بأشعارهما وكتاباتها فى العربية . ومع أنه يقال إنه وفد على الصاحب شاعران قدما له مدائحها بالفارسية ، وهما منصور بن على الرازى الملقب بالمنطقى ومحمد بن على السرخسى الملقب بالكسروى ، غير أن ذلك يعدُّ شذوذاً فى بيئة البويهيين ، فقد كانت بيئة عربية خالصة ، وكان مثل هذين الشاعرين يُعدّان طارئين عليها . وبالعكس عُيّنت الدولة الغزنوية ، وخاصة فى عهد محمود الغزنوى (٣٨٨ - ٤٢١ هـ) بالعمل على إحياء الآداب الفارسية ، مع أن هذه الدولة ترجع إلى أصول تركية . وفى عهد محمود أنجز الفردوسى نظْم الشاهنامه فى نحو ستين ألف بيت من الشعر الفارسى^(١) ، وكان الفرخى والعنصرى والعسجدى ومنوچهرى يتبارون فى تمجيد فتوحه ومديح أبنائه . وخلقت كل هذه الإمارات السالفة فى إيران الدولة السلجوقية ، وفى عهدها أخذ الشعراء الإيرانيون من أمثال أبى سعيد بن أبى الخير وسنائى وفريد الدين العطار وعمر الخيام والأنورى يتجهون نحو التصوف . وتعم هذه الموجة شعراء إيران فى القرون التالية من أمثال الشيخ سعدى الشيرازى وجلال الدين الرومى وحافظ الشيرازى وعبد الرحمن الجامى .

وينبغى أن نعرف أن نشاط هذا الشعر الفارسى وأصحابه لم يكن يُقاس فى شىء إلى نشاط الشعر العربى فى إيران وأصحابه طوال القرون الهجرية : الرابع والخامس والسادس . وأكبر دليل على ذلك أنه بينما أُلِّفَت المجلدات الضخام عن الشعر العربى فى تلك القرون على نحو ما تُصوّر ذلك مجلدات اليتيمة ودُمِيّة القصر والخريدة لم يؤلف عن الشعر الفارسى كتاب يضم بين دِفَئيه شعراؤه ، وأول كتاب عُنى بهم هو كتاب لباب الألباب لعوفى المؤلف فى أوائل القرن السابع الهجرى . ومعنى ذلك أنهم كانوا حتى هذا التاريخ قلة قليلة بالقياس إلى شعراء العربية ، ولو أن الفتح المغولى لم يحدث فى هذا القرن لظل الشعر العربى هو المسيطر على روح الجماعة الإيرانية ، ومع ذلك فقد ظل أشواطاً من التاريخ والزمن ، على الرغم

(١) ترجمت الشاهنامه بمصر فى العصر الأيوبى ، ترجمها عبد الوهاب عزام .

أبو الفتح البندارى ، ونشر ترجمته فى القاهرة الدكتور

من الخراب الذى رافق المغول والذى عمَّ إيران ، فقد حرقوا ودمروا كل ما صادفهم من حضارة ، وكانت الحضارة العربية هى التى تسود فى كل تلك الديار ، وكان يسود معها الشعر والعلم العربيان ، فتراجعت تلك الحضارة أمام السيول المغولية وأمام ما أنزل بها جنكيزخان وهولاكو من تدمير ، حتى لقد كانا يحرقان المكتبات . أما المدن فقد أنزلا بها خرابا لا مثيل له فى التاريخ ،

وما أنزل هولاكو ببغداد من دمار معروف مشهور . وكان ذلك كله ضربة قاصمة للحضارة العربية فى إيران وبالتالى للشعر والعلم العربيين ، ومع ذلك فقد ظل العلم العربى حيا وبالتل الشعر ، وإن فقد كثيرا من نشاطها الهائل القديم . ولابد أن نعرف أن لغة العلم فى إيران ظلت حتى القرن العاشر الهجرى هى العربية ، فيها كان يكتب علماءهم وفلاسفتهم من أمثال ابن سينا والبيرونى فى القرن الخامس والزمخشري والفخر الرازى فى القرن السادس ونصير الدين الطوسي والكاتبى القزوينى المعروف بدبيران فى القرن السابع . وسعد الدين التفتازانى وعسد الدين الإيجى فى القرن الثامن والسيد الشريف الجرجانى فى القرن التاسع . وفى كل هذه القرون - وخاصة حتى القرن السابع - لم تستطع الفارسية أن تستولى تماماً على ألسنة العلماء الإيرانيين ، حقا قد يكتب العالم بها رسالة أو يترجم بها عملاً من أعماله ، كما حدث أحياناً عند ابن سينا والبيرونى ، ولكن تظل العربية لغته الأساسية التى يذيع بها كتبه ومعارفه ، ومرجع ذلك إلى أن العربية كانت تفوق الفارسية فى القدرة على التعبير العلمى بفضل ما تتسم به من مرونة فى الاشتقاقات ، وأيضاً لأنها كانت قد أصبحت فعلاً لغة علمية ، تزخر بمصطلحات العلم ، فكان من الصعب أن تحل الفارسية محلها ، ويصوّر ذلك البيرونى قائلاً : « إلى لسان العرب نُقلت العلوم فى أقطار العالم ، فازدانت وحلّت إلى الأئدة ، وسرّت محاسن اللغة منها فى الشرايين والأوردة . . . والهجو بالعربية أحب إلّى من المدح بالفارسية . ويعرف مصداق قولى من تأمل كتاب علم قد نُقل إلى الفارسية . [فسيرى أنه] قد ذهب رونقه ، وكسف باله ، واسودّ وجهه ، وزال الانتفاع به إذ لا تصلح هذه اللغة [الفارسية] إلا للأخبار الكسروية والأسحار الليلية ^(١) . »

وظل هذا الشعور ماثلاً فى نفوس كثيرين من العلماء الإيرانيين حتى القرن العاشر الهجرى ، فكانوا يشبّون فى مهاد العربية وينهلون من ينابيعها الأدبية ، بل إننا نجد ذلك نفسه عاما بين الشعراء الذين اتخذوا الفارسية لسانا لهم منذ الرودكى ، ولذلك مظهر عام

(١) انظر كتاب الأدب الفارسى فى العصر الغزنوى كتاب الصيدلة للبيرونى .

للدكتور على الشافى (طبع تونس) ص ٣٣٨ نقلاً عن

عنده وعند غيره ممن جاءوا بعده من شعراء الفارسية ، فإن الألفاظ العربية تكثر في أشعارهم ، بل لذلك مظهر أبعد عمقاً وغوراً ، فإن ضروب النظم التي صاغوا فيها أشعارهم ضروب عربية ، بل قل كل عروض الأشعار عندهم من نفس عروض الشعر العربي ومادة تفاعيله وأوزانه .

وقد اشتهرت عندهم طائفة من ضروب النظم العربي وأنماطه أولها المثنوي ، وهو نفس الضرب المعروف في العربية باسم المزدوج الذي أخذ يشيع - كما مر بنا في كتاب العصر العباسي الأول - منذ بشار ، وأشاعه بعده أبان بن عبد الحميد في ترجمة كليلية ودمنة وما نظم من الشعر التعليمي^(١) ، وفيه تختلف القافية من بيت إلى بيت في حين تتحد في الشطرين المتقابلين ، وقد اختاره الفردوسي لشاهنامته والتزم فيه وزن المتقارب .

والضرب الثاني القصيدة ، وموضوعها ونسقها لا يختلف في شيء عن موضوع القصيدة العربية ، فقد يكون مدحاً أو هجاء أو ديناً أو فلسفة .

والضرب الثالث الغزل ، وموضوعه غزلي أو صوفي وأبياته لا تزيد عن اثني عشر بيتاً إلا في النادر ، وهو بذلك المعروف في العربية باسم المقطعات الغزلية .

والضرب الرابع الرباعيات ، وهي تتألف من أربعة شطور ، يتفق أولها وثانيها ورابعها في قافية واحدة ، أما الشطر الثالث فقد يُختم بنفس القافية وقد لا يُختم وهو بدوره نمط عربي ظهر عند بشار وأبي نواس وأبي العتاهية^(٢) ، وكل ما للفرس أنهم مع الزمن التزموا فيه وزنين خاصين سبق أن تحدثنا عنها في قسم العراق .

والضرب الخامس المسمط ، وهو يتألف من أدوار وكل دور يتكوّن من أربعة شطور أو أكثر ، وتتفق شطور كل دور في قافية واحدة ، ما عدا الشطر الأخير فإنه يستقل بقافية يتحد فيها مع الشطور الأخيرة في الأدوار المختلفة ، وقد أخذ هذا الضرب يشيع في العربية منذ أبي نواس قبل نشأة الشعر الفارسي الحديث .

ومعنى ذلك أن الشعر الفارسي الذي أخذ ينظمه شعراء الفرس بإيران منذ القرن الثالث الهجري فصل عن الشعر العربي كما يفصل الرضيع عن أمه ، بل لقد ظل الشعر العربي يعذّبه طوال القرون التالية ، ولذلك مظاهر مختلفة فيه ، فإن موضوعاته من مديح وغير مديح هي نفس موضوعات الشعر العربي ، وإذا أخذنا موضوعاً مثل المديح وجدناه يُنظم بنفس الصورة العربية ، فلممدحة مقدمة من النسب ومن وصف الطبيعة ، وكأننا نقرأ مدحة

(١) العصر العباسي الأول (طبع دار المعارف) ص ١٩٦ (٢) العصر العباسي الأول ص ١٩٧ .

عربية مترجمة على نحو ما يتضح عند شعراء الدولة الغزنوية : منوچهرى والعسجدى والعنصرى والفرخى . ونما عندهم - على نحو ما هو معروف - شعر التصوف ، ولكنه يتغذى فى نشوئه ونموه جميعاً بشعر التصوف العربى عند الحلّاج وأضرابه من القدماء وعند ابن العربى وابن الفارض والسُّهروردیین . ولا يوجد شاعر صوفى من فريد الدين العطار إلى عبد الرحمن الجامى إلا وهو يحسن العربية ويترى ثقافياً فى مهاده ، ولذلك دائماً نجد لشعرائهم الصوفيين شعراً عربياً ، وهو يقل عند بعضهم حقاً ، ولكنه على كل حال يرمز فى قوة إلى هذا التواصل الوثيق ^(١) بين شعراء الفارسية وشعراء العربية . وشاعت بينهم طريقة هى أن يقتبسوا فى بعض منظوماتهم شطوراً أو أبياتاً عربية ، ويسمون ذلك الملمع ، فالشطر أوالبيت العربى يلمع فى المنظومة كما تلمع المنارة وتتألق . ويكثر عندهم وراء هذه الشطور والأبيات أن يضمنوا كثيراً من أبيات منظوماتهم معانى أبيات عربية ، فضلاً عما يضمنونها من الآيات القرآنية والأحداث النبوية . وللدكتور حسين محفوظ بحث طريف بعنوان « متنبى وسعدى » طبعه فى طهران ، وفيه يذكر آيات الذكر الحكيم فى شعر سعدى الشيرازى ، وتشغل من البحث نحو عشرين صحيفة ، ويتلوها ما استظهره سعدى من الأحاديث النبوية فى نحو ثلاثين صحيفة ، ويعرض تضمينه لمعانى أبيات الشعر العربى فى أشعاره فى نحو خمسين صحيفة ، وهى أبيات تمتد من العصر الجاهلى إلى العصر العباسى مصورة بقوة ثقافة سعدى الشيرازى بالشعر العربى على مر العصور ، وبلى ذلك تضمين سعدى أشعاره معانى أبيات المتنئى فى نحو خمسين صحيفة . ويجانب ذلك يذكر أشعار سعدى العربية الخالصة . وسعدى أو الشيخ سعدى هو أحد ثلاثة يُعدّون أبه شعراء الفرس فى تلك الحقبة ، والاثنان الآخران جلال الدين الرومى وحافظ الشيرازى ، بل ربما كان هو أكثر الثلاثة شعبية ومحبة بين أبناء قومه . فإذا قلنا إن الشعر الفارسى كان دائماً الاتجاه إلى الشعر العربى ، وكان هذا الشعر دائماً يقع منه موقع البوصلة أو موقع الإبرة المغناطيسية يجذبه إليه فى قوة لم تكن مغالين .

وليس هذا كل ما يلاحظ من ولاء الشعر الفارسى للشعر العربى فى تلك القرون ، فإننا نجد أصحابه يُعنون منذ نشأته بمصطلحات البديع التى أخذت تتزايد وتتراكم بين شعراء العربية فى إيران وغير إيران ، وأكبر مثل يوضح ذلك « كتاب حقائق السحر فى دقائق الشعر » لرشيد الدين الوطواط المتوفى سنة ٥٧٣ للهجرة ، وقد أورد فيه ستة وخمسين فناً

(١) من يرجع إلى كتابات الثعالبي والباخرزى يعرف أن هذا التواصل قديم فقد كان كثير من الشعراء يحسن اللسانين وينظم بها . انظر التيمية ٤ / ٨٨ ودمية القصر ٢ / ٢٦٠ ، ٢٨٠ ، ٣٤٤ ، ٣٦٢ .

من فنون البديع ، ونراه في كل فن يذكر أمثلة من الشعر العربي وأمثلة أخرى من الشعر الفارسي تحاكيها جرت على ألسنة الرودكي والعنصرى والفرخى والعسجدى ومنوجهرى والمنطقي وأضرابهم ، وكأن شعراء الفرس لم يتركوا لشعراء العربية فناً إلا حاكوه فيه ، مهما يكن معقداً أو شديد التكلف ، فمن ذلك تقليدهم « لزوم ما لا يلزم » في القافية بحيث يلتزم فيها الشاعر حرفاً قبل حرف الروى ، وتقليدهم الأبيات التي يمكن بحذف أجزاء أخيرة منها أن تقرأ على وزنين ، ومن ذلك المقطع وهو أن يورد الشاعر بيتاً لا تتصل حروف كلماته في الكتابة ، والموصل وهو أن يقول الشاعر بيتاً لا تقبل كلماته التقطيع في الكتابة ، والأرقط وهو البيت الذى يتوالى فيه حرف منقوط وحرف غير منقوط بالتعاقب ، والأخيف وهو الذى تتوالى الكلمات فيه كلمة منقوطة وكلمة غير منقوطة . وقد أنشدنا أمثلة من هذه الصور المتكلفة في قسم العراق ومن ذلك استخدامهم كثيراً للغز ، والتضمين ، والتقسم ، وحسن التعليل ، والمثل .

ولعل في هذا ما يوضح كيف أن الشعر الفارسي كان يتبع خطوات الشعر العربي الماضى والمعاصر له خطوة خطوة ، يتبعه في الصياغة والسمات ويحاكيه محاكاة دقيقة . وكان الشعر العربي هو الأكثر شيوعاً ، وهو الذى يدور على كل لسان ، أما في القرون الرابع والخامس والسادس فليس في ذلك شك ، حتى لرى كثيرين ممن كانوا ينظمون بالعربية والفارسية من الشعراء إنما يشتهرون بشعرهم العربي ، مثل بديع الزمان الهمداني إذ تُروى له بعض أبيات فارسية بينما له ديوان بالعربية ، وبالمثل أبو الفتح البستي ، إذ يقول الرواة إنه كان ينظم بالفارسية . ولكن هذا النظم ضاع ، وبقى له ديوانه العربي ، ومثلها الباخري ضاع شعره الفارسي إلا ما احتفظ به محمد عوف في كتابه اللباب ، وظل ديوانه العربي تتناقله الأجيال حيناً من الدهر . ومنذ حروب المغول وتخريبهم لإيران انعكست الحال ، فكثرت من ينظمون بالفارسية ، وأصبح المعول في شهرة الشاعر على ما ينظمه بتلك اللغة ، كما هو الشأن في سعدى الشيرازي الذى مرَّ بنا حديث عنه ، أما قبل ذلك فكان الشعر العربي هو الأكثر ذيوماً ، وكأنه العملة الشعبية المتداولة في بيئات المثقفين جميعاً ، فالفلاسفة والعلماء ينظمونه كما ينظمه الكتاب ، غير من كان ينظمه من الشعراء ، ويعُدُّون بالمئات .

كثرة الشعراء

راجت سوق الشعر العربي بإيران في القرن الرابع الهجري رواجاً عظيماً ، وكان من العوامل التي أدت إلى هذا الرواج اهتمام ملوك البويهيين ووزرائهم بالشعر وأصحابه ، وفي مقدمتهم عضد الدولة ، وكان ينظم شعراً حسناً ، كما كان يؤثر مجالسة الأدباء على منادمة الأمراء ، كما يقول صاحب اليتيمة ، وقد أنشد له أحياناً طريقة في الشراب والطرب من مثل قوله (١) :

ليس شُرْبُ الكأسِ إلا في المطرِ وغناء من جوارِ في السحرِ
وكان الشعراء يقدون عليه ويُجزّل لهم في صلاتهم ومكافآتهم ، غير من كان يفرض لهم الرواتب الحسنة . وقد استحال مجلس وزيره ابن العميد إلى ما يشبه ندوة أدبية كبيرة ، فكان الشعراء يروحون ويغدون على مجلسه ، وكثيراً ما كان يطلب إليهم أن يعارضوا بيتاً يلقيه ، أو يصفوا شيئاً عرض لهم ، ونضرب لذلك مثلاً : أن بعض الوافدين حيّاه بأترجة حسنة ، فطلب إلى من حضره من الشعراء أن يتجاذبوا وصفها (٢) ، وابتدأ بقوله : « وأترجة فيها طبائع أربع » فقال أبو محمد بن هندو : « وفيها فنون اللهو للشرب أجمع » فقال أبو القاسم : « يشبهها الرائي سبيكة عسجد » فقال أبو الحسين بن فارس : « على أنها من فارة المسك أضوع » فقال أبو عبد الله الطبري : « وما اصفر منها اللون للعشق والهوى » فقال أبو الحسن البديهي : « ولكن أراها للمحبين تجمع » . وبذلك تكونت ستة شطور أو بعبارة أدق ثلاثة أبيات على البديهة ارتجالاً . وكانت تكثر هذه المقارضات في مجالس الوزراء وغيرهم من المتأدبين ، ولعل مجلساً لم يبلغ منها ما بلغه مجلس الصاحب بن عباد إذ يقول الثعالبي في كتابه اليتيمة : « احتفّ به من نجوم الأرض وأفراد العصر ، وأبناء الفضل وفرسان الشعر ، من يُربى عددهم على شعراء الرشيد ولا يقصرون عنهم في الأخذ برقاب القوافي وملِك رِقّ المعاني ، فإنه لم يجتمع بباب أحد من الخلفاء والملوك مثل ما اجتمع بباب الرشيد من فحولة الشعراء المذكورين كأبي نواس وأبي العتاهية والعتابي والنمري ومسلم بن الوليد وأبي الشيص ومروان بن أبي حفصة ومحمد بن

(٢) اليتيمة ١٧٦/٣ وما بعدها .

(١) اليتيمة ٢/٢١٨ .

مناذر ، وجمعتُ حضرةَ الصاحب بأصبهان وبالريّ وجُرْجان مثل أبي الحسين السّلاميّ وأبي بكر الخوّارزَميّ وأبي طالب المأمونيّ وأبي الحسن البديهيّ وأبي سعيد الرّسّميّ وأبي القاسم الرّعفرانيّ وأبي العباس الضّبيّ وأبي الحسن بن عبد العزيز الجرجانيّ وأبي القاسم بن أبي العلاء وأبي محمد الخازن وأبي هاشم العلويّ وأبي الحسن الجوهريّ وبنو المنجم وابن بابك وابن القاشانيّ وأبي الفضل الهمدانيّ وإسماعيل الشاشيّ وأبي العلاء الأسديّ وأبي الحسن الغوّيّ وأبي دُلف الخرجيّ وأبي حفص الشّهروزيّ وأبي معمر الإسماعيليّ وأبي الفياض الطبريّ وغيرهم ممن لم يبلغني ذكرهم أو ذهب عني اسمه . ولذكر كل من هؤلاء مكان من هذا الكتاب إما متقدّم أو متأخّر . ولكل منهم ولكثيرين وراءهم فيه مدائح لا تكاد تُخصّص ، ومع كل مدحة كان يأمر بصلة . وكان يتبادل مع من يحضرون مجلسه مقارضات الشعر ومطارحاته وإجازاته ، وكثيراً ما كان يعرض موضوع ، فيتنافس فيه الشعراء ، وكل يحاول أن يظهر براعته وتفوقه ، من ذلك أنه بنى قصراً بأصبهان ، فتبارى نحو عشرين شاعراً في وصفه ^(١) ، منهم أبو سعيد الرّسّمي ، وفيه يقول ^(٢) :

وسامية الأعلام تلحظ دونها	سنا النجم في آفاقها مُتضائلا
نسخت بها إيوان كسرى بن هرْمُز	فأصبح في أرض المدائن عاطلا
متى ترها خلت السماء سُرّاداقاً	عليها وأعلام النجوم مواثلا
وما على الرّضراض يجري كأنه	صفائح تُبرّر قد سُبكن جداولاً ^(٣)

ولما حصل الصاحب ، وهو بجُرْجان ، على فيل ضخّم كان في عسكر السامانيين أمر من بحضرته من الشعراء أن يصفوه في تشبيب قصيدة على وزن قافية قول عمرو ابن معد يكرب الرّبيديّ :

أعددتُ للحدّثان سا بغةً وعداءً علنّدي ^(٤)

وأنشد أبو الحسن الجوهري في هذه المباراة قصيدة استهلّها بمديح الصاحب ، ثم أخذ في وصف الفيل وصفاً مَرِحاً بمثل قوله ^(٥) :

يُزْهَى بنحْطومٍ كمث	ل الصّولجان يردّ ردّاً
أو كمّ راقصة تشد	يرُّ به إلى التّدمان وجداً

(٤) البيّمة ٢٢٩/٣ والسابقة الدرّج . والعلندي :

الغليظ ، وأراد به الفرس .

(٥) البيّمة ٢٣١/٣ .

(١) البيّمة ٢٠٣/٣ .

(٢) البيّمة ٢٠٦/٣ .

(٣) الرضراض : الحصى الصفار في مجارى المياه .

وكانه بوقٌ تحَ رَّكه لتنفخ فيه جداً
أذناه مروحَتان أُسَ سندتا إلى الفُودين عَقداً

ونفق بِرْدُونُ (بَغْل) أبا عيسى بن المنجم ، بعد أن طالت صحبته له ، فأوعز
الصاحب إلى من حوله من الشعراء الندماء أن يُعزَّوا أبا عيسى فيه ويكوه له ،
ونظم منهم عشرة قصائد فكاهية سُمِّيت بِالْبَرْدُونِيَّات منها برذونية أبي القاسم
ابن أبي العلاء وفيها يقول ^(١) :

لقد أنصفته الخيلُ ما ذُقنْ بَعْدَهُ شَعيراً ولا تَبْنَأْ ومُتَنَ غَلِيلاً
وفي كلِّ إصْطَبَلٍ أنينٌ وزفرةٌ تردَّدُ فيه بُكْرَةٌ وأَصِيلاً
ولو وَفَّتِ الجُرْدُ الجِيَادَ حَقوقُهُ لما رَجَعْتُ حتَّى الماتِ صَهِيلاً

وفي هذا كله ما يصور من بعض الوجوه حياة الشعر العربي في أَصْهَان والرِّي
لعهد بني بويه ، وبالمثل كان الزَّيَّاريون وفي مقدمتهم قابوس بن وَشْمَكِير يشجعون
الشعراء ويجزلون لهم في العطاء ، ويذكر الباخرزي في دُمَيْتِه أبا بكر الخُسْروِي الذي
كان ينظم باللسانين العربي والفارسي ، ويقول : « كانت له وظائف كل سنة من
الأمير شمس المعالي قابوس بن وشمكير والصاحب أبي القاسم بن عباد تُدرَّر عليه ،
وتسابق إليه ^(٢) » . وكانت لكثيرين غيره هذه الوظائف أو الرواتب من الدولتين ،
وكذلك من الدولة السامانية ، وفي عاصمتها بخارى يقول الثعالبي : « كانت بخارى
في الدولة السامانية مثابة المجد وكعبة الملك ومجمع أفراد الزمان ومطلع نجوم أدياء
الأرض ومؤسم فضلاء الدهر ^(٣) » ويذكر مجلساً من مجالسها ضمَّ أبا الحسن اللِّحَّام
وأبا محمد بن مطران وأبا جعفر بن العباس بن الحسن وأبا محمد بن أبي الثياب وأبا
النصر الهَرَّثِي وأبا نصر الطرَبِي ورجاء بن الوليد الأصبهاني وعلي بن هرون الشيباني
وأبا إسحق الفارسي وأبا القاسم الدينوري وأبا علي الزَّوْزَنِي إلى غيرهم ممن ينتظم في
سلوكهم من الشعراء . وليست الحواضر وحدها هي التي اختصت بالنشاط الشعري ،
فكثير من المدن شاركها هذا النشاط مثل بلاد الجبل وجَرْجَان وطَبْرِسْتَان وخَوَارزم
وفارس والأهواز ونيسابور وهَرَاة . وقد بلغ عدد الشعراء الذين ترجم لهم الثعالبي في
يتمته من الإيرانيين خاصة أكثر من مائة وثمانين شاعراً ، وزادوا عن المائتين
في الدمية إلى من ترجم لهم العماد الأصفهاني في الخريدة وترجمات ضافية ،

(١) البتمة ٢١٨/٣ .

(٣) البتمة ١٠١/٤ .

(٢) دمية القصر (طبعة دار الفكر العربي) ٢٥٩/٢ .

وكان بجانب أمراء الدويلات الإيرانية كثير من حماة الأدب والشعر في كل بلدة كبيرة ، منهم آل ميكال في نيسابور ، وفيهم يقول الثعالبي : « القول في آل ميكال وقدم بيتهم وشرف أصلهم وتقدم أقرامهم (سادتهم) وكرم أسلافهم وأطرافهم وجمعهم بين أول المجد وآخره وقديم الفضل وحديثه وتليد الأدب وطريقه يستغرق الكتب ويملا الأدرج ويحرق الأقالام ، وما ظنك بقوم مدحهم البحري وخدمهم ابن دريد وألف لهم معجم الجمهرة وسير فيهم المقصورة التي لا يُبْلِها الجديدان ، وانخرط في سلوكهم أبو بكر الخوارزمي وغيره من أعيان الفضل وأفراد الدهر ^(١) » . ويدل أكبر الدلالة على ما كان ببلدان إيران من نشاط أدبي وشعري أن نجد هذه البلدان لا تكتظ بأدبائها وشعرائها وحدهم ، بل يفد عليها كثيرون غيرهم من بلاد قريبة وبعيدة في العراق وغير العراق ، على نحو ما يلقانا في نيسابور ، فقد ترجم الثعالبي لطائفة من الشعراء الطائرين عليها من بلدان شتى ، وبلغ عددهم ستة عشر شاعراً اختاروها مقاماً لهم .

ونيسابور من بلدان الدولة السامانية ، وهي صالحة لأن تكتب في شعرائها دراسة قيمة عن نشاط الشعر بها لا في عهد السامانيين وحدهم بل أيضاً في الحقب التالية ، وبالمثل بلدان إيران الكبيرة المختلفة مثل أصبهان والريّ والجرجانية عاصمة الزياريين وخوارزم وهراة عاصمة خلف بن أحمد ممدوح بديع الزمان الهمداني وغزنة عاصمة الغزنويين ، فكل هذه البلدان وما يماثلها ، وحتى بلاد الشاش فيما وراء النهر يمكن أن تفرد لها دراسة تضم شعراءها في اليتيمة والدمية وغيرهما من كتب التراجم مثل طبقات الشافعية للسبكي ومعجم الأدباء لياقوت ووفيات الأعيان لابن خلكان . ومن يرجع إلى هذه الكتب يتجلى إليه أن الشعر بإيران إلى ما وراء النهر كان على كل لسان ، وكان الأمراء ورُعاته في كل بلدة يقيمون له مواسم كالأعياد ، وكان الوزراء والأمراء لا يزالون يهبون الشعراء آلاف الدراهم والدنانير ، وكانوا يعيّنون لهم مرتبات ، كما مر بنا ويُعقدون عليهم إغداقاً كثيراً ، حتى ليقال إنه حصل للأبيوردي الشاعر السلجوقي من الملوك والأمراء ما لم يحصل للمتنبي في عصره ولا ابن هانئ في مصره . فلا عجب أن يتكاثر الشعراء ، فقد كان الشعر وسيلة حياة رَغدة ، ولذلك قلما ترى شاعراً من المئات التي ترجم لها الثعالبي في اليتيمة والباخرزي في الدُّمية والعماد الأصهباني في الخريدة إلا وهو يتكسب بأشعار لعلها تفتح له أبواب النعيم .

وليس هذا وحده كل مادعا الشعر إلى النشاط في إيران ، فقد كان يُعدّ جزءاً لا يتجزأ من الثقافة العربية التي كان الناس يعكفون عليها في شغف ، وهذا هو السر في أنك قلماً تجد فقيهاً أو فيلسوفاً في تلك البيئة إلا وهو ينظم الشعر ، ويتخذ أدواته في التعبير عن مشاعره ، تجد ذلك عند البيروني في ترجمته بمعجم الأدباء كما تجده عند ابن سينا ، ويتسع ذلك عند الفقهاء ، وكأنهم كانوا يَعُدُّون الشعر من آلات عملهم ، وارجع إلى السبكي في طبقاته فإنك تجد من وقت إلى آخر حين يترجم لفقيه يذكر له أشعاراً مختلفة في الغزل وغير الغزل ، من ذلك أن نراه يترجم لمحمد بن عبد العزيز النبيلي أحد أئمة خراسان المتوفى سنة ٤٣٦ هـ فيذكر له أشعاراً منها هذه الأبيات الغزلية البديعة (١) :

ما حالُ مَنْ أَسَرَ الهوى ألبابَهُ ما حالُ مَنْ كَسَرَ التصابيَ بابَهُ
نادى الهوى أسماعَهُ فأجابه حتى إذا ما جازَ أغلق بابَهُ
أهوى لتزريق الفؤاد فلم يجد في صدورِ قلباً فشقَّ ثيابَهُ

ومن كبار أئمة الشافعية في العصر القفال الشاشي ناشر مذهب الشافعي فيما وراء النهر ، وكان أكبر من صاح في قومه لغزو الروم عام ألف ، وذلك أن يُقفور إمبراطور الروم أرسل إلى الخليفة المطيع قصيدة يتوعده فيها ويتوعد المسلمين بمثل قوله (٢) :

ثغوركُم لم يبقَ فيها لوْهنكم وضعفكم إلا رُسومُ المعالم

ومضى يفاخر بانتصاراته وانتصارات أسلافه في كريت (إقريطش) وسروج وعلى أبواب سُمَيْساط والحدث ومرعش والمصيصة وطرسوس. وردَّ عليه فخره ونقّضه نقضاً الشيخ القفال بقصيدة طنانة يذكر له فيها انتصارات المسلمين عليهم قروناً متطاولة وما قتلوا من مئات الألوف من رجالهم وماسبوا من آلاف الجوارى الروميات ، بل ما قتلوا وسبوا من آلاف الآلاف على مر السنين ، وإن صواعق الموت لتوشك أن تنزل به وبجنوده ، ترسلها عليهم زخوف الخراسانيين جنود الملك الساماني منصور بن نوح (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) التي ترحف بقضها وقضيضها ورعوها وبروقها المميّة ، يقول :

أنتك خراسانُ تجرُ خيولها مُسومةٌ مثلَ الجرادِ السَّوامِ

كهولٌ وشبانٌ حاةٌ أحامسٌ ميامنٌ في الهيجاء غير مشائم^(١)
 ونرجو بفضل الله فتحاً معجلاً ننالُ بِقُسْطَظِينِ ذاتِ المحارمِ
 هناك نرى نِقْفورَ والله قادرٌ ينادى عليه قائماً في المقاسمِ
 ويجرى لنا في الروم طراً وأهلها وأموالها جمعاً سيهاً المغامرِ
 فيضحك منا سنٌ جذلان باسمٍ ويقرع منه سنٌ خزيان نادمِ
 ووراء القفال أئمة في الفقه الشافعي كثيرون أنشد لهم السبكي أشعاراً في
 الزهد، وسترجم منهم للقشيري بين شعراء الزهد والتصوف. وأنشد
 السبكي أيضاً أشعاراً لقاضيين هما علي بن عبد العزيز الجرجاني والأرجاني وسترجم
 لهما بين شعراء المديح، كما أنشد أشعاراً مختلفة للفقهاء الأبيوردي وسترجم له بين
 شعراء الفخر، وله ديوان كبير مثل الأرجاني، وكان لعل بن عبد العزيز ديوان سقط
 من يد الزمن. وعلى نحو ما كان الفقهاء ينظمون الشعر كان المحدثون ينظمونه أيضاً،
 مثل حمد بن محمد الخطاطي البُسْتِي الذي مرَّ حديثنا عنه بين المحدثين، وقد ترجم له
 صاحب اليتيمة في جزئها الرابع وأنشد له طائفة من شعره، وكان ينظمه أيضاً
 المفسرون للقرآن الكريم من مثل الزمخشري، وله ديوان شعر لما ينشر، وهو زاهر
 بالأدعية والابتهالات. وتروى كتب التراجم للفخر الرازي أشعاراً مختلفة، وكان
 كثيرون من اللغويين والنحويين ينظمون الشعر، منهم الجوهري إسماعيل بن حماد
 صاحب معجم الصحاح، وله ترجمة في الجزء الرابع من اليتيمة أنشد فيها الثعالبي
 طائفة من أشعاره، ومنهم أبو الحسين أحمد بن فارس صاحب معجمي الجمل
 ومقاييس اللغة، وقد ترجم له الثعالبي في الجزء الثالث من اليتيمة وأنشد طائفة من
 شعره من مثل قوله^(٢):

مَرَّتْ بِنَا هَيْفَاءَ مَقْدُودَةً تَرْكِيَّةً تُنَمَى لَتُرَكَّى
 تَرْنُو بِطَرْفِ فَاتِنٍ فَاتِرٍ أضعفَ من حُجَّةٍ نَحْوِيٍّ
 ومنهم ابن فورجة البروجردى، وله ترجمة في الجزء الأول من تتمة اليتيمة
 وكذلك في الجزء الأول من دمية القصر، وله أشعار بديعة من مثل قوله الذي أنشده
 الثعالبي^(٣)

ألم تطرب لهذا اليوم صاح إلى نغم وأوتارٍ فصاح

(٣) تتمة اليتيمة ١/ ٦٢٤.

(١) أحامس: أشداء

(٢) اليتيمة ٣/ ٤٠٢

كَأَنَّ الْأَيْلَكَ يوسعنا نِثَاراً من الورق المكسّر والصّحاح
 تَمِيدُ كأنها عَلَتْ بِراحٍ وما شربتْ سوى الماء القراح
 كَانَ غُصُونُهَا شَرَبٌ نَشَاوَى تصفّق كلّها زاحاً بِراح
 ومربّنا أنه كان ناقداً بصيراً ، كما كان شاعراً فذاً ، وذكر له الثعالبي معنى نقله عن شاعر
 فارسي معاصر له يسمّى المعروف على هذا النمط .

يظنون ما تَذَرِي جفوني أدْمُعاً بل الدم منها يستحيل فيقطر
 تُعيد بياضاً حمرة الدم لَوَعِي كما ابيضّ ماء الورد والورد أحمر
 ومن أصحاب المباحث البلاغية والنقدية الذين اشتهروا بنظم الشعر أبو هلال
 العسكري صاحب كتاب الصناعتين ، وقد ضمّنه كما ضمّن كتابه ديوان المعاني طائفة
 من أشعاره ، وأنشد من ترجموا له بعض أشعاره . ومثله الثعالبي صاحب اليتيمة
 ومربّنا حديث عن بعض نظرات نقدية له ، وله أشعار مختلفة أنشد أطرافاً منها في
 كتاب لطائف المعارف وفي كتبه الأخرى : ومثلها عبد القاهر الجرجاني صاحب
 دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة ، وفي ترجمته بدمية القصر طائفة من أشعاره . وهو
 باب يطول إذا أخذنا نحصى شعراء العلماء من كل صنف ، إنما هي أمثلة فحسب ،
 أردنا بها أن نُصوّر تفتح ينباع الشعر العربي على ألسنة المثقفين من كل لون . وكان
 من أقربهم إلى هذه ينباع كتاب الدواوين ، ولا تكاد تجد كاتباً كبيراً يترجم له
 الثعالبي في اليتيمة والباخرزي في الدمية والعماد في الخريدة إلا وشعره يكاد يغلب
 نثره . بل إن كثيرين منهم تقتصر ترجمتهم على ما لهم من أشعار ، حتى إنه يكاد
 يكون من العسير أن نتعقب دواوين الرسائل وكتّابها وآثارهم النثرية عند السامانيين
 والحوارزميين والغزنويين والسلاجقة إلا ما يأتي عفواً . وكثير من كتّاب هذه الدول
 والإمارات كانت لهم دواوين شعرية مثل أبي بكر الحواري الكاتب المشهور ومثل
 بديع الزمان وأبي الفتح البستي والباخرزي وقد أشرنا فيما أسلفنا إلى دواوينهم ،
 ومثلهم الصاحب بن عباد والعماد الأصبهاني ، وكأنهم وأضرابهم كانوا يرون أن
 الشعر هو العملة العربية المتداولة التي تحوز لصاحبها الشهرة الأدبية .

شعراء المديح

يكثر شعر المديح في هذا العصر كثرة مفرطة ، إذ كان يطلبه الملوك والأمراء والوزراء والولاة والقضاة . ومن يقرأ البيعة وتتمتها والدمية والخريدة يرى الشعراء جميعاً يمدحون معاصريهم ، وكأن عمل الشاعر الأساسي أن ينظم في المديح ، وهو شيء طبيعي إذ كان أداة للكسب ورفاهة العيش ، ومُرت بنا كثرة الأعطيات التي كان يأخذها الشعراء وأنهم كانوا - أو كان كثير منهم - يأخذ رواتب من الوزراء والحكام ، وكان لكل إمارة شعراؤها الذين يقدمون لأصحابها المدائح والتهاني في المناسبات والأعياد المختلفة الإسلامية وغير الإسلامية ، بل كان لكل أمير ولكل وزير شعراؤه الذين يروحون عليه ويغدون بالمدائح الرائعة ، ونقف قليلاً عند الدولة البويهية فإن ما نُظم في عضد الدولة يكاد يؤلف ديواناً مستقلاً ، إذ لم يكذبنيغ شاعر في إيران إلا قصده ، وقدم له مدائحه ، وقصده المتنبي بشيراز في سنة ٣٥٤ ومدحه بعدة قصائد بديعة ، كما قصده شعراء العراق وفي مقدمتهم السَّلامى الشاعر ، وفيه يقول مواطنه أبو بكر الخوارزمي ^(١) :

غريبٌ على الأيام وجدانٌ مثله وأغربُ منه بعد رؤيته الفقيرُ
عجبتُ له لم يلبس الكبير حُلَّةً وفينا لأنْ جُزنا على بابهِ كبيرُ

وكانوا كثيراً ما يشيرون إلى النوال في مدائحهم على نحو ما صنع الخوارزمي في البيت الأول ، ونُظمت في مؤيد الدولة وفخر الدولة مدائح كثيرة ، ولأبي سعيد الرُستمي مدائح بديعة في أولها من مثل قوله ^(٢) :

بقيتَ مدى الدنيا ومُلُكك راسخٌ وظلُّك ممدودٌ وبابُك عامرُ
يُرْدُ سَنَّاكَ البدرُ والبدرُ زاهرُ ويقفو نَدَاكَ البحرُ والبحرُ زاهرُ

وبالمثل كان وزراء بني بويه ممدحين ، وخاصة ابن العميد والصاحب بن عباد ، أما ابن العميد فلم يقصده فقط شعراء إيران ، بل قصده أيضاً جماعة من مشاهير الشعراء من البلاد البعيدة مثل المتنبي الذي وفد عليه بمدينة أَرَّجان ومدحه بقصائد

(٢) البيعة ٣٠٣/٣ .

(١) البيعة ٢٢٢/٤ .

رائعة ، ومثل ابن نباتة السعدي الشاعر العراقي ، وله فيه مدائح جيدة ، وكذلك للصاحب بن عباد من مثل قوله في قدومه إلى أصبهان ^(١) :

قَدِمَ الرَّئِيسُ مَقْدَمًا فِي سَبْقِهِ فَكَأَنَّمَا الدُّنْيَا جَرَّتْ فِي طُرْقِهِ
وَكأَنَّمَا الْأَفْلاكُ طَوَّعُ يَمِينِهِ كَالْعَبْدِ مُنْقَادًا لِمَالِكِ رَقِّهِ
قَدْ قَاسَمْتُهُ نَجْوَاهُ فَنَحْوُسُهَا لَعْدُوهُ وَسَعُوذُهَا فِي أَفْقِهِ

ولعل وزيراً بُوَيَّهياً لم ينل من المدائح ما ناله الصاحب بن عباد ، ومرت بنا أسماء طائفة من الشعراء الذين كانوا يلزمون بابه . وكان وراءهم كثيرون يفدون عليه من شتى البلدان الإيرانية والعراقية ، وعقد لهم الثعالبي في يتيمة الباب السادس من جزئها الثالث ، وذكر لكل منهم بعض مدائحه فيه ، وكان من مادحيه أبو سعيد الرستمي ، وله فيه مدائح كثيرة من مثل قوله ^(٢) :

وَرِثَ الْوِزَارَةَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ مُوصُولَةً الْإِسْنَادِ بِالْإِسْنَادِ
يَرْوِي عَنْ الْعَبَّاسِ عَبَّادٌ وَزَا رَتَهُ وَإِسْمَاعِيلٌ عَنْ عَبَّادٍ

وهو يمدحه بأنه نشأ من الوزارة في حجرها ودرج إلى الناس من وكَّرها إذ ورثها عن آبائه ، وكان أبو سعيد يببالغ بمبالغة مفرطة في مديحه أحياناً على عادة الشعراء في العصر ، من مثل قوله فيه ^(٣) :

لَوْ كَانَ غَيْرُ اللَّهِ يُعْبَدُ مَا انْتَشَتْ إِلَّا إِلَيْكَ أَعْنَةُ الْعِبَادِ
وَهِيَ مَبَالِغَةٌ تَمَجُّهَا الْأَذَانُ . وَنَرَاهُ فِي نَفْسِ الْقَصِيدَةِ يَذْكُرُ لِلصَّاحِبِ أَنَّهُ قَعَّ أَهْلَ الْجَبْرِ
وَمَنْ يَقُولُونَ بِأَنْ كُلَّ شَيْءٍ قَدْرٌ مُقَدَّرٌ مُلْغِينَ حُرِيَّةَ الْإِرَادَةِ فِي الْإِنْسَانِ ، يَقُولُ :

وَنَصَبْتُ لِلْإِسْلَامِ أَكْرَمَ رَايَةٍ وَقَصَصْتُ أَهْلَ الْجَبْرِ وَالْإِلْحَادِ

وكان الصاحب إمامياً معتزلياً ، والصلة بين مذهب الإمامية والمعتزلة بل بين المعتزلة والشيعة عامة معروفة من قديم ، وهو ما جعل الصاحب يتعقب أهل الجبر بالنكال إن صحَّ ما يقول أبو سعيد الرستمي ، ويقول له أبو بكر الخوارزمي من قصيدة فيه ^(٤) :

وَمَنْ نَصَرَ التَّوْحِيدَ وَالْعَدْلَ فَعَلُهُ وَأَيَقِظُ نَوَامَ الْمَعَالَى شِمَائِلُهُ

وإنما ذكرنا ذلك لندل على أن المدائح لم تكن ثناء فحسب ، بل كانت أيضاً تسجيلاً لأعمال الأمراء والوزراء ، وهي لذلك ذات قيمة تاريخية مهمة ، وهي قيمة

(١) يتيمة ١٥٨/٣ .

(٢) يتيمة ٣٠٧/٣ .

(٣) يتيمة ١٩٠/٣ ، ٣٠٧ .

(٤) يتيمة ٢١٤/٤ .

تغيب عن أذهان كثيرين فيظنون أن المديح كان في العصور السابقة ملقا ونفاقاً ، متناسين أنه كان أيضاً تسجيلاً لأعمال الدولة واتجاهاتها المذهبية وما خاضت من حروب وكسبت من انتصارات . وعلى نحو ما نجد في كتاب اليتيمة وتتمتها من مدائح بنى بويه ووزرائهم نجد أيضاً مدائح السامانيين ووزرائهم من مثل البلّعى مترجم تاريخ الطبرى إلى الفارسية كما أسلفنا ، وفيه يقول أبو محمد المطرانى الشاشى^(١) :

بلوناك حين يرجى الولد عُرُفاً وَيَحْشَى العدو النكيراً
فلم تك إلا اختياراً نفوعاً ولم تك إلا اضطراباً ضروراً
وكان أبو الحسن بن سيمجور قائد السامانيين ممدّحاً ، وللمأمونى الشاعر فيه مدائح مختلفة . وبنفس الصورة يلقانا أمراء الدولة الزيارية وفي مقدمتهم قابوس بن وشمكير الذى لقبه الخليفة بلقبه : شمس المعالى ، فقد مدحه كثير من الشعراء ، وكان غيثاً مدراراً ، فأكثروا من مديحه .

ولابد أن نشير إلى أن هذه المدائح التى عرضنا لها سريعاً عند الزياريين والسامانيين والبويهيين تضمنت وصف ما بنى القوم من قصور مشيدة ، وأشرنا فيما مضى إلى ما نظمته الشعراء فى دار بناها الصاحب بن عباد بأصفهان . وأيضاً لابد أن نشير إلى أن الشعراء ضمنوا مقدمات مدائحهم النسب القديم ووصف الأطلال من حين إلى حين . وأكثروا أيضاً من تضمينها وصف الربيع وكانوا يقفون عنده طويلاً فى مقدمات المدائح بعيد النيرّوز . واطّرد ذلك فى مدائح سلاطين الدولة الغزنوية ووزرائها . وقصائد كثيرة نظمت باللغتين العربية والفارسية فى مديح محمود الغزنوى الملقب بيمين الدولة وأمين الملة والإشادة بفتوحه فى إيران وما وراء النهر وفى الهند ، ومن رائع ما مَدَحَ به قصيدة لبديع الزمان الهمداني يقول فيها^(٢) :

تعالى	الله	ما	شاء	وزاد	الله	إيماني
أَفْرِيدُونُ	فِي	التاجِ	أَمْ	الإِسْكَندَرُ	الثانى	
أَمْ	الرجعة	قد	عادتْ	إِلَيْنَا	بِسُلَيْمَانِ	
أَطْلَتْ	شمسُ	محمودِ	على	أَنجَمِ	سَامَانِ	
وَأَمْسَى	آلُ	بَهْرَامِ	عَبِيداً	لَابِنِ	خَاقَانِ	
إِذَا	مَا	رَكَبَ	الْفِيلَ	لِحَرْبِ	أَوْ	مِلِيدَانِ
رَأَتْ	عيناك	سلطاناً	على	مَنْكِبِ	شَيْطَانِ	

(٢) اليتيمة ٢٩٦/٤ .

(١) يتيمة ١١٦/٤ وضروراً : مضراً .

فن واسطية الهند إلى ساحة جرجان
ومن قاصية السند إلى أقصى خراسان

وأفريدون من ملوك الفرس الأسطوريين ، وآل بهرام هم السامانيون الذي قضى عليهم محمود وامتلك ديارهم ، ويسميه ابن خاقان لأنه تركى ، وقد ضم إيران جميعها إلى ملكه ماعدا إقليمى فارس وكرمان ، كما مر بنا فى غير هذا الموضع . ويكثر بعده مديح السلاجقة ووزرائهم ، وخاصة نظام الملك ، ومُدَّاحه يتعاقبون فى كتاب دُمِيَّة القصر بالعشرات ، مع أن مؤلفها البخارزى توفى قبله بنحو سبعة عشر عاماً ، ومن ذكرهم بين مُدَّاحه الفياض الهروى ، وله فيه وفى فتوح سلطانه ألب أرسلان فى آسية الصغرى وأسرهُ لإمبراطور بيزنطة قصيدة بديعة ، يذكر فيها جيش رومانوس الجرار ومُنَاه فى احتلال ديار السلطان السلجوقى ، وكيف رَدَّ الله كيدَه فى نحره ، فسحق جيشه سحقاً ، وقُتل منه ما لا يُحصى ، وأسر الإمبراطور ووقف بين يدى ألب أرسلان ذليلاً خائفاً ، وأهوى على الأرض يلثم التراب بين يديه . ويصوِّر ذلك كله الفياض الهروى مشيداً بنظام الملك وقيادته مع ألب أرسلان لجيش المسلمين قائلاً^(١) :

إذا ما ملوكُ الأرض عُدُّوا فإنما لكم كاهلُ المجد الأشمِّ وغارِبُهُ
أحاسدُهُ مَهَلًّا فهذى سُيوفُهُ وهاتيك يومَ المَكْرَماتِ مواهِبُهُ
ويتوالى سلاطين الدولة السلجوقية ووزراؤهم ويتوالى مديحهم عند الطُّغْرائى والأرْجاني وغيرهما من معاصريهما . وكان وراء أمراء العصر ووزرائه كثيرون من عليَّة القوم يُخَصُّهم الشعراء بمدائحهم ، وقد دُبِّجت فيهم قصائد كثيرة . وكانوا يهتَنون كثيراً لا بالأعياد فحسب ، بل أيضاً بالمواليد ، وفى البيتمة والدُمِيَّة من ذلك قصائد ومقطوعات مختلفة . وكثر فى العصر مديح الفقهاء والعلماء بمدحهم تلاميذهم ومريدوهم والمعجبون بهم ، من ذلك ما أنشده البخارزى لأبى المطهر الأصفهاني فى أستاذه الإمام الموفق محمد بن هبة الله وكان من أئمة الشافعية فى نيسابور ، وله يقول تلميذه من قصيدة طويلة^(٢) :

يا أيها المولى الأجلُّ ومنْ به أصبحت آمن من تحصن فى الدرِّى
أنتبتى ورعتنى وسموت بى غصناً بأبكار البيان منوراً

ولابن عَنَيْن قصيدة رائعة سيرها من نيسابور إلى الفخر الرازى بهراة ، وفيها يشيد بقضائه على البدع فى عصره ، ويرفعه فوق ابن سينا وأرسطو وبطليموس درجات

(١) الدمية ٢/٢٨٦ وما بعدها .

(٢) الدمية ١/٤٣٤ .

في الفلسفة والطب ، غير أن ابن عنين دمشق . وعلى كل حال هو تكملة لهذه الظاهرة التي رآها في إيران ، ظاهرة مدائح التلاميذ والمريدين لشيخوهم وأساتذتهم من العلماء والفقهاء . وجدير بنا أن نقف عند ثلاثة من شعراء المديح في تلك البيئة لتتضح لنا صورته ، وهم علي بن عبد العزيز الجرجاني والطُّغْراني والأَرَجَّاني .

علي ^(١) بن عبد العزيز الجرجاني

من جُرجان ، وفد على نيسابور في صباه ، وسمع على شيخوخوا ، وتخرج بهم فقيهاً شافعيًا نابهاً ، وولى قضاء موطنه جُرجان ثم ولّاه صاحب بن عباد وزير مؤيد الدولة وأخيه فخر الدولة قضاء الرّى ، ثم جعله قاضي القضاة بها ، وظل في هذه الوظيفة إلى أن توفي سنة ٣٩٢ وحُمل تابوته إلى جُرجان فدفن بها ، وترجم له الثُّعَالبي في يتيّمته فقال : « هو فَرْد الزمان ، ونادرة الفلك ، وإنسان حَدَقَ العلم ، ودُرّة تاج الأدب ، وفارس عسكر الشعر ، يجمع خط ابن مُقْلَة إلى نثر الجاحظ ونظم البحترى » . ومرّبنا حديث عن كتابه « الوساطة بين المتنبي وخصومه » وكيف أنه فيه يصدر عن ناقدٍ ممتاز ، بل لعله أهم ناقد ظهر في عصره . وهو في الكتاب يصور ثقافة واسعة بالشعر العربي قديمه وحديثه ، كما يصور ذوقاً شعرياً مصني . وبهذا الذوق كان ينظم أشعاره في المديح وغير المديح ، وقد روى له الثُّعَالبي طائفة من مدائحه في قوَاد عصره وولاية جرجان وفي شمس المعالي قابوس بن وشمكير صاحب طبرستان ، وللصاحب بن عباد القِدْحُ المعلى من مدائحه من مثل قوله :

يا أيها القَرْمُ الذي بعلوّه نال العلاء من الزمانِ السُّولا
قسمتُ يداك على الورى أرزاقها فكنوك قاسمَ رزقها المسئولاً

وهي مبالغة أن يجعل صاحب يقسم على الناس أرزاقهم ، ولكنها كانت تُستحبّ في عصره ، وكان كل شاعر يحاول أن يأتي منها بمعنى طريف . وكان صاحب بحرًا فياضاً أغدق الصلوات على زوّاره وقاصديه ، وله يصف بلاغته التي عُرف بها في النثر والشعر جميعاً :

سَبَقَتْ بأفراد المعاني وألّفتْ خواطرُك الألفاظَ بعد شراذمها

(١) انظر في ترجمة علي بن عبد العزيز وشعره معجم الأدباء ١٤/١٤ واليتمة ٣/٤ وما بعدها وابن خلكان

٢٠٥/٤ .

٢٧٨/٣ والسبكي ٤٥٩/٣ والمتنظم ٢٢١/٧ وشذرات

فإن نحن حاولنا اختراعَ بديعةٍ حَصَلْنَا على مسروقها ومُعَادِهَا
وهو معنى طريف ، وكانت له ملكة خصبة لا تزال تمدّه بالمعاني الغريبة
النادرة ، وكان يعرف كيف يقتنصها وكيف يوردها في مداخه من مثل قوله
للصاحب :

لا وجفونٍ يَغْضُهَا الْعَدَلُ عن وَجَنَاتٍ تَذِيهَا الْقُبُلُ
ما عاش من غاب عن ذَرَاكَ وَإِنْ آخرَ مِيقَاتٍ يَوْمِهِ الْأَجَلُ^(١)
وله في عياداته حين يمرض قصائد بديعة ، وأخرى في تهنئته حين يُبَلِّ من مرض
ألمٍّ به أو حُمَّى نزلت بجسده ، وكان يتخيلها من تلهب ذهنه وتوقد ذكائه ، ومن قوله في
تهنئة له بالشفاء :

بك الدهرُ يَنْدَى ظِلُّهُ وَيَطِيبُ وَيُقْلَعُ عَمَّا سَاءَنَا وَيَتَوَبُ
وأُشْد له الثعالبى قصيدة طويلة في وصف دار الصاحب التى بناها بأصهان وتبارى
الشعراء في وصفها على نحو ما مر في حديثنا ، كما أُشْد له أيضاً قصيدة فكهة في رثاء بَرْدُون
أبى عيسى بن المنجم ، استهلها بقوله :

جَلَّ وَاللَّهِ مَا دَهَاكَ وَعَزَّاءُ إِنْ الْكَرِيمَ مُعَزَّى
هَيَّ مَا قَدْ عَلِمْتَ أَحْدَاثُ دَهْرٍ لَمْ تَدَعْ عُدَّةً تُصَانُ وَكَتْرًا
وكان يمزج بين الطبيعة والمديح مزجاً بديعاً لا يكتفى فيه بأن يجعل الطبيعة مقدّمة
للمديح كما كان يصنع الشعراء كثيراً من حوله ، بل يجعلها جزءاً من المدوح ومن عمله
وشيمه وفكره ، وكأنها صورة منه ، أو كأنها مرآة له ، يقول في وصف بعض الرياض
الجميلة الساحرة مادحاً لأبى مضر محمد بن منصور والى جرجان :

أَبَاتَ يَدُ الْأَسْتَاذِ بَيْنَ رِيَاضِهَا تَدْفُقُ أَمْ أَهْدَتْ إِلَيْهَا سَحَابِهَا
أَلْبَسَهَا أَخْلَاقَهُ الْغَرَّ فَاغْتَدَتْ كَوَاكِبُهَا تَجَلُّو عَلَيْنَا كَوَاكِبَا
أَوْشَتْ حَوَاشِيهَا خَوَاطِرُ فِكْرِهِ فَأَبْدَتْ مِنَ الزَّهْرِ الْأَنْبِقِ غَرَائِبَا
أَخَالَتْهُ يَصْبُو نَحْوَهَا فَتَزَيَّنَتْ تَوَمَّلْ أَنْ يَخْتَارَ مِنْهَا مَلَاعِبَا
ولعل في ذلك ما يدل على قدرة الشاعر التصويرية ، وهى قدرة تلقانا في غزله كما تلقانا

في مديحه ، على نحو ما نقرأ في قوله يصف بعض ليالى أنسه مع منى قلبه :
وَلَيْسَالٍ كَأَنَّهُنَّ أَمَانٌ مِنْ زَمَانٍ كَأَنَّهُ أَحْلَامُ
وَكَأَنَّ الْأَوْقَاتَ فِيهَا كُتُوسٌ دَائِرَاتٌ وَأَنْسُهُنَّ مُدَامُ

زمنٌ مُسْعِدٌ وإلفٌ وَصُولٌ ومُنَى تَسْتَلِدْهَا الأوهام
وواضح ما في الأبيات من خيال دقيق ، فكأنه كان يعيش في حلم ، يتعاطى خمر
الأنس المسكرة ، ومن قوله في الغزل :

قد بَرَّحَ الشوق بِمَشْتَاكِكَ فَأُولِهِ أَحْسَنَ أَخْلَاقِكَ
لا تَجْفُهُ وَارَعَ لَهُ حَقَّهُ فَإِنَّهُ آخِرَ عُشَّاقِكَ

والبيتان يحملان شعوراً مرهفاً رقيقاً ، وكان إلى ذلك كله شغوفاً بالعلم ، يراه متعة
لا تعدلها متعة ، ولذلك كان يألف دائماً الخلوة للقراءة في منزله ، وفي ذلك يقول :
ما تَطَعَمْتُ لَذَّةَ العيشِ حَتَّى صَرْتُ لِلْبَيْتِ وَالْكِتَابِ جَلِيسَا
ليس شيءٌ أَعَزُّ عِنْدِي مِنَ الْعِلْمِ سَمِ فَمَا أَبْتَغِي سِوَاهُ أَنْيَسَا
فلذة القراءة لا تعدلها عنده لذة . وكانت نفسه أليّة شديدة الإباء ، لا يهينها ولا يُدْهِمُها
فدون الذل والهوان الموت ، وفيه يذل الإنسان ويهون أفي سبيل المال والغنى ؟ بؤساً لها وله
إن هو اقترف في نفسه هذه الجناية الكبرى ، وفي ذلك يقول :

كَأَنِّي أَلَاقِي كُلَّ يَوْمٍ يَتَوَنَّى بِذَنْبٍ وَمَا ذَنْبِي سِوَى أَنِّي حُرٌّ
وَقَالُوا تَوَصَّلْ بِالْخُضُوعِ إِلَى الْغَنَى وَمَا عَلِمُوا أَنَّ الْخُضُوعَ هُوَ الْفَقْرُ
وَبَيْنِي وَبَيْنَ الْمَالِ شَيْئَانِ حَرَمًا عَلَى الْغَنَى : نَفْسِي الْآيِيَّةُ وَالذَّهْرُ
إن مثل هذا الغنى الذي يكسبه صاحبه بالخضوع هو الفقر الحقيقي الذي يدمر حياة
الإنسان ، فتعساً لمن يطلبه عن هذه الطريق وتباً له . وله أبيات رائعة في عزة النفس ،
وخاصة عزة نفس العلماء ، اشتهرت في عصره وبعد عصره ، وهو يمضي فيها على هذا
النمط :

يَقُولُونَ لِي : فَيْكَ انْقِبَاضٌ وَإِنَّمَا رَأَوْا رَجُلًا عَنْ مَوْقِفِ الذَّلِّ أَحْجَبًا
إِذَا قِيلَ : هَذَا مِنْهَلٌ قُلْتُ : قَدْ أَرَى وَلَكِنَّ نَفْسَ الْحُرِّ تَحْتَمِلُ الظُّمَأَ
وَلَمْ أَقْضِ حَقَّ الْعِلْمِ إِنْ كَانَ كَلِمًا بَدَأَ طَمَعٌ صَبْرُهُ لِي سُلَامًا
وَلَمْ أَبْتَدِلْ فِي خِدْمَةِ الْعِلْمِ مُهْجَتِي لِأَخْدُمَ مَنْ لَا قِيَّتَ لَكِنْ لِأَخْدُمَا
أَشَقَى بِهِ غَرَسًا وَأَجْنِيهِ ذَلَّةً إِذَنْ فَاتَّبَاعُ الْجَهْلِ قَدْ كَانَ أَحْزَمًا
وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ صَانُوهُ صَانَهُمْ وَلَوْ عَظَّمُوهُ فِي النَفُوسِ لِعَظَّمَا
وَلَكِنْ أَهَانُوهُ فَهَانَ وَدَسُّوهُ مُحْيَاهُ بِالْأَطْعَامِ حَتَّى تَجْهَمَا

وهو يصور في الأبيات نفس العالم الحر الذي يأبى الهوان مستشعراً كرامته إلى أقصى
حد ، وإنه ليأبى في شمم ما بعده شمم أن يَرَوَى من منهل قد يصيبه منه ما يؤذى نفسه ،

وإنه ليزدري الطمع في الدنيا الذي يتحول بالعالم إلى ما يشبه دّوارة الريح فهو يدور مع نفعه المهين ، ناسياً أن من شأن علمه أن يجعله مخدوماً لا خادماً وسيداً لا عبداً ذليلاً ، وإلا كان الجهل خيراً منه وأكثر عائداً على صاحبه . ويحمل حملة شعواء على من يراهم حوله من العلماء صغار النفوس الذين لم يصونوا حرمة العلم بل دنّسوه ولطخوه بهوان أليم .

الطُّغْرَائِيّ (١)

هو أبو إسماعيل مؤيد الدين الحسين بن علي بن محمد ، الكاتب الشاعر الذي غلب عليه لقب الطُّغْرَائِيّ لعمله في دواوين الطُّغْرَاء ، وهي الطُّورَة التي يكتبها عادة رئيس ديوان الإنشاء في أعلى الكتب فوق البسملة بالخط الغليظ متضمنة نعوت السلطان أو الحاكم الذي يصدر الكتاب باسمه . وقد وُلِدَ بأصفهان سنة ٤٥٣ لأسرة عربية تنتسب إلى أبي الأسود الدؤلي ، ولا نعرف شيئاً واضحاً عن نشأته ولكن ثقافته الأدبية والعلمية العميقة تدل على أنه اختلف إلى دور العلم وحلقات العلماء منذ نعومة أظفاره وأنه تثقف على أيدي جهابذة موطنه من اللغويين والفقهاء والأدباء وأصحاب الصنعة (الكيمياء) وله فيها مصنعات مختلفة (٢) . ويبدو أن ملكته الشعرية استيقظت في نفسه مبكرة ، فسأل الشعر على لسانه ، ووفد به على الرؤساء ، وكان من أوائل من وفد عليهم فضل الله بن محمد صاحب ديوان الإنشاء لألب أرسلان ، وأعجب به وبشعره ، فعينه كاتباً في الديوان وأوصله إلى الوزير نظام الملك فاستمع إلى مدائحه فيه ، ورحّب به ، وحدث أن اشترك الفضل في مؤامرة كبرى على نظام الملك وانكشفت المؤامرة ، وأُتِيَ به في غياهب السجون ، وظل الطُّغْرَائِيّ يحفظ له صنيعه معه ويواسيه في محتته ببعض أشعار يديبُجها في مديحه . وكان نظام الملك حَصِيْفاً ، فلم يأخذ على الشاعر شيئاً من وفائه لصاحبه ، وظل الطُّغْرَائِيّ يعمل في دواوينه ، كما ظل على صلته به يمدحه في المناسبات ومن مدائحه البديعة فيه باثنيان ، يشيد فيها به وبانتصارات جيوش الدولة في الشرق وفي الغرب على شاكلة قوله :

- (١) انظر في ترجمة الطُّغْرَائِيّ وشعره معجم الأدباء ٥٦/١٠ وابن خلكان ١٨٥/٢ والأنساب للسمعاني ٥٤٣ والشذرات ٤١/٤ ومقدمة الصفدي لشرحه على قصيدة الطُّغْرَائِيّ : لامية العجم المسمى بالغيث المسجم وكتاب الطُّغْرَائِيّ للدكتور علي جواد الطاهر (طبع بغداد) وكتابه الشعر العربي في العراق وبلاد العجم في العصر السلجوقي . وديوان الطُّغْرَائِيّ مطبوع قديماً بإستانبول وطبع لاميته مع شروح لها وأهم شروحها شرح الصفدي (طبع القاهرة) .
- (٢) العلم عند العرب لألدومبيلي ص ٣٠٧-٣١٠ وكتاب الشعر العربي السالف للدكتور علي جواد الطاهر ١٥٥/٢ .

خَمِيسُ أَقاصى الشرق تَرْزُمُ تحته وترتجُ منه أُخْرِياتُ المغاربِ (١)
 يَلْفَهُمُ بالرُّعبِ قبل طرادِهِمُ ويهزمهم بالكتبِ قبلَ الكتائبِ
 وفي هذه الأثناء يتزوج ، وما تلبث زوجته أن تتوفى وتترك له رضيعاً لا يزال يجد في
 نفسه منه شجى عميقاً عليها ، ومراثيه فيها تفيض بالحزن المرير على شاكلة قوله :
 بنفسي من غاليتُ فيها بمهجتي وجاهى وما حازتُ يدَاىِ من الوفرِ
 وفُزْتُ بها من بين يَاسٍ وخيبةٍ كما استخرج الغواصُ لؤلؤةَ البحرِ
 فجاءتُ كما جاء المني واشتهى الهوى كالألأ ونُبلاً في عفافٍ وفي سترِ
 فيا موتُ الحَقْنى بها غيرَ غادرٍ فإن بقائى بعدها غايةُ القدرِ
 وهى مرثيةٌ بديعةٌ ، فقد أظلمت الدنيا فى عيني الطغرأى بعد زوجته الشابة الجميلة .
 ولم يعد له منها سوى الأنين والدموع والزفرات ، وإنه ليشيح بوجهه عن الصبر وأجره وثوابه
 مفضياً إلى لوعات قلبه وحسرات نفسه ، إذ تركت بين جوانحه ناراً لا تنطفئ ، ويتوجه
 إليها بالخطاب نادباً لحظه العائر ، منشداً :

لَأَنْسِنَا حَتَّى إِذَا مَا يَهْرَتْنَا سَنًا وَسَنَاءً غَيْتِ غَيْبِيَةَ الْبَدْرِ
 وَقَدْ كَانَ رَبْعَى آهْلًا بِكَ مُدَّةً أَحْنُ إِلَيْهِ حَنَّةَ الطَّيْرِ لِلْوَكْرِ
 وَأَوَى إِلَيْهِ وَهُوَ رَوْضَةُ جَنَّةٍ بِدَائِعُهَا يَحْتَلِنُ فِي حُلَلِ حُمْرِ
 فَذِ بِنْتِ عَنْهُ صَارَ أَوْ حَشَّ مِنْ لَطَى وَأَضِيقَ مِنْ قَبْرِ وَأَجْدَبَ مِنْ قَفْرِ
 لقد غاب عنه بדרه وانقضَّ وكره ودُمِرتْ جنته وعاد يتقلب بعد أعطاف النعيم في
 لظى الجحيم ، وحتى مسكنه أصبح قبراً مظلماً وقفراً مجدباً . ويظل يبكيها وتمر به الأيام ،
 فيسلو عنها ويتزوج ويُرزقُ الولد ، وهو في أثناء ذلك يعمل في دواوين السلاجقة ، ويتوفى
 نظام الملك ، وتضطرب به الحياة ، فيتعرض لبعض الوزراء بالهجاء ولبعضهم بالمدح
 والثناء ، وتتوثق صلته بالسلطان محمد بن ملكشاه (٤٩٩ - ٥١٢ هـ) ويصبح في عهده
 نائباً في ديوان الطغراء أو بعبارة أخرى وزيراً للقلم والإنشاء . ونراه في مدحة له يتحدث
 عن جيوشه ووقائعها مع الروم وما تُلقي في قلوبهم من فزع بمثل قوله :

خَيْلٌ بِأَرْضِ الرُّقَّتَيْنِ وَرَاءَهَا نَقَعُ كَمْزُتِكِمِ الْعَامِ مُثَارُ
 رِيعِ الْعَدُوِّ وَقَدْ أَحْسَسَ بِقُرْبِهَا فَالْجَنْبُ نَابٍ وَالرَّقَادُ غَرَارُ (٢)
 وَعَلَى خَلِيجِ الرُّومِ مِنْكَ مَهَابَةٌ مِنْ خَوْفِهَا يَتَطَامَنُ التِّيَارُ
 وَلَقَدْ دَرَى الرُّومِيُّ أَنَّ وَرَاءَهُ خَطَرًا تَقَاصَّرُ دُونَهُ الْأَخْطَارُ

ويتحدث في نفس القصيدة عن مقاومة السلطان محمد للباطنية الحشاشين وقضائه المبرم على ابن عطاش في حصن « شاه دز » بقرب أصفهان واستيلائه على قلعته ، على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع . ويتولى السميّرمي الوزارة ويتوفى السلطان محمد ويخلفه ابنه محمود وتفسد العلاقة بين الطغرائي والوزير ، ويرحل إلى بغداد وينبوه المقام فيذم في بائية مقامه في العراق مستهلاً ذمه بقوله :

ملتُ ثَوائي بالعراق وملّني رفاقي وكانوا بالعراق طرابا
وينظم حينئذ لاميته التي اشتهرت خطأ باسم لامية العجم ، وقائلها عربي كما مر بنا في نسبه ، وليس فيها أى تعصب للعجم ضد العرب ، ولعلها سميت بذلك لأن قائلها كان يعيش في بلاد العجم وجعلها على روى لامية العرب للشنفرى وقد نالت شهرة واسعة منذ عصره وشرحها الأسلاف مراراً وأهم شروحها شرح الصفدى ، وموضوعها الشكوى من الزمان وأهله ، شكوى لا تنكسر فيها نفسه ، بل يظل له طموحه وتظل له صلابته ، وتظل له فضائله التي يفخر بها ، وهو يستهّلها بقوله :

أَصَالَهُ الرَّأْيُ صَانَتْهُ عَنِ الْخَطَلِ وَحَلِيَهُ الْفَضْلُ زَانَتْهُ لَدَى الْعَطَلِ
وربما أشار بالعطل إلى تعطله من وظيفته الديوانية حينئذ ، أو ربما يشير إلى ما حدث له أحياناً من هذا العطل ويهتف :

فِيمَ الْإِقَامَةِ بِالزُّورَاءِ لَا سَكْنَى بَهَا وَلَا نَاقَى فِيهَا وَلَا جَمَلِ
ويشكو طويلاً الغربية بالزوراء (بغداد) وأن لا صديق له فيها ولا أنيس سوى الوحشة وبعد الوطن والدار ، مع بوار الأمانى وانعكاس الآمال . ويرحل مع صديق ، ويقتربان من حىّ إضَمَّ بالقرب من المدينة ، حى الحبيبة التي ضرب إليها أكباد الإيل ، ولكن دونها الحجة بالسهم والبيض والسُمر ، أو السيوف والرماح ، والأسد رابضة حول الكناس . ويتمنى الإمامة بالحقى تبرئه من عله ، بل ليتمنى الموت في سبيل نظرة ، وكل هذا رمز عن مطامحه التي لا يستطيع تحقيقها ، وإنه ليصرّح بأن طالب المجد لا بد له أن يغامر وأن يركب الأخطار ، فإن لم يتحقق له في بلدة طلبه في أخرى ، ويصبح :

إِنَّ الْعُلَا حَدَّثَنِي وَهِيَ صَادِقَةٌ فَمَا تَحَدَّثُ أَنْ الْعِزَّ فِي الثَّقَلِ
ويقول إنه لا يزال يعلل نفسه بالآمال في أن تقبل عليه الأيام ثانية . ويشكو من الدهر ومن الناس ، مع شعور غير قليل بالكرامة ، ومع التحذير الشديد من الأصدقاء الأعداء قبل الأعداء . ويختم القصيدة بالدعوة إلى القناعة ورفض المناصب فكل ما على الدنيا ظل

زائل ، وسنشد قطعة من هذه اللامية في حديثنا عن شعراء الحكمة والفلسفة .
ولاندرى كيف رغب ثانية في العمل لدى السلاجقة ، إذ نراه يقصد إمارة السلطان
مسعود بالموصل سنة ٥١٣ ويعيّنه وزيراً له ، وتنشب الحرب بين مسعود وأخيه السلطان
محمود وتدور الدوائر في سنة ٥١٥ على مسعود وجيشه ويؤسر الطُّغْرَائِي وَيَقْتَل بِتَهْمَةِ
الزَنْدَقَةِ . ويبدو أن خصومه استغلوا عكوفه على الكيمياء ، فاتهموه بالسحر والإلحاد ،
واستمع السلطان محمود إلى اتهامهم له وأمر بقتله . والشكوى كثيرة في أشعار الطُّغْرَائِي وتكفي
منها لاميته السالفة . وفي ديوانه مقطوعات غزلية كثيرة يستوحى فيها حجازيات الشريف
الرضي ومهيار ، ومن طرائف غزله :

يا قلبُ مالكِ والهوَى من بعدما طابَ السُّلُوْ وأَقْصَرَ العُشَّاقُ
أو ما بدا لك في الإفاقة والألى نازَعَتْهُمْ كَأْسَ الغَرامِ أَفَاقُوا
يا حَبِداً نَجَدُ وأعراقُ الثَّرى لُدُنْ وَأَنفَاسُ النِّعَمِ رِقَاقُ

وكان يدعو إلى مجلس الشراب أحياناً وسماع المثلث والمثنائي والانتشاء بالخمر في مباحج
الربيع . وطبيعي أن يتردد الفخر في أشعاره ، على نحو ما ترددت منه رنات في لاميته ، وله
يفتخر بثقافته الواسعة وإلمامه بشتى العلوم :

أما العلومُ فقد ظَفِرَتْ بُيُغَيَّي منها فما أحتاجُ أَنَّ أُنْعَلِمَا
وعرَفْتُ أَسْرَارَ الخَلِيقَةِ كُلِّهَا عِلْمًا أَنَارَ لِي البَهِيمَ المَظْلَمَا

واشتهر كما قدمنا بمعرفته العميقة بالصناعة أو كما نقول الآن علم الكيمياء ، وله فيها
أشعار يضمها مخطوط تحتفظ به مكتبة جامعة القاهرة بعنوان مفتاح الرحمة ومصابيح
الحكمة ، ونقل منها الدكتور على جواد الطاهر طائفة ^(١) تصور هذا الضرب من شعره
العلمي أو التعليمي . ويكثر عند الطُّغْرَائِي ومعاصريه جميعاً معارضته الشريف الرضي
ومهيار في بعض قصائدهما ، بل أيضاً معارضته من سبقها من الشعراء ، وربما كانت
لاميته السالفة أروع قصائده من حيث السبك والصياغة ، ومع ذلك حاول الصفدي في
شرحه لها جاهداً أن يرد معاني أبياتها بيتاً بيتاً إلى سابقه . وكان الطُّغْرَائِي كشعراء عصره
يتصنع لفنون البديع ولكل ما أتوا به من فنون التكلف ، وفي الحق أنه كان شاعراً بارعاً ،
وبلغ من إعجاب السابقين به وبلاميته أن عارضها منهم كثيرون ، كان آخرهم البارودي في
لامية له مشهورة .

(١) - انظر الشعر العربي في العراق وبلاد العجم في العصر

الأرجاني^(١)

هو ناصح الدين أبو بكر أحمد بن محمد الأرجاني نسبة إلى أرجان من كور الأهواز من بلاد إقليم خوزستان ، وُلد سنة ٤٦٠ ويقول العماد الأصفهاني فيه : « منبت شجرته أرجان ، وموطن أسرته تُستَر وعسكر مُكْرَم من خوزستان ، وهو وإن كان في العجم مولده فمن العرب محتده ، سلفه القديم من الأنصار » فهو عربي النجار ، فارسي الموطن . وقد أرسل به أهله إلى المدرسة النظامية بأصفهان حين شَبَّ عن الطوق ، فظل بها ، حتى تخرج فيها فقيهاً شافعيًا ، يُحسن الحكم بين الخصوم والمفتيًا ، وتفجر الشعر على لسانه ، فقصد به الوزير السلجوقي المشهور نظام الملك : منذ سنة نيف وثمانين وأربعمائة ، وظل ينظمه إلى وفاته بُتسَر سنة ٥٤٤ وكأنه مات عن سن عالية ، وكان يفتخر بأنه فقيه ويحسن الشعر وفي ذلك يقول :

أنا أشعرُ الفقهاء غيرَ مُدافعٍ في العصر ، بل أنا أفقهُ الشعراء
وأعدته معرفته العميقة بالفقه لكي يشغل بالقضاء في موطنه ببلاد خوزستان ، تارة بتستَر ، وتارة بعسكر مُكْرَم عن قاضيها ناصر الدين أبي محمد ومن بعده عن عماد الدين أبي العلاء ، وفي ذلك يقول :

ومن النوائب أني في مثل هذا الشغل نائبٌ
ومن العجائب أن لي صبراً على هذِي العجائب
وكان يُحسن الفارسية وترجم منها عدداً من الرباعيات ، وأكثر شعره في المديح ، ونراه كما مر بنا يمدح نظام الملك حتى إذا خلفه الوزير تاج الملك مدحه بلامية يقول فيها :
كم موقفٍ دون العلاء وقفته والخيلُ بالأسل الطوال تصُولُ
ونراه يمدح وزراء بركياروق حين استولى على صولجان الحكم بعد أبيه ملكشاه ، وفي مقدمتهم الوزير الدهقاني وفيه يقول :

فأني به العصرُ الأخيرُ وقصُرَتْ عن شأوه وزراء كلِّ الأعْصُرِ
ويظلُّ على صلة وطيدة بسلاطين السلاجقة ، يروح إليهم ويغدو بالمدايح ، وله في السلطان محمود مدائح مختلفة ، من مثل قوله :

(١) راجع في ترجمة الأرجاني ابن خلكان ١٥١/٢ والنجوم الزاهرة ٢٨٥/٥ والأنساب ٢٤ ومعجم البلدان والسيكي ٥٢/٦ وشذرات الذهب ١٣٧/٤ ومرآة الزمان في أرجان ، وديوانه مطبوع قديماً ببيروت . ٢٨١/٣ وتذكرة الحفاظ ١٣٠٦/٤ والمتنظم ١٣٩/١٠ .

أعلى السلاطين في يَوْمِي نَدَى وَوَعَى رَأْيَا وَأَفْضَلُهُمْ سِرًّا لِإِعْلَانِ
ويمدح وزيره السميّمي الذي يقول فيه ابن الأثير كان ظالماً كثير المصادرة للناس
سيء السيرة ، ولعله اضطرَّ إلى مديحه خوفاً من بطشه به كما بطش بالطُّغْراني ، وله يقول
في بعض مديحه .

وَأَنْقَذْتَ دِينَ اللَّهِ مِنْ شَرِّ مَارِقٍ وَكَانَ كِشْلُو بَيْنَ نَابِيهِ نَاشِبٍ
وخصَّ معين الدين أحمد بن الفضل وزير السلطان سنجر بمدائح كثيرة ، وصلته به قديمة
منذ كان على ديوان الإنشاء للسلطان محمد ، وله يقول :

أَحْلَكْ سُلْطَانُ السُّلَاطِينَ رَتْبَةً يَصْصِقُ بِهَا دَرْعُ الْحُسُودِ الْمَسَاجِلِ
وكان يزور بغداد كثيراً ويمدح خلفاءها ووزراءها ، وله في الخليفة المستظهر (٤٨٥ -
٥١٢ هـ) غير مدحة ، ونراه يلجج فيما يلجج فيه قديماً مروان بن أبي حفصة وغيره من شعراء
العصر العباسي الأول حين كانوا يتحدثون عن شرعية الخلافة وأن العباسيين أولى بها من
العلويين لأن العم يرث ابن أخيه ولا يرثه ابن العم ، ويزعم الأرجاني أن الرسول عليه
السلام بشر بها عمه وأنها تكون في أبنائه ، يقول :

بِكُمْ قَدِيمًا رَسُولُ اللَّهِ بَشَرْنَا كَمَا بِهِ بَشَرْنَا سَالِفُ التُّنُورِ
وَقَالَ مِنْ بَعْدُ لِلْعَبَّاسِ فِي مَلَأٍ افْخَرْنَا أَبُو الْأَمْلَاقِ فِي مُضَرٍ
وولي المسترشد (٥١٢ - ٥٢٩) فظل يقدم إليه مدائحه ، واصفاً له بالبأس
والشجاعة والإقدام محذراً أعداءه من جيوشه وما تدمر وتحطم وتَسْحَقُ كل من يقف في
طريقها سَحَقًا . وبالمثل يمدح وزراء بغداد وفي مقدمتهم بنو جهير ، وفيهم يقول :
لِلَّهِ دَرٌّ بَنِي جَهِيرٍ إِنَّهُمْ جَهَرُوا بِدِينِ الْمَجْدِ حَتَّى أُعْلِنَا

وَنُوّه طَوِيلًا بِجَلَالِ الدِّينِ بْنِ صَدَقَةِ وَأَبْنَوْشِرَوَانَ بْنِ خَالِدٍ ، وله فيه نحو عشرين مدحة
يتحدث فيها عن كرمه وشجاعته وعلمه وعدله ومواقبه . كما نوه أيضاً طويلاً بالوزير سديد
الدولة محمد بن عبد الكريم ، وله يقول في بعض مدائحه :

أَمِينَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِي اضْطَفَى وَسَهَمَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمَسَدِّدَا
وله غزليات رقيقة ، وهي مطبوعة مثل غزليات الطغراني بطوابع الشريف الرضي
ومهيار ، ونقصد الطوابع البدوية ومن طريف غزلياته :

أَحْبَبِي الشَّاكِينَ طَوَلَ تَغْيِي وَالذَّاهِبِينَ عَلَى الْهَوَى فِي مَذْهَبِي
مَا جُبْتُ آفَاقَ الْبِلَادِ مَطُوفًا إِلَّا وَأَنْتُمْ فِي الْوَرَى مُتَطَلِّبِي
سَعْيِي إِلَيْكُمْ فِي الْحَقِيقَةِ ، وَالَّذِي تَجِدُونَ مِنِّي فَهُوَ سَعْيُ الدَّهْرِ بِي

أَنُحَوِّكُمُ وَيَرِدُ وَجْهِي الْقَهْقَرَى سَيْرِي ، فسيري مثل سَيْرِ الكوكب
فَالْقَصْدُ نَحْوَ الْمَشْرِقِ الْأَقْصَى والسير رَأَى الْعَيْنِ نَحْوَ الْمَغْرِبِ
تَالله ما صدق الوشاة بما حَكُّوا أَنِي نَسِيتُ الْعَهْدَ عِنْدَ تَغْرِيبي
وَالْأَبْيَاتُ تَحْمِلُ مَعَانِي وَصُوراً دَقِيقَةً تَصُورُ شَاعِرِيهِ الْأَرْجَانِي وَأَنَّهُ كَانَ يَعْرِفُ كَيْفَ
يُطْرَفُ بِصُورِهِ وَمَعَانِيهِ ، مِمَّا جَعَلَ الْقَدَمَاءُ يَشِيدُونَ بِهِ ، وَمِنْ مَعَانِيهِ الْغَرِيبَةِ :
رَبَّنِي لِي وَقَدْ سَاوَيْتُهُ فِي نُحُولِهِ خَيَالِي لَمَّا لَمْ يَكُنْ لِي رَاحِمُ
فَدَلَّسَ بِي حَتَّى طَرَقْتُ مَكَانَهُ وَأَوْهَمْتُ إِلَيَّ أَنَّهُ بِي حَالِمُ
وَبَيْنَا وَلَمْ يَشْعُرْ بِنَا النَّاسُ لَيْلَةً أَنَا سَاهِرٌ فِي جَفْنِهِ وَهُوَ نَائِمُ
وهو بعد في الخيال والتصوير إلى درجة مفرطة من الوهم ، وكان مثل الطغرائي
يشكو من الزمن ومن الناس ، وقلمنا نجد شاعراً في هذا العصر لا يشكو ، ومن شكواه
قوله :

ولما بلوتُ النَّاسَ أَطْلُبُ عَنْدهُمْ أَخَا ثَقَةٍ عِنْدَ اعْتِرَاضِ الشَّدَائِدِ
تَطْلَعْتُ فِي حَالِي رِخَاءً وَشِدَّةً وَنَادَيْتُ فِي الْأَحْيَاءِ هَلْ مِنْ مُسَاعِدِ
فَلَمْ أَرْ فِيهَا سَاءَنِي غَيْرَ شَامِتٍ وَلَمْ أَرْ فِيهَا سَرْنِي غَيْرَ حَاسِدِ
تَمَتُّعًا يَا نَاطِرِي بِنَظَرَةٍ وَأُورِدْتَنِي قَلْبِي أَمْرَ الْمَوَارِدِ
أَعْيَنِي كُفًّا عَنْ فَوَادِي فَإِنَّهُ مِنَ الْبَغْيِ سَعَى اثْنَيْنِ فِي قَتْلِ وَاحِدِ

فحتى عيناه لا ترحمانه بما تدلغان في قلبه من جحيم الفتنة بالجمال . وله رباعيات
كثيرة غير أنه فيها شديد التكلف ، وقد نظم في مديح أنوشراون قصيدة تشتمل على
ثمانين رباعية . ومن باب هذا التكلف أو التصنع عنده إظهار قدرته في نظم بيت يُقرأ
طرداً وعكساً مثل قوله :

أَحَبُّ الْمَرْءِ ظَاهِرُهُ جَمِيلٌ لِصَاحِبِهِ وَبَاطِنُهُ سَلِيمٌ
مُودَّتُهُ تَدُومُ لِكُلِّ هَوٍ وَهَلْ كُلُّ مُودَّتِهِ تَدُومُ

فالبيت الثاني يُقرأ عكساً من آخره إلى أوله كما يُقرأ من أوله إلى آخره ، ونجد عند
الأرجاني أرجوزة يمكن أن تقرأ لا على قافيتين فحسب ، بل على أربع قواف ، وهي تدل
على مقدرة لغوية أكثر منها على مقدرة فنية خالصة . ولعل في كل ما أسلفنا ما يوضح
شخصية الأرجاني الشعرية .

شعراء المراثي

نشط الرثاء طوال هذا العصر ، فلم يمت سلطان ولا أمير ولا وزير ولا قائد إلا رثاه الشعراء ، وخاصة إذا كان شخصاً خطيراً له تاريخ مجيد أو أعمال مجيدة ، وانضم إلى ذلك كرم فياض ، على نحو ما هو معروف مثلاً عن الصاحب بن عباد الذي كان غنياً مدراراً للشعر والشعراء ، فأتوه من كل فجٍّ ، حتى قيل إن من مدحوه بلغوا المئات ، ونرى الثعالبى فى يتيمة يتوقف مراراً ليدكر لنا بعض الأشعار التى قيلت فى مديحه ، وبالمثل الأخرى التى قيلت فى رثائه ، من ذلك قول أبى سعيد الرستمى ^(١) .

أبعد ابن عبادٍ يهشُّ إلى السرى أخو أُملي أو يُسماحُ جواد
أبى الله إلا أن يموتا بموته فما لها حتى المعاد معاد
وحمل تابوته من الرى إلى أصفهان ، ودُفن فى محلة تُعرَف بباب دُزبه ، وتبارى الشعراء على قبره يرثونه ، وتقَدَّم أبو منصور أحمد بن محمد اللُجيمى يُنشد معبراً عنه بلقبه : « كافى الكفاة » ^(٢) :

نوى الجود والكافى معاً فى حفيرة ليأنس كل منها بأخيه
هما اصطحبا حينئذٍ ثم تعانقا ضجيعين فى قبرٍ بباب دُزبه
ومرَّبنا الحديث عن محمود الغزنوى وفتوحه فى إيران والهند وملازمته للجهاد ونشر الإسلام ، وكان مثقفاً وطلب - كما مرَّبنا - إلى بلاطه العلماء والأدباء ، وأقبلوا عليه يصنّفون له كثيراً من الكتب فى فنون العلوم ، وقصده الشعراء من جميع البلدان فى إيران ، فكان يسبغ عليهم كثيراً من عطاياه ، فلما توفى بكاه غير شاعر ، وفى مقدمتهم أبو على الحسن بن محمد الدَّامغانى ، وفيه يقول ^(٣) :

مضى الأفعوان الصلُّ والأسدُ الورْدُ وتاجُ ملوكِ الأرض والفراسُ النَجْدُ
ولم أدرِ أن الشمسَ يَسْتَرها ثرى ولا الفلكُ الأعلى يُغييه لحدُ
وأحسن الشعراء هذا الإحساس بالخسارة الكبيرة إزاء نظام الملك الوزير السلجوقى المشهور ، الذى عمَّ العلماء والشعراء ببرّه ، وألّفت باسمه مصنفات كثيرة ، وكان مجلسه

(٣) تنمة البيتة ١٥٣/١ والأفعوان الصل : الذى لا

تفيد معه الرقية ، والورد : الفاتك

(١) البيتة ٢٨٠/٣

(٢) البيتة ٤٠٩/٤

يَغْصُ دائماً بالفقهاء والقراء والأدباء ، فلما توفي أكثر الشعراء من رثائه ، ومن جيد ما قيل فيه قول ختته شَيْبَل الدولة مقاتل بن عطية ^(١) :

كَانَ الْوَزِيرُ نِظَامُ الْمَلِكِ لَوْلَاؤُهُ يَتِيْمَةً صَاغَهَا الرَّحْمَنُ مِنْ شَرَفِ
عَزَّتْ فَلَمْ تَعْرِفْ الْآيَامُ قِيَمَتَهَا فَرَدَّهَا ، غَيْرَةً مِنْهُ ، إِلَى الصَّدَفِ

وظاهرة جديدة في الرثاء لهذا العصر ، قد تكون لها مقدمات في العصر العباسي ، ولكنها شاعت إلى أقصى حد حينئذ ، ونقصد رثاء الفقهاء والعلماء في كل فن ، فلم يتوفَّ عالم كبير إلا تبارى تلاميذه وغير تلاميذه في رثائه ، فن ذلك رثاء أبي الحسن عبد الرحمن البُوشَنجِي لأبي عثمان الصابوني شيخ الإسلام بخراسان ، وفيه يقول ^(٢) :

أَوْدَى الْإِمَامُ الْحَبْرُ إِسْمَاعِيلُ لَهْفَى عَلَيْهِ فُلَيْسُ مِنْهُ بِدِيلُ
بَكَتِ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ يَوْمَ وَفَاتِهِ وَبَكَى عَلَيْهِ الْوَحْيُ وَالنَّزِيلُ
وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ الْمُنِيرُ تَنَاحَا حَزَنًا عَلَيْهِ وَلِلنَّجْمِ عَوِيلُ

ومن يرجع إلى طبقات الشافعية للسبكي سيجد من هذا الرثاء للفقهاء والمحدثين وآئمة الإسلام كثيراً ، وبالمثل من يرجع إلى كتب الشعراء مثل اليتيمة ودُمية القصر وكتب التراجم مثل وفیات الأعيان لابن خَلِّكَان ومعجم الأدياء لياقوت ، من ذلك قول أبي الفرج حَمْدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْهَمْدَانِي في رثاء الشيخ الإمام أبي محمد الجَوِينِي ^(٣) :

عُلُومٌ عُلَتْ أَعْلَامُهَا غَبَرَتْهَا وَأَعْيُنُ أَعْيَانٍ طَغَتْ غَبَرَاتُهَا
وَأَفْلَادُ أَكْبَادٍ مِنَ الْفَضْلِ فُتَّتَتْ فَدَلَّتْ عَلَى تَفْتِيْتِهَا زَفَرَاتُهَا
تَدَاعَتْ مَبَانِي الدِّينِ وَانْهَدَّ رُكْنُهُ وَهَدَّمَ مِنْ أَطْوَادِهِ صَخَرَاتُهَا

وبلغ ابنه إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك الجويني من الشهرة العلمية ما لعل أباه لم يبلغه غزارة مادة وتفننا في العلوم من الأصول والفروع . ولما توفي أُغْلِقَتْ الأسواق في نيسابور إجلالاً له وتكرمة ، وكُسِرَ مِنْبَرُهُ في الجامع وقعد الناس لعزائه ، كما يقول ابن خَلِّكَان ، وأكثروا فيه من المراثي ، كقول بعض تلاميذه ^(٤) :

قُلُوبُ الْعَالَمِينَ عَلَى الْمَقَالِ وَأَيَّامُ الْوَرَى شِبْهُ اللَّيَالِي
أَيْثَمُ غُصْنُ أَهْلِ الْعِلْمِ يَوْمًا وَقَدْ مَاتَ الْإِمَامُ أَبُو الْمَعَالِي
وَنَجَدُ بَيْنَ أَسَاتِذَةِ الرَّخْشَرَى أَسَاتِذَاً مَغْمُورًا دَرَسَ عَلَيْهِ النَّحْوُ ، يَسْمَى أَبَا مَضَرٍ

(٣) الدمية ٥٥٧/١

(٤) ابن خَلِّكَان ١٧٠/٣

(١) ابن الأثير ٢٠٦/١٠

(٢) السبكي ٢٨٣/٤

منصوراً ، ومع ذلك نراه - حين يلبى نداء ربه - يتأثر عليه تلميذه تأثراً عميقاً ،
فيرثيه بقوله ^(١) :

وقائلة : ما هذه الدُّرُّ التي تساقط من عينيك سِمَطينَ سِمَطينَ
فقلتُ هو الدرُّ الذى كان قد حشأ أبو مُضَرٍّ أذنى تساقط من عيني

وهى صورة بديعة ، فدرر دموعه ثمرة سماعه على أستاذه ، أودعها الزمخشري فى سمعهِ
فجرت من مَدَمَعِهِ .

وعلى نحو ما تفجعوا على العلماء وبكوههم بدموع غزار تفجعوا على أبنائهم وأمهااتهم
وآبائهم وللباخريزى رثاء لأبويه ، ولأبى الحسن الحسينى البلخى رثاء جيد لأمه ^(٢) ،
ومرَّ بنا عند الطغرأتى رثاؤه لزوجته التى ماتت فى ريعان الشباب ، وفى ديوانه مرثية لها
قافية ، يصور فيها الموت وهو يقبض كفها ويرسلها وعيناها ساهمتان مطرقتان ، وقد
أخذ الحزن منه كل مأخذ ، يقول :

ولم أنسها والموت يقبض كفها ويسطها والعين ترنو وتطرق
هلال نوى من قبل أن تمَّ نوره وغصن ذوى فينائه وهو مورق

ويصف زيارته لقبرها وعناقه لأحجاره وترابه والأرض تدور به ، وهو لا يكاد
يصدِّق أنها ماتت أو أن بينه وبينها حجاباً صفيقاً ، والدموع تنهل على خديه ، وكلُّه
حسرات ولوعات .

ومرَّ بنا فى كتابى العصر العباسى الأول والثانى بكاء الشعراء للمدن ، حين تنزل بها
صواعق النهب والحريق ، فقد بكوا بغداد لعهد الأمين والمأمون ، وبكوا البصرة حين
هجم عليها الزنج فى أواسط القرن الثالث ودمَّروا مساكنها وفتكوا بأهلها . وكانت كارثة
هذا العصر أعظم وأطم ، ونقصد تدمير المغول لبغداد فى سنة ٦٥٦ إذ قتلوا من أهلها
نحو مليون أو يزيدون ، وأشعلوا بها الحرائق وأعملوا النهب حتى فى الكتب
والمكتبات ، وكان ذلك دماراً فظيعاً لما كان بها من حضارة عربية وحركة علمية ، أو قل
كان ذلك أفولاً لنجمها الذى طالما تألَّق فى سماء البلاد العربية جميعاً ، وطبيعى أن نجد من
شعراء إيران من يبيكون المدينة العظيمة ، وفى مقدمة من بكأها منهم الشيخ سعدى
الشيرازى المتصوف الفارسى المشهور المتوفى سنة ٦٩١ عن نحو مائة سنة ، وهو يشتهر
بكتاباته الصوفية الفارسية التى يمثلها كتاباه : جُلُستان وبوستان ، غير أشعار فارسية وعربية

كثيرة ، وقصيدته ^(١) في دمار بغداد أكثر من تسعين بيتاً استهلها بقوله :
 حبستُ بجفني المدامعَ لا تجرى فلما طغى الماء استطال على السكر ^(٢)
 ويتمنى لو مر به نسيم صبا بغداد فأحيا نفسه ، ويصور حزن مدرسة المستنصرية على
 علمائها الراسخين في العلم وكيف تبكى المحابر أتمتها وجهابذتها ، وهو يندب ويبكى
 ويذرف الدموع ، ولا يطيق صبراً ولا سلواناً قائلاً :
 أيا ناصحي بالصبر دغني وزفرني أوضاع صبر والكبود على الجمر
 ويقول تحولت دجلة دماً قانياً ، ويرثي الخليفة الشهيد : المستعصم والشهداء الأبرار
 ويهتهم بالفردوس ، ويتحدث عن سبايا المسلمين ، والمغول يسوقونهن في الصحراء .
 والقصيدة كلها تفجع وتحسر على مصير بغداد ذات التاريخ العربي المجيد وكيف وقعت
 فريسة لذئاب المغول الكاسرة .

ولم نتحدث حتى الآن عن مرآة الشيعة للإمام علي بن أبي طالب والحسين ،
 ولا ريب في أنها كانت كثيرة ، إذ انتشر التشيع في إيران منذ عصر بني بويه ، واعتاد
 الشيعة أن يعقدوا سنوياً مأتماً كبيراً في يوم عاشوراء حداداً على الحسين وذكرى حزينة
 لاستشهاده ، وكان الشعراء يرثون الحسين في تلك الذكرى القائمة مرآة كلها أنين
 وزفرات . ونشر الشيخ محمد آل ياسين للصاحب ديواناً وفيه غير قصيدة في رثاء الحسين ،
 ونراه يألماً شديداً لهذه الجريمة البشعة ، التي مثل فيها بحفيد رسول الله ﷺ ، وهو يكرر
 في مرثيته الأنين والبكاء والدمع المردار . وله شعر كثير في فضائل علي بن أبي طالب يدخل
 في الشعر الشيعي بعامة ، وفيه يتحدث عن نظرية الوصية بالإمامة لعلي بن أبي طالب
 المعروفة عند الشيعة الإمامية وعن سابقته في الإسلام وحروبه المظفرة وحقوقه في الخلافة .
 ويكثر الحديث عند الشيعة عن الإمام محمد المهدي المحتفي ورجعته ليرد حق أسرته الضائع
 ويعيد سنن الشريعة . والأشعار المتصلة به تغرق لا في الرثاء ، بل في المديح ، مثل الأشعار
 المتصلة بالإمام علي ، ويسمونونه صاحب الزمان أوقاف الزمان ، وخير قصيدة تصوره
 قصيدة بهاء الدين العاملي المتوفى سنة ١٠٣٠ للهجرة ، وهو فيها يسميه حجة الله وخليفته
 وظله ^(٣) . وتوقف قليلاً عند شاعر شيعي من شعراء الرثاء .

(١) متني وسعدى للدكتور حسين محفوظ

(٢) السكر : ما سُدَّ به النهر .

(٣) انظر الكشكول للعاملي (طبعة الحلبي) ١٧٦/١ .

(طبع طهران) ص ٧٣

أبو الحسن^(١) علي بن أحمد الجوهري الجرجاني

نشأ بجرجان ، واجتذبه الصاحب بن عباد إلى حضرته فيمن اجتذبهم من أدياء عصره وشعرائه ، ونراه يقرّبه منه ويرفع مكانته عنده . ويتخذ في ندمائه : وتستهل ترجمته في اليتيمة برسالة كتبها إلى أبي العباس الضبي نائب الصاحب في أصبهان يُشيد فيها به ، ويقول إنه يحسن الشعر في اللسانين العربي والفارسي كما يحسن النثر . ويترك أصبهان إلى جرجان فلا تطول به الأيام ، كما يقول الثعالبي ، حتى يلبي نداء ربه ، ويقول من ترجموا له إنه توفي سنة ٣٨٠ . ولا يذكر له الثعالبي شيئاً من شعره الشيعي ولا من رثائه للحسين ، ومما يُروى له في بكاء الحسن قوله :

أهل الكساء صلاة الله نازلةً عليكم الدهر من مثنى ووحدان
أنتم نجوم بني حواء ما طلعت شمسُ النهار وما لاح السَّكان

ويشير الجوهري بفكرة الكساء إلى ما يُروى عند الشيعة من أن الرسول ألقى عليه وعلى السيدة فاطمة والإمام علي والحسن والحسين كساء ، وقال : نحن أهل البيت . . ويشير الجوهري في القصيدة إلى مقتل الحسين وسياء كل من كانوا معه من أهله ، وله مرثية أخرى للحسين يبدوها بالحديث عن يوم عاشوراء يوم مقتله باكيةً نادياً قائلاً :

يا أهل عاشورَ يالهي على الدين خذوا حدادكم يا آل ياسين
اليوم قام بأعلى الطف نادبهم يقول من ليتيم أو لمسكين
يا عين لا تدعى شيئاً لغادية تهجي ولا تدعى دمعاً لمخزون
يا آل أحمد إن الجوهري لكم سيفٌ يقطع عنكم كل مؤزون^(٣)

والأبيات تصور المأساة تصويراً مخزناً ملئاً بالطف وهو الموضع الذي استشهد فيه الحسين ، والجوهري لا يرقأ دمه ، بل هو يتمنى أن تسيل من عينيه دموع لا تكف ولا تجف ، لما نزل بآل أحمد أو آل ياسين أهل البيت النبوي الطاهر .

وينشد الثعالبي للجوهري أشعاراً كثيرة تتصل بمدحه للصاحب ولسلطانه فخر الدولة ولنائبه أبي العباس الضبي ولبعض الوجهاء ، كما تتصل بالغزل وتتصور بعض الأطعمة وبهجاء بعض الأشخاص ، وله خمريات طريقة يمزجها بالحديث عن الطبيعة ، كقوله في

(١) انظر في الجوهري اليتيمة ٢٧/٤ وأعيان الشيعة ج ١٣٠/٢ وما بعدها
٤١ ص ٤١ وأدب الطف أو شعر الحسين لجواد شير (طبع) (٢) الموضوع : الدرر المنجوش .

دعوة بعض أصدقائه إلى الصُّبوح :

شَجَرٌ مُدْنَفٌ وَجَوٌّ عَلِيلٌ وصباحٌ يميل كالنَّشْوَانِ
صاحٍ إن الزمان أقصرُ عمراً أن يُراعِ المُنَى بصَرَفِ الزَّمانِ
رَقٌّ عَنِ ملاحفِ اللَّيْلِ فانْهَضُ برقيقٍ من صَوْبِ تلك الدَّنَانِ
كعصيرِ الخدودِ في يَقِي الأُو جه أو كالدموعِ في الأَجْفَانِ^(١)

ويبدو من هذه الخمرية ميله إلى الدقة في التصوير ، وأنه كان يحاول الإطراف بأخيلته ، وأن يأتي بصور مبتكرة ، على شاكلة قوله :
صَكَّ النسيمُ فِراخَ الغَيْثِ فانزعجتْ يَنْفُضْنَ أجنحةً من عَنبرِ الرِّغَبِ
ويقول الثعالبي : لو لم يقل إلا هذا البيت لكان أشعر الناس ، وهو فيه يصور زغب الثلوج المتساقط كشُعيرات الريش المتطايرة .

٥

شعراء المهجاء والفخر والشكوى

ظل الشعراء يَريشون سهام المهجاء في هذا العصر كما كانوا يَريشونها في العصور السابقة ، تارة يسددها بعضهم إلى صدور بعض ، وتارة يسددونها إلى السلاطين والوزراء وعلية القوم . وقد تُسَدَّد إلى أكثر هؤلاء جوداً وكرماً ، لمجرد أنه تأخر في جائزة شاعر ، أولاً لأنه أعطى شاعراً جائزة دون جائزة شاعر آخر ، أو لأنه أسخطه لأى سبب من الأسباب . ومَرَّبنا أن الصاحب بن عباد وزير بني بويه كان ينال عليه المديح انهبالاً لكثرة ما كان يُعَدِّقه على الشعراء ، حتى يقال إنه وفد عليه منهم مئات ، ومع ذلك كان لا يسلم من ألسنة بعضهم مثل أبى العلاء الأسدَى ، وكان كما يقول الثعالبي قديم الصحبة له ، شديد الاختصاص به ، ممتد الغرة والتججيل في شعرائه وصنائعه وندمائه . وكان يودّه ويأنس به ويكاتبه نثراً ونظماً . وإليه كتب : « أبا العلاء شيخى أين ذلك الميعاد ؟ وأين تلك العهود سقتها العهاد (الأمطار) . . وأين كتبك التى هى ألد من انتهاء النفس إلى رجائها ، وابتداء العين في إغفائها » . ويبدو أن أبا العلاء لم يرتض من الصاحب أمراً أو شيئاً يوماً ، فأسرع يهجوهُ بقوله^(٢) :

إذا رأيتَ مُسَجَّى في مَرَقَّةٍ يَأْوِي المساجدَ حُرّاً ضُرَّهُ بَادِي
 فاعلمْ بأنَّ الفتي المسكين قد قَدَفَتْ به الخطوبُ إلى لُومِ ابنِ عبادٍ
 وهو يصفه باللوم ، ويصغرُ من جوده الذي شاع عنه في سخرية مرة . وانتقم
 للصاحب من أبي العلاء الأسدي زميل له من الشعراء يسمَّى عبدان الأصبهاني جعله عُرْضةً
 وهدفاً لأهاجيه ، ومن قوله فيه ^(١) :

أبا العلاء اسكتْ ولا تُؤذنا بِشَيْنِ هذا النسبِ الباردِ
 وتدعى في أسدٍ نِسْبَةً لا تثبتُ الدعوى بلا شاهدٍ
 أقمُ لنا والدَةً أَوَّلًا وأنت في حلٍّ من الوالدِ

وهي سخرية لاذعة . ومن كبار المهجائين في أوائل العصر الشاعر المسمى أبا الحسن
 اللّحام ، وفيه يقول الثعالبي : لم يسلم أحد من الكبراء والوزراء والرؤساء من هجائه إياه ،
 وكان لا يهجو إلا الصدور ، وفي مقدمتهم البلّعمي وزير السامانيين وفيه يقول ^(٢) :

وزارةُ البلّعمي متقلبةً وهو كَقَفْلٍ غدا على خربةٍ
 لم يَرَّعْ للأولياء حرمتهم فيها ولا للوجوه والكتبة
 فهو أحقُّ الوري بداهيةٍ تضحى لها رأسه على حَسَبِه

وهو يريد له أن يصلب ويصبح مثلاً للناظرين ، وكان عبدان آنف الذكر يستثيره كثيراً
 فما زال يفكر في أن يورد عليه هجاء شديد الإيلام ، وهدهاه طول تفكيره إلى قوله فيه ^(٣) :
 عبدانُ هامتهُ للصفعِ معتاده لاسيَّما من أكفِّ السادةِ القادةِ
 كأنَّ أيدى الندامى في تناولها أيدى صِيامٍ إلى كيزانٍ برَّادهِ
 والبرَّادة : إناء يبرِّد الماء . وكان السخط على السلاطين والملوك يبلغ أحياناً
 عند بعض الشعراء حدّاً يجعلهم يعمّونهم به غير مفرقين بين مصلح وفاسد ، فإذا هم
 يهجونهم جميعاً على شاكلة يوسف بن محمد الجلودي الرازي في قوله ^(٤) :

لا يصحبنَّ ملوكنا إلا امرؤ لَصَّ مغنٍّ مُفْلِسٌ قَوَّادُ
 فلهُ لديهم زُلْفَةٌ ومنالةٌ ولن تحرَّج واستعفَّ كسادُ

والبيتان يمسخان الملوك حينئذ مسخاً . وكانوا كثيراً ما يهجون البلدان وأهلها ، ويخيل
 إلى الإنسان أنهم لم يتركوا بلدة إلا سلطوا عليها سهام هجائهم ، وقد يتعرضون لصفة في

(٣) البيمة ١١٢/٤

(١) البيمة ٢٩٨/٣

(٤) تمة البيمة ١٢٣/١

(٢) البيمة ١٠٨/٤

الشخص ذميمة ، فيهجونه بها ، كصفة الحمق ، ولا بن حَسُول يهجو المتكبرين عليه (١) :

دَخَلْتُ عَلَى الشَّيْخِ فِيمَنْ دَخَلَ فَغَرِبَلُ عَصَصُهُ وَانْتَحَلَ^(٢)
وَأَظْهَرَ مِنْ نَخْوَةِ الْكِبَرِيا مالم أَقْدَرُ وَمالم أَخَلُّ^(٣)
فَقُلْتُ لَهُ مُؤَثَّرًا نُصْحَهُ وَقَدْ يُقْبَلُ التُّصَحُّ مِنْ نَحْلٍ
إِذَا كُنْتَ سِيدَنَا سُدَّتْنَا وَإِنْ كُنْتَ لِلْخَالِ فَادْهَبْ فَخَلَّ
أَخَلَّ بِحَقِّ دُهَاءِ الرِّجَالِ فَازَالَ يُصَفِّعُ حَتَّى أَخَلَّ

وهو يصور هذا الشيخ المتكبر المتعجرف ، وقد دخل عليه فلم يقم له ، وكأنما هم أن يرفع نفسه وعصصه أو مؤخرته ، ثم تخلى عن ذلك وتمكّن من مجلسه ، فعرف أنه متكبر متعظم ، وهو مالا يكاد يظنه ، فحاول أن ينصحه نصيحة من نخل القول وعرف صوابه وخطأه ، وتعرض له قائلاً إن كنت سيدنا حقاً سدتنا دون حاجة إلى كبرياء وإلا فخلّ عنك ، غير أنه لم يستمع نصحه فإزال يُصَفِّعُ ، حتى أصابه الخلل .

وكان الفخر في هذا العصر يرافق الهجاء كما رافقه في العصور السابقة ، وقلماً يحسن الشعر أمير أو وزير أو قائد إلا وهو يفتخر بنفسه ، وفي كتاب اليتيمة فصل خاص بسلاطين بني بويه ، ونجد أشعارهم موزعة بين الفخر والغزل والخمر . ويلقانا فخر كثير للشعراء ، وكثيراً ما يسوقون فخراً لهم بأشعارهم وجودتها وبلاغتها ، من مثل قول علي بن عبد العزيز الجرجاني الذي ترجمنا له بين شعراء المديح (٣) :

أَلَا إِنِّي أَرْمِي بِكُلِّ بَدِيعَةٍ يَبْتَنُّ بِالْبَابِ الرِّجَالِ لَوَاعِبَا
تَسِيرُ وَلَمْ تَرَحَلْ ، وَتَدْنُو وَقَدْ نَأَتْ وَتُكْسِبُ حُقَاطَ الرِّجَالِ الْمَرَاتِبَا
تَرَى النَّاسَ إِمَامُ مُسْتَهَامَا بِذِكْرِهَا وَلَوْعَا وَإِمَا مُسْتَعِيرَا وَغَاصِبَا

فأشعاره كلها - في رأيه - بدائع وطرائف ، تنتشر في الناس حتى أقاصى الأرض ، لكثرة روايتها والمعجبين بها ، ويتداولها الشعراء ويغيرون على معانيها المبتكرة . وكثر الفخر في العصر عند العلماء بسعة المعرفة وغزارة المحصول والتعمق في الأفكار والنفوذ إلى أغوارها البعيدة .

وشاعت مع الفخر الشكوى من الدهر ومن الناس ، وهي شكوى قديمة ، غير أنها اتسعت في هذا العصر سعة شديدة ، لما شاع فيه من كثرة البؤس والظنك في حياة

ما ليس له .

(١) ذميمة القصر ١/٤١٥ .

(٢) العصص : نهاية العمود الفقاري ، وغريلة

(٣) اليتيمة ٢٠/٤

العصص : تمكّنه في الجلوس . انتحل : ادعى لنفسه

الشعب ، فضلاً عن الشعراء . ودائماً يتضاعف إحساس الشاعر ببؤسه حين لا يتصله الجوائز الكبيرة ، وحين يجد من بعض الناس إعراضاً عن شعره ، فتظلم الدنيا في عينيه ، ويرأها سواداً في سواد وظلاماً وحرماناً لا آخر له . ومثله العالم الفاضل الذي يرى علمه كاسداً ، وأنه لن يروج إلا إذا لثم التراب وقُبِلَ الأبواب ، فبؤساً للعلم يكون هذا جزاءه ، وبؤساً للشعر يكون هذا ثوابه . ويصور ذلك من بعض الوجوه عبد القاهر الجرجاني صاحب كتابي دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة ، وهما أروع ما صُنِفَ في البيان العربي ، وكان مقصد الطلاب في عصره من كل فجٍّ ، ومع ذلك يرى عشرات من دونه يعلونه في نعم الحياة مخلفين له البؤس والشظف ، مما جعله يهتف بمثل قوله (١) :

هذا زمانٌ ليس فيه سوى النَّذالةِ والجهالةِ
لم يَرِقْ فيه صاعِدٌ إلا وسُلِّمَهُ النَّذالةُ

وأقرأ في اليتيمة ودُمَيَّة القصر والخريدة فستجد سيول هذه الشكوى تتدافع من كل جانب . وكثيراً ما كان يحدث لأمر أن يُسَلَّبَ سلطانه كما كان يحدث ذلك للوزراء ، فكان منهم من ينظم الشعر يُودِّعه شجونه ، ومرت بنا مأساة قابوس بن وشمكير صاحب طبرستان إذ عزلته عن سلطانه حاشيته وألقت به في غياهب السجون بإحدى القلاع حتى مات لَوَعَةً من شدة البرد وأسفاً على ضياع سلطانه ، وكان شاعراً كما كان كاتباً ، فضى يشكو شكوى مرة من الناس دون أن تنكسر نفسه ، بل مع غير قليل من الصلابة ، على شاكلة قوله (٢) :

قُلْ للذي بِصُرُوفِ الدَّهْرِ عَيَّرَنَا هل حاربَ الدهرُ إلا مَنْ له خَطَرُ
أما ترى البحرَ تعلو فوقه جِيْفُ وتَسْتَقِرُّ بأقصى قَعْرِه الدُّرُ
فإن تكن عبثتْ أيدى الزمان بنا ومَسَّنَا من تَمَادَى بؤسه ضَرُّ
ففي السماء نجومٌ مالها عَدَدُ وليس يُكْسَفُ إلا الشمسُ والقَمَرُ

وقد تتحول الشكوى من الزمان وأهله إلى ضرب من التشاؤم الشديد ، فالزمان كله بؤس وتعاسة ، والناس ليس فيهم فاضل ولا كريم ، بل كلهم أخسَاءُ أُنْذال ، حتى ليقول الفضل بن إسماعيل التيمي الجرجاني (٣) :

ما في زمانك ماجدٌ لو قد تأملتَ الشواهدُ
فاشْهَدْ بِصِدْقِ مقالتي أولاً فكذَّبني بواحدُ

فهو لا يرى في الدنيا ما جدا واحدا ، وكأنما الناس كلهم أشرار ، ليس فيهم من تجد عنده شيئا من العون يملأ القلب رضا وطمأنينة ، بل جميعهم يملأون القلب حسرة ولوعة . ونقف عند شاعرين من شعراء العصر هما الخوارزمي والأبيوردى .

أبو بكر^(١) الخوارزمي

أصله من طبرستان ومولده ومنتشؤه خوارزم ، وهو ابن أخت محمد بن جرير الطبري صاحب التاريخ المعروف ، وقد فارق موطنه في ريعان شبابه ، وأقام بالشام مدة . وهو أحد الشعراء والكتاب المجيدين في عصره ، وأيضاً أحد أساتذة الأدب ورواته ، رحل إلى الشام والعراق وبخارى ونيسابور وسجستان ، ثم قصد صاحب بن عباد ، فأكرمه وأعلى منزلته ، وغمره بما كان سبباً لثرائه وارتياشه ، فعاد إلى نيسابور واستوطنها واقتنى فيها عقارا وضياعا ، وكان لا يزال يأتيه رسم أوراتب من قبل صاحب منذ انصرافه عن حضرته . وكان ذلك سبباً في أن يتعصب تعصباً شديداً للبويعيين ضد السامانيين أصحاب نيسابور وبخارى ، وناله من ذلك بعض السوء ، لولا توسط صاحب بن عباد له عند بعض وزرائهم . وكان شيعياً وكانت نيسابور سنية ، فاستوحش منه كثيرون وانتهزوا فرصة وفود بدیع الزمان الهمداني على بلدتهم ، فعقدوا مناظرة بينها انتصروا فيها للبدیع ، وتصادف أن توفي الخوارزمي عقبها سنة ٣٨٣ فصفا الجو لمنافسه . وقد خلف الخوارزمي ديوان رسائل كبير وهو مطبوع ، وخلف أيضاً ديوان شعر سقط من يد الزمن ، غير أن في كتاب اليتيمة طائفة كبيرة من أشعاره في النسب والغزل والمديح والمراثي وفي فنون مختلفة في مقدمتها الهجاء ، وكان طبعياً أن يصبه سياطاً على ظهور السامانيين حين استخرجوا منه ، أو صادروا ، بعض ماله وزجوا به في سجونهم ، وأفرجوا عنه ، غير أنه مضى ينتقم منهم بمثل قوله :

جَزَى اللهُ عَنِ أَهْلِ سَامَانَ مَا أَتَوْا فِي اللهِ لِلثَّارِ الْمُضِيعِ طَالِبُ
هُمْ زَوْجُونِي الِهِمَّ بَعْدَ طَلَاقِهِ وَذَلِكَ عُرْسٌ لِلْمَاتِمِ جَالِبُ
وَأَنْحُوا لَزَرْعِي بِالْحَصَادِ وَأَنْضَبُوا مِيَاهاً لَهَا أَيْدَى سِوَاهُمْ مَذَانِبُ
أَتَحْصُدُ أَيْدِيَكُمْ وَتَزْرَعُ غَيْرَكُمْ فَأَنْتُمْ جَرَادُ وَالْمُلُوكُ سَحَابُ
فَهِمُ يَحْصُدُونَ مَا زَرَعَهُ آلُ بُوَيْهِ وَوَزَرَاؤُهُمْ ، وَيَأْكُلُونَهُ نَاراً ، وَكَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مَتَشَرُّ

(١) انظر في الخوارزمي وشعره اليتيمة ١٩٤/٤ وابن خلكان ٤٠٠/٤ والوفاء بالوفيات ١٩١/٣ والشذرات دار المعارف ص ٢٣٠ وما بعدها

١٠٥/٣ وكتابتنا الفن ومذاهبه في النثر العربي (طبع

يصيب البلاد بالخراب والوبال بينما البويهيون سحائب غيث منهلة ، تروى من يعيشون في بقاعهم القريبة وفي بقاع السامانيين البعيدة وغير السامانيين . وبحكم تشيعه كان غاضباً على الخلفاء العباسيين السنيين ، غير أنه اكتفى في هجائهم بالإشارة إلى صنيعهم السيئ في توزيع الألقاب على السلاطين والوزراء والقواد ومن يستحق ومن لا يستحق ، يقول :
 مالى رأيتُ بنى العباسِ قد فتحوا من الكُنى ومن الألقاب أبوابا
 قلَّ الدراهم في كفى خليفتنا هذا فأنفق في الأقوام ألقابا
 ولا شك في أنها تدل على ما أصاب المجتمع في إيران وغير إيران من تدهور ، وكان يغيظ الخوارزمي الشيعي المتعصب لتشييعه الغالى في تعصبه أن يرى أحياناً فقيها يلقي ابنه مبادئ أهل السنة الذين يسميهم التشيع ناصية فيدعى عليه أنه من القائلين بالجبر ويهتف :
 مُجْبِرٌ صِرَ ابنه ناصياً مجبراً مثله وتلك عجيبة
 والمجبر الذى يقول بالجبر وأن الإنسان لا حرية له في فعله ولا اختيار وأنه مسير كريشة في يد القدر يوجهه كيف شاء . وأسخطه طاهر بن شار الطبرستانى ، فتولاه بهجاء مقذع من مثل قوله :

لله في كل ما قضاه لطائفٌ تحتها بدائعُ
 سُبْحانَ من يُطعم ابنَ شارٍ ويترك الكلبَ وهو جائعُ
 وهو إقذاع مرير ، فقد جعله دون الكلب وأقل منه ، وحتى يد الصاحب بن عباد الذى طالما أسبغ عليه من نواله ، بل لقد جعل له راتباً معلوماً ، كما قدمنا ، يصله في نيسابور ، نجده يחדشها بل يعضها ويسيل الدم منها بأظفار هجائه ، ويبدو أنه لم يرض منه يوماً لقاء له ، فإذا هو يذمه ذمّاً قبيحاً قائلاً :
 لا تحمدنَّ ابنَ عبادٍ وإن هطلتْ يدها بالجود حتى أخجلَ الدنيا
 فإنها خطراتُ من وسأوسه يُعطى ويمنع لا بُحلاً ولا كرماً
 فعطاياه التى طبقت الشعراء في إيران وغير إيران إنما هى وسأوس وهواجس تلم به أحياناً . وهو كفران شديد للمعروف ، وكأنها طبيعة للخوارزمي أن لا يستطيع احتمال الصبر وأن يلجأ سريعاً إلى قلمه وشعره ، ويحمله سوط عذاب ينزل به حتى على ولئ نعمته . ونراه يتابع سخطه على من يريد هجاءهم حتى بعد وفاتهم كقوله في رثاء صديق ، حدث بينهما ما يوجب شيئاً من العتاب ، فإذا هو يضخم عتابه ويحمله هجاء قائلاً :

بكيتُ عليك بالعين التى لم تنزل من سوء فعلك لى تجودُ

فها أنا ذا المهتأ والمعزى وها أنا ذا الشقى بك السعيد
وما أصبحت إلا مثل ضرسٍ تاكلُ فهو موجودٌ فقيدٌ
ففي تركي له داءٌ دوى وفي قلعي له ألمٌ شديدٌ
وطبيعي لمثل الخوارزمي الذي كان ينشب أظفاره في الحكام والأصدقاء والناس أن
يتبرم بهم جميعاً وبدنياه وبالدهر ، حتى ليقول :

لا تشكر الدهرَ لخيرِ سببه فإنه لم يتعمد في الهبة
وإنما أخطأ فيك مذهبهُ كالسَّيلِ إذ يسقى مكاناً خربةً
وله وراء ذلك كله مدائح في البويهيين والصاحب وغيرهم وله غزليات وخمريات
ووصف للطبيعة وورودها ورياحينها . وفتح الثعالي له فصلاً طويلاً لبيان تضميناته
أشعارَ غيره في شعره ، وهم يمتدّون على الحقب من العصر الجاهلي حتى عصره .

الأيوردي^(١)

هو أبو المظفر محمد بن أحمد ، من أبناء معاوية بن محمد حفيد عنبسة بن
أبي سفيان بن صخر بن حرب الأموي ، مولده ومنشؤه بأيوردي في خراسان ، وقد تفقه على
إمام الحرمين الجويني بنيسابور ، وله فيه مدائح بديعة . وسمع عبد القاهر الجرجاني ، ولعل
له أثراً في رهافة ذوقه الأدبي . وأكب على المعارف يحصلها ، ولعل ذلك ما جعله فيما بعد
يصنف كتباً مختلفة في الأنساب وغيرها . وفتح له الشعر والأدب العمل في دواوين
السلاجقة في بغداد وأصفهان وغيرهما من بلدانهم . ويبدو أنه ظل في بغداد طويلاً ، إذ
يروى عنه أنه قال : كنت ببغداد عشرين سنة حتى أمرن طبعي على العربية ، وبعد أنا
أرتضخ لُكنة أعجمية . وفي بغداد التحق بخدمة مؤيد الدولة بن نظام الملك ، فلما عادى
هذا الوزير عميد الدولة بن منوچهر هجاء الأبيوردي ، فدرس عليه عند الخليفة أنه هجاء
ومدح صاحب مصر الفاطمي . وخشى الأبيوردي على نفسه فترك بغداد إلى همدان حتى
سكن جأشه وهذا روعه . وتدل على الحقبة التي أمضاها ببغداد قصائده في الخليفة المقتدى
(٤٦٧ - ٤٨٧ هـ) وله فيه إحدى عشرة قصيدة . ويقول بعض الرواة إنه إنما هجر بغداد

(١) انظر في الأبيوردي وشعره معجم الأدباء ١٩٦/٣ والأنساب ٤٩٠ وتذكرة الحفاظ ١٢٤١/٤
وروضات الجنات ١٨٥ وشذرات الذهب ١٨/٤ وإنباه
والسبكي ٨١/٦ والمتنظم ١٧٦/٩ والنجوم الزاهرة ١٥١/٥ ، وابن الأثير ٢٨٤/١٠ ومراة الجنان
٢٣٤/١٧ وابن خلكان ٤٤٤/٤ والوافي بالوفيات ٩١/٢

لأنه كان يرشح من كلامه نوع تشييب بالخلافة التي كانت لأسلافه الأمويين مدعياً استحقاقه الإمامة . فاضطرَّ إلى مفارقتها بغداد إلى همدان ، وبقى فيها مدة يدرس ويفيد ويصنّف . وقال العماد في الحريدة : تولى في آخر عمره أشراف مملكة السلطان محمد بن ملكشاه (٤٩٨ - ٥١١ هـ) ، وسقوه السم وهو واقف عند سريره لسنة ٥٠٧ فخانتة قدماءه وتوفى على الأثر ، فحُمِلَ إلى منزله بأصفهان ، ويقال : بل لم يُسَقِّ السم ، وكل ما في الأمر أنه حين مثل أمام السلطان أصابه الفزع فارتعد وسقط ميتاً .

ويعُدُّ الأبيوردي من أشهر شعراء هذا العصر ، وديوانه كبير ، وقد وزعه على أقسام ، من أهمها العراقيات والنجديات والوجديات . وله شعر كثير في الفخر بنسبه الأموي وبيان فضله وحقه في الخلافة ، ويقولون إنه كان إذا صلى قال : اللهم ملّكني مشارق الأرض ومغاربها ، ولعل لهذا الهوس فيه هو سبب حتفه على يد السلطان محمد ، ومن شعره المعبر عن طموحه وقوة نفسه قوله :

يا مَنْ يُسَاجِلُنِي وَلَيْسَ بِمَدْرِكٍ	شَاوِي وَأَيْنَ لَهُ جَلَالَةٌ مَنْصِبِي
لَا تَتَعَبَنَّ فَدُونَ مَا أَمَلْتَهُ	خَرَطُ الْقَتَادَةِ وَامْتِطَاءُ الْكُوكَبِ (١)
وَالْمَجْدُ يَعْلَمُ أَبْنَا خَيْرَ أَبَا	فَاسْأَلْهُ تَعْلَمُ أَيَّ ذِي حَسَبٍ أَبِي
جَدِّي مُعَاوِيَةُ الْأَغْرُ سَمَتْ بِهِ	جُرُثُومَةٌ مِنْ طِينِهَا خُلِقَ النَّبِيُّ
وَوَرِثَتْهُ شَرَفًا رَفَعَتْ مَنَارَهُ	فَبَنُو أُمَيَّةٍ يَفْخَرُونَ بِهِ وَبِي

وهي صورة جامحة من الاعتداد بالآباء ، وأين بنو أمية في القرن الأول الهجري منه في القرن الخامس ؟ وهل جده معاوية أقرب رحماً إلى الرسول ﷺ من بني هاشم ؟ إن هذا ومثله لغو وما يشبه اللغو . وهو لا يتوقف عند هذا الحد في فخره العريض ، إذ يسوقه في شكل أحلام لا يمكن تحقيقها إذ يقول :

النَّاسُ مِنْ خَوَلِيٍّ وَالْدَهْرُ مِنْ خَدَمِي	وَقِمَّةُ الْمَجْدِ عِنْدِي مَوْطِئُ الْقَدَمِ
وَالنَّسْرُ يَتَّبِعُ سَبْقِي حِينَ يَلْحَظُهُ	وَالْدَهْرُ يُنْشِدُ مَا يَهْمِي بِهِ قَلَمِي
لَوْ صِغَتْ الْأَرْضُ لِي دُونَ الْوَرَى ذَهَبًا	لَمْ تَرْضَها لِمَرْجِي نَائِلِي هِمَمِي
وَعَنْ قَلِيلٍ أُرَى فِي مَازِقِ حَرْجٍ	بِهِ تُشَامُ السَّرِيحِيَّاتِ فِي الْقِمَمِ (٢)
وَالْبَيْضُ مُرْدَقَةٌ تَبْدُو خِلَاحِهَا	فِي مَسْلِكٍ وَحَلِيٍّ مِنْ عَبْرَةٍ وَدَمِ

(١) القتادة : نبات له شوكة كالإبر ، وفي المثل : « من شديدة .

دونه خرط القتاد » يضرب للشئ لا ينال إلا بمشقة (٢) تشام : ترى . السريحيات : ضرب من السيوف

فالمجدُّ في صهوات الخيل مطلبه والعزُّ في ظبة الصمصامة الخدم^(١)
وهو يحلم حلماً غريباً بأنه سيقود معركة مظفرة تُسبى فيها النساء النادبات
لأزواجهن وأبنائهن وأهلهن ، وتحول وتصول فيها الخيل مردية للأقران ، ونسور الفلا
تتبعه لتأكل من أشلاء قتلاه ، والدهر ينشد مجده الحربى شعراً حاسياً ملتهباً . وطبعى أن
يقترن هذا الفخر العاصف عنده بالشكوى من الزمن الذى لا ينيله مطامحه ، وهى
شكوى تتمتج بغير قليل من القوة والجلد وتحمل الشدائد على شاكلة قوله :
تنكر لى دهرى ولم يذر أننى أعزُّ وأحداثُ الزمان تهونُ
فبات يُربنى الخطب كيف اعتداؤه وبِتُّ أريه الصبر كيف يكون
وهذا الجانب فى الأبيوردى واعترازه بنفسه وقومه جعله يستشعر غضباً لا حد له على
الصليبيين حين أغاروا لأول مرة سنة ٤٨٨ للهجرة على بيت المقدس ، وهو استشعار يُحمدُ
له ، فإنه أحسَّ الكارثة التى نزلت بالإسلام وأهله ، حين دُئس الصليبيون بأقدامهم الحرم
القدسى ، فصاح بأعلى صوته يهيب بالمسلمين أن يذودوا عن حياهم المستباح فى قصيدة
طويلة يقول فيها :

مزجنا دماءً بالدموع السواجم فلم يبق منا عُرْضةٌ للمَراجِمِ^(٢)
وكيف تنام العين ملء جفونها على هفواتٍ أيقظت كلَّ نائمٍ
وإخوانكم بالشام يضحى مَقِيلُهُمْ ظهور المذاكى أوبطون القشاعم^(٣)
وكم من دماءٍ قد أبيحت ومن دُمى تُوارى حياءَ حُسْنِها بالمعاصمِ
أترضى صناديد الأعراب بالأذى ويُغضى على ذلِّ كُماة الأعاجمِ
فليتهم إذ لم يذودوا حَمِيَّةً عن الدين صُنُّوا غيرةً بالمحارمِ
والقصيدة استنفار قوى للمسلمين من العرب والأعاجم كى يقفوا سداً منيعاً دون
حياهم وحمى الإسلام يذودون عنه بسلاحهم وأرواحهم حتى يُذيقوا الصليبيين وبال
حربهم ويردوا كيدهم إلى نحرهم ، وهى أولى القصائد التى أخذت طوال قرن تصوب
أبياتها ، بل سهامها ، إلى صدور أعداء الإسلام ، حتى استطاع صلاح الدين أن
يستنقذ منهم بيت المقدس وغيره من ديار الشام ، ويسفك دماء ملوكهم وقادتهم ،
وكان حقاً على الله نصرُ المؤمنين .

وللأبيوردى وراء ذلك مدائح كثيرة فى الخلفاء وسلاطين السلاجقة ووزرائها ،

(١) الصمصامة : السيف . الخدم : المذاكى . القشاعم : النسور .

(٢) المراجِم : القاطم .

(٣) المراجِم : القبيح من الكلام .

وله غزليات سنعرض لبعض أمثلة منها في مطالع الفصل التالى ، وكانت له مراثية بديعة
للحسين تحدث عنها ياقوت ، غير أن ديوانه خلا منها ، كما خلا من مراثيته للغزالي ، التى
أشار إليها ابن خلكان فى كتابه وفيات الأعيان . وله بيتان طريفان فى هجاء أبى النجيب
عبد الرحمن بن عبد الجبار المراكشى ، وكان شاعراً ، ويستعمل فى شعره لزوم ما لا يلزم
الذى اشتهر به أبو العلاء فى لزومياته ، فقال فيه :

شعر المراكشى - وحوشيتُم - كعقله أسلمهُ أسقمهُ
يلزُم ما ليس له لازماً لكنّه يترك ما يلزّمه

والسخرية واضحة ، إذ يشير إلى أن شعره مغسول مما يلزم الشعر من المشاعر
والأخيلة وفنون البديع ، بينما يُغرقه فيما لا يلزم من تعقيد الروى وعدم الاكتفاء فى الشعر
بروى واحد ، مما يصور تكلفاً شديداً إن لم يكن الشاعر بارعاً فى صنع الشعر ونظمه .

الفصل الرابع

طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل

ظل تيار الغزل حاراً متدفقا طوال هذا العصر ، حتى ليخيل إلى الإنسان أنه لم يَشْدُ شاعر بشعر إلا وجرى الغزل على لسانه ، لا يشْدُ عن ذلك سلطان ولا وزير ولا كاتب ولا قائد . وظل للغزل لونه المتقابلان على مر العصور : الغزل المادى والغزل العُذرى العفيف ، وكان طبيعيا أن تظل للغزل سوقه الكبيرة لكثرة الإماء والجوارى وكان كثيرات منهن يحسنّ الغناء ، فلأن قلوب الرجال شغفا وهياما . وقرأ في تراجم الشعراء لهذا العصر فستجد دائما مقطوعات الغزل لتختار منها ما يطيب لك جال معنى وجمال صورة وجمال صوت ، على شاكلة قول ابن العميد ^(١) .

ظَلْتُ تُظَلِّلُنِي مِنَ الشَّمْسِ نَفْسٌ أَعَزُّ عَلَيَّ مِنْ نَفْسِي
فَأَقُولُ وَاعْجَبًا وَمِنْ عَجَبِ شَمْسٌ تُظَلِّلُنِي مِنَ الشَّمْسِ

وهى صورة بديعة لما فيها من لفت قوى إلى جمال صاحبتة ، وكان خليفته فى وزارته
الصاحب بن عباد أشعر منه ، وله غزل كثير أنشد منه الثعالبي طائفة من المقطوعات ، من
ذلك قوله ^(٢) :

قَالَ لِي إِنَّ رَقِيبِي سَيِّئُ الْخُلُقِ فَدَارِهُ
قُلْتُ دَعْنِي وَجْهَهُ الْجَنَّةُ هُ حَقَّتْ بِالْمَكَارِهِ

وواضح أنه عمد فى البيت الثانى إلى الاقتباس من الحديث النبوى : « حَقَّتْ الْجَنَّةُ
بِالْمَكَارِهِ » وهو اقتباس طريف لإحكام صلته بما قبله . وكثرة الاقتباس من الحديث والقرآن
الكریم ظاهرة من ظواهر العصر الأدبية .

وكانوا يتورطون أحيانا فى الغزل بالغلمان ، وهو وصمة فى جبين العصر ، تضاف إلى

(١) البيمة ١٧٨/٣

(٢) البيمة ٢٥٤/٣

مِثْلَتِهَا فِي الْعَصْرِ الْعَبَّاسِي ، وَرَبَّمَا كَانُوا يَنْظُمُونَهُ تَنْدَرًا وَدَعَابَةً ، أَوْ تَقْلِيدًا لِأَسْلَافِهِمْ ، وَهُوَ تَقْلِيدٌ بَغِيضٌ . وَمِنَ الْحَقِّ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الشُّعْرَاءِ نَحَوَّ هَذَا النُّوعَ الْمُقَيَّدَ عَنْ غَزَلِهِمْ ، مُؤَثِّرِينَ أَنَّ يَطْبَعُوا أَشْعَارَهُمْ بِطَوَائِعِ الْغَزَلِ الْعَفِيفِ الطَّاهِرِ الَّذِي لَا يَعْرِفُ الْمَتَاعَ الْمَادِي لِلْحُبِّ وَلَا اجْتِنَاءَ ثَمَرَاتِهِ مِنَ الْعِنَاقِ وَغَيْرِ الْعِنَاقِ ، إِنَّمَا يَعْرِفُ نِيرَانَهُ الْمُحْرِقَةَ كَمَا يَعْرِفُ الْحُبُّ الظَّامِي الَّذِي لَا يَرَوِي صَاحِبَهُ أَبَدًا ، فِدَاءً مُفَارِقًا وَدَائِمًا حَنِينًا وَاشْتِيَاقًا ، وَدَعَاءًا كَمَا قَالَ أَبُو الْعَلَاءِ الْأَسَدِيُّ (١) :

شَتَّتُوا بِالْفِرَاقِ شَمْلِي وَلَكِنْ جَمَعَ اللَّهُ شَمْلَهُمْ أَيْنَ كَانُوا
وَكَثِيرٌ مِنْ هَذَا الْغَزَلِ الْعَذْرَى كَانَ يَصُوغُهُ الْعُلَمَاءُ وَالْفُقَهَاءُ صُورَةً لَطَهَارَةً نَفْسَهُمْ
وَنَقَائِمًا وَمَا يَتَجَشَّمُونَ فِي الْحُبِّ مِنْ آلامٍ دُونَ أَنْ يَشُوبَ تَفَكُّيرَهُمْ شَيْءٌ مِنَ الْغَرِيزَةِ
النُّوعِيَّةِ ، فَقَدْ تَسَامَوْا عَنِ الْحَسَنِ وَكُلِّ مَا يَتَّصِلُ بِالْحَسَنِ . وَيَكْثُرُ فِي هَذَا الْغَزَلِ الْحَنِينُ
الْمُسْتَمَدُّ مِنْ حَنِينِ الْعَذْرِيِّينَ ، الْحَنِينُ إِلَى نَجْدٍ وَدِيَارٍ نَجْدٌ مَعَ الْحَسَرَاتِ مِنَ الْفِرَاقِ وَالشُّوقِ
إِلَى الْإِلْقَاءِ ، وَرَبَّمَا لَمْ يَكْثُرْ مِنْ ذَلِكَ شَاعِرٌ كَمَا أَكْثَرَ الْأَبْيُورْدِيُّ ، فَقَدْ جَعَلَ لِلنَّجْدِيَّاتِ
أَوْ الْغَزَلِ النَّجْدِيِّ الْعَذْرَى قِسْمًا مُسْتَقِلًا مِنْ أَقْسَامِ دِيَوَانِهِ الْكَبِيرِ ، وَمِنْ نَجْدِيَّاتِهِ :

نَزَلْنَا بَنَجْمَانَ الْأَرَاكِ ، وَلِلنَّدَى سَقِيطٌ بِهِ ابْتَلَّتْ عَلَيْنَا الْمَطَارِفُ (٢)
فَبْتُ أَعَانِي الْوَجْدَ وَالرَّكْبُ نَوْمٌ وَقَدْ أَخَذْتُ مِنْ السَّرَى وَالتَّنَائِفِ (٣)
وَأَذْكُرُ خَوْدًا إِنْ دَعَانِي عَلَى النَّوَى هَوَاهَا أَجَابَتْهُ الدَّمُوعُ الذَّوَارِفُ
لَهَا فِي مَغَانِي ذَلِكَ الشَّعْبِ مِثْلٌ لَنْ أَنْكَرْتَهُ الْعَيْنُ فَالْقَلْبُ عَارِفُ
وَقَفْتُ بِهِ وَالدَّمْعُ أَكْثَرُهُ دَمٌ كَأَنِّي مِنْ جَفْنِي بَنَجْمَانَ رَاعِفُ (٤)
وَعَلَى نَحْوِ مَا يَجْعَلُونَ مَحَبَّتَهُمْ نَجْدِيَّةً يَجْعَلُونَهَا مُمْنَعَةً ، فَحَوْلَهَا أُسْدٌ يَحْمُونَهَا ، بِحَيْثُ
لَا يَسْتَطِيعُ الْحُبُّ الْوَلَهَانُ أَنْ يَلْقَاهَا أَوْ يَقْرُبَ مِنْ حِمَاهَا ، فَدُونَهَا الْمَوْتُ الزُّوَامُ ، وَفِي ذَلِكَ
يَقُولُ الطُّغْرَائِيُّ فِي لَا مِيتَةٍ (٥) :

إِنِّي أُرِيدُ طُرُوقَ الْحَيِّ مِنْ إِضْمٍ وَقَدْ حَمَاهُ رُمَاةُ الْحَيِّ مِنْ نُعْلٍ
يَحْمُونَ بِالْبَيْضِ وَالسَّمْرِ اللَّدَانِ بِهِ سَوْدُ الْغَدَائِرِ حُمَرُ الْحَلِيِّ وَالْحُلِّ
فَالْحُبُّ حَيْثُ الْعِدَا وَالْأُسْدُ رَابِضَةٌ حَوْلَ الْكِتَاسِ لَهَا غَابٌ مِنَ الْأَسَلِ
فَهُوَ يَرِيدُ الْإِلْمَامَ بِحَيِّ مَعْشُوقَتِهِ فِي إِضْمٍ ، فِيرَى دُونَ ذَلِكَ أَهْوَالًا ، فَقَدْ حَمَاهُ رُمَاةٌ مِنْ

(٣) التَّنَائِفُ : الْمَقَارِزُ . السَّرَى : السَّيْرُ لَيْلًا .

(١) الْبَيْتَةُ ٣٣٦/٣ .

(٢) نَجْمَانُ : وَادٍ بَيْنَ عُرَفَاتٍ وَالطَّائِفِ . الْأَرَاكِ : مِنْ (٤) رَاعِفٌ : مِنَ الرَّعَافِ وَهُوَ الدَّمُ السَّائِلُ مِنَ الْأَنْفِ .

(٥) دِيْوَانُ الطُّغْرَائِيِّ ص ٥٤ .

أَشْجَارُ الْبَادِيَةِ ، الْمَطَارِفُ : الثِّيَابُ .

عشيرة تُعل المشهورون منذ امرئ القيس بحذقهم في رمي السهام ، وهم مسلحون بالسيوف والرماح ، يحمون نساءهم الفاتنات ، الرابضات في الحدور وكأنهن ظباء في كِناس تحوطه غابة ضخمة من الزماح ، والأسد جُثومٌ ، والموت الأحمر ينتظر كل من يدنو أو يقترب . ونقف عند شاعرين من شعراء الغزل في العصر .

أبو الفرج ^(١) بن هندو

هو علي بن الحسين بن هندو ، وسقطت كلمة علي من اليتيمة وصحح الاسم الثعالبي في تتمتها . وكان من النابهين في الطب والفلسفة والأدب والشعر ، وله من الكتب مفتاح الطب والمقالة المشوقة في المدخل إلى علم الفلسفة وكتاب الكلم الروحانية من الحكم اليونانية وهو مطبوع ومنشور بالقاهرة . وقد تتلمذ في الفلسفة والطب على يد أبي الخير بن الحمّار وكان من أجل تلاميذه ، ووفد على الصاحب بن عباد ، فقرّبه إليه ، وكان أحد كتاب الإنشاء في ديوان عضد الدولة البويهى ، وعاش بعده طويلاً إلى أن وافته المنية بمرجان سنة ٤٢٠ . وكان له ديوان شعر لم يصل إلينا ، ويقول الثعالبي : « هو مع ضربه في الآداب والعلوم بالسهام الفائزة ، وملكه رِقّ البلاغة والبراعة ، فردّ الدهر في الشعر وأوحد أهل الفضل في صيد المعاني الشوارد ، ونظم القلائد والفرائد ، مع تهذيب الألفاظ البليغة وتقريب الأغراض البعيدة وتذكير الذين يسمعون ويروون بقوله تعالى : (أفسِحْ هذا أم أنتم لا تبصرون) » . ويُشَدُّ له كثيراً من غزلياته وخاصة في التمتة ، من ذلك قوله :
تقول : لو كان عاشقاً دَنَفًا إِذْنُ بَدَتْ صُفْرَةٌ بِخَدَيْهِ
لَأَتُنْكَرِيهِ فَإِنْ صُفْرَتِهِ غَطَّتْ عَلَيْهَا دَمَاءُ عَيْنَيْهِ

وهو برهان بدیع ، وطبيعى لمن درس الفلسفة أن يحسن التعليل ، فصفرته متوارية في خَدَيْهِ ، تُوارِيها دَمَاءُ عَيْنَيْهِ . وتكثر هذه العلل الطريفة في غزله على شاكلة قوله :
عارضَ وَرْدُ الغصونِ وَجَّتَهُ فَاتَّفَقَا فِي الجِمالِ واختَلَفَا
يزداد بالْقُطْفِ وَرْدُ وَجَّتِهِ وينقصُ الوردُ كَلِمًا قُطِفَا
فوجنة صاحبته وردها غريب ، ورد يزيده القطف ، إذ يزداد خدها به خجلاً واحمراراً ، فيزداد الورد ويكثر ولا ينقص أبداً ولا تغيض حمرة ، بل لا يزال يولّد فيه

(١) انظر في ترجمة أبي الفرج بن هندو اليتيمة ٣/٣٩٤ أنى أصبغة (طبعة مكتبة الحياة - بيروت) ص ٤٢٩
وتمة اليتيمة ١/١٣٤ والدمية ٢/٥٧ ومعجم الأدباء وفيات ٢/٩٥ وتاريخ حكماء الإسلام للبيهقي
١٣٦/١٣ وعيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن ٩٣-٩٥ .

القطف وردا لا ينتهى ، ويتلطف لصاحبة له قائلا :

أيا بدرا بلا كَلَفٍ به دونَ الورى كلفى
أين لي دُرٌّ تُغْرِكُ ما بهاءُ الدرِّ فى الصِّدْفِ
وواضح أنه يطلب إليها فى رقة أن تبسم له ، حتى تفتح له أبواب النعيم على مصاريعها ، وعلى مثال هذا التلطف قوله :

قولا لهذا القمر البادى مالك إصلاحى وإفسادى
زود فؤادا راحلا قُبلةً لأبدَ للراحل من زادِ
فكل مسافر لابد له من زاد ، وهو يريد أن يأخذ زاداً لروحه : قُبلة من محبوبته ، تظلُّ تغدِّ مشاعره ، حتى يعود إليها من رحلته الطويلة . ويحاول فى غزله دائماً أن يأتى بصور مبتكرة ، فيجلب كثيرا من الصور الغريبة كقوله :

ليس لى من أذى الفراق اكتئابٌ قد كفتنى عيني جميعَ اكتئابى
كلما شئتُ أسبلتُ دمَ قلبي فأرى فيه صورةَ الأحباب^(١)
فهو لا يكتب للفراق كغيره من العشاق الذين طالما شكوا منه واكتبوا ، إذ تردُّ عينه عنه اكتابه بدموعها التى تنزف فيها دماء قلبه ، تلك التى يرى من خلالها صورة الأحباب ، فصورتهم لا تغادر دموعه . وإذا كان المحبون طالما شكوا من طول الليل وظلامه الداجى فإنه يناقضهم قائلا :

ليت أن الليل دامتْ ظلمةٌ فلقد جَلَّتْ لدينا نعمةٌ
مثلتْ صُدْغِيكَ لى ظلمتُهُ وأرتْ خَدْيِكَ عيني أنجمُهُ
فهو يتمثل فى الليل محبوبته ، إذ يرى فى ظلمته خُصَلَ شعرها المنسدلة على خديها ، ويرى خديها فى نجومه المتألقة ، وهو بُعدٌ فى الوهم والتخيل ، وله :

قالوا اشتغلْ عنهم يوماً بغيرهم وخادعِ النفسَ إن النفسَ تنخدعُ
قد صيغَ قلبي على مقدارِ حبِّهم فما لبَّ سواهم فيه متسعُ
وهو ردُّ طريف على من يطلبون إليه السلوى عن بعض أحبابه بحبِّ سواهم ، فقلبه مشغول دائماً بهم وليس فيه مكان لغيرهم . وله معانٍ طريفة كثيرة فى موضوعات الشعر المختلفة ، من ذلك قوله فى بخيل :

لو ماتَ لم يأكلِ الطعامَ إذا ما كان ذاكَ الطعامُ من كيسِهِ
ان لم نشاهد دُخانَ مطبخِهِ فقد شهدنا دخانَ تعبِيسِهِ

فهو لا يأكل من كيسه ، بل يخزن المال ولا يرى سروراً إلا في خزنه ، ولم يشاهد أحد له دخاناً يعلو مطبخه ، فدخانه دائماً يعلو وجهه ، تعبّس ما بعده تعبّس . ويقول في النهي عن اتخاذ الأولاد والافتناع بالوحدة :

ما لِلْمُعِيلِ ولِلْمَعَالِ إنما يسعى إِلَيْهِنَّ الْوَحِيدُ الْفَارِدُ
فَالشَّمْسُ تَجْتَابُ السَّمَاءَ وَحِيدَةً وَأَبُو بَنَاتِ النَّعْشِ فِيهَا رَاكِدٌ

وبنات النعش نجوم معروفة في السماء لا تكاد تريم ، تشاهد بالقرب من القطب الشمالى ويدعوه أباه . وله في الشكوى أشعار مختلفة منها قوله يشكو من مقامه بمدينة الرّى دون طائل :

ضِيعْتُ بِأَرْضِ الرّى فِي أَهْلِهَا ضِياعَ حَرْفِ الرّاءِ فِي اللُّغَةِ
صِرْتُ بِهَا بَعْدَ بُلُوغِ الْمُنَى يَعْجِبُنِي أَنْ أَبْلَغَ الْبُلُغَةَ^(١)

ولعل في كل ما قدمنا ما يصور شاعرية أبي الفرج بن هندو وبراعته في نظم الشعر والإتيان فيه ، وخاصة في الغزل ، بالصور والمعاني الطريفة المبتكرة .

أبو الفضل^(٢) الميكالى

هو عبيد الله بن أحمد من آل ميكال وُجَّهَاء نيسابور ، وطالما عملوا مع السامانيين في دواوينهم وولاءة لهم على بعض البلدان ، ومربّنا تنويه الثعالبي بهم ، وفي أبي الفضل يقول : « الأمير أبو الفضل عبيد الله بن أحمد يزيد على الأسلاف والأخلاف من آل ميكال زيادة الشمس على البدر ، ومكانه منهم مكان الواسطة من العقد وما على ظهرها اليوم أحسن منه كتابة وأتم بلاغة . ثم يورد الثعالبي قول بعض الشعراء في وصف بلاغته وحسن بيانه على هذا النمط :

لَكَ فِي الْحَاسِنِ مَعْجَزَاتٌ جَمَّةٌ أَبَدًا لَغَيْرِكَ فِي الْوَرَى لَمْ تُجْمَعْ
بِحِرَانٍ : بَحْرٌ فِي الْبَلَاغَةِ زَانُهُ شِعْرُ الْوَلِيدِ وَحُسْنُ حِفْظِ الْأَصْمَعِيِّ^(٣)
وَإِذَا تَفَتَّقَ نَوْرُ شِعْرِكَ نَاضِرًا فَالْحُسْنُ بَيْنَ مَرْصَعٍ وَمَرْصَعٍ
أَرْجَلَتْ فَرْسَانَ الْقَرِيضِ وَرُضَّتْ أَفْ رَلْسَ الْبَدِيعِ وَأَنْتَ أَمَجْدُ مَبْدِعِ^(٤)

وليست عندنا معلومات واضحة عن حياة أبي الفضل ، ويدكر ابن خلكان أنه دخل

(١) البلغة : ما يكتفى لسد الحاجة .

(٣) الوليد : البحترى

(٢) انظر في أبي الفضل البيهقي ٣٥٤/٤ وفوات (٤) أفراس : ج فرس ، فرسان : ج فارس .

الوفيات ٥٢/٢ وابن خلكان ٢٠٢/٣ ، ١٠٩/٥

بغداد بعد صدوره من الحج سنة ٣٩٠ وأن له مصنفاً يسمى المختل جمع فيه مختارات شعرية . ويروى الثعالبي له شعراً قاله في نكبة ، ويبدو أنه حُبس في عهد الغزنويين حين استولوا على إمارة السامانيين . وقد أنشد الثعالبي طائفة كبيرة من أشعاره منها بُد في الغزل من مثل قوله :

لقد راعني بَدْرُ الدُّجَى بِصدوده ووَكَّلَ أَجفاني بِرِغْمِي كواكِه
فيا جَزَعِي مَهْلاً عساه يعود لي ويا كبدِي صَبْراً على ما كواكِ به

وواضح أنه قصد إلى الجناس قصداً في قافيتي البيتين ، فكلمه «كواكه» في البيت الأول لا تنقص عنها شيئاً كلمه «كواك به» . وهذا هو البديع الذي يشير إليه مادحه . إذ شَغَف الإيرانيون أو قل كثير منهم بصنعة الجناس ، حتى ليروى الثعالبي في يتيمة أن شاعراً يسمى أبا حفص عمر بن علي المطوعي ألف في أجناس التجنيس كتاباً ، ويقول الميكالي :

أَنكَرْتُ مِنْ أَدْمَعِي تَنَرَى سَوَاكِبُهَا
سَلَى جُفُونِي هَلْ أَبْكِي سَوَاكِبُهَا

والبيتان خفيفان في موسيقاهما ، ولكنه أثقلهما بهذا الجناس المتعمد في القافيتين : «سواكها» و «سواك بها» . وقد يجعل الجناس بين كلمتين في البيت الواحد كقوله :
وَأَصْدَاعُهُ يَلْسَعُنِي كَالْعَقَارِبِ وَالْحَاظُهُ يَفْعَلُنَ فِعْلَ الْعُقَارِ فِي
وقوله :

أَلَا لَيْتَ الْجَوَابَ يَكُونُ خَيْرًا فَيَشْفِي مَا أَحَاطَ مِنَ الْجَوَى فِي
والعقارب الأولى في البيت الأول : جمع عقرب ، والعقار في نهاية البيت : الخمر ، والجوى في نهاية البيت الثاني : حُرقة الوجد ولوعته ، وقد أضاف إليها كلمة « بي » ليم له الجناس بين آخر البيت وكلمة الجواب في أوائله ، ويقول :

ظَبْيٌ يَحَارُ الْبَرْقُ فِي بَرِيقِهِ غَنِيْتُ عَنْ إِبْرِيقِهِ بِرِيقِهِ
فَلَمْ أَزَلْ أَرُشِفُ مِنْ رَحِيقِهِ حَتَّى شَفِيتُ الْقَلْبَ مِنْ حَرِيقِهِ

وقد أدخل على كلمة « ريقه » وهو رُضاب الفم الباء ليم له الجناس بين نهايتي الشطرين المتقابلين ، والجناس في البيت الثاني أكثر قبولاً إذ جانس بين « رحيقه » و « حريقه » لتداخل الصورة معه ولأن الجناس ليس تاماً ، فالتكلف فيه يبدو أقل قليلاً ، ويقول :

شَافَهُ كَفَيْ رَشَاءً بِقَبْلَةٍ مَا شَفَتْ
فَقُلْتُ إِذْ قَبَّلَهَا يَا لَيْتَ كَفَيْ شَفَتِي

والجناس مقبول في البيت الثاني ، وربما الذي جعله مقبولا أن كلمة « كفى » هيأت له واستدعته ، فخفف التكلف فيه ، ولم تمجّه النفس ، ومثله قوله :
 ماذا عليه لو أباح ريقه لقلب صب يشتكى حريقه
 والجناس هنا بين « ريقه » و « حريقه » مقبول لأنه ليس جناسا تاما يبدو فيه القصد والتكلف ، وكأنه جناس طبيعي استدعاه الكلام ، وقارن ذلك بقوله :
 صدف الحبيب بوصله فجفا رقادى إذ صدف
 ونثرت لؤلؤ أدمع أضحى لها جفنى صدف
 فقد جانس بين قافيتي البيتين باستخدامه كلمة « صدف » الأولى بمعنى أعرض ،
 والثانية بمعنى غشاء اللؤلؤة ، والتكلف شديد الوضوح . وكثيرون غيره من معاصريه كانوا يذهبون مذهبه في هذا الجناس الثقيل الذي كثيرا ما تقابل فيه كلمتان كلمة واحدة ، ويقرب منه في هذا التصنع بل ربما زاد عليه وأربى أبو الحسن أحمد^(١) بن المؤمل ، وقد روى له منه الثعالبي أبياتا كثيرة في الغزل وغير الغزل . وللميكالى وراء غزله أشعار في وصف الطبيعة وفي الإخوان ، وله مداعبات ، ولا يخلجها أيضا من تصنعه ، كقوله :
 فتى سخط النصب في قدره كما رضى الخفض في قدره
 وقد تصنع لذكر النصب والخفض المعروفين في النحو ، وأراد أنه لا ينصب قدره ولا يدع فيها شيئا يطبخ ، كما رضى بالدون في قدره فلا كرم له ولا همة . ومن طريف ما روى له الثعالبي قوله :

كم والد يحرم أولاده وخيره يحظى به الأبعد
 كالعين لا تبصر ما حولها ولحظها يدرك ما يبعد

ولعل فيما قدمنا ما يدل على شاعرية أبي الفضل الميكالى ، ولو لم يثقلها بكلف الجناسات لبدا خصصها واضحا ، إذ كان غزير المعاني والصور . وليس من ريب في أن إعجاب الشعراء والأدباء من حوله بجناساته هو الذى جعله يبالغ في ذلك ويغلو فيه .

٢

شعراء اللهو والمجون

كان شعر اللهو والمجون منتشرا في إيران طوال العصر ، إذ كان هناك من ينغمسون في الملاحى والخمور إما لتحلل الأخلاق وإما هروبا من مآسى الحياة وما فيها من اضطراب

(١) انظر ترجمته في البيمة ١٤٨/٤ .

القيم ، وكان يتورط فيها كثيرون من رجال الدولة : سلاطينها ووزرائها . ومرت بنا أبيات لعصدة الدولة في غير هذا الموضع يقول فيها إن متاع الحياة إنما هو الشرب في المطر وغناء الجوارى في السحر . وكان وزراؤه على شاكلته يعكفون على الخمر ويتغنون بها في أشعارهم من مثل قول الصاحب بن عباد في وصف كأس مملوءة بالخمر^(١) :

رَقَّ الزَّجَاجُ وِرَاقَتِ الْخَمْرِ وتَشَابَهَا ، فَتَشَاكَلِ الْأَمْرُ
فَكَأَنَّمَا خَمْرٌ وَلَا قَدَحٌ وَكَأَنَّمَا قَدَحٌ وَلَا خَمْرٌ
وكان كثيرا ما يحاكي الصنوبري في ثلجيته أو بعبارة أخرى في ذكره الخمر مع الثلج ونزوله في الشتاء القارس وفي ذلك يقول^(٢) :

أَقْبَلَ الثَّلْجُ فَانْبَسِطَ لِلْسُرُورِ وَلشُرْبِ الْكَبِيرِ بَعْدَ الصَّغِيرِ
أَقْبَلَ الْجَوُّ فِي غَلَاثِلِ نُورٍ وَتَهَادَى بِلَوْلُؤِ مَنْشُورِ
فَكَأَنَّ السَّمَاءَ صَاهَرَتْ الْأَرْضَ ضَ فَصَارَ النَّثَرُ مِنْ كَافُورِ

وكأنما يتصور الدنيا تجلو عروسا . وتتكاثر هذه الثلجيات عند غيره من شعراء العصر ، فقد أكثروا من وصف شرب الخمر واحتسائها في أيام الثلج وزمهريره ، ومعروف أن العكوف على الخمر قديم في إيران منذ أعتق عصورها ، وظل ذلك طوال الحقب ، ويقول أبو عبد الله الروزباري^(٣) :

مَا لِابْنِ هَمْ سَوَى شُرْبِ ابْنَةِ الْعَنْبِ فَهَاتَهَا قَهْوَةً فَرَّاجَةً الْكُرْبِ
أَدَهَقُ كُتُوسِكَ مِنْهَا وَاسْقِنِي طَرِبًا عَلَى الْغُيُومِ فَقَدْ جَاءَتْكَ بِالطَّرِبِ^(٤)
نِثَارُ غَيْثٍ حَكَى لَوْنَ الْجَانِ لَنَا فَاشْرَبْ عَلَى مَنْظَرٍ مُسْتَحْسَنِ عَجَبِ
جَادِ الْغَامِ بِدَمْعٍ كَاللَّجَيْنِ جَرَى فَجُدْ لَنَا بِالنِّى فِي اللَّوْنِ كَالذَّهَبِ

فهى فرحتهم ومسرهم في دنياهم ، وهم يعبون منها أرطالا تلو إرطال حين يكفهر الجو بالسحب ، لما تبعث في النفوس من طرب في أيام الشتاء المفصضة ، التى تتناثر فيها الأمطار ، وكأنها نثار عرس مفرح ، نثار فضى مبهج ، ويقول أبو المظفر ناصر بن منصور البسنى المعروف بالغزال^(٥) :

وَإِذَا الْهَمُومُ تَطَاوَلَتْ فَاطْلَبُهَا عَيْشًا هَنِئًا بَانْتِرَاعٍ مَدَامِ
صَهْبَاءُ تَسْطَعُ فِي الْكُتُوسِ كَأَنَّهَا نَارٌ تَجِيشُ بِوَقْدَةٍ وَضَرَامِ
مِنْ كَفِّ سَاقٍ لَوْ سَقَاكَ بِكَفِّهِ سَمَاءٌ لَكَانَ شِفَاً لِكُلِّ سَقَامِ

(٤) أدَهَقُ : املأ .

(٥) الدمية ٣٥٨/٢ .

(١) النجوم الزاهرة ١٧١/٤ .

(٢) البيتمة ٢٦١/٣ .

(٣) البيتمة ٤١٦/٣ .

وكانها معصورةً من خدّه إذ ظَلَّتْ تَرْمَقُهُ بِلَحْظِ سامٍ
وأبو المظفر يريد أن يعيش حياته لتناول الكئوس التي تلهب فؤاده ، من كف ساق
يقدم له بها ما يشفى سقامه ، ويتخيلها كأنما عصرت من خدود جميلة ، وهو يكبّ عليها
غير محتشم ولا مفكر في رشاد ، فحسبه الخمر وحسبه احتساؤها ، وليكن من الإثم ما
يكون ! ودائماً تلقانا هذه الخمريات في تراجم الشعراء ، إذ كان يتورط فيها كثيرون من
مثل عمر الهرندى القائل (١) :

لا أحبُّ المُدَّامَ إلا العَتِيقَا ويكونُ المزاجُ من فيك رِبِقا
إنَّ بين الضلوع منى ناراً تتلظى فكيف لى أن أُطِيقَا
بجياقٍ عليك يا مَنْ سقانى أرحيقاً سقيتنى أم حريقا

فبين ضلوعه نار متقدة لا يشفيها إلا الخمر وهو يعكف عليها ، ولا يدرى أحريق هى أم
رحيق لأنها تدفعه دائماً إلى المزيد ، بحيث لا يستطيع أن يتصرف عنها ، إذ تأخذ عليه
طريقه . وإنها لتظلل تملؤه حباً لها وشوقاً لارتشافها ، وهو يرتشف ولا يدرى أيرتشف رحيقا
أو نارا أو قل أيرتشف شرابا هنيا أو سماً زعافا ، وهو ممن فى الشرب متعلق به ، لا
يستطيع فككا منه ولا خلاصا . وكانت للخمر مواسم عندهم هى الأعياد الفارسية
والمسيحية ، ففي عيد الشعانين وفى أعياد النيروز والمهرجان والسّدق أو النار المجوسية
يشربون منها ويعبّون فى احتفالات صاخبة . وكانوا يشربونها كثيرا وسط الرياض ، ولذلك
يكثر عندهم معها وصف الطبيعة والربيع البهيج . وتلقانا فى أثناء ذلك أبيات طريفة من
مثل قول أبى منصور قَسَمَ بن إبراهيم ، وكان ينظم باللسانين العربى والفارسى (٢) :

وَحُبِّبَ فى الثلج الربيعُ وحُسْنُهُ كما اِكتَنَ فى بَيْضِ فِراخِ الطَّوَاوِسِ
وكانوا يخرجون أحيانا للصيد والطَّرْد ، ولأحمد بن عضد الدولة طردية بدعية (٣) .

ونعجب لألفاظ الفحش والمقادير التي نجدها عند بعض الشعراء ، وهو جانب أشاعه فى
العصر ابن الحجاج الشاعر البغدادى المتوفى سنة ٣٩١ وموطنه ابن سكرة . ويلاحظ ذلك
صاحب الدمية حين يترجم للمشطّب الهمداني ، فيقول : « له أشعار سخيفة نسج فيها
على منوال ابن الحجاج (٤) » ويذكر منها قصيدة مليئة بالفحش ، وحتى الصاحب بن
عباد الوزير الوقور تجرى أمثلة من هذا الفحش على لسانه فى أشعاره (٥) ، وهى وصمة لا

(٤) الدمية ٥٧٢/١

(١) البيئمة ٤١١/٣

(٥) البيئمة ٢٧٥-٢٧٢/٣

(٢) تمة البيئمة ٤٥/٢

(٣) البيئمة ٢٢١/٢

شك فيها . وحسبنا الآن أن نعرض شاعرين من شعراء الخمر والمجون في العصر هما أبو بكر القهستاني وأبو الحسن الباخريزي .

أبو بكر^(١) القهستاني

هو علي بن الحسن القهستاني من قرية رُحَج من قرى كابل ، بزغ نجمه في دولة السلطان محمود الغزنوي ، إذ سلكه بين ندماؤه ووظفه في دواوينه ، واتصل بابنه محمد ، وأصبح رئيسا لديوانه في أثناء ولايته لأبيه على خوزستان ، وكان ممدحا ، مدحه كثيرون منهم الباخريزي والفرخي السجستاني الشاعر الفارسي المشهور ، وكان يمدح بدوره الأمير محمد الغزنوي ، بمثل قوله :

محمد بن محمود أبو أحـ حد مولي أمير المؤمنين
جلال الدولة العلّاء دُنيا جمال الملة العلّاء دينا
ولي العهد عهد الملك طوبى لنا إذ ظل ظل الله فينا

وهو يشير إلى تولية السلطان محمود لابنه محمد ولاية العهد من بعده دون أخيه مسعود . وتعدُّ الفترة التي قضاها معه أزهى فترات حياته ، فقد كان يحس بإقبال الدنيا عليه ، وخاصه حين كان يتولى قيادة جيوشه . وقد تحول بمجلسه في ديوانه إلى ندوة أدبية كبيرة كان ما يبنى يمزح فيها وفي مجالس أميره بإنشاد بعض الألغاز المعجزة وامتحان الأدباء والندماء فيها من مثل قوله :

دقيقة الساق لا عروق لها تدوس رزق الورى بهامتها
وهو لغز أراد به مغرفة الباقلائي يغرف بها الماء ويهشم برأسها الخبز والثريد وهو رزق الورى . وتكثر هذه الألغاز منذ فاتحة العصر ، ونراها مبثوثة في كتاب اليتيمة في أشعار ابن العميد وغيره ، وكأنها دعابات كانت تطفو في مجالس الأدباء والوزراء . ويتولى محمد مقاليد الحكم بعد أبيه سنة ٤٢١ غير أن أخاه مسعودا يسلبه منه كما مر بنا في غير هذا الموضع . ونرى القهستاني يترك بلاط الغزنويين ودواوينهم إلى بغداد ، فيمدح الخليفة القادر بالله (٣٨٢ - ٤٢٤ هـ) قائلا :

ولم يرني ذو مئة غير خالقي وغير أمير المؤمنين ببابه
ويمدح وزيره وكتابه أبا طالب بن أيوب ، كما يمدح المرتضى نقيب الشيعة ويبدو أنه

(١) انظر في القهستاني تمة اليتيمة ٧٣/٢ ودمية القصر دقات الشعر (نشر الدكتور إبراهيم أمين) ص ١٠٠ .
٢١١/٢ ومعجم الأدباء ٢١/١٣ وحدائق السحر في

ظل ببغداد إلى نهاية العقد الثالث من القرن الرابع ، حتى إذا استولى السلاجقة من السلطان مسعود الغزنوى على خراسان سنة ٤٣١ وضع يده في أيديهم إلى أن توفى . ولا تُعرف بالضبط سنة وفاته . وكان مثقفا ثقافة واسعة ، إذ يقول القدماء إنه عُنى بتحصيل علوم الأوائل حتى اتهمه بعض معاصريه بالمروق من الدين . ويقول ياقوت إنه كان كثير المزاج ، راغبا في اللهو والمزاح ، وله في ذلك خاطرٌ وقادٌ وحكايات متداولة . وله خمريات بدعية . ، كان يتغنى فيها المغنون بحضرة الأمير محمد الغزنوى من مثل قوله :

قُمْ يا خليل فاسقني كشعاع خدك من شراب
فلقد يمرُّ العيش مُدَّ قرضاً ولا مرَّ السحاب
فانعم بعيشك ما استطعت ولا تضعْ شرخَ الشباب
فلکم أضعَت من الشبا ب وما استفدت سوى اكتاب

وهو يدعو صديقه دعوة حارة إلى الشراب ، قبل أن يفنى عمره الذى يمرُّ مُسرِعاً مرَّ السحاب ، وقبل أن تذبل زهرة شبابه ، وكم أضعاع من أيام الشباب ، ولم يفد - كما يقول - سوى الاكتاب والغم والحسرات ، ويهتف به ثانية :

تمتّع من الدنيا فأوقاتها خلّسْ وعمرُ الفتى - ملّيت - أطولُه نفسْ
وسارعْ إلى سَهْمٍ من العيش فاترْ فما ارتدَّ سَهْمٌ قطْ يوما ولا احتبسْ
ولا تتقاضَ اليومَ همَّ غدٍ ودعْ حديثَ غدٍ فالإشغالُ به هوسْ
هى الروحُ كالمصباح والراحُ زيتُها فدونك عنيْ إنما الرأى يُقتبسْ
وهى دعوة ملتهبة لانهاز فرصة الشراب ، فليس في الدنيا وراءه - فى رأيه - نعم ولا

متاع ، ودعك من الموم كما يقول ، ودع التفكير فى الغد . وهى نفس النعمة التى نَجدها فى رباعيات الحيام الفارسية ، فالحياة فانية ، وهى سريعة الفناء ، وعلى الإنسان أن يتدارك يومه ، بل اللحظة التى هو فيها ، ليشرب وينعم بالشراب ، إذ هو زيت الروح ، بدونه تنطفئ وتظلم ، وبه تضيئ ضوء الفرح والهجة والمرح . ودأما تلقانا هذه الحمريات البهيجة عند القهستانی وأنداده من شعراء إيران ، وإنه ليعلم دائما أنه سيزل ما عاش يشرب الخمر صفوا . وله وراءها غزليات وأهاج فى الوزير الميمندى كاتب السلطان محمود الغزنوى وبعض معاصريه ، وله بعض مقطوعات كان يتصنع فيها للجناس ما وسعه التصنع كمقطوعته :

تمتّع بيومٍ مُسعِدٍ التُّججِ مُسَعِفٍ ودعْ قولَ لاحِ مُعْنَتِ التُّصَحِّ مُعْنِفٍ
وهى مليئة من بدايتها إلى نهايتها بمثل هذه الجناسات ، وأيضا كان يقتبس كثيرا بعض

الآيات القرآنية كقوله في بعض مديحه :

سما بك من فوق السمواتِ رَبَّةً أَبُ لَكَ يدعو الله في السرِّ والجهرِ
كما قد دعا موسى لهرون رَبَّهُ أَنْ (اشدُّدْ به أَزْرِي وَأَشْرِكُهُ في أَمْرِي)
ولا ريب في أنه كان شاعرا بارعا ، كما كان كاتباً نابهاً دُونت رسائله كما دُونت
أشعاره ، ويقول ياقوت : « له أشعار فائقة ، ورسائل رائقة » .

أبو الحسن ^(١) الباخرزي

له كنيستان أبو الحسن وأبو القاسم ، واسمه على بن الحسن بن علي بن أبي الطيب ، من
باخرز ، من نواحي نيسابور ، ونراه يُعْنَى في شبابه بالاختلاف إلى حلقات العلماء
بنيسابور ، وَيُكَبُّ على الاشتغال بالفقه على مذهب الإمام الشافعي ، ويختص بملازمة
دروس الفقيه المشهور لعصره أبي محمد الجويني والد إمام الحرمين . ويتجه إلى فن
الكتابة . ويوظف في ديوان الرسائل لدى الغزنويين ، وحين يرتفع نجم السلاجقة نراه
يرحل إليهم ويشغل في دواوينهم ، إذ يصبح كاتباً للسلطان « طغرل » وله فيه مدائح بديعة
من مثل قوله :

سِرْنَا ومِرَاةَ الزمانِ بحالها فالآن قد مُحَقَّتْ وصارتْ مِنْجَلًا
تَحْدُ الرِّكَابُ فلا تعوجُّ بنا على طَلَّ الحبيب ولا تُحْيِي المتزلاً ^(٢)
وتَحْرُكُ الأعطافَ تَشْمِيرًا بنا تَتِمُّمُ الملكُ المظفر طُغْرُلًا
وقربه منه الوزير الكُندري ، وكانا يتعارفان في شبابهما ، ويبدو أنه هو الذي وصله
بطغرل ، وكان يلزمه في حله وترحاله ، فلما ورد بغداد صاحبه معه ، وفيها مدح الخليفة
القائم بأمر الله سنة ٤٥٥ بقصيدته التي صدر بها ديوانه مفتتحاً لها بقوله :
عَشْنَا إلى أَنْ رأينا في الهوى عجباً كلَّ الشهور وفي الأمثال عِشْرَ رَجَبًا
أليس من عجبٍ أَنِي ضَحَى ارتحلوا أو قدتُ من ماءٍ دمعى في الحشا لَهَا
وَأَنْ أَجْفَانِ عَيْنِي أَمْطَرْتُ وَرَقًا وَأَنْ سَاحَةَ خَدَيَّ أَنْبَتَ ذَهَبًا
وإنْ تَلَهَّبَ يَرْقُ من جوانبهم توقَّدَ الشوق في جَنبَيَّ والتهبا
ولما سمع البغداديون شعره استهجنوه وقالوا فيه برودة العجم ، لما لاحظوا فيه من تكلف

٩٥/٣ وشذرات الذهب ٣٢٧/٣ وبراون (ترجمة
الشواربي) ص ٤٥١ .

(٢) تحد : تسرع . تعوج : تميل

(١) انظر في الباخرزي كتاب الأنساب ٥٧ ب ومجمع
الأدباء ٣٣/١٣ وابن خلكان ٣٨٧/٣ والنجوم الزاهرة
٩٩/٥ والسبكي ٢٥٦/٥ واللباب ٨٣/١ ومِرَاة الجنان

وتصنع ، على نحو ما نرى في البيت الأول إذ حاول أن يستغل المثل : «عَشْ رَجَبًا تَرَّ عَجَبًا» فقال إن شهور الممدوح كلها عجيبة ، ومضى في تصنعه ، فناء دموعه يوقد جحيا في حشاه وأجفان عينه تمطر ورقا أو دموعا كالفضة الصافية ، بينما تنبت ساحة خده حين الوداع ذهابا ، وحين رأى البغداديين يستبدون أشعاره انتقل إلى الكرخ وسكنها وخالط فضلاءها وسوقها مدة ، واقتبس من لغتهم وظرفهم ، ثم أنشأ قصيدة استهلها بقوله : هَبَّتْ عَلَى صَبَا تَكَادُ تَقُولُ إِنِّي إِلَيْكَ مِنَ الْحَبِيبِ رَسُولُ سَكْرَى تَجَشَّمَتِ الرُّبَى لِتُرَوِّى مِنْ عِلَّتِي وَهَوِيَّهَا تَغْلِيلُ فاستحسنها البغداديون ، وقالوا تغير شعره ورق طبعه . وظل ملازما الكندرى في مدينة الرى عاصمة طغرل عاملا في دواوين الدولة ، ومقدما له مدائح كثيرة ، إلى أن قبض السلطان ألب أرسلان على الكندرى وأمر بقتله ، وله مرثية فيه غير أنه يشيد فيها بقاتله ، مما جعل القدماء يأخذون عليه عدم الوفاء . ويبدو أنه أخذ يُعْنَى منذ ذلك بتأليف كتابه دمية القصر الذى نرجع إليه كثيرا ، مذكرا به على بريمة الدهر للعالبي ، كما مر بنا في غير هذا الموضع . واستقال من عمله في دواوين السلاجقة وأخذ يعيش عيشة لاهية ماجنة انتهت بمقتله في إحدى ليالى أنسه سنة ٤٦٨ للهجرة . وكان ينظم ، باللسانين العربى والفارسى ، وله في الفارسية قصيدة طويلة جعل عنوانها «طرب نامه» أو رسالة الطرب ، وهى مؤلفة من رباعيات فارسية تتوالى بحسب الترتيب الهجائى للحروف . وكان ما يزال يحاول النفوذ إلى معان وصور غريبة نادرة ، من ذلك قوله يصف شدة البرد وزمهريره .

كَمْ مُؤْمِنٍ قَرَصَتْهُ أَظْفَارُ الشَّتَا فَعَدَا لِسُكَّانِ الْجَحِيمِ حَسُودَا
وَتَرَى طَيُورَ الْمَاءِ فِي وَكْنَاتِهَا تَخْتَارُ حَرَّ النَّارِ وَالسَّقُودَا
وَإِذَا رَمَيْتَ بِفَضْلِ كَأْسِكَ فِي الْهَوَى عَادَتْ عَلَيْكَ مِنَ الْعَقِيقِ عُقُودَا
يَا صَاحِبَ الْعُودِينَ لَا تُهْمِلْهَا حَرِّقْ لَنَا عُودَا وَحَرِّكْ عُودَا

والصور في الأبيات تقوم على المبالغة الشديدة ، فالؤمن يحسد سكان الجحيم والطيور تؤثر لو تُشَوِّى على السفود . ولو رميت فى الهوى بفضل الكأس لتجمدت حبات الخمر وأصبحت عقودا . وينادى على المغنى أن يحرك عود طرب للغناء ويحرق عود حطب للصلاء . وله غزليات رقيقة من مثل قوله :

قَالَتْ وَقَدْ سَاءَلْتُ عَنْهَا كُلَّ مَنْ لَاقَيْتُهُ مِنْ حَاضِرٍ أَوْ بَادِي
أَنَا فِي قَوَادِكَ فَارَمِ طَرَفَكَ نَحْوَهُ تَرَنَّى فَقُلْتُ لَهَا وَأَيْنَ قَوَادِي
فَقَوَادِهِ لَيْسَ عِنْدَهُ ، بَلْ هُوَ عِنْدَهَا ، إِذْ ضَاعَ مِنْهُ ، وَهِيَ الَّتِي تَعْرِفُ مَكَانَهُ ، وَمَاذَا

عليها لورده إليه ، وله من جملة أبيات :

بصورة الوثن استعبدتني وبها فتننتني وقديما هجبت لي شجنا
لا غرو أن أحرقت نار الهوى كبدي فالنار حق على من يعبد الوثنا
والصورة طريقة غير أنه يداخلها شيء من التكلف ، إذ حاول أن يعلل لحرق نار
الهوى لكبده بأن صاحبه استعبدته بصورة الوثن ، وكأنه عبد وثنا وحق عليه النار ، ولم
يكن في حاجة إلى إيراد هذه العلة وتكلفها على هذا النحو ، فنار الهوى تحرق أكباد
الشعراء من قديم ، ولعل الصورة التالية أكثر تكلفا إذ يقول في غزله :

زكاة رءوس الناس في عيد فطرهم يقول رسول الله -صاع من البر
ورأسك أغلى قيمة فتصدق بفيك علينا فهو صاع من الدر
فقد وضع صورة الزكاة في عيد الفطر وما يجب على كل مسلم من تصدقه بصاع من البر
أو القمح في هذا العيد ، ليصل إلى أن صاحبه ينبغي أن تتصدق عن نفسها لا بصاع من
البر وإنما بصاع من الدر ، يريد ثغرها وما فيه من دُر الأسنان . والصورة في غاية التكلف .
وتكثر مثل هذه الصور منذ مطالع هذا العصر ، وكأنما أخذ يُعَيّ الشعراء أن يأتوا بصور
طبيعية أو كأنما أحسوا أن أسلافهم استفدوها ، فأخذوا يحاولون الإتيان بهذه الصور الغريبة
المبعدة في الغرابة من مثل قول الباخري أيضا لبعض صواحيبه :

وأبكي لدر الثغر منك ولي أب فكيف يُديم الضحك وهو يتيم
فهو يبكي لأنها لا تنيله شيئا ، ويعجب أن يبكي وله أب ، بينما ثغرها يضحك ، وهو
يتيم . والتورية واضحة ، فالعنى المتبادر أنه لا أب لهذا الثغر ، وهو يريد أنه منقطع النظير
حسنا . والتكلف في البيت أو قل في الصورة شديد الواضح .

٣

شعراء الزهد والتصوف

لا شك في أن موجة المجون وما اتصل بها من لهو وخمر كانت موجة محدودة ، حتى
لتكاد تكون قاصرة على البيئات المترفة ، أما بيئات الشعب العامة فلم تكن تعرف الترف ولا
ما يستتبعه من الخمر والمجون ، إنما كانت تعرف قسوة الحياة وشظفها مستعينة عليها بتقوى
الله والاستماع إلى الوعاظ في المساجد بَنيسابور وغير نيسابور وما يدعون إليه من الزهد في
الحياة ومتاعها الزائل وانتظار ما عند الله من ثواب ونعيم في الدار الآخرة . وكان هؤلاء
الوعاظ كثيرين كثرة مفرطة ، وكانوا يسمون مجالس وعظهم مجالس التذكير ، يذكرون

الناس بالخشخشة وما فيه من أهوال وبعبذاب النار ونعيم الجنان ، موردين عليهم من قصص الأنبياء والأمم السالفة ما يملأ قلوبهم إيماناً وتقوى وورعاً . وكانت العامة تُشغفُ بهم ، وتستدير حول مجالسهم منيية إلى الله مغذبةً مشاعرهم وعواطفهم بما تسمعه من مواعظهم . وكان نفر من كبارهم مثل أبي عثمان الصابوني شيخ الإسلام بنيسابور المتوفى سنة ٤٤٩ هـ ، وكان يعظ الناس بالعربية والفارسية لمدة ستين سنة متوالية^(١) ، وطبيعي أن يشعر مع هذا الوعظ شعر الزهد على السنة الوعاظ والفقهاء والنسك ، فهو الشعر الذي تهوى إليه أفئدة الشعب ، ولذلك مضى ينظمه غير شاعر حتى يستولى على ألباب سامعيه ، وتلقانا في العصر مواعظ كثيرة ، من مثل موعظة أبي الفرج الساوي حين توفى السلطان فخر الدولة البويهى ، فقد نفذ من موته إلى صنع موعظة طريفة استهلها بقوله^(٢) :

هِيَ الدُّنْيَا تَقُولُ بَمَلٍّ فِيهَا	حَذَارِ حَذَارِ مِنْ بَطْشِي وَفَتْكِي
فَلَا يَغْرُكُمُ حُسْنُ ابْتِسَامِي	فَقُولِي مَضْحَكٌ وَالْفَعْلُ مُبْكِي
يَفْخَرُ الدَّوْلَةَ اعْتَبَرُوا فَإِنِّي	أَخَذْتُ الْمَلِكَ مِنْهُ بِسَيْفِ هُلْكِ
وَقَدْ كَانَ اسْتَطَالَ عَلَى الْبَرَايَا	وَنَظَّمْ جَمْعَهُمْ فِي سَيْلِكَ مُلْكِ
فَلَوْ شِئْتُ الضُّحَى جَاءَتْهُ يَوْمًا	لَقَالَ لَهَا عَتَوَا : أَفْ مِنْكَ
وَلَوْ زَهَّرَ النُّجُومُ أَبَتْ رِضَاهُ	تَأَبَّى أَنْ يَقُولَ : رَضِيتُ عَنْكَ
فَأَمْسَى بَعْدَ مَا قَرَعَ الْبَرَايَا	أَسِيرَ الْقَبْرِ فِي ضَيْقِ وَضْنِكَ
وَنَظْنِي أَنَّهُ لَوْ عَادَ يَوْمًا	إِلَى الدُّنْيَا تَسْرِبَلُ ثَوْبَ نُسْكَ

ومضى يتخذ من موت هذا السلطان الباغي عبرة وعظة ، فلو أنه عاد إلى الدنيا لطأطأ من كبريائه وعتوه وظلمه بل لرفض الدنيا زاهدا فيها مؤثرا أن يعيش عيشة التساك . وفي كتاب اليتيمة شاعر يسمى أبا محمد إسماعيل بن محمد الدهان ، كان يشغل نفسه حقبة بمدح الأعيان والوجهاء ، ثم آثر الزهد والإعراض عن الدنيا ، ويورد الثعالبي أطرافا من شعره الزاهد^(٣) من مثل قوله :

عَبْدٌ عَصَى رَبَّهُ وَلَكِنْ	لَيْسَ سِوَى وَاحِدٍ يَقُولُ
إِنْ لَمْ يَكُنْ فِعْلُهُ جَمِيلًا	فَإِنَّمَا ظَنُّهُ جَمِيلٌ

(١) انظر ترجمته في الأنساب ٣٤٦ وطبقات المفسرين
 للسيوطي وتتمه اليتيمة ١١٥/٢ والسبكي ٢٧١/٤ .
 (٢) اليتيمة ٣٩٣/٣ .
 (٣) اليتيمة ٤٣٢/٤ .

وهو يصور فناء الإنسان السريع وخوفه من ربه ورجاءه في لطفه ، ويذكر الثعالبي أنه لما أزمع الحج وزيارة قبر الرسول ﷺ ظل ينشد :

أَتَيْتُكَ رَاجِلاً وَوَدِدْتُ أَنْيَ مَلَكْتُ سَوَادَ عَيْنِي أَمْتِطِيهِ
وَمَالِي لَا أَسِيرُ عَلَى الْمَلَأَى إِلَى قَبْرِ رَسُولِ اللَّهِ فِيهِ

ومن شعراء كتاب اليتيمة الذين شاركوا في هذا الشعر الزاهد الذي يفوح بالتقوى أبو جعفر البَحثاء الزُّوزَنِي أحد القضاة بخراسان ، وله موعظة طويلة يتحدث فيها عن الشباب ورحيله والمشيب ونزوله ، ويقف بإزاء الزمان وما يدير على الناس من كثوس شراب هنئ وشراب بغيض مرير ، ويفيض في الحديث عن الحياة والموت وكيف أتى على الملوك والحشم والجيوش وربات الخدور والحسان ، ويسخر من الأغنياء حين يموتون فإن ورثتهم يستبشرون بموتهم ، وكل منهم يصبح في شغل بميراثه ، يقول (١) :

سَبَاعُ حَوَالِيهِ زُرُقُ الْعَيْنِ كَلَابُ وَأُسْدُ وَذَبُ أَزَلُ (٢)
فَهَذَا يَجَادِبُ مَا قَدْ حَوَاهُ وَهَذَا يُخَالِسُهُ مَا فَضَّلُ
إِذَا وَضَعُوهُ عَلَى نَعْشِهِ أَشَاعُوا الْبُكَ وَأَسْرَوْا الْجَدَلَ (٣)
وَإِنْ دَفَنُوهُ نَسُوهُ مَعَاً وَكُلُّ بَمِيرَاثِهِ مُشْتَغَلُ

ويبكي أبو جعفر بدموع غزار على شبابه وما صار إليه من وهن العظم واشتعال الشيب في رأسه ، ويتوب إلى ربه منيباً مستغفراً . ويلقانا هذا الشعر الزاهد على ألسنة كثير من الشعراء في كتاب دمية القصر ، وخاصة منهم القصّاص الوعاظ ، وكان طبيعياً أن يفسح هؤلاء الشعراء لمديح الرسول عليه السلام ، وعم هذا الشعر الزاهد بين شعراء المحدثين والفقهاء . وللزحشرى ديوان لا يزال محفوظاً بدار الكتب المصرية وهو مليء بالأدعية والابتهالات وطلب الشفاعة من الرسول عليه السلام . وللغزالي بدوره أشعار زهدية كثيرة وقد ينزع بها منزع المتصوفة السنيين على شاكلة قوله (٤) :

سَقَمِي فِي الْحَبِّ عَافِيَتِي وَوَجُودِي فِي الْهَوَى عَدَمِي
وَعَذَابُ يَرْضَوْنَ بِهِ فِي قَمِي أَحَلِّي مِنَ النَّعَمِ
مَا لُضِرُّ فِي مَحَبَّتِكُمْ عِنْدَنَا وَاللَّهُ مِنْ أَلَمِ

(٣) الجذل : الفرح .

(١) اليتيمة ٤/ ٤٤٥ .

(٢) ذنب أزل : ذنب يتولد بين الضبع والذئب . (٤) انظر ترجمة الغزالي في السبكي ٦/ ٢٢٢ .

وللفخر الرازى المار ذكره أشعار زهدية طريفة ، وكان علامة في علم الكلام والتفسير والحديث والشرعيات وعلوم الأوائل ، وله في جميعها مؤلفات كثيرة . وكان في الوعظ آية ، وكان يحضر مجالسه أرباب المذاهب والمقالات في هراة ، وكان يعظ باللسانين العربى والعجمى وكان يلحقه الوجد في الوعظ ويكثر من البكاء ، ويشتهر له قوله ^(١) :

نهاية إقدام العقول عِقالُ وأكثُر سَعَى العالمين ضلالُ
وأرواحنا في وَحْشَةٍ من جُسُومنا وحاصلُ دُنْيانا أَدَى ووَبالُ
ولم نَسْتَفِدْ من بَحْثنا طولَ عُمْرنا سوى أنْ جَمَعْنَا فيه قِيلَ وقالوا
وكم قد رأينا من رجالٍ ودولةٍ فبادوا جميعاً مسرعين وزالوا
وكم من جبالٍ قد علتْ شُرُفَاتُها رجالٌ فزالوا والجبالُ جبالُ

فكل ما في الحياة حتى العلوم عبثٌ وضلال ، وما الدنيا ؟ إننا لانجنى منها سوى الأذى والوبال ، وسوى العدم والفناء الذى يحيط بالناس جميعاً وبالذول مهما عظم سلطانها ، فمالها إلى زوال . ومن كبار الشعراء الفقهاء الزهاد الإمام الرافعى القزوينى الفقيه الشافعى المشهور المار ذكره المتوفى سنة ٦٢٣ وكان له مجلس في قزوين لسباع الفقه والتفسير والحديث النبوى ، ومن قوله في الدعوة إلى الرضا بالحظ المقسوم وحمد الله في اليسر والعسر دائماً أبداً ^(٢) :

إِنْ كُنْتَ فِي الْيُسْرِ فَاحْمَدْ مَنْ حَبَاكَ بِهِ فليس حَقًّا قَضَى لَكِنَّهُ الْجُودُ
أَوْ كُنْتَ فِي الْعُسْرِ فَاحْمَدْهُ كَذَلِكَ إِذْ مَا فَوْقَ ذَلِكَ مَصْرُوفٌ وَمَرْدُودُ
وكيفما دارتِ الأيامُ مقبلةً وغير مقبلةٍ فالحمدُ محمودُ

وكان يقول : « اعلم أن الناس في الرضا ثلاثة أقسام : قوم يحسُّون البلاء ويكرهونه ولكن يصبرون على حكمه ويتركون تدبيرهم ونظرهم بحالله تعالى ، لأن تدبير العقل لا ينطبق على رسوم المحبة والهوى . وقوم يضمون إلى سكون الظاهر سكون القلب بالاجتهاد والرياضة ، وإن أتى البلاء على أنفسهم :

يَسْتَعْذِبُونَ بَلَايَاهُمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَيَّاسُونَ مِنَ الدُّنْيَا إِذَا قُتِلُوا
تُسْرَهُمُ الْبَلِيَّةُ كَمَا تُسْرَهُمُ النِّعْمَةُ ، وقوم يتركون الاختيار ، ويوافقون الأقدار ، فلا يبقى لهم تلذذ ولا استعذاب ولا راحة ولا عذاب . وفي ذكر الرافعى لكلمة المحبة ما يدل على أنه كان يتزع بزهد نزع صوفية . والتصوف كثير في العصر ولم يكن النظم فيه يقتصر على

(١) ابن خلكان ٢٥٠/٤ والسبكي ٩٦/٨ . وما بعدها

(٢) انظر في الأبيات وكلام الرافعى التالى السبكي

شعراء اللسان العربي ، بل كان يشمل المتصوفة الذين ينظمون باللسان الفارسي ، على شاكلة الشيخ سعدى الشيرازي ، وله أشعار صوفية عربية من مثل قوله ^(١) .

يا نديي قم بليل واسقني واسقني الندامي
خلني أسهر لي ودع الناس نياما
في أوان كشف الور د عن الوجه اللثاما
قل لمن غير أهل ال حب بالحب ولا ما
لا عرف الحب هيا ت ولا دقت الغراما

وهي خمرة صوفية طريفة . ومربنا في الفصل الأول أن المتصوفة في إيران كانوا يمثلون اتجاهين : اتجاهاً سنياً واتجاهاً فلسفياً ، ولعل من الخير أن نقف قليلاً عند شاعرين يمثلان النزعتين ، هما عبد الكريم القشيري ويحيى السهروردي .

عبد الكريم ^(٢) القشيري

ولد في قرية أشتوا بخراسان سنة ٣٧٦ وفيها بدأ تعليمه ، ثم انتقل إلى نيسابور حاضرة خراسان العلمية لعصره ، واتفق أن حضر مجلس الصوفي الكبير أبي علي الدقاق ، فأعجب به وسلكه بين مريديه ، وأشار عليه بالاشتغال بالعلم والفقه ، فأقبل على دروس أبي بكر الطوسي الفقيه الشافعي ، ثم اختلف إلى دروس ابن فورك حتى أتقن علم الأصول ، كما اختلف إلى دروس أبي إسحق الإسفرايني الفقيه الشافعي المتكلم الأصولي ، ونظر في كتب القاضي الأشعري أبي بكر بن الطيب الباقلاني . وسرعان ما أصبح علامة في الفقه الشافعي وفي التفسير والحديث والأصول والأدب والشعر والكتابة وعلم التصوف وعلم الكلام على مذهب الأشعري . وزوجه الدقاق ابنته حباً له ، حتى إذا توفي خلفه في مجالسه سالكاً مسالك المجاهدة والتجريد ، وأخذ في التصنيف ، فصنف التفسير الكبير قبل سنة عشر وأربعمائة وسماه « التيسير في علم التفسير » وهو - كما يقول ابن خلكان - من أجود التفاسير . وخرج إلى الحج في رفقة ، فيها الشيخ أبو محمد الجويني والد إمام الحرمين وأحمد

٢٨٠/٨ وإنباه الرواة للقفى ١٩٣/٢ وشذرات الذهب

للعاد ٣١٩/٣ واللباب ٢١٤/٢ والتجوم الزاهرة ٩١/٥

وتبين كذب المفترى لابن عساكر ٢٧١ وعبر الذهبي

٢٥٩/٣ .

(١) الكشكول لبهاء الدين العامل (طبعة الحلبي)

٢٦٣/١

(٢) انظر في ترجمة القشيري كتاب الأنساب للسمعاني

٤٥٣ ب وتاريخ بغداد ٨٣/١١ وابن خلكان ٢٠٥/٣

ودمية القصر والسبكي ١٥٣/٥ والمتنظم لابن الجوزي

ابن الحسين البيهقي وجماعة من المشاهير ، فسمع معهم الحديث ببغداد والحجاز . وعقد لنفسه في نيسابور مجلس الإملاء في الحديث ومجالس الوعظ منذ سنة ٤٣٧ وقصده الطلاب من كل صَوْب . وذكره الخطيب البغدادي ، فقال : « قدم علينا بغداد في سنة ٤٤٨ وحَدَّث ببغداد وكتبنا عنه ، وكان ثقة ، وكان يقصّ ، وكان حسن الوعظ مليح الإشارة » ويقول الباخرزي واصفاً وعظه : « لو قَرَعَ الصَّخْرُ بصوت تحذيره لذاب ، ولو رُبَط إبليس في مجلسه لتاب » .

وكان يعتق مذهب الشافعي في الفقه والفروع ومذهب الأشعري في علم الكلام والأصول . وكان يجمع بين الشريعة والحقيقة ، وهو - كما مر بنا في الفصل الأول - من أوائل من رأوا الصدع الذي كان قد تفاقم بين المتصوفة وأهل السنة ، وذلك في رسالته المشهورة التي نقلنا عنها فقرة طويلة في الفصل المذكور ، والتي وجهها إلى الصوفية وأهل السنة ، وخلفه في هذا الصنيع الغزالي السني . ولا ريب في أن له فضلاً كبيراً في الجمع بين الطرفين المتعارضين وإزالة ما بينهما من خلاف ، بحيث أصبح أداء الفروض الدينية جزء لا يتجزأ من التصوف ، كما أصبح التصوف نتيجة طبيعية للتمسك بتلك الفروض تمسكاً ينتهي إلى النسك والمحبة الإلهية ، دون مغالاة من شأنها أن تدفع بالمتصوف إلى منازع فلسفية تتصل بالحلول وما إلى الحلول من اتحاد بالذات الإلهية . وتلك هي صورة التصوف السني الذي رفع عماده القشيري ، وكان شاعراً وله أشعار كثيرة ، تصور تصوفه وزهده من مثل قوله :

وَإِذَا سُقِيتُ مِنَ الْحَبَّةِ جُرْعَةً أَلْقَيْتُ مِنْ قَرَطِ الْخُمَارِ خُمَارِي
كَمْ تَبْتُ قَصْداً ثُمَّ لَاحَ عِذَارُهُ فَخَلَعْتُ - مِنْ ذَاكَ الْعِذَارِ - عِذَارِي
وَالْخُمَارُ بَضْمُ الْحَاءِ بَقِيَةِ السُّكْرِ وَالْخُمَارُ بِكْسَرِ الْحَاءِ الْحِجَابُ . يقول إنه يسكر بنشوة الحب الإلهي ، وإنه إذا أخذ يتناول جرعات تلك الخمر الإلهية رفعت الحجاب بينه وبين محبوبه . وإنه ليتوب ثم تراءى له شواهد . فيعود ثانية إلى سكره والنشوة بحبه ، أو كما يقول يخلع عذاره كناية عن أنه يتهمك فيه ويقول :

وَمَنْ كَانَ فِي طَوْلِ الْهَوَى ذَاقَ سَلْوَةً فَإِنِّي مِنْ لَيْلِي لَهَا غَيْرُ دَائِقٍ
وَأَكْثَرُ شَيْءٍ نَلْتُهُ مِنْ وَصَالِهَا أَمَانِي لَمْ تَصْدُقْ كَحَطْفَةِ بَارِقٍ
فهو لا يسلو هواه ولا يكف عنه ، لأنه هوى يتعمق شغاف قلبه فلا يستطيع انفكاكاً عنه ولا خلاصاً منه ، هوى لا يزال يتعثر في شبابه ، ومع ذلك لا ينال من وصال المحبوب شيئاً إلا أمانى تبدو له كما يبدو البرق الخاطف في السحاب . ويقول :

سَقَى اللَّهُ وَقْتًا كُنْتَ أَخْلُو بِوَجْهِكَم وَتَغْرَّ الْهَوَى فِي رَوْضَةِ الْأَنْسِ ضَاكُ
أَقْمَنَا زَمَانًا وَالْعَيُونُ قَرِيرَةٌ وَأَصْبَحْتُ يَوْمًا وَالْجَفُونُ سَوَاكُ

وهو يتحدث عن الوصال الذي يذكره المتصوفة هذا الحديث الرمزي ، فقد كان
ينعم به زماناً أو قل كان يَحِلُّ إليه أنه ينعم به ، وكانت تمتلئ نفسه بهجة وفرحة ، غير أنه
أصبح يوماً ، فإذا الوصال كان حُلماً ، وإنه ليطلبه باكياً بكاء لا ينقطع ، بكاء كله
جزع ، وكله لوعة وحسرة . وله وراء ذلك تبتلات طريفة من مثل قوله :

يَا مَنْ تَقَاصَرَ شُكْرِي عَنْ أَبَادِيهِ وَكَلَّ كُلُّ لِسَانٍ عَنْ مَعَالِيهِ
وَجُودِهِ لَمْ يَزَلْ فَرْدًا بَلَا شَبِيهِ عَلَا عَنِ الْوَقْتِ مَاضِيهِ وَآتِيهِ
لَا دَهْرٌ يُخْلِقُهُ لَا قَهْرٌ يُلْحَقُهُ لَا كَشَفٌ يُظْهِرُهُ لَا سِتْرٌ يُخْفِيهِ
لَا عَدَدٌ يَجْمَعُهُ لَاضِدٌ يَمْنَعُهُ لَاحِدٌ يَقْطَعُهُ لَا قُطْرٌ يَحْوِيهِ
لَا كَوْنٌ يَحْصُرُهُ لَا عَوْنٌ يَنْصُرُهُ وَلَيْسَ فِي الْوَهْمِ مَعْلُومٌ يُضَاهِيهِ
جَلَالُهُ أَزَلَى لَازَوَالٍ لَهُ وَمُلْكُهُ دَائِمٌ لَا شَيْءٌ يُفْنِيهِ

والتبثُّل يقوم على التنزيه الشديد للذات العلية ، وأنه فرد لا شبيه له ، سماع كل زمن
ماضٍ وحاضر ، فلا زمن يحصره ولا دهر ينال منه ، وهو القاهر فوق عباده ، موجود في
كل زمان ومكان ، دون انكشاف ودون حجاب ، ودون حصر ، ودون حدٍ يطيف به أو
مكان يحويه ، ليس كمثل شيء ، أزلى لازوال للجلالة ولا فناء للملكة . وهو تجريد قوى
للذات العلية يفصل به القُشَيْرَى وأصحاب التصوف السني عن أصحاب التصوف الفلسفي
وما آمنوا به من الحلول والاتحاد بالذات الإلهية . ويقول :

جَنَّبَانِي الْمَجُونُ يَا صَاحِبِيَّا وَاثْلُوا سُورَةَ الصَّلَاحِ عَلَيَّا
قَدْ أَجَبْنَا لَزَاجِرِ الْعَقْلِ طَوْعًا وَتَرَكْنَا حَدِيثَ سَلَمَى وَمِيَّا
وَمَنْحْنَا لِمَوْجِبِ الشَّرْعِ نَشْرًا وَشَرَعْنَا لِمَوْجِبِ اللَّهِ طِيَّا
وَوَجَدْنَا إِلَى الْقِنَاعَةِ بَابًا فَوَضَعْنَا عَلَى الْمَطَامِعِ كِيَّا
كُنْتُ فِي حَرٍّ وَحَشْتِي لاختياري فَتَعَوَّضْتُ بِالرِّضَا مِنْهُ فَيَّا (١)
وَالَّذِينَ ارْتَوَوْا بِكَاسٍ مِنْهُمْ فَعَلَى الصَّدِّ سَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيَّا

وهو يعلن في الايات سلوكه في الطريق ، وكأن الانحراف عن هذا السلوك مجنوناً
أو يشبه المجنون ، وقد لبي عقله ودواعيه وترك اللهو وبواعثه ، فهو يعيش للشرعية المحمدية
قانعاً ، زاجراً مطامعه في متاع الحياة . ويتصور كأنه كان يقضي أيامه قبل تصوفه في فيافي

وحشة شديدة الحرارة ، حتى أفاء عليه التصوف بظلاله الوارفة ، ظلال نهل فيها كنوس المني ، ومن ينهل منها لا يستطيع أن يفارق مواردها وينابيعها الثرة أو يصد عنها ، لأنها ينابيع الصلاح والرشاد . ومازال القشيري غارقاً في هذه المشاعر الصوفية ناعماً بها حتى توفي سنة ٤٦٥ بنيسابور ودفن بجوار شيخه أبي علي الدقاق .

يحيى^(١) السهروردي

وُلد يحيى بن حبش حوالي سنة ٥٤٥ للهجرة بسهرورد في الإقليم الإيراني المعروف باسم إقليم الجبال ، وبموطنه تلقى ثقافته الأولى ، وتركه مبكراً إلى مدينة المراغة ، ثم إلى أصفهان حيث درس الفقه وأكب في أثناء ذلك على كتب التصوف والفلسفة . وأعجب بالصوفية فصحبهم وأخذ نفسه بطرقهم في الرياضة والمجاهدة . وأكثر من الرحيل للقاء العلماء والمتفلسفة والمتصوفة . ومدّ تجواله وترحاله إلى ديار الشام . وكان قد أصبح شيخاً من شيوخ التصوف الفلسفي ، فكان يجادل الفقهاء . واستوت له فلسفة تصوفية إشرافية تعتمد - كما يقول دارسوه - على غنوصية آسيوية ، وخير ما يصور ذلك من كتبه الكثيرة التي بلغت أكثر من أربعين كتاباً مصنفه : « حكمة الإشراق » وهو قسمان : قسم خص به المنطق الذي يضبط الفكر ضبطاً دقيقاً ، وقسم ثان قصره على الأنوار الإلهية ، عرض فيه لنور الأنوار وحقيقته وما يصدر عنه ، كما عرض فيه للمعاد والنبوات والنامات . وهو ينقد المنطق والفلسفة نقداً واسعاً ، غير أنه يراهما ضروريين للمتصوف ، حتى يتعاقق في داخله العقل والقلب أو الذوق . ولجّ السهروردي في نظرية النور وما يقابلها من الظلمة ، وكأنه يتأثر النحل الفارسية من زرادشتية وغيرها في ثنائية النور والظلمة وتقسيم العالم إلى عالم ظلمة وعالم نور . وفي رأيه أن الموجودات انبثقت عن نور الأنوار بطريق الفيض إلى ما لا نهاية ، ومن ثمّ كان يقول بوحدة الوجود وبالخلول الإلهي في الكون والكائنات . وذهب إلى النبوات لا تنقطع وأن الحكيم الصوفي المتوغل في تصوفه أفضل وأسمى من الأنبياء . وكان طبيعياً أن يكفره الفقهاء في « حلب » وأن يحملوا الملك الظاهر ابن صلاح الدين على قتله سنة ٥٨٧ للهجرة . ولما تحقق القتل كان يُنشد :

(١) انظر في ترجمة يحيى السهروردي معجم الادباء لياقوت ٣١٤/١٩ وابن خلكان ٢٦٨/٦ وعبون الأنبياء في طبقات الأطباء ص ٦٤١ وقد خلط ابن أسيعة بينه وبين الشهاب عمر السهروردي المتصوف البغدادى السني ، وانظر مرآة الجنان ٤٣٤/٣ ولسان الميزان ١٥٦/٣ والنجوم الزاهرة ١١٤/٦ ودائرة المعارف الإسلامية وتعليق الدكتور محمد مصطفى حلمي على ترجمته فيها وفتاوى ابن نيمية ٩٣/٥ والفلسفة الصوفية في الإسلام لعبد القادر محمود (طبع دار الفكر العربي) ص ٤٤٠ وما بعدها .

أرى قَدَمِي أَرَاقَ دَمِي وَهَانَ دَمِي فَهِيَ نَدَمِي
ولكنه ندم ولات حين مندم . ومن كلامه : حرام على الأجساد المظلمة أن تلج
ملكوت السموات ، فوحَّد الله وأنت بتعظيمه ملآن ، واذكره وأنت من ملابس الأكوان
عُرَّيان ، ولو كان في الوجود شمسان لانطمت الأركان ، فأبى النظام أن يكون غير
ما كان :

وخفيتُ حتى قلتُ لستُ بظاهرٍ وظهرتُ من سَعَتِي على الأَكْوَانِ
والبيت يشير بقوة إلى فكرتي الحلول والاتحاد في الذات العلية وكان يكثر من ترداد
قوله :

لو علمنا أننا ما نلتقي ما قضينا من سَلَمِي وَطَرَا
والشُّهُورُ دِي يَشِيرُ فِي وَضُوحٍ إِلَى فِكْرَةِ الشُّهُودِ الْمَعْرُوفَةِ عِنْدَ الْمُتَصَوِّفَةِ وَلَهُ شَعْرٌ صَوْفِي
كثير من مثل قوله :

أَقُولُ لَجَارِيٍّ وَالدَّمْعُ جَارِيٌّ وَلِي عَزْمُ الرَّحِيلِ عَنِ الدِّيَارِ
ذَرِينِي أَنْ أُسِيرَ وَلَا تَنْحَوِي فَإِنَّ الشُّهْبَ أَشْرَفُهَا السَّوَارِي
وَإِنِّي فِي الظَّلَامِ رَأَيْتُ ضَوْءًا كَأَنَّ اللَّيْلَ بُدِّلَ بِالنَّهَارِ
وَيَبْدُو لِي مِنَ الزُّورِ بَرَقٌ يَذْكُرُنِي بِهَا قُرْبَ الْمَزَارِ
إِذَا أَبْصَرْتُ ذَاكَ النُّورِ أَفْنَى فَمَا أَدْرِي يَمِينِي مِنْ يَسَارِي

وهو يذكر في الآيات فكرة نور الأنوار إزاء عالم الظلمة الكثيف ، كما يذكر فكرة
القضاء الصوفية وكيف أنه يفنى عن كل ما حوله فلا يعود يشعر إلا بنور الأنوار أو بإلهه وما
أنعم عليه - كما يتصور - بنعمة الوصال ، بل بنعمة الاتحاد والاندماج بنوره . وله حائية
رائعة يستلها بقوله :

أَبْدَأُ تَحْنُ إِلَيْكُمْ الْأَرْوَاحُ وَوِصَالُكُمْ رَيْحَانُهَا وَالرَّاحُ
وَقُلُوبُ أَهْلِ وَدَادِكُمْ تَشْتَاقُكُمْ وَإِلَى لَذِيدِ لِقَائِكُمْ تَرْتَاحُ
وَارْحَمْنَا لِلْعَاشِقِينَ تَكَلَّفُوا سَتَرَ الْحُبِّ وَالْهَوَى فُضَّاحُ

وهو يخاطب الذات الإلهية قائلاً إن كل الأرواح معلقة بها هائمة تمني وصالها لتجد فيه
ريحانها وراحها ونشوتها التي لا تماثلها نشوة ، وإن القلوب لتحن إليها دائماً مشتاقة مولعة
شاعرة بنعيم ما بعده نعيم ، ويأسى لعاشق الذات الإلهية ، فهم لا يستطيعون إخفاء عشقهم
ولا كتمانهم ، لدموعهم التي تقطر دائماً على خدودهم سحاً وتسكاباً ، ويتضرع إلى المحبوب
قائلاً :

عودوا بنور الوصل من غسق الجفأ فالهجر ليل والوصل صباح
صافاهم فصفوا له فقلوبهم في نورها المشكاة والمصباح
وتمتعوا فالوقت طاب بقربكم راق الشراب ودارت الأقداح

وهو يعود إلى فكرة النور ويصلها بفكرة الظلمة فالوصل نور مشرق والهجر ظلام
داج ، وهو يشير بالمشكاة والمصباح إلى الآية الكريمة : (الله نور السموات والأرض مثل
نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاج كأنها كوكب دري يوقد من شجرة
مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيئ ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي
الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم) وكأن في قلوب
الصوفية نور الله ، وهو يريد بذلك الاتحاد بالذات الإلهية النورانية ، وهو اتحاد يعنى السكر
والنعيم بنشوة هذه الخمر الربانية التي راق وأخذت كثوسها وأقداحها تدور على المحبين كما
يقول ، أقداح من شراب روحى مصفى ، ويقول مصورا لهم في حال سكرهم :
لا يطربون بغير ذكر حبيبهم أبداً فكل زمانهم أفرح
حضرُوا وقد غابت شواهد ذاتهم فتمتلكوا لما رأوه وصاحوا
أنفاهم عنهم وقد كشفت لهم حجب البقا فتلاشت الأرواح

فهم سكارى فرحون بذكر حبيبهم ، وهم حاضرون غائبون ، وكأنما يفنون عن ذاتهم
وأجسادهم بل هم فانون فعلا ، لا يدركون حساً منهم ولا ما يشبه الحس ، إذ أصبحوا في
الحضرة الإلهية ، وأصبحوا لا يحسّون ولا يبصرون سواها ، وإنهم ليصبحون ويعلو
صياحهم فرحاً وابتهاجا بما صاروا إليه من الفناء والاتحاد بالله ، وبما كشف عنهم من
الحجب والأستار . وواضح ما يداخل هذه الأبيات من أفكار صوفية فلسفية كان
ينكرها - كما قدمنا - أصحاب التصوف السني ، فهم لا يعرفون فناء ولا اتحاداً ،
ولا يدعون غيبة وهم حضور ، كما لا يدعون رؤية الله بأبصارهم فإنه كما قال القشيري آفأ
لا يحده زمان ولا مكان ولا تبصره العيون ولا ينكشف لأحد ، ليس كمثله شيء ،
ولا كم له ولا كيف (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) وليحيي
السهروردي قصيدة في النفس حاكي فيها قصيدة ابن سينا العينية المشهورة التي صور فيها
النفس سابقة للجسد ، وهي تحل فيه ودائماً متشوقة إلى عالمها المثلث الأول ، وفي ذلك
يقول السهروردي :

خلعت هياكلها بجرعاء الحمى وصبت لمغناها القديم تشوقاً

فهى تشاق عالمها القديم ، ولذلك تفارق الجسد الذى حلت فيه راضية مرضية ، ولعل فى هذه القصيدة ما يؤكد صلة السهروردي بابن سينا وفلسفته الإشراقية فضلا عن صلته بالفلسفة عامة .

٤

شعراء الحكمة والفلسفة

الحكمة قديمة فى الشعر العربى منذ العصر الجاهلى ، ونجدها متراصة فى مطوّلة زهير وكانت تجرى على السنة كثيرين يقطّرون خبراتهم شعرا ، ليستفيع بها أبناء قبائلهم ومن حولهم ، وتظل مبنوثة فى الشعر العربى طوال العصر الإسلامى ، وتكثر فى العصر العباسى وتعدد روافدها الأجنبية بتعدد الثقافات التى عرفها العرب والتى نقلت عنها لهم الحكم والأمثال . ومربنا فى كتاب العصر العباسى الأول أن أبان بن عبد الحميد نقل من الفارسية إلى العربية كتاب كليله ودمنة وما فيه من أمثال وحكم فى نحو أربعة عشر ألف بيت ، وأن أبا العتاهية نظم مزدوجة طويلة سماها ذات الأمثال ، وكلها حكم ، ويقال إنها كانت تبلغ أربعة آلاف بيت ، وروى أبو الفرج فى ترجمته بكتابه الأغانى منها قطعة طويلة ، وأكبر الظن أن كثيرا من هذه الحكم نقلها أبو العتاهية عن الفارسية ولعله أخذها من بعض كتب الأدب الفارسى التى ترجمها ابن المقفع وغيره ، وفى شعر أبى نواس بعض أمثال فارسية نصّ عليها القدماء . وقد مضى شعراء العصرين العباسى الأول والعباسى الثانى يسلكون فى أشعارهم بعض الأمثال الفارسية والعربية ، حتى إذا كنا فى هذا العصر بإيران وجدنا الشعراء الإيرانيين ينقلون كثيرا من الأمثال المعروفة فى لغتهم إلى أشعارهم العربية ، بل لقد تصدّى نفر منهم إلى صنع قصائد حكمية ، هى ترجات لبعض الأمثال الفارسية على نحو ما نجد عند أبى عبد الله الضرير الأبيوردى ، فقد ذكر له الثعالبي قصيدة ترجم فيها أمثال الفرس ، أنشد منها بعض الأبيات من مثل قوله ^(١) :

صيامى إذا أفطرتُ بالسُّحتِ ضَلَّةٌ	وعلمى إذا لم يُجدِ ضربٌ من الجَهلِ ^(٢)
وتركيتى مالا جمعتُ من الرِّبا	رياءٌ وبعض الجود أخزى من البُخلِ
كسارقة الرُّمان من كرم جارها	تعود به المرضى وتطمع فى الفضلِ
ألا ربَّ ذنبٍ مرَّ بالقومِ خاويا	فقالوا علاه البُهرُ من كثرة الأكلِ ^(٣)

(٣) البهر : تتابع النفس

(١) البيضة ٩٠/٤

(٢) السحت : الكسب الحرام .

وكان الشعراء يضمّنون قصائدهم وأشعارهم كثيرا من الحكم ، ومن خير من يمثل ذلك الطُّغْرَائِي فِي لَامِيَتِهِ الْمِسَاءَ لَامِيَةَ الْعَجَم ، وَهِيَ تَعْصُّ بِالْحُكْمِ وَالْأَمْثَالِ مِنْذُ مِطَالَعِهَا ، وَنَكْتَنِي بِسَرْدِ طَائِفَةٍ مِنْ طَرَائِفِهَا عَلَى هَذَا النَّمْطِ :

حُبُّ السَّلَامَةِ يَثْنِي هَمُّ صَاحِبِهِ عَنْ الْمَعَالَى وَيُغْرِى الْمِرَّةَ بِالْكُسْلِ
أَعْلَلُ النَّفْسَ بِالْأَمَالِ أَرْقُبُهَا مَا أَضْيَقَ الْعَيْشَ لَوْلَا فُسْحَةُ الْأَمَلِ
تَقْدَمْتَنِي أَنَسٌ كَانَ شَوَظُهُمْ وَرَاءَ خَطْوَيَ إِذْ أَمْشَى عَلَى مَهَلٍ
وَإِنْ عَلَانِي مَنْ دُونِي فَلَا عَجَبٌ لِي أَسْوَةٌ بِأَخْطَاطِ الشَّمْسِ عَنْ زُحَلٍ
أَعْدَى عَدُوَّكَ أَدْنَى مَنْ وَفَّقَتْ بِهِ فَحَازِرِ النَّاسِ وَأَصْحَبِهِمْ عَلَى دَخَلٍ (١)
وَإِنَّمَا رَجُلٌ الدُّنْيَا وَوَاحِدُهَا مَنْ لَا يَعُولُ فِي الدُّنْيَا عَلَى رَجُلٍ
وَأَكْبَرُ الظَّنِّ أَنَّ الطُّغْرَائِي لَمْ يَنْقُلْ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْحُكْمِ عَنِ الْفَرَسِ إِنَّمَا هِيَ ثَمَرَةٌ تَجَارِبُهُ وَخَبِيرَتُهُ بِالدُّنْيَا وَبِالنَّاسِ مِنْ حَوْلِهِ .

وَنَمَتْ الْفَلَسَفَةُ فِي هَذَا الْعَصْرِ نَمَوْاً وَاسِعاً ، وَنَمَتْ مَعَهَا عُلُومُ الْأَوَائِلِ عَلَى نَحْوِ مَا مَرَّبْنَا فِي الْفَصْلِ الثَّانِي ، وَظَهَرَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُتَفَلِّسَةِ أَمْثَالِ ابْنِ سِينَا وَلَهُ أَشْعَارٌ تَشْتَبِعُ بِشَيْءٍ مِنْ تَفَلُّسِهِ قَلِيلاً أَوْ كَثِيراً وَأَثَرَتْ لَهُ رِبَاعِيَّاتٌ فَارْسِيَّةٌ وَأَشْعَارٌ عَرَبِيَّةٌ فِي الزَّهْدِ وَالْحِكْمَةِ وَبَعْضُ مَسَائِلِ طَبِيبَةٍ وَفَلَسَفِيَّةٍ ، وَأَهَمُّ تِلْكَ الْأَشْعَارِ وَأَشْهَرُهَا قَصِيدَتُهُ الْعَيْنِيَّةُ عَنِ النَّفْسِ ، وَهِيَ تَصَوُّرُهَا فِي عَالَمِهَا الْعُلُوى الَّذِي كَانَتْ تَحْيِي فِيهِ قَبْلَ اتِّصَالِهَا بِالْبَدَنِ حِينَ يَتَخَلَّقُ فِي الرَّحِمِ ، وَفِي عَالَمِهَا السُّفْلَى حِينَ تَمَّ هَذَا الْإِتِّصَالُ بِالْجَسَدِ . وَهُوَ اتِّصَالٌ تُقَدِّمُ عَلَيْهِ وَهِيَ كَارِهَةٌ ، وَتَظَلُّ فِي أَثْنَائِهِ مَتَشَوِّقَةٌ إِلَى عَالَمِهَا الْعُلُوى ، مَعَ مَا حَدَثَ لَهَا فِيهِ مِنْ أَلْفَةٍ ، وَلِذَلِكَ تَنْفَصِلُ عَنْهُ كَارِهَةٌ كَمَا اتَّصَلَتْ بِهِ كَارِهَةٌ ، يَقُولُ (٢) :

هَبَطْتُ إِلَيْكَ مِنَ الْمَحَلِّ الْأَرْفَعِ وَرَقَاءُ ذَاتُ تَعَزُّزٍ وَتَمَتُّعٍ
مَحْجُوبَةٌ عَنْ كُلِّ مُقَلَّةٍ نَاطِرٍ وَهِيَ الَّتِي سَفَرَتْ فَلَمْ تَتَبَرَّعِ
وَصَلْتُ عَلَى كُرْهِ إِلَيْكَ وَرَبِّمَا كَرِهْتُ فِرَاقَكَ وَهِيَ ذَاتُ تَفَجُّعٍ
أَنْفَتُ وَمَا أَلْفَتُ فَلِمَا وَاصَلْتُ أَلْفَتْ بِمَجَاوِرَةِ الْخَرَابِ — الْبَلْقَعِ
وَأَظَنُّهَا نَسِيتُ عَهْدَ دَاخِلِي بِالْحِمَى وَمِنْ أَسَاوِلَافٍ بِفِرَاقِهَا لَمْ تَقْنَعِ
حَتَّى إِذَا اتَّصَلْتُ بِهَا هُبُوطُهَا مِنْ مِمٍّ مَرَّكَهَا بِذَاتِ الْأَجْرَعِ
عَلَقْتُ بِهَا ثَاءً الثَّقِيلِ فَأَصْبَحْتُ بَيْنَ الْمَعَالِمِ وَالطُّلُولِ الْخُضْعِ

(١) نشر دار مكتبة الحياة - بيروت (ص ٤٤٦) وقارن بابين

(٢) دخل : خبث ومكر

والورقاء : الحماة كنى بها عن النفس . وهو يصورها تهبط من عالمها الرفيع أو الأرفع ، عالم العقول المجردة أو العقول الكلية ، الذى يجد فيه سعادتها وكمالها ، ولذلك هى تهبط منه شاعرة بغير قليل من العزة والشرف ، محجوبة عن كل حس ، ومع ذلك تسفر للعقول فتدركها دون أن تبصرها ، وتنزل فى البدن كارهة لأنه ليس من جنسها ، غير أنها تأنس له مع الأيام ، حتى إذا فارقت توجعت له وتفجعت عليه ، مع أنه بدونها خراب بلقع مقفر ، وكأنما نسيت عهودها بعالمها العلوى لأنسها لهذا الجسد الفانى الذى هبطت إليه من مركزها الرفيع وعشقتها ، عشقت مشخصاته الأرضية التى عبر عنها بالثقل وبذات الأجرع ، وغدت تحن إلى دياره ومعاله وطولوله حنين الشعراء لمعشقاتهم ، ويمضى قائلا :

تبكى وقد نسيت عهوداً بالحمى	بمدامع تهيم ولما تفلع
وتظل ساجدة على الدمن التى	درست بتكرار الرياح الأربع
حتى إذا قرب المسير إلى الحمى	ودنا الرحيل إلى الفضاء الأوسع
وغدت مفارقة لكل مخلّف	عنها حليف التراب غير مشيع
هجعت وقد كشف الغطاء وأبصرت	ما ليس يدرك بالعيون الهجّع
وغدت تغرد فوق ذروة شاهق	والعلم يرفع كل من لم يرفع

فهى تحن إلى عهودها القديمة وتبكى بدموع غزار الدمن أو أجزاء البدن التى توشك على الفساد والانحلال ، حتى إذا أوشكت أن تفارق جسدها إلى عالمها الأعلى ، بل حتى فارقت فعلا ، فارقت البدن الفانى ، عادت إليها سكنتها واستراحت ، إذ كشف لها الغطاء وأبصرت ما لا تدركه العيون التى ألم بها النوم ، وغدت تغرد فرحة ، فقد عادت إلى عالمها وعاد لها علمها بالأشياء ، العلم الكلى الشامل الذى كانت قد نسيت فى سكناها البدن ، ويستمر سائلا متحيرا :

فلأى شئ أهبطت من شاهق	سام إلى قعر الحضيض الأوضع
إن كان أهبطها إلهة لحكمة	طويت عن الفطن اللبيب اللودعى
إذ عاقها الشرك الكثيف فصدها	قفص عن الأوج الفسيح الأربع
فهبوطها - لاشك - ضربة لازب	لتكون سامعة لما لم تسمع
وتعود عالمة بكل خفية	فى العالمين فخرقها لم يرفع
وهى التى قطع الزمان طريقها	حتى لقد غربت بغير المطلع
فكانها برق نال بالحمى	ثم انطوى فكانه لم يلمع

وهو يعجب من هبوط النفس من العالم العلوى إلى العالم السفلى ثم رجوعها إلى العالم الأول ويسأل فيم هبطت وفيم عادت ؟ ويجيب إن كان فى ذلك حكمة لله جلَّ شأنه تغيب عن العقول الذكية فأكبر الظن أنها هبطت لتسمع ما لم تكن تسمع ولتعلم ما لم تكن تعلم من العالم الأرضى وتقف على أسرارها ، بجانب ما كانت تعلم من العالم العلوى ، وكأنها لم تبلغ من ذلك كل ما أرادت ، فعادت وقد انقطع بها الزمان الدنيوى . عادت وقد تَمَّتْ رحلتها فى الدنيا من شروق وما تلا الشروق من العلم بخفايا الأرض وعالمها وما انتهى إليه هذا الشروق من غروب ، وكأنها فى هذه الرحلة القصيرة برق لمع ، ثم طَوَّته السحب طيا . وواضح ما تحمل القصيدة من فكرة وجود النفس قبل البدن وخلودها ، متصلة فى الحالين بالعقل الكلى إلا ما كان من رحلتها القصيرة فى الأرض وخلال البدن ، ومع ذلك فهى فى هذه الرحلة تحاول أن تعلم من أسرار عالمنا ما تضيفه إلى علمها بأسرار العالم العلوى . وسرعان ما تنفك عن البدن ويصيبه الانحلال والفساد . ولعل من الخير أن نقف عند شاعرين من شعراء الحكم والأمثال ، كان أحدهما يعنى بنقلها عن الفارسية وكان الثانى يعنى بوضعها ونظمها فى أشعاره ، وهما أبو الفضل السكرى المروزى وأبو الفتح البُستى .

أبو الفضل^(١) السكرى المروزى

هو أحمد بن محمد بن زيد ، يقول فيه الثعالبي : « شاعر مَرَّو وظريفها ، وله شعر مليح خفيف الروح كثير المُلح والأمثال » ويورد بعض أشعاره ، ثم يذكر أن له مزدوجة ترجم فيها أمثالا للفرس ، وكأنه اختار أن ينظمها من وزن الرجز الذى خصَّ به العباسيون منذ عصرهم الأول الشعر التعليمى لوفرة ألحانه وأنغامه ، حتى يتلافوا ما فى هذا الشعر من نقص الأحاسيس والمشاعر ، وظل ذلك ثابتا طوال العصور التالية إلا ما ندر . فقد تعارف الشعراء على اختيار الرجز لنظم المعلومات والمعارف والحكم والخبرات ، واتبعوا ما أحدث العباسيون الأول فى الرجز من تغيير القافية فيه من بيت إلى بيت ، مع الاحتفاظ بها فى كل شطرين متقابلين بحيث يصبح الشطر فى واقع الأمر وحدة الأرجوزة المزدوجة ، فهى تتألف من شطرين شطرين ، وكل شطرين يتحدان فى قافيتها . ويقف الثعالبي عند مزدوجة لأبى الفضل ترجم فيها طائفة كبيرة من أمثال الفرس ، ويورد منها ثلاثة عشر بيتا من مثل قوله :

(١) انظر فى ترجمة أبى الفضل السكرى اليتيمة ٨٧/٤

من مُثَلِّ القُرْس ذوى الأبصار الثوبُ رَهْنٌ في يدِ القَصَّارِ^(١)
نال الحجارُ بالسقوطِ في الوحلِ ما كان يَهْوَى ونجا من العملِ
والعُتْرُ لا يَسْمَنُ إلا بالعلْفِ لا يَسْمَنُ العُتْرُ بقولِ ذى لَطْفٍ^(٢)
البحرُ غَمْرُ الماءِ في العِيانِ والكلبُ يَرَوَى منه باللسانِ^(٣)
من لم يكن في بيته طعامٌ فاله في مَحْفِلِ مقامِ
كان يقال: من أتى خَوَّاناً من غير أن يُدْعَى إليه هاناً^(٤)

ويعلقُ الثعالبي بعد ذكره لبعض أمثال المزدوجة بقوله: «وكان أبو الفضل السكري مولعا بنقل الأمثال الفارسية إلى العربية» وينشد طائفة كبيرة من الأبيات اختارها من نقله وترجمته الأخرى غير مزدوجة، من ذلك قوله:
إذا لم تُطِقْ أن تَرْتَقِيَ ذِرْوَةَ الجِلِّ لعَجْزٍ قِفَفٍ في سَفْحِهِ هَكَذَا المَثَلُ
وقوله:

في كلِّ مستحسنٍ عَيْبٌ بلا رَيْبٍ ما يَسْلُمُ الذهبُ الإبريزُ من عَيْبٍ
وقوله:
ادَّعَى الثَّلْبُ شَيْثًا وَطَلَبَ قِيلَ هَلْ من شَاهِدٍ؟ قال: الذَّنْبُ
وقوله:

تَبَحَّثَرِ إِخْفَاءَ لما فيه من عَرَجٍ وليس له فيما تكلفه فَرَجٌ

وأبو الفضل إنما هو رمز لتعلق الناس بالأمثال، وهو تعلق مرجعه إلى أنها تحمل خبرات الإنسان في عصور طويلة، ولذلك كان لكل أمة أمثالها التي تحفظها الأجيال من جيل إلى جيل، وهى لذلك تدخل في باب الآداب الشعبية، لأنها تُتداول على ألسنة الشعب، وكأنها عُمَلات لغوية عامة، كلُّ يستخدمها، وكل يلفظ بها عند مناسبتها. وكأنما يُلْقَى بها الكلمة التي لا تُرد، ولذلك سميت حكمة، فهي حكمة الشعوب وخبرتها مركزة في قطرات أو كلمات.

(٣) الماء الغمر: الكثير العميق.

(٤) الخوان: مائدة الطعام.

(١) القصار: صابغ الثياب

(٢) لطف: رفيق.

أبو الفتح ^(١) البُستِي

هو علي بن محمد ، ويُعدّ من كبار الأدباء الإيرانيين في زمنه ، وكان يُحسّن الكتابة والشعر باللسانين العربي والفارسي وعرف له أمير بُسْت مكانته ، فاتخذة كاتباً له ، حتى إذا فتح بلدته الأمير سُبُكْتِكِين قُرْبَه منه وقلّده الكتابة في ديوانه ، وحلّ عنده محلّ الثقة الأمين في مهمات شتونه . ونعم بجواره ، واشتهر بما صوّر في كتبه وأشعاره من فتوحه ، وظلت له نفس المكانة عند ابنه الأمير محمود الغزنوي ، إلى أن غضب عليه ونفاه إلى بخارى وسرعان ما وافته المنية بها سنة ٤٠٠ للهجرة وقيل بل سنة ٤٠١ وكان شافعي المذهب معتزلي العقيدة .

ويُعرف به الثعالبي فيقول : « صاحب الطريقة الأنيقة في التجنيس الأنيس ، البديع التأسيس ، وكان يسميه المتشابه ويأتى فيه بكل طريقة لطيفة » . ولم يكن يستخدم الجناس استخداما واسعا في أشعاره فحسب ، بل كان أيضا يستخدمه في كتاباته ونثره . ويورد الثعالبي طائفة من جناساته وسجعاته في رسائله ، يدل بها على قدرته في التجنيس البديع الصبيغة ، فمن ذلك قوله :

« مَنْ أَصْلَحَ فَاسَدَهُ ، أَرْغَمَ حَاسَدَهُ . مَنْ أَطَاعَ غَضِبَهُ ، أَضَاعَ أَدَبَهُ . عَادَاتِ السَّادَاتِ ، سَادَاتِ الْعَادَاتِ . مِنْ سَعَادَةِ جَدِّكَ ، وَقَوْفِكَ عِنْدَ حَدِّكَ . الْحَيِيَّةُ ، تَهْتِكُ الْهَيْمَةَ . الدَّعَةُ ، رَائِدَةُ الضَّعَةِ . أَجْهَلُ النَّاسِ مَنْ كَانَ لِلْإِخْوَانِ مُدْلًا ، وَعَلَى السُّلْطَانِ مُدْلًا . إِذَا بَقِيَ مَا قَانَتْكَ ، فَلَا تَأْسَ عَلَى مَا فَاتَكَ . الْمَنِيَّةُ ، تَضْحَكُ مِنَ الْأُمْنِيَّةِ . حَدُّ الْعَفَافِ ، الرِّضَا بِالْكَفَافِ . ظِلُّ الْجَفَاءِ ، يَكْشِفُ شَمْسَ الصِّفَاءِ » .

ويأخذ الثعالبي في عرض أغراض شعره بادئا بملحه في الغزل والخمر ، وهى ملح لا تقوم على الاهتمام بالمعاني بقدر ما تقوم على الاهتمام بالجناس ، وكأنما أصبح الجناس وما قد يحلّه من تشبيه أو استعارة أو طباق غايته أو هدفه من صنع أشعاره ، على نحو ما نجد في قوله متغزلا :

وِغْزَالٍ كُلُّ مَنْ شَبَّهَهُ بَهْلَالٍ أَوْ بَبْدَرٍ ظَلَمَهُ
قَالَ إِذَا قَبِلْتُ بِالْوَهْمِ فَمَهُ قَدْ تَعَدَّيْتُ وَأَسْرَفْتُ فَمَهُ

خلكان ٣٧٦/٣ وشذرات الذهب ١٥٩/٣ وعبر الذهبي ٣٠٢/٤ وما بعدها والمنظوم ٧٢/٧ وتاريخ الحكماء للبيهقي : ٤٩ وطبقات الشافعية للسبكي ٢٩٣/٥ وابن

خلكان ٣٧٦/٣ وشذرات الذهب ١٥٩/٣ وعبر الذهبي ٣٠٢/٤ وما بعدها والمنظوم ٧٢/٧ وتاريخ الحكماء للبيهقي : ٤٩ وطبقات الشافعية للسبكي ٢٩٣/٥ وابن

ومَه في آخر البيت الثاني اسم فعل أمر بمعنى اكفف. وواضح أنه جلبها ليصنع منها جناسا تاما بينها ومعها الفاء وبين كلمة «فه» في آخر الشطر الأول. وعلى نفس الشاكلة قوله في الخمر لصاحبه :

أوانٍ أنت في هذا الأوانِ عن الرَّاحِ المروِّقِ في الأوانِي
فقد جناس بين «وان» في أول البيت بعد إدخاله عليها هزة الاستفهام ليم له جناس كامل بينها وبين كلمة «الأوان» في آخر الشطر الأول بمعنى الزمان، ثم بينها وبين كلمة «الأوانِي» في آخر البيت جمعا لإناء. وبالمثل معائباته وأهاجيه ومدائح كقوله في مديح كاتب وكتابته :

لم تَر عيني مثله كاتباً لكل شَيْءٍ شاءَ وشَاءَ
يُبدع في الكُتُب وفي غيرها بدائعا إن شاءَ وإنشاءَ
والجناس الناقص واضح بين «شَيْءٍ» و«شاءَ» و«وشَاءَ» أو منق، وأتى بجناس تام في البيت الثاني بين كلمتي «إن شاءَ» و«إنشاءَ». ويعترف بأنه سمع وهو صبي شاعرا من موطنه «بُسْت» يستخدم الجناس فاستحسنه وأخذ نفسه بسلوك طريقته^(١). وكان هو نفسه عاملا مها في إشاعة هذه الطريقة بين الشعراء الإيرانيين في زمنه^(٢) وبعد زمنه. وعُني غير أديب بإفراد كتب خاصة بها مثل المطوعى الذى مر بنا ذكره. وكان أبو الفتح يتصنع كثيرا في شعره لاستخدام المصطلحات الفقهية والطبية والفلسفية والفلكية والتحوية كقوله مستظها مصطلح اللازم والمتعدى :

قال لى لما رأتى طالبا مالا ورَفْدًا
إن مالى يا حبيبى لازم لا يتعدى

وكان هذا التصنع وما يماثله قد أخذ يشيع في زمنه، وما لا شك فيه أن البُستى كان من عوامل إذاعته وانتشاره في الأوساط الأدبية الإيرانية. على أنه ينبغي أن لا نحمل على تصنع أبى الفتح لهذه المصطلحات ولأنواع الجناس بصوره التامة والناقصة، فقد كان ينفذ في أحيان كثيرة إلى استخدام رشيق للمصطلحات والجناسات كقوله يهجو بعض خصومه، وكان يدعى سعة الفكر والمنطق العميق :

يبنى على الفكرة أعالَه وذاك في التحقيق أعمى له
فقيض الرحمن أفعى له تريه في الخلوة أفعاله

وواضح جناسه التام بين « أعماله » و « أعمى له » في البيت الأول ، وبين « أفعى له » و « أفعاله » في البيت الثاني . ولم نتحدث حتى الآن عن الحكم والأمثال في أشعاره ، وكان يعرف كيف يصوغها صياغة محكمة ، ومن أروع ماله في هذا الجانب نونيته ، وهي طويلة ، وفيها يقول :

زيادةُ المرءِ في دنياه نُقصانُ وربُّه غيرَ محضِ الخيرِ خسرانُ
يا عامراً لخرابِ الدَّارِ مجتهداً بالله هل لخرابِ العُمَرِ عُمرانُ
ويا حريصاً على الأموالِ يجمَعُها أقصرُ فإنَّ سرورَ المالِ أحزانُ
أحسنُ إلى الناسِ تستعبدُ قلوبهمُ فطالما استعبدَ الإنسانَ إحسانُ
وكنُ على الدهرِ معواناً لذى أملٍ يرجو نَدَاكَ فإنَّ الحرَّ معوانُ
واشدُّ يدَيكَ بحبلِ اللهِ معتصماً فإنه الرُّكنُ إن خانتكَ أركانُ
من جادَ بالمالِ مالَ الناسِ قاطبةً إليه والمالُ للإنسانِ فتانُ
والناسُ أعوانُ من واثته دولته وهم عليه إذا عادته أعوانُ

واشتهرت له هذه القصيدة الحكيمة منذ حياته وانتشرت في العالم العربي ، وأخذت الاجيال العربية ترددها في كل بلد ، حتى لتصبح قصيدة شعبية ، ينشدها الناس في كل مكان ، وإلى زمن قريب كان المنشدون ينشدونها في مقاهي القاهرة . ولعل في هذا ما يدل - من بعض الوجوه - على ما يمتاز به الشعر العربي الفصيح من شعبيته ، فقصيدة تنظم في أقصى بيئاته في الشرق في « بُسْت » بأفغانستان الحالية تُشَدُّ في قلب العالم العربي بالقاهرة ، ويحفظها الشباب ويستظهرونها في المغرب كما يستظهرونها في المشرق . ويعقد الثعالبي فصلاً طويلاً لحكم البُستى ، ووراءها حكم وأمثال كثيرة في ديوانه ، ومن طرائفه الحكيمة قوله :

لا تحقرِ المرءَ إن رأيت به دمامةً أو رثاءةً الحَلَلِ
فالنحلُ شيءٌ على ضوولته يشترُّ منه الفتى جنا العسلِ ^(١)

وقوله :

لا يستخفنَّ الفتى بعدوه أبداً وإن كان العدو ضيلاً
إن القذى يؤذى العيونَ قليله ولربما جرحَ البعوضُ الفيلاً

وقوله :

ألم ترَّ أنَّ المرءَ طولَ حياته معنيٌّ بأمرٍ لا يزالُ يعالجهُ

يدور كدودِ القُرِّ يَنْسُجُ دائما ويهلك غمًا وَسَطَ ما هو ناسِجُهُ
وعلى هذا التحول انزال نقرأ عند أبي الفتح البُسْتِي حكما طريفة . مما يدل على بعد نظره
واتساع خبرته . وكان يخلجها من الجناس عادة ، حتى تحفَّ على ألسنة الناس وتدور في
أفواههم ، ومن الحق أنه كان شاعرا خصب القريحة ، مما جعل شعره يحفل بمعان وصيغ
بديعة .

٥

شعراء شعبيون

لا يستطيع أحد أن يزعم أن الشعر العربي انفصل في عصر من عصوره عن شعوبه ، إذ
كان دائما ترجانا عن عواطفها ومشاعرها ، حتى في المديح ، فإن الشعراء كانوا يمدحون
الحكام بالمثل العليا التي تتطلبها شعوبهم فيهم ، ولم يتركوا لهم عملا قدّموه لشعوبهم دون أن
يحمدوه لهم حمدا كثيرا ، سواء أكان في الداخل مما يتصل بنشر الأمن والعدل أم في
الخارج مما يتصل بانتصاراتهم على أعداء شعوبهم وخصومها . وكثرة الشعراء كانت من
عامة الشعوب العربية ، فكان طبيعيا أن تتضح في أشعارهم روحها ومشاعرها وكل
ما يجري في خواطرها . وقد تحدثنا عن أغراض تتضح صلتها القوية بالشعوب مثل الزهد
الذي يلتحم مباشرة بالجماعة الكبيرة فيها . وكانت تعيش كادحة كدحا مريرا ، لكي تثرى
وتتم بثار عملها جماعة محدودة من الحكام وكبار التجار والإقطاعيين . ولم يكن أمام هذه
الجماعة الكبيرة إلا الانصراف عن متاع الحياة وطيباتها ، وهي لذلك تُقبل على شعر الزهد ،
ويصبح هذا الشعر غذاءها . ولا شك في أن شعبية هذا الشعر هي التي جعلته يسهل في لغته
سهولة شديدة ، لأن العامة لا تحب الإغراب اللغوي ، بل تحب الأساليب السهلة المبسطة
الخفيفة التي تفهمها بمجرد أن تقرأ أسماعها . وبذلك كان الزهد طوال هذا العصر شعبيا في
لغته الشعرية ، وكان مما أكد شعبيته ذبوعه على ألسنة الزهاد والعباد والمتصوفة والقصاص
والفقهاء وأصحاب الحديث ، فكان الناس يسمعون في كل مكان بالإضافة إلى ما كانوا
يسمعون منه على ألسنة الشعراء ، وحتى شعر المحبون مع أنه خاص بطبقة معينة من الشعب
ونقص أصحاب الثراء واللهو نجد فيه أو بعبارة أدق في بعض منه آثار الشعبية ، غير أنها
هذه المرة لا تأتي من سهولة الألفاظ وإنما تأتي مما كان يقرن به أحيانا من دعاية ، مما يجعله
أقرب إلى النوادر المضحكة ، وتأتي أيضا من استظهار طائفة من أصحابه للكلمات الفارسية
التي تشيع على ألسنة العامة ، ويلقانا منهم كثيرون في البيتمة وتتمتها وفي دمية القصر

والخريدة . وطبيعي أن يشيع شعر شيعي كثير على السنة الشيعية ، يرويه خالف لهم عن سالف وخاصة ما يتصل بمراثي الحسين ، وبالمثل كان يشيع لأهل السنة كثير من الأشعار المصورة لعقيدتهم السنية ، مما تخر به كتب الطبقات .

ونجد في البيتمة شاعرا من الأهواز يسمى محمد ^(١) بن عبد العزيز السوسي ، يقول فيه الثعالبي إنه كان أحد شياطين الإنس ، ويذكر أن له قصيدة كانت تُرَبَّى على أربعمائة بيت في وصف حاله وتنقله في الأديان والمذاهب والصناعات ، أولها :

الحمد لله ليس لي بَحْتُ ولا ثيابٌ يضمُّها تَحْتُ ^(٢)
سَيِّانٌ بَيْتِي لمن تَأْمَلُهُ والمَهْمَةُ الصَّحْصَحَانُ والمَرْتُ ^(٣)
أَمَنْتُ في بَيْتِي اللُّصُوصَ فما لِلصِّ فِيهِ فَوْقُ وَلَا تَحْتُ

فهو عديم الحظ وليس له ثياب يضمها صوان ، فكل ما يملكه فوق جلده ، وبيته فارغ من الأثاث ومن أي شيء يكون في البيوت عادة ، وكأنه فلاة مقفرة ، وطبيعي أن يأمن اللصوص ، فليس في بيته ما يسرقونه ، وكأنه سجن ولا حرس له . ويمضي فيما رواه الثعالبي من القصيدة ، فيذكر أنه اضطرَّ إلى أن يتخذ مظهر مُتَسَوِّلَةٍ الصوفية فقَصَّرَ ثيابه ، وأَخْفَى شاربه مستقصياً ، وَحَمَلَ سَجَّادَةً ، وذهب إلى الحج دون أن ينويه ، ودخل المسجد الحرام وصلَّى في مقام الخليل ليوهم الناس أنه صوفي حقا ، حتى يعطفوا عليه ويحسنوا إليه . والقصيدة كانت كلها هزلا على هذا النمط .

واشتهرت منذ أوائل العصر جماعة من الشعراء الرحالة المتسولين المعروفين باسم شعراء الكُذْيَةِ أو التسول الأدبي ، ويعرفون أيضا باسم الساسانيين نسبة إلى أمير فارسي يسمى ساسان حرمة أبوه من الملك ، فهم على وجهه محترفا للكُذْيَةِ ، وتُشَبَّه هذه الجماعة طائفة الأدبائية التي كانت معروفة بمصر في أواخر القرن الماضي والتي كانت تظهر في موالد الأولياء متخذة من أشعارها وسيلة لاكتساب المال وابتزازه . ونجد مقدمات هذه الجماعة الساسانية في أوائل كتاب البخلاء للجاحظ إذ يعرض طائفة من حيلها وخدعها ، وبتلوه البيهقي فيصور في كتابه المحاسن والمساوي ألوانا من هذه الخدع والحيل . وحرى بنا أن نقف عند أهم شعرائها في العصر : أبي دلف الخزرجي .

(٣) المهمة : الفلاة . الصحصحنان : المستوى

(١) البيتمة ٤٢٦/٣ .

الواسع . المرت : القفر لانيات فيه .

(٢) التخت : الصوان .

أبو دُلف الخزرجي : مسعر بن مهلهل^(١)

شيخ هذه الجماعة بایران فی العصر ومقدمها وزعيمها من شعراء القرن الرابع الهجري وقد عاش فی بلاط نصر بن أحمد الساماني (٣٠١-٣٣١ هـ) ورافق بناء على أمره مجموعة صينية فی عودتها إلى الصين ، وفي عودته طاف بالهند . وعاش حتى اتصل بالصاحب بن عباد الوزير البويهی كما یوضح ذلك الثعالبي ونراه یعقد له ترجمة طويلة فی الیتمة ، ويعرف به على هذا النحو : « شاعر كثير المَلَح والطرف ، مشحوذ المُدية فی الكُدية ، خنق التسعين فی الإطراب والاعتراب وركوب الأسفار الصعاب ، وضرب صفحة المحراب بالجراب ، فی خدمة العلوم والآداب . . . وكان ينتاب حضرة الصباح [بن عباد] ويكثر المقام عنده ، ويكثر سواد غاشيته وحاشيته ، ويرتقى بخدمته ، ويرتقى فی جملته ، ويتزود كتبه (رسائله إلى الولاة برعايته) فی أسفاره فتجری مجرى السَفَاج (الحوالات المالية) فی قضاء أوطاره . وكان الصاحب یحفظ مناكاة (كلام ومصطلحات) بنی ساسان حفظا عجيبا ، ويُعجبه من أي دلف وفور حظه منها ، وكانا يتجاذبان أهدابها ، ومن قول أبي دُلف :

وَيَحْكُ هذا الزمانُ زورُ فلا يَغِرَّنْكَ العَرورُ^(٢)
زَوْقٌ وَمَحْرَقٌ وَكُلٌّ وَأَطْبِقُ واسْرِقُ وَطَلِّقُ لمن يزور
لا تلتزم حالةً ولكنْ دُرُ بالليالي كما تدورُ

والأبيات تصور حياة أبي دلف وأنها تقوم على المحركة والتحامق والخطف والسلب والنهب . وله قصيدة طويلة سماها القصيدة الساسانية ، أو هكذا أسماها الثعالبي ، وهي فی ذكر المكدنين وبيان فنون حرفهم وأنواع رسومهم ، استلها بالتعريف ببني ساسان الأدبانية وكيف يعيشون على الغربة والترحال واليسر تارة والعُسْر وربط البطون على الجوع والمسغبة تارات ، ثم يقول :

فنحن الناسُ كلُّ النا س في البرِّ وفي البَحْرِ
أخذنا جِزِيَةَ الخلقِ من الصَّينِ إلى مِصرِ

(١) انظر أبا دلف فی الیتمة ٣٥٢/٣ وتاريخ الأدب الجغرافي لكراتشكوفسكي ١٨٨/١ وفي دائرة المعارف الإسلامية وانظر الرسالة الثانية لأبي دلف نشر مينورسكي بالقاهرة وكذلك النشرة الثانية للرسالة لمستشرقين روسيين

ترجمة وتعليق الدكتور محمد منير مرمي (نشر عالم الكتب بالقاهرة).

(٢) العرور : كل ما غر الإنسان من شيطان أوجاه أو مال أو متاع .

إِلَى طَنْجَةَ بِلْ فِي كَلْ أَرْضِ خَيْلُنَا تَسْرَى
 إِذَا ضَاقَ بِنَا قُطْرُ نَزَلْ عَنْهُ إِلَى قُطْرِ
 لَنَا الدُّنْيَا بِمَا فِيهَا مِنَ الْإِسْلَامِ وَالْكَفْرِ
 فَضُطَّافٌ عَلَى الثَّلْجِ وَنَشْتُو بِلْدَ الثَّمَرِ

وطريف أن يعدّ أبودلف ما يأخذه الساسانيون من الناس بتفاصحهم وخدعهم وحيلهم الأدبية جزية . ويصوّر الأرض كلها من مشارقها إلى مغاربها دارا لهم من الصين على المحيط الهادى إلى طنجة والمحيط الأطلسى ، وكأن الدنيا كلها ملكهم ولا حواجز تحجزهم من نهر أو جبل أو بلد مسلم أو بلد كافر ، فالدنيا كلها مسرح لأقدامهم ، يصطافون في أقاليمها الباردة ، ويشتون في أقاليمها الحارة الدافئة . ثم يأخذ أبودلف في وصف حيلهم وصفا مسهبا ، وكيف أنهم كانوا يحتالون على النساء بما يكتبون لهم من تعاويد وأحراز ، وكيف أن القاصّ منهم كان يتفق مع صاحب له ، ليفد على مجلس قصصه ، فيأمر السامعين بإعطائه ما يحدون به ، ثم إذا تفرّقوا عنه تقاسما ما أعطوه . ويصورهم يتباكون في البرد القارس خداعا للناس ، حتى تلين لهم قلوبهم ويعطوهم دراهمهم وكيف أنهم حين يلبثون بجوانيت الباعة يخطفون جوزة من هنا وتمرّة أو تينة من هناك ، وكيف يدهنون وجوههم بماء البيض الأصفر ، لتبدو شديدة الصفرة ، وكيف يعصبون جباههم ليوهوا الناس أنهم مرّضى ، وكيف يعقرون أو يجرّحون أنفسهم بالأمواس ، وكيف يطلون أجسادهم بالزيت حتى تسودّ جلودهم ، وكيف يدارون ألسنتهم موهمين الناس أن الروم قطعوها في جهادهم ، محاولين أن يبتزّوا منهم الثياب والسلاح للغزو ، وكيف يحملون البخور وأدواته للسؤال به ، وكيف يحتالون على مرضى الأسنان بوضع دود الجبن بين أسنانهم ثم استخراجها ، وكيف يروون للناس كذبا الحديث عن الأنبياء والحكايات القصار ، وكيف يلبسون ثياب المتصوفة والرهبان احتيالا ، وكيف يوهمون الناس أنهم يجمعون الأموال لأقربائهم الأسرى في ديار الروم فداء لهم ، وكيف يخفون إحدى أيديهم إياها بأنها مقطوعة ، وكيف يخيّلون للناس أنهم كانوا يهوداً أو نصارى وأسلموا ، وكيف يوهمونهم بأنهم عمى لا يبصرون ، وكيف يدورون بين العشائين منادين : رحم الله من عشى الغريب الجائع ، آخذين من كل دار كسرة ، وكيف يحتالون على الناس بمعرفة طوالعهم ونجومهم ، وكيف يحتالون على الشيعة خاضعين لحاهم بالحناء مع حملهم الألواح والسبح من الطين زاعمين أنها من قبر الحسين ، مع نواحيهم عليه ورواية الأشعار في فضائله ومقتله ، وكيف أنهم يحتالون لذرف الدموع بغمس قطنة في الزيت وإمرارها على عيونهم ، وكيف يستأجرون

الصبيان والنساء ويُكَدُون أو يشحذون عليهم ، وكيف يطرحون على أبواب الحوانيت السُّبُحات وأقراص الحلوى ، وكيف يَرْقُونَ المجانين وأصحاب العاهات ، وكيف يَمْوِّهون بأنهم صائمون وأنهم سيحجُّون عن الناس ، وكيف يعبرُّون للناس رؤاهم ، وكيف يستأجرون الصبيان ، وكيف يحملون السُّلال فيها الحَيَّات وقد قلعوا أنيابها ، وكيف يدَّعون الطبَّ ومداواة المرضى ، وكيف يشحذون أو يُكَدُون على الدُّبَّة والسباع والقردة ، وكيف يرْعَدون رَعَدَات شديدة تهتز لها مفصلهم وتصطك أسنانهم ، وكيف أنهم يشدُّون أيديهم بمجموعة الأصابع حتى يُظَنَّ أنها مقطوعة ، وكيف يأوون إلى المساجد عليهم المرقعات حتى يُظن أنهم من الصوفية . وما يزال أبودلف في وصف خُدَّع القوم وحيلهم ، حتى يُوفى على نهاية القصيدة قائلا :

رَ من شَطَرٍ إلى شَطَرٍ	ألا إني حَلَبْتُ الدَّهْرَ
تُ في التَّطَوُّافِ كالخَضِرِ	وَجَبْتُ الأَرْضَ حَتَّى صِرَ
تَشَقَّتْ غَلَّةُ الصَّدْرِ	فإنْ أَظْفَرُ بِأَمَالِي
قَوِيَّ النَّهْيِ والأَمْرِ	وَأَلَمْتُ بِأَوْطَانِي
زَرَّةُ أَلْوِيَّةِ النَّصْرِ	وقد تَخَفَّقَ فَوْقَ عَدِ
وعِزُّ جَائِزِ الكَسْرِ	وإِما تَكُنِ الأُخْرَى
غَدَاً في أَوْبَةِ السَّفَرِ	فَلا أُبْتُ مَعَ السَّفَرِ
بِلا عِزٍّ ولا وَفَرٍ	ولا عُدْتُ مَتَى عُدْتُ

ويقول إن له أسوة في غربته بالسادة الطُّهْر آل البيت كما تشهد قبورهم في الكوفة وكربلاء وبغداد وسامراً وطوس وباخمرًا بالقرب من الكوفة . وفي ذلك مايدل على أنه كان شيعياً ، وأكبر الظن أنه كان إمامياً مثل صاحب بن عباد . وقد صَوَّرَ في قصيدته كل أفانين المكدين وحيلهم مستخدماً مصطلحاتهم في هذه الحيل ، مما جعله يُعْنَى بشرح القصيدة بيتا بيتا ، وعنه نقل الثعالبي الشرح ، ولخصناه في إيجاز . والمصطلحات كلها شيعية ، ومن المؤكد أن جماعة الكدية كلها كانت جماعة شيعية ، ولاشك في أن أبادلف بعدَّ خير شاعر في عصره عبَّرَ عن نفسه وعن هذه الجماعة .

ولأبي دلف رحلات إلى الصين وأواسط آسيا دُونِ اقتباسات كثيرة منها ياقوت في «معجم البلدان» والقزويني في كتابه «آثار البلاد» ووجدت له رسالتان حُلِلَ أولاهما المستشرق الألماني رور صوير موضحاً أنه يتحدث فيها عن رحلته إلى الصين ، ونشر الرسالة الثانية المستشرق مينورسكي (طبع وزارة التربية والتعليم بالقاهرة) كما نشرها مستشرقان

روسيان وعنى الدكتور محمد منير مرسى بترجمة ما بذلاه فى نشرتها والتعليق على الرسالة
 تعليقات علمية نافعة ، تدلل صعوباتها وتجعلها ميسرة للقارىء . وفيها يصف أبو دلف
 رحلته فى أواسط آسيا من جنوبى أذربيجان إلى مدينة باكو فتفليس فأردبيل فهمدان فالرى
 فطبرستان فقومس فطوس فنيسابور ، فهراة ، فأصفهان ، فمدن خوزستان . ويعنى بوصف
 المدن والقلاع التى شاهدها وصفا دقيقا ذا كراً معادنها وثمارها وأسواقها وأسوارها وسكانها
 من الشيعة وغيرهم وآثارها القديمة .

الفصل الخامس

النثر وكتابه

١

تنوع الكتابة

رأينا في العصرين : العباسي الأول والعباسي الثاني كيف تطور النثر العربي حتى وعى الثقافات الأجنبية العلمية والفلسفية ، وكيف تحول العرب من دور النقل والترجمة إلى دور التصنيف والمشاركة العقلية الخصبة المثمرة في ميادين العلم والفلسفة . ونحن لا نصل إلى هذا العصر : عصر الدول والإمارات ، حتى يصبح في أغلب الأمر عصر تصنيف ومشاركة حية في الفلسفة وعلوم الأوائل ، على نحو ما صورنا ذلك في غير هذا الموضع . وقد أصبح للعرب نوعان متكاملان من النثر : نوع علمي ونوع فلسفي ، ونفذوا خلال ذلك إلى وضع كتب في مصطلحات العلوم ، كما أسلفنا ، وكل ذلك أحدثوه بدون ضجة . ولم يتركوا علما دون أن يتعمقوا فيه ودون أن يكتبوا فيه المجلدات الضخام ، ويحدثنا المطهر المقدس المتوفى سنة ٣٥٥ عن سلوك معاصريه العلمي وما يذلون من عناء ليس وراءه عناء قائلا^(١) :

* « يابى العلم أن يضع كنفه أو يخفض جناحه أو يسفر عن وجهه إلا لتمجّده له بكليته ، ومتوفر عليه بأنيته ، معانٍ له بالقرينة الثاقبة ، والرؤية الصافية ، مقترن به التأيد والتسديد ، قد شمر ذيله ، وأسهر ليله ، حليف النصب ، ضجيع التعب ، يأخذ مأخذه متدرّجا ، ويتلقاه مطرّفا ، لا يظلم العلم بالتعسف والافتحام ، ولا ينجط فيه خبط العشواء في الظلام ، ومع هجران عادة الشر ، والتزوع عن نزاع الطبع ، ومجانبة الإلف ، وبُذ الماحكة واللّجاجة ، وإجالة الرأي عند غموض الحق ، والتأني بلطيف المأثي ، وتوفية النظر حقه من التمييز بين المشتبه والمتضح ، والتفريق بين التموه والتحقيق ، والوقوف عند مبلغ العقول ، فعند ذلك إصابة المراد ، ومصادفة المرتاد » .

وبهذا العناء البالغ والجهد الشاق تمثل المثقفون العلوم والفلسفة تمثلا رائعا ، وكان

(١) كتاب بدء الخلق والتاريخ للمقدسي ٤/١ .

لذلك آثار كثيرة في تنوع فنون الكتابة والنثر ، مما نراه واضحا لا في الكتابات العلمية والفلسفية فحسب ، بل أيضا في الكتابات الأدبية ، ولنأخذ جانباً واحداً هو جانب القصص ، فقد أخذ يوجد بجانب القصص الأدبي الخالص قصص صوفي وقصص فلسفي . ومعروف أن المترجمين عُنوا في القرنين الثاني والثالث للهجرة بنقل كثير من القصص الفارسي والهندي وكان بين ما نقلوه كتاب ألف ليلة وليلة . ومحاكاة له ألف محمد بن عبدوس الجهشيارى المتوفى سنة ٣٣١ للهجرة كتابا قصصيا مماثلا يشتمل على ألف حكاية من حكايات العرب وغيرهم . ومنذ هذا الحين يكثر تأليف كتب السمر حتى ليذكر حمزة الأصفهاني المتوفى قبل سنة ٣٦٠ أن كتب السمر المتداولة في أيامه بلغت سبعين كتاباً^(١) ، وكانت العامة تلهف منها على ما يدور حول الحب وحكاياته أو حول الجن . وطبيعي أن تكثر كتب النوادر ، وخاصة ما اتصل منها بالحمقى أو بالمغفلين ، وتكثر أيضا كتب الندماء وأخبارهم .

ومرَّينا في كتاب العصر العباسي الثاني أنه أخذت تتكوّن منذ القرن الثالث حول المتصوفة حكايات كثيرة ، تصوّر جهادهم في نسكهم جهادا مضنيا ، وحكايات أخرى بجانبها تصور كراماتهم . وكانت العامة تقبل على هذه الحكايات الصوفية ، مما جعلها تطبع بطوابع الأدب الشعبي وألفاظه ولغته^(٢) . وكلما مضينا في عصر الدول والإمارات كثرت الحكايات والأقاصيص عن المتصوفة ، لما كانت تلقى من رواج عند العامة ، ويكفي أن نعرض أطرافا من هذه الحكايات عند القشيري مؤسس التصوف السني ، فقد فتح في رسالته بابا لكرامات الأولياء ، وقصّ حكايات منها تنسب إلى الصحابة والتابعين وكبار المتصوفة في إيران والعراق ومصر والخضر عليه السلام . ومما حكاه أنه كان في قصر سهل التستري المتصوف بيت يسمى بيت السباع ، يقول : فسألنا عن ذلك ؟ فقالوا كانت السباع تجيء إلى سهل ، وكان يُدخلهم هذا البيت ويُضيفهم ويُطعمهم اللحم ثم يخليهم ! وحكى عمن يسمى ابن سالم أنه لما مات إسحق بن أحمد دخل سهل التستري صومعته ، فوجد فيها سَقَطاً (وعاءً) فيه قارورتان ، في واحدة منها شيء أحمر ، وفي الأخرى شيء أبيض ، ووجد شوشقة (قطعة) ذهب وشوشقة فضة ، فرمى بالشوشقتين في دجلة ، وخطط ما في القارورتين بالتراب ! وكان على إسحق دين ، قال ابن سالم : قلت لسهل إيش كان في القارورتين ، قال : إحداهما لو طُرح منها وزن درهم على مثاقيل من النحاس

(١) تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء لحمزة (٢) انظر العصر العباسي الثاني (طبع دار المعارف) ص الأصفهاني (نشر دار مكتبة الحياة بيروت) ص ٤٠ . ٢٥٩ .

صارت ذهباً ، والأخرى لو طُرح منها مثقال على مثاقيل من الرصاص صارت فضة . فقال سامع لابن سالم : وإيش عليه لو قضى منه دين إسحق ؟ فقال له : إى دوست (يا صاحبي) خاف على إيمانه . وحكى عن الخواص أنه قال : كنت فى البادية مرة ، فسرت فى وسط النهار ، فوصلت إلى شجرة وبالقرب منها ماء ، فترلت ، فإذا أنا بسبع عظيم أقبل ، فاستسلمت ، فلما قرب منى ، إذا هو يعرج ، فحَمَمَ وبرك بين يدى ، ووضع يده فى حجرى ، فنظرت ، فإذا يده منتفخة ، فيها قيح ودم ، فأخذت خشبة وشققت الموضع الذى فيه القيح ، وشدت على يده خرقة ، ومضى ، وإذا أنا به بعد ساعة ومعه شبلان يبصبسان لى وحملأ إلى رغيغا ! . وحكى عن ذى النون فى رواية أبى بكر بن عبد الرحمن قال : كنا مع ذى النون المصرى فى البادية ، فترلنا تحت شجرة أم غيلان ، فقلنا : ما أطيب هذا الموضع لو كان فيه رُطب ، فتبسم ذو النون ، وقال : أتشتهون الرطب ، وحرك الشجرة ، وقال : أقسمت عليك بالذى ابتدأك وخلقتك شجرةً إلا نثرت علينا رُطباً جَيِّناً ، ثم حركها ، فنثرت رطباً جَيِّناً ، فأكلنا وشبعنا . ثم نمنا ، وانتبهنا وحركنا الشجرة ، فنثرت علينا شوكا ! . ومما حكاه عن الخضر فى رواية أبى عمران الواسطى قال : انكسرت السفينة ، وبقيت أنا وامرأتى على لوح وقد ولدت فى تلك الحالة صبية ، فصاحت بى ، وقالت لى : يقتلنى العطش ، فقلت : هو ذا يرى حالنا ، ورفعت رأسى ، فإذا رجل فى الهواء ومعه كوز ، فأخذت الكوز وشربنا منه ، وإذا هو أطيب من المسك وأبرد من الثلج وأحلى من العسل ، فقلت : من أنت ؟ رحمك الله ، فقال : عبد لمولاك ، فقلت : بم وصلت إلى هذا ؟ فقال : تركت عَوارى الدنيا لمرصاته ، فأجلسنى فى الهواء ، ثم غاب عنى ولم أره :

وتكثر أمثال هذه الحكايات فى كتب المتصوفة ، وواضح ما فيها من إبطال قانون السببية ، وإنما رويناهما لندل على ذبوع حكايات وأقاصيص صوفية شعبية بين العامة ، وكانت تُروى بلغة وسطى بين الفصحى والعامية أو قل بلغة فصحي قريبة من أفهام العامة ، وبذلك كانوا يتداولونها وكانت تشيع فى أوساطهم وتنتشر ، عاملة - إلى حد - فى الإبقاء على الفصحى ، لغةً متداولة على ألسنة الإيرانيين فى ذلك العصر ، خاصة أنهم كانوا يُشْعَفُونَ بالتصوف وكل ما يتصل به من أقاصيص ، لا تتناول الكرامات فحسب ، بل أيضاً تتناول جوانب أخرى كرواى الرسول ﷺ فى الحلم ورواى الصحابة والصوفية ورواى الحور العين . وفى رسالة القشيري من ذلك حكايات مختلفة ، وبالمثل فى كتب المتصوفة ككتاب قرة العيون ومفرح القلب الحزون لأبى الليث السمرقندى المطبوع على هامش

الروض الفائق في المواعظ والرقائق .

ويلقانا بجانب القصص الصوفي قصص فلسفي رمزي عند ابن سينا وبجي السُّهْرَوَرْدِيّ ، أما ابن سينا فله ثلاث أقاصيص ، هي حَيّ بن يقْطان وسَلَامان وأُبْسَال ، ورسالة الطير . وتستهل أقصوصة حَيّ بن يقْطان بأن رفقاء (هي شهوات الإنسان وغرائزه) خرجوا يتزهدون ، فبينما هم يطوفون إذ رأوا شيخاً بهياً هو حَيّ بن يقْطان وقد رمز به ابن سينا إلى العقل الفعال . ويدور حوار بين حَيّ بن يقْطان والرفقاء نعرف منه خطورة علم المنطق ويسميه علم الفراسة ، كما نعرف أن الرفقاء رفقاء سوء وأن هناك شاهد زور هو قوة التخيل التي توقع الإنسان في الشر ، وأن الإنسان تحفه من يمين القوة الغضبية ومن يسار القوة الشهوانية القدرة ولا نجاة منها إلا بالموت ، مثلها في ذلك مثل الرفقاء السوء من الغرائز ، وأن على الإنسان أن يقمعها بالمجاهدة . ويقول حَيّ بن يقْطان إن حدود الأرض ثلاثة ، حد يحوزه الخافقان ، ويقصد به المركبات المحسوسة ، وحد المغرب ويقصد به الهبولى ، وحد المشرق ويقصد به الصورة . وبين هذين الحدين وبين عالم البشر سور مضروب لن يتجاوزه إلا الخواص المغتسلون في عين فَوَّارة لعلها علم المنطق تطهرهم وتركبهم ، إذ تضيئ لهم الحقائق . ويشير إلى المملكة المعدنية والنباتية والحيوانية ويقول إن إقليم الإنسان تقابله أقاليم المملكة السماوية وما بها من الأفلاك التسعة أو العقول التسعة التي تسلط على الأرض والكون ، ثم العلة الأولى أو علة العلل وهي الذات الإلهية . ويتحدث عن عالم الأرض ويقول إنه رُتّب على سلك خمس كسكك البريد ، ويريد بها الحواس الخمس ، ويقول إن في الأرض أمة برّة رامزا بها إلى القوى العاقلة . وبذلك تنتهى الأقصوصة .

وأقصوصة سَلَامان وأُبْسَال لها أصول يونانية ، وهما أخوان كان أُبْسَال أصغرهما سِناً وترتّب في كَنَف أخيه ، ونشأ جميلاً عفيفاً ، شجاعاً عالماً أدبياً . وسَلَامان في الأقصوصة هو النفس الناطقة ، وأُبْسَال هو العقل أو درجة العرفان ، وكانت لسَلَامان زوجة رمزت بها الأقصوصة إلى القوة البدنية الأمارة بالشهوة ، عشقت أُبْسَال ، فقالت لزوجها أخلطه بأسرتك . ولما خلت به أظهرت له عشقها ، فأبى الانصياع لها أو قل أبى العقل الانصياع إلى القوة البدنية . ومكرت به فزوجته بأختها ، وقالت لها إننى لم أزوجك بأبسال ليكون لك وحدك ، وإنما ليكون لنا معا . وفي ليلة الزفاف جاءته بدلا من أختها وأخذت تعانقه وتضمه إلى صدرها ، فلاح برق في السماء أبصر على ضوئه وجه زوجة أخيه فتخلص منها . ويرمز البرق إلى جذبة من جذبات الحق ، وينكشف الشُّرك لعين أُبْسَال ، ويتخلص

من عالم الشهوات الحسية إلى عالم العقل المحض . ويتنظم جنديا في الجيش ويفتح كثيرا من البلاد رمزا إلى الاطلاع على الملكوت الأعلى . وتتفق زوجة سلامان مع الطابخ والطاعم فيدسّان لأبسال السم ويموت . ويثأر الأخ لأخيه ، فيقتل الزوجة والطاعم (رمزى القوة الشهوانية) والطابخ (رمز القوة الغضبية) . وسلامان نفسه في قتله الثلاثة رمز لغلبة العقل على القوى البدنية .

وأقصوصة الطير يتخذ ابن سينا الطير فيها رمزا للحرية ، ويستهلها بدعوة إخوانه الفلاسفة إلى الصفاء والإخلاص والسمو إلى الكمال ، ويتصور نفسه طائرا مع طائفة من الطير تنبه لها الصيادون ، فنبصوا لها الشباك ، وسرعان ما وقع فيها الطير وتشبث بأجنحته وأرجله ، فاستسلم للهلاك ، وشغل كل طائر عن أخيه بأمره وكربه ناسيا حرته الضائعة كما نسيت الأرواح الإنسانية عالمها الذى هبطت منه ، وأصبحت سجينه البدن . وتخلص بعض الطيور رءوسها وأجنحتها من الشباك ، ولكن تظل أرجلها متعثرة فيها . ويجمع الطير قوته والشباك عاقلة به ، ويسمّ جبل الملك رجاء أن يفكها عنه ، ويرى من دونه سبعة جبال مايزال يقطع وديانها حتى يصل إلى الجبل الثامن ويعرف أن الملك في مدينة وراءه فينفذ إليه ويبره جماله ، ويتضرع إليه أن يفك عنه الشباك ، ويقول له لا يستطيع فكها إلا عاقدوها ، ويرسل إليهم رسولا معه ليفكوها عنه . وانصرف الطير مسرورا . وواضح أن كل هذا الجهاد من جبل إلى جبل إنما كان في سبيل تخلص الأرواح من أجسادها ، وترمز الجبال إلى مقامات السلوك إلى محبة الله المعروفة في بيئات المتصوفة ، بينما يرمز الرسول الذى يفك الشباك عن الطير إلى ملك الموت .

ويُعبد يحيى بن حبّش السهروردى كتابة أقصوصة حى بن يقظان متخذها لها اسما جديدا هو الغريبة الغريبة ، وحى بن يقظان فيها لا يرمز إلى العقل الفعال أو العقل الإنسانى كما رأينا عند ابن سينا ، وإنما يرمز إلى المتصوف وجهاده ومقاماته حتى يتصل بربه محبوبه . ويستهل الأقصوصة السهروردى بأنه سافر مع أخيه عاصم من ديار ماوراء النهر إلى مدينة القيروان حيث أسيرا وقيدا في السلاسل وألقى بهم في بئر عميقة . ويبدو أنه يرمز بالمغرب والبئر إلى الشهوات التى تحول بين الإنسان وبين حياة الإشراق . ورأى هو وأخوه (رمز العقل كما يتضح من اسمه عاصم) هدهدا في ليلة قراء في منقاره كتاب صدر من شاطئ الوادى الأيمن من البقعة المباركة . وهو كتاب حُمِلَ إليهما من الذات العلية يدعوها إلى السفر (رمز الجهاد الصوفى) بغية الوصول ، ويأمرهما بركوب سفينة تجرى بهما في موج كالجبال صاعدة بهما إلى طور سيناء ، ليريا صومعة (الله) . ولعله رمز بالموج إلى

الشهوات . ورأيا في الطريق جاجم عاد وثمود (رمز الضالين) وصعدا الجبل ورأيا أباهما شيخا كبيرا تكاد السموات والأرض تنشق لجماله وجلاله . وكأنه يرمز بذلك إلى وصوله . ويطلب إلى ربه أن يخلصه من سجن القيروان غير أنه يأمره بالعودة إليه قائلا إنه يمكنه الخي إلى كلاً شاء . وهو بالعودة إلى سجن القيروان يرمز إلى أن الصوفي لا يستطيع التخلص نهائيا من علائق الأرض . ويقول الله إنك ستخلص يوما (يوم الموت) من سجن القيروان ولا تعود إليه . ويلقاه في الرحلة أسد هو رمز القوة الغضبية وحيثان ربما كانت رمزا للشهوات . وكانت الرحلة شاقة . واتخذ السهروردي من مشاقها رمزا للعناء الصوفي في الوصول إلى المعرفة الإلهية والمحبة الربانية ، وقد ختمها بقوله « نجنا الله من قيد الهولكي والطبيعة » .

وإذا كان القصص نما في العصر هذا النمو على أيدي الفلاسفة والمتصوفة فإن ضروب النثر الأخرى نمت بدورها ، وفي مقدمتها المناظرات وخطابة الوعظ . أما المناظرات فكثر كثرة مفرطة بين أصحاب المذاهب الفقهية ، وكذلك بين أصحاب المذاهب الكلامية ، وهي أكثر وأوسع من أن نقف عندها ، وخاصة أنها كانت علمية الطابع . وأما خطابة الوعظ فتجرد لها كثيرون من الفقهاء والمحدثين والمتصوفة والزهاد وكانوا يعظون الناس في المساجد بعد صلاة الجمعة وطوال شهر رمضان . ويصور السمرقندي المتوفى سنة ٣٧٣ ما ينبغي أن يكون عليه الواعظ والمستمعون إليه ، فيقول ^(١) : إن أول ما يحتاج إليه الواعظ أن يكون صالحا في نفسه ورعا متواضعا ، وأن لا يكون متكبرا ولا فظا غليظا ، وأن يكون عالما بتفسير القرآن والأحاديث وأقوال الفقهاء ، وأن لا يحدث الناس إلا بماصح عنه من الأحاديث النبوية والأخبار ، وأن لا يسأل إنسانا هدية ، أما إذا أهدى إليه إنسان من غير مسألة فلا بأس من أن يقبل هديته ، وينبغي أن يمزج في مجلسه بين الخوف والرجاء ، فلا يجعله كله خوفا ولا كله رجاء ، وإن كان الواعظ محتاجا إلى تطويل مجلسه تخلله بكلام يستظرفه السامعون حتى يزيدهم نشاطا وإقبالا على سماعه . ومن آداب المستمعين أن يصلوا على الرسول ﷺ عند سماع اسمه وأن لا يناموا في أثناء الوعظ ، بل يظلوا ناشطين متنبهين

ونلّم على سبيل المثال بطائفة من كبار الوعاظ ، فمنهم أبو عثمان الصابوني شيخ الإسلام بخراسان ويقال إنه ظل - كما مر بنا - يعظ الناس في مجالس تذكيره ستين سنة ، وإنه كان

(١) بستان العارفين على هامش تنبيه الغافلين للسمرقندي ص ٢٥ وما بعدها .

يعظمهم بالعربية والفارسية^(١) ، ومنهم إمام الحرمين الجويني المتوفى سنة ٤٧٨ ومن أجله بنيت المدرسة النظامية بنيسابور - كما أسلفنا - وكان يجلس للوعظ والمناظرة ورزق من التوسع في العبارة ما لم يعهد من غيره ، وكان لا يتلثم في كلمة^(٢) . ومنهم القشيري الإمام الصوفي الكبير المتوفى بنيسابور سنة ٤٦٥ ومربنا ما قيل في وعظه من أنه « لو قرع الصخر بصوت تحذيره لذاب ، ولو رُبط إبليس في مجلسه لتاب » . ومنهم الغزالي الإمام المشهور وأخوه أحمد الذي قيل فيه : « كان واعظا تنفلق الصخور الصم عند سماع تحذيره ، وترعد فرائص الحاضرين في مجالس تذكيره^(٣) » . ومنهم فخر الدين الرازي المتوفى سنة ٦٠٦ وكان واعظا كبيرا وكان يعظ باللسانين العربي والعجمي وكان يلحقه الوجد في حال الوعظ ويكثر البكاء . وحضر مجلس وعظه ذات يوم السلطان أبو المظفر الغزنوي ، فصاح به وهو على المنبر ، يا سلطان العالم ! لا سلطانك يبق ، ولا تلييس الرازي يبق ، وإن مردنا إلى الله^(٤) .

وكانت كثرة الدول والإمارات الفارسية في العصر عاملا مهما في كثرة الرسائل الديوانية ، فقد كان لكل دولة ولكل إمارة ديوان رسائل تصدره كُتّاب اشتهروا بحسن البيان ، وليس ذلك فحسب فإنهم مضوا يتأنقون في كتاباتهم صورا من التأنق حتى يُرضوا أمراءهم ، وكانت كتبهم لا تخلو من حلية السجع ، فهي حلية مشتركة في الرسائل جميعها وتضاف لها حلي مختلفة من الجناس والطباق والأخيلة ، حتى لتغدو بعض الرسائل طائفة من الحليّات والتنميقات . وكان الشبان يغدون على هذه الدواوين ابتغاء العمل فيُحْتَبَرُونَ ، ومن تتضح عنده الملكة الأدبية يوظف فيها ، وحينئذ يلزم كاتبا من كتابها ، يعمل بين يديه ، حتى يخرجها كاتبا ماهرا . وكان بعضهم يظل في حضرة الدولة أوعاصمتها ، وبعضهم يُرسل إلى الولايات للعمل بين أيدي الولاة . وكل ذلك كان يدفع شباب الكتاب إلى التنافس بينهم ، تنافسا أداهم إلى التثقف الواسع بألوان الثقافات المختلفة من لغوية وغير لغوية . وكان من يظهر منهم نبوغا يرتقى سريعا وقد يصبح رئيسا للديوان ، وقد يصبح وزيرا يدبر أمور الدولة كلها ، وربما أصبح واليا لمدينة كبيرة . وكل ذلك دفع إلى النهوض بالكتابة الديوانية ، وخاصة في القرون الرابع والخامس والسادس للهجرة ، حين كانت العربية لا تزال هالكة ولا يزال سلطانها نافذا في الأعمال الرسمية . وبالمثل ظلت في

(٤) السبكي ٨٩/٨ وما بعدها وابن خلكان

٢٤٩/٤ .

(١) السبكي ٢٧١/٤

(٢) ابن خلكان ١٦٨/٣

(٣) السبكي ١٩١/٦

تلك القرون الكتابة الإخوانية مزدهرة ، فالأدباء يصوّرون في رسائلهم الشخصية عواطفهم في التهادى والاستمناح والثناء والذم والتهاني والعتاب والاستعطاف والتعزية ، مظهرين في هذا المجال براعة في طرافة التفكير وجمال التعبير ، وسنُعنَى في الصحف التالية بالحديث عن كتاب الرسائل الديوانية والشخصية ، ونقف قليلا عند قابوس بن وشمكير ومحمد بن عبد الجبار العتبي ورشيد الدين الطواط من كُتّاب الدول والإمارات ثم نلمُّ بابن العميد واضع طريقة كتابة الرسائل في العصر وتلميذه صاحب بن عباد وبديع الزمان وما أنشأ من مقاماته الرائعة .

٢

كُتّاب الرسائل

من أهم ما يلاحظ في مطالع هذا العصر بإيران ازدهار الحياة الأدبية ، فإن أصحاب الدول والإمارات الإيرانية تنافسوا في جَمْع الأدباء من حولهم ، واتخذوا لذلك كل ما استطاعوا من تشجيع مادي مما جعل حواضرهم تتحول إلى مراكز أدبية كبيرة ، ولعلنا لم ننسَ مامرّ بنا من كثرة الإمارات الفارسية في القرن الرابع الهجري ، فقد كان السامانيون في بخارى بخراسان والبويهيون بالرّى والزياريون في طبرستان وجرجان ، ولم يلبث الغزنويون أن ظهروا في هراة بأفغانستان . وكان كل حاكم يسعى إلى أن تحفل عاصمته بكبار الكتاب والشعراء ، وكانوا دائما يختارون كتابا كبيرا ليتولى شئون دواوينهم ، وكان بدوره يختار طائفة من الكتاب البلغاء لمعاونته ، فلا تعجب إذا نشطت الكتابة حينئذ وكثر الكتاب بإيران كثرة مفرطة . ولم يكن أصحاب الإمارة الكبيرة أو الدولة فقط هم الذين يجذبون الكتاب البلغاء إلى دواوينهم ، بل كان أيضا يصنع صنيعهم حكام البلدان والإمارات الصغيرة ، ولذلك تعددت مراكز الأدب في الإمارة الواحدة على نحو ما يرى القارئ للثعالبي في كتابه اليتيمة ، فإنه عرض في حديثه عن الدولة السامانية وحاضرتها بخارى بخراسان لنيسابور وما كان بها من نشاط أدبي واسع ، وبالمثل عرض في حديثه عن الدولة البويهية وحاضرتها الكبرى في الرّى لأصهبان والجبل وفارس والأهواز .

ولن نستطيع أن نتعقب جميع كتاب الدول والإمارات الإيرانية في القرن الرابع فضلا عما وراءه من قرون ، ولذلك سنكتفي ببعض المشهورين متخذين منهم أمثلة لازدهار كتابة الرسائل الديوانية والإخوانية قبل الغزو المغولي أو التتاري في القرن السابع الهجري . وأول من نقف عندهم كتاب الدولة السامانية ومن كبار كتابها العميد والد أبي الفضل بن العميد

كبير كتاب القرن الرابع وعلى بن محمد ^(١) الإسكافي النيسابوري وأسرته بنى ميكال من أهل نيسابور وفي مقدمتهم أبو الفضل الميكالي الذي ترجمنا له بين شعراء الغزل ، ويقطف الثعالبى فصولا طريفة من رسائله . وأكثر المجلد الرابع من اليتيمة إنما هو فى الترجمة لأدباء بخارى ونيسابور ومن طراً عليهما من كبار الأدباء مثل بديع الزمان ، وسنفرده له حديثاً ، ومثل أبى بكر الخوارزمى ، وقد ترجمنا له فى شعراء الهجاء ، وهو أكبر كتاب الرسائل الشخصية أو الإخوانية فى العصر ورسائله مطبوعة ، وقد تحدثنا عن فنه الكتابى وبراعته الأدبية فى كتابنا « الفن ومذاهبه فى النثر العربى » .

ويفيض المجلد الثالث من كتاب اليتيمة فى ذكر كتّاب الدولة البويهية فى الرى وأصبهان والجل و فارس والأهواز وفى مقدمتهم ابن العميد والصاحب بن عباد ، وسنخص كلامها بحديث ، ويشيد الثعالبى بأبى العباس ^(٢) الضبى المتوفى سنة ٣٩٩ ويقول إنه خليفة الصاحب وجذوة من ناره ، ويجرى فى طريقه ، ترسماً وترسلاً . وكان لرجان وطبرستان حظهما من الكتاب والشعراء ، ولعل كاتباً فيها لم ينبغ نبوغ قابوس بن وشمكير فى الترسل والكتابة ، وسنلم به وبكتابه عما قليل . ولنلقى فى الدولة الغزنوية بكثيرين من الكتاب وفى مقدمتهم أبو الفتح البُستى ، وقد ترجمنا له بين شعراء الحكمة والفلسفة ، وكان يعاونه فى الكتابة أبو النصر محمد بن عبد الجبار العُتْبى ، وسنقف عنده بعد قليل . ومن كتّاب الدولة الغزنوية أبو بكر القُهْستانى الذى ترجمنا له بين شعراء اللهو والجون وكان على رأس كتّاب الأمير محمد بن محمود الغزنوى . ويذكر الثعالبى فى تنمة اليتيمة بعض أسجاعة فى رسائله . ومن كتاب هذه الدولة أيضاً القاضى أبو أحمد منصور ^(٣) بن محمد الأزدى الهروى المتوفى سنة ٤٤٠ وأشاد بكتابات وأشعاره كل من ترجموا له من القدماء .

ونمضى إلى الدولة السلجوقية فى القرن الخامس الهجرى ونجد على رأس كتّابها أول وزير لها عميد الملك منصور بن محمد الكُندَرى المارّ ذكره المتوفى سنة ٤٥٦ للهجرة وفيه يقول صاحب الدمية : « لعميد الملك الكُندَرى طريقة فى الترسل محمودة ، وموافقة فى البلاغة مشهودة » ^(٤) ويذكر نموذجاً من كتاباته . ومن كتّاب هذه الدولة أبو الحسن ^(٥) الحسينى

(١) انظر فى الإسكافى اليتيمة ٩٥/٤ ومعجم الأدباء ١٩١/١٩ وبروكلمان ١٢٢/٢ .

١٤/٢٥٧ (٤) راجع الكندرى فى الدمية ٢٣٠/٢ وابن خلكان

(٢) راجع فى الضبى اليتيمة ٢٨٧/٣ ومعجم

الأدباء ١٠٥/٢ .

(٣) انظر القاضى منصور الهروى فى تنمة اليتيمة ٤٦/٢

والدمية ١٥٣/٢ والسبكى ٣٤٦/٥ ومعجم الأدباء

(٥) انظره فى الدمية ١٧٧/٢ .

البلخي ، وكان ألب أرسلان يرسله في مهامه إلى بغداد ، ويسوق البخارزي في الدمية نموذجاً من سلطانياته . ومن كتاب هذه الدولة أيضاً البخارزي صاحب الدمية ، ومتر ترجمته بين شعراء اللهو والمجون ، والطغرائي ومتر ترجمته بين شعراء المديح ، والأبيوردی وعمل في دواوين السلاجقة ببغداد وأصفهان وغيرهما من البلدان ، ومتر ترجمته بين شعراء الفخر والهجاء والشكوى .

وكانت الدولة الخوارزمية تقود بدورها نشاطاً أدبياً وعلمياً عظيماً استمر حتى قضاء التتار عليها سنة ٦٢٩ للهجرة ، ويكفي أن هذا النشاط أنتج العالم المعترى الكبير الرنخشي المتوفى سنة ٥٣٨ كما أنتج كاتباً كبيراً يُعدّ آخر كتاب الدواوين النابيين في إيران ، وهو رشيد الدين الوطواط ، وسنخصه بكلمة ، بعد إمامنا بقابوس بن وشمكير وأبي النصر العُتبي .

قابوس^(١) بن وشمكير

هو أحد أمراء الدولة الزيارية في طبرستان وجرّجان وبلاد الجبل ، ويرجع نسبه هو وأسرته إلى « آل قارن » إحدى الأسر السبع الرفيعة - فيما يُقال - لعهد الساسانيين . وينسبه البيروني هو وأسرته إلى « قباد » الملك الساساني . ولي الحكم في إمارته بعد أبيه وشمكير ابن زيار سنة ٣٦٧ ولقبه الخليفة العباسي بلقب « شمس المعالي » واشتبك مع البويهيين في سلسلة حروب انتهت بفراره من إمارته إلى السامانيين سنة ٣٧١ وظل عندهم مكرماً ، حتى استردّ ملكه سنة ٣٨٨ . وكان أميراً جليل القدر بعيد الهمة ، غير انه كان - كما يقول ابن خلكان - على ما خصّ به من المناقب ، والرأي البصير بالعواقب ، مراً السياسة لا يساغ كأسه ، ولا تؤمن بحال سطوته وبأسه ، يقابل زلة القدم ، بإراقة الدم ، لا يذكر العفو عند الغضب ، فما زال على هذا الخلق ، حتى استوحشت النفوس منه وانقلبت القلوب عليه ، فأجمع أعيان دولته وعسكره على خلعه ونزع أيديهم من طاعته ، وحاصروه بإحدى القلاع في جرجان . وكان ابنه منوچهر بطبرستان فاستحثّوه على السير إليهم لعقد البيعة له ، فأسرع في الحضور وبايعوه على أن يخلع أباه ، ونزل على إرادتهم ، وألزم أباه المكث بإحدى القلاع ، ولم يزل في سجنه حتى توفي سنة ٤٠٣ على نحو ما مرّ بنا في غير هذا الموضع .

(١) راجع ترجمة قابوس في البيعة ٥٩/٤ والبيعي للعتبي مع شرح المنيني (طبع القاهرة سنة ١٢٨٦ هـ) .
١٤/٢ - ١٧ ، ١٧٢/٢ - ١٧٨ ومعجم الأدباء .
العربي (الطبعة الثامنة) ص ٢٥٥ .
والنجوم الزاهرة ٢٣٣/٤ وابن الأنثري في مواضع متفرقة
وديان المعاني للعسكري ٨٦/١ والفن ومذاهبه في النثر
٢١٩/١٦ وابن خلكان ٧٩/٤ والمنظم ٢٦٤/٧

وكان قابوس مكرما للعلماء والشعراء يجزل الصلوات لهم ، وقدم له البيروني كتابه « الآثار الباقية » وقدم له الثعالبي كتابيه : « المبهج » و « التمثل والمحاضرة » . وكان مثقفا ثقافة واسعة شملت علوم الأوائل ، ويقال إنه كتب في الإسطرلاب كتابا كان يعجب به صاحب . وكان أدبيا بارعا ، وهو يعد من كبار الكتاب في عصره ، وفيه يقول الثعالبي : « جمع الله سبحانه له إلى عزة العلم بسطة القلم ، وإلى فصل الحكمة نفاذ الحكم ، وإلى أتوج هذا الكتاب (اليتيمة) يلُمع من ثمار بلاغته . . وأكتب فصولا من على نثره » . ويقول العتبي في كتابه اليميني : « إن رسائله موجودة في البلاد عند الأفراد ، لكنني أكتفي منها بلمعة من بوارق بيانه ، وزهرة من حدائق إحسانه » . ويعلق أبو هلال العسكري على رسالة له اقتبسها في كتابه « ديوان المعاني » بأنها لانظير لها في الافتخار والعتاب . وقد جمع رسائله في عصر قريب منه عبد الرحمن بن علي اليزدادي باسم « كمال البلاغة » ونُشرت في القاهرة ، ونراه يحلل في مقدمته لها بلاغته ، وقد ردّها إلى أربعة عشر نوعا في طريقة التسجيع واستخدام قابوس اللوازم المتصلة به ، مما يصور بوضوح تعقد السجع عند قابوس تعقدا شديدا ، وهو تعقد مرجعه فيما يظهر سعة وقته ، وكأنه اتخذ منه أداة للهو وتسلية على نحو ما يتضح في المطلع التالي لإحدى رسائله :

« الإنسان خلق ألُفا ، وطُبع عطوفا ، فإلى سيدي لأُحِثِّي عُوده ، ولا يُرَجِّي عُوده ، ولا يُخال لفئته مَخيلة ، ولا يُحال تنكره بحيلة ، أَمِنْ صَخْر تَدْمُرُ قلبه ، فليس يُلِينه العتاب ، أم من الحديد جانبه فليس يميله الإعتاب » .

وواضح تصنعه المعقد للجناس في سجعانه إذ يحنس بين « عُوده » و « عُوده » ملتصقا جناسه في اختلاف حركة العين في الكلمتين ، وقد يلتبس الجناس عن طريق الاشتقاق كما في « يُخال » و « مَخيلة » وفي « يُحال » و « بحيلة » . وقد يلتصقه في تغاير بعض الحروف في الكلمة كما في « مَخيلة » و « بحيلة » . وكل ذلك ليظهر مهارته في تضيق ممراته إلى أسجاعه . وفي كتابنا « الفن ومذاهبه في النثر العربي » بيان واف لهذا الجانب عنده .

أبو النصر ^(١) العُتبي

هو محمد بن عبد الجبار العُتبي ، مولده ومرباه في الرِّيِّ ، وقد فارقتها في شبابه ، وقدم خراسان على خاله أبي نصر العتبي وكان من وجوه العمال بها ، فلم يزل يرعاه كالولد العزيز

(١) انظر في ترجمة العتبي اليتيمة ٣٩٧/٤ والسبكي في (الترجمة العربية) ١/٦ .

ترجمة محمود بن سبكتكين الغزنوي ٣١٩/٤ وبروكلمان

عند الوالد الحاني إلى أن وافاه القدر . وتتقلب بمحمد أحوال وأسفار وأعمال في الدواوين إلى أن استقر أمره في العمل مع أبي الفتح البستي في ديوان أبي منصور سُبُكْتِكِين مؤسس الدولة الغزنوية ، وظل يعمل بعد وفاة سُبُكْتِكِين مع ابنه محمود حين استولى على صولجان الحكم ، وكان محمود يعترف - كما مر بنا - بالسلطة الروحية للخليفة العباسي ، فخلع عليه لقب يمين الدولة وأمين الملة . واتسع ملكه - كما أسلفنا - حتى شمل خوارزم وما وراء النهر وإيران الوسطى والشرقية وكشمير والبُنجَاب في الهند . وعُني أبو النصر العتي بكتابة تاريخ هذا الفاتح العظيم وسمى كتابه اليميني نسبة إلى لقب محمود الذي خلعه عليه الخليفة : « يمين الدولة » وقد انتهى به عند سنة ٤٠٩ مع أنه عاش حتى سنة ٤٢٧ . وربما كان في ذلك ما يدل على أنه صنفه في وقت متأخر ، وأنه لم تتح له الفرصة لتكملته . ويقول السبكي : « وأهل خوارزم وما والاها يعتنون بهذا الكتاب ، ويضبطون ألفاظه أشد من اعتناء أهل بلادنا بمقامات الحريري » وهو مطبوع في القاهرة مع شرح المنبئي له في القرن الماضي ، ونسوق القطعة التالية منه مع ما سجله من ألقاب محمود الغزنوي ، يقول :

« الأمير السيد ، الملك المؤيد ، يمين الدولة وأمين الملة أبو القاسم محمود بن ناصر الدين أبي منصور سُبُكْتِكِين ، ملك الشَّرْقِ بِجَنْبَيْهِ ، والصدر من العالم وبيده ، لانتظام الإقليم الرابع بما يليه من الثالث والخامس في حوزة ملكه ، وحصول ممالكها الفسيحة وولاياتها العريضة في قبضته ، ومصير أمرائها وذوى الألقاب الملوكية من عظامها تحت حمايته ، وجبايته ، واستدراهمهم « دفعهم » من آفات الزمان بظل ولايته ، ورعايته ، وإذعان ملوك الأرض لعزته ، وارتياحهم بفائض هيئته ، واحتراسهم - على تقاذف الديار ، وتحاجز الأنجاد والأغوار - من فاجئ ركضته » .

والعتبي بكتابته تاريخ محمود الغزنوي بهذه اللغة المسجوعة يحاكي الصائغ في كتابه « التاجي في ملوك بني بويه » الذي كتبه قبله بنفس اللغة ، وقد سقط « التاجي » من يد الزمن بحيث لا نستطيع المقارنة بين العاملين . ويبدو أن كتاب العتي كان أخف ، فتعلقت به القلوب والأفئدة ، حتى قالوا إن من جاءوا بعده كانوا يتحفظونه ويتدارسونه ويتخذونه قدوة لهم في البلاغة . وعلى شاكلته في خفة السجع وعذوبته رسائله ، فإن الفصول التي حكاها الثعالبي منها تتخذ نفس الأسلوب فلا تكلف ولا تصنع ولا تعمل من مثل قوله في رقعة كتبها في الإنكار على من يدم الدهر :

« عَتَبَكَ عَلَى الدَّهْرِ دَاعٍ إِلَى الْعَتَبِ عَلَيْكَ ، وَاسْتَبْطَأَكَ إِيَّاهُ صَارْفٌ عِنَانَ اللَّوْمِ إِلَيْكَ ، فَالِدَّهْرُ سَهْمٌ مِنْ سَهَامِ اللَّهِ مَرْتَعُهُ عَنْ مَقَابِضِ أَحْكَامِهِ ، وَمُطْلَعُهُ مِنْ جَانِبِ

ما حرّره مجارى أقلامه ، والوقعة فيه ، تمرد بحكم خالقه وباريه ، ومجارى الأشياء على قدر طباعها ، وبحسب ما فى قواها وأوضاعها ، ومن ذا الذى يلوم الأرقام على التّهنّش بالأنّياب ، والعقارب على اللّسع بالأذنان ، وأنّى لها أن تُذمّ ، وقد أُشْرِبتْ خِلقتها السم وحكم الله فى كل حال مطاع ، وبأمره رضاً واقتناع .

ولغة العتي سهلة ليس فيها ألفاظ غريبة ، وسجعه يتزلق عن الألسنة فى يسر ، وليس فى الكلام ما يعوق جريانه من عقد الجناس وما يتصل بالجناس ، مما يتعثر فى الأفواه .

رشيد الدين ^(١) الوطواط

هو محمد بن محمد بن عبد الجليل العمري الملقب برشيد الدين المعروف بالوطواط لضالة جسمه . من سلالة عمر بن الخطاب ، ولد ببلخ وبها نشأ وترى فى المدرسة النظامية ، وكان شاعرا كما كان كاتباً ، وله مصنفات عدة ، منها : « غرر الخصائص الواضحة » وهو من كتب الأدب التهذيبى ، ومنها : « حقائق السحر فى دقائق الشعر » وهو فى علم البديع والصناعة الشعرية ، وضعه بالفارسية ، وأمثله فيه موزعة . بين الفارسية والعربية ، وقد نقله إلى العربية الدكتور إبراهيم أمين . ونرى رشيد الدين يغادر موطنه ويلتحق فى سنة ٥٢٢ للهجرة بدواوين الدولة الخوارزمية فى عهد أميرها الطموح الباسل أئسز (٥٢١ - ٥٥١ هـ) ويظل بعد وفاته يعمل فى دواوين الدولة ، إلى أن يبلغ من الكبر عتياً ويهين عظمه ، يدل على ذلك أن سلطان شاه محمود حفيد أئسز حين تولى مقاليد الأمور فى خوارزم سنة ٥٦٨ أراد أن يرى هذا الشاعر الهرم المريض فحملوه إليه فى محفة ، فلما مثل بين يديه نظم رباعية فى مدحيه ومديح أبيه وجده باللغة الفارسية . وعاش الوطواط بعد ذلك سنوات ، واختلف مؤرخوه ، فقبل توفى سنة ٥٧٣ وقيل بل سنة ٥٧٨ .

ويشيد ياقوت بأدبه وبلاغته قائلاً : « كان من نوادر الزمان وعجائبه ، وأفراد الدهر وغرائبه ، أفضل زمانه فى النظم والنثر ، وأعلم الناس بدقائق كلام العرب ، وأسرار النحو والأدب ، طار فى الآفاق صيته ، وسار فى الأقاليم ذكره ، وكان ينشئ فى حالة واحدة بيتاً بالعربية من بحر وبيتاً بالفارسية من بحر آخر ويمليهما معا » ويقول ياقوت : من مؤلفاته

ذكر مراجعه فى الفارسية . وانظر بروكلمان ١٤٢/٥ ورشيد الدين الوطواط (مقالة مستلة من مجلة الجامعة المستنصرية) العدد الأول سنة ١٩٧٠ .

(١) راجع فى الوطواط وترجمته معجم الأدباء ٢٩/١٩ وروضات الجنات ٧٧ وبغية الرعاة للسيوطي ومقدمة الدكتور إبراهيم أمين لتعريبه لكتاب حقائق السحر فى دقائق الشعر ، وقد ضمها ترجمة واسعة له مع

تحفة الصديق من كلام أبي بكر الصديق ، وفصل الخطاب من كلام عمر بن الخطاب ، وأنس اللهفان من كلام عثمان بن عفان ، ومطلوب كل طالب من كلام علي بن أبي طالب . ويقول أيضا : له ديوان شعر وديوان رسائل بالعربية وديوان رسائل بالفارسية ، وشعره دون نثره جودة . ورسائله العربية مطبوعة بمصر في جزءين ، وهي موزعة بين رسائل شخصية أو إخوانية ورسائل سلطانية أو ديوانية . ونسوق له قطعة من تقليد حسبة صدر عن ديوان خوارزم ، وفيه يقول :

« أن أولى الأمور بأن تُصرف أَعِنَّةُ العناية إلى ترتيب نظامه ، وتُقَصَّرَ المهمم على مهمّة إتمامه ، أمرٌ يتعلّق به ثبات الدين ، ويتوقف عليه صلاح المسلمين ، وهو أمر الاحتساب فإنّ فيه تثبيت الزائغين عن الحق ، وتأديب المنهمكين في الفسق ، وتقوية أعضاد أرباب الشرع وسواعدها ، وإجراء معاملات الدين على قوانينها وقواعدها . وينبغي أن يكون متقلداً لهذا الأمر موصوفاً بالديانة ، معروفاً بالصيانة ، معرضاً عن مراصد (أماكن) الرّيب (التهمة) بعيداً عن مواقف التّهم والعيب ، لابساً مدارع السّداد ، سالكاً مناهج الرشاد . والشيخ الإمام - أدام الله فضله - متحلّ بهذه الخصائص المذكورة ، والفضائل المشهورة ، ومستظهر في دولتنا للحقوق الفرضيّة ، ومستشعر للصفات المرصيّة ، فقلّدناه هذا الأمر . . وأمرناه أولاً أن يجعل التقوى شعاره ، والرّهد دثاره ، والعلم معلّمه والدين مناره . ثم يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويقيم حدود الشرع على وفق النصوص والأخبار ، ومقتضى السنن والآثار . . وأمرناه أن يبالغ في تعديل المكيال والموازين ، على وفق أحكام الشرع والدين ، فإن وجد تفاوتاً في شيء منها سوّاه وعدّله ، وغيره وبذلك ، وأدّب صاحبه على رعوس الأشهاد ، ليتزجر عن مثله أهل الخيانة والفساد . »

والتقليد مهم لأنه يطلعنا على وظيفة الحسبة ، وأن الحاسب لم يكن فقط يراقب الأسواق كما يراقبها الشرطي ، بل كان أيضاً ينظر في كل ما يقع بها من الجنايات والخصومات كما ينظر القاضي ، وكأنه كان يقوم بوظيفة الشرطي والقاضي في وقت معاً ، فهو ينظر في الجرائم وما يقع من خصومات وفق ما جاءت به الشريعة من الحدود والأحكام . وهو لذلك كان يختار من الفقهاء أو من الشيوخ كما جاء في التقليد ، إذ لا بد أن يكون عالماً بالكتاب والسنة وما جاء عن الأئمة في الحدود وغيرها من أحكام . وهو مع ذلك يقوم بأعمال الشرطي ، فيراقب المكيال والموازين ، فإن وجد في مكيال أو ميزان تفاوتاً أو نقصاً بذّله على رعوس الأشهاد ، حتى يفتضح الخائنون فلا يعودوا إلى خيانة أبداً ، وحتى يتزجر غيرهم فلا تحدّثهم نفوسهم بخيانة في ميزان أو مكيال أو ما يشبه الخيانة .

والتقليد جميعه مسجوع ، وليس فيه ألفاظ غريبة ، فالوطواط ينطلق في سجعه ، وكأنه ينساب من معين زاهر دون أى عائق أو حائل . وبمثل هذه الصورة من السجع رسائله الإخوانية أو الشخصية فهي تجرى سائغة سهلة خفيفة على الأسماع والأفواه كقوله من رسالة وجه بها إلى الزمخشري يستأذنه في حضور دروسه ومجالسه :

« أنا منذ لفظتني الأقدار من أوطاني ، ومعاهد أهلي وجيراني ، إلى هذه الخطّة (خوارزم) التي هي اليوم بمكان جار الله - أدام الله دولته - جنةً للكرام ، وجنةً (سُترا) من نكبات الأيام ، كانت قُصوى مُنتهى ، وقُصارى بُغيتي ، أن أكون أحد الملازمين لسُدته الشريفة التي هي مخيمّ السيادة ، ومقبّل أفواه السادة ، من ألقى فيها عصاه ، حاز في الدارين مُناه ، ونال في المحلّين مبتغاه ، ولكن سوء التقصير ، أو مانع التقدير ، حرمني تلك الخدمة ، وحرّم عليّ هذه النعمة . والآن أظن - وظنّ المؤمن لا يخطئ - أن أفل جدّي (خطي) همّ بالإشراق ، وذابل إقبالى أقبل على الإبراق ، فقد أجد في نفسي نوراً مجدداً يَهْدِينِي إلى جَنَّتِهِ ، ومن شوقٍ داعياً موقفاً يدعوني إلى حضرته » .

وتمضى الرسالة على هذا النمط من السجع الطيعي . وكان يفسح في شعره لكل صور البديع المتكلفة ولكل ضروب المحسنات من ترصيع وغير ترصيع . ونتركه للحديث عن ثلاثة هم في الذروة من أدباء العصر في مختلف حقبة الماضية : ابن العميد والصاحب بن عباد وبديع الزمان .

٣

ابن العميد^(١)

هو أبو الفضل محمد بن الحسين ، فارسي الأصل ، من مدينة قم الشيعة الإمامية ، فيها منشؤه ومرياه ، مما أعدّه ليكون شيعياً إمامياً مثل أمرائه البويهيين . وكان أبوه كاتباً فذاً ، كتب لما كان بن كاكي ثم للسامانيين ، وهم الذين لقبوه بلقبه العميد كعادتهم فيمن يتقلد لهم ديوان الرسائل . ولم يلحق ابنه معه بديوانهم ، بل ألحقه بدواوين البويهيين . وخدم ركن الدولة الحسن بن بويه صاحب الرّى ، ولم يزل يترقى عنده ، حتى أصبح وزيره منذ سنة ٣٢٨ حتى وفاته سنة ٣٦٠ .

(١) انظر في ابن العميد وترجمته البيهقي ١٥٤/٣ وما بعدها وتجارب الأمم لابن مسكويه في مواضع متفرقة وابن الأثير ٥١١/٨ ، ٥١٦ ، ٦٠٦ وابن خلكان ١٠٣/٥ الفن ومذاهبه في النثر العربي ص ٢٠٥ .

وكان ابن العميد مثقفاً ثقافة واسعة بجميع علوم عصره حتى ليقول ابن مسكويه مؤرخ البويهيين المشهور: «كان أجمع أهل عصره لآلات الكتابة، حفظاً للغة والغريب، وتوسعاً في النحو والعروض، واهتداء إلى الاشتقاق والاستعارات، وحفظاً للدواوين من شعراء الجاهلية والإسلام. فأما القرآن وحفظ مشكله ومتشابهه والمعرفة باختلاف فقهاء الأمصار، فكان منه في أرفع درجة وأعلى رتبة. أما المنطق وعلوم الفلسفة والإلهيات منها خاصة فما جسر أحد في زمانه أن يدعيها بحضرته إلا أن يكون مستفيداً أو قاصداً قصد التعلم». ويقول ابن الأثير: «كان عالماً في عدة فنون، منها الأدب، فإنه كان من العلماء به، ومنها حفظ أشعار العرب فإنه حفظ منها ما لم يحفظ غيره مثله، ومنها علوم الأوائل فإنه كان ماهراً فيها، مع سلامة اعتقاد إلى غير ذلك من الفضائل، ومع حسن خلق ولين عشرة مع أصحابه وجلسائه، وشجاعة تامة، ومعرفة بأمور الحرب والمحاصرات، وبه تخرج عضد الدولة، ومنه تعلم سياسة الملك ومحبة العلم والعلماء». ويقول ابن خلكان: «كان متوسعاً في علوم الفلسفة والنجوم».

وكان - كما لاحظ ابن الأثير - يحسن قيادة الجيوش، وحقق للدولة انتصارات عظيمة، من ذلك انتصاره على محمد بن ماكان قائد الجيش الخراساني سنة ٣٤٤ بعد أخذه لأصبهان واستيلائه على خزائنها، فقد اعترضه في طريقه إلى الري وهزمه هزيمة ساحقة. ومن ذلك انتصاره على ابن بلكا بشيراز سنة ٣٤٥. وخرج في سنة ٣٦٠ لقتال حسويه الكردي، ولكن المنية أدركته دون غايته، وكان عمره يزيد قليلاً على ستين عاماً. وظل وزيراً ثلاثاً وثلاثين سنة. وكان مقصد الشعراء والأدباء يحزل لهم الصلوات، وقصده أبو الطيب المتنبي بأرجان، فاستقبله استقبلاً خافلاً، وفيه يقول:

عربيٌّ لسانه فلسفيٌّ رأيُه فارسيٌّ أعبادهُ

ويشيد كل من ترجموا له ببلاغته، وفي ذلك يقول الثعالبي: «أوحد العصر في الكتابة وجميع أدوات الرياسة وآلات الوزارة، والضارب في الآداب بالسهم الفائزة، والآخذ من العلوم بالأطراف القوية، يُدعى الجاحظ الأخير والأستاذ الرئيس، يُضرب به المثل في البلاغة، ويُنتهى إليه في الإشارة بالفصاحة والبراعة، مع حسن الترسل وجزالة الألفاظ وسلاستها إلى براعة المعاني ونفاستها. وكان يقال: بُدِئت الكتابة بعبد الحميد، وخُتِمت بابن العميد». ومن يقرأ ما اقتبسه الثعالبي من كتاباته يؤمن بأنه هو الذي أعطى الكتابة في عصر الدول والإمارات صيغتها التي ظلت الأجيال المتوالية تستخدمها، وهي صيغة قامت على أساسين كبيرين: أولهما السجع، وكان السجع معروفاً من قبله في

الدواوين العباسية منذ أول القرن الرابع الهجري ، على نحو ما مرّ بنا ذلك في كتاب العصر العباسي الثاني ، وسنراه يُدخل عليه ضرباً من الموازنة في السجعتين المتواليتين ، بحيث تصبح هذه الضروب ضرورة أو لازمة فيه . والأساس الثاني لم يكن متبعاً قبله ، وهو استخدام المحسنات البديعية مع السجع ، فالسجع وحده لا يكفي ، بل لابد أن تُضاف إليه الاستعارة أو الجناس أو الطباق وما إلى ذلك من محسنات البديع وتلاوينه . ونسوق مثلاً لذلك من كتاب كتب به عن ركن الدولة بن بويه إلى ابن بلكا عند عصيانه عليه ، مفتتحاً كتابه بقوله :

« كتابي إليك ، وأنا مُتأرجح بين طمع فيك ، ويأس منك ، وإقبال عليك ، وإعراض عنك ، فإنك تُدلّ بسابق حرّمه ، وتمتّ بسالف خدمة ، أيسرها يوجب حقاً ورعاية ، ويقتضى محافظة وعناية ، ثم تشفعها بحادث غُلُولٍ ^(١) وخيانة ، وتتبعها بآئف ^(٢) خلاف ومعصية ، وأدنى ذلك يُحبط أعمالك ، ويُسقط كلّ ما يُرعى لك » .

وهذه التغمات الأولى في الكتاب ترينا بوضوح أساس المنهج الذي التزمه ابن العميد في كتابته ، فهو يلتزم السجع ، وليس ذلك فحسب ، بل هو يوازن بين السجعات ، فيجعلها قصيرة تتكون من كلمتين ، وإن طالت السجعة الأولى قليلاً أطال السجعة الثانية وجعلها موازنة لها أدق موازنة ، فسجعة « تدلّ بسابق حرمة » توازنها في دقة السجعة التالية لها : « تمتّ بسالف خدمة » . ومثلها السجعتان : « ثم تشفعها بحادث غلول وخيانة ، وتتبعها بآئف خلاف ومعصية » . وهو لا يلتزم السجع فحسب ، بل يكثر من الطباق مثل « طمع ويأس » و « إقبال وإعراض » كما يكثر من الجناس مثل سابق وسالف ، والكتاب زاخر به وبالطباق وبتصاوير كثيرة كقوله فيه معاتباً صاحبه :

« ألم تكن في ظلّ ظليل ، ونسيم عليل ، وريح بليل ، وهواء عذّي ^(٣) وماء رويّ ، ومهادٍ وطّيّ (لين) وكنّ ^(٤) كنين ^(٥) ، ومكان مكين ، وحِصْن حصين » .

وكل هذه كنايةات واستعارات لما كان فيه هذا العاصي لركن الدولة حين كان يضع يده في يده ، فقد كان في سعادة ما وراءها سعادة ، فإذا كل نعيم كان فيه يتحول بؤساً وشقاء . وله فصل من رسالة كتب بها إلى عضد الدولة يشيد فيها برعايته للعلم والعلماء قائلاً :

« قد يعدّ أهل التحصيل في أسباب انقراض العلوم وانقباض مدّدها ، وانتقاض مرّرها

(٤) الكن : ما يرّد الحر والبرد من الأبنية .

(٥) كنين : مستور

(١) غلول : خيانة

(٢) آئف : أشد

(٣) عذّي : خالص

(قواها) . . الطوفان بالنار والماء، والموتان العارض من عموم الأوباء، وتسلبت المخالفين في المذاهب والآراء . . وليس عندى الخطبُ في جميع ذلك يقارب ما يولده تسلط ملك جاهل تطول مدته ، وتوسع قدرته . وبحسب عظم المحنة بمن هذه صفته ، والبلوى بمن هذه صورته ، تعظم النعمة في تملك سلطان عالم عادل كالأمير الجليل الذى أحله الله من الفضائل بملتقى طرقها ، ومجتمع فرقها ، وهى نور^(١) نوافر من لاقى حتى تصير إليه ، وشرد نوازع حيث حلت حتى تقع عليه ، تتلفت إليه تلفت الواقى ، وتشوف نحوه تشوف الصب العاشق .

والفصل طريف فى دلالة على عناية عضد الدولة بالعلم وأهله ، وكان دائماً يعقد لهم المناظرات بين يديه . والفصل صورة أخرى لعناية ابن العميد بالسجع وتقصيره ، وإحداث الموازنات بين السجعات حين تطول ، وفى أثناء كل ما قدمنا له تتضح عنايته بمحسنات البديع وسلاسة اللفظ وجمال السبك ووضوح المعنى . وهى كلها جوانب أساسية فى بلاغته وبيانه .

٤

الصاحب^(٢) بن عباد

هو كافى الكفاة إسماعيل بن عباد ، من أهل الطالقان : ولاية بين قزوين وأبهر ، وُلد عام ٣٢٦ لآبيه عباد بن العباس الطالقانى ، وكان يعمل مع ابن العميد فى ديوان ركن الدولة بالرى ، وعُنى به ، فوصله منذ نعومة أظفاره بأحمد بن فارس اللغوى ، حتى إذا اتضحت فيه مخايل الأدب أحلقه بابن العميد ، فكان يصحبه دائماً ، مما جعل الناس يطلقون عليه لقب صاحب ابن العميد ، وظل هذا اللقب علماً عليه ، وقيل بل صاحب مؤيد الدولة بن ركن الدولة منذ الصبا وسماه الصاحب ، فاستمر عليه اللقب واشتهر به .

(١) نور : جمع نوار : شاردة

(٢) انظر فى الصاحب وترجمته وأشعاره ورسائله القيمة ١٨٨/٣ والمتنظم ١٧٩/٧ ومعجم الأدباء ١٦٨/٦ وابن خلكان ٢٢٨/١ وإنباه الرواة ٢٠١/١ وروضات الجنات ١٠٤ ونزهة الألباء ٣٢٥ ومروءة الجنان ٤٢١/٢ والشذرات ١١٣/٤ ولسان الميزان ٤١٣/١ وابن الأثير فى مواضع متفرقة وفى سنة ٣٨٥ وكذلك النجوم الزاهرة ١٦٩/٤ ، ومثالب الوزيرين لأبى حيان ،

يزيد ابن العميد والصاحب وقد بالغ فى الغرض منها كما أشرنا إلى ذلك . ورسائل الصاحب منشورة فى دار الفكر العربى بالقاهرة بتحقيق وتحقيق الدكتور عبد الوهاب عزام . وجمع أشعاره محمد آل ياسين ونشرها فى النجف باسم ديوان الصاحب وله عنه كتاب ، وكذلك للدكتور بدوى طبانة (طبع القاهرة) . وانظر المدخل بين يدي الرسائل وكتابتنا الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ٢١٢ وما بعدها .

ومنذ فلك مؤيد الدولة بأبي الفتح علي بن أبي الفضل بن العميد سنة ٣٦٦ ولاه وزارته وظل وزيراً له حتى إذا توفي سنة ٣٧٣ وخلفه أخوه فخر الدولة أقرّة على وزارته ، وكان مبعجلاً عندهما ومعظماً نافذ الأمر . وكان حسن السياسة مدبراً للملك كما كان قائداً شجاعاً مما رفع منزلته عندهما إلى أقصى حد ، حتى قيل : كان « مَنْ يُؤَدِّنْ له في الدخول عليه يظن أنه قد بلغ الآمال ، ونال الفوز بالدنيا والآخرة ، فرحاً ومسرة ، وشرفاً وتعظيماً ، فإذا حصل في الدار وأذن له في الدخول إلى مجلسه قبل الأرض عند وقوع بصره عليه . . ولم يكن يقوم لأحد من الناس ، ولا يشير إلى القيام ، ولا يطمع أحد منه في ذلك » . ومازال وزيراً لفخر الدولة حتى توفي سنة ٣٨٥ ويقال أنه لما توفي أغلقت له مدينة الري ، واجتمع الناس على باب قصره ينتظرون خروج جنازته ، وحضر فخر الدولة وسائر القواد وقد غيروا لباسهم . ومشى فخر الدولة أمام الجنازة مع الناس ، وقعد للعزاء أياماً . وفيه يقول الثعالبي : « ليست تحضرنى عبارة أرضاها للإفصاح عن علو محله في العلم والأدب وجلالة شأنه في الجود والكرم ، وتقدره بغايات المحاسن ، وجمعه أشات المفاخر ، لأن همة قولى تنخفض عن بلوغ أدنى فضائله ومعاليه ؛ وجهد وصفي يقصر عن أيسر فواضله ومساعيه ولكنى أقول : هو صدر المشرق ، وتاريخ المجد ، وغرة الزمان ، وينبوع العدل والإحسان . . وكانت أيامه للعلوية والعلماء . والأدباء والشعراء ، وحضرته محط رحلهم ، وموسم فضلائهم ، ومترع آمالهم ، وأمواله مصروقة إليهم ، وصنائعه مقصورة عليهم ، وهمة في مجد يشيده ، وإنعام يحده ، وفاضل يصطنعه ، وكلام حسن يصنعه أو يسمعه . . وكانت حضرته مشرعاً لروائع الكلام ، وبدائع الأفهام ، وثمار الخواطر ، ومجلسه مجمعاً لصوب العقول وذوب العلوم ودرر القرائح . . واحتف به من نجوم الأرض وأفراد العصر ، وأبناء الفضل ، وفرسان الشعر ، مَنْ يُرَبِّي عددهم على شعراء الرشيد ؛ ولا يقصرون عنهم في الأخذ برقاب القوافي ، ومِلْك رِقِّ المعاني » . ويذكر ياقوت أن عطاياه للأدباء والشعراء والعلماء والأشراف كانت تزيد على مائة ألف دينار في العام الواحد . وكان يقول : مُدحت بمائة ألف قصيدة عربية وفارسية ، وفي هذا ما يدل على أنه كان يعرف الفارسية ، بل ربما كان يتقنها إذ رُوى أنه اختبر قدرة بديع الزمان الهمداني ، حين مرَّ ببابه ، في الترجمة من الفارسية إلى العربية .

وكان شاعراً مجيداً ، كما كان كاتباً مجيداً ، وقد أنشد الثعالبي طائفة كبيرة من أشعاره أخلاها من شعره العقيدى الشيعى والمعتزلى ، فقد كان شيعياً إمامياً كما مر بنا في حديثنا عن شعراء المديح وكان يدين بمذهب المعتزلة ومبادئهم المعروفة ، وقد نشر محمد حسن آل ياسين

ديوانه كما مرّ بنا ، وهو يمجّ بأشعاره الشيعة وبتصويره لمبادئه الاعتزالية من مثل قوله :
 قالت : فما اخترت من دينٍ تفوز به فقلت إني شيعيٌّ ومُعترليٌّ
 وقوله :

ومن كان بالتَّشبيهِ والجبرِ دائناً فإنّي في التوحيد والعدل أوحداً
 وهو يحمل على المشبّهة والمجبرة حملات شعواء ، كما يحمل نفس الحملات على من
 يقولون بأن القرآن قديم وغير مخلوق يقول :

وإن قال أقوامٌ قديمٌ لأنّه كلامٌ له فانظر إلى أين صعدوا
 وله وراء شيعياته واعتزالياته أشعار طريفة أنشدنا منها - فيما مرّ - أطرافاً . وصنّف في
 اللغة معجماً سماه المحيط كما صنّف كتباً ورسائل مختلفة في الإمامة وفي فضائل على
 ابن أبي طالب وفي أسماء الله وصفاته وله رسالة في الكشف عن مساوئ المتنبي وكتاب في
 المقصور والممدود . وكانت له مكتبة ضخمة ويقال إن فهرست كتبها كان يقع في عشر
 مجلدات ، وأنها كانت حِمْلَ أربعائة بعير .

ورسائله منشورة ، وهي في عشرين باباً وكل باب يشتمل على عشر رسائل ما عدا
 البابين السابع عشر والثامن عشر ، وأولها في الآداب والمواعظ وبه أربع رسائل ، والثاني
 فصول قصيرة وتوقيعات موجزة . وقد ذُكرت في مدخل الرسائل القيمة التاريخية لها .
 وجميعها ديوانية ، أو الكثرة الكثيرة منها ، ولذلك كانت تُعدُّ وثائق قيمة عن الدولة
 البويهية ، وخاصة أن الصاحب يعرض فيها حروبهم وأسماء قوادهم وقُضاةهم كما يعرض
 معاهداتهم وإدارتهم لشئون الرعية مما يجعل لها قيمة سياسية واجتماعية بعيدة . والباب
 الأول منها خاص بفتوح عضد الدولة وحروبه مع أخيه فخر الدولة وقابوس بن وشمكير
 ومع الروم ومع ابن حمدان ومع وهسودان . وفي كل ذلك تفاصيل جديدة تضيفها
 الرسائل إلى ابن الأثير وغيره من المؤرخين . وبالمثل تضيف جديداً إلى ما تذكره كتب
 التاريخ عن معاهدات البويهيين على نحو ما جاء في معاهدة لهم مع السامانيين من أنه
 « لا يُقبَلُ في جهة من الجهتين أباق العساكر ، ولا يمهَّد في جنبه من الجنبين للخالغ
 والنافر ، ولا يُحمَى على مَنْ عصا فشرّد ، وشق العِصا وانفرد » . ومن الطريف أن نتعقب
 ما جاء في الباب الثاني من العهود للقضاة والولاة والمحاسبين ، وخاصة عهود القضاة ،
 لنرى هل كانوا يرجعون إلى مصادر الفقه المعروفة العامة ، وهي الكتاب والسنة والإجماع
 والقياس ، وكأن لا فرق بين الشيعة وأهل السنة حيثُذ في القضاء ومصادره ؟ . وفعلاً
 يؤكد ذلك ما جاء في الرسالة الأولى من الباب الثاني الخاصة بعهد القاضي عبد الجبار .

وفيه أيضاً أن التركة لا تُرَدُّ إلى بيت المال بل يأخذها الأبعد من ذوى الأرحام ، وهو ما أشار إليه المقدسى فى كتابه أحسن التقاسيم من أن البويهيين لم يكونوا يتعرضون للتركات . وعلقانا عهد فى الحسبة نطلع منه على صفات المحتسب وواجباته ومسئوليته . وتلقانا عهود فى معاملة الرعية وفى قسمة الماء فى بعض الأودية ، كما علقانا باب عن الحجيج والمصالح والثغور . وفى الباب السادس رسالتان هما الخامسة والسادسة كُتبتا بمناسبة نشوب ثورة فى قزوين بين الشيعة والسنة ، ونرى الصاحب يدعو فيها إلى أن تحل الألفة والوثام بين الطائفتين دون نصرة إحداهما على الأخرى . وفى ذلك ما يدل على أن البويهيين لم يتحيزوا إلى مذهبهم الشيعى فى أنحاء دولتهم حفظاً للأمن وصيانة له . وطبعى أن نحسّ فى بعض الرسائل بأن كاتبها من المعتزلة ، فقد كان الصاحب كما قدمنا معتزلياً ، وفى الباب السابع عشر رسالتان صريحتان فى أن الصاحب كان يبعث دعاة له أحياناً يدعون الناس إلى الدخول فى نخلة الاعتزال . ومن قوله فى إحداهما : « كان هذا البلد من البلاد المستغلقة على أهل عدل الله وتوحيده ، والتصديق بوعدده ووعيده ، هذا وفى فقهاه وفور ، وفى الفضل به ظهور ، وقد أعان الله على بث كلمة الحق ، وسمع الأكثر على لين ورفق » . وربما رأى أن الاعتزال باب للتشيع ، وكانا متأخين حينئذ ، فعمل على نشره ليتشع من ورائه التشيع مبتغاه . وفى الرسائل - من حين إلى آخر - ما يدل على نزعة الشيعة وخاصة حين يكتب برسالته إلى بعض الأشراف العلويين . وتلقانا فى الباب التاسع عشر رسالة هى عهد لعلوى ولّى النقابة بين الذرية الطيبة ، وفيها ما يدل على أن النقيب هو الذى كان يحكم بين العلويين ، وأنه كان لهم قضاء مستقل فى الدولة ، وأنه كان ينتسب إليهم دخلاء ينتحلون النسبة ، ويأمر النقيب بتعقبهم وإشهار أمرهم ، وفى الرسالة أيضاً ما يدل على كثرة الأموال التى كان يقدمها البويهيون للعلويين .

وعلى هذا النحو لرسائل الصاحب المنشورة قيمة تاريخية كبيرة ، وأيضاً لها قيمة أدبية كبيرة ، لأنها المجموعة الوحيدة التى وصلتنا عن كتاب البويهيين فى القرن الرابع الهجرى ، وهى دائماً تبتدئ بالتحميد والتعجيل للنبي ﷺ أو بالدعاء . ويُعقب الصاحب هذا البدء بذكر أميره الذى يكتب عنه مكتفياً بلقبه المشهور الذى خلعه عليه الخليفة ، وقد يذكركلمة الحضرة السامية أو الحضرة الشريفة . وإذا كانت الرسالة فى فتح عظيم أطل فى الدعاء تنوياً بالفتح . والرسائل كلها مكتوبة بأسلوب ابن العميد الذى يقوم على السجع والبديع ، ويروى معاصروه طُرفاً كثيرة عن ميله للسجع وإثارة ، حتى زعموا أن ابن العميد قال : خرج ابن عباد من عندنا من الرى متوجهاً إلى أصفهان وطريقه رامين :

فجاوزها إلى قرية غامرة وماء ملح لا شئ إلا ليكتب إلينا : « كتابي هذا من التوبهار ، يوم السبت في نصف النهار » . وقالوا إن سجة اضطرتة إلى عزّل قاضي مدينة قُم ، فقد كان في حضرته ، فقال له : أيها القاضي بقم ، وأراد أن يكمل السجة ، فأعياه إكلها ، فقال : قد عزلناك قُم . ولعل هاتين التادرتين جميعاً من وضع خصمه أبي حيان ، وفي تكلفه للسجع يقول : « كان كلفه بالسجع في الكلام والقول عند الجدد والهزل يزيد على كلف كل من رأيناه في هذه البلاد . . قلت لابن المسيبي : أين يبلغ ابن عباد في عشقه للسجع ؟ قال : يبلغ به ذلك لو أنه رأى سجة تنحل بموقعها عروة الملك ، ويضطرب بها حبّل الدولة ، ويحتاج من أجلها إلى غُرْمٍ ثَقِيل ، وكلفة صعبة ، وتجشّم أمور ، وركوب أهوال ، لما كان يخفّ عليه أن يُفرج عنها ويُخْلِيا ، بل يأتي بها ويستعملها ، ولا يعبأ بجميع ما وصفت من عاقبتها » . وكل هذه مبالغات فإن من يرجع إلى الرسائل المنشورة يجد صاحب يترك نفسه على سجيها ، فإن واتاه السجع مضى فيه ، وإن لم يواته استخدم أسلوب الازدواج ، وإن كان ذلك لا يأتي إلا نادراً ، فالصورة العامة لرسائله هي السجع والبديع والتفنن في استخدامها تفننا يدل على مهارة واسعة ، حتى غدا ذلك كأنه طبع من طباعه وسجية من سجايه . وأول ما يلقانا في رسائله رسالته التي وصف فيها انتصار جيوش مؤيد الدولة على جيوش أخيه فخر الدولة وحليفه قابوس بن وشمكير ، ومقطعها الأول يجري على هذا النمط :

« أحسنُ نعم الله تعالى غُرّاً وأَوْضاحاً ، وأَبْنَهَا فَلَقاً وصباحاً ، وأُولَاهَا إِذَا تُصَفِّحَتْ المواهب أخذًا بحظ السابق ، وأُولَاهَا إِذَا اتَّبَعَتِ المُنَاحِ فوزاً بالعر الشاهق ، وأَحْرَاهَا بَأَن تُثْنِي عليها أَلْسِنَةُ الأَيَّامِ واللِّبَالِي ، وَتُثْنِي إليها أَعْنَاقُ المَحمَدِ والمَعَالِي ، نِعْمَةٌ صَادَفَتْ حَمْدًا وشُكْرًا . وَجَمَعَتْ فَتْحًا وَنَصْرًا ، وَنَظَمَتْ نُجْحًا وَقَهْرًا ، وَاسْتَدَلَّتْ مِمْتَطِيًا لِلجُحُودِ لَاهِيًا عَنْ غَوْرِهِ ، مُسْتَشْرِبًا فِي الغَمُوطِ عَادِيًا لَطَوْرِهِ . وَتَلَّتْ النِّعْمَةَ عِنْدَ مَوْلَانَا المَلِكِ السَّيِّدِ إِذْ عَضَدَ الدَّوْلَةَ ، وَتَوَجَّ المَلَّةَ ، وَحَرَسَ الأَمَّةَ ، وَزَحْرَحَ العُمَّةَ ، وَرَفَدَ الخَلَاقَةَ ، وَبَسَطَ العَدْلَ والرَّافَةَ ، وَطَهَّرَ البِلَادَ ، وَعَمَرَ الحِجَّ والجِهَادَ ، وَسَاسَ الجُمْهُورَ ، وَسَدَّ الثُّغُورَ ، فَشَهِدَتْ فَتُوْحَهُ بِأَنَّهُ مُؤَيَّدٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَمَحْوُطٌ بِيَدِ اللهِ ، لَا يَنَازِعُ رَأْيَهُ مَنَازِعٌ إِلَّا تُلَّ لَجِينِهِ ^(١) ، وَعَوَجَلَتْ بِقَطْعِ وَتِينِهِ ^(٢) ، وَلَا يَمَانَعُ رَايَتَهُ مَمَانَعٌ إِلَّا غَلَّتْ يَدُهُ دُونَ مَطْلَبِهِ ، وَاقْطَعَتْ أَمْدَهُ عَنْ مَهْرَبِهِ ، وَلَمْ يَعْزَّزْ بِالتَّحْصَنِ عَلَيْهِ مَارِقٌ ، وَالتَّمَتَّ دُونَهُ مَشَاقُّ مَفَارِقُ ،

(١) تل لجينه : صرع على وجهه

(٢) التين : الشريان الرئيسي للقلب

إلا استولى عفواً على غايات احتياله وأقاصيه ، ومكّن منه القضاء سَمَحاً فاستُزِلَ عن معاقله وصيَاصيه ^(١) .

وواضح أنه تمثّل طريقة أستاذه ابن العميد ، فهو يُعنى أشد العناية بانتخاب ألفاظه ، حتى يكون بناء رسالته في هذا الفتح قوياً سامقاً . ويُعنى بأسجاعه ، فهي تتقابل وتتوازن معها طالت ، كقوله : « وأولاهها إذا تُصَفِّحت المواهب أخذاً بحظ السابق ، وأولاهها إذا تُتَبَّعت المنائح فوزاً بالعرز الشاهق » وكل كلمة في العبارة الثانية تكاد تتشابك بالأيدى مع قرينتها في العبارة الأولى . ومثلها السجعة التالية : « وأحراها بأن تُثْنَى عليها ألسنة الأيام والليالي ، وتُثْنَى إليها أعناق الحامد والمعالى » وكأن الكلمات في العبارتين تتعاقب . واستمر في قراءة الأسجاع الطويلة في هذا الفصل وفي رسائل الصاحب ، فستجد دائماً هذا التعاقب والتشابك بين كلمات السجعات ، وحقاً ابن العميد بدأ ذلك ولكن الصاحب اتسع فيه سعة شديدة . ولابد أن القارئ لاحظ كثرة استخدامه للتصوير منذ فاتحة المطلع ، فالنعم ذات غُرر وأوصاح كخيّل الحرب الظافرة ، بل هي كالصباح الجميل البهيج ، وتتوالى الأخيلة والصور في المقطع . ويكثر فيه الجناس مثل غوره وطوره ، والأمة والغمة ، وبنازع ومنازع ، وبمانع وممانع ، ويحاول أن يأتي بغرائب في الجناس تحلب ألباب السامعين ، فيعمد إلى المغايرة بين كلمتين لا في بعض الحروف ولكن في بعض الحركات كما في « أولاهها ، وأولاهها » و« تُثْنَى وتُثْنَى » . وجعلته قدرته على حشد السجعات يُكثّر من الجمل الاعتراضية في رسائله على نحو ما يتضح في مطلع هذا المقطع ، فقد بدأه بمبتدأ هو « أحسن نعم الله » وفصل بينه وبين خبره ، وهو « نعمة صادفت حمداً وشكراً » بنحو ثلاثة أسطر ، ونقده أبوحيان ، وقال إن هذا يُحدث تعاضلاً في أساليبه ^(٢) . وفي رأينا أنه مقبول ما لم يطل الاعتراض طويلاً شديداً ، وهو نادر عنده . على أن هذا الجانب في أساليبه شاع فيما بعد بين كتّاب العصور التالية وخاصة عند العباد الأصفهاني والقاضي الفاضل . وليس معنى ذلك أن الصاحب وضع مبدأ طول عبارات السجع ، بل هي تطول أحياناً ، وأحياناً تقصر كما في هذا المقطع نفسه إذ يقول : « نعمة صادفت حمداً وشكراً ، وجمعت فتحاً ونصراً ، ونظمت نُجْحاً وقهراً » . وتكثر هذه السجعات القصيرة في رسائله الإخوانية ، كقوله في عزاء ابن عن أبيه ، وكان عالماً بخبره : « للفقائع اختلاف مواقع ، وللمصائب تباين مراتب ، ومن أشدها لذعاً ، وأعظمها

وقعاً ، فجیعة أخرجت صدور قومٍ مؤمنین ، ومصیبة خصّت العلم والدين ، لفقد الشيخ المنقطع القرین ، أبی عثمان - رحمه الله ، وأكرم مأواه ، ومثواه . فقد كان للإسلام جِلاًّ ممتداً ، وللدين ركناً مشدداً ، وللعلم شهاباً لا یخبو ، وللأدب سَهْماً لا ینبو ، یذبُّ عن حق الله القائم ، ولا تأخذه فی الله لومة لائم ، عاشَ عظیم الخطر ، ومات جمیل الأثر ، التقوى شعاره ، والیقین دثاره ، وحجج الله مَفْرَعه ، وآیاتُ الله مرجعه ، فیاله مصاباً ما أعظمه على الموحّدين ، وأسره إلى الملحدین ، أذكرنا فقد الأئمة الأبرار ، وأعلام الأمة الأخیار .

ویمضی فی مثل هذا السجع القصیر موشياً له بالجناس ، أهم لون من ألوان البديع كان یستخدمه ، كما نرى فی مثل «مأواه ومثواه» ، و«ممتداً ومشدداً» و«لا یخبو ولا ینبو» و«لومة لائم» . وكان یستخدم معه الطباق من حین إلى حین كما نرى فی مثل «الموحّدين والملحدین» . وله تهنئة طریفة بینت ولدت لبعض أصحابه تمضی على هذه الشاکلة :

«أهلاً وسهلاً بعقيلة النساء ، وأمّ الأبناء ، وجالبة الأصهار ، والأولاد الأطهار ، والمبشرة بإخوة یتناسقون ، نجباء یتلاحقون :

فلو كان النساء کمثل هذی لفضّلت النساء على الرجال
وما التأنیث لاسم الشمس عیبٌ ولا التذكیر فخرٌ للهلال^(١)

فادرّجْ یاسیدی اغبطاً ، واستأنف نشاطاً ، فالدنیا مؤنثة والرجال یخدمونها ، والذکور یعبدونها . والأرض مؤنثة ومنها خلقت البریة ، وفیها كثرت الذریة . والسماء مؤنثة وقد زینت بالكواكب ، وحلّیت بالنجم الثاقب . والنفس مؤنثة وبها قوام الأبدان ، وملاك الحیوان ، والحیاة مؤنثة ولولاها لم تتصرف الأجسام ، ولا عُرِفَ الأنام ، واللجنة مؤنثة وبها وُعد المتقون ، ولها بُعث المرسلون . فهنیئاً هنیئاً ما أولیت ، وأوزعك الله شكر ما أعطیت ، وأطال بقاءك ما عُرِفَ النسل والولد ، وما بقى الأمد ، وكما عُمِّرَ لُبْدٌ^(٢) .

والرسالة مؤلفة من السجع القصیر ، ومجلیها صاحب الجناس من مثل «الأصهار والأطهار» وهو قليل فیها ، وكأنه لم یکن یتأنق فی الرسائل الإخوانیة تأنفه فی الرسائل الدیوانیة الطویلة . وفی الرسالة ظاهرة ینبغی الالتفات إليها ، ونقصد ظاهرة الاحتجاج ، فقد احتج للتهنئة بالبنت - وكان الأسلاف یفضلون الابن علیها - بست

(٢) لبْد : نسر ، وفی الأساطیر العربیة أنه عمر أربعائة عام

(١) البیان للمتنبی .

حجج أوستة أدلة ، وكل دليل لا يقل قوة عن سابقه ، فالدنيا مؤنثة والناس يخدمونها والذكور يعبدونها ، والأرض مؤنثة ومنها خلقت البرية كما جاء في القرآن «ومنها خلقناكم» والسماء مؤنثة وروعها في كواكبها ونجومها فوق التصوير ، والنفس مؤنثة وهى قوام الإنسان ، والحياة مؤنثة وبدونها يموت الإنسان وتبطل حركته ، واللجنة مؤنثة ولها بُعث المرسلون وبها وُعد المتقون . أدلة لأتقُص . وكأننا بإزاء مناظرة كلامية فى تفضيل البنت الأنثى على الابن الذكر . يستعين فيها على رأيه بكل ما يستطيع من أدلة وبراهين ، ولا شك أن ذلك جاءه من اعتزاله وعكوفه على كتب المعتزلة يقرأ فى أدلتهم وحوارهم وكيف ينفذون إلى البراهين الساطعة ، مما جعل كتابته تتشح بطرائقهم وجدالهم وتفننهم فى التعليل والتدليل . وهى تتضح فى جدال المنحرفين عن الدولة وفى تعليه العام لأفكاره وتدليله عليها بالأدلة البينة . ومن قوله فى إهداء أترجة :

«ما زلت يا سيدى أفكر فى تحفة تجمع أوصاف معشوق وعاشق ، وتُنظم نعوت مشوق وشائق ، حتى ظفرت بأترجة كأن لونها لوني وقد مُنيت ببعذك ، وبُليت بصدك ، وكأن عَرفها ^(١) مستعار من عَرفك ، وظَرفها مشتق من ظَرفك ، فكأنها بعض من لا أسمىه ، وأنا أفديه ، فأنفذتها وقلت :

مولاي قد جاءتك أترجة من بعض أخلاق مخلوقة
ألبسها صانعها حلة من سرق أصفر مسروقه ^(٢)

والرسالة تصور أناقته فى اختيار سجعاته وتوشيتها بالجناس والطباق مجتمعين فى قوله : «معشوق وعاشق» و«مشوق وشائق» . وهى تصور ظرفه ورقة مشاعره . ولم تتوقف عند تصاويره وهى كثيرة فى رسائله الإخوانية والديوانية كقوله فى وصف الورود السوداء فى احمرار ، المعروفة باسم الشقائق ، ووصف الأشجار الخضراء والنارتجات الصفراء : «قابلتى شقائق كالزئوج تجارحت فسالت دماؤها ، وضعفت فبقى دماؤها ^(٣) ، وسامتنى أشجار كأن الحور أعارتها أثوابها ، وكستها أبرادها ، وحضرتنى نارنجات ككُرات دهب أوئدى أبكار خلقت ^(٤)» .

وله رسالة لم يُغنَ فيها بالسجع ، وإنما غنى بالتصوير وحده ، وهى فى استدعاء صديق لبعض مجالس أنسه ، وتطرّد على هذا النمط :

«نحن يا سيدى فى مجلس غنى إلا عنك ، شاكر إلا منك ، قد تفتحت فيه عيون

(١) العرف : الرائحة الطيبة .

(٢) اللماء : بقية الروح .

(٣) خلقت : طُبِّيت .

(٤) السرق : شق الحرير .

الزرجس ، وتوردت فيه حدود البنفسج ، وفاحت مجامر الأترج ، وفُتقت فأرأت (١) النارنج ، وأنطقت ألسنة العيدان ، وقام خطباء الأوتار ، وهبَّت رياح الأقداح ، ونَفقت (٢) سوق الأنس ، وقام منادى الطرب ، وطلعت كواكب الندماء ، وامتدت سماء الندِّ (٣) فبحياتي لما حضرت لنحصل بك في جنة الخُلد ، وتتصل الواسطة بالعقد .

والرسالة مغموسة غمساً في صور وأخيلة متعاقبة ، وكأنما ترك الصاحب نفسه على سجيته ، فلم يعمد فيها إلى سجع . ولعل في ذلك ما يرد على من اتهموه بتكلفه للسجع وغرامه به ، حتى لو كلفه ذلك خللاً في الملك والدولة أو لو كلفه أهوالاً ثقالاً ما بعدها أهوال ، فقد كان يلجأ إلى الازدواج أحياناً ، بل ربما تخفف من الازدواج والسجع جميعاً كما في هذه الرسالة . وله رسائل ملؤها المزاح والدعابة . وكانت بديته حاضرة ، مما جعله يمتاز بحسن الأجوبة وسرعتها فن ذلك أن ضَرَّابين للنقود من دار الضرب رفعوا إليه رقعة في مظلمة ووقعوا عليها باسمهم : الضَّرَّابين ، فوقَّع تحتها « في حديد بارد » . واستمع إلى ابن سمعون الواعظ يبغداد في أثناء درس له فسأله متخابثاً عن قَدِّ سكونيات العلم إذا وقعت قبل التوهم ، يظن أنه بذلك يقطعه عن الكلام ، ولم ينقطع فلما سكت قال له الصاحب : « هذا الذي تقوله بعد التوهم ، وإنما سألتك قبله » ! .

٥

بديع (٤) الزمان ومقاماته

هو أحمد بن الحسين وُلد سنة ٣٥٨ بهمدان ، ولذلك يقال له الهمداني ، ولقبه معاصروه باسم بديع الزمان إعجاباً بأدبه . وهو من أسرة عربية ، نزلت مسقط رأسه ، وهي أسرة تغلبية مصرية ، ومن قوله في بعض رسائله : « همدان المولد ، وتغلب المورد ، ومُضَر المحتد » فهو ليس فارسي الأصل ، بل هو عربي مصري تغليبي . وعُني به أبوه ، فأخذه بالعلم والتعلم منذ نعومة أظفاره ، وألحقه بحلقات العلماء ، وخاصة حلقة أبي الحسين أحمد بن فارس اللغوي المشهور صاحب كتاب المجمل ، وله يقول في بعض رسائله متلطفاً :

(١) فارة المسك : وعاءه .

(٢) نفقت : راجت .

(٣) الند : الطيب .

(٤) انظر في بديع الزمان وترجمته وأخباره البيهية

٢٥٦/٤ ومعجم الأدباء ١٦١/٢ ودمية القصر ٣٤٦/٢

وابن خلكان ١٢٧/١ ورسائله مطبوعة قديماً ببيروت

ومقاماته طبعت مرارا ، وديوانه مطبوع بمصر قديماً

وانظر فيه كتابنا « الفن ومذاهبه في النثر العربي » ص ٢٣٨

وأيضا كتابنا (المقامة) طبع دارالمعارف ص ١٣ وما بعدها

لَا تَلْمِئْنِي عَلَى رَكَائِكَ عَقْلِي أَنْ تَيَقِّنْتَ أَنِّي هَمْدَانِي

وكان محباً للرحلة ، فلم يكد يبلغ الثانية والعشرين من عمره ، حتى فارق موطنه إلى حضرة الصاحب بن عباد ، وكان - كما مر بنا في ترجمته - راعياً كبيراً من رعاة الأدب في عصره ، بل كان أكبر رعاته ، فانتجعه الشاب بديع الزمان سنة ٣٨٠ ومدهحه ببعض أشعاره ، وأعجب به الصاحب لبراعته الأدبية ، وأحضره مجالسه ، ويقال إنه كان يُلقى عليه بعض الأبيات الفارسية ويطلب إليه نقلها إلى العربية ، فينقلها في سرعة عجيبة . ويرحل عن حضرة الصاحب مولياً وجهه شطراً جرجان ، وينزل بأسرة معروفة بالثراء وتشجيع العلماء والأدباء ، وهي أسرة الإسماعيلية ، ويرعاه منها خاصة أبو سعيد ابن منصور الإسماعيلي ، وظن بعض المعاصرين أنها كانت تعتنق المذهب الإسماعيلي الشيعي ، وهو اتفاق في الاسم جرّ إلى هذا الخطأ^(١) . ويؤكد ذلك أن ياقوت في ترجمته له يقول : « إنه كان شديد التعصب لأهل الحديث والسنة » فلم يكن إسماعيلياً ، ولا كان أيضاً إمامياً شيعياً ، بل كان سنّياً أشعرياً .

ولا يمتكث في جرجان طويلاً ، بل يتركها إلى نيسابور موطن أهل السنة عام ٣٨٢ وهناك يصطدم بأبي بكر الخوارزمي ، وهو اصطدام طبيعي ، فقد كان الخوارزمي شيعياً إمامياً ، وكان يدعو لبني بويه الشيعة الإماميين في نيسابور معقل الدولة السامانية السنية ، فانتهر الأدباء فيها فرصة نزول بديع الزمان ببلدتهم ، وعقدوا مناظرة بينه وبين الخوارزمي انتصروا فيها للبديع ، فعلا صيته ، وتألّق نجمه ، إذ كان الخوارزمي يُعدّ في الذروة من الكتاب والشعراء لعصره . وتصادف أن توفي سريعاً ، فخلا الجو للبديع ، وطارت شهرته ، ورعاه حينئذ بنوميكال أعيان نيسابور وأدباؤها النابون . وسرعان ما فارقتها سنة ٣٨٣ راحلاً من بلد إلى بلد في خراسان بينا الجوائز والمكافآت تُغدق عليه ، حتى إذا بدأت المعارك بين الغزنويين والسامانيين ولّى وجهه نحو سيجستان وأميرها خلف بن أحمد (٣٤٤ - ٣٩٩ هـ) . وكان أديباً فأعجب بديع الزمان ، ويقول البخارزي إنه وصله بألف دينار . وذكر ذلك في إحدى رسائله . وله فيه خمس مقامات أنشأها في مديحه وقصائده ورسائل مختلفة .

ويترك سيجستان إلى هرة بأفغانستان ، ممثياً نفسه أن يصبح من حاشية محمود الغزنوي ويلقاه ، وقد أنشدنا له قصيدة في مديحه على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع ،

(١) راجع كتاب بديع الزمان الهمداني لمارون عبود وعروبه دون دليل .

(طبع دار المعارف) ص ١٦ وهو يشك في اسمه واسم أبيه

ويُضهر إلى سَرِيٍّ من سَرَاة هَرَاة يَسْمَى الحُشْنَامِي ، وينجب أولاداً ، ويقتنى عَقَاراً وضياعاً . ويكتب إلى أبيه رسالة يستدعيه فيها هو وإخوته وعمه مما يدل على ما صار إليه من ثراء . ويبدو أنه غدت له مكانة كبيرة ، فكان الكبراء يقصدونه لطلب شفاعته عند أولى الأمر ، يقول في بعض رسائله : « وهؤلاء الصدور ، يرون أن الشمس من قبلي تدور » غير أنه لم يلبث أن توفي وهو لا يزال في الأربعين من عمره سنة ٣٩٨ للهجرة . وللبديع رسائل كثيرة ، وهي رسائل إخوانية تتناول المديح والاستعطاف والشكر والاعتذار والعزاء والاستمناح وطلب الشراب والهجاء والتقريع ، ومنها ما هو موجه إلى الأمراء أو الوزراء أو كبار الموظفين أو شيوخه أو إلى نظرائه من الأدباء أو إلى أهله أو إلى ذوى الوجاهة واليسار . وله من كتاب إلى الأمير أبي نصر الميكالي النيسابوري :

« كتابي - أطال الله بقاء الأمير - وبودّي أن أكونه ، فأُسعد به دونه ، ولكن الحريص محروم لو بلغ الرزق فاه . لولاه قفاه ، وبعد فإني في مفاتحته بين ثقة تُعد ، ويد ترتعد ، ولم لا يكون ذلك والبحر وإن لم أره ، فقد سمعت خبره ؟ ومن رأى من السيف أثره ؛ فقد رأى أكثره ، وإذ لم ألقه ، فلم أجهل إلا خلقه ، وما وراء ذلك من تالد أصلٍ ونَسَبٍ ، وطارف فضل وأدبٍ ، فعلومٌ تشيد به الدفاتر ، والخبر المتواتر ، وتنطق به الأشعار ، كما تختلف عليه الآثار ، والعين أقل الحواس إدراكاً ، والآذان أكثرها استمساكاً » .

وفي هذه الرسالة القصيرة ما يوضح بعض خصائص سجعته ، وأنه يُعنى فيه بتقصير العبارات ، وتواتيه في ذلك ملكة فياضة ، فلا يكاد يمسك بالقلم ويكتب ، حتى تنثال عليه العبارات ، وحتى يخيل إلى الإنسان كأن سيلاً متصلاً من الكلام يجري ولا ينقطع إلا أن يتوقف البديع عامداً لينهى الكلام . وتأمّل في سجع هذه الرسالة فستجده موشى بالجناس الناقص في مثل : « تُعد وترتعد » و « أره وخبره » و « أثره وأكثره » و « ألقه وخلقه » . وهو دائماً يغمس رسائله في الجناس غمساً ، تارة يأتي به كاملاً ، وتارة يأتي به ناقصاً ، وهو الأغلب الأكثر ، كقوله في الأمير خلف بن أحمد في إحدى رسائله : « لو أن البحر عدده ، والسحاب يده ، والجبال ذهبه ، لقصرت عما يهبه . بينما المرء في سِنَّة من نومه ، وقصاره قوتُ يومه ، إذ يُقرعُ الباب عليه قرعاً حَفِيّاً ، ويُسأل به سؤالاً حَفِيّاً ، ويُعطى ألفاً خَفِيّاً » . والجناس الناقص واضح في هذه العبارات المتعاقبة ، وهو يشفعه بكثير من التشبيهات والاستعارات ، ضامماً دائماً النظر في الألفاظ إلى نظيره ، وهو ما يسميه البلاغيون بمراعاة النظر كقوله من فصل في إحدى رسائله :

« أراني أذكر الشيخ كلما طلعت الشمس أوهبت الريح أو نجم النجم أولع البرق

أوعرض الغيث أوضحك الروض . إن للشمس محيَّاه ، وللريح ريَّاه ، وللنجم حِلَّاه
وعُلَّاه ، وللبرق سناؤه وسناه ، وللغيث يداه ونَداه ، وللروض سجاياه .

وواضح أنه لما ذكر عنصراً من الطبيعة وهو الشمس أرفده بالريح والنجم والبرق
والغيث والروض . والجناسات كثيرة في القطعة . ويجانب ذلك نراه يكثر من الاقتباس من
القرآن ، كما يكثر من نسج الأبيات والشطور في تضاعيف رسائله . ونراه ينجح كثيراً إلى
سرِّد بعض القصص والحكايات القصيرة ضرباً للأمثال كقوله من رسالة :

« فيما يقول الناس من حكاياتهم أن أعرابياً نام ليلاً عن جملة ففقدته ، فلما طلع القمر
وجده ، فرفع إلى الله يده ، فقال : أشهد لقد أعليته ، وجعلت السماء بيته . ثم نظر إلى
القمر فقال : إن الله صَوَّرَكَ ونَوَّرَكَ ، وعلى البروج دَوَّرَكَ . . . ولئن أهديت إلى قلبي
سروراً ، لقد أهدى إليك نوراً . والشيخ ذلك القمر المنير لقد أعلى الله قدره ، وأنفذ بين
الجلود واللحوم أمره ، ونظر إليه وإلى الذين يحسدونه ، فجعله فوقهم وجعلهم دونه .
ويضرب مثلاً لمن يذهب في البحث بعيداً عن أمنيته ، وهي مدُّ يده ، بالبخارى الذي
ضاع حماره فذهب يبحث عنه في البلاد النائية ، بينما هو في مَرَبَضِهِ ، يقول :

« لم يكن مثلي معه إلا مثل البخارى الذى ضاع حماره وخرج في طلبه ، حتى عبر نهر
جَيِّحُونَ بسببه ، يطلبه في كل مَثَلَةٍ ، وينشده في كل مرحلة ، وهو لا يجده حتى جاوز
خُرَّاسَانَ ، وانتهى إلى طبرستان ، وأتى العراق ، وطاف الأسواق ، فلما لم يجده وأيس عاد
وقد طالت أسفاره ، ولم يحصل حماره ، حتى إذا وصل إلى بلده ، بين أهله وولده ، أحب
الله أن يلطف به لطفاً ليعتبر به ، فنظر ذات يوم إلى إصطبله ، فإذا الحمار بسرجه
ولجامه ، وحزامه ، قائماً على المَعْلَف ينش » .

ورسائل البديع خفيفة ورشيقة ، بل لعلها أخف وأرشق رسائل وصلتنا عن عصره
وبعد عصره . وجعلته موهبته القصصية التي رأيناها في رسائله يتدع فتناً جديداً ، هو فن
المقامة ، وهي حكاية قصيرة تقوم على الحوار بين بطل مقاماته : أبى الفتح الإسكندري
ورواية حكاياته وأقاصيصه عيسى بن هشام . والمعروف أنه أُملى أربعين مقامة في أثناء
مقامه بنيسابور ، وأضاف إليها خمساً ، كما أسلفنا ، عند نزوله بخلف بن أحمد أمير
سجستان ، ثم أضاف إليها ستاً أخرى . والمظنون أنه عرض بنيسابور على طلابه أولاً
أحاديث ابن دُرَيْد الأربعة التي احتفظ بها كتاب الأُمالي لأبى على القالى ، وهي
حكايات قصيرة مليئة بالسجع والغريب ، وبعد أن أنهاها رأى أن يعرض على طلابه ثانياً
أربعين مقامة له . ومعنى كلمة مقامة حديث . ولم يجعل مقاماته حكايات متنوعة

الموضوعات ، بل جعلها تدور على موضوع واحد ، هو الكُذبة أو الشحاذة الأدبية ، وكأنه استلهم فيها حديث الجاحظ عن المُكذِّين في أوائل كتابه «البخلاء» وكذلك حديث البيهقي عنهم في كتابه «الحاسن والمساوي» ويعرض الجاحظ والبيهقي لأساليبهم وحيلهم في استخلاص الطعام والدراهم والدنانير من الناس . وكان هؤلاء الأدباء الشحاذون قد لمعت أسمائهم في عصر بديع الزمان ، ومرَّ بنا حديث مفصل عنهم وعن شعرائهم في هذا القسم الخاص بإيران وأيضاً في القسم الخاص بالعراق . وكل ذلك ألهم بديع الزمان صنع مقاماته ، ونراه في أولاهها يتمثل بأبيات كبير المُكذِّين أوى دلف الخزرجي ، وقد أنشدناها في حديثنا السابق عنه ، إذ يقول :

وَيَحْكُ هذا الزمانُ زورُ فلا يغرُنكَ الغرورُ

ويسمى إحدى مقاماته المقامة الساسانية نسبة إلى هذه الطائفة من المكذِّين أو الأدباء الشحاذين ، إذ كانوا يسمون بالساسانيين نسبة إلى ساسان ، وهو - كما أسلفنا - أمير فارسي هجر إمارته وهام على وجهه محترفاً للكُذبة .

وتنقل بديع الزمان بأبي الفتح الإسكندري بطل مقاماته في بلدان مختلفة مما دفعه إلى أن يسمى أكثر المقامات بأسماء البلدان التي ألمَّ بها وأكثرها بلدان فارسية . وفي أحوال قليلة تسمى باسم الحيوان الذي وصفه فيها مثل المقامة الأسدية نسبة إلى الأسد ، أو باسم الأكلة التي طعمها أبو الفتح مثل المقامة المَضِيرية نسبة إلى طعام المَضيرة ، وهي لحم يطبخ باللبن المضير أى الحامض . وقد تسمى باسم موضوعها مثل الوعظية نسبة إلى الوعظ والإبليسية نسبة إلى إبليس والقريضية نسبة إلى ما فيها من أحكام أدبية على الشعر والشعراء . وسمى مقامة باسم المقامة الجاحظية نسبة إلى الجاحظ ، وهو يقول عنه إنه قليل الاستعارات وينفر من الغريب والكلام المصنوع ، ولعله يقصد الكلام المسجوع المليء بالجناس وما إليه من الحسنات البديعية . وتخلو المقامات الخمس المتصلة بخلف بن أحمد من الكُذبة ، إذ هي مديح خالص له . أما بقية المقامات فكما قدمنا تدور على الكذبة أو الشحاذة الأدبية عن طريق التفاسيح البياني وما ينصبه أبو الفتح من حيل وشباك لسلب أموال الناس . وفي تضاعيف ذلك يعرض البديع مجتمعه بكل ما فيه من مساجد وحمامات ومارستانات وحوانيت ومطاعم وحانات وموائد وما يتصل بها من الأواني في بيوت الأغنياء والفقراء . ويعرض في المقامة النيسابورية صورة لفساد القضاة والقضاء في بعض البلدان . وقد حمل في المقامة المارستانية حملة عنيفة على المعتزلة ، لأنه كما قدمنا كان أشعرياً ، وكانت

الخصومة مستعرة في زمنه بين الأشعرية والمعتزلة . ونحن نسوق له إحدى مقاماته ، ولتكن
المقامة البصرية نسبة إلى البصرة في العراق ، وهي تجرى على هذا النمط :

« حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ : دَخَلْتُ الْبَصْرَةَ وَأَنَا مِنْ سِنِّي فِي فِتَاءٍ (شباب) وَمِنْ
الرَّزَى فِي حَيْرٍ وَوِشَاءٍ (ثوب مطرز) وَمِنْ الْغِنَى فِي بَقَرٍ وَشَاءٍ (غنم) فَأَتَيْتُ الْمَرْبَدَ (سوق
البصرة) فِي رَفَقَةٍ تَأْخُذُهُمُ الْعْيُونَ وَمَشِينَا غَيْرَ بَعِيدٍ إِلَى بَعْضِ تِلْكَ الْمَتَرَّهَاتِ ، فِي تِلْكَ
الْمَتَوَجَّهَاتِ ، وَمَلَكَتْنَا أَرْضٌ فَحَلَّلْنَاهَا ، وَعَمَدْنَا لِقَدَاحِ اللَّهِو فَاَجَلْنَاهَا ، مَطْرَحِينَ لِلْحَشْمَةِ
إِذْ لَمْ يَكُنْ فِينَا ، إِلَّا مِنَّا ، فَمَا كَانَ بِأَسْرَعَ مِنْ ارْتِدَادِ الطَّرْفِ ، جَتَّى عَنْ (ظهر) لَنَا سَوَادُ
(رجل) تَخْفُضُهُ وَهَادُ ، وَتَرْفَعُهُ نِجَادُ (مرتفعات) وَعَلِمْنَا أَنَّهُ يَهْمُ بِنَا ، فَأَتَلَعْنَا (مددنا
أعناقنا) لَهُ حَتَّى أَذَاهُ إِلَيْنَا سِيرَهُ وَلَقِينَا بِتَحِيَّةِ الْإِسْلَامِ ، وَرَدَدْنَا عَلَيْهِ مَقْتَضَى السَّلَامِ ، ثُمَّ
أَجَالَ طَرْفَهُ فِينَا وَقَالَ : يَا قَوْمَ مَا مِنْكُمْ إِلَّا مَنْ يَلْحَظُنِي شَرْراً (بمؤخر عينه) وَيُوسَعُنِي حَزْراً
(تخميناً) وَمَا يَنْبَثِكُمْ عَنِّي ، أَصْدَقُ مِنِّي . أَنَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ ، مِنْ الثُّغُورِ
الْأُمُويَّةِ ، قَدْ وَطَّأَ (مهد) لِي الْفَضْلُ كَنَفَهُ ، وَرَحَّبَ لِي عَيْشَ ، وَنَمَانِي بَيْتَ ثُمَّ جَعَجَعَ لِي
(أهانني) الدَّهْرُ ، وَأَتْلَانِي (أتبعني) زَغَالِيلُ حُمْرِ الْحَوَاصِلِ . . . وَنَشَرْتُ عَلَيْنَا الْبَيْضَ
(الدراهم) وَشَمَسَتْ (نفرت) مِنَّا الصُّفْرُ (الدنانير) وَأَكَلْتَنَا السُّودَ (الليالي) وَحَطَّمْتَنَا
الْحُمْرُ (السنوات المجدبة) . . وَهَذِهِ الْبَصْرَةُ مَاؤُهَا هَضُومٌ (مَهْضُمٌ) وَفَقِيرُهَا مَهْضُومٌ :

فكيف بمن :

يَطُوفُ مَا يَطُوفُ ثُمَّ يَاوَى إِلَى زُغْبٍ مُحَدَّدَةِ الْعْيُونِ ^(١)
كَسَاهُنَّ الْبِلَى شَعْنًا فُتْمَسَى جِيَاعَ النَّابِ ضَامِرَةِ الْبَطُونِ ^(٢)
وَلَقَدْ أَصْبَحَ الْيَوْمَ وَسْرَحَنَ (أَجَلَنَ) الطَّرْفُ فِي حَيِّ كَمَيْتٍ (يقصد نفسه) وَبَيْتِ
كَلَا بَيْتٍ ، وَقَلْبِنِ الْأَكْفَى عَلَى لَيْتٍ ، فَفَضَضَنَ عُقْدَ الضُّلُوعِ ، وَأَفَضَّ مَاءَ الدَّمُوعِ ،
وَتَدَاعَيْنِ بِاسْمِ الْجُوعِ :

وَالْفَقْرُ فِي زَمَنِ اللَّثَا مَ لِكُلِّ ذِي كَرَمٍ عَلَامَةٌ
رَغِبَ الْكَرَامُ إِلَى اللَّثَا مَ وَتِلْكَ أَشْرَاطُ الْقِيَامَةِ ^(٣)

وَلَقَدْ اخْتَرَكُمُ يَا سَادَةَ ، وَدَلَّتْنِي عَلَيْكُمُ السَّعَادَةُ ، وَقُلْتُ : قَسَمًا ، إِنْ فِيهِمْ لَدَسًا ،
فَهَلْ مِنْ فِتَى يُعَشِّينَ ، أَوْ يُعَشِّينَ (يكسوهن) وَهَلْ مِنْ حُرٍّ يُعَدِّينَ أَوْ يُرَدِّينَ (يلبسهن)

(١) زغب : من الزغب : صغار الريش والشعر (٢) شعنا : مغبرة ، كتابة عن أن أحدا لا يرعاهم .
(٣) أشراط : علامات .

ثياباً). قال عيسى بن هشام : فوالله ما استأذن على حجاب سمعى كلامٌ رائع أبرع ؛ وأرفع ، وأبدع ، مما سمعت منه . لا جرم أنا استمحننا الأوساط (يريد الأحرمة وما فيها من نقد) ونفصنا الأكمام ، ونحنينا الجيوب ونلته (أعطيته) أنا مطرفي (ثوبى) وأخذت الجماعة إخذى ، وقلنا له : الحق بأطفالك ، فأعرض عنا بعد شكر وفاءه ، ونشر (ثناء) ملا به فاه .
وواضح ما يمتاز به البديع فى مقاماته من خفة روح وميل إلى الدعابة ، حتى يدخل السرور على سامعيه وترسم البسمات على شفاههم . ويكثر من إنشاد الشعر فى المقامات ، ومن حلّ بعض الأبيات المشهورة ، على نحو ما صنع بقوله : « وأتالنى زغاليل حمر الحواصل » يريد أولاده وأنهم مثل زغاليل قرية عهد بالولادة ، فحواصلها لا تزال حمراء خالية من الريش ، والصورة استعارها من الخطيئة حين حبسه عمر بن الخطاب ، فتوجه إليه يستعطفه لأولاده قائلاً :

ماذا تقول لأفراخٍ بذى مرخ زُغبِ الحواصل لا ماء ولا شجر^(١)

وكانت للبديع موهبة قصصية رائعة ، غير أنه لم يستغلها فى مقاماته بالمقدار الذى كان يُظنّ ، إذ لم يضع فى ذهنه صنع قصص وحكايات ، إنما الذى وضعه وجعله نصب عينيه أن يتخذ من حوار المقامة القصير بين عيسى بن هشام وأبى الفتح وسيلة لحشد عبارات مسجوعة طريفة تحتفظها الناشئة . وجاراه الحريرى وغيره فى صنع هذه الأقاصيص القصيرة البلاغية ، وعدوها أروع صور النثر وأبلغه ، غير حافلين بعمل قصص طويلة أوحى حتى قصص قصيرة متنوعة . وبدأ البديع فوضع هذه الأقاصيص القصيرة أو هذه المقامات فى إطار السجع ، وتبعه خالفوه . وهو يضيف إلى السجع - كما رأينا فى رسائله - ألوان البديع من الأخیلة والتصاویر ومن الجناس ومراعاة النظير ، وألماه الحوار القصصى عن المبالغة فى ذلك . ولا ريب فى أن سجعه فى مقاماته - كرسائله - سجع رشيق ، لما يمتاز به من قصر ومن حسن انتخاب لألفاظه . وقد يتخلل بعض مقاماته بالشعر ، كما قد يحشد فيها ببعض ألفاظ غريبة ، على نحو ما نقرأ فى المقامات : الحمدانية والموصلية والقردية . وربما دفعه إلى ذلك مقصد تعليمى ، وهو مقصد تأثر فيه بأحاديث ابن دريد المفرطة فى الغرابة . غير أن ذلك إنما يأتى فى المقامات التى سميها وفى الحين البعيد بعد الحين ، بحيث لا تُعدُّ عيباً فى أساليبه التى تطبعها - كما قلنا - الرشاقة ، وأيضاً الخفة والعذوبة وروح الفكاهة المرحية المحببة لكل إنسان .

وحرى بنا أن نشير إلى ما ذكرناه في كتابنا المقامة من أن المقامة الإبلسية لبديع الزمان هي التي أوحى لابن شهيد الأندلسي وأبي العلاء المعري رحلتها فيما وراء الطبيعة ، فإن بديع الزمان تصور في مقامته عيسى بن هشام يلتقي بإبليس في واد من وديان الجن ، إذ ضلّت منه إبل فخرج يطلبها ، حتى نزل في واد حافل بالأشجار والأنهار ، وبينما هو ينظر من حواليه إذ رأى شيخاً جالساً فسلم عليه وردّ السلام ، وسأله ابن هشام هل تروى من أشعار العرب شيئاً ؟ قال نعم وأنشده بعض أشعارهم ، وعرض عليه أن ينشده من شعره وهشّ له ابن هشام ، فأنشده قصيدة لجريز ، وعجب ابن هشام من انتحاله لها ، ويدور بينهما حوار يقول له فيه إبليس « ما أحدٌ من الشعراء إلا ومعه معين منا ، وأنا أملت على جريز هذه القصيدة ، وأنا الشيخ أبو مروة ». ويغيب عنه ، ويخدع عيسى بن هشام نفسه وحيداً . وقد استوحى ابن شهيد هذه المقامة في رسالته « التوايع والزوايع » أي الجن والشياطين ، وهو فيها يلقّي شياطين الشعراء في وادي الجن ، وكلما لقي شيطاناً لشاعر أنشده من شعر صاحبه ، ثم أنشده من شعره ، فيبدى إعجابه به ويحيزه اعترافاً بروعة شعره ، ولقى شياطين الكتاب كما لقي شياطين الشعراء ، وعرض عليهم بعض رسائله ، ولقى شيطان بديع الزمان الذي سمّاه « زبدة الحقب » ، ويحاول أن يعرض عليه بعض عباراته النثرية التي يحاكيه فيها ، ويعترف له زبدة الحقب بحسن بلاغته ، ويحيزه على إبداعه . والصلة قوية بين هذا العمل لابن شهيد وبين المقامة الإبلسية ، فهما جميعاً يتخذان لقاء شياطين الشعراء في وادي الجن موضوعاً لهما ، ويلقّي ابن شهيد شيطان بديع الزمان مما يؤكد صلته بآثاره ، وأنه يعارض مقامته الإبلسية بتوابعه وزوابعه . وتجادل الباحثون طويلاً هل ابن شهيد هو الذي ألهم أبا العلاء رسالة الغفران وما صوّر فيها من رحلة وراء الطبيعة يوم البعث وعلى الصراط وفي الجنة ، أو أن أبا العلاء هو الذي ألهم ابن شهيد رحلته وراء الطبيعة في وادي الجن ؟ . ولعل فيما ذكرناه ما يبطل هذا النزاع والجدال ، فإن بديع الزمان هو الذي استغلّ لأول مرة الحديث عن وديان الجن وشياطين الشعراء في مقامته الإبلسية ، ثم جاء بعده ابن شهيد وأبو العلاء المعري في القرن الخامس الهجري ، فألف كل منهما رحلة فيما وراء الطبيعة ، ويتضح أثر البديع بقوة في ابن شهيد لأنه التقى مباشرة مع البديع في وادي الجن ، أما أبو العلاء فاستقل برحلته عن هذا الوادي ، واتخذ لها مضموناً أشمل وأبعد وأوسع .

خاتمة

١

تحدثنا عن الجزيرة العربية في القسم الأول من هذا الجزء الخاص بتاريخ الأدب العربي فيها وفي العراق وإيران في عصر الدول والإمارات الممتد من سنة ٣٣٤ للهجرة إلى العصر الحديث ، وبدأنا حديثنا عن الجزيرة العربية بعرض التاريخ السياسي لأقاليمها حينئذ ، وهي الحجاز ونجد واليمن وحَضْرَمَوْت وظَفَّار وعُمان والبحرين ، وفصلنا القول في إمارتي مكة والمدينة وما كان من دخول الحجاز في حكم الدولة العثمانية . وصورنا تحركات القبائل في نجد وتكوينها لإمارات متعددة في شرق الجزيرة وظهور آل فضل وآل مِرا في بوادي الشام ثم ظهور آل سعود في نجد . وعرضنا دول اليمن المتعاصرة في زَيد وصَنعاء وصَعْدَة وعدن ودخولها في حكم الأيوبيين ثم الرسولين فالطاهريين ، فغلبة الدولة الزيدية عليها . وتتداول الدول اليمنية حَضْرَمَوْت ، وكذلك ظفار إلى أن تبعث عُمان نهائيا . وكان الخوارج في عُمان يتخذون « نَزْوَى » في الداخل حاضرة لهم بينما استقلت عنهم عُمان والثغور على الخليج العربي قرونا متطاولة حتى غلبوا عليها في القرن العاشر الهجري . وسيطر القرامطة على البحرين في أوائل العصر ، وخلفتهم عليها دول متعاقبة أهمها الدولتان العبّونية ودولة بني عصفور ، واستقلت عن البحرين قطر وجزيرة أوال (البحرين الحالية) وضمت الدولة السعودية إليها الأحساء والقُطيف منذ أكثر من قرن .

وكان مجتمع الجزيرة طوال العصر يتألف من بدو وحضر ، وظلت نجد بدوية إلا قليلا في بعض القرى وبعض العواصم التي اتخذتها إماراتهم . وكان ينزل اليمن أحباش كثيرون ، بينما نزل في مدن الخليج وثغوره كثير من أهل إيران والهند وسواحل إفريقيا . وعرفت اليمن وعُمان والبحرين الزراعة واعتمدت عليها مما أهلّ لشيء بها من الحضارة ، واشتهرت اليمن بكثرة الجوارى والغناء . وعرفت الجزيرة بجانب المذاهب السنية الأربعة المشهورة : مذهب أبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل مذاهب الشيعة : الزيدية والإسماعيلية والإمامية والكيسانية وكانت « نَزْوَى » بعان مركزا للخوارج الإباضية من قديم ومنها شاع مذهبهم في حَضْرَمَوْت . وما يتتصف القرن الثاني عشر الهجري حتى يعتنق محمد بن سعود أمير الدَّرعية

الدعوة الوهابية السلفية ويضع يده في يد محمد ابن عبد الوهاب لنشرها في الجزيرة ، وهي نداء يدعو إلى اتباع الحنابلة من أهل السنة . ويلقانا كثير من كبار المتصوفة في مكة واليمن وحضرموت ، وكان النساك متشردين في كل مكان .

وكان يجري في كل بلاد الجزيرة جدول كبير من جداول الثقافة العربية بجميع علومها وفنونها ، حتى في قرى نجد وقد تحولت - منذ ظهور محمد بن عبد الوهاب - إلى دار كبيرة لدراسة كتبه وكتب إماميه : أحمد بن حنبل وابن تيمية . وكانت مكة والمدينة أشبه بجامعتين كبيرتين ، بما كان فيهما من العلماء والأدباء ، وبما كان يفد عليهما سنويا من أدباء العالم العربي وعلمائه ، وخاصة من كان يقيم بهما منهم مجاوراً سنوات طويلاً . وكانت الحركة العلمية والأدبية ناشطة طوال العصر في اليمن وحضرموت وعمان والبحرين ، ونشط معها البحث في علوم الأوائل وعلم الملاحة البحرية خاصة على نحو ما هو معروف عن ابن ماجد العماني . وفي كل أقاليم الجزيرة ومدنها نشطت علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد ، وكثر تأليف المعاجم والكتب والدراسات البلاغية والنقدية ، وبالمثل نشطت علوم الفقه والحديث والتفسير والقراءات وعلم الكلام وكثر العلماء في كل الأقاليم ، وكثراً أنتجوه من الكتب والمصنفات .

وكان الشعر يجري على كل لسان في أقاليم الجزيرة ، وأخذت العامة تراحم الفصحى في نجد واليمن وحضرموت وعمان والبحرين منذ القرن السادس الهجري ، ومع مرور الزمن شاع معها شعر حميني في اليمن وحضرموت وشعر نبطي في بقية الأقاليم ، غير أن سيل الشعر الفصيح ظل قويا فيها جميعا ، وقد ترجم الباخري لمجموعة كبيرة من شعراء نجد والحجاز واليمن في القرن الخامس الهجري وترجم العباد الأصهباني لطائفة من شعراء بني عَظِيل في الموصل وشعراء بني مَزِيد في الحِلَّة وأيضاً لطائفة من شعراء الحجاز واليمن في القرن السادس . وتلقانا بعده في كتب مختلفة تراجم لشعر الجزيرة في حقب العصر التالية ، غير ما طُبِع ونشر من دواوين النابيين من الشعراء . ويكثر شعراء المديح وفي مقدمتهم القاسم بن هُتَيْمِلَ البُني وأحمد بن سعيد الخُروصِي السَّتَالِي العُمَانِي وعلي بن مَقْرَب العُيُونِي البَحْرَانِي وعبد الصمد بن عبد الله باكثير الحَضْرَمِي ، كما يكثر شعراء المراثي من أمثال التهامي المكي وجعفر الخطي البَحْرَانِي ، وشعراء الفخر والهجاء من أمثال نشوان بن سعيد الحميري البُني وسليمان النهباني العُمَانِي .

وتتكاثر في الجزيرة طوائف الشعراء ، ونلتقي منهم بشعراء الدعوة الإسماعيلية وفي طليعتهم ابن القمّ والسلطان الخطّاب وعُمرَة البُني ، وبشعراء الدعوة الزيدية من أمثال يحيى

ابن يوسف النشو بمكة وموسى بن يحيى بهران وعلى بن محمد العنسى فى اليمن ، وبشعراء
 الخوارج من أمثال أبى إسحق الحضرمى الإباضى وابن الهيثمى اليمنى . وملتقى بشعراء الدعوة
 الوهابية السلفية ، وفى مقدمتهم محمد بن إسماعيل الحسنى الصنعائى اليمنى وابن مشرف
 الأحسائى ، وبشعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية من أمثال عبد الرحيم البرعى اليمنى
 وعبد الرحمن العيدروس الحضرمى . وجميعهم رُسمت شخصياتهم واتجاهاتهم الشعرية .
 ولم تكن نجد تعنى بالكتابة قبل ظهور محمد بن عبد الوهاب ، أما بعد ظهوره فقد
 أخذت الكتابة تنمو مع الدعوة نموا واسعا . وكان فى مكة والمدينة كتاب إنشاء من قديم ،
 وكثرت بهما الإجازات العلمية وتقاريط الكتب . وكانت الكتابة مزدهرة فى اليمن طوال
 العصر ، وظلت ناشطة فى حضرموت وعمان والبحرين . وتحفظ الكتب برسائل متبادلة بين
 أمراء مكة وسلاطين مصر المماليك . وكانت الرسائل الديوانية ناشطة فى اليمن منذ زمن الدولة
 الصليحية فى القرن الخامس . وتحفظ الكتب التاريخية ببعض رسائل متبادلة بين الدولة
 الرسولية وسلاطين المماليك فى مصر ، وكذلك برسائل متبادلة بين الأئمة الزيديين المتأخرين
 وبين أئمة الخوارج فى عمان ، وبالمثل بين الأئمة الأخيرين وعمالهم . وتكثر الرسائل الشخصية
 ويتحول بعضها إلى رسائل أدبية جيدة . ويكثر الوعظ . وتلقانا محاورات ورسائل فكاهية
 ومقامات أدبية متنوعة .

٢

وفى القسم الثانى من هذا الجزء تحدثنا عن العراق ، وبدأنا حديثنا عنه بتاريخه السياسى
 وبيان الدول التى تعاقبت على حكمه ، وهى الدولة البويهية ، ويليها الدولة السلجوقية ،
 ويسترد الخلفاء منها فى منتصف القرن السادس الهجرى صولجان الحكم ، ويقضى التتار
 بقيادة هولاكو على حكمهم وخلافتهم فى منتصف القرن السابع . وتتعاقب على العراق
 وبغداد دولتان تتاريتان : دولة الإيلخانيين ودولة التيموريين ثم دولة التركمان ، وبطل
 العراق فى قبضتها إلى أن استولت عليه الدولة الصفوية الإيرانية ، وسرعان ما استخلصته
 منها الدولة العثمانية . وكان المجتمع فى بغداد يتألف من ثلاث طبقات : طبقة أرستقراطية
 مترفة . وطبقة وسطى تحظى بشيء من سعة العيش ، وطبقة دنيا هى طبقة العامة ، وكانت
 تتجرع الضنك والبؤس ، فتحول كثيرون منها إلى عيارين ولصوص ينهبون بغداد من سنة
 إلى أخرى مستشعرين - فيما يبدو - فكرة العدالة الاجتماعية . وشاع فى العراق المذهب
 الشيعى الإمامى الاثنا عشرى ، وكان بجواره مذهب شيعى مارق هو مذهب النصيرية ،

ومذهب شيعي معتدل هو مذهب الزيدية . وكانت موجة الزهد والتصوف حادة طوال العصر ، وترزخ كتب التراجم بأسماء الزهاد والمتصوفة وطرقهم وخاصة طريقتي الجيلاني والرفاعي وما شاع بعدهما من طريقتي النقشبندية والبكطاشية .

وظلت الحركة العلمية في بغداد ناشطة وكذلك الشأن في العراق عامة إذ عني بها البويهيون والسلاجقة ، وخاصة وزيرهم نظام الملك مؤسس جامعة النظامية ببغداد ، وتكاثر المدارس ، ويؤسس الخليفة المستنصر ببغداد جامعته المستنصرية . وكانت المساجد مدارس كبرى يستمع فيها الناس للعلماء في كل فن بحيث تصبح الثقافة غذاء شعبيا عاما ، مما أحدث رواجاً هائلاً في الوراقة ونشر الكتب على نحو ما يصور ذلك ابن النديم في كتابه « الفهرست » . وتظل هناك بقية لحركة الترجمة ، وتنشط الحركتان الفلسفية والعلمية حتى لتصبح الفلسفة وما يتصل بها من علوم الأوائل من مدارك العامة ، كما تدل على ذلك رسائل إخوان الصفا . وتكاثر الندوات الفكرية في بغداد ويتكاثر المتفلسفة ، وخاصة قبل الغزو التتاري ، وتظل منهم بقية في الحقب التالية . وتنشط في العصر الكتابات الفلسفية والطبية والعلمية والجغرافية ، كما تنشط البحوث اللغوية وشروح الشعر ، وتنفذ بغداد في النحو إلى مدرسة جديدة هي المدرسة البغدادية . ويتسع النشاط في الدراسات البلاغية وما يتصل بها من البديعيات ، وبالمثل في الدراسات النقدية وخاصة حول المتنبي وشعره . ويُعنى صني الدين الحلّي بدراسة الموشحات والأشكال الشعرية المستحدثة والشعر العامي . وتنشط بغداد والعراق في دراسات القراءات والتفسير والحديث النبوي والفقه وعلم الكلام ، كما تنشط الكتابة في التاريخ العام والخاص وفي تراجم العلماء من كل صنف . ويتكاثر الشعراء في العراق وتتوالى موجاتهم على نحو ما يلقانا في اليتيمة وتتمتها والدمية والخريدة وما تلاها من كتب التراجم ، وينظمون في الرباعيات والموشحات ، ويفسحون في أشعارهم لصور كثيرة من التعقيدات حتى في المحسنات البديعية . ويلقانا مع كل دولة بل في كل مكان شعراء المديح ومن أعلامهم الأفاضل المتنبي أكبر شعراء العصر ، وسبط ابن التعاويذي ، وصفي الدين الحلّي . ونلتقي بكثيرين من شعراء المراثي والهجاء والشكوى من أمثال السريّ الرّفاء ، وابن القطان . ويكثر شعراء الشيعة ، وفي مقدمتهم الشريف الرضي ، ومهيار ، وابن أبي الحديد .

ونلتقي بطوائف كثيرة من الشعراء ، وأول من نلتقي بهم شعراء الغزل ، وقد أذاعوا فيه حيناً وشوقاً وظماً للقاء محبوباتهم لا ينتهي ، مما أعدّ لظهور ضرب من الشعر الوجداني عند ابن المعلم والحاجري والتلعفري . ويتغنّى للطبقة المترفة شعراء اللهو والمجون من أمثال

ابن سُكَّرَة ، وابن الحجاج ، بينما يتغنى للشعب ومشاعره الدينية شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية من أمثال ابن السراج البغدادي ، والمرتضى الشَّهْرُزُورِي ، والصَّرَصَرِي .
ويلقانا أصحاب الشعر الفلسفي والتعليمي من أمثال ابن الشَّيْب البغدادي وابن الهَبَّارية ، كما يلقانا شعر شعبي عامي كثير وقفنا عند فنونه ، وأيضا شعراء شعبيون من أمثال أبي الأحنف العُكْبَرِي .

ويتنوع النثر في العصر ، فكان هناك النثر الفلسفي والنثر العلمي والمناظرات وخطابة الوعظ والقصص وكتب الأدب التهذيبي والرسائل الشخصية . وتكثر الكتابات الديوانية وملتقى بأبي إسحق الصائبي والعلاء بن الموصلي وضياء الدين بن الأثير . ويلقانا من أعلام النثر أبو حيان التوحيدى بأسلوبه المتموج بطرائف الفكر ، وابن مسكويه بنظرياته الأخلاقية الملتحم فيها الفكر الأجنبي بالفكر الإسلامي العربي مع حسن الأداء ، والحريري بمقاماته الرائعة التي خلبت ألباب معاصريه وخالفه حتى العصر الحديث .

٣

وفي القسم الثالث من هذا الجزء تحدثنا عن إيران ، وبدأنا حديثنا ببيان الدول المتعاقبة بها ، وهي الدولة السامانية ، والدولة البويهية ، والدولة الزيارية ، والدولة الغزنوية ، ثم تحدثنا عن الدول التي تعاقبت عليها منذ أواسط القرن الخامس الهجري ، وهي دولة السلاجقة ، والدولة الخوارزمية ، والدولة التتارية الإيلخانية ، والدولة التيمورية ، والدولة الصفوية ، وما تلاها من الدول . وكان مجتمع إيران يتكون من ثلاث طبقات : طبقة أرستقراطية مترفة ، وطبقة متوسطة تعيش في غير قليل من اليسار ، وطبقة دنيا هي طبقة العامة . ونشط الشيعة في نشر عقيدتهم ، وفي مقدمتهم الزيدية الذين أقاموا لهم في القرن الثالث دولة في طبرستان غير أنها لم تمكث طويلا . ومنذ قبض البويهيون على زمام الأمور بإيران نشط الإماميون في نشر عقيدتهم ، ومازالوا ناشطين حتى تولى الصفويون مقاليد الحكم في أواخر القرن التاسع الهجري فجعلوا المذهب الإمامي المذهب الرسمي لإيران . وكان نشاط الإسماعيليين كبيرا طوال القرنين الخامس والسادس الهجريين إلى أن قضى عليهم التتار نهائيا في منتصف القرن السابع الهجري . وكانت تعم في إيران موجة زهد وتصوف ، وحدث انفصام بين الصوفية والفقهاء ، وسرعان ما رآب الصدع أبو نصر السراج ، والقشيري ، والغزالي .

وظلت الحركة العلمية طوال العصر ناشطة ، وخاصة في القرون الأولى ، بفضل رعاية الحكام والأمراء لها ، فكانوا يبنون المدارس ويرصدون الرواتب للعلماء والطلاب ، وعُتوا بالمكتبات . وأقبل جميع أفراد الشعب على العلوم ، حتى النساء ، وأخذوا يقدرون كتباً لشرح المصطلحات في العلوم والفنون . ونشطت نشاطاً عظيماً دراسة الفلسفة وعلوم الأوائل ، ويكفي مثلاً لهذا النشاط جهود ابن سينا والبيروني ، مما أهل لنهضة العلوم الرياضية والفلكية والطبيعية والجغرافية . وتكاثر وضع المعاجم ، وازدهرت المباحث اللغوية والنحوية والبلاغية والنقدية . ونشط التأليف في التفسير كما نشط التأليف في الحديث النبوي ، وفي الفقه ، وفي علم الكلام وخاصة في المذهبين : الأشعري والماتريدي . وتنوعت الكتابة التاريخية بين كتب تناول التاريخ العام أو تاريخ بعض البلدان وكتب تناول التراجم : تراجم الشعراء والعلماء في كل فن .

ويزدهر الشعر العربي بإيران في القرون الرابع والخامس والسادس للهجرة ، بدليل المجلدات الضخمة التي شغلها في اليتيمة وتمتها وفي الدمية والخريدة . ومعروف أن أول كتاب صنف عن الشعر الفارسي وشعرائه كتاب عوفى في القرن السابع الهجري . ونفس الشعر الإيراني صيغ صياغة على أنماط الشعر العربي ، وتناول نفس موضوعاته ، وشاع فيه مثله زخرف البديع ومحسناته . وقد ظل الشعر العربي حياً في إيران حتى القرن التاسع على الأقل . ويتكاثر شعراء المديح وفي مقدمتهم علي بن عبد العزيز الجرجاني والطغرائي والأرجاني ، وبالمثل شعراء المراثي من أمثال أبي الحسن علي بن أحمد الجوهري الجرجاني ، وشعراء الفخر والهجاء والشكوى من أمثال أبي بكر الخوارزمي ، والأبيوردي .

وتلقانا بإيران طوائف كثيرة من الشعراء ، وأول من نلقاهم شعراء الغزل وفي مقدمتهم أبو الفرج بن هندو ، وأبو الفضل الميكالي . ويليهم شعراء اللهو والمجون من أمثال أبي بكر القهستاني ، وأبي الحسن الباخري ، وشعراء الزهد والتصوف من أمثال القشيري ، ويحيى السهروردي ، وشعراء الفلسفة والحكمة والأمثال وفي مقدمتهم أبو الفضل السكري المروزي ، وأبو الفتح البستي ، وشعراء شعبيون مختلفون من أمثال أبي دلف الخرجي .

وينشط النثر ، ويظهر فيه قصص صوفي كثير وقصص فلسفي بديع ، ويتكاثر كتاب الرسائل إذ تكثر الدول والإمارات ويصبح لكل إمارة ولكل دولة ديوان ، ويشتهر في كل دولة كاتب مجيد من أمثال قابوس بن وشمكير والعتيبي ورشيد الدين الطواط ، ومن أنه كتاب إيران في العصر على توالي حقبة ابن العميد الذي أرسى قواعد الكتابة على ركنين

أساسيين من السجع والمحسنات البديعية ، وأوفى الصاحب بن عباد بالكتابة بعده على الغاية التي كانت تنتظرها من التجويد والتنميق . وينشئ بديع الزمان الهمداني لأول مرة في تاريخ الأدب العربي مقاماته المشهورة . وهو بحق يُعدُّ أرفعَ كتاب إيران الذين ظهوروا في عصر الدول والإمارات غير منازع ولا مدافع .

فهرس الموضوعات

صفحة

٨ - ٥	مقدمة
٢٣٠ - ٩	القسم الأول : الجزيرة العربية
٥١ - ١١	الفصل الأول : السياسة والمجتمع
١١	١ - أقاليم ودول وإمارات : الحجاز ، نجد ، اليمن ، حضرموت و ظفار ، عمان ، البحرين
٣٤	٢ - المجتمع
٤٠	٣ - الشيعة
٤٤	٤ - الخوارج : الإباضية
٤٦	٥ - الدعوة الوهابية السلفية
٤٨	٦ - الزهد والتصوف
٨٧ - ٥٢	الفصل الثاني : الثقافة
٥٢	١ - الحركة العلمية
٥٧	٢ - علوم الأوائل ، علم الملاحة البحرية
٦٢	٣ - علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد
٧٢	٤ - علوم الفقه والحديث والتفسير والقراءات وعلم الكلام
٨٤	٥ - التاريخ
١٤٣ - ٨٨	الفصل الثالث : نشاط الشعر والشعراء
٨٨	١ - الشعر على كل لسان
٩٢	٢ - كثرة الشعراء
١١٠	٣ - شعراء المديح : القاسم بن هيثم ، أحمد بن سعيد الخروصي
١٢٦	٤ - شعراء المراثي : التهامي ، جعفر الخطي
١٣٥	٥ - شعراء الفخر والهجاء : نشوان بن سعيد الحميري ، سليمان النبهاني

صفحة

الفصل الرابع : ١٤٤ - ٢٠٠

١ - شعراء الدعوة الإسماعيلية :

١٤٤ ابن القمّ ، السلطان الخطّاب ، عمارة اليمنى

٢ - شعراء الدعوة الزيدية :

١٥٧ يحيى بن يوسف النّشو ، موسى بن يحيى بهران ، على بن محمد العنسى

١٧١ ٣ - شعراء الخوارج : أبو إسحق الحضرمى ، ابن الهيثمى

٤ - شعراء الدعوة الوهابية السلفية :

١٨٠ محمد بن إسماعيل الحسنى الصنعانى ، ابن مشرف الأحسانى

٥ - شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية :

١٨٧ عبد الرحيم البرعى ، عبد الرحمن العيدروس

الفصل الخامس : النثر وأنواعه ٢٠١ - ٢٣٠

٢٠١ ١ - تنوع الكتابة

٢٠٦ ٢ - رسائل ديوانية

٢١٤ ٣ - رسائل شخصية

٢٢١ ٤ - مواعظ وخطب دينية

٢٢٦ ٥ - محاورات ورسائل فكاهية ومقامات

القسم الثانى : العراق ٢٣١ - ٤٧٨

الفصل الأول : السياسة والمجتمع ٢٣٣ - ٢٧٥

٢٣٣ ١ - البويهون والسلاجقة والخلفاء العباسيون

٢٤١ ٢ - الدول : المغولية ، والتركمانية ، والصفوية ، والعثمانية

٢٥١ ٣ - المجتمع

٢٦٣ ٤ - التشيع

٢٦٩ ٥ - الزهد والتصوف

الفصل الثانى : الثقافة ٢٧٦ - ٣٢٢

٢٧٦ ١ - الحركة العلمية

٢٨٢ ٢ - علوم الأوائل : تفلسف ومشاركة

٢٩٢ ٣ - علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد

٣٠٥ ٤ - علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام

٣١٨	٥- التاريخ
٣٨١ - ٣٢٣	الفصل الثالث : نشاط الشعر والشعراء
٣٢٣	١- كثرة الشعراء
٣٢٦	٢- رباعيات وتعقيدات وموشحات
٣٣٦	٣- شعراء المديح : المتنبي ، سبط ابن التعاويذي ، صفي الدين الحلي
٣٥٩	٤- شعراء المراثي والهجاء والشكوى : السرى الرفاء ، ابن القطان البغدادي
٣٦٨	٥- شعراء التشيع : الشريف الرضي ، مهيار ، ابن أبي الحديد
٤٢٩ - ٣٨٢	الفصل الرابع : طوائف من الشعراء
٣٨٢	١- شعراء الغزل : ابن المعلم ، الحاجري ، التلعفري
٣٩٦	٢- شعراء اللهو والمجون : ابن سكرة ، ابن الحجاج
	٣- شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية : ابن السراج البغدادي ، المرتضى الشهرزوري ، الصرصري
٤١٦	٤- شعراء الفلسفة والشعر التعليمي : ابن الشبل البغدادي ، ابن الهبّاريّة
٤٢٣	٥- شعراء شعبيون : الأحنف العكبري
٤٧٨ - ٤٣٠	الفصل الخامس : النثر وكتّابه
٤٣٠	١- تنوع النثر
	٢- كتاب الرسائل الديوانية : أبو إسحاق الصائغ ، العلاء بن الموصلايا
٤٤٠	ضياء الدين بن الأثير
٤٥٣	٣- أبو حيان التوحيدى
٤٦٥	٤- ابن مسكويه
٤٧٢	٥- الحريري
٦٧٣ - ٤٧٩	القسم الثالث : إيران
٥٢٠ - ٤٨١	الفصل الأول : السياسة والمجتمع
	١- دول : متقابلة : الدولة السامانية ، الدولة البويهية ، الدولة الزيارية ، الدولة الغزنوية
٤٨١	٢- دول متعاقبة : دولة السلاجقة ، الدولة الخوارزمية ، الدولة المغولية
٤٩١	الإيلخانية ، الدولة المغولية التيمورية وماتلاها من الدول
٤٩٨	٣- المجتمع
٥٠٧	٤- التشيع

صفحة

٥ - الزهد والتصوف	٥١٤
الفصل الثاني : الثقافة	٥٢١ - ٥٦١
١ - الحركة العلمية	٥٢١
٢ - علوم الأوائل : تفلسف ومشاركة	٥٢٦
٣ - علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد	٥٣٤
٤ - علوم التفسير والحديث والفقه والكلام	٥٤٧
٥ - التاريخ	٥٥٧
الفصل الثالث : نشاط الشعر والشعراء	٥٦٢ - ٦٠٣
١ - الشعر العربي على كل لسان	٥٦٢
٢ - كثرة الشعراء	٥٦٨
٣ - شعراء المديح : علي بن عبد العزيز الجرجاني ، الطغراني ، الأرجاني	٥٧٥
٤ - شعراء المراثي : أبو الحسن علي بن أحمد الجوهرى الجرجاني	٥٨٩
٥ - شعراء الهجاء والفخر والشكوى : أبو بكر الخوارزمي ، الأبيوردى	٥٩٤
الفصل الرابع : طوائف من الشعراء	٦٠٤ - ٦٤٠
١ - شعراء الغزل : أبو الفرج بن هندو ، أبو الفضل الميكالى	٦٠٤
٢ - شعراء اللهو والمجون : أبو بكر القهستاني ، أبو الحسن الباخري	٦١٠
٣ - شعراء الزهد والتصوف ، عبد الكريم القشيري ، يحيى السهروردي	٦١٧
٤ - شعراء الحكمة والفلسفة : أبو الفضل السكري المروزي . أبو الفتح البستي	٦٢٧
٥ - شعراء شعبيون : أبو دلف الخزرجي : مسعر بن مهلهل	٦٣٥
الفصل الخامس : النثر وكتابه	٦٤١ - ٦٧٣
١ - تنوع الكتابة	٦٤١
٢ - كتاب الرسائل : قابوس بن وشمكير ، أبو النصر العتبي ، رشيد الدين الوطواط	٦٤٨
٣ - ابن العميد	٦٥٥
٤ - الصاحب بن عباد	٦٥٨
٥ - بديع الزمان ومقاماته	٦٦٦
خاتمة	٦٧٤ - ٦٨٠